سورة الإسراء

مكية، إلا الآيات: ٢٦ و٣٢ و٣٣ و٥٧ ومن آية ٧٣ إلى غاية آية ٨٠ فمدنية

وآياتها: ١١١ نزلت بعد القصص

عن ابن عباس أنها مكية، غير قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٧٦] إلى قوله: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] فإنها مدنيات، نزلت حين جاء وفد ثقيف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال النحويون: ﴿سُبْحَانَ﴾ اسم علم للتسبيح يقال: سبحت الله تسبيحًا وسبحانًا، فالتسبيح هو المصدر، وسبحان اسم علم للتسبيح كقولك: كفرت اليمين تكفيرًا وكفرانًا وتفسيره تنزيه الله تعالى من كل سوء. قال صاحب (النظم): السبح في اللغة التباعد، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا﴾ [المزمل: ٧] أي تباعدًا فمعنى: سبح الله تعالى، أي بعده ونزهه عما لا ينبغي وتمام المباحث العقلية في لفظ التسبيح قد ذكرناها في أول سورة الحديد، وقد جاء في لفظ التسبيح معان آخرى: أحدها: أن التسبيح يذكر بمعنى الصلاة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣] أي من المصلين، والسبحة الصلاة النافلة، وإنما قيل للمصلي مسبح، لأنه معظم لله بالصلاة ومنزه له عما لا ينبغي. وثانيها: ورد التسبيح بمعنى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨] أي تستثنون وتأويله أيضًا يعود إلى تعظيم الله تعالى في الاستثناء بمشيئته. وثالثها: جاء في الحديث: «**لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَتْ مِنْ شَيْءٍ**» قيل معناه نور وجهه، وقيل: سبحات وجهه، نور وجهه الذي إذا رآه الرائي قال: سبحان الله، وقوله: ﴿أَسْرَى﴾ قال أهل اللغة: أسرى وسرى لغتان: وقوله: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ أجمع المفسرون على أن المراد محمد عليه الصلاة والسلام، وسمعت الشيخ الإمام الوالد عمر بن الحسين رحمه الله قال: سمعت الشيخ الإمام أبا القاسم سليمان الأنصاري قال: لما وصل محمد صلوات الله عليه إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعارج أوحى الله تعالى إليه: يا محمد بم أشرفك؟ قال: «**رَبِّ بِأَنْ تَنْسِبَنِي إِلَى نَفْسِكَ بِالْعُبُودِيَّةِ**» فأنزل الله فيه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ وقوله: ﴿لَيْلًا﴾ نصب على الظرف.

فإن قيل: الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل؟

قلنا: أراد بقوله: ﴿لَيۡلٗا﴾ بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية، واختلفوا في ذلك الليل قال مقاتل: كان ذلك الليل قبل الهجرة بسنة، ونقل صاحب (الكشاف) عن أنس والحسين أنه كان ذلك قبل البعثة. وقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ اختلفوا في المكان الذي أسرى به منه، فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الذي يدل عليه ظاهر لفظ القرآن، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**بَيْنَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحِجْرِ عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ إِذْ أَتَانِي جِبْرِيلُ بِالْبُرَاقِ**»(١) وقيل أسري به من دار أم هانيء بنت أبي طالب. والمراد على هذا القول بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به، وعن ابن عباس الحرم كله مسجد، وهذا قول الأكثرين وقوله: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ اتفقوا على أن المراد منه بيت المقدس وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام وقوله: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ قيل بالثمار والأزهار، وقيل بسبب أنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة.

واعلم أن كلمة (إلى) لانتهاء الغاية فمدلول قوله: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ أنه وصل إلى حد ذلك المسجد فأما أنه دخل ذلك المسجد أم لا فليس في اللفظ دلالة عليه، وقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ يعني ما رأى في تلك الليلة من العجائب والآيات التي تدل على قدرة الله تعالى.

فإن قالوا: قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ يدل على أنه تعالى ما أراه إلا بعض الآيات، لأن كلمة ﴿مِن﴾ تفيد التبعيض، وقال في حق إبراهيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] فيلزم أن يكون معراج إبراهيم عليه السلام أفضل من معراج محمد ﷺ.

قلنا: الذي رآه إبراهيم ملكوت السموات والأرض، والذي رآه محمد ﷺ بعض آيات الله تعالى، ولا شك أن آيات الله أفضل.

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي أن الذي أسرى بعبده هو السميع لأقوال محمد، البصير بأفعاله، العالم بكونها مهذبة خالصة عن شوائب الرياء، مقرونة بالصدق والصفاء، فلهذا السبب خصه الله تعالى بهذه الكرامات، وقيل: المراد سميع لما يقولون للرسول في هذا الأمر، بصير

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٤/ ٦٤٨) حديث (رقم/ ٨٧٩٣)، من طريق عبيد الله بن محمد التيمي حدثنا حماد بن سلمة . . . به، وقال: هذا حديث تفرد به أبو حمزة ميمون الأعور وقد اختلفت أقاويل أئمتنا فيه وقد أتى بزيادات لم يخرجها الشيخان رضي الله عنهما في ذكر المعراج. وقال الذهبي: قلت ضعفه أحمد وغيره. وأبو يعلي في (مسنده) (٨/ ٤٤٩) حديث (رقم/ ٥٠٣٦)، من طريق حماد بن سلمة . . . به، والطبراني في (الكبير) (١٠/ ٦٩) حديث رقم/ ٩٩٧٦، من طريق حجاج بن المنهال حدثنا حماد بن سلمة . . . به، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٤/ ٢٣٤) من طريق حماد بن سلمة . . . به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ٧٤) وقال: رواه البزار وأبو يعلي والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. كيف وفي إسناده ميمون الأعور أبو حمزة: ضعيف وليس من رجال الصحيح وأورده الألباني في (السلسلة الضعيفه) (٤/ ٢٩٧) حديث (رقم/ ١٧٩٨).

بما يعملون في هذه الواقعة.

المسألة الثانية: اختلف في كيفية ذلك الإسراء فالأكثرون من طوائف المسلمين اتفقوا على أنه أسرى بجسد رسول الله ﷺ، والأقلون قالوا: إنه ما أسري إلا بروحه حكي عن محمد بن جرير الطبري في (تفسيره) عن حذيفة أنه قال ذلك رؤيا. وأنه ما فقد جسد رسول الله ﷺ، وإنما أسري بروحه، وحكي هذا القول أيضًا عن عائشة رضي الله عنها، وعن معاوية رضي الله عنه. واعلم أن الكلام في هذا الباب يقع في مقامين: أحدهما: في إثبات الجواز العقلي. والثاني: في الوقوع.

أما المقام الأول: وهو إثبات الجواز العقلي، فنقول: الحركة الواقعة في السرعة إلى هذا الحد ممكنة في نفسها والله تعالى قادر على جميع الممكنات، وذلك يدل على أن حصول الحركة في هذا الحد من السرعة غير ممتنع، فنفتقر ههنا إلى بيان مقدمتين:

المقدمة الأولى: في إثبات أن الحركة الواقعة إلى هذا الحد ممكنة في نفسها ويدل عليه وجوه:

الوجه الأول: أن الفلك الأعظم يتحرك من أول الليل إلى آخره ما يقرب من نصف الدور وقد ثبت في الهندسة أن نسبة القطر الواحد إلى الدور نسبة الواحد إلى ثلاثة وسبع، فيلزم أن تكون نسبة نصف القطر إلى نصف الدور نسبة الواحد إلى ثلاثة وسبع وبتقدير أن يقال أن رسول الله ﷺ ارتفع من مكة إلى ما فوق الفلك الأعظم فهو لم يتحرك إلا بمقدار نصف القطر فلما حصل في ذلك القدر من الزمان حركة نصف الدور فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أولى بالإمكان، فهذا برهان قاطع على أن الارتقاء من مكة إلى ما فوق العرش في مقدار ثلث من الليل أمر ممكن في نفسه، وإذا كان كذلك كان حصوله في كل الليل أولى بالإمكان، والله أعلم.

الوجه الثاني: وهو أنه ثبت في الهندسة أن قرص الشمس يساوي كرة الأرض مائة وستين وكذا مرة ثم إنا نشاهد أن طلوع القرص يحصل في زمان لطيف سريع، وذلك يدل على أن بلوغ الحركة في السرعة إلى الحد المذكور أمر ممكن في نفسه.

الوجه الثالث: أنه كما يستبعد في العقل صعود الجسم الكثيف من مركز العالم إلى ما فوق العرش، فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحاني من فوق العرش إلى مركز العالم، فإن كان القول بمعراج محمد ﷺ في الليلة الواحدة ممتنعًا في العقول، كان القول بنزول جبريل عليه الصلاة والسلام من العرش إلى مكة في اللحظة الواحدة ممتنعًا، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعنًا في نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والقول بثبوت المعراج فرع على تسليم جواز أصل النبوة، فثبت أن القائلين بامتناع حصول حركة سريعة إلى هذا الحد، يلزمهم القول بامتناع نزول جبريل عليه الصلاة والسلام في اللحظة من العرش إلى مكة، ولما كان ذلك باطلاً كان ما ذكروه أيضًا باطلاً.

فإن قالوا: نحن لا نقول إن جبريل عليه الصلاة والسلام جسم ينتقل من مكان إلى مكان، وإنما نقول المراد من نزول جبريل عليه السلام هو زوال الحجب الجسمانية عن روح محمد ﷺ حتى يظهر في روحه من المكاشفات والمشاهدات بعض ما كان حاضرًا متجليًا في ذات جبريل عليه الصلاة والسلام.

قلنا: تفسير الوحي بهذا الوجه هو قول الحكماء، فأما جمهور المسلمين فهم مُقِرُّون بأن جبريل عليه الصلاة والسلام جسم وأن نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الأفلاك إلى مكة، وإذاكان كذلك كان الإلزام المذكور قويًا، روي أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر قصة المعراج كذبه الكل وذهبوا إلى أبي بكر وقالوا له: إن صاحبك يقول كذا وكذا فقال أبو بكر: إن كان قد قال ذلك فهو صادق، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر الرسول له تلك التفاصيل، فكلما ذكر شيئًا قال أبو بكر صدقت فلما تمم الكلام قال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله حقًا، فقال له الرسول: وأنا أشهد أنك الصديق حقًا، وحاصل الكلام أن أبا بكر رضي الله عنه كأنه قال لما سلمت رسالته فقد صدقته فيما هو أعظم من هذا فكيف أكذبه في هذا؟

الوجه الرابع: أن أكثر أرباب الملل والنحل يسلمون وجود إبليس ويسلمون أنه هو الذي يتولى إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم، ويسلمون أنه يمكنه الانتقال من المشرق إلى المغرب لأجل إلقاء الوساوس في قلوب بني آدم، فلما سلموا جواز مثل هذه الحركة السريعة في حق إبليس فلأن يسلموا جواز مثلها في حق أكابر الأنبياء كان أولى، وهذا الإلزام قوي على من يسلم أن إبليس جسم ينتقل من مكان إلى مكان، أما الذين يقولون إنه من الأرواح الخبيثة الشريرة وأنه ليس بجسم ولا جسماني، فهذا الإلزام غير وارد عليهم، إلا أن أكثر أرباب الملل والنحل يوافقون على أنه جسم لطيف متنقل.

فإن قالوا: هب أن الملائكة والشياطين يصح في حقهم حصول مثل هذه الحركة السريعة لأنهم أجسام لطيفة، ولا يمتنع حصول مثل هذه الحركة السريعة في ذواتها، أما الإنسان فإنه جسم كثيف فكيف يعقل حصول مثل هذه الحركة السريعة فيه؟

قلنا: نحن إنما استدللنا بأحوال الملائكة والشياطين على أن حصول حركة منتهية في السرعة إلى هذا الحد ممكن في نفس الأمر، وأما بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها كانت أيضًا ممكنة الحصول في جسم البدن الإنساني، فذاك مقام آخر سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

الوجه الخامس: أنه جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه الصلاة والسلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة قال تعالى في صفة مسير سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبا: ١٢] بل نقول: الحس يدل على أن الرياح تنتقل عند شدة هبوبها من مكان إلى مكان في غاية البعد في اللحظة الواحدة، وذلك أيضًا يدل على أن مثل هذه الحركة السريعة في نفسها ممكنة.

الوجه السادس: أن القرآن يدل على أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] وإذاكان ممكنًا في حق بعض الناس، علمنا أنه في نفسه ممكن الوجود.

الوجه السابع: أن من الناس من يقول: الحيوان إنما يبصر المبصرات لأجل أن الشعاع يخرج من عينيه ويتصل بالمبصر ثم إنا إذا فتحنا العين ونظرنا إلى رجل رأيناه فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا إلى رجل في تلك اللحظة اللطيفة، وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السرعة من الممكنات لا من الممتنعات، فثبت بهذه الوجوه أن حصول الحركة المنتهية في السرعة إلى هذا الحد أمر ممكن الوجود في نفسه.

المقدمة الثانية: في بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها وجب أن لا يكون حصولها في جسد محمد ﷺ ممتنعًا، والذي يدل عليه أنا بينا بالدلائل القطعية أن الأجسام متماثلة في تمام ماهياتها، فلما صح حصول مثل هذه الحركة في حق بعض الأجسام وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام، وذلك يوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحركة في جسد محمد ﷺ أمر ممكن الوجود في نفسه.

وإذا ثبت هذا فنقول: ثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على كل الممكنات، وثبت أن حصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد ﷺ ممكن، فوجب كونه تعالى قادرًا عليه وحينئذ يلزم من مجموع هذه المقدمات أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود في نفسه، أقصى ما في الباب أنه يبقى التعجب، إلا أن هذا التعجب غير مخصوص بهذا المقام، بل هو حاصل في جميع المعجزات، فانقلاب العصا ثعبانًا تبلع سبعين ألف حبل من الحبال والعصي، ثم تعود في الحال عصا صغيرة كما كانت أمر عجيب، وخروجَ الناقة العظيمة من الجبل الأصم، وإظلال الجبل العظيم في الهواء عجيب، وكذا القول في جميع المعجزات فإن كان مجرد التعجب يوجب الإنكار والدفع، لزم الجزم بفساد القول بإثبات المعجزات وإثبات المعجزات فرع على تسليم أصل النبوة وإن كان مجرد التعجب لا يوجب الإنكار والإبطال فكذا ههنا، فهذا تمام القول في بيان أن القول بالمعراج ممكن غير ممتنع، والله أعلم.

المقام الثاني: في البحث عن وقوع المعراج قال أهل التحقيق: الذي يدل على أنه تعالى أسرى بروح محمد ﷺ وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى القرآن والخبر، أما القرآن فهو هذه الآية، وتقرير الدليل أن العبد اسم لمجموع الجسد والروح، فوجب أن يكون الإسراء حاصلاً لمجموع الجسد والروح.

واعلم أن هذا الاستدلال موقوف على أن الإنسان هو الروح وحده أو الجسد وحده أو مجموع الجسد والروح، أما القائلون بأن الإنسان هو الروح وحده، فقد احتجوا عليه بوجوه:

أحدها: أن الإنسان شيء واحد باق من أول عمره إلى آخره، والأجزاء البدنية في التبدل والتغير والانتقال والباقي غير متبدل، فالإنسان مغاير لهذا البدن.

وثانيها: أن الإنسان قد يكون عارفًا بذاته المخصوصة حال ما يكون غافلاً عن جميع أجزائه البدنية، والمعلوم مغاير للمغفول عنه، فالإنسان مغاير لهذا البدن.

وثالثها: أن الإنسان يقول بمقتضى فطرته السليمة يدي ورجلي ودماغي وقلبي، وكذا القول في سائر الأعضاء فيضيف كلها إلى ذاته المخصوصة والمضاف غير المضاف إليه فذاته المخصوصة وجب أن تكون مغايرة لكل هذه الأعضاء.

فإن قالوا: أليس أنه يضيف ذاته إلى نفسه، فيقول ذاتي ونفسي فيلزمكم أن تكون نفسه مغايرة لذاته، وهذا محال.

قلنا: نحن لا نتمسك بمجرد اللفظ حتى يلزمنا ما ذكرتموه، بل إنما نتمسك بمحض العقل، فإن صريح العقل يدل على أن الإنسان موجود واحد وذلك الشيء الواحد يأخذ بآلة اليد ويبصر بآلة العين، ويسمع بآلة الأذن فالإنسان شيء واحد، وهذه الأعضاء آلات له في هذه الأفعال، وذلك يدل على أن الإنسان شيء مغاير لهذه الأعضاء والآلات، فثبت بهذه الوجوه أن الإنسان شيء مغاير لهذه البنية ولهذا الجسد.

إذا ثبت هذا فنقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ المراد من العبد جوهر الروح وعلى هذا التقدير فلم يبق في الآية دلالة على حصول الإسراء بالجسد.

فإن قالوا: فالإسراء بالروح ليس بأمر مخالف للعادة، فلا يليق به أن يقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.

قلنا: هذا أيضًا بعيد، لأنه لا يبعد أن يقال: إنه حصل لروحه من أنواع المكاشفات والمشاهدات ما لم يحصل لغيره ألبتة، فلا جرم كان هذا الكلام لائقًا به، فهذا تقرير وجه السؤال على الاستدلال بهذه الآية في إثبات المعراج بالروح والجسد معًا.

والجواب: أن لفظ العبد لا يتناول إلا مجموع الروح والجسد، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩، ١٠] ولا شك أن المراد من العبد ههنا مجموع الروح والجسد. وقال أيضًا في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] والمراد مجموع الروح والجسد فكذا ههنا، وأما الخبر فهو الحديث المروي في الصحاح وهو مشهور وهو يدل على الذهاب من مكة إلى بيت المقدس، ثم منه إلى السموات، واحتج المنكرون له بوجوه: أحدها: بالوجوه العقلية وهي ثلاثة: أولها: أن الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة. وثانيها: أن صعود الجرم الثقيل إلى السموات غير معقول. وثالثها: أن صعوده إلى السموات يوجب انخراق الأفلاك، وذلك محال.

والشبهة الثانية: أن هذا المعنى لو صح لكان أعظم من سائر المعجزات وكان يجب أن يظهر

ذلك عند اجتماع الناس حتى يستدلوا به على صدقه في ادعاء النبوة، فأما أن يحصل ذلك في وقت لا يراه أحد ولا يشاهده أحد، فإنه يكون ذلك عبثًا، وذلك لا يليق بالحكيم.

والشبهة الثالثة: تمسكوا بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وما تلك الرؤيا إلا حديث المعراج، وإنما كان فتنة للناس؟ لأن كثيرًا ممن آمن به لما سمع هذا الكلام كذبه وكفر به فكان حديث المعراج سببًا لفتنة الناس، فثبت أن ذلك رؤيا رآه في المنام.

الشبهة الرابعة: أن حديث المعراج اشتمل على أشياء بعيدة، منها ما روي من شق بطنه وتطهيره بماء زمزم وهو بعيد، لأن الذي يمكن غسله بالماء هو النجاسات العينية ولا تأثير لذلك في تطهير القلب عن العقائد الباطلة والأخلاق المذمومة، ومنها ما روي من ركوب البراق وهو بعيد، لأنه تعالى لما سيره من هذا العالم إلى عالم الأفلاك، فأي حاجة إلى البراق، ومنها ما روي أنه تعالى أوجب خمسين صلاة ثم إن محمدًا ﷺ لم يزل يتردد بين الله تعالى وبين موسى إلى أن عاد الخمسون إلى خمس بسبب شفقة موسى عليه الصلاة والسلام[١]. قال القاضي: وهذا يقتضي نسخ الحكم قبل حضوره، وأنه يوجب البداء وذلك على الله تعالى محال، فثبت أن ذلك الحديث مشتمل على ما لا يجوز قبوله فكان مردودًا.

والجواب عن الوجوه العقلية قد سبق فلا نعيدها.

والجواب عن الشبهة الثانية: ما ذكره الله تعالى وهو قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ وهذا كلام مجمل وفي تفصيله وشرحه وجوه: الأول: أن خيرات الجنة عظيمة، وأهوال النار شديدة، فلو أنه عليه الصلاة والسلام ما شاهدهما في الدنيا، ثم شاهدهما في ابتداء يوم القيامة فربما رغب في خيرات الجنة أو خاف من أهوال النار، أما لما شاهدهما في الدنيا في ليلة المعراج فحينئذ لا يعظم وقعهما في قلبه يوم القيامة فلا يبقى مشغول القلب بهما، وحينئذ يتفرغ للشفاعة. الثاني: لا يمتنع أن تكون مشاهدته ليلة المعراج للأنبياء والملائكة، صارت سببًا لتكامل مصلحته أو مصلحتهم. الثالث: أنه لا يبعد أنه إذا صعد الفلك وشاهد أحوال السموات والكرسي والعرش، صارت مشاهدة أحوال هذا العالم وأهواله حقيرة في عينه، فتحصل له زيادة قوة في القلب باعتبارها يكون في شروعه في الدعوة إلى الله تعالى أكمل وقلة التفاته إلى أعداء الله تعالى أقوى، يبين ذلك أن من عاين قدرة الله تعالى في هذا الباب، لا يكون حاله في قوة النفس وثبات القلب على احتمال المكاره في الجهاد وغيره إلا أضعاف ما يكون عليه حال من لم يعاين.

واعلم أن قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ كالدلالة على أن فائدة ذلك الإسراء مختصة به وعائدة إليه على سبيل التعيين.

والجواب عن الشبهة الثالثة: أنا عند الانتهاء إلى تفسير تلك الآية في هذه السورة نبين أن تلك

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (١/ ١٤٥/ ١٦٢) وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٤٨) حديث (رقم/ ١٢٥٢٧)، جميعا من طريق حماد بن سلمة. . . به.

الرؤيا رؤيا عيان لا رؤيا منام.

والجواب عن الشبهة الرابعة: لا اعتراض على الله تعالى في أفعاله فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، والله أعلم.

المسألة الرابعة: أما العروج إلى السموات وإلى ما فوق العرش، فهذه الآية لا تدل عليه، ومنهم من استدل عليه بأول سورة والنجم، ومنهم من استدل عليه بقوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] وتفسيرهما مذكور في موضعه، وأما دلالة الحديث فكما سلف، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الكلام في الآية التي قبل هذه الآية، وفيها انتقل من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، لأن قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١] فيه ذكر الله على سبيل الغيبة وقوله: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] فيه ثلاثة ألفاظ دالة على الحضور وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] يدل على الغيبة وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ الخ يدل على الحضور وانتقال الكلام من الغيبة إلى الحضور وبالعكس يسمى صنعة الالتفات.

المسألة الثانية: ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه محمدًا ﷺ بأن أسرى به، وذكر في هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذي آتاه فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾ أي يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والدين الحق وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: قرأ أبو عمرو: (أَلاَّ يَتَّخِذُوا) بالياء خبرًا عن بني إسرائيل والباقون بالتاء على الخطاب، أي قلنا لهم لا تتخذوا.

البحث الثاني: قال أبو علي الفارسي: إن قوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾.

فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون (أن) ناصبة للفعل فيكون المعنى: وجعلناه هدى لئلا تتخذوا.

وثانيها: أن تكون (أن) بمعنى أي التي للتفسير وانصرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قراءة العامة كما انصرف منها إلى الخطاب. والأمر في قوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ [ص: ٦] فكذلك انصرف من الغيبة إلى النهي في قوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾.

وثالثها: أن تكون (أن) زائدة ويجعل تتخذوا على القول المضمر والتقدير: وجعلناه هدى لبني إسرائيل فقلنا لا تتخذوا من دوني وكيلاً.

البحث الثالث: قوله: ﴿وَكِيلًا﴾ أي ربًا تكلون أموركم إليه. أقول حاصل الكلام في الآية: أنه تعالى ذكر تشريف محمد ﷺ بالإسراء، ثم ذكر عقيبه تشريف موسى عليه الصلاة والسلام بإنزال التوراة عليه، ثم وصف التوراة بكونها هدى، ثم بين أن التوراة إنما كان هدى لاشتماله على النهي عن اتخاذ غير الله وكيلاً، وذلك هو التوحيد، فرجع حاصل الكلام بعد رعاية هذه المراتب أنه لا معراج أعلى ولا درجة أشرف ولا منقبة أعظم من أن يصير المرء غارقًا في بحر التوحيد وأن لا يعول في أمر من الأمور إلا على الله، فإن نطق، نطق بذكر الله، وإن تفكر، تفكر في دلائل تنزيه الله تعالى، وإن طلب طلب من الله، فيكون كله لله وبالله، ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ وفي نصب ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ وجهان:

الوجه الأول: أن يكون نصبًا على النداء يعني: يا ذرية من حملنا مع نوح وهذا قول مجاهد لأنه قال: هذا نداء قال الواحدي: وإنما يصح هذا على قراءة من قرأ بالتاء كأنه قيل لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا مع نوح في السفينة قال قتادة: الناس كلهم ذرية نوح لأنه كان معه في السفينة ثلاثة بنين: سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية أولئك، فكان قوله: يا ذرية من حملنا مع نوح، قائمًا مقام قوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ).

الوجه الثاني: في نصب قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ أن الاتخاذ فعل يتعدى إلى مفعولين كقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] والتقدير: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلاً، ثم إنه تعالى أثنى على نوح فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] أي كان كثير الشكر، روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أكل قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي وَلَوْ شَاءَ أَجَاعَنِي» (١) وإذا شرب قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَسْقَانِي وَلَوْ شاء أظمأني» (٢) وإذا اكتسى قال: «الحمد الله الَّذِي كَسَانِي وَلَوْ شَاءَ أَعْرَانِي» وإذا احتذى قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَذَانِي وَلَوْ شَاءَ أَحْفَانِي» وإذا قضى حاجته قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَ عَنِّي أَذَاهُ فِي عَافِيَةٍ وَلَوْ شَاءَ حَبَسَهُ» وروي أنه كان إذا أراد الإفطار عَرَضَ طَعَامَهُ عَلَى مَنْ آمَنَ بِهِ فَإِنْ وَجَدَهُ مُحْتَاجًا آثَرَهُ بِهِ.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٦٢/ ٢٧٤) من طريق عبد الله بن صالح أخبرنا معاوية بن صالح عن عمران بن سليم قال إنما سمي نوح شكورًا. . . ثم ذكره، وإسناد مرسل ضعيف. وإنما الصواب كما جاء على لسان نبينا ﷺ، أخرجه أبو داود في كتاب (اللباس) باب (ما يقول إذا لبس ثوبا جديدا) (٤/ ١٧٢٧) حديث رقم/ ٤٠٢٣، والترمذي في كتاب (الدعوات) باب (ما يقول إذا فرغ من طعامه) (٥/ ٤٧٤) حديث رقم/ ٣٤٥٨، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه في كتاب (الأطعمة) باب (ما يقال إذا فرغ من طعام) (٢/ ١٠٩٣) حديث رقم/ ٣٢٨٥، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٤٣٩) جميعًا من طريق ابن أبي أيوب عن أبي مرحوم عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه. . . به.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٢) حديث رقم/ ٨، من طريق العوام، عن إبراهيم التيمي؛ أن نوحا النبي ﷺ كان إذا خرج من الغائط قال. . . فذكره، وهذا الإسناد مقطوع وإبراهيم التيمي هو بن يزيد بن شريك قال الحافظ ثقة إلا أنه يرسل ويدلس.

فإن قيل: قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ ما وجه ملائمته لما قبله؟

قلنا: التقدير كأنه قال: لا تتخذوا من دوني وكيلاً ولا تشركوا بي، لأن نوحًا عليه الصلاة والسلام كان عبدًا شكورًا، وإنما يكون العبد شكورًا لو كان موحدًا لا يرى حصول شيء من النعم إلا من فضل الله وأنتم ذرية قومه فاقتدوا بنوح عليه السلام، كما أن آباءكم اقتدوا به، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر إنعامه على بني إسرائيل بإنزال التوراة عليهم، وبأنه جعل التوراة هدى لهم، بين أنهم ما اهتدوا بهداه، بل وقعوا في الفساد فقال: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: القضاء في اللغة عبارة عن قطع الأشياء عن إحكام، ومنه قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾[فصلت: ١٢] وقول الشاعر:

وَعَلَيهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ... دَاوُدُ ... ...

فقوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ﴾ أي أعلمناهم وأخبرناهم بذلك وأوحينا إليهم. ولفظ ﴿إِلَىٰ﴾ صلة للإيحاء، لأن معنى قضينا أوحينا إليهم كذا. وقوله: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾ يريد المعاصي وخلاف أحكام التوراة وقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني أرض مصر وقوله: ﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ يعني أنه يكون استعلاؤكم على الناس بغير الحق استعلاء عظيمًا، لأنه يقال لكل متجبر: قد علا وتعظم، ثم قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ يعني أولى المرتين: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ والمعنى: أنه إذا جاء وعد الفساق في المرة الأولى أرسلنا عليكم قومًا أولى بأس شديد، ونجدة وشدة، والبأس القتال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾[البقرة: ١٧٧] ومعنى ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ أرسلنا عليكم، وخلينا بينكم وبينهم خاذلين إياكم، واختلفوا في أن هؤلاء العباد من هم؟ قيل: إن بني إسرائيل تعظموا وتكبروا واستحلوا المحارم وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء، وذلك أول الفسادين فسلط الله عليهم بختنصر فقتل منهم أربعين ألفًا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية إلى أرض نفسه فبقوا هناك في الذل إلى أن قيض الله ملكًا آخر غزا أهل بابل واتفق أن تزوج بامرأة من بني إسرائيل فطلبت تلك المرأة من ذلك الملك أن يرد بني إسرائيل إلى بيت المقدس ففعل، وبعد

مدة قامت فيهم الأنبياء ورجعوا إلى أحسن ما كانوا، فهو قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ .

والقول الثاني: إن المراد من قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ أن الله تعالى سلط عليهم جالوت حتى أهلكهم وأبادهم وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ هو أنه تعالى قوى طالوت حتى حارب جالوت ونصر داود حتى قتل جالوت فذاك هو عود الكرة.

والقول الثالث: إن قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ هو أنه تعالى ألقى الرعب من بني إسرائيل في قلوب المجوس، فلما كثرت المعاصي فيهم أزال ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا في قتلهم وإفنائهم وإهلاكهم.

واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض في معرفة أولئك الأقوام بأعيانهم، بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصي سلط عليهم أقوامًا قتلوهم وأفنوهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ قال الليث: الجوس والجوسان التردد خلال الديار، والبيوت في الفساد، والخلال هو الانفراج بين الشيئين، والديار ديار بيت المقدس، واختلفت عبارات المفسرين في تفسير جاسوا فعن ابن عباس فتشوا وقال أبو عبيدة: طلبوا من فيها. وقال ابن قتيبة: عاثوا وأفسدوا. وقال الزجاج: طافوا خلال الديار هل بقي أحد لم يقتلوه. قال الواحدي: الجوس هو التردد والطلب وذلك محتمل لكل ما قالوه.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي كان قضاء الله بذلك قضاء جزمًا حتمًا لا يقبل النقض والنسخ، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ أي أهلكنا أعداءكم ورددنا الدولة والقوة عليكم: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ النفير العدد من الرجال وأصله من نفر مع الرجل من عشيرته وقومه، والنفير والنافر واحد، كالقدير والقادر، وذكرنا معنى نفر عند قوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾[التوبة: ١٢٢] وقوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا﴾[التوبة: ٤١].

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في مسألة القضاء والقدر من وجوه: الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ وهذا القضاء أقل احتمالاته الحكم الجزم، والخبر الحتم، فثبت أنه تعالى أخبر عنهم أنهم سيقدمون على الفساد والمعاصي خبرًا جزمًا حتمًا لا يقبل النسخ، لأن القضاء معناه الحكم الجزم على ما شرحناه. ثم إنه تعالى أكد ذلك القضاء مزيد تأكيد فقال: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

إذا ثبت هذا فنقول: عدم وقوع ذلك الفساد عنهم يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبًا وانقلاب حكمه الجازم باطلاً، وانقلاب علمه الحق جهلاً، وكل ذلك محال، فكان عدم إقدامهم على ذلك الفساد محالاً، فكان إقدامهم عليه واجبًا ضروريًا لا يقبل النسخ والرفع، مع أنهم كلفوا بتركه ولعنوا على فعله، وذلك يدل على قولنا: إن الله قد يأمر بشيء ويصد عنه وقد ينهى عن شيء ويقضي بتحصيله، فهذا أحد وجوه الاستدلال بهذه الآية.

الوجه الثاني: في الاستدلال بهذه الآية قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ والمراد أولئك الذين تسلطوا على بني إسرائيل بالقتل والنهب والأسر، فبين تعالى أنه هو الذي بعثهم على بني إسرائيل، ولا شك أن قتل بني إسرائيل ونهب أموالهم وأسر أولادهم كان مشتملاً على الظلم الكثير والمعاصي العظيمة. ثم إنه تعالى أضاف كل ذلك إلى نفسه بقوله: ثم ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ وذلك يدل على أن الخير والشر والطاعة والمعصية من الله تعالى.

أجاب الجبائي عنه من وجهين: الأول: المراد من ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ هو أنه تعالى أمر أولئك الأقوام بغزو بني إسرائيل لما ظهر فيهم من الفساد، فأضيف ذلك الفعل إلى الله تعالى من حيث الأمر. والثاني: أن يكون المراد خلينا بينهم وبين بني إسرائيل، وما ألقينا الخوف من بني إسرائيل في قلوبهم. وحاصل الكلام أن المراد من هذا البعث التخلية وعدم المنع.

واعلم أن الجواب الأول ضعيف؛ لأن الذين قصدوا تخريب بيت المقدس وإحراق التوراة وقتل حفاظ التوراة لا يجوز أن يقال إنهم فعلوا ذلك بأمر الله تعالى. والجواب الثاني أيضًا ضعيف، لأن البعث على الفعل عبارة عن التقوية عليه وإلقاء الدواعي القوية في القلب، وأما التخلية فعبارة عن عدم المنع، والأول فعل، والثاني ترك، فتفسير البعث بالتخلية تفسير لأحد الضدين بالآخر وأنه لا يجوز، فثبت صحة ما ذكرناه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى حكى عنهم أنهم لما عصوا سلط عليهم أقوامًا قصدوهم بالقتل والنهب والسبي، ولما تابوا أزال عنهم تلك المحنة وأعاد عليهم الدولة، فعند ذلك ظهر أنهم إن أطاعوا فقد أحسنوا إلى أنفسهم، وإن أصروا على المعصية فقد أساؤا إلى أنفسهم، وقد تقرر في العقول أن الإحسان إلى النفس حسن مطلوب، وأن الإساءة إليها قبيحة، فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

المسألة الثانية: قال الواحدي: لا بد هاهنا من إضمار، والتقدير: وقلنا إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، والمعنى: إن أحسنتم بفعل الطاعات فقد أحسنتم إلى أنفسكم من حيث إن ببركة تلك الطاعات يفتح الله عليكم أبواب الخيرات والبركات، وإن أسأتم بفعل المحرمات أسأتم إلى أنفسكم من حيث إن بشؤم تلك المعاصي يفتح الله عليكم أبواب العقوبات.

المسألة الثالثة: قال النحويون: إنما قال: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ للتقابل والمعنى: فإليها أو فعليها مع أن حروف الإضافة يقوم بعضها مقام بعض، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤، ٥] أي إليها.

المسألة الرابعة: قال أهل الإشارات هذه الآية تدل على أن رحمة الله تعالى غالبة على غضبه بدليل أنه لما حكى عنهم الإحسان أعاده مرتين فقال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ ولما حكى عنهم الإساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ ولولا أن جانب الرحمة غالب وإلا لما كان كذلك.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال المفسرون: معناه وعد المرة الأخيرة، وهذه المرة الأخيرة هي إقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام. قال الواحدي: فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي أبغض خلقه إليه فسبى بني إسرائيل وقتل وخرب بيت المقدس أقول: التواريخ تشهد بأن بختنصر كان قبل وقت عيسى عليه الصلاة والسلام ويحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام بسنين متطاولة، ومعلوم أن الملك الذي انتقم من اليهود بسبب هؤلاء ملك من الروم يقال له: قسطنطين الملك - والله أعلم بأحوالهم - ولا يتعلق غرض من أغراض تفسير القرآن بمعرفة أعيان هؤلاء الأقوام.

المسألة الثانية: جواب قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ﴾ محذوف تقديره: فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوؤا وجوهكم وإنما حسن هذا الحذف لدلالة ما تقدم عليه من قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ [الإسراء: ٥] ثم قال: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: يقال: ساءه يسوءه أي أحزنه، وإنما عزا الإساءة إلى الوجوه، لأن آثار الأعراض النفسانية الحاصلة في القلب إنما تظهر على الوجه، فإن حصل الفرح في القلب ظهرت النضرة والإشراق والإسفار في الوجه. وإن حصل الحزن والخوف في القلب ظهر الكلوح والغبرة والسواد في الوجه، فلهذا السبب عزيت الإساءة إلى الوجوه في هذه الآية، ونظير هذا المعنى كثير في القرآن.

المسألة الثانية: قرأ العامة: ليسوؤا على صيغة المغايبة، قال الواحدي: وهي موافقة للمعنى وللفظ. أما المعنى فهو أن المبعوثين هم الذين يسوؤنهم في الحقيقة، لأنهم هم الذين يقتلون ويأسرون وأما اللفظ فلأنه يوافق قوله: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة: (لِيَسُوءَ) على إسناد الفعل إلى الواحد، وذلك الواحد يحتمل أن يكون أحد أشياء ثلاثة: إما اسم الله سبحانه لأن الذي تقدم هو قوله: ثم رددنا وأمددنا، وكل ذلك ضمير عائد

إلى الله تعالى، وإما أن يكون ذلك الواحد هو البعث ودل عليه قوله: ﴿بَعَثْنَا﴾ والفعل المتقدم يدل على المصدر كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١٨٠] وقال الزجاج: ليسوء الوعد وجوهكم، وقرأ الكسائي بالنون وهذا على إسناد الفعل إلى الله تعالى كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ وأمددنا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ يقال: تبر الشيء تبرًا إذا هلك وتبره أهلكه. قال الزجاج: كل شيء جعلته مكسرًا ومفتتًا فقد تبرته، ومنه قيل: تبر الزجاج وتبر الذهب لمكسره، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨] وقوله: ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ يحتمل ما غلبوا عليه وظفروا به، ويحتمل ويتبروا ما داموا غالبين، أي ما دام سلطانهم جاريًا على بني إسرائيل، وقوله: ﴿تَتْبِيرًا﴾ ذكر للمصدر على معنى تحقيق الخبر وإزالة الشك في صدقه كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] أي حقًا، والمعنى: وليدمروا ويخربوا ما غلبوا عليه.

ثم قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ والمعنى: لعل ربكم أن يرحمكم ويعفو عنكم بعد انتقامه منكم يا بني إسرائيل.

ثم قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ يعني: أن بعثنا عليكم من بعثنا، ففعلوا بكم ما فعلوا عقوبة لكم وعظة لتنتفعوا به وتنزجروا به عن ارتكاب المعاصي، ثم رحمكم فأزال هذا العذاب عنكم، فإن عدتم مرة أخرى إلى المعصية عدنا إلى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى. قال القفال: وإنما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الأعراف خبرًا عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧] ثم قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي وإنهم قد عادوا إلى فعل ما لا ينبغي وهو التكذيب بمحمد ﷺ وكتمان ما ورد في التوراة والإنجيل، فعاد الله عليهم بالتعذيب على أيدي العرب. فجرى على بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء، ثم الباقون منهم مقهورون بالجزية لا ملك لهم ولا سلطان.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ والحصير فعيل فيحتمل أن يكون بمعنى الفاعل، أي وجعلنا جهنم حاصرة لهم، ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول، أي جعلناها موضعًا محصورًا لهم، والمعنى أن عذاب الدنيا وإن كان شديدًا قويًا إلا أنه قد يتفلت بعض الناس عنه، والذي يقع في ذلك العذاب يتخلص عنه، إما بالموت وإما بطريق آخر، وأما عذاب الآخرة فإنه يكون حاصرًا للإنسان محيطًا به لا رجاء في الخلاص عنه، فهؤلاء الأقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطًا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه أبدًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح ما فعله في حق عباده المخلصين وهو الإسراء برسول الله ﷺ، وإيتاء الكتاب لموسى عليه الصلاة والسلام، وما فعله في حق العصاة والمتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم، كان ذلك تنبيهًا على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة ومعصيته توجب كل بلية وغرامة، لا جرم أثنى على القرآن فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١] يدل على كون هذا الدين مستقيمًا، وقوله في هذه الآية: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ يدل على أن هذا الدين أقوم من سائر الأديان. وأقول: قولنا هذا الشيء أقوم من ذاك، إنما يصح في شيئين يشتركان في معنى الاستقامة، ثم كان حصول معنى الاستقامة في إحدى الصورتين أكثر وأكملَ من حصوله في الصورة الثانية، وهذا محال لأن المراد من كونه مستقيمًا كونه حقًا وصدقًا، ودخول التفاوت في كون الشيء حقًا وصدقًا محال، فكان وصفه بأنه أقوم مجازًا، إلا أن لفظ الأفعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا: الله أكبر أي الله كبير، وقولنا: الأشج والناقص أعدلا بني مروان، أي: عادلاً بني مروان، أو يحمل هذا اللفظ على الظاهر المتعارف، والله أعلم.

البحث الثاني: قوله: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ نعت لموصوف محذوف، والتقدير: يهدي للملة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق، ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القرآن كقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] أي بالخصلة التي هي أحسن.

أما قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ فاعلم أنه تعالى وصف القرآن بثلاثة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: أنه يهدي للتي هي أقوم، وقد مر تفسيره.

والصفة الثانية: أنه يبشر الذين يعملون الصالحات بالأجر الكبير، وذلك لأن الصفة الأولى لما دلت على كون القرآن هاديًا إلى الاعتقاد الأصوب والعمل الأصلح، وجب أن يظهر لهذا الصواب والصلاح أثر، وذلك هو الأجر الكبير لأن الطريق الأقوم لا بد وأن يفيد الربح الأكبر والنفع الأعظم.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وذلك لأن الاعتقاد الأصوب والعمل الأصلح، كما يوجب لفاعله النفع الأكمل الأعظم، فكذلك تركه يوجب لتاركه الضرر الأعظم الأكمل.

واعلم أن قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ والمعنى أنه

تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم، ونظيره قوله: بشرت زيدًا أنه سيعطى وبأن عدوه سيمنع.

فإن قيل: كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب؟

قلنا: مذكور على سبيل التهكم، أو يقال: إنه من باب إطلاق اسم الضدين على الآخر، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠].

فإن قيل: هذه الآية واردة في شرح أحوال اليهود وهم ما كانوا ينكرون الإيمان بالآخرة، فكيف يليق بهذا الموضع قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

قلنا عنه جوابان: أحدهما: أن أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين، والثاني: أن بعضهم قال: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾ [آل عمران: ٢٤] فهم في هذا القول صاروا كالمنكرين للآخرة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ۝١١﴾

وفي الآية مباحث:

البحث الأول: اعلم أن وجه النظم هو أن الإنسان بعد أن أنزل الله عليه القرآن وخصه بهذه النعمة العظيمة والكرامة الكاملة، قد يعدل عن التمسك بشرائعه والرجوع إلى بياناته، ويقدم على ما لا فائدة فيه فقال: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾.

البحث الثاني: اختلفوا في المراد من دعاء الإنسان بالشر على أقوال:

القول الأول: المراد منه: النضر بن الحارث حيث قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأجاب الله دعاءه وضربت رقبته، فكان بعضهم يقول: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. وآخرون يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]. وإنما فعلوا ذلك للجهل واعتقاد أن محمدًا كاذب فيما يقول.

والقول الثاني: المراد أنه في وقت الضجر يلعن نفسه وأهله وولده وماله، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك. وروي أن النبي ﷺ دفع إلى سودة بنت زمعة أسيرًا فأقبل يئن بالليل فقالت له: ما لك تئن؟ فشكى ألم القيد فأرخت له من كتافه، فلما نامت أخرج يده وهرب، فلما أصبح النبي عليه الصلاة والسلام دعا به فأعلم بشأنه، فقال عليه الصلاة والسلام: **«اللَّهُمَّ اقْطَعْ يَدَهَا»** فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله يدها، فقال النبي ﷺ: **«إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ دُعَائِي عَلَى مَنْ لاَ يَسْتَحِقُّ عَذَابًا مِنْ أَهْلِي رَحْمَةً لأَنِّي بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا تَغْضَبُونَ، فَلْتَرُدَّ سَوْدَةُ يَدَهَا»**(١).

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ ولكن جاء بلفظ آخر بإسناده صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (السنة) باب (في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ) (٤/ ٢١٥) حديث رقم/ ٤٦٥٩، من طريق زائدة بن قدامة الثقفي حدثنا عمرو بن قيس الماصر... به، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٤٣٧) حديث رقم/ ٢٣٧٥٧، من طريق زائدة حدثنا عمر بن قيس=

والقول الثالث: أقول: يحتمل أن يكون المراد: أن الإنسان قد يبالغ في الدعاء طلبًا لشيء يعتقد أن خيره فيه، مع أن ذلك الشيء يكون منبع شره وضرره، وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء، وإنما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولاً مغترًا بظواهر الأمور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها.

البحث الثالث: القياس: إثبات الواو في قوله: ﴿وَيَدْعُ﴾ إلا أنه حذف في المصحف من الكتابة، لأنه لا يظهر في اللفظ، أما لم تحذف في المعنى لأنها في موضع الرفع، ونظيره: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦] ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١] ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥] ولو كان بالواو والياء لكان صوابًا هذا كلام الفراء. وأقول: إن هذا يدل على أنه سبحانه قد عصم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فإن إثبات الياء والواو في أكثر ألفاظ القرآن وعدم إثباتهما في هذه المواضع المعدودة يدل على أن هذا القرآن نقل كما سمع، وأن أحدًا لم يتصرف فيه بمقدار فهمه وقوة عقله.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ وفي هذا الإنسان قولان:

القول الأول: آدم عليه السلام، وذلك لأنه لما انتهت الروح إلى سرته نظر إلى جسده فأعجبه فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

والقول الثاني: أنه محمول على الجنس، لأن أحدًا من الناس لا يعرى عن عجلة، ولو تركها لكان تركها أصلح له في الدين والدنيا، وأقول: بتقدير أن يكون المراد هو القول الأول، كان المقصود عائدًا إلى القول الثاني، لأنا إذا حملنا الإنسان على آدم عليه الصلاة والسلام كان المعنى أن آدم الذي كان أصل البشر لما كان موصوفًا بهذه العجلة وجب أن تكون هذه صفة لازمة للكل، فكان المقصود عائدًا إلى القول الثاني، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في تقرير النظم وجوه:

=الماصر . . . به، والطبراني في (الكبير) (٦/ ٢٦٠) حديث رقم/ ٦١٥٧، من طريق أبي أسامة عن مسعر . . . به، والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٩١) حديث رقم/ ٢٣٤، من طريق مسعر قال حدثنا عمر بن قيس . . . به. وفيه زيادات، وأورده الألباني في (صحيح الجامع) (٤٤٩٤) عن سلمان وقال: صحيح. ولفظه: (فقال أيما رجل من أمتي سببته سبة أو لعنته لعنة في غضبي فإنما أنا من ولد آدم أغضب كما يغضبون وإنما بعثني رحمة للعالمين فاجعلها عليهم صلاة يوم القيامة) من سنن أبي داود بتصرف.

الوجه الأول: أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ما أوصل إلى الخلق من نعم الدين وهو القرآن أتبعه ببيان ما أوصل إليهم من نعم الدنيا فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ وكما أن القرآن ممتزج من المحكم والمتشابه، فكذلك الدهر مركب من النهار والليل. فالمحكم كالنهار، والمتشابه كالليل، وكما أن المقصود من التكليف لا يتم إلا بذكر المحكم والمتشابه، فكذلك الوقت والزمان لا يكمل الانتفاع به إلا بالنهار والليل.

والوجه الثاني: في تقرير النظم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وذلك الأقوم ليس إلا ذكر الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة، لا جرم أردفه بذكر دلائل التوحيد، وهو عجائب العالم العلوي والسفلي.

الوجه الثالث: أنه لما وصف الإنسان بكونه عجولاً أي منتقلاً من صفة إلى صفة ومن حالة إلى حالة، بين أن كل أحوال هذا العالم كذلك، وهو الانتقال من النور إلى الظلمة وبالضد، وانتقال نور القمر من الزيادة إلى النقصان وبالضد، والله أعلم.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ قولان:

القول الأول: أن يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار. والمعنى: أنه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا. أما في الدين: فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له، مع كونهما متعاقبين على الدوام، من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين لذاتهما، بل لا بد لهما من فاعل يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة، وأما في الدنيا: فلأن مصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وعلى هذا القول: تكون الإضافة في آية الليل والنهار للتبيين، والتقدير: فمحونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي نفس النهار مبصرة، ونظيره قولنا: نفس الشيء وذاته، فكذلك آية الليل هي نفس الليل. ويقال أيضًا: دخلت بلاد خراسان أي دخلت البلاد التي هي خراسان، فكذلك ههنا.

القول الثاني: أن يكون المراد وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر، فمحونا آية الليل وهي القمر، وفي تفسير محو القمر قولان:

القول الأول: المراد منه ما يظهر في القمر من الزيادة والنقصان في النور، فيبدو في أول الأمر في صورة الهلال، ثم لا يزال يتزايد نوره حتى يصير بدرًا كاملاً، ثم يأخذ في الانتقاص قليلاً قليلاً، وذلك هو المحو، إلى أن يعود إلى المحاق.

والقول الثاني: المراد من محو القمر الكلف الذي يظهر في وجهه يروى أن الشمس والقمر كانا سواء في النور والضوء، فأرسل الله جبريل عليه الصلاة والسلام فأمر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء. ومعنى المحو في اللغة: إذهاب الأثر، تقول: محوته أمحوه وانمحى

وامتحى إذا ذهب أثره، وأقول: حمل المحو في هذه الآية على الوجه الأول أولى، وذلك لأن اللام في قوله: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ متعلق بما هو مذكور قبل، وهو محو آية الليل. وجعل آية النهار مبصرة ومحو آية الليل إنما يؤثر في ابتغاء فضل الله. إذا حملنا المحو على زيادة نور القمر ونقصانه، لأن سبب حصول هذه الحالة يختلف بأحوال نور القمر، وأهل التجارب بينوا أن اختلاف أحوال القمر في مقادير النور له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ومصالحه، مثل أحوال البحار في المد والجزر، ومثل أحوال التجربات على ما تذكره الأطباء في كتبهم، وأيضًا بسبب زيادة نور القمر ونقصانه يحصل الشهور، وبسبب معاودة الشهور يحصل السنون العربية المبنية على رؤية الأهلة كما قال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فثبت أن حمل المحو على ما ذكرناه أولى. وأقول أيضًا: لو حملنا المحو على الكلف الحاصل في وجه القمر، فهو أيضًا برهان عظيم قاهر على صحة قول المسلمين في المبدأ والمعاد، أما دلالته على صحة قولهم في المبدأ، فلأن جرم القمر جرم بسيط عند الفلاسفة، فوجب أن يكون متشابه الصفات، فحصول الأحوال المختلفة الحاصلة بسبب المحو يدل على أنه ليس بسبب الطبيعة، بل لأجل أن الفاعل المختار خصص بعض أجزائه بالنور القوي، وبعض أجزائه بالنور الضعيف، وذلك يدل على أن مدبر العالم فاعل مختار لا موجب بالذات. وأحسن ما ذكره الفلاسفة في الاعتذار عنه، أنه ارتكز في وجه القمر أجسام قليلة الضوء، مثل ارتكاز الكواكب في أجرام الأفلاك، فلما كانت تلك الأجرام أقل ضوأ من جرم القمر، لا جرم شوهدت تلك الأجرام في وجه القمر كالكلف في وجه الإنسان، وهذا لا يفيد مقصود الخصم، لأن جرم القمر لما كان متشابه الأجزاء فلم ارتكزت تلك الأجرام الظلمانية في بعض أجزاء القمر دون سائر الأجزاء؟ وبمثل هذا الطريق يتمسك في أحوال الكواكب، وذلك لأن الفلك جرم بسيط متشابه الأجزاء فلم لم يكن حصول جرم الكواكب في بعض جوانبه أولى من حصوله في سائر الجوانب؟ وذلك يدل على أن اختصاص ذلك الكوكب بذلك الموضع المعين من الفلك لأجل تخصيص الفاعل المختار، وكل هذه الدلائل إنما يراد من تقريرها وإيرادها التنبيه على أن المؤثر في العالم فاعل بالاختيار لا موجب بالذات، والله أعلم.

أما قوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾.

ففيه وجهان:

الأول: أن معنى كونها مبصرة أي مضيئة وذلك لأن الإضاءة سبب لحصول الإبصار، فأطلق اسم الإبصار على الإضاءة إطلاقًا لاسم المسبب على السبب.

والثاني: قال أبو عبيدة يقال: قد أبصر النهار إذا صار الناس يبصرون فيه، كقوله: رجل مخبث إذا كان أصحابه خبثاء، ورجل مضعف إذا كانت ذراريه ضعافًا، فكذا قوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]، أي أهله بصراء.

واعلم أنه تعالى ذكر في آيات كثيرة منافع الليل والنهار، قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠، ١١] وقال أيضًا: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

ثم قال تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي لتبصروا كيف تتصرفون في أعمالكم ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

واعلم أن الحساب مبني على أربع مراتب: الساعات والأيام والشهور والسنون، فالعدد للسنين، والحساب لما دون السنين، وهي الشهور والأيام والساعات، وبعد هذه المراتب الأربع لا يحصل إلا التكرار كما أنهم رتبوا العدد على أربع مراتب: الآحاد والعشرات والمئات والألوف، وليس بعدها إلا التكرار، والله أعلم.

ثم قال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ والمعنى: أنه تعالى لما ذكر أحوال آيتي الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد، ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على أهل الدنيا، فلما شرح الله تعالى حالهما وفصل ما فيهما من وجوه الدلالة على الخالق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق، كان ذلك تفصيلاً نافعًا وبيانًا كاملاً، فلا جرم قال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي كل شيء بكم إليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم، فقد فصلناه وشرحناه، وهو كقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] وإنما ذكر المصدر وهو قوله: ﴿تَفْصِيلًا﴾ لأجل تأكيد الكلام وتقريره، كأنه قال: وفصلناه حقًا وفصلناه على الوجه الذي لا مزيد عليه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ ﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في كيفية النظم وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى لما قال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ كان معناه أن كل ما يحتاج إليه من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد فقد صار مذكورًا. وكل ما يحتاج إليه من شرح أحوال الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فقد صار مذكورًا. وإذا كان الأمر كذلك فقد أزيحت الأعذار، وأزيلت العلل فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فقد ألزمناه طائره في عنقه ونقول له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

الوجه الثاني: أنه تعالى لما بين أنه أوصل إلى الخلق أصناف الأشياء النافعة لهم في الدين والدنيا، مثل آيتي الليل والنهار وغيرهما كان منعمًا عليهم بأعظم وجوه النعم. وذلك يقتضي

وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فإنه يكون مسؤولاً عن أعماله وأقواله.

الوجه الثالث: في تقرير النظم أنه تعالى لما بين أنه ما خلق الخلق إلا ليشتغلوا بعبادته كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فلما شرح أحوال الشمس والقمر والليل والنهار، كان المعنى: إني إنما خلقت هذه الأشياء لتنتفعوا بها فتصيروا متمكنين من الاشتغال بطاعتي وخدمتي، وإذا كان كذلك فكل من ورد عرصة القيامة سألته أنه هل أتى بتلك الخدمة والطاعة، أو تمرد وعصى وبغى، فهذا هو الوجه في تقرير النظم.

المسألة الثانية: في تفسير لفظ، الطائر، قولان:

القول الأول: أن العرب إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خير أو إلى شر اعتبروا أحوال الطير وهو أنه يطير بنفسه، أو يحتاج إلى إزعاجه، وإذا طار فهل يطير متيامنًا أو متياسرًا أو صاعدًا إلى الجو إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة، فلما كثر ذلك منهم سمي الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه ونظيره قوله تعالى في سورة يس: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨] إلى قوله: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩] فقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ أي كل إنسان ألزمناه عمله في عنقه. وتدل على صحة هذا الوجه قراءة الحسن ومجاهد: (ألزمناه طيره فى عنقه).

القول الثاني: قال أبو عبيدة: الطائر عند العرب الحظ وهو الذي تسميه الفرس البخت، وعلى هذا يجوز أن يكون معنى الطائر ما طار له من خير وشر، والتحقيق في هذا الباب أنه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والعلم، والعمر والرزق، والسعادة والشقاوة. والإنسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك القدر وأن ينحرف عنه، بل لا بد وأن يصل إلى ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية، فتلك الأشياء المقدورة كأنها تطير إليه وتصير إليه، فبهذا المعنى لا يبعد أن يعبر عن تلك الأحوال المقدرة بلفظ الطائر، فقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ كناية عن أن كل ما قدره الله تعالى ومضى في علمه حصوله، فهو لازم له واصل إليه غير منحرف عنه.

واعلم أن هذا من أدل الدلائل على أن كل ما قدره الله تعالى للإنسان وحكم عليه به في سابق علمه فهو واجب الوقوع ممتنع العدم، وتقريره من وجهين:

الوجه الأول: أن تقدير الآية: وكل إنسان ألزمناه عمله في عنقه، فبين تعالى أن ذلك العمل لازم له، وما كان لازمًا للشيء كان ممتنع الزوال عنه واجب الحصول له وهو المقصود.

والوجه الثاني: أنه تعالى أضاف ذلك الإلزام إلى نفسه، لأن قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾ تصريح بأن ذلك الإلزام إنما صدر منه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] وهذه الآية دالة

على أنه لا يظهر في الأبد إلا ما حكم الله به في الأزل، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ كناية عن اللزوم كما يقال: جعلت هذا في عنقك أي قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به، ويقال: قلدتك كذا وطوقتك كذا، أي صرفته إليك وألزمته إياك، ومنه قلده السلطان كذا. أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق، ومنه يقال: فلان يقلد فلانًا أي جعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه. قال أهل المعاني: وإنما خص العنق من بين سائر الأعضاء بهذا المعنى لأن الذي يكون عليه إما أن يكون خيرًا يزينه أو شرًا يشينه، وما يزين يكون كالطوق والحلي، والذي يشين فهو كالغل، فههنا عمله إن كان من الخيرات كان زينة له، وإن كان من المعاصي كان كالغل على رقبته.

ثم قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ قال الحسن: يا ابن آدم بسطنا لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وشمالك. فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة[1]. قوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾ أي من قبره يجوز أن يكون معناه: نخرج له ذلك لأنه لم ير كتابه في الدنيا فإذا بعث أظهر له ذلك وأخرج من الستر، وقرأ يعقوب: (ويخرج له يوم القيامة كتابًا) أي يخرج له الطائر أي عمله كتابًا منشورًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠] وقرأ ابن عامر: (يُلَقَّاه) من قولهم: لقَّيت فلانًا الشيء أي استقبلته به. قال تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] وهو منقول بالتشديد من لقيت الشيء ولقانيه زيد.

ثم قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ والتقدير يقال له: وهذا القائل هو الله تعالى على ألسنة الملائكة ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ قال الحسن: يقرؤه أميًا كان أو غير أمي، وقال أبو بكر بن عبد الله: يؤتى بالمؤمن يوم القيامة بصحيفته وهو يقرؤها وحسناته في ظهرها يغبطه الناس عليها، وسيئاته في جوف صحيفته وهو يقرؤها، حتى إذا ظن أنها قد أوبقته قال الله تعالى: «**اذْهَبْ فَقَدْ غَفَرْتُهَا لَكَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ**» فيعظم سروره، ويصير من الذين قال في حقهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩] ثم يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وأما قوله: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي محاسبًا. قال الحسن: عدل والله في حقك من جعلك حسيب نفسك. قال السدي: يقول الكافر يومئذ إنك قضيت أنك لست بظلام للعبيد، فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قال حكماء الإسلام: هذه الآية في غاية الشرف، وفيها أسرار عجيبة في أبحاث:

---

(١) **موقوف**: أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٥٢) من طريق سعيد عن قتادة... به، ورواه عبد الرزاق في تفسيره(٦/ ٤١٦) حديث رقم/ ٢٨٦٢، من كلام الحسن رضي الله عنه.

البحث الأول: أنه تعالى جعل فعل العبد كالطير الذي يطير إليه، وذلك لأنه تعالى قدر لكل أحد في الأزل مقدارًا من الخير والشر، فذلك الحكم الذي سبق في علمه الأزلي وحكمه الأزلي لا بد وأن يصل إليه، فذلك الحكم كأنه طائر يطير إليه من الأزل إلى ذلك الوقت، فإذا حضر ذلك الوقت وصل إليه ذلك الطائر وصولاً لا خلاص له ألبتة ولا انحراف عنه ألبتة. وإذا علم الإنسان في كل قول وفعل ولمحة وفكرة أنه كان ذلك بمنزلة طائر طيره الله إليه على منهج معين وطريق معين، وأنه لا بد وأن يصل إليه ذلك الطائر، فعند ذلك عرف أن الكفاية الأبدية لا تتم إلا بالعناية الأزلية.

والبحث الثاني: أن هذه التقديرات إنما تقدرت بإلزام الله تعالى. وذلك باعتبار أنه تعالى جعل لكل حادث حادثًا متقدمًا عليه لحصول الحادث المتأخر، فلما كان وضع هذه السلسلة من الله لا جرم كان الكل من الله، وعند هذا يتخيل الإنسان طيورًا لا نهاية لها ولا غاية لأعدادها، فإنه تعالى طيرها من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب، وأنها صارت وطارت طيرانًا لا بداية له ولا غاية له، وكان كل واحد منها متوجهًا إلى ذلك الإنسان المعين في الوقت المعين بالصفة المعينة، وهذا هو المراد من قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.

البحث الثالث: أن التجربة تدل على أن تكرار الأعمال الاختيارية تفيد حدوث الملكة النفسانية الراسخة في جوهر النفس، ألا ترى أن من واظب على تكرار قراءة درس واحد صار ذلك الدرس محفوظًا، ومن واظب على عمل واحد مدة مديدة صار ذلك العمل ملكة له.

إذا عرفت هذا فنقول: لما كان التكرار الكثير يوجب حصول الملكة الراسخة وجب أن يحصل لكل واحد من تلك الأعمال أثر ما في جوهر النفس، فإنا لما رأينا أن عند توالي القطرات الكثيرة من الماء على الحجر حصلت الثقبة في الحجر، علمنا أن لكل واحد من تلك القطرات أثرًا ما في حصول ذلك الثقب وإن كان ضعيفًا قليلاً، وإن كانت الكتابة أيضًا في عرف الناس عبارة عن نقوش مخصوصة اصطلح الناس على جعلها معرفات لألفاظ مخصوصة، فعلى هذا، دلالة تلك النقوش على تلك المعاني المخصوصة دلالة كائنة جوهرية واجبة الثبوت، ممتنعة الزوال، كان الكتاب المشتمل على تلك النقوش أولى باسم الكتاب من الصحيفة المشتملة على النقوش الدالة بالوضع والاصطلاح.

وإذا عرفت هاتين المقدمتين فنقول: إن كل عمل يصدر من الإنسان كثيرًا كان أو قليلاً قويًا كان أو ضعيفًا، فإنه يحصل منه لا محالة في جوهر النفس الإنسانية أثر مخصوص، فإن كان ذلك الأثر أثرًا لجذب جوهر الروح من الخلق إلى حضرة الحق كان ذلك من موجبات السعادات والكرامات. وإن كان ذلك الأثر أثرًا لجذب الروح من حضرة الحق إلى الاشتغال بالخلق كان ذلك من موجبات الشقاوة والخذلان. إلا أن تلك الآثار تخفى ما دام الروح متعلقًا بالبدن، لأن اشتغال الروح بتدبير البدن يمنع من انكشاف هذه الأحوال وتجليها وظهورها، فإذا انقطع تعلق

الروح عن تدبير البدن فهناك تحصل القيامة لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ» ومعنى كون هذه الحالة قيامة أن النفس الناطقة كأنها كانت ساكنة مستقرة في هذا الجسد السفلي، فإذا انقطع ذلك التعلق، قامت النفس وتوجهت نحو الصعود إلى العالم العلوي، فهذا هو المراد من كون هذه الحالة قيامة، ثم عند حصول القيامة بهذا المعنى زال الغطاء وانكشف الوطاء، وقيل له ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ معناه: ونخرج له عند حصول هذه القيامة من عمق البدن المظلم كتابًا مشتملاً على جميع تلك الآثار الحاصلة بسبب الأحوال الدنيوية، ويكون هذا الكتاب في هذا الوقت منشورًا، لأن الروح حين كانت في البدن كانت هذه الأحوال فيه مخفية فكانت كالمطوية. أما بعد انقطاع التعلق الجسداني ظهرت هذه الأحوال وجلت وانكشفت فصارت كأنها مكشوفة منشورة بعد أن كانت مطوية، وظاهرة بعد أن كانت مخفية، وعند ذلك تشاهد القوة العقلية جميع تلك الآثار مكتوبة بالكتابة الذاتية في جوهر الروح فيقال له في تلك الحالة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ﴾ ثم يقال له: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ فإن تلك الآثار إن كانت من موجبات السعادة حصلت السعادة لا محالة، وإن كانت من موجبات الشقاوة حصلت الشقاوة لا محالة، فهذا تفسير هذه الآية بحسب الأحوال الروحانية.

واعلم أن الحق أن الأحوال الظاهرة التي وردت فيها الروايات حق وصدق لا مرية فيها، واحتمال الآية لهذه المعاني الروحانية ظاهر أيضًا، والمنهج القويم والصراط المستقيم هو الإقرار بالكل، والله أعلم بحقائق الأمور.

قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما قال في الآية الأولى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] ومعناه: أن كل أحد مختص بعمل نفسه، عبر عن هذا المعنى بعبارة أخرى أقرب إلى الأفهام وأبعد عن الغلط فقال: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ يعني أن ثواب العمل الصالح مختص بفاعله، ولا يتعدى منه إلى غيره، ويتأكد هذا بقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٩، ٤٠] قال الكعبي: الآية دالة على أن العبد متمكن من الخير والشر، وأنه غير مجبور على عمل بعينه أصلاً لأن قوله: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ إنما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء وأراد، أما المجبور على أحد الطرفين، الممنوع من الطرف الثاني فهذا لا يليق به.

المسألة الثانية: أنه تعالى أعاد تقرير أن كل أحد مختص بأثر عمل نفسه بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ

﴿وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ قال الزجاج: يقال وزر يزر فهو وازر ووزر وزرا وزرة، ومعناه: أثم يأثم إثمًا قال: وفي تأويل الآية وجهان:

الأول: أن المذنب لا يؤاخذ بذنب غيره، وأيضًا غيره لا يؤاخذ بذنبه بل كل أحد مختص بذنب نفسه.

والثاني: أنه لا ينبغي أن يعمل الإنسان بالإثم، لأن غيره عمله كما قال الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

واعلم أن الناس تمسكوا بهذه الآية في إثبات أحكام كثيرة.

الحكم الأول

قال الجبائي في الآية دلالة على أنه تعالى لا يعذب الأطفال بكفر آبائهم، وإلا لكان الطفل مؤاخذًا بذنب أبيه، وذلك على خلاف ظاهر هذه الآية.

الحكم الثاني

روى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ»[1] فعائشة طعنت في صحة هذا الخبر، واحتجت على صحة ذلك الطعن بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ فإن تعذيب الميت بسبب بكاء أهله أخذ للإنسان بجرم غيره، وذلك خلاف هذه الآية.

الحكم الثالث

قال القاضي: دلت هذه الآية على أن الوزر والإثم ليس من فعل الله تعالى. وبيانه من وجوه: أحدها: أنه لو كان كذلك لامتنع أن يؤاخذ العبد به كما لا يؤاخذ بوزر غيره. وثانيها: أنه كان يجب ارتفاع الوزر أصلاً، لأن الوازر إنما يصح أن يوصف بذلك إذا كان مختارًا يمكنه التحرز، ولهذا المعنى لا يوصف الصبي بهذا.

الحكم الرابع

أن جماعة من قدماء الفقهاء امتنعوا من ضرب الدية على العاقلة، وقالوا: لأن ذلك يقتضي مؤاخذة الإنسان بسبب فعل الغير، وذلك على مضادة هذه الآية.

وأجيب عنه بأن المخطىء ليس بمؤاخذ على ذلك الفعل، فكيف يصير غيره مؤاخذًا بسبب ذلك الفعل، بل ذلك تكليف واقع على سبيل الابتداء من الله تعالى.

المسألة الثالثة: قال أصحابنا وجوب شكر المنعم لا يثبت بالعقل بل بالسمع، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ وجه الاستدلال أن الوجوب لا تتقرر ماهيته إلا

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (المغازي) باب (قتل أبي جهل) (٧/ ٣٥١) حديث رقم/ ٣٩٧٨، ومسلم في كتاب (الجنائز) باب (الميت يعذب ببكاء أهله) (٢/ ٦٤٣/ ٢٦) كلاهما من طريق هشام... به.

بترتيب العقاب على الترك، ولا عقاب قبل الشرع بحكم هذه الآية، فوجب أن لا يتحقق الوجوب قبل الشرع. ثم أكدوا هذه الآية بقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وبقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

ولقائل أن يقول: هذا الاستدلال ضعيف، وبيانه من وجهين: الأول: أن نقول: لو لم يثبت الوجوب العقلي لم يثبت الوجوب الشرعي ألبتة، وهذا باطل فذاك باطل بيان الملازمة من وجوه: **أحدها:** أنه إذا جاء المشرع وادعى كونه نبيًا من عند الله تعالى وأظهر المعجزة، فهل يجب على المستمع استماع قوله والتأمل في معجزاته أو لا يجب؟ فإن لم يجب فقد بطل القول بالنبوة. وإن وجب، فإما أن يجب بالعقل أو بالشرع فإن وجب بالعقل فقد ثبت الوجوب العقلي، وإن وجب بالشرع فهو باطل، لأن ذلك الشرع إما أن يكون هو ذلك المدعي أو غيره، والأول باطل لأنه يرجع حاصل الكلام إلى أن ذلك الرجل يقول: الدليل على أنه يجب قبول قولي أني أقول إنه يجب قبول قولي، وهذا إثبات للشيء بنفسه، وإن كان ذلك الشارع غيره كان الكلام فيه كما في الأول، ولزم إما الدور أو التسلسل وهما محالان. **وثانيها:** أن الشرع إذا جاء وأوجب بعض الأفعال، وحرَّم بعضها فلا معنى للإيجاب والتحريم، إلا أن يقول: لو تركت كذا وفعلت كذا لعاقبتك فنقول: إما أن يجب عليه الاحتراز عن العقاب أو لا يجب، فلو لم يجب عليه الاحتراز عن العقاب لم يتقرر معنى الوجوب ألبتة، وهذا باطل فذاك باطل، وإن وجب عليه الاحتراز عن العقاب، فإما أن يجب بالعقل أو بالسمع، فإن وجب بالعقل فهو المقصود، وإن وجب بالسمع لم يتقرر معنى هذا الوجوب إلا بسبب ترتيب العقاب عليه، وحينئذ يعود التقسيم الأول ويلزم التسلسل وهو محال. **وثالثها:** أن مذهب أهل السنة أنه يجوز من الله تعالى أن يعفو عن العقاب على ترك الواجب وإذا كان كذلك كانت ماهية الوجوب حاصلة مع عدم العقاب، فلم يبق إلا أن يقال: إن ماهية الواجب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من العقاب، وهذا الخوف حاصل بمحض العقل، فثبت أن ماهية الوجوب إنما تحصل بسبب هذا الخوف، وثبت أن هذا الخوف حاصل بمجرد العقل، فلزم أن يقال: الوجوب حاصل بمحض العقل.

فإن قالوا: ماهية الوجوب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم؟

قلنا: إنه تعالى إذا عفا فقد سقط الذم، فعلى هذا ماهية الوجوب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم وذلك حاصل بمحض العقل، فثبت بهذه الوجوه أن الوجوب العقلي لا يمكن دفعه.

وإذا ثبت هذا فنقول: في الآية قولان: الأول: أن نجري الآية على ظاهرها. ونقول: العقل هو رسول الله إلى الخلق، بل هو الرسول الذي لولاه لما تقررت رسالة أحد من الأنبياء، فالعقل هو الرسول الأصلي، فكان معنى الآية وما كنا معذبين حتى نبعث رسول العقل. والثاني: أن نخصص عموم الآية فنقول: المراد وما كنا معذبين في الأعمال التي لا سبيل إلى معرفة وجوبها

إلا بالشرع إلا بعد مجيء الشرع، وتخصيص العموم وإن كان عدولاً عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه عند قيام الدلائل، وقد بينا قيام الدلائل الثلاثة، على أنا لو نفينا الوجوب العقلي لزمنا نفي الوجوب الشرعي، والله أعلم.

واعلم أن الذي نرتضيه ونذهب إليه أن مجرد العقل سبب في أن يجب علينا فعل ما ينتفع به، وترك ما يتضرر به، أما مجرد العقل لا يدل على أنه يجب على الله تعالى شيء. وذلك لأنا مجبولون على طلب النفع والاحتراز عن الضرر، فلا جرم كان العقل وحده كافيًا في الوجوب في حقنا والله تعالى منزه عن طلب النفع والهرب من الضرر، فامتنع أن يحكم العقل عليه بوجوب فعل أو ترك فعل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ في تفسير هذا الأمر قولان:

القول الأول: أن المراد منه الأمر بالفعل، ثم إن لفظ الآية لا يدل على أنه تعالى بماذا يأمرهم فقال الأكثرون: معناه أنه تعالى يأمرهم بالطاعات والخيرات، ثم إنهم يخالفون ذلك الأمر ويفسقون وقال صاحب (الكشاف): ظاهر اللفظ يدل على أنه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون، إلا أن هذا مجاز ومعناه أنه فتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضي ما ذكرناه، أن المأمور به إنما حذف لأن قوله؛ ﴿فَفَسَقُواْ﴾ يدل عليه يقال: أمرته فقام، وأمرته فقرأ لا يفهم منه، إلا أن المأمور به قيام أو قراءة فكذا ههنا لما قال: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ وجب أن يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصاني أو فخالفني فإن هذا لا يفهم منه أني أمرته بالمعصية والمخالفة؛ لأنا نقول: إن المعصية منافية للأمر ومناقضة له، فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به فكونه فسقًا ينافي كونه مأمورًا به، كما أن كونها معصية ينافي كونها مأمورًا بها، فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق، وهذا الكلام في غاية الظهور فلا أدري لم أصر صاحب (الكشاف) على قوله مع ظهور فساده، فثبت أن الحق ما ذكره الكل وهو أن المعنى أمرناهم بالأعمال الصالحة وهي الإيمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الأمر عنادًا وأقدموا على الفسق.

القول الثاني: في تفسير قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي أكثرنا فساقها. قال الواحدي: العرب تقول أمر القوم إذا كثروا. وأمرهم الله إذ كثرهم، وآمرهم أيضًا بالمد، روى الجرمي عن أبي زيد أمر الله

القوم وآمرهم، أي كثرهم. واحتج أبو عبيدة على صحة هذه اللغة بقوله ﷺ: «خَيْرُ الْمَالِ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ وَسِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ»(١) والمعنى مهرة قد كثر نسلها يقولون: أمر الله المهرة أي كثر ولدها ومن الناس من أنكر أن يكون أمر بمعنى كثر وقالوا أمر القوم إذا كثروا وآمرهم الله بالمد أي كثرهم، وحملوا قوله عليه الصلاة والسلام: «مهرة مَأْمُورَةٌ» على أن المراد كونها مأمورة بتكثير النسل على سبيل الاستعارة. وأما المترف: فمعناه في اللغة المتنعم الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي خرجوا عما أمرهم الله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ يريد: استوجبت العذاب، وهذا كالتفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩] وقوله: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١] فلما حكم تعالى في هذه الآيات أنه تعالى لا يهلك قرية حتى يخالفوا أمر الله، فلا جرم ذكر هاهنا أنه يأمرهم فإذا خالفوا الأمر، فعند ذلك استوجبوا الإهلاك المعبر عنه بقوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ وقوله: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكناها إهلاك الاستئصال. والدمار هلاك على سبيل الاستئصال.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم من وجوه: **الأول:** أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى أراد إيصال الضرر إليهم ابتداء ثم توسل إلى إهلاكهم بهذا الطريق. **الثاني:** أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى إنما خص المترفين بذلك الأمر لعلمه بأنهم يفسقون، وذلك يدل على أنه تعالى أراد منهم الفسق، **والثالث:** أنه تعالى قال: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ بالتعذيب والكفر، ومتى حق عليها القول بذلك امتنع صدور الإيمان منهم، لأن ذلك يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبًا وذلك محال، والمفضي إلى المحال محال. قال الكعبي: إن سائر الآيات دلت على أنه تعالى لا يبتدىء بالتعذيب والإهلاك لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وقوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] فكل هذه الآيات تدل على أنه تعالى لا يبتدىء بالإضرار، وأيضًا ما قبل هذه الآية يدل على هذا المعنى وهو قوله: ﴿مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥] ومن المحال أن يقع

---

(١) إسناد ضعيف: أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ٤٦٨) والطبراني في (الكبير) (٧/ ٩١) حديث رقم/ ٦٤٧٠، والشيباني في (الآحاد والمثاني) (٢/ ٤٢٤) حديث رقم/ ١٢١٦، والقضاعي في (مسند الشهاب) (٢/ ٢٣١) حديث رقم/ ١٢٥١، والحارث في (مسنده) (١/ ٤٨٨) حديث رقم/ ٤٢٢، والبيهقي في (سننه الكبرى) (١٠/ ٦٤) جميعا من طريق مسلم بن بديل عن إياس بن زهير عن سويد بن هبيرة. . . به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٥/ ٢٥٨) وقال: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات، سويد بن هبيرة تابعي قاله ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل) (٤/ ٢٣٣) وقال: تابعي وليست له صحبه كذا رواه عبد الوارث ومعاذ بن معاذ عن أبي نعامة عن إياس بن زهير عن سويد بن هبيرة قال بلغني عن النبي أنه قال في السكة وغلط روح بن عبادة فروى عن أبي نعامة عن إياس بن زهير عن سويد بن هبيرة قال سمعت النبي سمعت أبي يقول ذلك.

بين آيات القرآن تناقض، فثبت أن الآيات التي تلوناها محكمة، وكذا الآية التي نحن في تفسيرها، فيجب حمل هذه الآية على تلك الآيات هذا ما قاله الكعبي، واعلم أن أحسن الناس كلامًا في تأويل هذه الآية على وجه يوافق قول المعتزلة: القفال. فإنه ذكر فيه وجهين:

الوجه الأول: قال إنه تعالى أخبر أنه لا يعذب أحدًا بما يعلمه منه ما لم يعمل به، أي لا يجعل علمه حجة على من علم أنه إن أمره عصاه بل يأمره فإذا ظهر عصيانه للناس فحينئذ يعاقبه فقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ معناه: وإذا أردنا إمضاء ما سبق من القضاء بإهلاك قوم أمرنا المتنعمين المتعززين الظانين أن أموالهم وأولادهم وأنصارهم ترد عنهم بأسنا بالإيمان بي والعمل بشرائع ديني على ما بلغهم عني رسولي، ففسقوا فحينئذ يحق عليهم القضاء السابق بإهلاكهم لظهور معاصيهم فحينئذ دمرناها، والحاصل أن المعنى: وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لا يقدمون إلا على المعصية لم نكتف في تحقيق ذلك الإهلاك بمجرد ذلك العلم، بل أمرنا مترفيها ففسقوا، فإذا ظهر منهم ذلك الفسق فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به.

والوجه الثاني: في التأويل أن تقول: وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصي من أهلها لم نعاجلهم بالعذاب في أول ظهور المعاصي منهم، بل أمرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصي، وإنما خص المترفين بذلك الأمر، لأن المترف هو المتنعم ومن كثرت نعم الله عليه كان قيامه بالشكر أوجب، فإذا أمرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد أخرى مع أنه تعالى لا يقطع عنهم تلك النعم بل يزيدها حالاً بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم وبعدهم عن الرجوع عن الباطل إلى الحق، فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صبًا، ثم قال القفال: وهذان التأويلان راجعان إلى أن الله تعالى أخبر عباده أنه لا يعاجل بالعقوبة أمة ظالمة حتى يعذر إليهم غاية الإعذار الذي يقع منه اليأس من إيمانهم، كما قال في قوم نوح: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] وقال: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وقال في غيرهم: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ﴾ [يونس: ٧٤] فأخبر تعالى أولاً أنه لا يظهر العذاب إلا بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام. ثم أخبر ثانيًا في هذه الآية أنه إذا بعث الرسول أيضًا فكذبوا لم يعاجلهم بالعذاب، بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ، فإن بقوا مصرين على الذنوب فهناك ينزل عليهم عذاب الاستئصال، وهذا التأويل الذي ذكره القفال في تطبيق الآية على قول المعتزلة لم يتيسر لأحد من شيوخ المعتزلة مثله.

وأجاب الجبائي بأن قال: ليس المراد من الآية أنه تعالى يريد إهلاكهم قبل أن يعصوا ويستحقوا، وذلك لأنه ظلم وهو على الله محال، بل المراد من الإرادة قرب تلك الحالة فكان التقدير وإذا قرب وقت إهلاك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وهو كقول القائل: إذا أراد المريض أن يموت ازدادت أمراضه شدة، وإذا أراد التاجر أن يفتقر أتاه الخسران من كل جهة، وليس المراد أن المريض يريد أن يموت، والتاجر يريد أن يفتقر وإنما يعنون أنه سيصير كذلك فكذا هاهنا.

واعلم أن جميع الوجوه الثلاثة التي ذكرناها في التمسك بهذه الآية، لا شك أن كلها عدول عن ظاهر اللفظ، أما الوجه الثاني والثالث فقد بقي سليمًا عن الطعن، والله أعلم.

المسألة الثالثة: المشهور عند القراء السبعة: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بالتخفيف غير ممدودة الألف، وروي برواية غير مشهورة عن نافع وابن عباس: (آمَرْنَا) بالمد، وعن أبي عمرو (أَمَّرْنَا) بالتشديد فالمد على الكثير يقال: أَمِرَ القوم بكسر الميم إذا كثروا وآمرهم الله بالمد، أي كثرهم الله. والتشديد على التسليط، أي سلطنا مترفيها، ومعناه التخلية وزوال المنع بالقهر، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ فاعلم أن المراد أن الطريق الذي ذكرناه هو عادتنا مع الذين يفسقون ويتمردون فيما تقدم من القرون الذين كانوا بعد نوح. وهم عاد وثمود وغيرهم، ثم إنه تعالى خاطب رسوله بما يكون خطابًا لغيره وردعًا وزجرًا للكل فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: أنه تعالى عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات فلا يخفى عليه شيء من أحوال الخلق، وثبت أنه قادر على كل الممكنات فكان قادرًا على إيصال الجزاء إلى كل أحد بقدر استحقاقه. وأيضًا أنه منزه عن العبث والظلم. ومجموع هذه الصفات الثلاث أعني العلم التام، والقدرة الكاملة، والبراءة عن الظلم بشارة عظيمة لأهل الطاعة. وخوف عظيم لأهل الكفر والمعصية.

البحث الثاني: قال الفراء: لو ألغيت الباء من قولك ﴿بِرَبِّكَ﴾ جاز، وإنما يجوز دخول الباء في المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم. كقولك: كفاك به. وأكرم به رجلاً. وطاب بطعامك طعامًا. وجاد بثوبك ثوبًا، أما إذا لم يكن مدحًا أو ذمًا لم يجز دخولها، فلا يجوز أن يقال: قام بأخيك وأنت تريد قام أخوك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال القفال رحمه الله: هذه الآية داخلة في معنى قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] ومعناه: أن الكمال في الدنيا قسمان، فمنهم من يريد بالذي يعمله

الدنيا ومنافعها والرياسة فيها، فهذا يأنف من الانقياد للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والدخول في طاعتهم والإجابة لدعوتهم، إشفاقًا من زوال الرياسة عنه، فهذا قد جعل طائر نفسه شؤمًا لأنه في قبضة الله تعالى فيؤتيه الله في الدنيا منها قدرًا لا كما يشاء ذلك الإنسان، بل كما يشاء الله إلا أن عاقبته جهنم يدخلها فيصلاها بحرها مذمومًا ملومًا مدحورًا منفيًا مطرودًا من رحمة الله تعالى. وفي لفظ هذه الآية فوائد.

الفائدة الأولى: أن العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالإهانة والذم بشرط أن تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة، فقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ إشارة إلى المضرة العظيمة، وقوله: ﴿مَذْمُومًا﴾ إشارة إلى الإهانة والذم، وقوله: ﴿مَّدْحُورًا﴾ إشارة إلى البعد والطرد عن رحمة الله، وهي تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص.

الفائدة الثانية: أن من الجهال من إذا ساعدته الدنيا اغتر بها وظن أن ذلك لأجل كرامته على الله تعالى، وأنه تعالى بين أن مساعدة الدنيا لا ينبغي أن يستدل بها على رضا الله تعالى، لأن الدنيا قد تحصل مع أن عاقبتها هي المصير إلى عذاب الله وإهانته، فهذا الإنسان أعماله تشبه طائر السوء في لزومها له وكونها سائقة له إلى أشد العذاب.

الفائدة الثالثة: قوله تعالى: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ يدل على أنه لا يحصل الفوز بالدنيا لكل أحد، بل كثير من الكفار والضلال يعرضون عن الدين في طلب الدنيا، ثم يبقون محرومين عن الدنيا وعن الدين، وهذا أيضًا فيه زجر عظيم لهؤلاء الكفار الضلال الذين يتركون الدين لطلب الدنيا، فإنه ربما فاتتهم الدنيا فهم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وأما القسم الثاني: وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فشرط تعالى فيه شروطًا ثلاثة:

الشرط الأول: أن يريد بعمله الآخرة أي ثواب الآخرة، فإنه إن لم تحصل هذه الإرادة، وهذه النية لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] ولقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»(١) ولأن المقصود من الأعمال استنارة القلب بمعرفة الله تعالى ومحبته، وهذا لا يحصل إلا إن نوى بعمله عبودية الله تعالى وطلب طاعته.

والشرط الثاني: قوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ وذلك هو أن يكون العمل الذي يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة من الأعمال التي بها ينال ثواب الآخرة، ولا يكون كذلك إلا إذا كان من باب

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأيمان والنذور) باب (النية في الأيمان) (١١/ ٥٨٠) حديث رقم/ ٦٦٨٩، ومسلم في كتاب (الإمارة) باب (قوله ﷺ إنما الأعمال بالنيات) (٣/ ١٥٥/ ١٥١٥) جميعًا من طريق يحيى ابن سعيد... به.

القرب والطاعات، وكثير من الناس يتقربون إلى الله تعالى بأعمال باطلة، فإن الكفار يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأوثان، ولهم فيه تأويلان:

التأويل الأول: يقولون: إله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على إظهار عبوديته وخدمته فليس لنا هذا القدر والدرجة ولكن غاية قدرنا أن نشتغل بعبودية بعض المقربين من عباد الله تعالى، مثل أن نشتغل بعبادة كوكب أو عبادة ملك من الملائكة، ثم إن الملك والكوكب يشتغلون بعبادة الله تعالى، فهؤلاء يتقربون إلى الله تعالى بهذا الطريق، إلا أنه لما كان فاسدًا في نفسه لا جرم لم يحصل الانتفاع به.

والتأويل الثاني لهم: أنهم قالوا: نحن اتخذنا هذه التماثيل على صور الأنبياء والأولياء، ومرادنا من عبادتها أن تصير أولئك الأنبياء والأولياء شفعاء لنا عند الله تعالى. وهذا الطريق أيضًا فاسد، وأيضًا نقل عن الهند: أنهم يتقربون إلى الله تعالى بقتل أنفسهم تارة وبإحراق أنفسهم أخرى ويبالغون في تعظيم الله تعالى، إلا أنه لما كان الطريق فاسدًا لا جرم لم ينتفع به، وكذلك القول في جميع فرق المبطلين الذين يتقربون إلى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة وأعمالهم المنحرفة عن قانون الصدق والصواب.

والشرط الثالث: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا الشرط معتبر، لأن الشرط في كون أعمال البر موجبة للثواب تقدم الإيمان، فإذا لم يوجد الشرط لم يحصل المشروط، ثم إنه تعالى أخبر أن عند حصول هذه الشرائط يصير السعي مشكورًا والعمل مبرورًا.

واعلم أن الشكر عبارة عن مجموع أمور ثلاثة: اعتقاد كونه محسنًا في تلك الأعمال، والثناء عليه بالقول، والإتيان بأفعال تدل على كونه معظمًا عند ذلك الشاكر، والله تعالى يعامل المطيعين بهذه الأمور الثلاثة، فإنه تعالى عالم بكونهم محسنين في تلك الأعمال، وإنه تعالى يثني عليهم بكلامه وإنه تعالى يعاملهم بمعاملات دالة على كونهم معظمين عند الله تعالى، وإذا كان مجموع هذه الثلاثة حاصلاً كانوا مشكورين على طاعاتهم من قبل الله تعالى، ورأيت في كتب المعتزلة أن جعفر بن حرب حضر عنده واحد من أهل السنة وقال: الدليل على أن الإيمان حصل بخلق الله تعالى أنا نشكر الله على الإيمان، ولو لم يكن الإيمان حاصلاً بإيجاده لامتنع أن نشكره عليه، لأن مدح الإنسان وشكره على ما ليس من عمله قبيح. قال الله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فعجز الحاضرون عن الجواب، فدخل ثمامة بن الأشرس وقال: إنما نمدح الله تعالى ونشكره على ما أعطانا من القدرة والعقل. وإنزال الكتب وإيضاح الدلائل، والله تعالى يشكرنا على فعل الإيمان. قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ قال فضحك جعفر بن حرب وقال: صعب المسألة فسهلت.

واعلم أن قولنا: مجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل كلام واضح، لأنه تعالى هو الذي أعطى الموجب التام لحصول الإيمان فكان هو المستحق للشكر، ولما حصل الإيمان للعبد

وكان الإيمان موجبًا للسعادة التامة صار العبد أيضًا مشكورًا ولا منافاة بين الأمرين.

المسألة الثانية: اعلم أن كل من أتى بفعل فإما أن يقصد بذلك الفعل تحصيل خيرات الدنيا، أو تحصيل خيرات الآخرة، أو يقصد به مجموعهما، أو لم يقصد به واحدًا منهما، هذا هو التقسيم الصحيح، أما إن قصد به تحصيل الدنيا فقط أو تحصيل الآخرة فقط، فالله تعالى ذكر حكم هذين القسمين في هذه الآية.

أما القسم الثالث: فهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام، لأنه إما أن يكون طلب الآخرة راجحًا أو مرجوحًا، أو يكون الطلبان متعادلين.

أما القسم الأول: وهو أن يكون طلب الآخرة راجحًا، فهل يكون هذا العمل مقبولاً عند الله تعالى فيه بحث، يحتمل أن يقال: إنه غير مقبول لما روي أن النبي ﷺ حكى عن رب العزة أنه قال: «أَنَا أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشَرِيكَهُ»(١) وأيضًا فطلب رضوان الله إما أن يقال: إنه كان سببًا مستقلاً بكونه باعثًا على ذلك الفعل أو داعيًا إليه، وإما أن يقال: ما كان كذلك، فإن كان الأول امتنع أن يكون لغيره مدخل في ذلك البعث والدعاء، لأن الحكم إذا حصل مسندًا إلى سبب تام كامل امتنع أن يكون لغيره مدخل فيه، وإن كان الثاني فحينئذ يكون الحامل على ذلك الفعل والداعي إليه ذلك المجموع، وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله تعالى، لأن المجموع الحاصل من الشيء ومن غيره يجب كونه مغايرًا لكل واحد من جزئيه فهذا القسم التحق بالقسم الذي كان الداعي إليه مغايرًا لطلب رضوان الله تعالى فوجب أن يكون مقبولاً، ويمكن أن يقال لما كان طلب الآخرة راجحًا على طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فيبقى القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فوجب كونه مقبولاً، وأما إذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين، أو كان طلب الدنيا راجحًا فهذا قد اتفقوا على أنه غير مقبول إلا أنه على كل حال خير مما إذا كان طلب الدنيا خاليًا بالكلية عن طلب الآخرة.

وأما القسم الرابع: وهو أن يقال إنه أقدم على ذلك الفعل من غير داع فهذا بناء على أن صدور الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعي أم لا؟ فالذين يقولون إنه متوقف قالوا هذا القسم ممتنع الحصول، والذين قالوا: إنه لا يتوقف قالوا: هذا الفعل لا أثر له في الباطن وهو محرم في الظاهر لأنه عبث، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿كُلًّا﴾ أي كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض من المضاف إليه: ﴿نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ أي أنه تعالى يمد الفريقين بالأموال ويوسع عليهما في الرزق مثل الأموال والأولاد، وغيرهما من أسباب العز والزينة في الدنيا، لأن عطاءنا ليس يضيق عن أحد مؤمنًا كان أو كافرًا لأن الكل مخلوقون في دار العمل، فوجب إزاحة العذر وإزالة العلة عن الكل

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٨٩/ ٢٩٨٥) وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٤٠٥) حديث رقم/ ٤٢٠٢، كلاهما من طريق العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب عن أبيه عن أبي هريرة. . . به.

وإيصال متاع الدنيا إلى الكل على القدر الذي يقتضيه الصلاح فبين تعالى أن عطاءه ليس بمحظور، أي غير ممنوع يقال حظره يحظره، وكل من حال بينك وبين شيء فقد حظره عليك.

ثم قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. **وفيه قولان:**

القول الأول: المعنى: انظر إلى عطائنا المباح إلى الفريقين في الدنيا، كيف فضلنا بعضهم على بعض فأوصلناه إلى مؤمن. وقبضناه عن مؤمن آخر، وأوصلناه إلى كافر، وقبضناه عن كافر آخر، وقد بين تعالى وجه الحكمة في هذا التفاوت فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] وقال في آخر سورة الأنعام: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ثم قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ والمعنى: أن تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس، فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم، فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، فإذا كان الانسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب فضيلة الآخرة أولى.

القول الثاني: أن المراد أن الآخرة أعظم وأشرف من الدنيا، والمعنى أن المؤمنين يدخلون الجنة، والكافرين يدخلون النار، فيظهر فضل المؤمنين على الكافرين، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في بيان وجه النظم. فنقول: إنه تعالى لما بين أن الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم أهل العقاب والعذاب، ومنهم من يريد به طاعة الله وهم أهل الثواب. ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة:

أولها: إرادة الآخرة. **وثانيها:** أن يعمل عملاً ويسعى سعيًا موافقًا لطلب الآخرة. **وثالثها:** أن يكون مؤمنًا لا جرم فصل في هذه الآية تلك المجملات فبدأ أولاً بشرح حقيقة الإيمان، وأشرف أجزاء الإيمان هو التوحيد ونفي الشركاء والأضداد فقال: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ ثم ذكر عقيبه سائر الأعمال التي يكون المقدم عليها، والمشتغل بها ساعيًا سعيًا يليق بطلب الآخرة، وصار من الذين سعد طائرهم وحسن بختهم وكملت أحوالهم.

المسألة الثانية: قال المفسرون: هذا في الظاهر خطاب للنبي ﷺ، ولكن في المعنى عام لجميع المكلفين كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١] ويحتمل أيضًا أن يكون الخطاب للإنسان كأنه قيل: أيها الإنسان لا تجعل مع الله إلهًا آخر، وهذا الاحتمال عندي أولى، لأنه تعالى عطف عليه قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ

﴿أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] وهذا لا يليق بالنبي عليه السلام، لأن أبويه ما بلغا الكبر عنده فعلمنا أن المخاطب بهذا هو نوع الإنسان.

المسألة الثالثة: معنى الآية أن من أشرك بالله كان مذمومًا مخذولاً، والذي يدل على أن الأمر كذلك وجوه: الأول: أن المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان. الثاني: أنه لما ثبت بالدليل أنه لا إله ولا مدبر ولا مقدر إلا الواحد الأحد، فعلى هذا التقدير تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى، فمن أشرك بالله فقد أضاف بعض تلك النعم إلى غير الله تعالى، مع أن الحق أن كلها من الله، فحينئذ يستحق الذم، لأن الخالق تعالى استحق الشكر بإعطاء تلك النعم فلما جحد كونها من الله، فقد قابل إحسان الله تعالى بالإساءة والجحود والكفران فاستوجب الذم وإنما قلنا إنه يستحق الخذلان، لأنه لما أثبت شريكًا لله تعالى استحق أن يفوض أمره إلى ذلك الشريك، فلما كان ذلك الشريك معدومًا بقي بلا ناصر ولا حافظ ولا معين. وذلك عين الخذلان. الثالث: أن الكمال في الوحدة والنقصان في الكثرة، فمن أثبت الشريك فقد وقع في جانب النقصان واستوجب الذم والخذلان، واعلم أنه لما دل لفظ الآية على أن المشرك مذموم مخذول وجب بحكم الآية أن يكون الموحد ممدوحًا منصورًا، والله أعلم.

المسألة الرابعة: القعود المذكور في قوله: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾. **فيه وجوه:**

الأول: أن معناه: المكث أي فتمكث في الناس مذمومًا مخذولاً، وهذه اللفظة مستعملة في لسان العرب والفرس في هذا المعنى، فإذا سأل الرجل غيره ما يصنع فلان في تلك البلدة فيقول المجيب: هو قاعد بأسوأ حال معناه: المكث سواء كان قائمًا أو جالسًا.

الثاني: إن من شأن المذموم المخذول أن يقعد نادمًا متفكرًا على ما فرط منه. الثالث: أن المتمكن من تحصيل الخيرات يسعى في تحصيلها، والسعي إنما يتأتى بالقيام، وأما العاجز عن تحصيلها فإنه لا يسعى بل يبقى جالسًا قاعدًا عن الطلب فلما كان القيام على الرجل أحد الأمور التي بها يتم الفوز بالخيرات، وكان القعود والجلوس علامة على عدم تلك المكنة والقدرة لا جرم جعل القيام كناية عن القدرة على تحصيل الخيرات. والقعود كناية عن العجز والضعف.

المسألة الخامسة: قال الواحدي: قوله: (فتقعد) انتصب لأنه وقع بعد الفاء جوابًا للنهي وانتصابه بإضمار (أن) كقولك لا تنقطع عنا فنجفوك، والتقدير: لا يكن منك انقطاع فيحصل أن نجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة بحرف الفاء التي هي حرف العطف. وإنما سماه النحويون جوابًا لكونه مشابهًا للجزاء في أن الثاني مسبب عن الأول، ألا ترى أن المعنى إن انقطعت جفوتك كذلك تقدير الآية إن جعلت مع الله إلهًا آخر قعدت مذمومًا مخذولاً.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا

كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي
صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ
غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أنه لما ذكر في الآية الأولى ما هو الركن الأعظم في الإيمان، أتبعه بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه وهي أنواع:

النوع الأول: أن يكون الإنسان مشتغلاً بعبادة الله تعالى، وأن يكون محترزًا عن عبادة غير الله تعالى، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: القضاء معناه الحكم الجزم البت الذي لا يقبل النسخ. والدليل عليه أن الواحد منا إذا أمر غيره بشيء فإنه لا يقال: إنه قضى عليه، أما إذا أمره أمرًا جزمًا وحكم عليه بذلك الحكم على سبيل البت والقطع، هاهنا يقال: قضى عليه ولفظ القضاء في أصل اللغة يرجع إلى إتمام الشيء وانقطاعه. وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس أنه قال: في هذه الآية كان الأصل ووصى ربك فالتصقت إحدى الواوين بالصاد فقرىء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ ثم قال: ولو كان على القضاء ما عصى الله أحد قط، لأن خلاف قضاء الله ممتنع، هكذا رواه عنه الضحاك وسعيد بن جبير، وهو قراءة علي وعبد الله.

واعلم أن هذا القول بعيد جدًا لأنه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق إلى القرآن، ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك أنه طعن عظيم في الدين.

البحث الثاني: قد ذكرنا أن هذه الآية تدل على وجوب عبادة الله تعالى وتدل على المنع عن عبادة غير الله تعالى وهذا هو الحق، وذلك لأن العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام، ونهاية الإنعام عبارة عن إعطاء الوجود والحياة، والقدرة والشهوة والعقل، وقد ثبت بالدلائل أن المعطي لهذه الأشياء هو الله تعالى لا غيره، وإذا كان المنعم بجميع النعم هو الله لا غيره، لا جرم كان المستحق للعبادة هو الله تعالى لا غيره، فثبت بالدليل العقلي صحة قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾.

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه، ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين وبيان المناسبة

بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه:

الوجه الأول: أن السبب الحقيقي لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالى وإيجاده، والسبب الظاهري هو الأبوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري.

الوجه الثاني: أن الموجود إما قديم وإما محدث، ويجب أن تكون معاملة الإنسان مع الإله القديم بالتعظيم والعبودية، ومع المحدث بإظهار الشفقة وهو المراد من قوله عليه السلام: «التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَالشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ»(١) وأحق الخلق بصرف الشفقة إليه هو الأبوان لكثرة إنعامهما على الإنسان فقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله.

الوجه الثالث: أن الاشتغال بشكر المنعم واجب، ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سبحانه وتعالى. وقد يكون أحد من المخلوقين منعمًا عليك، وشكره أيضًا واجب لقوله عليه السلام: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ»(٢) وليس لأحد من الخلائق نعمة على الإنسان مثل ما للوالدين وتقريره من وجوه:

أحدها: أن الولد قطعة من الوالدين، قال عليه السلام: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي»(٣).

وثانيها: أن شفقة الأبوين على الولد عظيمة وجدهما في إيصال الخير إلى الولد كالأمر الطبيعي واحترازهما عن إيصال الضرر إليه كالأمر الطبيعي، ومتى كانت الدواعي إلى إيصال الخير متوفرة، والصوارف عنه زائلة لا جرم كثر إيصال الخير، فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من إنسان إلى إنسان.

وثالثها: أن الإنسان حال ما يكون في غاية الضعف ونهاية العجز، يكون في إنعام الأبوين فأصناف نعمهما في ذلك الوقت واصلة إليه، وأصناف رحمة ذلك الولد واصلة إلى الوالدين في ذلك الوقت، ومن المعلوم أن الإنعام إذا كان واقعًا على هذا الوجه كان موقعه عظيمًا.

ورابعها: أن إيصال الخير إلى الغير قد يكون لداعية إيصال الخير إليه وقد يمتزج بهذا الغرض

(١) تقدم تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد) (١/ ٣٠٩) حديث رقم/ ٢١٨، وأبو داود في كتاب (الأدب) باب (في شكر المعروف) (٤/ ٢٠٥٥) حديث رقم/ ٤٨١١، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٩٥/ ٣٠٢/ ٤٦١) جميعًا من طريق الربيع بن مسلم... به، ورواه أيضا النعمان بن بشير.

إسناد حسن: أخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ٣٧٥) من طريق أبي وكيع الجراح... به، والقضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٢٣٩) حديث رقم/ ٣٧٧، والبزار في مسنده (٨/ ٢٢٦) حديث رقم/ ٣٢٨٢، جميعا من طريق أبي وكيع عن أبي عبد الرحمن عن الشعبي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله قال... فذكره، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٥/ ٢١٨) وقال: رواه عبد الله بن أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات، وأورده الألباني في (صحيح الجامع) (٥٣٢٥) وقال: حسن.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٣/ ١٣٦١) حديث رقم/ ٣٥١٠، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٠٣/ ٢٤٤٩) كلاهما من طريق بن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة... به.

سائر الأغراض، وإيصال الخير إلى الولد ليس لهذا الغرض فقط. فكان الإنعام فيه أتم وأكمل، فثبت أنه ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد، فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ والسبب فيه ما بينا أن أعظم النعم بعد إنعام الإله الخالق نعمة الوالدين.

فإن قيل: الوالدان إنما طلبا تحصيل اللذة لنفسيهما فلزم منه دخول الولد في الوجود وحصوله في عالم الآفات والمخافات، فأي إنعام للأبوين على الولد؟ حكي أن واحدًا من المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول: هو الذي أدخلني في عالم الكون والفساد. وعرضني للموت والفقر والعمى والزمانة، وقيل لأبي العلاء المعري: ماذا نكتب على قبرك؟ قال اكتبوا عليه:

هَـذَا جَـنَـاهُ أَبِـي عَـلَـيَّ ... وَمَـا جَـنَـيْـتُ عَـلَـى أَحَـدِ

وقال في ترك التزوج والولد:

وتركت أولادي وهم في نعمة الـ ... ـعدم الَّتِي سَبَقَتْ نَعِيمَ الْعَاجِلِ

وَلَوَ انَّهُمْ وُلِدُوا لَعَانَوْا شِدَّةً ... تَرْمِي بِهِمْ فِي مُوبِقَاتِ الْآجِلِ(١)

وقيل للإسكندر: أستاذك أعظم منة عليك أم والدك؟ فقال: الأستاذ أعظم منة، لأنه تحمل أنواع الشدائد والمحن عند تعليمي أرتعني في نور العلم، وأما الوالد فإنه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه، وأخرجني إلى آفات عالم الكون والفساد، ومن الكلمات المشهورة المأثورة، خير الآباء من علمك.

والجواب: هب أنهما في أول الأمر طلبا لذة الوقاع إلا أن الاهتمام بإيصال الخيرات، وفي دفع الآفات من أول دخوله في الوجود إلى وقت بلوغه الكبر أليس أنه أعظم من جميع ما يتخيل من جهات الخيرات والمبرات، فسقطت هذه الشبهات، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ قال أهل اللغة: تقدير الآية وقضى ربك ألا تعبدوا إلا الله وأن تحسنوا، أو يقال: وقضى ألا تعبدوا إلا إياه وأحسنوا بالوالدين إحسانًا. قال صاحب (الكشاف): ولا يجوز أن تتعلق الباء في ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ بالإحسان لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته ثم لم يذكر دليلاً على أن المصدر لا يجوز أن تتقدم عليه صلته. وقال الواحدي في (البسيط): الباء في ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ من صلة الإحسان وقدمت عليه كما تقول بزيد فامرر، وهذا المثال الذي ذكره الواحدي غير مطابق، لأن المطلوب تقديم صلة المصدر عليه، والمثال المذكور ليس كذلك.

المسألة الثالثة: قال القفال: لفظ الإحسان قد يوصل بحرف الباء تارة، وبحرف إلى أخرى،

---

(١) هذه الأبيات لأبي العلاء المعري وتقدمت ترجمته.

وكذلك الإساءة، يقال: أحسنت به وإليه. وأسأت به وإليه. قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقال القائل:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةً لَدَيْنَا وَلاَ مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ(١)

وأقول لفظ الآية مشتمل على قيود كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة في الإحسان إلى الوالدين: أحدها: أنه تعالى قال في الآية المتقدمة: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] ثم إنه تعالى أردفه بهذه الآية المشتملة على الأعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة فذكر من جملتها البر بالوالدين، وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التي تفيد سعادة الآخرة. وثانيها: أنه تعالى بدأ بذكر الأمر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى، وثلث بالبر بالوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة. وثالثها: أنه تعالى لم يقل: وإحسانًا بالوالدين، بل قال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام. ورابعها: أنه قال: ﴿إِحْسَٰنًا﴾ بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم، والمعنى: وقضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين إحسانًا عظيمًا كاملاً، وذلك لأنه لما كان إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك، ثم على جميع التقديرات فلا تحصل المكافأة، لأن إنعامهما عليك كان على سبيل الابتداء، وفي الأمثال المشهورة أن البادي بالبر لا يكافأ.

ثم قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لفظ (إما) لفظة مركبة من لفظتين: إن، وما. أما كلمة إن فهي للشرط، وأما كلمة (ما) فهي أيضًا للشرط كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦] فلما جمع بين هاتين الكلمتين أفاد التأكيد في معنى الاشتراط، إلا أن علامة الجزم لم تظهر مع نون التأكيد، لأن الفعل يبنى مع نون التأكيد وأقول لقائل أن يقول: إن نون التأكيد إنما يليق بالموضع الذي يكون اللائق به تأكيد ذلك الحكم المذكور وتقريره وإثباته على أقوى الوجوه، إلا أن هذا المعنى لا يليق بهذا الموضع، لأن قول القائل: الشيء إما كذا وإما كذا، فالمطلوب منه ترديد الحكم بين ذينك الشيئين المذكورين، وهذا الموضع لا يليق به التقرير والتأكيد فكيف يليق الجمع بين كلمة إما وبين نون التأكيد؟

وجوابه: أن المراد أن هذا الحكم المتقرر المتأكد إما أن يقع وإما أن لا يقع، والله أعلم.

---

(١) هذا البيت وجدته لشاعرين لكثير عزة: وتقدم ترجمته، والقائل هو العباس بن الأحنف وهو العباس بن الأحنف بن الأسود، الحنفي (نسبة الى بني حنيفة)، اليمامي، أبو الفضل. ؟- ١٩٢ هـ/ ؟- ٨٠٧ م، شاعر غزل رقيق، قال فيه البحتري: أغزل الناس، أصله من اليمامة بنجد، وكان أهله في البصرة وبها مات أبوه ونشأ ببغداد وتوفي بها، وقيل بالبصرة.

المسألة الثانية: قرأ الأكثرون: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ فعل وفاعله هو قوله: ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ وقوله: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ عطف عليه كقولك: ضرب زيد أو عمرو: ولو أسند قوله: ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿كِلَاهُمَا﴾ جاز لتقدم الفعل، تقول قال رجل، وقال رجلان، وقالت الرجال، وقرأ حمزة والكسائي: (يبلغان) وعلى هذه القراءة فقوله: ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين و ﴿كِلَاهُمَا﴾ عطف على ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ فاعلاً أو بدلاً.

فإن قيل: لو قيل (إما يبلغان كلاهما) كان (كلاهما) توكيدًا لا بدلاً، فلم زعمتم أنه بدل؟

قلنا: لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيدًا للاثنين فانتظم في حكمه، فوجب أن يكون مثله في كونه بدلاً.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال قوله: ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ بدل، وقوله: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ توكيد، ويكون ذلك عطفًا للتوكيد على البدل.

قلنا: العطف يقتضي المشاركة فجعل ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ بدلاً والآخر توكيدًا خلاف الأصل، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قال أبو الهيثم الرازي، وأبو الفتح الموصلي، وأبو علي الجرجاني: إن كلاً اسم مفرد يفيد معنى التثنية ووزنه فعل ولامه معتل بمنزلة لام حجى ورضى وهي كلمة وضعت على هذه الخلقة يؤكد بها الاثنان خاصة ولا تكون إلا مضافة. والدليل عليه أنها لو كانت تثنية لوجب أن يقال في النصب والخفض مررت بكلي الرجلين بكسر الياء كما تقول: بين يدي الرجل و﴿مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ [المزمل: ٢٠]. و﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ٣٩]. و﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤] ولما لم يكن الأمر كذلك، علمنا أنها ليست تثنية بل هي لفظة مفردة وضعت للدلالة على التثنية كما أن لفظة كل اسم واحد موضوع للجماعة، فإذن أخبرت عن لفظة كما تخبر عن الواحد كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] وكذلك إذا أخبرت عن كلا أخبرت عن واحد فقلت كلا إخوتك كان قائمًا قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: ٣٣] ولم يقل آتتا، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ معناه: أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أول العمر.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الجملة فعند هذا الذكر كلف الإنسان في حق الوالدين بخمسة أشياء:

النوع الأول: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الزجاج: فيه سبع لغات: كسر الفاء وضمها وفتحها، وكل هذه الثلاثة

بتنوين وبغير تنوين فهذه ستة واللغة السابعة أفي بالياء قال الأخفش: كأنه أضاف هذا القول إلى نفسه فقال قولي هذا وذكر ابن الأنباري: من لغات هذه اللفظة ثلاثة زائدة على ما ذكره الزجاج: (إِفَّ) بكسر الألف وفتح الفاء أُفَه بضم الألف وإدخال الهاء وأُفْ بضم الألف وتسكين الفاء.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وابن عامر: بفتح الفاء من غير تنوين، ونافع وحفص: بكسر الفاء والتنوين، والباقون: بكسر الفاء من غير تنوين وكلها لغات، وعلى هذا الخلاف في سورة الأنبياء ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٧] وفي الأحقاف: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ [الأحقاف: ١٧] وأقول: البحث المشكل هاهنا أنا لما نقلنا عشرة أنواع من اللغات في هذه اللفظة، فما السبب في أنهم تركوا أكثر تلك اللغات في قراءة هذه اللفظة، واقتصروا على وجوه قليلة منها؟

المسألة الثالثة: ذكروا في تفسير هذه اللفظة وجوهًا: الأول: قال الفراء: تقول العرب جعل فلان يتأفف من ريح وجدها، معناه يقول: أف أف. الثاني: قال الأصمعي: الأف وسخ الأذن. والتف وسخ الظفر. يقال ذلك عند استقذار الشيء، ثم كثر حتى استعملوا عند كل ما يتأذون به. الثالث: قال بعضهم أف معناه قلة، وهو مأخوذ من الأفيف وهو الشيء القليل وتف إتباع له، كقولهم: شيطان ليطان خبيث نبيث. الرابع: روى ثعلب عن ابن الأعرابي: الأف الضجر. الخامس: قال القتبي: أصل هذه الكلمة أنه إذا سقط عليك تراب أو رماد نفخت فيه لتزيله والصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قولك أف، ثم إنهم توسعوا فذكروا هذه اللفظة عند كل مكروه يصل إليهم. السادس: قال الزجاج: أف معناه النتن وهذا قول مجاهد، لأنه قال معنى قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي لا تتقذرهما كما أنهما لم يتقذراك حين كنت تخرى أو تبول، وفي رواية أخرى عن مجاهد أنه إذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما أف.

المسألة الرابعة: قول القائل: لا تقل لفلان أف، مثل يضرب للمنع من كل مكروه وأذية وإن خف وقل. واختلف الأصوليون في أن دلالة هذا اللفظ على المنع من سائر أنواع الإيذاء دلالة لفظية أو دلالة مفهومة بمقتضى القياس. قال بعضهم: إنها دلالة لفظية، لأن أهل العرف إذا قالوا: لا تقل لفلان أف عنوا به أنه لا يتعرض له بنوع من أنواع الإيذاء والايحاش، وجرى هذا مجرى قولهم فلان لا يملك نقيرًا ولا قطميرًا في أنه بحسب العرف يدل على أنه لا يملك شيئًا.

والقول الثاني: أن هذا اللفظ إنما يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء بحسب القياس الجلي، وتقريره أن الشرع إذا نص على حكم صورة وسكت عن حكم صورة أخرى، فإذا أردنا إلحاق الصورة المسكوت عن حكمها بالصورة المذكور حكمها فهذا على ثلاثة أقسام: أحدها: أن يكون ثبوت ذلك الحكم في محل السكوت أولى من ثبوته في محل الذكر مثل هذه الصورة، فإن اللفظ إنما دل على المنع من التأفيف، والضرب أولى بالمنع من التأفيف. وثانيها: أن يكون الحكم في محل السكوت مساويًا للحكم في محل الذكر، وهذا هو الذي يسميه الأصوليون القياس في معنى الأصل، وضربوا لهذا مثلاً وهو قوله عليه السلام: «مَنْ أَعْتَقَ نَصِيبًا لَهُ مِنْ عَبْدٍ

قُوِّمَ عَلَيْهِ الْبَاقِي» فإن الحكم في الأمة والعبد متساويان. وثالثها: أن يكون الحكم في محل السكوت أخفى من الحكم في محل الذكر وهو أكبر القياسات.

إذا عرفت هذا فنقول: المنع من التأفيف إنما يدل على المنع من الضرب بواسطة القياس الجلي الذي يكون من باب الاستدلال بالأدنى على الأعلى. والدليل عليه: أن التأفيف غير الضرب، فالمنع من التأفيف لا يكون منعًا من الضرب، وأيضًا المنع من التأفيف لا يستلزم المنع من الضرب عقلاً، لأن الملك الكبير إذا أخذ ملكًا عظيمًا كان عدوًا له، فقد يقول للجلاد إياك وأن تستخف به أو تشافهه بكلمة موحشة لكن اضرب رقبته، وإذا كان هذا معقولاً في الجملة علمنا أن المنع من التأفيف مغاير للمنع من الضرب وغير مستلزم أيضًا للمنع من الضرب عقلاً في الجملة، إلا أنا علمنا في هذه الصورة أن المقصود من هذا الكلام المبالغة في تعظيم الوالدين بدليل قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ فكانت دلالة المنع من التأفيف على المنع من الضرب من باب القياس بالأدنى على الأعلى، والله أعلم.

النوع الثاني: من الأشياء التي كلف الله تعالى العباد بها في حق الأبوين قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ يقال: نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠].

فإن قيل: المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بطريق الأولى، فلما قدم المنع من التأفيف كان ذكر المنع من الانتهار بعده عبثًا. أما لو فرضنا أنه قدم المنع من الانتهار ثم أتبعه بالمنع من التأفيف كان مفيدًا حسنًا، لأنه يلزم من المنع من الانتهار المنع من التأفيف، فما السبب في رعاية هذا الترتيب؟

قلنا: المراد من قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ المنع من إظهار الضجر بالقليل أو الكثير، والمراد من قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليه والتكذيب له.

النوع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ واعلم أنه تعالى لما منع الإنسان بالآية المتقدمة عن ذكر القول المؤذي الموحش. والنهي عن القول المؤذي لا يكون أمرًا بالقول الطيب، لا جرم أردفه بأن أمره بالقول الحسن والكلام الطيب فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ والمراد منه أن يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم والاحترام. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هو أن يقول له: يا أبتاه يا أماه، وسئل سعيد بن المسيب عن القول الكريم فقال: هو قول العبد المذنب للسيد الفظ، وعن عطاء أن يقال: هو أن تتكلم معه بشرط أن لا ترفع عليهما صوتك ولا تشد إليهما نظرك، وذلك لأن هذين الفعلين ينافيان القول الكريم.

فإن قيل: إن إبراهيم عليه السلام كان أعظم الناس حلمًا وكرمًا وأدبًا، فكيف قال لأبيه يا آزر على قراءة من قرأ: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرُ) [الأنعام: ٧٤] بالضم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] فخاطبه بالاسم وهو إيذاء، ثم نسبه ونسب قومه إلى الضلال وهو أعظم أنواع الإيذاء؟

قلنا: إن قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ يدل على أن حق الله تعالى مقدم على حق الأبوين، فإقدام إبراهيم عليه السلام على ذلك الإيذاء إنما كان تقديمًا لحق الله تعالى على حق الأبوين.

النوع الرابع: قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ والمقصود منه المبالغة في التواضع، وذكر القفال رحمه الله في تقريره وجهين: الأول: أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية، فكأنه قال للولد: اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك. والثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه. فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه.

فإن قيل: كيف أضاف الجناح إلى الذل والذل لا جناح له؟

قلنا: فيه وجهان: الأول: أنه أضيف الجناح إلى الذل كما يقال: حاتم الجود فكما أن المراد هناك حاتم الجواد فكذلك هاهنا المراد، واخفض لهما جناحك الذليل، أي المذلول. والثاني: أن مدار الاستعارة على الخيالات فهاهنا تخيل للذل جناحًا وأثبت لذلك الجناح ضعفًا تكميلاً لأمر هذه الاستعارة كما قال لبيد:

إذا أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا[1]

فأثبت للشمال يدًا ووضع زمامها في يد الشمال فكذا ههنا وقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ معناه: ليكن خفض جناحك لهما بسبب فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما بسبب كبرهما وضعفهما.

والنوع الخامس: قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قال القفال رحمه الله تعالى: إنه لم يقتصر في تعليم البر بالوالدين على تعليم الأقوال بل أضاف إليه تعليم الأفعال وهو أن يدعو لهما بالرحمة فيقول: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ ولفظ الرحمة جامع لكل الخيرات في الدين والدنيا. ثم يقول: ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ يعني رب افعل بهما هذا النوع من الإحسان كما أحسنا إلي في تربيتهما إياي، والتربية هي التنمية، وهي من قولهم ربا الشيء إذا انتفخ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

البحث الثاني: اختلف المفسرون في هذه الآية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] فلا ينبغي للمسلم أن يستغفر لوالديه إذا كانا مشركين، ولا يقول: رب ارحمهما.

والقول الثاني: أن هذه الآية غير منسوخة، ولكنها مخصوصة في حق المشركين، وهذا أولى

---

(١) تقدمت ترجمة لبيد.

من القول الأول لأن التخصيص أولى من النسخ .

والقول الثالث: أنه لا نسخ ولا تخصيص لأن الوالدين إذا كانا كافرين فله أن يدعو لهما بالهداية والإرشاد، وأن يطلب الرحمة لهما بعد حصول الإيمان .

البحث الثالث: ظاهر الأمر للوجوب فقوله : ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ أمر وظاهر الأمر لا يفيد التكرار فيكفي في العمل بمقتضى هذه الآية ذكر هذا القول مرة واحدة، سئل سفيان : كم يدعو الإنسان لوالديه؟ أفي اليوم مرة أو في الشهر أو في السنة؟ فقال : نرجو أن نجزئه إذا دعا لهما في أواخر التشهدات كما أن الله تعالى قال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فكانوا يرون أن التشهد يجزي عن الصلاة على النبي ﷺ، وكما أن الله تعالى قال : ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣] فهم يكررون في أدبار الصلوات .

ثم قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ والمعنى أنا قد أمرناكم في هذه الآية بإخلاص العبادة لله تعالى وبالإحسان بالوالدين، ولا يخفى على الله ما تضمرونه في أنفسكم من الإخلاص في الطاعة وعدم الإخلاص فيها، فاعلموا أن الله تعالى مطلع على ما في نفوسكم بل هو أعلم بتلك الأحوال منكم بها، لأن علوم البشر قد يختلط بها السهو والنسيان وعدم الإحاطة بالكل، فأما علم الله فمنزه عن كل هذه الأحوال، وإذا كان الأمر كذلك كان عالمًا بكل ما في قلوبكم والمقصود منه التحذير عن ترك الإخلاص .

ثم قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أي إن كنتم برآء عن جهات الفساد في أحوال قلوبكم كنتم أوابين، أي رجاعين إلى الله منقطعين إليه في كل الأعمال وسنة الله وحكمه في الأوابين أنه غفور لهم يكفر عنهم سيئاتهم، والأواب هو الذي من عادته وديدنه الرجوع إلى أمر الله تعالى والالتجاء إلى فضله ولا يلتجىء إلى شفاعة شفيع كما يفعله المشركون الذين يعبدون من دون الله جمادًا يزعمون أنه يشفع لهم، ولفظ الأواب على وزن فعال، وهو يفيد المداومة والكثرة كقولهم : قتال وضراب والمقصود من هذه الآية أن الآية الأولى لما دلت على وجوب تعظيم الوالدين من كل الوجوه ثم إن الولد قد يظهر منه نادرة مخلة بتعظيمهما فقال : ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ يعني أنه تعالى عالم بأحوال قلوبكم فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت في محل الغفران، والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع الرابع من أعمال الخير والطاعة المذكورة في هذه الآيات .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَءَاتِ﴾ خطاب مع من؟

فيه قولان:

القول الأول: أنه خطاب للرسول ﷺ فأمره الله أن يؤتي أقاربه الحقوق التي وجبت لهم في الفيء والغنيمة، وأوجب عليه أيضًا إخراج حق المساكين وأبناء السبيل أيضًا من هذين المثالين.

والقول الثاني: أنه خطاب للكل والدليل عليه أنه معطوف على قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] والمعنى: أنك بعد فراغك من بر الوالدين، يجب أن تشتغل ببر سائر الأقارب الأقرب فالأقرب، ثم بإصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ مجمل وليس فيه بيان أن ذلك الحق ما هو؟ وعند الشافعي رحمه الله أنه لا يجب الإنفاق إلا على الولد والوالدين، وقال قوم: يجب الإنفاق على المحارم بقدر الحاجة واتفقوا على أن من لم يكن من المحارم كأبناء العم فلا حق لهم إلا الموادة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة في السراء والضراء. أما المسكين وابن السبيل فقد تقدم وصفهما في سورة التوبة في تفسير آية الزكاة. ويجب أن يدفع إلى المسكين ما يفي بقوته وقوت عياله، وأن يدفع إلى ابن السبيل ما يكفيه من زاده وراحلته إلى أن يبلغ مقصده.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ والتبذير في اللغة إفساد المال وإنفاقه في السرف. قال عثمان بن الأسود: كنت أطوف في المساجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه إلى أبي قبيس وقال: لو أن رجلاً أنفق مثل هذا في طاعة الله لم يكن من المسرفين، ولو أنفق درهمًا واحدًا في معصية الله كان من المسرفين. وأنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر فقيل له لا خير في السرف فقال: لا سرف في الخير، وعن عبد الله بن عمر قال: مر رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ فقال: ما هذا السرف يا سعد؟ فقال: أو في الوضوء سرف؟ قال: نعم: وإن كنت على نهر جارٍ ثم نبه تعالى على قبح التبذير بإضافته إياه إلى أفعال الشياطين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ والمراد من هذه الأخوة التشبه بهم في هذا الفعل القبيح، وذلك لأن العرب يسمون الملازم للشيء أخًا له، فيقولون: فلان أخو الكرم والجود، وأخو السفر إذا كان مواظبًا على هذه الأعمال، وقيل قوله: ﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي قرناءهم في الدنيا والآخرة كما قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي قرناءهم من الشياطين، ثم إنه تعالى بين صفة الشيطان فقال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ ومعنى كون الشيطان كفورًا لربه، هو أنه يستعمل بدنه في المعاصي والإفساد في الأرض، والإضلال للناس. وكذلك كل من رزقه الله تعالى مالاً أو جاهًا فصرفه إلى غير مرضاة الله تعالى كان كفورًا لنعمة الله تعالى، والمقصود: أن المبذرين إخوان الشياطين، بمعنى كونهم موافقين للشياطين في الصفة والفعل، ثم الشيطان كفور لربه فيلزم كون المبذر

أيضًا كفورًا لربه، وقال بعض العلماء: خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب وذلك لأنهم كانوا يجمعون الأموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها في طلب الخيلاء والتفاخر، وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله، وإعانة أعدائه فنزلت هذه الآية تنبيهًا على قبح أعمالهم في هذا الباب.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ والمعنى: أنك إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالرد بسبب الفقر والقلة: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي سهلًا لينًا وقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ كناية عن الفقر، لأن فاقد المال يطلب رحمة الله وإحسانه. فلما كان فقد المال سببًا لهذا الطلب ولهذا الابتغاء أطلق اسم السبب على المسبب فسمي الفقر بابتغاء رحمة الله تعالى، والمعنى: أن عند حصول الفقر والقلة لا تترك تعهدهم بالقول الجميل والكلام الحسن، بل تعدهم بالوعد الجميل وتذكر لهم العذر وهو حصول القلة وعدم المال، أو تقول لهم: الله يسهل، وفي تفسير القول الميسور وجوه: الأول: القول الميسور هو الرد بالطريق الأحسن. والثاني: القول الميسور اللين السهل قال الكسائي: يسرت أيسر له القول أي لينته له. والثالث: قال بعضهم: القول الميسور مثل قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣] قالوا: والميسور هو المعروف، لأن القول المتعارف لا يحوج إلى تكلف، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمره بالإنفاق في الآية المتقدمة علمه في هذه الآية أدب الإنفاق، واعلم أنه تعالى شرح وصف عباده المؤمنين في الإنفاق في سورة الفرقان فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] فهاهنا أمر رسوله بمثل ذلك الوصف فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تمسك عن الإنفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات، والمعنى: لا تجعل يدك في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي ولا تتوسع في الإنفاق توسعًا مفرطًا بحيث لا يبقى في يدك شيء. وحاصل الكلام: أن الحكماء ذكروا في كتب (الأخلاق) أن لكل خلق طرفي إفراط وتفريط وهما مذمومان، فالبخل إفراط في الإمساك، والتبذير إفراط في الإنفاق وهما مذمومان، والخلق الفاضل هو العدل والوسط كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ثم قال تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ أما تفسير تقعد، فقد سبق في الآية المتقدمة. وأما كونه

﴿مَلُومًا﴾ فلأنه يلوم نفسه. وأصحابه أيضًا يلومونه على تضييع المال بالكلية وإبقاء الأهل والولد في الضر والمحنة، وأما كونه ﴿مَّحْسُورًا﴾ فقال الفراء: تقول العرب للبعير: هو محسور إذا انقطع سيره وحسرت الدابة إذا سيَّرها حتى ينقطع سيرها، ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] وجمع الحسير حسرى مثل قتلى وصرعى، وقال القفال: المقصود تشبيه حال من أنفق كل ماله ونفقاته بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته، لأن ذلك المقدار من المال كأنه مطية يحمل الإنسان ويبلغه إلى آخر الشهر أو السنة، كما أن ذلك البعير يحمله ويبلغه إلى آخر المنزل فإذا انقطع ذلك البعير بقي في وسط الطريق عاجزًا متحيرًا فكذلك إذا أنفق الإنسان مقدار ما يحتاج إليه في مدة شهر بقي في وسط ذلك الشهر عاجزًا متحيرًا ومن فعل هذا لحقه اللوم من أهله والمحتاجين إلى إنفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وترك الحزم في مهمات معاشه.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ والمقصود أنه عرف رسوله ﷺ كونه ربًا. والرب هو الذي يربي المربوب ويقوم بإصلاح مهماته ودفع حاجاته على مقدار الصلاح والصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض. والقدر في اللغة التضييق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦] أي ضيق وإنما وسع على البعض لأن ذلك هو الصلاح لهم قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يعني أنه تعالى عالم بأن مصلحة كل إنسان في أن لا يعطيه إلا ذلك القدر، فالتفاوت في أرزاق العباد ليس لأجل البخل، بل لأجل رعاية المصالح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

هذا هو النوع الخامس من الطاعات المذكورة في هذه الآيات.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في تقرير النظم وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أنه هو المتكفل بأرزاق العباد حيث قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: ٣٠] أتبعه بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

الوجه الثاني: أنه تعالى لما علم كيفية البر بالوالدين في الآية المتقدمة علم في هذه الآية كيفية البر بالأولاد، ولهذا قال بعضهم: إن الذين يسمون بالأبرار إنما سموا بذلك لأنهم بروا الآباء والأبناء وإنما وجب بر الآباء مكافأة على ما صدر منهما من أنواع البر بالأولاد. وإنما وجب البر

بالأولاد لأنهم في غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين.

الوجه الثالث: أن امتناع الأولاد من البر بالآباء يوجب خراب العالم، لأن الآباء إذا علموا ذلك قلت رغبتهم في تربية الأولاد، فيلزم خراب العالم من الوجه الذي قررناه، فثبت أن عمارة العالم إنما تحصل إذا حصلت المبرة بين الآباء والأولاد من الجانبين.

الوجه الرابع: أن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو سوء ظن بالله، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعي في تخريب العالم، فالأول ضد التعظيم لأمر الله تعالى، والثاني: ضد الشفقة على خلق الله تعالى وكلاهما مذموم، والله أعلم.

الوجه الخامس: أن قرابة الأولاد قرابة الجزئية والبعضية، وهي من أعظم الموجبات للمحبة. فلو لم تحصل المحبة دل ذلك على غلظ شديد في الروح، وقسوة في القلب، وذلك من أعظم الأخلاق الذميمة، فرغب الله في الإحسان إلى الأولاد إزالة لهذه الخصلة الذميمة.

المسألة الثانية: العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب، وقدرة البنين عليه بسبب إقدامهم على النهب والغارة، وأيضًا كانوا يخافون أن فقرها ينفر كفأها عن الرغبة فيها فيحتاجون إلى إنكاحها من غير الأكفاء، وفي ذلك عار شديد فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ وهذا لفظ عام للذكور والإناث، والمعنى: أن الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولدًا، وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور وبين الإناث. وأما ما يخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر، وقد يخاف أيضًا في العاجزين من البنين.

ثم قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ يعني الأرزاق بيد الله تعالى فكما أنه تعالى فتح أبواب الرزق على الرجال، فكذلك يفتح أبواب الرزق على النساء.

المسألة الثالثة: الجمهور قرؤا ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾، أي إثمًا كبيرًا يقال خطىء يخطأ خطأ مثل أثم يأثم إثمًا قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧] أي آثمين، وقرأ ابن عامر (خطأ) بالفتح يقال: أخطأ يخطىء إخطاء وخطأ إذا أتى بما لا ينبغي من غير قصد، ويكون الخطأ اسمًا للمصدر، والمعنى: على هذه القراءة أن قتلهم ليس بصواب. قال القفال رحمه الله، وقرأ ابن كثير: (خِطاء) بكسر الخاء ممدودة ولعلهما لغتان مثل دفع ودفاع ولبس ولباس. ٦

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر بالأشياء الخمسة التي تقدم ذكرها، وحاصلها يرجع إلى شيئين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، أتبعها بذكر النهي عن أشياء. أولها: أنه تعالى نهى عن الزنا فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ قال القفال: إذا قيل للإنسان لا تقربوا هذا فهذا آكد من أن يقول له لا تفعله ثم إنه تعالى علل هذا النهي بكونه: ﴿فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

واعلم أن الناس قد اختلفوا في أنه تعالى إذا أمر بشيء أو نهى عن شيء فهل يصح أن يقال إنه

تعالى إنما أمر بذلك الشيء أو نهى عنه لوجه عائد إليه أم لا؟ فقال القائلون بتحسين العقل وتقبيحه الأمر كذلك. وقال المنكرون: لتحسين العقل وتقبيحه ليس الأمر كذلك، احتج القائلون بتحسين العقل وتقبيحه على صحة قولهم بهذه الآية قالوا إنه تعالى نهى عن الزنا، وعلل ذلك النهي بكونه فاحشة فيمتنع أن يكون كونه فاحشة عبارة عن كونه منهيًا عنه. وإلا لزم تعليل الشيء بنفسه وهو محال، فوجب أن يقال: كونه فاحشة وصف حاصل له باعتبار كونه زنا، وذلك يدل على أن الأشياء تحسن وتقبح لوجوه عائدة إليها في أنفسها، ويدل أيضًا على أن نهي الله تعالى عنها معلل بوقوعها في أنفسها على تلك الوجوه، وهذا الاستدلال قريب، والأولى أن يقال: إن كون الشيء في نفسه مصلحة أو مفسدة أمر ثابت لذاته لا بالشرع، فإن تناول الغذاء الموافق مصلحة، والضرب المؤلم مفسدة، وكونه كذلك أمر ثابت بالعقل لا بالشرع.

وإذا ثبت هذا فنقول: تكاليف الله تعالى واقعة على وفق مصالح العالم في المعاش والمعاد فهذا هو الكلام الظاهري، وفيه مشكلات هائلة ومباحث عميقة نسأل الله التوفيق لبلوغ الغاية فيها.

إذا عرفت هذا فنقول: الزنا اشتمل على أنواع من المفاسد: **أولها:** اختلاط الأنساب واشتباهها فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره، فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده، وذلك يوجب ضياع الأولاد، وذلك يوجب انقطاع النسل وخراب العالم. **وثانيها:** أنه إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التواثب والتقاتل، وذلك يفضي إلى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة، وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب إقدام المرأة الواحدة على الزنا. **وثالثها:** أن المرأة إذا باشرت الزنا وتمرنت عليه يستقذرها كل طبع سليم، وكل خاطر مستقيم، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ولا يتم السكن والإزدواج، ولذلك فإن المرأة إذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباع أكثر الخلق. **ورابعها:** أنه إذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة، وكل رجل يمكنه التواثب على كل امرأة شاءت وأرادت. وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب. **وخامسها:** أنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهماته من المطعوم والمشروب والملبوس، وأن تكون ربة البيت وحافظة للباب وأن تكون قائمة بأمور الأولاد والعبيد، وهذه المهمات لا تتم إلا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد منقطعة الطمع عن سائر الرجال، وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا وسد هذا الباب بالكلية. **وسادسها:** أن الوطء يوجب الذل الشديد، والدليل عليه أن أعظم أنواع الشتم عند الناس ذكر ألفاظ الوقاع، ولولا أن الوطء يوجب الذل، وإلا لما كان الأمر كذلك، وأيضًا فإن جميع العقلاء لا يقدمون على الوطء إلا في المواضع المستورة، وفي الأوقات التي لا يطلع عليهم أحد، وأن جميع العقلاء يستنكفون عن

ذكر أزواج بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم لما يقدمون على وطئهن، ولولا أن الوطء ذل، وإلا لما كان كذلك.

وإذا ثبت هذا فنقول: لما كان الوطء ذلاً كان السعي في تقليله موافقًا للعقول، فاقتصار المرأة الواحدة على الرجل الواحد سعى في تقليل ذلك العمل، وأيضًا ما فيه من الذل يصير مجبورًا بالمنافع الحاصلة في النكاح، أما الزنا فإنه فتح باب لذلك العمل القبيح ولم يصر مجبورًا بشيء من المنافع فوجب بقاؤه على أصل المنع والحجر، فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تقضي على الزنا بالقبح.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى وصف الزنا بصفات ثلاثة كونه فاحشة، ومقتًا في آية أخرى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أما كونه فاحشة فهو إشارة إلى اشتماله على فساد الأنساب الموجبة لخراب العالم وإلى اشتماله على التقاتل والتواثب على الفروج وهو أيضًا يوجب خراب العالم. وأما المقت: فقد ذكرنا أن الزانية تصير ممقوتة مكروهة، وذلك يوجب عدم حصول السكن والازدواج وأن لا يعتمد الإنسان عليها في شيء من مهماته ومصالحه. وأما أنه ساء سبيلاً، فهو ما ذكرنا أنه لا يبقى فرق بين الإنسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكران بالإناث، وأيضًا يبقى ذل هذا العمل وعيبه وعاره على المرأة من غير أن يصير مجبورًا بشيء من المنافع، فقد ذكرنا في قبح الزنا ستة أوجه؛ والله تعالى ذكر ألفاظًا ثلاثة، فحملنا كل واحد من هذه الألفاظ الثلاثة على وجهين من تلك الوجوه الستة، والله أعلم بمراده.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

هذا هو النوع الثاني مما نهى الله عنه في هذه الآية.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: إن أكبر الكبائر بعد الكفر بالله القتل، فما السبب في أن الله تعالى بدأ أولاً بذكر النهي عن الزنا وثانيًا بذكر النهي عن القتل.

وجوابه: أنا بينا أن فتح باب الزنا يمنع من دخول الإنسان في الوجود، والقتل عبارة عن إبطال الإنسان بعد دخوله في الوجود. ودخوله في الوجود مقدم على إبطاله وإعدامه بعد وجوده، فلهذا السبب ذكر الله تعالى الزنا أولاً ثم ذكر القتل ثانيًا.

المسألة الثانية: اعلم أن الأصل في القتل هو الحرمة المغلظة، والحل إنما يثبت بسبب عارضي، فلما كان الأمر كذلك لا جرم نهى الله عن القتل مطلقًا بناء على حكم الأصل، ثم استثنى عنه الحالة التي يحصل فيها حل القتل وهو عند حصول الأسباب العرضية فقال: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فنفتقر هاهنا إلى بيان أن الأصل في القتل التحريم، والذي يدل عليه وجوه:

الأول: أن القتل ضرر والأصل في المضار الحرمة لقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] «ولا ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ».

الثاني: قوله عليه السلام: «الْآدَمِيُّ بُنْيَانُ الرَّبِّ مَلْعُونٌ مَنْ هَدَمَ بُنْيَانَ الرَّبِّ»(١).

الثالث: أن الآدمي خلق للاشتغال بالعبادة لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ولقوله عليه السلام: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»(٢) والاشتغال بالعبادة لا يتم إلا عند عدم القتل.

الرابع: أن القتل إفساد فوجب أن يحرم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

الخامس: أنه إذا تعارض دليل تحريم القتل ودليل إباحته فقد أجمعوا على أن جانب الحرمة راجح، ولولا أن مقتضى الأصل هو التحريم وإلا لكان ذلك ترجيحًا لا لمرجح وهو محال.

السادس: أنا إذا لم نعرف في الإنسان صفة من الصفات إلا مجرد كونه إنسانًا عاقلاً حكمنا فيه بتحريم قتله، وما لم نعرف شيئًا زائدًا على كونه إنسانًا لم نحكم فيه بحل دمه، ولولا أن أصل الإنسانية يقتضي حرمة القتل، وإلا لما كان كذلك فثبت بهذه الوجوه أن الأصل في القتل هو التحريم. وأن حله لا يثبت إلا بأسباب عرضية.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى حكم بأن الأصل في القتل هو التحريم فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ﴾ نهي وتحريم، وقوله: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إعادة لذكر التحريم على سبيل التأكيد، ثم استثنى عنه الأسباب العرضية الاتفاقية فقال: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

ثم هاهنا طريقان:

الطريق الأول: أن مجرد قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ مجمل لأنه ليس فيه بيان أن ذلك الحق ما هو وكيف هو؟ ثم إنه تعالى قال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي في استيفاء القصاص من القاتل، وهذا الكلام يصلح جعله بيانًا لذلك المجمل، وتقريره كأنه تعالى قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وذلك الحق هو أن من قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانًا في

---

(١) لم أجده إلا عند أهل التفسير بغير إسناد.

(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (اللباس) باب (إرداف الرجل خلف الرجل) (٥/ ٢٢٢٤) حديث رقم/ ٥٦٢٢، قال: حدثنا هدبة بن خالد حدثنا همام حدثنا قتادة حدثنا أنس. . . به، وفي كتاب (الاستئذان) باب (من أجاب لبيك وسعديك) (٥/ ٢٣١٢) حديث رقم/ ٢٩١٢، قال: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا همام عن قتادة عن أنس. . . به، وفي كتاب (الرقاق) باب (من جاهد نفسه في طاعة الله) (٥/ ٢٣٨٤) حديث رقم/ ٦١٣٥، قال: حدثنا هدبة بن خالد حدثنا همام حدثنا قتادة حدثنا أنس بن مالك. . . به، ومسلم في كتاب (الإيمان) باب (الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا) (١/ ٥٨/ ٣٠) قال حدثنا هدبة بن خالد الأزدي حدثنا همام حدثنا قتادة حدثنا أنس. . . به، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٢٢٨) حديث رقم/ ٢٢٠٤٦، قال: حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي سفيان. . . به، والطبراني في (الكبير) (٢٠/ ٥٠) حديث رقم/ ٨٧، من طريق أبي معاوية عن الأعمش. . . به.

استيفاء القصاص. وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الحق هذه الصورة فقط، فصار تقدير الآية: ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا عند القصاص، وعلى هذا التقدير فتكون الآية نصًا صريحًا في تحريم القتل إلا بهذا السبب الواحد، فوجب أن يبقى على الحرمة فيما سوى هذه الصورة الواحدة.

والطريق الثاني: أن نقول: دلت السنة على أن ذلك الحق هو أحد أمور ثلاثة: وهو قوله عليه السلام: «**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: كُفْرٌ بَعْدَ إِيمَانٍ، وَزِنًا بَعْدَ إِحْصَانٍ، وَقَتْلُ نَفْسٍ بِغَيْرِ حَقٍّ**».

واعلم أن هذا الخبر من باب الآحاد. فإن قلنا: إن قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ تفسير لقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كانت الآية صريحة في أنه لا يحل القتل إلا بهذا السبب الواحد، فحينئذ يصير هذا الخبر مخصصًا لهذه الآية ويصير ذلك فرعًا لقولنا: إنه يجوز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد، وأما إن قلنا: إن قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ليس تفسيرًا لقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فحينئذ يصير هذا الخبر مفسرًا للحق المذكور في الآية، وعلى هذا التقدير لا يصير هذا فرعًا على مسألة جواز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد. فلتكن هذه الدقيقة معلومة، والله أعلم.

المسألة الثالثة: ظاهر هذه الآية أنه لا سبب لحل القتل إلا قتل المظلوم، وظاهر الخبر يقتضي ضم شيئين آخرين إليه: وهو الكفر بعد الإيمان، والزنا بعد الإحصان، ودلت آية أخرى على حصول سبب رابع وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟﴾ [المائدة: ٣٣] ودلت آية أخرى على حصول سبب خامس وهو الكفر. قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] وقال: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٩] والفقهاء تكلموا واختلفوا في أشياء أخرى فمنها: أن تارك الصلاة هل يقتل أم لا؟ فعند الشافعي رحمه الله يقتل، وعن أبي حنيفة رحمه الله لا يقتل. وثانيها: أن فعل اللواط هل يوجب القتل؟ فعند الشافعي يوجب، وعند أبي حنيفة لا يوجب. وثالثها: أن الساحر إذا قال: قتلت بسحري فلانًا فعند الشافعي يوجب القتل، وعند أبي حنيفة لا يوجب. ورابعها: أن القتل بالمثقل هل يوجب القصاص؟ فعند الشافعي يوجب. وعند أبي حنيفة لا يوجب. وخامسها: أن الامتناع من أداء الزكاة هل يوجب القتل أم لا؟ اختلفوا فيه في زمان أبي بكر. وسادسها: أن إتيان البهيمة هل يوجب القتل، فعند أكثر الفقهاء لا يوجب، وعند قوم يوجب، حجة القائلين بأنه لا يجوز القتل في هذه الصور هو أن الآية صريحة في منع القتل على الإطلاق، إلا لسبب واحد وهو قتل المظلوم، ففيما عدا هذا السبب الواحد، وجب البقاء على أصل الحرمة، ثم قالوا: وهذا النص قد تأكد بالدلائل الكثيرة الموجبة لحرمة الدم على الإطلاق، فترك العمل بهذه الدلائل لا يكون إلا لمعارض، وذلك المعارض إما أن يكون نصًا متواترًا أو

نصًا من باب الآحاد أو يكون قياسًا، أما النص المتواتر فمفقود، وإلا لما بقي الخلاف، وأما النص من باب الآحاد فهو مرجوح بالنسبة إلى هذه النصوص المتواترة الكثيرة، وأما القياس فلا يعارض النص. فثبت بمقتضى هذا الأصل القوي القاهر أن الأصل في الدماء الحرمة إلا في الصور المعدودة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف﴾.

فيه بحثان:

البحث الأول: أن هذه الآية تدل على أنه أثبت لولي الدم سلطانًا، فأما بيان أن هذه السلطنة تحصل فيما ذا فليس في قوله: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ دلالة عليه ثم ههنا طريقان: الأول: أنه تعالى لما قال بعده: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ عرف أن تلك السلطنة إنما حصلت في استيفاء القتل، وهذا ضعيف لاحتمال أن يكون المراد: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ فلا ينبغي أن يسرف الظالم في ذلك القتل، لأن ذلك المقتول منصور بواسطة إثبات هذه السلطنة لوليه. والثاني: أن تلك السلطنة مجملة ثم صارت مفسرة بالآية والخبر، أما الآية فقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] وقد بينا في تفسير هذه الآية أنها تدل على أن الواجب هو كون المكلف مخيرًا بين القصاص وبين الدية. وأما الخبر فهو قوله عليه السلام يوم الفتح: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَأَهْلُهُ بَيْنَ خِيرَتَيْنِ إِنْ أَحَبُّوا قَتَلُوا وَإِنْ أَحَبُّوا أَخَذُوا الدِّيَةَ»[(١)] وعلى هذا الطريق فقوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ معناه: أنه لما حصلت له سلطنة استيفاء القصاص إن شاء، وسلطنة استيفاء الدية إن شاء. قال بعده: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ معناه أن الأولى أن لا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتفي بأخذ الدية أو يميل إلى العفو وبالجملة فلفظة (في) محمولة على الباء، والمعنى: فلا يصير مسرفًا بسبب إقدامه على القتل ويصير معناه الترغيب في العفو والاكتفاء بالدية كما قال: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

البحث الثاني: أن في قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ ذكر كونه مظلومًا بصيغة التنكير، وصيغة التنكير على ما عرف تدل على الكمال، فالإنسان المقتول ما لم يكن كاملاً في وصف المظلومية لم يدخل تحت هذا النص. قال الشافعي رحمه الله: قد دللنا على أن المسلم إذا قتل الذمي لم يدخل تحت هذه الآية، بدليل أن الذمي مشرك والمشرك يحل دمه، إنما قلنا: إنه مشرك لقوله

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الديات) باب (ولي العمد يرضى بالدية) (٤/ ١٩٢٩) حديث رقم/ ٤٥٠٤، والترمذي في كتاب (الديات) باب (ما جاء في حكم ولي القتيل) (٤/ ١٤) حديث رقم/ ١٤٠٦، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد في (مسنده) (٦/ ٣٨٥) جميعًا من طريق يحيى بن سعيد... به، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٨/ ٥٢) والشافعي في (مسنده) (١/ ٢٠٠) كلاهما من طريق ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي شريح الكعبي... به.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦] حكم بأن ما سوى الشرك مغفور في حق البعض، فلو كان كفر اليهودي والنصراني شيئًا مغايرًا للشرك لوجب أن يصير مغفورًا في حق بعض الناس بمقتضى هذه الآية، فلما لم يصر مغفورًا في حق أحد دل على أن كفرهم شرك، ولأنه تعالى قال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [البقرة: ٧٣] فهذا التثليث الذي قال به هؤلاء، إما أن يكون تثليثًا في الصفات وهو باطل، لأن ذلك هو الحق وهو مذهب أهل السنة والجماعة فلا يمكن جعله تثليثًا للكفر، وإما أن يكون تثليثًا في الذوات، وذلك هو الحق ولا شك أن القائل به مشرك، فثبت أن الذمي مشرك، وإنما قلنا: إن المشرك يجب قتله لقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] ومقتضى هذا الدليل إباحة دم الذمي فإن لم تثبت الإباحة فلا أقل من حصول شبهة الإباحة. وإذا ثبت هذا فنقول: ثبت أنه ليس كاملاً في المظلومية فلم يندرج تحت قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وأما الحر إذا قتل عبدًا فهو داخل تحت هذه الآية إلا أنا بينا أن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ [البقرة: ١٧٨] يدل على المنع من قتل الحر بالعبد من وجوه كثيرة وتلك الآية أخص من قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ والخاص مقدم على العام، فثبت أن هذه الآية لا يجوز التمسك بها في مسألة أن موجب العمد هو القصاص ولا في مسألة أنه يجب قتل المسلم بالذمي، ولا في مسألة أنه يجب قتل الحر بالعبد، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾.

ففيه مباحث:

البحث الأول: فيه وجوه: **الأول:** المراد هو أن يقتل القاتل وغير القاتل، وذلك لأن الواحد منهم إذا قتل واحدًا من قبيلة شريفة فأولياء ذلك المقتول كانوا يقتلون خلقًا من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه وأمر بالاقتصار على قتل القاتل وحده. **الثاني:** هو أن لا يرضى بقتل القاتل فإن أهل الجاهلية كانوا يقصدون أشراف قبيلة القاتل ثم كانوا يقتلون منهم قومًا معينين ويتركون القاتل. **والثالث:** هو أن لا يكتفي بقتل القاتل بل يمثل به ويقطع أعضاؤه. قال القفال: ولا يبعد حمله على الكل، لأن جملة هذه المعاني مشتركة في كونها إسرافًا.

البحث الثاني: قرأ الأكثرون: ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ بالياء وفيه وجهان: **الأول:** التقدير: فلا ينبغي أن يسرف الولي في القتل. **الثاني:** أن الضمير للقاتل الظالم ابتداء، أي فلا ينبغي أن يسرف ذلك الظالم وإسرافه عبارة عن إقدامه على ذلك القتل الظلم، وقرأ حمزة والكسائي: (فَلَا تُسْرِفْ) بالتاء على الخطاب، وهذه القراءة تحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الخطاب للمبتدىء القاتل ظلمًا كأنه قيل له: لا تسرف أيها الإنسان، وذلك الإسراف هو إقدامه على ذلك القتل الذي هو ظلم محض، والمعنى: لا تفعل فإنك إن قتلته مظلومًا استوفى القصاص منك. والآخر: أن يكون الخطاب للولي فيكون التقدير: لا تسرف في القتل أيها الولي، أي اكتف باستيفاء

القصاص ولا تطلب الزيادة. وأما قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ ففيه ثلاثة أوجه: الأول: كأنه قيل للظالم المبتدىء بذلك القتل على سبيل الظلم لا تفعل ذلك، فإن ذلك المقتول يكون منصورًا في الدنيا والآخرة، أما نصرته في الدنيا فبقتل قاتله، وأما في الآخرة فبكثرة الثواب له وكثرة العقاب لقاتله.

والقول الثاني: أن هذا الولي يكون منصورًا في قتل ذلك القاتل الظالم فليكتف بهذا القدر فإنه يكون منصورًا فيه ولا ينبغي أن يطمع في الزيادة منه، لأن من يكون منصورًا من عند الله يحرم عليه طلب الزيادة.

والقول الثالث: أن هذا القاتل الظالم ينبغي أن يكتفي باستيفاء القصاص وأن لا يطلب الزيادة.

واعلم أن على القول الأول والثاني ظهر أن المقتول وولي دمه يكونان منصورين من عند الله تعالى وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قلت لعلي بن أبي طالب عليه السلام وايم الله ليظهرن عليكم ابن أبي سفيان، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومًا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنًا﴾ وقال الحسن: والله ما نصر معاوية على علي عليه السلام إلا بقول الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومًا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنًا﴾، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من الأشياء التي نهى الله عنها في هذه الآيات.

واعلم أنا ذكرنا أن الزنا يوجب اختلاط الأنساب. وذلك يوجب منع الاهتمام بتربية الأولاد وذلك يوجب انقطاع النسل، وذلك يوجب المنع من دخول الناس في الوجود، وأما القتل فهو عبارة عن إعدام الناس بعد دخولهم في الوجود، فثبت أن النهي عن الزنا والنهي عن القتل يرجع حاصله إلى النهي عن إتلاف النفوس، فلما ذكر الله تعالى ذلك أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال، لأن أعز الأشياء بعد النفوس الأموال، وأحق الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم هو اليتيم، لأنه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره بإتلاف ماله، فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهي عن إتلاف أموالهم فقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [النساء: ٦] وفي تفسير قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وجهان: الأول: إلا بالتصرف الذي ينميه ويكثره. الثاني: المراد هو أن تأكل منه إذا احتجت إليه، وروى مجاهد عن ابن عباس قال: إذا احتاج أكل بالمعروف فإذا أيسر قضاه، فإن لم يوسر فلا شيء عليه.

واعلم أن الولي إنما تبقى ولايته على اليتيم إلى أن يبلغ أشده وهو بلوغ النكاح، كما بينه الله تعالى في آية أخرى وهو قوله: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ

أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦] والمراد بالأشد بلوغه إلى حيث يمكنه بسبب عقله ورشده القيام بمصالح ماله، وعند ذلك تزول ولاية غيره عنه وذلك حد البلوغ، فأما إذا بلغ غير كامل العقل لم تزل الولاية عنه، والله أعلم. وبلوغ العقل هو أن يكمل عقله وقواه الحسية والحركية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى أمر بخمسة أشياء أولاً، ثم أتبعه بالنهي عن ثلاثة أشياء وهي النهي عن الزنا، وعن القتل إلا بالحق، وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، ثم أتبعه بهذه الأوامر الثلاثة فالأول قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ﴾.

واعلم أن كل عقد تقدم لأجل توثيق الأمر وتوكيده فهو عهد فقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ﴾ نظير لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] فدخل في قوله: ﴿أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] كل عقد من العقود كعقد البيع والشركة، وعقد اليمين والنذر، وعقد الصلح، وعقد النكاح.

وحاصل القول فيه: أن مقتضى هذه الآية أن كل عقد وعهد جرى بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء بمقتضى ذلك العقد والعهد، إلا إذا دل دليل منفصل على أنه لا يجب الوفاء به فمقتضاه الحكم بصحة كل بيع وقع التراضي به وبصحة كل شركة وقع التراضي بها، ويؤكد هذا النص بسائر الآيات الدالة على الوفاء بالعهود والعقود كقوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨] وقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوٓا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقوله عليه السلام: «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا عَنْ طِيبَةٍ مِنْ نَفْسِهِ» (١) وقوله: «إِذَا اخْتَلَفَ الْجِنْسَانِ فَبِيعُوا كَيفَ شِئْتُمْ يَدًا بِيَدٍ» (٢) وقوله: «مَنِ اشْتَرَى شَيْئًا لَمْ يَرَهُ فَهُوَ بِالْخِيَارِ إِذَا رَآهُ» (٣) فجميع هذه الآيات والأخبار دالة على أن الأصل في

---

(١) البيهقي في (شعب الإيمان) (٤/ ٣٨٧) حديث رقم/ ٥٤٩٢، من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي حرة الرقاشي عن عمه... به، وأورده ابن الملقن في (خلاصة البدر المنير) (٢/ ٨٨) حديث رقم/ ١٥٩١، وقال: رواه الدارقطني من رواية أنس وابن عباس وأبي حرة الرقاشي عن عمه وعمرو بن يثربي ورواه البيهقي في خلافياته من رواية أبي حميد الساعدي وعبد الله بن السائب عن أبيه عن جده وقال إسناده هذا حسن قال وحديث أبي حرة يضم إليه حديث عكرمة وعمر بن يثربي فيقوى قلت ورواه الحاكم من حديث ابن عباس بلفظ لا يحل لامرىء من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس ثم قال وقد احتج البخاري بأحاديث عكرمة ومسلم بأحاديث أبي أويس وسائر رواته متفق عليهم.

(٢) رواه الربيع في (مسنده) (١/ ٢٢٨)، من طريق جابر عن ابن عباس... به، ورواه أيضا في (١/ ٢٣٢) حديث رقم/ ٥٨٤، عن عبادة بن الصامت... به.

(٣) ضعيف: رواه البيهقي في (سننه الكبري) (٥/ ٢٦٨) حديث رقم/ ١٠٢٠٦، من طريق داهر بن نوح حدثنا عمر بن إبراهيم بن خالد عن وهب البشكري عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة... به، وأورده الذهبي في=

البيوعات والعهود والعقود الصحة ووجوب الالتزام.

إذا ثبت هذا فنقول: إن وجدنا نصًا أخص من هذه النصوص يدل على البطلان والفساد قضينا به تقديمًا للخاص على العام، وإلا قضينا بالصحة في الكل، وأما تخصيص النص بالقياس فقد أبطلناه، وبهذا الطريق تصير أبواب المعاملات على طولها وأطنابها مضبوطة معلومة بهذه الآية الواحدة، ويكون المكلف آمن القلب مطمئن النفس في العمل، لأنه لما دلت هذه النصوص على صحتها فليس بعد بيان الله بيان، وتصير الشريعة مضبوطة معلومة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ وفيه وجوه: أحدها: أن يراد صاحب العهد كان مسؤلاً فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وثانيها: أن العهد كان مسؤلا أي مطلوبًا يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به. وثالثها: أن يكون هذا تخييلاً كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفي بك تبكيتًا للناكث كما يقال للموؤدة: ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٩] وكقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦] الآية فالمخاطبة لعيسى عليه السلام والإنكار على غيره.

النوع الثاني: من الأوامر المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ والمقصود منه إتمام الكيل وذكر الوعيد الشديد في نقصانه في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣].

النوع الثالث: من الأوامر المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ فالآية المتقدمة في إتمام الكيل، وهذه الآية في إتمام الوزن، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩] وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل، والوزن قليل. والوعيد الحاصل عليه شديد

=(ميزان الاعتدال) (٨/ ٩٢) حديث رقم/ ٣٤١، من طريق داهر بن نوح الأهوازي تحت ترجمة وقال ليس بالقوي في الحديث وقال ابن القطان: داهر بن نوح لا يعرف ولعل الجناية منه ا. هـ.

والدارقطني في (سننه) (٣/ ٤) حديث رقم/ ٨، من طريق إسماعيل بن عياش عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن مكحول رفع الحديث إلي النبي ﷺ... فذكره، وقال: هذا مرسل وأبو بكر بن أبي مريم ضعيف.

وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٣٠٣) حديث رقم/ ٢٣٩٩، وقال: رواه القضاعي والبيهقي والديلمي عن أبي هريرة وفي سنده عمر بن إبراهيم الكردي وضاع وذكر الدارقطني أنه تفرد به وقال هو والبيهقي المعروف أنه من قول ابن سيرين وأخرجه ابن أبي شيبة والدارقطني والبيهقي من طريق اخري مرسلة عن مكحول رفعة بسند فيه ضعيف لكنها أمثل من الموصولة وعلق الشافعي القول به على ثبوته ونقل النووي اتفاق الحفاظ على تضعيفه وعند الطحاوي والبيهقي من طريق علقمة بن وقاص أن طلحة اشتري من عثمان مالا، فقيل لعثمان إنك غبنت فقال عثمان لي الخيار لأني نظير ما لم أره وقال طلحة لي الخيار لأني اشتريت ما لم أره فحكما بينهما جبير بن مطعم فقضى أن الخيار لطلحة ولا خيار لعثمان انتهى وقد أورده كثير من السادة الحنفية في كتبهم مستدلين به كصاحب الهداية بلفظ من اشترى ما لم ير فله الخيار إذا رأى وهو المشهور على الألسنة لكن نقل عن الحافظ ابن حجر أنه قال في تخريجه لأحاديث الهداية لا أصل له فليراجع والله أعلم.

عظيم، فوجب على العاقل الاحتراز منه، وإنما عظم الوعيد فيه لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء، وقد يكون الإنسان غافلاً لا يهتدي إلى حفظ ماله، فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان، سعيًا في إبقاء الأموال على الملاك، ومنعًا من تلطيخ النفس بسرقة ذلك المقدار الحقير، والقسطاس في معنى الميزان إلا أنه في العرف أكبر منه، ولهذا اشتهر في ألسنة العامة أنه القبان. وقيل أنه بلسان الروم أو السرياني. والأصح أنه لغة العرب وهو مأخوذ من القسط، وهو الذي يحصل فيه الاستقامة والاعتدال، وبالجملة فمعناه المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الجانبين، وأجمعوا على جواز اللغتين فيه، ضم القاف وكسرها، فالكسر قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم والباقون بالضم.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي الإيفاء بالتمام والكمال خير من التطفيف القليل من حيث أن الإنسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ والتأويل ما يؤل إليه الأمر كما قال في موضع آخر: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦] ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤] ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] وإنما حكم تعالى بأن عاقبة هذا الأمر أحسن العواقب، لأنه في الدنيا إذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب إليه وحصل له الاستغناء في الزمان القليل، وكم قد رأينا من الفقراء لما اشتهروا عند الناس بالأمانة والاحتراز عن الخيانة أقبلت القلوب عليهم وحصلت الأموال الكثيرة لهم في المدة القليلة. وأما في الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الأليم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما شرح الأوامر الثلاثة، عاد بعده إلى ذكر النواهي فنهى عن ثلاثة أشياء: أولها: قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وقوله: ﴿تَقْفُ﴾ مأخوذ من قولهم: قفوت أثر فلان أقفو قَفْوًا وقُفُوًّا إذا اتبعت أثره، وسميت قافية الشعر قافية لأنها تقفو البيت، وسميت القبيلة المشهورة بالقافة، لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس ويستدلون بها على أحوال الإنسان، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: ٢٧] وسمي القفا قفا لأنه مؤخر بدن الإنسان كأنه شيء يتبعه ويقفوه فقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي ولا تتبع ولا تقتف ما لا علم لك به من قول أو فعل، وحاصله يرجع إلى النهي عن الحكم بما لا يكون معلومًا، وهذه قضية كلية يندرج تحتها أنواع كثيرة، وكل واحد من المفسرين حمله على واحد من تلك الأنواع وفيه وجوه:

الوجه الأول: المراد نهي المشركين عن المذاهب التي كانوا يعتقدونها في الإلهيات والنبوات بسبب تقليد أسلافهم، لأنه تعالى نسبهم في تلك العقائد إلى اتباع الهوى فقال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ

سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ﴾ [النجم: ٢٣] وقال في إنكارهم البعث: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] وحكي عنهم أنهم قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠] وقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦] الآية وقال: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والقول الثاني: نقل عن محمد بن الحنفية أن المراد منه شهادة الزور، وقال ابن عباس: لا تشهد إلا بما رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك.

والقول الثالث: المراد منه: النهي عن القذف ورمي المحصنين والمحصنات بالأكاذيب، وكانت عادة العرب جارية بذلك يذكرونها في الهجاء ويبالغون فيه.

القول الرابع: المراد منه النهي عن الكذب. قال قتادة: لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم.

والقول الخامس: أن القفو هو البهت وأصله من القفا، كأنه قول يقال خلفه وهو في معنى الغيبة وهو ذكر الرجل في غيبته بما يسوءه. وفي بعض الأخبار من قفا مسلمًا بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال، واعلم أن اللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقليد، والله أعلم.

المسألة الثانية: احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: القياس لا يفيد إلا الظن والظن مغاير للعلم، فالحكم في دين الله بالقياس حكم بغير المعلوم، فوجب أن لا يجوز لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾.

أجيب عنه من وجوه:

الأول: أن الحكم في الدين بمجرد الظن جائز بإجماع الأمة في صور كثيرة:

أحدها: أن العمل بالفتوى عمل بالظن وهو جائز.

وثانيها: العمل بالشهادة عمل بالظن وأنه جائز.

وثالثها: الاجتهاد في طلب القبلة لا يفيد إلا الظن وأنه جائز.

ورابعها: قيم المتلفات وأروش الجنايات لا سبيل إليها إلا بالظن وأنه جائز.

وخامسها: الفصد والحجامة وسائر المعالجات بناء على الظن وأنه جائز.

وسادسها: كون هذه الذبيحة ذبيحة للمسلم مظنون لا معلوم، وبناء الحكم عليه جائز.

وسابعها: قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم.

وثامنها: الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمنًا مظنون ثم نبني على هذا الظن أحكامًا كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن في مقابر المسلمين وغيرهما.

وتاسعها: جميع الأعمال المعتبرة في الدنيا من الأسفار، وطلب الأرباح والمعاملات إلى الآجال المخصوصة والاعتماد على صداقة الأصدقاء وعداوة الأعداء كلها مظنونة وبناء الأمر على تلك الظنون جائز.

وعاشرها: قال عليه السلام: «نَحْنُ نَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ»(١) وذلك تصريح بأن الظن معتبر في هذه الأنواع العشرة فبطل قول من يقول: إنه لا يجوز بناء الأمر على الظن.

والجواب الثاني: أن الظن قد يسمى بالعلم. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠] ومن المعلوم أنه إنما يمكن العلم بإيمانهن بناء على إقرارهن، وذلك لا يفيد إلا الظن، فههنا الله تعالى سمى الظن علمًا.

والجواب الثالث: أن الدليل القاطع لما دل على وجوب العمل بالقياس، وكان ذلك الدليل دليلاً على أنه متى حصل ظن أن حكم الله في هذه السورة يساوي حكمه في محل النص، فأنتم مكلفون بالعمل على وفق ذلك الظن، فههنا الظن وقع في طريق الحكم، فأما ذلك الحكم فهو معلوم متيقن.

أجاب نفاة القياس عن السؤال الأول فقالوا: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ عام دخله التخصيص في الصور العشرة المذكورة، فيبقى هذا العموم فيما وراء هذه الصور حجة، ثم نقول: الفرق بين هذه الصور العشر وبين محل النزاع أن هذه الصور العشر مشتركة في أن تلك الأحكام أحكام مختصة بأشخاص معينين في أوقات معينة، فإن الواقعة التي يرجع فيها الإنسان المعين إلى المعنى المعين واقعة متعلقة بذلك الشخص المعين، وكذلك القول في الشهادة وفي طلب القبلة وفي سائر الصور. والتنصيص على وقائع الأشخاص المعينين في الأوقات المعينة يجري مجرى التنصيص على ما لا نهاية له، وذلك متعذر، فلهذه الضرورة اكتفينا بالظن. أما الأحكام المثبتة بالأقيسة فهي أحكام كلية معتبرة في وقائع كلية وهي مضبوطة قليلة، والتنصيص عليها ممكن ولذلك فإن الفقهاء الذين استخرجوا تلك الأحكام بطريق القياس ضبطوها وذكروها في كتبهم.

وإذا عرفت هذا فنقول: التنصيص على الأحكام في الصور العشر التي ذكرتموها غير ممكن فلا جرم اكتفى الشارع فيها بالظن، أما المسائل المثبتة بالطرق القياسية التنصيص عليها ممكن فلم يجز الاكتفاء فيها بالظن فظهر الفرق.

وأما الجواب الثاني: وهو قولهم الظن قد يسمى علمًا فنقول: هذا باطل فإنه يصح أن يقال هذا مظنون وغير معلوم، وهذا معلوم وغير مظنون، وذلك يدل على حصول المغايرة، ثم الذي يدل

---

(١) أورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٤/ ١٩٢) حديث (رقم/ ٢١٠٠).

عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١٤٨] نفي للعلم، وإثبات للظن، وذلك يدل على حصول المغايرة، وأما قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] فالمؤمن هو المقر، وذلك الإقرار هو العلم.

وأما الجواب الثالث: فهو أيضًا ضعيف، لأن ذلك الكلام إنما يتم لو ثبت أن القياس حجة بدليل قاطع وذلك باطل لأن تلك الحجة إما أن تكون عقلية أو نقلية، والأول باطل لأن القياس الذي يفيد الظن لا يجب عقلاً أن يكون حجة، والدليل عليه أنه لا نزاع أن يصح من الشرع أن يقول: نهيتكم عن الرجوع إلى القياس ولو كان كونه حجة أمرًا عقليًا محضًا لامتنع ذلك. والثاني: أيضًا باطل، لأن الدليل النقلي في كون القياس حجة إنما يكون قطعيًا لو كان منقولاً نقلاً متواترًا وكانت دلالته على ثبوت هذا المطلوب دلالة قطعية غير محتملة النقيض ولو حصل مثل هذا الدليل لوصل إلى الكل ولعرفه الكل ولارتفع الخلاف، وحيث لم يكن كذلك علمنا أنه لم يحصل في هذه المسألة دليل سمعي قاطع، فثبت أنه لم يوجد في إثبات كون القياس حجة دليل قاطع ألبتة، فبطل قولكم كون الحكم المثبت بالقياس حجة معلوم لا مظنون، فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل. وأحسن ما يمكن أن يقال في الجواب عنه إن التمسك بهذه الآية التي عولتم عليها تمسك بعام مخصوص، والتمسك بالعام المخصوص لا يفيد إلا الظن، فلو دلت هذه الآية على أن التمسك بالظن غير جائز لدلت على أن التمسك بهذه الآية غير جائز، فالقول بكون هذه الآية حجة يفضي ثبوته إلى نفيه فكان تناقضًا فسقط الاستدلال به، والله أعلم.
وللمجيب أن يجيب فيقول: نعلم بالتواتر الظاهر من دين محمد ﷺ أن التمسك بآيات القرآن حجة في الشريعة ويمكن أن يجاب عن هذا الجواب بأن كون العام المخصوص حجة غير معلوم بالتواتر، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

فيه بحثان:

البحث الأول: أن العلوم إما مستفادة من الحواس، أو من العقول. أما القسم الأول: فإليه الإشارة بذكر السمع والبصر، فإن الإنسان إذا سمع شيئًا ورآه فإنه يرويه ويخبر عنه، وأما القسم الثاني: فهو العلوم المستفادة من العقل وهي قسمان: البديهية والكسبية، وإلى العلوم العقلية الإشارة بذكر الفؤاد.

البحث الثاني: ظاهر الآية يدل على أن هذه الجوارح مسؤولة.

وفيه وجوه:

الوجه الأول: أن المراد أن صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤول لأن السؤال لا يصح إلا ممن كان عاقلاً، وهذه الجوارح ليست كذلك، بل العاقل الفاهم هو الإنسان، فهو كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] والمراد أهلها يقال له لم سمعت ما لايحل لك سماعه، ولم نظرت

إلى ما لا يحل لك النظر إليه، ولم عزمت على ما لا يحل لك العزم عليه.

والوجه الثاني: أن تقرير الآية أن أولئك الأقوام كلهم مسؤولون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع فيماذا أفي الطاعة أو في المعصية؟ وكذلك القول في بقية الأعضاء، وذلك لأن هذه الحواس آلات النفس، والنفس كالأمير لها والمستعمل لها في مصالحها فإن استعملتها النفس في الخيرات استوجبت الثواب، وإن استعملتها في المعاصي استحقت العقاب.

والوجه الثالث: أنه ثبت بالقرآن أنه تعالى يخلق الحياة في الأعضاء ثم إنها تشهد على الإنسان والدليل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] ولذلك لا يبعد أن يخلق الحياة والعقل والنطق في هذه الأعضاء. ثم إنه تعالى يوجه السؤال عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من الأشياء التي نهى الله عنها في هذه الآيات.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المرح شدة الفرح يقال: مرح يمرح مرحًا فهو مَرِحٌ، والمراد من الآية النهي عن أن يمشي الإنسان مشيًا يدل على الكبرياء والعظمة. قال الزجاج: لا تمش في الأرض مختالاً فخورًا ونظيره قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال في سورة لقمان: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩] وقال أيضًا فيها: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

المسألة الثانية: قال الأخفش: ولو قرئ: (مَرِحًا) بالكسر كان أحسن في القراءة. قال الزجاج: مرحًا مصدر ومَرِحًا اسم الفاعل وكلاهما جائز، إلا أن المصدر أحسن ههنا وأوكد، تقول جاء زيد ركضًا وراكضًا فركضًا أوكد لأنه يدل على توكيد الفعل، ثم إنه تعالى أكد النهي عن الخيلاء والتكبر فقال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ والمراد من الخرق ههنا نقب الأرض، ثم ذكروا فيه وجوهًا: **الأول:** أن المشي إنما يتم بالارتفاع والانخفاض فكأنه قيل: إنك حال الانخفاض لا تقدر على خرق الأرض ونقبها، وحال الارتفاع لا تقدر على أن تصل إلى رؤوس الجبال، والمراد التنبيه على كونه ضعيفًا عاجزًا فلا يليق به التكبر. **الثاني:** المراد منه أن تحتك الأرض التي لا تقدر على خرقها. وفوقك الجبال التي لا تقدر على الوصول إليها فأنت محاط بك من فوقك وتحتك بنوعين من الجماد، وأنت أضعف منهما بكثير، والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكأنه قيل له: تواضع ولا تتكبر فإنك خلق ضعيف من خلق الله المحصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوي:

ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الأكثرون قرؤا ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ بضم الهاء والهمزة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (سَيِّئَةً) منصوبة أما وجه قراءة الأكثرين فظاهر من وجهين:

الوجه الأول: قال الحسن: إنه تعالى ذكر قبل هذا أشياء أمر ببعضها ونهى عن بعضها، فلو حكم على الكل بكونه سيئة لزم كون المأمور به سيئة وذلك لا يجوز، أما إذا قرأناه بالإضافة كان المعنى أن ما كان من تلك الأشياء المذكورة سيئة فهو مكروه عند الله واستقام الكلام.

والوجه الثاني: أنا لو حكمنا على كل ما تقدم ذكره بكونه سيئة لوجب أن يقال: إنها مكروهة وليس الأمر كذلك لأنه تعالى قال: ﴿مَكْرُوهًا﴾ أما إذا قرأناه بصيغة الإضافة كان المعنى أن سيىء تلك الأقسام يكون مكروهًا، وحينئذ يستقيم الكلام. أما قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو: ففيها وجوه:

الأول: أن الكلام، تم عند قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥] ثم ابتدأ وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]. ثم قال: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ والمراد هذه الأشياء الأخيرة التي نهى الله عنها.

والثاني: أن المراد بقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ أي كل ما نهى الله عنه فيما تقدم. وأما قوله: ﴿مَكْرُوهًا﴾ فذكروا في تصحيحه على هذه القراءة وجوهًا:

الأول: التقدير: كل ذلك كان سيئة وكان مكروهًا.

الثاني: قال صاحب (الكشاف): السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه، ولا فرق بين من قرأ سيئة ومن قرأ سيئه. ألا ترى أنك تقول: الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث.

الثالث: فيه تقديم وتأخير، والتقدير: كل ذلك كان مكروهًا وسيئة عند ربك.

الرابع: أنه محمول على المعنى لأن السيئة هي الذنب وهو مذكر.

المسألة الثانية: قال القاضي: دلت هذه الآية على أن هذه الأعمال مكروهة عند الله تعالى، والمكروه لا يكون مرادًا له، فهذه الأعمال غير مرادة لله تعالى فبطل قول من يقول: كل ما دخل في الوجود فهو مراد لله تعالى. وإذا ثبت أنها ليست بإرادة الله تعالى وجب أن لا تكون مخلوقة له لأنها لو كانت مخلوقة لله تعالى لكانت مرادة له لا يقال: المراد من كونها مكروهة أن الله تعالى نهى عنها، وأيضًا معنى كونها مكروهة أن الله تعالى كره وقوعها وعلى هذا التقدير فهذا لا يمنع أن الله تعالى أراد وجودها، لأن الجواب عن الأول أنه عدول عن الظاهر، وأيضًا فكونها سيئة عند ربك يدل على كونها منهيًا عنها فلو حملنا المكروه على النهي لزم التكرار.

والجواب عن الثاني: أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية في معرض الزجر عن هذه الأفعال، ولا يليق

بهذا الموضع أن يقال: إنه يكره وقوعها هذا تمام هذا الاستدلال.

والجواب: أن المراد من المكروه المنهي عنه ولا بأس بالتكرير لأجل التأكيد، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قال القاضي: دلت هذه الآية على أنه تعالى كما أنه موصوف بكونه مريدًا فكذلك أيضًا موصوف بكونه كارهًا. وقال أصحابنا: الكراهية في حقه تعالى محمولة إما على النهي أو على إرادة العدم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى جمع في هذه الآية خمسة وعشرين نوعًا من التكاليف. فأولها: قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢] وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] مشتمل على تكليفين: الأمر بعبادة الله تعالى، والنهي عن عبادة غير الله، فكان المجموع ثلاثة. وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] هو الرابع، ثم ذكر في شرح ذلك الإحسان خمسة أخرى وهي: قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤] فيكون المجموع تسعة، ثم قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦] وهو ثلاثة فيكون المجموع إثني عشر. ثم قال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦] فيصير ثلاثة عشر. ثم قال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨] وهو الرابع عشر ثم قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] إلى آخر الآية وهو الخامس عشر، ثم قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] وهو السادس عشر، ثم قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١] وهو السابع عشر ثم قال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣] وهو الثامن عشر، ثم قال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣] وهو التاسع عشر، ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ [الإسراء: ٣٤] وهو العشرون. ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ وهو الحادي والعشرون، ثم قال: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥] وهو الثاني والعشرون، ثم قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] وهو الثالث والعشرون، ثم قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] وهو الرابع والعشرون، ثم قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهو الخامس والعشرون، فهذه خمسة وعشرون نوعًا من التكاليف بعضها أوامر وبعضها نواه جمعها الله تعالى في هذه الآيات وجعل فاتحتها قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢] وخاتمتها قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

إذا عرفت هذا فنقول: هاهنا فوائد:

الفائدة الأولى: قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كل ما تقدم ذكره من التكاليف وسماها حكمة، وإنما سماها بهذا الاسم لوجوه: أحدها: أن حاصلها يرجع إلى الأمر بالتوحيد وأنواع الطاعات والخيرات والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، والعقول تدل على صحتها. فالأتي بمثل هذه الشريعة لا يكون داعيًا إلى دين الشيطان بل الفطرة الأصلية تشهد بأنه يكون داعيًا إلى دين الرحمن، وتمام تقرير هذا ما نذكره في سورة الشعراء في قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. وثانيها: أن الأحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الأديان والملل ولا تقبل النسخ والإبطال، فكانت محكمة وحمكة من هذا الاعتبار. وثالثها: أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به، فالأمر بالتوحيد عبارة عن القسم الأول وسائر التكاليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب الإنسان عليها ولا ينحرف عنها، فثبت أن هذه الأشياء المذكورة في هذه الآيات عين الحكمة، وعن ابن عباس: أن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه الصلاة والسلام: أولها: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٩] قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

والفائدة الثانية: من فوائد هذه الآية أنه تعالى بدأ في هذه التكاليف بالأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك وختمها بعين هذا المعنى، والمقصود منه التنبيه على أن أول كل عمل وقول وفكر وذكر يجب أن يكون ذكر التوحيد، وآخره يجب أن يكون ذكر التوحيد، تنبيهًا على أن المقصود من جميع التكاليف هو معرفة التوحيد والاستغراق فيه، فهذا التكرير حسن موقعه لهذه الفائدة العظيمة ثم إنه تعالى ذكر في الآية الأولى أن الشرك يوجب أن يكون صاحبه مذمومًا مخذولاً، وذكر في الآية الأخيرة أن الشرك يوجب أن يلقي صاحبه في جهنم ملومًا مدحورًا، فاللوم والخذلان يحصل في الدنيا، وإلقاؤه في جهنم يحصل يوم القيامة ويجب علينا أن نذكر الفرق بين المذموم المخذول، وبين الملوم المدحور. فنقول: أما الفرق بين المذموم وبين الملوم، فهو أن كونه مذمومًا معناه: أن يذكر له أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح ومنكر، فهذا معنى كونه مذمومًا، وإذا ذكر له ذلك فبعد ذلك يقال له لم فعلت مثل هذا الفعل، وما الذي حملك عليه، وما استفدت من هذا العمل إلا إلحاق الضرر بنفسك، وهذا هو اللوم. فثبت أن أول الأمر هو أن يصير مذمومًا، وآخره أن يصير ملومًا، وأما الفرق بين المخذول وبين المدحور فهو أن المخذول عبارة عن الضعيف يقال: تخاذلت أعضاؤه أي ضعفت، وأما المدحور فهو المطرود. والطرد عبارة عن الاستخفاف والإهانة قال تعالى: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩] فكونه مخذولاً عبارة عن ترك إعانته وتفويضه إلى نفسه، وكونه مدحورًا عبارة عن إهانته والاستخفاف به، فثبت أن أول الأمر أن يصير مخذولاً، وآخره أن يصير مدحورًا، والله أعلم بمراده.

وأما قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا﴾ فاعلم أنه تعالى لما نبه على فساد

طريقة من أثبت لله شريكًا ونظيرًا نبه على طريقة من أثبت له الولد وعلى كمال جهل هذه الفرقة، وهي أنهم اعتقدوا أن الولد قسمان؛ فأشرف القسمين البنون، وأخسهما البنات. ثم إنهم أثبتوا البنين لأنفسهم مع علمهم بنهاية عجزهم ونقصهم وأثبتوا البنات لله مع علمهم بأن الله تعالى هو الموصوف بالكمال الذي لا نهاية له والجلال الذي لا غاية له، وذلك يدل على نهاية جهل القائل بهذا القول ونظيره قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] وقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] وقوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ يقال أصفاه بالشيء إذا آثر به، ويقال للضياع التي يستخصها السلطان بخاصية الصوافي. قال أبو عبيدة في قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ أفخصكم، وقال المفضل: أخلصكم. قال النحويون هذه الهمزة همزة تدل على الإنكار على صيغة السؤال عن مذهب ظاهر الفساد لا جواب لصاحبه إلا بما فيه أعظم الفضيحة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ وبيان هذا التعظيم من وجهين: الأول: أن إثبات الولد يقتضي كونه تعالى مركبًا من الأجزاء والأبعاض، وذلك يقدح في كونه قديمًا واجب الوجود لذاته. وذلك عظيم من القول ومنكر من الكلام. والثاني: أن بتقدير ثبوت الولد فقد جعلتم أشرف القسمين لأنفسكم وأخس القسمين لله. وهذا أيضًا جهل عظيم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أن التصريف في اللغة عبارة عن صرف الشيء من جهة إلى جهة، نحو تصريف الرياح وتصريف الأمور هذا هو الأصل في اللغة، ثم جعل لفظ التصريف كناية عن التبيين، لأن من حاول بيان شيء فإنه يصرف كلامه من نوع إلى نوع آخر ومن مثال إلى مثال آخر ليكمل الإيضاح ويقوى البيان فقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بينا ومفعول التصريف محذوف وفيه وجوه: أحدها: ولقد صرفنا في هذا القرآن ضروبًا من كل مثل. وثانيها: أن تكون لفظة (في) زائدة كقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ [الأحقاف: ١٥] أي أصلح لي ذريتي. أما قوله: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ الجمهور (لِيَذَّكَّرُوا) بفتح الذال والكاف وتشديدهما، والمعنى: ليتذكروا فأدغمت التاء في الذال لقرب مخرجيهما، وقرأ حمزة والكسائي (لِيَذْكُروا) ساكنة الذال مضمومة الكاف، وفي سورة الفرقان مثله من الذكر قال الواحدي: والتذكر ههنا أشبه من الذكر، لأن المراد منه التدبر والتفكر، وليس المراد منه الذكر الذي يحصل بعد النسيان. ثم قال: وأما

قراءة حمزة والكسائي ففيها وجهان: الأول: أن الذكر قد جاء بمعنى التأمل والتدبر كقوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣] والمعنى: وافهموا ما فيه. والثاني: أن يكون المعنى صرفنا هذه الدلائل في هذا القرآن ليذكروه بألسنتهم فإن الذكر باللسان قد يؤدي إلى تأثر القلب بمعناه.

المسألة الثانية: قال الجبائي: قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذا القرآن، وإنما أكثر فيه من ذكر الدلائل لأنه تعالى أراد منهم فهمها والإيمان بها، وهذا يدل على أنه تعالى يفعل أفعاله لأغراض حكمية، ويدل على أنه تعالى أراد الإيمان من الكل سواء آمنوا أو كفروا، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الأصم: شبههم بالدواب النافرة، أي ما ازدادوا من الحق إلا بعدًا وهو كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٥].

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى ما أراد الإيمان من الكفار، وقالوا: إنه تعالى عالم بأن تصريف القرآن لا يزيدهم إلا نفورًا، فلو أراد الإيمان منهم لما أنزل عليهم ما يزيدهم نفرة ونَبْوَة عنه، لأن الحكيم إذا أراد تحصيل أمر من الأمور وعلم أن الفعل الفلاني يصير سببًا لمزيد النفرة والنبوة عنه، فإنه عندما يحاول تحصيل ذلك المقصود يحترز عما يوجب مزيد النفرة والنبوة. فلما أخبر تعالى أن هذا التصريف يزيدهم نفورًا، علمنا أنه ما أراد الإيمان منهم، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في تفسيره وجهان:

الوجه الأول: أن المراد من قوله: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ هو أنا لو فرضنا وجود آلهة مع الله تعالى لغلب بعضهم بعضًا، وحاصله يرجع إلى دليل التمانع وقد شرحناه في سورة الأنبياء في تفسير قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فلا فائدة في الإعادة.

الوجه الثاني: أن الكفار كانوا يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فقال الله لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى لطلبت لأنفسها أيضًا قربة إلى الله تعالى وسبيلاً إليه ولطلبت لأنفسها المراتب العالية، والدرجات الشريفة من الأحوال الرفيعة، فلما لم تقدر أن تتخذ لأنفسها سبيلاً إلى الله فكيف يعقل أن تقربكم إلى الله.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير (كَما يَقُولُونَ) و(عَمَّا يَقُولُونَ) و(يسبح) بالياء في هذه الثلاثة، والمعنى كما يقول المشركون من إثبات الآلهة من دونه فهو مثل قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ

﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢] وقرأ حمزة والكسائي كلها بالتاء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم في الأول بالتاء على الخطاب، وفي الثاني والثالث بالياء على الحكاية، وقرأ حفص عن عاصم الأولين بالياء، والأخير بالتاء، وقرأ أبو عمرو الأول والأخير بالتاء والأوسط بالياء.

ثم قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: لما أقام الدليل القاطع على كونه منزهًا عن الشركاء. وعلى أن القول بإثبات الآلهة قول باطل، أردفه بما يدل على تنزيهه عن هذا القول الباطل فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ وقد ذكرنا أن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، ثم قال: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ والمراد من هذا التعالي الارتفاع وهو العلو، وظاهر أن المراد من هذا التعالي ليس هو التعالي في المكان والجهة، لأن التعالي عن الشريك والنظير والنقائص والآفات لا يمكن تفسيره بالتعالي بالمكان والجهة، فعلمنا أن لفظ التعالي في حق الله تعالى غير مفسر بالعلو بحسب المكان والجهة.

المسألة الثانية: جعل العلو مصدر التعالي فقال تعالى: ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ وكان يجب أن يقال تعالى تعاليًا كبيرًا إلا أن نظيره قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

فإن قيل: ما الفائدة في وصف ذلك العلو بالكبير؟

قلنا: لأن المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والأضداد والأنداد منافاة بلغت في القوة والكمال إلى حيث لا تعقل الزيادة عليها، لأن المنافاة بين الواجب لذاته والممكن لذاته، وبين القديم والمحدث، وبين الغني والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير.

ثم قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن الحي المكلف يسبح لله بوجهين: الأول: بالقول كقوله باللسان سبحان الله. والثاني: بدلالة أحواله على توحيد الله تعالى وتقديسه وعزته، فأما الذي لا يكون مكلفًا مثل البهائم، ومن لا يكون حيًا مثل الجمادات فهي إنما تسبح لله تعالى بالطريق الثاني، لأن التسبيح بالطريق الأول لا يحصل إلا مع الفهم والعلم والإدراك والنطق وكل ذلك في الجماد محال، فلم يبق حصول التسبيح في حقه إلا بالطريق الثاني.

واعلم أنا لو جوزنا في الجماد أن يكون عالمًا متكلمًا لعجزنا عن الاستدلال بكونه تعالى عالمًا قادرًا على كونه حيًا وحينئذ يفسد علينا باب العلم بكونه حيًا وذلك كفر فإنه يقال: إذا جاز في الجمادات أن تكون عالمة بذات الله تعالى وصفاته وتسبحه مع أنها ليست بأحياء فحينئذ لا يلزم من كون الشيء عالمًا قادرًا متكلمًا كونه حيًا فلم يلزم من كونه تعالى عالمًا قادرًا كونه حيًا وذلك جهل وكفر، لأن من المعلوم بالضرورة أن من ليس بحي لم يكن عالمًا قادرًا متكلمًا، هذا

هو القول الذي أطبق العلماء المحققون عليه، ومن الناس من قال: إن الجمادات وأنواع النبات والحيوان كلها تسبح الله تعالى، واحتجوا على صحة قولهم بأن قالوا: دل هذا النص على كونها مسبحة لله تعالى ولا يمكن تفسير هذا التسبيح بكونها دلائل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته لأنه تعالى قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فهذا يقتضي أن تسبيح هذه الأشياء غير معلوم لنا. ودلالتها على وجود قدرة الله وحكمته معلوم، والمعلوم مغاير لما هو غير معلوم فدل على أنها تسبح الله تعالى وأن تسبيحها غير معلوم لنا، فوجب أن يكون التسبيح المذكور في هذه الآية مغايرًا لكونها دالة على وجود قدرة الله تعالى وحكمته.

والجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أنك إذا أخذت تفاحة واحدة فتلك التفاحة مركبة من عدد كثير من الأجزاء التي لا تتجزأ، وكل واحد من تلك الأجزاء دليل تام مستقل على وجود الإله، ولكل واحد من تلك الأجزاء التي لا تتجزأ صفات مخصوصة من الطبع والطعم واللون والرائحة والحيز والجهة، واختصاص ذلك الجوهر الفرد بتلك الصفة المعينة من الجائزات فلا يحصل ذلك الاختصاص إلا بتخصيص مخصص قادر حكيم.

إذا عرفت هذا فقد ظهر أن كل واحد من أجزاء تلك التفاحة دليل تام على وجود الإله وكل صفة من الصفات القائمة بذلك الجزء الواحد فهو أيضًا دليل تام على وجود الإله تعالى، ثم عدد تلك الأجزاء غير معلوم، وأحوال تلك الصفات غير معلومة، فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

والوجه الثاني: هو أن الكفار وإن كانوا يقرون بألسنتهم بإثبات إله العالم إلا أنهم ما كانوا يتفكرون في أنواع الدلائل، ولهذا المعنى قال تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] فكان المراد من قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ هذا المعنى.

والوجه الثالث: أن القوم وإن كانوا مقرين بألسنتهم بإثبات إله العالم إلا أنهم ما كانوا عالمين بكمال قدرته. ولذلك فإنهم استبعدوا كونه تعالى قادرًا على الحشر والنشر فكان المراد ذلك. وأيضًا فإنه تعالى قال لمحمد ﷺ: «**قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**» فهم ما كانوا عالمين بهذا الدليل فلما ذكر هذا الدليل قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ فتسبيح السموات والأرض ومن فيهن يشهد بصحة هذا الدليل وقوته وأنتم لا تفقهون هذا الدليل ولا تعرفونه، بل نقول: إن القوم كانوا غافلين عن أكثر دلائل التوحيد والعدل، والنبوة والمعاد، فكان المراد من قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ذلك ومما يدل على أن الأمر كما ذكرناه قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فذكر الحليم والغفور ههنا يدل على أن كونهم بحيث لا يفقهون ذلك التسبيح جرم عظيم صدر عنهم وهذا إنما يكون جرمًا إذا كان المراد من ذلك

التسبيح كونها دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، ثم إنهم لغفلتهم وجهلهم ما عرفوا وجه دلالة تلك الدلائل. أما لو حملنا هذا التسبيح على أن هذه الجمادات تسبح الله بأقوالها وألفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسبيحات جرمًا ولا ذنبًا، وإذا لم يكن ذلك جرمًا ولا ذنبًا لم يكن قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لائقًا بهذا الموضع، فهذا وجه قوي في نصرة القول الذي اخترناه.

واعلم أن القائلين بأن هذه الجمادات والحيوانات تسبح الله بألفاظها أضافوا إلى كل حيوان نوعًا آخر من التسبيح. وقالوا: إنها إذا ذبحت لم تسبح مع أنهم يقولون إن الجمادات تسبح الله، فإذا كان كونه جمادًا لا يمنع من كونه مسبحًا، فكيف صار ذبح الحيوان مانعًا له من التسبيح، وقالوا أيضًا: إن غصن الشجرة إذا كسر لم يسبح، وإذا كان كونه جمادًا لم يمنع من كونه مسبحًا فكسره كيف يمنع من ذلك، فعلم أن هذه الكلمات ضعيفة، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ تصريح بإضافة التسبيح إلى السموات والأرض وإلى المكلفين الحاصلين فيهن وقد دللنا على أن التسبيح المضاف إلى الجمادات ليس إلا بمعنى الدلالة على تنزيه الله تعالى وإطلاق لفظ التسبيح على هذا المعنى مجاز، وأما التسبيح الصادر عن المكلفين وهو قولهم: سبحان الله، فهذا حقيقة، فيلزم أن يكون قوله: ﴿تُسَبِّحُ﴾ لفظًا واحدًا قد استعمل في الحقيقة والمجاز معًا، وأنه باطل على ما ثبت دليله في أصول الفقه، فالأولى أن يحمل هذا التسبيح على الوجه المجازي في حق الجمادات لا في حق العقلاء لئلا يلزم ذلك المحذور، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم في الآية المتقدمة في المسائل الإلهية تكلم في هذه الآية فيما يتعلق بتقرير النبوة.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قولان:

القول الأول: أن هذه الآية نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن على الناس. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان، وعن يساره آخران من ولد قصي يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار، وعن أسماء أنه ﷺ كان جالسًا ومعه أبو

بكر إذ أقبلت امرأة أبي لهب ومعها فهر تريد رسول الله ﷺ وهي تقول:

مُذَمَّمًا أَتَيْنَا

وَدِينَهُ قَلَيْنَا

وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا

فقال أبو بكر: يا رسول الله معها فهر أخشاها عليك، فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية فجاءت فما رأت رسول الله عليه الصلاة والسلام وقالت: إن قريشًا قد علمت أني ابنة سيدها وأن صاحبك هجاني فقال أبو بكر: لاَ وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكِ(١). وروى ابن عباس: أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي ﷺ ويستمعون إلى حديثه، فقال النضر يومًا: ما أدري ما يقول محمد غير أني أرى شفتيه تتحرك بشيء. وقال أبو سفيان: أني لأرى بعض ما يقوله حقًا، وقال أبو جهل: هو مجنون. وقال أبو لهب هو كاهن. وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر، فنزلت هذه الآية، وكان رسول الله ﷺ إذا أراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاثة آيات وهي قوله في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧] وفي النحل: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨] وفي حم الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] إلى آخر الآية فكان الله تعالى يحجبه ببركات هذه الآيات عن عيون المشركين، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ وفيه سؤال: وهو أنه كان يجب أن يقال حجابًا ساترًا.

والجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن ذلك الحجاب حجاب يخلقه الله تعالى في عيونهم بحيث يمنعهم ذلك الحجاب عن رؤية النبي ﷺ وذلك الحجاب شيء لا يراه فكان مستورًا من هذا الوجه، احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في أنه يجوز أن تكون الحاسة سليمة ويكون المرئي حاضرًا مع أنه لا يراه ذلك الإنسان لأجل أن الله تعالى خلق في عينيه مانعًا يمنعه عن رؤيته بهذه الآية قالوا: إن النبي ﷺ كان حاضرًا وكانت حواس الكفار سليمة، ثم إنهم ما كانوا يرونه، وأخبر الله تعالى أن ذلك إنما كان لأجل أنه جعل بينه وبينهم حجابًا مستورًا، والحجاب المستور لا معنى له إلا المعنى الذي خلقه الله تعالى في عيونهم، وكان ذلك المعنى مانعًا لهم من أن يروه ويبصروه.

---

(١) إسناده حسن: الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٣٩٣) حديث رقم/ ٣٣٧٦، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والحميدي في (مسنده) (١/ ١٥٣) حديث رقم/ ٣٢٣، وأبو يعلى في (مسنده) (١/ ٥٣) حديث رقم/ ٥٣، والأصبهاني في (دلائل النبوة) (١/ ٧١) حديث رقم/ ٥٤، وابن بشكوال في (غوامض الأسماء المبهمة) (١/ ١٩١) والبيهقي في (دلائل النبوة) (٢/ ٧١) حديث رقم/ ٥٠٢، جميعا من طريق سفيان حدثنا الوليد بن كثير عن بن تدرس عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها. . . به.

والوجه الثاني: في الجواب أنه كما يجوز أن يقال لابن وتامر بمعنى ذو لبن وذو تمر فكذلك لا يبعد أن يقال مستورًا معناه ذو ستر والدليل عليه قوله مرطوب أي ذو رطوبة ولا يقال رطيبة ويقال مكان مهول أي فيه هول ولا يقال: هلت المكان بمعنى جعلت فيه الهول، ويقال: جارية مغنوجة ذات غنج ولا يقال غنجتها.

والوجه الثالث: في الجواب قال الأخفش: المستور هاهنا بمعنى الساتر، فإن الفاعل قد يجيء بلفظ المفعول كما يقال: إنك لمشؤم علينا وميمون وإنما هو شائم ويامن، لأنه من قولهم شأمهم ويمنهم، هذا قول الأخفش: وتابعه عليه قوم، إلا أن كثيرًا منهم طعن في هذا القول، والحق هو الجواب الأول.

القول الثاني: أن معنى الحجاب الطبع الذي على قلوبهم والطبع والمنع الذي منعهم عن أن يدركوا لطائف القرآن ومحاسنه وفوائده، فالمراد من الحجاب المستور ذلك الطبع الذي خلقه الله في قلوبهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهذه الآية مذكورة بعينها في سورة الأنعام وذكرنا استدلال أصحابنا بها وذكرنا سؤالات المعتزلة ولا بأس بإعادة بعضها قال الأصحاب: دلت هذه الآية على أنه تعالى جعل قلوبهم في الأكنة. والأكنة جمع كنان وهو ما ستر الشيء مثل كنان النبل وقوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي لئلا يفقهوه. وجعل في آذانهم وقرًا. ومعلوم أنهم كانوا عقلاء سامعين فاهمين، فعلمنا أن المراد منعهم عن الإيمان ومنعهم عن سماع القرآن بحيث لا يقفون على أسراره ولا يفهمون دقائقه وحقائقه. قالت المعتزلة: ليس المراد من الآية ما ذكرتم بل المراد منه وجوه أخرى. الأول: قال الجبائي: كانوا يطلبون موضعه في الليالي لينتهوا إليه ويؤذونه، ويستدلون على مبيته باستماع قراءته فأمنه الله تعالى من شرهم، وذكر له أنه جعل بينه وبينهم حجابًا لا يمكنهم الوصول إليه معه، وبين أنه جعل في قلوبهم ما يشغلهم عن فهم القرآن وفي آذانهم ما يمنع من سماع صوته، ويجوز أن يكون ذلك مرضًا شاغلاً يمنعهم من المصير إليه والتفرغ له، لا أنه حصل هناك كنٌ للقلب ووقر في الأذن. الثاني: قال الكعبي: إن القوم لشدة امتناعهم عن قبول دلائل محمد ﷺ صاروا كأنه حصل بينهم وبين تلك الدلائل حجاب مانع وساتر، وإنما نسب الله تعالى ذلك الحجاب إلى نفسه لأنه لما خلاهم مع أنفسهم، وما منعهم عن ذلك الإعراض صارت تلك التخلية كأنها هي السبب لوقوعهم في تلك الحالة، وهذا مثل أن السيد إذا لم يراقب أحوال عبده فإذا ساءت سيرته فالسيد يقول: أنا الذي ألقيتك في هذه الحالة بسبب أني خليتك مع رأيك وما راقبت أحوالك. الثالث: قال القفال: إنه تعالى لما خذلهم بمعنى أنه لم يفعل الألطاف الداعية لهم إلى الإيمان صح أن يقال: إنه فعل الحجاب الساتر.

واعلم أن هذه الوجوه مع كلمات أخرى ذكرناها في سورة الأنعام وأجبنا عنها، فلا فائدة في الإعادة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ واعلم أن المراد أن القوم كانوا عند استماع القرآن على حالتين، لأنهم إذا سمعوا من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين متحيرين لا يفهمون منه شيئًا، وإذا سمعوا آية فيها ذكر الله تعالى وذم الشرك بالله ولوا نفورًا وتركوا ذلك المجلس، وذكر الزجاج في قوله: ﴿وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ وجهين: الأول: المصدر والمعنى ولوا نافرين نفورا، والثاني: أن يكون نفورًا جمع نافر مثل شهود وشاهد وركوع وراكع وسجود وساجد وقعود وقاعد.

ثم قال تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي نحن أعلم بالوجه الذي يستمعون به وهو الهزؤ والتكذيب. و (به) في موضع الحال، كما تقول: مستمعين بالهزؤ و﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ﴾ نصب بأعلم أي أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي وبما يتناجون به إذ هم ذو نجوى: ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّـٰلِمُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ الظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

وفيه مباحث:

الأول: قال المفسرون: أمر رسول الله ﷺ عليًا أن يتخذ طعامًا ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين، ففعل علي عليه السلام ذلك ودخل عليهم رسول الله ﷺ وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد وقال: قولوا لا إله إلا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم فأبوا عليه ذلك، وكانوا عند استماعهم من النبي ﷺ القرآن والدعوة إلى الله تعالى يقولون: بينهم متناجين هو ساحر وهو مسحور وما أشبه ذلك من القول، فأخبر الله تعالى نبيه بأنهم يقولون: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

فإن قيل: إنهم لم يتبعوا رسول الله فكيف يصح أن يقولوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

قلنا: معناه أنكم إن اتبعتموه فقد اتبعتم رجلاً مسحورًا، والمسحور الذي قد سحر فاختلط عليه عقله وزال عن حد الاستواء. هذا هو القول الصحيح، وقال بعضهم: المسحور هو الذي أفسد. يقال: طعام مسحور إذا أفسد عمله وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها. قال أبو عبيدة: يريد بشرًا ذا سحر أي ذا رئة. قال ابن قتيبة: ولا أدري ما الذي حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة، وقال مجاهد: ﴿مَّسْحُورًا﴾ أي مخدوعًا لأن السحر حيلة وخديعة، وذلك لأن المشركين كانوا يقولون: إن محمدًا يتعلم من بعض الناس هذه الكلمات وأولئك الناس يخدعونه بهذه الكلمات وهذه الحكايات، فلذلك قالوا: إنه مسحور أي مخدوع، وأيضًا كانوا يقولون: إن الشيطان يتخيل له فيظن أنه ملك فقالوا: إنه مخدوع من قبل الشيطان.

ثم قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي كل أحد شبهك بشيء آخر، فقالوا: إنه كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون، فضلوا عن الحق والطريق المستقيم فلا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى والحق.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُل كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم أولاً في الإلهيات ثم أتبعه بذكر شبهاتهم في النبوات، ذكر في هذه الآية شبهات القوم في إنكار المعاد والبعث والقيامة، وقد ذكرنا كثيرًا أن مدار القرآن على المسائل الأربعة وهي: الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر، وأيضًا أن القوم وصفوا رسول الله ﷺ بكونه مسحورًا فاسد العقل، فذكروا من جملة ما يدل على فساد عقله أنه يدعي أن الإنسان بعدما يصير عظامًا ورفاتًا فإنه يعود حيًا عاقلاً كما كان، فذكروا هذا الكلام رواية عنه لتقرير كونه مختل العقل. قال الواحدي رحمه الله: الرفت كسر الشيء بيدك، تقول: رفته أرفته بالكسر كما يرفت المدر والعظم البالي، والرفات الأجزاء المتفتتة من كل شيء يكسر. يقال: رفت عظام الجزور رفتًا إذا كسرها، ويقال للتبن: الرفت لأنه دقاق الزرع. قال الأخفش: رفت رفتًا، فهو مرفوت نحو حطم حطمًا فهو محطوم والرفات والحطام الاسم، كالجذاذ والرضاض والفتات، فهذا ما يتعلق باللغة. أما تقرير شبهة القوم: فهي أن الإنسان إذا مات جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت في حوالي العالم فاختلط بتلك الأجزاء سائر أجزاء العالم. أما الأجزاء المائية في البدن فتختلط بمياه العالم، وأما الأجزاء الترابية فتختلط بتراب العالم، وأما الأجزاء الهوائية فتختلط بهواء العالم، وأما الأجزاء النارية فتختلط بنار العالم وإذا صار الأمر كذلك فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى. وكيف يعقل عود الحياة إليها بأعيانها مرة أخرى، فهذا هو تقرير الشبهة.

والجواب عنها: أن هذا الإشكال لا يتم إلا بالقدح في كمال علم الله وفي كمال قدرته. أما إذا سلمنا كونه تعالى عالمًا بجميع الجزئيات فحينئذ هذه الأجزاء وإن اختلطت بأجزاء العالم إلا أنها متمايزة في علم الله تعالى ولما سلمنا كونه تعالى قادرًا على كل الممكنات كان قادرًا على إعادة التأليف والتركيب والحياة والعقل إلى تلك الأجزاء بأعيانها، فثبت أنا متى سلمنا كمال علم الله وكمال قدرته زالت هذه الشبهة بالكلية.

أما قوله تعالى: ﴿قُل كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ فالمعنى أن القوم استبعدوا أن يردهم إلى حال الحياة بعد أن صاروا عظامًا ورفاتًا. وهي وإن كانت صفة منافية لقبول الحياة بحسب الظاهر لكن قدروا انتهاء هذه الأجسام بعد الموت إلى صفة أخرى أشد منافاة لقبول الحياة من كونها عظامًا ورفاتًا مثل أن تصير حجارة أو حديدًا، فإن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من

المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان جزءًا من بدن الحي. أما الحجارة والحديد فما كانا ألبتة موصوفين بالحياة، فبتقدير أن تصير أبدان الناس موصوفة بصفة الحجرية والحديدية بعد الموت، فإن الله تعالى يعيد الحياة إليها ويجعلها حيًا عاقلاً كما كان، والدليل على صحة ذلك أن تلك الأجسام قابلة للحياة والعقل إذ لو لم يكن هذا القبول حاصلاً لما حصل العقل والحياة لها في أول الأمر. وإله العالم عالم بجميع الجزئيات فلا تشتبه عليه أجزاء بدن زيد المطيع بأجزاء بدن عمرو العاصي. وقادر على كل الممكنات، وإذا ثبت أن عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكن في نفسه وثبت أن إله العالم عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات، كان عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكنًا قطعًا، سواء صارت عظامًا ورفاتًا أو صارت شيئًا أبعد من العظم في قبول الحياة وهي أن تصير حجارة أو حديدًا، فهذا تقرير هذا الكلام بالدليل العقلي القاطع، وقوله: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ليس المراد منه الأمر بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى عن الإعادة، وذلك كقول القائل للرجل: أتطمع في وأنا فلان فيقول: كن من شئت كن ابن الخليفة، فسأطلب منك حقي.

فإن قيل: ما المراد بقوله: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾؟

قلنا: المراد أن كون الحجر والحديد قابلاً للحياة أمر مستبعد، فقيل لهم: فافرضوا شيئًا آخر أبعد عن قبول الحياة من الحجر والحديد بحيث يستبعد عقلكم كونه قابلاً للحياة وعلى هذا الوجه فلا حاجة إلى أن يتعين ذلك الشيء، لأن المراد أن أبدان الناس وإن انتهت بعد موتها إلى أي صفة فرضت وأي حالة قدرت وإن كانت في غاية البعد عن قبول الحياة فإن الله تعالى قادر على إعادة الحياة إليها، وإذا كان المراد من الآية هذا المعنى فلا حاجة إلى تعيين ذلك الشيء، وقال ابن عباس: المراد منه الموت، يعني لو صارت أبدانكم نفس الموت فإن الله تعالى يعيد الحياة إليها، واعلم أن هذا الكلام إنما يحسن ذكره على سبيل المبالغة مثل أن يقال: لو كنت عين الحياة فالله يميتك ولو كنت عين الغنى فإن الله يفقرك، فهذا قد ذكر على سبيل المبالغة، أما في نفس الأمر فهذا محال، لأن أبدان الناس أجسام والموت عرض والجسم لا ينقلب عرضًا ثم بتقدير أن ينقلب عرضًا فالموت لا يقبل الحياة لأن أحد الضدين يمتنع اتصافه بالضد الآخر، وقال مجاهد: يعني السماء والأرض.

ثم قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والمعنى أنه لما قال لهم: كونوا حجارة أو حديدًا أو شيئًا أبعد في قبول الحياة من هذين الشيئين فإن إعادة الحياة إليه ممكنة فعند ذلك قالوا: من هذا الذي يقدر على إعادة الحياة إليه، قال تعالى قل يا محمد: الذي فطركم أول مرة يعني أن القول بصحة الإعادة فرع على تسليم أن خالق الحيوانات هو الله تعالى. فإذا ثبت ذلك فنقول: إن تلك الأجسام قابلة للحياة والعقل وإله العالم قادر لذاته عالم لذاته فلا يبطل علمه وقدرته ألبتة، فالقادر على الابتداء يجب أن يبقى قادرًا على الإعادة، وهذا كلام تام وبرهان قوي.

ثم قال تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال الفراء يقال: أنغض فلان رأسه ينغضه إنغاضًا إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل وسمي الظليم نغضًا لأنه يحرك رأسه، وقال أبو الهيثم: يقال للرجل إذا أخبر بشيء فحرك رأسه إنكارًا له قد أنغض رأسه فقوله: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ يعني يحركونها على سبيل التكذيب والاستبعاد. ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ واعلم أن هذا السؤال فاسد لأنهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي حكيناها، ثم إن الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكنًا في نفسه، فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالبحث الأول، فإنه لما ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بإمكانه، فأما أنه متى يوجد فذاك لا يمكن إثباته من طريق العقل، بل إنما يمكن إثباته بالدلائل السمعية فإن أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف وإلا فلا سبيل إلى معرفته.

واعلم أنه تعالى بين في القرآن أنه لا يطلع أحدًا من الخلق على وقته المعين، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] وقال: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] فلا جرم. قال تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ قال المفسرون عسى من الله واجب معناه أنه قريب.

فإن قالوا: كيف يكون قريبًا وقد انقرض ستمائة سنة ولم يظهر؟

قلنا: إذا كان ما مضى أكثر مما بقي كان الباقي قريبًا قليلاً، ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ وفيه قولان: الأول: أنه خطاب مع الكفار بدليل أن ما قبل هذه الآية كله خطاب مع الكفار، ثم نقول انتصب يومًا على البدل من قوله ﴿قَرِيبًا﴾، والمعنى عسى أن يكون البعث يوم يدعوكم أي بالنداء الذي يسمعكم وهو النفخة الأخيرة كما قال: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١] يقال: إن إسرافيل ينادي أيتها الأجساد البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرقة عودي كما كنت بقدرة الله تعالى وبإذنه وتكوينه، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦] وقوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي تجيبون والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا إليه وهي الإجابة إلا أن الاستجابة تقتضي طلب الموافقة فهي أوكد من الإجابة، وقوله: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ قال سعيد بن جبير: يخرجون من قبورهم وينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون: سبحانك وبحمدك، فهو قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ وقال قتادة بمعرفته وطاعته، وتوجيه هذا القول أنهم لما أجابوا بالتسبيح والتحميد كان ذلك معرفة منهم وطاعة ولكنهم لا ينفعهم ذلك في ذلك اليوم. فلهذا قال المفسرون: حمدوا حين لا ينفعهم الحمد، وقال أهل المعاني: تستجيبون بحمده. أي تستجيبون حامدين كما يقال: جاء بغضبه أي جاء غضبان وركب الأمير بسيفه أي وسيفه معه وقال صاحب (الكشاف): ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حال منهم أي حامدين، وهذا مبالغة في انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بعمل يشق عليه ستأتي به وأنت حامد شاكر، أي ستنتهي إلى حالة تحمد الله وتشكره على أن اكتفي منك بذلك العمل وهذا يذكر في معرض التهديد.

ثم قال: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال ابن عباس يريد بين النفختين الأولى والثانية فإنه يزال عنهم العذاب في ذلك الوقت، والدليل عليه قوله في سورة يس: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢] فظنهم بأن هذا لبث قليل عائد إلى لبثهم فيما بين النفختين، وقال الحسن: معناه تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل فهذا يرجع إلى استقلال مدة اللبث في الدنيا وقيل المراد استقلال لبثهم في عرصة القيامة؛ لأنه لما كانت عاقبة أمرهم الدخول في النار استقصروا مدة لبثهم في برزخ القيامة.

القول الثاني: أن الكلام مع الكفار تم عند قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ وأما قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ فهو خطاب مع المؤمنين لا مع الكافرين لأن هذا الكلام هو اللائق بالمؤمنين لأنهم يستجيبون لله بحمده، ويحمدونه على إحسانه إليهم، والقول الأول هو المشهور، والثاني ظاهر الاحتمال.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾.

فيه قولان:

القول الأول: أن المراد به المؤمنون، وذلك لأن لفظ العباد في أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٧-١٨] وقال: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى﴾ [الفجر: ٢٩] وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى لما ذكر الحجة اليقينية في إبطال الشرك وهو قوله: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢] وذكر الحجة اليقينية في صحة المعاد وهو قوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] قال في هذه الآية وقل يا محمد لعبادي إذا أردتم إيراد الحجة على المخالفين فاذكروا تلك الدلائل بالطريق الأحسن. وهو أن لا يكون ذكر الحجة مخلوطًا بالشتم والسب، ونظير هذه الآية قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وذلك لأن ذكر الحجة لو اختلط به شيء من السب والشتم لقابلوكم بمثله كما قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] ويزداد الغضب وتتكامل النفرة ويمتنع حصول المقصود، أما إذا وقع الاقتصار على ذكر الحجة بالطريق الأحسن الخالي عن الشتم

والإيذاء أثر في القلب تأثيرًا شديدًا فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ثم إنه تعالى نبه على وجه المنفعة في هذا الطريق فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ جامعًا للفريقين أي متى صارت الحجة مرة ممزوجة بالبذاءة صارت سببًا لثوران الفتنة.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ والمعنى: أن العداوة الحاصلة بين الشيطان وبين الإنسان عداوة قديمة قال تعالى حكاية عنه: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] وقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] وقال: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

ثم قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ واعلم أنا إنما نتكلم الآن على تقدير أن قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ المراد به المؤمنون، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ خطاب مع المؤمنين، والمعنى: إن يشأ يرحمكم، والمراد بتلك الرحمة الإنجاء من كفار مكة وأذاهم أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم. ثم قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي حافظًا وكفيلاً فاشتغل أنت بالدعوة ولا شيء عليك من كفرهم فإن شاء الله هدايتهم هداهم، وإلا فلا.

والقول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ الكفار، وذلك لأن المقصود من هذه الآيات الدعوة، فلا يبعد في مثل هذا الموضع أن يخاطبوا بالخطاب الحسن ليصير ذلك سببًا لجذب قلوبهم وميل طباعهم إلى قبول الدين الحق، فكأنه تعالى قال: يا محمد قل لعبادي الذين أقروا بكونهم عبادًا لي يقولوا التي هي أحسن. وذلك لأنا قبل النظر في الدلائل والبينات نعلم بالضرورة أن وصف الله تعالى بالتوحيد والبراءة عن الشركاء والأضداد أحسن من إثبات الشركاء والأضداد، ووصفه بالقدرة على الحشر والنشر بعد الموت أحسن من وصفه بالعجز عن ذلك، وعرفهم أنه لا ينبغي لهم أن يصروا على تلك المذاهب الباطلة تعصبًا للأسلاف، لأن الحامل على مثل هذا التعصب هو الشيطان، والشيطان عدو، فلا ينبغي أن يلتفت إلى قوله ثم قال لهم: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن يوفقكم للإيمان والهداية والمعرفة. وإن يشأ يمتكم، على الكفر فيعذبكم، إلا أن تلك المشيئة غائبة عنكم فاجتهدوا أنتم في طلب الدين الحق، ولا تصروا على الباطل والجهل لئلا تصيروا محرومين عن السعادات الأبدية والخيرات السرمدية، ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي لا تشدد الأمر عليهم ولا تغلظ لهم في القول، والمقصود من كل هذه الكلمات: إظهار اللين والرفق لهم عند الدعوة فإن ذلك هو الذي يؤثر في القلب ويفيد حصول المقصود.

ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمعنى أنه لما قال قبل ذلك: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ قال بعده: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بمعنى أن علمه غير مقصور عليكم ولا على

أحوالكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذوات الأرضين والسموات فيعلم حال كل واحد ويعلم ما يليق به من المصالح والمفاسد، فلهذا السبب فضل بعض النبيين على بعض وآتى موسى التوراة وداود الزبور وعيسى الإنجيل، فلم يبعد أيضًا أن يؤتي محمدًا القرآن ولم يبعد أن يفضله على جميع الخلق.

فإن قيل: ما السبب في تخصيص داود عليه الصلاة والسلام في هذا المقام بالذكر؟

قلنا: فيه وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى ذكر أنه فضل بعض النبيين على بعض. ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ يعني أن داود كان ملكًا عظيمًا، ثم إنه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك وذكر ما آتاه من الكتاب، تنبيهًا على أن التفضيل الذي ذكره قبل ذلك، المراد منه التفضيل بالعلم والدين لا بالمال.

والوجه الثاني: أن السبب في تخصيصه بالذكر أنه تعالى كتب في الزبور أن محمدًا خاتم النبيين وأن أمته خير الأمم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وهم محمد وأمته.

فإن قيل: هلا عُرِّفَ كما في فقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

قلنا: التنكير هاهنا يدل على تعظيم حاله، لأن الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه الكتاب فكان معنى التنكير أنه كامل في كونه كتابًا.

والوجه الثالث: أن السبب فيه أن كفار قريش ما كانوا أهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون إلى اليهود في استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون: إنه لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله تعالى عليهم كلامهم بإنزال الزبور على داود، وقرأ حمزة: (زُبُورًا) بضم الزاي، وذكرنا وجه ذلك في آخر سورة [النساء: ١٦٣].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية الرد على المشركين وقد ذكرنا أن المشركين كانوا يقولون ليس لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى فنحن نعبد بعض المقربين من عباد الله وهم الملائكة، ثم إنهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبدوه تمثالاً وصورة واشتغلوا بعبادته على هذا التأويل والله تعالى احتج على بطلان قولهم في هذه الآية فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ وليس المراد الأصنام لأنه تعالى قال في صفتهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ وابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى لا يليق بالأصنام ألبتة.

إذا ثبت هذا فنقول: إن قومًا عبدوا الملائكة فنزلت هذه الآية فيهم، وقيل: إنها نزلت في الذين

عبدوا المسيح وعزيرًا، وقيل: إن قومًا عبدوا نفرًا من الجن فأسلم النفر من الجن، وبقي أولئك الناس متمسكين بعبادتهم فنزلت هذه الآية، قال ابن عباس: كل موضع في كتاب الله تعالى ورد فيه لفظ زعم فهو كذب، ثم إنه تعالى احتج على فساد مذهب هؤلاء أن الإله المعبود هو الذي يقدر على إزالة الضرر، وإيصال المنفعة، وهذه الأشياء التي يعبدونها وهي الملائكة والجن والمسيح وعزير لا يقدرون على كشف الضر ولا على تحصيل النفع، فوجب القطع بأنها ليست آلهة.

ولقائل أن يقول: هذا الدليل إنما يتم إذا دللتم على أن الملائكة لا قدرة لها على كشف الضر ولا على تحصيل النفع فما الدليل على أن الأمر كذلك حتى يتم دليلكم؟ فإن قلتم: لأنا نرى أن أولئك الكفار كانوا يتضرعون إليها فلا تحصل الإجابة. قلنا: معارضة لذلك قد نرى أيضًا أن المسلمين يتضرعون إلى الله تعالى فلا تحصل الإجابة، والمسلمون يقولون: إن القدر الحاصل من كشف الضر وتحصيل النفع إنما يحصل من الله تعالى لا من الملائكة، وأولئك الكفار يقولون إنه يحصل من الملائكة لا من الله تعالى، وعلى هذا التقدير فالدليل غير تام.

والجواب: أن الدليل تام كامل، وذلك لأن الكفار كانوا مقرين بأن الملائكة عباد الله. وخالق الملائكة، وخالق العالم لا بد وأن يكون أقدر من الملائكة، وأقوى منهم، وأكمل حالاً منهم.

وإذا ثبت هذا فنقول: كمال قدرة الله تعالى معلوم متفق عليه، وكمال قدرة الملائكة غير معلوم ولا متفق عليه، بل المتفق عليه أن قدرتهم بالنسبة إلى قدرة الله تعالى قليلة حقيرة، وإذا كان كذلك وجب أن يكون الاشتغال بعبادة الله تعالى أولى من الاشتغال بعبادة الملائكة، لأن كون الله مستحقًا للعبادة معلوم، وكون الملائكة كذلك مجهول والأخذ بالمعلوم أولى، وأما أصحابنا المتكلمون من أهل السنة والجماعة فلهم في هذا الباب طريقة أخرى وهو أنهم يقيمون بالحجة العقلية على أنه لا موجد إلا الله تعالى ولا مخرج لشيء من العدم إلى الوجود إلا الله تعالى. وإذا ثبت هذا ثبت أنه لا ضار ولا نافع إلا الله تعالى، فوجب القطع بأنه لا معبود إلا الله تعالى، وهذه الطريقة لا تتم للمعتزلة لأنهم لما جوزوا كون العبد موجدًا لأفعاله امتنع عليهم الاستدلال على أن الملائكة لا قدرة لها على الإحياء والإماتة وخلق الجسم. وإذا عجزوا عن ذلك لم يتم لهم هذا الدليل فهذا هو ذكر الدليل القاطع على صحة قوله: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ والتحويل عبارة عن النقل من حال إلى حال ومكان إلى مكان يقال: حوله فتحول.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ **وفيه قولان:**

الأول: قال الفراء قوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ فعل الآدميين العابدين. وقوله: ﴿يَبْتَغُونَ﴾ فعل المعبودين ومعناه أن أولئك المعبودين يبتغون إلى ربهم الوسيلة، فإنه لا نزاع أن الملائكة يرجعون إلى الله في طلب المنافع ودفع المضار ويرجون رحمته ويخافون عذابه وإذا كان كذلك كانوا موصوفين بالعجز والحاجة، والله تعالى أغنى الأغنياء فكان الاشتغال بعبادته أولى.

فإن قالوا: لا نسلم أن الملائكة محتاجون إلى رحمة الله وخائفون من عذابه، فنقول: هؤلاء الملائكة إما أن يقال: إنها واجبة الوجود لذواتها، أو يقال: ممكنة الوجود لذواتها، والأول باطل لأن جميع الكفار كانوا معترفين بأن الملائكة عباد الله ومحتاجون إليه، وأما الثاني فهو يوجب القول بكون الملائكة محتاجين في ذواتها وفي كمالاتها إلى الله تعالى، فكان الاشتغال بعبادة الله أولى من الاشتغال بعبادة الملائكة.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ هم الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [الإسراء: ٥٥] وتعلق هذا الكلام بما سبق هو أن الذين عظمت منزلتهم وهم الأنبياء لا يعبدون إلا الله تعالى ولا يبتغون الوسيلة إلا إليه، فأنتم بالاقتداء بهم حق فلا تعبدوا غير الله تعالى. واحتج القائلون بهذا القول على صحته بأن قالوا: الملائكة لا يعصون الله فلا يخافون عذابه، فثبت أن هذا غير لائق بالملائكة وإنما هو لائق بالأنبياء.

قلنا: الملائكة يخافون عذاب الله لو أقدموا على الذنب والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

أما قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ فالمراد أن من حقه أن يحذر، فإن لم يحذره بعض الناس لجهله فهو لا يخرج من كونه بحيث يجب الحذر عنه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ۝٥٨﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧] بين أن كل قرية مع أهلها فلا بد وأن يرجع حالها إلى أحد أمرين: إما الإهلاك وإما التعذيب قال مقاتل: أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب، وقيل: المراد من قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ قرى الكفار، ولا بد أن تكون عاقبتها أحد أمرين: إما الاستئصال بالكلية وهو المراد من الإهلاك أو بعذاب شديد دون ذلك من قتل كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الأموال وأخذ الجزية، ثم بين تعالى أن هذا الحكم حكم مجزوم به واقع فقال: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ ومعناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ۝٦٠﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الدليل على فساد قول المشركين وأتبعه بالوعيد أتبعه بذكر مسألة النبوة، وذلك لأن كفار قريش اقترحوا من رسول الله ﷺ إظهار معجزات عظيمة قاهرة كما

حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] وقال آخرون: المراد ما طلبوه بقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] وعن سعيد بن جبير أن القوم قالوا: إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم: من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتى فأتنا بشيء من هذه المعجزات فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وفي تفسير هذا الجواب وجوه:

الوجه الأول: المعنى أنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم فحينئذ يصيرون مستحقين لعذاب الاستئصال، لكن إنزال عذاب الاستئصال على هذه الأمة غير جائز، لأن الله تعالى أعلم أن فيهم من سيؤمن أو يؤمن أولادهم، فلهذا السبب ما أجابهم الله تعالى إلى مطلوبهم وما أظهر تلك المعجزات القاهرة. روى ابن عباس أن أهل مكة سألوا الرسول ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا وأن يزيل لهم الجبال حتى يزرعوا تلك الأراضي، فطلب الرسول ﷺ ذلك من الله تعالى فقال الله تعالى: إن شئت فعلت ذلك لكن بشرط أنهم إن كفروا أهلكتهم، فقال الرسول ﷺ: «لا أُرِيدُ ذَلِكَ بَلْ تَتَأَنَّى بِهِمْ» فنزلت هذه الآية.

الوجه الثاني: في تفسير هذا الجواب أنا لا نظهر هذه المعجزات لأن آباءكم الذين رأوها لم يؤمنوا بها وأنتم مقلدون لهم، فلو رأيتموها أنتم لم تؤمنوا بها أيضًا.

الوجه الثالث: أن الأولين شاهدوا هذه المعجزات وكذبوا بها، فعلم الله منكم أيضًا أنكم لو شاهدتموها لكذبتم فكان إظهارها عبثًا، والعبث لا يفعله الحكيم.

ثم قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: المعنى أن الآية التي التمسوها هي مثل آية ثمود، وقد آتيناها ثمود واضحة بينة ثم كفروا بها فاستحقوا عذاب الاستئصال فكيف يتمناها هؤلاء على سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى.

البحث الثاني: قوله تعالى: ﴿مُبْصِرَةً﴾ وفيه وجهان:

الأول: قال الفراء: ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي مضيئة. قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] أي مضيئًا.

الثاني: ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي ذات إبصار أي فيها إبصار لمن تأملها يبصر بها رشده ويستدل بها على صدق ذلك الرسول.

البحث الثالث: قوله: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي ظلموا أنفسهم بتكذيبهم بها، وقال ابن قتيبة: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي جحدوا بأنها من الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قيل: لا آية إلا وتتضمن التخويف بها عند التكذيب إما من العذاب المعجل أو من عذاب الآخرة.

فإن قيل: المقصود الأعظم من إظهار الآيات أن يستدل بها على صدق المدعي فكيف حصر المقصود من إظهارها في التخويف.

قلنا: المقصود أن مدعي النبوة إذا أظهر الآية فإذا سمع الخلق أنه أظهر آية فهم لا يعلمون أن تلك الآية معجزة أو مخوفة، إلا أنهم يجوزون كونها معجزة، وبتقدير أن تكون معجزة فلو لم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها على الصدق لاستحقوا العقاب الشديد، فهذا هو الخوف الذي يحملهم على التفكر والتأمل في تلك المعجزات، فالمراد من قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ هذا الذي ذكرناه، والله أعلم.

واعلم أن القوم لما طالبوا رسول الله ﷺ بالمعجزات القاهرة، وأجاب الله تعالى بأن إظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببًا لجرأة أولئك الكفار بالطعن فيه وأن يقولوا له: لو كنت رسولاً حقًا من عند الله تعالى لأتيت بهذه المعجزات التي اقترحناها منك، كما أتى بها موسى وغيره من الأنبياء، فعند هذا قوى الله قلبه وبين له أنه تعالى ينصره ويؤيده فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾.

وفيه قولان:

القول الأول: المعنى أن حكمته وقدرته محيطة بالناس فهم في قبضته وقدرته، ومتى كان الأمر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الأمور إلا بقضائه وقدره، والمقصود كأنه تعالى يقول له: ننصرك ونقويك حتى تبلغ رسالتنا وتظهر ديننا. قال الحسن: حال بينهم وبين أن يقتلوه كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

والقول الثاني: أن المراد بالناس أهل مكة، وإحاطة الله بهم هو أنه تعالى يفتحها للمؤمنين فكان المعنى: وإذ بشرناك بأن الله أحاط بأهل مكة بمعنى أنه يغلبهم ويقهرهم ويظهر دولتك عليهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢] إلى قوله: ﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ لما كان كل ما يخبر الله عن وقوعه فهذا واجب الوقوع، فكان من هذا الاعتبار كالواقع فلا جرم قال: ﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ وروي أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله ﷺ في العريش مع أبي بكر كان يدعو ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ لِي»[1] ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ وفي هذه الرؤيا أقوال:

القول الأول: أن الله أرى محمدًا في المنام مصارع كفار قريش فحين ورد ماء بدر قال: «وَاللَّهِ

---

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٣/ ١٤٥) حديث رقم/ ٢٧٤٦، من طريق خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس. . . به.

كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ» ثم أخذ يقول: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ»(١) فلما سمعت قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية، وكانوا يستعجلون بما وعد رسول الله ﷺ.

والقول الثاني: أن المراد رؤياه التي رآها أنه يدخل مكة وأخبر بذلك أصحابه، فلما منع عن البيت الحرام عام الحديبية كان ذلك فتنة لبعض القوم، وقال عمر لأبي بكر أليس قد أخبرنا رسول الله ﷺ أنا ندخل البيت ونطوف به، فقال أبو بكر إنه لم يخبر أنا نفعل ذلك في هذه السنة فسنفعل ذلك في سنة أخرى، فلما جاء العام المقبل دخلها(٢)، وأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] اعترضوا على هذين القولين فقالوا: هذه السورة مكية، وهاتان الواقعتان مدنيتان، وهذا السؤال ضعيف لأن هاتين الواقعتين مدنيتان أما رؤيتهما في المنام فلا يبعد حصولها في مكة.

والقول الثالث: قال سعيد بن المسيب رأى رسول الله ﷺ بَنِي أُمَيَّةَ يَنْزُونَ عَلَى مِنْبَرِهِ نَزْوَ الْقِرَدَةِ فَسَاءَهُ ذلك(٣)، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء والإشكال المذكور عائد فيه لأن هذه الآية مكية وما كان لرسول الله ﷺ بمكة منبر، ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يبعد أن يرى بمكة أن له بالمدينة منبرًا يتداوله بنو أمية.

والقول الرابع: وهو الأصح وهو قول أكثر المفسرين أن المراد بها ما أراه الله تعالى ليلة الإسراء، واختلفوا في معنى هذه الرؤيا فقال الأكثرون: لا فرق بين الرؤية والرؤيا في اللغة، يقال رأيت بعيني رؤية ورؤيا، وقال الأقلون: هذا يدل على أن قصة الإسراء إنما حصلت في المنام، وهذا القول ضعيف باطل على ما قررناه في أول هذه السورة، وقوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ معناه: أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر لهم قصة الإسراء كذبوه وكفر به كثير ممن كان آمن به وازداد المخلصون إيمانًا فلهذا السبب كان امتحانًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ وهذا على التقديم والتأخير، والتقدير: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس وقيل المعنى: والشجرة الملعونة في القرآن كذلك. واختلفوا في هذه الشجرة، فالأكثرون قالوا: إنها شجرة الزقوم المذكورة في

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الجهاد) باب (غزوة بدر) (٣/ ١٤٠٣/ ٨٣) وأبو داود في كتاب (الجهاد) باب (في الأسير ينال منه ويضرب ويقرر) (٣/ ١١٦٢) حديث رقم/ ٢٦٨١، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢١٩)، من طريق حماد بن سلمة... به.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الشروط) باب (الشروط في الجهاد والصالحة مع أهل الحرب) (٢/ ٩٧٤) حديث رقم/ ٢٥٨١، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٣٢٨)، كلاهما من طريق عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث وصاحبه... فذكره.

(٣) إسناده حسن: أخرجه أبو يعلى في (مسنده) (١١/ ٣٤٨) حديث رقم/ ٦٤٦١، من طريق العلاء عن أبيه عن أبي هريرة... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٥/ ٢٤٤) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح ومصعب بن عبد الله بن الزبير وهو ثقة.

القرآن في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤] وكانت هذه الفتنة في ذكر هذه الشجرة من وجهين:

الأول: أن أبا جهل قال: زعم صاحبكم بأن نار جهنم تحرق الحجر حيث قال: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] ثم يقول: بأن في النار شجرًا والنار تأكل الشجر فكيف تولد فيها الشجر.

والثاني: قال ابن الزبعرى ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فتزقموا منه، فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣] الآيات.

فإن قيل: ليس في القرآن لعن هذه الشجرة.

قلنا: فيه وجوه: الأول: المراد لعن الكفار الذين يأكلونها. الثاني: العرب تقول لكل طعام مكروه ضار إنه ملعون. والثالث: أن اللعن في أصل اللغة هو التبعيد فلما كانت هذه الشجرة الملعونة في القرآن مبعدة عن جميع صفات الخير سميت ملعونة.

القول الثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشجرة بنو أمية يعني الحكم بن أبي العاص قال ورأى رسول الله ﷺ في المنام أن ولد مروان يتداولون منبره فقص رؤياه على أبي بكر وعمر وقد خلا في بيته معهما فلما تفرقوا سمع رسول الله ﷺ الحكم يخبر برؤيا رسول الله ﷺ فاشتد ذلك عليه، واتهم عمر في إفشاء سره، ثم ظهر أن الحكم كان يتسمع إليهم فنفاه رسول الله ﷺ. قال الواحدي: هذه القصة كانت بالمدينة، والسورة مكية فيبعد هذا التفسير إلا أن يقال: هذه الآية مدنية ولم يقل به أحد، ومما يؤكد هذا التأويل قول عائشة لمروان لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض من لعنه الله.

والقول الثالث: أن الشجرة الملعونة في القرآن هي اليهود لقوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المائدة: ٧٨].

فإن قال قائل: إن القوم لما طلبوا من رسول الله ﷺ الإتيان بالمعجزات القاهرة فأجاب أنه لا مصلحة في إظهارها لأنها لو ظهرت ولم تؤمنوا نزل الله عليكم عذاب الاستئصال، وذلك غير جائز وأي تعلق لهذا الكلام بذكر الرؤيا التي صارت فتنة للناس وبذكر الشجرة التي صارت فتنة للناس.

قلنا: التقدير كأنه قيل: إنهم لما طلبوا هذه المعجزات ثم إنك لم تظهرها صار عدم ظهورها شبهة لهم في أنك لست بصادق في دعوى النبوة إلا أن وقوع هذه الشبهة لا يوهن أمرك ولا يصير سببًا لضعف حالك ألا ترى أن ذكر تلك الرؤيا صار سببًا لوقوع الشبهة العظيمة في القلوب ثم إن قوة تلك الشبهات ما أوجبت ضعفًا في أمرك ولا فتورًا في اجتماع المحقين عليك فكذلك هذه الشبهة الحاصلة بسبب عدم ظهور هذه المعجزات لا توجب فتورًا في حالك، ولا ضعفًا في أمرك، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ والمقصود منه ذكر سبب آخر في أنه تعالى

ما أظهر المعجزات التي اقترحوها، وذلك لأن هؤلاء خوفوا بمخاوف الدنيا والآخرة وبشجرة الزقوم فما زادهم هذا التخويف إلا طغيانًا كبيرًا، وذلك يدل على قسوة قلوبهم وتماديهم في الغي والطغيان، وإذا كان الأمر كذلك فبتقدير أن يظهر الله لهم تلك المعجزات التي اقترحوها لم ينتفعوا بها ولا يزدادون إلا تماديًا في الجهل والعناد، وإذا كان كذلك، وجب في الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات والمعجزات، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: في كيفية النظم وجوه: **الأول:** اعلم أنه تعالى لما ذكر أن رسول الله ﷺ كان في محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه، بَيَّن أن حال الأنبياء مع أهل زمانهم كذلك، ألا ترى أن أول الأولياء هو آدم، ثم إنه كان في محنة شديدة من إبليس. **الثاني:** أن القوم إنما نازعوا رسول الله ﷺ وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لأمرين: الكِبْر والحسد، أما الكِبْر فلأن تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد، وأما الحسد فلأنهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة والدرجة العالية، فبَيَّن تعالى أن هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا إبليس على الخروج من الإيمان والدخول في الكفر، فهذه بلية قديمة ومحنة عظيمة للخلق. **والثالث:** أنه تعالى لما وصفهم بقوله: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠] بَيَّن ما هو السبب لحصول هذا الطغيان وهو قول إبليس: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلأجل هذا المقصود ذكر الله تعالى قصة إبليس وآدم، فهذا هو الكلام في كيفية النظم.

المسألة الثانية: اعلم أن هذه القصة قد ذكرها الله تعالى في سور سبعة، وهي: البقرة والأعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص، والكلام المستقصى فيها قد تقدم في البقرة والأعراف والحجر، فلا فائدة في الإعادة ولا بأس بتعديد بعض المسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن المأمورين بالسجود لآدم أَهُمْ جميع الملائكة أم ملائكة الأرض على التخصيص؟ فظاهر لفظ الملائكة يفيد العموم إلا أن قوله تعالى في آخر سورة الأعراف في صفة ملائكة السماوات: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] يوجب خروج ملائكة السموات من هذا العموم.

المسألة الثانية: أن المراد من هذه السجدة وضع الجبهة على الأرض أو التحية، وعلى التقدير الأول فآدم كان هو المسجود له أو يقال: كان المسجود له هو الله تعالى وآدم كان قبلة للسجود؟

المسألة الثالثة: أن إبليس هل هو من الملائكة أم لا؟ وإن لم يكن من الملائكة فأمر الملائكة بالسجود كيف يتناوله؟

المسألة الرابعة: هل كان إبليس كافرًا من أول الأمر أو يقال: إنما كفر في ذلك الوقت؟

المسألة الخامسة: الملائكة سجدوا لآدم من أول ما كملت حياته أو بعد ذلك؟

المسألة السادسة: شبهة إبليس في الامتناع من السجود أهو قوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أو غيره؟

المسألة السابعة: دلت هذه الآيات على أن إبليس كان عارفًا بربه، إلا أنه وقع في الكفر بسبب الكبر والحسد، ومنهم من أنكر وقال: ما عرف الله ألبتة.

المسألة الثامنة: ما سبب حكمة إمهال إبليس وتسليطه على الخلق بالوسوسة؟

ولنرجع إلى التفسير فنقول: إنه تعالى حكى في هذه الآية عن إبليس نوعًا واحدًا من العمل ونوعين من القول: أما العمل فهو أنه لم يسجد لآدم وهو المراد من قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وأما النوعان من القول فأولهما: قوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وهذا استفهام بمعنى الإنكار معناه أن أَصْلي أشرف من أصله فوجب أن أكون أنا أشرف منه، والأشرف يقبح في العقول أمره بخدمة الأدنى. والنوع الثاني من كلامه: قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ قال الزجاج: قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ معناه أخبرني. وقد استقصينا في تفسير هذه الكلمة في سورة الأنعام.

وقوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ فيه وجوه: **الأول:** معناه: أخبرني عن هذا الذي فضَّلته عليَّ لِمَ فضَّلته عليَّ وأنا خير منه؟ ثم اختصر الكلام لكونه مفهومًا. **الثاني:** يمكن أن يقال هذا مبتدأ محذوف منه حرف الاستفهام، والذي مع صلته خبر، تقديره أخبرني أهذا الذي كرمته عليَّ! وذلك على وجه الاستصغار والاستحقار، وإنما حذف حرف الاستفهام لأن حصوله في قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ أغنى عن تكراره. والوجه الثالث: أن يكون ﴿هَٰذَا﴾ مفعول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ لأن الكاف جاءت لمجرد الخطاب لا محل لها، كأنه قال على وجه التعجب والإنكار أبصرت أو علمت هذا الذي كرمت علي، بمعنى لو أبصرته أو علمته لكان يجب أن لا تكرمه عليَّ. هذا هو حقيقة هذه الكلمة. ثم قال تعالى حكاية (عنه): ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قرأ ابن كثير ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإثبات الياء في الوصل والوقف، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بالحذف، ونافع وأبو عمرو بإثباته في الوصل دون الوقف.

البحث الثاني: في الاحتناك قولان: **أحدهما:** أنه عبارة عن الأخذ بالكلية، يقال: احتنك فلان ما عند فلان من مال: إذا استقصاه وأخذه بالكلية. واحتنك الجراد الزرع: إذا أكله بالكلية. **والثاني:** أنه من قول العرب: (حنك الدابة يحنكها) إذا جعل في حنكها الأسفل حبلًا يقودها به، وقال أبو مسلم: الاحتناك افتعال من الحنك كأنهم يملكه كما يملك الفارس فرسه بلجامه. فعلى القول الأول معنى الآية: لأستأصلنهم بالإغواء. وعلى القول الثاني: لأقودنهم إلى المعاصي كما تقاد الدابة بحبلها.

البحث الثالث: قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ هم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]. **فإن قيل:** كيف ظن إبليس هذا الظن الصادق بذرية آدم؟ **قلنا:** فيه وجوه: **الأول:** أنه سمع الملائكة يقولون: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فعرف هذه الأحوال. **الثاني:** أنه وسوس إلى آدم فلم يجد له عزمًا فقال: الظاهر أن أولاده يكونون مثله في ضعف العزم. **الثالث:** أنه عرف أنه مركب من قوة بهيمية شهوانية، وقوة سبعية غضبية، وقوة وهمية شيطانية، وقوة عقلية مَلَكية، وعرف أن القوى الثلاث -أعني الشهوانية والغضبية والوهمية- تكون هي المستولية في أول الخلقة، ثم إن القوة العقلية إنما تكمل في آخر الأمر، ومتى كان الأمر كذلك كان ما ذكره إبليس لازمًا. واعلم أنه تعالى لما حكى عن إبليس ذلك حكى عن نفسه أنه تعالى قال له: (اذهب) وهذا ليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء وإنما معناه: امضِ لشأنك الذي اخترته، والمقصود التخلية وتفويض الأمر إليه.

ثم قال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ ونظيره قول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧] **فإن قيل:** أليس الأولى أن يقال: (فإن جهنم جزاؤهم جزاء موفورًا). ليكون هذا الضمير راجعًا إلى قوله: ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾؟ قلنا فيه وجوه: **الأول:** التقدير (فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤكم) ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم. **والثاني:** يجوز أن يكون هذا الخطاب مع الغائبين على طريقة الالتفات. **والثالث:** أنه ﷺ قال: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(١) فكل معصية توجد فيحصل لإبليس مثل وزر ذلك العامل، فلما كان إبليس هو الأصل في كل المعاصي صار المخاطب بالوعيد هو إبليس.

ثم قال: ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ وهذه اللفظة قد تجيء متعديًا ولازمًا، أما المتعدي فيقال: وفرته أفره وفرًا (و) وفرة فهو موفور (و) موفر، قال زهير:

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ وَمَنْ لاَ يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ(٢)

واللازم كقوله: وفر المال يفر وفورًا فهو وافر، فعلى التقدير الأول: يكون المعنى جزاء موفورًا موفرًا. وعلى الثاني يكون المعنى جزاء موفورًا وافرًا، وانتصب قوله ﴿جَزَآءً﴾ على المصدر.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الزكاة) باب (الحث على الصدقة ولو بشق تمرة) (٢/ ٦٩) حديث رقم/ ٧٠٤ والترمذي في كتاب (العلم) باب (فيمن دعا إلى هوى أو إلى ضلالة) (٥/ ٤٢) حديث رقم/ ٢٦٧٥ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب (الزكاة) باب (التحريض على الصدقة) (٥/ ٧٩) حديث رقم/ ٢٥٥٣ وابن ماجه في كتاب (المقدمة) باب (من سن سنة حسنة أو سيئة) (١/ ٧٤) حديث رقم/ ٢٠٣ من طريق أبي عوانة... به. وأحمد في (مسنده) (٤/ ٣٥٧/ ٣٥٩) والدارمي في كتاب (المقدمة) باب (من سن سنة حسنة أو سيئة) (١/ ١٢٤) حديث رقم/ ٥١٢ جميعًا عن جرير بن عبد الله... به.

(٢) زهير بن أبي سلمى تقدمت ترجمته.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾﴾

اعلم أن إبليس لما طلب من الله الإمهال إلى يوم القيامة لأجل أن يحتنك ذرية آدم، فالله تعالى ذكر أشياء: **أولها:** قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾[الإسراء: ٦٣] ومعناه: أمهلتك هذه المدة. **وثانيها:** قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم﴾ يقال: أفزه الخوف واستفزه، أي أزعجه واستخفه. وصوته: دعاؤه إلى معصية الله تعالى، وقيل: أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب، ومعنى صيغة الأمر هنا التهديد كما يقال: اجهد جهدك فسترى ما ينزل بك. **وثالثها:** ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ في قوله: ﴿وَأَجۡلِبۡ﴾ وجوه: الأول: قال الفراء: إنه من الجلبة وهو الصياح، وربما قالوا الجلب كما قالوا: الغلبة والغلب والشفقة والشفق. وقال الليث وأبو عبيدة: أجلبوا وجلبوا من الصياح. الثاني: قال الزجاج في فعل وأفعل: أجلب على العدو إجلابًا إذا جمع عليه الخيول. الثالث: قال ابن السكيت: يقال هم يجلبون عليه بمعنى أنهم يعينون عليه. والرابع: روى ثعلب عن ابن الأعرابي: أجلب الرجل على الرجل، إذا توعده الشر وجمع عليه الجمع. فقوله: ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم﴾ معناه على قول الفراء: صح عليهم بخيلك ورجلك، وعلى قول الزجاج: أجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك. وتكون الباء في قوله: (بخيلك) زائدة على هذا القول. وعلى قول ابن السكيت معناه أعن عليهم بخيلك ورجلك ومفعول الإجلاب على هذا القول محذوف كأنه يستعين على إغوائهم بخيله ورجله، وهذا أيضًا يقرب من قول ابن الأعرابي. **واختلفوا في تفسير الخيل والرجل:** فروى أبو الضحى عن ابن عباس أنه قال: (كُلُّ رَاكِبٍ أَوْ رَاجِلٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مِنْ خَيْلِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ)(١)، ويدخل فيه كل راكب وماشٍ في معصية الله تعالى، فعلى هذا التقدير: خيله ورجله كل من شاركه في الدعاء إلى المعصية. والقول الثاني: يحتمل أن يكون لإبليس جند من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم راجل. والقول الثالث: أن المراد منه ضرب المثل، كما تقول للرجل المُجِد في الأمر: (جئتنا بخيلك ورجلك) وهذا الوجه أقرب، والخيل تقع على الفرسان، قال عليه الصلاة والسلام: «يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي»(٢) وقد تقع على الأفراس خاصة، والمراد هاهنا الأول،

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٥/ ١١٩) من طريق معاوية عن علي عن ابن عباس... به.

(٢) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٠/ ٢٤٦) من طريق أبي حمزة عن عبد الحكيم عن سعيد بن جبير... به. وفيه أبو حمزة الأعور ضعيف جدًا مع إرساله فهو من مراسيل سعيد بن جبير، وأورده السخاوي في (المقاصد الحسنة) (١/ ٧٣٥) حديث رقم/ ١٣٣٢ وقال أبو الشيخ في الناسخ والمنسوخ من طريق أبي حمزة السكري عن عبد الكريم: حدثني سعيد بن جبير عن قصة المحاربين قال: كان ناس أتوا رسول الله فقالوا: نبايعك على الإسلام. فذكر القصة وفيها فأمر النبي فنودي في الناس: (يا خيل الله اركبي) فركبوا لا ينتظر فارس فارسًا. وللعسكري من حديث=

والرجل جمع راجل كما قالوا: تاجر وتَجْر وصاحب وصَحْب وراكب ورَكْب. وروى حفص عن عاصم ورجلك بكسر الجيم وغيره بالضم، قال أبو زيد: يقال: رَجُل ورَجِل بمعنى واحد ومثله حَدُث وحَدِث ونَدُس ونَدِس، قال ابن الأنباري: أخبرنا ثعلب عن الفراء قال: يقال رَجُل ورَجِل ورجلان بمعنى واحد. **والنوع الرابع: من الأشياء التي ذكرها الله تعالى لإبليس:** قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ نقول: أما المشاركة في الأموال فهي عبارة عن كل تصرف قبيح في المال، سواء كان ذلك القبيح بسبب أخذه من غير حقه أو وضعه في غير حقه، ويدخل فيه الربا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة، وهكذا قاله القاضي وهو ضبط حسن، وأما المفسرون فقد ذكروا وجوهًا: قال قتادة: المشاركة في الأموال هي أن جعلوا بحيرة وسائبة. وقال عكرمة: هي عبارة عن تبتيكهم آذان الأنعام، وقيل: هي أن جعلوا من أموالهم شيئًا لغير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] والأصوب ما قاله القاضي. وأما المشاركة في الأولاد فذكروا فيه وجوهًا: **أحدها:** أنها الدعاء إلى الزنا، وزَيَّف الأصم ذلك بأن قال: إنه لا ذم على الولد، ويمكن أن يجاب عنه بأن المراد وشارِكهم في طريق تحصيل الولد وذلك بالدعاء إلى الزنا. **وثانيها:** أن يسموا أولادهم بعبد اللات وعبد العزى. **وثالثها:** أن يُرغبوا أولادهم في الأديان الباطلة كاليهودية والنصرانية وغيرهما. **ورابعها:** إقدامهم على قتل الأولاد ووأدهم. **وخامسها:** ترغيبهم في حفظ الأشعار المشتملة على الفحش وترغيبهم في القتل والقتال والحرف الخبيثة الخسيسة. والضابط أن يقال: إن كل تصرف من المرء في ولده على وجه يؤدي إلى ارتكاب منكر أو قبيح فهو داخل فيه.

=عبد الله بن المثنى عن ثمامة عن أنس في حديث ذكره قال: فنادى منادي رسول الله: (يا خيل الله اركبي) ومن حديث يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن النبي قال لحارثة بن النعمان: (كيف أصبحت...) الحديث وفيه أنه قال: يا نبي الله ادع الله لي بالشهادة فدعا له قال: فنودي يوما بالخيل: (يا خيل الله اركبي) قال: فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد. ولابن عائذ في المغازي عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة قال: بعث رسول الله يومئذ يعني يوم قريظة يوم الأحزاب منادبًا ينادي: (يا خيل الله اركبي) وعزا السهيلي في غزوة حنين من الروض هذه اللفظة لصحيح مسلم فيحرر. نعم عند ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل حدثني عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر بن حزم وغيرهما قالوا: لما قدم رسول الله إلى بني لحيان... فذكر حديث إغارة بني فزارة على لقاح النبي صرخ في المدينة: (يا خيل الله اركبوا). وجاءت أحاديث عن علي وخالد بن الوليد ففي المستدرك للحاكم في قصة أويس من حديث أبي نضرة عن أسير بن جابر... فذكر القصة وقال في آخرها فنادى علي: يا خيل الله اركبي وفي الردة للواقدي من رواية عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم اليمامة: يا خيل الله اركبي. فركبوا وساروا إلى بني حنيفة. وقال أبو داود في السنن باب النداء عن النفير (يا خيل الله اركبي) وساق في الباب حديث سمرة بن جندب أن النبي سمى خيلنا خيل الله. وللعسكري من حديث موسى بن نفيع الحارثي عن مشيخة من قومه أن النبي قال (الاناة في كل شيء خير إلا في ثلاث إذا صيح في خيل لله فكونوا أول من يشخص) وذكر حديثا قال العسكري قوله: (يا خيل الله اركبي) هذا على المجاز والتوسع أراد (يا فرسان خيل الله اركبي) فاختصر لعلم المخاطب بما أراد.

والنوع الخامس: من الأشياء التي ذكرها الله تعالى لإبليس في هذه الآية: قوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾.

واعلم أنه لما كان مقصود الشيطان الترغيب في الاعتقاد الباطل والعمل الباطل والتنفير عن الاعتقاد الحق والعمل الحق، ومعلوم أن الترغيب في الشيء لا يمكن إلا بأن يقرر عنده أنه لا ضرر ألبتة في فعله ومع ذلك فإنه يفيد المنافع العظيمة، والتنفير عن الشيء لا يمكن إلا بأن يقرر عنده أنه لا فائدة في فعله، ومع ذلك فيفيد المضار العظيمة، **إذا ثبت هذا فنقول:** إن الشيطان إذا دعا إلى المعصية فلا بد وأن يقرر أولاً أنه لا مضرة في فعله ألبتة، وذلك إنما يمكن إذا قال: لا معاد ولا جنة ولا نار، ولا حياة بعد هذه الحياة. فبهذا الطريق يقرر عنده أنه لا مضرة ألبتة في فعل هذه المعاصي، وإذا فرغ عن هذا المقام قرر عنده أن هذا الفعل يفيد أنواعًا من اللذة والسرور ولا حياة للإنسان في هذه الدنيا إلا به، فتفويتها غبن وخسران، كما قال الشاعر:

خُذُوا بِنَصِيبٍ مِنْ سُرُورٍ وَلَذَّةٍ فَكُلٌّ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى يَتَصَرَّمُ[(١)]

فهذا هو طريق الدعوة إلى المعصية، وأما طريق التنفير عن الطاعة فهو أن يقرر أولاً عنده أنه لا فائدة فيه، وتقريره من وجهين. **الأول:** أن يقول: لا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عذاب. **والثاني:** أن هذه العبادات لا فائدة فيها للعابد والمعبود، فكانت عبثًا محضًا. فبهذين الطريقين يقرر الشيطان عند الإنسان أنه لا فائدة فيها، وإذا فرغ عن هذا المقام قال: إنها توجب التعب والمحنة وذلك أعظم المضار، فهذه مجامع تلبيس الشيطان، فقوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ يتناول كل هذه الأقسام، قال المفسرون: قوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي بأنه لا جنة ولا نار. وقال آخرون: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ بتسويف التوبة، وقال آخرون: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ بالأماني الباطلة مثل قوله لآدم: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] وقال آخرون: وَعِدهم بشفاعة الأصنام عند الله تعالى وبالأنساب الشريفة وإيثار العاجل على الآجل، وبالجملة فهذه الأقسام كثيرة وكلها داخلة في الضبط الذي ذكرناه، وإن أردت الاستقصاء في هذا الباب فطالع كتاب ذم الغرور من كتاب إحياء علوم الدين للشيخ الغزالي حتى يحيط عقلك بمجامع تلبيس إبليس، واعلم أن الله تعالى لما قال: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أردفه بما يكون زاجرًا عن قبول وعده فقال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ والسبب فيه أنه إنما يدعو إلى أحد أمور ثلاثة: قضاء الشهوة وإمضاء الغضب وطلب الرياسة وعلو الدرجة، ولا يدعو ألبتة إلى معرفة الله تعالى ولا إلى خدمته، وتلك الأشياء الثلاثة معنوية من وجوه كثيرة. **أحدها:** أنها في الحقيقة ليست لذات بل هي خلاص عن الآلام. **وثانيها:**

---

(١) هذا البيت من البحر الطويل للشاعر يزيد بن معاوية وهو يزيد بن أبي سفيان الأموي. (٢٥- ٦٤ هـ/ ٦٤٥- ٦٨٣ م) ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام، وُلد بالماطرون، ونشأ في دمشق. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة (٦٠ هـ) وأبى البيعة له عبد الله بن الزبير والحسين بن علي، فانصرف الأول إلى مكة والثاني إلى الكوفة، وفي أيام يزيد كانت فاجعة الشهيد (الحسين بن علي) إذ قتله رجاله في كربلاء سنة (٦١ هـ). أ. هـ بتصرف.

وإن كانت لذات لكنها لذات خسيسة مشترك فيها بين الكلاب والديدان والخنافس وغيرها . **وثالثها:** أنها سريعة الذهاب والانقضاء والانقراض . **ورابعها:** أنها لا تحصل إلا بمتاعب كثيرة ومشاق عظيمة . **وخامسها:** أن لذات البطن والفرج لا تتم إلا بمزاولة رطوبات عفنة مستقذرة . وسادسها : أنها غير باقية بل يتبعها الموت والهرم والفقر والحسرة على الفوت والخوف من الموت . فلما كانت هذه المطالب وإن كانت لذيذة بحسب الظاهر إلا أنها ممزوجة بهذه الآفات العظيمة والمخالفات الجسيمة ، كان الترغيب فيها تغريرًا ، ولهذا المعنى قال تعالى : ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ .

واعلم أنه تعالى لما قال له افعل ما تقدر عليه فقال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ وفيه قولان :

الأول: أن المراد كل عباد الله من المكلفين . وهذا قول أبي علي الجبائي ، قال : والدليل عليه أن الله تعالى استثنى منه في آيات كثيرة من يتبعه بقوله : ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ [الحجر: ٤٢] ثم استدل بهذا على أنه لا سبيل لإبليس وجنوده على تصريع الناس وتخبيط عقولهم وأنه لا قدرة له إلا على قدر الوسوسة ، وأكد ذلك بقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وأيضًا : فلو قدر على هذه الأعمال لكان يجب أن يتخبط أهل الفضل وأهل العلم دون سائر الناس ليكون ضرره أعظم . ثم قال : وإنما يزول عقله لا من جهة الشيطان لكن لغلبة الأخلاط الفاسدة ، ولا يمتنع أن يكون أحد أسباب ذلك المرض اعتقاد أن الشيطان يقدم عليه فيغلب الخوف فيحدث ذلك المرض .

والقول الثاني : أن المراد بقوله : ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ أهل الفضل والعلم والإيمان لِما بينا فيما تقدم أن لفظ العباد في القرآن مخصوص بأهل الإيمان ، والدليل عليه أنه قال في آية أخرى : ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠].

ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾

وفيه بحثان:

البحث الأول : أنه تعالى لما مكن إبليس من أن يأتي بأقصى ما يقدر عليه في باب الوسوسة ، وكان ذلك سببًا لحصول الخوف الشديد في قلب الإنسان قال : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ ومعناه أن الشيطان وإن كان قادرًا فالله تعالى أقدر منه وأرحم بعباده من الكل ، فهو تعالى يدفع عنه كيد الشيطان ويعصمه من إضلاله وإغوائه .

البحث الثاني : هذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله تعالى وأن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلالة ؛ لأنه لو كان الإقدام على الحق والإحجام عن الباطل إنما يحصل للإنسان من نفسه لوجب أن يقال : (وكفى الإنسان نفسه في الاحتراز عن الشيطان) ، فلما لم يقل ذلك بل قال : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ علمنا أن الكل من الله ؛ ولهذا قال المحققون : لا حول عن

معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله. بقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: أن إبليس هل كان عالمًا بأن الذي تكلم معه بقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم﴾ هو إله العالم أو لم يعلم ذلك؟

فإن عَلِم ذلك ثم إنه تعالى قال: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾[الإسراء: ٦٣] فكيف لم يصر هذا الوعيد الشديد مانعًا له من المعصية مع أنه سمعه من الله تعالى من غير واسطة؟ وإن لم يعلم أن هذا القائل هو إله العالم، فكيف قال: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾[الإسراء: ٦٢] ؟

والجواب: لعله كان شاكًّا في الكل أو كان يقول في كل قسم ما يخطر بباله على سبيل الظن.

والسؤال الثاني: ما الحكمة في أنه تعالى أنظره إلى يوم القيامة ومكنه من الوسوسة؟ والحكيم إذا أراد أمرًا وعلم أن شيئًا من الأشياء يمنع من حصوله، فإنه لا يسعى في تحصيل ذلك المانع؟

والجواب: أما مذهبنا فظاهر في هذا الباب، وأما المعتزلة فلهم قولان: قال الجبائي: علم الله تعالى أن الذين كفروا عند وسوسة إبليس يكفرون بتقدير أن لا يوجد إبليس، وإذا كان كذلك لم يكن في وجوده مزيد مفسدة. وقال أبو هاشم: لا يبعد أن يحصل من وجوده مزيد مفسدة، إلا أنه تعالى أبقاه تشديدًا للتكليف على الخلق ليستحقوا بسبب ذلك التشديد مزيد الثواب. وهذان الوجهان قد ذكرناهما في سورة الأعراف والحجر، وبالغنا في الكشف عنهما، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴿٦٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى عاد إلى ذكر الدلائل الدالة على قدرته وحكمته ورحمته، وقد ذكرنا أن المقصود الأعظم في هذا الكتاب الكريم تقرير دلائل التوحيد، فإذا امتد الكلام في فصل من الفصول عاد الكلام بعده إلى ذكر دلائل التوحيد، والمذكور هاهنا الوجوه المستنبطة من الإنعامات في أحوال ركوب البحر.

فالنوع الأول: كيفية حركة الفلك على وجه البحر وهو قوله: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ والإزجاء سَوْق الشيء حالاً بعد حال، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله: ﴿بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾[يوسف: ٨٨] والمعنى: ربكم الذي يُسير الفلك على وجه البحر لتبتغوا من فضله في طلب

التجارة، إنه كان بكم رحيمًا، والخطاب في قوله: ﴿رَّبُّكُمُ﴾ وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ﴾ عام في حق الكل، والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها.

والنوع الثاني: قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ والمراد من الضر: الخوف الشديد كخوف الغرق: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ والمراد أن الإنسان في تلك الحالة لا يتضرع إلى الصنم والشمس والقمر والملك والفلك، وإنما يتضرع إلى الله تعالى، فلما نجاكم من الغرق والبحر وأخرجكم إلى البر، أعرضتم عن الإيمان والإخلاص ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ لنعم الله بسبب أن عند الشدة يتمسك بفضله ورحمته، وعند الرخاء والراحة يُعْرض عنه ويتمسك بغيره.

والنوع الثالث: قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ قال الليث: الخسف والخسوف هو دخول الشيء في الشيء. يقال: عين خاسفة وهي التي غابت حدقتها في الرأس، وعين من الماء خاسفة أي غائرة الماء، وخسفت الشمس، أي احتجبت وكأنها وقعت تحت حجاب أو دخلت في جحر. فقوله: ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أي نغيبكم من جانب البر وهو الأرض. وإنما قال ﴿جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ لأنه ذكر البحر في الآية الأولى فهو جانب، والبر جانب، خَبَّر الله تعالى أنه كما قدر على أن يغيبهم في الماء فهو قادر أيضًا على أن يغيبهم في الأرض، فالغرق تغييب تحت الماء كما أن الخسف تغييب تحت التراب، وتقرير الكلام أنه تعالى ذكر في الآية الأولى أنهم كانوا خائفين من هول البحر، فلما نجاهم منه آمنوا، فقال: هب أنكم نجوتم من هول البحر فكيف أمنتم من هول البر؟ فإنه تعالى قادر على أن يسلط عليكم آفات البر من جانب التحت أو من جانب الفوق، أما من جانب التحت فبالخسف، وأما من جانب الفوق فبإمطار الحجارة عليهم، وهو المراد من قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ فكما لا يتضرعون إلا إلى الله تعالى عند ركوب البحر، فكذلك يجب أن لا يتضرعوا إلا إليه في كل الأحوال. ومعنى الحصب في اللغة: الرمي، يقال: حصبت أحصب حصبًا، إذا رميت، والحصب المرمي، ومنه قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[الأنبياء: ٩٨] أي يُلْقَون فيها، ومعنى قوله: ﴿حَاصِبًا﴾ أي عذابًا يحصبهم، أي يرميهم بحجارة، ويقال للريح التي تحمل التراب والحصباء: حاصب، والسحاب الذي يرمي بالثلج والبَرَد يسمى حاصبًا لأنه يرمي بهما رميًا. وقال الزجاج: الحاصب التراب الذي فيه حصباء والحاصب على هذا ذو الحصباء مثل اللابن والتامر. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يعني لا تجدوا ناصرًا ينصركم ويصونكم من عذاب الله. ثم قال: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي في البحر تارة أخرى وقوله: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾ من الريح القاصف الكاسر يقال: قصف الشيء يقصفه قصفًا، إذا كسره بشدة، والقاصف من الريح التي تكسر الشجر، وأراد هاهنا ريحًا شديدة تقصف الفلك وتغرقهم: وقوله: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي بسبب كفركم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعًا. قال الزجاج: أي لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم بأن يصرفه عنكم، وتبيع بمعنى تابع.

واعلم أن هذه الآية مشتملة على ألفاظ خمسة: وهي قوله: (أَنْ نَخْسِفَ. أَوْ نُرْسِلَ. أَوْ نُعِيدُكُمْ. فَنُرْسِلَ. فَنُغْرِقَكُمْ) قرأ ابن كثير وأبو عمرو جميع هذه الخمسة بالنون، والباقون بالياء، فمن قرأ بالياء فلأن ما قبله على الواحد الغائب وهو قوله: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ ومن قرأ بالنون فلأن هذا البحر من الكلام قد ينقطع بعضه من بعض وهو سهل لأن المعنى واحد. ألا ترى أنه قد جاء ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢] فانتقل من الجمع إلى الإفراد وكذلك هاهنا يجوز أن ينتقل من الغيبة إلى الخطاب، والمعنى واحد والكل جائز، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية ذكر نعمة أخرى جليلة رفيعة من نعم الله تعالى على الإنسان وهي الأشياء التي بها فُضل الإنسان على غيره، وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية أربعة أنواع:

النوع الأول: قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ واعلم أن الإنسان جوهر مركب من النفس والبدن، فالنفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة في العالم السفلي، وبدنه أشرف الأجسام الموجودة في العالم السفلي: وتقرير هذه الفضيلة في النفس الإنسانية هي أن النفس الإنسانية قواها الأصلية ثلاث، وهي الاغتذاء والنمو والتوليد، والنفس الحيوانية لها قوتان: الحساسة سواء كانت ظاهرة أو باطنة، والحركة بالاختيار، فهذه القوى الخمسة أعني الاغتذاء والنمو والتوليد والحس والحركة حاصلة للنفس الإنسانية، ثم إن النفس الإنسانية مختصة بقوة أخرى وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هي، وهي التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ويشرق فيها ضوء كبريائه وهو الذي يطلع على أسرار عالمي الخلق والأمر، ويحيط بأقسام مخلوقات الله من الأرواح والأجسام كما هي، وهذه القوة من تلقيح الجواهر القدسية والأرواح المجردة الإلهية، فهذه القوة لا نسبة لها في الشرف والفضل إلى تلك القوى النباتية والحيوانية، وإذا كان الأمر كذلك ظهر أن النفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة في هذا العالم، وإن أردت أن تعرف فضائل القوة العقلية ونقصانات القوى الجسمية، فتأمل ما كتبناه في هذا الكتاب في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فإنا ذكرنا هناك عشرين وجهًا في بيان أن القوة العقلية أَجَلّ وأعلى من القوة الجسمية فلا فائدة في الإعادة. وأما بيان أن البدن الإنساني أشرف أجسام هذا العالم، فالمفسرون إنما ذكروا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ هذا النوع من الفضائل وذكروا أشياء: أحدها: روى ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ قال: كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم فإنه يأكل بيديه. وقيل: إن الرشيد أُحضرت عنده أطعمة فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف، فقال له: جاء في التفسير عن جدك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فردّ

الملاعق وأكَل بأصابعه. **وثانيها:** قال الضحاك: بالنطق والتمييز، وتحقيق الكلام أن من عرف شيئًا، فإما أن يعجز عن تعريف غيره كونه عارفًا بذلك الشيء أو يقدر على هذا التعريف.

أما القسم الأول: فهو حال جملة الحيوانات سوى الإنسان، فإنه إذا حصل في باطنها ألم أو لذة فإنها تعجز عن تعريف غيرها تلك الأحوال تعريفًا تامًّا وافيًا.

وأما القسم الثاني: فهو الإنسان، فإنه يمكنه تعريف غيره كل ما عرفه ووقف عليه وأحاط به، فكونه قادرًا على هذا النوع من التعريف هو المراد بكونه ناطقًا، وبهذا البيان ظهر أن الإنسان الأخرس داخل في هذا الوصف؛ لأنه وإن عجز عن تعريف غيره ما في قلبه بطريق اللسان، فإنه يمكنه ذلك بطريق الإشارة وبطريقة الكتابة وغيرهما، ولا يدخل فيه الببغاء؛ لأنه وإن قدر على تعريفات قليلة، فلا قدرة له على تعريف جميع الأحوال على سبيل الكمال والتمام. **وثالثها:** قال عطاء: بامتداد القامة، واعلم أن هذا الكلام غير تام لأن الأشجار أطول من قامة الإنسان بل ينبغي أن يشترط فيه شرط، وهو طول القامة مع استكمال القوة العقلية، والقوى الحسية والحركية. **ورابعها:** قال يمان: بحسن الصورة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] لما ذكر الله تعالى خلقة الإنسان قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] وإن شئت فتأمل عضوًا واحدًا من أعضاء الإنسان وهو العين فخلق الحدقة سوداء، ثم أحاط بذلك السواد بياض العين، ثم أحاط بذلك البياض سواد الأشفار، ثم أحاط بذلك السواد بياض الأجفان، ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين، ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة، ثم خلق فوق بياض الجبهة سواد الشعر، وليكن هذا المثال الواحد أنموذجًا لك في هذا الباب. **وخامسها:** قال بعضهم: من كرامات الآدمي أن آتاه الله الخط. وتحقيق الكلام في هذا الباب أن العلم الذي يقدر الإنسان على استنباطه يكون قليلاً. أما إذا استنبط الإنسان علمًا وأودعه في الكتاب، وجاء الإنسان الثاني واستعان بذلك الكتاب، وضم إليه من عند نفسه أشياء أخرى، ثم لا يزالون يتعاقبون، ويضم كل متأخر مباحث كثيرة إلى علم المتقدمين كثرت العلوم وقويت الفضائل والمعارف، وانتهت المباحث العقلية والمطالب الشرعية إلى أقصى الغايات وأكمل النهايات، ومعلوم أن هذا الباب لا يتأتى إلا بواسطة الخط والكتبة، ولهذه الفضيلة الكاملة قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣-٥]. **وسادسها:** أن أجسام هذا العالم إما بسائط وإما مركبات: أما البسائط فهي الأرض والماء والهواء والنار: والإنسان ينتفع بكل هذه الأربع، أما الأرض فهي لنا كالأم الحاضنة، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] وقد سماها الله تعالى بأسماء بالنسبة إلينا، وهي الفراش والمهد والمهاد. وأما الماء فانتفاعنا به في الشرب والزراعة والحراثة ظاهر، وأيضًا سخر البحر لنأكل منه لحمًا طريًّا، ونستخرج منه حلية نلبسها ونرى الفلك مواخر فيه. وأما الهواء فهو مادة حياتنا، ولولا هبوب الرياح لاستولى النتن

على هذه المعمورة، وأما النار فبها طبخ الأغذية والأشربة ونضجها، وهي قائمة مقام الشمس والقمر في الليالي المظلمة، وهي الدافعة لضرر البرد كما قال الشاعر:

وَمَنْ يُرِدْ فِي الشِّتَاءِ فَاكِهَةً ... فَإِنَّ نَارَ الشِّتَاءِ فَاكِهَتُهُ

وأما المركبات فهي إما الآثار العلوية، وإما المعادن والنبات، وأما الحيوان والإنسان كالمستولي على هذه الأقسام والمنتفع بها والمستسخر لكل أقسامها، فهذا العالم بأسره جار مجرى قرية معمورة أو خان معد وجميع منافعها ومصالحها مصروفة إلى الإنسان والإنسان فيه كالرئيس المخدوم، والمَلِك المطاع، وسائر الحيوانات بالنسبة إليه كالعبيد، وكل ذلك يدل على كونه مخصوصًا من عند الله بمزيد التكريم والتفضيل، والله أعلم. **وسابعها:** أن المخلوقات تنقسم إلى أربعة أقسام: إلى ما حصلت له القوة العقلية الحكمية ولم تحصل له القوة الشهوانية الطبيعية وهم الملائكة، وإلى ما يكون بالعكس وهم البهائم، وإلى ما خلا عن القسمين وهو النبات والجمادات، وإلى ما حصل النوعان فيه وهو الإنسان، ولا شك أن الإنسان لكونه مستجمعًا للقوة العقلية القدسية المحضة، وللقوى الشهوانية البهيمية والغضبية والسبعية يكون أفضل من البهيمية ومن السبعية، ولا شك أيضًا أنه أفضل من الأجسام الخالية عن القوتين مثل النبات والمعادن والجمادات، وإذا ثبت ذلك ظهر أن الله تعالى فضَّل الإنسان على أكثر أقسام المخلوقات. بقي هاهنا بحث في أن المَلَك أفضل أم البشر؟ والمعنى أن الجوهر البسيط الموصوف بالقوة العقلية القدسية المحضة أفضل أم البشر المستجمع لهاتين القوتين؟ وذلك بحث آخر. **وثامنها:** الموجود إما أن يكون أزليًا وأبديًا معًا وهو الله سبحانه وتعالى، وإما أن يكون لا أزليًا ولا أبديًا وهو عالم الدنيا مع كل ما فيه من المعادن والنبات والحيوان، وهذا أخس الأقسام، وإما أن يكون أزليًا لا أبديًا وهو الممتنع الوجود لأن ما ثبت قدمه امتنع عدمه، وإما أن لا يكون أزليًا ولكنه يكون أبديًا، وهو الإنسان والمَلَك، ولا شك أن هذا القسم أشرف من القسم الثاني والثالث، وذلك يقتضي كون الإنسان أشرف من أكثر مخلوقات الله تعالى. **وتاسعها:** العالم العلوي أشرف من العالم السفلي، وروح الإنسان من جنس الأرواح العلوية والجواهر القدسية فليس في موجودات العالم السفلي شيء حصل فيه شيء من العالم العلوي إلا الإنسان، فوجب كون الإنسان أشرف موجودات العالم السفلي. **وعاشرها:** أشرف الموجودات هو الله تعالى، وإذا كان كذلك فكل موجود كان قربه من الله تعالى أتم، وجب أن يكون أشرف، لكن أقرب موجودات هذا العالم من الله هو الإنسان بسبب أن قلبه مستنير بمعرفة الله تعالى ولسانه مشرف بذكر الله وجوارحه وأعضاؤه مكرمة بطاعة الله تعالى، فوجب الجزم بأن أشرف موجودات هذا العالم السفلي هو الإنسان، ولما ثبت أن الإنسان موجود ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، ثبت أن كل ما حصل للإنسان من المراتب العالية والصفات الشريفة فهي إنما حصلت بإحسان الله تعالى وإنعامه، فلهذا المعنى قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ومن تمام كرامته على الله تعالى أنه تعالى لما خلقه في أول الأمر وَصَف نفسه بأنه أكرم فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ١-٤]ووصف نفسه بالتكريم عند تربيته للإنسان فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ووصف نفسه بالكرم في آخر أحوال الإنسان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الإنفطار: ٦]وهذا يدل على أنه لا نهاية لكرم الله تعالى ولفضله وإحسانه مع الإنسان، والله أعلم.

والوجه الحادي عشر: قال بعضهم: هذا التكريم معناه أنه تعالى خلق آدم بيده وخلق غيره بطريق كن فيكون. ومن كان مخلوقًا بيد الله كانت العناية به أتم وأكمل، وكان أكرم وأكمل، ولما جَعَلَنا من أولاده وجب كون بني آدم أكرم وأكمل، والله أعلم.

النوع الثاني من المدائح المذكورة في هذه الآية: قوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قال ابن عباس: في البر على الخيل والبغال والحمير والإبل، وفي البحر على السفن. وهذا أيضًا من مؤكدات التكريم المذكور أولاً؛ لأنه تعالى سَخَّر هذه الدواب له حتى يركبها ويحمل عليها ويغزو ويقاتل ويذب عن نفسه، وكذلك تسخير الله تعالى المياه والسفن وغيرها ليركبها وينقل عليها ويتكسب بها مما يختص به ابن آدم، كل ذلك مما يدل على أن الإنسان في هذا العالم كالرئيس المتبوع والملك المطاع وكل ما سواه فهو رعيته وتبع له.

النوع الثالث من المدائح: قوله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وذلك لأن الأغذية إما حيوانية وإما نباتية، وكلا القسمين إنما يتغذى الإنسان منه بألطف أنواعها وأشرف أقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ، وذلك مما لا يحصل إلا للإنسان.

النوع الرابع: قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ .

وهاهنا بحثان:

البحث الأول: أنه قال في أول الآية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ وقال في آخرها: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ ولا بد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار، والأقرب أن يقال: إنه تعالى فضَّل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خِلقية طبيعية ذاتية، مثل العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة، ثم إنه تعالى عَرَّضه بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة، فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل.

البحث الثاني: أنه تعالى لم يقل: (وفضلناهم على الكل) بل قال: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ فهذا يدل على أنه حصل في مخلوقات الله تعالى شيء لا يكون الإنسان مفضلاً عليه، وكل من أثبت هذا القسم قال: إنه هو الملائكة. فلزم القول بأن الإنسان ليس أفضل من الملائكة بل المَلَك أفضل من الإنسان. وهذا القول مذهب ابن عباس واختيار الزجاج على ما رواه الواحدي في البسيط. **واعلم أن هذا الكلام مشتمل على بحثين:**

البحث الأول: أن الأنبياء عليهم السلام أفضل أم الملائكة؟ وقد سبق ذكر هذه المسألة

بالاستقصاء في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤].

والبحث الثاني: أن عوام الملائكة وعوام المؤمنين أيهما أفضل؟ منهم من قال بتفضيل المؤمنين على الملائكة. واحتجوا عليه بما روي عن زيد بن أسلم أنه قال: قالت الملائكة: ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطنا ذاك في الآخرة، فقال: وعزتي وجلالي لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان[1]. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده[2]. هكذا أورده الواحدي في (البسيط)، وأما القائلون بأن الملك أفضل من البشر على الإطلاق فقد عولوا على هذه الآية، وهو في الحقيقة تمسُّك بدليل الخطاب لأن تقرير الدليل أن يقال: إن تخصيص الكثير بالذكر يدل على أن الحال في القليل بالضد، وذلك تمسُّك بدليل الخطاب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧١ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع كرامات الإنسان في الدنيا، ذكر أحوال درجاته في الآخرة في هذه الآية، **وفيها مسائل:**

المسألة الأولى: قرئ (يدعو) بالياء والنون و(يدعى كُلُّ أُنَاسٍ) على البناء للمفعول، وقرأ الحسن (يَدْعُو كُلُّ أُنَاسٍ) قال الفراء: وأهل العربية لا يعرفون وجهًا لهذه القراءة المنقولة عن

---

(١) ضعيف: الذهبي في (العلو) (١/ ٨٢/ ١٨٣) من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن عبد الله بن عمرو... فذكره. ابن بطة في (الإيمان) (٣/ ٣٠٨) حديث رقم/ ٢٣٦. من طريق خارجة بن مصعب قال: أنبأنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال قالت الملائكة... فذكره. وإسناد ضعيف مقطوع. عبد الله بن أحمد في (السنة) (٢/ ٤٦٩) حديث رقم/ ١٠٦٥ من طريق عثمان بن علاق وهو عثمان بن محصين بن علاق قال سمعت عروة بن رديم يقول أخبرني الأنصاري عن النبي ﷺ... به. وفي (سنده) عثمان بن علاق ونقض الدارمي (١/ ٢٥٧) من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار ان عبد الله بن عمر... به. وابن الجوزي في (العلل المتناهية) (١/ ٤٨) حديث رقم/ ٣٢ من طريق عبد المجيد بن أبي رواد عن معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عمر... به. وقال ابن الجوزي: قال المصنف: هذا حديث لا يصح وكان الحميدي يتكلم في عبد المجيد وقال ابن حبان: يقلب الخبار ويروي المنكرات عن المشاهير فاستحق الترك. قال الدارقطني: وقد رواه سريج بن يونس عن عبد المجيد فوقفه والموقوف اصح. وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ٨٢) وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي وهو كذاب متروك، وفي الأوسط طلحة بن زيد وهو كذاب أيضًا.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٣٠١) حديث رقم/ ٣٩٤٧ من طريق حماد بن سلمة حدثنا أبو المهزم يزيد بن سفيان سمعت أبا هريرة يقول... فذكره وفيه (بعض ملائكته) وفي إسناده أبو المهزم يزيد بن سفيان وهو ضعيف. ورواه البيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ١٧٤) حديث رقم/ ١٥٢ من طريق حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة... به. وقال: كذا رواه أبو المهزم عن أبي هريرة موقوفًا، وأبو المهزم متروك. ورواه وكيع في (الزهد) (١/ ٩٦) حديث رقم/ ٨٢ من طريق أبي المهزم عن أبي هريرة قال... فذكره موقوفًا.

الحسن، ولعله قرأ (يُدْعَى) بفتحة ممزوجة بالضم فظن الراوي أنه قرأ (يَدْعُو).

المسألة الثانية: قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ﴾ نصب بإضمار (اذكر) ولا يجوز أن يقال: العامل فيه قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ [الإسراء: ٧٠] لأنه فعل ماضٍ، ويمكن أن يجاب عنه فيقال: المراد: ونفضلهم بما نعطيهم من الكرامة والثواب.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ الإمام في اللغة كل من ائتم به قوم كانوا على هدى أو ضلالة، فالنبي إمام أمته، والخليفة إمام رعيته، والقرآن إمام المسلمين، وإمام القوم هو الذي يُقتدي به في الصلاة. **وذكروا في تفسير الإمام ههنا أقوالا القول الأول**: إمامهم نبيهم، روي ذلك مرفوعًا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ويكون المعنى أنه ينادى يوم القيامة يا أمة إبراهيم يا أمة موسى يا أمة عيسى يا أمة محمد. فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بإيمانهم، ثم ينادي يا أتباع فرعون يا أتباع نمروذ يا أتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر [١] وعلى هذا القول فالباء في قوله ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ فيه وجهان. الأول: أن يكون التقدير: يدعو كل أناس بإمامهم تبعًا وشيعة لإمامهم كما تقول ادعوك باسمك. والثاني: أن يتعلق بمحذوف وذلك المحذوف في موضع الحال كأنه قيل: يدعو كل أناس مختلطين بإمامهم، أي يدعون وإمامهم فيهم، نحو ركِب بجنوده. **والقول الثاني**: وهو قول الضحاك وابن زيد ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أي بكتابهم الذي أنزل عليهم. وعلى هذا التقدير ينادى في القيامة: يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل. **والقول الثالث**: قال الحسن: بكتابهم الذي فيه أعمالهم. وهو قول الربيع وأبي العالية. والدليل على أن هذا الكتاب يسمى إمامًا قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] فسمى الله تعالى هذا الكتاب إمامًا، وتقدير الباء على هذا القول بمعنى (مع) أي ندعو كل أناس ومعهم كتابهم، كقولك: (ادفعه إليه برمته) أي ومعه رمته. **القول الرابع**: قال صاحب (الكشاف): ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم، وأن الناس يُدعون يوم القيامة بأمهاتهم وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين وأن لا يفتضح أولاد الزنا ثم قال صاحب (الكشاف): وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بيان حكمته. **والقول الخامس**: أقول: في اللفظ احتمال آخر وهو أن أنواع الأخلاق الفاضلة والفاسدة كثيرة والمستولي على كل إنسان نوع من تلك الأخلاق، فمنهم من يكون الغالب عليه الغضب، ومنهم من يكون الغالب عليه شهوة النقود أو شهوة الضياع، ومنهم من يكون الغالب عليه الحقد والحسد، وفي جانب الأخلاق الفاضلة منهم من يكون الغالب عليه العفة أو الشجاعة أو الكرم أو طلب العلم والزهد. **إذا عرفت هذا فنقول**: الداعي إلى الأفعال الظاهرة من تلك الأخلاق الباطنة فذلك الخلق الباطن كالإمام له والملك المطاع والرئيس المتبوع، فيوم القيامة إنما يظهر الثواب والعقاب بناء على الأفعال الناشئة من تلك الأخلاق،

---

(١) عند أهل التفسير بدون إسناد.

فهذا هو المراد من قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ فهذا الاحتمال خطر بالبال، والله أعلم بمراده ثم **قال تعالى:** ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ قال صاحب (الكشاف): إنما قال: (أولئك) لأن من أوتي في معنى الجمع. والفتيل: القشرة التي في شق النواة، وسمي بهذا الاسم لأنه إذا أراد الإنسان استخراجه انفتل، وهذا يُضرب مثلاً للشيء الحقير التافه، ومثله القطمير والنقير في ضرب المثل به، والمعنى لا يُنقصون من الثواب بمقدار فتيل، ونظيره قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾[مريم: ٦٠]، ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[طه: ١١٢] وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: الفتيل هو الوسخ الذي يظهر بفتل الإنسان إبهامه بسبابته، وهو فعيل من الفتل بمعنى مفتول **فإن قيل:** لمَ خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع أن أصحاب الشمال يقرؤونه أيضًا؟ **قلنا:** الفرق أن أصحاب الشمال إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملاً على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة والمخازي الشديدة، فيستولي الخوف والدهشة على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزوا عن القراءة، وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرؤون كتابهم على أحسن الوجوه وأثبتها، ثم لا يكتفون بقراءتهم وحدهم، بل يقول القارئ لأهل الحشر: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[الحاقة: ١٩] فظهر الفرق، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ونصر عن الكسائي: (ومن كان في هذه أعمى) بالإمالة والكسر (فهو في الآخرة أعمى) بالفتح، وقرأ بالفتح والتفخيم فيهما ابن كثير ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم في رواية بالإمالة فيهما، قال أبو علي الفارسي: الوجه في تصحيح قراءة أبي عمرو أن المراد بالأعمى في الكلمة الأولى كونه في نفسه أعمى، وبهذا التقدير تكون هذه الكلمة تامة فتقبل الإمالة، وأما في الكلمة الثانية فالمراد من الأعمى أفعل التفضيل، فكانت بمعنى (أفعل مِن) وبهذا التقدير لا تكون لفظة أعمى تامة فلم تقبل الإمالة، والحاصل أن إدخال الإمالة في الأولى دل على أنه ليس المراد أفعل التفضيل وتَرْكها في الثانية يدل على أن المراد منها أفعل التفضيل، والله أعلم[(١)].

المسألة الثانية: لا شك أنه ليس المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ عمى البصر، بل المراد منه عمى القلب، أما قوله: (فهو في الآخرة أعمى) ففيه قولان: **القول الأول:** أن المراد منه أيضًا عمى القلب، وعلى هذا التقدير ففيه وجوه: **الأول:** قال عكرمة: جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الآية فقال: اقرأ ما قبلها.

---

(١) لم يجُوز النحاة أفعل التفضيل من (أعمى) لأن الوصف رباعي والعمى مما لاتفاوت فيه، وألزموا أن يقال أشد أو أكثر فأعمى الأولى يتصف بالعمى كالثانية، لكن التفاوت في الثانية يُفهم من قوله تعالى: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

فقرأ: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٦٦] إلى قوله: ﴿تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] قال ابن عباس: من كان أعمى في هذه النعم التي قد رأى وعاين، فهو في أمر الآخرة التي لم ير ولم يعاين أعمى وأضل سبيلاً. وعلى هذا الوجه فقوله (في هذه) إشارة إلى النعم المذكورة في الآيات المتقدمة. **وثانيها**: روى أبو ورق عن الضحاك عن ابن عباس قال: من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرتي في خلق السماوات والأرض والبحار والجبال والناس والدواب، فهو عن أمر الآخرة أعمى وأضل سبيلاً وأبعد عن تحصيل العلم به وعلى هذا الوجه فقوله: (فمن كان في هذه) إشارة إلى الدنيا. وعلى هذين القولين فالمراد: من كان في الدنيا أعمى القلب عن معرفة هذه النعم والدلائل، فبأن يكون في الآخرة أعمى القلب عن معرفة أحوال الآخرة أَوْلى، فالعمى في المرتين حصل في الدنيا. **وثالثها**: قال الحسن: من كان في الدنيا ضالاً كافرًا فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً؛ لأنه في الدنيا تُقبل توبته وفي الآخرة لا تُقبل توبته، وفي الدنيا يهتدي إلى التخلص من أبواب الآفات وفي الآخرة لا يهتدي إلى ذلك ألبتة. **ورابعها**: أنه لا يمكن حمل العمى الثاني على الجهل بالله لأن أهل الآخرة يعرفون الله بالضرورة، فكان المراد منه العمى عن طريق الجنة، أي: ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن معرفة الله فهو في الآخرة أعمى عن طريق الجنة. **وخامسها**: أن الذين حصل لهم عمى القلب في الدنيا إنما حصلت هذه الحالة لهم لشدة حرصهم على تحصيل الدنيا وابتهاجهم بلذاتها وطيباتها، فهذه الرغبة تزداد في الآخرة وتعظم هناك حسرتها على فوات الدنيا وليس معهم شيء من أنوار معرفة الله تعالى، فيبقون في ظلمة شديدة وحسرة عظيمة، فذاك هو المراد من العمى. **القول الثاني**: أن يُحمل العمى الثاني على عمى العين والبصر، فمن كان في هذه الدنيا أعمى القلب حُشر يوم القيامة أعمى العين والبصر، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦] وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ [الإسراء: ٩٧] وهذا العمى زيادة في عقوبتهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما عَدَّد في الآيات المتقدمة أقسام نعمه على خلقه، وأتبعها بذكر درجات الخلق في الآخرة، وشَرَح أحوال السعداء، أردفه بما يجري مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس فقال: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت هذه الآية في وفد ثقيف، أتوا رسول الله ﷺ فسألوه شططًا، وقالوا: متِّعنا باللات سنة وحَرِّم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها. فأبى ذلك رسول الله ﷺ ولم يجبهم، فكرروا ذلك الالتماس، وقالوا: إنا نحب أن تعرف العرب فضلنا عليهم، فإن كرهت ما نقول وخشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا، فقل: الله أمرني بذلك. فأمسك رسول الله ﷺ عنهم وداخلهم الطمع، فصاح عليهم عمر وقال: أما ترون رسول الله ﷺ قد أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه؟ فأنزل الله هذه الآية [(١)]، وروى صاحب (الكشاف) أنهم جاءوا بكاتبهم فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله إلى ثقيف لا يعشرون ولا يحشرون، فقالوا: ولا يجبون. فسكت رسول الله، ثم قالوا للكاتب: اكتب (ولا يجبون) والكاتب ينظر إلى رسول الله ﷺ فقام عمر بن الخطاب وسل سيفه، وقال: أسعرتم قلب نبينا يا معشر قريش، أسعر الله قلوبكم نارًا!! فقالوا: لسنا نكلمك إنما نكلم محمدًا. فنزلت هذه الآية [(٢)]. واعلم أن هذه القصة إنما وقعت بالمدينة فلهذا السبب قالوا: إن هذه الآيات مدنية. وروى أن قريشًا قالوا له: اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة، حتى نؤمن بك. فنزلت هذه الآية. وقال الحسن: الكفار أخذوا رسول الله ﷺ ليلة بمكة قبل الهجرة فقالوا: كُف يا محمد عن ذم آلهتنا وشتمها، فلو كان ذلك حقًّا كان فلان وفلان بهذا الأمر أحق منك. فوقع في قلب رسول الله ﷺ أن يكف عن شتم آلهتهم [(٣)]. وعلى هذا التقدير فهذه الآية مكية، وعن سعيد بن جبير أنه عليه السلام كان يستلم الحجر فتمنعه قريش ويقولون لا ندعك حتى تستلم آلهتنا [(٤)] فوقع في نفسه أن يفعل ذلك مع كراهية، فنزلت هذه الآية.

المسألة الثانية: قال الزجاج: معنى الكلام: كادوا يفتنونك، ودخلت إن واللام للتأكيد و(إن) مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والمعنى إن الشأن (أَنَّهُمْ) قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فاتنين (و) أصل الفتنة الاختبار، يقال: فتن الصائغ الذهب، إذا أدخله النار وأذابه لتمييز جيده من رديئه، ثم استعملوه في كل من أزال الشيء عن حده وجهته فقالوا: فتنه. فقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي يزيلونك ويصرفونك عن الذي أوحينا إليك، يعني القرآن، والمعنى عن حكمه، وذلك لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن،

---

(١) لم أجده.

(٢) ذكره أهل التفسير بدون إسناد.

(٣) أورده النيسابوري في (تفسيره) (٥/ ١٢٧) وقال: وقال الحسن. . . فذكره.

(٤) أورده ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٩/ ١٧٥) حديث رقم/ ١٣٧٢٣ قال: عن سعيد بن جبير قال. . . فذكره. وهذا مرسل.

وقوله: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ أي غير ما أوحينا إليك. وهو قولهم: قل: الله أمرني بذلك ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كونهم وراضٍ بشركهم ثم قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ أي على الحق بعصمتنا إياك ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ أي تميل إليهم شيئًا قليلاً. وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ عبارة عن المصدر، أي ركونًا قليلاً، قال ابن عباس: يريد حيث سكت عن جوابهم. قال قتادة: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»(١) ثم توعده في ذلك أشد التوعد فقال: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، والضعف عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله، فإن الرجل إذا قال لوكيله: أعط فلانًا شيئًا. فأعطاه درهمًا فقال أضعفه كان المعنى ضُم إلى ذلك الدرهم مثله. إذا عرفت هذا فنقول: إنما حسُن إضمار العذاب في قوله: ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ لما تقدم في القرآن من وصف العذاب بالضعف في قوله: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦١] وقال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] وحاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون إليه همتك، لاستحققت بذلك تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة، ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة. والسبب في تضعيف هذا العذاب أن أقسام نعم الله تعالى في حق الأنبياء عليهم السلام أكثر، فكانت ذنوبهم أعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. **فإن قيل**: قال عليه السلام: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٢) فموجب هذا الحديث أنه عليه السلام لو رضي بما قالوه، لكان وزره مثل وزر كل أحد من أولئك الكفار، وعلى هذا التقدير يكون عقابه زائدًا على الضعف. **قلنا**: إثبات الضعف لا يدل على نفي الزائد عليه إلا بالبناء على دليل الخطاب وهو حجة ضعيفة ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يعني إذا أذقناك العذاب المضاعف لم تجد أحدًا يخلصك من عذابنا وعقابنا، والله أعلم.

المسألة الثالثة: احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية فقالوا: هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم عنهم من وجوه.

الأول: أن الآية دلت على أنه عليه السلام قرب من أن يفتري على الله، والفرية على الله من أعظم الذنوب.

والثاني: أنها تدل على أنه لولا أن الله تعالى ثبته وعصمه، لقرب من أن يركن إلى دينهم ويميل

---

(١) حسن: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد) حديث رقم/ ٧٠١ وأبو داود في كتاب (الأدب) باب (ما يقول إذا أصبح) (٤/ ٢١٦٧) حديث رقم/ ٥٠٩٠ والنسائي في كتاب (عمل اليوم والليلة) (١٤٦/ ٣٨٢/ ٤١٣)

(٢) تقدم تخريجه في أول المجلد.

إلى مذهبهم. **والثالث:** أنه لولا سبق جرم وجناية، وإلا فلا حاجة إلى ذكر هذا الوعيد الشديد.

والجواب عن الأول: أن (كاد) معناه المقاربة فكان معنى الآية أنه قرب وقوعه في الفتنة، وهذا القدر لا يدل على الوقوع في تلك الفتنة، فإنا إذا قلنا كاد الأمير أن يضرب فلانًا. لا يفهم منه أنه ضربه.

والجواب عن الثاني: أن كلمة (لولا) تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره، تقول: لولا علي لهلك عمر، معناه أن وجود علي منع من حصول الهلاك لعمر، فكذلك ههنا قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ معناه أنه حصل تثبيت الله تعالى لمحمد ﷺ فكان حصول ذلك التثبيت مانعًا من حصول ذلك الركون.

والجواب عن الثالث: أن ذلك التهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها، والدليل عليه آيات منها قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦] ومنها قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] ومنها قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، والله أعلم.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا على صحة قولهم بأنه لا عصمة عن المعاصي إلا بتوفيق الله تعالى - بقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ قالوا: إنه تعالى بَيَّن أنه لولا تثبيت الله تعالى له لمال إلى طريقة الكفار، ولا شك أن محمدًا ﷺ كان أقوى من غيره في قوة الدين وصفاء اليقين، فلما بَيَّن الله تعالى أن بقاءه معصومًا عن الكفر والضلال لم يحصل إلا باعانة الله تعالى وإغاثته، كان حصول هذا المعنى في حق غيره أَوْلى. **قالت المعتزلة:** المراد بهذا التثبيت الألطاف الصارفة له عن ذلك، وهي ما خطر بباله من ذكر وعده ووعيده، ومِن ذكر أن كونه نبيًّا من عند الله تعالى يمنع من ذلك.

والجواب: لا شك أن هذا التثبيت عبارة عن فعل فعله الله يمنع الرسول من الوقوع في ذلك العمل المحذور، فنقول: لو لم يوجد المقتضى للإقدام على ذلك العمل المحذور في حق الرسول، لما كان إلى إيجاد هذا المانع حاجة، وحيث وقعت الحاجة إلى تحصيل هذا المانع عَلِمنا أن المقتضى قد حصل في حق الرسول ﷺ وأن هذا المانع الذي فعله الله منع ذلك المقتضى من العمل، وهذا لا يتم إلا إذا قلنا: إن القدرة مع الداعي توجب الفعل، فإذا حصلت داعية أخرى معارضة للداعية الأولى اختل المؤثر فامتنع الفعل، ونحن لا نريد إلا إثبات هذا المعنى، والله أعلم.

المسألة الخامسة: قال القفال رحمه الله: قد ذكرنا في سبب نزول هذه الآية الوجوه المذكورة، ويمكن أيضًا تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه؛ لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون في إبطال أمر رسول الله ﷺ بأقصى ما يقدرون عليه، فتارة كانوا يقولون: إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهك. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا

تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١، ٢] وقوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنسوان الجميلة ليترك ادعاء النبوة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ [طه: ١٣١] ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: ٥٢] فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت في هذا الباب، وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه وأن يزيلوه عن منهجه، فبيَّن تعالى أنه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم، وعلى هذا الطريق فلا حاجة في تفسير هذه الآيات إلى شيء من تلك الروايات، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾

في هذه الآية قولان: الأول: قال قتادة: هم أهل مكة هموا بإخراج النبي ﷺ من مكة، ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا، ولكن الله منعهم من إخراجه، حتى أمره الله بالخروج، ثم إنه قل لبثهم بعد خروج النبي ﷺ من مكة حتى بعث الله عليهم القتل يوم بدر وهذا قول مجاهد. **والقول الثاني:** قال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا: يا أبا القاسم إن الأنبياء إنما بُعثوا بالشام، وهي بلاد مقدسة وكانت مسكن إبراهيم، فلو خرجت إلى الشام آمنا بك واتبعناك، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم، فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم. فعسكر رسول الله ﷺ على أميال من المدينة، قيل بذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازمًا على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين اللّهِ، فنزلت هذه الآية فرجع(١). فالقول الأول اختيار الزجاج، وهو الوجه لأن السورة مكية، فإن صح القول الثاني كانت الآية مدنية، والأرض في قوله: ﴿لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ على القول الأول مكة وعلى القول الثاني المدينة، وكثر في التنزيل ذكر الأرض، والمراد منها مكان مخصوص كقوله: ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: ٣٣] يعني من مواضعهم وقوله: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [يوسف: ٨٠] يعني الأرض التي كان قصدها لطلب الميرة. **فإن قيل:** قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ [محمد: ١٣] يعني مكة، والمراد أهلها، فذكر أنهم أخرجوه وقال في هذه الآية: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ﴾ فكيف (يمكن) الجمع بينهما على قول من قال الأرض في هذه الآية مكة؟ **قلنا:** إنهم هموا بإخراجه وهو عليه السلام ما خرج بسبب إخراجهم، وإنما خرج بأمر الله تعالى، فزال التناقض.

---

(١) ذكره أهل التفسير بغير إسناد.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى : قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو عن عاصم (خَلْفَكَ) بفتح الخاء وسكون اللام والباقون ﴿خِلَٰفَكَ﴾ زعم الأخفش أن (خلافك) في معنى (خلفك) وروى ذلك يونس عن عيسى، وهذا كقوله: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١] وقال الشاعر:

عَفَتِ الدِّيَارُ خِلَافَهُمْ فَكَأَنَّمَا   بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرَا(١)

قال صاحب (الكشاف): قرئ (لاَ يَلْبَثُونَ) وفي قراءة أُبي (لا يلبثوا) على إعمال (إذًا)، فإن قيل: ما وجه القراءتين؟ **قلنا:** أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل، وهو مرفوع لوقوعه خبر (كاد) والفعل في خبر (كاد) واقع موقع الاسم، وأما قراءة أُبي ففيها الجملة برأسها التي هي قوله: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ عطف على جملة قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ يعني أن كل قوم أخرجوا نبيهم من ظهرانيهم، فسنة الله أن يهلكهم، فقوله: ﴿سُنَّةَ﴾ نُصب على المصدر المؤكد، أي سَننا ذلك سنة فيمن قد أرسلنا قبلك. ثم قال: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ والمعنى أن ما أجرى الله تعالى به العادة لم يتهيأ لأحد أن يقلب تلك العادة، وتمام الكلام في هذا الباب أن اختصاص كل حادث بوقته المعين وصفته المعينة - ليس أمرًا ثابتًا له لذاته، وإلا لزم أن يدوم أبدًا على تلك الحالة وأن لا يتميز الشيء عما يماثله في تلك الصفات، بل إنما يحصل ذلك الاختصاص بتخصيص المخصص، وذلك التخصيص هو أنه تعالى يريد تحصيله في ذلك الوقت، ثم تتعلق قدرته بتحصيله في ذلك الوقت ثم يتعلق علمه بحصوله في ذلك الوقت، ثم نقول: هذه الصفات الثلاثة التي هي المؤثرة في حصول ذلك الاختصاص إن كانت حادثة افتقر حدوثها إلى تخصيص آخر ولزم التسلل وهو محال، وإن كانت قديمة فالقديم يمتنع تغيره لأن ما ثبت قدمه امتنع عدمه، ولما كان التغير على تلك الصفات المؤثرة في ذلك الاختصاص ممتنعًا، كان التغير في تلك الأشياء المقدرة ممتنعًا، فثبت بهذا البرهان صحة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ .

---

(١) هذا البيت للشاعر الحارث المخزومي، والبيت هكذا:

عَقَبَ الرذاذُ خِلافَهُم فَكَأَنَّما   بَسَطَ الشَواطِبُ بَينَهُنَّ حَصيرا

والحارث المخزومي هو الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي، من قريش. ٨٠ هـ/ ٦٩٩ م. شاعر غزل، من أهل مكة، نشأ في أواخر أيام عمر بن أبي ربيعة وكان يذهب مذهبه، لا يتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء. وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبب بها، وله معها أخبار كثيرة. ولاه يزيد بن معاوية إمارة مكة، فظهرت دعوة عبد الله بن الزبير، فاستتر الحارث خوفاً، ثم رحل إلى دمشق وافداً على عبد الملك بن مروان فلم ير عنده ما يحب، فعاد إلى مكة وتوفي بها. والرذاذُ: المطرُ الضعيف، وهو فوقَ القِطْقِطِ. يقال: أَرَذَّتِ السماءُ، وأرضٌ مُرَذَّةٌ. وقال أبو عبيد: أرض مَرَذٌّ عليها، ولايقال مرذة ولامرذوذة. الأموي: يوم مُرِذٌّ: ذو رذاذ.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في النظم وجوه. **الأول:** أنه تعالى لما قرر أمر الإلهيات والمعاد والنبوات، أردفها بذكر الأمر بالطاعات بعد الإيمان، وأشرف الطاعات بعد الإيمان الصلاة فلهذا السبب أمر بها. **الثاني:** أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٧٦] أمره تعالى بالإقبال على عبادته لكي ينصره عليهم، فكأنه قيل له لا تبال بسعيهم في إخراجك من بلدتك ولا تلتفت إليهم، واشتغل بعبادة الله تعالى وداوم على أداء الصلوات، فإنه تعالى يدفع مكرهم وشرهم عنك ويجعل يدك فوق أيديهم ودينك غالبًا على أديانهم. ونظيره قوله في سورة طه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠] وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٩]. **والوجه الثالث:** في تقرير النظم: أن اليهود لما قالوا له: اذهب إلى الشام فإنه مسكن الأنبياء. عزَم ﷺ على الذهاب إليه فكأنه قيل له: المعبود واحد في كل البلاد وما النصرة والدولة إلا بتأييده ونصرته، فداوم على الصلوات وارجع إلى مقرك ومسكنك، وإذا دخلته ورجعت إليه فقل: رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي في هذا البلد سلطانًا نصيرًا في تقرير دينك وإظهار شرعك. والله أعلم.

المسألة الثانية: اختلف أهل اللغة والمفسرون في معنى دلوك الشمس على قولين: **أحدهما:** أن دلوكها غروبها. وهذا القول مروي عن جماعة من الصحابة، فنقل الواحدي في البسيط عن علي عليه السلام أنه قال: دلوك الشمس غروبها. وروى زر بن حبيش أن عبد الله بن مسعود قال: دلوك الشمس غروبها، وروى سعيد بن جبير هذا القول عن ابن عباس. وهذا القول اختيار الفراء وابن قتيبة من المتأخرين.

والقول الثاني: أن دلوك الشمس هو زوالها عن كبد السماء. وهو اختيار الأكثرين من الصحابة والتابعين. واحتج القائلون بهذا القول على صحته بوجوه:

الحجة الأولى: روى الواحدي في البسيط عن جابر أنه قال: (طَعِمَ عِنْدِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ ثُمَّ خَرَجُوا حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا حِينَ دَلَكَتِ الشَّمْسُ) (١).

(١) لم أجد له إسنادًا.

الحجة الثانية: روى صاحب (الكشاف) عن النبي ﷺ أنه قال: «أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ فَصَلَّى بِيَ الظُّهْرَ»[١].

الحجة الثالثة: قال أهل اللغة: معنى الدلوك في كلام العرب الزوال، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالكة، وقيل لها إذا أفلت: دالكة لأنها في الحالتين زائلة.

هكذا قاله الأزهري وقال القفال: أصل الدلوك الميل، يقال: مالت الشمس للزوال، ويقال: مالت للغروب. **إذا عرفت هذا فنقول:** وجب أن يكون المراد من الدلوك ههنا الزوال عن كبد السماء وذلك لأنه تعالى علق إقامة الصلاة بالدلوك، والدلوك عبارة عن الميل والزوال، فوجب أن يقال: إنه أول ما حصل الميل والزوال تعلق به هذا الحكم، فلما حصل هذا المعنى حال ميلها من كبد السماء، وجب أن يتعلق به وجوب الصلاة، وذلك يدل على أن المراد من الدلوك في هذه الآية ميلها عن كبد السماء. وهذه حجة قوية في هذا الباب استنبطتها بناء على ما اتفق عليه أهل اللغة: أن الدلوك عبارة عن الميل والزوال، والله أعلم.

الحجة الرابعة: قال الأزهري: الأَوْلى حمل الدلوك على الزوال في نصف النهار، والمعنى ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدمها من وقت زوال الشمس إلى غسق الليل، وعلى هذا التقدير فيدخل فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم قال: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ فإذا حملنا الدلوك على الزوال دخلت الصلوات الخمس في هذه الآية، وإن حملناه على الغروب لم يدخل فيه إلا ثلاث صلوات وهي المغرب والعشاء والفجر، وحَمْل كلام الله تعالى على ما يكون أكثر فائدة أَوْلى، فوجب أن يكون المراد من الدلوك الزوال.

واحتج الفراء على قوله (الدلوك هو الغروب) بقول الشاعر:

هَـذَا مَـقَـامُ قَـدَمَـيْ رَبَـاحِ ... وَقَـفْـتُ حَـتَّـى دَلَـكَـتْ بَـرَاحُ

وبراح اسم الشمس، أي حتى غابت. واحتج ابن قتيبة بقول ذي الرمة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي يَقُودُهَا ... نُجُومٌ وَلاَ أَفْلاَكُهُنَّ الدَّوَالِكُ[٢]

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لأن عندنا الدلوك عبارة عن الميل والتغير، وهذا المعنى حاصل في الغروب، فكان الغروب نوعًا من أنواع الدلوك، فكان وقوع لفظ الدلوك على الغروب لا ينافي وقوعه على الزوال، كما أن وقوع لفظ الحيوان على الإنسان لا ينافي وقوعه على الفرس. ومنهم من احتج أيضًا على صحة هذا القول بأن الدلوك اشتقاقه من الدلك لأن الإنسان يدلك عينيه عند النظر إليها. وهذا إنما يصح في الوقت الذي يمكن النظر إليها، ومعلوم أنها عند كونها في وسط السماء لا يمكن النظر إليها، أما عند قربها من الغروب فيمكن النظر إليها

---

(١) أورده الزمخشري في (الكشاف) (٣/ ٤٧٢) وقال: وروي عن النبي ﷺ. . . فذكره بغير إسناد. وكذلك أورده الثعلبي في (الكشف والبيان) (٨/ ٥١) وقال: عن أبي مسعود عقبة بن عمرو. . . فذكره ولم يدركه إسنادًا.

(٢) تقدمت ترجمة الشاعر ذي الرمة.

(و) عندما ينظر الإنسان إليها في ذلك الوقت يدلك عينيه، فثبت أن لفظ الدلوك مختص بالغروب. والجواب أن الحاجة إلى ذلك التبيين عند كونها في وسط السماء أتم، فهذا الذي ذكرته بأن يدل على أن الدلوك عبارة عن الزوال من وسط السماء أَوْ لى، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قال الواحدي: اللام في قوله (لدلوك الشمس) لام الأجل والسبب، وذلك لأن الصلاة إنما تجب بزوال الشمس، فيجب على المصلي إقامتها لأجل دلوك الشمس.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ غسق الليل سواده وظلمته، قال الكسائي: غسق الليل غسوقًا، والغسق: الاسم، بفتح السين. وقال النضر بن شميل: غسق الليل دخول أوله، وأتيته حين غسق الليل، أي حين يختلط ويسد المناظر، وأصل هذا الحرف من السيلان، يقال: غسقت العين تغسق. وهو هملان العين بالماء، والغاسق السائل، ومن هذا يقال لما يسيل من أهل النار: الغساق، فمعنى غَسَقَ الليل أي انصب بظلامه، وذلك أن الظلمة كأنها تنصب على العالم، وأما قول المفسرين، قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما غسق الليل؟ قال: أوله حين يدخل. وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس: ما الغسق؟ قال دخول الليل بظلمته، وقال الأزهري: غسق الليل عند غيبوبة الشفق عند تراكم الظلمة واشتدادها، يقال: غسقت العين، إذا امتلأت دمعًا، وغسقت الجراحة، إذا امتلأت دمًا. قال لأنا لو حملنا الغسق على هذا المعنى دخلت الصلوات الأربع فيه وهي الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ولو حملنا الغسق على ظهور أول الظلمة لم يدخل فيه إلا الظهر والمغرب، فوجب أن يكون الأول أَوْلى. واعلم أنه يتفرع على هذين القولين بحث شريف، فإن فسرنا الغسق بظهور أول الظلمة كان الغسق عبارة عن أول المغرب، وعلى هذا التقدير يكون المذكور في الآية ثلاثة أوقات: وقت الزوال ووقت أول المغرب ووقت الفجر، وهذا يقتضي أن يكون الزوال وقتًا للظهر والعصر، فيكون هذا الوقت مشتركًا بين هاتين الصلاتين وأن يكون أول المغرب وقتًا للمغرب والعشاء، فيكون هذا الوقت مشتركًا أيضًا بين هاتين الصلاتين، فهذا يقتضي جواز الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقًا، إلا أنه دل الدليل على أن الجمع في الحضر من غير عذر لا يجوز، فوجب أن يكون الجمع جائزًا بعذر السفر وعذر المطر وغيره، أما إن فسرنا الغسق بالظلمة المتراكمة فنقول: الظلمة المتراكمة إنما تحصل عند غيبوبة الشفق الأبيض وكلمة (إلى) لانتهاء الغاية، والحكم الممدود إلى غاية يكون مشروعًا قبل حصول تلك الغاية، فوجب جواز إقامة الصلوات كلها قبل غيبوبة الشفق الأبيض، وهذا إنما يصح إذا قلنا: إنها تجب عند غيبوبة الشفق الأحمر، والله أعلم.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ أجمعوا على أن المراد منه صلاة الصبح، وانتصابه بالعطف على الصلاة في قوله ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والتقدير: أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر. **وفيه فوائد:**

الأولى: أن هذه الآية تدل على أن الصلاة لا تتم إلا بالقراءة.

الفائدة الثانية: أنه تعالى أضاف القرآن إلى الفجر والتقدير أقم قرآن الفجر، فوجب أن تتعلق

القراءة بحصول الفجر، وفي أول طلوع الصبح قد حصل الفجر لأن الفجر سُمي فجرًا لانفجار ظلمة الليل عن نور الصباح، وظاهر الأمر للوجوب، فمقتضى هذا اللفظ وجوب إقامة صلاة الفجر من أول طلوعه، إلا أنا أجمعنا على أن هذا الوجوب غير حاصل، فوجب أن يبقى الندب لأن الوجوب عبارة عن رجحان مانع من الترك، فإذا منع مانع من تحقق الوجوب وجب أن يرتفع المنع من الترك، وأن يبقى أصل الرجحان حتى تنقل مخالفة الدليل، فثبت أن هذه الآية تقتضي أن إقامة الفجر في أول الوقت أفضل، وهذا يدل على صحة مذهب الشافعي في أن التغليس أفضل من التنوير، والله أعلم.

الفائدة الثالثة: أن الفقهاء بينوا أن السنة أن تكون القراءة في هذه الصلاة أطول من القراءة في سائر الصلوات فالمقصود من قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ الحث على أن تطويل القراءة في هذه الصلاة مطلوب؛ لأن التخصيص بالذكر يدل على كونه أكمل من غيره.

الفائدة الرابعة: أنه وصف قرآن الفجر بكونه مشهودًا. قال الجمهور: معناه أن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الصبح خلف الإمام، تنزل ملائكة النهار عليهم وهم في صلاة الغداة وقبل أن تعرج ملائكة الليل، فإذا فرغ الإمام من صلاته عرجت ملائكة الليل ومكثت ملائكة النهار ثم إن ملائكة الليل إذا صعدت قالت: يا رب إنا تركنا عبادك يصلون لك. وتقول ملائكة النهار: ربنا أتينا عبادك وهم يصلون. فيقول الله تعالى للملائكة: اشهدوا أني قد غفرت لهم. **وأقول:** هذا أيضًا دليل قوي في أن التغليس أفضل من التنوير؛ لأن الإنسان إذا شرع فيها من أول الصبح ففي ذلك الوقت الظلمة باقية، فتكون ملائكة الليل حاضرين، ثم إذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار، فبهذا الطريق تحضر في هذه الصلاة ملائكة الليل وملائكة النهار، أما إذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت التنوير فهناك ما بقيت الظلمة، فلم يبق في ذلك الوقت أحد من ملائكة الليل، فلا يحصل المعنى المذكور، فثبت أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ دليل قوي على أن التغليس أفضل وعندي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ احتمال آخر: وذلك لأنه كلما كانت الحوادث الحادثة أعظم وأكمل كان الاستدلال بها على كمال قدرة الله تعالى أكمل، فالإنسان إذا شرع في أداء صلاة الصبح من أول هذا الوقت كانت الظلمة القوية باقية في العالم، فإذا امتدت القراءة في أثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة إلى الضوء، والظلمة مناسبة للموت والعدم، والضوء مناسب للحياة والوجود. وعلى هذا التقدير فالإنسان لما قام من منامه فكأنه انتقل من الموت إلى الحياة ومن العدم إلى الوجود، ثم إنه مع ذلك يشاهد في أثناء صلاته انقلاب كلية هذا العالم من الظلمة إلى الضوء ومن الموت إلى الحياة ومن السكون إلى الحركة ومن العدم إلى الوجود. وهذه الحالة حالة عجيبة تشهد العقول والأرواح بأنه لا يقدر على هذا التقليب والتحويل والتبديل إلا الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقوة الغير المتناهية، وحينئذٍ

يستنير العقل بنور هذه المعرفة وينفتح على العقل والروح أبواب المكاشفات الروحانية الإلهية، فتصير الصلاة التي هي عبارة عن أعمال الجوارح مشهودًا عليها بهذه المكاشفات الإلهية المقدسة؛ ولذلك فكل من له ذوق سليم وطبع مستقيم إذا قام من منامه وأدى صلاة الصبح في أول الوقت واعتبر اختلاف أحوال العالم من الظلمة الحاصلة إلى النور ومن السكون إلى الحركة، فإنه يجد في قلبه رَوْحًا وراحة ومزيدًا في نور المعرفة وقوة اليقين، فهذا هو المراد من قوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ وظهر أن هذا الاعتبار لا يحصل إلا عند أداء صلاة الفجر على سبيل التغليس، فهذا ما خطر بالبال والله أعلم بمراده.

وفي الآية احتمال ثالث: وهو أن يكون المراد من قوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ الترغيب في أن تؤدي هذه الصلاة بالجماعة، ويكون المعنى كونه مشهودًا بالجماعة الكثيرة، ومزيد التحقيق فيه أنا بينا أن تأثير هذه الصلاة في تصفية القلب وفي تنويره أكثر من تأثير سائر الصلوات، فإذا حضر جمع من المسلمين في المسجد لأداء هذه العبادة استنار قلب كل واحد منهم، ثم بسبب ذلك الاجتماع كأنه ينعكس نور معرفة الله تعالى ونور طاعته في ذلك الوقت من قلب كل واحد إلى قلب الآخر، فتصير أرواحهم كالمرايا المشرقة المتقابلة إذا وقعت عليها أنوار الشمس فإنه ينعكس النور من كل واحدة من تلك المرايا إلى الأخرى، فكذا في هذه الصورة، ولهذا السبب فإن كل من له ذوق سليم وأدى هذه الصلاة في هذا الوقت بالجماعة، وجد من قلبه فسحة ونورًا وراحة.

الفائدة الخامسة: قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يحتمل أن يكون السبب في كونه مشهودًا هو أن الإنسان لما نام طول الليل، فصار كالغافل في هذه المدة عن مراقبة أحوال الدنيا فزالت صورة الحوادث الجسمانية عن لوح خياله وفكره وعقله، وصارت هذه الألواح كألواح سُطرت فيها نقوش فاسدة ثم غُسلت وأزيلت تلك النقوش عنها، ففي أول وقت القيام من المنام صارت ألواح عقله وفكره وخياله مطهرة عن النقوش الفاسدة الباطلة. فإذا تسارع الإنسان في ذلك الوقت إلى عبادة الله تعالى وقراءة الكلمات الدالة على تنزيهه والإقدام على الأفعال الدالة على تعظيم الله تعالى، انتقش في لوح عقله وفكره وخياله هذه النقوش الطاهرة المقدسة، ثم إن حصول هذه النقوش يمنع من استحكام النقوش الفاسدة، وهي النقوش المتولدة من الميل إلى الدنيا وشهواتها، فبهذا الطريق يترشح الميل إلى معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته، ويضعف الميل إلى الدنيا وشهواتها. **إذا عرفت هذا فنقول:** هذه الحكمة إنما تحصل إذا شرع الإنسان في الصلاة من أول قيامه من النوم عند التغليس، وذلك يدل على المقصود، واعلم أن أكثر الخلق وقعوا في أمراض القلوب وهي حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر، وهذه الدنيا مثل دار المرضى إذا كانت مملوءة من المرضى، والأنبياء كالأطباء الحاذقين، والمريض ربما قد قوي مرضه فلا يعود إلى الصحة إلا بمعالجات قوية، وربما كان المريض جاهلاً فلا ينقاد للطبيب ويخالفه في أكثر الأمر، إلا أن الطبيب إذا كان مشفقًا حاذقًا فإنه يسعى

في إزالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه، فإن لم يقدر على إزالته فإنه يسعى في تقليله وتخفيفه. **إذا عرفت هذا فنقول:** مرض حب الدنيا مستولٍ على الخلق، ولا علاج له إلا بالدعوة إلى معرفة الله تعالى وخدمته وطاعته، وهذا علاج شاق على النفوس، وقلَّ من يقبله وينقاد له. لا جرم (أن) الأنبياء اجتهدوا في تقليل هذا المرض وحَمْل الخلق على الشروع في الطاعة والعبودية من أول وقت القيام من النوم، مما ينفع في إزالة هذا المرض من الوجه الذي قررناه، فوجب أن يكون مشروعًا، والله أعلم بأسرار كلامه.

أما قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ فاعلم أنه تعالى لما أمر بالصلوات الخمس على سبيل الرمز والإشارة، أردفه بالحث على صلاة الليل.

وفيه مباحث:

البحث الأول: التهجد عبارة عن صلاة الليل فقوله: ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، كما قال: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٢- ٤].

البحث الثاني: قال الواحدي الهجود في اللغة النوم، وهو معروف كثير في الشعر، يقال: أهجدته وهجدته أي أنمته، ومنه قول لبيد:

هَـجِّـدْنَـا فَـقَـدْ طَـالَ الـسُّـرَى[1]

كأنه قال: نوِّمنا فإن السُّرى قد طال علينا حتى غَلَبَنا النوم وروى أبو عبيد عن أبي عبيدة: الهاجد النائم والهاجد: المصلي بالليل. وروى ثعلب عن ابن الأعرابي مثل هذا القول كأنه قال: هجد الرجل إذا صلى من الليل وهجد إذا نام بالليل. فعند هؤلاء هذا اللفظ من الأضداد. وأما الأزهري فإنه توسط في تفسير هذا اللفظ وقال: المعروف في كلام العرب أن الهاجد هو النائم، ثم رأينا أن في الشرع يقال لمن قام من النوم إلى الصلاة إنه متهجد، فوجب أن يُحمل هذا على أنه سمي متهجدًا لإلقائه الهجود عن نفسه، كما قيل للعابد متحنث لإلقائه الحنث عن نفسه وهو الإثم. ويقال. فلان رجل متحرج ومتأثم ومتحوب، أي يُلقي الحرج والإثم والحوب عن نفسه.

وأقول: فيه احتمال آخر وهو أن الإنسان إنما يترك لذة النوم، ويتحمل مشقة القيام إلى الصلاة ليطيب رقاده وهجوده عند الموت، فلما كان غرضه من ترك هذا الهجود أن يصل إلى الهجود اللذيذ عند الموت، كان هذا القيام طلبًا لذلك الهجود، فسمي تهجدًا لهذا السبب.

وفيه وجه ثالث: وهو ما روي أن الحجاج بن عمرو المازني قال: أيحسب أحدكم إذا قام من الليل فصلى حتى يصبح أنه قد تهجد؟! إنما التهجد الصلاة بعد الرقاد، ثم صلاة أخرى بعد رقدة، ثم صلاة أخرى بعد رقدة، هكذا كانت صلاة رسول الله ﷺ. إذا عرفت هذا فنقول: كلما صلى الإنسان طلب هجودًا ورقادًا، فلا يبعد أنه سُمي تهجدًا لهذا السبب.

---

(١) تقدمت ترجمة لبيد.

البحث الثالث: قوله: ﴿وَمِنَ﴾ في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ لا بد له من متعلق، والفاء في قوله: ﴿فَتَهَجَّدۡ﴾ لا بد له من معطوف عليه والتقدير: قم من الليل، أي في بعض الليل فتهجد به. وقوله: ﴿بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، والمراد منه الصلاة المشتملة على القرآن.

البحث الرابع: معنى النافلة في اللغة ما كان زيادة على الأصل، ذكرناه في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ [الأنفال: ١] ومعناها أيضًا في هذه الآية الزيادة، وفي تفسير كونها زيادة قولان مبنيان على أن صلاة الليل هل كانت واجبة على النبي ﷺ أم لا: فمن الناس من قال: إنها كانت واجبة عليه ثم نُسخت فصارت نافلة، أي تطوعًا وزيادة على الفرائض، وذكر مجاهد والسدي في تفسير كونها (نَافِلَةً) وجهًا حسنًا قالا: إنه تعالى غفر للنبي ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكل طاعة يأتي بها سوى المكتوبة فإنه لا يكون تأثيرها في كفارة الذنوب ألبتة، بل يكون تأثيرها في زيادة الدرجات وكثرة الثواب، وكان المقصود من تلك العبادة زيادة الثواب فلهذا سميت نافلة بخلاف الأمة، فإن لهم ذنوبًا محتاجة إلى الكفارات، فهذه الطاعة محتاجون إليها لتكفير الذنوب والسيئات، فثبت أن هذه الطاعات إنما تكون زوائد ونوافل في حق النبي ﷺ لا في حق غيره، فلهذا السبب قال: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ يعني أنها زوائد ونوافل في حقك لا في حق غيرك وتقريره ما ذكرناه. وأما الذين قالوا: إن صلاة الليل كانت واجبة على النبي ﷺ قالوا: معنى كونها نافلة له على التخصيص أنها فريضة عليك زائدة على الصلوات الخمس خُصصت بها من بين أمتك. ويمكن نصرة هذا القول بأن قوله (فتهجد) أمر وصيغة الأمر للوجوب، فوجب كون هذا التهجد واجبًا فلو حملنا قوله (نافلة لك) على عدم الوجوب لزم التعارض وهو خلاف الأصل، فوجب أن يكون معنى كونها نافلة له ما ذكرناه من كون وجوبها زائدًا على وجوب الصلوات الخمس، والله أعلم.

البحث الخامس: قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ وإن كان ظاهر الأمر فيه مختصًا بالرسول ﷺ إلا أنه في المعنى عام في حق الأمة، والدليل عليه أنه قال ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ فبيّن أن الأمر بالتهجد مخصوص بالرسول، وهذا يدل على أن الأمر بالصلوات الخمس غير مخصوص بالرسول عليه السلام، وإلا لم يكن لتقييد الأمر بالتهجد بهذا القيد فائدة أصلاً، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ اتفق المفسرون على أن كلمة (عسى) من الله واجب، قال أهل المعاني لأن لفظة (عسى) تفيد الإطماع ومن أطمع إنسانًا في شيء ثم حرمه كان عارًا والله تعالى أكرم من أن يُطمع أحدًا في شيء ثم لا يعطيه ذلك.

وقوله: ﴿مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ فيه بحثان:

البحث الأول: في انتصاب قوله (محمودًا) وجهان. الأول: أن يكون انتصابه على الحال من قوله (يبعثك) أي يبعثك محمودًا. والثاني: أن يكون نعتًا للمقام وهو ظاهر.

البحث الثاني: في تفسير المقام المحمود أقوال: **الأول**:أنه الشفاعة، قال الواحدي: أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة كما قال النبي ﷺفي هذه الآية «**هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي**» وأقول: اللفظ مُشعر به، وذلك لأن الإنسان إنما يصير محمودًا إذا حمده حامد، والحمد إنما يكون على الإنعام فهذا المقام المحمود يجب أن يكون مقامًا أنعم رسول الله ﷺفيه على قوم فحمدوه على ذلك الإنعام، وذلك الإنعام لا يجوز أن يكون هو تبليغ الدين وتعليم الشرع؛ لأن ذلك كان حاصلاً في الحال، وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ تطميع وتطميع الإنسان في الشيء الذي وعده في الحال محال، فوجب أن يكون ذلك الإنعام الذي لأجله يصير محمودًا إنعامًا سيصل منه حصل له بعد ذلك إلى الناس، وما ذاك إلا شفاعته عند الله، فدل هذا على أن لفظ الآية وهو قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ يدل على هذا المعنى، وأيضًا التنكير في قوله (مقامًا محمودًا) يدل على أنه يحصل للنبي عليه السلام في ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل، ومن المعلم أن حمد الإنسان على سعيه في التخليص عن العقاب أعظم من حمده في السعي في زيادة من الثواب لا حاجة به إليها؛ لأن احتياج الإنسان إلى دفع الآلام العظيمة عن النفس فوق احتياجه إلى تحصيل المنافع الزائدة التي لا حاجة به إلى تحصيلها، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ هو الشفاعة في إسقاط العقاب، على ما هو مذهب أهل السنة، ولما ثبت أن لفظ الآية مُشعر بهذا المعنى إشعارًا قويًّا، ثم وردت الأخبار الصحيحة في تقرير هذا المعنى وجب حمل اللفظ عليه، ومما يؤكد هذا الوجه الدعاء المشهور (وابعثه المقام المحمود الذي وعدته يغبطه به الأولون والآخرون) واتفق الناس على أن المراد منه الشفاعة.

والقول الثاني: قال حذيفة، يجمع الناس في صعيد فلا تتكلم نفس فأول مدعو محمد ﷺ فيقول: «**لبيك وسعديك والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجًا منك إلا إليك، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت**» (١)فهذا هو المراد من قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾. **وأقول**:القول الأول أَوْلى لأن سعيه في الشفاعة يفيده إقدام الناس على حمده فيصير محمودًا، وأما ذكر هذا الدعاء فلا يفيد إلا الثواب، أما الحمد فلا. فإن

---

(١) **إسناد صحيح**:أخرجه النسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٣٨١) حديث رقم/ ١١٢٩٤ من طريق خالد حدثنا شعبة عن أبي إسحاق... به. والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٣٩٥) حديث رقم/ ٢٣٨٤ من طريق عبيد الله بن موسى أنبأنا إسرائيل حدثنا أبو إسحاق عن صلة بن زر... به. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود الطيالسي في (مسنده) (١/ ٥٥) حديث رقم/ ٤١٤ قال: حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت صلة بن زخر يحدث عن حذيفة... به. والبزار في (مسنده) (٧/ ٣٢٩) حديث رقم/ ٢٩٢٦ من طريق أبي إسحاق عن صلة عن حذيفة... به. وابن منده في (الإيمان) (٢/ ٨٧٢) حديث رقم/ ٩٢٩ من طريق أبي داود عن شعبة.... به. وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (١/ ٢٧٨) من طريق أبي داود حدثنا شعبة عن أبي إسحاق... به. وابن أبي عاصم في (السنة) (٢/ ٣٦٧) حديث رقم/ ٧٨٩ من طريق حماد بن سلمة عن عبد الله بن المختار عن أبي إسحاق عن صلة... به. وقال الشيخ الألباني: حديث صحيح.

قالوا: لمَ لا يجوز أن يقال: إنه تعالى يحمده على هذا القول؟ **قلنا:** لأن الحمد في اللغة مختص بالثناء المذكور في مقابلة الإنعام فقط، فإن ورد لفظ الحمد في غير هذا المعنى فعلى سبيل المجاز. **القول الثالث:** المراد مقام تُحمد عاقبته. وهذا أيضًا ضعيف للوجه الذي ذكرناه في القول الثاني. **القول الرابع:** قال الواحدي: روي عن ابن مسعود أنه قال: (يُقْعِدُ اللَّهُ مُحَمَّدًا عَلَى الْعَرْشِ) وعن مجاهد أنه قال: (يجلسه معه على العرش)، ثم قال الواحدي: وهذا قول رذل موحش فظيع، ونص الكتاب ينادي بفساد هذا التفسير، ويدل عليه وجوه: **الأول:** أن البعث ضد الإجلاس يقال بعثت النازل والقاعد فانبعث. ويقال: بعث الله الميت أي أقامه من قبره فتفسير البعث بالإجلاس تفسير للضد بالضد وهو فاسد. **والثاني:** أنه تعالى قال (مقامًا محمودًا) ولم يقل مقعدًا، والمقام موضع القيام لا موضع القعود. **والثالث:** لو كان تعالى جالسًا على العرش بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام لكان محدودًا متناهيًا، ومن كان كذلك فهو محدث. **والرابع:** يقال: إن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزاز لأن هؤلاء الجهال والحمقى يقولون في كل أهل الجنة: إنهم يزورون الله تعالى وإنهم يجلسون معه، وإنه تعالى يسألهم عن أحوالهم التي كانوا فيها في الدنيا، وإذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين لم يكن لتخصيص محمد ﷺ بها مزيد شرف ورتبة. **والخامس:** أنه إذا قيل: السلطان بعث فلانًا فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه. فثبت أن هذا القول كلام رذل ساقط لا يميل إليه إلا إنسان قليل العقل عديم الدين، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ . **وفيه مباحث:**

البحث الأول: أنا ذكرنا في تفسير قوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٧٦] قولين: أحدهما: المراد منه سعي كفار مكة في إخراجه منها. والثاني: المراد منه أن اليهود قالوا له: الأَوْلى لك أن تخرج من المدينة إلى الشام. ثم إنه تعالى قال له: أقم الصلاة واشتغِل بعبادة الله تعالى، ولا تلتفت إلى هؤلاء الجهال؛ فإنه تعالى ناصرك ومعينك. ثم عاد بعد هذا الكلام إلى شرح تلك الواقعة، فإن فسرنا تلك الآية أن المراد منها أن كفار مكة أرادوا إخراجه من مكة كان معنى هذه الآية أنه تعالى أمره بالهجرة إلى المدينة وقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ وهو المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وهو مكة. وهذا قول الحسن وقتادة. وإن فسرنا تلك الآية بأن المراد منها أن اليهود حملوه على الخروج من المدينة والذهاب إلى الشام فخرج رسول الله ﷺ منها ثم أمره الله بأن يرجع إليها، كان المراد أنه عليه الصلاة والسلام عند العود إلى المدينة قال: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ وهو المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني أخرجني منها إلى مكة مخرج صدق أي افتحها لي. **والقول الثاني:** في تفسير هذه الآية وهو أكمل مما سبق: أن المراد ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي﴾ في الصلاة ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ منها مع الصدق والإخلاص وحضور ذكرك والقيام بلوازم شكرك. **والقول الثالث:** وهو أكمل مما سبق: أن المراد: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي﴾ – في

القيام بمهمات أداء دينك وشريعتك - (وَأَخْرِجْنِي) منها بعد الفراغ منها إخراجًا لا يبقى عليَّ منها تبعة ربقية. **والقول الرابع**: وهو أعلى مما سبق: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي﴾ في بحار دلائل توحيدك وتنزيهك وقدسك، ثم أخرجني من الاشتغال بالدليل إلى ضياء معرفة المدلول، ومن التأمل في آثار حدوث المحدثات إلى الاستغراق في معرفة الأحد الفرد المنزه عن التكثيرات والتغيرات.

والقول الخامس: أدخلني في كل ما تدخلني فيه مع الصدق في عبوديتك والاستغراق بمعرفتك، وأخرجني عن كل ما تخرجني عنه مع الصدق في العبودية والمعرفة والمحبة. والمقصود منه أن يكون صدق العبودية حاصلاً في كل دخول وخروج وحركة وسكون. **والقول السادس**: أدخلني القبر مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق.

البحث الثاني: (مُدخل) بضم الميم مصدر كالإدخال يقال: أدخلته مدخلاً، كما قال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٩] ومعنى إضافة المُدخل والمُخرج إلى الصدق مدحهما كأنه سأل الله تعالى إدخالاً حسنًا وإخراجًا حسنًا لا يرى فيهما ما يكره.

ثم قال تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ أي حجة بينة ظاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني. وبالجملة فقد سأل الله تعالى أن يرزقه التقوية على من خالفه بالحجة وبالقهر والقدرة، وقد أجاب الله تعالى دعاءه وأعلمه بأنه يعصمه من الناس فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] ولما سأل الله النصرة بيَّن الله له أنه أجاب دعاءه فقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ وهو دينه وشرعه ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ وهو كل ما سواه من الأديان والشرائع، وزهق بطل واضمحل، وأصله من زهقت نفسه تزهق، أي هلكت، وعن ابن مسعود: (أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَحَوْلَ الْبَيْتِ ثَلاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ. فَجَعَلَ الصَّنَمُ يَنْكَبُّ عَلَى وَجْهِهِ). وقوله: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ يعني أن الباطل وإن اتفقت له دولة وصولة إلا أنها لا تبقى بل تزول على أسرع الوجوه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الإلهيات والنبوات والحشر والمعاد والبعث وإثبات القضاء والقدر، ثم أتبعه بالأمر بالصلاة، ونبه على ما فيها من الأسرار، وإنما ذكر كل ذلك في القرآن، أتبعه ببيان كون القرآن شفاء ورحمة فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ ولفظة ﴿مِنَ﴾ ها هنا ليست للتبعيض بل هي للجنس كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] والمعنى: وننزل من هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء. فجميع القرآن شفاء للمؤمنين.

واعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية، وشفاء أيضًا من الأمراض الجسمانية، أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر، وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان: الاعتقادات الباطلة والأخلاق المذمومة: أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادًا الاعتقادات الفاسدة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر، والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة فيها، ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب، والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما في هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة، لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني.

وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة، فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض، فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية. وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرًا من الأمراض. ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثارًا عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر الله وكبريائه وتعظيم الملائكة المقربين وتحقير المردة والشياطين سببًا لحصول النفع في الدين والدنيا كان أَوْلى، ويتأكد ما ذكرنا بما روي أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ لَمْ يَسْتَشْفِ بِالْقُرْآنِ، فَلَا شَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى**»(١). وأما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم أنا بينا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة، والقرآن قسمان بعضهما يفيد الخلاص عن شبهات الضالين وتمويهات المبطلين وهو الشفاء. وبعضهما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية والأخلاق الفاضلة التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين وهو الرحمة، ولما كان إزالة المرض مقدمة على السعي في تكميل موجبات الصحة، لا جرم بدأ الله تعالى في هذه الآية بذكر الشفاء ثم أتبعه بذكر الرحمة، واعلم أنه تعالى لما بَيَّن كون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بَيَّن كونه سببًا للخسار والضلال في حق الظالمين، والمراد به المشركون، وإنما كان كذلك لأن سماع القرآن يزيدهم غيظًا وغضبًا وحقدًا وحسدًا، وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم إلى الأعمال الباطلة وتزيد في تقوية تلك الأخلاق الفاسدة في جواهر نفوسهم، ثم لا يزال الخُلُق الخبيث النفساني يحمل على الأعمال الفاسدة والإتيان بتلك الأعمال يقوي تلك الأخلاق فبهذا الطريق يصير القرآن سببًا لتزايد هؤلاء المشركين الضالين في درجات الخزي والضلال والفساد والنكال.

---

(١) ذكره الثعلبي في (الكشف والبيان) (٨/ ٦٢) وقال: وروت ساكنة بنت الجارود قالت: سمعت رجاء الغنوي يقول: قال رسول الله ﷺ... فذكره. وذكره ابن الأثير في (أسد الغابة) (١/ ٣٦٣). تحت ترجمة رجاء الغنوي وقال: روت عنه سلامة بنت الجعد وذكر حديثا ثم ذكر الحديث بعده وقال أبو عمر: لايصح حديثه.

ثم إنه تعالى ذكر السبب الأصلي في وقوع هؤلا الجاهلين الضالين في أودية الضلال ومقامات الخزي والنكال، وهو حب الدنيا والرغبة في المال والجاه، واعتقادهم أن ذلك إنما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ .

وفيه مباحث:

الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الإنسان ها هنا هو الوليد بن المغيرة. وهذا بعيد، بل المراد أن نوع الإنسان من شأنه أنه إذا فاز بمقصوده ووصل إلى مطلوبه، اغتر وصار غافلاً عن عبودية الله تعالى متمردًا عن طاعة الله كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦-٧] .

البحث الثاني: قوله ﴿أَعْرَضَ﴾ أي ولّى ظهره أي عرضه إلى ناحية، ونأى بجانبه، أي تباعد، ومعنى النأي في اللغة البعد والإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه والنأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره: وأراد الاستكبار لأن ذلك عادة المتكبرين. وفي قوله ﴿وَنَـَٔا﴾ قراءات. **إحداها:** وهي قراءة العامة بفتح النون والهمزة، وفي حم السجدة مثله، وهي اللغة الغالبة، والنأي البعد يقال نأى أي بعد. **وثانيها:** قراءة ابن عامر (ناء) وله وجهان تقديم اللام على العين كقولهم راء في رأى، ويجوز أن يكون من نأى بمعنى نهض. **وثالثها:** قراءة حمزة والكسائي بإمالة الفتحتين، وذلك لأنهم أمالوا الهمزة من نأى ثم كسروا النون إتباعًا للكسرة مثل رأى. **ورابعها:** قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ونصير عن الكسائي وحمزة نئى بفتح النون وكسر الهمزة على الأصل في فتح النون وإمالة الهمزة. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي إذا مسه فقر أو مرض أو نازلة من النوازل، كان يؤوسًا شديد اليأس من رحمة الله و﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] والحاصل أنه إن فاز بالنعمة والدولة اغتر بها فنسي ذكر الله، وإن بقي في الحرمان عن الدنيا استولى عليه الأسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله تعالى، فهذا المسكين محروم أبدًا عن ذكر الله. ونظيره قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥] إلى قوله: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦] وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١] .

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال الزجاج: الشاكلة الطريقة والمذهب. والدليل عليه أنه يقال هذا طريق ذو شواكل، أي يتشعب منه طرق كثيرة. ثم الذي يقوي عندي أن المراد من الآية ذلك قوله تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ وفيه وجه آخر وهو أن المراد أن كل أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه ومقتضى روحه، فإن كانت نفسه نفسًا مشرقة خيرة طاهرة علوية صدرت عنه أفعال فاضلة كريمة، وإن كانت نفسه نفسًا كدرة نذلة خبيثة مضلة ظلمانية صدرت عنه أفعال خسيسة فاسدة.

وأقول: العقلاء اختلفوا في أن النفوس الناطقة البشرية هل هي مختلفة بالماهية أم لا؟ منهم

من قال: إنها مختلفة بالماهية، وإن اختلاف أفعالها وأحوالها لأجل اختلاف جواهرها وماهياتها، ومنهم من قال: إنها متساوية في الماهية، واختلاف أفعالها لأجل اختلاف أمزجتها. والمختار عندي هو القسم الأول والقرآن مُشعر بذلك، وذلك لأنه تعالى بَيَّن في الآية المتقدمة أن القرآن بالنسبة إلى البعض يفيد الشفاء والرحمة وبالنسبة إلى أقوام آخرين يفيد الخسارة والخزي، ثم أتبعه بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ ومعناه أن اللائق بتلك النفوس الطاهرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال، وبتلك النفوس الكدرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزي والضلال، كما أن الشمس تعقد الملح وتلين الدهن وتبيض ثوب القصار وتُسود وجهه. وهذا الكلام إنما يتم المقصود منه إذا كانت الأرواح والنفوس مختلفة بماهياتها، فبعضها مشرقة صافية يظهر فيها من القرآن نور على نور، وبعضها كدرة ظلمانية يظهر فيها من القرآن ضلال على ضلال ونكال على نكال.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ختم الآية المتقدمة بقوله: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ وذكرنا أن المراد منه مشاكلة الأرواح للأفعال الصادرة عنها، وجب البحث ها هنا عن ماهية الروح وحقيقته فلذلك سألوا عن الروح **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: للمفسرين في الروح المذكورة في هذه الآية أقوال، أظهرها أن المراد منه الروح الذي هو سبب الحياة، روي أن اليهود قالوا لقريش: اسألوا محمدًا عن ثلاث فإن أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي، اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح. فسألوا رسول الله ﷺ عن هذه الثلاثة فقال عليه السلام: «**غدًا أخبركم**» ولم يقل إن شاء الله فانقطع عنه الوحي أربعين يومًا ثم نزل الوحي بعده: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] ثم فسر لهم قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين وأبهم قصة الروح ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ وبَيَّن أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة حقيقة الروح فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه. **أولها**: أن الروح ليس أعظم شأنًا ولا أعلى مكانًا من الله تعالى، فإذا كانت معرفة الله تعالى ممكنة بل حاصلة فأي مانع يمنع من معرفة الروح. **وثانيها**: أن اليهود قالوا: إن أجاب عن قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ولم يجب عن الروح فهو نبي. وهذا كلام بعيد عن العقل لأن قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ليست إلا حكاية من الحكايات، وذكر الحكاية يمتنع أن يكون دليلاً على النبوة، وأيضًا فالحكاية التي يذكرها إما أن تعتبر قبل العلم بنبوته أو بعد العلم بنبوته: فإن كان قبل العلم بنبوته كذبوه فيها، وإن كان بعد العلم بنبوته

فحينئذٍ صارت نبوته معلومة قبل ذلك، فلا فائدة في ذكر هذه الحكاية. وأما عدم الجواب عن حقيقة الروح فهذا يبعد جعله دليلاً على صحة النبوة. وثالثها: أن مسألة الروح يعرفها أصاغر الفلاسفة وأراذل المتكلمين، فلو قال الرسول ﷺ: إني لا أعرفها لأورث ذلك ما يوجب التحقير والتنفير فإن الجهل بمثل هذه المسألة يفيد تحقير أي إنسان كان، فكيف الرسول الذي هو أعلم العلماء وأفضل الفضلاء؟! ورابعها: أنه تعالى قال في حقه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢] ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وقال في صفة القرآن: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وكان عليه السلام يقول: «أَرِنَا الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ»(١) فمن كان هذا حاله وصفته كيف يليق به أن يقول: أنا لا أعرف هذه المسألة مع أنها من المسائل المشهورة المذكورة بين جمهور الخلق، بل المختار عندنا أنهم سألوه عن الروح وأنه ﷺ أجاب عنه على أحسن الوجوه، وتقريره أن المذكور في الآية أنهم سألوه عن الروح، والسؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة: أحدها: أن يقال ماهية الروح أهو متحيز أو حال في المتحيز أو موجود غير متحيز ولا حال في التحيز. وثانيها: أن يقال: الروح قديمة أو حادثة. وثالثها: أن يقال: الأرواح هل تبقى بعد موت الأجسام أو تفنى. ورابعها: أن يقال: ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها؟ وبالجملة فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ ليس فيه ما يدل على أنهم عن هذه المسائل سألوا أو عن غيرها، إلا أنه تعالى ذكر له في الجواب عن هذا السؤال قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وهذا الجواب لا يليق إلا بمسألتين من المسائل التي ذكرناها: إحداهما السؤال عن ماهية الروح، والثانية عن قدمها وحدوثها.

أما البحث الأول: فهم قالوا: ما حقيقة الروح وماهيته؟ أهو عبارة عن أجسام موجودة في داخل هذا البدن متولدة من امتزاج الطبائع والأخلاط، أو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب أو هو عبارة عن عَرَض آخر قائم بهذه الأجسام، أو هو عبارة عن موجود يغاير هذه الأجسام والأعراض؟ فأجاب الله عنه بأنه موجود مغاير لهذه الأجسام ولهذه الأعراض، وذلك لأن هذه الأجسام أشياء تحدث من امتزاج الأخلاط والعناصر، وأما الروح فإنه ليس كذلك بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] فقالوا: لم كان شيئًا مغايرًا لهذه الأجسام ولهذه الأعراض. فأجاب الله عنه بأنه موجود يحدث بأمر الله وتكوينه وتأثيره في إفادة الحياة لهذا الجسد، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه، فإن أكثر حقائق الأشياء وماهياتها مجهولة. فإنا نعلم أن السكنجبين له خاصية تقتضي قطع الصفراء، فأما إذا أردنا أن نعرف ماهية تلك الخاصية وحقيقتها المخصوصة، فذاك غير معلوم، فثبت أن أكثر

---

(١) لم اجده. وقال ابن الجوزي في (صيد الخاطر) (١/ ١٤٠): وقد جاء في الأثر... ثم ذكره وقال: وهذا كلام حسن غاية الحسن.

الماهيات والحقائق مجهولة ولم يلزم من كونها مجهولة نفيها، فكذلك ها هنا، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

وأما المبحث الثاني: فهو أن لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ [هود: ٩٧] وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ [هود: ٦٦] أي فِعلنا، فقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي من فعل ربي وهذا الجواب يدل على أنهم سألوه أن الروح قديمة أو حادثة فقال: بل هي حادثة وإنما حصلت بفعل الله وتكوينه وإيجاده ثم احتج على حدوث الروح بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ يعني أن الأرواح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل فيها العلوم والمعارف، فهي لا تزال تكون في التغيير من حال إلى حال وفي التبديل من نقصان إلى كمال، والتغيير والتبديل من أمارات الحدوث، فقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ يدل على أنهم سألوه أن الروح هل هي حادثة؟ فأجاب بأنها حادثة واقعة بتخليق الله وتكوينه، وهو المراد من قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ ثم استدل على حدوث الأرواح بتغيرها من حال إلى حال وهو المراد من قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فهذا ما نقوله في هذا الباب، والله أعلم.

المسألة الثانية: في ذكر سائر الأقوال المقولة في نفس الروح المذكورة في هذه الآية. اعلم أن الناس ذكروا أقوالاً أخرى سوى ما تقدم ذكره: **فالقول الأول:** أن المراد من هذا الروح هو القرآن، قالوا: وذلك لأن الله تعالى سمى القرآن في كثير من الآيات روحًا، واللائق بالروح المسؤول عنه في هذا الموضع ليس إلا القرآن، فلا بد من تقرير مقامين: المقام الأول: تسمية الله القرآن بالروح، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ [النحل: ٢] وأيضًا السبب في تسمية القرآن بالروح أن بالقرآن تحصل حياة الأرواح والعقول لأن به تحصل معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته ومعرفة كتبه ورسله، والأرواح إنما تحيا بهذه المعارف، وتمام تقرير هذا الموضع ذكرناه في تفسير قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ [النحل: ٢]، وأما بيان المقام الثاني وهو أن الروح اللائق بهذا الموضع هو القرآن لأنه تقدمه قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] والذي تأخر عنه قوله: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] إلى قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨] فلما كان قبل هذه الآية في وصف القرآن وما بعدها كذلك، وجب أيضًا أن يكون المراد من هذا الروح القرآن حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة متناسقة، وذلك لأن القوم استعظموا أمر القرآن فسألوا أنه من جنس الشعر أو من جنس الكهانة، فأجابهم الله تعالى بأنه ليس من جنس كلام البشر، وإنما هو كلام ظهر بأمر الله ووحيه وتنزيله فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي القرآن ظهر بأمر ربي وليس من جنس كلام البشر. **والقول الثاني:** أن الروح المسؤول عنه في هذه الآية مَلَك من ملائكة السماوات وهو أعظمهم قدرًا وقوة، وهو المراد من قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨] ونقلوا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: هو ملك له سبعون ألف وجه، لكل وجه سبعون ألف وجه، لكل وجه سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ويخلق الله من كل تسبيحة ملكًا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة. قالوا: ولم يخلق الله تعالى خلقًا أعظم من الروح غير العرش، ولو شاء أن يبتلع السماوات السبع والأرضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل.

ولقائل أن يقول: هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه: الأول: أن هذا التفصيل لما عرفه علي، فالنبي أولى أن يكون قد عرفه فلم لم يخبرهم به، وأيضًا أن عليًّا ما كان ينزل عليه الوحي، فهذا التفصيل ما عرفه إلا من النبي ﷺ فلمَ ذكر النبي ﷺ ذلك الشرح والبيان لعلي ولم يذكره لغيره؟! الثاني: أن ذلك المَلَك إن كان حيوانًا واحدًا وعاقلاً واحدًا لم يكن في تكثير تلك اللغات فائدة، وإن كان المتكلم بكل واحدة من تلك اللغات حيوانًا آخر لم يكن ذلك ملكًا واحدًا بل يكون ذلك مجموع ملائكة. والثالث: أن هذا شيء مجهول الوجود فكيف يُسأل عنه؟! أما الروح الذي هو سبب الحياة فهو شيء تتوفر دواعي العقلاء على معرفته فصَرْف هذا السؤال إليه أَوْلى. **والقول الرابع:** وهو قول الحسن وقتادة أن هذا الروح جبريل، والدليل عليه أنه تعالى سمى جبريل بالروح في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وفي قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] ويؤكد هذا أنه تعالى قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ (فِي جِبْرِيلَ) وقال (حِكَايَةً عَنْ) جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] فسألوا الرسول كيف جبريل في نفسه وكيف قيامه بتبليغ الوحي إليه. **والقول الخامس:** قال مجاهد: الروح خلق ليسوا من الملائكة على صورة بني آدم يأكلون ولهم أيدٍ وأرجل ورؤوس وقال أبو صالح: يشبهون الناس وليسوا بالناس. ولم أجد في القرآن ولا في الأخبار الصحيحة شيئًا يمكن التمسك به في إثبات هذا القول. وأيضًا فهذا شيء مجهول فيبعد صرف هذا السؤال إليه، فحاصل ما ذكرناه في تفسير الروح المذكور في هذه الآية هذه الأقوال الخمسة، والله أعلم بالصواب.

المسألة الثالثة: في شرح مذاهب الناس في حقيقة الإنسان، اعلم أن العلم الضروري حاصل بأن ها هنا شيئًا إليه يشير الإنسان بقوله (أنا) وإذا قال الإنسان: علمت وفهمت وأبصرت وسمعت وذقت وشممت ولمست وغضبت. فالمشار إليه لكل أحد بقوله (أنا) إما أن يكون جسمًا أو عَرَضًا أو مجموع الجسم والعَرَض أو شيئًا مغايرًا للجسم والعرض أو من ذلك الشيء الثالث، فهذا ضبط معقول: أما القسم الأول: وهو أن يقال: إن الإنسان جسم، فذلك الجسم إما أن يكون هو هذه البنية أو جسمًا داخلاً في هذه البنية أو جسمًا خارجًا عنها، أما القائلون بأن الإنسان عبارة عن هذه البنية المحسوسة وعن هذا الجسم المحسوس، فهم جمهور المتكلمين، وهؤلاء يقولون: الإنسان لا يحتاج تعريفه إلى ذكر حد أو رسم، بل الواجب أن يقال: الإنسان هو الجسم المبني بهذه البنية المحسوسة.

واعلم أن هذا القول عندنا باطل، وتقريره أنهم قالوا: الإنسان هو هذا الجسم المحسوس، فإذا أبطلنا كون الإنسان عبارة عن هذا الجسم وأبطلنا كون الإنسان محسوسًا، فقد بطل كلامهم بالكلية والذي يدل على أنه لا يمكن أن يكون الإنسان عبارة (عن) هذا الجسم وجوه:

الحجة الأولى: أن العلم البديهي حاصل بأن أجزاء هذه الجثة متبدلة بالزيادة والنقصان تارة بحسب النمو والذبول وتارة بحسب السمن والهزال، والعلم الضروري حاصل بأن المتبدل المتغير مغاير للثابت الباقي، ويحصل من مجموع هذه المقدمات الثلاثة العلم القطعي بأن الإنسان ليس عبارة عن مجموع هذه الجثة.

الحجة الثانية: أن الإنسان حال ما يكون مشتغل الفكر متوجه الهمة نحو أمر معين مخصوص، فإنه في تلك الحالة يكون غافلاً عن جميع أجزاء بدنه وعن أعضائه وأبعاضه، مجموعها ومفصلها، وهو في تلك الحالة غير غافل عن نفسه المعينة، بدليل أنه في تلك الحالة قد يقول: غضبت واشتهيت وسمعت كلامك وأبصرت وجهك، وتاء الضمير كناية عن نفسه، فهو في تلك الحالة عالم بنفسه المخصوصة وغافل عن جملة بدنه وعن كل واحد من أعضائه وأبعاضه، و(يكون) المعلوم غير معلوم، فالإنسان يجب أن يكون مغايرًا لجملة هذا البدن ولكل واحد من أعضائه وأبعاضه.

الحجة الثالثة: أن كل أحد يحكم عقله بإضافة كل واحد من هذه الأعضاء إلى نفسه فيقول: رأسي وعيني ويدي ورجلي ولساني وقلبي، والمضاف غير المضاف إليه، فوجب أن يكون الشيء الذي هو الإنسان مغايرًا لجملة هذا البدن ولكل واحد من هذه الأعضاء. فإن قالوا: قد يقول: نفسي وذاتي فيضيف النفس والذات إلى نفسه فيلزم أن يكون الشيء وذاته مغايرة لنفسه، وهو محال. قلنا: قد يراد به هذا البدن المخصوص وقد يراد بنفس الشيء وذاته الحقيقة المخصوصة التي يشير إليها كل أحد بقوله (أنا) فإذا قال (نفسي وذاتي) فإن كان المراد البدن فعندنا أنه مغاير لجوهر الإنسان، أما إذا أريد بالنفس والذات المخصوصة المشار إليها بقوله: (أنا) فلا نسلم أن الإنسان يمكنه أن يضيف ذلك الشيء إلى نفسه بقوله (إنساني) وذلك لأن عين الإنسان ذاته فكيف يضيفه مرة أخرى إلى ذاته؟

الحجة الرابعة: أن كل دليل على أن الإنسان يمتنع أن يكون جسمًا، فهو أيضًا يدل على أنه يمتنع أن يكون عبارة عن هذا الجسم، وسيأتي تقرير تلك الدلائل.

الحجة الخامسة: أن الإنسان قد يكون حيًّا حال ما يكون البدن ميتًا، فوجب كون الإنسان مغايرًا لهذا البدن، والدليل على صحة ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فهذا النص صريح في أن أولئك المقتولين أحياء، والحس يدل على أن هذا الجسد ميت.

الحجة السادسة: أن قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] وقوله: ﴿أُغْرِقُواْ

﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: ٢٥] يدل على أن الإنسان يحيا بعد الموت، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «أَنْبِيَاءُ اللَّهِ لاَ يَمُوتُونَ، وَلَكِنْ يُنْقَلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ» وكذلك قوله عليه السلام «الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ» وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ» كل هذه النصوص تدل على أن الإنسان يبقى بعد موت الجسد، وبديهة العقل والفطرة شاهدان بأن هذا الجسد ميت. ولو جوزنا كونه حيًّا جاز مثله في جميع الجمادات، وذلك عين السفسطة. وإذا ثبت أن الإنسان شيء وكان الجسد ميتًا لزم أن الإنسان شيء غير هذا الجسد.

الحجة السابعة: قوله عليه السلام في خطبة طويلة له: «حَتَّى إِذَا حُمِلَ الْمَيِّتُ عَلَى نَعْشِهِ رَفْرَفَ رُوحُهُ فَوْقَ النَّعْشِ، وَيَقُولُ: يَا أَهْلِي وَيَا وَلَدِي لاَ تَلْعَبَنَّ بِكُمُ الدُّنْيَا كَمَا لَعِبَتْ بِي، جَمَعْتُ الْمَالَ مِنْ حِلِّهِ وَغَيْرِ حِلِّهِ، فَالْغِنَى لِغَيْرِي وَالتَّبِعَةُ عَلَيَّ، فَاحْذَرُوا مِثْلَ مَا حَلَّ بِي»(١) وجه الاستدلال أن النبي ﷺ صرح بأن حال ما يكون الجسد محمولاً على النعش بقي هناك شيء ينادي ويقول: يا أهلي ويا ولدي جمعت المال من حله وغير حله. ومعلوم أن الذي كان الأهل أهلاً له وكان جامعًا للمال من الحرام والحلال والذي بقي في رقبته الوبال - ليس إلا ذلك الإنسان، فهذا تصريح بأن في الوقت الذي كان فيه الجسد ميتًا محمولاً كان ذلك الإنسان حيًّا باقيًا فاهمًا، وذلك تصريح بأن الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد ولهذا الهيكل.

الحجة الثامنة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] والخطاب بقوله: ﴿ٱرۡجِعِيٓ﴾ إنما هو متوجه عليها حال الموت، فدل هذا على أن الشيء الذي يرجع إلى الله بعد موت الجسد يكون حيًّا راضيًا عن الله ويكون راضيًا عنه الله والذي يكون راضيًا ليس إلا الإنسان، فهذا يدل على أن الإنسان بقي حيًّا بعد موت الجسد والحي غير الميت، فالإنسان مغاير لهذا الجسد.

الحجة التاسعة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ٦١-٦٢] أثبت كونهم مردودين إلى الله الذي هو مولاهم حال كون الجسد ميتًا، فوجب أن يكون ذلك المردود إلى الله مغايرًا لذلك الجسد الميت.

الحجة العاشرة: نرى جميع فِرق الدنيا من الهند والروم والعرب والعجم وجميع أرباب الملل والنحل من اليهود والنصارى والمجوس والمسلمين وسائر فرق العالم وطوائفهم - يتصدقون عن موتاهم ويدعون لهم بالخير ويذهبون إلى زياراتهم، ولولا أنهم بعد موت الجسد بقوا أحياء لكان التصدق عنهم عبثًا، والدعاء لهم عبثًا، ولكان الذهاب إلى زيارتهم عبثًا، فالإطباق على هذه الصدقة وعلى هذا الدعاء وعلى هذه الزيارة - يدل على أن فطرتهم الأصلية السليمة شاهدة بأن الإنسان شيء غير هذا الجسد وأن ذلك الشيء لا يموت، بل (الذي) يموت هذا الجسد.

(١) لم أجده.

الحجة الحادية عشرة: أن كثيرًا من الناس يرى أباه أو ابنه بعد موته في المنام ويقول له: اذهب إلى الموضع الفلاني فإن فيه ذهبًا دفنته لك. وقد يراه فيوصيه بقضاء دَين عنه، ثم عند اليقظة إذا فتش كان كما رآه في النوم من غير تفاوت، ولولا أن الإنسان يبقى بعد الموت لما كان كذلك، ولما دل هذا الدليل على أن الإنسان يبقى بعد الموت ودل الحس على أن الجسد ميت، كان الإنسان مغايرًا لهذا الجسد الميت.

الحجة الثانية عشرة: أن الإنسان إذا ضاع عضو من أعضائه مثل أن تُقطع يداه أو رجلاه أو تُقلع عيناه أو تُقطع أذناه إلى غيرها من الأعضاء، فإن ذلك الإنسان يجد من قلبه وعقله أنه هو عين ذلك الإنسان ولم يقع في عين ذلك الإنسان تفاوت حتى أنه يقول أنا ذلك الإنسان الذي كنت موجودًا قبل ذلك إلا أنه يقول: إنهم قطعوا يدي ورجلي. وذلك برهان يقيني على أن ذلك الإنسان شيء مغاير لهذه الأعضاء والأبعاض، وذلك يبطل قول من يقول: الإنسان عبارة عن هذه البنية المخصوصة.

الحجة الثالثة عشرة: أن القرآن والأحاديث يدلان على أن جماعة من اليهود قد مسخهم الله وجعلهم في صورة القردة والخنازير، فنقول: إن ذلك الإنسان هل بقي حال ذلك المسخ أو لم يبق؟ فإن لم يبق كان هذا إماتة لذلك الإنسان وخلقًا لذلك الخنزير، وليس هذا من المسخ في شيء. وإن قلنا: إن ذلك الإنسان بقي حال حصول ذلك المسخ فنقول على ذلك التقدير: ذلك الإنسان باقٍ وتلك البنية وذلك الهيكل غير باقٍ، فوجب أن يكون ذلك الإنسان شيئًا مغايرًا لتلك البنية.

الحجة الرابعة عشرة: أن رسول الله ﷺ كان يرى جبريل عليه الصلاة والسلام في صورة دحية الكلبي، وكان يرى إبليس في صورة الشيخ النجدي، فها هنا بنية الإنسان وهيكله وشكله حاصل مع أن حقيقة الإنسان غير حاصلة، وهذا يدل على أن الإنسان ليس عبارة عن هذه البنية وهذا الهيكل. والفرق بين هذه الحجة والتي قبلها أنه حصلت صورة هذه البنية مع عدم هذه البنية وهذا الهيكل.

الحجة الخامسة عشرة: أن الزاني يزني بفرجه فيضرب على ظهره، فوجب أن يكون الإنسان شيئًا آخر سوى الفرج وسوى الظهر، ويقال: إن ذلك الشيء يستعمل الفرج في عمل والظهر في عمل آخر، فيكون المتلذذ والمتألم هو ذلك الشيء، إلا أنه تحصل تلك اللذة بواسطة ذلك العضو ويتألم بواسطة الضرب على هذا العضو.

الحجة السادسة عشرة: أني إذا تكلمت مع زيد وقلت له افعل كذا أو لا تفعل كذا، فالمخاطب بهذا الخطاب والمأمور والمنهي ليس هو جبهة زيد ولا حدقته ولا أنفه ولا فمه ولا شيئًا من أعضائه بعينه، فوجب أن يكون المأمور والمنهي والمخاطب شيئًا مغايرًا لهذه الأعضاء، وذلك يدل على أن ذلك المأمور والمنهي غير هذا الجسد. فإن قالوا: لم لا يجوز أن يقال:

المأمور والمنهي جملة هذا البدن لا شيء من أعضائه وأبعاضه؟ قلنا بوجه التكليف على الجملة: إنما يصح لو كانت الجملة فاهمة عالمة فنقول: لو كانت الجملة فاهمة عالمة فإما أن يقوم بمجموع البدن علم واحد أو يقوم بكل واحد من أجزاء البدن علم على حدة، والأول يقتضي قيام العرض بالمحال الكثيرة وهو محال، والثاني يقتضي أن يكون كل واحد من أجزاء البدن عالمًا فاهمًا مدركًا على سبيل الاستقلال، وقد بينا أن العلم الضروري حاصل بأن الجزء المعين من البدن ليس عالمًا فاهمًا مدركًا بالاستقلال، فسقط هذا السؤال.

الحجة السابعة عشرة: أن الإنسان يجب أن يكون عالمًا، والعلم لا يحصل إلا في القلب، فيلزم أن يكون الإنسان عبارة عن الشيء الموجود في القلب، وإذا ثبت هذا بطل القول بأن الإنسان عبارة عن هذا الهيكل، وهذه الجثة إنما قلنا: إن الإنسان يجب أن يكون عالمًا لأنه فاعل مختار، والفاعل المختار هو الذي يفعل بواسطة القلب والاختيار، وهما مشروطان بالعلم لأن ما لا يكون مقصودًا امتنع القصد إلى تكوينه، فثبت أن الإنسان يجب أن يكون عالمًا بالأشياء، وإنما قلنا: إن العلم لا يوجد إلا في القلب للبرهان والقرآن: أما البرهان فلأنا نجد العلم الضروري بأنا نجد علومنا من ناحية القلب، وأما القرآن فآيات نحو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]وقوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]وإذا ثبت أن الإنسان يجب أن يكون عالمًا، وثبت أن العلم ليس إلا في القلب ثبت أن الإنسان شيء في القلب، أو شيء له تعلق بالقلب، وعلى التقديرين فإنه يبطل قول من يقول: الإنسان هو هذا الجسد وهذا الهيكل.

وأما البحث الثاني: وهو بيان أن الإنسان غير محسوس وهو أن حقيقة الإنسان شيء مغاير للسطح واللون، وكل ما هو مرئي فهو إما السطح وإما اللون، وهما مقدمتان قطعيتان وينتج هذا القياس أن حقيقة الإنسان غير مرئية ولا محسوسة، وهذا برهان يقيني.

المسألة الرابعة: في شرح مذاهب القائلين بأن الإنسان جسم موجود في داخل البدن، اعلم أن الأجسام الموجودة في هذا العالم السفلي إما أن تكون أحد العناصر الأربعة أو ما يكون متولدًا من امتزاجها، ويمتنع أن يحصل في البدن الإنساني جسم عنصري خالص، بل لا بد وأن يكون الحاصل جسمًا متولدًا من امتزاجات هذه الأربعة فنقول: أما الجسم الذي تغلب عليه الأرضية فهو الأعضاء الصلبة الكثيفة، كالعظم والغضروف والعصب والوتر والرباط والشحم واللحم والجلد، ولم يقل أحد من العقلاء الذين قالوا: (الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد) بأنه عبارة عن عضو معين من هذه الأعضاء، وذلك لأن هذه الأعضاء كثيفة ثقيلة ظلمانية، فلا جرم لم يقل أحد من العقلاء بأن الإنسان عبارة عن أحد هذه الأعضاء، وأما الجسم الذي تغلب عليه المائية فهو الأخلاط الأربعة ولم يقل أحد في شيء منها إنه الإنسان إلا في الدم فإن منهم من قال: إنه هو الروح بدليل أنه إذا خرج لزم الموت، أما الجسم الذي تغلب عليه الهوائية والنارية فهو الأرواح

وهي نوعان: أحدهما: أجسام هوائية مخلوطة بالحرارة الغريزية متولدة إما في القلب أو في الدماغ وقالوا: إنها هي الروح وإنها هي الإنسان. ثم اختلفوا فمنهم من يقول: الإنسان هو الروح الذي في القلب، ومنهم من يقول: إنه جزء لا يتجزأ في الدماغ، ومنهم من يقول: الروح عبارة عن أجزاء نارية مختلطة بهذه الأرواح القلبية والدماغية، وتلك الأجزاء النارية وهي المسماة بالحرارة الغريزية وهي الإنسان، ومن الناس من يقول: الروح عبارة عن أجسام نورانية سماوية لطيفة، والجوهر على طبيعة ضوء الشمس، وهي لا تقبل التحلل والتبدل ولا التفرق ولا التمزق، فإذا تكَوَّن البدن وتم استعداده وهو المراد بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ [ص: ٧٢] نفذت تلك الأجسام الشريفة السماوية الإلهية في داخل أعضاء البدن نفاذ النار في الفحم ونفاذ دهن السمسم في السمسم، ونفاذ ماء الورد في جسم الورد، ونفاذ تلك الأجسام السماوية في جوهر البدن هو المراد بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢] ثم إن البدن ما دام يبقى سليمًا قابلاً لنفاذ تلك الأجسام الشريفة بقي حيًّا، فإذا تولدت في البدن أخلاط غليظة منعت تلك الأخلاط الغليظة من سريان تلك الأجسام الشريفة فيها، فانفصلت عن هذا البدن، فحينئذٍ يعرض الموت، فهذا مذهب قوي شريف يجب التأمل فيه؛ فإنه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت، فهذا تفصيل مذاهب القائلين بأن الإنسان جسم موجود في داخل البدن.

وأما أن الإنسان جسم موجود خارج البدن فلا أعرف أحدًا ذهب إلى هذا القول.

أما القسم الثاني: وهو أن يقال: الإنسان عرض حالٌّ في البدن، فهذا لا يقول به عاقل لأن من المعلوم بالضرورة أن الإنسان جوهر لأنه موصوف بالعلم والقدرة والتدبر والتصرف، ومن كان كذلك كان جوهرًا والجوهر لا يكون عرضًا، بل الذي يمكن أن يقول به كل عاقل هو أن الإنسان يشترط أن يكون موصوفًا بأعراض مخصوصة، وعلى هذا التقدير فللناس فيه أقوال:

القول الأول: أن العناصر الأربعة إذا امتزجت وانكسرت سورة كل واحدة منها بسورة الآخر حصلت كيفية معتدلة هي المزاج، ومراتب هذا المزاج غير متناهية فبعضها هي الإنسانية وبعضها هي الفرسية، فالإنسانية عبارة عن أجسام موصوفة متولدة عن امتزاجات أجزاء العناصر بمقدار مخصوص، هذا قول جمهور الأطباء ومنكري بقاء النفس وقول أبي الحسين البصري من المعتزلة.

والقول الثاني: أن الإنسان عبارة عن أجسام مخصوصة بشرط كونها موصوفة بصفة الحياة والعلم والقدرة والحياة عرض قائم بالجسم، وهؤلاء أنكروا الروح والنفس وقالوا ليس ها هنا إلا أجسام مؤتلفة موصوفة بهذه الأعراض المخصوصة وهي الحياة والعلم والقدرة، وهذا مذهب أكثر شيوخ المعتزلة.

والقول الثالث: أن الإنسان عبارة عن أجسام موصوفة بالحياة والعلم والقدرة، والإنسان إنما يمتاز عن سائر الحيوانات بشكل جسده وهيئة أعضائه وأجزائه، إلا أن هذا مشكل فإن الملائكة

قد يتشبهون بصور الناس فها هنا صورة الإنسان حاصلة مع عدم الإنسانية وفي صورة المسخ معنى الإنسانية حاصل مع أن هذه الصورة غير حاصلة، فقد بطل اعتبار هذا الشكل في حصول معنى الإنسانية طردًا وعكسًا.

أما القسم الثالث: وهو أن يقال: الإنسان موجود ليس بجسم ولا جسمانية. فهو قول أكثر الإلهيين من الفلاسفة القائلين ببقاء النفس المثبتين للنفس معادًا روحانيًا وثوابًا وعقابًا وحسابًا روحانيًا وذهب إليه جماعة عظيمة من علماء المسلمين مثل الشيخ أبي القاسم الراغب الأصفهاني والشيخ أبي حامد الغزالي رحمهما الله، ومن قدماء المعتزلة معمر بن عباد السلمي، ومن الشيعة الملقب عندهم بالشيخ المفيد، ومن الكرامية جماعة. واعلم أن القائلين بإثبات النفس فريقان: **الأول**: وهم المحققون منهم من قال: الإنسان عبارة عن هذا الجوهر المخصوص وهذا البدن، وعلى هذا التقدير فالإنسان غير موجود في داخل العالم ولا في خارجه وغير متصل في داخل العالم ولا في خارجه وغير متصل بالعالم ولا منفصل عنه، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف كما أن إله العالم لا تعلق له بالعالم إلا على سبيل التصرف والتدبير. **والفريق الثاني**: الذين قالوا: النفس إذا تعلقت بالبدن اتحدت بالبدن فصارت النفس عين البدن، والبدن عين النفس ومجموعهما عند الاتحاد هو الإنسان، فإذا جاء وقت الموت بطل هذا الاتحاد وبقيت النفس وفسد البدن. فهذه جملة مذاهب الناس في الإنسان، وكان ثابت بن قرة يثبت النفس ويقول: إنها متعلقة بأجسام سماوية نورانية لطيفة غير قابلة للكون والفساد والتفرق والتمزق وأن تلك الأجسام تكون سارية في البدن، وما دام يبقى ذلك السريان بقيت النفس مدبرة للبدن، فإذا انفصلت تلك الأجسام اللطيفة عن جوهر البدن انقطع تعلق النفس عن البدن.

المسألة الخامسة: في دلائل مثبتي النفس من ناحية العقل، احتج القوم بوجوه كثيرة بعضها قوي وبعضها ضعيف، والوجوه القوية بعضها قطعية وبعضها إقناعية فلنذكر الوجوه القطعية:

الحجة الأولى: لا شك أن الإنسان جوهر، فإما أن يكون جوهرًا متحيزًا أو غير متحيز، والأول باطل فتعين الثاني، والذي يدل على أنه يمتنع أن يكون جوهرًا متحيزًا أنه لو كان كذلك لكان كونه متحيزًا غير تلك الذات، ولو كان كذلك لكان كل ما علم الإنسان ذاته المخصوصة وجب أن يعلم كونه متحيزًا بمقدار مخصوص، وليس الأمر كذلك، فوجب أن لا يكون الإنسان جوهرًا متحيزًا: **فنفتقر في تقرير هذا الدليل إلى مقدمات ثلاثة:**

المقدمة الأولى: لو كان الإنسان جوهرًا متحيزًا لكان كونه متحيزًا عين ذاته المخصوصة، والدليل عليه أنه لو كان تحيزه صفة قائمة لكان ذلك المحل من حيث هو مع قطع النظر عن هذه الصفة إما أن يكون متحيزًا أو لا يكون، والقسمان باطلان، فبطل القول بكون التحيز صفة قائمة بالمحل، إنما قلنا: إنه يمتنع أن يكون محل التحيز لأنه يلزم كون الشيء الواحد متحيزًا مرتين، ولأنه يلزم اجتماع المثلين، ولأنه ليس جعل أحدهما ذاتًا والآخر صفة أَوْلى من العكس، ولأن

التحيز الثاني إن كان عين الذات فهو المقصود، وإن كان صفة لزم التسلسل وهو محال. وإنما قلنا: إنه يمتنع أن يكون محل التحيز غير متحيز لأن حقيقة التحيز هو الذهاب في الجهات والامتداد فيها، والشيء الذي لا يكون متحيزًا لم يكن له اختصاص بالجهات، وحصوله فيها ليس بمتحيز محال، فثبت بهذا أنه لو كان الإنسان جوهرًا متحيزًا لكان تحيزه غير ذاته المخصوصة.

المقدمة الثانية: لو كان تحيز ذاته المخصوصة عين ذاته المخصوصة لكان متى عرف ذاته المخصوصة فقد عرف كونها متحيزة، والدليل عليه أنه لو صارت ذاته المخصوصة معلومة وصار تحيزه مجهولاً، لزم اجتماع النفي والإثبات في الشيء الواحد، وهو محال.

المقدمة الثالثة: أنا قد نعرف ذاتنا حال كوننا جاهلين بالتحيز والامتداد في الجهات الثلاثة، وذلك ظاهر عند الاختبار والامتحان، فإن الإنسان حال كونه مشتغلاً بشيء من المهمات مثل أن يقول لعبده لمَ فعلت كذا ولمَ خالفت أمري وإني أبالغ في تأديبك وضربك. فعندما يقول: لمَ خالفت أمري يكون عالمًا بذاته المخصوصة، إذ لو لم يعلم ذاته المخصوصة لامتنع أن يعلم أن ذلك الإنسان خالفه، ولامتنع أن يخبر عن نفسه بأنه على عزم أن يؤدبه ويضربه، ففي هذه الحالة يعلم ذاته المخصوصة مع أنه في تلك الحالة لا يخطر بباله حقيقة التحيز والامتداد في الجهات والحصول في الحيز، فثبت بما ذكرنا أنه لو كان ذات الإنسان جوهرًا متحيزًا لكان تحيزه عين ذاته المخصوصة، ولو كان كذلك لكان كل ما علم ذاته المخصوصة فقد علم التحيز وثبت أنه ليس كذلك فيلزم أن يقال: ذات الإنسان ليس جوهرًا متحيزًا، وذلك هو المطلوب، فإن قالوا: هذا معارض بأنه لو كان جوهرًا مجردًا لكان كل من عرف ذات نفسه عرف كونه جوهرًا مجردًا وليس الأمر كذلك. قلنا: الفرق ظاهر لأن كونه مجردًا معناه أنه ليس بمتحيز ولا حالاً في المتحيز وهذا السلب ليس عين تلك الذات المخصوصة لأن السلب ليس عين الثبوت، وإذا كان كذلك لم يبعد أن تكون تلك الذات المخصوصة معلومة وأن لا يكون ذلك السلب معلومًا، بخلاف كونه متحيزًا فإنا قد دللنا على أن تقدير كون الإنسان جوهرًا متحيزًا يكون تحيزه عين ذاته المخصوصة، وعلى هذا التقدير يمتنع أن تكون ذاته معلومة ويكون تحيزه مجهولاً فظهر الفرق.

الحجة الثانية: النفس واحدة ومتى كانت واحدة وجب أن تكون مغايرة لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه، فهذه الحجة مبنية على مقدمات: المقدمة الأولى: هي قولنا: النفس واحدة ولنا ها هنا مقامان تارة ندعي العلم البديهي فيه وأخرى نقيم البرهان على صحته. أما المقام الأول وهو ادعاء البديهية فنقول: المراد من النفس هو الشيء الذي يشير إليه كل أحد بقوله (أنا) وكل أحد يعلم بالضرورة أنه إذا أشار إلى ذاته المخصوصة بقوله (أنا) كان ذلك المشار إليه واحدًا غير متعدد فإن قيل: لمَ لا يجوز أن يكون المشار إليه لكل أحد بقوله (أنا) وإن كان واحدًا إلا أن ذلك الواحد يكون مركبًا من أشياء كثيرة؟ قلنا: إنه لا حاجة لنا في هذا المقام إلى دفع هذه

السؤال بل نقول: المشار إليه بقول (أنا) معلوم بالضرورة أنه شيء واحد فأما أن ذلك الواحد هل هو واحد مركب من أشياء كثيرة أو هو واحد في نفسه واحد في حقيقته؟ فهذا لا حاجة إليه في هذا المقام. أما المقام الثاني وهو مقام الاستدلال فالذي يدل على وحدة النفس وجوه:

الحجة الأولى: أن الغضب حالة نفسانية تحدث عند إرادة دفع المنافر. والشهوة حالة نفسانية تحدث عند طلب الملايم مشروطًا بالشعور بكون الشيء ملايمًا ومنافرًا، فالقوة الغضبية التي هي قوة دافعة للمنافر إن لم يكن لها شعور بكونه منافرًا امتنع انبعاثها لدفع ذلك المنافر على سبيل القصد والاختيار لأن القصد إلى الجذب تارة وإلى الدفع أخرى مشروط بالشعور بالشيء، فالشيء المحكوم عليه بكونه دافعًا للمنافر على سبيل الاختيار لا بد وأن يكون له شعور بكونه منافرًا، فالذي يغضب لا بد وأن يكون هو بعينه مدركًا، فثبت بهذا البرهان اليقيني مباينة حاصلة في ذوات متباينة.

الحجة الثانية: أنا إذا فرضنا جوهرين مستقلين يكون كل واحد منهما مستقلاً بفعله الخاص، امتنع أن يصير اشتغال أحدهما بفعله الخاص مانعًا للآخر من اشتغاله بفعله الخاص به. وإذا ثبت هذا فنقول: لو كان محل الإدراك والفكر جوهرًا ومحل الغضب جوهرًا آخر ومحل الشهوة جوهرًا ثالثًا، وجب أن لا يكون اشتغال القوة الغضبية بفعلها مانعًا للقوة الشهوانية من الاشتغال بفعلها ولا بالعكس لكن الثاني باطل، فإن اشتغال الإنسان بالشهوة وانصبابه إليها يمنعه من الاشتغال بالغضب وانصبابه إليه وبالعكس، فعلمنا أن هذه الأمور الثلاثة ليست مبادئ مستقلة بل هي صفات مختلفة بجوهر واحد، فلا جرم كان اشتغال ذلك الجوهر بأحد هذه الأفعال عائقًا له عن الاشتغال بالفعل الآخر.

الحجة الثالثة: أنا إذا أدركنا أشياء فقد يكون الإدراك سببًا لحصول الشهوة وقد يصير سببًا لحصول الغضب، فلو كان الجوهر المدرك مغايرًا للذي يغضب والذي يشتهي، فحين أدرك الجوهر المدرك لم يحصل عند الجوهر المشتهى من ذلك الإدراك أثر ولا خبر، فوجب أن لا يترتب على ذلك الإدراك لا حصول الشهوة ولا حصول الغضب، وحيث حصل هذا الترتيب والاستلزام علمنا أن صاحب الإدراك بعينه هو صاحب الشهوة بعينها وصاحب الغضب بعينه.

الحجة الرابعة: أن حقيقة الحيوان أنه جسم ذو نفس حساسة متحركة بالإرادة، فالنفس لا يمكنها أن تتحرك بالإرادة إلا عند حصول الداعي، ولا معنى للداعي إلا الشعور بخير يرغب في جذبه أو بشر يرغب في دفعه وهذا يقتضي أن يكون المتحرك بالإرادة هو بعينه مدركًا للخير والشر والملذ والمؤذي والنافع والضار فثبت بما ذكرنا أن النفس الإنسانية شيء واحد، وثبت أن ذلك الشيء هو المبصر والسامع والشامّ والذائق واللامس والمتخيل والمتفكر والمتذكر والمشتهي والغاضب، وهو الموصوف بجميع الإدراكات وهو الموصوف بجميع الأفعال الاختيارية والحركات الإرادية. وأما المقدمة الثانية: في بيان أنه لما كانت النفس شيئًا واحدًا

وجب أن لا تكون النفس في هذا البدن ولا شيئًا من أجزائه فنقول: أما بيان أنه متى كان الأمر كذلك امتنع كون النفس عبارة عن جملة هذا البدن وكذا القوة السامعة وكذا سائر القوى كالتخيل والتذكر والتفكر والعلم بأن هذه القوى غير سارية في جملة أجزاء البدن علم بديهي، بل هو من أقوى العلوم البديهية، وأما بيان أنه يمتنع أن تكون النفس جزءًا من أجزاء هذا البدن فإنا نعلم بالضرورة أنه ليس في البدن جزء واحد وهو بعينه موصوف بالإبصار والسماع والفكر والذكر، بل الذي يتبادر إلى الخاطر أن الإبصار مخصوص بالعين لا بسائر الأعضاء، والسماع مخصوص بالأذن لا بسائر الأعضاء والصوت مخصوص بالحلق لا بسائر الأعضاء، وكذلك القول في سائر الإدراكات وسائر الأفعال، فأما أن يقال: إنه حصل في البدن جزء واحد موصوف بكل هذه الإدراكات وبكل هذه الأفعال، فالعلم الضروري حاصل بأنه ليس الأمر كذلك، فثبت بما ذكرنا أن النفس الإنسانية شيء واحد موصوف بجملة هذه الإدراكات وبجملة هذه الأفعال، وثبت بالبديهية أن جملة البدن ليست كذلك، وثبت أيضًا أن شيئًا من أجزاء البدن ليس كذلك فحينئذٍ يحصل اليقين بأن النفس شيء مغاير لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه وهو المطلوب.

ولنقرر هذا البرهان بعبارة أخرى فنقول: إنا نعلم بالضرورة أنا إذا أبصرنا شيئًا عرفناه وإذا عرفناه اشتهيناه وإذا اشتهيناه حركنا أبداننا إلى القرب منه، فوجب القطع بأن الذي أبصر هو الذي عرف، وأن الذي عرف هو الذي اشتهى، وأن الذي اشتهى هو الذي حرك إلى القرب منه، فيلزم القطع بأن المبصر لذلك الشيء والعارف به والمشتهي والمتحرك إلى القرب منه شيء واحد، إذ لو كان المبصر شيئًا والعارف شيئًا ثانيًا والمشتهي شيئًا ثالثًا والمتحرك شيئًا رابعًا، لكان الذي أبصر لم يعرف، والذي عرف لم يشته والذي اشتهى لم يتحرك، ومن المعلوم أن كون الشيء مبصرًا لشيء لا يقتضي صيرورة شيء آخر عالمًا بذلك الشيء وكذلك القول في سائر المراتب، وأيضًا فإنا نعلم بالضرورة أن الرائي للمرئيات لما كان رآها فقد عرفها ولما عرفها فقد اشتهاها ولما اشتهاها طلبها وحرك الأعضاء إلى القرب منها، ونعلم أيضًا بالضرورة أن الموصوف بهذه الرؤية وبهذا العلم وبهذه الشهوة وبهذا التحرك هو لا غيره، وأيضًا العقلاء قالوا: الحيوان لا بد أن يكون حساسًا متحركًا بالإرادة فإنه إن لم يحس بشيء لم يشعر بكونه ملائمًا أو بكونه منافرًا، وإذا لم يشعر بذلك امتنع كونه مريدًا للجذب أو الدفع، فثبت أن الشيء الذي يكون متحركًا بالإرادة فإنه بعينه يجب أن يكون حساسًا، فثبت أن المدرك لجميع المدركات يدرك بجميع أصناف الإدراكات وأن المباشر لجميع التحريكات الاختيارية شيء واحد، وأيضًا فلأنا إذا تكلمنا بكلام نقصد منه تفهيم الغير (عَقَلْنَا) معاني تلك الكلمات ثم لما عقلناها أردنا تعريف غيرنا تلك المعاني، ولما حصلت هذه الإرادة في قلوبنا حاولنا إدخال تلك الحروف والأصوات في الوجود لنتوسل بها إلى تعريف غيرنا تلك المعاني.

إذا ثبت هذا فنقول: إن كان محل العلم والإرادة ومحل تلك الحروف والأصوات جسمًا واحدًا

لزم أن يقال: إن محل العلوم والإرادات هو الحنجرة واللهاة واللسان، ومعلوم أنه ليس كذلك، وإن قلنا محل العلوم والإرادات هو القلب لزم أيضًا أن يكون محل الصوت هو القلب وذلك أيضًا باطل بالضرورة، وإن قلنا: محل الكلام هو الحنجرة واللهاة واللسان، ومحل العلوم والإرادات هو القلب، ومحل القدرة هو الأعصاب والأوتار والعضلات، كنا قد وزعنا هذه الأمور على هذه الأعضاء المختلفة، لكنا أبطلنا ذلك وبينا أن المدرك لجميع المدركات والمحرك لجميع الأعضاء بكل أنواع التحريكات يجب أن يكون شيئًا واحدًا، فلم يبق إلا أن يقال في الإدراك والقدرة على التحريك (أَنَّهُ) شيء سوى هذا البدن وسوى أجزاء هذا البدن وأن هذه الأعضاء جارية مجرى الآلات والأدوات، فكما أن الإنسان يعقل أفعالاً مختلفة بواسطة آلات مختلفة، فكذلك النفس تبصر بالعين وتسمع بالأذن وتتفكر بالدماغ وتعقل بالقلب، فهذه الأعضاء آلات النفس وأدوات لها، والنفس جوهر مغاير لها مفارق عنها بالذات متعلق بها تعلق التصرف والتدبير وهذا البرهان برهان شريف يقيني في ثبوت هذا المطلوب، والله أعلم.

المقدمة الثالثة: لو كان الإنسان عبارة عن هذا الجسد لكان إما أن يقوم بكل واحد من الأجزاء حياة وعلم وقدرة على حدة، وإما أن يقوم بمجموع الأجزاء حياة وعلم وقدرة، والقسمان باطلان، فبطل القول بكون الإنسان عبارة عن هذا الجسد. وأما بطلان القسم الأول فلأنه يقتضي كون كل واحد من أجزاء الجسد حيًا عالمًا قادرًا على سبيل الاستقلال، فوجب أن لا يكون الإنسان الواحد حيوانًا واحدًا بل أحياء عالمين قادرين وحينئذٍ لا يبقى فرق بين الإنسان الواحد وبين أشخاص كثيرين من الناس وربط بعضهم بالبعض بالتسلسل، لكنا نعلم بالضرورة فساد هذا الكلام لأني أجد ذاتي ذاتًا واحدة لا حيوانات كثيرين، وأيضًا فبتقدير أن يكون كل واحد من أجزاء هذا الجسد حيوانًا واحدًا على حدة فحينئذٍ لا يكون لكل واحد منهما خبر عن حال صاحبه فلا يمتنع أن يريد هذا أن يتحرك إلى هذا الجانب ويريد الجزء الآن أن يتحرك إلى الجانب الآخر، فحينئذٍ يقع التدافع بين أجزاء بدن الإنسان الواحد كما يقع بين شخصين. وفساد ذلك معلوم بالبديهة. وأما بطلان القسم الثاني فلأنه يقتضي قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة، وذلك معلوم البطلان بالضرورة، ولأنه لو جاز حلول الصفة الواحدة في المحال الكثيرة لم يبعد أيضًا حصول الجسم الواحد في الأحياز الكثيرة، ولأن بتقدير أن تحصل الصفة الواحدة في المحال المتعددة فحينئذٍ يكون كل واحد من تلك الأجزاء حيًا عاقلاً عالمًا فيتجرد الأمر إلى كون هذه الجثة الواحدة أناسًا كثيرين، ولما ظهر فساد القسمين ثبت أن الإنسان ليس هو هذه الجثة.

فإن قالوا: لِمَ لا يجوز أن تقوم الحياة الواحدة بالجزء الواحد، ثم إن تلك الحياة تقتضي صيرورة جملة الأجزاء أحياء؟ قلنا: هذا باطل لأنه لا معنى للحياة إلا الحيية، ولا معنى للعلم إلا العالمية، وبتقدير أن نساعد على أن الحياة معنى يوجب الحيية والعلم معنى يوجب العالمية إلا أنا نقول: إن حصل في مجموع جثة مجموع حياة واحدة وعالمية واحدة فقد حصلت الصفة

الواحدة في المحال الكثيرة وهو محال، وإن حصل في كل جزء وجثة حياة على حدة وعالمية على حدة عاد ما ذكرنا من كون الإنسان الواحد أناسًا كثيرين وهو محال.

المقدمة الرابعة: أنا لما تأملنا في أحوال النفس رأينا أحوالها بالضد من أحوال الجسم، وذلك يدل على أن النفس ليست جسمًا. **وتقرير هذه المنافاة من وجوه. الأول**: أن كل جسم حصلت فيه صورة فإنه لا يقبل صورة أخرى من جنس الصورة الأولى إلا بعد زوال الصورة الأولى زوالاً تامًا، مثاله: أن الشمع إذا حصل فيه شكل التثليث امتنع أن يحصل فيه شكل التربيع والتدوير إلا بعد زوال الشكل الأول عنه، نعم إنا وجدنا الحال في تصور النفس بصور المعقولات بالضد من ذلك، فإن النفس التي لم تقبل صورة عقلية ألبتة يبعد قبولها شيئًا من الصور العقلية فإذا قبلت صورة واحدة صار قبولها للصورة الثانية أسهل، ثم إن النفس لا تزال تقبل صورة بعد صورة من غير أن تضعف ألبتة، بل كلما كان قبولها للصور أكثر صار قبولها للصور الآتية بعد ذلك أسهل وأسرع، ولهذا السبب يزداد الإنسان فهمًا وإدراكًا كلما ازداد تخرجًا وارتباطًا في العلوم، فثبت أن قبول النفس للصور العقلية على خلاف قبول الجسم للصورة وذلك يوهم أن النفس ليست بجسم. **والثاني**: أن المواظبة على الأفكار الدقيقة لها أثر في النفس وأثر في البدن: أما أثرها في النفس فهو تأثيرها في إخراج النفس من القوة إلى الفعل في التعقلات والإدراكات، وكلما كانت الأفكار أكثر كان حصول هذه الأحوال أكمل وذلك غاية كمالها ونهاية شرفها وجلالتها، وأما أثرها في البدن فهو أنها توجب استيلاء اليبس على البدن واستيلاء الذبول عليه، وهذه الحالة لو استمرت لانتقلت إلى الماليخوليا وسوق الموت، فثبت بما ذكرنا أن هذه الأفكار توجب حياة النفس وشرفها وتوجب نقصان البدن وموته، فلو كانت النفس هي البدن لصار الشيء الواحد سببًا لكماله ونقصانه معًا ولحياته وموته معًا، وأنه محال. **والثالث**: أنا إذا شاهدنا أنه ربما كان بدن الإنسان ضعيفًا نحيفًا، فإذا لاح له نور من الأنوار القدسية وتجلى له سر من أسرار عالم الغيب، حصل لذلك الإنسان جراءة عظيمة وسلطنة قوية، ولم يعبأ بحضور أكابر السلاطين ولم يقم لهم وزنًا، ولولا أن النفس شيء سوى البدن لما كان الأمر كذلك. **الرابع**: أن أصحاب الرياضات والمجاهدات كلما أمعنوا في قهر القوى البدنية وتجويع الجسد قويت قواهم الروحانية وأشرقت أسرارهم بالمعارف الإلهية، وكلما أمعن الإنسان في الأكل والشرب وقضاء الشهوة الجسدانية صار كالبهيمة وبقي محرومًا عن آثار النطق والعقل والمعرفة، ولولا أن النفس غير البدن لما كان الأمر كذلك. **الخامس**: أنا نرى أن النفس تفعل أفاعيلها بآلات بدنية فإنها تبصر بالعين وتسمع بالأذن وتأخذ باليد وتمشي بالرجل، أما إذا آل الأمر إلى العقل والإدراك فإنها مستقلة بذاتها في هذا الفعل من غير إعانة شيء من الآلات، ولذلك فإن الإنسان لا يمكنه أن يبصر شيئًا إذا أغمض عينيه وأن لا يسمع صوتًا إذا سد أذنيه، كما لا يمكنه ألبتة أن يزيل عن قلبه العلم بما كان عالمًا به، فعَلِمنا أن النفس غنية بذاتها في العلوم والمعارف عن شيء من الآلات البدنية، فهذه الوجوه

الخمسة أمارات قوية في أن النفس ليست بجسم، وفي المسألة الأولى كثير من دلائل المتقدمين ذكرناها في كتبنا الحكمية فلا فائدة في الإعادة.

المسألة السادسة: في إثبات أن النفس ليست بجسم من الدلائل السمعية:

الحجة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] ومعلوم أن أحدًا من العقلاء لا ينسى هذا الهيكل المشاهد، فدل ذلك على أن النفس التي ينساها الإنسان عند فرط الجهل شيء آخر غير هذا البدن.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] وهذا صريح أن النفس غير البدن وقد استقصينا في تفسير هذه فليرجع إليه.

الحجة الثالثة: أنه تعالى ذكر مراتب الخلقة الجسمانية فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلى قوله: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤] ولا شك أن جميع هذه المراتب اختلافات واقعة في الأحوال الجسمانية، ثم إنه تعالى لما أراد أن يذكر نفخ الروح قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وهذا تصريح بأن ما يتعلق بالروح جنس مغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعة في الأحوال الجسمانية، وذلك يدل على أن الروح شيء مغاير للبدن، فإن قالوا: هذه الآية حجة عليكم لأنه تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] وكلمة (مِن) للتبعيض، وهذا يدل على أن الإنسان بعض من أبعاض الطين قلنا: كلمة (مِن) أصلها لابتداء الغاية كقولك: (خرجت من البصرة إلى الكوفة) فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] يقتضي أن يكون ابتداء تخليق الإنسان حاصلاً من هذه السلالة، ونحن نقول بموجبه لأنه تعالى يسوي المزاج أولاً ثم ينفخ فيه الروح، فيكون ابتداء تخليقه من السلالة.

الحجة الرابعة: قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] مَيَّزَ تعالى بين البشرية وبين نفخ الروح، فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء وتعديل المزاج والأشباح، فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الأعضاء ثم أضاف الروح إلى نفسه بقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] دل ذلك على أن جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨] وهذه الآية صريحة في وجود شيء موصوف بالإدراك والتحريك حقًا لأن الإلهام عبارة عن الإدراك، وأما الفجور والتقوى فهو فعل، وهذه الآية صريحة في أن الإنسان شيء واحد، وهو موصوف أيضًا بالإدراك والتحريك وموصوف أيضًا بفعل الفجور تارة وفعل التقوى تارة أخرى، ومعلوم أن جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين، فلا بد من إثبات جوهر آخر يكون موصوفًا بكل هذه الأمور.

الحجة السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا

بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] فهذا تصريح بأن الإنسان شيء واحد وذلك الشيء هو المبتلى بالتكاليف الإلهية والأمور الربانية، وهو الموصوف بالسمع والبصر، ومجموع البدن ليس كذلك وليس عضوًا من أعضاء البدن كذلك فالنفس شيء مغاير لجملة البدن ومغاير لأجزاء البدن وهو موصوف بكل هذه الصفات. واعلم أن الأحاديث الواردة في صفة الأرواح قبل تعلقها بالأجساد وبعد انفصالها من الأجساد -كثيرة، وكل ذلك يدل على أن النفس شيء غير هذا الجسد، والعجب ممن يقرأ هذه الآيات الكثيرة ويروي هذه الأخبار الكثيرة ثم يقول: توفي رسول الله ﷺ وما كان يعرف الروح وهذا من العجائب، والله أعلم.

المسألة السابعة: في دلالة الآية التي نحن في تفسيرها على صحة ما ذكرناه أن الروح لو كان جسمًا منتقلاً من حالة إلى حالة ومن صفة إلى صفة، لكان مساويًا للبدن في كونه متولدًا من أجسام اتصفت بصفات مخصوصة بعد أن كانت موصوفة بصفات أخرى، فإذا سئل رسول الله ﷺ عن الروح وجب أن يبين أنه جسم كان كذا ثم صار كذا حتى صار روحًا، مثل ما ذكر في كيفية تولد البدن أنه كان نطفة ثم علقة ثم مضغة، فلما لم يقل ذلك بل قال إنه: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ بمعنى أنه لا يحدث ولا يدخل في الوجود إلا لأجل أن الله تعالى قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] دل ذلك على أنه جوهر ليس من جنس الأجسام بل هو جوهر قدسي مجرد، واعلم أن أكثر العارفين المكاشفين من أصحاب الرياضات وأرباب المكاشفات والمشاهدات - مصرون على هذا القول جازمون بهذا المذهب، قال الواسطي: خلق الله الأرواح من بين الجمال والبهاء، فلولا أنه سترها لسجد لها كل كافر، وأما بيان أن تعلقه الأول بالقلب ثم بواسطته يصل تأثيره إلى جملة الأعضاء فقد شرحناه في تفسير قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] . **واحتج المنكرون بوجوه.**

الأول: لو كانت مساوية لذات الله في كونه ليس بجسم ولا عرض، لكانت مساوية له في تمام الماهية، وذلك محال.

الثاني: قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧- ٢٢] وهذا تصريح بأن الإنسان شيء مخلوق من النطفة، وأنه يموت ويدخل القبر ثم إنه تعالى يُخرجه من القبر، ولو لم يكن الإنسان عبارة عن هذه الجثة لم تكن الأحوال المذكورة في هذه الآية صحيحة.

الثالث: قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] وهذا يدل على أن الروح جسم لأن الأرزاق والفرح من صفات الأجسام. **الجواب عن الأول:** أن المساواة في أنه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز مساواة في صفة سلبية، والمساواة في الصفة السلبية لا توجب المماثلة، واعلم أن جماعة من الجهال يظنون أنه لما كان الروح موجودًا ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز وجب أن يكون مثلاً للإله أو جزءًا للإله، وذلك جهل فاحش وغلط قبيح،

وتحقيقه ما ذكرناه من أن المساواة في السلوب لو أوجبت المماثلة لوجب القول باستواء كل المختلفات، وأن كل ماهيتين مختلفتين فلا بد أن يشتركا في سلب كل ما عداهما، فلتكن هذه الدقيقة معلومة فإنها مغلطة عظيمة للجهال. **والجواب عن الثاني:** أنه لما كان الإنسان في العرف والظاهر عبارة عن هذه الجثة أطلق عليه اسم الإنسان في العرف. **والجواب عن الثالث:** أن الرزق المذكور في الآية محمول على ما يقوي حالهم ويكمل كمالهم وهو معرفة الله ومحبته، بل نقول: هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا لأن أبدانهم قد بليت تحت التراب، والله تعالى يقول: إن أرواحهم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش. وهذا يدل على أن الروح غير البدن.

وليكن هذا آخر كلامنا في هذا الباب ولنرجع إلى علم التفسير: ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وعلى قولنا قد ذكرنا فيه احتمالين، أما المفسرون فقالوا: إن النبي ﷺ لما قال لهم ذلك قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «بَلْ نَحْنُ وَأَنْتُمْ لَمْ نُؤْتَ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلًا» فقالوا: ما أعجب شأنك يا محمد ساعة تقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وساعة تقول هذا. فنزل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] إلى آخره وما ذكروه ليس بلازم لأن الشيء قد يكون قليلًا بالنسبة إلى شيء كثيرًا بالنسبة إلى شيء آخر، فالعلوم الحاصلة عند الناس قليلة جدًّا بالنسبة إلى علم الله وبالنسبة إلى حقائق الأشياء، ولكنها كثيرة بالنسبة إلى الشهوات الجسمانية واللذات الجسدانية.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بيَّن في الآية الأولى أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلاً بيَّن في هذه الآية أنه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل أيضًا لقدر عليه، وذلك بأن يمحو حفظه من القلوب وكتابته من الكتب، وهذا وإن كان أمرًا مخالفًا للعادة إلا أنه تعالى قادر عليه.

المسألة الثانية: احتج الكعبي بهذه الآية على أن القرآن مخلوق فقال: والذي يقدر على إزالته والذهاب به يستحيل أن يكون قديمًا بل يجب أن يكون محدثًا. وهذا الاستدلال بعيد لأن المراد بهذا الإذهاب إزالة العلم به عن القلوب وإزالة النقوش الدالة عليه عن المصحف، وذلك لا يوجب كون ذلك المعلوم المدلول محدثًا. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي لا تجد من تتوكل عليه في رد شيء منه. ثم قال: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك. أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى (ولكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به) وهذا امتنان من الله ببقاء القرآن على أنه تعالى منَّ على جميع العلماء بنوعين من المنة: أحدهما: تسهيل ذلك العلم عليه. الثاني: إبقاء حفظه عليه. وقوله: ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ فيه قولان: الأول: المراد أن فضله كان عليك كبيرًا بسبب إبقاء العلم والقرآن عليك. الثاني: المراد

أن فضله كان عليك كبيرًا بسبب أنه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود، فلما كان كذلك لا جرم أنعم عليك أيضًا بإبقاء العلم والقرآن عليك.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] بالغنا في بيان إعجاز القرآن، وللناس فيه قولان: منهم من قال: القرآن معجز في نفسه، ومنهم من قال: إنه ليس في نفسه معجزًا إلا أنه تعالى لما صرف دواعيهم عن الإتيان بمعارضته مع أن تلك الدواعي كانت قوية، كانت هذه الصرفة معجزة. والمختار عندنا في هذا الباب أن نقول: القرآن في نفسه إما أن يكون معجزًا أو لا يكون: فإن كان معجزًا فقد حصل المطلوب، وإن لم يكن معجزًا بل كانوا قادرين على الإتيان بمعارضته وكانت الدواعي متوفرة على الإتيان بهذه المعارضة وما كان لهم عنها صارف ومانع. وعلى هذا التقدير كان الإتيان بمعارضته واجبًا لازمًا، فعدم الإتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضًا للعادة، فيكون معجزًا، فهذا هو الطريق الذي نختاره في هذا الباب.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: هب أنه قد ظهر عجز الإنسان عن معارضته فكيف عرفتم عجز الجن عن معارضته؟ وأيضًا فلمَ لا يجوز أن يقال: إن هذا الكلام نظم الجن ألقوه على محمد ﷺ وخصوه به على سبيل السعي في إضلال الخلق فعلى هذا إنما تعرفون صدق محمد ﷺ إذا عرفتم أن محمدًا صادق في قوله أنه ليس من كلام الجن، بل هو من كلام الله تعالى فحينئذٍ يلزم الدور وليس لأحد أن يقول: كيف يعقل أن يكون هذا من قول الجن لأنا نقول: إن هذه الآية دلت على وقوع التحدي مع الجن، وإنما يحسن هذا التحدي لو كانوا فصحاء بلغاء، ومتى كان الأمر كذلك كان الاحتمال المذكور قائمًا. أجاب العلماء عن الأول بأن عجز البشر عن معارضته يكفي في إثبات كونه معجزًا. وعن الثاني أن ذلك لو وقع لوجب في حكمة الله أن يظهر ذلك التلبيس وحيث لم يظهر ذلك دل على عدمه، وعلى أنه تعالى قد أجاب عن هذا السؤال بالأجوبة الشافية الكافية في آخر سورة الشعراء في قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢] وقد شرحنا هذه الأجوبة هناك فلا فائدة في الإعادة.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: الآية دالة على أن القرآن مخلوق لأن التحدي بالقديم. وهذه المسألة قد ذكرناها أيضًا بالاستقصاء في سورة البقرة فلا فائدة في الإعادة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

وهذا الكلام يحتمل وجوهًا: أحدها: أنه وقع التحدي بكل القرآن كما في هذه الآية، ووقع التحدي أيضًا بعشر سور منه كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣] ووقع التحدي بالسورة الواحدة كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] ووقع التحدي بكلام من سورة واحدة كما في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] فقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه التحدي كما شرحناه، ثم إنهم مع ظهور عجزهم في جميع هذه المراتب بقوا مصرين على كفرهم. **وثانيها:** أن يكون المراد من قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أنا أخبرناهم بأن الذين بقوا مصرين على الكفر مثل قوم نوح وعاد وثمود، كيف ابتلاهم بأنواع البلاء وشرحنا هذه الطريقة مرارًا وأطوارًا، ثم إن هؤلاء الأقوام يعني أهل مكة لم ينتفعوا بهذا البيان بل بقوا مصرين على الكفر. **وثالثها:** أن يكون المراد أنه تعالى ذكر دلائل التوحيد ونفي الشركاء والأضداد في هذا القرآن مرارًا كثيرة، وذكر شبهات منكري النبوة والمعاد مرارًا وأطوارًا، وأجاب عنها ثم أردفها بذكر الدلائل القاطعة على صحة النبوة والمعاد، ثم إن هؤلاء الكفار لم ينتفعوا بسماعها بل بقوا مصرين على الشرك وإنكار النبوة، يريد (أبى) أكثر أهل مكة ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي جحودًا للحق، وذلك أنهم أنكروا ما لا حاجة إلى إظهاره، فإن قيل: كيف جاز: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ولا يجوز أن يقال: ضربت إلا زيدًا؟ قلنا: لفظ (أبى) يفيد النفي كأنه قيل: فلم يرضوا إلا كفورًا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن بالدليل كون القرآن معجزًا وظهر هذا المعجز على وفق دعوى محمد ﷺ فحينئذٍ تم الدليل على كونه نبيًا صادقًا لأنا نقول: إن محمدًا ادعى النبوة وظهر المعجزة على وفق دعواه وكل من كان كذلك فهو نبي صادق، فهذا يدل على أن محمدًا ﷺ صادق، وليس من شرط كونه نبيًا صادقًا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها؛ لأنا لو فتحنا هذا الباب للزم أن لا ينتهي الأمر فيه إلى مقطع، وكلما أتى الرسول بمعجز اقترحوا عليه معجزًا آخر،

ولا ينتهي الأمر فيه إلى حد ينقطع عنده عناد المعاندين وتغلب الجاهلين؛ لأنه تعالى حكى عن الكفار أنهم بعد أن ظهر كون القرآن معجزًا التمسوا من الرسول ﷺ ستة أنواع من المعجزات القاهرة كما حكى عن ابن عباس (أن رؤساء أهل مكة أرسلوا إلى الرسول ﷺ وهم جلوس عند الكعبة فأتاهم فقالوا: يا محمد إن أرض مكة ضيقة فسير جبالها لننتفع فيها وفجر لنا فيها ينبوعًا أي نهرًا وعيونًا نزرع فيها فقال: لا أقدر عليه. فقال قائل منهم: أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرًا. فقال: لا أقدر عليه، فقيل: أو يكون لك بيت من زخرف أي من ذهب فيغنيك عنا. فقال: لا أقدر عليه، فقيل له أما تستطيع أن تأتي قومك بما يسألونك فقال لا أستطيع، قالوا فإذا كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر فأسقِط السماء كما زعمت علينا كسفًا أي قطعًا بالعذاب. وقوله (كما زعمت) إشارة إلى قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾[الانفطار: ١] فقال عبد الله بن أمية المخزومي وأمه عمة رسول الله ﷺ: لا والذي يحلف به لا أومن بك حتى تشد سلمًا فتصعد فيه ونحن ننظر إليك فتأتي بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ثم بعد ذلك لا أدري أنؤمن بك أم لا![١] فهذا شرح هذه القصة كما رواها ابن عباس.

المسألة الثانية: اعلم أنهم اقترحوا على رسول الله ﷺ أنواعًا من المعجزات: **أولها**: قولهم: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي (تَفْجُر) بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة واختاره أبو حاتم قال: لأن الينبوع واحد. والباقون بالتشديد واختاره أبو عبيدة ولم يختلفوا في الثانية مشددة لأجل الأنهار، لأنها جمع، يقال: فجرت الماء فجرًا وفجرته تفجيرًا، فمن ثَقَّل أراد به كثرة الأشجار من الينبوع وهو وإن كان واحدًا فلكثرة الانفجار فيه يحسن أن يثقل كما تقول ضرب زيد إذا كثر الضرب منه فيكثر فعله وإن كان الفاعل واحدًا ومن خفف فلأن الينبوع واحد، وقوله ﴿يَنۢبُوعًا﴾ يعني: عينًا ينبع الماء منه، تقول نبع الماء ينبع نَبْعًا ونبوعًا ونَبْعًا ذكره الفراء، قال القوم: أزل عنا جبال مكة، وفجِّر لنا الينبوع ليسهل علينا أمر الزراعة والحراثة. **وثانيها**: قولهم: ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا﴾ والتقدير كأنهم قالوا: هب أنك لا تفجر هذه الأنهار لأجلنا ففجِّرها من أجلك. **وثالثها**: قولهم: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾. **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر (كسفًا) بفتح السين ها هنا وفي سائر القرآن بسكونها، وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم ها هنا، وفي الروم بفتح السين، وفي باقي القرآن بسكونها، وقرأ حفص في سائر القرآن بالفتح إلا في الروم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي في الروم بفتح السين، وفي سائر القرآن بسكون السين، قال الواحدي رحمه الله: ﴿كِسَفًا﴾، فيه وجهان

---

(١) رواه ابن إسحاق في (السيرة) (١/ ٦٨) قال: حدثني شيخ من أهل مكة قديم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس . . . به. وفي إسناده مجهول.

من القراءة سكون السين وفتحها، قال أبو زيد: يقال: كسفت الثوب أكسفه كسفًا إذا قطعته قطعًا. وقال الليث: الكسف، قطع العرقوب، والكسفة: القطعة، وقال الفراء: سمعت أعرابيًا يقول لبزاز: أعطني كسفة. يريد قطعة. فمن قرأ بسكون السين احتمل قوله وجوهًا، أحدها: قال الفراء أن يكون جمع كسفة مثل: دمنة ودمن وسدرة وسدر. وثانيها: قال أبو علي: إذا كان المصدر الكسف، فالكسف الشيء المقطوع كما تقول في الطحن والطبخ السقي، ويؤكد هذا قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا﴾ [الطور: ٤٤]. وثالثها: قال الزجاج: من قرأ: (كِسفًا) كأنه قال: أو يسقطها طبقًا علينا واشتقاقه من كسفت الشيء إذا غطيته، وأما فتح السين فهو جمع كسفة مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر، وهو نصب على الحال في القراءتين جميعًا كأنه قيل: أو تسقط السماء علينا مقطعة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿كَمَا زَعَمۡتَ﴾ فيه وجوه: الأول: قال عكرمة: كما زعمت يا محمد أنك نبي فأسقط السماء علينا. والثاني: قال آخرون: كما زعمت أن ربك إن شاء فعل. الثالث: يمكن أن يكون المراد ما ذكره الله تعالى في هذه السورة في قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾ [الإسراء: ٦٨] فقيل: اجعل السماء قطعًا متفرقة كالحاصب وأسقطها علينا. ورابعها: قولهم: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ وفي لفظ القبيل وجوه: الأول: القبيل بمعنى المقابل كالعشير بمعنى المعاشر، وهذا القول منهم يدل على جهلهم حيث لم يعلموا أنه لا يجوز عليه المقابلة، ويقرب منه قوله: ﴿وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا﴾ [الأنعام: ١١١]. والقول الثاني: ما قاله ابن عباس: يريد فوجًا بعد فوج. قال الليث: وكل جند من الجن والإنس قبيل. وذكرنا ذلك في قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٢٧]. القول الثالث: إن قوله ﴿قَبِيلًا﴾ معناه ها هنا ضامنًا وكفيلاً، قال الزجاج: يقال: قبلت به أقبل كقولك كفلت به أكفل، وعلى هذا القول فهو واحد أريد به الجمع كقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]. والقول الرابع: قال أبو علي: معناه المعاينة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]. وخامسها: قولهم: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾ قال مجاهد: كنا لا ندري ما الزخرف حتى رأيت في قراءة عبد الله: (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ) قال الزجاج: الزخرف: الزينة، يدل عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ [يونس: ٢٤] أي أخذت كمال زينتها ولا شيء في تحسين البيت وتزيينه كالذهب. وسادسها: قولهم: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قال الفراء: يقال: رقيت وأنا أرقى رقىً ورقيًا وأنشد:

أَنْتَ الَّذِي كَلَّفْتَنِي رُقَى الدَّرَجْ عَلَى الْكَلَالِ وَالْمَشِيبِ وَالْعَرَجْ[1]

وقوله ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في معارج السماء فحذف المضاف، يقال: رقى السلم ورقي الدرجة

(١) تقدم ترجمة الفراء.

ثم قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي لن نؤمن لأجل رقيك ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ من السماء فيه تصديقك قال عبد الله بن أمية: لن نؤمن حتى تضع على السماء سلمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أن الأمر كما تقول. ولما حكى الله تعالى عن الكفار اقتراح هذه المعجزات قال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾. وفيه مباحث:

المبحث الأول: أنه تعالى حكى من قول الكفار قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وكل ذلك كلام القوم وإنا لا نجد بين تلك الكلمات وبين سائر آيات القرآن تفاوتًا في النظم، فصح بهذا صحة ما قاله الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا. والجواب: أن هذا القرآن قليل لا يظهر فيه التفاوت بين مراتب الفصاحة والبلاغة فزال هذا السؤال.

البحث الثاني: هذه الآيات من أدل الدلائل على أن المجيء والذهاب على الله محال؛ لأن كلمة (سبحان) للتنزيه عما لا ينبغي، وقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تنزيه لله تعالى عن شيء لا يليق به أو نسب إليه مما تقدم ذكره، وليس فيما تقدم ذكره شيء لا يليق بالله إلا قولهم ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ﴾ فدل هذا على أن قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تنزيه لله عن الإتيان والمجيء، وذلك يدل على فساد قول المشبهة في أن الله تعالى يجيء ويذهب، فإن قالوا: لمَ لا يجوز أن يكون المراد تنزيه الله تعالى عن أن يتحكم عليه المتحكمون في اقتراح الأشياء؟ قلنا: القوم لم يتحكموا على الله، وإنما قالوا للرسول ﷺ: إن كنت نبيًا صادقًا فاطلب من الله أن يشرفك بهذه المعجزات. فالقوم تحكموا على الرسول وما تحكموا على الله، فلا يليق حمل قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ على هذا المعنى فوجب حمله على قولهم: (أو تأتي بالله).

البحث الثالث: تقرير هذا الجواب أن يقال: إما أن يكون مرادكم من هذا الاقتراح أنكم طلبتم الإتيان من عند نفسي بهذه الأشياء أو طلبتم مني أن أطلب من الله تعالى إظهارها على يدي لتدل على كوني رسولاً حقًا من عند الله. والأول باطل لأني بشر والبشر لا قدرة له على هذه الأشياء. والثاني أيضًا باطل لأني قد أتيتكم بمعجزة واحدة وهي القرآن والدلالة على كونها معجزة، فطلب هذه المعجزات طلب لما لا حاجة إليه ولا ضرورة، فكأن طلبها يجري مجرى التعنت والتحكم، وأنا عبد مأمور ليس لي أن أتحكم على الله. فسقط هذا السؤال فثبت أن قوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ جواب كافٍ في هذا الباب، وحاصل الكلام أنه سبحانه بيّن بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ كونهم على الضلال في الإلهيات، وفي النبوات. أما في الإلهيات فيدل على ضلالهم قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أي سبحانه عن أن يكون له إتيان ومجيء وذهاب. وأما في النبوات فيدل على ضلالهم قوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ وتقريره ما ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى شبهة القوم في اقتراح المعجزات الزائدة وأجاب عنها، حكى عنهم شبهة أخرى وهي أن القوم استبعدوا أن يبعث الله إلى الخلق رسولاً من البشر، بل اعتقدوا أن الله تعالى لو أرسل رسولاً إلى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه:

الأول: قوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وتقرير هذا الجواب أن بتقدير أن يبعث الله ملكًا رسولاً إلى الخلق، فالخلق إنما يؤمنون بكونه رسولاً من عند الله لأجل قيام المعجز الدال على صدقه، وذلك المعجز هو الذي يهديهم إلى معرفة ذلك الملك في ادعاء رسالة الله تعالى، فالمراد من قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ هو المعجز فقط فهذا المعجز سواء ظهر على يد الملك أو على يد البشر وجب الإقرار برسالته، فثبت أن يكون قولهم بأن الرسول لا بد وأن يكون من الملائكة تحكما فاسدا وتعنتا باطلا.

الوجه الثاني: من الأجوبة التي ذكرها الله في هذه الآية عن هذه الشبهة: هو أن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة لأن الجنس إلى الجنس أميل، أما لو كان أهل الأرض من البشر لوجب أن يكون رسولهم من البشر، وهو المراد من قوله: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

الوجه الثالث من الأجوبة المذكورة في هذه الآية: قوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ وتقريره أن الله تعالى لما أظهر المعجزة على وفق دعواي كان ذلك شهادة من الله تعالى على كوني صادقًا، ومن شهد الله على صدقه فهو صادق، فبعد ذلك قول القائل بأن الرسول يجب أن يكون ملكًا لا إنسانًا تحكُّم فاسد لا يُلتفت إليه.

ولما ذكر الله تعالى هذه الأجوبة الثلاثة أردفها بما يجري مجرى التهديد والوعيد فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يعني يعلم ظواهرهم وبواطنهم، ويعلم من قلوبهم أنهم لا يذكرون هذه الشبهات إلا لمحض الحسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ

زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات القوم في إنكار النبوة وأردفها بالوعيد الإجمالي وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦] ذكر بعده الوعيد الشديد على سبيل التفصيل، أما قوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ فالمقصود تسلية الرسول وهو أن الذين سبق لهم حكم الله بالإيمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين، ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال أن ينقلبوا عن ذلك الضلال واستحال أن يوجد من يصرفهم عن ذلك الضلال. واحتج أصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم في الهدى والضلال، والمعتزلة حملوا هذا الإضلال تارة على الإضلال عن طريق الجنة وتارة على منع الألطاف وتارة على التخلية وعدم التعرض له بالمنع، وهذه المباحث قد ذكرناها مرارًا فلا فائدة في الإعادة. أما قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ فإن قيل: كيف يمكنهم المشي على وجوههم؟ قلنا: الجواب من وجهين: **الأول:** إنهم يسحبون على وجوههم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]. **الثاني:** روى أبو هريرة قيل: يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «**إن الذي إِنَّ الَّذِي يُمْشِيهِمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهِمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ**»(١). قال حكماء الإسلام: الكفار أرواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها، وليس لها تعلق بعالم الأبرار وحضرة الإله سبحانه وتعالى، فلما كانت وجوه قلوبهم وأرواحهم متوجهة إلى الدنيا لا جرم كان حشرهم على وجوههم. وأما قوله: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ فاعلم أن واحدًا قال لابن عباس رضي الله عنه: أليس أنه تعالى يقول: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣] وقال: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] وقال: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] وقال: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] وقال حكاية عن الكفار: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فثبت بهذه الآيات أنهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال هاهنا: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه: **الأول:** قال ابن عباس: عميًا لا يرون شيئًا يسرهم صمًّا لا يسمعون شيئًا يسرهم بكمًا لا ينطقون بحجة. **الثاني:** قال في رواية عطاء: عميًا عن النظر إلى ما جعله الله لأوليائه بكمًا عن مخاطبة الله ومخاطبة الملائكة المقربين صمًا عن ثناء الله تعالى على أوليائه. **الثالث:** قال مقاتل: إنه حين يقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] يصيرون عميًا بكمًا صمًّا، أما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون. **الرابع:** أنهم يكونون رائين

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٣٠٥) حديث رقم/ ٣١٤٢ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن. وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٥٤) حديث رقم/ ٨٦٣٢ كلاهما من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أوس بن خالد عن أبي هريرة. . . به. وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

سامعين ناطقين في الموقف ولولا ذلك لما قدروا على أن يطالعوا كتبهم ولا أن يسمعوا إلزام حجة الله عليهم، إلا أنهم إذا أخذوا يذهبون من الموقف إلى النار جعلهم الله عميًا وبكمًا وصمًّا. والجواب: أن الآيات السابقة تدل على أنهم في النار يبصرون ويسمعون ويصيحون، أما قوله تعالى: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ فظاهر.

وأما قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ . ففيه مباحث:

البحث الأول: قال الواحدي الخبو سكون النار، يقال: خبت النار تخبو، إذا سكن لهبها، ومعنى خبت سكنت وطفئت، يقال في مصدره الخبو، وأخبأها المخبئ إخباء أي أخمدها. ثم قال: ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ قال ابن قتيبة: زدناهم سعيرًا أي تلهبًا.

البحث الثاني: لقائل أن يقول: إنه تعالى لا يخفف عنهم العذاب وقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ يدل على أن العذاب يخف في ذلك الوقت قلنا: (كلما خبت) يقتضي سكون لهب النار، ولا يدل هذا على أنه يخف العذاب في ذلك الوقت.

البحث الثالث: قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ ظاهره يقتضي وجوب أن تكون الحالة الثانية أزيد من الحالة الأولى، وإذا كان كذلك كانت الحالة الأولى بالنسبة إلى الحالة الثانية تخفيفًا. والجواب: الزيادة التي حصلت في الحالة الأولى أخف من حصولها في الحالة الثانية فكان العذاب شديدًا، ويحتمل أن يقال: لما عظم العذاب صار التفاوت الحاصل في أوقاته غير مشعور به نعوذ بالله منه ولما ذكر تعالى أنواع هذا الوعيد قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ والباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ باء السببية، وهو حجة لمن يقول: العمل علة الجزاء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات منكري النبوة، عاد إلى حكاية شبهة منكري الحشر والنشر ليجيب عنها، وتلك الشبهة هي أن الإنسان بعد أن يصير رفاتًا ورميمًا يبعد أن يعود هو بعينه، وأجاب الله تعالى عنه بأن من قدر على خلق السماوات والأرض لم يبعد أن يقدر على إعادتهم بأعيانهم، وفي قوله: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ قولان: الأول: المعنى قادر على أن يخلقهم ثانيًا فعبر عن خلقهم ثانيًا بلفظ المثل، كما يقول المتكلمون: إن الإعادة مثل الابتداء. القول الثاني: المراد قادر على أن يخلق عبيدًا آخرين يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة. وعلى هذا التفسير فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩]وقوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٩]قال الواحدي: والقول هو الأول لأنه

أشبه بما قبله. ولما بيَّن الله تعالى بالدليل المذكور أن البعث والقيامة أمر ممكن الوجود في نفسه، أردفه بأن لوقوعه ودخوله في الوجود وقتًا معلومًا عند الله وهو قوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي بعد هذه الدلائل الظاهرة أبوا إلا الكفر والنفور والجحود.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن الكفار لما قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] طلبوا إجراء الأنهار والعيون في بلدتهم لتكثر أموالهم وتتسع عليهم معيشتهم، فبَيَّن الله تعالى لهم أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم ولَمَا أقدموا على إيصال النفع إلى أحد، وعلى هذا التقدير فلا فائدة في إسعافهم بهذا المطلوب الذي التمسوه. فهذا هو الكلام في وجه النظم، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿لَّوْ أَنتُمْ﴾ فيه بحث يتعلق بالنحو وبحث آخر يتعلق بعلم البيان: أما البحث النحوي: فهو أن كلمة (لَوْ) من شأنها أن تختص بالفعل لأن كلمة (لَوْ) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، والاسم يدل على الذوات والفعل هو الذي يدل على الآثار والأحوال، والمنتفى هو الأحوال والآثار لا الذوات فثبت أن كلمة (لَوْ) مختصة بالأفعال وأنشدوا قول المتلمس:

لَوْ غَيْرُ أَخْوَالِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي ... نَصَبْتُ لَهُمْ فَوْقَ الْعَرَانِينِ مَأْتَما [1]

والمعنى: لو أراد غير أخوالي. وأما البحث المتعلق بعلم البيان فهو أن التقديم بالذكر يدل على التخصيص فقوله: ﴿أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ دلالة على أنهم هم المختصون بهذه الحالة الخسيسة والشح الكامل.

المسألة الثالثة: خزائن فضل الله ورحمته غير متناهية، فكان المعنى أنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها لبقيتم على الشح، وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشيء.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي بخيلاً، يقال: قتر يقتر قترًا وأقتر إقتارًا وقَتَّر تقتيرًا، إذا قصر في الإنفاق فإن قيل: فقد دخل في الإنسان الجوادُ الكريم. فالجواب من وجوه: الأول: أن الأصل في الإنسان البخل لأنه خُلق محتاجًا، والمحتاج لا بد أن يحب ما به يدفع الحاجة وأن يمسكه لنفسه؛ إلا أنه قد يجود به لأسباب من خارج، فثبت أن الأصل في الإنسان البخل. الثاني: أن الإنسان إنما يبذل لطلب الثناء والحمد وللخروج عن عهدة الواجب، فهو في الحقيقة ما أنفق إلا ليأخذ العوض فهو في الحقيقة بخيل. الثالث: إن المراد بهذا الإنسان المعهود السابق: وهم الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠].

---

(١) هذا البيت من البحر الطويل للشاعر المتلمس وهو المتلمس الضبعي وهو: جرير بن عبد العزى، أو عبد المسيح، من بني ضُبيعة، من ربيعة. ٤٣ ق. هـ/ ٥٨٠ م شاعر جاهلي، من أهل البحرين، وهو خال طرفة بن العبد. كان ينادم عمرو بن هند ملك العراق، ثم هجاه فأراد عمرو قتله ففر إلى الشام ولحق بآل جفنة، ومات ببصرى، اهـ بتصرف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المقصود من هذا الكلام أيضًا الجواب عن قولهم: (لن نؤمن لك حتى تأتينا بهذه المعجزات القاهرة) فقال تعالى: إنا آتينا موسى معجزات مساوية لهذه الأشياء التي طلبتموها بل أقوى منها وأعظم، فلو حصل في علمنا أن جعلها في زمانكم مصلحة لفعلناها كما فعلنا في حق موسى، فدل هذا على إنا إنما لم نفعلها في زمانكم لعلمنا أنه لا مصلحة في فعلها.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى ذكر في القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه الصلاة والسلام: أحدها: أن الله تعالى أزال العقدة من لسانه، قيل في التفسير: ذهبت العجمة وصار فصيحًا. وثانيها: انقلاب العصا حية. وثالثها: تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها. ورابعها: اليد البيضاء وخمسة أُخر وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. والعاشر: شق البحر وهو قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠] والحادي عشر: الحجر وهو قوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]. الثاني عشر: إظلال الجبل وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١]. والثالث عشر: إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه. والرابع عشر والخامس عشر: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠]. والسادس عشر: الطمس على أموالهم من النحل والدقيق والأطعمة والدراهم والدنانير، روي أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب عن قوله: ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فذكر محمد بن كعب في مسألة التسع حل عقدة اللسان والطمس، فقال عمر بن عبد العزيز: هكذا يجب أن يكون الفقيه!! ثم قال: يا غلام أخرج ذلك الجراب. فأخرجه فنفضه فإذا فيه بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفول وحمص وعدس كلها حجارة. **إذا عرفت هذا فنقول**: إنه تعالى ذكر في القرآن هذه المعجزات الست عشره لموسى عليه الصلاة والسلام وقال في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ وتخصيص التسعة بالذكر لا يقدح فيه ثبوت الزائد عليه؛ لأنا بينا في أصول الفقه أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد بل نقول: إنما يتمسك في هذه المسألة بهذه الآية ثم نقول: أما هذه التسعة فقد اتفقوا على سبعة منها وهي العصا واليد

والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وبقي الاثنان ولكل واحد من المفسرين قول آخر فيهما، ولما لم تكن تلك الأحوال مستندة إلى حجة ظنية فضلاً عن حجة يقينية، لا جرم تركت تلك الروايات.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أقوال أجودها: ما روى صفوان بن عسال أنه قال: إن يهوديًا قال لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله عن تسع آيات فذهبا إلى النبي ﷺ وسألاه عنها فقال: «**هن أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا المحصنة ولا تولوا الفرار يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن تعدوا في السبت**» فقام اليهوديان فقبلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنك نبي ولولا نخاف القتل وإلا اتبعناك[(١)].

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾.

فيه مباحث:

البحث الأول: فيه وجوه: الوجه الأول: أنه اعتراض دخل في الكلام والتقدير: ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات إذ جاء بني إسرائيل فاسألهم. وعلى هذا التقدير فليس المطلوب من سؤال بني إسرائيل أن يستفيد هذا العلم منهم بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول، فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد. والوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي سلهم عن فرعون. وقل له: أرسِل معي بني إسرائيل. والوجه الثالث: سل بني إسرائيل أي سلهم أن يوافقوك والتمس منهم الإيمان الصالح. وعلى هذا التأويل فالتقدير: فقلنا له: سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك.

البحث الثاني: أمر رسول الله ﷺ بأن يسأل بني إسرائيل معناه الذين كانوا موجودين في زمان النبي ﷺ والذين جاءهم موسى عليه الصلاة والسلام هم الذين كانوا في زمانه، إلا أن الذين كانوا في زمان محمد ﷺ لما كانوا أولاد أولئك الذين كانوا في زمان موسى حسنت هذه الكناية. ثم أخبر تعالى أن فرعون قال لموسى: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ وفي لفظ المسحور وجوه: الأول: قال الفراء: إنه بمعنى الساحر كالمشؤوم والميمون. وذكرنا هذا في قوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]. الثاني: أنه مفعول من السحر أي أن الناس سحروك وخبلوك فتقول هذه الكلمات لهذا السبب. الثالث: قال محمد بن جرير الطبري: معناه أُعطيت علم السحر، فهذه العجائب التي تأتي بها من ذلك السحر.

ثم أجابه موسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) أورده النيسابوري في (تفسيره) (٥/ ١٤٧) ذكره بغير إسناد.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قرأ الكسائي (عَلِمْتُ) بضم التاء أي علمت أنها من علم الله فإن علمت وأقررت وإلا هلكت. والباقون بالفتح، وضم التاء قراءة علي وفتحها قراءة ابن عباس، وكان علي رضي الله عنه يقول: والله ما علم عدو الله ولكن موسى هو الذي علم فبلغ ذلك ابن عباس رضي الله عنهما فاحتج بقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] على أن فرعون وقومه كانوا قد عرفوا صحة أمر موسى عليه السلام. قال الزجاج: الأجود في القراءة الفتح لأن علم فرعون بأنها آيات نازلة من عند الله أوكد في الحجة، فاحتجاج موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون بعلم فرعون أوكد من الاحتجاج بعلم نفسه. وأجاب الناصرون لقراءة علي عليه السلام عن دليل ابن عباس فقالوا: قوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] يدل على أنهم استيقنوا شيئًا ما، فأما أنهم استيقنوا كون هذه الآيات نازلة من عند الله فليس في الآية ما يدل عليه، وأجابوا عن الوجه الثاني بأن فرعون قال ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] قال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ فكأنه نفى ذلك وقال: لقد علمت صحة ما أتيت به علمًا صحيحًا علم العقلاء. واعلم أن هذه الآيات من عند الله ولا تشك في ذلك بسبب سفاهتك.

البحث الثاني: التقدير: ما أنزل هؤلاء الآيات ونظيره قوله: والعيش بعد أولئك الأقوام.

وقوله: ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي حججًا بينة كأنها بصائر العقول، وتحقيق الكلام أن المعجزة فعل خارق للعادة فَعَله فاعله لغرض تصديق المدعى، ومعجزات موسى عليه الصلاة والسلام كانت موصوفة بهذين الوصفين لأنها كانت أفعالاً خارقة للعادة، وصرائح العقول تشهد بأن قلب العصا حية معجزة عظيمة لا يقدر عليها إلا الله، ثم إن تلك الحية تلقفت حبال السحرة وعصيهم على كثرتها ثم عادت عصا كما كانت، فأصناف تلك الأفعال لا يقدر عليها أحد إلا الله، وكذا القول في فرق البحر وإظلال الجبل، فثبت أن تلك الأشياء ما أنزلها إلا رب السماوات. الصفة الثانية: أنه تعالى إنما خلقها لتدل على صدق موسى في دعوى النبوة، وهذا هو المراد من قوله: ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حال كونها بصائر أي دالة على صدق موسى في دعواه، وهذه الدقائق لا يمكن فهمها من القرآن إلا بعد إتقان علم الأصول، وأقول: يبعد أن يصير غير علم الأصول العقلي قاهرًا في تفسير كلام الله. ثم حكى تعالى أن موسى قال لفرعون: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ واعلم أن فرعون قال لموسى: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ فعارضه موسى وقال له: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قال الفراء: المثبور: الملعون المحبوس عن الخير، والعرب تقول: ما ثبرك عن هذا؟ أي ما منعك منه وما صرفك؟ وقال أبو زيد: يقال: ثبرتُ فلانًا عن الشيء أثبره أي رددته عنه. وقال مجاهد وقتادة: هالكًا. وقال الزجاج: يقال: ثبر الرجل فهو مثبور، إذا هلك، والثبور: الهلاك، ومن معروف الكلام: فلان يدعو بالويل والثبور عند

مصيبة تناله، وقال تعالى: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٣-١٤]. واعلم أن فرعون لما وصف موسى بكونه مسحورًا أجابه موسى بأنك مثبور يعني هذه الآيات ظاهرة، وهذه المعجزات قاهرة، ولا يرتاب العاقل في أنها من عند الله وفي أنه تعالى إنما أظهرها لأجل تصديقي وأنت تنكرها، فلا يحملك على هذا الإنكار إلا الحسد والعناد والغي والجهل وحب الدنيا، ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يعني أراد فرعون أن يخرجهم، يعني موسى وقومه بني إسرائيل، ومعنى تفسير الاستفزاز تقدم في هذه السورة (من الأرض) يعني أرض مصر، قال الزجاج: لا يبعد أن يكون المراد من استفزازهم إخراجهم منها بالقتل أو بالتنحية.

ثم قال: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ المعنى ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]أراد فرعون أن يُخرج موسى من أرض مصر لتخلص له تلك البلاد، والله تعالى أهلك فرعون وجعل ملك مصر خالصة لموسى ولقومه وقال لبني إسرائيل: اسكنوا الأرض خالصة لكم خالية من عدوكم. **قال تعالى:** ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ يريد القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ من ها هنا وها هنا، واللفيف الجمع العظيم من أخلاط شتى، من الشريف والدنيء والمطيع والعاصي والقوي والضعيف. وكل شيء خلطته بشيء آخر فقد لففته، ومنه قيل: لففت الجيوش، إذا ضربت بعضها ببعض وقوله: التفت الزحوف. ومنه، ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٩]والمعنى جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر أخلاطًا، يعني جميع الخلق المسلم والكافر والبر والفاجر.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٠٩﴾

اعلم أنه تعالى لما بَيَّن أن القرآن معجز قاهر دال على الصدق في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ [الإسراء: ٨٨] ثم حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا سائر المعجزات، ثم أجاب الله بأنه لا حاجة إلى إظهار سائر المعجزات، وبَيَّن ذلك بوجوه كثيرة، منها أن قوم موسى عليه الصلاة والسلام آتاهم الله تسع آيات بينات فلما جحدوا بها أهلكهم الله، فكذا ها هنا، ثم إنه تعالى لو آتى قوم محمد تلك المعجزات التي اقترحوها ثم كفروا بها، وجب إنزال عذاب الاستئصال بهم، وذلك غير جائز في الحكمة لعِلمه تعالى أن منهم من يؤمن والذي لا يؤمن فسيظهر من نسله من يصير مؤمنًا.

ولما تم هذا الجواب عاد إلى تعظيم حال القرآن وجلالة درجته فقال: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ والمعنى أنه ما أردنا بإنزاله إلا تقرير الحق والصدق، وكما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع هذا المعنى وحصل.

وفي هذه الآية فوائد.

الفائدة الأولى: أن الحق هو الثابت الذي لا يزول، كما أن الباطل هو الزائل الذاهب، وهذا الكتاب الكريم مشتمل على أشياء لا تزول، وذلك لأنه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والإكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الأنبياء وإثبات الحشر والنشر والقيامة، وكل ذلك مما لا يقبل الزوال، ومشتمل أيضًا على شريعة باقية لا يتطرق إليها النسخ والنقض والتحريف، وأيضًا فهذا الكتاب كتاب تكفل الله بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فكان هذا الكتاب حقًّا من كل الوجوه.

الفائدة الثانية: أن قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ يفيد الحصر، ومعناه أنه ما أُنزل لمقصود آخر سوى إظهار الحق. وقالت المعتزلة: وهذا يدل على أنه ما قصد بإنزاله إضلال أحد من الخلق ولا إغواؤه ولا منعه عن دين الله.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ يدل على أن الإنزال غير النزول، فوجب أن يكون الخلق غير المخلوق، وأن يكون التكوين غير المكون على ما ذهب إليه قوم.

الفائدة الرابعة: قال أبو علي الفارسي: الباء في قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾ بمعنى (مع) كما تقول: نزل بُعدته وخرج بسلاحه، والمعنى أنزلنا القرآن مع الحق. وقوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ فيه احتمالان: أحدهما: أن يكون التقدير: نزل بالحق. كما تقول: نزلت بزيد. وعلى هذا التقدير الحق محمد ﷺ لأن القرآن نزل به أي عليه. الثاني: أن تكون بمعنى (مع) كما قلنا في قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ والمقصود أن هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات ويتمردون عن قبول دينك - لا شيء عليك من كفرهم فإني ما أرسلتك إلا مبشرًا للمطيعين ونذيرًا للجاحدين، فإن قبلوا الدين الحق انتفعوا به، وإلا فليس عليك من كفرهم شيء.

ثم قال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: أن القوم قالوا: هب أن هذا القرآن معجز إلا أنه بتقدير أن يكون الأمر كذلك، فكان من الواجب أن يُنزله الله عليك دفعة واحدة ليظهر فيه وجه الإعجاز. فجعلوا إتيان الرسول بهذا القرآن متفرقًا شبهة في أنه يتفكر في فصل فصل ويقرأه على الناس، فأجاب الله عنه بأنه إنما فرقه ليكون حفظه أسهل ولتكون الإحاطة والوقوف على دقائقه وحقائقه أسهل.

البحث الثاني: قال سعيد بن جبير: نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء السفلى، ثم فُصل في السنين التي نزل فيها. قال قتادة: كان بين أوله وآخره عشرون سنة. والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ننزله جملة لتقرأه على الناس على مكث (بالفتح والضم) على مهل وتؤدة أي لا على فورة. قال الفراء: يقال: مَكَث ومكُث يمكث، والفتح قراءة عاصم في قوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢].

البحث الثالثة: الاختيار عند الأئمة (فرقناه) بالتخفيف وفسره أبو عمرو: (بيناه) قال أبو عبيد: التخفيف أعجب إليَّ لأن تفسيره بيناه، ومن قرأ بالتشديد لم يكن له معنى إلا أنه أُنزل متفرقًا فالفرق يتضمن التبيين، ويؤكده ما روى ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال: فرقت أفرق بين الكلام، وفرقت بين الأجسام. ويدل عليه أيضًا قوله ﷺ: «الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا» (١) ولم يقل يفترقا والتفرق مطاوع التفريق والافتراق مطاوع الفرق. ثم قال: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ أي على الحد المذكور والصفة المذكورة ثم قال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ يخاطب الذين اقترحوا تلك المعجزات العظيمة على وجه التهديد والإنكار، أي إنه تعالى أوضح البينات والدلائل وأزاح الأعذار، فاختاروا ما تريدون. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي من قبل نزول القرآن، قال مجاهد: هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أُنزل على محمد ﷺ خروا سجدًا، منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام. ثم قال: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وفيه أقوال: القول الأول: قال الزجاج: الذقن مجمع اللحيين وكلما يبتدئ الإنسان بالخرور إلى السجود فأقرب الأشياء من الجبهة إلى الأرض الذقن. والقول الثاني: أن الأذقان كناية عن اللحى والإنسان إذا بالغ عند السجود في الخضوع والخشوع ربما مسح لحيته على التراب، فإن اللحية يبالغ في تنظيفها فإذا عفرها الإنسان بالتراب فقد أتى بغاية التعظيم. والقول الثالث: أن الإنسان إذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الأرض في معرض السجود كالمغشي عليه، ومتى كان الأمر كذلك كان خروره على الذقن في موضع السجود. فقوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته.

ثم بقي في الآية سؤالان: السؤال الأول: لمَ قال: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ولم يقل يسجدون؟ والجواب المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم إلى ذلك حتى أنهم يسقطون. السؤال الثاني: لمَ قال: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ ولم يقل على الأذقان؟ والجواب: العرب تقول إذا خر الرجل فوقع على وجهه خر للذقن، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ والمعنى أنهم يقولون في سجودهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي ينزهونه ويعظمونه: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي بإنزال القرآن

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (البيوع) باب (إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا) (٤/ ٣٦٢) حديث رقم/ ٢٠٧٩ / ومسلم في كتاب (البيوع) باب (الصدق في البيع والبيان) (٣/ ٤٧/ ١١٦٤) جميعًا من طريق شعبة . . . به

وبعث محمد. وهذا يدل على أن هؤلاء كانوا من أهل الكتاب لأن الوعد ببعثة محمد سبق في كتابهم فهم كانوا ينتظرون إنجاز ذلك الوعد. ثم قال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ والفائدة في هذا التكرير اختلاف الحالين وهما خرورهم للسجود وفي حال كونهم باكين عند استماع القرآن، ويدل عليه قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ويجوز أن يكون تكرار القول دلالة على تكرار الفعل منهم. وقوله: ﴿يَبْكُونَ﴾ معناه الحال: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي تواضعًا.

واعلم أن المقصود من هذه الآية تقرير تحقيرهم والازدراء بشأنهم وعدم الاكتراث بهم وبإيمانهم وامتناعهم منه، وأنهم وإن لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

قال صاحب (الكشاف): المراد بهما الاسم لا المسمى و(أو) للتخيير بمعنى: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ أي سموا بهذا الاسم أو بهذا أو اذكروا إما هذا وإما هذا، والتنوين في ﴿أَيًّا﴾ عوض عن المضاف إليه و ﴿مَّا﴾ صلة للإبهام المؤكد لما في (أي) والتقدير أي هذين الاسمين سميتم وذكرتم فله الأسماء الحسنى. والضمير في قوله: ﴿فَلَهُ﴾ ليس براجع إلى أحد الاسمين المذكورين ولكن إلى مسماهما وهو ذاته عز وعلا والمعنى: أيًّا ما تدعوا فهو حسن. فوضع موضعه قوله: ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ لأنه إذا حسنت أسماؤه فقد حسن هذان الاسمان لأنهما منها ومعنى حُسْن أسماء الله كونها مفيدة لمعاني التحميد والتقديس، وقد سبق الاستقصاء في هذا الباب في آخر سورة الأعراف في تفسير قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

واحتج الجبائي بهذه الآية فقال: لو كان تعالى هو الخالق للظلم والجور لصح أن يقال: يا ظالم وحينئذٍ يبطل ما ثبت في هذه الآية من كون أسمائه بأسرها حسنة. **والجواب:** أنا لا نسلم أنه لو كان خالقًا لأفعال العباد لصح وصفه بأنه ظالم وجائر، كما أنه لا يلزم من كونه خالقًا للحركة والسكون والسواد والبياض أن يقال: يا متحرك ويا ساكن ويا أسود ويا أبيض. فإن قالوا: فيلزم جواز أن يقال: يا خالق الظلم والجور. قلنا: فيلزمكم أن تقولوا: يا خالق العذرات والديدان والخنافس. وكما أنكم تقولون أن ذلك حق في نفس الأمر ولكن الأدب أن يقال يا خالق السموات والأرض. فكذا قولنا هنا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ . وفيه مباحث:

البحث الأول: قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيه أقوال: الأول: روى سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة، فإذا سمعه المشركون سبوه

وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى إليه: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمع المشركون فيسبوا الله عدوًا بغير علم: ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فلا تُسمع أصحابك وابتغ بين ذلك سبيلاً. القول الثاني: روي أن النبي ﷺ طاف بالليل على دور الصحابة، وكان أبو بكر يخفي صوته بالقراءة في صلاته وكان عمر يرفع صوته، فلما جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «لمَ تخفي صوتك؟» فقال أناجي ربي، وقد علم حاجتي. وقال لعمر: «لم ترفع صوتك؟» فقال: أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان. فأمر النبي ﷺ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ قَلِيلاً وَعُمَرَ أَنْ يُخْفِضَ صَوْتَهُ قَلِيلاً (١). القول الثالث: معناه: ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار. والقول الرابع: أن المراد بالصلاة الدعاء. وهذا قول عائشة رضي الله عنها وأبي هريرة ومجاهد قالت عائشة رضي الله عنها: هي في الدعاء. وروي هذا مرفوعًا أن النبي ﷺ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «إِنَّمَا ذَلِكَ فِي الدُّعَاءِ والمسألة» (٢) لا ترفع صوتك فتذكر ذنوبك فيسمع ذلك فتعير بها، فالجهر بالدعاء منهي عنه والمبالغة في الإسرار غير جائزة، والمستحب من ذلك التوسط وهو أن يُسمع نفسه، كما روي عن ابن مسعود أنه قال: لم يخافت من أسمع أذنيه. والقول الخامس: قال الحسن: لا تُراءِ بعلانيتها ولا تسئ بسريتها.

البحث الثاني: الصلاة عبارة عن مجموع الأفعال والأذكار والجهر والمخافتة من عوارض الصوت، فالمراد هاهنا من الصلوات بعض أجزاء ماهية الصلاة وهو الأذكار والقرآن وهو من باب إطلاق اسم الكل لإرادة الجزء.

البحث الثالث: يقال خفت صوته يخفت خفتًا وخفوتًا، إذا ضعف وسكن، وصوت خفيت أي خفيض، ومنه يقال للرجل إذا مات قد خفت أي انقطع كلامه، وخفت الزرع إذا ذبل، وخفت الرجل يخافت بقراءته إذا لم يبين قراءته برفع الصوت، وقد تخافت القوم إذا تساروا بينهم وأقول: ثبت في كتب الأخلاق أن كلا طرفي الأمور ذميم والعدل هو رعاية الوسط؛ ولهذا المعنى مدح الله هذه الأمة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال في مدح المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] وأمرَ الله رسوله فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] فكذا هاهنا نهى عن الطرفين وهو الجهر والمخافتة وأمر بالتوسط بينهما فقال: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ ومنهم من قال: الآية منسوخة بقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] وهو بعيد. واعلم أنه تعالى لما أمر أن لا يُذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى علّمه كيفية التحميد فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى

---

(١) **إسناده ضعيف**: رواه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ٥٨٦) من طريق ابن علية عن سلمة عن علقمة عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر... فذكره.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الدعوات) باب (الدعاء في الصلاة) (٥/ ٢٣٣١) حديث رقم/ ٥٩٦٨ ومسلم في (صحيحه) (١/ ٣٩/ ٤٤٧) كلاهما من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة... به.

لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ .

فذكر هاهنا من صفات التنزيه والجلال وهي السلوب **ثلاثة أنواع من الصفات.**

النوع الأول: من الصفات: أنه لم يتخذ ولدًا والسبب فيه وجوه: الأول: أن الولد هو الشيء المتولد من جزء من أجزاء شيء آخر، فكل من له ولد فهو مركب من الأجزاء، والمركب محدث والمحدث محتاج لا يقدر على كمال الإنعام فلا يستحق كمال الحمد. الثاني: أن كل من له ولد فإنه يمسك جميع النعم لولده، فإذا لم يكن له ولد أفاض كل تلك النعم على عبيده. الثالث: أن الولد هو الذي يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه، فلو كان له ولد لكان منقضيًا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الإنعام في كل الأوقات، فوجب أن لا يستحق الحمد على الإطلاق.

والنوع الثاني: من الصفات السلبية: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك فحينئذٍ لا يُعرف كونه مستحقًّا للحمد والشكر.

والنوع الثالث: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو جاز عليه ولي من الذل لم يجب شكره؛ لتجويز أن غيره حمله على ذلك الإنعام أو منعه منه، أما إذا كان منزهًا عن الولد وعن الشريك وكان منزهًا عن أن يكون له ولي يلي أمره، كان مستوجبًا لأعظم أنواع الحمد ومستحقًّا لأجل أقسام الشكر. **ثم قال تعالى:** ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ ومعناه أن التحميد يجب أن يكون مقرونًا بالتكبير ويحتمل أنواعًا من المعاني: أولها: تكبيره في ذاته وهو أن يعتقد أنه واجب الوجود لذاته وأنه غني عن كل ما سواه. وثانيها: تكبيره في صفاته وذلك من ثلاثة أوجه: أولها: أن يعتقد أن كل ما كان صفة له فهو من صفات الجلال والعز والعظمة والكمال وهو منزه عن كل صفات النقائص. وثالثها: أن يعتقد أن كل واحد من تلك الصفات متعلق بما لا نهاية له من المعلومات وقدرته متعلقة بما لا نهاية له من المقدورات والممكنات. ورابعها: أن يعتقد أنه كما تقدست ذاته عن الحدوث وتنزهت عن التغير والزوال والتحول والانتقال، فكذلك صفاته أزلية قديمة سرمدية منزهة عن التغير والزوال والتحول والانتقال.

النوع الثالث: من تكبير الله: تكبيره في أفعاله. وعند هذا تختلف أهل الجبر والقدر: فقال أهل السنة: إنا نحمد الله ونكبره ونعظمه عن أن يجري في سلطانه شيء لا على وفق حكمه وإرادته، فالكل واقع بقضاء الله وقدرته ومشيئته وإرادته. وقالت المعتزلة: إنا نكبر الله ونعظمه عن أن يكون فاعلاً لهذه القبائح والفواحش بل نعتقد أن حكمته تقتضي التنزيه والتقديس عنها وعن إرادتها. وسمعت أن الأستاذ أبا إسحاق الإسفراييني كان جالسًا في دار الصاحب بن عباد فدخل القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني فلما رآه قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء! فقال الأستاذ أبو إسحاق: سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

النوع الرابع: تكبير الله في أحكامه وهو أن يعتقد أنه ملك مطاع وله الأمر والنهي والرفع والخفض، وأنه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أحكامه يُعز من يشاء ويُذل من يشاء.

النوع الخامس: تكبير الله في أسمائه، وهو أن لا يُذكر إلا بأسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة العالية المنزهة.

النوع السادس: من التكبير: هو أن الإنسان بعد أن يبلغ في التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره - يعترف أن عقله وفهمه لا يفي بمعرفة جلال الله، ولسانه لا يفي بشكره، وجوارحه وأعضاؤه لا تفي بخدمته، فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافيًا بكنه مجده وعزته. وهذا أقصى ما يقدر عليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم، ونسأل الله تعالى الرحمة قبل الموت وعند الموت وبعد الموت، إنه الكريم الرحيم وبالله العصمة والتوفيق وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (تَـمَّ تَفْسِيرُ هَذِهِ السُّورَةِ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ يَوْمَ الْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ الْمُحَرَّمِ فِي بَلْدَةِ غِزْنِينَ سَنَةَ إِحْدَى وَسِتِّمِائَةِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلاَةُ عَلَى نبيه محمد وآله وصحبه وسلم تسليما).

تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ [الآية:٧٦] نزلت حين جاء رسولَ الله ﷺ وَفْدُ ثَقيف، وحين قالتِ اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الآية:٨٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ الآية [٦٠]. وقال مقاتل: وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ الآية [١٠٧]. وقال ابن مسعود ﷺ في بني إسرائيل والكهف: إنهنَّ من العِتاق الأول، وهُنَّ مِن تِلادي؛ يريد: من قديم كسبه[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾

فيه ثمان[٢] مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ﴾ «سبحان»: اسمٌ موضوعٌ موضِعَ المصدر، وهو غير مُتمكِّن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يَجْرِ منه فِعْلٌ، ولم ينصرفْ؛ لأنَّ في آخره زائدتين، تقول: سبَّحتُ تسبيحاً وسُبحاناً، مثل: كفَّرتُ اليمين تكفيراً وكُفراناً[٣]. ومعناه: التنزيهُ والبراءة لله عزَّ وجلَّ من كلِّ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٤ ، وأثر ابن مسعود أخرجه البخاري (٤٧٣٩) وفيه زيادة: ومريم وطه والأنبياء.

(٢) كذا في جميع النسخ، والملاحظ أن المسائل ست.

(٣) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٣٥ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ١٤٥ .

نقص. فهو ذكرُ تعظيمٍ[١] لله تعالى لا يصلح لغيره؛ فأمَّا قول الشاعر:

أقول لمَّا جاءني فَخْرُهُ سبحانَ مِن عَلْقَمةَ الفاخِرِ

فإنما ذكره على طريق النادر[٢]. وقد روى طلحة بنُ عبيد الله الفَيَّاض أحدُ العشرة أنه قال للنبيِّ ﷺ: ما معنى سبحانَ الله؟ فقال: «تنزيهُ اللهِ من كلِّ سوء»، والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذي من معناه لا من لفظه، إذ لم يَجْرِ من لفظه فِعْلٌ، وذلك مثل: قَعَدَ القُرْفُصاءَ، واشتملَ الصَّمَّاء، فالتقدير عنده: أُنزِّهُ اللهَ تنزيهاً، فوقع «سبحان الله» مكانَ قولِكَ: تنزيهاً[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ «أسرى» فيه لغتان: سرى وأسرى[٤]، كسقى وأسقى، كما تقدّم[٥]. قال:

أسْرتْ عليه من الجَوْزاء ساريَةٌ تُزْجِي الشَّمالَ عليه جامِدَ البَرَدِ

وقال آخر:

حَيِّ النَّضِيرةَ ربَّةَ الخِدْرِ أسْرَتْ إليَّ ولم تكن تَسْري

فجمع بين اللغتين في البيتين[٦]. والإسراء: سير الليل؛ يقال: سَرَيت مَسْرًى وسُرًى، وأسريتُ إسراءً؛ قال الشاعر:

وليلةٍ ذاتِ نَدًى سَرَيْتُ ولم يَلِتْني من سُراها لَيْتُ[٧]

---

(١) في جميع النسخ: عظيم، والتصويب من النكت والعيون.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٢٣ ، والبيت قائله الأعشى الكبير، وقد سلف ١/ ٤١٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٥ ، والحديث سلف ١/ ٤١٢ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣١ .

(٥) ٢/ ١٣٥ .

(٦) سلف هذا الكلام ١١/ ١٨٢ ، والبيت الأول قائله النابغة الذبياني، والبيت الثاني قائله حسان بن ثابت.

(٧) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٢٤ ، والبيت نسبه ابن السكيت في إصلاح المنطق ص١٥٣ إلى رؤبة بن العجاج، ولم نقف عليه في ديوانه، ونسبه أبو علي القالي في أماليه ٢/ ٢٤٤ إلى ابن الأعرابي.

وقيل: أسرى: سار من أوّل الليل، وسرى: سار من آخره، والأوّل أعرف(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ قال العلماء: لو كان للنبيّ ﷺ اسمٌ أشرفُ منه لسمَّاه به في تلك الحالة العليَّة. وفي معناه أنشدوا:

يا قومِ قلبي عند زهراءِ يعرِفُه السامعُ والرَّائي
لا تَدْعُني إلَّا بيا عبدَها فإنَّه أشرفُ أسمائي

وقد تقدَّم(٢). قال القُشَيْرِيُّ: لمَّا رفعه الله تعالى إلى حضرته السَّنيَّة، وأرقاه فوق الكواكب العلوية، ألزمه اسمَ العبودية تواضعاً للأمة.

الرابعة: ثبت الإسراء في جميع مصنَّفات الحديث، ورُوي عن الصحابة في كلِّ أقطار الإسلام، فهو من المتواتر بهذا الوجه، وذكر النقَّاش ممن رواه عشرين صحابياً(٣). روى الصحيح عن أنس بن مالك، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أُتيتُ بالبُراقِ وهو دابَّةٌ أبيَضُ [طويلٌ] فوق الحمار ودون البغل، يضع حافِرَه عند منتهى طَرْفِه - قال - فركبتُه حتى أتيتُ بيت المقدس - قال - فربطتُه بالحَلْقةِ التي تَرْبط بها الأنبياء - قال - ثم دخلتُ المسجدَ فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجتُ، فجاءني جبريلُ عليه السلام بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبنٍ، فاخترتُ اللَّبنَ، فقال جبريل: اخترتَ الفِطْرَة - قال - ثم عَرَجَ بنا إلى السماء...» وذكر الحديث(٤). ومما ليس في الصحيحين ما خرَّجه الآجُرِّيُّ والسَّمَرْقَنْديُّ(٥)، قال الآجُرِّيُّ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ في قوله تعالى:

---

(١) سلف هذا الكلام ١١/ ١٨٢ .

(٢) ١/ ٣٤٩ من غير نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٤ .

(٤) صحيح مسلم (١٦٢) (٢٥٩) وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أحمد (١٢٥٠٥).

(٥) الآجري في الشريعة (١٠٢٧)، وأبو الليث السمرقندي في تفسيره ٢/ ٢٥٨ ، ولم يذكر إسناده، أما الآجري فرواه من طريق أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري؛ به. أبو هارون العبدي: اسمه عمارة بن جُوين، وهو متروك، ومنهم من كذَّبه. تهذيب التهذيب ٣/ ٢٠٧ - ٢٠٨ .

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ قال أبو سعيد: حدثنا رسول الله ﷺ عن ليلةَ أُسْرِيَ به، قال النبيُّ ﷺ: «أُتِيتُ بدابَّةٍ هي أشبَهُ الدوابِّ بالبغل، له أُذُنانِ مضطربتان(١)، وهو البُراق الذي كانتِ الأنبياءُ تركبُه قبلُ، فركبتُه، فانطلقَ تقَعُ يداه عند منتهى بصَرِه، فسمعتُ نداءً عن يميني: يا محمد، على رِسْلِكَ حتى أسألَكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ عليه، ثم سمعتُ نداءً عن يساري: يا محمد، على رِسْلِكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ عليه، ثم استقبلَتْني امرأةٌ عليها من كلِّ زينة الدنيا، رافعةً يدَيها تقول: على رِسْلِكَ حتى أسألَكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ، ثم أتيتُ بيت المقدس الأقصى، فنزلتُ عن الدابة، فأوثقتُه في الحَلْقة التي كانتِ الأنبياء تُوثِقُ بها، ثم دخلتُ المسجدَ وصلَّيتُ فيه، فقال لي جبريل عليه السلام: ما سمعتَ يا محمد؟ فقلتُ: سمعتُ نداءً عن يميني: يا محمد، على رِسْلِكَ حتى أسألَكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ، فقال: ذلك داعي اليهود، ولو وقفتَ لتهوَّدَتْ أمَّتُكَ ـ قال ـ ثم سمعتُ نداءً عن يساري: على رِسْلِكَ حتى أسألَكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّج عليه، فقال: ذلك داعي النصارى، أمَا إنَّكَ لو وقفتَ لتنصَّرتْ أمَّتُكَ ـ قال ـ ثم استقبلَتْني امرأةٌ عليها من كلِّ زينة الدنيا، رافعةً يدَيها تقول: على رِسْلِكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ عليها، فقال: تلكَ الدنيا لو وقفتَ لاخترتَ الدنيا على الآخرة ـ قال ـ ثم أُتِيتُ بإناءين أحدُهما فيه لبنٌ والآخرُ فيه خمرٌ، فقيل لي: خُذْ فاشرَبْ أيَّهما شئتَ، فأخذتُ اللبنَ فشرِبْتُه، فقال لي جبريل: أصبْتَ الفِطْرة، ولو أنَّكَ أخذْتَ الخمرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ، ثم جاء بالمعراج الذي تعرُجُ فيه أرواح بني آدم فإذا هو أحسنُ ما رأيتُ، ألم(٢) تروا إلى الميت كيف يُحِدُّ بصرَه إليه؟ فعُرِجَ بنا حتى انتهينا إلى(٣) باب السماء الدنيا، فاستفتحَ جبريلُ، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومَنْ معك؟

---

(١) في النسخ الخطية: يخطرفان، وفي (م): يضطربان، والمثبت من الشريعة للآجري.

(٢) في (م): أو لم.

(٣) في (م): أتينا، وفي النسخ الخطية سقطت كلمة إلى، والمثبت من الشريعة.

قال: محمد. قيل[١]: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. ففتحوا لي، وسلَّموا عليَّ، وإذا مَلَكٌ يحرسُ السماءَ يُقال له: إسماعيل، معه سبعون ألف مَلَك، مع كلِّ مَلَكٍ مئة ألف ـ قال ـ ﴿وما يعلم جُنُودَ رَبِّك إلا هو...﴾ [المدثر: ٣١] ـ وذكر الحديث إلى أن قال ـ ثم مضينا إلى السماء الخامسة، فإذا أنا بهارون بن عمران المُحَبِّ في قومه، وحولَه تَبَعٌ كثيرٌ من أمته ـ فوصفَه النبيُّ ﷺ وقال ـ طويلُ اللِّحية، تكاد لِحيتُه تضرِبُ في سُرَّته، ثم مضينا إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى، فسلم عليَّ ورحَّب بي ـ فوصفه النبيُّ ﷺ فقال ـ رجلٌ كثير الشعر لو[٢] كان عليه قميصان خرجَ شعرُه منهما...» الحديث.

وروى البزَّار[٣] أنَّ رسول الله ﷺ أُتِيَ بفرسٍ فحملَ عليه، كلُّ خُطوةٍ منه أقصى بَصرِه... وذكر الحديث.

وقد جاء في صفة البُراق من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائمٌ في الحِجْر إذ أتاني آتٍ فحرَّكني برِجْلِه، فأتبعتُ الشخصَ فإذا هو جبريل عليه السلام قائمٌ على باب المسجد معه دابَّةٌ دون البغل وفوق الحمار، وجهُها وجهُ إنسان، وخُفُّها خُفُّ حافر، وذَنَبُها ذنبُ ثور، وعُرْفُها عُرْفُ الفرس، فلما أدناها مني جبريل عليه السلام نفرَتْ ونفشَتْ عُرْفَها، فمسحها جبريل عليه السلام وقال: يا بُرْقةُ، لا تَنْفِري من محمد، فواللهِ ما ركبَكِ مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ أفضلُ من محمدٍ ﷺ ولا أكرمُ على الله منه. قالت: قد علمتُ أنه كذلك، وأنه صاحبُ الشفاعة، وإني أُحِبُّ أن أكون في شفاعته. فقلت: أنتِ في شفاعتي إن شاء الله تعالى...» الحديث[٤].

---

(١) في (م): قالوا، وفي النسخ الخطية: قال، والمثبت من الشريعة.

(٢) في (م): ولو.

(٣) كما في «كشف الأستار» (٥٥) من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية أو غيره، عن أبي هريرة، مرفوعاً. أبو جعفر الرازي سيئ الحفظ. تهذيب التهذيب ٤/ ٥٠٣. ثم إن الربيع رواه على الشك، فيحتمل أن يكون عن رجلٍ مبهم.

(٤) ذكر الطبرسي في مجمع البيان ١٦/ ٩ بعضه، وذكر صاحب السيرة الحلبية ٢/ ٧٨ بأن الثعلبي رواه في تفسيره بسند ضعيف.

وذكر أبو سعيد عبد الملك بن محمد النَّيْسابوري[١] عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: لمَّا مرَّ النبيُّ ﷺ بإدريس عليه السلام في السماء الرابعة قال: «مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح الذي وُعِدْنا أن نراه فلم نَرَهُ إلَّا الليلة - قال - فإذا فيها مريمُ بنت عمران لها سبعون قصراً من لؤلؤٍ، ولِأُمِّ موسى بن عمران سبعون قصراً من مرجانةٍ حمراءَ مُكلَّلةٍ باللؤلؤ، أبوابُها وأسِرَّتُها من عِرْقٍ واحد، فلما عرَجَ المعراج إلى السماء الخامسة - وتسبيحُ أهلها: سُبحانَ مَنْ جمَعَ بين الثلج والنار، من قالها مرةً واحدةً كان له مثلُ ثوابِهم - استفتحَ البابَ جبريلُ عليه السلام، ففُتِحَ له، فإذا هو بكهلٍ لم يُرَ قَطُّ كَهْلٌ أجملَ منه، عظيمُ العينين، تضرِبُ لحيتُه قريباً من سُرَّته، قد كاد أن تكون شَمْطةً[٢]، وحوله قومٌ جلوسٌ يقصُّ عليهم، فقلتُ: يا جبريل، من هذا؟ قال: هارون المُحَبُّ في قومه...» وذكر الحديث.

فهذه نبذةٌ مختصرةٌ من أحاديث الإسراء خارجةٌ عن الصحيحين، ذكرها أبو الربيع سليمان بن سَبُع بكمالها في كتاب «شفاء الصدور»[٣] له. ولا خلافَ بين أهل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنما فُرِضَتْ على النبيِّ ﷺ بمكةَ في حين الإسراء حين عُرِجَ به إلى السماء. واختلفوا في تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة، وهل كان إسراءً بروحه أو جسده، فهذه ثلاث مسائل تتعلَّق بالآية، وهي مما ينبغي الوقوف عليها والبحث عنها، وهي أهمُّ من سَرْد تلك الأحاديث، وأنا أذكر ما وقفتُ عليه فيها من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعون الله تعالى:

فأما **المسألة الأولى**: وهي هل كان إسراءً بروحه أو جسده؛ اختَلفَ في ذلك

---

(١) هو أبو سعيد الواعظ الحافظ، صاحب كتاب «شرف المصطفى»، توفي سنة ٤٠٦هـ. كشف الظنون ٢/ ١٠٤٥ .

(٢) من الشَّمَط: وهو بياض شعر الرأس يخالطه سواده. الصحاح (شمط).

(٣) قال صاحب مشارع الأشواق: وقفت عليه - يعني كتاب «شفاء الصدور» - في نحو أربعة أسفار، يشتمل على أحاديث في فضائل الأعمال، وضع فيه مؤلفه من عجائب الغرائب أصولاً وفروعاً، جمع فيه وادَّعى، وأودع أحاديث عريةً عن الإسناد. كشف الظنون ٢/ ١٠٥٠ .

السلفُ والخلف، فذهبت طائفةٌ إلى أنه إسراءٌ بالروح، ولم يفارِقْ شخصُه مضجَعَه، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الأنبياء حقٌّ. ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحُكيَ عن الحسن وابن إسحاق. وقالت طائفة: كان الإسراء بالجسد يقظةً إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ فجعل المسجدَ الأقصى غايةَ الإسراء. قالوا: ولو كانوا الإسراء بجسده إلى زائدٍ على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغَ في المدح. وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراءً بالجسد وفي اليقظة، وأنه ركب البراقَ بمكة، ووصل إلى بيت المقدس وصلَّى فيه ثم أُسْرِيَ بجسده. وعلى هذا تدلُّ الأخبارُ التي أشرنا إليها والآية. وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يُعدَلُ عن الظاهرِ والحقيقةِ إلى التأويلِ إلا عند الاستحالة، ولو كان مناماً لقال: بروح عبده، ولم يقُلْ: بعبده. وقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] يدلُّ على ذلك، ولو كان مناماً لما كانت فيه آيةٌ ولا معجزة، ولَما قالت له أمُّ هانئ: لا تُحدِّثِ الناسَ فيُكذِّبوك، ولا فُضِّلَ أبو بكر بالتصديق، ولَما أمكنَ قريشاً التشنيعُ والتكذيب، وقد كذبه قريش فيما أخبر به حتى ارتدَّ أقوامٌ كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر(١)، وقد قال له المشركون: إن كنتَ صادقاً فخبِّرنا عن عِيرنا أين لقِيتَها؟ قال: «بمكان كذا وكذا مررتُ عليها، ففزِعَ فلانٌ، فقيل له: ما رأيتَ يا فلان؟ قال: ما رأيتُ شيئاً، غيرَ أنَّ الإبل قد نفرت». قالوا: فأخبِرْنا متى تأتنا العير؟ قال: «تأتيكم يومَ كذا وكذا». قالوا: أيَّةَ ساعة؟ قال: «ما أدري، طلوعُ الشمس من هاهنا أسرع أم طلوعُ العِيرِ من ها هنا». فقال رجلٌ: ذلك اليوم، هذه الشمس قد طلعت. وقال رجلٌ: هذه عِيركم قد طلعت. واستخبروا النبيَّ ﷺ عن صفة بيت المقدس، فوصفَه لهم، ولم يكن رآه قبل ذلك(٢). روى الصحيح عن أبي هريرة قال: قال

(١) الشفا للقاضي عياض ١/٣٥٩ و ٣٦٠ و ٣٦٢ و ٣٦٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٣٤ - ٤٣٥ مع تقديم وتأخير وإدخال كلام بعضهما في بعض. وقول أم هانئ أخرجه ابن سعد ١/ ٢١٥.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٧١٤٢)، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٣٥٥-٣٥٧ من حديث شداد بن أوس، وقال: إسناده صحيح.

رسول الله ﷺ: «لقد رأيتُني في الحِجْرِ وقريشٌ تسألني عن مَسْراي، فسألَتْني عن أشياء من بيت المقدس لم أُثْبِتْها، فكُرِبْتُ كَرْباً ما كُرِبتُ مثلَه قطُّ ـ قال ـ فرفعه اللهُ لي أنظرُ إليه، فما سألوني عن شيءٍ إلا أنبأتُهم به» الحديث(١). وقد اعترِضَ قولُ عائشة ومعاوية: «إنما أُسرِيَ بنَفْس رسول الله ﷺ» بأنها كانت صغيرةً لم تُشاهِد، ولا حدَّثَتْ عن النبيِّ ﷺ. وأما معاوية فكان كافراً في ذلك الوقت غيرَ مشاهدٍ للحال، ولم يُحدِّث عن النبيِّ ﷺ(٢). ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على كتاب «الشفاء»(٣) للقاضي عياض يجد من ذلك الشفاء. وقد احتجَّ لعائشة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الآية ٦٠ من هذه السورة] فسمَّاها رؤيا. وهذا يردُّه قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ ولا يُقال في النوم: أسرى(٤). وأيضاً فقد يقال لرؤية العين: رؤيا، على ما يأتي بيانُه في هذه السورة. وفي نصوص الأخبار الثابتة دِلالةٌ واضحةٌ على أنَّ الإسراء كان بالبدن، وإذا ورد الخبرُ بشيءٍ هو مُجوَّزٌ في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريقَ إلى الإنكار، ولا سيما في زمن خرق العوائد، وقد كان للنبيِّ ﷺ معارجُ، فلا يبعُدُ أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يُحمل قوله عليه الصلاة والسلام في الصحيح: «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان» الحديث(٥). ويَحتمِلُ أن يُرَدَّ من الإسراء إلى نوم. والله أعلم.

المسألة الثانية: في تاريخ الإسراء، وقد اختلف العلماء في ذلك أيضاً، واختُلِفَ في ذلك على ابن شهاب؛ فروى عنه موسى بن عُقبة أنَّه أُسرِيَ به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة. وروى عنه يونس عن عروة عن عائشة قالت: تُوفِّيت

(١) صحيح مسلم (١٧٢).
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٥ .
(٣) ١/ ٣٤٣ - ٣٧٤ .
(٤) الشفاء ١/ ٣٦٨ .
(٥) صحيح البخاري (٣٢٠٧)، وصحيح مسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة، وأخرجه أحمد (١٧٨٣٣).

خديجةُ قبل أن تُفرَضَ الصلاة. قال ابن شهاب: وذلك بعد مبعث النبيِّ ﷺ بسبعة أعوام. وروى عنه الوَقَّاصيُّ قال: أُسْرِيَ به بعد مبعثه بخمس سنين[١]. قال ابن شهاب: وفُرِضَ الصيام بالمدينة قبل بدر، وفُرِضَتِ الزكاةُ والحجُّ بالمدينة، وحُرِّمتِ الخمرُ بعد أُحُد. وقال ابن إسحاق: أُسريَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس، وقد فشا الإسلام بمكة وفي[٢] القبائل. وروى عنه يونس ابن بكير قال: صلَّتْ خديجةُ مع النبيِّ ﷺ[٣]. وسيأتي. قال أبو عمر[٤]: وهذا يدلُّكَ على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام؛ لأنَّ خديجةَ قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بثلاث، وقيل: بأربع. وقول ابن إسحاق مخالفٌ لقول ابن شهاب، على أنَّ ابن شهاب قد اختُلِفَ عنه كما تقدَّم.

وقال الحَرْبِيُّ: أُسرِيَ به ليلة سبعٍ وعشرين من[٥] ربيع الأول[٦] قبل الهجرة بسنة[٧]. وقال أبو بكر محمد بن عليّ بن القاسم الذهبي في تاريخه: أُسريَ به من مكة إلى بيت المقدس، وعُرِجَ به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً. قال أبو عمر[٨]: لا أعلم أحداً من أهل السير قال ما حكاه الذهبي، ولم يُسْنِدْ قولَه إلى أحدٍ ممَّن يُضافُ إليه هذا العِلمُ منهم، ولا رَفعه إلى من يُحتَجُّ به عليهم.

---

(١) التمهيد لابن عبد البر ٨/ ٥٠ - ٥١ ، وقد أسند رواية موسى بن عقبة، وأما رواية يونس فقد تابعه عليها معمر بن راشد فيما أخرجه ابن سعد ٨/ ١٨ .

(٢) في (م) و(د)و(ز): في.

(٣) التمهيد ٨/ ٥١ - ٥٢ ، وأسند قول الزهري.

(٤) في التمهيد ٨/ ٥٢ - ٥٣ .

(٥) بعدها في (م) كلمة شهر، وهي ليست في النسخ الخطية.

(٦) في (م): الآخرة، وفي (د) و(ز) و(ف): الآخر، والمثبت من (ظ) ومن التمهيد، وينظر طبقات ابن سعد ١/ ٢١٤ .

(٧) التمهيد ٨/ ٤٩ .

(٨) في التمهيد ٨/ ٤٨ .

المسألة الثالثة: وأما فرض الصلاة وهيئتُها حين فرضت، فلا خلافَ بين أهل العلم وجماعةِ أهل السِّيَر أنَّ الصلاة إنما فُرِضتْ بمكةَ ليلةَ الإسراء حين عُرِجَ به إلى السماء، وذلك منصوصٌ في الصحيح وغيره، وإنما اختلفوا في هيئتها حين فُرِضَتْ؛ فرُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها أنها فُرِضَتْ ركعتين ركعتين، ثم زِيدَ في صلاة الحضر فأُكمِلَتْ أربعاً، وأُقِرَّتْ صلاةُ السفر على ركعتين. وبذلك قال الشَّعْبِيُّ وميمون ابن مِهْران ومحمد بن إسحاق[(١)].

قال الشَّعبيُّ: إلا المغرب[(٢)].

قال يونس بن بكير: وقال ابن إسحاق: ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبيَّ ﷺ حين فُرِضَتْ عليه الصلاةُ ـ يعني في الإسراء ـ فهمزَ له بعقِبه في ناحية الوادي فانفجرت عينُ ماءٍ، فتوضَّأ جبريلُ ومحمدٌ ينظر عليهما السلام، فوَضَّأ وجهَه، واستنشقَ، وتمضمض، ومسح برأسه وأُذنيه ورجليه إلى الكعبين، ونضحَ فرجَه، ثم قام يُصلِّي ركعتين بأربع سجدات، فرجع رسول الله ﷺ وقد أقرَّ اللهُ عينَه، وطابَتْ نفسُه، وجاءه ما يُحِبُّ من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة، ثم أتى بها العين، فتوضأ كما توضَّأ جبريل، ثم ركع ركعتين وأربع سجداتٍ هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يُصلِّيان سواء[(٣)].

ورُوِيَ عن ابن عباس أنها فُرِضَتْ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين. وكذلك قال نافع بن جُبَير والحسن بن أبي الحسن البصري، وهو قولُ ابنِ جُرَيج، ورويَ عن النبيِّ ﷺ ما يوافِقُ ذلك[(٤)]. ولم يختلفوا في أنَّ جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة

---

(١) التمهيد ٨/ ٣٣، وحديث عائشة أخرجه بنحوه البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٦٨٥).

(٢) التمهيد ٨/ ٤٧.

(٣) التمهيد ٨/ ٥٢.

(٤) وهو قوله ﷺ: «إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة» وأخرجه أحمد (١٩٠٤٧)، والترمذي (٧١٥) واللفظ له، وابن ماجه (١٦٦٧) من حديث أنس بن مالك رجل من بني عبد الله بن كعب.

الإسراء عند الزوال، فعلَّم النبيَّ ﷺ الصلاة ومواقيتها[١].

وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المُهاجِر قال: سمعتُ ميمون بن مِهْرانَ يقول: كان أوَّل الصلاة مثنى، ثم صلَّى رسول الله ﷺ أربعاً فصارت سُنَّة، وأُقِرَّتِ الصلاةُ للمسافر، وهي تمام. قال أبو عمر[٢]: وهذا إسنادٌ لا يُحتَجُّ بمثله، وقوله: «فصارت سُنَّة» قولٌ منكر، وكذلك استثناءُ الشعبيِّ المغربَ وحدَها ولم يذكُرِ الصبح قولٌ لا معنى له. وقد أجمعَ المسلمون أنَّ فرض الصلاة في الحضر أربعٌ إلا المغربَ والصُّبحَ، ولا يَعرِفون غيرَ ذلك عملاً ونقلاً مستفيضاً، ولا يضرُّهمُ الاختلافُ فيما كان أصلُ فرضِها.

الخامسة: قد مضى الكلام في الأذان في «المائدة»[٣] والحمد لله. ومضى في «آل عمران»[٤] أنَّ أوَّلَ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض المسجدُ الحرام، ثم المسجدُ الأقصى، وأنَّ بينهما أربعين عاماً من حديث أبي ذَرّ، وبناءُ سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو، ووجهُ الجمع في ذلك، فتأمَّلْه هناك فلا معنى للإعادة. ونذكر هنا قوله ﷺ: «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجد: إلى المسجد الحرام، وإلى مسجدي هذا، وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس». خرَّجه مالك من حديث أبي هريرة[٥]. وفيه ما يدلُّ على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء: من نذرَ صلاةً في مسجد لا يصِلُ إليه إلا برحلةٍ وراحلةٍ فلا يفعل، ويصلِّي في مسجده، إلا في الثلاثة المساجد المذكورة، فإنه من نذرَ صلاةً

---

(١) التمهيد ٨/ ٣٣ - ٣٤.

(٢) في التمهيد ٨/ ٤٧ - ٤٨ بعد أن ذكر تلك الرواية.

(٣) ٨/ ٥٩ - ٧٤.

(٤) ٥/ ٢٠٦ وما بعدها.

(٥) الموطأ ١/ ١٠٨ - ١٠٩، وأخرجه من طريقه أحمد (٢٣٨٤٨)، ولفظه: «لا تُعمَلُ المَطيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد»، ووقع في رواية مالك هذه أن أبا هريرة رواه عن بصرة بن أبي بصرة الغِفاري، فتعقَّبها ابن عبد البر في الاستيعاب ٢/ ٣٩ - ٤٠ فقال: إنما الحديث لأبي هريرة، وأظنُّ الوهم جاء فيه من يزيد بن الهاد - يعني شيخ مالك - والله أعلم.

فيها خرج إليها. وقد قال مالك وجماعةٌ من أهل العلم فيمن نذر رِباطا في ثَغْرٍ يَسُدُّه: فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط؛ لأنه طاعةٌ لله عزَّ وجلَّ[١]. وقد زاد أبو البَخْتَرِيِّ في هذا الحديث: مسجد الجند، ولا يصِحُّ وهو موضوع[٢]، وقد تقدَّم في مقدِّمة الكتاب[٣].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ سُمِّيَ الأقْصى لِبُعْدِ ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعدَ مسجدٍ عن أهل مكة في الأرض يُعظَّمُ بالزيارة، ثم قال: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ قيل: بالثمار وبمجاري الأنهار. وقيل: بمن دُفِنَ حولَه من الأنبياء والصالحين؛ وبهذا جعله مقدَّساً. وروى معاذ بن جبل عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: يا شامُ، أنتِ صفْوَتي من بلادي، وأنا سائقٌ إليكِ صفوتي من عبادي»[٤].

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ هذا من باب تلوين الخطاب. والآيات التي أراه الله من العجائب التي أخبر بها الناس، وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلةٍ وهو مسيرة شهر، وعروجُه إلى السماء، ووصفُه الأنبياء واحداً واحداً[٥]، حسبما ثبت في «صحيح مسلم» وغيره[٦]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقدم[٧].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾

أي: كَرَّمْنا محمداً ﷺ بالمعراج، وأكرَمْنا موسى بالكتاب: وهو التوراة[٨].

---

(١) الاستذكار ٢/ ٤١.

(٢) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ٣٨ وليس في إسناده أبو البختري، وإنما فيه محمد بن خالد الجندي والمثنى بن الصباح، ثم قال ابن عبد البر: هذا حديث منكر لا أصل له، ومحمد بن خالد الجندي والمثنى بن الصباح متروكان، ولا يثبت من جهة النقل.

(٣) ١/ ١٢٥ - ١٢٦ ، والذي تقدم ليس الحديث، وإنما الكلام على أبي البختري.

(٤) أخرجه الديلمي في فردوس الأخبار (٨١٢٥).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٦) وقد تقدم في أول السورة.

(٧) ٢/ ٢٦٢ و ٣٩٦ .

(٨) الوسيط ٣/ ٩٦ ، وزاد المسير ٥/ ٦ .

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: ذلك الكتاب. وقيل: موسى[١]. وقيل: معنى الكلام: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً وآتى موسى الكتاب، فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جلَّ وعزَّ[٢]. وقيل: إنَّ معنى سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً، معناه: أسرينا، يدلُّ عليه ما بعده من قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ فحمل ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ على المعنى. ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ قرأ أبو عمرو: «يتخذوا» بالياء. الباقون بالتاء[٣]. فيكون من باب تلوين الخطاب. ﴿وَكِيلًا﴾ أي: شريكاً. عن مجاهد. وقيل: كفيلاً بأمورهم. حكاه الفراء. وقيل: ربًّا يتوكَّلون عليه في أمورهم. قاله الكلبي[٤]. وقال الفراء[٥]: كافياً. والتقدير: عهدنا إليه في الكتاب ألا تتخذوا من دوني وكيلاً. وقيل: التقدير: لئلا تتَّخذوا[٦]. والوكيل: من يُوكَل إليه الأمر[٧].

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾

أي: يا ذرية من حملنا، على النداء. قاله مجاهد، ورواه عنه ابن أبي نَجيح[٨]. والمراد بالذرية كلُّ من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع مَن على الأرض؛ ذكره المهدوِيُّ. وقال المَاوَرْدِيُّ[٩]: يعني: موسى وقومه من بني إسرائيل. والمعنى: يا ذريةَ من حملنا مع نوحٍ لا تُشركوا. وذكر نوحاً ليذكِّرهم نِعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم[١٠].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٢٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٣٦ .

(٢) ينظر الوسيط ٣/ ٩٦ ، وزاد المسير ٥/ ٦ .

(٣) السبعة ص٣٧٨ ، والتيسير ص١٣٩ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٢٧ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٠ .

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ١١٦ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٤ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٢٤ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٢٠ .

(٩) في النكت والعيون ٣/ ٢٢٨ .

(١٠) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٠ .

وروى سفيان، عن حُميد، عن مجاهد أنه قرأ: «ذَرِّيَّة» بفتح الذال وتشديد الراء والياء. وروى هذه القراءة عامر بن عبد الواحد، عن زيد بن ثابت. ورُوي عن زيد بن ثابت أيضاً «ذِرِّية» بكسر الذال وشَدِّ الراء[١].

ثم بيَّن أن نوحاً كان عبداً شكوراً يشكر الله على نعمه، ولا يرى الخير إلا من عنده. قال قتادة: كان إذا لبِسَ ثوباً قال: بسم الله، فإذا نزعه قال: الحمد لله. كذا روى عنه معمر[٢]. وروى معمر عن منصور عن إبراهيم قال: شُكْرهُ إذا أكلَ قال: بسم الله، فإذا فرغَ من الأكل قال: الحمد لله[٣]. قال سلمان الفارسي: لأنه كان يحمَدُ الله على طعامه[٤]. وقال عمران بن سليم[٥]: إنما سُمِّي نوحاً عبداً شكوراً؛ لأنه كان إذا أكل قال: الحمدُ لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء لأعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني ولو شاء لأحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني الأذى ولو شاء لحبسه فيّ[٦]. ومقصود الآية: إنكم من ذرية نوحٍ وقد كان عبداً شكوراً، فأنتم أحقُّ بالاقتداء به دون آبائكم الجُهَّال. وقيل: المعنى: أنَّ موسى كان عبداً شكوراً إذْ جعلَه اللهُ تعالى من ذرية نوح[٧]. وقيل: يجوز أن يكون «ذرية» مفعولاً ثانياً لـ «تتخذوا»، ويكون قولُه: «وكيلاً» يُرادُ به الجمعُ، فيسوغُ ذلك في القراءتين جميعاً، أعني الياءَ والتاءَ في «تتخذوا». ويجوز أيضاً في القراءتين جميعاً أن يكون «ذريةَ» بدلاً من قوله: «وكيلاً»؛ لأنه بمعنى

---

(١) سلف ٢/ ٣٦٨ من قراءتي زيد بن ثابت، ووقع هنا في (م): عامر بن الواحد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٣ - ٣٧٤، والطبري ١٤/ ٤٥٤، وعندهما: «أخلقه» بدل «نزعه».

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد ص٦١.

(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٢ - ٤٥٣، والحاكم ٢/ ٣٦٠، والبيهقي في الشعب (٤٤٧١).

(٥) هو قاضٍ من قضاة حمص، قال فيه مكحول الشامي: ما نزل الشام قاضٍ مثله. التاريخ الكبير ٦/ ٤١٢.

(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٣ - ٤٥٤.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٢٨.

الجمع، فكأنه قال: لا تتَّخِذوا ذريةَ من حملنا مع نوح. ويجوزُ نصبُها بإضمار أعني وأمدَحُ، والعرب قد تنصِبُ على المدحِ والذَّمِّ. ويجوز رفعُها على البدل من المضمر في «تتَّخذوا» في قراءة من قرأ بالياء، ولا يحسُنُ ذلك لمن قرأ بالتاء؛ لأنَّ المخاطَبَ لا يُبدَلُ منه الغائب[1]. ويجوزُ جَرُّها على البدل من بني إسرائيل في الوجهين. فأما «أنْ» من قوله: «ألا تتخذوا» فهي على قراءة من قرأ بالياء في موضعِ نصبٍ بحذف الجار، التقدير: هديناهم لئلَّا يتَّخذوا. ويصلُحُ على قراءة التاء أن تكون زائدةً، والقولُ مضمَرٌ كما تقدَّم. ويصلُحُ أن تكون مفسِّرةً بمعنى أي، لا موضع لها من الإعراب، وتكون «لا» للنهي، فيكون خروجاً من الخبر إلى النهي[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ وقرأ سعيد بن جُبير وأبو العالية: «فِي الكتب» على لفظ الجمع[3]. وقد يردُ لفظ الواحد ويكون معناه الجمع، فتكون القراءتان بمعنًى واحد. ومعنى «قَضَينا»: أعلمنا وأخبرنا. قاله ابن عباس[4]. وقال قتادة: حكمنا[5]. وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه[6]. وقيل: قضينا أوحينا[7]؛ ولذلك قال: «إلى بني إسرائيل». وعلى قول قتادة يكون «إلى» بمعنى

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٤ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٧-٤٢٨ ، والبيان ٢/ ٨٦ ، وزادوا وجهاً آخر، وهو النصب على النداء لمن قرأ: «تتخذوا» بالتاء.

(٢) مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٨ - ٤٢٩ ، وزاد وجهاً ثالثاً لمن قرأ: «تتخذوا» بالتاء، وهو أن تكون (أن) في موضع نصب، و(لا) زائدة، والمعنى: كراهة أن تتخذوا.

(٣) القراءات الشاذة ص٧٤ - ٧٥ .

(٤) زاد المسير ٥/ ٧ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٢٨ .

(٦) ينظر تهذيب اللغة ٩/ ٢١٣ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٧ ، والوسيط ٣/ ٩٧ .

على، أي: قضينا عليهم وحكمنا. وقاله ابن عباس أيضاً. والمعنِيُّ بالكتاب: اللوحُ المحفوظُ[١].

﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ وقرأ ابن عباس: «لَتُفْسَدُنَّ». عيسى الثَّقفي: «لَتَفْسُدُنَّ». والمعنى في القراءتين قريب؛ لأنَّهم إذا أُفسِدوا فسدوا[٢]. والمراد بالفساد: مخالفةُ أحكام التوراة[٣]. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يريدُ أرضَ الشام وبيتَ المقدس وما والاها[٤]. ﴿مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ﴾ اللام في «لتُفسِدُنَّ ولتَعْلُنَّ» لام قسمٍ مُضمَرٍ كما تقدَّم[٥]. ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أراد التكبرَ والبَغْيَ والطغيانَ والاستطالةَ والغَلَبَةَ والعدوان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أُولَى المرَّتين من فسادهم[٦]. ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: هم أهل بابل، وكان عليهم بُخْتَنَصَّر في المرة الأولى حين كذَّبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه. قاله ابن عباس وغيره[٧]. وقال قتادة: أرسلَ عليهم جالوتَ فقتلهم، فهو وقومُه أولو بأسٍ شديد[٨]. وقال مجاهد: جاءهم جندٌ من فارس يتجسَّسون أخبارهم ومعهم بُخْتَنَصَّر، فوَعَى حديثَهم من بين أصحابه، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال، وهذا في المرة الأولى[٩]، فكان منهم جَوْسٌ

(١) زاد المسير ٥/ ٧ .
(٢) المحتسب ٢/ ١٤ . وهما قراءتان شاذتان.
(٣) الوسيط ٣/ ٩٧ ، وزاد المسير ٥/ ٧ .
(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٠٦ .
(٥) ١٢/ ١١٦ .
(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٢٩ .
(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٤٧٢ – ٤٧٥ من رواية سعيد بن جبير.
(٨) أخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٤٧٢ .
(٩) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٧٦ .

خلال الديار لا قتل. ذكره القشيريُّ أبو نصر. وذكر المهدوِيُّ عن مجاهد أنه جاءهم بُختَنَصَّر فهزمه بنو إسرائيل، ثم جاءهم ثانيةً فقتلهم ودمَّرهم تدميراً. ورواه ابن أبي نَجيح عن مجاهد. ذكره النحاس[1]. وقال محمد بن إسحاق في خبرٍ فيه طول: إنَّ المهزوم سَنْحَاريب ملك بابل، جاء ومعه ستُّ مئة ألف راية، تحت كلِّ رايةٍ مئة ألف فارس، فنزل حول بيت المقدس، فهزمه الله تعالى، وأماتَ جميعهم إلا سَنْحاريب وخمسةَ نفَرٍ من كُتَّابِه، وبعثَ ملكُ بني إسرائيل - واسمه صِدِّيقة - في طلب سَنْحاريب، فأُخِذ مع الخمسة، أحدُهم بُختَنَصَّر، فطرحَ في رقابهم الجوامع، وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيلياء، ويرزقهم كلَّ يومٍ خُبزتينِ من شعيرٍ لكلِّ رجلٍ منهم، ثم أطلقَهم، فرجعوا إلى بابل، ثم مات سَنْحاريب بعد سبع سنين، واستُخلِفَ بُختَنَصَّر، وعظُمتِ الأحداثُ في بني إسرائيل، واستَحلُّوا المحارمَ، وقتلوا نبيَّهم شَعْيَا، فجاءهم بُختَنَصَّر ودخل هو وجنوده بيت المقدس، وقتلَ بني إسرائيل حتى أفناهم[2]. وقال ابن عباس وابن مسعود: أوَّل الفساد قتلُ زكريا[3]. وقال ابن إسحاق: فسادُهم في المرة الأولى قتلُ شَعْيا نبيِّ الله في الشجرة؛ وذلك أنه لمَّا مات صِدِّيقة مَلِكُهم مَرِجَ أمرُهم وتنافسوا على المُلْك وقَتلَ بعضُهم بعضاً، وهم لا يسمعون من نبيِّهم؛ فقال الله تعالى له: قُمْ في قومِكَ أُوحِ على لسانك، فلمَّا فرغَ ممَّا أوحى الله إليه عَدَوْا عليه ليقتلوه، فهرب، فانفلقَتْ له شجرةٌ فدخلَ فيها، وأدركَه الشيطانُ، فأخذ هُدْبةً من ثوبه فأراهم إيَّاها، فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها[4]. وذكر ابن إسحاق أنَّ بعض العلماء أخبره أنَّ زكريا مات موتاً

(١) في معاني القرآن له ٤/ ١٢٢ .

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٩ - ٤٦٨ . والجوامع جمع جامعة: وهي الغُلُّ؛ لأنها تجمع اليدين إلى العنق. الصحاح (جمع).

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٤) هو تتمة رواية ابن إسحاق السابقة. مَرِجَ الأمر: اختلط. الصحاح (مرج).

ولم يُقتَلْ، وإنما المقتول شَعْيَا[١].

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿ثم بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾: هو سَنْحاريبُ من أهل نِينَوَى بالمَوْصل ملكُ بابل. وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق، فالله أعلم. وقيل: إنهم العمالقة وكانوا كُفَّاراً. قاله الحسن[٢].

ومعنى جاسوا: عاثوا وقتلوا، وكذلك جاسوا وهاسوا وداسوا. قاله ابن عَزيز، وهو قول القُتَبِيِّ[٣]. وقرأ ابن عباس: «حاسوا» بالحاء المهملة[٤]. قال أبو زيد: الحَوْس والجَوْس والعَوْس والهَوْس: الطواف بالليل. وقال الجوهري[٥]: الجَوْسُ مصدرُ قولِكَ: جاسوا خلال الديار، أي: تخلَّلوها فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجلُ الأخبار، أي: يطلبها، وكذلك الاجتياس. والجَوَسان ـ بالتحريك ـ: الطَّوَفان بالليل. وهو قول أبي عبيدة[٦]. وقال الطبري[٧]: طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين. فجمع بين قولَي[٨] أهل اللغة. قال ابن عباس: مشَوا وتردَّدوا بين الدُّور والمساكن[٩]. وقال الفراء: قتلوكم بين بيوتكم[١٠]. وأُنشِدَ لحسَّان:

---

(١) أخرجه أيضاً الطبري ١٤/ ٤٦٩ .

(٢) زاد المسير ٥/ ٩ .

(٣) في غريب القرآن ص٢٥١ ، وعنده: أي: عاثوا بين الديار وأفسدوا، يقال: جاسوا وحاسوا، فهم يجوسون ويحوسون.

(٤) ذكر في المحتسب ٢/ ١٥ هذه القراءة لأبي السَّمَّال. وهي قراءة شاذة.

(٥) في الصحاح (جوس).

(٦) نقل الماوردي في النكت و العيون ٣/ ٢٣٠ عن أبي عبيدة أنه قال: معناه: فتَّشوا وطلبوا خلال الديار. وذهب الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٢٧ إلى مثل قول الجوهري.

(٧) في تفسيره ١٤/ ٤٧١ .

(٨) في (م) و(د): قول.

(٩) تفسير الطبري ١٤/ ٤٧٠ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٢٩ .

(١٠) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٦ .

ومنَّا الذي لاقى بسيفِ محمدٍ فجاسَ به الأعداءَ عَرْضَ العساكرِ

وقال قطرب: نزلوا؛ قال:

فجُسْنا ديارَهُمُ عَنوةً وأُبْنا بساداتهم مُوثَقينا[١]

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي: قضاءً كائناً لا خُلْفَ فيه[٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الدَّولة والرجعة؛ وذلك لمَّا تُبتُم وأطعتُم[٣]. ثم قيل: ذلك بقتل داودَ جالوتَ أو بقتل غيره، على الخلاف في من قتلهم[٤]. ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ حتى عاد أمركم كما كان. ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي: أكثر عدداً ورجالاً من عدوِّكم[٥]. والنَّفير: مَنْ ينفِرُ مع الرجل من عشيرته؛ يقال: نفير ونافر، مثل: قدير وقادر[٦]. ويجوز أن يكون النَّفير جمع نَفْر كالكَليبِ والمَعيزِ والعَبيد[٧]؛ قال الشاعر:

فأكْرِمْ بقحطانَ من والدٍ وحِمْيرَ أكرِمْ بقومٍ نَفيرا[٨]

والمعنى: أنهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثرَ انضماماً وأصلحَ أحوالاً، جزاءً من الله تعالى لهم على عَوْدِهم إلى الطاعة.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٠٦.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٠، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٦، وزاد المسير ٥/ ١٠.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٣٠، وزاد المسير ٥/ ١٠.

(٥) الوجيز على هامش مراح لبيد ١/ ٤٧٢.

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥١.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٨، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٢٤.

(٨) قائله تبع بن بكر الحميري كما في النكت والعيون ٣/ ٢٣٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٣٩ - ٤٤٠.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: نَفْعُ إحسانكم عائدٌ عليكم. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها[1]، نحو: سلامٌ لك، أي: سلامٌ عليك. قال:

* فخَرَّ صريعاً لليدين وللفمِ[2] *

أي: على اليدين وعلى الفم. وقال الطبري[3]: اللام بمعنى إلى، يعني: وإن أسأتُم فإليها، أي: فإليها ترجع الإساءة؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] أي: إليها. وقيل: فلها الجزاء والعقاب[4]. وقال الحسين بن الفضل: فلها رَبٌّ يغفر الإساءة.

ثم يحتمل أن يكون هذا خطاباً لبني إسرائيل في أول الأمر؛ أي: أسأتُم فحلَّ بكم القتلُ والسَّبْيُ والتخريبُ، ثم أحسنتم فعاد إليكم الملك والعُلُوّ وانتظامُ الحال. ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيل في زمن محمدٍ ﷺ[5]، أي: عرفتم استحقاقَ أسلافِكم للعقوبة على العصيان فارتقبوا مثله. أو يكون خطاباً لمشركي قريش على هذا الوجه.

---

(١) مجمع البيان ١٥/١٦ .

(٢) عجز لبيت، صدره: وهتكت بالرمح الطويل إهابه. ينظر أدب الكاتب لابن قتيبة ص٥١١ ، وعجز البيت اختُلف على صدره اختلافاً كبيراً، وكذلك اختُلف على قائله، فيقال: هو لجابر بن حُني كما في المفضليات ص٢١٢ ، ويقال: للمقشعر بن جديع النصري كما في الحماسة البصرية ١/ ٦٩ ، ويقال: لربيعة بن مُكدَّم كما في زهر الأكم ١/ ١٠٤ ، ويقال: لعصام بن مقشعر البصري، أو لشداد بن معاوية العبسي، أو لكعب بن مدلج الأسدي، أو للأشتر النخعي كما في معجم الشعراء ص١١٤ ، ويقال: لكعب بن حدير كما في شرح أدب الكاتب للجواليقي ص٣٥٩ ، ويقال: للمكعبر الأسدي، أو للمكعبر الضبي، أو لشريح بن أوفى، أو للأشعث بن قيس كما في الاقتضاب ص٤٣٩ ، ويقال غير ذلك.

(٣) في تفسيره ١٤/ ٤٧٨ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٠٦ .

(٥) مجمع البيان ١٥/ ١٦ .

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ من إفسادكم، وذلك أنهم قتلوا في المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السلام، قتله مَلِكٌ من بني إسرائيل يقال له لاخت. قاله القُتَبِيُّ. وقال الطبري: اسمه هيردوس. ذكره في التاريخ[١]، حمله على قتله امرأةٌ اسمُها أزبيل[٢]. وقال السُّدِّي: كان ملكُ بني إسرائيل يُكرِمُ يحيى بن زكريا ويستشيره في الأمر، فاستشاره الملكُ أن يتزوَّجَ بنت امرأةٍ له، فنهاه عنها وقال: إنها لا تحِلُّ لك، فحقدت أمُّها على يحيى عليه السلام، ثم ألبَستِ ابنتَها ثياباً حُمراً رقاقاً، وطيَّبتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرابه، وأمرَتْها أن تتعرَّضَ له، وإن أرادها أبَتْ حتى يُعطيَها ما تسألهُ، فإذا أجاب سألتْ أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طَسْتٍ من ذهب، ففعلت ذلك، حتى أُتي برأس يحيى بن زكريا والرأسُ يتكلَّم، حتى وُضِعَ بين يديه وهو يقول: لا تحِلُّ لك، لا تحِلُّ لك، فلمَّا أصبح إذْ دَمُه يَغْلي، فألقى عليه الترابَ فغلى فوقه، فلم يزل يلقي عليه التراب حتى بلغَ سُوْرَ المدينة وهو في ذلك يَغْلي. ذكره الثعلبي وغيره[٣]. وذكر ابن عساكر الحافظ في «تاريخه» عن الحسين بن عليّ قال: كان ملكٌ من هذه الملوك ماتَ وتركَ امرأتَه وابنتَه، فورِث مُلْكَه أخوه، فأراد أن يتزوَّجَ امرأةَ أخيه، فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك ـ وكانت الملوك في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء ـ فقال له: لا تتزوَّجْها فإنها بَغِيٌّ، فعرفَتْ ذلك المرأةُ أنه قد ذكرها وصرَفَه عنها، فقالت: من أين هذا؟ حتى بلغها أنه من قِبَلِ يحيى، فقالت: لَيُقتلَنَّ يحيى أو لَيُخرَجَنَّ من ملكه، فعمَدت إلى ابنتها وصنَّعتها، ثم قالت: اذهبي إلى عمِّكِ عند الملأ فإنه إذا رآكِ سيدعوكِ ويُجلِسُكِ في حَجْرِه، ويقول: سليني ما شئتِ، فإنك لن تسأليني شيئاً إلا أعطيتُكِ، فإذا قال لكِ ذلك فقولي: لا أسألُ إلا رأسَ يحيى. قال: وكانت الملوكُ إذا تكلَّمَ أحدُهم بشيءٍ على رؤوس الملأ ثم لم يُمْضِ له

---

(١) ١/ ٥٩٠ ، وفي (م) و(د): هردوس، والمثبت من تاريخ الطبري، ومن باقي النسخ الخطية.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٦ .

(٣) الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٨٢ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٤٨٠ - ٤٨١ .

نُزِعَ من ملكه، ففعلت ذلك. قال: فجعل يأتيه الموتُ من قتله يحيى، وجعل يأتيه الموتُ من خروجه من ملكه، فاختار ملكَه فقتله. قال: فساخَتْ بأمِّها الأرضُ. قال ابن جُدْعان: فحدَّثْتُ بهذا الحديث ابنَ المُسيِّبِ فقال: أفما أخبرَكَ كيف كان قَتْلُ زكريا؟ قلت: لا. قال: إنَّ زكريا حيث قُتِلَ ابنُه انطلقَ هارباً منهم، واتَّبعوه حتى أتى على شجرةٍ ذاتِ ساقٍ، فدَعَتْه إليها، فانطوَتْ عليه، وبقيَتْ من ثوبه هُدْبةٌ تكفَّتها الرياح، فانطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثرَه بعدها، ونظروا بتلك الهُدْبة، فدَعَوا بالمِنشار، فقطعوا الشجرة فقطعوه معها[1].

قلت: وقع في «التاريخ الكبير» للطبري[2]: فحدثني أبو السائب قال: حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المِنْهال، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: بعَثَ عيسى ابنُ مريم يحيى بنَ زكريا في اثني عشر من الحواريِّين يُعلِّمون الناس. قال: كان فيما نَهَوْهم عنه نكاحُ ابنةِ الأخ. قال: وكان لملِكهم ابنةُ أخٍ تُعجبه... وذكر الخبر بمعناه.

وعن ابن عباس قال: بُعِثَ يحيى بنُ زكريا في اثني عشر من الحواريِّين يُعلِّمون الناس، وكان فيما يُعلِّمونهم ينهونهم عن نكاح بنتِ الأخت، وكان لملِكهم بنتُ أُختٍ تعجبه، وكان يريد أن يتزوَّجها، وكان لها كلَّ يوم حاجةٌ يقضيها، فلما بلغ ذلك أمَّها أنهم نهَوا عن نكاح بنت الأخت قالت لها: إذا دخلتِ على الملكِ فقال: ألكِ حاجةٌ؟ فقولي: حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا، فقال: سليني سوى هذا. قالت: ما أسألُكَ إلا هذا. فلمَّا أبَتْ عليه دعا بِطَسْتٍ ودعا به فذبحه، فندَرت قطرةٌ من دمِه على وجه الأرض، فلم تزل تَغْلي حتى بعثَ اللهُ عليهم بُخْتَنصَّر، فأُلقيَ في نفسه أن يَقتُلَ على ذلك الدَّم منهم حتى يسكن ذلك الدم، فقَتل عليه منهم سبعين ألفاً، وفي رواية: خمسةً وسبعين ألفاً[3]. قال سعيد بن المُسيِّب: هي دِيَةُ كل نبيٍّ[4]. وعن ابن عباس

---

(١) تاريخ دمشق ٦٤/٢٠٦، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. تهذيب التهذيب ٣/١٦٢ - ١٦٤.

(٢) ١/٥٨٦.

(٣) أخرجه ابن عساكر ٦٤/٢٠٧، وهو من نفس الطريق الذي رواه الطبري.

(٤) أخرجه ابن عساكر ٦٤/٢١٠، وفيه: سعيد بن عبد العزيز بدل ابن المسيب.

قال: أوحى اللهُ إلى محمدٍ ﷺ أني قتلتُ بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإني قاتلٌ بابنِ ابنَتِكَ سبعين ألفاً وسبعين ألفاً[١]. وعن شِمْر بن عطية قال: قُتِلَ على الصخرة التي في بيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا[٢]. وعن زيد بن واقد[٣] قال: رأيتُ رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق أُخرِجَ من تحت ركنٍ من أركان القُبَّةِ التي تَلي المحراب مما يلي الشرق، فكانتِ البشرةُ والشعرُ على حاله لم يتغيَّر[٤]. وعن قُرَّة بن خالد[٥] قال: ما بكتِ السماءُ على أحدٍ إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن عليّ؛ وحُمرتُها بكاؤها[٦]. وعن سفيان بن عُيَيْنة قال: أوحَشُ ما يكونُ ابنُ آدمَ في ثلاثة مواطن: يومَ وُلِدَ فيخرجُ إلى دارِ هَمٍّ، وليلةَ يبيتُ مع الموتى فيُجاورُ جيراناً لم يَرَ مثلَهم، ويومَ يُبعَثُ فيَشْهدُ مشهَداً لم يَرَ مثلَه؛ قال الله تعالى ليحيى في هذه الثلاثة المواطن: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[٧] [مريم: ١٥]. كلُّه من التاريخ المذكور.

واختُلِفَ فيمن كان المبعوث عليهم في المرة الآخرة، فقيل: بُخْتَنصَّر. وقاله القشيري أبو نصر، لم يذكر غيره[٨].

قال السُّهَيْليُّ: وهذا لا يصح؛ لأنَّ قَتْلَ يحيى كان بعدَ رَفْعِ عيسى، وبُختَنصَّر كان قبل عيسى ابن مريم عليهما السلام بزمانٍ طويل، وقبل الإسكندر، وبين الإسكندر

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٢٩٠ و ٥٩٢ و ٣/ ١٧٨ ، والخطيب في تاريخه ١/ ١٤٢ ، وابن عساكر ٤/ ٢٢٥ و ٦٤/ ٢١٦ ، وابن الجوزي في المنتظم ٥/ ٣٤٦ .

(٢) أخرجه ابن عساكر ٦٤/ ٢١٧ ، وتحرف اسم شمر في جميع النسخ إلى سمير.

(٣) أبو عمر - ويقال: أبو عمرو - القرشي مولاهم، الدمشقي الفقيه. توفي سنة (١٣٨هـ). السير ٦/ ٢٩٦ .

(٤) أخرجه ابن عساكر ٢/ ٢٤١ و ٦٤/ ٢١٨ .

(٥) الحافظ، أبو خالد، ويقال: أبو محمد السدوسي البصري. توفي سنة (١٥٤هـ). السير ٧/ ٩٥ .

(٦) أخرجه ابن عساكر ٦٤/ ٢١٧ .

(٧) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٥٩٨)، وابن عساكر ٦٤/ ١٧٤ .

(٨) ونقله في النكت والعيون ٣/ ٢٣٠ ، وفي زاد المسير ٥/ ١١ عن مجاهد.

وعيسى نحوٌ من ثلاث مئة سنة، ولكنه أُريدَ بالمرة الأخرى حين قتلوا شَعْيا، فقد كان بُختَنصَّر إذ ذاكَ حيًّا، فهو الذي قتلهم وخرَّبَ بيتَ المقدس، وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها[١].

وقال الثعلبي[٢]: ومن روى أنَّ بُختَنصَّر هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا فغلَطٌ عند أهل السِّيَرِ والأخبار؛ لأنَّهم مُجمعون على أن بُختَنصَّر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شَعْيا وفي عهد إرْمِياء. قالوا: ومن عهد إرْمِياء وتخريبِ بُختَنصَّر بيتَ المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا عليهما السلام أربعُ مئة سنة وإحدى وستون سنة، وذلك أنهم يعدُّون من عهد تخريب بيت المقدس إلى عمارته في عهد كوسك[٣] سبعين سنة، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانيةً وثمانين سنة، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلاثَ مئةٍ وثلاثاً وستين سنة[٤].

قلت: ذكر جميعَه الطبري في التاريخ[٥] رحمه الله. قال الثعلبي[٦]: والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال: لمَّا رفعَ اللهُ عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى ـ وبعض الناس يقول: لمَّا قتلوا زكريا ـ بعثَ اللهُ إليهم ملكاً من ملوك بابل يُقال له: خردوس، فسار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشام، ثم قال لرئيس جنوده: كنتُ حلفتُ بإلهي لَئِنْ أظهرني اللهُ على بيت المقدس لأقتلنَّهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، وأمرَ أن يقتلَهم حتى يبلُغَ ذلك منهم، فدخل الرئيسُ بيتَ المقدس فوجد

(١) زاد المسير ٥/ ١١، وتفسير الرازي ٢٠/ ١٥٨.
(٢) في عرائس المجالس ص٣٤٣ - ٣٤٤.
(٣) في مطبوع العرائس: كربن.
(٤) في مطبوع العرائس: ثلاث مئة وثلاثون سنة.
(٥) ١/ ٥٧١ - ٥٧٩.
(٦) ص٣٤٤.

فيها دماءً تَغْلي، فسألهم فقالوا: دَمُ قُربانٍ قرَّبناه فلم يُتقبَّلْ مِنَّا منذ ثمانين[1] سنة. قال: ما صَدَقتموني. فذبَحَ على ذلك الدم سبعَ مئةٍ وسبعين رجلاً من رؤسائهم فلم يهدأ، فأمر[2] بسبعة آلاف من سَبْيِهم[3] وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يَبْرُد، فقال: يا بني إسرائيل، أُصدُقوني قبل ألا أترك منكم نافخَ نارٍ من أنثى ولا من ذكرٍ إلا قتلتُه. فلمَّا رأوا الجَهد قالوا: إنَّ هذا دمُ نبيٍّ منَّا كان ينهانا عن أمورٍ كثيرةٍ مِن سَخَط الله فقتلناه، فهذا دمه، كان اسمه يحيى بن زكريا، ما عصى اللهَ قطُّ طرفة عينٍ ولا هَمَّ بمعصية. فقال: الآن صدَقتُموني. وخرَّ ساجداً، ثم قال: لِمِثْلِ هذا يُنتقَم منكم. وأمر بغلق الأبواب وقال: أخرِجوا من كان هاهنا من جيش خردوس. وخلا في بني إسرائيل وقال: يا نبيَّ الله، يا يحيى بن زكريا، قد عَلِمَ ربي وربُّكَ ما قد أصاب قومَك من أجلك، فاهدأ بإذن الله قبل ألا أُبقي منهم أحداً. فهدأ دمُ يحيى بن زكريا بإذن الله عزَّ وجلَّ، ورفع عنهم القتل وقال: ربِّ، إني آمنتُ بما آمن به بنو إسرائيل وصدَّقتُ به. فأوحى الله تعالى إلى رأسٍ من رؤوس الأنبياء: إنَّ هذا الرئيس مؤمنٌ صدوق. ثم قال: إنَّ عدوَّ الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإني لا أعصيه، فأمرهم فحفروا خَنْدَقاً وأمر بأموالهم من الإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قُتِلوا قبل ذلك فطُرِحوا على ما قُتِلَ من مواشيهم، ثم انصرف عنهم إلى بابل، وقد كاد أن يُفني بني إسرائيل.

قلت: قد ورد في هذا الباب حديث مرفوع فيه طولٌ من حديث حُذيفة، وقد كتبناه في كتاب «التذكرة»[4] مقطَّعاً في أبوابٍ في أخبار المَهْدِيِّ، نذكر منها هنا ما

(١) في مطبوع العرائس: ثمان مئة.

(٢) قبلها في (م): «فأتى بسبع مئة غلام من غلمانهم فذُبحوا فلم يهدأ».

(٣) في مطبوع العرائس: بنيهم.

(٤) ص٦٢٠ - ٦٢١.

يُبيِّن معنى الآية ويُفسِّرها حتى لا يحتاج معه إلى بيان، قال حذيفة: قلتُ: يا رسول الله، لقد كان بيتُ المقدس عند الله عظيماً جسيمَ الخطرِ عظيمَ القدر. فقال رسول الله ﷺ: «هو من أجَلِّ البيوت، ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهبٍ وفضَّةٍ ودُرٍّ وياقوتٍ وزُمرُّدٍ» وذلك أنَّ سليمان بن داود لمَّا بناه سَخَّرَ اللهُ له الجِنَّ فأتوه بالذهب والفضَّة من المعادن، وأتوه بالجواهر والياقوت والزُّمرُّد، وسخَّرَ اللهُ تعالى له الجِنَّ حتى بنَوه من هذه الأصناف. قال حذيفة: فقلتُ: يا رسول الله، وكيفَ أُخِذَتْ هذه الأشياءُ من بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ بني إسرائيل لمَّا عصَوا اللهَ وقتلوا الأنبياء سلَّطَ اللهُ عليهم بُختَنصَّر وهو من المجوس، وكان ملكُه سبع مئة سنة، وهو قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ فدخلوا بيت المقدس، وقتلوا الرجال وسَبوا النساءَ والأطفالَ، وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف، فاحتملوها على سبعين ألفاً ومئة ألف عجَلَة حتى أودعوها أرض بابل، فأقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم بالخزي والعقاب والنكال مئة عام، ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ رحِمَهم، فأوحى إلى ملكٍ من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس في أرض بابل، وأن يستنقِذَ مَنْ في أيديهم من بني إسرائيل، فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل، فاستنقذ مَنْ بقي من بني إسرائيل من أيدي المجوس، واستُنقِذَ ذلك الحُليُّ الذي كان من بيت المقدس، وردَّه الله إليه كما كان أول مرة، وقال لهم: يا بني إسرائيل إن عُدتُم إلى المعاصي عُدْنا عليكم بالسَّبْي والقتل، وهو قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصي، فسلَّط الله عليهم ملك الروم قَيْصر، وهو قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ فغزاهم في البرِّ والبحر، فسباهم وقتلهم، وأخذ أموالهم ونساءهم، وأخذَ حُليَّ جميعِ بيت المقدس، واحتمله على سبعين ألفاً ومئة ألف عَجلة حتى أودعه في كنيسة الذهب - فهو فيها

الآن ـ حتى يأخذه المهدِيُّ فيردّه إلى بيت المقدس، وهو ألف سفينة وسبع مئة سفينة يُرْسَى بها على يافا، حتى تُنقل إلى بيت المقدس. وبها يجمع اللهُ الأوّلين والآخرين...» وذكر الحديث(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: من المرَّتين(٢)، وجواب «إذا» محذوف، تقديره: بعثناهم، دلَّ عليه «بعثنا» الأوَّل. ﴿لِيَسُـٔۥُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أي: بالسَّبْي والقتل فيظهر أثر الحزن في وجوهكم؛ فـ «ليسوؤوا» متعلِّقٌ بمحذوف، أي: بعثنا عباداً ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم(٣). قيل: المراد بالوجوه السادة، أي: ليُذِلُّوهم(٤). وقرأ الكسائي: «لنسوءَ» بنون وفتح الهمزة، فعلُ مُخبرٍ عن نفسه مُعظَّم؛ اعتباراً بقوله: «وقضينا» و«بعثنا» و«رددنا» ونحوه عن عليٍّ. وتصديقها قراءة أُبيٍّ: «لَنَسوءنْ» بالنون وحرف التوكيد(٥). وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وَثَّاب وحمزة وابن عامر: «ليسوءَ» بالياء على التوحيد وفتح الهمزة(٦)، ولها وجهان: أحدهما: ليسوء اللهُ

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٤/٤٥٧ - ٤٥٩ عن عصام بن رواد، عن أبيه رواد بن الجراح، عن سفيان الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة. عصام بن رواد ليَّنه أبو أحمد الحاكم فيما ذكره الذهبي في الميزان ٣/٦٦ . وروَّاد بن الجراح قال فيه ابن حجر في التقريب: اختلط بأخرة فتُرِك، وفي حديثه عن الثوري ضعف شديد. وقال ابن كثير متعقِّباً الطبري: هو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث، والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته، وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٠ .

(٣) ينظر الوسيط ٣/ ٩٧ - ٩٨ .

(٤) ينظر مجمع البيان ١٤/ ١٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٠ ، وينظر الوسيط ٣/ ٩٨ ، وقراءة الكسائي في السبعة ص٣٧٨ ، والتيسير ص١٣٩ ، وأما قراءة أُبي فقد ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٥ ، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٥ : «لنسوءاً» بالتنوين. وقال النحاس في المعاني ٤/ ١٢٥ : بالنون الخفيفة واللام المفتوحة والوقف عليه مثل: «لنسفعاً».

(٦) النشر ٢/ ٣٠٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٠ .

وجوهَكم. والثاني: ليسوءَ الوعدُ وجوهَكم[١]. وقرأ الباقون: «ليسوؤوا» بالياء وضمِّ الهمزة على الجمع، أي: ليسوء العبادُ الذين هم أولو بأسٍ شديدٍ وجوهَكم[٢].

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي: ليُدمِّروا ويُهلكوا. وقال قُطْرُب: يهدموا؛ قال الشاعر:

فما الناسُ إلا عاملانِ فعاملٌ ... يُتَبِّرُ ما يَبْني وآخرُ رافِعُ[٣]

﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: غلبوا عليه من بلادكم ﴿تَتْبِيرًا﴾[٤].

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ وهذا مما أخبروا به في كتابهم. و«عسى» وعدٌ من الله أن يكشف عنهم، و«عسى» من الله واجبة. ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد انتقامه منكم، وكذلك كان؛ فكثَّر عددَهم وجعل منهم الملوك. ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ قال قتادة: فعادوا، فبعثَ الله عليهم محمداً ﷺ، فهم يُعطون الجزية بالصَّغار. ورُوي عن ابن عباس[٥]. وهذا خلاف ما تقدَّم في الحديث وغيره. وقال القُشَيْرِيُّ: وقد حلَّ العقاب ببني إسرائيل مرتين على أيدي الكفار، ومرةً على أيدي المسلمين. وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم، وعلى هذا يصِحُّ قولُ قتادة.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٦ - ١١٧ وعنده في الوجه الثاني: ليسوء العذابُ وجوهَكم. والوسيط ٣/ ٩٨ ، وزاد المسير ٥/ ١١ ، وعندهما: ليسوء البعثُ وجوهكم.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٤٧٨ - ٤٧٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٦ ، وينظر السبعة ص٣٧٨ ، والتيسير ص١٣٩ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٣١ ، والبيت قائله لبيد، وهو في ديوانه ص٨٩ .

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٥٠٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٧ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٣١ ، والوسيط ٣/ ٩٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٧ ، ومجمع البيان ١٤/ ١٨ ، وزاد المسير ٥/ ١١ - ١٢ . وقول ابن عباس مختصر، أخرجه الطبري ١٤/ ٥٠٦ ، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٣ ، وفي مصنفه (٩٨٨٢)، والطبري ١٤/ ٥٠٦ .

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مَحْبِساً وسِجْناً، من الحَصْر وهو الحبس[١]. قال الجوهري: يُقال: حصرَه يحصرُه حصراً: ضيَّقَ عليه وأحاط به. والحصير: الضيِّقُ البخيل. والحصير: البارِيَّة. والحصير: الجَنْب، قال الأصْمَعِيُّ: هو ما بين العِرْقِ الذي يظهر في جنب البعير والفرس معترِضاً فما فوقه إلى مُنقَطَعِ الجَنْب. والحصير: الملِك؛ لأنه محجوب. قال لبيد:

وقماقِمٍ غُلْبِ الرِّقابِ كأنَّهمْ   جِنٌّ لدى بابِ الحصيرِ قيامُ

ويُروى:

* ومَقامةٍ غُلْبِ الرقاب[٢] ... ... *

على أن يكون «غُلْب» بدلاً من «مَقامة» كأنه قال: ورُبَّ غُلْبِ الرقاب. وروى غير[٣] أبي عُبيدة:

* ... لدى طرَفِ الحصيرِ قيامُ *

أي: عند طرف البساط للنعمان بن المنذر. والحصير: المَحْبِس؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾[٤]. قال القُشَيْرِيُّ: ويقال للذي يُفترش: حصير؛ لحَصْرِ بعضِه على بعضٍ بالنسج. وقال الحسن: أي: فراشاً ومهاداً[٥]. ذهب إلى الحصير الذي يُفرش؛ لأنَّ العربَ تُسمِّي البساطَ الصغير حصيراً[٦]. قال الثعلبي: وهو وجهٌ حسن[٧].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٦١، والنكت والعيون ٣/ ٢٣١، والوسيط ٣/ ٩٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٠، وزاد المسير ٥/ ١٢، وهو قول ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم، وأخرجه عنهم الطبري ١٤/ ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٢) وهكذا في ديوانه ص١٦١.

(٣) في (م) و(د) و(ز): عن.

(٤) الصحاح (حصر)، ومن قوله: «الحصير: الملك» إلى نهاية البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٧١.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٤، والطبري ١٤/ ٥٠٨.

(٦) تفسير الطبري ١٤/ ٥٠٩.

(٧) وكذا قال الطبري.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ لمَّا ذكر المِعراجَ ذكر ما قضى إلى بني إسرائيل، وكان ذلك دِلالةً على نبوَّة محمدٍ ﷺ، ثم بيَّن أنَّ الكتاب الذي أنزله الله عليه سبب اهتداء. ومعنى ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: الطريقة التي هي أسدُّ وأعدلُ وأصوب، فـ «التي» نعتٌ لموصوفٍ محذوف، أي: الطريقة إلى نصٍّ أقوم[١]. وقال الزجاج[٢]: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله، والإيمان برسله. وقاله الكلبي والفرَّاء[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تقدَّم[٤]. ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنَّ لهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: الجنة. ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ويبشِّرهم بأنَّ لأعدائهم العقاب. والقرآن مُعظَمُه وعدٌ ووعيد. وقرأ حمزة والكسائيُّ: «ويَبْشُر» مخفَّفاً بفتح الياء وضمِّ الشين، وقد ذُكر[٥].

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو دعاءُ الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يُحِبُّ أن يُستجابَ له: اللَّهُمَّ أهلِكْه، ونحوه. ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي: كدعائه ربَّه أن يَهَبَ له العافية، فلو استجابَ اللهُ دعاءَه على نفسه بالشرِّ هلكَ، لكن بفضله لا يستجيبُ له في ذلك[٦]. نظيره: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ١٦١.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٧، ونقله في النكت والعيون ٣/ ٢٣٢ عن الكلبي.

(٤) ١/ ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٥) ٥/ ١١٣.

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٥١٢.

﴿ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ وقد تقدّم[١].

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، كان يدعو ويقول: «اللهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم»[٢]. وقيل: هو أن يدعو في طلب المحظور كما يدعو في طلب المباح[٣]، قال الشاعر وهو ابن جامع:

أطوفُ بالبيتِ فيمَنْ يطوفُ ... وأرفَعُ من مِئْزَرِي الْمُسْبَلِ
وأسجدُ بالليلِ حتى الصباحِ ... وأَتْلُو من الْمُحْكَمِ الْمُنْزَلِ
عسى فارجُ الْهَمِّ عن يوسفٍ ... يُسَخِّرُ لي رَبَّةَ المَحْمِلِ[٤]

قال الجوهري[٥]: يُقال: ما على فلانٍ مَحْمِلٌ، مثالُ مجلس، أي: مُعتمَد. والمَحْمِل أيضاً: واحدُ محامِلِ الحاجِّ. والمِحْمَلُ مثال المِرْجَل: عِلاقة السيف.

وحُذفَتِ الواو من «ويَدْعُ الإنسان» في اللفظ والخطّ ولم تحذف في المعنى؛ لأنَّ موضعها رَفْعٌ، فحُذِفَتْ لاستقبالها اللام الساكنة، كقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦]، ﴿يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١]، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾[٦] [القمر: ٥].

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي: طبعُه العَجَلة[٧]، فيَعْجَل بسؤال الشرِّ كما يعجَلُ بسؤال الخير[٨]. وقيل: أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تُركَّبَ فيه الروح على

(١) ١٠/ ٤٦١ .

(٢) نقله في زاد المسير ٥/ ١٣ عن مقاتل.

(٣) مجمع البيان ١٥/ ٢٠ .

(٤) الأبيات في عيون الأخبار ٤/ ٩١ - ٩٢ ، والعقد الفريد ٦/ ٩ - ١٠ .

(٥) في الصحاح (حمل).

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٧ - ١١٨ ، وليس عنده آية الشورى.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٤ .

(٨) الوسيط ٣/ ٩٩ .

الكمال[١]. قال سلمان: أوَّلُ ما خلقَ اللهُ تعالى من آدم رأسَه، فجعلَ ينظر وهو يُخلَقُ جسدُه، فلما كان عند العصر بقيت رِجلاه لم يُنفَخْ فيهما الرُّوحُ، فقال: يا ربِّ عَجِّلْ قبل الليل؛ فذلك قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[٢]. وقال ابن عباس: لما انتهتِ النفخةُ إلى سُرَّتِه نظر إلى جسده، فذهبَ لينهضَ فلم يقْدِر، فذلك قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[٣]. وقال ابن مسعود: لمَّا دخل الرُّوحُ في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلمَّا دخل في جوفِه اشتهى الطعام، فوثَبَ قبل أن يبلغَ الرُّوحُ رجليه عَجْلانَ إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ذكره البيهقي[٤]. وفي «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لمَّا صوَّرَ اللهُ تعالى آدمَ في الجنة تركَه ما شاء الله أن يترُكَه، فجعلَ إبليسُ يُطيفُ به ينظرُ ما هو، فلما رآه أجوَفَ عرَفَ أنه خُلِقَ خلقاً لا يتمالك» وقد تقدّم[٥]. وقيل: سلَّمَ عليه الصلاة والسلام أسيراً إلى سَوْدة، فباتَ يئِنُّ، فسألَتْه فقال: أنيني لِشدَّة القِدِّ والأسر. فأرخَتْ من كتافه، فلما نامت هرب، فأخبرتِ النبيَّ ﷺ، فقال: «قطعَ اللهُ يدَيكِ» فلما أصبحت كانت تتوقَّع الآفة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إني سألتُ اللهَ تعالى أن يجعلَ دعائي على من لا يستحِقُّ من أهلي رحمةً؛ لأني بشرٌ أغضَبُ كما يغضَبُ البشر» ونزلت الآية. ذكره القشيري أبو نصر رحمه الله[٦]. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إنَّما محمدٌ بشرٌ يغضَبُ كما يغضَبُ البشرُ، وإني قدِ اتَّخذْتُ عندكَ عهداً لن تُخْلِفَنِيه، فأيُّما مؤمنٍ آذيتُه أو سببتُه أو جلدتُه فاجعَلْها

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٣٣ ، ومجمع البيان ١٥/ ٢١ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ١١٠ - ١١١ ، والطبري ١٤/ ٥١٤ .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥١٤ .

(٤) في الأسماء والصفات (٧٧٣)، وقد تقدم مطولاً ١/ ٤١٧ - ٤١٩ .

(٥) صحيح مسلم (٢٦١١)، وسلف ١٢/ ٢٠٧ .

(٦) وذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٢٩ ، والرازي في تفسيره ٢٠/ ١٦٢ ، وفي رواية أن المستودعة هي عائشة رضي الله عنها كما في المسند (٢٤٢٥٩) ومسند إسحاق بن راهويه (١١٢٥)، وسنن البيهقي ٩/ ٨٩ ، وفي رواية أخرى أنها حفصة كما في المسند (١٢٤٣١)، والأحاديث المختارة (١٦٢٠).

له كفارةً وقُرْبةً تُقرِّبُه بها إليك يوم القيامة»[١]. وفي الباب عن عائشة وجابر[٢].

وقيل: معنى ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي: يؤثر العاجل وإن قَلَّ، على الآجِلِ وإن جَلَّ[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ أي: علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا، والآية فيهما: إقبالُ كلٍّ واحدٍ منهما من حيثُ لا يعلمُ، وإدبارُه إلى حيث لا يعلم، ونقصانُ أحدهما بزيادة الآخر وبالعكس آيةٌ أيضاً، وكذلك ضوءُ النهار وظلمةُ الليل. وقد مضى هذا[٤].

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ ولم يقل: فمحونا الليل، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دلَّ على أنَّ الآيتين المذكورتين لهما لاهما[٥]. و«مَحَوْنَا» معناه: طمسنا[٦]. وفي الخبر: أنَّ اللهَ تعالى أمرَ جبريل عليه السلام فأَمَرَّ جناحَه على وجه القمر فطمس عنه الضوء، وكان كالشمس في النور، والسوادُ الذي يُرى في القمر من أثر المحو. قال ابن عباس: جعلَ الله الشمس سبعين جزءاً والقمر سبعين جزءاً، فمحا من نور القمر تسعةً وستين جزءاً، فجعله مع نور الشمس، فالشمس على مئةٍ وتسعٍ[٧] وثلاثين جزءاً والقمرُ على جزءٍ واحد. وعنه أيضاً: خلقَ اللهُ شمسين من نور عرشه، فجعل ما سبق

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٠١)، وأخرجه أحمد (٧٣١١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤١٧٩)، ومسلم (٢٦٠٠) عن عائشة، وأحمد (١٤٧٥٠)، ومسلم (٢٦٠٢) عن جابر.

(٣) ينظر تفسير الرازي ٢٠/ ١٦٢ .

(٤) ٢/ ٤٩٠ - ٤٩٤ .

(٥) ينظر الكشاف ٢/ ٤٤٠ .

(٦) الوسيط ٣/ ٩٨ .

(٧) كلمة «وتسع» ليست في النسخ، وأثبتت من المصادر؛ إذ لا يستقيم المعنى إلا بإثباتها.

في علمه أن يكون شمساً مثل الدنيا على قَدْرِها ما بين مشارقها إلى مغاربها، وجعل القمرَ دون الشمس، فأرسل جبريلَ عليه السلام فأمَرَّ جناحَه على وجهه ثلاث مرات ـ وهو يومئذٍ شمسٌ ـ فطُمِسَ ضوؤُه وبقي نورُه؛ فالسواد الذي ترونه في القمر أثرُ المحو، ولو تركه شمساً لم يُعْرفِ الليلُ من النهار. ذكر عنه الأوّل الثعلبيُّ[1] والثاني المَهدَوِيّ، وسيأتي مرفوعاً. وقال عليٌّ ﷺ وقتادة: يريد بالمحو اللطخةَ السوداءَ التي في القمر؛ ليكون ضوءُ القمر أقلَّ من ضوء الشمس، فيتميزَ به الليل من النهار[2].

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: جعلنا شمسَه مضيئةً للأبصار[3]. قال أبو عمرو ابن العَلاء: أي: يُبْصَرُ بها[4]. قال الكسائيّ: وهو من قول العرب: أبصرَ النهارَ إذا أضاء، وصار بحالةٍ يُبْصَرُ بها، وقيل: هو كقولهم خبيثٌ مُخْبِثٌ إذا كان أصحابُه خُبَثاء. ورجلٌ مُضْعِفٌ إذا كانت دوابُّه ضِعافاً؛ فكذلك النهار مُبْصِراً إذا كان أهله بُصَراء[5].

﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريد التصرُّف في المعاش. ولم يذكُرِ السكونَ في الليل اكتفاءً بما ذكر في النهار. وقد قال في موضعٍ آخر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: لو لم يفعل ذلك لما عُرِفَ الليلُ من النهار، ولا كان يُعرَفُ الحساب والعدد[6].

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي: من أحكام التكليف؛ وهو كقوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ

(١) وذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١٠٧، وذكره أيضاً السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٦٧ لكن نسبه إلى عكرمة.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٣٢، وأخرجه الطبري ١٤/ ٥١٥ من قول علي ﷺ.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٣٢.

(٤) وهو قول ابن قتيبة في الغريب ص٢٥٢، وتأويل المشكل ص٢٢٨.

(٥) وهو قول أبي عبيدة كما ذكر الرازي في تفسيره ٢٠/ ١٦٥ - ١٦٦.

(٦) الوسيط ٣/ ٩٩، وزاد المسير ٥/ ١٤.

شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]. وعن ابن عباس أنَّ النبيّ ﷺ قال: «لما أبرمَ اللهُ خلقَه فلم يبقَ من خلقه غيرُ آدم خلق شمساً من نور عرشه وقمراً، فكانا جميعاً شمسَين، فأما ما كان في سابق علم الله أن يَدَعها شمساً فخلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها، وأما ما كان في علم الله أن يخلقَها قمراً فخلقها دون الشمس في العِظَم، ولكن إنما يُرى صِغَرُهما من شدة ارتفاع السماء وبُعدِها من الأرض، فلو تركَ اللهُ الشمسَ والقمرَ كما خلقهما لم يُعرَفِ الليلُ من النهار، ولا كان الأجير يدري إلى متى يعمل، ولا الصائمُ إلى متى يصوم، ولا المرأةُ كيف تَعْتَدُّ، ولا تُدْرَى أوقاتُ الصلوات والحج ولا تحِلُّ الديون، ولا حين يبذرون ويزرعون، ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهم، وكأنَّ اللهَ نظرَ إلى عباده ـ وهو أرحم بهم من أنفسهم ـ فأرسل جبريلَ فأمَرَّ جناحَه على وجه القمر ثلاثَ مراتٍ ـ وهو يومئذٍ شمسٌ ـ فطمسَ عنه الضوء، وبقي فيه النور، فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ الآية[1].

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ قال الزَّجَّاج[2]: ذِكرُ العُنقِ عبارةٌ عن اللزوم كلزوم القِلادة للعنق.

وقال ابن عباس: «طائره»: عمله وما قُدِّر عليه من خيرٍ وشر، وهو ملازمه أينما كان[3]. وقال مقاتل والكلبي: خيرُه وشرُّه معه لا يفارقه حتى يُحاسَبَ به[4]. وقال

(١) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٦٥ - ٦٦ ، وفي إسناده أبو نعيم عمر بن صبح، وهو متروك، وقد اتُّهم بالوضع. الميزان ٣/ ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٠ .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥١٩ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٠٨ .

مجاهد: عمله ورزقه[١]. وعنه: ما من مولودٍ يولد إلا وفي عُنقه ورقةٌ فيها مكتوب: شَقِيٌّ أو سعيد[٢]. وقال الحسن: «ألزمناه طائره» أي: شقاوته وسعادته، وما كُتِبَ له من خيرٍ وشرٍّ وما طار له من التقدير[٣]، أي: صار له عند القسمة في الأزل. وقيل: أراد به التكليف، أي: قدرناه إلزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمِر به وينزجر عما زُجر به أمكنه ذلك.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ يعني: كتابَ طائرِه الذي في عنقه[٤]. وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد: «طيره» بغير ألف[٥]؛ ومنه ما روى في الخبر: «اللَّهُمَّ لا خيرَ إلا خيرُكَ، ولا طَيْرَ إلا طيرُكَ، ولا ربَّ غيرُكَ»[٦].

وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن مُحَيْصِن وأبو جعفر ويعقوب: «ويَخْرُج» بفتح الياء وضمِّ الراء[٧]، على معنى: ويَخرجُ له الطائرُ كتاباً؛ فـ «كتاباً» منصوبٌ على الحال. ويَحتمِلُ أن يكون المعنى: ويخرجُ الطائرُ فيصيرُ كتاباً. وقرأ يحيى بن وَثَّاب: «ويُخْرِج» بضمِّ الياء وكسر الراء، ورُوي عن مجاهد[٨]، أي: يُخرِجُ الله. وقرأ شيبة ومحمد بن السَّمَيْفَعِ، ورُويَ أيضاً عن أبي جعفر: «ويُخْرَج» بضمِّ الياء وفتح الراء

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٢٠ ، والبيهقي في الشعب (٢١٦١)، ولم يُذكر: رزقه، وهو كذلك في تفسير مجاهد ١/ ٣٥٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٢٠ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٥٩ .

(٣) زاد المسير ٥/ ١٥ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٣٣ .

(٥) الشواذ ص٧٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٢ ، وزاد المسير ٥/ ١٦ .

(٦) أخرجه أحمد (٧٠٤٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٨ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣١ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٢٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣ ، وزاد المسير ٥/ ١٦ ، والنشر ٢/ ٣٠٦ ، ولم يذكروا هذه القراءة عن أبي جعفر.

(٨) هذه القراءة في معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٨ ، وفي النشر ٢/ ٣٠٦ عن أبي جعفر، وهي من العشرة. وهي في زاد المسير ٥/ ١٦ عن قتادة وأبي المتوكل.

على الفعل المجهول[١]، ومعناه: ويُخرجُ له الطائرُ كتاباً. الباقون: «ونُخرِجُ» بنونٍ مضمومةٍ وكسرِ الراء، أي: ونحن نخرج. واحتجَّ أبو عمرو في هذه القراءة بقوله: «ألزمناه».

وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر «يُلَقَّاه» بضمِّ الياء وفتح اللام وتشديد القاف[٢]، بمعنى: يؤتاه[٣]. الباقون: بفتح الياء خفيفة، أي: يراه منشوراً. وقال: «منشوراً»: تعجيلاً للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة[٤]. وقال أبو السَّوَّار العدوي[٥] وقرأ هذه الآية: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قال: هما نشرتان وَطَيَّة، أما ما حييتَ يا بن آدم فصحيفتُكَ المنشورةُ فأَمْلِ فيها ما شئت، فإذا متَّ طُوِيتْ حتى إذا بُعِثْتَ نُشِرَتْ[٦]. ﴿اقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ قال الحسن: يقرأ الإنسانُ كتابه أُمِّيًّا كان أو غير أُمِّيٍّ[٧]. ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: محاسباً[٨]. وقال بعض الصلحاء: هذا كتابٌ، لسانُك قلمُه، وريقُك مِدادُه، وأعضاؤك قرطاسُه، أنتَ كنتَ المُمْلي على حَفَظتِكَ، ما زِيد فيه ولا نُقِصَ منه، ومتى أنكرتَ منه شيئاً يكون فيه الشاهد منكَ عليكَ.

قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إنما كلُّ

(١) زاد المسير ٥/ ١٦، والنشر ٢/ ٣٠٦ عن أبي جعفر، وهي من العشرة.

(٢) السبعة ص٣٧٨، والتيسير ص١٣٩ عن ابن عامر، والنشر ٢/ ٣٠٦ عن أبي جعفر وابن عامر، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣ عن ابن عامر والحسن.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٠٨.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٣٣.

(٥) البصري، وقد اختُلف في اسمه، فقيل: حسان بن حريث، وقيل: حريث بن حسان، وقيل غير ذلك، وهو من التابعين الثقات، وله روايةٌ في الصحيحين. تهذيب التهذيب ٤/ ٥٣٥.

(٦) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٨٣، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٥٠.

(٧) الوسيط ٣/ ١٠٠، وزاد المسير ٥/ ١٦.

(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٢، وزاد المسير ٥/ ١٦.

أحدٍ يُحاسَبُ عن نفسه لا عن غيره، فمن اهتدى فثوابُ اهتدائه له، ومن ضلَّ فعقابُ كفره عليه[(١)].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تقدَّم في الأنعام[(٢)]. وقال ابن عباس: نزلت في الوليد ابن المغيرة، قال لأهل مكة: اتبعونِ واكفروا بمحمدٍ وعليَّ أوزاركم، فنزلت هذه الآية، أي: إن الوليد لا يحمِلُ آثامَكم، وإنما إثمُ كلِّ واحدٍ عليه[(٣)]. يُقال: وَزَرَ يزِر وِزْراً ووِزْرَةً، أي: أثِم[(٤)]. والوِزْر: الثِّقْل المثقِل والجمع أوزار، ومنه: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام:٣١] أي: أثقال ذنوبهم[(٥)]. وقد وَزَر إذا حَمَل فهو وازر؛ ومنه وزير السلطان الذي يحمل ثِقْل دولته[(٦)]. والهاء في قوله كناية عن النفس، أي: لا تؤخَذُ نفسٌ آثمةٌ بإثم أخرى[(٧)]، حتى إنَّ الوالدة تَلْقَى ولدَها يوم القيامة فتقول: يا بنيَّ، ألم يكن حَجْري لكَ وِطاءً؟ ألم يكن ثديي لكَ سِقاءً؟ ألم يكن بطني لكَ وعاءً؟ فيقول: بلى يا أمَّهْ. فتقول: يا بنيَّ، فإن ذنوبي أثقلَتْني فاحمِلْ عني منها ذنباً واحداً. فيقول: إليكِ عني يا أمَّهْ، فإني بذنبي عنكِ اليومَ مشغول[(٨)].

مسألة: نزعت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية في الردِّ على ابن عمر حيث قال: «إنَّ الميتَ لَيُعَذَّبُ ببكاءِ أهله»[(٩)]. قال علماؤنا: وإنما حملها على ذلك أنه لم تسمعه، وأنه معارِضٌ للآية. ولا وجه لإنكارها، فإنَّ الرُّواةَ لهذا المعنى كثير، كعمر

---

(١) الوسيط ٣/ ١٠٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣، وزاد المسير ٥/ ١٦.

(٢) ٩/ ١٤٥ - ١٤٧.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣، وسبب النزول في الوسيط ٣/ ١٠٠، وزاد المسير ٥/ ١٦.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣١.

(٥) ينظر ما تقدم ٨/ ٣٥٩.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣.

(٧) ينظر مجاز القرآن ١/ ٣٧٢.

(٨) سيورده المؤلف من كلام الفضيل بن عياض عند تفسير الآية (١٨) من سورة فاطر.

(٩) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣، وقول ابن عمر إنما هو مرفوعٌ إلى النبي ﷺ كما أخرجه أحمد (٤٩٥٩)، والبخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٧): (١٦).

وابنه والمغيرة بن شعبة وقَيْلة بنت مخرمة[١]، وهم جازمون بالرواية، فلا وجه لتخطِئتهم، ولا معارضَةَ بين الآية والحديث؛ فإن الحديث مَحمَلُه على ما إذا كان النوح من وصيَّةِ الميت وسُنَّته، كما كانت الجاهلية تفعله، حتى قال طَرَفة:

إذا مِتُّ فانعيني بما أنا أهلُهُ ... وشُقِّي عليَّ الجيبَ يا بنتَ مَعْبَدِ[٢]

وقال آخر[٣]:

إلى الحَوْلِ ثمَّ اسمُ السلامِ عليكما ... ومن يَبْكِ حولاً كاملاً فقدِ اعتذَرْ[٤]

وإلى هذا نحا البخاري[٥]. وقد ذهب جماعةٌ من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يُعذَّب بنَوْحِهم؛ لأنه أهملَ نهيَهم عنه قبل موته وتأديبَهم بذلك، فيُعذَّب بتفريطه في ذلك، وبترك ما أمره الله به من قوله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] لا بذنبِ غيرِه، والله أعلم[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ أي: لم نتركِ الخلقَ سُدًى، بل أرسلنا الرسل. وفي هذا دليلٌ على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، خلافاً للمعتزلة القائلين بأن العقل يُقبِّحُ ويُحسِّنُ ويُبيحُ ويُحظِّر. وقد تقدَّم في البقرة القول فيه[٧]. والجمهور على أن هذا في حكم الدنيا، أي: أنَّ الله لا يُهلك أمةً بعذابٍ إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار. وقالت فرقة: هذا عامٌّ في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى:

(١) حديث عمر أخرجه أحمد (١٨٠)، والبخاري (١٢٨٧)، ومسلم (٩٢٧). وحديث ابن عمر ذكره المؤلف. وحديث المغيرة أخرجه أحمد (١٨١٤٠)، والبخاري (١٢٩١)، ومسلم (٩٣٣). وحديث قيلة أخرجه ابن سعد ١/ ٢٣٠ في حديث طويل.

(٢) ينظر إكمال المعلم للقاضي عياض ٣/ ٣٧٠ - ٣٧١ ، والبيت في ديوان طرفة ص٣٩ .

(٣) كلمة «آخر» من (ظ)، وهي ليست في باقي النسخ.

(٤) قائله لبيد، وهو في ديوانه ص٧٩ . ونُسب في خزانة الأدب ٤/ ٣٤٢ إلى زوجة الحسن بن الحسن بن علي، وإلى أرطاة بن سُهيَّة المري.

(٥) فقال بعد الحديث (١٢٨٢): باب قول النبي ﷺ: «يُعذَّب الميت ببعض بكاء أهله عليه» إذا كان النوح من سنته.

(٦) إكمال المعلم ٣/ ٣٧٢ .

(٧) ١/ ٣٧٧ - ٣٧٨ .

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا﴾ [الملك: ٨-٩]. قال ابن عطية[١]: والذي يعطيه النظرُ أنَّ بِعثةَ آدمَ عليه السلام بالتوحيد وبَثِّ المعتقدات في بنيه مع نصب الأدلَّة الدالَّة على الصانع مع سلامة الفِطَر توجِبُ على كلِّ أحدٍ من العالَم الإيمانَ واتباعَ شريعة الله، ثم تجدَّد ذلك في زمن نوحٍ عليه السلام بعد غرق الكفار، وهذه الآيةُ أيضاً يُعطي احتمالُ ألفاظها نحوَ هذا في الذين لم تصِلْهم رسالة، وهم أهل الفَتَرات الذين قد قدَّرَ وجودَهم بعضُ أهل العلم، وأما ما رُويَ من أنَّ الله تعالى يبعثُ إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديثٌ لم يصِحَّ، ولا يقتضي ما تعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف.

قال المهدويُّ: ورُوي عن أبي هريرة أنَّ الله عزَّ وجلَّ يبعثُ يومَ القيامة رسولاً إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصمِّ، فيُطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه في الدنيا، وتلا الآية. رواه معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة. ذكره النحاس[٢].

قلت: هذا موقوف، وسيأتي مرفوعاً في آخر سورة طه[٣] إن شاء الله تعالى، ولا يصِحُّ. وقد استدلَّ قومٌ في أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى، وهذا صحيح، ومن لم تبلُغْه الدعوةُ فهو غيرُ مستحِقٍّ للعذاب من جهة العقل، والله أعلم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٤.

(٢) في معاني القرآن ١/ ١٣٢، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٤ عن معمر، به.

(٣) عند تفسير الآية (١٣٤)، وينظر الكلام عليه هناك.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٢.

الأولى: أخبر الله تعالى في الآية التي قبلُ أنه لم يُهلكِ القرى قبل ابتعاث الرسل، لا لأنه يقبح منه ذلك إن فعل، ولكنه وعدٌ منه، ولا خُلْفَ في وعده، فإذا أراد إهلاك قريةٍ مع تحقيق وعدِه على ما قاله تعالى أمرَ مترفيها بالفِسق والظلم فيها، فحقَّ عليها القولُ بالتدمير. يُعلِمُكَ أنَّ من هلكَ فإنما هلكَ بإرادته، فهو الذي يسببُ الأسبابَ ويسوقُها إلى غاياتها، ليَحُقَّ القولُ السابقُ من الله تعالى(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا﴾ قرأ أبو عثمان النَّهْدِيُّ وأبو رجاء وأبو العالية والربيع ومجاهد والحسن: «أمَّرْنا» بالتشديد، وهي قراءة عليٍّ ﷺ(٢)، أي: سلَّطنا شرارها فعصَوْا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم(٣). وقال أبو عثمان النهدِيُّ: «أمَّرْنا» بتشديد الميم: جعلناهم أمراء مسلَّطين(٤). وقاله ابن عَزيز(٥). وتأمَّر عليهم: تسلَّط عليهم(٦). وقرأ الحسن أيضاً وقتادة وأبو حَيْوة الشامي ويعقوب، وخارجة عن نافع، وحماد بن سَلَمة عن ابن كَثير، وعليٌّ وابنُ عباس باختلافٍ عنهما «آمرنا» بالمدِّ والتخفيف(٧)، أي: أكثَرْنا جبابرتَها وأُمراءها. قاله الكسائي(٨). وقال أبو عبيدَة: آمرته بالمد وأمرته، لغتان بمعنى كثَّرته؛ ومنه الحديث «خير المال مُهْرَةٌ مأمُورة، أو سِكَّةٌ مأبورة» أي: كثيرة النِّتاج والنَّسل(٩). وكذلك قال ابن عزيز: آمرنا وأمرنا بمعنًى واحد، أي: أكثرنا(١٠). وعن الحسن أيضاً ويحيى بن يَعْمَر: «أمِرْنا» بالقصر وكسر

---

(١) المصدر السابق.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣ ، والمحتسب ٢/ ١٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٤ ، وهي قراءة شاذة.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٢٩ ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٢٣) من قول ابن عباس ﷺ.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٣٥ .

(٥) في نزهة القلوب ص٨٣ .

(٦) الصحاح (أمر).

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٠٩ ، وزاد المسير ٥/ ١٩ ، والنشر ٢/ ٣٠٦ ، وقراءة يعقوب من العشرة.

(٨) وقاله أبو الليث السمرقندي في تفسيره ٢/ ٢٦٣ .

(٩) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٧٣ بمعناه، والحديث سلف ١٢/ ١٣٤ .

(١٠) نزهة القلوب ص٨٣ .

الميم على فَعِلنا، ورُويَتْ عن ابن عباس[(١)] قال قتادة والحسن: المعنى: أكثرنا، وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد، وأنكره الكسائي وقال: لا يُقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد. قال: وأصلها «أأمرنا» فخفف، حكاه المهدويّ[(٢)]. وفي «الصحاح»: وقال أبو الحسن: أَمِر مالُه (بالكسر) أي: كثر. وأَمِرَ القومُ، أي: كَثُروا؛ قال الشاعر:

أَمِـرونَ لا يَـرِثـون سَـهْـمَ الـقُـعْـدُدِ

وآمَرَ اللهُ مالَه (بالمد)[(٣)]. الثعلبي: ويُقال للشيء الكثير: أَمِرٌ، الفعل منه: أَمِرَ القومُ يأمَرون أمراً إذا كثروا. قال ابن مسعود: كنَّا نقول في الجاهلية للحيِّ إذا كَثُروا: أَمِرَ أَمْرُ بني فلان؛ قال لَبيد:

كـلُّ بـنـي حُـرَّةٍ مَـصـيـرُهُـم ... قُـلٌّ وإن أكـثـرَتْ مـن الـعـددِ
إن يُـغْـبَـطُـوا يَـهْـبِـطُـوا وإن أَمِـرُوا ... يـومـاً يـصـيـروا لـلـهُـلْـكِ والـنَّـكَـدِ[(٤)]

قلت: وفي حديث هِرَقل الحديثِ الصحيح: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كَبشة، إنه ليخافه مَلِكُ بني الأصفر[(٥)]. أي: كثُرَ. وكلُّه غير متعدٍّ، ولذلك أنكره الكسائي، والله أعلم. قال المهدوي: ومن قرأ: «أَمِرَ» فهي لغة، ووجه تعدية «أمِرَ» أنه شبَّهه بعَمِرَ من حيث كانت الكثرةُ أقربَ شيءٍ إلى العمارة، فعدَّى كما عدَّى عَمِرَ.

الباقون: «أَمَرْنا» من الأمر؛ أي: أمرناهم بالطاعة[(٦)] إعذاراً وإنذاراً وتخويفاً ووعيداً. ﴿فَفَسَقُوا۟﴾ أي: فخرجوا عن الطاعة عاصين لنا. ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾: فوجب

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣، والقراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٦.

(٢) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣٥.

(٣) الصحاح (أمر)، وصدر البيت: طرفون ولّا دون كل مبارك، وقائله الأعشى كما في الصحاح واللسان (أمر). والقعدد: القليل الآباء إلى الجد الأكبر. اللسان (قعد).

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٧٢ - ٣٧٣، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٣١ - ٥٣٢، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢٩١ - ٢٩٢، والبيتان في ديوان لبيد ص٥٠.

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٧٠)، والبخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) وهو من كلام أبي سفيان لأصحابه.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣١، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٤.

عليها الوعيد. عن ابن عباس[١]. وقيل: «أَمَرْنا» جعلناهم أمراء؛ لأن العرب تقول: أمير غير مأمور[٢]، أي: غير مؤمر. وقيل: معناه: بعثنا مستكبريها؛ قال هارون: وهي قراءة أُبَيٍّ: «بعثنا أكابِرَ مُجرميها ففسقوا» ذكره الماورديّ[٣]. وحكى النحاس: وقال هارون في قراءة أُبَيٍّ: «وإذا أردنا أن نُهلِكَ قريةً بعثنا فيها أكابِرَ مُجرميها فمكروا فيها فحقَّ عليها القول»[٤].

ويجوز أن يكون «أمرنا» بمعنى أكثرنا؛ ومنه: «خير المال مُهْرَةٌ مأمورة» على ما تقدَّم.

وقال قوم: مأمورةٌ اتباع لمأبورة؛ كالغدايا والعشايا[٥]، وكقوله: «اِرْجِعْنَ مأزوراتٍ غيرَ مأجورات»[٦]. وعلى هذا لا يُقال: أَمَرهم الله، بمعنى كثرهم، بل يُقال: آمره وأمره. واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة[٧]. قال أبو عبيد: وإنما اخترنا «أمرنا» لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة[٨]. والمُتْرَف: المُنعَّم؛ وخُصّوا بالأمر لأنَّ غيرَهم تَبَعٌ لهم[٩].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا﴾ أي: استأصلناها بالهلاك[١٠]. ﴿تَدْمِيرًا﴾ ذكر المصدر للمبالغة في العذاب الواقع بهم. وفي الصحيح من حديث زينب بنت جَحْش زوجِ النبيِّ ﷺ قالت: خرجَ رسولُ الله ﷺ يوماً فَزِعاً مُحْمَرًّا وجهُه يقول: «لا إله إلا الله، ويْلٌ للعرب من شَرٍّ قد اقترب، فُتِحَ اليومَ من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه»

---

(١) ينظر الوسيط ٣/ ١٠١ ، ومجمع البيان ١٥/ ٣٠ .
(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٥٢٨ .
(٣) في النكت والعيون ٣/ ٢٣٥ وهي قراءة شاذة.
(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣٧ ، وهي قراءة شاذة أيضاً.
(٥) مجمع البيان ١٥/ ٢٩ .
(٦) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٥٢٨ ، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢٩٢ . والحديث سلف ٦/ ٤٩ .
(٧) وكذلك الطبري في تفسيره ٤/ ٥٣٢ .
(٨) نقله عنه البغوي ٣/ ١٠٩ لكن وقع في مطبوعه: أبو عبيدة.
(٩) الوجيز على هامش مراح لبيد ١/ ٤٧٥ ، وزاد المسير ٥/ ١٩ .
(١٠) الوسيط ٣/ ١٠١ .

وحلَّق بأصبعِه الإبهام والتي تليها. قالت: فقلتُ: يا رسول الله، أنَهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الخبث». وقد تقدَّم الكلام في هذا الباب[١]، وأنَّ المعاصي إذا ظهرتْ ولم تُغيَّرْ كانت سبباً لهلاك الجميع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ﴾ أي: كم من قومٍ كفروا حلَّ بهم البَوار. يخوِّف كفَّار مكة[٢]. وقد تقدَّم القول في القرون في أوّل سورة الأنعام[٣]، والحمد لله. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا﴾ «خبيراً»: عليماً بهم. «بَصِيراً»: يُبصر أعمالهم. وقد تقدّم[٤].

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يعني الدنيا، والمراد: الدارُ العاجلة، فعبَّر بالنعت عن المنعوت. ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي: لم نُعطِه منها إلا ما نشاء، ثم نؤاخذه بعمله، وعاقبتُه دخولُ النار[٥]. ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: مُطرَداً مُبعَداً من رحمة الله[٦]. وهذه صفة المنافقين الفاسقين، والمرائين المُداجين، يلبِسون الإسلام والطاعة؛ لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يُقبَلُ ذلك العملُ منهم

---

(١) ٩/ ٤٨٧.

(٢) الوسيط ٣/ ١٠١.

(٣) ٨/ ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٤) ٨/ ٣٣٦ معنى الخبير، و٢/ ٢٦١ معنى البصير.

(٥) زاد المسير ٥/ ٢٠.

(٦) الوسيط ٣/ ١٠١، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٩.

في الآخرة، ولا يُعطَون في الدنيا إلا ما قُسم لهم. وقد تقدَّم في «هود»[١] أنَّ هذه الآية تُقيِّدُ تلك الآيات المُطلَقة، فتأمَّله.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: الدار الآخرة. ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: عمِلَ لها عملَها من الطاعات. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الطاعات لا تُقبَلُ إلا من مؤمن. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي: مقبولاً غير مردود[٢]. وقيل: مضاعَفاً[٣]؛ أي: تُضاعف لهم الحسنات إلى عشر، وإلى سبعين، وإلى سبع مئة ضعف، وإلى أضعافٍ كثيرة؛ كما رُوي عن أبي هريرة وقد قيل له: أسمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله ليَجْزي على الحسنة الواحدة ألفَ ألفِ حسنة»؟ فقال سمعته يقول: «إنَّ الله ليَجْزي على الحسنة الواحدة ألفَي ألفِ حسنة»[٤].

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ﴾ أعلمَ اللهُ تعالى أنه يرزق المؤمنين والكافرين[٥]. ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: محبوساً ممنوعاً؛ من حَظَر يَحْظُر حَظْراً وحِظاراً[٦].

ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ في الرزق والعمل؛ فمِنْ مُقِلٍّ ومكثر[٧]. ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: للمؤمنين؛ فالكافر وإن وُسِّعَ

---

(١) ١١/ ٨٥ - ٨٦.

(٢) زاد المسير ٥/ ٢٠.

(٣) الوسيط ٣/ ١٠١.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) نقله في الوسيط ١/ ١٠١ - ١٠٢ عن الزجاج، ولفظ الجلالة أثبتت من (ظ)، والوسيط.

(٦) الوسيط ١/ ١٠٢.

(٧) زاد المسير ٥/ ٢١.

عليه في الدنيا مرة، وقُتِّر على المؤمن مَرَّةً، فالآخرة لا تُقسم إلا مرةً واحدةً بأعمالهم، فمن فاتَه شيءٌ منها لم يستدرِكْه فيها.

وقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته[١]. وقيل: الخطاب للإنسان[٢]. ﴿فَتَقْعُدَ﴾ أي: تبقى[٣]. ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ لا ناصرَ لكَ ولا وَلِيًّا[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

فيه ستّ عشرة مسألة:

الأولى: ﴿قَضَىٰ﴾ أي: أمرَ وألزمَ وأوجب[٥]. قال ابن عباس والحسن وقتادة: وليس هذا قضاء حُكْمٍ، بل هو قضاء أمر[٦]. وفي مصحف ابن مسعود: «ووصَّى» وهي قراءة أصحابه وقراءةُ ابنِ عباس أيضاً وعليٍّ وغيرهما، وكذلك عند أُبَيِّ بن كعب[٧]. قال ابن عباس: إنما هو «ووصَّى ربُّكَ» فالتصقت إحدى الواوين فقُرِئتْ: «وقضى ربك» إذ لو كان على القضاء ما عصى اللهَ أحدٌ[٨]. وقال الضحاك: تصحَّفت

(١) الوسيط ٣/ ١٠٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٧ ، وزاد المسير ٥/ ٢١ .

(٢) الوجيز على هامش مراح لبيد ١/ ٤٧٦ ، ومجمع البيان ١٥/ ٣ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٤ .

(٤) الوسيط ٣/ ١٠٢ ، وزاد المسير ٥/ ٢١ ، ومجمع البيان ١٥/ ٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٧ .

(٦) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٣٧ ، ومجمع البيان ١٥/ ٣٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٧ ، وعنده «النخعي» بدل «علي»، لكن الرازي نقل هذه القراءة في تفسيره ٢٠/ ١٨٤ عن علي، وهي قراءة شاذة.

(٨) تفسير الرازي ٢٠/ ١٨٤ .

على قومٍ «وصى بقضى» حين اختلطتِ الواوُ بالصادِ وقْتَ كَتْبِ المصحف. وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثلَ قول الضحاك. وقال عن ميمون بن مهْران أنه قال: إنَّ على قول ابن عباس لنوراً؛ قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣] ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابنُ عباس قال ذلك، وقال: لو قلنا هذا لطعَنَ الزنادقةُ في مصحفنا[١]. ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم: القضاء يستعمل في اللغة على وجوه: فالقضاء بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ معناه أمر. والقضاء بمعنى الخلق، كقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] يعني: خلقهن. والقضاء بمعنى الحكم، كقوله تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] يعني: احكم ما أنت تحكم. والقضاء بمعنى الفراغ، كقوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] أي: فُرِغَ منه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: ١٠]. والقضاء بمعنى الإرادة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]. والقضاء بمعنى العهد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[٢] [القصص: ٤٤].

فإذا كان القضاء يَحتمِلُ هذه المعاني فلا يجوز إطلاقُ القول بأنَّ المعاصي بقضاء الله؛ لأنه إن أُريدَ به الأمرُ فلا خلافَ أنه لا يجوز ذلك؛ لأنَّ الله تعالى لم يأمرْ بها، فإنه لا يأمر بالفحشاء. وقال زكريا بن سلام: جاء رجلٌ إلى الحسن فقال: إنَّه طلَّقَ امرأتَه ثلاثاً. فقال: إنك قد عصيتَ ربَّكَ وبانَتْ منك زوجتُك. فقال الرجل: قضى اللهُ ذلك عليَّ. فقال الحسن وكان فصيحاً: ما قضى اللهُ ذلك. أي: ما أمرَ اللهُ به، وقرأ هذه الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٣].

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٧.

(٢) ينظر معنى القضاء في مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٦٧٤ - ٦٧٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٤٢، وكلمة «زوجتك» أثبتت منه ومن نسخة (ظ).

الثانية: أمر اللهُ سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل بِرَّ الوالدين مقروناً بذلك، كما قَرَن شُكرَهما بشكره فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[1] [لقمان: ١٤]. وفي «صحيح البخاري» عن عبد الله قال: سألتُ النبيَّ ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ؟ قال: «الصلاةُ على وقتها» قال: ثم أيّ؟ قال: «ثم بِرُّ الوالدين» قال: ثم أيّ؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[2] فأخبر ﷺ أنَّ بِرَّ الوالدين أفضلُ الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام. ورتَّب ذلك بـ «ثُمَّ» التي تُعطي الترتيب والمهلة.

الثالثة: من البِرِّ بهما والإحسانِ إليهما ألَّا يتعرَّضَ لسَبِّهما ولا يَعُقُّهما؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة، ففي «صحيح مسلم» عن عبد الله ابن عمرو أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إن من الكبائر شَتْمَ الرجلِ والديه» قالوا: يا رسول الله، وهل يَشْتُم الرجلُ والديه؟ قال: «نعم؛ يَسبُّ الرجلُ أبا الرجلِ، فيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أُمَّه، فيسُبُّ أُمَّه»[3].

الرابعة: عقوق الوالدين مخالفتُهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن بِرَّهما موافقتُهما على أغراضهما. وعلى هذا إذا أمرا أو أحدُهما ولدَهما بأمرٍ وجبت طاعتُهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله، وكذلك إذا كان من قبيل المندوب. وقد ذهب بعض الناس إلى أنَّ أَمْرَهما بالمباح يُصيِّره في حقِّ الولد مندوباً إليه، وأمْرَهما بالمندوب يزيده تأكيداً في نَدْبيَّته.

الخامسة: روى الترمذي عن ابن عمر قال: كانت تحتي امرأةٌ أُحِبُّها، وكان أبي يكرهُها، فأمرني أن أُطلِّقَها، فأبَيْتُ، فذكرتُ ذلك للنبيِّ ﷺ فقال: «يا عبد الله بن

---

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٤، وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٩٦.

(٢) صحيح البخاري (٥٢٧)، وأخرجه أحمد (٣٨٩٠)، ومسلم (٨٥).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦، والحديث في صحيح مسلم (٩٠)، وأخرجه أحمد (٦٥٢٩).

عمر، طَلِّقِ امرأتَكَ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[١].

السادسة: روى الصحيح عن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: مَنْ أحَقُّ الناسِ بحُسْنِ صحابتي؟ قال: «أمُّك» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «ثم أمُّك» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «ثمَّ أمك» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «ثمَّ أبوك»[٢]. فهذا الحديث يدلُّ على أنَّ محبةَ الأم والشفقةَ عليها ينبغي أن تكون ثلاثةَ أمثال محبة الأب؛ لذكر النبيِّ ﷺ الأمَّ ثلاث مرات، وذِكْرِ الأب في الرابعة فقط. وإذا تُوُصِّل هذا المعنى شهد له العِيان؛ وذلك أنَّ صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب. ورُوي عن مالكٍ أنَّ رجلاً قال له: إن أبي في بلد السودان، وقد كتب إليَّ أن أقدَم عليه، وأمِّي تمنعني من ذلك، فقال له: أطِعْ أباك، ولا تَعْصِ أُمَّك. فدلَّ قول مالك هذا أن بِرَّهما متساوٍ عنده. وقد سُئِلَ الليثُ عن هذه المسألة فأمره بطاعة الأم، وزعم أنَّ لها ثُلثي البر[٣]. وحديث أبي هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر، وهو الحجة على من خالف[٤]. وقد زعم المحاسِبي في «كتاب الرعاية» له أنه لا خلاف بين العلماء أنَّ للأم ثلاثةَ أرباع البرِّ، وللأب الربع[٥]؛ على مقتضى حديث أبي هريرة ﷺ. والله أعلم.

السابعة: لا يختصُّ بِرُّ الوالدين بأن يكونا مُسلِمَين، بل إن كانا كافِرَين يَبَرُّهما ويُحسنُ إليهما إذا كان لهما عهد؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾[٦] [الممتحنة:٨]. وفي «صحيح البخاري» عن

---

(١) سنن الترمذي (١١٨٩)، وأخرجه ـ أيضاً ـ بهذا اللفظ أحمد (٥٠١١).

(٢) صحيح البخاري (٥٩٧١)، وصحيح مسلم (٢٥٤٨). وأخرجه أحمد (٨٣٤٤).

(٣) ينظر إكمال المعلم ٨/ ٥ .

(٤) ينظر المفهم ٦/ ٥٠٨ .

(٥) قول المحاسبي في الرعاية ص١٠٢ : فليبدأ العبد بحاجة والدته؛ لأن برَّها مقدَّمٌ في سنة النبي ﷺ، واجتماع العلماء على تقديمها في البر والطاعة على الوالد.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦ .

أسماء قالت: قَدِمتْ أمّي وهي مشركةٌ في عهد قريشٍ ومُدَّتهم إذ عاهدوا النبيَّ ﷺ مع أبيها، فاستفتيتُ النبيَّ ﷺ، فقلتُ: إنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وهي راغبةٌ أفأَصِلُها؟ قال: «نعم صِلي أُمَّكِ». وروى أيضاً عن أسماء قالت: أتتني أمّي راغبةً في عهد النبيِّ ﷺ، فسألتُ النبيَّ ﷺ: أأَصِلُها؟ قال: «نعم». قال ابن عُيينة: فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾. الأوّل معلّق والثاني مسند[1].

الثامنة: من الإحسان إليهما والبِرِّ بهما إذا لم يتعيَّنِ الجهادُ ألَّا يُجاهِدَ إلَّا بإذنهما. روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يستأذِنُه في الجهاد فقال: «أحَيٌّ والداك؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهِدْ». لفظ مسلم[2]. في غير الصحيح قال: نعم، وتركتُهما يبكيان. قال: «اذهَبْ فأضحِكْهما كما أبكيتَهما»[3]. وفي خبرٍ آخر أنه قال: «نومُكَ مع أبويك على فراشهما يُضاحِكانك ويُلاعبانك أفضلُ لكَ من الجهاد معي». ذكره ابن خُوَيْزمنداد. ولفظ البخارِي في كتاب بِرِّ الوالدين[4]: أخبرنا أبو نُعَيم، أخبرنا سفيان، عن عطاء بن السَّائب، عن أبيه، عن عبد الله بن عَمرو قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يُبايعه على الهجرة، وتَرَكَ أبويه يبكيان، فقال: «ارجِعْ إليهما فأضحِكْهما كما أبكيتَهما». قال ابن المنذر: في هذا الحديث النَّهيُ عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقَعِ النَّفير، فإذا وقعَ وجبَ الخروجُ على الجميع، وذلك بَيِّنٌ في حديث أبي قَتادة أنَّ رسول الله ﷺ بعث جيش الأمراء...؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رَوَاحة، وأنَّ مُنادي رسول الله ﷺ نادى بعد ذلك: أنِ الصلاةُ جامعة، فاجتمع الناسُ فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، اخرجوا فأمِدُّوا إخوانكم ولا يتخلَّفَنَّ أحدٌ» فخرج الناسُ مُشاةً وركباناً في حَرٍّ

---

(١) صحيح البخاري (٥٩٧٨) مسنداً، و(٥٩٧٩) معلَّقاً. وأخرجه مسنداً أحمد (٢٦٩١٥)، ومسلم (١٠٠٣).

(٢) صحيح البخاري (٣٠٠٤)، وصحيح مسلم (٢٥٤٩): (٥)، وأخرجه أحمد (٦٧٦٥).

(٣) أخرجه أحمد (٦٤٩٠)، وأبو داود (٢٥٢٨)، والنسائي ٧/ ١٤٣، وابن ماجه (٢٧٨٢).

(٤) من كتاب الأدب المفرد (١٣).

شديد[١]. فدلَّ قوله: «اخرجوا فأمِدُّوا إخوانكم» أنَّ العذر في التخلُّف عن الجهاد إنما هو ما لم يقَعِ النَّفير، مع قوله عليه الصلاة والسلام: «فإذا استُنْفِرتُم فانفِروا»[٢].

قلت: وفي هذه الأحاديث دليلٌ على أنَّ المفروض أو المندوبات متى اجتمعت قُدِّمَ الأهمُّ منها. وقد استوفى هذا المعنى المحاسبيُّ في كتاب الرعاية.

التاسعة: واختلفوا في الوالِدَين المشرِكَيْن هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية، فكان الثَّوري يقول: لا يغزو إلا بإذنهما. وقال الشافعي: له أن يغزو بغير إذنهما[٣]. قال ابن المنذر: والأجداد آباء، والجدَّات أمهاتٌ فلا يغزو المرء إلا بإذنهم، ولا أعلم دلالةً تُوجِبُ ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات. وكان طاوس يرى السَّعيَ على الأخوات أفضلَ من الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

العاشرة: من تمام بِرِّهما صِلة أهل وُدِّهما، ففي الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ من أبَرِّ البِرِّ صلَةُ الرجلِ أهلَ وُدِّ أبيه بعد أن يُوَلِّيَ». وروى أبو أُسَيد ـ وكان بَدْرِيًّا ـ قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ جالساً فجاءه رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي من برِّ والدَيَّ من بعد موتهما شيءٌ أبَرُّهما به؟ قال: «نعم، الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدِهما بعدَهما، وإكرامُ صديقِهما، وصلةُ الرَّحِمِ التي لا رَحِمَ لك إلا من قبلهما، فهذا الذي بقيَ عليك». وكان ﷺ يُهدي لصدائقِ خديجة بِرًّا بها ووفاءً لها وهي زوجته، فما ظنُّكَ بالوالدين[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٥٥١)، والنسائي في الكبرى (٨١٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٩١)، والبخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣): (٨٥) ٣/ ١٤٨٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأحمد (١٥٣٠٦) من حديث صفوان بن أمية ﷺ، ومسلم (١٨٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) إكمال المعلم ٨/ ٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٩ - ١١٩٠ ، وحديث ابن عمر في صحيح مسلم (٢٥٥٢)، وأخرجه أحمد (٥٦١٢). وأما حديث أبي أسيد فقد أخرجه أحمد (١٦٠٥٩)، وأبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤) من طريق أسيد بن علي، عن أبيه علي بن عبيد، عن أبي أسيد، به. إسناده ضعيف؛ =

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ خصَّ حالةَ الكِبَر لأنها الحالةُ التي يحتاجان فيها إلى بِرِّه؛ لتغيُّرِ الحال عليهما بالضَّعف والكِبَر؛ فألزمه في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثرَ مما ألزمه من قبل؛ لأنهما في هذه الحالة قد صارا كَلًّا عليه، فيحتاجان أن يَليَ منهما في الكِبَر ما كان يحتاج في صِغَره أن يَلِيا منه؛ فلذلك خَصَّ هذه الحالة بالذكر[1].

وأيضاً فطول المكث للمرء يوجب الاستثقالَ للمرء عادةً، ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبُه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالَّة البُنوَّة وقِلَّة الديانة، وأقلُّ المكروه ما يُظهره بتنفسه المتردِّد من الضجر، وقد أُمِرَ أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب[2]، فقال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنفُه، رغِمَ أنفُه، رغِمَ أنفُه» قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أدركَ والديه عند الكِبَر أحدَهما أو كلَيْهما ثم لم يَدخُلِ الجنة»[3]. وقال البخاري في كتاب بر الوالدين: حدثنا مُسدَّد، حدثنا بشر بن المُفَضَّل، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد[4] المَقْبُريّ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عليَّ، رَغِمَ أنفُ رجلٍ أدرك أبويه عند الكِبَرِ أو أحدَهما فلم يُدخِلاه الجنة، ورَغِمَ أنفُ رجلٍ دخل عليه رمضانُ ثم انسلخَ قبل أن يُغْفَرَ له». حدثنا ابن أبي أُوَيْس، حدثني أخي، عن سليمان بن بلال، عن محمد بن هلال، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة السالمي، عن أبيه ﷺ قال: إنَّ كعبَ بنَ عُجرة ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ:

= قال الذهبي في الميزان ٣/ ١٤٤ : علي بن عبيد لا يُعرف. وأما حديث الإهداء لصدائق خديجة، فقد أخرجه أحمد (٢٤٣١٠)، والبخاري (٣٨١٦)، ومسلم (٢٤٣٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) أحكام القرآن للكيا الطبري ٢/ ٢٥٣ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦ .

(٣) صحيح مسلم (٢٥٥١)، وأخرجه أحمد (٨٥٥٧).

(٤) قبلها في (م) زيادة كلمة «أبي».

«أحضروا المنبر» فلمَّا خرجَ رَقِيَ إلى المنبر، فرقِيَ في أول درجةٍ منه قال: آمين، ثم رقِيَ في الثانية فقال: آمين، ثم لمَّا رقِيَ في الثالثة قال: آمين، فلما فرغ ونزل من المنبر قلنا: يا رسول الله، لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كُنَّا نسمعه منك؟ قال: «وسمِعْتُموه؟» قلنا: نعم. قال: «إنَّ جبريل عليه السلام اعترض قال: بَعُدَ من أدركَ رمضان فلم يُغْفَرْ له، فقلتُ: آمين، فلما رَقِيتُ في الثانية قال: بَعُدَ من ذُكِرتَ عنده فلم يُصَلِّ عليكَ، فقلتُ: آمين، فلمَّا رقيتُ في الثالثة قال: بَعُدَ من أدركَ عنده أبواه الكِبَر أو أحدُهما فلم يُدخِلاه الجنةَ، قلتُ: آمين». حدثنا أبو نُعيم، حدثنا سلمة بن وَرْدان، سمعتُ أنساً ﷺ يقول: ارتقى رسولُ الله ﷺ على المنبرِ درجةً فقال: آمين، ثم ارتقى درجةً فقال: آمين، ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال: آمين، ثم استوى وجلس، فقال أصحابه: يا رسول الله، علامَ أمَّنْتَ؟ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال: رَغِمَ أنفُ من ذُكِرتَ عنده فلم يُصَلِّ عليك، فقلتُ: آمين، ورَغِمَ أنفُ من أدركَ أبويه أو أحدَهما فلم يدخُلِ الجنةَ، فقلتُ: آمين» الحديث[1].

فالسعيد الذي يُبادر اغتنام فرصة بِرِّهما؛ لئلا تفوتَه بموتهما فيندم على ذلك. والشقيُّ من عقَّهما، لا سيما مَنْ بلغه الأمرُ ببرِّهما.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي: لا تقُلْ لهما ما يكون فيه أدنى تبرُّم[2]. وعن أبي رجاء العُطارِدي قال: الأُفُّ: الكلامُ القَذَع الرديء الخفيّ. وقال مجاهد: معناه: إذا رأيتَ منهما في حالِ الشَّيَخ الغائطَ والبولَ الذي رأياه منك في الصغر فلا تَقْذَرْهما وتقول: أُف. والآية أعمُّ من هذا[3]. والأُفُّ والتُّفُّ: وسخ

---

(١) لم نقف على هذه الأحاديث في المطبوع من كتاب الأدب المفرد للبخاري، وقد أخرج حديث كعب بن عجرة في كتابه التاريخ الكبير ٧/ ٢٢٠ بهذا الإسناد. وأما حديث أبي هريرة فقد أخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي (١٦) عن مسدد، به. وأخرجه أحمد (٧٤٥١) من طريق آخر عن عبد الرحمن بن إسحاق، به. وأما حديث أنس فأخرجه إسماعيل القاضي أيضاً (١٥) عن عبد الله بن مسلمة، عن سلمة بن وردان، به.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٨ ، وأثر مجاهد أخرجه الطبري ١٤/ ٥٤٥ .

الأظفار[١]. ويُقال لكل ما يُضجر ويُستثقل: أُفّ له[٢]. قال الأزهري: والتُّفُّ أيضاً: الشيء الحقير[٣]. وقُرِئ: «أُفٍّ» منوَّناً مخفوضاً، كما تُخفض الأصواتُ وتُنوَّن، تقول: صَهٍ ومَهٍ. وفيه عشر لغات: أُفَّ، وأُفُّ، وأُفِّ، وأُفًّا وأُفٌّ، وأُفٍّ، وأُفَّهْ، وإفْ لك (بكسر الهمزة)، وأُفْ (بضم الهمزة وتسكين الفاء)، وأُفاً (مخففة الفاء)[٤]. وفي الحديث: «فألقى طرف ثوبه على أنفه ثم قال: أف أف»[٥]. قال أبو بكر: معناه: استقذارٌ لما شَمَّ. وقال بعضهم: معنى أُفٍّ: الاحتقار والاستقلال، أُخِذَ من الأَفَف: وهو القليل[٦]. وقال القُتَبيُّ: أصله نَفْخُكَ الشيءَ يَسقط عليك من رمادٍ وترابٍ وغيرِ ذلك، وللمكان تريد إماطة شيء لتقعد فيه؛ فقيلت هذه الكلمة لكل مُستثقَلٍ[٧]. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأُفُّ: وسخٌ بين الأظفار، والتُّفُّ: قُلامتها. وقال الزجّاج[٨]: معنى أُفّ: النَّتْن. وقال الأصمعيُّ: الأُفُّ: وسخ الأذن، والتُّفُّ: وسخ الأظفار؛ فكثر استعمالُه حتى ذُكِرَ في كلِّ ما يُتأذّى به[٩]. ورُوِيَ من حديث علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو علمَ اللهُ من العقوق شيئاً أردأَ من «أُفٍّ» لذكَره، فليعمَلِ البارُّ ما شاء أن يعمل، فلن يَدخُلَ النار، وليعمَلِ العاقُّ ما شاء أن

(١) ينظر زاد المسير ٥/ ٢٤ - ٢٥ . وقد فرَّق أهل اللغة بينهما، ومن ذلك قول الليث والأصمعي: الأُفُّ: وسخ الأذن، والتُّفُّ: وسخ الأظفار. تهذيب اللغة ١٤/ ٢٥٥ و ١٥/ ٥٨٩ .

(٢) قاله ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص١١١ .

(٣) لم نقف عليه في تهذيب اللغة، وقد قاله الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٣٤ ، والنحاس في معاني القرآن ٤/ ١٤٠ .

(٤) نقلها ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٣ - ٢٤ عن ابن الأنباري.

(٥) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٣٢٠ من حيث أم سلمة رضي الله عنها. وفي إسناده عمار بن علثم، قال البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٢٧ : لا يُتابع على حديثه.

(٦) نقله ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٤ عن ابن الأنباري.

(٧) تأويل مشكل القرآن ص١١١ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٤ .

(٩) نقله عنه الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٥٨٩ .

يعمل فلن يَدخُلَ الجنة»(١). قال علماؤنا: وإنما صارت قولة «أف» للأبوين أردأ شيءٍ؛ لأنه رفضَهما رفْضَ كفرِ النعمة، وجَحْدِ التربية، وردِّ الوصية التي أوصاه في التنزيل. و«أفّ» كلمةٌ مقولةٌ لكلِّ شيءٍ مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٧] أي: رَفْضٌ لكم ولهذه الأصنام معكم.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ النَّهْر: الزجر والغِلظة(٢). ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: ليِّناً لطيفاً(٣)، مثل: يا أبتاه ويا أُمَّاه، من غير أن يُسمِّيهما ويُكنِّيهما قاله عطاء(٤). وقال أبو الهدَّاج(٥) التُّجيبيّ: قلتُ لسعيد بن المسيِّب: كلُّ ما في القرآن من برِّ الوالدين قد عرفتُه إلا قولَه: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ما هذا القول الكريم. قال ابن المسيِّب: قولُ العبد المذنبِ للسيدِ الفَظِّ الغليظ(٦).

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما، والتذلُّلُ لهما تذلُّلَ الرعيةِ للأمير، والعبيدِ للسادة ـ كما أشار إليه سعيد بن المُسيِّب ـ وضَربَ خَفْضَ الجناح ونصبَه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده. والذُّلُّ: هو اللين(٧).

وقراءة الجمهور بضمِّ الذال، من ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا وذِلَّةً ومَذَلَّةً فهو ذالٌّ وذليلٌ. وقرأ

---

(١) أخرجه أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥ من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما، وفي إسناده أصرم بن حوشب، وهو متروك، واتهمه بعضهم بالوضع. ميزان الاعتدال ١/ ٢٧٢.

(٢) ينظر الوسيط ٣/ ١٠٤.

(٣) الوسيط ٣/ ١٠٤، وزاد المسير ٥/ ٢٥.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١١٠ لكن عزاه إلى مجاهد، وذكره الرازي في تفسيره ٢٠/ ١٩٠ وعزاه إلى عمر بن الخطاب ﷺ.

(٥) في النسخ: ابن البداح، والتصويب من المصادر وكتب التراجم.

(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٤٩، أبو الهداج مجهول، تفرد بالرواية عنه حرملة بن عمران، وترجم له البخاري في الكنى ص٨١، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٤٥٥، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في ثقاته ٦/ ٦٦٧ على عادته في توثيق المجاهيل.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦.

سعيد بن جُبير وابن عباس وعروة بن الزبير «الذِّلَ» بكسر الذال، ورُويت عن عاصم(١)؛ من قولهم: دابَّةٌ ذَلول بينة الذِّل، والذِّلُ في الدوابِّ المنقادُ السهلُ دون الصعب، فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسانُ نفسَه مع أبويه في خير ذِلَّة، في أقواله وسكناته ونظره، ولا يُحِدَّ إليهما بصرَه، فإن تلك هي نظرة الغاضب.

الخامسة عشرة: الخطاب في هذه الآية للنبيِّ ﷺ والمرادُ به أُمَّتُه؛ إذ لم يكن له عليه الصلاة والسلام في ذلك الوقت أبوان. ولم يذكر الذُّلَّ في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وذكره هنا بحسب عِظَم الحقِّ وتأكيده.

و«مِن» في قوله: «مِنَ الرَّحمةِ» لبيان الجنس، أي: إنَّ هذا الخفض يكون من الرحمة المستكِنَّة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالاً، ويصِحُّ أن يكون لانتهاء الغاية، ثم أمر تعالى عبادَه بالترحُّم على آبائهم والدعاء لهم(٢)، وأنْ ترحَمهما كما رَحِماك، وتَرْفُقَ بهما كما رَفَقا بك؛ إذ وَلِياك صغيراً جاهلاً محتاجاً، فآثراك على أنفسِهما، وأسهرا ليلَهما، وجاعا وأشبعاك، وتعرَّيا وكَسَواك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكِبَر الحدَّ الذي كنتَ فيه من الصِّغَر، فتَلي منهما ما وَلِيا منك، ويكون لهما حينئذٍ فضل التقدُّم(٣). قال ﷺ: «لا يَجْزِي ولدٌ والداً إلا أن يجِدَه مملوكاً فيشترِيَه فيُعْتِقَه»(٤). وسيأتي في سورة «مريم»(٥) الكلام على هذا الحديث.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ خصَّ التربية بالذكر ليتذكرَ العبدُ شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيدَه ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما، وهذا كلُّه في الأبوين المؤمنين. وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولي

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٩، والقراءات الشاذة ص٧٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦ - ١١٨٧.

(٤) أخرجه أحمد (٧١٤٣)، ومسلم (١٥١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) عند تفسير الآية (٩٣).

قُرْبَى، كما تقدم[1]. وذُكِرَ عن ابن عباس وقتادة أنَّ هذا كلَّه منسوخٌ بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[2] فإذا كان والدا المسلم ذِمِّيَّيْن استعمل معهما ما أمره الله به هاهنا، إلا الترحُّمَ لهما بعد موتهما على الكفر؛ لأن هذا وحده نُسِخَ بالآية المذكورة. وقيل: ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيَّين، كما تقدم. أو يكون عموم هذه الآية خُصَّ بتلك، لا رحمة الآخرة، لا سيما وقد قيل: إنَّ قولَه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ نزلت في سعد بن أبي وَقَّاص، فإنه أسلم، فألقت أمُّه نفسَها في الرَّمْضاء متجرِّدة، فذُكِرَ ذلك لسعد، فقال: لِتَمُتْ، فنزلت الآية. وقيل: الآية خاصةٌ في الدعاء للأبوين المسلمين. والصواب أنَّ ذلك عمومٌ كما ذكرنا، وقال ابن عباس قال النبيّ ﷺ: «من أمسى مُرْضِياً لوالدَيْه وأصبح، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة، وإن واحداً فواحداً، ومن أمسى وأصبح مُسْخِطاً لوالديه، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار، وإن واحداً فواحداً» فقال رجل: يا رسول الله، وإن ظلماه؟ قال: «وإن ظلماه، وإن ظلماه، وإن ظلماه»[3]. وقد روينا بالإسناد المتَّصل عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي. فقال النبيُّ ﷺ للرجل: «فأْتِني بأبيك» فنزل جبريل عليه السلام على النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ

(١) ١٠/٣٩٨ - ٤٠١ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/٤٤٩ .

(٣) أخرجه هناد في الزهد (٩٩٣) من طريق سعيد بن سنان، عن رجل، عن ابن عباس مرفوعاً. وفي إسناده رجل مبهم.

وأخرجه ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٢١١ من طريق المغيرة بن مسلم، عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً. ثم قال: قال أبو زرعة: المغيرة لم يسمع من عطاء شيئاً، وهو مرسل. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠١٢٨) من طريق أبان، عن سعد بن مسعود القيسي أو غيره، عن ابن عباس مرفوعاً. أبان: هو ابن أبي عياش، وهو متروك الحديث. ميزان الاعتدال ١/ ١٠ - ١١ ، وسعد بن مسعود فيه جهالة، فقد ذكروا في الرواة عنه اثنين، وذكره ابن حبان في ثقاته ٤/٢٩٦ على عادته في توثيق المجاهيل. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧) من طريق سليمان التيمي، عن سعد بن مسعود أيضاً، عن ابن عباس موقوفاً. وتحرف اسم سعد في مطبوعه إلى سعيد.

الله عزَّ وجلَّ يُقرِئُكَ السلام ويقول لك: إذا جاءك الشيخ فاسأَلْه عن شيءٍ قاله في نفسه ما سمِعَتْه أُذُناه. فلما جاء الشيخ قال له النبيّ ﷺ: «ما بالُ ابنِكَ يشكوك أتريد أن تأخذَ مالَه؟» فقال: سَلْه يا رسول الله، هل أُنفِقُه إلا على إحدى عمَّاته أو خالاته أو على نفسي؟! فقال له رسول الله ﷺ: «إيهِ، دَعْنا من هذا، أخبرني عن شيءٍ قُلتَه في نفسك ما سمِعَتْه أُذناك» فقال الشيخ: واللهِ يا رسول الله، ما زال الله عزَّ وجلَّ يزيدنا بِكَ يقيناً، لقد قلتُ في نفسي شيئاً ما سمِعَتْه أُذُناي. قال: «قُلْ وأنا أسمع» قال: قلتُ:

غَذَوتُكَ مولوداً ومُنْتُكَ يافِعاً ... تُعَلُّ بما أجْني عليكَ وتُنْهَلُ
إذا ليلةٌ ضافَتْكَ بالسُّقمِ لم أَبِتْ ... لسُقْمِكَ إلا ساهراً أتملْمَلُ
كأنِّي أنا المطروقُ دونَكَ بالذي ... طُرِقْتَ به دوني فَعَيْنيَ تَهْمُلُ
تخافُ الرَّدى نفسي عليكَ وإنَّها ... لَتعلَمُ أنَّ الموتَ وقتٌ مؤجَّلُ
فلمَّا بلغتَ السِّنَّ والغايةَ التي ... إليها مَدَى ما كنتُ فيك أؤمِّلُ
جعلتَ جزائي غِلظةً وفَظاظةً ... كأنَّكَ أنتَ المُنْعِمُ المتفضِّلُ
فليتَكَ إذ لم تَرْعَ حقَّ أُبوَّتي ... فعلتَ كما الجارُ المُصَاقِبُ يفعلُ
فأوْليتَني حقَّ الجِوار ولم تكُنْ ... عليَّ بمالٍ دون مالِكَ تَبْخَلُ

قال: فحينئذٍ أخذَ النبيُّ ﷺ بتلابيب ابنِه وقال: «أنتَ ومالُكَ لأبيك»(١). قال

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٥٦٦)، وفي الصغير (٩٤٧) من طريق عبيد بن خلصة، عن عبد الله بن نافع المدني، عن المنكدر بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله، به. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٥٥ : رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه من لم أعرفه، والمنكدر بن محمد ضعيف وقد وثقه أحمد، والحديث بهذا التمام منكر.

وأخرج ابن ماجه (٢٢٩١) من طريق يوسف بن إسحاق، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، أن رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّ لي مالاً وولداً، وإنَّ أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: «أنت ومالك لأبيك». قال البوصيري: إسناده صحيح، ورجاله ثقات على شرط البخاري. قلنا: ولهذا الحديث شواهد عدة تنظر في مسند أحمد (٦٦٧٨).

وأما الأبيات فقائلها امرؤ القيس وهي في ديوانه ص١٨٠ - ١٨١ ، وفيه في البيت الأول: «وعِلْتُكَ» بدل «ومِنْتُكَ»، وفي البيت الثاني: «نابتْكَ بالشَّكوِ» بدل «ضافتْكَ بالسقم»، و«لشكواك» بدل «السقمك»، وفي البيت الرابع: «وإني لأعلم» بدل «وإنها لتعلم»، و«حتمٌ» بدل «وقتٌ».

الطبرانيُّ اللَّخمِيُّ: لا يُروى ـ يعني هذا الحديث ـ عن ابن المُنكدِر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد، وتفرَّدَ به عُبيد[١] بن خَلَصة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي: من اعتقاد الرحمة بهما والحُنوِّ عليهما، أومن غير ذلك من العقوق، أو من جعل ظاهر بِرِّهما رياء[٢]. وقال ابن جُبير: يريد البادرة التي تبدُر، كالفَلْتة والزَّلَّة، تكون من الرجل إلى أبويه أو أحدهما، لا يريد بذلك بأساً[٣]؛ قال الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي: صادقين في نية البرِّ بالوالدين فإنَّ الله يغفر البادرة.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ وعدٌ بالغفران مع شرط الصلاح والأَوْبة بعد الأَوْبة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى[٤]. قال سعيد بن المُسيِّب: هو العبد يتوبُ ثم يُذنِبُ ثم يتوبُ ثم يُذنِبُ. وقال ابن عباس ﷺ: الأوَّاب: الحفيظُ الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها. وقال عُبيد بن عُمير: هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء، ثم يستغفرون الله عزَّ وجلَّ. وهذه الأقوال متقاربة[٥]. وقال عَوْن العُقَيْليُّ: الأوَّابون: هم الذين يُصلُّون صلاة الضُّحى[٦]. وفي الصحيح: «صلاةُ الأوَّابين حين تَرْمَضُ

---

(١) في النسخ: عبيد الله.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٩ .

(٣) أخرجه بمعناه الطبري ١٤/ ٥٥٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٩ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٤٣ ، وقول سعيد بن المسيب أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٦ ، والطبري ١٤/ ٥٥٨ - ٥٥٩ . وقول عبيد بن عمير أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٤٠)، والطبري ١٤/ ٥٦٠ ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٦٨ .

(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٥٨ .

الفِصال»[١]. وحقيقة اللفظ من آبَ يؤوبُ إذا رجع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أي: كما راعيتَ حقَّ الوالدَيْن فصِلِ الرحم، ثم تصدَّقْ على المسكين وابن السبيل[٣]. وقال عليُّ بن الحسين في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾: هم قرابة النبيِّ ﷺ، أُمِرَ ﷺ بإعطائهم حقوقَهم من بيت المال[٤]. أي: من سهم ذَوِي القربى من الغَزْوِ والغنيمة، ويكون خطاباً لِلوُلاةِ أو من قام مقامهم[٥]. وألحقَ في هذه الآية ما يتعيَّنُ من صلة الرحم، وسَدِّ الخَلَّة، والمواساة عند الحاجة بالمال، والمعونة بكلِّ وجه[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾ أي: لا تُسرف في الإنفاق في غير حق[٧]. قال الشافعيُّ ﷺ: والتبذير: إنفاق المال في غير حقِّه، ولا تبذير في عمل الخير[٨]. وهذا قول الجمهور. وقال أشهب عن مالك: التبذير: هو أخذ المال من حقِّه ووضعُه في غير حقِّه، وهو الإسراف، وهو حرامٌ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٨) من حديث زيد بن أرقم ﷺ. رمض الفصال: أن تحترق الرمضاء ـ وهي الرمل ـ فتبرك الفصال من شدة حرها وإحراقها أخفافها. إكمال المعلم ٣/ ٩٩ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٥ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٤٣ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ١٩٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ ، وأخرجه بمعناه الطبري ١٤/ ٥٦٣ .

(٥) تفسير الرازي ٢٠/ ١٩٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ .

(٧) أخرجه بمعناه ابن أبي شيبة ٩/ ٩٥ ، والبخاري في الأدب المفرد (٤٤٤)، والطبري ١٤/ ٥٦٥ - ٥٦٧ عن ابن مسعود ﷺ، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٤٥)، والطبري ١٤/ ٥٦٧ عن ابن عباس ﷺ.

(٨) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٥ .

ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾[١] .وقوله «إخوان» يعني أنهم في حكمهم؛ إذِ المبذِّرُ ساعٍ في فسادٍ كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تُسوِّله لهم أنفسهم، أو أنهم يُقرَنون بهم غداً في النار. ثلاثة أقوال[٢]. والإخوان هنا جمع أخٍ من غير النسب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي: احذروا متابعته والتشبُّه به في الفساد. والشيطان اسم الجنس. وقرأ الضحاك: «إخوان الشيطان» على الانفراد، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك ﷺ[٣].

الثالثة: مَنْ أنفقَ مالَه في الشهوات زائداً على قدر الحاجات وعَرَّضه بذلك للنَّفاد فهو مبذِّر، ومَنْ أنفقَ رِبْحَ مالِه في شهواته وحَفِظَ الأصلَ أو الرَّقبةَ فليس بمبذِّر، ومَنْ أنفقَ درهماً فِي حرامٍ فهو مبذِّر، ويُحجر عليه في نفقتِه الدرهمَ في الحرام، ولا يُحجَر عليه إن بذَلَه فِي الشهوات إلا إذا خِيفَ عليه النَّفاد[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: وهو أنه سبحانه وتعالى خصَّ نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ وهو تأديبٌ عجيبٌ وقولٌ لطيفٌ بديع، أي: لا تُعرِضْ عنهم إعراضَ مُستهينٍ عن ظهر الغنى والقدرة فتَحْرِمَهم، وإنما يجوز أن تُعرِضَ عنهم عند عجزٍ يَعْرِضُ وعائقٍ يعوق، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحالُ فقُلْ لهم قولاً ميسوراً[٥].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩١ .

(٢) القول الأول ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ ، والقول الثاني ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٠٥ ، والقول الثالث ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٥/ ٤٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩١ .

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٦ .

الثانية: في سبب نزولها؛ قال ابن زيد: نزلت الآية في قومٍ كانوا يسألون رسولَ الله ﷺ فيأبى أن يُعطيَهم؛ لأنه كان يعلم منهم نفقةَ المال في فساد، فكان يُعرِضُ عنهم رغبةً في الأجر في منعهم؛ لئلا يُعينَهم على فسادهم[١]. وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ قال: ليس هذا في ذكر الوالدين، جاء ناسٌ من مُزَيْنَة إلى النبيِّ ﷺ يستحملونه، فقال: «لا أجِدُ ما أحمِلُكم عليه» فتوَلَّوْا وأعينُهم تَفيضُ من الدمع حَزَناً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ والرحمة الفَيْءُ[٢].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أمره بالدعاء لهم، أي: يَسِّر فقرَهم عليهم بدعائك لهم. وقيل: ادْعُ لهم دعاءً يتضمنُ الفتحَ لهم والإصلاح[٣]. وقيل: المعنى: «وإما تُعرِضَنَّ» أي: إن أعرضتَ يا محمد عن إعطائهم لضيقِ يدٍ فقُلْ لهم قولاً ميسوراً، أي: أحسِنِ القولَ وابسُطِ العذر، وادعُ لهم بسَعة الرزق، وقل: إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ؛ فإنَّ ذلك يعمل في مَسَرَّة نفسِه عملَ المواساة[٤]. وكان عليه الصلاة والسلام إذا سُئِلَ وليس عنده ما يُعطي سكت انتظاراً لرزقٍ يأتي من الله سبحانه وتعالى كراهةَ الرَّدِّ، فنزلت هذه الآية، فكان ﷺ إذا سُئِلَ وليس عنده ما يُعطي قال: «يرزقُنا اللهُ وإياكم من فضله»[٥]. فالرحمة على هذا التأويل: الرزق المنتظر. وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة. والضمير في «عنهم» عائدٌ على من تقدَّم ذِكْرُهم من الآباء والقرابة والمساكين وأبناء السبيل[٦]. و﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: ليِّناً لطيفاً

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ .

(٢) زاد المسير ٥/ ٢٨ ، وينظر ما تقدم ١٠/ ٣٣٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠/ ١٩٤ بمعناه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٥ - ٢٣٦ ، والحديث أورده الديلمي في الفردوس ١/ ٣٢٢ من حديث عائشة، و ٥/ ٢٦ من حديث أنس.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ ، وتفسير الرحمة هنا بأنها الرزق المنتظر أخرجه الطبري ١٤/ ٥٧٠ - ٥٧١ عن مجاهد، وهو في تفسيره ١/ ٣٦١ .

طيباً، مفعول بمعنى الفاعل، من لفظ اليسر كالميمون، أي: وعداً جميلاً[(١)]، على ما بيَّنَّاه. ولقد أحسن من قال:

إلَّا تكن وَرِقٌ يوماً أجودُ بها ... للسائلين فإني ليِّنُ العُودِ
لا يَعْدَمُ السائلون الخيرَ من خُلقي ... إمّا نوالي وإمَّا حسنُ مردودي[(٢)]

تقول: يَسَّرتُ لك كذا إذا أعددته[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ هذا مَجازٌ عبَّر به عن البخيل الذي لا يقدِرُ من قلبه على إخراج شيءٍ من ماله، فضربَ له مثلَ الغُلِّ الذي يمنع من التصرف باليد. وفي «صحيح البخاري» ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: ضرب رسولُ الله ﷺ مَثَلَ البخيلِ والمتصدِّقِ كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديدٍ قد اضْطَرَّت أيدِيَهما إلى ثُدِيِّهما وتَراقيهما، فجعلَ المتصدِّق كلَّما تصدَّقَ بصدقةٍ انبسطت عنه حتى تَغْشَى أنامِلَه وتَعْفُوَ أثرَه، وجعل البخيلُ كلَّما هَمَّ بصدقةٍ قَلَصت وأخذت كلُّ حَلْقةٍ بمكانها. قال أبو هريرة ﷺ: فأنا رأيتُ رسولَ الله ﷺ يقول بأصبعيه هكذا في جيْبه، فلو رأيتَه يُوَسِّعها ولا تتوسَّع[(٤)].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٣٩، والوسيط للواحدي ٣/ ١٠٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠، وزاد المسير ٥/ ٢٩.

(٢) البيتان في الكامل ٣/ ١٠٧٢ دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠.

(٤) صحيح البخاري (٥٧٩٧) واللفظ له، وصحيح مسلم (١٠٢١). وأخرجه أحمد (٩٠٥٧). ووقع في بعض الروايات لهذا الحديث عند مسلم وغيره: «جُنَّتان» بدل «جُبَّتان» ووقع في بعضها الآخر بالوجهين على أنه شك من بعض الرواة؛ قال السندي في حاشية على مسند أحمد ١٢/ ٤٥٤: الجُبَّة بالباء: هو ثوب مخصوص، والجُنَّة بالنون: هي الدرع، وصُوِّب النون؛ لقوله: «من حديد»، ولقوله: «اتسعت =

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ ضربَ بَسْطَ اليد مثلاً لذهاب المال، فإنَّ قَبْضَ الكفِّ يحبِسُ ما فيها، وبَسْطَها يُذهِبُ ما فيها، وهذا كلُّه خطابٌ للنبيِّ ﷺ والمرادُ أُمَّتُه، وكثيراً ما جاء في القرآن؛ فإن النبيَّ ﷺ لمَّا كان سيِّدَهم وواسِطتَهم إلى ربِّهم عَبَّر به عنهم على عادة العرب في ذلك[١]. وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدَّخِرُ شيئاً لغد، وكان يجوع حتى يشُدَّ الحجرَ على بطنه من الجوع، وكان كثيرٌ من الصحابة ينفقون في سبيل الله جميع أموالهم، فلم يُعنِّفْهمُ النبيُّ ﷺ ولم يُنكِرْ عليهم؛ لصحة يقينهم وشِدَّة بصائرهم، وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط في الإنفاق، وإخراجِ ما حَوَتْه يدُه من المال مَنْ خِيفَ عليه الحسرةُ على ما خرج من يده، فأما مَنْ وَثِقَ بموعودِ الله عزَّ وجلَّ وجزيلِ ثوابه فيما أنفقه فغيرُ مُرادٍ بالآية، والله أعلم[٢]. وقيل: إنَّ هذا الخطاب للنبيِّ ﷺ في خاصَّة نفسه، علَّمه فيه كيفية الإنفاق، وأمره بالاقتصاد[٣]. قال جابر وابن مسعود: جاء غلامٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ أمي تسألُكَ كذا وكذا. فقال: «ما عندنا اليوم شيء». قال: فتقولُ لكَ: اكْسُني قميصَك. فخلع قميصَه فدفعه إليه، وجلس في البيت عرياناً. وفي رواية جابر: فأذَّنَ بلالٌ للصلاة وانتظروا رسولَ الله ﷺ فلم[٤] يخرج، واشتغلتِ القلوب، فدخل بعضُهم فإذا هو عارٍ؛ فنزلت هذه الآية[٥]. وكلُّ هذا في إنفاق الخير، وأما إنفاق الفساد فقليلُه وكثيرُه حرام، كما تقدَّم[٦].

الثالثة: نهت هذه الآية عن استفراغ الوُجْدِ فيما يطرأ أولاً من سؤال المؤمنين؛

= الحلقة»، نعم، إطلاق الجُبَّة على الجُنَّة بالنون مجازاً غير بعيد. وقوله: تعفو أثره: تستر أثره. قلصت: تضامَّت واجتمعت. فتح الباري ٣/ ٣٠٦ .

(١) من بداية المسألة الأولى إلى هنا من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٢ .

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٩٩ ، وأحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٧ .

(٣) أحكام القرآن للطبري ٣/ ٢٥٨ .

(٤) كلمة «فلم» من (ظ).

(٥) زاد المسير ٥/ ٢٩ - ٣٠ ، والروايتان لم نقف على من أخرجهما.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥١ ، وقد تقدم عند تفسير الآية (٢٦) من هذه السورة.

لئلا يبقى مَنْ يأتي بعد ذلك لا شيءَ له، أو لئلا يُضيِّعَ المُنفِقُ عيالَه. ونحوُه من كلام الحكمة: ما رأيتُ قطُّ سَرَفاً إلا ومعه حقٌّ مُضَيَّعٌ. وهذه من آيات فقه الحال، فلا يُبيِّنُ حكمُها إلا باعتبار شخصٍ من الناس[(١)].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ قال ابن عرفة: يقول: لا تُسرِفْ ولا تُتلِفْ مالَكَ فتبقى محسوراً منقطعاً عن النفقة والتصرف، كما يكون البعير الحسير، وهو الذي ذهبت قوَّتُه فلا انبِعاثَ به؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] أي: كليل منقطع[(٢)]. وقال قتادة: أي: نادماً على ما سلف منك[(٣)]. فجعله من الحسرة، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الفاعل من الحسرة حَسِرٌ وحسران، ولا يُقال: محسور. والملوم: الذي يُلام على إتلاف ماله، أو يلومُه مَنْ لا يُعطيه[(٤)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قد مضى الكلام في هذه الآية في الأنعام[(٥)]، والحمد لله. والإملاق: الفقر وعدم الملك. أملقَ الرجلُ أي: لم يبق له إلا الملَقات؛ وهي الحجارةُ العِظامُ المُلْس[(٦)]. قال الهُذَليُّ يصف صائداً:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥١، والحكمة التي ذُكرت قائلها معاوية بن أبي سفيان كما ذكر الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ٢٦٧.

(٢) وبنحوه قال الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٢٢.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٧، والطبري ١٤/ ٥٧٥ - ٥٧٦.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١١٣ بمعناه.

(٥) ٩/ ١٠٧.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥١.

أُتِيحَ لها أُقَيْدِرُ ذو حَشِيفٍ إذا سامَتْ على المَلَقَاتِ ساما

الواحدة مَلَقة[١]. والأُقَيْدر تصغير الأقدر، وهو الرجل القصير. والحَشِيف من الثياب: الخَلَق. وسامت: مرَّت[٢]. وقال شَمِر: أملَقَ لازمٌ ومتعدٍّ، أملق إذا افتقر، وأملق الدهر ما بيده. قال أوس:

وأمْلَقَ ما عندي خطوبٌ تَنَبَّلُ[٣]

الثانية: قوله تعالى: ﴿خِطْئًا﴾ قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهمزة والقصر. وقرأ ابن عامر: «خَطَأً» بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة، وهي قراءة أبي جعفر يزيد[٤]. وهاتان قراءتان مأخوذتان من «خطئ» إذا أتى الذنب على عمد[٥]. قال ابن عرفة: يُقال: خَطِئ في دينه[٦] خَطَأً إذا أثِمَ فيه، وأخطأ: إذا سلكَ سبيلَ خَطَأٍ عامداً أو غيرَ عامد[٧]. قال: ويقال: خَطِئَ في معنى أخطأ[٨]. وقال الأزهري: يقال خَطِئَ يخطأ خِطْئاً إذا تعمَّد الخطأ؛ مثلُ أثِم يَأثم إثماً، وأخطأ إذا لم يتعمَّد، إخْطاءً وخَطَأً[٩]؛ قال الشاعر:

دَعِيني إنما خَطْئي وصَوْبي عليَّ وإنَّ ما أهلكتُ مالُ[١٠]

---

(١) تهذيب اللغة ٩/ ١٨٢ ، والهذلي هو صخر الغي، والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ٦٣ .

(٢) اللسان (قدر).

(٣) تهذيب اللغة ٩/ ١٨٢ ، وهذا عجزُ بيتٍ صدرُه:
«ولما رأيتُ العُدْمَ قيَّدَ نائلي» وهو في ديوان أوس بن حجر ص٩٤ .

(٤) السبعة ص٣٧٩ - ٣٨٠ ، والتيسير ص١٣٩ - ١٤٠ ، والنشر ٢/ ٣٠٧ ، وسيذكر المصنف أن ابن كثير ـ وهو من السبعة ـ كان يقرؤها: «خِطاءً».

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٤٧ .

(٦) في (م) و(د): ذنبه.

(٧) نقله عن ابن عرفة الصغانيُّ في العباب الزاخر واللباب الفاخر (خطأ).

(٨) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن: ١/ ٣٧٦ : خطِئتَ وأخطأتَ لغتان.

(٩) تهذيب اللغة ٧/ ٤٩٦ - ٤٩٧ بمعناه.

(١٠) قائله أوس بن غَلفاء كما في طبقات فحول الشعراء ١/ ١٦٧ ، وخزانة الأدب ٨/ ٣١٣ ، وعندهما: «ذريني» بدل «دعيني»، وفي الخزانة: «أنفقت» بدل «أهلكت».

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، وهو ضدُّ الصواب[١]. وفيه لغتان: القصر وهو الجيد، والمدُّ وهو قليل. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «خَطْأً» بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة[٢]. وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومدِّ الهمزة[٣]. قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً[٤]، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطاً. قال أبو عليّ: هي مصدرٌ من خاطَأَ يُخاطِئُ، وإن كُنَّا لا نجِدُ خاطأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مطاوِعُ خاطأ، فدلَّنا عليه؛ ومنه قول الشاعر:

تَخَاطَأَتِ النَّبْلُ أحشاءَهُ وأخَّرَ يومي فلم أَعْجَلِ

وقول الآخر في وصف مَهاةٍ:

تخاطأهُ القَنَّاصُ حتى وجدتُهُ وخرطومُه في مَنْقِعِ الماءِ راسبُ[٥]

الجوهري: تخاطأه أي: أخطأه؛ وقال أوفى بن مطر المازني:

ألَا أبْلِغا خُلَّتي جابراً بأنَّ خليلَكَ لم يُقتَلِ
تخاطأتِ النَّبْلُ أحشاءَهُ وأخَّرَ يومي فلم يَعْجَلِ[٦]

وقرأ الحسن: «خَطَاءً» بفتح الخاء والطاء والمد في الهمزة. قال أبو حاتم: لا يُعرف هذا في اللغة، وهي غلطٌ غيرُ جائز[٧]. وقال أبو الفتح[٨]: الخطأ من أخطأتُ بمنزلة العطاء من أعطيتُ، هو اسم بمعنى المصدر. وعن الحسن أيضاً: «خَطًى» بفتح

---

(١) تقدم عند المصنف ٨/٧ - ٩.

(٢) هذه القراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ١٩/٢ عن ابن عامر.

(٣) السبعة ص٣٧٩، والتيسير ص١٣٩.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١٤٧/٤ بمعناه.

(٥) الحجة في القراءات لأبي علي الفارسي ٩٦/٥ - ٩٧ بمعناه، ومن قوله قرأ ابن كثير إلى هذا الموضع في المحرر الوجيز ٤٥٢/٣، والبيت الأول قائله أوفى بن مطر كما سيأتي، والبيت الثاني قائله رجل من بني بكر كما نسبه الراغب الأصبهاني في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ٦١٢/٢.

(٦) الصحاح (خطأ)، والبيتان في كتاب الأمثال للمفضل الضبي ص٦٨.

(٧) المحرر الوجيز ٤٥٢/٣.

(٨) في المحتسب ٢٠/٢.

الخاء والطاء منوّنةً من غير همز[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾

فيه مسألة واحدة:

قال العلماء: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ أبلَغُ من أن يقول: ولا تزنوا؛ فإنَّ معناه: لا تدنوا من الزنى.

والزنى يُمَدُّ ويُقصر، لغتان. قال الشاعر:

كانت فريضةَ ما تقول كما كان الزِّناءُ فريضةَ الرَّجْمِ[٢]

و﴿سَبِيلًا﴾ نصب على التمييز؛ التقدير: وساء سبيلُه سبيلاً. أي: لأنه يؤدِّي إلى النار[٣]. والزنى من الكبائر، ولا خلافَ فيه وفي قُبحه ولا سيما بحليلة الجار، وينشأ عنه استخدام ولد الغير واتخاذُه ابناً وغيرُ ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه. وفي الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ أتى بامرأةٍ مُجِحٍّ على باب فُسطاطٍ فقال: «لعلَّه يريد أن يُلِمّ بها» فقالوا: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لقد هَمَمْتُ أن ألْعنه لَعْناً يدخل معه قبرَه، كيف يُوَرِّثُه وهو لا يَحِلُّ له؟! كيف يستخدمه وهو لا يَحِلُّ له؟!»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قد مضى الكلام فيه في

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٢ .

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٧٧ - ٣٧٨ ، والبيت قائله النابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢٣٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥١ .

(٤) صحيح مسلم (١٤٤١) من حديث أبي الدرداء ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٧٥١٩). قال السندي في حاشيته على المسند: قوله: «مُجِحٍّ»: هي القريبة الولادة. «يُلِمُّ بها» من الإلمام، أي: يجامعها قبل الاستبراء. «كيف يورثه» من التوريث، أي: كيف يجعل ما في بطنها وارثاً له، أي: ربما تأتي بمولود في مدة يشتبه أن الولد له، أو للزوج السابق، وحينئذ لا يحل التوريث لاحتمال أن لا يكون منه، ولا الاستخدام لاحتمال أنه منه، والحاصل أنه إذا اشتبه الأمر فلا يحلُّ له أن يدعوه ابناً ولا عبداً.

الأنعام[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي: بغير سببٍ يوجب القتل[٢]. ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لمستحِقِّ دمِه[٣].

قال ابن خُوَيْزمَنْداد: الوليُّ يجب أن يكون ذكراً؛ لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير.

وذكر إسماعيل بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ ما يدلُّ على خروج المرأة عن مطلق لفظ الوليِّ، فلا جَرَم، ليس للنساء حقٌّ في القصاص لذلك ولا أثرَ لعَفْوِها، وليس لها الاستيفاء[٤].

وقال المخالف: إنَّ المراد هاهنا بالولي الوارث؛ وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقال: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] فاقتضى ذلك إثباتَ القَوَدِ لسائر الورثة[٥]، وأمّا ما ذكروه من أنَّ الوليَّ في ظاهره على التذكير وهو واحد، كأنَّ ما كان بمعنى الجنس يستوي المذكر والمؤنث فيه[٦]، وتتمته في كتب الخلاف.

﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: تسليطاً، أي: إن شاءَ قتل، وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدِّية.

---

(١) ٩/ ١٠٩.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٤٠.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٧، وزاد المسير ٥/ ٣٢.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٩.

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠١، وأحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٦) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٦٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٥.

قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والضحاك وأشهب والشافعي. وقال ابن وهب: قال مالك: السلطانُ أمر الله. ابن عباس: السلطان: الحُجَّة. وقيل: السلطان: طلبه حتى يدفع إليه. قال ابن العربي: وهذه الأقوال متقاربة، وأوضحها قول مالك: إنه أمر الله، ثم إنَّ أمرَ الله عزَّ وجلَّ لم يقَعْ نَصًّا، فاختلف العلماء فيه، فقال ابن القاسم عن مالك وأبي حنيفة: القتل خاصَّةً. وقال أشهب [عنه]: الخيرة؛ كما ذكرنا آنفاً، وبه قال الشافعيُّ[(١)]. وقد مضى في سورة البقرة[(٢)] هذا المعنى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: لا يَقتلْ غيرَ قاتله. قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير. الثاني: لا يَقتلْ بدل وَلِيِّه اثنين كما كانت العرب تفعله. الثالث: لا يُمثِّل بالقاتل. قاله طَلْق بن حبيب. وكلُّه مرادٌ؛ لأنه إسرافٌ منهيٌّ عنه[(٣)]. وقد مضى في «البقرة» القول في هذا مستوفًى.

وقرأ الجمهور «يُسْرِف» بالياء[(٤)]، يريد الولي[(٥)]، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: «تسرف» بالتاء من فوق، وهي قراءة حُذيفة[(٦)]. وروى العلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال: هو للقاتل الأوّل، والمعنى عنده[(٧)]: فلا تسرف أيها

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٩٦ - ١١٩٧ ، ولم يعزُ القول الأول لابن عباس، وما بين حاصرتين منه. والقول الأول أخرجه الطبري ١٤/ ٥٨٣ عن ابن عباس والضحاك.

(٢) ٣/ ٦٤ وما بعدها.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٧ ، وعزا القول الأول إلى الحسن وحده، والقول الثاني إلى مجاهد. وقد أخرج ابن أبي شيبة ٩/ ٤٢٣ ، والطبري ١٤/ ٥٨٥ - ٥٨٦ القول الأول والثالث عن طلق ابن حبيب، وأخرجهما أيضاً عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٧ ، والطبري ١٤/ ٥٨٧ عن قتادة. وأما القول الثاني فأخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٧٧ ، وابن أبي شيبة ٩/ ٤٢٣ ، والطبري ١٤/ ٥٨٦ عن سعيد بن جبير.

(٤) السبعة ص٣٨٠ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٣ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٤٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٣ ، وينظر السبعة ص٣٨٠ ، والنشر ٢/ ٣٠٧ وذكر أنها قراءة خلف ولم يذكر ابن عامر، وقد ذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٢٣ هذه القراءة بإسنادها عن حذيفة.

(٧) في (م) و(د): عندنا.

القاتل[١]. وقال الطبريُّ: هو على معنى الخطاب للنبيِّ ﷺ والأئمة من بعده. أي: لا تقتلوا غير القاتل[٢]. وفي حرف أُبَيٍّ: «فلا تُسرِفوا في القتل»[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي: مُعاناً، يعني الوليَّ. فإن قيل: وكم من وَلِيٍّ مخذولٍ لا يصلُ إلى حقِّه. قلنا: المعونةُ تكون بظهور الحجة تارةً وباستيفائها أخرى، وبمجموعهما ثالثةً، فأيُّها كان فهو نصرٌ من الله سبحانه وتعالى[٤].

وروى ابن كثير عن مجاهد قال: إن المقتول كان منصوراً. النحاس: ومعنى قوله: إن الله نصره بوليّه. وروى أنه في قراءة أُبَيٍّ «فلا تسرِفوا فِي القتلِ إن وَلِيّ المقتول كان منصوراً». قال النحاس: الأبْيَنُ بالياء ويكون للوليّ؛ لأنه إنما يقال: «لا يُسرِفْ» لمن[٥] كان له أن يقتلُ، فهذا للوليّ. وقد يجوز بالتاء ويكون للوليِّ أيضاً، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة[٦].

قال الضحاك: هذا أوّلُ ما نزلَ من القرآن في شأن القتل، وهي مكية[٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قد مضى الكلام فيه في الأنعام[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ١٥١ .

(٢) نقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٣ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٥٨٥ - ٥٨٦ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٣ ، وهي قراءة شاذة.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٧ .

(٥) في (م) و(د): إن.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٥١ - ١٥٢ .

(٧) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٨٦ .

(٨) ٩/ ١١١ - ١١٣ .

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع[١]. قال الزَّجّاج: كلُّ ما أمر الله به ونَهى عنه فهو من العهد[٢]. ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ عنه، فحذف؛ كقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ به. وقيل: إنَّ العهدَ يُسأَلُ تبكيتاً لناقضه، فيُقال: نَقضْتَ، كما تُسأَلُ المَوْؤُودة تبكيتاً لوائدها[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ تقدَّم الكلام فيه أيضاً في الأنعام[٤]. وتقتضي هذه الآية أنَّ الكيل على البائع، وقد مضى في سورة «يوسف»[٥] فلا معنى للإعادة. والقُسطاس (بضم القاف وكسرها): الميزان بلغة الروم. قاله ابن عَزيز[٦]. وقال الزَّجّاج: القسطاس: الميزان صغيراً كان أو كبيراً. وقال مجاهد: القسطاس: العدل، وكان يقول: هي لغة رومية، وكأنَّ الناس قيل لهم: زِنوا بمَعْدِلَةٍ في وزنكم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: «القُسطاس» بضمِّ القاف، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم بكسر القاف، وهما لغتان[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وفاءُ الكيل وإقامةُ الوزن خيرٌ

---

(١) ينظر ٢/ ٨ و ٩/ ١١٥ .

(٢) نقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ١٠٧ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٠٦ .

(٤) ٩/ ٢١٤ .

(٥) ١١/ ٤٤٠ .

(٦) وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٦٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٥ ، لكنه لم ينسب القول الأول في معنى القسطاس إلى الزجاج، والذي قاله الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٣٨ : القسطاس: ميزان العدل، أيُّ ميزانٍ كان من موازين الدراهم أو غيرها. وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٣٦٢ . وتنظر القراءتان في السبعة ص٣٨٠ ، والتيسير ص١٤٠ .

عند ربك وأبرك. «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً» أي: عاقبة[١]. قال الحسن: ذُكِرَ لنا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يقدِرُ رجلٌ على حرامٍ ثم يَدَعُه ليس به[٢] إلا مخافةُ الله تعالى إلا أبدلَه اللهُ في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خيرٌ له من ذلك»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي: لا تتبَعْ ما لا تعلم ولا يَعنِيكَ[٤]. قال قتادة: لا تقُلْ: رأيتُ، وأنتَ لم ترَ، وسمعتُ، وأنت لم تسمع، وعلمتُ، وأنت لم تعلم[٥]. وقاله ابن عباس رضي الله عنهما[٦]. وقال مجاهد: لا تَرْمِ أحداً بما ليس لك به علم[٧]. وقاله ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً[٨]. وقال محمد ابن الحنفية: هي شهادة الزور[٩]. وقال القُتَبيُّ: المعنى: لا تُتبعه الحَدْسَ والظُّنون[١٠]. وكلها متقاربة. وأصل القَفْو البَهْتُ والقذفُ بالباطل[١١]؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «نحن بنو النضر

---

(١) عزاه في الدر المنثور ٤/ ١٨٢ إلى سعيد بن جبير.

(٢) في (م) و(د): لديه.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٣ ولكن من طريق قتادة، عن ابن عباس، مرفوعاً. وإسناده منقطع؛ لأن قتادة لم يسمع من أحدٍ من الصحابة سوى أنس بن مالك. المراسيل ص١٣٩ .

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٥٩٤ .

(٥) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٤ .

(٦) زاد المسير ٥/ ٣٥ .

(٧) تفسير مجاهد ١/ ٣٦٣ ، وذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ١٥٥ - ١٥٦ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٤ - ٥٩٥ .

(٨) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٤ .

(٩) ذكره النحاس أيضاً ٤/ ١٥٥ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٤ .

(١٠) غريب القرآن ص٢٥٤ .

(١١) تفسير الطبري ١٤/ ٥٩٥ بمعناه.

ابن كنانة لا نَقفو أُمَّنا، ولا ننتفي من أبينا»[١] أي: لا نَسُبُّ أُمَّنا. وقال الكُمَيت:

فلا أرمي البريء بغير ذنبٍ ولا أَقْفُو الحواصِنَ إن قُفينا[٢]

يقال: قَفَوْتُه أَقْفُوه، وقُفْتُه أَقُوفُه، وقَفَّيْتُه إذا اتَّبعتُ أثره[٣]. ومنه القافة؛ لتتبعهم الآثار[٤]. وقافية كلِّ شيء آخره، ومنه قافية الشِّعر؛ لأنها تقفو البيت[٥]. ومنه اسمُ النبيِّ ﷺ المُقَفِّي؛ لأنه جاء آخر الأنبياء. ومنه القائف، وهو الذي يتبع أثر الشَّبَه. يقال: قاف القائف يقوف إذا فعل ذلك[٦]. وتقول: فَقَوْتُ الأثر، بتقديم الفاء على القاف. ابنُ عطية: ويشبه أن يكون هذا من تلعُّبِ العرب في بعض الألفاظ، كما قالوا: رَعَمْلي في لَعَمْري. وحكى الطبريُّ عن فرقةٍ أنها قالت: قَفا وقافَ مثل عَثا وعاثَ. وذهب منذر بن سعيد إلى أنَّ قَفا وقافَ مثلُ جَبَذَ وجَذَبَ. وبالجملة فهذه الآية تنهى عن قول الزُّور والقذف، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة. وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائي «تَقُفْ» بضم القاف وسكون الفاء، وقرأ الجراح: «والفَآد» بفتح الفاء، وهي لغةٌ لبعض الناس، وأنكرها أبو حاتم وغيره[٧].

الثانية: قال ابن خُوَيْزِمنداد: تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة؛ لأنه لمَّا قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ دلَّ على جواز ما لنا به علم، فكلُّ ما عَلِمه الإنسان أو غلب على ظنِّه جاز أن يحكم به، وبهذا احتججنا على إثبات القُرْعة والخَرْص؛ لأنه ضربٌ من غَلَبة الظنِّ، وقد يُسَمَّى علماً اتساعاً. فالقائف يُلحِقُ الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما، كما يُلحِقُ الفقيهُ الفرعَ بالأصل من طريق الشَّبَه. وفي الصحيح عن

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٨٣٩)، وابن ماجه (٢٦١٢) من حديث الأشعث بن قيس ﷺ.

(٢) ذيل ديوان الكميت ص٤٦٦ . الحواصن جمع حَصان: وهي المرأة العفيفة المتزوجة. اللسان (حصن).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٠ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١١٤ .

(٥) تهذيب اللغة ٩/ ٣٢٧ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٠ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٦ ، وهي قراءة شاذة. وقول الطبري في تفسيره ١٤/ ٥٩٦ .

عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ دخل عليَّ مسروراً تَبْرُقُ أساريرُ وجْهِه، فقال: «ألم تَرَيْ أنَّ مُجَزِّزاً نظرَ إلى زيد بن حارثة وأسامةَ بن زيد عليهما قَطيفةٌ قد غَطَّيا رؤوسَهما وبَدَتْ أقدامُهما فقال: إنَّ بعضَ هذه الأقدامِ لَمِنْ بعض»[١]. وفي حديث يونس بن يزيد: وكان مُجَزِّزٌ قائفاً[٢].

الثالثة: قال الإمام أبو عبد الله المازَرِيُّ: كانت الجاهلية تقدح في نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد، وكان زيد أبوه أبيضَ من القطن، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح. قال القاضي عِياض: وقال غيرُ أحمد: كان زيدٌ أزهرَ اللون، وكان أسامةُ شديدَ الأُدْمة، وزيد بن حارثة عربيٌّ صريحٌ من كَلْب، أصابه سِباء[٣]، حسبما يأتي في سورة الأحزاب[٤] إن شاء الله تعالى.

الرابعة: استدلَّ جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع في الولد بسرور النبيِّ ﷺ بقول هذا القائف، وما كان عليه السلام بالذي يُسَرُّ بالباطل ولا يُعجِبُه. ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة وإسحاق والثَّوريُّ وأصحابُهم، متمسِّكين بإلغاء النبيِّ ﷺ الشَّبَه في حديث اللِّعان[٥]؛ على ما يأتي في سورة النور[٦] إن شاء الله تعالى.

الخامسة: واختلف الآخذون بأقوال القافة، هل يؤخَذُ بذلك في أولاد الحرائر والإماء أو يختصُّ بأولاد الإماء، على قولين: فالأوّل: قول الشافعيِّ ومالكٍ رضي الله عنهما في رواية ابن وهب عنه، ومشهورُ مذهبه قَصْرُه على ولد الأَمَة، والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعيُّ ﷺ؛ لأن الحديث الذي هو الأصل في الباب إنما وقع في الحرائر، فإن أسامة وأباه حُرَّان فكيف يُلْغَى السببُ الذي خُرِّج

(١) صحيح البخاري (٦٧٧١)، وصحيح مسلم (١٤٥٩): (٣٩). وأخرجه أحمد (٢٤٠٩٩).

(٢) صحيح مسلم بإثر الرواية (١٤٥٩): (٤٠).

(٣) إكمال المعلم ٤/ ٦٥٦ .

(٤) عند تفسير الآية (٤).

(٥) المفهم ٤/ ٢٠٠ .

(٦) عند تفسير الآية (١٠).

عليه دليلُ الحكم وهو الباعثُ عليه، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين. وكذلك اختلف هؤلاء، هل يُكتفَى بقول واحدٍ من القافة أو لابُدَّ من اثنين لأنها شهادة، وبالأوّل قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصُّه. وبالثاني قال مالكٌ والشافعيُّ رضي الله عنهما(١).

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أي: يُسألُ كلُّ واحدٍ منهم عما اكتسب، فالفؤاد يُسأل عما افتكر فيه واعتقده، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع(٢). وقيل: المعنى أنَّ الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعُه وبصرُه وفؤادُه(٣)؛ ونظيره قوله ﷺ: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته»(٤) فالإنسان راعٍ على جوارحه، فكأنَّه قال: كلُّ هذه كان الإنسان عنه مسؤولاً، فهو على حذف مضاف. والمعنى الأول أبلَغُ في الحُجَّة؛ فإنه يقع تكذيبُه من جوارحه، وتلك غاية الخزي، كما قال: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

وعبَّر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك؛ لأنها حواسٌّ لها إدراك، وجعلها في هذه الآية مسؤولة، فهي حالةُ من يعقل؛ فلذلك عبَّر عنها بأولئك. وقال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]: إنما قال: «رأيتهم» في نجوم؛ لأنه لمَّا وصفها بالسجود وهو من فِعْلِ مَنْ يعقِلُ عبَّر عنها بكناية مَن يعقل(٥). وقد تقدَّم. وحكى الزَّجَّاج(٦) أنَّ العرب تُعبِّر عمَّا يعقِلُ وعمَّا لا يعقِلُ بأولئك، وأنشد هو

---

(١) المفهم ٤/ ٢٠١ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٦ .

(٤) سلف ٦/ ٤٢٧ .

(٥) ينظر معناه في كتاب سيبويه ٢/ ٤٧ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣٩ .

والطبري[١]:

ذُمَّ المنازلَ بعد منزلةِ اللِّوى والعيشَ بعد أولئكَ الأيامِ[٢]

وهذا أمرٌ يوقف عنده، وأما البيت فالرواية فيه «الأقوام»[٣]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هذا نَهْيٌ عن الخُيَلاء وأمرٌ بالتواضع. والمَرَح: شِدَّة الفرح. وقيل: التكبُّر في المشي. وقيل: تجاوز الإنسان قَدْره. وقال قتادة: هو الخُيَلاء في المشي. وقيل: هو البطر والأَشَر. وقيل: هو النشاط[٤]. وهذه الأقوال متقاربةٌ، ولكنَّها منقسمةٌ قسمين: أحدهما مذمومٌ والآخر محمود؛ فالتكبُّر والبَطَر والخُيَلاء وتجاوُزُ الإنسانِ قَدْرَه مذمومٌ، والفرح والنشاط محمود. وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما، ففي الحديث الصحيح: «لَلهُ أفرَحُ بتوبة العبد من رجل...» الحديث[٥]. والكسل مذمومٌ شرعاً والنشاط ضِدُّه. وقد يكون التكبُّر وما في معناه محموداً، وذلك على أعداء الله والظَّلَمة[٦].

أسند أبو حاتم محمد بن حِبَّان عن ابن جابر بن عَتيك، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ

---

(١) في تفسيره ١٤/ ٥٩٦ .

(٢) قائله جرير، وهو في شرح ديوانه ٢/ ٩٩٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٦ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٤٤ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١ .

(٥) أخرجه أحمد (٣٦٢٧)، والبخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ. وأحمد (١٣٢٢٧)، والبخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأحمد (١٨٤٢٣)، ومسلم (٢٧٤٥) من حديث النعمان بن بشير ﷺ. وأحمد (١٨٤٩٢)، ومسلم (٢٧٤٦) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١ .

أنه قال: «إنَّ مِن الغَيْرة ما يُبغِضُ اللهُ عزَّ وجلَّ، ومنها ما يُحِبُّ اللهُ عزَّ وجلَّ، ومن الخُيَلاء ما يُحِبُّ اللهُ عزَّ وجلَّ، ومنها ما يُبغِضُ اللهُ، فأما الغَيْرةُ التي يُحِبُّ اللهُ الغَيْرةُ في الدِّين، والغَيْرةُ التي يُبغِضُ اللهُ الغَيْرةُ في غير دينه، والخُيَلاءُ التي يُحِبُّ اللهُ اختيالُ الرجلِ بنفسه عند القتال وعند الصدقة، والاختيالُ الذي يُبغِضُ اللهُ الخُيَلاءُ في الباطل» وأخرجه أبو داود في مصنَّفه وغيره[١]. وأنشدوا:

ولا تمشِ فوقَ الأرضِ إلا تواضُعاً فكم تحتَها قومٌ هُمُ منكَ أرفَعُ
وإن كنتَ في عزٍّ وحِرْزٍ ومَنْعةٍ فكم ماتَ من قومٍ هُمُ منكَ أمنَعُ[٢]

الثانية: إقبال الإنسان على الصيد ونحوه تنزُّهاً[٣] دون حاجةٍ إلى ذلك داخلٌ في هذه الآية، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنًى. وأما الرجل يستريح في اليوم النادر والساعة من يومه، يُجمُّ فيها نفسَه في التطرُّح والراحة؛ ليستعين بذلك على شُغلٍ من البِرِّ، كقراءة علمٍ أو صلاةٍ، فليس بداخلٍ في هذه الآية[٤].

قوله تعالى: ﴿مَرَحًا﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء. وقرأت فرقةٌ فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بناء اسم الفاعل[٥]. والأول أبلَغُ، فإنَّ قولك: جاء زيدٌ رَكْضاً أبلَغُ من قولك: جاء زيدٌ راكضاً، فكذلك قولُكَ: مَرَحاً. والمرَحُ المصدَرُ أبلَغُ من أن يُقال: مَرِحاً[٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: لن تتولَّج باطنَها فتعلمَ ما فيها

---

(١) صحيح ابن حبان (٢٩٥)، وسنن أبي داود (٢٦٥٩)، وسنن النسائي ٥/ ٧٨ - ٧٩، ومسند أحمد (٢٣٧٤٧).

(٢) ذكرهما ابن حبان في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص٦١، وذكر أن الكريزي أنشده إياهما.

(٣) في (م): ترفعاً.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧ دون قوله: وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنى.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٠ بمعناه.

﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: لن تساويَ الجبالَ بطولك ولا تطاولك[١]. ويقال: خرق الثوبَ أي: شقَّه، وخرق الأرض: قطعها، والخَرْقُ: الواسع من الأرض[٢]. أي: لن تخرق الأرض بكِبْرِكَ ومشيِكَ عليها، ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ بعظمتك[٣]، أي: بقدرتك لا تبلغ هذا المبلَغَ، بل أنت عبدٌ ذليل، مُحاطٌ بِكَ من تحتك ومن فوقك، والمُحاط محصورٌ ضعيف، فلا يليقُ بك التكبر. والمرادُ بخرق الأرض هنا نقبُها لا قطعها بالمسافة[٤]، والله أعلم. وقال الأزهري: معناه: لن تقطعها[٥]. النحاس[٦]: وهذا أبْيَنُ؛ لأنه مأخوذٌ من الخرق: وهي الصحراء الواسعة. ويُقال: فلانٌ أخْرَقُ من فلان، أي: أكثر سفراً وغزواً منه[٧].

ويُروى أن سَبَأَ دوَّخَ الأرض بأجناده شرقاً وغرباً وسَهْلاً وجبلاً، وقتل سادةً وسبى ـ وبه سُمِّيَ سبأ ـ ودانَ له الخلق، فلمَّا رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيامٍ، ثم خرج إليهم فقال: إني لمَّا نِلْتُ ما لم ينَلْ أحدٌ رأيتُ الابتداء بشكر هذه النِّعم، فلم أرَ أوقَعَ في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت، فسجدوا لها، وكان ذلك أوّلَ عبادة الشمس، فهذه عاقبة الخُيَلاء والتكبر والمرَح[٨]، نعوذُ بالله من ذلك.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ «ذلك» إشارة إلى جملة ما تقدَّم ذِكْرُه مما أمر به ونَهَى عنه[٩]. و«ذلك» يصلح للواحد والجمع والمؤنث

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١ .

(٢) تهذيب اللغة ٧/ ٢١ - ٢٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٠٨ ، وزاد المسير ٥/ ٣٦ عن ابن عباس.

(٤) وردَّ هذا القول أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٨٠ .

(٥) تهذيب اللغة ٧/ ٢١ بمعناه.

(٦) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٧ .

(٧) في (م) و(د): وعزةً ومنعةً.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١ .

(٩) الوسيط للواحدي ٣/ ١٠٨ .

والمذكر.

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ومسروق: «سيئُهُ» على إضافة سَيِّئ إلى الضمير؛ ولذلك قال: «مَكْروهاً» نصب على خبر كان[(١)]. والسيِّئ: هو المكروه، وهو الذي لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ ولا يأمر به[(٢)]. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآي من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ مأموراتٍ بها ومنهياتٍ عنها، فلا يُخبِرُ عن الجميع بأنه سيِّئة فيدخل المأمور به في المنهيِّ عنه[(٣)]. واختار هذه القراءة أبو عبيد[(٤)]. ولأن في قراءة أُبَيٍّ: «كلُّ ذلِك كان سيئاته»[(٥)] فهذه لا تكون إلا للإضافة.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «سيئةً» بالتنوين، أي: كلُّ ما نهى الله ورسوله عنه سيئة. وعلى هذا انقطع الكلام عند قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، ﴿وَلَا تَمْشِ﴾، ثم قال: ﴿كُلُّ ذلك كان سَيِّئَةً﴾ بالتنوين[(٦)].

وقيل: إن قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ إلى هذه الآية كان سيئةً لا حسنةَ فيه، فجعلوا «كُلًّا» محيطاً بالمنهيِّ عنه دون غيره. وقوله: ﴿مَكْرُوهًا﴾ ليس نعتاً لسيئة، بل هو بدلٌ منه، والتقدير: كان سيئةً وكان مكروهاً[(٧)]. وقد قيل: إنَّ «مكروهاً» خبرٌ ثانٍ لكان حُمِلَ على لفظة كلٍّ، و«سيئةً» محمولٌ على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبلُ. وقال بعضهم: هو نعتٌ لسيئة؛ لأنه لمَّا كان تأنيثُها غيرَ حقيقيٍّ جاز أن تُوصَفَ بمُذكَّر. وضعَّف أبو علي الفارسيُّ هذا وقال: إن المؤنث إذا ذُكِّر فإنما ينبغي

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧، والقراءة عن الأربعة دون مسروق في السبعة ص٣٨٠، والتيسير ص١٤٠.
(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٦٠٠.
(٣) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٥/ ١٠٢ - ١٠٣.
(٤) تفسير أبي الليث، ووقع في مطبوعه: أبو عبيدة.
(٥) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٦ - ٧٧ ونسبها إلى أبي إسحاق.
(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٠ - ٢٤١، والقراءة في السبعة ص٣٨٠، والتيسير ص١٤٠.
(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١٠٨.

أن يكون ما بعده مذكَّراً، وإنما التساهل أن يتقدَّم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يُسند إلى المذكَّر، ألا ترى قولَ الشاعر:

فلا مُزنةٌ ودَقَتْ وَدْقَها ولا أرضَ أبقَلَ إبقالَها[(١)]

مستقبَحٌ عندهم. ولو قال قائلٌ: «أبقَلَ أرضَ» لم يكن قبيحاً. قال أبو عليّ: ولكن يجوز في قوله: «مكروهاً» أن يكون بدلاً من «سيئة». ويجوز أن يكون حالاً من الضمير الذي في «عند ربك» ويكون «عند ربك» في موضع الصفة لسيئة[(٢)].

الخامسة: استدلَّ العلماء بهذه الآية على ذمِّ الرَّقْصِ وتعاطيه. قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل: قد نصَّ القرآن على النَّهي عن الرقص فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وذمَّ المختال. والرقصُ أشدُّ المرح والبطر، أوَلسنا الذين قِسْنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسُّكْر؟ فما بالُنا لا نقيسُ القضيبَ وتلحينَ الشِّعر معه على الطُّنبور والمِزمار والطَّبل لاجتماعهما؟! فما أقبح من ذي لِحْية، وكيف إذا كان شيبةً، يرقص ويُصفِّق على إيقاع الألحان والقضبان، وخصوصاً إن كانت أصواتُ لنسوانٍ ومُردان، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط، ثم هو إلى إحدى الدّارين، يَشْمُس[(٣)] بالرقص شمس البهائم، ويُصفِّق تصفيق النسوان، ولقد رأيتُ مشايخَ في عمري ما بان لهم سِنٌّ من التبسُّم فضلاً عن الضحك مع إدمان مخالطتي لهم. وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: ولقد حدَّثني بعض المشايخ عن الإمام الغزالي ﷺ أنه قال: الرقص حماقة بين الكتفين لا تزول إلا باللعب[(٤)].

---

(١) قائله عامر بن جوين الطائي، وهو في كتاب سيبويه ٢/ ٤٦، والكامل ٢/ ٨٤١، والخصائص ٢/ ٤١١، والخزانة ١/ ٤٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧ - ٤٥٨، وينظر كلام أبي علي الفارسي بمعناه في الحجة للقراء السبعة ٥/ ١٠٢ - ١٠٣.

(٣) يقال: شَمَسَتِ الدابة: إذا شردت وجمحت ومنعت ظهرها. اللسان (شمس).

(٤) تلبيس إبليس ص٢٥٠ - ٢٥١.

وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيانٍ في الكهف[١] وغيرها[٢] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

الإشارة: بـ «ذلك» إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل عليه السلام، أي: هذه من الأفعال المحكمة التي تقتضيها حكمة الله عزَّ وجلَّ في عباده، وخَلْقِه لهم من محاسن الأخلاق، والحكمة: قوانين المعاني المُحكمة والأفعال الفاضلة. ثم عطف قوله: «ولا تجعل» على ما تقدَّم من النواهي. والخطاب للنبيِّ ﷺ والمرادُ كلُّ مَنْ سمع الآية من البشر. والمدحور: المُهان المُبعَدُ المُقْصَى[٣]. وقد تقدَّم في هذه السورة[٤]. ويُقال في الدعاء: اللهم ادْحَرْ عنَّا الشيطان؛ أي: أبعِدْه[٥].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

هذا يردُّ على من قال من العرب: الملائكةُ بنات الله، وكان لهم بناتٌ أيضاً مع البنين، ولكنه أراد: أفأخْلَصَ لكم البنين دونه، وجعل البناتِ مشتركةً بينكم وبينه[٦].

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي: في الإثم عند الله عزَّ وجلَّ[٧].

---

(١) عند تفسير الآية (١٤) في الكلام على المسألة الثانية.

(٢) عند تفسير الآية (٦) من سورة لقمان.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٨ ، وفي النسخ: «وخلقها» بدل «وخلقه»، و«وقوانين» بدل «قوانين».

(٤) ١٣/ ٤٨ .

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥٥ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٥٨ .

(٦) زاد المسير ٥/ ٣٧ ، ومجمع البيان ١٥/ ٥١ .

(٧) الوسيط ٣/ ١٠٨ ، ومجمع البيان ١٥/ ٥١ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: بيَّنا. وقيل: كرَّرنا. ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ قيل: «في» زائدة، والتقدير: ولقد صرَّفنا هذا القرآن[1]؛ مثلُ: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ [الأحقاف:١٥] أي: أصلح ذريتي. والتصريف: صرف الشيء من جهة إلى جهة[2]. والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير. وقيل: المغايرة، أي: غايرنا بين المواعظ ليذَّكروا ويعتبروا ويتَّعظوا[3]. وقراءة العامة: «صَرَّفنا» بالتشديد على التكثير حيث وقع. وقرأ الحسن بالتخفيف[4]. وقوله: ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني الأمثال والعِبَر والحِكَم والمواعظ والأحكام والإعلام[5]. قال الثعلبي: سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب: لقوله تعالى: «صرفنا» معنيان؛ أحدهما: لم يجعله نوعاً واحداً، بل وعداً ووعيداً، ومُحْكَماً ومتشابهاً، ونهياً وأمراً، وناسخاً ومنسوخاً، وأخباراً وأمثالاً، مثلُ تصريف الرياح من صَباً ودَبُور وجنوبٍ وشمال، وتصريف الأفعال من الماضي والمستقبل والأمر والنَّهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها. والثاني: أنه لم ينزل مرةً واحدةً بل نجوماً، نحو قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ [الإسراء:١٠٦] ومعناه: أكثَرْنا صرفَ جبريل عليه السلام إليك. ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ قراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائي: «لِيَذْكُروا» مخفَّفاً، وكذلك في الفرقان [الآية: ٥٠]: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾. الباقون بالتشديد[6]. واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ معناه: ليتذكَّروا وليتَّعظوا. قال المَهْدِويُّ: من شدَّد «لِيَذَّكَّروا» أراد التدبر. وكذلك من قرأ «لِيَذْكُروا». ونظير

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٨ ، وضعَّفه.

(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ٢١٦ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٤٤ .

(٤) المحتسب ٢/ ٢١ ، وهي قراءة شاذة.

(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٦٠٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٥٨ .

(٦) السبعة ص٣٨٠ ، والتيسير ص١٤٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٥٨ .

الأول ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١] والثاني: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣]. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: التصريف والتذكير ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: تباعداً عن الحقِّ وغفلةً عن النظر والاعتبار؛ وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلةٌ وسحرٌ وكَهانةٌ وشعر.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ هذا متصلٌ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهو ردٌّ على عُبَّاد الأصنام. ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ قرأ ابن كَثير وحفص: «يقولون» بالياء. الباقون: «تقولون» بالتاء على الخطاب[1]. ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ يعني الآلهة. ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قال ابن العباس رضي الله تعالى عنهما: لَطلبوا مع الله منازعةً وقتالاً كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض[2]. وقال سعيد بن جُبير رضي الله تعالى عنه: المعنى: إذاً لطلبوا طريقاً إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه؛ لأنهم شركاؤه[3]. وقال قَتادة: المعنى: إذاً لابْتغَتِ الآلهةُ القُرْبةَ إلى ذي العرش سبيلاً، والتمستِ الزُّلْفةَ عنده؛ لأنهم دونه[4]، والقوم اعتقدوا أنَّ الأصنام تُقرِّبهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقدوا في الأصنام أنها محتاجةٌ إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ نزَّه سبحانه نفسَه وقدَّسه ومجَّده عما لا يليق به. والتسبيح: التنزيه. وقد تقدّم[5].

---

(١) السبعة ص٣٨١، والتيسير ص١٤٠.

(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٥٣، وذكره أبو الليث ٢/ ٢٦٩ عن مقاتل.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٤٥.

(٤) مجمع البيان ١٥/ ٥٣.

(٥) ١/ ٤١٢.

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أعاد على السماوات والأرض ضميرَ من يعقل، لمَّا أسند إليها فِعْلَ العاقل وهو التسبيح. وقوله: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ يريد الملائكةَ والإنسَ والجِنَّ، ثم عمَّ بعد ذلك الأشياء كلَّها في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[١]. واختلف في هذا العموم، هل هو مخصَّصٌ أم لا، فقالت فرقة: ليس مخصوصاً، والمراد به تسبيح الدلالة، وكلُّ مُحدَثٍ يشهد على نفسه بأنَّ الله عزَّ وجلَّ خالقٌ قادر[٢]. وقالت طائفة: هذا التسبيح حقيقة، وكلُّ شيءٍ على العموم يُسبِّح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه، ولو كان ما قاله الأوَّلون[٣] من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمراً مفهوماً[٤]، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفقه. وأُجيبوا بأن المراد بقوله: «لا تفقهون» الكفارُ الذين يُعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى في الأشياء. وقالت فرقة: قوله «مِنْ شَيْءٍ» عموم، ومعناه الخصوص في كل حَيٍّ ونامٍ، وليس ذلك في الجمادات. ومن هذا قول عكرمة: الشجرة تُسبِّح والأسطوان لا يُسبِّح. وقال يزيد الرَّقَاشِيُّ للحسن وهما في طعام وقد قُدِّم الخِوان: أَيُسبِّح هذا الخِوانُ يا أبا سعيد؟ فقال: قد كان يُسبِّحُ مرَّةً. يريد أنَّ الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها كانت تُسبِّح، وأما الآن فقد صار خِواناً مدهوناً[٥].

قلت: ويُستَدلُّ لهذا القول من السُّنَّة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيَّ ﷺ مرَّ على قبرين فقال: «إنهما لَيُعَذَّبان، وما يُعَذَّبان في كبير، أما

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٢، والوسيط للواحدي ٣/ ١٠٩.

(٣) في المحرر الوجيز: الآخرون.

(٤) في المحرر الوجيز: مفقوهاً.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٩، وأثر عكرمة أخرجه الطبري ١٤/ ٦٠٥، وأثر الحسن أخرجه الطبري ١٤/ ٦٠٦.

أحدُهما فكان يمشي بالنَّميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول» قال: فدعا بعَسِيبٍ رَطْبٍ فشقَّه اثنين، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً، ثم قال: «لعلَّه يُخفِّفُ عنهما ما لم يَيْبَسَا»(١). فقوله عليه الصلاة والسلام: «ما لم ييبسا» إشارةٌ إلى أنهما ما داما رطبين يُسبِّحان، فإذا يبِسا صارا جماداً. والله أعلم. وفي «مسند أبي داود الطيالسي»: فوضع على أحدهما نصفاً وعلى الآخر نصفاً، وقال: «لعلَّه أن يُهوِّن عليهما العذابَ ما دام فيهما من بلولتهما شيء»(٢). قال علماؤنا: ويُستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خُفِّفَ عنهم بالأشجار، فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن؟! وقد بيَّنَّا هذا المعنى في كتاب «التذكرة»(٣) بياناً شافياً، وأنه يصل إلى الميت ثوابُ ما يُهْدَى إليه. والحمد لله على ذلك. وعلى التأويل الثاني لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن كلَّ شيءٍ من الجماد وغيره يُسبِّح.

قلت: ويستدلّ لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ [ص: ١٧-١٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٧٤] ـ على قول مجاهد ـ وقوله: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [مريم: ٩٠-٩١]. وذكر ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا مِسْعَر، عن عبد الله بن واصل، عن عون(٤) بن عبد الله قال: قال عبد الله بن مسعود ﷺ: إنَّ الجبل ليقول للجبل: يا فلان، هل مرَّ بكَ اليومَ ذاكرٌ لله عزَّ وجلَّ؟ فإن قال: نعم، سُرَّ به. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ [مريم: ٨٨] الآيات. قال: أفتراهنَّ يَسمَعْنَ الزُّور ولا يَسمَعْنَ الخير(٥). وفيه عن أنس

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٨٠)، والبخاري (٦٠٥٢)، ومسلم (٢٩٢).

(٢) مسند الطيالسي (٨٦٧) من حديث أبي بكرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٠٤١١).

(٣) ص ١٥٠ .

(٤) تصحف اسم عون في النسخ سوى (ظ) إلى عوف.

(٥) الزهد لابن المبارك (٣٣٣)، عبد الله بن واصل مجهول تفرد بالرواية عنه مسعر بن كدام كما في التاريخ الكبير ٥/ ٢١٩ ، والجرح والتعديل ٥/ ١٩٢ ، وذكره ابن حبان في الثقات ٧/ ٥٧ على عادته في توثيق المجاهيل. وعون بن عبد الله لم يدرك عبد الله بن مسعود. قاله الترمذي في سننه عقب الحديث (١٢٧٠).

ابن مالك ﷺ قال: ما من صباحٍ ولا رواحٍ إلا تُنادي بقاعُ الأرض بعضُها بعضاً: يا جاراه، هل مَرَّ بِكِ اليومَ عبدٌ فصلَّى للهِ أو ذكر اللهَ عليكِ؟ فمِن قائلةٍ: لا، ومن قائلةٍ: نعم، فإذا قالت: نعم، رأت لها بذلك فضلاً عليها[١]. وقال رسول الله ﷺ: «لا يَسمَعَ صوتَ المؤذن جِنٌّ ولا إنسٌ ولا شجرٌ ولا حَجَرٌ ولا مَدَرٌ ولا شيءٌ إلا شهد له يوم القيامة». رواه ابن ماجه في «سننه»، ومالك في «موطَّئه» من حديث أبي سعيد الخُدْريِّ ﷺ[٢]. وخرَّج البخاريُّ عن عبد الله ﷺ قال: لقد كُنَّا نسمع تسبيحَ الطعام وهو يؤكل[٣]. في غير هذه الرواية عن ابن مسعود ﷺ: كنَّا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحَه[٤]. وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن سَمُرَة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأَعرِفُ حجراً بمكة كان يُسلِّمُ عليَّ قبل أن أُبعَثَ، إني لأعرِفُه الآن»[٥]. قيل: إنه الحجر الأسود، والله أعلم. والأخبار في هذا المعنى كثيرة؛ وقد أتينا على جملةٍ منها في اللُّمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية للفاداري رحمه الله، وخبر الجذع أيضاً مشهورٌ في هذا الباب خرَّجه البخاري في مواضع من كتابه[٦]. وإذا ثبت ذلك في جمادٍ واحدٍ جاز في جميع الجمادات، ولا استحالة في شيءٍ من ذلك، فكلُّ شيءٍ يُسبِّح للعموم. وكذا قال النَّخَعِيُّ وغيره: هو عامٌّ فيما فيه روحٌ وفيما لا روح فيه حتى صرِير الباب[٧]. واحتجُّوا بالأخبار التي ذكرنا. وقيل: تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول: سبحان الله! لعدم الإدراك منها. وقال الشاعر:

---

(١) الزهد لابن المبارك (٣٣٥) عن صالح المري، عن جعفر بن زيد، عن أنس. صالح المري: هو ابن بشير، وهو ضعيف جداً. الميزان ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) سنن ابن ماجه (٧٢٣)، والموطأ ١/ ٦٩ . وأخرجه أحمد (١١٣٠٥)، والبخاري (٦٠٩).

(٣) صحيح البخاري (٣٥٧٩). وأخرجه أحمد (٤٣٩٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٦٣٣)، وابن خزيمة (٢٠٤)، والطبراني في الأوسط (٤٤٩٨).

(٥) صحيح مسلم (٢٢٧٧).

(٦) صحيح البخاري (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد (٥٨٨٦).

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٤٥ ، وزاد المسير ٥/ ٣٩ .

تُلْقَى بتسبيحةٍ من حيثُ ما انصرفَتْ وتَستقِرُّ حَشَا الرائي بتَرْعادِ[١]

أي: يقول من رآها: سبحانَ خالقِها. فالصحيح أنَّ الكلَّ يُسبِّح؛ للأخبار الدالَّة على ذلك، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأيُّ تخصيصٍ لداود، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا. وقد نصَّتِ السُّنَّةُ على ما دلَّ عليه ظاهر القرآن من تسبيح كلِّ شيءٍ، فالقول به أَوْلى. والله أعلم.

وقرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمزة والكسائي وخَلَف: «تفقهون» بالتأء لتأنيث الفاعل. الباقون بالياء[٢]، واختاره أبو عبيد، قال: للحائل بين الفعل والتأنيث. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ عن ذنوب عباده في الدنيا ﴿غَفُورًا﴾ للمؤمنين في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾

عن أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله تعالى عنهما قالت: لمَّا نزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أقبلتِ العَوْراءُ أمُّ جميل بنت حرب ولها وَلْوَلةٌ وفي يدها فِهْرٌ وهي تقول:

* مُذَمَّماً أبَيْنا * وَدِينَه قَلَيْنا * وأمرَه عصَيْنا *

والنبيُّ ﷺ قاعدٌ في المسجد ومعه أبو بكر ﷺ، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، لقد أقبلتْ وأنا أخافُ أن تراك! قال رسول الله ﷺ: «إنَّها لن تراني» وقرأ قرآناً فاعتصم به كما قال. وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٤٥، والبيت قائله بشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٢٣١ بلفظ:

تُلقى بتسبيحةٍ من حُسنِ ما خُلِقَتْ وتستفِزُّ حشا الرائي بإرعادِ

(٢) لم نقف على من قرأ «تفقهون» بالياء، والظاهر أن المصنف وهم في ذلك، والصحيح أن كلامه هذا ينبغي أن يعود على قوله: «تسبح»، فقد قرأها هكذا أبو عمرو وعاصم في رواية حفص وحمزة والكسائي، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر: «يُسبِّح» بالياء. ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٠.

﴿بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ فوقفت على أبي بكر ﷺ ولم ترَ رسولَ الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، أُخبِرتُ أنَّ صاحبكَ هجاني. فقال: لا وربِّ هذا البيت ما هجاكِ. قال: فولَّت وهي تقول: قد علِمَتْ قريشٌ أني ابنةُ سيِّدِها[(١)]. وقال سعيد بن جُبير ﷺ: لمَّا نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءتِ امرأةُ أبي لهبٍ إلى النبيِّ ﷺ ومعه أبو بكرٍ ﷺ، فقال أبو بكر: لو تَنَحَّيْتَ عنها لئلا تُسمِعَكَ ما يؤذيك، فإنها امرأةٌ بذِيَّة. فقال النبيُّ ﷺ: «إنه سيُحال بيني وبينها» فلم تَرَه. فقالت لأبي بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبُكَ. فقال: واللهِ ما ينطِقُ بالشعر ولا يقولُه. فقالت: وإنَّكَ لمُصدِّقه. فاندفعت راجعة. فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، أمَا رأتْكَ؟ قال: «لا، ما زال ملَكٌ بيني وبينها يسترني حتى ذهبت»[(٢)]. قال كعب ﷺ في هذه الآية: كان النبيُّ ﷺ يستتر من المشركين بثلاث آيات: الآية التي في الكهف [٥٧] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، والآية التي في النحل [١٠٨] ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾، والآية التي في الجاثية [٢٣] ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ الآية. فكان النبيُّ ﷺ إذا قرأهُنَّ يستتِرُ من المشركين. قال كعب رضي الله تعالى عنه: فحدَّثتُ بهنَّ رجلاً من أهل الشأم، فأتى أرضَ الروم فأقام بها زماناً، ثم خرج هارباً، فخرجوا في طلبه، فقرأ بهنَّ، فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه. قال الثعلبي: وهذا الذي يروُونه عن كعب حدَّثتُ به رجلاً من أهل الريِّ فأُسِرَ بالدَّيْلَم، فمكث فيهم زماناً، ثم خرج هارباً، فخرجوا في طلبه، فقرأ بهنَّ حتى جعلت ثيابُهنَّ لتلمِسُ ثيابه فما يبصرونه.

(١) أخرجه الحميدي (٣٢٣)، والأزرقي في أخبار مكة ١/ ٣١٦، وأبو يعلى (٥٣)، والحاكم ٢/ ٣٦١. وفي المصادر بعد قوله: «ودينه قلينا» «وأمره عصينا». الولولة: صوت متتابع بالويل والاستغاثة. والفهر: هو الحجر ملء الكف، أو الحجر مطلقاً. اللسان (ولول) و(فهر).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٤٩٨ - ٤٩٩، وأبو نعيم في الدلائل (١٤٠) من طريق محمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير.

وأخرجه البزار (١٥)، وأبو يعلى (٢٥)، وابن حبان (٦٥١١) من طريق عبد السلام بن حرب، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

قلت: ويُزاد إلى هذه الآي أوّلُ سورة يس إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. فإنَّ في السيرة في هجرة النبيِّ ﷺ ومقامِ عليٍّ ﷺ في فراشه قال: وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حَفْنةً من تراب في يده، وأخذ الله عزَّ وجلَّ على أبصارهم عنه فلا يَرَوْنه، فجعل ينثرُ ذلك الترابَ على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس: ﴿يسٓ . وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبقَ منهم رجلٌ إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيثُ أراد أن يذهب[1].

قلت: ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور[2] من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أني هربت أمام العدوّ وانحزتُ إلى ناحيةٍ عنه، فلم ألبَثْ أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعدٌ ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا عليَّ ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا دِيَبْلُه، يعنون شيطاناً. وأعمى الله عزَّ وجلَّ أبصارَهم فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك.

وقيل: الحجاب المستور: طَبْعُ اللهِ على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يُدركوا ما فيه من الحكمة. قاله قتادة. وقال الحسن: أي: إنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلِهم عنك كمن بينك وبينه حجابٌ في عدم رؤيته لك حتى كأنَّ على قلوبهم أغطية[3]. وقيل: نزلت في قومٍ كانوا يؤذون رسولَ الله ﷺ إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأمُّ جميل ـ امرأة أبي لهب ـ وحُوَيطب، فحجبَ الله سبحانه وتعالى رسولَه ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمرُّون به ولا

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٣ .

(٢) كذا في جميع النسخ، ولم نقف على مكانٍ بهذا الاسم، ولعله «حصن المدور» كما في معجم البلدان ٥/ ٧٧ ، والكامل ٥/ ١٢٦ ، ونفح الطيب ١/ ٥٥ و ٣/ ٣٨ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٤٦ .

يرونه[١]. قاله الزَّجَّاج وغيره[٢]. وهو معنى القول الأوَّل بعينه، وهو الأظهر في الآية، والله أعلم.

وقوله: ﴿مَّسْتُورًا﴾ فيه قولان: أحدهما ـ أنَّ الحجاب مستور عنكم لا ترونه. والثاني ـ أنَّ الحجاب ساترٌ عنكم ما وراءه، ويكون مستوراً بمعنى ساتر[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ «أكِنة» جمع كِنان، وهو ما ستر الشيء. وقد تقدم في «الأنعام»[٤]. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفقهوه، أو كراهية أن يفقهوه[٥]، أي: أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحِكم والمعاني. وهذا ردٌّ على القدرية. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً وثِقلاً[٦]. وفي الكلام إضمار، أي: أن يسمعوه. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أي: قلتَ: لا إله إلا الله وأنتَ تتلو القرآن[٧]. وقال أبو الجَوْزاء أوْس بن عبد الله: ليس شيء أطْرَدَ للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله، ثم تلا: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾[٨]. وقال علي بن الحسين: هو قوله: بسم الله الرحمن الرحيم. وقد تقدم هذا في البسملة[٩]. ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ قيل: يعني: بذلك المشركين. وقيل: الشياطين[١٠]. و«نُفُوراً» جمع نافر،

---

(١) زاد المسير ٥/ ٤١ .

(٢) قول الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٢٤٣ بلفظ : الحجاب: منع الله إيَّاهم من النبي عليه الصلاة والسلام.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٤٦ .

(٤) ٨/ ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١١٧ ، وينظر ٨/ ٣٤٥ .

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٠ .

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٠ .

(٨) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ١٦٠ بمعناه.

(٩) ١/ ١٤٣ .

(١٠) زاد المسير ٥/ ٤١ ، وذكر الأول عن ابن زيد والثاني عن ابن عباس.

مثل: شهود جمع شاهد، وقعود جمع قاعد، فهو منصوبٌ على الحال. ويجوز أن يكون مصدراً على غير الصدر، إذ كان قوله: «وَلَّوْا» بمعنى نفروا، فيكون معناه: نفروا نفوراً[١].

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ قيل: الباء زائدة في قوله: «به» أي: يستمعونه[٢]. وكانوا يستمعون من النبيِّ ﷺ القرآن، ثم ينفرون فيقولون: هو ساحر ومسحور، كما أخبر الله تعالى به عنهم. قاله قتادة وغيره. ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي: مُتناجون في أمرك[٣]. قال قتادة: وكانت نجواهم قولهم: إنه مجنون، وإنه ساحر، وإنه يأتي بأساطير الأوّلين، وغير ذلك[٤]. وقيل: نزلت حين دعا عُتْبةُ أشرافَ قريشٍ إلى طعامٍ صنعه لهم، فدخل عليهم النبيُّ ﷺ وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله؛ فتناجوا، يقولون: ساحر ومجنون. وقيل: أمرَ النبيُّ ﷺ عليًّا أن يتَّخِذَ طعاماً ويدعوَ إليه أشرافَ قريشٍ من المشركين، ففعل ذلك عليٌّ، ودخل عليهم رسولُ الله ﷺ، وقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى التوحيد، وقال: «قولوا لا إله إلا الله؛ لِتُطيعَكُمُ العَربُ وتدينَ لكم العجم» فأبَوْا، وكانوا يستمعون من النبيِّ ﷺ ويقولون بينهم مُتناجين: هو ساحرٌ وهو مسحور، فنزلت الآية[٥].

وقال الزَّجّاج: النَّجْوَى اسم للمصدر، أي: وإذ هم ذَوو نجوى[٦]، أي: سرار[٧].

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٣، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٦، وزاد المسير ٥/ ٤١. وقول النصب على الحال قاله مكي بن أبي طالب في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٣٢.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ١١١، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٤٢.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١١٨.

(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ٦١٢.

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ١١١، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٤٢، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٢٣.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٣.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦١.

﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ أبو جهل والوليد بن المُغِيرة وأمثالهما. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي: مَطْبُوباً قد خبلَه السِّحرُ فاختلط عليه أمره، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس[(١)]. وقال مجاهد: «مسحوراً» أي: مخدوعاً، مثلُ قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩] أي: من أين تُخدَعون[(٢)].

وقال أبو عبيدة: «مسحوراً» معناه أنَّ له سَحْراً، أي رِئة، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب، فهو مِثْلُكم وليس بمَلَك. وتقول العرب للجبان: قد انتفخَ سَحْرُه. ولكلِّ مَنْ أكل من آدميٍّ وغيرِه أو شربَ: مسحورٌ ومُسَحَّر؛ قال لبيد[(٣)]:

فإن تسألينا فِيمَ نحنُ فإنَّنا عصافيرُ من هذا الأنامِ المُسَحَّرِ

وقال امرؤ القيس:

أرانا مُوضِعِينَ لأمرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطعامِ وبالشَّرابِ[(٤)]

أي: نُغَذَّى ونُعَلَّل[(٥)]. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: مَن هذه التي تُساميني من أزواج النبيِّ ﷺ، وقد تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ بين سَحْري ونَحْري[(٦)]؟!

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ١١٨ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥٦ ، وقول مجاهد ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ١٦١ ، والبغوي ٣/ ١١٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٢ .

(٣) في ديوانه ص٥٦ .

(٤) ديوان امرئ القيس ص٩٧ . قال شارحه: «نرى أنفسنا موضعين» أي: مسرعين. «لأمر غيبٍ» أي: للموت المُغيَّب، أي: نسرع في آجالنا وقد غُيِّب عنا وقت انقضائها.

(٥) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٨١-٣٨٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٦١ ، وزاد المسير ٥/ ٤٢-٤٣ . واستدلَّ ابن قتيبة في الغريب ص٢٥٦ ، والنحاس في المعاني ٤/ ١٦١ بهذا البيت لقول مجاهد، والمعنى: نُخدع. وتعقَّب ابنُ قتيبة أبا عبيدة في تفسيره فقال: ولستُ أدري ما اضطرَّه إلى هذا التفسير المُستكرَه؟! وقد سبق التفسير من السلف بما لا استكراه فيه.

(٦) لم نقف على من خرَّجه بهذا اللفظ، وقولها: «توفي رسول الله ﷺ بين سحري ونحري» أخرجه أحمد (٢٤٩٠٥)، والبخاري (١٣٨٩).

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ عجَّبه من صنعهم كيف يقولون تارةً ساحرٌ وتارةً مجنون وتارةً شاعر[١]. ﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: حِيلةً في صدِّ الناس عنك[٢]. وقيل: ضَلُّوا عن الحقِّ فلا يجدون سبيلاً، أي إلى الهدى[٣]. وقيل: مخرجاً؛ لتناقض كلامهم في قولهم: مجنون، ساحر، شاعر[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا﴾ أي: قالوا وهم يتناجَوْن لـمَّا سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث: لو لم يكن مسحوراً مخدوعاً لما قال هذا. قال ابن عباس: الرُّفات: الغبار[٥]. مجاهد: التراب[٦]. والرُّفات: ما تكسَّر وبَليَ من كل شيء، كالفُتات والحُطام والرُّضاض. عن أبي عبيدة والكسائيّ والفَرَّاء والأخفش[٧]. تقول منه: رُفِتَ الشيء رَفْتاً، أي حُطِم؛ فهو مرفوت[٨]. ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ «أئِنَّا» استفهام والمراد به الجَحْد والإنكار[٩]. و«خلقاً» نُصِبَ لأنه مصدر[١٠]؛ أي: بعثاً جديداً. وكان هذا غايةَ الإنكار منهم.

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٦١٣ .

(٢) مجمع البيان ١٥/ ٥٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٢ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧١ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٦١٣ عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري ١٤/ ٦١٤ .

(٦) وهو في تفسيره ١/ ٣٦٣ ، وأخرجه عنه الطبري ١٤/ ٦١٤ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٥ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٨٢ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦٢ - ١٦٣ ، وهو قول الزجاج في المعاني ٣/ ٢٤٤ .

(٨) تفسير الطبري ١٤/ ٦١٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٦٢ .

(٩) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ١١١ .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٧ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي: قل لهم يا محمد: كونوا ـ على جهة التعجيز ـ حجارةً أو حديداً في الشدَّة والقوة[١]. قال الطبري: أي: إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارةً أو حديداً إن قَدرتم. وقال عليُّ بن عيسى: معناه: أنكم لو كنتم حجارةً أو حديداً لم تفوتوا اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أرادكم، إلا أنَّه خرج مخرج الأمر؛ لأنه أبلَغُ في الإلزام. وقيل: معناه: لو كنتم حجارةً أو حديداً لأعادكم كما بدأكم، ولأماتكم ثم أحياكم[٢]. وقال مجاهد: المعنى: كونوا ما شئتم فستُعادون[٣]. النحاس[٤]: وهذا قولٌ حسن؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة، وإنما المعنى أنهم قد أقرُّوا بخالقهم وأنكروا البعث، فقيل لهم: استشعروا أن تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حجارةً أو حديداً لبُعِثْتُم كما خُلِقْتُم أوّل مرة.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال مجاهد: يعني السماوات والأرض والجبال[٥]؛ لعِظَمِها في النفوس. وهو معنى قول قتادة، يقول: كونوا ما شئتم، فإن الله يميتكم ثم يبعثكم[٦]. وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن جُبير ومجاهد أيضاً وعكرمة وأبو صالح والضحاك: يعني الموت[٧]؛ لأنه ليس شيءٌ أكبرَ في نفس ابن آدم منه؛ قال أُمَيّة بن أبي الصَّلت:

---

(١) مجمع البيان ١٥/٥٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/٢٤٨ ، وينظر قول الطبري في تفسيره ١٤/٦١٥ بمعناه.

(٣) وهو في تفسيره ١/٣٦٣ ، وأخرجه عنه الطبري ١٤/٦١٨ .

(٤) في معاني القرآن له ٤/١٦٣ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/٣٧٩ .

(٦) أخرجه الطبري ١٤/٦١٨ .

(٧) أخرجه الطبري ١٤/٦١٦ - ٦١٧ عن جميعهم سوى مجاهد وعكرمة.

وللمَوْتُ خَلْقٌ في النفوسِ فَظيعُ[١]

يقول: إنكم لو خُلقتم من حجارةٍ أو حديدٍ أو كنتم الموتَ لأُميتَنَّكم ولأبعثنكم؛ لأن القدرة التي بها أنشأتكم بها نعيدكم[٢]. وهو معنى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وفي الحديث أنه «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كَبْشٍ أمْلَحَ، فيُذبحُ بين الجنة والنار»[٣]. وقيل: أراد به البعث؛ لأنه كان أكبرَ في صدورهم. قاله الكلبي[٤]. ﴿فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم وأنشأكم. ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحرِّكون رؤوسهم استهزاءً[٥]، يقال: نَغَض رأسه يَنْغُضُ ويَنْغِضُ نَغْضاً ونُغوضاً، أي: تحرَّك. وأنغَضَ رأسَه أي: حرَّكه، كالمتعجِّبِ من الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾[٦].

قال الراجز:

أنغضَ نحوي رأسَه وأقنَعا[٧]

ويقال أيضاً: نغضَ فلانٌ رأسَه أي: حرَّكه، يتعدَّى ولا يتعدَّى. حكاه الأخفش[٨]. ويقال: نَغَضتْ سِنُّه، أي: تحرَّكت وانقلعت.

قال الراجز:

ونَغَضَتْ من هَرَمٍ أسنانُها

---

(١) من أول الفقرة إلى هنا في النكت والعيون ٣/ ٢٤٨ ، وصدر البيت: «نادَوا إلههم ليُسرعَ خلْقَهم».

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٢ بمعناه.

(٣) سلف ١٠/ ١٩٢ .

(٤) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٤٨ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٢ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٤٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ١١٩ . وأخرجه الطبري ١٤/ ٦٢٠ عن ابن عباس وقتادة.

(٦) الصحاح (نغض).

(٧) تتمته: «كأنما أبصر شيئاً أطمعا»، وقد سلف ١٢/ ١٥٩ .

(٨) الصحاح (نغض).

وقال آخر:

لـمَّـا رأتْـنـي أنـغـضـتْ لـيَ الـرأسـا[١]

وقال آخر:

لا مـاءَ فـي الـمَـقْـراةِ إن لـم تـنـهـضِ بـمَـسَـدٍ فـوقَ الـمَـحـالِ الـنُّـغَّـضِ[٢]

المحال والمحالة: البكرة العظيمة التي تَستقي بها الإبل[٣].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: البعث والإعادة. وهذا الوقت ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: هو قريب؛ لأنَّ عسى واجب[٤]، نظيره: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. و﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. وكلُّ ما هو آتٍ فهو قريب.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ الدعاء النداء إلى المحشر بكلامٍ تسمعه الخلائق، يدعوهم اللهُ تعالى فيه بالخروج. وقيل: بالصيحة التي يسمعونها، فتكون داعيةً لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة[٥]. قال ﷺ: «إنكم تُدْعَون يوم القيامة بأسمائكم وأسماءِ آبائكم فأحسنوا أسماءكم»[٦]. ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: باستحقاقه الحمد على الإحياء، وقال أبو سهل: أي: والحمد لله، كما قال:

فـإنـي بـحـمـد الـلـه لا ثـوبَ فـاجـرٍ لـبِـسْـتُ ولا مـن غَـدْرةٍ أتـقـنَّـعُ[٧]

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٨٢، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٢٠.

(٢) الصحاح (نغض).

(٣) الصحاح (محل).

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٦٢١، والوسيط للواحدي ٣/ ١١١.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٤٨.

(٦) أخرجه أحمد (٢١٦٩٣)، وأبو داود (٤٩٤٨) من طريق عبد الله بن أبي زكريا الخزاعي، عن أبي الدرداء مرفوعاً. إسناده منقطع؛ عبد الله بن أبي زكريا لم يسمع من أبي الدرداء. المراسيل ص٩٨.

(٧) قائله غيلان بن سلمة الثقفي كما في تفسير البغوي ٤/ ٤١٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٨/ ٤٠٠.

وقيل: حامدين لله تعالى بألسنتكم(١). قال سعيد بن جُبير: يخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون: سبحانك وبحمدك، ولكن لا ينفعهم اعترافٌ ذلك اليوم(٢). وقال ابن عباس: «بحمده»: بأمره(٣)، أي: تُقِرُّون بأنه خالِقُكم(٤). وقال قتادة: بمعرفته وطاعته(٥). وقيل: المعنى: بقدرته. وقيل: بدعائه إيَّاكم(٦). قال علماؤنا: وهو الصحيح؛ فإنَّ النفخ في الصور إنما هو سببٌ لخروج أهل القبور، وبالحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ فيقومون يقولون: سبحانك اللهمَّ وبحمدك. قال: فيوم القيامة يوم يُبدأ بالحمد ويُختم به؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ وقال في آخره: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني بين النفختين؛ وذلك أنَّ العذاب يُكَفُّ عن المعذَّبين بين النفختين، وذلك أربعون عاماً فينامون، فذلك قوله تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢] فيكون خاصًا للكفار. وقال مجاهد: للكافرين هَجْعةٌ قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صِيحَ بأهل القبور قاموا مذعورين(٧). وقال قتادة: المعنى: أنَّ الدنيا تحاقرت في أعينهم وقلَّتْ حين رأوا يوم القيامة. الحسن: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في الدنيا؛ لطول لبثكم في الآخرة(٨).

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٤٩ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٧ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١١٢ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٤٥ .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٢٢ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٥ .

(٥) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٢٢ .

(٦) ذكرهما الطبري في تفسيره ١٤/ ٦٢٢ قولا واحداً.

(٧) أخرجه هناد في الزهد (٣١٧).

(٨) النكت والعيون ٣/ ٢٤٩ ، وأخرج قول قتادة الطبري ١٤/ ٦٢٣ .

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ تقدَّم إعرابه[١]. والآية نزلت في عمر بن الخطاب، وذلك أنَّ رجلاً من العرب شتمه، وسبَّه عمر وهَمَّ بقتله، فكادت تثير فتنة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ذكره الثعلبيُّ والماورديُّ وابن عطية والواحدي[٢]. وقيل: نزلت لمَّا قال المسلمون: إيذن لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طالَ إيذاؤهم إيَّانا. فقال: «لم أُومَرْ بعدُ بالقتال» فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾. قاله الكلبي[٣]. وقيل: المعنى: قل لعبادي الذين اعترفوا بأنِّي خالِقُهم وهم يعبدون الأصنام، يقولوا التي هي أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة. وقيل: المعنى: وقل لعبادي المؤمنين إذا جادلوا الكفار في التوحيد، أن يقولوا الكلمة التي هي أحسن. كما قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٤] [الأنعام:١٠٨]. وقال الحسن: هو أن يقول للكافر إذا تشطط: هداك الله! يرحمك الله! وهذا قبل أن أُمِروا بالجهاد[٥]. وقيل: المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه[٦]؛ وعلى هذا تكون الآيةُ عامّةً في المؤمن والكافر، أي: قل للجميع. والله أعلم. وقالت طائفة: أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصَّةً بحسن الأدب، وإلانة القول، وخفض الجناح، واطِّراح نزغات الشيطان، وقد قال ﷺ: «وكونوا عباد الله إخوانا»[٧]. وهذا أحسن،

(١) ١٢/ ١٤٣ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٤٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٦٤ ، ولم نقف عليه عند الواحدي.

(٣) ونقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ١١٢ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٢٨ بمعناه.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١١٩ ، وقول الحسن في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٤ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١١٢ ، وزاد المسير ٥/ ٤٧ ، وأخرجه الطبري بنحوه ١٤/ ٦٢٣ - ٦٢٤ .

(٦) مجمع البيان ١٥/ ٦١ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٤ . والحديث أخرجه أحمد (٧٧٢٧)، والبخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وتكون الآيةُ محكمةً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء. وقد تقدَّم في آخر الأعراف ويوسف[١]. يقال: نزغ بيننا أي: أفسد. قاله اليزيدي. وقال غيره: النزغ: الإغراء. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: شديد العداوة. وقد تقدَّم في البقرة[٢]. وفي الخبر «أنَّ قوماً جلسوا يذكرون الله عزَّ وجلَّ، فجاء الشيطان ليقطع مجلسهم، فمنعته الملائكة، فجاء إلى قومٍ جلسوا قريباً منهم لا يذكرون الله، فحرَّشَ بينهم، فتخاصموا وتواثبوا، فقال هؤلاء الذاكرون: قوموا بنا نُصلِحْ بين إخواننا، فقاموا وقطعوا مجلِسَهم، وفرح بذلك الشيطان». فهذا من بعض عداوته.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ﴾ هذا خطابٌ للمشركين، والمعنى: إن يشأ يوفِّقكم للإسلام فيرحمكم، أو يميتكم على الشرك فيعذبكم. قاله ابن جُريج[٣].

و«أعلم» بمعنى عليم، نحو قولهم: الله أكبر، بمعنى كبير[٤].

وقيل: الخطاب للمؤمنين، أي: إن يشأ يرحمكم بأن يحفظَكم من كفار مكة، أو إن يشأ يُعذِّبكم بتسليطهم عليكم، قاله الكلبي. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: وما وكَّلناك في منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم. وقيل: ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخَذ بهم. قاله الكلبي. وقال الشاعر:

---

(١) ٩/ ٤٢٢ – ٤٢٥ و ١١/ ٤٦٠.

(٢) ٣/ ١٣.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٢٤ – ٦٢٥.

(٤) سلف هذا المعنى ٦/ ٤٠٠.

ذكـرتُ أبـا أرْوَى فـبـتُّ كـأنَّـنـي بـرَدِّ الأمـورِ الـمـاضـيـاتِ وكـيـلُ

أي: كفيل(١).

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ أعاد بعد أن قال: «ربكم أعلم بكم» ليبيِّن أنه خالقُهم وأنه جعلهم مختلفين في أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومآلهم(٢)؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]. وكذا النبيُّون فضَّل بعضَهم على بعضٍ عن علمٍ منه بحالهم. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»(٣). ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ الزَّبور: كتابٌ ليس فيه حلالٌ ولا حرام، ولا فرائضُ ولا حدود، وإنما هو دعاءٌ وتحميدٌ وتمجيد(٤). أي: كما آتينا داود الزبور فلا تُنكروا أن يُؤتى محمدٌ القرآن(٥). وهو في مُحاجَّةِ اليهود.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ لما ابتُليتْ قريشٌ بالقَحْط وشَكوا إلى رسول الله ﷺ أنزل الله هذه الآية، أي: ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعمتُم أنهم آلهة(٦). وقال الحسن: يعني الملائكة وعيسى وعُزيراً. ابن مسعود: يعني

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٥٠، والبيت نُسب إلى شقران العلامي كما في بهجة المجالس ٣/ ١١٢. وذكر المبرد في التعازي والمراثي ص٢٠٥ أنَّ عليًّا ﷺ تمثل هذا البيت عند قبر فاطمة عليها السلام بعد دفنها.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١١٩، وفي مطبوعه: «ومللهم» بدل «ومآلهم» كما هو المثبت من نسخة (ظ)، وفي بقية النسخ: «ومالهم».

(٣) ٤/ ٢٥٢ - ٢٥٧.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٢ ونسبه إلى قتادة، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٠ من غير نسبة.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٥.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٢. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٨. وتفسير البغوي ٣/ ١٢٠.

الجن[١]. ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ أي: القحط سبع سنين، على قول مقاتل[٢]. ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ من الفقر إلى الغنى، ومن السَّقَم إلى الصحة[٣].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ «أولئك» مبتدأ، «الذين» صفة «أولئك» وضمير الصلة محذوف، أي: يدعونهم. يعني: أولئك المدعوُّون. و﴿يَبْتَغُونَ﴾ خبر[٤]، أو يكون حالاً، و«الّذِين يَدْعُون» خبر، أي: يدعون إليه عباداً إلى عبادته. وقرأ ابن مسعود «تدعون» بالتاء على الخطاب[٥]. الباقون بالياء على الخبر. ولا خلاف في «يبتغون» أنه بالياء. وفي «صحيح مسلم»[٦] من كتاب التفسير عن عبد الله ابن مسعود في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قال: نفرٌ من الجنِّ أسلموا وكانوا يُعْبَدون، فبَقيَ الذين كانوا يَعبدون على عبادتهم، وقد أسلم النفر من الجنِّ. وفي روايةٍ قال: نزلت في نفرٍ من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجنِّ، فأسلم الجِنِّيون، والإنسُ الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون، فنزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

وعنه أيضاً أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائلُ من العرب. ذكره الماوردي[٧]. وقال ابن عباس ومجاهد: هم عُزيرٌ وعيسى[٨]. و«يبتغون»: يطلبون من الله الزُّلفةَ

---

(١) مجمع البيان ١٥/ ٦٢.

(٢) زاد المسير ٥/ ٤٩.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٣ ونسبه إلى ابن عباس.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٦، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٨، والبيان ٢/ ٩٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٦، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦٥، وهي قراءة شاذة.

(٦) (٣٠٣٠): (٢٨) و(٣٠).

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٢٥١.

(٨) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٣٠ - ٦٣١ عنهما.

والقربة، ويتضرَّعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، وهي الوسيلة[١] أعلمهم اللهُ تعالى أنَّ المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم، والهاء والميم في «ربهم» تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعاً، وأما «يدعون» فعلى العابدين، «ويبتغون» على المعبودين[٢]. ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ ابتداء وخبر، ويجوز أن يكون «أيُّهم أقرب» بدلاً من الضمير في «يبتغون»، والمعنى يبتغي أيهم أقرب الوسيلة إلى الله[٣]. ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: مَخُوفاً لا أمانَ لأحدٍ منه، فينبغي أن يُحذر منه ويُخاف[٤]. وقال سهل بن عبد الله: الرجاء والخوف مِيزانان[٥] على الإنسان، فإذا استوَيا استقامت أحواله، وإن رجح أحدُهما بطل الآخر[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي: مُخربوها[٧]. ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال مقاتل: أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب[٨]. وقال ابن مسعود: إذا ظهر الزنى والربا في قريةٍ أذِنَ اللهُ في هلاكهم[٩]. فقيل: المعنى: وإن من قريةٍ ظالمة، يقوّي ذلك قولُه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٣.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٥ - ٤٦٦ بمعناه.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٥، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٨، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٣٢.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٣.

(٥) في جميع النسخ: زمانان، والتصويب من النكت والعيون.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٥٢.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٢٠.

(٨) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٣.

(٩) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٣٤، وهو في الوسيط ٣/ ١١٣.

إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]. أي: فليتَّقِ المشركون، فإنَّه ما من قريةٍ كافرةٍ إلا سيحِلُّ بها العذاب. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: في اللَّوح. ﴿مَسۡطُورٗا﴾ أي: مكتوباً[١]. والسَّطْرُ: الخط والكتابة، وهو في الأصل مصدر. والسَّطَرُ ـ بالتحريك ـ مثلُه. قال جرير:

مَنْ شاءَ بايعتُه مالي وخُلْعَتَهُ ... ما تُكْمِلُ التَّيْمُ في ديوانهم سَطَرا

الخُلْعة بضمِّ الخاء: خيار المال. والسَّطَر جمع أسطار، مثل سبب وأسباب، ثم يُجمع على أساطير، وجَمْعُ السطرِ أسطُرٌ وسُطور، مثل أفلُسٌ وفلوس[٢]. والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ في الكلام حذف، والتقدير: وما منعنا أن نُرسِلَ بالآيات التي اقترحوها إلا أن يُكذِّبوا بها فيهلكوا كما فُعِلَ بمن كان قبلهم[٤]. قال معناه قَتادة وابن جُريج وغيرُهما[٥]. فأخَّرَ الله تعالى العذابَ عن كفار قريش؛ لعلمه أنَّ فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمناً[٦]. وقد تقدَّم في «الأنعام»[٧] وغيرها أنهم طلبوا أن يُحوِّلَ اللهُ لهم الصَّفا ذهباً وتتنحَّى الجبالُ عنهم، فنزل جبريل وقال: إن شئتَ كان ما سألَ قومُكَ، ولكنهم إن لم يؤمنوا

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٨٣، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٧.

(٢) الصحاح (سطر) و(خلع)، والبيت في إصلاح المنطق ص١٠٩.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٦٣٤.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦٧.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٤/ ٦٣٦ - ٦٣٧.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٠.

(٧) ٨/ ٤٩٤.

لم يُمْهَلوا، وإن شئتَ استأنيتُ بهم. فقال: «لا، بل استَأْنِ بهم»[١]. و«أن» الأولى في محلِّ نصب بوقوع المنع عليهم، و«أن» الثانية في محل رفع[٢]. والباء في «بالآيات» زائدة. ومجاز الكلام: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأوّلين[٣]، والله تعالى لا يكون ممنوعاً عن شيء، فالمعنى المبالغة في أنه لا يفعل، فكأنه قد منع عنه.

ثم بيَّن ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمِنْ بها فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: آيةً دالَّةً مضيئةً نَيِّرةً على صدق صالح، وعلى قدرة الله تعالى[٤]. وقد تقدَّم ذلك[٥]. ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: ظلموا بتكذيبها[٦]. وقيل: جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله، فاستأصلهم الله بالعذاب[٧].

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ فيه خمسة أقوال: الأوّل ـ العِبَر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذِّبين. الثاني ـ أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي. الثالث ـ أنها تقلُّبُ الأحوال من صغرٍ إلى شبابٍ، ثم إلى تكهُّلٍ، ثم إلى مشيبٍ؛ لتعتبرَ بتقلُّبِ أحوالك فتخاف عاقبة أمرك. وهذا قول أحمد بن حنبل ﷺ. الرابع ـ القرآن. الخامس ـ الموت الذَّريع. قاله الحسن[٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ قال ابن عباس: الناس هنا أهل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٩ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٣٧ .

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٦٣٧ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦٧ .

(٥) ٩/ ٢٦٦ - ٢٦٧ و ١١/ ١٥٤ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٧ .

(٧) تأويل مشكل القرآن ص٣٥٩ .

(٨) زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٥٢ ، وذكر الماوردي ٣/ ٢٥٢ الأقوال الثلاثة الأولى، وأخرج أحمد في الزهد ص٣٢٨ ، والطبري ١٤/ ٦٣٩ قول الحسن. ومعنى الذريع: السريع. الصحاح (ذرع).

مكة، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم، أي: أنَّ الله سيهلكهم. وذكره بلفظ الماضي؛ لتحقق كونه. وعنى بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح.

وقيل: معنى «أحاط بالناس» أي: أحاطت قدرته بهم، فهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته. قاله مجاهد وابن أبي نَجيح. وقال الكلبيّ: المعنى: أحاط علمُه بالناس. وقيل: المرادُ عصمتُه من الناس أن يقتلوه حتى يبلِّغ رسالة ربه[١]، أي: وما أرسلناك عليهم حفيظاً، بل عليك التبليغ، فبلِّغ بجِدِّك فإنا نعصِمُكَ منهم ونحفظك، فلا تَهَبْهم، وامْضِ لما آمُركَ به من تبليغ الرسالة، فقدرتُنا محيطةٌ بالكل. قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ لمَّا بيَّن أنَّ إنزال آياتِ القرآن تتضمَّنُ التخويف ضَمَّ إليه ذِكْرَ آية الإسراء، وهي المذكورة في صدر السورة. وفي البخاريِّ والترمذيِّ عن ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عَيْن، أُرِيها النبيُّ ﷺ ليلةَ أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس. قال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾: هي شجرة الزَّقُّوم. قال أبو عيسى الترمذيّ: هذا حديثٌ صحيح[٣]. وبقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقَتادة وسعيد بن جُبير والضحاك وابن أبي نَجيح وابن زيد. وكانت الفتنة ارتدادَ قومٍ كانوا أسلموا حين أخبرهم النبيّ ﷺ أنه أُسْرِيَ به[٤]. وقيل: كانت رؤيا نوم. وهذه الآية تقضي بفساده؛ وذلك أنَّ رؤيا المنام لا فتنةَ فيها، وما كان أحدٌ لِيُنكِرها. وعن ابن عباس قال: الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة في سنة الحُدَيْبِيَة، فَرُدَّ، فافتتنَ المسلمون لذلك، فنزلت الآية[٥]، فلما كان العام المقبل

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٥٣، وذكر أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٧٤ قول الكلبي.

(٢) وأخرجه عنهم الطبري ١٤/ ٦٣٨ - ٦٣٩.

(٣) صحيح البخاري (٣٨٨٨)، وسنن الترمذي (٣١٣٤).

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٥٣ دون ذكر عائشة ومعاوية.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨. وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ١٤/ ٦٤٦.

دخلها، وأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]. وفي هذا التأويل ضعف؛ لأنَّ السورة مكيةٌ وتلك الرؤيا كانت بالمدينة[١]. وقال في رواية ثالثة: إنه عليه السلام رأى في المنام بني مروان يَنْزُونَ على منبره نَزْوَ القِرَدة، فساءه ذلك، فقيل: إنما هي الدنيا أُعطوها، فسُرِّيَ عنه[٢]. وما كان له بمكة منبرٌ ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة[٣]. وهذا التأويل الثالث قاله أيضاً سهل بن سعد ﷺ. قال سهل: إنما هذه الرؤيا هي أنَّ رسول الله ﷺ كان يرى بني أمية ينزون على منبره نَزْوَ القِرَدة، فاغتمَّ لذلك، وما استجمع ضاحكاً من يومئذٍ حتى مات ﷺ. فنزلتِ الآيةُ مخبرةً أنَّ ذلك من ملكهم[٤] وصعودهم يجعلها الله فتنةً للناس وامتحاناً. وقرأ الحسن ابن عليّ في خطبته في شأن بيعته لمعاوية: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١]. قال ابن عطية: وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ فيه تقديم وتأخير، أي: ما جعلنا الرؤيا التي أريناكَ والشجرةَ الملعونةَ في القرآن إلا فتنةً للناس[٦]، وفتنتُها أنهم لمَّا خُوِّفوا بها قال أبو جهلٍ استهزاءً: هذا محمد يتوعَّدكم بنارٍ تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنارُ تأكل الشجر، وما نعرف الزَّقُّوم إلا التمر والزُّبْد، ثم أمر أبو جهلٍ جاريةً

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/٢٣٦ بمعناه.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/٢٧٦، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/٥٤.

(٣) تفسير الرازي ٢٠/٢٣٦.

(٤) في (م): تملكهم.

(٥) المحرر الوجيز ٣/٤٦٨، وخبر سهل بن سعد أخرجه الطبري ١٤/٦٤٦ عن محمد بن الحسن بن زبالة، عن عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد، عن أبيه، عن جده سهل بن سعد، فذكر الخبر. وقد نقله ابن كثير في تفسيره عن الطبري بإسناده ومتنه ثم قال: وهذا السند ضعيف جداً؛ فإن محمد بن زبالة متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/١١٤، وتفسير الرازي ٢٠/٢٣٦.

فأحضرت تمراً وزُبداً وقال لأصحابه: تزقَّموا[١]. وقد قيل: إنَّ القائل: ما نعلمُ الزَّقُّومَ إلا التمرَ والزُّبدَ ابنُ الزِّبَعْرَى[٢]، حيث قال: كثَّر الله من الزَّقُّوم في داركم؛ فإنه التمرُ بالزُّبدِ بِلُغة اليمن[٣]. وجائزٌ أن يقول كلاهما ذلك. فافتتن أيضاً لهذه المقالة بعضُ الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزَّقُّوم فتنةً واختباراً ليَكْفر مَنْ سبق عليه الكفرُ ويُصدِّقَ من سبقَ له الإيمان، كما رُويَ أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ قيل له صبيحة الإسراء: إنَّ صاحبكَ يزعم أنه جاء البارحةَ من بيت المقدس! فقال: إن كان قال ذلك فلقد صَدَقَ. فقيل له: أتُصدِّقُه قبل أن تسمعَ منه؟ فقال: أين عقولُكم؟ أنا أُصدِّقه بخبر السماء، فكيف لا أُصدِّقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعَدُ منها بكثير[٤].

قلت: ذكر هذا الخبر ابنُ إسحاق، ونصُّه: قال: كان من الحديث فيما بلغني عن مَسراه ﷺ عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخُدْرِيِّ وعائشة ومعاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزُّهْرِيِّ وقتادة وغيرِهم من أهل العلم وأمِّ هانئ بنت أبي طالب، ما اجتمع في هذا الحديث، كُلٌّ يُحدِّث عنه بعضَ ما ذكر من أمره حين أُسري به ﷺ، وكان في مسراه وما ذُكِرَ عنه بلاءٌ وتمحيصٌ وأمرٌ من أمر الله عزَّ وجلَّ في قدرته وسلطانه فيه عبرةٌ لأولي الألباب، وهدًى ورحمةٌ وثباتٌ لمن آمن وصدَّقَ وكان من أمر الله تعالى على يقين، فأسرى به ﷺ كيف شاء وكما شاء؛ ليُرِيَه

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨ . وأخرج أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا جهلٍ قال: يخوِّفنا محمد بشجرة الزقوم! هاتوا تمراً وزبداً فتزقَّموا.

(٢) كما في الوسيط ٣/ ١١٤ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٣٦ .

(٣) لم نقف عليه هكذا، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٥٤ أن ابن الزِّبعرى قال: إن الزقوم بلسان البربر التمر والزبد. وذكر الخطابي في غريب الحديث ١/ ٤٨٧ ، والزمخشري في الفائق ٢/ ١١٧ أن ذلك بلغة إفريقيا.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨ ، والخبر أخرجه الحاكم ٣/ ٦٢ ، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٣٦٠ - ٣٦١ عن عائشة رضي الله عنها.

من آياته ما أراد، حتى عاينَ ما عاينَ من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع بها ما يريد. وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني عنه يقول: أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بالبراق ـ وهي الدابة التي كانت تُحمَلُ عليها الأنبياء قبله تضع حافرها في منتهى طرفها ـ فحُمِلَ عليها، ثم خرج به صاحبُه يُرى الآياتِ فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفرٍ من الأنبياء قد جُمِعوا له، فصلَّى بهم، ثم أُتِيَ بثلاثة آنية: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء. قال: فقال رسول الله ﷺ: «فسمعتُ قائلاً يقول حين عُرِضتْ عليَّ: إن أخذ الماء فغَرِقَ وغَرِقَتْ أمَّتُه، وإن أخذ الخمر فغَوِيَ وغَوَتْ أمته، وإن أخذ اللبن فهُدِيَ وهُدِيَتْ أمَّتُه. قال: فأخذتُ إناءَ اللبن فشربتُ، فقال لي جبريل: هُدِيتَ وهُدِيتْ أمتُك يا محمد».

قال ابن إسحاق: وحُدِّثتُ عن الحسن أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا نائمٌ في الحِجْر جاءني جبريل عليه السلام فهمزني بقدمه، فجلستُ فلم أرَ شيئاً، ثم عُدْتُ لمضجَعي، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه، فجلست فلم أرَ شيئاً، فعُدْتُ لمضجَعِي، فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلستُ، فأخذ بعَضُدي، فقمتُ معه، فخرج إلى باب المسجد، فإذا دابةٌ أبيضُ، بين البغل والحمار، في فخذيه جناحان يَحْفِز بهما[1] رجليه، يضع حافرَه في منتهى طَرْفِه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتُني ولا أفوتُه».

قال ابن إسحاق: وحُدِّثتُ عن قتادة أنه قال: حُدِّثت أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لمَّا دنوتُ منه لأركبَه شَمَسَ[2]، فوضع جبريلُ يدَه على مَعْرَفَتِه[3]، ثم قال: ألا تستحي يا بُراقُ مما تصنع، فواللهِ ما ركبكَ عبدٌ للهِ قبلَ محمدٍ أكرمُ عليه منه. قال: فاستحيا

(١) أي: يدفع بهما. الصحاح (حفز).

(٢) يقال: شمست الدابة: إذا شردت وجمحت ومنعت ظهرها. اللسان (شمس).

(٣) المعرَفة: الموضع الذي ينبت عليه العُرف. الصحاح (عرف).

حتى ارفَضَّ عَرَقاً[١]، ثم قَرَّ حتى ركبتُه».

قال الحسن في حديثه: فمضى رسولُ الله ﷺ ومضى معه جبريل حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفرٍ من الأنبياء، فأمَّهم رسولُ الله ﷺ فصلَّى بهم، ثم أُتِيَ بإناءين: في أحدهما خمرٌ، وفي الآخر لبن، قال: فأخذَ رسولُ الله ﷺ إناءَ اللبن فشرب منه وتركَ إناءَ الخمر. قال: فقال له جبريل: هُدِيتَ الفِطْرةَ وهُدِيَتْ أمَّتُك، وحُرِّمتْ عليكم الخمر. ثم انصرفَ رسول الله ﷺ إلى مكة، فلمَّا أصبح غَدا على قريشٍ فأخبرهم الخبر، فقال أكثر الناس: هذا واللهِ الإمرُ[٢] البَيِّنُ! واللهِ إنّ العِيرَ لتُطْرَدُ شهراً من مكة إلى الشام، مُدْبِرةً شهراً ومُقبِلةً شهراً، فيذهب ذلك محمدٌ في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة! قال: فارتدَّ كثيرٌ ممَّن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبي بكرٍ فقالوا: هل لكَ يا أبا بكرٍ في صاحبك؟! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيتَ المقدس، وصلَّى فيه، ورجع إلى مكة. قال: فقال أبو بكر الصديق ﷺ: إنَّكم تكذبون عليه. فقالوا: بلى، هاهو ذا في المسجد يُحدِّث به الناس. فقال أبو بكر: واللهِ لئِنْ كان قاله لقد صدق، فما يُعَجِّبكم من ذلك؟! فوالله إنه ليخبرني أنَّ الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ فأُصدِّقُه، فهذا أبعَدُ مما تعجبون منه. ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، أحدَّثتَ هؤلاء أنك جئتَ بيتَ المقدس هذه الليلة؟ قال «نعم» قال: يا نبيَّ الله، فصِفْه لي فإني قد جئتُه؟ فقال الحسن: فقال رسول الله ﷺ: «رُفِعَ لي حتى نظرتُ إليه» فجعلَ رسولُ الله ﷺ يصِفُه لأبي بكرٍ ويقول أبو بكر ﷺ: صدقْتَ، أشهدُ أنَّكَ رسولُ الله. كلَّما وصف له منه شيئاً قال: صدقْتَ، أشهدُ أنَّكَ رسولُ الله. قال: حتى إذا انتهى قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكرٍ ﷺ: «وأنتَ يا أبا بكر الصِّدِّيق» فيومئذ سمَّاه الصِّدِّيق. قال الحسن: وأنزل الله تعالى فيمن ارتدَّ عن الإسلام لذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا

---

(١) أي: جرى عرقه وسال. النهاية (رفض).

(٢) أي: العجب. النهاية (أمر).

ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾ .فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله ﷺ وما دخل فيه من حديث قتادة[1]. وذِكْرُ باقي الإسراء عمن تقدَّم في السيرة.

وقال ابن عباس: هذه الشجرة بنو أميَّة، وأنَّ النبيَّ ﷺ نفى الحَكَم[2]. وهذا قول ضعيفٌ مُحدَث[3]، والسورة مكية، فيبعُد هذا التأويل، إلا أن تكون هذه الآية مدنية، ولم يثبت ذلك. وقد قالت عائشة لمروان: لعنَ اللهُ أباكَ وأنت في صلبه، فأنتَ قطعةٌ[4] من لعنةِ الله[5]. ثم قال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ ولم يجْرِ في القرآن لَعْنُ هذه الشجرة، ولكنَّ الله لعن الكفار وهم آكلوها. والمعنى: والشجرة الملعونة في القرآن آكلوها، ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكلِّ طعامٍ مكروهٍ ضارٍّ: ملعون[6]. وقال ابن عباس: الشجرة الملعونة: هي هذه الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتلُه، يعني الكَشُوث[7]. ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ﴾ أي: بالزَّقوم ﴿فَمَا يَزِيدُهُمۡ﴾ التخويف إلا الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ تقدّم ذِكْرُ كَوْنِ الشيطان عدوَّ

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٩٦ - ٣٩٩ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠/٢٣٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/٤٦٨ .

(٤) في (م): «بعض»، وفي (د) و(ز): «قطط»، والمثبت من (ظ)، فقد وقعت في رواية النسائي والخطابي «فضض»: وهي القطعة. النهاية (فضض)، وتصحفت في مطبوع الحاكم إلى «قصص».

(٥) تفسير الرازي ٢٠/٢٣٧ ، وقول عائشة أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٢٧)، والخطابي في غريب الحديث ٢/٥١٧ ، والحاكم ٤/٤٨١ من طريق محمد بن زياد، عن عائشة. وصححه الحاكم! لكن تعقبه الذهبي بقوله: فيه انقطاع، محمد لم يسمع من عائشة.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/٢٤٨ .

(٧) النكت والعيون ٣/٢٥٤ ، وأخرجه الطبري ١٤/٦٥٢ .

الإنسان، فانجرَّ الكلام إلى ذكر آدم. والمعنى: اذكر بتمادي هؤلاء المشركين وعتوِّهم على ربهم قصةَ إبليس حين عصى ربَّه وأبى السجود، وقال ما قال، وهو ما أخبر الله تعالى في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ أي: من طين[١]. وهذا استفهام إنكار[٢]. وقد تقدَّم القول في خلق آدم في البقرة والأنعام[٣] مستوفًى. ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ﴾ أي: قال إبليس[٤]. والكاف لتوكيد المخاطبة. ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ أي: فضَّلته عليَّ[٥]. ورأى جوهر النار خيراً من جوهر الطين ولم يعلم أنَّ الجواهر متماثلة. وقد تقدَّم هذا في الأعراف[٦]. و«هذا» نُصِبَ بأرأيت، «الذي» نعتُه[٧]. والإكرام: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحمد[٨]. وفي الكلام حذفٌ تقديره: أخبِرْني عن هذا الذي فضَّلْتَه عليَّ، لِمَ فضَّلْتَه وقد خلقتني من نارٍ وخلقته من طين؟ فحُذِف لعلم السامع[٩]. وقيل: لا حاجة إلى تقدير الحذف، أي: أترى هذا الذي كرَّمته عليَّ لأفعلنَّ به كذا وكذا. ومعنى ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾ في قول ابن عباس: لأستولِيَنَّ عليهم[١٠]. وقاله الفراء[١١]. مجاهد: لأحتوِيَنَّهم[١٢]. ابن زيد: لأُضِلَّنَّهم[١٣]. والمعنى متقارب،

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٦٥٣ .

(٢) مجمع البيان ١٥/ ٧٠ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٣ .

(٣) ١/ ٤١٧ - ٤١٨ و ٨/ ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٥ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٢٢ ، وفي النسخ سوى (ظ): توكيد للمخاطبة.

(٦) ٩/ ١٦٥ .

(٧) إملاء ما منَّ به الرحمن على هامش الفتوحات الإلهية ٣/ ٤٨٨ ، وإعراب «هذا» ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٤٩ .

(٨) في اللسان (كرم): الكريم: اسمٌ جامع لكل ما يحمد.

(٩) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧١ .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٢ .

(١١) في معاني القرآن له ٢/ ١٢٧ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٦٥٥ .

(١٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٥٤ - ٦٥٥ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٦٥ .

(١٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٥٥ .

أي: لأستأصلنَّ ذريتَه بالإغواء والإضلال، ولأجتاحنَّهم[١]. ورُوي عن العرب: اِحْتَنَكَ الجرادُ الزرعَ إذا ذهب به كلِّه. وقيل: معناه: لأسوقنَّهم حيث شئتُ وأقودَنَّهم حيث أردتُ[٢]. من قولهم: حَنَكْتُ الفرسَ أحنِكه وأحنُكه حنكاً إذا جعلتُ في فيه الرَّسن. وكذلك احتنكه[٣]. والقول الأوّل قريبٌ من هذا؛ لأنه إنما يأتي على الزرع بالحَنَك. وقال الشاعر:

أشكو إليك سَنَةً قد أجحفَتْ جَهْداً إلى جَهْدٍ بنا وأضعفَتْ

واحتنكَتْ أموالَنا واجتلفَتْ[٤]

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني المعصومين، وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[٥] [الحجر: ٤٢] وإنما قال إبليس ذلك ظنًّا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠] أو علم من طبع البشر تركُّبَ الشهوة فيهم[٦]، أو بنى على قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[٧] [البقرة: ٣٠]. وقال الحسن: ظنَّ ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عَزْماً[٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ هذا أمر إهانة، أي: اجهَدْ جَهْدكَ فقد أنظرناك. ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾ أي: أطاعك من ذرية آدم[٩]. ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي: وافراً.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٥ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧١ .

(٣) الصحاح (حنك) وعنده: إذا جعلت فيه الرسن.

(٤) الرجز في مجاز القرآن ١/ ٣٨٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٧٠ من غير نسبة.

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٢ .

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٤ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٢ .

(٨) مجمع البيان ١٥/ ٧٠ .

(٩) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٥ ، وزاد المسير ٥/ ٥٧ .

عن مجاهد وغيره. وهو نصبٌ على المصدر، يقال: وفَرتُه أفِرُه وَفْراً، ووَفَر المالُ بنفسه يَفِرُ وُفوراً فهو وافر، فهو لازمٌ ومُتعدٍّ[١]

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ أي: استزِلَّ واستخِفَّ[٢]، وأصله القطع، ومنه تفزَّزَ الثوب إذا انقطع[٣]. والمعنى استزِلَّه بقَطْعِكَ إيَّاه عن الحق. واستفَزَّه الخوفُ أي: استَخَفَّه. وقعد مُسْتَوْفِزاً أي: غير مطمئن[٤]. «واسْتَفْزِز» أمر تعجيز، أي: أنت لا تقدر على إضلال أحد، وليس لك على أحدٍ سلطان فافعل ما شئت.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِصَوۡتِكَ﴾ وصوتُه كلُّ داعٍ يدعو إلى معصية الله تعالى. عن ابن عباس. مجاهد: الغِناء والمزامير واللهو. الضحاك: صوت المزمار[٥]. وكان آدم عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبل، وأولاد قابيل أسفله، وفيهم بناتٌ حِسان، فزَمَر اللعين فلم يتمالكوا أن انحدروا فزَنَوْا. ذكره الغزنويّ. وقيل: «بصوتك»: بوسوستك[٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أصل الإجلاب السوقُ بجلبةٍ

---

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٥ .

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٥٥ ، وزاد المسير ٥/ ٥٨ .

(٣) هذا المعنى لم نجده في معاجم اللغة في «تفزز» بزايين، وإنما وجدناه في «تفزر» بزاي بعدها راء. ينظر الصحاح (تفزر).

(٤) الصحاح (فزز)، وفي مطبوعه: «مستفزاً» بدل «مستوفزاً»، وهو خطأ، ينظر الصحاح (وفز).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٥٥ ، وأخرج الطبري ١٤/ ٦٥٧ قولي ابن عباس ومجاهد.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٥ .

من السائق[١]؛ يقال: أجلبَ إجلاباً.

والجَلَب والجَلَبة: الأصوات، تقول منه: جلَّبوا بالتشديد. وجَلَبَ الشيء يجلِبُه ويجلُبُه جلَباً وجَلْباً. وجلبتُ الشي إلى نفسي واجتلبته بمعنًى[٢]. وأجلب على العدوّ إجلاباً، أي: جمَّع عليهم[٣]. فالمعنى: أجمِعْ عليهم كلَّ ما تقدر عليه من مكايدك[٤]. وقال أكثر المفسرين: يريد كلَّ راكبٍ وماشٍ في معصية الله تعالى. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: إنَّ له خيلاً ورَجْلاً من الجنِّ والإنس، فما كان من راكبٍ وماشٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ورجَّالته[٥]. وروى سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال: كلُّ خيلٍ سارت في معصية الله، وكلُّ رجلٍ مَشَتْ في معصية الله، وكلُّ مالٍ أُصيب من حرام، وكلُّ ولد بَغِيَّةٍ فهو للشيطان[٦]. والرَّجْل جمع راجل، مثلُ صَحْبٍ وصاحب[٧]. وقرأ حفص: «ورَجِلِكَ» بكسر الجيم وهما لغتان[٨]، يقال: رَجْلٌ ورَجِلٌ بمعنى راجل[٩]. وقرأ عكرمة وقتادة: «ورجالك» على الجمع[١٠].

الرابعة: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي: اجعل لنفسك شركةً في ذلك. فشركته في الأموال إنفاقها في معصية الله. قاله الحسن. وقيل: هي التي أصابوها من غير حِلِّها. قاله مجاهد. ابن عباس: ما كانوا يحرِّمونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٥٥ .

(٢) الصحاح (جلب).

(٣) تفسير الرازي عن الزجاج ٢١/ ٦ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٠ .

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠٥ ، وأخرجه عنهم الطبري ١٤/ ٦٥٨ - ٦٥٩ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٣ .

(٧) مجاز القرآن ٣/ ٣٨٤ ، وغريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥٨ ، وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠٥ .

(٨) تفسير البغوي ٣/ ١٢٤ ، وينظر السبعة ص٣٨٣ ، والتيسير ص١٤٠ .

(٩) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٦ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٣/ ١١٦ .

(١٠) المحتسب ٢/ ٢٢ ، والقراءات الشاذة ص٧٧ .

والحام. وقاله قتادة. الضحاك: ما كانوا يذبحونه لآلهتهم. والأولاد قيل: هم أولاد الزنى. قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس. وعنه أيضاً: هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم. وعنه أيضاً: هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العُزَّى وعبد اللّات وعبد الشمس ونحوه. وقيل: هو صِبغة أولادهم في الكفر حتى هوَّدوهم ونصَّروهم، كصُنع النصارى بأولادهم بالغمس في الماء الذي لهم. قاله قتادة[١]. وقول خامس - رُوِيَ عن مجاهد قال: إذا جامع الرجلُ ولم يُسَمِّ انطوى الجانُّ على إحْلِيله فجامَعَ معه[٢]، فذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦و٧٤] وسيأتي. ورُوِيَ من حديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «إن فيكم مُغَرِّبين» قلت: يا رسول الله، وما المغرِّبون؟ قال: «الذين يشترك فيهم الجِنُّ». رواه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»[٣]. قال الهَرَوِيُّ: سُمُّوا مغرِّبين لأنه دخل فيهم عِرْقٌ غريب[٤]. قال الترمذي الحكيم: فللجِنِّ مساماةٌ[٥] بابن آدم في الأمور والاختلاط؛ فمنهم من يتزوَّج فيهم، وكانت بِلْقِيسُ ملكة سَبَأ أحدُ أبويها من الجِنّ. وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى[٦].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: مَنِّهم الأمانيَّ الكاذبة، وأنه لا قيامة ولا حساب، وأنه إن كان حسابٌ وجنةٌ ونارٌ فأنتم أوْلى بالجنة من غيركم. يقوِّيه قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢] أي: باطلاً[٧].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٢، وزاد المسير ٥/ ٥٨ - ٥٩، وأخرج هذه الأقوال كلَّها الطبري ١٤/ ٦٦٠ - ٦٦٥.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٢٣ بمعناه عن جعفر بن محمد.

(٣) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول، وقد ذكره البغوي ٣/ ١٢٣.

(٤) قاله الأزهري في تهذيب اللغة ٨/ ١١٩.

(٥) أي: مفاخرة. اللسان (سما).

(٦) عند تفسير الآية (٢٢) من سورة النمل، في المسألة التاسعة.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٦.

وقيل: «وَعِدْهُمْ» أي: عِدْهم النُّصرة على من أرادهم بسوء[١]. وهذا الأمر للشيطان تهدُّدٌ ووعيدٌ له[٢]. وقيل: استخفافٌ به وبمن اتبعه.

السادسة: في الآية ما يدلُّ على تحريم المزامير والغناء واللَّهو؛ لقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ على قول مجاهد. وما كان من صوت الشيطان أو فِعْلِه وما يستحسنه فواجبٌ التنزُّه عنه. وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوتَ زَمَّارةٍ فوضع أصبعيه في أُذنيه، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول: يا نافع، أتسمع؟ فأقول: نعم. فمضى حتى قلتُ له: لا. فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ سمعَ صوتَ زَمَّارة راعٍ فصنع مثلَ هذا[٣]. قال علماؤنا: إذا كان هذا فِعْلُهم في حقِّ صوتٍ لا يخرج عن الاعتدال، فكيف بغناء أهل هذا الزمان وزَمْرِهم. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة لقمان إن شاء الله تعالى[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ قال ابن عباس: هم المؤمنون. وقد تقدَّم الكلام فيه[٥]. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي: عاصماً من القبول من إبليس، وحافظاً من كيده وسوء مكره[٦].

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ الإزجاء: السَّوق[٧]،

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٦٦٦ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥١ .

(٣) أخرجه أحمد (٤٥٣٥)، وأبو داود (٤٩٢٤).

(٤) عند تفسير الآية (٦).

(٥) ١٢/ ٢١٣ .

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥١ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١١٦ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٩ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٤ .

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]. وقال الشاعر:

يا أيها الراكبُ المُزْجِي مَطيَّتَهُ سائِلْ بني أسَدٍ ما هذه الصَّوْتُ[١]

وإزجاء الفلك: سوقه بالريح اللينة[٢]. والفلك هنا جمع، وقد تقدَّم[٣]. والبحر: الماء الكثير عذباً كان أو مالحاً، وقد غلب هذا الاسم على المشهور. وهذه الآية توقيفٌ على آلاء الله وفضله عند عباده[٤]، أي: ربكم الذي أنعمَ عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئاً.

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: في التجارات[٥]. وقد تقدَّم[٦]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ «الضُّرُّ» لفظٌ يعمُّ خوفَ الغرقِ والإمساكِ عن الجَرْي، وأهوَلُ[٧] حالاته: اضطرابُه وتموُّجُه. ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ «ضلَّ» معناه تَلِفَ وفُقد، وهي عبارةُ تحقيرٍ لمن يُدعى إلهاً من دون الله. والمعنى في هذه الآية: أنَّ الكفارَ إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأنَّ لها فضلاً، وكلُّ واحدٍ منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على مدافعته أنَّ الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام، فوقَّفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحِيل[٨].

---

(١) البيت قائله رويشد بن كثير الطائي، وقد سلف ٣/ ٩١.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧١.

(٣) ٢/ ٤٩٤.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧١.

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٧، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٦٠.

(٦) ٢/ ٣٣١.

(٧) في (ظ): أحوال، وفي بقية النسخ: أهوال، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧١.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: عن الإخلاص. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ الإنسان هنا الكافر[١]. وقيل: وطبع الإنسان كفوراً للنِّعم إلا مَنْ عَصَمه الله، فالإنسان لفظ الجنس.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ بيَّن أنه قادرٌ على هلاكهم في البرِّ وإنْ سَلِموا من البحر[٢]. والخَسْفُ: أن تنهار الأرض بالشيء؛ يقال: بئرٌ خسِيفٌ إذا انهدم أصلها[٣]. وعينٌ خاسِفٌ أي: غارت حدَقَتُها في الرأس. وعَيْنٌ من الماء خاسفةٌ أي: غار ماؤها. وخَسَفتِ الشمسُ أي: غابت عن الأرض[٤]. وقال أبو عمرو: والخَسِيفُ: البئر التي تُحفَرُ في الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرةً، والجمع خُسُف[٥]. وجانب البر: ناحية الأرض، وسمَّاه جانباً لأنه يصير بعد الخسف جانباً، وأيضاً فإن البحرَ جانبٌ والبَرَّ جانب. وقيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر، فحذَّرهم ما أمنوه من البرِّ كما حذَّرهم ما خافوه من البحر[٦]. ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ يعني: ريحاً شديدة، وهي التي تَرْمِي بالحصباء، وهي الحصى الصغار. قاله أبو عبيدة والقُتَبِيّ[٧]. وقال قتادة: يعني: حجارة من السماء تَحصِبهم، كما فُعل بقوم لوط[٨]. ويقال للسحابة التي ترمي

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٧، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٦٠.

(٢) الوجيز على هامش مراح لبيد ١/ ٤٨٤.

(٣) ينظر جمهرة اللغة (خسف).

(٤) تفسير الرازي ٢١/ ١١.

(٥) الصحاح (خسف).

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٥٧، ومجمع البيان ١٥/ ٧٣.

(٧) مجاز القرآن ١/ ٣٨٥، وغريب القرآن ص٢٥٩.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٢٥٧، وأخرجه الطبري ١٤/ ٦٦٩.

بالبَرَد: حاصب، وللريح التي تحمل التراب والحصباء: حاصِبٌ وحَصِبةٌ أيضاً[١].

قال لَبيد:

جرَّتْ عليها أن خَوَتْ من أهلِها أذيالَها كلُّ عَصُوفٍ حَصِبهْ[٢]

وقال الفَرزدق:

مستقبلينَ شَمال الشامِ يضربُنا بحاصبٍ كنَديف القطنِ منثورِ[٣]

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأس الله[٤].

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يعني: في البحر[٥]. ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ القاصف: الريح الشديدة التي تَكْسر بشدة؛ من قَصَف الشيءَ يَقْصِفه، أي: كسره بشدة[٦]. والقصف: الكسر؛ يقال: قصَفتِ الريحُ السفينة. وريحٌ قاصِفٌ: شديدة. ورعدٌ قاصف: شديد الصَّوت. يقال: قَصَف الرعدُ وغيرُه قصِيفاً. والقَصِيف: هشيمُ الشَّجر. والتقصُّفُ التكسُّر. والقصفُ أيضاً: اللَّهو واللعب، يقال: إنها مُوَلَّدة[٧].

﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بكفركم.

---

(١) تهذيب اللغة ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٢) ديوان لبيد (دار صادر) ص٣٩ . خَوَتْ: أمحلت. العَصوف: الريح الشديدة. الصحاح (خوى) و(عصف).

(٣) ديوان الفرزدق (دار صادر) ١/ ٢١٣ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٧ بمعناه.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٦ .

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ١١ .

(٧) الصحاح (قصف).

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «نَخْسِفَ بِكم» «أو نُرْسِلَ عليكم» «أن نُعِيدكم» «فنُرْسِل عليكم» «فنُغرقكم» بالنون في الخمسة على التعظيم؛ ولقوله: «علينا». الباقون بالياء؛ لقوله في الآية قبل: «إِياه»[1]. وقرأ أبو جعفر وشيبة ورُوَيْس ومجاهد: «فتُغْرِقكم» بالتاء نعتاً للريح[2]. وعن الحسن وقتادة: «فيغرِّقكم» بالياء مع التشديد في الراء[3]. وقرأ أبو جعفر: «الرياح» هنا وفي كل القرآن.

وقيل: إن القاصف المهلكةُ في البر، والعاصفَ المغرقةُ في البحر. حكاه الماورديّ[4].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ قال مجاهد: ثائراً. النحاس: وهو من الثأر. وكذلك يُقال لكلٍّ من طلب بثأرٍ أو غيرِه: تبيعٌ وتابع؛ ومنه ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٧٨] أي: مطالبة[5].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل[6]:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الآية. لمَّا ذكر من الترهيب ما ذكر بيَّنَ النعمةَ عليهم أيضاً. «كرَّمنا» تضعيف كرَمَ، أي: جعلنا لهم كرماً، أي: شرفاً وفضلاً. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال[7]. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقُهُم

(١) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ١١١ ، وينظر السبعة ص٣٨٣ ، والتيسير ص١٤٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٢ ، والنشر ٢/ ٣٠٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٢ عن الحسن وأبي رجاء، وهي قراءة شاذة.

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٢٥٧ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٥ - ١٧٦ وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٤/ ٦٧٢ ، وهو في تفسيره ١/ ٣٦٦ .

(٦) هكذا في جميع النسخ، والمسائل التي سيذكرها المصنف أربع.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٢ .

على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة[١]، وحملُهم في البرِّ والبحر مما لا يصلح لحيوانٍ سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره، وتخصيصُهم بما خصَّهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتَّسع فيه حيوانٌ اتساعَ بني آدم؛ لأنهم يكسبون المال خاصَّةً دون الحيوان، ويلبسون الثياب، ويأكلون المركَّبات من الأطعمة. وغايةُ كلِّ حيوانٍ يأكل لحماً نِيئاً أو طعاماً غيرَ مركَّب. وحكى الطبريُّ عن جماعةٍ أنَّ التفضيل هو أن يأكل بيده، وسائرُ الحيوان بالفم[٢]. ورُويَ عن ابن عباس: ذكره المَهدويُّ والنحاس[٣]، وهو قول الكلبيِّ ومقاتل. ذكره الماورديُّ[٤]. وقال الضحَّاك: كرَّمهم بالنطق والتمييز. عطاء: كرَّمهم بتعديل القامة وامتدادها. يمان: بحسن الصورة. محمد بن كعب: بأن جعل محمداً ﷺ منهم. وقيل: أكرمَ الرجالَ باللِّحى والنساء بالذوائب. وقال محمد بن جرير الطبريّ: بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم[٥].و قيل: بالكلام والخط[٦]. وقيل: بالفهم والتمييز[٧]. والصحيح الذي يُعوَّل عليه أنَّ التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرَفُ اللهُ ويُفهَمُ كلامُه، ويوصل إلى نعيمه[٨] وتصديق رسله، إلا أنَّه لمَّا لم ينهض بكل المراد من العبد بُعِثَتِ الرسلُ وأُنزلتِ الكتب، فمثالُ الشرعِ الشمسُ، ومثالُ العقلِ العينُ، فإذا فُتحت وكانت سليمةً رأتِ الشمسَ[٩]، وأدركت

(١) تفسير الرازي ٢١/١٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣ ، وكلام الطبري في تفسيره ٥/ ١٥ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ١٧٦ .

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٢٥٧ .

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٦٣ ، وقول الطبري في تفسيره ١٥/ ٥ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٥٧ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٦ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣ .

(٩) تلبيس إبليس ص٥ .

تفاصيل الأشياء. وما تقدَّم من الأقوال بعضُه أقوى من بعض. وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالاً يَفْضُلُ بها ابنَ آدم أيضاً، كَجريِ الفرس وسمعِه وإبصارِه، وقوَّةِ الفيل، وشجاعةِ الأسد، وكرم الديك. وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيَّناه[١]. والله أعلم.

الثانية: قالت فرقة: هذه الآية تقتضي تفضيلَ الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستثنون في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء: ١٧٢]. وهذا غيرُ لازمٍ من الآية، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن؛ فإن هذه الآية إنما عدَّد الله فيها على بني آدم ما خصَّهم به من سائر الحيوان، والجِنُّ هو الكثير المفضول، والملائكةُ هم الخارجون عن الكثير المفضول، ولم تتعرَّضِ الآيةُ لذكرهم، بل يَحتمِلُ أنَّ الملائكةَ أفضل، ويَحتمِلُ العكس، ويَحتمِلُ التساوي[٢]. وعلى الجملة فالكلام لا ينتهي في هذه المسألة إلى القطع، وقد تحاشى قومٌ من الكلام في هذا كما تحاشَوا من الكلام في تفضيل بعض الأنبياء على بعض؛ إذ في الخبر «لا تُخايروا بين الأنبياء ولا تُفضِّلوني على يونس بن مَتَّى»[٣]. وهذا ليس بشيء؛ لوجود النصِّ في القرآن في التفضيل بين الأنبياء، وقد بينَّاه في «البقرة»[٤] ومضى فيها الكلام في تفضيل الملائكة والمؤمن[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني: لذيذ المطاعم والمشارب؛ قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحَلْوَى، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها[٦]. ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي:

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سلف ٤/ ٢٥٣ و ٢٥٤.

(٤) ٤/ ٢٥٣ - ٢٥٨.

(٥) ١/ ٤٣٠ - ٤٣٢.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٢٥.

على البهائم والدواب والوحش والطير[١]، بالغلبة والاستيلاء، والثواب والجزاء، والحفظ والتمييز، وإصابة الفِراسة[٢].

الرابعة: هذه الآية تردُّ ما رُويَ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «اِحْرِمُوا أنفُسَكم طَيِّبَ الطعام، فإنما قوي الشيطان أن يجري في العروق منها»[٣]. وبه يستدِلُّ كثيرٌ من الصُّوفية في ترك أكل الطيبات، ولا أصل له؛ لأنَّ القرآن يردُّه، والسنة الثابتة بخلافه، على ما تقرَّر في غير موضع.

وقد حكى أبو حامد الطُّوسِيُّ قال: كان سهلٌ يقتاتُ ورق النَّبِق[٤] مدةً، وأكل دُقاقَ ورق التين ثلاث سنين. وذكر إبراهيم بن البنا قال: صحبتُ ذا النُّون من إخميم[٥] إلى الإسكندرية، فلما كان وقتُ إفطاره أخرجتُ قرصاً ومِلْحاً كان معي، وقلت: هَلُمَّ. فقال لي: ملحُكَ مدقوق؟ قلت: نعم. قال: لستَ تُفلح! فنظرتُ إلى مِزْوَده[٦] وإذا فيه قليل سَوِيقِ شعير يَسَفُّ منه. وقال أبو يزيد: ما أكلتُ شيئاً مما يأكله بنو آدم أربعين سنة. قال علماؤنا: وهذا مما لا يجوز حملُ النفسِ عليه؛ لأن الله تعالى أكرم الآدميَّ بالحنطة، وجعل قشورها لبهائمهم، فلا يصِحُّ مزاحمةُ الدوابِّ في أكل التبن، وأما سَويق الشعير فإنه يورث القُولَنْج[٧]، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجَريش[٨] فإنه ينحرف مِزاجه؛ لأن خبز الشعير باردٌ مجفِّف، والملح

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٥٨ .

(٣) أخرجه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص٢٠٤ . قال ابن عراق في تنزيه الشريعة ٢/ ٢٤٠ : رواه ابن الجوزي، وفيه بزيع أبو الخليل البصري، وهو المتهم به.

(٤) النَّبِق: ثمر السدر. اللسان (نبق).

(٥) بلد بالصعيد في مصر. معجم البلدان ١/ ١٢٩ .

(٦) المِزْود: وعاء يُحمل فيه الزاد. تهذيب اللغة ٣/ ٢٣٦ .

(٧) هو مرض معوي مؤلم، يعسر معه خروج الثُّفْل والريح. القاموس المحيط (القولنج).

(٨) أي: المجروش، كأنه حَكَّ بعضه بعضاً فتفتَّت. تهذيب اللغة ١٠/ ٥٢٧ .

يابسٌ قابضٌ يضرُّ الدِّماغ والبصر، وإذا مالتِ النفسُ إلى ما يصلحها فمُنعت فقد قووِمت حكمة الباريُ سبحانه بردِّها، ثم يؤثِّر ذلك في البدن، فكان هذا الفعل مخالفاً للشرع والعقل. ومعلومٌ أنَّ البدنَ مَطيَّةُ الآدميِّ، ومتى لم يرْفَقْ بالمطيَّة لم تُبَلِّغ. ورُوي عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبداً وعسلاً وخُبزَ حُوَّارَى، فقيل له: هذا كله؟ فقال: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدِمنا صَبَرنا صبر الرجال. وكان الثوريُّ يأكل اللحم والعنب والفالوذج ثم يقوم إلى الصلاة[(١)]. ومثل هذا عن السلف كثير. وقد تقدم منه ما يكفي في المائدة[(٢)] والأعراف[(٣)] وغيرهما. والأول غُلُوٌّ في الدِّين إن صحَّ عنهم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ روى الترمذِيُّ عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قال: «يُدعى أحدُهم فيُعطى كتابَه بيمينه، ويُمَدُّ له في جسمه ستون ذراعاً، ويُبَيَّضُ وجهُه، ويُجعَلُ على رأسه تاجٌ من لؤلؤٍ يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرَوْنه من بعيد، فيقولون: اللهمَّ ائتِنا بهذا، وبارِكْ لنا في هذا، حتى يأتيهم فيقول: أبشروا، لكلِّ منكم مثلُ هذا» قال: «وأما الكافر فيُسَوَّد وجهُه ويُمَدُّ له في جسمه ستون ذراعاً على صورة آدم، ويلبَسُ تاجاً فيراه أصحابُه فيقولون: نعوذُ بالله من شرِّ هذا، اللهمَّ لا تأتِنا بهذا» قال: «فيأتيهم فيقولون: اللَّهُمَّ أخْزِه. فيقول: أبعَدَكمُ اللهُ، فإن لكل رجلٍ منكم مثلَ هذا». قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريب[(٤)]. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا

(١) تلبيس إبليس ص٢٠١ و ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٢١٠.
(٢) ٨/ ١١٦.
(٣) ٩/ ٢٠٢.
(٤) سنن الترمذي (٣١٣٦).

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]. والكتاب يسمى إماماً؛ لأنه يُرجَعُ إليه في تعرِّف أعمالهم. وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: «بإمامهم» أي: بكتابهم[١]، أي: بكتاب كلِّ إنسانٍ منهم الذي فيه عمله، دليله ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[٢]. وقال ابن زيد: بالكتاب المنزَّل عليهم[٣]. أي: يُدعَى كلُّ إنسانٍ بكتابه الذي كان يتلوه؛ فيُدعى أهلُ التوراة بالتوراة، وأهلُ القرآن بالقرآن، فيقال: يا أهل القرآن، ماذا عملتم؟ هل امتثلتُم أوامره؟ هل اجتنبتم نواهيه؟ وهكذا[٤]. وقال مجاهد: «بإمامهم»: بنبيِّهم[٥]، والإمام من يؤتَمُّ به. فيقال: هاتوا متَّبِعِي إبراهيم عليه السلام، هاتوا متَّبعي موسى عليه السلام، هاتوا متَّبعي الشيطان، هاتوا متَّبعي الأصنام. فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم[٦]. وقاله قتادة[٧]. وقال عليٌّ ﷺ: بإمام عصرهم[٨]. ورُوي عن النبيِّ ﷺ في قوله: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ فقال: «كلٌّ يدعى بإمام زمانهم، وكتابِ ربِّهم، وسنَّةِ نبيِّهم، فيقول: هاتوا متَّبعي إبراهيم، هاتوا متَّبعي موسى، هاتوا متَّبعي عيسى، هاتوا متَّبعي محمداً ـ عليهم أفضل الصلوات والسلام ـ فيقوم أهل الحقِّ فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقول: هاتوا متَّبعي الشيطان، هاتوا متَّبعي رؤساء الضلالة إمامَ هدًى وإمامَ ضلالة»[٩]. وقال الحسن وأبو العالية: «بِإمامِهِم» أي: بأعمالهم[١٠]. وقاله ابن عباس.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٧ عن الحسن والضحاك.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٧، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٧، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٨.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٨ بمعناه.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/ ٦.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٨ بمعناه.

(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ٧ بلفظ مجاهد.

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٩٦ عن علي، وذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١٢٦ عن ابن عباس.

(٩) أورده السيوطي في الدر المنثور ٩/ ٤٠٤ مختصراً ونسبه لابن مردويه عن علي ﷺ.

(١٠) أخرجه الطبري ١٥/ ٧ - ٨ عنهما.

فيُقال: أين الراضون بالمقدور؟ أين الصابرون عن المحذور؟. وقيل: بمذاهبهم، فيُدْعَوْن بمن كانوا يأتمُّون به في الدنيا: يا حنفيُّ، يا شافعيُّ، يا معتزليُّ، يا قدَرِيُّ، ونحوه، فيتبعونه في خيرٍ أو شرٍّ، أو على حقٍّ أو باطل، وهذا معنى قول أبي عبيدة(١). وقد تقدّم(٢). وقال أبو هريرة: يُدعى أهل الصدقة من باب الصدقة، وأهلُ الجهاد من باب الجهاد...، الحديث بطوله(٣). أبو سهل: يقال: أين فلانٌ المصلِّي والصوَّام، وعكسه الزَّفَّاف(٤) والنمَّام. وقال محمد بن كعب: «بِإمامِهِم» بأُمَّهاتهم، وإمام جمع آمّ. قالت الحكماء: وفي ذلك ثلاثة أوجُهٍ من الحكمة؛ أحدها ـ لأجل عيسى. والثاني ـ إظهارٌ لشرف الحسن والحسين. والثالث ـ لئلا يفتضح أولاد الزنى(٥).

قلت: وفي هذا القول نظر؛ فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمعَ اللهُ الأوّلين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادرٍ لواءٌ فيقال: هذه غَدْرةُ فلانِ بنِ فلان» خرَّجه مسلم والبخاري(٦). فقوله: «هذه غَدْرة فلان ابن فلان» دليلٌ على أن الناس يُدْعَوْن في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهذا يردُّ على من قال: إنما يُدْعَوْن بأسماء أمّهاتهم؛ لأن في ذلك سَتْراً على آبائهم(٧). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ هذا يقوّي قول من قال: «بِإمامِهِم» بكتابهم. ويقوّيه أيضاً قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ

(١) في مجاز القرآن ١/ ٣٨٦ ، ولفظه: أي بالذي اقتدوا به وجعلوه إماماً.

(٢) ٢/ ٣٦٧ .

(٣) أخرجه أحمد (٧٦٣٣)، والبخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧) مرفوعاً.

(٤) هكذا في النسخ، ولعلها الدفَّاف: وهو الذي يضرب بالدف.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٢٦ ، والكشاف ٢/ ٤٥٩ .

(٦) صحيح مسلم (١٧٣٥) واللفظ له، وصحيح البخاري (٦١٧٧)، وأخرجه أحمد (٤٨٣٩).

(٧) تفسير الرازي ٢١/ ١٧ .

﴿يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الفتيل: الذي في شقِّ النواة[١]. وقد مضى في «النساء»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ أي: في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق. ﴿فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: في أمر الآخرة ﴿أَعْمَىٰ﴾[٣]. وقال عكرمة: جاء نفرٌ من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية، فقال: اقرؤوا ما قبلها: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ إلى ﴿تَفْضِيلًا﴾. قال ابن عباس: مَنْ كان في هذه النِّعم والآيات التي رأى أعمى فهو عن الآخرة التي لم يُعاين أعمى وأضلُّ سبيلاً[٤]. وقيل: المعنى: مَنْ عمي عن النِّعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى[٥]. وقيل: المعنى: من كان في الدنيا التي أُمْهِلَ فيها وفُسِّحَ له ووُعِدَ بقبول التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبةَ فيها أعمى[٦]. وقال الحسن: مَنْ كان في هذه الدنيا كافراً ضالًّا فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً[٧]. وقيل: مَنْ كان في الدنيا أعمى عن حُجج الله يبعثه الله يوم القيامة أعمى[٨]، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] الآيات. وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾[٩] [الإسراء: ٩٧]. وقيل: المعنى في قوله: ﴿فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ في

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٧، وإعراب القرآن له ٢/ ٤٣٤.

(٢) ٦/ ٤١٠.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٥٩ بنحوه.

(٤) تفسير الرازي ٢١/ ١٨ - ١٩.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٨ عن مقاتل.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٣، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٨.

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٩، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٦.

(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٨ عن مجاهد.

(٩) تفسير الرازي ٢١/ ١٩.

جميع الأقوال: أشدُّ عَمًى[١]؛ لأنه من عَمَى القلب، ولا يُقال مثلُه في عَمَى العين. قال الخليل وسيبويه: لأنه خِلقةٌ بمنزلة اليد والرِّجْل، فلم يقل: ما أعماه، كما لا يُقال: ما أيداه. الأخفش: لم يقل فيه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف، وأصله أعمى[٢]. وقد أجاز بعض النَّحويين ما أعماه وما أعشاه؛ لأنَّ فعله عَمِيَ وعَشِيَ. وقال الفراء: حدثني بالشام شيخٌ بصريٌّ أنه سمع العرب تقول: ما أسوَدَ شعره[٣]. قال الشاعر:

ما في المعالي لكم ظِلٌّ ولا ثمرُ ... وفي المخازي لكم أشباحُ أشياخِ
أما الملوكُ فأنتَ اليوم ألأَمُهُمْ ... لؤماً وأبيضُهم سِرْبالَ طبَّاخِ[٤]

وأمال أبو بكر وحمزة والكسائي وخَلفَ الحرفين «أعمى» و«أعمى»، وفتَحَ الباقون، وأمالَ أبو عمرو الأوّل وفتحَ الثاني[٥]. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يعني أنه لا يجد طريقاً إلى الهداية[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾

قال سعيد بن جبير: كان النبيُّ ﷺ يستلم الحجرَ الأسودَ في طوافه، فمنعته قريشٌ وقالوا: لا ندَعُكَ تستلم حتى تُلِمَّ بآلهتنا. فحدَّث نفسه وقال: «ما عليَّ أن أُلِمَّ بها بعدَ أن يَدَعُوني أستلمُ الحجرَ، واللهُ يعلم أني لها كاره» فأبى اللهُ تعالى ذلك، وأنزل عليه هذه الآية. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت في وفد ثَقيف،

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٨٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٤ - ٤٣٥. وينظر كتاب سيبويه ٤/ ٩٧ - ٩٨.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٨.

(٤) قائلهما طرفة بن العبد، والبيت الأول في ديوانه ص١٨. والبيت الثاني في اللسان (بيض).

(٥) السبعة ص٣٨٣، وتحبير التيسير ص١٣٦.

(٦) مجمع البيان ١٥/ ٧٩.

أتوا النبيَّ ﷺ فسألوه شَططاً، وقالوا: متِّعنا بآلهتنا سنةً حتى نأخذ ما يُهْدَى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحَرِّمْ وادينا كما حرَّمت مكة، حتى تعرِفَ العربُ فضلنا عليهم. فهَمَّ رسولُ الله ﷺ أن يُعطيَهم ذلك، فنزلت هذه الآية[١]. وقيل: هو قول أكابر قريشٍ للنبيِّ ﷺ: اطرُدْ عنَّا هؤلاء السُّقَّاط والموالي حتى نجلسَ معك ونسمعَ منك. فهمَّ بذلك حتى نُهِيَ عنه[٢]. وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ قريشاً خلَوْا برسول الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ إلى الصبح يُكلِّمونه ويُفخِّمونه، ويُسوِّدونه ويُقاربونه، فقالوا: إنك تأتي بشيءٍ لا يأتي به أحدٌ من الناس، وأنتَ سيِّدُنا يا سيِّدَنا، وما زالوا به حتى كاد يُقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية[٣]. ومعنى ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ أي: يزيلونك. يُقال: فتنتُ الرجل عن رأيه إذا أزلتُه عما كان عليه. قاله الهَروي[٤]. وقيل: يصرفونك، والمعنى واحد. ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: حكم القرآن؛ لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفةٌ لحكم القرآن. ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ أي: لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك[٥]، وهو قول ثقيف: وحَرِّم وادِينا كما حرَّمتَ مكة، شجرَها وطيرَها ووحشَها، فإن سألتكَ العربُ لِمَ خصَّصتهم، فقل: اللهُ أمرني بذلك، حتى يكون عذراً لك. ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: لو فعلتَ ما أرادوا لاتخذوك خليلاً[٦]، أي: والَوكَ وصافَوك[٧]، مأخوذٌ من الخلة ـ بالضم ـ وهي الصداقة

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٥٩ - ٢٦٠، وزاد المسير ٥/ ٦٧، وتعقب ابن الجوزي هذين القولين بقوله: وهذا باطل لا يجوز أن يُظنَّ برسول الله ﷺ، وكلُّ ذلك مُحالٌ في حقه وفي حقِّ الصحابة أنهم رووا عنه. قلنا: والقول الأول أخرجه الطبري ١٥/ ١٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٤.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٨، وزاد المسير ٥/ ٦٨. وأخرجه الطبري ١٥/ ١٣ - ١٤.

(٤) وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١٤/ ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٥) تفسير الرازي ٢١/ ٢١.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٤.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٢٧، وزاد المسير ٥/ ٦٨.

لممايلته لهم. وقيل: ﴿لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: فقيراً. مأخوذاً من الخَلَّة ـ بفتح الخاء ـ وهي الفقر؛ لحاجته إليهم[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ أي: على الحقِّ وعصمناك من موافقتهم. ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تميل. ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ أي: ركوناً قليلاً[٢]. قال قتادة: لمَّا نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ لا تَكِلْني إلى نفسي طرفةَ عين»[٣]. وقيل: ظاهرُ الخطاب للنبيِّ ﷺ، وباطنُه إخبارٌ عن ثقيف. والمعنى: وإن كادوا ليركنونك، أي: كادوا يخبرون عنك بأنك مِلتَ إلى قولهم، فنسب فِعْلَهم إليه مجازاً واتساعاً، كما تقول لرجل: كِدْتَ تقتلُ نفسك، أي: كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت. ذكره المهدَويّ. و قيل: ما كان منه همٌّ بالركون إليهم، بل المعنى: ولولا فضلُ الله عليكَ لكان منك مَيلٌ إلى موافقتهم، ولكن تمَّ فضلُ الله عليك فلم تفعل. ذكره القشيري.

وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصوماً، ولكن هذا تعريفٌ للأمة؛ لئلا يركن أحدٌ منهم إلى المشركين في شيءٍ من أحكام الله تعالى وشرائعه[٤].

وقوله: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: لو ركنتَ لأذقناك مِثْلَي عذاب الحياة في الدنيا ومثلَي عذاب الممات في الآخرة. قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وهذا غاية الوعيد، وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم. قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[٥] [الأحزاب: ٣٠] وضِعْفُ الشيء مثله مرتين، وقد يكون الضِّعف

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٦٠ .

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٠ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٢١ .

(٣) تفسير الرازي ٢١/ ٢١ . إسناده منقطع.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٠ ، وزاد المسير ٥/ ٦٩ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٤ . وينظر النكت والعيون ٣/ ٢٦٠ .

النصيب، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي: نصيب. وقد تقدَّم في الأعراف[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾

هذه الآية قيل: إنها مدنية، حسبما تقدَّم في أوّل السورة. قال ابن عباس: حَسدتِ اليهود مقامَ النبيِّ ﷺ بالمدينة، فقالوا: إنَّ الأنبياء إنما بُعثوا بالشام، فإن كنتَ نبيًّا فألحَقْ بها، فإنك إنْ خرجتَ إليها صدَّقناك وآمنَّا بك. فوقع ذلك في قلبه؛ لِما يُحِبُّ من إسلامهم، فرحَل من المدينة على مرحلةٍ، فأنزل الله هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن غَنْم: غزا رسول الله ﷺ غزوة تُبوك لا يريد إلا الشام، فلما نزل تبوك نزل ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ بعد ما ختمت السورة، وأمر بالرجوع[(٢)]. وقيل: إنها مكية. قال مجاهد وقتادة: نزلت في هَمِّ أهلِ مكة بإخراجه، ولو أخرجوه لما أُمهِلوا ولكنَّ الله أمره بالهجرة فخرج[(٣)]. وهذا أصح؛ لأنَّ السورة مكية، ولأن ما قبلها خبرٌ عن أهل مكة، ولم يجْرِ لليهود ذكر[(٤)]. وقوله: ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ يريد أرض مكة. كقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ [يوسف: ٨٠] أي: أرض مصر؛ دليله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣] يعني مكة. معناه: همَّ أهلُها بإخراجه؛ فلهذا أضاف إليها[(٥)] وقال: «أخرجتك»[(٦)]. وقيل: همَّ الكفار كلُّهم أن يستخِفُّوه من أرض العرب بتظاهرهم عليه، فمنعه الله، ولو أخرجوه من أرض العرب لم يُمْهَلُوا، وهو معنى قوله: ﴿وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٧)].

---

(١) ٩/ ٢١٧.

(٢) زاد المسير ٥/ ٦٩، وحديث عبد الرحمن بن غنم أخرجه البيهقي في الدلائل ٥/ ٢٥٤.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٠، وتفسير الرازي ٢١/ ٢٣. وقول مجاهد أخرجه عنه الطبري ١٥/ ١٩-٢٠. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٨٣ - ٣٨٤، والطبري ١٥/ ١٩.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٠، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٧.

(٥) في النسخ: إليهم.

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٢٣.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٢٧.

وقرأ عطاء بن أبي رَباح: «لا يُلَبَّثون» الباء مشددة[١]. «خلفك» نافع وابن كَثير وأبو بكر وأبو عمرو، ومعناه: بعدك. وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي: ﴿خِلَٰفَكَ﴾[٢] واختاره أبو حاتم؛ اعتباراً بقوله: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١] ومعناه أيضاً: بعدك؛ قال الشاعر:

عَفَتِ الدِّيارُ خلافَهم فكأنَّما ... بسطَ الشَّواطِبُ بينهنَّ حَصيرا[٣]

«بسط البواسط» في الماوردي[٤]. يقال: شطَبتِ المرأةُ الجريد إذا شقَّتْه لتعملَ منه الحصر. قال أبو عبيد: ثم تُلقيه الشاطبة إلى المُنَقِّية[٥]. وقيل: «خلفك» بمعنى بعدك. «وخلافك» بمعنى مخالفتك. ذكره ابن الأنباري. ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فيه وجهان: أحدهما أنَّ المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر. وهذا قول من ذَكر أنهم قريش. الثاني: ما بين ذلك وقَتْلِ بني قُريظة وجلاءِ بني النضير. وهذا قول من ذَكر أنهم اليهود[٦].

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ۝٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ﴾ أي: يُعذَّبون كسُنَّةِ مَنْ قد أرسلنا؛ فهو نصبٌ بإضمارِ يعذبون، فلما سقط الخافض عمِلَ الفعل. قاله الفرّاء[٧]. وقيل: انتصب على معنى سننَّا سنةَ مَنْ قد أرسلنا[٨]. وقيل: هو منصوبٌ على تقدير

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٧ .

(٢) السبعة ص٣٨٤ ، والتيسير ص١٤١ .

(٣) قائله الحارث بن خالد المخزومي كما في العين واللسان (خلف). ومن قوله: وقرأ عطاء إلى هذا الموضع في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٦ .

(٤) في مطبوع النكت والعيون ٣/ ٢٦١ للماوردي بمثل رواية المصنف: بسط الشواطب.

(٥) الصحاح (شطب).

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ١٢٩ .

(٨) مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٣٤ .

حذف الكاف[١]؛ التقدير: لا يلبثون خلفك إلا قليلاً كسنةِ مَنْ قد أرسلنا، فلا يوقف على هذا التقدير على قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ويوقف على الأول والثاني. ﴿قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ وقفٌ حسن. ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي: لا خُلْفَ في وعدها[٢].

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ لمَّا ذكر مكايد المشركين أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بالصبر والمحافظة على الصلاة، وفيها طلب النصر على الأعداء. ومثله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾[٣] [الحجر:٩٧-٩٨]. وتقدَّم القول في معنى إقامة الصلاة في أول سورة البقرة[٤]. وهذه الآية بإجماعٍ من المفسرين إشارةٌ إلى الصلوات المفروضة[٥]. واختلف العلماء في الدُّلوك على قولين: أحدهما: أنه زوال الشمس عن كبِد السماء قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفةٌ سواهم من علماء التابعين وغيرهم. الثاني: أنَّ الدلوك هو الغروب. قاله عليٌّ وابن مسعود وأُبَيُّ بن كعب، ورُوي عن ابن عباس[٦]. قال الماوردي: من جعل الدُّلوك اسماً لغروبها فلأنَّ الإنسان يدلُك عينيه براحته لتبيِّنها حالة المغيب، ومن جعله اسماً لزوالها فلأنَّه يدلكُ عينيه لشدة شعاعها[٧]. وقال أبو

---

(١) تفسير البغوي ٣/١٢٨ .

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٠ .

(٣) تفسير الرازي ٢١/ ٢٥ .

(٤) ١/ ٢٥٣ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٧ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٧ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٦٣ .

عبيد: دلوكها غروبها. ودلكَتْ برَاحِ يعني الشمس، أي: غابت[١]. وأنشد قُطْرب:

هـذا مُـقـامُ قَـدَمَـيْ رَبـاحِ ... ذَبَّـبَ حـتـى دَلَـكَـتْ بَـراحِ

بَراح ـ بفتح الباء ـ على وزن حَزام وقَطام ورَقَاش، اسمٌ من أسماء الشمس. ورواه الفرَّاء ـ بكسر الباء ـ وهو جمع راحة وهي الكف[٢]، أي: غابت وهو ينظر إليها، وقد جعل كفَّه على حاجبه. ومنه قول العَجَّاج:

والـشـمـسُ قـد كـادَتْ تـكـون دَنَـفـا ... أدفـعُـهـا بـالـراحِ كـي تَـزَحْـلَـفـا[٣]

قال ابن الأعرابيّ: الزُّحلوفة مكانٌ منحدرٌ أملس؛ لأنهم يتزحلفون فيه. قال: والزَّحْلفةُ كالدَّحرجة والدفع؛ يقال: زحلفتُه فَتَزَحْلَفَ[٤]. ويقال: دلكتِ الشمسُ إذا غابت[٥]. قال ذو الرُّمَّة[٦]:

مـصـابيحُ ليست بـاللَّـواتي تقُودهـا ... نـجـومٌ ولا بـالآفـلاتِ الـدَّوالـكِ

قال ابن عطية: الدلوك هو الميل ـ في اللغة ـ فأوّل الدلوك هو الزوال، وآخره هو الغروب. ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكاً؛ لأنها في حالة مَيل. فذكر الله تعالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك وعنده، فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخلةً في غَسَق الليل[٧]. وقد ذهب قومٌ إلى أن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب؛ لأن الله سبحانه علَّق وجوبها على الدلوك، وهذا دلوكٌ كله قاله الأوزاعيُّ وأبو حنيفة في تفصيل. وأشار إليه مالك

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣٧٠ - ٣٧١ .

(٢) الصحاح (دلك)، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٢٩ . رباح: اسم ساق. وذبَّبَ النهار: إذا لم يبق منه إلا بقية: اللسان (ربح) و(ذبب).

(٣) غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣٧١ .

(٤) الصحاح (زحلف).

(٥) الفائق ١/ ٤٣٦ .

(٦) في ديوانه ٤/ ١٧٣٤ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٧ .

والشافعيُّ في حالة الضرورة[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال: دلوك الشمس: ميلُها، وغسقُ الليل: اجتماعُ الليل وظلمته[٢]. وقال أبو عبيدة: الغسق: سواد الليل. قال ابن قَيْس الرُّقَيَّات[٣]:

إنَّ هـذا الـلـيـل قـد غَـسَـقـا ... واشـتـكـيْـتُ الـهَـمَّ والأَرَقـا[٤]

وقد قيل: غسق الليل: مغيب الشفق[٥]. وقيل: إقبال ظُلمته. قال زهير:

ظـلَّـتْ تـجـودُ يـداهـا وهـي لاهـيـةٌ ... حتـى إذا جـنـحَ الإظـلامُ والـغَـسَـقُ[٦]

يقال: غسقَ الليلُ غسوقا[٧]. والغَسَق اسمٌ بفتح السين. وأصل الكلمة من السيلان؛ يقال: غَسَقتِ العين إذا سالت، تَغْسِق[٨]. وغَسَق الجرح غَسَقاناً، أي: سال منه ماءٌ أصفر. وأغسق المؤذِّن، أي: أخَّرَ المغرب إلى غَسَق الليل[٩]. وحكى الفراء: غَسَقَ الليل وأغسق، وظَلِمَ وأظلم، ودجا وأدجى، وغَبَس وأغبس، وغَبِش وأغبش[١٠]. وكان الربيع بن خُثَيم يقول لمؤذنه في يومِ غَيْم: أغسِقْ أغسِقْ. يقول: أخِّر المغرب حتى يَغسِقَ الليل، وهو إظلامه[١١].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٠٩ .

(٢) أحكام لابن العربي ٣/١٢٠٧ ، وهو في الموطأ ١/ ١١ .

(٣) في ديوانه ص١٨١ .

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٨٨ .

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠٦ عن ابن مسعود.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٦٢ .

(٧) اللسان (غسق).

(٨) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٦٨ .

(٩) الصحاح (غسق).

(١٠) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٦٨ .

(١١) تهذيب اللغة ١٦/ ١٢٧ .

الثالثة: اختلف العلماء في آخر وقت المغرب، فقيل: وقتُها وقتٌ واحدٌ لا وقتَ لها إلا حين تحجب الشمس، وذلك بيِّنٌ في إمامة جبريل؛ فإنه صلَّاها باليومين لوقتٍ واحد وذلك غروب الشمس، وهو الظاهر من مذهب مالك عند أصحابه. وهو أحد قولي الشافعيِّ في المشهور عنه أيضاً، وبه قال الثوري. وقال مالك في «الموطأ»[(١)]: فإذا غاب الشفقُ فقد خرجْتَ من وقت المغرب ودخلَ وقت العشاء. وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن حَيّ وأحمد وإسحاق وأبو ثَور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفقِ غسقٌ كلُّه، ولحديث أبي موسى، وفيه: أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى بالسائلِ المغربَ في اليوم الثاني، فأخَّر حتى كان عند سقوط الشفق. خرَّجه مسلم[(٢)]. قالوا: وهذا أولى أخبار إمامة جبريل؛ لأنه متأخرٌ بالمدينة، وإمامةُ جبريلَ بمكة، والمتأخر أولى من فعله وأمره؛ لأنه ناسخٌ لما قبله[(٣)]. وزعم ابن العربي[(٤)] أنَّ هذا القول هو المشهور من مذهب مالك، وقوله في «موطَّئه» الذي أقرأه طولَ عمره وأملاه في حياته.

والنكتةُ في هذا أنَّ الأحكام المتعلِّقةَ بالأسماء هل تتعلَّق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجميعها؟ والأقوى في النظر أنْ يرتبط الحكم بأوائلها؛ لئلا يكون ذكرُها لغواً، فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظرُ في تعلقه بالكلِّ إلى الآخر.

قلت: القول بالتَّوسعةِ أرجح، وقد خرَّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي الزبير عن جابر قال: خرجَ رسولُ الله ﷺ من مكةَ قريباً من غروب الشمس، فلم يُصَلِّ المغربَ حتى أتى سَرِفَ، وذلك تسعة أميال[(٥)]. وأما القول بالنسخ فليس بالبيِّن، وإن كان التاريخ معلوماً؛ فإن

---

(١) ١/ ١٣ .

(٢) في صحيحه (٦١٤). وأخرجه أحمد (١٩٧٣٣).

(٣) من بداية المسألة إلى هذا الموضع في الاستذكار ١/ ١٩٧ - ٢٠٠ ، والتمهيد ٨/ ٧٩ و ٨١ و ٨٣ و ٨٤ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٠٧ .

(٥) وأخرجه أحمد (١٤٢٧٤) من طريق الأجلح، به.

الجمع ممكن. قال علماؤنا: تُحمل أحاديثُ جبريل على الأفضلية في وقت المغرب، ولذلك اتفقتِ الأمةُ فيها على تعجيلها والمبادرة إليها في حين غروب الشمس[١]. قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: ولا نعلم أحداً من المسلمين تأخَّر بإقامة المغرب في مسجدِ جماعةٍ عن وقت غروب الشمس[٢]. وأحاديث التَّوسعة تُبيِّن وقت الجواز، فيرتفع التعارضُ ويصحُّ الجمع، وهو أولى من الترجيح باتفاق الأصوليين؛ لأنَّ فيه إعمالَ كلٍّ واحدٍ من الدليلين، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاطُ أحدهما. والله أعلم[٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ انتصب «قرآن» من وجهين: أحدهما أن يكون معطوفاً على الصلاة، المعنى: وأقم قرآن الفجر أي: صلاة الصبح. قاله الفراء. وقال أهل البصرة: انتصب على الإغراء، أي: فعليك بقرآن الفجر[٤]. قاله الزجَّاج[٥]. وعبَّر عنها بالقرآن خاصةً دون غيرها من الصلوات؛ لأنَّ القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلةٌ مجهورٌ بها حسبما هو مشهورٌ مسطور. عن الزَّجَّاج أيضاً[٦].

قلت: وقد استقرَّ عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قَدْراً لا يضرُّ بمن خلفه ـ يقرأ فيها بطوال المفصَّل، ويليها في ذلك الظهر والجمعة ـ وتخفيف القراءة في المغرب وتوسُّطها في العصر والعشاء. وقد قيل في العصر: إنها تخفَّف كالمغرب. وأما ما ورد في «صحيح مسلم» وغيره من الإطالة فيما استقرَّ فيه التقصير،

---

(١) المفهم ٢/ ٢٣٧ بمعناه.

(٢) الاستذكار ١/ ٢٠١، والتمهيد ٨/ ٨٤.

(٣) المفهم ٢/ ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٢٨. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٢٩.

(٥) لم نقف على نسبة هذا القول إلى الزجاج في أيٍّ من المصادر.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦، ولفظ كلامه: في هذا الموضع فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة؛ لأن قوله: «أقم الصلاة، أقم قرآن الفجر» قد أمر أن نقيم الصلاة، حتى سميت الصلاة قرآناً، فلا تكون صلاةٌ إلا بقراءة.

أو من التقصير فيما استقرَّتْ فيه الإطالة، كقراءته في الفجر بالمعوِّذتين كما رواه النَّسائيّ[١]، وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور في المغرب[٢]، فمتروكٌ بالعمل، ولإنكاره على معاذ التطويل حين أمَّ قومَه في العشاء فافتتَحَ سورة البقرة. خرَّجه الصحيح[٣]. وبأمره الأئمةَ بالتخفيف فقال: «أيها الناس، إنَّ منكم مُنفِّرين، فأيُّكم أمَّ الناسَ فليُخفِّفْ فإنَّ فيهم الصغيرَ والكبيرَ والمريضَ والسقيمَ والضعيفَ وذا الحاجة»[٤]، وقال: «فإذا صلَّى أحدُكم وحدَه فليطوِّلْ ما شاء»[٥]. كلُّه مسطورٌ في صحيح الحديث.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ دليلٌ على أنه لا صلاةَ إلا بقراءة؛ لأنه سَمَّى الصلاة قرآناً[٦].

وقد اختلف العلماء في القراءة في الصلاة، فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفَذِّ في كلِّ ركعة، وهو مشهورُ قولِ مالك. وعنه أيضاً أنها واجبةٌ في جُلِّ الصلاة. وهو قول إسحاق. وعنه أيضاً تجب في ركعةٍ واحدة. قاله المُغِيرة وسُحْنُون. وعنه أنَّ القراءة لا تجب في شيء من الصلاة. وهو أشذُّ الروايات عنه. وحُكي عن مالك أيضاً أنها تجب في نصف الصلاة وإليه ذهب الأوزاعيُّ. وعن الأوزاعيِّ أيضاً وأيوب أنها تجب على الإمام والفَذِّ والمأموم على كلِّ حال. وهو أحد

---

(١) سنن النسائي ٢/ ١٥٨ من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

(٢) حديث قراءته بالأعراف أخرجه أحمد (٢١٦٤٦) من حديث زيد بن ثابت ﷺ. وحديث قراءته بالمرسلات أخرجه أحمد (٢٦٨٦٨)، والبخاري (٤٤٢٩)، ومسلم (٤٦٢) من حديث أم الفضل رضي الله عنها. وحديث قراءته بالطور أخرجه أحمد (١٦٧٣٥)، والبخاري (٧٦٥)، ومسلم (٤٦٣) من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

(٣) صحيح البخاري (٧٠٥)، وصحيح مسلم (٤٦٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤١٩٠).

(٤) أخرجه أحمد (١٧٠٦٥)، والبخاري (٩٠)، ومسلم (٤٦٦) من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ.

(٥) أخرجه أحمد (١٠٣٠٦)، والبخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦ .

قولي الشافعي[١]. وقد مضى في الفاتحة مستوفًى[٢].

السادسة: قوله تعالى: ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ روى الترمذيُّ عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهدُه ملائكةُ الليل وملائكةُ النهار» هذا حديث حسن صحيح[٣]. ورواه عليّ بن مُسْهِر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبيّ ﷺ[٤]. وروى البخاريُّ عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «فَضْلُ صلاة الجميع على صلاة الواحد خمسٌ وعشرون درجة، وتجتمع ملائكةُ الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح». يقول أبو هريرة: اِقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[٥]. ولهذا المعنى يُبَكَّر بهذه الصلاة، فمن لم يُبكِّرْ لم تشهَدْ صلاتَه إلا إحدى الفئتين من الملائكة[٦]. ولهذا المعنى أيضاً قال مالك والشافعيُّ: التغليس بالصبح أفضل. وقال أبو حنيفة: الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار، فإن فاتَه ذلك فالإسفار أوْلَى من التغليس. وهذا مخالفٌ لما كان عليه الصلاة والسلام يفعله من المداومة على التغليس[٧]. وأيضاً فإن فيه تفويتَ شهود ملائكة الليل[٨]. والله أعلم.

السابعة: استدلَّ بعض العلماء بقوله ﷺ: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار» على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار[٩].

---

(١) المفهم ٢/ ٢٤ - ٢٥ .

(٢) ١/ ١٨٠ - ١٩٣ .

(٣) سنن الترمذي (٣١٣٥) من طريق أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، به. وأخرجه من هذه الطريق أحمد (١٠١٣٣).

(٤) أخرجه الترمذي بإثر الحديث (٣١٣٥) من طريق علي بن مسهر، به.

(٥) صحيح البخاري (٦٤٨). وأخرجه أحمد (٧١٨٥)، ومسلم (٦٤٩): (٢٤٦).

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٢٨ .

(٧) المفهم ٢/ ٢٤٠ .

(٨) تفسير الرازي ٢١/ ٢٨ .

(٩) النكت والعيون ٣/ ٢٦٤ .

قلت: وعلى هذا فلا تكون صلاةُ العصر أيضاً لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار؛ فإن في الصحيح عن النبيِّ الفصيح عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر» الحديث[١]. ومعلومٌ أنَّ صلاة العصر من النهار، فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل، وليس كذلك، وإنما هي من النهار كالعصر، بدليل الصيام والأيمان، وهذا واضح.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ «من» للتبعيض[٢]. والفاء في قوله: «فتهجَّد» ناسقةٌ على مضمر، أي: قم فتهجد. ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن. والتَّهَجُّد من الهجود وهو من الأضداد. يقال: هجد نام، وهجد سهر؛ على الضِّدِّ. قال الشاعر:

ألا زارَتْ وأهلُ مِنًى هُجودُ   وليْتَ خَيالها بمنًى يعودُ[٣]

آخر:

ألَا طرقَتْنا والرِّفاق هُجودُ   فباتَتْ بِعُلَّات النوالِ تجودُ[٤]

يعني نِياماً[٥]. وهجد وتهجَّد بمعنًى. وهجَّدته أي: أنمتُه، وهجَّدته أي: أيقظتُه[٦]. والتهجُّد التيقُّظ بعد رَقْدة، فصار اسماً للصلاة؛ لأنه يُتَنَبَّهُ لها. فالتهجد

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٥)، وصحيح مسلم (٦٣٢). وأخرجه أحمد (١٠٣٠٩).

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨.

(٣) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣١٨.

(٤) قائله خارجة بن فليح كما في أمالي أبي علي القالي ١/ ١٤. وقوله: «بُعلَّات» من التَّعِلَّة والعُلالة: وهو ما يُتعلَّلُ به. اللسان (علل).

(٥) من قوله: والفاء في قوله إلى هذا الموضع في النكت والعيون ٣/ ٢٦٤ بمعناه.

(٦) تهذيب اللغة ٦/ ٣٦.

القيام إلى الصلاة من النوم. قال معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم[١]. وروى إسماعيل بن إسحاق القاضي من حديث الحجاج بن عمر صاحب النبيِّ ﷺ أنه قال: «أيحسب أحدُكم إذا قامَ من الليل كلِّه أنه قد تهجَّد؟! إنما التهجُّدُ الصلاةُ بعد رَقْدةٍ، ثم الصلاةُ بعد رَقْدةٍ، ثم الصلاة بعد رقدة» كذلك كانت صلاة رسول الله ﷺ[٢]. وقيل: الهُجود: النوم. يقال: تهجَّد الرجل إذا سَهِر[٣]، وألقى الهجود وهو النوم. ويُسمَّى من قام إلى الصلاة متهجداً؛ لأنَّ المتهجِّدَ هو الذي يُلقي الهجود الذي هو النوم عن نفسه[٤]. وهذا الفعل جارٍ مجرى تحوَّب وتحرَّج وتأثَّم وتحنَّث وتقذَّر وتنجَّس؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه، ومثله قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥] معناه: تندَّمون، أي: تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، وهي انبساط النفوس وسرورها؛ يقال: رجلٌ فَكِهٌ إذا كان كثيرَ السرور والضحك. والمعنى في الآية: ووقتاً من الليل اسْهَرْ به في صلاةٍ وقراءة[٥].

الثانية: قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: كرامةً لك. قاله مقاتل.

واختلف العلماء في تخصيص النبيِّ ﷺ بالذِّكر دون أمته، فقيل: كانت صلاةُ الليل فريضةً عليه؛ لقوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: فريضةً زائدةً على الفريضة الموظفة على الأمة[٦].

قلت: وفي هذا التأويل بُعْدٌ لوجهين: أحدهما ـ تسمية الفرض بالنفل، وذلك مَجازٌ لا حقيقة. الثاني ـ قوله ﷺ: «خمس صلواتٍ فرضهنَّ اللهُ على العباد»[٧]، وقوله

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٦٤، والآثار عن هؤلاء أخرجها الطبري ١٥/ ٣٩.

(٢) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ١/ ١٩٤ - ١٩٥، والطبراني في الكبير (٣٢١٦)، وفي الأوسط (٨٦٦٥).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٤.

(٤) تهذيب اللغة ٦/ ٣٧.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨.

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٣٠.

(٧) أخرجه أحمد (٢٢٦٩٣) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

تعالى: «هنَّ خمسٌ وهُنَّ خمسون، لا يُبَدَّلُ القولُ لَدَيَّ»[١] وهذا نص. فكيف يُقال: افترض عليه صلاةً زائدة على الخمس؟! هذا ما لا يصح، وإن كان قد رُوي عنه عليه الصلاة والسلام: «ثلاثٌ عليَّ فريضةٌ ولأمتي تطوُّعٌ: قيام الليل، والوتر، والسِّواك»[٢]. وقيل: كانت صلاة الليل تطوعاً منه، وكانت في الابتداء واجبةً على الكل، ثم نُسِخَ الوجوبُ، فصار قيامُ الليل تطوعاً بعد فريضة[٣]، كما قالت عائشة، على ما يأتي مبيَّناً في سورة «المُزَّمِّل»[٤] إن شاء الله تعالى. وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب ويكون الخطاب للنبيِّ ﷺ[٥]؛ لأنه مغفورٌ له، فهو إذا تطوَّع بما ليس بواجبٍ عليه كان ذلك زيادةً في الدرجات، وغيره من الأمة تطوُّعهم كفاراتٌ وتداركٌ لخللٍ يقع في الفرض. قال معناه مجاهد وغيره[٦].

وقيل: عطية؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاءً أفضلَ من التوفيق في العبادة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ اختُلِفَ في المقام المحمود على أربعة أقوال:

الأوّل ـ وهو أصحها ـ الشفاعةُ للناس يوم القيامة. قاله حُذيفة بن اليمان[٧]. وفي «صحيح البخاري» عن ابن عمر قال: إنَّ الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً كلُّ أمةٍ تتبع نبيَّها تقول: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيِّ ﷺ، فذلك يومَ يبعثه الله

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر ﷺ. وأخرجه عبد الله بن أحمد في زياداته على المسند (٢١٢٨٨) من حديث أبي بن كعب ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٢٩٠)؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٤ : فيه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، وهو كذاب.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٢٩ .

(٤) عند المسألة السادسة من تفسير الآيات (١-٤) منها.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٣٠ بمعناه.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٦٥ .

المقامَ المحمود[١]. وفي «صحيح مسلم» عن أنسٍ قال: حدَّثنا محمدٌ ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامة ماجَ الناسُ بعضُهم إلى بعض، فيأتون آدمَ فيقولون له: اشفَعْ لذرِّيتِك. فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليلُ الله، فيأتون إبراهيمَ فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله. فيُؤتى موسى فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمتُه. فيؤتى عيسى فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بمحمدٍ ﷺ. فأُوتَى فأقول: أنا لها» وذكر الحديث[٢]. وروى الترمِذيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ سئل عنها قال: «هي الشفاعة» قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٣].

الرابعة: إذا ثبت أنَّ المقام المحمود هو أمرُ الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهي الأمر إلى نبيِّنا محمدٍ ﷺ، فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف، ليعجِّل حسابهم ويُراحوا من هول موقفهم، وهي الخاصة به ﷺ، ولأجل ذلك قال: «أنا سيدُ ولد آدم ولا فخر». قال النقاش: لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعةٌ في السبق إلى الجنة، وشفاعةٌ في أهل الكبائر. ابن عطية: والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء[٤].

وقال القاضي أبو الفضل عِياض: شفاعات نبيِّنا ﷺ يوم القيامة خمسُ شفاعات: العامة. والثانية في إدخال قومٍ الجنةَ دون حساب. الثالثة في قومٍ من موحِّدي أمته استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع فيهم نبيُّنا ﷺ ومَن شاء اللهُ أن يشفع، ويدخلون الجنة ـ وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم

---

(١) صحيح البخاري (٤٧١٨).

(٢) صحيح مسلم (١٩٣). وأخرجه البخاري (٧٥١٠).

(٣) سنن الترمذي (٣١٣٧). وأخرجه أحمد (٩٧٣٥).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨ - ٤٧٩ . وحديث: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» سلف ٤/ ٢٥٤ و ٥/ ١٢٩ .

الفاسدة، وهي الاستحقاق العقليُّ المبنيُّ على التحسين والتقبيح ـ الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين، فيخرجون بشفاعة نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم المؤمنين. الخامسة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأوّل.

الخامسة: قال القاضي عياض: وعُرِفَ بالنقل المستفيض سؤالُ السلف الصالح لشفاعة النبيِّ ﷺ ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يُلتفت لقول من قال: إنه يكره أن تسأل اللهَ أن يرزقك شفاعة النبيِّ ﷺ؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين، فإنها قد تكون كما قدَّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كلُّ عاقلٍ معترفٌ بالتقصير محتاجٌ إلى العفو، غيرُ معتدٍّ بعمله، مشفقٌ أن يكون من الهالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضاً، وهذا كلُّه خلاف ما عُرِفَ من دعاء السلف والخلف[(١)].

روى البخاريُّ عن جابر بن عبد الله، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداءَ: اللهمَّ ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمداً ـ ﷺ ـ الوسيلةَ والفضيلة، وابعَثْه مقاماً محموداً الذي وعدْتَه، حلَّت له شفاعتي يوم القيامة»[(٢)].

القول الثاني ـ أنَّ المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة[(٣)].

قلت: وهذا القول لا تنافُرَ بينه وبين الأوّل؛ فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع. روى الترمذيُّ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامة ولا فخر، وبيدي لواءُ الحمدِ ولا فخر، وما من نبيٍّ يومئذٍ آدمَ فمن سواه إلا تحت لوائي» الحديث[(٤)].

---

(١) إكمال المعلم ١/ ٥٦٦ .

(٢) صحيح البخاري (٦١٤). وأخرجه أحمد (١٤٨١٧).

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٦٦ .

(٤) سنن الترمذي (٣١٤٨).

القول الثالث ـ ما حكاه الطبريُّ عن فرقة ـ منها مجاهد ـ أنها قالت: المقام المحمود هو أن يُجلِسَ اللهُ تعالى محمداً ﷺ معه على كرسيه. ورَوَتْ في ذلك حديثاً[١]. وعَضَدَ الطبريُّ جوازَ ذلك بشططٍ من القول، وهو لا يخرج إلا على تلطُّفٍ في المعنى، وفيه بُعْدٌ. ولا يُنْكَر مع ذلك أن يروى، والعلم يتأوَّله. وذكر النقَّاش عن أبي داود السِّجسْتَانيّ أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا مُتَّهَم، ما زال أهل العلم يتحدَّثون بهذا، من أنكر جوازه على تأويله[٢]. قال أبو عمر: ومجاهدٌ وإن كان أحدَ الأئمة بتأوُّلِ القرآن، فإنَّ له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا، والثاني في تأويل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] قال: تنتظر الثواب؛ ليس من النظر[٣].

قلت: ذكر هذا في باب: ابنُ شهاب في حديث التنزيل. ورُوي عن مجاهدٍ أيضاً في هذه الآية قال: يُجلِسه على العرش[٤]. وهذا تأويلٌ غير مستحيل؛ لأنَّ الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلَّها والعرشَ قائماً بذاته، ثم خلق الأشياء من غير حاجةٍ إليها، بل إظهاراً لقدرته وحكمته، وليُعرف وجودُه وتوحيدُه وكمالُ قدرته وعلمُه بكلِّ أفعاله المحكمة، وخلق لنفسه عرشاً استوى عليه كما شاء من غير أن صار له مماسًّا، أو كان العرش له مكاناً. قيل: هو الآن على الصفة التي كان عليها من قبل أن يُخلَقَ المكانُ والزمان، فعلى هذا القول سواءٌ في الجواز أقعَدَ محمدٌ على العرش أو على

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٣ ، والخلال في السنة (٢٣٦ و ٢٣٧ و ٢٣٨ و ٣٠٧ و ٣٠٨ و ٣٠٩) من طريق سيف السدوسي، عن عبد الله بن سلام قال: إن محمداً ﷺ يوم القيامة على كرسيِّ الرب بين يدي الربِّ تبارك وتعالى. سيف السدوسي لم نقف له على ترجمة، لكن البخاري قال في التاريخ الكبير ٤/ ١٥٨ : لا يُعرف لسيف سماعٌ من عبد الله بن سلام.

(٢) من بداية القول إلى هذا الموضع في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٩ . وينظر كلام الطبري في تفسيره ١٥/ ٥١ - ٥٤ .

(٣) التمهيد ٧/ ١٥٧ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٤٣٦ ، والطبري ١٥/ ٤٧ ، والخلال (٢٤١ و ٢٤٤ و ٢٤٦ و ٢٦٧ و ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٩٦ و ٢٩٨ و ٣٠١).

الأرض؛ لأنَّ استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التي تشغل العرش، بل هو مستوٍ على عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كَيْفٍ. وليس إقعادُه محمداً على العرش موجِباً له صفةَ الربوبية أو مُخرجاً له عن صفة العبودية، بل هو رفعٌ لمحلِّه وتشريفٌ له على خلقه. وأما قوله في الإخبار: «معه» فهو بمنزلة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، و﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] ونحو ذلك. كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحُظْوة والدرجة الرفيعة، لا إلى المكان[١].

الرابع ـ إخراجه من النار بشفاعته من يخرج. قاله جابر بن عبد الله. ذكره مسلم[٢]. وقد ذكرناه في كتاب التذكرة[٣] والله الموفق.

السادسة: اختلف العلماء في كون القيام بالليل سبباً للمقام المحمود على قولين: أحدهما ـ أنَّ الباريَ تعالى يجعل ما شاء من فعله سبباً لفضله من غير معرفةٍ بوجه الحكمة فيه، أو بمعرفة وجه الحكمة. الثاني ـ أنَّ قيام الليل فيه الخلوة مع الباري والمناجاة دون الناس، فأعطى الخلوَة به ومناجاته في قيامه وهو المقام المحمود، ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم، فأجلُّهم فيه درجةً محمدٌ ﷺ؛ فإنه يُعْطَى ما لا يُعطى أحدٌ، ويشفع ما لا يشفع أحد[٤]. و«عسى» من الله عزَّ وجلَّ واجبة. و«مَقاماً» نصب على الظرف[٥]. أي: في مقام أو إلى مقام. وذكر الطبري عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «المقام المحمود هو المقام الذي أشفَعُ فيه لأمتي»[٦]. فالمقام

---

(١) هذا تأويل غير صحيح، والصواب إثبات صفة العِندية لله عز وجل، واستحقاق بعضِ أشراف مخلوقاته مكاناً عنده، والله أعلم.

(٢) في صحيحه (١٩١).

(٣) ص٢٤٨ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١١ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٩ .

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٤٧ – ٤٨ . وأخرجه أحمد (٩٦٨٤).

الموضع الذي يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدي الملوك.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾

قيل: المعنى: أمِتْني إماتةَ صدق، وابعثني يوم القيامة مَبعثَ صدق[١]؛ ليتصل بقوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو ليُنْجِز له الوعد. وقيل: أدخلني في المأمور وأخرجني من المنهيّ[٢]. وقيل: علَّمه ما يدعو به في صلاته وغيرها من إخراجه من بين المشركين وإدخاله موضع الأمن، فأخرجه من مكة وصيَّره إلى المدينة[٣]. وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال: كان النبيُّ ﷺ بمكة ثم أُمِرَ بالهجرة، فنزلت: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح[٤]. وقال الضحَّاك: هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمناً[٥]. أبو سهل: حين رجع من تبوك وقد قال المنافقون: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨] يعني: إدخال عزٍّ وإخراج نصرٍ إلى مكة.

وقيل: المعنى: أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوَّة مدخل صدقٍ، وأخرجني منه مخرج صدقٍ إذا أمَتَّني. قال معناه مجاهد[٦]. والمدخل والمخرج - بضمِّ الميم - بمعنى الإدخال والإخراج، كقوله: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون:٢٩] أي:

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٥٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٦٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٣٢ .

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٥٤ بمعناه.

(٤) سنن الترمذي (٣١٣٩) من طريق قابوس أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس. وأخرجه كذلك أحمد (١٩٤٨)، والحاكم ٣/ ٣ وصححه، لكن الذهبي ضعَّفه بقابوس.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٦٦ ، وأخرجه الطبري ١٥/ ٥٧ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٣٢ .

إنزالاً لا أرى فيه ما أكره[١]. وهي قراءةُ العامة. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم: «مَدخل» و«مخرج» بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج[٢]؛ فالأوّل رباعي وهذا ثلاثي. وقال ابن عباس: أدخلني القبر مدخلَ صدق عند الموت وأخرجني مخرج صدق عند البعث[٣]. وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق، أي: لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه؛ فإنَّ ذا الوجهين لا يكون وجيهاً عندك[٤]. وقيل: الآية عامةٌ في كل ما يُتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال، ويُنتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة. فهي دعاء، ومعناه: ربِّ أصلِحْ لي وِرْدِي في كل الأمور وصَدَرِي[٥]. وقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ قال الشَّعبيُّ وعكرمة: أي: حجةً ثابتة. وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين كله[٦]. قال: فوعده الله لَيَنْزِعنَّ مُلك فارس والروم وغيرها فيجعله له[٧].

قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: روى البخاريُّ والترمذيُّ عن ابن مسعودٍ قال: دخل النبيُّ ﷺ مكةَ عام الفتح وحول الكعبة ثلاث مئةٍ وستون نُصُباً، فجعلَ النبيُّ ﷺ يطعنها بِمِخصَرةٍ في يده ـ وربما قال: بعود ـ ويقول: «جاء الحقُّ وزهق الباطلُ، إنَّ الباطلَ كان زهوقاً، جاء

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٣٣.

(٢) إتحاف فضلاء البشر ص٣٦٠ عن الحسن، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٠ عن أبي حيوة وقتادة وحميد، وهي قراءة شاذة.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٦٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٣٢.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٩.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٦.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٣٢. وأخرجه الطبري ١٥/ ٥٨.

الحقُّ وما يُبدئ الباطلُ وما يعيد» لفظ الترمذيِّ. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[١]. وكذا في حديث مسلم: «نُصُباً». وفي رواية: «صنماً»[٢]. قال علماؤنا: إنما كانت بهذا العدد؛ لأنهم كانوا يُعظِّمون في يومٍ صنماً ويخصُّون أعظمَها بيومين. وقوله: «فجعل يطعنها بعودٍ في يده» يقال: إنها كانت مثبتةً بالرَّصاص، وأنه كلما طعن منها صنماً في وجهه خرَّ لقفاه، أو في قفاه خرَّ لوجهه، وكان يقول: «جاء الحقُّ وزهَقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهوقاً» حكاه أبو عمر[٣] والقاضي عِياض. وقال القشيريُّ: فما بقي منها صنمٌ إلا خرَّ لوجهه، ثم أَمَر بها فكُسِرت.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على كسر نُصب المشركين وجميع الأوثان إذا غُلب عليهم، ويدخل بالمعنى كسرُ آلة الباطل كلِّه، وما لا يصلح إلا لمعصية الله، كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى قال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام الصُّوَرُ المتَّخَذةُ من المَدَر والخشب وشبهها، وكلُّ ما يتَّخذه الناسُ ممَّا لا منفعةَ فيه إلا اللهوَ المنهيَّ عنه. ولا يجوز بيع شيءٍ منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص، إذا غُيِّرت عما هي عليه وصارت تُشرَح نُقراً[٤] أو قطعاً فيجوز بيعها والشِّراء بها. قال المهلَّب: وما كُسِرَ من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسرها منفعةٌ فصاحبها أَوْلَى بها مكسورة، إلا أن يرى الإمام حَرْقَها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال.

وقد تقدَّم حرق ابن عمر ﷺ[٥]. وقد همَّ النبيُّ ﷺ بتحريق دُورِ من تخلَّفَ عن صلاة الجماعة[٦]. وهذا أصلٌ في العقوبة في المال مع قوله عليه السلام في الناقة

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٧٨)، وسنن الترمذي (٣١٣٨). وأخرجه أحمد (٣٥٨٤).

(٢) صحيح مسلم (١٧٨١).

(٣) في الدرر في اختصار المغازي والسير ٢/ ٢٦٢ .

(٤) أي: مُذابةً. تهذيب اللغة ٩/ ٨٩ .

(٥) كذا في النسخ، والذي سلف ٥/ ٣٩٤ أن الذي حرق هو الوليد بن هشام.

(٦) سلف ٤/ ١٧٩ .

التي لعنَتْها صاحبتُها: «دعوها فإنَّها ملعونة»[١] فأزال ملكها عنها تأديباً لصاحبتها، وعقوبةً لها فيما دعَتْ عليه بما دعَتْ به. وقد أراق عمر بن الخطاب ﷺ لَبَناً شِيبَ بماءٍ على صاحبه[٢].

الثالثة: ما ذكرنا من تفسير الآية يُنظر إلى قوله ﷺ: «والله لينزِلنَّ عيسى بنُ مريم حكماً عادلاً، فَلَيَكْسِرَنَّ الصليبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الخنزيرَ وَلَيَضَعنَّ الجِزْية وَلَتُتْرَكَنَّ القِلاصُ فلا يُسعى عليها» الحديث. خرَّجه الصحيحان[٣]. ومن هذا الباب هَتْكُ النبيِّ ﷺ الستر الذي فيه الصور، وذلك أيضاً دليلٌ على إفساد الصور وآلات الملاهي كما ذكرنا. وهذا كلُّه يحظر المنع من اتخاذها ويوجب التغيير على صاحبها. إن أصحاب هذه الصور يُعذَّبون يوم القيامة ويُقال لهم: أحيوا ما خلقتم، وحسبك! وسيأتي هذا المعنى في «النمل»[٤] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلام. وقيل: القرآن. قاله مجاهد. وقيل: الجهاد. ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ قيل: الشرك. وقيل: الشيطان. قاله مجاهد. والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التفسير: جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه[٥]. ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: بطل الباطل[٦]. ومن هذا زُهوقُ النفس وهو بطلانها. يقال: زَهَقَتْ نفسُه تَزهَق زُهوقاً، وأزهقتُها[٧]. ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: لا بقاءَ له، والحقُّ الذي يثبت[٨].

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٨٧٠)، ومسلم (٢٥٩٥) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٢) سلف ٥/ ٣٩٦.

(٣) لم يخرجه البخاري، وإنما خرجه مسلم (١٥٥): (٢٤٣)، وقد سلف ٥/ ١٥٥.

(٤) ١٧/ ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٠.

(٦) مجمع البيان ١٥/ ٨٩.

(٧) ينظر تهذيب اللغة ٥/ ٣٩٢.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٧.

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ قرأ الجمهور بالنون[١]. وقرأ مجاهد: «ويُنْزِل» بالياء خفيفة، ورواها المروزيُّ عن حفص[٢]. و«مِن» لابتداء الغاية، ويصحُّ أن تكون لبيان الجنس؛ كأنه قال: وننزل ما فيه شفاء من القرآن. وفي الخبر: «من لم يَسْتَشْفِ بالقرآن فلا شفاه الله»[٣]. وأنكر بعض المتأولين أن تكون «مِن» للتبعيض؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه أنَّ بعضَه لا شفاء فيه. ابن عطية: وليس يلزمه هذا، بل يصِحُّ أن تكون للتبعيض بحسب أنَّ إنزاله إنما هو مُبعَّض، فكأنَّه قال: وننزل من القرآن شيئاً شفاءً، ما فيه كلُّه شفاء.

الثانية: اختلف العلماء في كونه شفاءً على قولين: أحدهما ـ أنه شفاءٌ للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الرِّيب، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى. الثاني ـ شفاءٌ من الأمراض الظاهر بالرُّقَى والتعوُّذ ونحوه[٤]. وقد روى الأئمة ـ واللفظ للدارقطنيِّ ـ عن أبي سعيد الخُدْريِّ قال: بعثَنا رسول الله ﷺ في سَرِيَّةٍ ثلاثين راكباً. قال: فنزلنا على قومٍ من العرب فسألناهم أن يُضيفونا فأبَوْا. قال: فلُدِغَ سيدُ الحيِّ، فأتونا فقالوا: فيكم أحدٌ يَرْقي من العقرب؟ ـ في رواية ابن قَتَّة: إنَّ الملِكَ يموت ـ قال: قلتُ أنا: نعم، ولكن لا أفعل

---

(١) وتشديد الزاي، وقرأ أبو عمرو ويعقوب: «ونُنْزِلُ» بالنون وتخفيف الزاي. إتحاف فضلاء البشر ص٣٦٠، والنشر ٢/ ٣٠٨.

(٢) وهي قراءة شاذة، والمشهور عن حفص بمثل قراءة الجمهور.

(٣) عزاه في كنز العمال (٢٨١٠٦) إلى الدارقطني في الأفراد، وأورده الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار ٢/ ٢٨٨ وعزاه إلى الثعلبي وساق إسناده من طريق أحمد بن الحارث الغساني، عن ساكنة بنت الجعد، عن رجاء الغنوي مرفوعاً. أحمد بن الحارث الغساني متروك، وساكنة بنت الجعد مجهولة. الميزان ١/ ٨٨ و ٢/ ٤٤. وقال ابن عبد البر في الاستيعاب ص٢٣٧: رجاء الغنوي لا يصح حديثه ولا تصح له صحبة.

(٤) من بداية المسألة الأولى إلى هذا الموضع ـ دون ذكر الحديث ـ في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٠.

حتى تعطونا. فقالوا: فإنا نُعطيكم ثلاثين شاةً. قال: فقرأت عليه: «الحمد لله ربِّ العالمين» سبعَ مرات، فبرَأ. ـ في رواية سليمان بن قَتَّة عن أبي سعيد: فأفاقَ وبرَأ ـ فبعث إلينا بالنُّزل، وبعث إلينا بالشاء، فأكلنا الطعام أنا وأصحابي، وأبَوْا أن يأكلوا من الغنم، حتى أتينا رسول الله ﷺ فأخبرتُه الخبر، فقال: «وما يُدريكَ أنَّها رُقية» قلت: يا رسول الله، شيءٌ أُلقي في رُوعِي. قال: «كلوا وأطعمونا من الغنم» خرَّجه في كتاب السنن[١]. وخرَّج في كتاب «المُدَبَّج»[٢] من حديث السَّرِيِّ بن يحيى قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن ليث بن أبي سُليم، عن الحسن، عن أبي أُمامة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينفَعُ بإذن الله تعالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسُّلِّ والحُمَّى والنَّفْس أن تُكتبَ بزعفرانٍ أو بِمشْقٍ ـ يعني المَغْرة ـ أعوذ بكلمات الله التامة، وأسمائه كلِّها عامةً، من شرِّ السَّامَّة والغامَّة، ومن شرِّ العين اللامَّة، ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسد، ومن أبي فَروةَ وما ولد». كذا قال، ولم يقُلْ: من شرِّ أبي قِترة[٣]. العين اللامَّة: التي تصيب بسوء. تقول: أُعِيذه من كلِّ هامَّةٍ لامَّةٍ. وأما قوله: أُعيذه من حادثات اللَّمة فيقول: هو الدهر. ويقال: الشدة. والسَّامَّة: الخاصَّة. يقال: كيف السَّامَّة والعامة. والسَّامَّة: السُّمّ. ومن أبي فروة وما ولد. وقال: «ثلاثةٌ وثلاثون من الملائكة أتَوْا ربَّهم عزَّ وجلَّ فقالوا: وَصَبٌ بأرضنا. فقال: خذوا تربةً من أرضكم فامسحوا نواصيَكم ـ أو قال: بِوَصَبِكم[٤] ـ رقية محمدٍ ﷺ، لا أفلَحَ من كتمها أبداً،

(١) سنن الدارقطني (٣٠٣٤) و(٣٠٣٥) من طريق أبي نضرة، و(٣٠٣٦) من طريق أبي المتوكل، و(٣٠٣٧) من طريق سليمان بن قتة، ثلاثتهم عن أبي سعيد الخدري، به. وأخرجه أحمد (١١٠٧٠) من طريق أبي نضرة، و(١١٤٧٢) من طريق سليمان بن قتة، و(١٠٩٨٥)، والبخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١) من طريق أبي المتوكل.

(٢) تصحف في (م) إلى المديح. وقد سلف اسمه على الصواب ٨/ ٦١ . والحديث المدبَّج: هو أن يروي أحد القرينين عن الآخر، ولا يروي الآخر عنه. مقدمة ابن الصلاح ص٣١٠ .

(٣) وهي كنية إبليس. العين (قتر).

(٤) في (م): نوصيكم، وهو خطأ. والوصب: المرض. الصحاح (وصب).

أو أخذَ عليها صَفَداً»[١]. ثم يكتبُ فاتحةَ الكتابِ وأربعَ آياتٍ من أول البقرة، والآيةَ التي فيها تصريفُ الرياح، وآيةَ الكرسي، والآيتين اللتين بعدها، وخواتيمَ سورة البقرة من موضع ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخرها، وعشراً من أوَّل آل عمران، وعشراً من آخرها، وأوَّلَ آيةٍ من النساء، وأوَّلَ آيةٍ من المائدة، وأوَّلَ آيةٍ من الأنعام، وأوَّلَ آيةٍ من الأعراف، والآيةَ التي في الأعراف [٥٤]: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ حتى تختم الآية، والآية التي في يونس [٨١] من موضع ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، والآيـةَ التـي فـي طه [٦٩] ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، وعشراً من أوَّلِ الصافات، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمعوِّذَتين. تُكتبُ في إناءٍ نظيفٍ، ثم تُغسَلُ ثلاثَ مراتٍ بماءٍ نظيفٍ، ثم يحثو منه الوَجِعُ ثلاثَ حَثَواتٍ، ثم يتوضَّأُ منه كوضوئه للصلاة، ويتوضَّأُ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على طهر قبل أن يتوضأ به، ثم يصُبُّ على رأسه وصدره وظهره ولا يستنجي به، ثم يُصلي ركعتين، ثم يستشفي اللهَ عزَّ وجلَّ، يفعل ذلك ثلاثة أيام، قدر ما يكتب في كلِّ يومٍ كتاباً[٢]. ـ في رواية: ومن شرِّ أبي قِتْرة وما ولد ـ وقال: «فامسحوا بِوَصَبِكم»[٣] ولم يشك[٤].

وروى البخاريُّ عن عائشة، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَنْفِثُ على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوِّذات، فلما ثَقُلَ كنتُ أنفُثُ عليه بهنَّ، وأمسَحُ بيد نفسِه لبركتها. فسألت

(١) أي: عطاءً. الصحاح (صفد).

(٢) في إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف. الميزان ٣/ ٤٢٠ - ٤٢١. والحسن لم يثبت سماعه من أبي أمامة.

(٣) المثبت من (ز) ومن المصادر، وفي بقية النسخ: نواصيكم.

(٤) وقد أخرج هذه الرواية ـ بالمرفوع منها فقط ـ أبو يعلى (٢٤١٦)، والطبراني في الأوسط (٦٠٨٩)، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٨٧) من طريق معتمر، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي فزارة، عن سعيد بن جبير أو مقسم، عن ابن عباس مرفوعاً. وفي رواية أخرى لأبي يعلى (٢٤١٧): عن أبي فزارة، عن مقسم، عن سعيد، عن ابن عباس، وفي رواية لابن أبي الدنيا: عن أبي فزارة، عن مقسم، عن ابن عباس. قلنا: ومدار الإسناد على ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف كما تقدم آنفاً.

الزُّهريَّ كيف كان ينفِثُ؟ قال: كان يَنْفِثُ على يديه ثم يمسَحُ بهما وجهَه[١]. وروى مالك عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة، أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه المعوِّذتين وتَفَل أو نَفَث[٢]. قال أبو بكر بن الأنباري: قال اللغويون: تفسير «نفث» نفخ نفخاً ليس معه ريق. ومعنى «تَفَل» نفخ نفخاً معه ريق[٣]. قال الشاعر:

فـإن يَـبْـرأْ فـلـم أنْـفِـثْ عـلـيـهِ ... وإن يُـفْـقَـدْ فَـحُـقَّ لـه الـفُـقـودُ[٤]

وقال ذو الرُّمَّة:

ومِن جَوْفِ ماءٍ عَرْمَضُ الحَولِ فوقَهُ ... متى يَحْسُ منه مائحُ القوم يَتْفُلِ[٥]

أراد: ينفخ بريق. وسيأتي ما للعلماء في النفث في سورة الفلق إن شاء الله تعالى.

الثالثة: روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يكره الرُّقى إلا بالمعوِّذات[٦]. قال الطبري: وهذا حديثٌ لا يجوز الاحتجاج بمثله في الدِّين؛ إذ في نقَلَتِه من لا يُعرف. ولو كان صحيحاً لكان إما غلطاً وإما منسوخاً؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في الفاتحة «ما أدراك أنها رُقية». وإذا جاز الرُّقى بالمعوِّذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلَهما في الجواز؛ إذ كلُّه قرآن. وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «شفاءُ أمتي في ثلاثٍ: آيةٍ من كتاب الله، أو لعقةٍ من عسل، أو شرطةٍ من مِحجم»[٧]. وقال رجاء الغَنَوِيُّ: ومن لم يستشْفِ بالقرآن فلا شفاءَ له[٨].

---

(١) صحيح البخاري (٥٧٣٥)، والسائل الذي سأل الزهري هو معمر بن راشد الراوي عنه. فتح الباري ١٠/ ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) الموطأ ٢/ ٩٤٢ - ٩٤٣ . وأخرجه من طريقه أحمد (٢٤٧٢٨)، والبخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢): (٥١).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ٩/ ٢٧٥ .

(٤) قائله عنترة، وهو في ديوانه ص٤٢ .

(٥) ديوان ذي الرمة ٣/ ١٤٨٧ . وقال شارحه: الجوف: المطمئن من الأرض. والعرمَضُ: الخضرة على رأس الماء، وعرمضُ الحولِ: أتى عليه حولٌ. والمائح: الذي يغرف بيده.

(٦) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٥٧٣).

(٧) سلف ١٢/ ٣٧١ .

(٨) سلف قريباً في الصفحة ١٥٦ مرفوعاً، ولا يصح.

الرابعة: واختلف العلماء في النُّشْرة، وهي أن يكتب شيئاً من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالماء، ثم يمسح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيِّب؛ قيل له: الرجلُ يؤخَذُ عن امرأته، أيُحَلُّ عنه ويُنْشر؟ قال: لا بأس به، وما ينفع لم يُنْهَ عنه[1]. ولم يَرَ مجاهدٌ أن تُكتبَ آياتٌ من القرآن، ثم تُغسَلَ، ثم يُسقاه صاحبُ الفزع. وكانت عائشة تقرأ بالمعوِّذتين في إناءٍ، ثم تأمر أن يُصبَّ على المريض[2]. وقال المازَرِيُّ أبو عبد الله: النُّشرةُ أمرٌ معروفٌ عند أهل التعزيم، وسُمّيت بذلك لأنها تنشر عن صاحبها، أي: تَحُلُّ. ومنعها الحسن[3] وإبراهيم النَّخعيُّ؛ قال النَّخَعِيُّ: أخاف أن يصيبه بلاء. وكأنه ذهب إلى أنه ما يجيء به القرآن فهو إلى أن يعقب بلاءً أقربَ منه، إلى أن يفيد شفاءً. وقال الحسن: سألتُ أَنساً فقال: ذكروا عن النبيِّ ﷺ أنها من الشيطان[4]. وقد روى أبو داود من حديث جابر بن عبد الله قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن النُّشْرة فقال: «من عمل الشيطان»[5]. قال ابن عبد البر: وهذه آثارٌ لينةٌ ولها وجوهٌ مُحتمِلة[6]، وقد قيل: إنَّ هذا محمولٌ على ما إذا كانت خارجةً عما في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وعن المداواة المعروفة. والنُّشرة من جنس الطب[7]. فهي غُسالةُ شيءٍ له فضل، فهي كوضوء رسول الله ﷺ.

---

(١) المفهم ٥/ ٥٩٠ .

(٢) أخرجهما ابن أبي شيبة ٨/ ٢٨ .

(٣) المفهم ٥/ ٥٩٠ .

(٤) أخرجه البزار «كشف الأستار» (٣٠٣٤)، والحاكم ٤/ ٤١٨ من طريق مسكين بن بكير، عن أبي رجاء، عن الحسن، به موصولاً.

وأخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٢٩ ، وأبو داود في المراسيل (٤٥٣) من طرق عن شعبة، عن أبي رجاء، عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلاً.

ورجح المرسل أبو حاتم فيما نقل عنه ابنه في العلل ٢/ ٢٩٥ ، لكن يشهد له حديث جابر الآتي.

(٥) سنن أبي داود (٣٨٦٨)، وأخرجه أحمد (١٤١٣٥).

(٦) التمهيد ٥/ ٢٧٣ .

(٧) المفهم ٥/ ٥٩٠ .

وقال ﷺ: «لا بأس بالرُّقَى ما لم يكن فيه شرك» و«منِ استطاعَ منكم أن ينفعَ أخاه فليفعَلْ»[١].

قلتُ: قد ذكرنا النصَّ في النُّشرة مرفوعاً، وأنَّ ذلك لا يكون إلا من كتاب الله، فَلْيُعتمدْ عليه.

الخامسة: قال مالك: لا بأسَ بتعليق الكتب التي فيها أسماءُ الله عزَّ وجلَّ على أعناق المرضى على وجه التبرُّكِ بها، إذا لم يُرِدْ معلِّقُها بتعليقها مُدافعةَ العين. وهذا معناه قبل أن ينزل به شيءٌ من العين. وعلى هذا القول جماعةُ أهل العلم، لا يجوز عندهم أن يُعلَّق على الصحيح من البهائم أو بني آدم شيءٌ من العلائق خوفَ نزول العين، وكلُّ ما يُعلَّقُ بعد نزول البلاء من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ وكتابِه رجاءَ الفرج والبُرْء من الله تعالى، فهو كالرُّقَى المباحِ الذي وردت السُّنَّةُ بإباحتِه من العين وغيرها[٢].

وقد روى عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فَزِعَ أحدُكم في نومه فليقُلْ: أعوذُ بكلماتِ الله التامَّةِ غضبِه وسوءِ عقابه، ومن شرِّ الشياطين وأن يَحْضُرون» وكان عبدُ الله يُعلِّمها ولدَه مَنْ أدركَ منهم ومَنْ لم يُدرِكْ، كتبها وعلَّقها عليه[٣]. فإن قيل: فقد رُويَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «من علَّقَ شيئاً وُكِلَ إليه»[٤]، ورأى ابنُ مسعودٍ على أمِّ ولده تميمةً مربوطةً، فجَبذَها جَبْذاً شديداً فقطعها، وقال: إنَّ آلَ ابنِ مسعودٍ لأغنياءُ عن الشِّرك، ثم قال: إنَّ التمائم والرُّقى والتِّوَلَةَ من الشِّرك. قيل: ما التِّوَلَة؟ قال: ما تحبَّبت به لزوجها[٥]. ورُويَ عن عقبة بن عامر الجُهنيِّ قال:

(١) الحديث الأول أخرجه مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك ﷺ، والثاني أخرجه مسلم أيضاً (٢١٩٩) عن جابر بن عبد الله ﷺ.

(٢) التمهيد ١٧/ ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٩٦)، وأبو داود (٣٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (١٨٧٨١)، والترمذي (٢٠٧٢) من حديث عبد الله بن عكيم.

(٥) أخرجه أحمد (٣٦١٥)، وأبو داود (٣٨٨٣) دون قوله: ما التولة...

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من علَّق تميمةً فلا أتَمَّ اللهُ له، ومن علَّق وَدَعةً فلا وَدَّعَ الله له»[١]. قلنا[٢]: قال الخليل بن أحمد: التميمة: قِلادةٌ فيها عُوَذٌ، والوَدَعة: خرزٌ. وقال أبو عمر: التميمة في كلام العرب: القِلادة، ومعناه عند أهل العلم: ما عُلِّقَ في الأعناق من القلائد خشيةَ العين أو غيرها أن تنزل أو لا تنزل قبل أن تنزل. فلا أتمَّ اللهُ عليه صحَّتَه وعافيتَه، ومن تعلَّق وَدَعةً ـ وهي مثلها في المعنى ـ فلا ودَعَ الله له، أي: فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية. والله أعلم. وهذا كلُّه تحذيرٌ مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمائم والقلائد، ويظنون أنها تقيهم وتصرِف عنهم البلاء، وذلك لا يصرفه إلا اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو المعافي والمبتلي، لا شريك له. فنهاهم رسول الله ﷺ عما كانوا يصنعون من ذلك في جاهليتهم. وعن عائشة قالت: ما تعلَّقَ بعد نزول البلاء فليس من التمائم. وقد كره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كلِّ حالٍ قبل نزول البلاء وبعده. والقولُ الأوَّلُ أصحُّ في الأثر والنظر إن شاء الله تعالى[٣].

وما رُويَ عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كرِه تعليقَه غيرَ القرآن أشياءَ مأخوذةً عن العرَّافين والكُهَّان؛ إذ الاستشفاء بالقرآن مُعلَّقاً وغيرَ مُعلَّقٍ لا يكون شِرْكاً، وقوله عليه الصلاة والسلام: «من علَّق شيئاً وُكِلَ إليه» فمن علَّق القرآن ينبغي أن يتولَّاه اللهُ ولا يَكِلَه إلى غيره؛ لأنه تعالى هو المرغوبُ إليه والمُتوكَّلُ عليه في الاستشفاء بالقرآن. وسُئِلَ ابنُ المسيِّب عن التعويذ: أيُعلَّق؟ قال: إذا كان في قصبةٍ أو رقعةٍ يُحرَزُ فلا بأس به. وهذا على أن المكتوب قرآن. وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأساً أن يُعلِّقَ الرجلُ الشيءَ من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط. ورخَّصَ أبو جعفر محمد بن عليّ في التعويذ يُعلَّقُ على الصبيان. وكان ابن سِيرين لا يرى بأساً

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٤). ونصَّ السندي على أن كلمة «وَدَّعَ» ضُبطت بالتشديد.

(٢) في (م): قلباً. واعتُبرت هناك على أنها من الحديث!

(٣) التمهيد ١٧/ ١٦٢ - ١٦٤ .

بالشيء من القرآن يُعلِّقه الإنسان[١].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تفريج الكروب، وتطهير العيوب، وتكفير الذنوب، مع ما تفضَّل به تعالى من الثواب في تلاوته؛ كما روى الترمذيُّ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنةٌ، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الٓم حرف، بل ألِفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ ومِيمٌ حرفٌ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[٢]. وقد تقدَّم[٣]. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لتكذيبهم[٤]. قال قتادة: ما جالسَ أحدٌ القرآنَ إلا قام عنه بزيادةٍ أو نقصان، ثم قرأ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية[٥]. ونظير هذه الآية قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. وقيل: شفاءٌ في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خَساراً صفتُهم الإعراضُ عن تدبُّر آياتِ الله والكفران لنعمه. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. ومعنى «نأى بجانبه» أي: تكبر وتباعد. وناء مقلوبٌ منه، والمعنى: بَعُدَ عن القيام بحقوق الله عزَّ وجلَّ؛ يقال: نأى الشيءُ، أي: بَعُدَ[٧]. ونأيتُه ونأيتُ

(١) المنهاج في شعب الإيمان ٢/ ٣٩ .
(٢) سنن الترمذي (٢٩١٠).
(٣) ١/ ١٢ .
(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٦٨ .
(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٣٣ - ١٣٤ ، لكن أخرجه الحاكم ٢/ ٣٦٥ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ١٢٣ عن أويس القرني.
(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٦٨ .
(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٤ بمعناه.

عنه بمعنًى، أي: بَعُدْتُ. وأنأيتُه فانتأى، أي: أبعدتُه فبَعُد. وتناءَوْا تباعدوا. والمُنْتأَى: الموضع البعيد. قال النابغة:

فإنكَ كالليلِ الذي هو مُدْرِكي وإن خِلْتُ أنَّ المُنتأى عنكَ واسِعُ[(١)]

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان: «ناء» مثل باع، الهمزة مؤخرة، وهو على طريقة القلب من نأى، كما يقال: راء ورأى[(٢)]. وقيل: هو من النَّوء وهو النهوض والقيام[(٣)]. وقد يقال أيضاً للوقوع والجلوس: نوء، وهو من الأضداد[(٤)]. وقرئ «ونَئِي» بفتح النون وكسر الهمزة[(٥)]. والعامة: «نأى» في وزن رأى[(٦)]. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي: إذا ناله شدةٌ من فقرٍ أو سقمٍ أو بؤسٍ يئس وقنط؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى[(٧)].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال ابن عباس: ناحيته. وقاله الضحاك. مجاهد: طبيعته. وعنه: حِدَته. ابن زيد: على دينه. الحسن وقتادة: نيَّته. مقاتل: جِبِلَّته. الفراء: على طريقته ومذهبه الذي جُبِل عليه[(٨)]. وقيل: قل كلٌّ يعمل على ما هو أشكَلُ عنده وأَوْلى بالصواب في اعتقاده[(٩)]. وقيل: هو مأخوذٌ من الشَّكْل؛

(١) الصحاح (نأى)، والبيت في ديوان النابغة ـ وهو الذبياني ـ ص٨١ .

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٤ . وينظر السبعة ص٣٨٤ ، والتيسير ص١٤١ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٣٤ .

(٤) اللسان (نوأ).

(٥) وهي قراءة حمزة في روايتي خلاد وأبي عمر عن سليم. السبعة ص٣٨٤ ، والتيسير ص١٤١ .

(٦) المصدر السابق.

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٤ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٨١ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٣٤ .

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨ .

يقال: لستَ على شَكْلي ولا شاكلتي[١]. قال الشاعر:

كلُّ امرئٍ يُشبهه فِعْلُه ما يفعل المرءُ فهو أهلُه[٢]

فالشَّكل هو المثل والنظير والضَّرب، كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨]. والشِّكل (بكسر الشين): الهيئة؛ يُقال: جارية حسنة الشِّكل. وهذه الأقوال كلُّها متقاربة.

والمعنى: أنَّ كلَّ أحدٍ يعمل على ما يُشاكل أصلَه وأخلاقَه التي أَلِفَها[٣]، وهذا ذمٌّ للكافر ومدحٌ للمؤمن. والآية والتي قبلها نزلتا في الوليد بن المغيرة ذكره المهدويُّ.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كلِّ واحدٍ منهم. وقيل: ﴿أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: أسرعُ قبولاً. وقيل: أحسَنُ ديناً.

وحُكيَ أنَّ الصحابةَ رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن، فقال أبو بكر الصديق ﷺ: قرأتُ القرآنَ من أوله إلى آخره فلم أرَ فيه آيةً أرجى وأحسنَ من قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان، ولا يشاكل بالرب إلا الغفران. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: قرأتُ القرآنَ من أوله إلى آخره فلم أرَ فيه آيةً أرجى وأحسنَ من قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر:١-٣] قدَّم غفران الذنوب على قبول التوبة، وفي هذا إشارةٌ للمؤمنين. وقال عثمان بن عفان ﷺ: قرأتُ جميعَ القرآن من أوله إلى آخره فلم أرَ آيةً أحسنَ وأرجى من قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩]. وقال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: قرأتُ القرآنَ من أوله إلى آخره فلم أرَ آيةً أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٠ .

(٢) التمثيل والمحاضرة ص١٧ دون نسبة.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٥٤ .

أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قلت: وقرأتُ القرآنَ من أوله إلى آخره فلم أرَ آيةً أحسنَ وأرجى من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

روى البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ عن عبد الله قال: بينا أنا مع النبيِّ ﷺ في حَرْثٍ وهو متّكئٌ على عَسِيبٍ إذ مَرَّ اليهود، فقال بعضُهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال: ما رابكم[(١)] إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه. فسألوه عن الروح، فأمسكَ النبيُّ ﷺ فلم يرُدَّ عليهم شيئاً، فعلمتُ أنه يوحَى إليه، فقمتُ مقامي، فلما نزل الوحيُ قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لفظ البخاري. وفي مسلم: فأسكتَ النبيُّ ﷺ. وفيه: وما أوتوا[(٢)].

وقد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه أيُّ الروح هو؟ فقيل: هو جبريل. قاله قتادة. قال: وكان ابن عباس يكتمه. وقيل: هو عيسى[(٣)]. وقيل: القرآن، على ما يأتي بيانه في آخر الشُّورى[(٤)]. وقال عليُّ بن أبي طالب: هو مَلَكٌ من الملائكة له سبعون ألف وجه، في كلِّ وجهٍ سبعون ألف لسان، في كلِّ لسانٍ سبعون ألف لغة، يُسبِّحُ الله تعالى بكل تلك اللغات، يخلق الله تعالى من كل تسبيحةٍ مَلَكاً يطير مع الملائكة إلى

(١) من الرَّيب: وهو الشك. النهاية (ريب).

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٤)، وسنن الترمذي (٣١٤١). وأخرجه أحمد (٣٦٨٨).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨١ .

(٤) عند تفسير الآية (٥٢) منها.

يوم القيامة. ذكره الطبريُّ[١]. قال ابن عطية[٢]: وما أظنُّ القولَ يصِحُّ عن عليٍّ ﷺ.

قلت: أسند البيهقيُّ: أخبرنا أبو زكريا، عن أبي إسحاق، أخبرنا أبو الحسن الطرائفي، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن عليِّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ يقول: الروح مَلَك. وبإسناده عن معاوية بن صالح حدَّثني أبو هِران ـ بكسر الهاء ـ يزيد بن سمُرة، عمَّن حدَّثه عن عليِّ بن أبي طالب أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ قال: هو ملَكٌ من الملائكة، له سبعون ألف وجه... الحديث بلفظه ومعناه[٣]. وروى عطاء عن ابن عباس قال: الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه، يسبح الله إلى يوم القيامة. ذكره النحاس[٤]. وعنه: جندٌ من جنود الله لهم أيدٍ وأرجلٌ يأكلون الطعام. ذكره الغَزْنَويُّ. وقال الخطابي: وقال بعضهم: هو ملَكٌ من الملائكة بصفةٍ وضعوها من عِظَمِ الخِلْقة. وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد. وقال أهل النظر منهم: إنما سألوه عن كيفية الرُّوح ومسلكه في بدن الإنسان، وكيف امتزاجُه بالجسمِ واتصالُ الحياة به، وهذا شيءٌ لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ[٥]. وقال أبو صالح: الرُّوح خَلْقٌ كخلق بني آدم وليسوا ببني آدم، لهم أيدٍ وأرجل[٦]. والصحيح الإبهام؛ لقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[٧] أي: هو أمرٌ عظيمٌ

---

(١) في تفسير ١٥/ ٧١ بمثل إسناد البيهقي الآتي، وفيه رجل مبهم. وقال ابن كثير في تفسيره: هذا أثر غريب عجيب.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٢ .

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (٧٨٠) و(٧٨١)، وفي إسناد الأول علي بن أبي طلحة، وهو ضعيف، وهو لم يسمع من ابن عباس. التهذيب ٣/ ١٧١ . وفي إسناد الثاني رجل مبهم.

(٤) في معاني القرآن له ٤/ ١٨٩ .

(٥) أعلام الحديث ٣/ ١٨٧٤ .

(٦) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٧٨٢).

(٧) وقع بعدها في النسخ عبارة: «دليل على خلق الروح»، والظاهر أنها مقحمة؛ إذ لا معنى لها هنا، ثم إنها لم ترد في المصدر الذي نقل منه المصنف.

وشأنٌ كبيرٌ من أمر الله تعالى، مُبْهِماً له وتاركاً تفصيلَه؛ ليعرف الإنسان على القطعِ عَجْزَه عن عِلم حقيقةِ نفسِه مع العلم بوجودها، وإذا كان الإنسان في معرفة نفسِه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقةِ الحقِّ أولى[1]. وحكمةُ ذلك تعجيزُ العقل عن إدراك معرفة مخلوقٍ مجاورٍ له، دلالةً على أنه عن إدراك خالقه أعجَزُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ اختُلِف فيمن خُوطب بذلك؛ فقالت فرقة: السائلون فقط. وقال قوم: المرادُ اليهود بجُملتهم. وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود: «وما أوتوا»[2]، ورواها عن النبيِّ ﷺ. وقالت فرقة: المرادُ العَالم كلُّه. وهو الصحيح، وعليه قراءة الجمهور: «وما أوتيتم». وقد قالت اليهود للنبيِّ ﷺ: كيف لم نُؤتَ من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فعارضهم رسول الله ﷺ بعلم الله فغُلِبوا. وقد نصَّ رسولُ الله ﷺ بقوله في بعض الأحاديث: «كُلًّا» يعني أنَّ المراد بـ «ما أوتيتم» جميع العالم. وذلك أنَّ يهودَ قالت له: نحنُ عَنيتَ أم قَومك؟ فقال: «كُلًّا». وفي هذا المعنى نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]. حكى ذلك الطبريُّ رحمه الله[3] وقد قيل: إنَّ السائلين عن الروح هم قريش، قالت لهم اليهود: سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فإن أخبركم عن اثنين وأمسكَ عن واحدةٍ فهو نبيٌّ. فأخبرهم خبرَ أصحاب الكهف وخبرَ ذي القرنين على ما يأتي. وقال في الروح: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله. ذكره المهدويُّ وغيرُه من المفسِّرين عن ابن عباس[4].

---

(١) المفهم ٧/ ٣٥٦ - ٣٥٧.

(٢) وهي قراءة شاذة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٢، وكلام الطبري في تفسيره ١٥/ ٧٢ وهو من قوله: وذلك أن يهود...إلخ.

(٤) وذكره ابن الجوزي أيضاً في زاد المسير ٥/ ٨١ عن عطاء عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن. أي: كما قَدَرنا على إنزاله نقدِرُ على إذهابه حتى ينساه الخلق. ويتَّصل هذا بقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو شئتُ أن أذهبَ بذلك القليلِ لقَدَرتُ عليه. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي: ناصراً يردُّه عليك.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني: لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك؛ فهو استثناءٌ ليس من الأوّل[١]. وقيل: إلا أن يرحمك ربُّكَ فلا يذهَبُ به[٢].

﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ إذ جعلكَ سيِّدَ ولدِ آدم، وأعطاك المقامَ المحمود وهذا الكتاب العزيز[٣]. وقال عبد الله بن مسعود: أوّل ما تَفْقِدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تَفْقِدون الصلاة، وأنَّ هذا القرآنَ كأنَّه قد نُزِعَ منكم، تُصبِحون يوماً وما معكم منه شيء. فقال رجل: كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن وقد ثبَّتناه في قلوبنا، وأثبتناه في مصاحفنا، نُعلِّمه أبناءَنا، ويعلِّمه أبناؤنا أبناءَهم إلى يوم القيامة؟! قال: يُسرى به في ليلةٍ فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب، فتصبح الناس كالبهائم. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية[٤]. أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال: أخبرنا أبو الأحْوص، عن عبد العزيز بن رُفَيع، عن شدَّاد بن مَعْقِلٍ قال: قال عبد الله ـ يعني ابنَ مسعود ـ: إنَّ هذا القرآنَ الذي بين أظهُركم يوشِكُ أن يُنزَعَ منكم. قال: قلتُ: كيف يُنزَعُ منَّا وقد أثبتَه اللهُ في قلوبنا وثبَّتناه في مصاحفنا؟! قال: يُسرى عليه في ليلةٍ واحدةٍ، فيُنزَعُ ما في القلوب، ويذهب ما في

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٣٥.

(٢) إعراب القرآن ٢/ ٤٣٩.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٦.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥٩٨٠)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٩٨).

المصاحف، ويصبحُ الناسُ منه فقراء. ثم قرأ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[١] وهذا إسناد صحيح. وعن ابن عمر: لا تقوم الساعة حتى يرجعَ القرآنُ من حيث نزل، له دَوِيٌّ كدويِّ النحل، فيقول الله: ما بالك؟ فيقول: يا ربِّ منك خرجتُ وإليكَ أعود، أُتْلَى فلا يُعمَلُ بي، أُتْلَى ولا يُعمَلُ بي[٢].

قلت: قد جاء معنى هذا مرفوعاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص[٣] وحذيفة؛ قال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: «يُدرَسُ الإسلامُ كما يُدرَسُ وَشْيُ الثوبِ، حتى لا يُدْرَى ما صيامٌ ولا صلاةٌ ولا نُسكٌ ولا صدقةٌ، فيُسرى على كتاب الله تعالى في ليلةٍ فلا يبقى منه في الأرض آيةٌ، وتبقى طوائفُ من الناس الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ يقولون: أدرَكْنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها»[٤]. قال له صلة[٥]: ما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاةٌ ولا صيامٌ ولا نُسكٌ ولا صدقة؟! فأعرضَ عنه حذيفة، ثم ردَّدها ثلاثاً، كلُّ ذلك يُعرِضُ عنه حذيفة، ثم أقبل عليه حذيفةُ فقال: يا صِلة، تُنجيهم من النار. ثلاثاً. خرَّجه ابن ماجه في السنن[٦]. وقال عبد الله بن عمر: خرجَ النبيُّ ﷺ وهو معصوبُ الرأس من وجعٍ، فضحك، فصعِد المنبرَ، فحمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، ما هذه الكتُبُ التي تكتبون؟ أكِتابٌ غيرُ كتاب الله؟! يوشِكُ أنْ يغضبَ اللهُ لكتابه، فلا يَدَعَ ورقاً ولا قلباً إلا أخذ منه» قالوا: يا رسول الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ؟ قال: «مَنْ أرادَ اللهُ به خيراً أبقى في قلبه لا إله إلا الله» ذكره الثعلبيُّ والغَزْنَوِيُّ وغيرهما

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٤ - ٥٣٥ .

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١٣٥ ، وفيه: عن ابن عمرو.

(٣) هكذا وقع في النسخ: والحديث إنما هو عن عبد الله بن عمرو كما سيأتي.

(٤) في جميع النسخ: «وهم لا يدرون ما صلاةٌ ولا صيامٌ ولا نسك» بدلاً من «فنحن نقولها».

(٥) وهو ابن زُفر، وهو أحد الرواة للأحاديث.

(٦) سنن ابن ماجه (٤٠٤٩). وأخرجه الحاكم ٤/ ٤٧٣ و ٥٤٥ .

في التفسير[١].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

أي: عوناً ونصيراً، مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعرٍ فيقيمونه. نزلت حين قال الكفار: لو نشاءُ لَقُلنا مثلَ هذا، فأكذبهم الله تعالى[٢]. وقد مضى القول في إعجاز القرآن في أوّل الكتاب[٣]، والحمد لله. و﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواب القسم في «لئن» وقد يُجزَمُ على إرادة الشرط؛ قال الشاعر:

لئِنْ كانَ ما حُدِّثْتِهِ اليومَ صادقاً أُقِمْ في نهارِ القَيْظِ للشمسِ بادِيَا[٤]

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: وجَّهنا القولَ فيه بكلِّ مَثَلٍ يجب به الاعتبار؛ من الآيات والعبر، والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي، وأقاصيص الأوّلين، والجنة والنار والقيامة. ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يريد أهلَ مكة؛ بيَّن لهم الحقَّ، وفتح لهم وأمهلهم حتى تبيَّن لهم أنه الحق، فأبَوْا إلا الكفر وقتَ تَبيُّنِ الحق. قال المهدَوِيُّ: ولا حجةَ للقدريّ في قولهم: لا يُقال أبى إلا لمن أبَى فِعْلَ ما هو قادرٌ عليه؛ لأنَّ الكافرَ وإن كان غير قادرٍ على الإيمان بحُكم الله عليه بالإعراض عنه وطبْعِه على قلبه، فقد كان قادراً وقتَ الفُسحةِ

---

(١) وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٥١٠)، والدعاء (١٤٨٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٥٠ : في إسناده عيسى بن ميمون الواسطي، وهو متروك، وقد وثقه حماد بن سلمة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٣٥ .

(٣) ١/ ٣٥١ - ٣٥٢ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٠ - ١٣١ بمعناه. والبيت قائلته امرأةٌ من بني عقيل، وهو في خزانة الأدب ١١/ ٣٢٨ . وفيهما «أصُمْ» بدل «أقُمْ».

والمُهلة على طلب الحقِّ وتمييزه من الباطل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ الآية نزلت في رؤساء قريشٍ مثل عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبي سفيان والنضر بن الحارث، وأبي جهل وعبد الله بن أبي أمية، وأميَّة بن خلف وأبي البَخْتَريِّ، والوليد بن المغيرة وغيرهم. وذلك أنهم لمَّا عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضَوْا به معجزةً، اجتمعوا ـ فيما ذكر ابن إسحاق وغيره ـ بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمدٍ ـ ﷺ ـ فكلِّموه وخاصِموه حتى تُعْذَرُوا فيه، فبعثوا إليه: إنَّ أشرافَ قومك قد اجتمعوا لك[1] ليكلموك فأْتِهم، فجاءهم رسولُ الله ﷺ وهو يظنُّ أن قد بدا لهم فيما كلَّمهم فيه بُدُوٌّ، وكان رسول الله ﷺ حريصاً يحبُّ رشدَهم ويَعِزُّ عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم فقالوا له: يا محمد، إنَّا قد بعثنا إليك لنكلِّمَكَ، وإنَّا واللهِ ما نعلمُ رجلاً من العرب أدخلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمتَ الآباء، وعِبْتَ الدين، وشتمتَ الآلهة، وسفَّهتَ الأحلامَ، وفرَّقتَ الجماعة، فما بَقيَ أمرٌ قبيحٌ إلا وقد جئتَه فيما بيننا وبينك ـ أو كما قالوا له ـ فإن كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلبُ به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالاً، وإن كنتَ إنما تطلبُ به الشرفَ فينا فنحن نُسوِّدُكَ علينا، وإن كنتَ تريد به مُلكاً ملَّكناكَ علينا، وإن كان هذا الذي يأتيكَ رَئِيًّا تراه قد غَلَب عليك ـ وكانوا يُسمُّون التابعَ من الجنِّ رَئِيًّا،

---

(١) في (م): إليك.

فربما كان ذلك ـ بذلنا أموالنا في طلب الطبِّ لك حتى نُبْرِئكَ منه أو نُعذرَ فيك. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا الملكَ عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغتُكم رسالاتِ ربي، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتُكم به فهو حَظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» أو كما قال ﷺ. قالوا: يا محمد، فإن كنتَ غيرَ قابلٍ منَّا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلداً ولا أقلَّ ماءً ولا أشدَّ عيشاً مِنَّا، فسَلْ لنا ربَّك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسيِّرْ عنا هذه الجبال التي قد ضُيِّقتْ علينا، ولْيَبْسُطْ لنا بلادَنا، وليخْرِقْ لنا فيها أنهاراً كأنهار الشأم، وليبعث لنا مَنْ مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قُصيَّ بن كلاب؛ فإنه كان شيخَ صِدْقٍ فنسألهم عما تقول، أحقٌّ هو أم باطل، فإن صدَّقوكَ وصنعتَ ما سألناكَ صدَّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولاً كما تقول. فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه: «ما بهذا بُعِثتُ إليكم، إنما جئتُكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بلَّغْتُكم ما أُرسِلْتُ به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإنْ ترُدُّوه عليَّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: فإذ لم تفعل هذا لنا فخُذْ لنفسِكَ، سَلْ ربَّكَ أن يبعثَ معك مَلَكاً يُصدِّقُكَ بما تقول، ويُراجعُنا عنك، واسأله فليجعَلْ لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهبٍ وفضةٍ يُغنيكَ بها عمَّا نراك تبتغي، فإنك تقومُ بالأسواق وتلتمِسُ المعاشَ كما نلتمِسُه، حتى نعرِفَ فضلَك ومنزلتَك من ربِّكَ إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعلٍ، وما أنا بالذي يسألُ ربَّه هذا، وما بُعِثتُ بهذا إليكم، ولكنَّ اللهَ بعثني بشيراً ونذيراً ـ أو كما قال ـ فإن تقبلوا مني ما جئتُكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن ترُدُّوه عليَّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» قالوا: فأسْقِطِ السماءَ علينا كِسَفاً كما زعمتَ أنَّ ربَّكَ إن شاء فعل؛ فإنَّا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. قال: فقال رسول الله ﷺ: «ذلك

إلى الله عزَّ وجلَّ، إن شاء أن يفعلَه بكم فعل» قالوا: يا محمد، أفما عَلِمَ ربُّكَ أنَّا سنجلسُ معك ونسألُك عما سألناك عنه، ونطلبُ منكَ ما نطلب، فيتقدَّمَ إليك فيُعلمَكَ بما تُراجعُنا به، ويخبرَكَ ما هو صانعٌ في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به؟! إنه قد بلَغَنا أنك إنما يُعلِّمك هذا رجلٌ من اليمامة يُقال له: الرحمن، وإنَّا واللهِ لا نؤمنُ بالرحمن أبداً، فقد أعذَرْنا إليك يا محمد، وإنَّا واللهِ لا نترُكُكَ وما بلغتَ منا حَتى نُهلِكَك أو تُهلِكَنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمِنَ لكَ حتى تأتي بالله والملائكة قَبِيلاً. فلمَّا قالوا ذلك لرسول الله ﷺ، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكةَ بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد، عرضَ عليكَ قومُكَ ما عرضوا فلم تقبَلْه منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويُصدِّقوك ويتَّبعوك فلم تفعل! ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلَكَ عليهم ومنزلتَكَ من الله فلم تفعل! ثم سألوك أن تُعجِّلَ لهم بعضَ ما تُخوِّفُهم به من العذاب فلم تفعل! ـ أو كما قال له ـ فواللهِ لا أُومِنُ بكَ أبداً حتى تتَّخِذَ إلى السماء سُلَّماً، ثم تَرْقَى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصَكٍّ معه أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وَايْمُ اللهِ لو فعلتَ ذلك ما ظننتُ أني أُصَدِّقُكَ! ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسِفاً لِما فاتَه مما كان يطمع به من قومه حين دَعَوه، ولِما رأى من مباعدتهم إياه. كلُّه لفظ ابن إسحاق[١].

وذكر الواحديُّ عن عكرمة، عن ابن عباس: فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾[٢]. ﴿يَنۢبُوعًا﴾ يعني العيون عن مجاهد[٣]. وهي يَفعول، من نَبَع يَنْبَع[٤]. وقرأ عاصم وحمزة والكسائيُّ: «تَفْجُرَ لنا» مخفَّفة، واختاره

---

(١) كما في سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٥ - ٢٩٨ . وأخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٨٧ - ٩٠ .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٣٠٢ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٩٣ . وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٧٨ ، وهو في تفسيره ١/ ٣٧٠ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٩ ، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ١٦٥ .

أبو حاتم؛ لأنَّ اليَنبوع واحد. ولم يختلفوا في «تُفجِّرَ الأنهار» أنه مُشدَّد. قال أبو عبيد: والأولى مثلها. قال أبو حاتم. ليست مثلها؛ لأنَّ الأُولى بعدها يَنبوعٌ وهو واحد، والثانية بعدها الأنهار وهي جمع، والتَّشديد يدلُّ على التكثير[(١)]. أُجيبَ بأنَّ «يَنبوعا» وإن كان واحداً فالمراد به الجمع، كما قال مجاهد. اليَنبوع: عين الماء، والجمع الينابيع[(٢)]. وقرأ قتادة: «أو يكونَ لكَ جنة»[(٣)]. ﴿خِلَٰلَهَا﴾ أي: وسطها[(٤)].

﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾ قراءة العامة. وقرأ مجاهد: «أو تَسْقُطَ السماءُ» على إسناد الفعل إلى السماء[(٥)]. ﴿كِسَفًا﴾ قِطَعاً. عن ابن عباس وغيره[(٦)]. والكِسَف ـ بفتح السين ـ جمع كِسْفة، وهي قراءة نافع وابن عامر وعاصم. الباقون: «كِسْفاً» بإسكان السين[(٧)]. قال الأخفش: من قرأ كِسْفاً من السماء جعله واحداً، ومن قرأ كِسَفاً جعله جمعاً[(٨)]. قال المهدَويُّ: ومن أسكن السين جاز أن يكون جمع كِسْفة، وجاز أن يكون مصدراً؛ مِنْ كسفتَ الشيء إذا غطَّيته. فكأنهم قالوا: أسقطها طبقاً علينا[(٩)]. وقال الجوهرِيّ[(١٠)]: الكِسْفة: القطعة من الشيء؛ يُقال: أعطني كِسْفةً من ثوبك، والجمع كِسْف وكِسَف. ويقال: الكِسْفُ والكِسْفةُ واحد. ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٥٧ بمعناه. وينظر السبعة ص٣٨٥، والتيسير ص١٤١.

(٢) تهذيب اللغة ٣/ ٨.

(٣) لم نقف على من ذكرها سوى المصنف، وهي قراءة شاذة.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٨٧.

(٥) القراءات الشاذة ص٧٧.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٧٣.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٣٧. وينظر السبعة ص٣٨٥، والتيسير ص١٤١.

(٨) نقله عنه الجوهري في الصحاح (كسف).

(٩) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٥ بمعناه.

(١٠) في الصحاح (كسف).

﴿قَبِيلًا﴾ أي: معاينة. عن قَتادة وابن جُريج[١]. وقال الضحاك وابن عباس: كفيلاً[٢]. قال مقاتل: شهيداً. مجاهد: هو جمع القبيلة؛ أي: بأصناف الملائكة قبيلةً قبيلةً[٣]. وقيل: ضمناء يضمنون لنا إتيانك به.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب. عن ابن عباس وغيره. وأصله الزينة[٤]. والمُزَخْرَف: المُزَيَّن. وزخارف الماء: طرائقه[٥]. وقال مجاهد: كنت لا أدري ما الزُّخْرُف حتى رأيتُه في قراءة ابن مسعود: «بيتٌ مِن ذَهَبٍ»[٦] أي: نحن لا نقاد لك مع هذا الفقر الذي نرى.

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعَد[٧]؛ يقال: رَقِيتُ في السُّلَّم أرْقَى رَقْياً ورُقِيًّا إذا صعِدتُ، وارتقيتُ مثله[٨]. ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي: من أجل رُقيِّك[٩]، وهو مصدر؛ نحو مضى يمضي مُضِيًّا، وهوى يهوي هُوِيًّا، كذلك رقى يرقى رُقِيًّا.

﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ أي: كتاباً من الله تعالى إلى كلِّ رجلٍ منا؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[١٠] [المدثر: ٥٢]. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وقرأ أهل مكة والشام: «قال سُبحانَ ربي» يعني النبيَّ ﷺ[١١]؛ أي: قال ذلك

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٧٣ ، وزاد المسير ٥/ ٨٧ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٣٧ عن ابن عباس.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الصحاح (زخرف).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٩٥ . وأخرجه الطبري ١٥/ ٨٥ ، وهي قراءة شاذة.

(٧) زاد المسير ٥/ ٨٨ .

(٨) الصحاح (رقي).

(٩) مجمع البيان ١٥/ ٩٩ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٥٨ .

(١٠) مجمع البيان ١٥/ ٩٩ .

(١١) تفسير البغوي ٣/ ١٣٧ . وينظر السبعة ص٣٨٥ ، والتيسير ص١٤١ .

تنزيهاً لِله عزَّ وجلَّ عن أن يعجِزَ عن شيءٍ وعن أن يُعترَضَ عليه في فعل. وقيل: هذا كلُّه تعجُّبٌ عن فرط كفرهم واقتراحاتهم. الباقون «قل» على الأمر؛ أي: قل لهم يا محمد ﴿هَلْ كُنتُ﴾ أي: ما أنا ﴿إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[١] أتَّبع ما يوحَى إليَّ من ربِّي، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر، فهل سمعتم أحداً من البشر أتى بهذه الآيات؟! وقال بعض الملحدين: ليس هذا جواباً مُقنِعاً، وغَلِطوا؛ لأنه أجابهم فقال: إنما أنا بشرٌ لا أقدر على شيءٍ مما سألتموني، وليس لي أن أتخيَّر على ربي، ولم تكن الرسل قَبْلي يأتون أممَهم بكلِّ ما يريدونه ويبغونه، وسبيلي سبيلهم، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالَّة على صحة نبوَّتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكلِّ ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكلِّ إنسانٍ أن يقول: لا أومِنُ حتى أُوتىَ بآيةٍ خلاف ما طلب غيري. وهذا يؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس. وإنما التدبير إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يعني الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه. ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ جهلاً منهم[٢]: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: الله أجَلُّ من أن يكون رسولُه من البشر[٣]. فبيَّن الله تعالى فَرْط عنادهم؛ لأنهم قالوا: أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد، وغفلوا عن المعجزة. فـ«أنْ» الأُولى في محلِّ نصبٍ بإسقاط حرف الخفض. و«أنْ» الثانية في محلِّ رفع بـ«منع» أي: وما منع الناسَ من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم: أبعَثَ اللهُ بشراً رسولاً[٤].

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٩١ .

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٩ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦١ .

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

أعلمَ اللهُ تعالى أنَّ المَلَك إنما يُرسَلُ إلى الملائكة؛ لأنه لو أرسل ملكاً إلى الآدميِّين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التي خُلِقَ عليها، وإنما أقدرَ الأنبياءَ على ذلك وخَلقَ فيهم ما يقدرون به؛ ليكون ذلك آيةً لهم ومعجزة[١]. وقد تقدَّم في «الأنعام» نظيرُ هذه الآية، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ وقد تقدَّم الكلام فيه[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

يُروى أنَّ كفار قريشٍ قالوا حين سمعوا قولَه: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾: فمن يشهد لكَ أنك رسولُ الله؟ فنزل: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي: لو هداهم الله لاهتدَوا. ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ أي: لا يهديهم أحد.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ أنَّ ذلك عبارةٌ عن الإسراع بهم إلى جهنم؛ من قول العرب: قَدِم القوم على وجوههم إذا أسرعوا. الثاني ـ

(١) قاله الطبرسي في مجمع البيان ١٥/ ١٠١ بمعناه.

(٢) ٨/ ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٤ ، وفيه أن ذلك بعد أن سمعوا قوله: «لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً».

أنهم يُسحَبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يُفعل في الدنيا بمن يُبالَغ في هَوانه وتعذيبه[(١)]. وهذا هو الصحيح؛ لحديث أنسٍ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، الذين يُحشرون على وجوههم، أيُحشَرُ الكافرُ على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليسَ الذي أمشاه على الرجلين قادراً على أن يُمْشِيَه على وجهه يوم القيامة؟». قال قتادة حين بلغه: بَلَى وعِزَّةِ رَبِّنا. أخرجه البخاريُّ ومسلم[(٢)]. وحسبُكَ.

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ قال ابن عباس والحسن: أي: عُمْيٌ عمَّا يسُرُّهم، بُكْمٌ عن التكلم بحجة، صُمٌّ عما ينفعهم. وعلى هذا القول حواسُّهم باقيةٌ على ما كانت عليه. وقيل: إنهم يُحشرون على الصفة التي وصفَهم الله بها؛ ليكون ذلك زيادةً في عذابهم، ثم يخلق ذلك لهم في النار، فأبصروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] وتكلموا؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، وسمعوا؛ لقوله تعالى: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]. وقال مقاتل بن سليمان: إذا قيل لهم: «إِخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» [المؤمنون: ١٠٨] صاروا عُمْياً لا يبصرون، صُمًّا لا يسمعون، بُكْماً لا يفقهون[(٣)]. وقيل: عموا حين دخلوا النار لشدّة سوادها، وانقطع كلامهم حين قيل لهم: اخسؤوا فيها ولا تكلّمون. وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئاً.

﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مستقرُّهم ومقامهم. ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي: سكنت، عن الضحاك. وغيره. مجاهد: طَفِئت[(٤)]: يقال: خبَتِ النارُ تخبو خبواً، أي: طَفِئت، وأخبيتُها أنا[(٥)]. ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً تتلهَّب[(٦)]. وسكونُ التهابِها من غير نقصانٍ

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٢) صحيح البخاري (٤٧٦٠)، وصحيح مسلم (٢٨٠٦).

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٧٥ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٧٥ . وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٥/ ٩٦ ، وأخرجه أيضاً ١٥/ ٩٥ عن ابن عباس ومجاهد.

(٥) الصحاح (خبا).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٩٨ ، وزاد المسير ٥/ ٩١ .

في آلامهم ولا تخفيفٍ عنهم من عذابهم[١]. وقيل: إذا أرادت أن تَخْبُو. كقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الآية ٤٥ من هذه السورة].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ذلك العذاب جزاءُ كفرهم. ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي: تراباً[٢]. ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ قيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: أو لم يروا أنَّ الله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل لهم أجلاً لا ريبَ فيه قادرٌ على أن يخلق مثلهم. والأجل: مدَّة قيامهم في الدنيا ثم موتهم، وذلك ما لا شكَّ فيه إذ هو مشاهد. وقيل: هو جواب قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾. وقيل: هو يوم القيامة.

﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي المشركون إلا جحوداً بذلك الأجل وبآيات الله. وقيل: ذلك الأجل هو وقت البعث[٣]، ولا ينبغي أن يُشَكَّ فيه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ أي: خزائن الأرزاق. وقيل: خزائن النِّعم، وهذا أعَمُّ[٤]. ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ من البخل، وهو جواب

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٧٥ .

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٥ بمعناه.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٣٠ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٧٦ .

قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾[(١)] حتى نتوسَّع في المعيشة. أي: لو توسَّعتم لبخِلتم أيضاً. وقيل: المعنى: لو ملَكَ أحدُ المخلوقين خزائنَ اللهِ لما جادَ بها كجود الله تعالى؛ لأمرين: أحدهما ـ أنه لابُدَّ أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته. الثاني ـ أنه يخاف الفقر ويخشى العدم، واللهُ تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحالتين[(٢)]. والإنفاق في هذه الآية بمعنى الفقر؛ قاله ابن عباس وقتادة[(٣)]. وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذا قلّ ماله.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي: بخيلاً مُضيِّقاً[(٤)]. يقال: قَتَر على عياله يَقْتِر ويَقْتُرُ قَتْراً وقُتوراً إذا ضيَّقَ عليهم في النفقة، وكذلك التقتير والإقتار، ثلاث لغات[(٥)]. واختُلِفَ في هذه الآية على قولين: أحدهما ـ أنها نزلت في المشركين خاصَّةً. قاله الحسن. والثاني ـ أنها عامة. وهو قول الجمهور، وذكره الماوردي[(٦)].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ اختُلِفَ في هذه الآيات، فقيل: هي بمعنى آيات الكتاب، كما روى الترمذيُّ والنسائيُّ عن صَفوان بن عَسَّال المُراديّ أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اِذْهَبْ بنا إلى هذا النبيِّ نسأله. فقال: لا تقُلْ له: نبيٌّ، فإنه إن سمِعَنا كان له أربعةُ أعيُنٍ. فأتيا النبيَّ ﷺ، فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فقال ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦١ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٧٦ .

(٣) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٩٨ .

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥١ .

(٥) الصحاح (قتر).

(٦) في النكت والعيون ٣/ ٢٧٦ .

تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ، ولا تَسْرِقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببريء إلى سلطانٍ فيقتله، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنةً، ولا تَفِرُّوا من الزحف ـ شك شعبة ـ وعليكم يا معشر[١] اليهود خاصّةً ألا تعدوا في السبت» فقبَّلا يدَيه ورجلَيه وقالا: نشهدُ أنَّكَ نبيٌّ. قال: «فما يمنعُكُما أن تُسلِما؟» قالا: إن داودَ دعا اللهَ ألَّا يزال في ذُرِّيته نبيٌّ، وإنَّا نخاف إن أسلمنا أن تقتُلَنا اليهود. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٢]. وقد مضى في البقرة[٣]. وقيل: الآيات بمعنى المعجزات والدلالات. قال ابن عباس والضحاك: الآيات التسع: العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم؛ آياتٌ مفصَّلات. وقال الحسن والشعبيُّ: الخمس المذكورة في «الأعراف»[٤]، يعنيان الطوفانَ وما عُطِفَ عليه، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات. ورُويَ نحوُه عن الحسن، إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة، وجعل التاسعة: تلقُّفُ العصا ما يأفكون. وعن مالك كذلك، إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات: البحر والجبل. وقال محمد بن كعب: هي الخمس التي في «الأعراف» والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم[٥]. وقد تقدَّم شرح هذه الآيات مستوفًى والحمد لله. ﴿فَسْئَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ أي: سَلْهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات، حسبما تقدَّم بيانه في يونس[٦]. وهذا سؤال استفهامٍ؛ ليعرف اليهودُ صحةَ ما يقول محمدٌ ﷺ. ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ

---

(١) قوله: «يا معشر» ليس في النسخ، وقد أثبت من سنن الترمذي.

(٢) سنن الترمذي (٢٧٣٣)، والمجتبى ٧/ ١١١، وسنن النسائي الكبرى (٣٥٢٧).

(٣) ٢/ ١٦٨ - ١٦٩.

(٤) عند تفسير الآية (١٣٣).

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٨، وتفسير البغوي ٣/ ١٣٩ - ١٤٠، وزاد المسير ٥/ ٩٢. وقول ابن عباس أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٩٠، والطبري ١٥/ ١٠١ - ١٠٢. وقول الشعبي أخرجه الطبري ١٥/ ١٠١، وقول الحسن الثاني أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٩١، والطبري ١٥/ ١٠٢.

(٦) ١١/ ٥٢.

يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي: ساحراً بغرائب أفعالك. قاله الفراء وأبو عبيدة. فوضع المفعول موضِعَ الفاعل، كما تقول: هذا مشؤوم وميمون، أي: شائم ويامن[١]. وقيل: مخدوعاً[٢]. وقيل: مغلوباً. قاله مقاتل. وقيل غير هذا؛ وقد تقدَّم. وعن ابن عباسٍ وأبي نَهِيك أنهما قرأا: «فَسأَلَ بني إسرائيل» على الخبر، أي: سأل موسى فرعونَ أن يُخلِّي بني إسرائيل ويُطلِقَ سبيلَهم ويرسلَهم معه[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني الآيات التسع. و«أنزل» بمعنى أوجد. ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أي: دلالاتٍ يُستدَلُّ بها على قدرته ووحدانيته. وقراءة العامة: «علِمتَ» بفتح التاء، خطاباً لفرعون. وقرأ الكسائيُّ بضَمِّ التاء، وهي قراءة عليٍّ ﷺ، وقال: واللهِ ما علِمَ عدوُّ الله ولكنَّ موسى هو الذي عَلِمَ، فبلغَتِ ابنَ عباس فقال: إنها «لقد عَلِمْتَ»، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ونَسبَ فرعونَ إلى العناد[٤]. وقال أبو عبيد: والمأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصحُّ للمعنى الذي احتجَّ به ابن عباس؛ ولأن موسى لا يَحتَجُّ بقوله: علمتُ أنا، وهو الرسول الداعي، ولو كان مع هذا كلِّه تصِحُّ به القراءة عن عليٍّ لكانت حجة، ولكن لا تثبت عنه، إنما هي عن كُلثوم المرادِيِّ وهو مجهولٌ لا يُعْرَف، ولا نعلم أحداً قرأ بها غير الكسائي[٥]. وقيل: إنما أضاف موسى

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١٣١، وزاد المسير ٥/ ٩٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٣، وتفسير البغوي ٣/ ١٤٠، وزاد المسير ٥/ ٩٤.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٩ بنحوه. وهذه القراءة في القراءات الشاذة ص٧٧ عن ابن عباس وحده.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١٣١، وتفسير البغوي ٣/ ١٤٠، وزاد المسير ٥/ ٩٤. وينظر السبعة ص٣٨٥-٣٨٦، والتيسير ص١٤١.

(٥) قاله النحاس في معاني القرآن ٤/ ٢٠١ - ٢٠٢ بمعناه. وقد ذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٣٢ إسناد القراءة عن عليٍّ، وفيه الرجل المجهول الذي ذكره المصنف.

إلى فرعون العلم بهذه المعجزات؛ لأنَّ فرعون قد علم مقدار ما يتهيَّأ للسحرة فِعْلُه، وأنَّ مثل ما فعل موسى لا يتهيَّأ لساحر، وأنه لا يقدِرُ على فعلِه إلا من يفعل الأجسام ويملك السماوات والأرض. وقال مجاهد: دخل موسى على فرعون في يوم شاتٍ وعليه قطيفة له، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان، فرأى فرعون جانبي البيت بين فُقْمَيْها[(١)]، ففزع وأحدث في قطيفته.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ الظنُّ هنا بمعنى التحقيق. والثبور: الهلاك والخسران أيضاً. قال الكُمَيْت:

ورأتْ قُضاعةُ في الأيا ... مِنِ رأيَ مَثْبُورٍ وثابِرِ

أي: مخسورٍ وخاسرٍ، يعني في انتسابها إلى اليمن[(٢)]. وقيل: ملعوناً. رواه المِنْهال عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس[(٣)]. وقاله أبان بن تَغْلِب، وأنشد:

يا قومَنا لا تَرُومُوا حَرْبَنا سَفَهاً ... إنّ السَّفاه وإن البَغْيَ مثبورُ

أي: ملعون[(٤)]. وقال ميمون بن مِهْران عن ابن عباس: «مثبوراً»: ناقص العقل[(٥)]. ونظر المأمون رجلاً فقال له: يا مثبور، فسُئِلَ عنه، قال فقال الرشيد: قال المنصور لرجل: مثبور؛ فسألتُه فقال: حدثني ميمون بن مِهران... فذكره. وقال قتادة: هالكاً[(٦)]. وعنه أيضاً والحسن ومجاهد: مُهلَكاً[(٧)]. والثُّبُور: الهلاك؛ يقال: ثَبَر اللهُ

---

(١) الفُقْمُ، بالضمِّ والفتح: اللَّحى. النهاية (فقم).

(٢) الصحاح (ثبر).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٣، وأخرجه الطبري ١٥/ ١٠٨ - ١٠٩.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٧٨.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٩٤ - ٩٥.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٧٨.

(٧) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٢٠٣ عن قتادة، وأبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٨٦ عن قتادة والحسن، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٧١.

العدوَّ ثُبوراً أهلكه[١]. وقيل: ممنوعاً من الخير. حكى أهل اللغة: ما ثبرَكَ عن كذا، أي: ما منعكَ منه[٢]. وثبرَهُ اللهُ يَثْبُره ثَبْراً[٣]. قال ابنُ الزِّبَعْرَى[٤]:

إذ أُجارِي الشيطانَ في سَنَنِ الغَـ ـيِّ ومن مالَ مَيْلَهُ مثبورُ

الضحاك: «مثبوراً»: مسحوراً. ردَّ عليه مثلَ ما قال له باختلاف اللفظ. وقال ابن زيد: «مثبوراً»: مخبولاً لا عقلَ له[٥].

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أراد فرعون أن يُخرِجَ موسى وبني إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد، فأهلكه الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد إغراقه ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ أي: أرض الشام ومصر. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: من قبوركم مختلطين من كلِّ موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر، لا يتعارفون، ولا ينحاز أحدٌ منكم إلى قبيلته وحَيِّه[٦]. وقال ابن عباس وقتادة: جئنا بكم جميعاً من جهاتٍ شتَّى[٧]. والمعنى واحد. قال الجوهريُّ: واللَّفيفُ: ما اجتمعَ من الناس من قبائل شتَّى؛ يقال: جاء القوم بلَفِّهم ولَفِيفهم، أي: وأخلاطهم. وقوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: مجتمعين مُختَلِطِين. وطعامٌ لَفِيفٌ: إذا كان مخلوطاً من جنسين فصاعداً. وفلانٌ لفيفُ

---

(١) تاج العروس (ثبر).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٢ .

(٣) الصحاح (ثبر).

(٤) في ديوانه ص٣٦ .

(٥) مجمع البيان ١٥/ ١٠٧ .

(٦) المصدر السابق، لكن بمعناه

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٧٨ .

فلانٍ، أي: صديقه[١]. قال الأصمعيُّ: اللفيف: جمعٌ وليس له واحد، وهو مثل الجميع[٢]. والمعنى: أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر، مختلطين لا يتعارفون. وقال الكلبي: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ يعني مجيء عيسى عليه السلام من السماء[٣].

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ هذا متصلٌ بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن. والكناية ترجع إلى القرآن[٤]. ووجه التكرير في قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ يجوز أن يكون معنى الأوّل: أوجبنا إنزاله بالحق. ومعنى الثاني: ونزل وفيه الحق، كقوله: خرج بثيابه، أي: وعليه ثيابه.

وقيل: الباء في «وبالحق» الأوّل بمعنى مع، أي: مع الحق؛ كقولك: ركبَ الأميرُ بسيفه، أي: مع سيفه. ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: بمحمدٍ ﷺ، أي: نزل عليه؛ كما تقول: نزلتُ بزيد[٥]. وقيل: يجوز أن يكون المعنى: وبالحقِّ قدَّرنا أن ينزل، وكذلك نزل.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ مذهب سيبويه أنَّ «قرآناً» منصوبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ يُفسِّره الظاهر. وقرأ جمهور الناس: «فَرَقناه» بتخفيف الراء، ومعناه: بيَّنَّاه وأوضحناه[٦]، وفرقنا فيه بين الحق والباطل. قاله الحسن[٧]. وقال ابن

(١) الصحاح (لفف).
(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٤ .
(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٤١ .
(٤) زاد المسير ٥/ ٩٦ .
(٥) تفسير الرازي ٢١/ ٦٨ بمعناه.
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٠ .
(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ١١٥ .

عباس: فصَّلناه[١].

وقرأ ابن عباس وعليٌّ وابن مسعود وأُبَيُّ بن كعب وقَتادة وأبو رجاء والشَّعْبيُّ: «فرَّقناه» بالتشديد[٢] أي: أنزلناه شيئاً بعد شيءٍ لا جملةً واحدة، إلا أنَّ في قراءة ابن مسعود وأُبَيٍّ: «فَرَّقناه عليك»[٣].

واختُلِفَ في كم نزل القرآن من المدَّة، فقيل: في خمسٍ وعشرين سنة. ابن عباس: في ثلاث وعشرين. أنس: في عشرين. وهذا بحسب الخلاف في سِنِّ رسولِ الله ﷺ[٤]، ولا خلافَ أنه نزل إلى السماء الدنيا جملةً واحدة، وقد مضى هذا في «البقرة»[٥].

﴿عَلَىٰ مُكۡثٍ﴾ أي: تطاوُلٍ في المدَّة شيئاً بعد شيء، ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود[٦]، أي: أنزلناه آيةً آيةً، وسورةً سورة[٧]. وأمَّا على القول الأوّل فيكون «عَلَى مُكْثٍ» أي: على ترسُّلٍ في التلاوة وترتيل. قاله مجاهد وابن عباس وابن جُريج[٨]. فيُعطي القارئ القراءةَ حقَّها من ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحينٍ ولا تطريبٍ مُؤدٍّ إلى تغيير لفظ القرآن بزيادةٍ أو نقصانٍ، فإن ذلك حرامٌ على ما تقدَّم أوّل الكتاب. وأجمع القُرَّاء على ضَمِّ الميم من «مُكْثٍ»[٩] إلا ابن مُحَيْصِن فإنه قرأ: «مَكْثٍ» بفتح الميم[١٠]. ويقال. مَكْثٍ ومُكْثٍ ومِكْثٍ؛ ثلاث

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ١١٤ .

(٢) وهذه القراءة في الشاذة ص٧٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ ، لكن وقع في مطبوعه وفي الوسيط ٣/ ١٣٢ : «قتادة» بدلاً من «أنس».

(٥) ٣/ ١٦١ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ .

(٧) مجمع البيان ١٥/ ١٠٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ .

(٩) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ .

(١٠) زاد المسير ٥/ ٩٧ عن ابن محيصن وغيره، وهي قراءة شاذة.

لغات[١]. قال مالك: «على مُكْث»: على تثبُّتٍ وترسُّلٍ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ مبالغةٌ وتأكيدٌ بالمصدر للمعنى المتقدم[٣]، أي: أنزلناه نَجْماً بعد نجم[٤]؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقتٍ واحدٍ لنفروا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ يعني القرآن. وهذا من الله عزَّ وجلَّ على وجه التبكيت لهم والتهديد، لا على وجه التخيير[٥]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من قبل نزول القرآن وخروج النبيِّ ﷺ، وهم مؤمنو أهل الكتاب[٦]. في قول ابن جُريجٍ وغيره. قال ابن جُريج: معنى «إذا يُتلى عليهم» كتابهم[٧]. وقيل: القرآن[٨]. ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾. وقيل: هم قومٌ من ولد إسماعيل تمسَّكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبيَّ عليه الصلاة والسلام، منهم: زيد بن عمرو بن نُفيل وورقة بن نَوْفل. وعلى هذا ليس يريد: أوتوا الكتاب، بل يريد: أوتوا عِلْمَ الدِّين[٩]. وقال الحسن: الذين أوتوا العلم أمةُ محمدٍ ﷺ. وقال مجاهد: إنهم ناس من اليهود. وهو أظهر؛ لقوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾. ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني القرآن في قول مجاهد. كانوا إذا سمعوا

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٧٩ لكن نسبه إلى مجاهد.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١٣٢.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٨٠.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٤١.

(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ١٢١.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ١٤٢.

(٩) قال الواحدي في الوسيط ٣/ ١٣٢: يعني طلاب الدين مثل: أبي ذر وسلمان وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو. وعلى هذا فإن هؤلاء ليس كلُّهم من ولد إسماعيل.

ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا: «سبحان ربِّنا إن كان وعد ربِّنا لمفعولا»[(١)]. وقيل: كانوا إذا تلَوْا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبَّحوا، وقالوا: هذا هو المذكور في التوراة، وهذه صفته، ووعدُ الله به واقعٌ لا محالة، وجنحوا إلى الإسلام، فنزلت الآية فيهم. وقالت فرقةٌ: المراد بالذين أوتوا العلم من قبله محمدٌ ﷺ، والضمير في «قَبْله» عائدٌ على القرآن حسب الضمير في قوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾. وقيل: الضميران لمحمدٍ ﷺ، واستأنف ذكر القرآن في قوله: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾

دليلٌ على جواز التسبيح في السجود. وفي «صحيح مسلم» وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسولُ ﷺ يُكثِرُ أن يقول في سجوده وركوعه: «سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدِكَ اللَّهُمَّ اغفِرْ لي»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ هذه مبالغةٌ في صفتهم ومدحٌ لهم. وحقٌّ لكلِّ من توسَّم بالعلم وحصَّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة[(٤)]، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويَذِلَّ. وفي «مسند الدّارمي أبي محمد» عن التَّيْمِيِّ قال: من أوتيَ من العلم ما لم يُبكِّهِ لَخَليقٌ ألا يكون أوتي علماً؛ لأنَّ الله تعالى نَعَتَ العلماء، ثم تلا هذه الآية. ذكره الطبري أيضاً[(٥)]. والأذقان: جمع ذقن،

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٨٠ . وأخرجه بنحوه الطبري ١٥/ ١٢١ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ .

(٣) صحيح مسلم (٧٨٤). وأخرجه البخاري ـ أيضاً ـ (٨١٧)، وهو في مسند أحمد (٢٤١٦٣).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢ .

(٥) سنن الدارمي (٢٩١)، وتفسير الطبري ١٥/ ١٢٢ .

وهو مجتمع اللَّحيين[١]. وقال الحسن: الأذقان عبارة عن اللِّحَى[٢]، أي: يضعونها على الأرض في حال السجود، وهو غاية التواضع.

واللام بمعنى على[٣]؛ تقول: سقط لِفِيه، أي: على فيه. وقال ابن عباس: ﴿ويخرون للأذقان سُجْداً﴾ أي: للوجوه[٤]، وإنما خصَّ الأذقان بالذِّكر؛ لأنَّ الذَّقنَ أقربُ شيءٍ من وجه الإنسان[٥]. قال ابن خُوَيْزمَنداد: ولا يجوز السجود على الذقن؛ لأنَّ الذقن هاهنا عبارةٌ عن الوجه، وقد يُعبَّر بالشيء عما جاوره وببعضه عن جميعه، فيقال: خرَّ لوجهه ساجداً وإن كان لم يسجُدْ على خدِّه ولا عينه. ألا ترى إلى قوله:

فخرَّ صَرِيعاً لليدينِ ولِلفَمِ[٦]

فإنما أراد: خرَّ صريعاً على وجهه ويديه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَبْكُونَ﴾ دليلٌ على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى، أو على مصيبةٍ[٧] في دين الله، وأنَّ ذلك لا يقطعُها ولا يضرُّها. ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة، عن ثابت البُنانيِّ، عن مُطَرِّف بن عبد اللهِ بن الشِّخِّير، عن أبيه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يُصلِّي ولِجَوْفِه أزِيزٌ كأزيزِ المِرْجَلِ من البكاء. وفي كتاب أبي داود: و في صدره أزيزٌ كأزيز الرَّحى من البكاء[٨].

الثالثة: واختلف الفقهاء في الأنين، فقال مالك: الأنين لا يقطَعُ الصلاةَ للمريض، وأكرهُه للصحيح. وبه قال الثوري. وروى ابن الحكم عن مالك: التنحنحُ

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٩٢.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١، والنكت والعيون ٣/ ٢٨٠.

(٣) زاد المسير ٥/ ٩٧.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١، والنكت والعيون ٣/ ٢٨٠، وزاد المسير ٥/ ٩٧.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٤.

(٦) سلف ١٣/ ٢٤.

(٧) في (د) و(م) و(ز): معصيته.

(٨) الزهد لابن المبارك (١٠٩)، وسنن أبي داود (٩٠٤). وهو في مسند أحمد (١٦٣١٢).

والأنين والنفخ لا يقطع الصلاة. وقال ابن القاسم: يقطع. وقال الشافعيُّ: إن كان له حروفٌ تُسمَعُ وتُفهَمُ يقطَعُ الصلاة. وقال أبو حنيفة: إن كان من خوف الله لم يقطَعْ، وإن كان من وجَعٍ قَطَعَ. ورُويَ عن أبي يوسف أنَّ صلاتَه في ذلك كلِّه تامةٌ؛ لأنه لا يخلو مريضٌ ولا ضعيفٌ من أنين(١).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ تقدَّم القول في الخشوع في «البقرة»(٢) ويأتي.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ سبب نزول هذه الآية أنَّ المشركين سمعوا رسولَ الله ﷺ يدعو: «يا اللهُ يا رحمن» فقالوا: كان محمدٌ يأمرنا بدعاءِ إلهٍ واحدٍ وهو يدعو إلهين. قاله ابن عباس. وقال مكحول: تهجَّد رسولُ الله ﷺ ليلةً فقال في دعائه: «يا رحمنُ يا رحيم» فسمعه رجلٌ من المشركين، وكان باليمامة رجلٌ يُسمَّى الرحمن، فقال ذلك السامع: ما بالُ محمدٍ يدعو رحمان اليمامة. فنزلتِ الآيةُ مبيّنةً أنهما اسمان لمسمًّى واحد، فإن دعوتُموه بالله فهو ذاك، وإن دعوتُموه بالرحمن فهو ذاك(٣). وقيل: كانوا يكتبون في صدر الكتب: باسمك اللهمَّ، فنزلت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] فكتبَ رسولُ الله ﷺ «بسم الله الرحمن الرحيم»(٤)، فقال المشركون: هذا الرحيم نعرِفُه، فما الرحمن؟ فنزلت الآية. وقيل: إن اليهود قالت: ما لنا لا نسمَعُ في القرآن اسماً هو في التوراة كثيرٌ ـ يعنون الرحمن ـ فنزلت الآية(٥). وقرأ طلحة بن

---

(١) هاتان المسألتان الثانية والثالثة في التمهيد ٢٢/ ١٣٤ .

(٢) ٢/ ٧٠ - ٧٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢ . وأخرجه عنهما الطبري ١٥/ ١٢٣ - ١٢٤ .

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٩٩ عن ميمون بن مهران.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٨٠ عن الكلبي.

مُصَرِّف: «أيًّا مَنْ تدعو فله الأسماء الحسنى» أي: التي تقتضي أفضلَ الأوصاف وأشرفَ المعاني[١]. وحُسْنُ الأسماء إنما يتوجَّه بتحسين الشرع؛ لإطلاقها والنصِّ عليها. وانضاف إلى ذلك أنها تقتضي معانيَ حساناً شريفةً، وهي بتوقيفٍ لا يصِحُّ وضْعُ اسمٍ لله بنظرٍ إلا بتوقيفٍ من القرآن أو الحديث أو الإجماع، حسبما بيَّناه في الكتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: اختلفوا في سبب نزولها على خمسة أقوال:

الأوّل: ما روى ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: نزلَتْ ورسولُ اللهِ ﷺ مُتوارٍ بمكة، وكان إذا صلَّى بأصحابه رفَعَ صوتَه بالقرآن، فإذا سمعَ ذلك المشركون سَبُّوا القرآن ومَنْ أنزلَه ومن جاء به؛ فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمعَ المشركون قراءتَكَ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك، أسمِعْهُمُ القرآنَ، ولا تَجهَرْ ذلك الجهر ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: يقول بين الجهر والمخافتة. أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وغيرهم، واللفظ لمسلم[٣].

والمخافتة: خفضُ الصوتِ والسكون؛ يقال للميت إذا بَرَد: خَفَت[٤]. قال الشاعر:

لم يَبْقَ إلا نَفَسٌ خافِتُ ومُقْلَةٌ إنسانُها باهِتُ
رَثَى لها الشامِتُ مما بها يا وَيْحَ من يَرْثِي له الشَّامِتُ

الثاني: ما رواه مسلم أيضاً عن عائشة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قالت: أُنزِلَ هذا في الدعاء[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢ . وهذه قراءة شاذة.

(٢) ص٣٥ .

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٢)، وصحيح مسلم (٤٤٦)، وسنن الترمذي (٣١٤٦). وهو في مسند أحمد (١٥٥).

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ٣٠٤ - ٣٠٥ بنحوه.

(٥) صحيح مسلم (٤٤٧).

الثالث: قال ابنُ سِيرين: كان الأعراب يجهرون بتشهُّدهم، فنزلت الآية في ذلك[١]. قلت: وعلى هذا فتكون الآية متضمنةً لإخفاء التشهد، وقد قال ابن مسعود: مِنَ السُّنَّةِ أن تُخفيَ التشهدَ. ذكره ابن المنذر.

الرابع: ما رُوي عن ابن سِيرين أيضاً: أنَّ أبا بكرٍ ﷺ كان يُسِرُّ قراءته، وكان عمر يجهَرُ بها، فقيل لهما في ذلك، فقال أبو بكر: إنما أُناجي ربي، وهو يعلم حاجتي إليه. وقال عمر: أنا أطردُ الشيطانَ، وأوقِظُ الوَسْنان. فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر: ارفَعْ قليلاً. وقيل لعمر: اخفِضْ أنتَ قليلاً. ذكره الطبريُّ وغيره[٢].

الخامس: ما رُويَ عن ابن عباس أيضاً أن معناها: ولا تجهَرْ بصلاة النهار، ولا تُخافِتْ بصلاة الليل. ذكره يحيى بن سلام والزهراويّ[٣]. فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض، فأما النوافل فالمصلي مخيَّرٌ في الجهر والسرِّ في الليل والنهار، وكذلك رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه كان يفعل الأمرين جميعاً. وأما الفرائض فحُكْمُها في القراءة معلومٌ ليلاً ونهاراً.

وقولٌ سادس: قال الحسن: يقول الله: لا ترائي بصلاتك تُحسِّنُها في العلانية، ولا تُسيئُها في السِّرِّ. وقال ابن عباس: لا تُصَلِّ مرائياً للناس، ولا تَدَعْها مخافةَ الناس[٤].

الثانية: عبَّر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبَّر بالقراءة عن الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما مرتبطٌ بالآخر؛ لأنَّ الصلاة تشتمل على قراءةٍ وركوعٍ وسجودٍ، فهي من جملة أجزائها؛ فعبَّر بالجزء

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢ .

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ١٣٢ ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٦١٢).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٢ .

(٤) ذكرهما ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٠٠ ، وأخرجهما الطبري ١٥/ ١٣٤ - ١٣٥ .

عن الجملة، وبالجملة عن الجزء، على عادة العرب في المجاز، وهو كثير[١]؛ ومنه الحديث الصحيح: «قَسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي» أي: قراءة الفاتحة على ما تقدَّم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ هذه الآية رادَّةٌ على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً: عزيرٌ وعيسى والملائكةُ ذريةُ الله سبحانه، تعالى الله عن أقوالهم![٣] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ لأنه واحدٌ لا شريكَ له في ملكه ولا في عبادته. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال مجاهد: المعنى: لم يُحالِفْ أحداً، ولا ابتغَى نصرَ أحدٍ[٤]، أي: لم يكن له ناصرٌ يُجيره من الذُّلِّ فيكون مدافعاً. وقال الكلبي: لم يكن له وليٌّ من اليهود والنصارى؛ لأنهم أذَلُّ الناس[٥]؛ ردًّا لقولهم: نحن أبناء الله وأحِبَّاؤه[٦]. وقال الحسن بن الفضل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ يعني: لم يُذَلَّ فيحتاج إلى وَلِيٍّ، ولا ناصِرَ لعزَّته وكبريائه.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ أي: عظِّمه عظَمةً تامة[٧]. ويقال: أبلَغُ لفظةٍ للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر[٨]. أي: صِفْه بأنه أكبرُ من كلِّ شيء. قال الشاعر:

رأيتُ اللهَ أكبرَ كلِّ شيءٍ ... محاولةً وأكثرهم جنودا

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١٥ .

(٢) ١/ ١٤٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٣ .

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ١٣٨ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٧٢ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٨٢ .

(٦) مجمع البيان ١٥/ ١١٢ بمعناه.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٥ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٣ .

وكان النبيُّ ﷺ إذا دخل في الصلاة قال: «الله أكبر» وقد تقدَّم أوّل الكتاب[١].

وقال عمر بن الخطاب. قول العبد: «الله أكبر» خيرٌ من الدنيا وما فيها.

وهذه الآية هي خاتمة التوراة؛ روى مُطَرِّفٌ عن عبد الله بن كعب قال: افتُتِحَتِ التوراةُ بفاتحة سورة الأنعام، وخُتِمَتْ بخاتمة هذه السورة[٢]. وفي الخبر أنها آية العِزِّ. رواه معاذ بن أنس[٣] عن النبيِّ ﷺ[٤]. وروى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أفصحَ الغلامُ من بني عبد المطلب علَّمه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى﴾ الآية[٥]. وقال عبد الحميد بن واصل: سمعتُ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من قرأ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾» الآية، كتبَ اللهُ له من الأجر مثلَ الأرض والجبال، لأنَّ الله تعالى يقول فيمن زعم أنَّ له ولداً: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾[٦] [مريم: ٩٠]. وجاء في الخبر: أنَّ النبيَّ ﷺ أمر رجلاً شكا إليه بالدَّين بأن

---

(١) ١/ ٢٧٠ ، والبيت قائله خداش بن زهير، وقد ورد هناك بلفظ: «وأعظمه» بدل «وأكثرهم».

(٢) هكذا في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٣ ، لكن الأثر أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٥٥ ، والدارمي (٣٤٠٢)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٧٨ من طريق عبد الله بن رباح عن كعب بلفظ: فاتحة التوراة فاتحة سورة الأنعام، وخاتمة التوراة خاتمة سورة هود. وقد سلف ٨/ ٣١١ .

وورد في روايةٍ أخرى عند أبي نعيم بأن خاتمة التوراة خاتمة الإسراء، دون ذكر فاتحتها.

(٣) وقع في جميع النسخ: معاذ بن جبل، وهو خطأ.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٦٢٤) من طريق زَبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه مرفوعاً. زَبَّان بن فائد ضعيف.

(٥) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٢٤) من طريق عبد الكريم أبي أمية، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ موصولاً.

وأخرجه ابن أبي شيبة ١/ ٣٤٨ و ١٠/ ٥٥٦ من طريق عبد الكريم، عن عمرو، عن النبي ﷺ معضلاً.

وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٧٩٧٦) من طريق عبد الكريم، عن النبي ﷺ معضلاً دون ذكر عمرو بن شعيب.

(٦) لم نقف على من أخرجه بهذا الإسناد، وفيه إبهام الراوي الذي روى عنه عبد الحميد بن واصل. وأخرجه بنحوه الطبراني (٦٧٦) عن أبي هريرة ﷺ بإسناد مسلسلٍ بالعلل، ففيه مجهولان، وضعيف وهو محمد بن سلمة، ومدلس وهو محمد بن إسحاق، وفيه انقطاع، فقد رواه موسى بن يسار عن أبي هريرة وهو لم يدركه.

يقرأ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾... إلى آخر السورة، ثم يقول: توكَّلتُ على الحيِّ الذي لا يموت. ثلاث مرات[1].

تمَّت سورةُ الإسراء، والحمد لله وحده،
والصلاةُ والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعدَه.

---

(١) أورده بهذا اللفظ أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٨٧ .

وأخرجه بنحوه أبو يعلى (٦٦٧١)، وابن السني (٥٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٢ : فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف.

[بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم][(١)]

تفسير سورة الإسراء[(٢)]

وهي مكية

قال الإمام [الحافظ المتقن أبو عبد الله محمد بن إسماعيل][(٣)] البخاري: حدّثنا آدم بن أبي إياس، حدّثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد، سمعت ابن مسعود، رضي اللَّه عنه، قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد بن زيد، عن مروان، عن أبي لبابة، سمعت عائشة تقول: كان رسول اللَّه ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: مايريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة «بني إسرائيل» ،و«الزمر» [(٥)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾.

يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ﴿الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ يعني محمداً، صلوات الله وسلامه عليه[(٦)] ﴿ لَيْلاً﴾ أي في جنح الليل ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾ وهو بيت المقدس الذي هو إيلياء[(٧)]، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جمعوا له هنالك كلهم، فَأَمّهم في مَحِلّتهم[(٨)]، ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات اللَّه وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله : ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي: في الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أي: محمداً ﴿ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي: العظام كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[النجم:١٨].

وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه، صلوات الله عليه وسلامه.

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم

(١) زيادة من ت.   (٢) في ت، ف، أ: « سورة سبحان».   (٣) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٧٠٨).

(٥) المسند(٦/١٨٩) ورواه ابن خزيمة في صحيحه برقم(١١٦٣) وقال: «إن كان أبو لبابة هذا يجوز الاحتجاج بخبره وفإني لا أعرفه بعدالة ولا جرح». وقد وثقه ابن معين.

(٦) في ف:« صلى الله عليه وسلم».   (٧) في ت، ف، أ :«بإيلياء».   (٨) في ت: « محلهم».

ومكذبهم ، البصير بهم فيعطى كلاً ما يستحقه فى الدنيا والآخرة .

ذكر الأحاديث الواردة فى الإسراء

رواية أنس بن مالك:

قال الإمام أبو عبد اللَّه البخارى: حدثنى عبد العزيز بن عبد اللَّه، حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن شريك بن عبد اللَّه[١] قال: سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول اللَّه ﷺ من مسجد الكعبة: إنه جاءه ثلاثة نفر، قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو ؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم. فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه، وتنام عيناه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فشق جبريل مابين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم، بيده حتى أنقي جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشواً إيماناً وحكمة، فحشا به صدره ولغاديده - يعنى عروق حلقه - ثم أطبقه. ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناداه أهل السماء: من هذا ؟ فقال: جبريل. قالوا: ومن معك ؟ قال: معى محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً به، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد اللَّه به فى الأرض حتى يُعْلِمهم.

ووجد فى السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه، فسلَّم عليه، وردّ عليه آدم فقال: مرحباً وأهلاً بابنى، نعم[٢] الابن أنت، فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال: «ما هذان النهران ياجبريل؟» قال: هذا النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به فى[٣] السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فإذا هو مسك أذْفر فقال: «ماهذا ياجبريل ؟» قال: هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك.

ثم عرج إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: مَنْ هذا ؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك ؟ قال: محمد . قالوا: وقد بعث إليه ؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً[٤] وأهلاً وسهلاً.

ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السادسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السابعة، فقالوا له مثل ذلك. كل سماء فيها أنبياء قد سماهم، قد وعيت[٥] منهم إدريس فى الثانية وهارون فى الرابعة، وآخر فى الخامسة لم احفظ اسمه، وإبراهيم فى السادسة، وموسى فى السابعة بتفضيل كلام اللَّه. فقال موسى: «رب لم أظن أن يرفع علىّ أحد»[٦] ثم علا به فوق ذلك، بما لا يعلمه إلا اللَّه، عز وجل، حتى جاء سدْرَة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى اللَّه إليه فيما

(١) فى ف: «عبد الله يعنى بن أبى نمر أنه». (٢) فى ف: « فنعم». (٣) فى ت، ف: « إلى».
(٤) فى ف: «مرحبا به». (٥) فى أ: « عينهم». (٦) فى ت: « أنه علىّ أحد».

يوحى: خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة. ثم هبط به حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: «يامحمد، ماذا عهد إليك ربك؟» قال: «عهد إليّ خمسين صلاة كل يوم وليلة» قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم». فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك، فأشار إليه جبريل: أن نعم، إن شئت. فعلا[١] به إلى الجبار تعالى، فقال وهو فى مكانه: «يارب، خفف عنا، فإن أمتى لا تستطيع هذا» فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات. ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: « يامحمد، واللَّه لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من هذا، فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك» كل ذلك يلتفت النبى ﷺ إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «يارب، إن أمتى ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم[٢] وأبدانهم فخفف عنا» فقال الجبار: يامحمد، قال: «لبيك وسعديك» قال: إنه لا يبدل القول لدىّ، كما فرضت عليك فى أم الكتاب: «كل حسنة بعشر أمثالها، فهى خمسون فى أم الكتاب وهى خمس عليك»، فرجع إلى موسى فقال: «كيف فعلت؟» فقال: «خفف عنا، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها» قال موسى: « قد واللَّه راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً». قال رسول اللَّهﷺ: «ياموسى قد ـ واللَّه ـ استحييت من ربى مما أختلف إليه[٣]» قال: «فاهبط باسم اللَّه»، فاستيقظ وهو فى المسجد الحرام.

هكذا ساقه البخارى فى «كتاب التوحيد»[٤]، ورواه فى «صفة النبىﷺ»، عن إسماعيل بن أبى أُوَيْس عن أخيه أبى بكر عبد الحميد، عن سليمان بن بلال[٥].

ورواه مسلم، عن هارون بن سعيد، عن ابن وَهْب، عن سليمان [٦] قال: « فزاد ونقص، وقدم وأخر»[٧].

وهو كما قاله[٨] مسلم، رحمه الله، فإن شريك بن عبد اللَّه بن أبى نَمِر اضطرب فى هذا الحديث، وساء حفظه ولم يضبطه، كما سيأتى بيانه فى الأحاديث الأخر.

ومنهم من يجعل هذا مناماً توطئة لما وقع بعد ذلك، واللَّه أعلم.

[وقال][٩] البيهقي: فى[١٠] حديث «شريك» زيادة تفرد بها، على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى ربه، يعنى قوله: « ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى » قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبى هريرة فى حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل ـ أصح[١١].

---

(١) فى ف: « ثم علا».
(٢) فى ف، أ: «وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم».
(٣) فى ف: «عليه».
(٤) صحيح البخارى برقم (٧٥١٧).
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٥٧٠).
(٦) فى ف، أ: «سليمان به».
(٧) صحيح مسلم برقم (١٦٢).
(٨) فى أ: «قال».
(٩) زيادة من ت.
(١٠) فى ف، أ: «وفى».
(١١) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٨٥).

وهذا الذى قاله البيهقي هو الحق فى هذه المسألة، فإن أبا ذر قال: يارسول اللّه، هل رأيت ربك ؟ قال: «نور أنى أراه » .وفى رواية «رأيت نورا». أخرجه مسلم، رحمه الله[(١)].

وقوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾[النجم:٨]، إنما هو جبريل، عليه السلام، كما ثبت ذلك فى الصحيحين، عن عائشة أمّ المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو فى صحيح مسلم عن أبى هريرة، رضى الله عنهم، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة فى تفسير هذه الآية بهذا[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت البُنانى، عن أنس بن مالك،رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:« أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التى يربط[(٣)] فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت. فأتانى[(٤)] جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. قال جبريل: أصبت الفطرة» قال: «ثم عرج بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل[(٥)] : ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ [قال: قد أرسل إليه][(٦)] .ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب ودعا لى بخير.

ثم عَرَج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك ؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بى ودعوا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل:من أنت ؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن، فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ فقال:جبريل. فقيل: ومن معك ؟ قال: محمد. فقيل :قد أرسل إليه ؟ قال: قد بعث إليه. ففتح الباب، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لى بخير. ثم قال: يقول اللّه :﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[مريم:٥٧].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ فقال: جبريل. فقيل:[و][(٧)] من معك ؟ فقال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ فقال: جبريل. قيل[(٨)]: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل. قيل[(٩)]: ومن

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٧٨).

(٢) حديث عائشة: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٢٣٥) ومسلم فى صحيحه برقم(١٧٧) وحديث ابن مسعود: رواه البخارى فى صحيحه برقم(٤٨٥٦) ومسلم فى صحيحه برقم(١٧٤) وحديث أبى هريرة: رواه مسلم فى صحيحه برقم(١٧٥).

(٣) فى ت، ف، أ: «تربط».

(٤) فى ف، أ: «فجاءنى».

(٥) فى ت، ف، أ: «قيل».

(٦) زيادة من ت، ف، أ، هـ المسند.

(٧) زيادة من ت، ف، أ.

(٨) فى ف، أ:«فقيل».

(٩) فى ف: «فقيل».

معك ؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم[١]، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه.

ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر اللّه ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق اللّه، تعالى، يستطيع أنْ يصفها من حسنها. قال: «فأوحى اللّه إلىّ ما أوحى، وفرض علىّ فى كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى». قال: «ما فرض ربك على أمّتك ؟[٢]» قال: «قلت: خمسين صلاة فى كل يوم وليلة». قال: ارجع[٣] إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمّتك لا تطيق ذلك، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم». قال[٤]: «فرجعت إلى ربى، فقلت: أى رب، خفف عن أمّتى، فحطّ عنى خمساً. فرجعت إلى موسى فقال: ما فعلت؟ قلت[٥]: قد حطّ عنى خمساً». قال: «إن أمّتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك» قال: « فلم[٦] أزل أرجع بين ربى وبين موسى، ويحطّ عنى خمساً خمساً حتى قال: يامحمد، هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت [له][٧] حسنة، فإن عملها كتبت عشراً. ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك، فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك». فقال رسول اللّه ﷺ: «لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت».

ورواه مسلم عن شَيْبَان بن فَرُّوخ، عن حماد بن سلمة بهذا السياق[٨]، وهو أصح من سياق شَريك.

قال البيهقي: وفى هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به، عليه الصلاة والسلام، من مكة إلى بيت المقدس[٩] . وهذا الذى قاله هو الحق الذى لاشك فيه ولا مرية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ أتى بالبراق ليلة أسرى به مُسْرَجاً ملجماً ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فواللّه ما ركبك قط أكرم على اللّه منه . قال: فارفضّ عرقاً.

ورواه الترمذى عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرزاق، وقال: غريب لانعرفه إلا من حديثه[١٠].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنى راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: « لما عرج بى ربى، عز وجل، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون

(١) فى ت: « بإبراهيم عليه وسلم» وفى ف: « بإبراهيم عليه السلام».
(٢) فى ت: «ما فرض عليك على أمتك». (٣) فى ت: « فارجع». (٤) فى أ: «ثم قال».
(٥) فى ف، أ: « فقلت». (٦) فى ف: « فقال لم». (٧) فى ف، أ: «كتبت له».
(٨) المسند(٣/١٤٨)، وصحيح مسلم برقم (١٦٢).
(٩) دلائل النبوة للبيهقى(٢/ ٣٨٥).
(١٠) المسند(٣/ ١٦٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٣١).

لحوم الناس، ويقعون فى أعراضهم ».

وأخرجه أبو داود، من حديث صفوان بن عمرو، به[١]. ومن وجه آخر ليس فيه أنس[٢]، فاللّه أعلم.

وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سليمان التّيْمى، عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «مررت ليلة أسرى بى على موسى، عليه السلام، قائماً يصلّى فى قبره »[٣].

ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، عن سليمان بن طرخان التيمى وثابت البنانى، كلاهما عن أنس[٤].

قال النسائى: وهذا أصح من رواية من قال: سليمان عن ثابت، عن أنس.

وقال [الحافظ][٥] أبو يعلى الموصلى فى مسنده: حدثنا وهب بن بقيَّة، حدثنا خالد، عن التيمى، عن أنس قال: أخبرنى بعض أصحاب النبى ﷺ: أن النبى ﷺ ليلة أسرى به مرّ على موسى وهو يصلى فى قبره[٦].

وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرة، حدثنا معتمر، عن أبيه قال: سمعت أنساً: أن النبى ﷺ ليلة أسرى به مرّ بموسى[٧] وهو يصلى فى قبره ـ قال أنس: ذكر أنه حمل على البراق ـ فأوثق الدابة ـ أو قال: الفرس ـ قال أبو بكر: صفها لى. فقال رسول اللّه ﷺ، وذكر كلمة[٨] فقال: أشهد أنك رسول اللّه، وكان أبو بكر، رضى الله عنه، قد رآها[٩].

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار فى مسنده: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبى عمران الجونى، عن أنس بن مالك، رضى اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: « بينا أنا قاعد[١٠] إذ جاء جبريل، عليه السلام، فوكز بين كتفى، فقمت إلى شجرة فيها كوكرى الطير، فقعد فى أحدهما وقعدت فى الآخر فسمت[١١] وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفى، ولو شئت أن أمس السماء لمسست، فالتفت إلى جبريل، عليه السلام، كأنه حِلْس[١٢] لاط، فعرفت فضل علمه باللّه على، وفتح لى باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرف الدر والياقوت، وأوحى إلىّ ماشاء اللّه أن يوحى» ثم قال: هذا الحديث لا نعلم رواه إلا أنس، ولا نعلم رواه عن أبى عمران الجونى إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة[١٣].

---

(١) المسند(٣/ ٢٢٤) وسنن أبى داود برقم (٤٨٧٨).
(٢) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٨).
(٣) المسند(٣/ ١٢٠).
(٤) صحيح مسلم برقم(٢٣٧٥).
(٥) زيادة من أ.
(٦) مسند أبى يعلى(٧/ ١١٧).
(٧) فى ف: « مر على موسى».
(٨) فى هـ : « هى كذه وذه» والتصويب من مسند البزار و«ت».
(٩) مسند أبى يعلى (٧/ ١٢٦).
(١٠) فى هـ: « نائم» والتصويب من مسند البزار.
(١١) فى أ: « فسميت».
(١٢) فى ت، أ: « جلس».
(١٣) مسند البزار برقم(٥٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم(٥٩) عن محمد بن على الصائغ عن سعيد بن منصور به. وقال الهيثمى فى المجمع(١/ ٧٥): « رجاله رجال الصحيح». وقال الحافظ ابن حجر فى زوائد البزار (١/ ٩٥): « الحارث أخرج له الشيخان، وهو مع ذاك له مناكير هذا منها».

ورواه الحافظ البيهقى فى «الدلائل» عن أبى بكر القاضى، عن أبى جعفر محمد بن على بن دُحَيْم، عن محمد بن الحسين بن أبى الحُنَيْن، عن سعيد بن منصور، فذكر بسنده مثله، ثم قال: وقال غيره فى هذا الحديث فى آخره: «ولُطّ دونى ـ أو قال: دون الحجاب ـ رفرف الدر والياقوت». ثم قال: هكذا[١] رواه الحارث بن عبيد. ورواه حماد[٢] بن سلمة، عن أبى عمران الجَوْنى، عن محمد ابن عمير بن عطارد: أن النبى ﷺ كان فى ملأ من أصحابه، فجاءه[٣] جبريل، فنكت فى ظهره، فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وَكْرى الطير، فقعد فى أحدهما وقعد جبريل فى الآخر، فنشأت بنا حتى بلغت[٤] الأفق، فلو بسطت يدى إلى السماء لنلتها، فدلى بسبب وهبط النور، فوقع جبريل مغشياً عليه كأنه حِلْس، فعرفت فضل خشيته على خشيتى. فأوحى إلى: نبياً ملكاً أو نبياً عبداً؟ وإلى الجنة ما أنت؟ فأومَأ[٥] إلى جبريل وهو مضطجع: أن تواضع. قال: قلت: لا. بل نبياً عبداً[٦].

قلت: وهذا إن صح يقتضى أنها واقعة غير ليلة الإسراء، فإنه لم يذكر فيها بيت المقدس، ولا الصعود إلى السماء، فهى كائنة غير مانحن فيه، واللَّه أعلم.

وقال البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن عيسى، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، أن محمداً ﷺ رأى ربه، عز وجل، هذا غريب.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، حدثنا عبداللَّه بن وهب، حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن الزهرى، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص، عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلى رسول اللَّه ﷺ بالبراق فكأنها أَمَرَّت ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براق، فواللَّه إن ركبك[٧] مثله. وسار رسول اللَّه ﷺ، فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقال: «ما هذه يا جبريل؟» قال: سر يا محمد. قال: فسار ما شاء اللَّه أن يسير، فإذا شيء يدعوه متنحياً عن الطريق يقول: هلم يامحمد فقال له جبريل: سر يامحمد فسار ما شاء اللَّه أن يسير، قال: فلقيه خلق من الخلق فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد السلام يامحمد. فرد السلام، ثم لقيه الثانية فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك، حتى انتهى إلى بيت المقدس. فعرض عليه الماء والخمر واللبن، فتناول رسول اللَّه ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت[٨] أمتك. ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء، عليهم السلام، فأمَّهم رسول اللَّه ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أما العجوز التى[٩] رأيت على جانب الطريق، فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز، وأما الذى أراد أن تميل إليه، فذاك عدو اللَّه إبليس أراد أن تميل إليه، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى، عليهم الصلاة والسلام.

وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى «دلائل النبوة» من حديث ابن وهب[١٠]، وفى بعض ألفاظه نكارة

---

(١) فى ت: «هذا».
(٢) فى ت «ابن حماد» وهو خطأ.
(٣) فى ف، أ: «فجاء».
(٤) فى ت: «بلغنا».
(٥) فى أ: «فأوحى».
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٦٩).
(٧) فى ت، أ: «فو الله ما ركبك».
(٨) فى ف: «وغويت».
(٩) فى ت، أ: «الذى».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ٥)، ودلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٦٢).

وغرابة.

طريق أخرى عن أنس بن مالك:

وفيها غرابة ونكارة جداً، وهى فى سنن النسائى المجتبى، ولم أرها فى الكبير قال: أخبرنا عمرو[١] بن هشام، حدثنا مَخْلَد ـ هو ابن الحسين ـ عن سعيد بن عبد العزيز، حدثنا يزيد بن أبى مالك، حدثنا أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: « أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل، خطوها عند منتهى طرفها، فركبت ومعى جبريل، عليه السلام، فسرت فقال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدرى أين صليت؟ [صليت بطيبة وإليها المهاجر، ثم قال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدرى أين صليت ؟][٢] صليت بطور سيناء، حيث كلم الله موسى، ثم قال: انزل فصل. فصليت ، فقال: أتدرى أين صليت. صليت ببيت لحم، حيث ولد عيسى، عليه السلام، ثم دخلت بيت المقدس فجمع لى الأنبياء عليهم السلام، فقدمنى جبريل حتى أممتهم [ثم صعد بى إلى السماء الدنيا، فإذا فيها آدم، عليه السلام][٣]. ثم صعد بى إلى السماء الثانية، فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى ويحيى، عليهما السلام. ثم صعد بى إلى السماء الثالثة، فإذا فيها يوسف عليه السلام. ثم صعد بى إلى السماء الرابعة، فإذا فيها هارون، عليه السلام. ثم صعد بى إلى السماء الخامسة، فإذا فيها إدريس عليه السلام. ثم صعد بى إلى السماء السادسة، فإذا فيها موسى، عليه السلام . ثم صعد بى إلى السماء السابعة، فإذا فيها إبراهيم عليه السلام ، ثم صعد بى فوق سبع سموات وأتيت سدرة المنتهى، فغشيتنى ضبابة فخررت[٤] ساجداً فقيل لى: إنى يوم خلقت السموات والأرض، فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك [فرجعت إلى إبراهيم فلم يسألنى عن شىء. ثم أتيت موسى فقال: كم فرض الله عليك وعلى؟][٥] قلت: خمسين صلاة. قال: فإنك لا تستطيع أن تقوم بها، لا أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف[٦]. فرجعت إلى ربى فخفف عنى عشراً. ثم أتيت موسى فأمرنى بالرجوع، فرجعت فخفف عنى عشراً، ثم ردت إلى خمس صلوات. قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه فرض على بنى إسرائيل صلاتين، فما قاموا بهما. فرجعت إلى ربى، عز وجل، فسألته التخفيف، فقال: إنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. فعرفت أنها من اللَّه عز وجل[٧] صِرَّى، فرجعت إلى موسى، عليه السلام[٨] فقال: ارجع، فعرفت أنها من اللَّه صِرَّى - يقول: أى حتم - فلم أرجع» [٩].

طريق أخرى :

وقال ابن أبى حاتم: حدثنى أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا خالد بن يزيد بن أبى مالك، عن أبيه، عن أنس بن مالك، رضى اللَّه عنه، قال: لما كان ليلة أسرى برسول اللَّه ﷺ إلى بيت المقدس، أتاه جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل، حمله جبريل عليها، ينتهى خفها حيث ينتهى

(١) فى ت: «عمر».
(٢، ٣) زيادة من ت، ف، أ، والنسائى.
(٤) فى ت: « خررت».
(٥) زيادة من ت، ف، أ، والنسائى.
(٦) فى ف: «تخفيفها».
(٧) فى ف،أ: «من الله تعالى» .
(٨) فى ت:« فرجعت إليه عليه السلام».
(٩) سنن النسائى (١/ ٢٢١).

طرفها . فلما بلغ بيت المقدس وبلغ[١] المكان الذى يقال له: «باب محمد ﷺ» أتى إلى الحجر الذى ثمة، فغمزه جبريل بأصبعه فثقبه، ثم ربطها. ثم صعد فلما استويا فى صَرْحَة المسجد، قال جبريل: يا محمد، هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ فقال: نعم. فقال: فانطلق إلى أولئك النسوة، فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة ، قال: فأتيتهن فسلمت عليهن، فرددن علىّ السلام، فقلت: من أنتن؟ فقلن: نحن خيرات حسان، نساء قوم أبرار، نقوا فلم يدرنوا، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا». قال: «ثم انصرفت[٢]، فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن، وأقيمت الصلاة». قال: «فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدى جبريل، عليه السلام، فقدمنى فصليت بهم. فلما انصرفت قال جبريل: يامحمد، أتدرى من صلى خلفك؟» قال: « قلت: لا. قال :صلى خلفك كل نبى بعثه اللّه عز وجل ».

قال: «ثم أخذ بيدى جبريل فصعد بى إلى السماء، فلما انتهينا إلى الباب استفتح فقالوا: من أنت؟ قال: أنا جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم». قال: «ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك». قال: «فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم، فقال لى جبريل: يامحمد، ألا تسلم على أبيك آدم؟» قال: «قلت: بلى. فأتيته فسلمت عليه، فرد علىّ وقال: مرحباً بابنى والنبى الصالح». قال: «ثم عرج بى إلى السماء الثانية فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم»: «ففتحوا[٣] له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام [٤]». قال: «ثم عرج بى إلى السماء الثالثة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم» [٥]. «ففتحوا [٦] وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها يوسف، عليه السلام، ثم عرج بى إلى السماء الرابعة فاستفتح، قالوا: من أنت ؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها إدريس، عليه السلام». قال: «فعرج بى إلى السماء الخامسة، فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. قال: ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك فإذا فيها هارون، عليه السلام». قال: «ثم عرج بى إلى السماء السادسة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك ؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها موسى، عليه السلام. ثم عرج بى إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقالوا[٧] : من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها إبراهيم، عليه السلام. فقال جبريل: يامحمد، ألا تسلم على أبيك إبراهيم؟ قال: قلت: بلى. فأتيته فسلمت عليه، فرد علىّ السلام وقال: مرحباً بك يابنى[٨] والنبى الصالح.

ثم انطلق بى على ظهر السماء السابعة، حتى انتهى بى إلى نهر عليه خيام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وعليه طير خضر أنعم طير رأيت. فقلت: ياجبريل، إن هذا الطير لناعم قال[٩]: يامحمد، آكله أنعم منه ثم قال: يامحمد، أتدرى أى نهر هذا ؟ قال: «قلت: لا. قال: هذا الكوثر الذى أعطاك

(١) فى ت: « فبلغ». (٢) فى ف: « قال : وانصرفت». (٣) فى ف: «قال: ففتحوا».
(٤) فى ت: «عليهما الصلاة والسلام». (٥) فى ف، أ: «قال: ففتحوا». (٦) فى ت، ف، أ: «ففتحوا له».
(٧) فى ف: « قالوا». (٨) فى ف: « مرحبا بابنى». (٩) فى ف: فقال».

اللَّه إياه. فإذا فيه آنية الذهب والفضة، يجرى[١] على رَضْرَاض من الياقوت والزمرد، ماؤه[٢] أشد بياضاً من اللبن» قال: «فأخذت منه آنية[٣] من الذهب، فاغترفت من ذلك الماء فشربت، فإذا هو أحلى من العسل، وأشد[٤] رائحة من المسك. ثم انطلق بى حتى انتهيت[٥] إلى الشجرة، فغشيتنى سحابة فيها من كل لون، فرفضنى جبريل، وخررت ساجداً لله، عز وجل، فقال اللَّه لى: يامحمد، إنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك» . قال: «ثم انجلت عنى السحابة وأخذ بيدى جبريل، فانصرفت سريعاً فأتيت على إبراهيم فلم يقل لى شيئاً، ثم أتيت على موسى فقال: ما صنعت يامحمد ؟ فقلت: فرض ربى علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة. قال: فلن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك. فرجعت سريعاً حتى انتهيت إلى الشجرة، فغشيتنى السحابة، ورفضنى جبريل، وخررت ساجداً، وقلت: رب، إنك فرضت علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة، ولن أستطيعها أنا ولا أمتى، فخفف عنا. قال: قد وضعت عنكم عشراً . قال: ثم انجلت عنى السحابة، وأخذ[٦] بيدى جبريل وانصرفت[٧] سريعاً، حتى أتيت على إبراهيم فلم يقل لى شيئاً، ثم أتيت على موسى، فقال لى: ماصنعت يامحمد ؟ فقلت: وضع ربى عنى عشراً فقال: أربعون صلاة! لن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنكم - فذكر الحديث كذلك إلى خمس صلوات، وخمس بخمسين ثم أمره[٨] موسى أن يرجع فيسأل التخفيف ،فقلت :«إنى قد استحييت منه تعالى».

قال: ثم انحدر، فقال رسول اللَّه ﷺ لجبريل: «ما لى لم آت على[٩] سماء إلا رحبوا بى وضحكوا إلىّ، غير رجل واحد، فسلمت عليه فردّ علىّ السلام فرحب بى ولم يضحك إلىّ. قال: يامحمد، ذاك مالك خازن جهنم لم يضحك منذ خلق[١٠]،ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك».

قال: ثم ركب منصرفاً، فبينا هو فى بعض طريقه مرّ بعير لقريش تحمل طعاماً، منها جمل عليه غرارتان: غرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فلما حاذى بالعير نفرت منه واستدارت، وصرع ذلك البعير وانكسر.

ثم إنه مضى فأصبح، فأخبر عما كان، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا: ياأبا بكر، هل لك فى صاحبك؟ يخبر[١١]أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر، ثم رجع فى ليلته. فقال أبو بكر، رضى اللَّه عنه: إن كان قاله فقد صدق ،وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا، نصدقه على خبر السماء.

فقال المشركون لرسول اللَّه ﷺ: ما علامة ماتقول؟ قال: « مررت بعير لقريش، وهى فى مكان كذا وكذا، فنفرت العير[١٢] منا واستدارت، [وفيها بعير عليه] [١٣] غرارتان: غرارة سوداء، وغرارة بيضاء ، فصرع فانكسر».

فلما قدمت العير سألوهم، فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم النبى ﷺ[١٤] ومن[١٥] ذلك سمى أبو[١٦] بكر الصديق.

---

(١) فى ف، أ: «تجرى». (٢) فى ف، أ: « وماؤه». (٣) فى ف، أ: « من آنيته».
(٤) فى ت: «وألد». (٥) فى ت، ف، أ: « انتهى». (٦) فى ت: «فأخذ».
(٧) فى ت، ف، أ: « فانصرفت». (٨) فى ت: « أمر». (٩) فى أ: « أهل».
(١٠) فى ت: « خلقت». (١١) فى ت: «يزعم». (١٢) فى ف: «الإبل».
(١٣) زيادة من ف، أ، وفى ت: «جمل عليه». (١٤) فى ف: « رسول الله ﷺ».
(١٥) فى ف، أ: « وفى». (١٦) فى ف: « أبا».

وسألوه وقالوا[(١)]: هل كان معك فيمن حضر موسى وعيسى ؟ قال: «نعم». قالوا: فصفهم . قال: «نعم»، أما موسى فرجل آدم، كأنه من رجال أزْدِ عمان ، وأما عيسى فرجل ربعة، سَبْط، تعلوه[(٢)] حمرة كأنما يتحادر من شعره الجُمَان»[(٣)].

هذا سياق فيه غرائب عجيبة .

رواية أنس، رضى الله عنه، عن مالك بن صَعْصَعَة:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا هَمَّام، قال: سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك: أن مالك بن صعصعة حدثه: أن نبى اللّه ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به، قال: «بينما أنا فى الحطيم[(٤)] ـ وربما قال قتادة: فى الحجر ـ مضطجعاً إذ أتانى آت» فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة، قال: «فأتانى فقدّ ـ وسمعت قتادة يقول: فشق ـ مابين هذه إلى هذه». وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبى: ما يعنى؟ قال: من ثغرة نحره إلى شِعْرته، وقد سمعته يقول: من قَصَّته إلى شِعْرَته قال: «فاستخرج قلبى» قال: «فأتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة فغسل قلبى ثم حشى، ثم أعيد. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض» . قال: فقال الجارود :وهو البراق يا أبا حمزة ؟ قال: نعم، يقع خطوه عند أقصى طرفه. قال: « فحملت عليه، فانطلق بى جبريل، عليه السلام، حتى أتى بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجىء جاء». قال: «ففتح[(٥)] فلما خلصت، فإذا فيها آدم، عليه السلام، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال[(٦)]: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد قيل[(٧)] :أو قد[(٨)] أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجىء جاء»، قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا يحيى[(٩)] وعيسى وهما ابنا الخالة. قال: هذا[(١٠)] يحيى وعيسى، فسلم عليهما. قال :فسلمت فردا السلام ثم قالا[(١١)] :مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجىء جاء». قال: ففتح[(١٢)] فلما خلصت، فإذا يوسف[(١٣)] ،عليه السلام، قال: هذا يوسف[(١٤)] قال: «فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟

---

(١) فى ت، ف: « فقالوا». (٢) فى ت: « يعلوه».

(٣) وفى إسناده خالد بن يزيد بن أبى مالك ضعفه أحمد وابن معين والنسائى والدارقطنى ولم يوثقه إلا أبو زرعه الدمشقى.

(٤) فى ف: « بالحطيم». (٥) فى ت، أ: «ففتح لنا». (٦) فى ت، ف: «فقال».

(٧) فى ت: «قال». (٨) فى ت: «وقد». (٩) فى ف، أ: « بيحيى».

(١٠) فى ف، أ: «وهذان». (١١) فى ف، أ: « وقالا». (١٢) فى ف، أ: «ففتح الباب».

(١٣) فى ت: «فإذا إدريس»، وفى ف، أ: « إذا بيوسف». (١٤) فى ت: « إدريس».

قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء» قال: «ففتح فلما خلصت فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه. فرد السلام[١]، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح».

قال: « ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا هارون، عليه السلام، قال: هذا هارون فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فرد السلام[٢]، ثم قال: مرحباً بالأخ والنبي الصالح».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خلصت، فإذا أنا بموسى قال: هذا موسى، عليه السلام، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح». قال: «فلما تجاوزته بكى. قيل له: مايبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا إبراهيم، عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم، فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه، فرد السلام[٣]، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح».

قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قِلال هَجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى». قال: «وإذا أربعة أنهار: نهرانِ باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ماهذا ياجبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات».

قال: ثم رفع إلى البيت المعمور.

قال قتادة: وحدثني الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه.

ثم رجع إلى حديث أنس [قال: « ثم][٤] أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل». قال: «فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة وأنت[٥] عليها وأمّتك».

قال: «ثم فرضت الصلاة خمسين صلاة كل يوم». قال: «فنزلت حتى انتهيت إلى[٦] موسى، قال[٧]: ما فرض ربك على أمتك ؟» قال: «قلت[٨]: خمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى

(١ ـ ٣) في ف، أ: «فرد على السلام».

(٤) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

(٥) في ت، ف، أ: « أنت». (٦) في أ: « أتيت». (٧) في أ: «فقال».

(٨) في ف، أ: « فقلت».

ربك فاسأله التخفيف عن أمتك[١] ». قال: «فرجعت فوضع عنى عشراً، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت ؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال: فرجعت فوضع عنى عشراً أخر. فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بثلاثين صلاة. قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال:«فرجعت فوضع عنى عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت ؟ قلت: بعشرين[٢] صلاة كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشرين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال:«فرجعت فوضع عنى عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت ؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات فى كل يوم. فقال: إن أمتك[٣] لا تستطيع لعشر صلوات كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك[٤] لا تستطيع لخمس صلوات كل يوم وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال:«قلت: لقد[٥] سألت ربى [عز وجل][٦] حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم. فنفذت ،فنادانى مناد: قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى ».

وأخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة، بنحوه [٧].

رواية أنس عن أبى ذر:

قال البخارى: حدثنا يحيى بن بُكَيْر، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر، رضى الله عنه، يحدث أن رسول اللّه ﷺ قال: « فرج سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج [صدرى ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه][٨] فى صدرى، ثم أطبقه. ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء، فلما جئت إلى السماء [الدنيا][٩] قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معى محمد. قال: أرسل إليه ؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا وإذا رجل قاعد على يمينه أَسْوِدَة وعلى يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَم[١٠] بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى.

«ثم عرج بى إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال له الأول،

---

(١) فى ف، أ: « لأمتك». (٢) فى ف: « فقلت أمرت بعشرين». (٣، ٤) فى ف: « قال إمتك».
(٥) فى ف، أ:« قد». (٦) زيادة من: أ.
(٧) المسند(٤/٢٠٨) وصحيح البخارى برقم(٣٣٩٣) ومعلقا برقم (٧. ٣٢) وصحيح مسلم برقم (١٦٤).
(٨، ٩) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى. (١٠) فى ت:« نطف».

ففتح». قال أنس: فذكر أنه وجد فى السموات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم ،ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم فى السماء الدنيا، وإبراهيم فى السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل بالنبى ﷺ بإدريس قال:«مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ فقال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. قلت[(١)]: من هذا؟ قال: موسى[(٢)]. ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: عيسى[(٣)] ابن مريم. ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال الزهرى: فأخبرنى ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حَبَّة[(٤)] الأنصارى كانا يقولان: قال النبى ﷺ: «ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام». قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول اللّه ﷺ: « ففرض اللّه على أمتى خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض اللّه على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت [فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها. فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك . فرجعت فوضع شطرها. فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعته][(٥)] فقال: هى خمس وهى خمسون، لا يبدل القول لدىّ. فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك. قلت: قد استحييت من ربى. ثم انطلق بى حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان[(٦)] لا أدرى ما هى، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جَنَابذ[(٧)] اللؤلؤ وإذا ترابها المسك».

هذا لفظ البخارى فى «كتاب الصلاة»[(٨)]، ورواه فى ذكر بنى إسرائيل، وفى الحج، وفى أحاديث الأنبياء من طرق أخر، عن يونس، به[(٩)]. ورواه مسلم فى صحيحه فى «كتاب الإيمان» منه، عن حَرْملة، عن ابن وهب، عن يونس به نحوه[(١٠)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، عن قتادة، عن عبد اللّه بن شَقيق قال: قلت لأبى ذر: لو رأيت رسول اللّه ﷺ لسألته. قال: وماكنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إنى قد سألته فقال :«إنى قد رأيته[(١١)] نوراً أنى أراه »[(١٢)].

هكذا قد وقع فى رواية الإمام أحمد. وأخرجه مسلم فى صحيحه، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد اللّه بن شقيق، [عن أبى ذر قال: سألت رسول اللّه ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: « إنى نور أنى أراه ».

وعن محمد بن بَشَّار، عن معاذ بن هشام، حدثنا أبى، عن قتادة، عن عبد اللّه بن شقيق][(١٣)] قال: قلت لأبى ذر: لو رأيت رسول اللّه ﷺ لسألته. فقال[(١٤)]: عن أى شىء كنت تسأله؟ قال:

(١) فى ف: «فقلت». (٢) فى ف، أ: «هذا موسى». (٣) فى ف، أ: «هذا عيسى».
(٤) فى ت: «حية». (٥) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى. (٦) فى ف: « الألوان».
(٧) فى ف : « جبال»، وفى أ: «حبائل».
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٤٩).
(٩) صحيح البخارى برقم (١٦٣٦، ٣٣٤٢).
(١٠) صحيح مسلم برقم (١٦٣).
(١١) فى ت، ف، أ: « رأيت».
(١٢) المسند (٥/١٤٧).
(١٣) زيادة من ت، ف، أ، ومسلم. (١٤) فى ف: « قال».

كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: « رأيت نوراً» [(١)].

رواية أنس عن أبى بن كعب الأنصارى، رضى الله عنه :

قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن إسحاق بن محمد بن المسيبى[(٢)]، حدثنا أنس بن عياض، عن يونس بن يزيد قال: قال ابن شهاب: قال أنس بن مالك: كان أبى بن كعب يحدث: أن رسول الله ﷺ قال: « فرج سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغها[(٣)] فى صدرى ثم أطبقه، ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء. فلما جاء السماء [فافتتح فقال : من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معى محمد. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فافتتح. فلما علونا السماء الدنيا][(٤)] إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى قال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح». قال: «قلت لجبريل: من هذا ؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة[(٥)] عن يمينه وشماله نسم بنيه، فأهل اليمين هم أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله هم أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى». قال: «ثم عرج بى جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح له». قال أنس: فذكر أنه وجد فى السموات: آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت لى كيف منازلهم؟ غير أنه ذكر أنه وجد آدم، عليه السلام، فى السماء الدنيا، وإبراهيم فى السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبى الصالح والأخ والصالح». قال: «قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريس»، قال: «ثم مررت بموسى، فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا. قال: هذا عيسى ابن مريم» قال: «ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال ابن شهاب: وأخبرنى ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصارى كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام» قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فرض الله على أمتى خمسين صلاة» قال: «فرجعت بذلك حتى أمر[(٦)] على موسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. فقال لى موسى: راجع ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك» قال: «فراجعت ربى. فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك[(٧)] فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت[(٨)] فقال: هى خمس وهى خمسون، لا يبدل القول لدى». قال: «فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت[(٩)]: قد استحييت من ربى» قال: «ثم انطلق بى حتى أتى سدرة المنتهى». قال: «فغشيها ألوان ما أدرى[(١٠)] ماهى؟» قال : «ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك».

هكذا رواه عبد الله بن[الإمام][(١١)] أحمد فى مسند أبيه[(١٢)]. وليس هو فى شىء من الكتب

(١) صحيح مسلم برقم(١٧٨).
(٢) فى ف، أ: « بن محمد بن المثنى».
(٣) فى ت: « ففرغهما».
(٤) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٥) فى ت، ف :«الأسودة التى».
(٦) فى ت، ف، أ: «حتى أتى».
(٧) فى ف: « راجع ربك».
(٨) فى ف، أ: «فرجعت ربى».
(٩) فى ت: «قلت».
(١٠) فى ف: « لا أدرى».
(١١) زيادة من: ف،أ.
(١٢) زوائد المسند(٥/ ١٤٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٦٦): « رجاله رجال الصحيح».

الستة، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس، عن الزهرى[١]، عن أبي ذر، مثل هذا السياق سواء، فالله أعلم[٢].

رواية بريدة بن الحصيب الأسلمى:

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم ـ واللفظ له ـ قالا: حدثنا أبو نُميلَة، أخبرنا الزبير بن جنادة، عن عبد الله بن بُرَيْدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسرى به[٣] قال: فأتى جبريل الصخرة التى ببيت المقدس، فوضع إصبعه فيها فخرقها فشد بها البراق».

ثم قال البزار: لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة إلا أبو نُميلَة، ولا نعلم[٤] هذا الحديث [يروى][٥] إلا عن بريدة. وقد رواه الترمذى فى التفسير من جامعه، عن يعقوب بن إبراهيم الدَّوْرَقِى به[٦] وقال: غريب.

رواية جابر بن عبد الله، رضى الله عنه[٧]:

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن صالح، عن ابن شهاب قال: قال أبو سلمة: سمعت جابر بن عبد الله يحدث: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول[٨]: «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس، قمت فى الحجر فَجَلَّى الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

أخرجاه فى الصحيحين من طرق، عن الزهرى، به[٩].

وقال البيهقى: أخبرنا أحمد بن الحسن[١٠] القاضى، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس ابن محمد الدورى، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبى، عن صالح بن كَيْسَان، عن ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس، لقى فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أتى بقدحين: قدح من لبن وقدح خمر، فنظر إليهما، ثم أخذ قدح اللبن. فقال جبريل[١١]: أصبت، هديت للفطرة[١٢]، لو اخترت الخمر لغوت أمتك. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة، فأخبر أنه أسرى به، فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه.

قال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهز ـ أو كلمة نحوها ـ ناس من قريش إلى أبى بكر فقالوا: هل لك فى صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة فى ليلة واحدة! فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدقه بأن يأتى الشام فى ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إنى أصدقه بأبعد من ذلك[١٣] أصدقه بخبر السماء. قال أبو سلمة: فبها سمى أبو بكر: الصديق.

---

(١) فى ت، ف، أ: «عن الزهرى عن أنس».
(٢) فى ت: «والله أعلم».
(٣) فى ف: «أسرى بى».
(٤) فى ت: «يعلم».
(٥) زيادة من أ.
(٦) سنن الترمذى برقم (٣١٣٢).
(٧) فى ف، أ: «عنهما».
(٨) فى ت، ف، أ: «قال».
(٩) المسند (٣/٣٧٧)، وصحيح البخارى برقم (٤٧١٠) وصحيح مسلم برقم (١٧٠).
(١٠) فى ت، ف: «الحسين».
(١١) فى ف، أ: «فقال له جبريل عليه السلام».
(١٢) فى ف: «الفطرة».
(١٣) فى ت: «من هذا».

قال أبو سلمة: فسمعت جابر بن عبد اللَّه يحدث أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس، قمت فى الحجر، فجلى اللَّه لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه »[١].

رواية حذيفة بن اليمان، رضى اللَّه عنه :

قال الإمام أحمد: ثنا أبو النضر، ثنا شيبان، عن عاصم، عن زرٍّ بن حُبَيْش قال: أتيت على حذيفة بن اليمان وهو يحدث عن ليلة أسرى بمحمد ﷺ، وهو يقول: «فانطلقنا[٢] حتى أتينا[٣] بيت المقدس». فلم يدخلاه. قال: قلت: بل دخله رسول اللَّه ﷺ ليلتئذ وصلى فيه. قال: ما اسمك يا أصلع ؟ فإنى أعرف وجهك ولا أدرى ما اسمك؟ قال: قلت: أنا زر بن حُبَيْش. قال: فما علمك بأن رسول اللَّه ﷺ صلى فيه ليلتئذ؟ قال: قلت: القرآن يخبرنى بذلك. قال: من تكلم بالقرآن فلج[٤]، اقرأ. قال فقلت: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**﴾ قال: يا أصلع، هل تجد «صلى فيه»؟ قلت: لا. قال: واللَّه ما صلى فيه رسول اللَّه ﷺ ليلتئذ، ولو صلى فيه لكتب عليكم صلاة فيه، كما كتب عليكم صلاة فى البيت العتيق، واللَّه ما زايلا البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء، فرأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع، ثم عادا عودهما على بدئهما. قال: ثم ضحك حتى رأيت نواجذه . قال: وتحدثوا[٥] أنه ربطه لا يفر منه، وإنما سخره له عالم الغيب والشهادة. قلت :أبا عبد اللَّه[٦] ،أى دابة البراق ؟ قال :دابة أبيض طويل هكذا، خطوه مد البصر.

ورواه أبو داود الطيالسى، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، به. ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير من حديث عاصم ـ وهو ابن أبى النجود ـ به[٧]، وقال الترمذى: حسن صحيح .

وهذا الذى قاله حذيفة ،رضى اللَّه عنه، نفى، وما أثبته غيره عن رسول اللَّه ﷺ من ربط الدابة بالحلقة ومن الصلاة بالبيت المقدس ،مما سبق وما سيأتى مقدم على قوله، واللَّه أعلم بالصواب.

رواية أبى سعيد ـ سعد بن مالك بن سنان الخدرى :

قال الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب «دلائل النبوّة»:

أخبرنا أبو عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو بكر يحيى بن أبى طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، أخبرنا أبو محمد راشد الحمانى، عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، رضى اللَّه عنه، عن النبى ﷺ أنه قال له أصحابه: يارسول اللَّه، أخبرنا عن ليلة أسرى بك فيها، قال: قال اللَّه عز وجل :﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾،

---

(١) دلائل النبوة(٢/ ٣٥٩).

(٢) فى ف: « فانطلقا». (٣) فى ف: « أتيا». (٤) فى ت، ف، أ : «فلح».

(٥) فى ت: « ويحدثون» وفى ف، أ: « وتحدثون». (٦) فى ت: «ياعبد الله».

(٧) المسند (٥/ ٣٨٧)، ومسند الطيالسى برقم(٤١١)، وسنن الترمذى برقم (٣١٤٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٨٠).

قال: فأخبرهم فقال: «فبينا أنا نائم عشاء فى المسجد الحرام، إذ أتانى آت فأيقظنى، فاستيقظت فلم أر شيئاً، وإذا أنا بكهيئة خيال، فأتبعته بصرى حتى خرجت من المسجد[١]، فإذا أنا بدابة أدنى فى شبهه بدوابكم هذه، بغالكم هذه، مضطرب[٢] الأذنين يقال له: البراق. وكانت الأنبياء تركبه قبلى، يقع حافره عند مَدِّ بصره، فركبته، فبينما أنا أسير عليه، إذ دعانى داع عن يمينى: يامحمد، انظرنى أسألك يامحمد، انظرني أسألك، فلم أجبه ولم أقم عليه، [فبينما أنا أسير عليه، إذ دعانى داع عن يسارى: يامحمد انظرنى أسألك، فلم أجبه ولم أقم عليه][٣] ، فبينما أنا أسير، إذ أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها، وعليها من كل زينة خلقها اللَّه، فقالت: يامحمد، انظرنى أسألك. فلم ألتفت إليها ولم أقم عليها. حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتى بالحلقة التى كانت الأنبياء توثقها بها. فأتانى[٤] جبريل، عليه السلام، بإناءين: أحدهما خمر، والآخر لبن، فشربت اللبن، وتركت الخمر، فقال جبريل: أصبت الفطرة [٥] فقلت: اللَّه أكبر، اللَّه أكبر. فقال جبريل: ما رأيت فى وجهك هذا؟» قال: «فقلت: بينما أنا أسير، إذ دعانى داع عن يمينى: يامحمد، انظرنى أسألك. فلم أجبه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعى اليهود، أما إنك لو أجبته ـ أو: وقفت عليه ـ لتهودت أمتك» قال[٦]: « فبينما أنا أسير، إذ دعانى داع عن يسارى قال: يامحمد، انظرنى أسألك. فلم ألتفت إليه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعى النصارى، أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك». قال: «فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها عليها من كل زينة خلقها اللَّه تقول: يامحمد، انظرنى أسألك. فلم أجبها ولم أقم عليها». قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتها أو أقمت عليها، لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة».

قال : «ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلى كل واحد منا ركعتين.

ثم أتيت بالمعراج الذى تعرج[٧] عليه أرواح بنى آدم[٨]، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج، أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحاً إلى السماء، فإنما يشق بصره طامحاً إلى السماء عجبه بالمعراج». قال: «فصعدت أنا وجبريل، فإذا أنا بملك يقال له: إسماعيل. وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك، مع كل ملك جُنْده مائة ألف ملك». قال: «وقال اللَّه[عز وجل][٩] **﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾** [المدثر: ٣١] فاستفتح[١٠] جبريل باب السماء، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد بعث إليه؟ قال: نعم. فإذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه اللَّه، عز وجل على صورته[١١]، هو تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين، فيقول: روح طيبة، ونفس طيبة، اجعلوها فى عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول: روح خبيثة، ونفس خبيثة، اجعلوها فى سجين.

(١) فى ت، ف، أ: «المسجد الحرام». (٢) فى ف، أ: « غير أنه مضطرب». (٣) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٤) فى ت: أتانى»، و فى ف: « ثم أتانى»، (٥) فى ف، أ: «أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك».
(٦) فى ف: «قلت». (٧) فى ت: «يعرج». (٨) فى أ: «الأنبياء».
(٩) زيادة من: ف، أ. (١٠) فى ف، أ: «قال: فاستفتح».
(١١) فى أ: «على صورته لم يتغير منه شىء».

ثم مضيت هنية[١] ،فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقربها أحد، وإذا أنا بأخْونَة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن، عندها أناس يأكلون منها، قلت: ياجبريل، من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون[٢] الحرام».

قال: «ثم مضيت هنية[٣] ،فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت، كلما نهض أحدهم خرّ يقول: اللهم، لا تقم الساعة»، قال: «وهم على سابلة آل فرعون». قال:«فتجيء السابلة فتطؤهم». قال:«فسمعتهم يضجون إلى اللَّه عز وجل». قال: «قلت: ياجبريل، من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾» [البقرة: ٢٧٥].

قال: «ثم مضيت هنية[٤] ،فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل». قال:« فتفتح على أفواههم ويلقمون من ذلك الجمر، ثم يخرج من أسافلهم. فسمعتهم يضجون إلى اللَّه، عز وجل، فقلت[٥]: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾» [النساء: ١٠].

قال:«ثم مضيت هنية، فإذا أنا بنساء يعلقن بثديهن[٦] فسمعتهن يضججن إلى اللَّه، عز وجل، قلت: ياجبريل، من هؤلاء النساء ؟ قال: هؤلاء الزناة من أمتك ».

قال:«ثم مضيت هنية[٧] فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم، فيلقمونه، فيقال له: كل كما كنت تأكل من لحم أخيك .قلت: ياجبريل، من هؤلاء ؟ قال :هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون».

قال:« ثم صعدنا إلى السماء الثانية، فإذا أنا برجل أحسن ما خلق اللَّه، عز وجل، قد فضل الناس فى الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قلت: ياجبريل، من هذا ؟ قال: هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم عليّ .

ثم صعدت[٨] إلى السماء الثالثة، فإذا أنا بيحيى وعيسى، عليهما السلام، ومعهما نفر من قومهما، فسلمت عليهما وسلما عليّ.

ثم صعدت[٩] إلى السماء الرابعة، فإذا أنا بإدريس قد رفعه اللَّه مكاناً علياً، فسلمت عليه وسلم عليّ» .

قال: «ثم صعدت[١٠] إلى السماء الخامسة، فإذا [أنا][١١] بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء، تكاد لحيته تصيب سرته من طولها، قلت: ياجبريل، من هذا؟ قال: هذا المحبب فى قومه، هذا هارون بن عمران، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم عليّ .

ثم صعدت[١٢] إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى بن عمران، رجل آدم كثير الشعر، لو كان

---

(١) فى ف، أ: « هنيهة».
(٢) فى أ: « ويأكلون».
(٣، ٤) فى ف، أ: « هنيهة».
(٥) فى ف: « قلت».
(٦) فى ت ، أ : «بأيديهن».
(٧) فى ف، أ: « هنيهة».
(٨، ٩، ١٠) فى ف، أ: « صعدنا».
(١١) زيادة من: ت، ف، أ.
(١٢) فى ت : «صعد بى».

عليه قميصان لنفذ شعره دون القميص، فإذا[١] هو يقول: يزعم الناس أنى أكرم على اللّه من هذا، بل هذا أكرم على اللّه تعالى منى». قال: « قلت: ياجبريل، من هذا ؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران، عليه السلام، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم على.

ثم صعدت إلى السماء السابعة، فإذا أنا بأبينا إبراهيم[٢] خليل الرحمن ساند ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال، قلت: ياجبريل، من هذا ؟ قال: هذا أبوك [٣] خليل الرحمن ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه فسلم علىّ، وإذا [أنا][٤]بأمتى شطرين: شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس. وشطر عليهم ثياب رُمْد». قال: « فدخلت البيت المعمور ودخل معى الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم ثياب رمد، وهم على خير. فصليت أنا ومن معى فى البيت المعمور، ثم خرجت أنا ومن معى». قال: « والبيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك، لا[٥] يعودون فيه إلى يوم القيامة».

قال: « ثم دفعت لى سدرة المنتهى، فإذا كل ورقة منها تكاد أن تغطى هذه الأمة ، وإذا فيها عين تجرى يقال لها: سلسبيل، فينشق منها نهران، أحدهما: الكوثر ،والآخر: يقال له: نهر الرحمة. فاغتسلت فيه، فغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر .

ثم إنى دفعت إلى الجنة، فاستقبلتنى جارية، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ فقالت[٦]: لزيد بن حارثة، وإذا [أنا][٧] بأنهار من [ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من][٨] عسل مصفى، وإذا رمانها كأنه الدلاء عظماً، وإذا أنا بطيرها كأنها بختيكم هذه». فقال عندها ﷺ: « إن اللّه تعالى قد أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

قال: « ثم عرضت على النار، فإذا فيها غضب اللّه وزجره ونقمته، لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها ،ثم أغلقت [٩]دونى.

ثم إنى دفعت[١٠] إلى سدرة المنتهى، فتغشانى فكان بينى وبينه قاب قوسين أو أدنى». قال: «ونزل على كل ورقة ملك من الملائكة». قال: «وفرضت على خمسون [١١] وقال: لك بكل حسنة عشر، إذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة، فإذا عملتها كتبت لك عشراً ، وإذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شىء، فإن[١٢] عملتها كتبت عليك سيئة واحدة.

ثم دفعت إلى موسى فقال: بم أمرك ربك؟ قلت: بخمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، ومتى لا [تطيقه][١٣]تكفر[١٤]. فرجعت إلى ربى [عزوجل][١٥] فقلت: يارب، خفف عن أمتى، فإنها أضعف الأمم. فوضع عنى عشراً، وجعلها

---

(١) فى ت، ف: «وإذا».
(٢) فى ت: « فإذا أنا بإبراهيم».
(٣) فى ف، أ: «أبوك إبراهيم».
(٤) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٥) فى ت، ف، أ: «ثم لا».
(٦) فى ف: «قالت».
(٧، ٨) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٩) فى ف: « غلقت».
(١٠) فى ف : « رفعت».
(١١) فى أ: «خمسون صلاة» .
(١٢) فى ف: « فإذا».
(١٣) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(١٤) فى ت: «يكفر».
(١٥) زيادة من ف، أ.

أربعين. فما زلت أختلف بين موسى وربى[١] كلما أتيت عليه قال لى مثل مقالته، حتى رجعت إليه فقال لى: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات. قال: ارجع إلى ربك[عز وجل][٢] فاسأله التخفيف لأمتك. فرجعت إلى ربى [سبحانه وتعالى][٣] فقلت: أى رب، خفف عن أمتى، فإنها أضعف الأمم. فوضع عنى خمساً، وجعلها خمساً. فنادانى ملك عندها: تمت فريضتى، وخففت عن عبادى، وأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها.

ثم رجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: بخمس صلوات. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه لا يؤوده شيء، فاسأله التخفيف لأمتك». «فقلت[٤]: رجعت إلى ربى حتى استحييته» ثم أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب: «إنى أتيت البارحة بيت المقدس، وعرج بى إلى السماء، ورأيت كذا وكذا[٥]». فقال أبو جهل - يعنى ابن هشام ـ: ألا تعجبون مما يقول محمد؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس، ثم أصبح فينا. وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهراً، ومقفلة شهراً، فهذا مسيرة شهرين فى ليلة واحدة! قال: فأخبرهم بعير لقريش: «لما كنت[٦] فى مصعدى رأيتها فى مكان كذا وكذا، وأنها نفرت، فلما رجعت رأيتها عند العقبة». وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا وكذا، ومتاعه كذا وكذا. فقال أبو جهل: يخبرنا[٧] بأشياء. فقال رجل من المشركين: أنا أعلم الناس ببيت المقدس، وكيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ [فإن يك محمد صادقا فسأخبركم، وإن يك كاذباً فسأخبركم. فجاء ذلك المشرك فقال: يامحمد، أنا أعلم الناس ببيت المقدس، فأخبرنى كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل][٨]. قال: فرفع لرسول اللّه ﷺ بيت المقدس من مقعده، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته: بناؤه كذا وكذا، وهيئته كذا وكذا، وقربه من الجبل كذا وكذا. فقال الآخر: صدقت. فرجع إلى أصحابه فقال: صدق محمد فيما قال أو نحو هذا[٩] الكلام[١٠].

وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير بطوله، عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن أبى هارون العبدى ، وعن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبى هارون العبدى، به. ورواه، أيضًا، من حديث محمد بن إسحاق: حدثنى روح بن القاسم، عن أبى هارون، به نحو سياقه المتقدم[١١].

ورواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن أحمد بن عبدة، عن أبى عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، فذكره[١٢] بسياق طويل حسن أنيق، أجود مما ساقه غيره، على غرابته وما فيه من النكارة.

---

(١) فى ف، أ: « بين موسى وبين ربى عز وجل». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) زيادة من : ت.
(٤) فى ف، أ: «قال: فقلت». (٥) فى ف، أ: «ورأيت كذا ورأيت كذا». (٦) فى ت، ف، أ: «كانت».
(٧) من ف، أ: « تخبرنا». (٨) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٩) فى ت: « أو نحوه من هذا».
(١٠) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٠).
(١١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٠).
(١٢) فى ف، أ: « فذكر».

ثم ذكره[١] البيهقى، أيضاً، من رواية نوح بن قيس الحُدَّانى وهُشَيم ومعمر، عن أبى هارون العبدى ـ واسمه عمارة بن جوين[٢] وهو مضعف عند الأئمة[٣].

وإنما سقنا حديثه ههنا لما فى حديثه[٤] من الشواهد لغيره ، ولما رواه البيهقى:

أخبرنا[الإمام][٥] أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن[٦]،أنبأنا أبو نعيم أحمد بن محمد بن إبراهيم البزاز، حدثنا أبو حامد[٧] بن بلال، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا يزيد بن أبى حكيم قال: رأيت فى النوم رسول اللَّه ﷺ قلت: يا رسول اللَّه، رجل من أمتك يقال له:« سفيان الثورى» لا بأس به؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «لا بأس به»، حدثنا عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، عنك [٨] ليلة أسرى بك، قلت[٩]: «رأيت فى السماء» فحدثته بالحديث؟ فقال لى: «نعم». فقلت له: يارسول اللَّه، إن ناساً من أمتك يحدثون عنك فى السرى بعجائب؟ فقال لى: «ذلك[١٠] حديث القصاص»[١١].

رواية شداد بن أوس:

قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذى: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن الضحاك الزَّبيدى، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبد اللَّه بن سالم[١٢] الأشعرى، عن محمد بن الوليد بن عامر الزبيدى، حدثنا الوليد[١٣] بن عبد الرحمن، عن جبير[١٤] بن نفير: حدثنا[١٥] شداد ابن أوس قال: قلنا: يارسول اللَّه، كيف أسرى بك ؟ قال: «صليت لأصحابى صلاة العتمة بمكة معتماً». قال: « فأتانى جبريل، عليه السلام، بدابة أبيض ـ أو قال: بيضاء ـ فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب. فاستصعبت على، فرازها[١٦] بأذنها، ثم حملنى عليها. فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، حتى بلغنا أرضاً ذات نخل[١٧] فأنزلنى فقال: صل. فصليت، ثم ركبنا[١٨] فقال: أتدرى أين صليت ؟ قلت: اللَّه أعلم. قال: صليت بيثرب صليت بطيبة. فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها. ثم بلغنا أرضاً فقال: انزل. [فنزلت][١٩] ثم قال: صل. فصليت، ثم ركبنا، فقال: أتدرى أين صليت؟ قلت: اللَّه أعلم. قال: صليت بمدين، صليت عند شجرة موسى . ثم انطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً، بدت لنا قصور، فقال: انزل. فنزلت، فقال[٢٠]: صل فصليت ثم ركبنا فقال: أتدرى أين صليت؟ قلت: اللَّه أعلم. قال: صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى المسيح ابن مريم. ثم انطلق بى حتى دخلنا المدينة من بابها اليمانى، فأتى قبلة المسجد، فربط فيه دابته، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فصليت من المسجد حيث شاء اللَّه، وأخذنى من العطش أشد ما أخذنى، فأتيت بإناءين[٢١] ، فى أحدهما لبن وفى الآخر

---

(١) فى ت، ف، أ: «ذكر».
(٢) فى ت، أ: « جرين»، وفى ف:« جرير».
(٣) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٦).
(٤) فى أ: « سياقه».
(٥) زيادة من: ت، ف، أ.
(٦) فى ف،أ: «أبو عثمان على بن عبدالرحمن».
(٧) فى ف: « حدثنا أحمد».
(٨) فى ف، أ: «عنك يا رسول الله».
(٩) فى أ: «أنك قلت».
(١٠) فى ت، ف، أ:« ذاك».
(١١) دلائل النبوة (٢/ ٤٠٥).
(١٢) فى ت: « سلام».
(١٣) فى ت، ف «أبو الوليد».
(١٤) فى ت،ف:« أن جبير».
(١٥) فى ت، ف، أ: «قال: حدثنا».
(١٦) فى أ: « مزارها».
(١٧) فى ت: « نخيل».
(١٨) فى ف، أ:« ركبت».
(١٩) زيادة من الدلائل.
(٢٠) فى ت: «قال».
(٢١) فى ت: « بإناءات».

عسل، أرسل إلىّ بهما جميعاً، فعدلت بينهما، ثم هدانى اللَّه عز وجل[١]، فأخذت اللبن فشربت[٢] حتى قَرَعت به جبينى، وبين يدى شيخ متكئ على مثواة له، فقال: أخذ صاحبك الفطرة، إنه ليهدى. ثم انطلق بى حتى أتينا الوادى الذى فيه المدينة، فإذا جهنم [تنكشف][٣] عن مثل الزرابى، قلت: يارسول اللَّه، كيف وجدتها ؟ قال: مثل الحمة السخنة. ثم انصرف بى[٤] فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيراً لهم، قد جمعه فلان، فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد. ثم أتيت أصحابى قبل الصبح بمكة»، فأتانى أبو بكر، رضى اللَّه عنه، فقال: يارسول اللَّه، أين كنت الليلة؟ فقد التمستك فى مظانك[٥]. فقال: «علمت أنى أتيت بيت المقدس الليلة؟». فقال: يارسول اللَّه، إنه مسيرة شهر، فصفه لى. قال: «ففتح لى صراط كأنى أنظر إليه لا يسألنى عن شىء إلا أنبأته عنه». قال أبو بكر: أشهد أنك رسول اللَّه. فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبى كَبْشَة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة! . قال: فقال: «إن من آية ما أقول لكم أنى مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيراً لهم، فجمعه فلان، وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم، عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان». فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون[٦] حتى كان قريب من نصف النهار حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذى وصفه رسول اللَّه ﷺ.

هكذا رواه البيهقى من طريقين عن أبى إسماعيل الترمذى، به[٧] .ثم قال بعد تمامه: «هذا إسناد صحيح، وروى ذلك مفرقاً فى أحاديث غيره، ونحن نذكر من ذلك إن شاء اللَّه ما حضرنا». ثم ساق أحاديث كثيرة فى الإسراء كالشاهد لهذا الحديث. وقد روى هذا الحديث عن شداد بن أوس بطوله الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم فى تفسيره، عن أبيه، عن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدى، به .ولا شك أن هذا الحديث ـ أعنى الحديث المروى عن شداد بن أوس ـ مشتمل[٨] على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقى ، ومنها ما هو منكر، كالصلاة فى بيت لحم، وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس، وغير ذلك. واللَّه أعلم.

رواية عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه قال: حدثنا ابن عباس قال: ليلة أسرى بنبى اللَّه ﷺ دخل الجنة، فسمع فى جانبها وَجْساً[٩] فقال: «يا جبريل، ما هذا؟» قال: «هذا بلال المؤذن». فقال رسول الله ﷺ حين جاء إلى الناس: «قد أفلح بلال، قد رأيت له كذا وكذا ». قال: فلقيه موسى، عليه السلام، فرحب به، وقال: «مرحباً بالنبى الأمى»، قال: «وهو رجل آدم طويل، سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما، فقال: «من هذا ياجبريل ؟» قال: «هذا موسى. [قال: فمضى، فلقيه عيسى فرحب به، وقال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا عيسى». قال][١٠] فمضى فلقيه شيخ جليل متهيب فرحب به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه ، قال: «من هذا ياجبريل؟». قال: «هذا أبوك إبراهيم»، قال: ونظر فى النار، فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: «من هؤلاء ياجبريل؟» قال: «هؤلاء الذين يأكلون لحم[١١] الناس»، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً، قال: «من هذا ياجبريل؟».

---

(١) فى أ: « تعالى». (٢) فى ت: «فشربت اللبن». (٣) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٤) فى أ: « بنا». (٥) فى ف، أ: « منامك». (٦) فى ت: « ينتظرون».
(٧) دلائل النبوة (٢/ ٣٥٥).
(٨) فى ف، أ: « يشتمل». (٩) فى ت، ف، أ: « وخشًا». (١٠) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(١١) فى أ: « لحوم».

قال: «هذا عاقر الناقة»، قال: فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى قام يصلى، [فالتفت ثم التفت][١] فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. فلما انصرف جيء بقدحين، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذى كان معه القدح: أصبت الفطرة . إسناد صحيح ولم يخرجوه [٢].

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ثابت أبو زيد، حدثنا هلال، حدثنى عكرمة، عن ابن عباس قال: أسرى بالنبى ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبعيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول! فارتدوا كفاراً، فضرب الله رقابهم مع أبى جهل[٣] وقال أبو جهل[٤]: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمرا وزبدا فتزقموا، ورأى الدجال فى صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم . فسئل النبى ﷺ عن الدجال فقال: «رأيته فيلمانياً أقمر هجانا ، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درى، كأن شعر رأسه أغصان شجرة. ورأيت عيسى أبيض، جعد الرأس، حديد البصر ، مبطن الخلق . ورأيت موسى أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق. ونظرت إلى إبراهيم فلم أنظر إلى إرب منه إلا نظرت إليه منى، حتى كأنه صاحبكم. قال جبريل: سلم على مالك فسلمت عليه ».

ورواه النسائى من حديث أبى زيد ثابت بن يزيد[٥] عن هلال ـ وهو ابن خباب ـ به، وهو[٦] إسناد صحيح .

طريق أخرى:

وقال البيهقى: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر الشافعى، أنبأنا إسحاق بن الحسن، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، عن أبى العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران، رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس». وأرى مالكاً خازن جهنم والدجال، فى آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿ **فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ** ﴾ [السجدة: ٢٣] فكان قتادة يفسرها: أن نبى الله [ﷺ][٧] قد لقي موسى [عليه السلام][٨] ﴿ **وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ قال: جعل الله موسى هدى لبنى إسرائيل[٩].

رواه مسلم فى الصحيح عن عبد بن حميد، عن يونس بن محمد، عن شيبان[١٠] .وأخرجاه من حديث شعبة عن قتادة مختصراً [١١].

(١) زيادة من المسند مستفاد من هامش ط. الشعب.

(٢) المسند(١/٢٥٧) وفيه قابوس بن أبى ظبيان وقد تكلم فيه خاصة روايته عن أبيه، وقال ابن عدى: «أحاديثه متقاربة، وأرجو أنه لا بأس» فمثل حديثه أقرب درجاته التحسين.

(٣) فى ف، أ: «أبى جهل قبحهم الله». (٤) فى ف، أ: «أبو جهل قبحه الله». (٥) فى ت، ف: «أبى يزيد ثابت بن زيد».

(٦) المسند (١/ ٣٧٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٤٨٤).

(٧) زيادة من ت،أ. (٨) زيادة من أ.

(٩) دلائل النبوة (٢/٣٨٦).

(١٠) صحيح مسلم برقم(١٦٥).

(١١) صحيح البخارى برقم (٣٢٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٦٥).

طريق أخرى:

قال [البيهقى: أخبرنا على بن أحمد بن عبدان، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفَّار، حدثنا دُبَيْس المُعدَّل، حدثنا عفان قال: حدثنا][١] حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لما أسرى بى، مرت بى رائحة طيبة، فقلت: ماهذه الرائحة؟ قالوا: ماشطة بنت فرعون وأولادها، سقط مُشْطُهَا من يدها فقالت: باسم اللَّه: فقالت ابنة فرعون: أبى؟ قالت: ربى وربك ورب أبيك. قالت: أو لك رب غير أبى؟ قالت: نعم، ربى وربك ورب أبيك اللَّه». قال: « فدعاها فقال: ألك رب غيرى؟ قالت: نعم، ربى وربك الله، عز وجل» . قال: « فأمر بنقرة[٢] من نحاس فأحميت، ثم أمر بها لتلقى فيها، قالت: إن لى [إليك][٣] حاجة. قال: ماهى؟ قالت: تجمع عظامى وعظام ولدى فى موضع، قال[٤]: ذاك لك، لما لك علينا من الحق»، قال: «فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً، حتى بلغ رضيعاً فيهم، فقال: يا أمه، قعى ولا تقاعسى، فإنك[٥] على الحق». قال: «وتكلم أربعة وهم صغار: هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم، عليه السلام»[٦].

إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه .

طريق أخرى:

وقال الإمام أحمد [أيضاً][٧]: حدثنا محمد بن جعفر وروح المعنى[٨] قالا: حدثنا عوف، عن زُرَارة بن أوفى، عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لما كان ليلة أسرى بى وأصبحت بمكة، فظعت[بأمرى][٩] وعرفت أن الناس مكذبى» فقعد[١٠] معتزلاً حزيناً، فمرّ به عدو الله أبو جهل[١١] فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال له رسول اللَّه ﷺ: «نعم» قال: وماهو؟ قال «إنى أسرى بى الليلة»: قال إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قال ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال: «نعم». قال: فلم يره أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه، فقال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتنى؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «نعم». قال: هيا[١٢] معشر بنى كعب بن لؤى، قال: فانتفضت[١٣] إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومك بما حدثتنى. فقال رسول اللَّه ﷺ: « إنى أسرى بى الليلة». فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: « نعم». قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب ـ زعم ـ قالوا: وتستطيع أن تنعت [لنا][١٤] المسجد ـ وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ـ قال[١٥] رسول اللَّه ﷺ: « فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى التبس علىّ بعض النعت» قال: « فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه، حتى وضع دون دار عقيل ـ أو عقال ـ فَنَعَتُّه

(١) زيادة من ف، أ، والدلائل. (٢) فى ت، ف، أ: « ببقرة». (٣) زيادة من، أ، والدلائل.
(٤) فى ف: « فقال». (٥) فى ف: « فأنا».
(٦) دلائل النبوة (٢/ ٣٨٩) ورواه البزار فى مسنده برقم(٥٤) « كشف الأستار» من طريق عفان به وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط.
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى ف، أ: «وروح بن المعين». (٩) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(١٠) فى ت ف: « فقعدت»، وفى أ: « فعدت». (١١) فى ف، أ: «أبو جهل قبحه الله». (١٢) فى ف، أ: « فيا».
(١٣) فى ت، ف: « فانقضت». (١٤) زيادة من ت، ف، أ، والمسند. (١٥) فى ف: «فقال».

وأنا أنظر إليه». قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه ـ يقول عوف ـ :قال:فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب .

وأخرجه[١] النسائى من حديث عوف بن أبى جميلة ـ وهو الأعرابى، به. ورواه البيهقى من حديث النضر بن شميل وهوذة، عن عوف وهو ابن أبى جميلة الأعرابى، أحد الأئمة الثقات، به[٢].

رواية عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه:

قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا السرى بن خزيمة، حدثنا يوسف بن بُهلول، حدثنا عبد الله بن نمير، عن مالك بن مغْوَل، عن الزبير بن عدى، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن مرة الهَمْدَانى، عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ، فانتهى إلى سدرة المنتهى، وهى فى السماء السادسة، وإليها ينتهى ما يصعد به حتى يقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط [به][٣] من فوقها حتى يقبض[منها][٤]، ﴿**إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ**﴾ [النجم:١٦] قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطى رسول الله ﷺ[٥] الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله [٦] المقحمات ،يعنى الكبائر .

ورواه مسلم فى صحيحه، عن محمد بن عبد الله بن نمير وزهير بن حرب، كلاهما عن عبد الله ابن نمير، به[٧] . ثم قال البيهقى: « وهذا الذى ذكره عبد الله بن مسعود طرف من حديث المعراج ، وقد رواه أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعَة، عن النبى ﷺ، ثم عن أبى ذر، عن النبى ﷺ، ثم رواه مرة مرسلاً دون ذكرهما» [٨] ،ثم إن البيهقى ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدّم .

قلت: وقد روى عن ابن مسعود بأبسط من هذا، وفيه غرابة، وذلك فيما رواه «الحسن بن عرفة» فى جزئه المشهور. حدثنا مروان بن معاوية، عن قنان بن عبد الله النهمى[٩] ،حدثنا أبو ظبيان الجنبى قال: كنا جلوساً عند أبى عبيدة بن عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ ومحمد بن سعد بن أبى وقاص، وهما، جالسان، فقال محمد بن سعد لأبى عبيدة: حدثنا عن أبيك ليلة أسرى بمحمد ﷺ. فقال أبو عبيدة: لا، بل حدثنا أنت عن أبيك. فقال محمد: لو سألتنى قبل أن أسألك لفعلت! قال: فأنشأ أبو عبيدة يحدث يعنى عن أبيه كما سئل قال: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل، فحملنى عليه، ثم انطلق يهوى بنا كلما صعد عقبة استوت رجلاه كذلك مع يديه، وإذا هبط استوت يداه مع رجليه، حتى مررنا برجل طوال سبط آدم، كأنه من رجال أزد شنوءة، وهو يقول ـ فيرفع[١٠] صوته يقول ـ أكرمته وفضلته». قال: « فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال: من هذا معك يا جبريل ؟ قال: هذا أحمد[١١] ، قال: مرحباً بالنبى الأمى العربى، الذى بلغ رسالة ربه، ونصح لأمته». قال: « ثم اندفعنا فقلت: من هذا ياجبريل؟ قال: هذا موسى بن عمران». قال:

(١) فى ت: « أخرجه».
(٢) المسند(١/ ٣٠٩) وسنن النسائى الكبرى برقم(١١٢٨٥) ودلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٦٣).
(٣، ٤) زيادة من، ف، أ، والدلائل. (٥) فى ت: «ﷺ تسليماً». (٦) فى ت:« بالله من أمتى»، وفى ف: « بالله شيئًا».
(٧) دلائل النبوة (٢/ ٣٧٢) وصحيح مسلم برقم(١٧٣).
(٨) دلائل النبوة (٢/ ٣٧٣).
(٩) فى ت، ف، أ:« التيمى». (١٠) فى ف: « فرفع». (١١) فى ت: « محمد».

«قلت: ومن يعاتب؟ قال: يعاتب ربه فيك! قلت: فيرفع صوته على ربه؟! قال: إن اللَّه [عز وجل][(١)] قد عرف له حدته» . قال: « ثم اندفعنا حتى مررنا بشجرة كأن ثمرها السُّرُج تحتها شيخ وعياله». قال: «فقال لى جبريل: اعمد إلى أبيك إبراهيم. فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال إبراهيم: من هذا معك ياجبريل ؟ قال: هذا ابنك أحمد». قال: « فقال: مرحباً بالنبى الأمى الذى بلغ رسالة ربه ونصح لأمته، يابنى، إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلها فى أمتك فافعل» . قال: « ثم اندفعنا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى، فنزلت فربطت الدابة بالحلقة التى فى باب المسجد التى كانت الأنبياء تربط بها. ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين راكع وقائم وساجد». قال: « ثم أتيت بكأسين من عسل ولبن فأخذت اللبن فشربت فضرب جبريل عليه السلام، منكبى وقال: أصبت الفطرة ورب محمد». قال: «ثم أقيمت الصلاة فأممتهم، ثم انصرفنا فأقبلنا »[(٢)].

إسناد غريب ولم يخرجوه، فيه من الغرائب[(٣)]: سؤال الأنبياء عنه عليه السلام ابتداء، ثم سؤاله عنهم[(٤)] بعد انصرافه. والمشهور فى الصحاح كما تقدم: أن جبريل [عليه السلام][(٥)] كان يعلمه بهم أولاً ليسلم عليهم سلام معرفة. وفيه[(٦)] أنه اجتمع بالأنبياء عليهم[(٧)] السلام قبل دخوله المسجد[(٨)]، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم فى السموات، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه، وصلى بهم فيه، ثم إنه ركب البراق وكر راجعاً إلى مكة، واللَّه أعلم .

طريق أخرى :

قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم،أخبرنا العوام، عن جبلة بن سُحَيْم، عن مُؤثر[(٩)] بن عفارة، عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة» قال: « فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام[(١٠)] فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى موسى. فقال: لا علم لى بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا اللَّه عز وجل، وفيما عهد إلى ربى أن الدجال خارج». قال: « ومعى قضيبان، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص». قال: « فيهلكه اللَّه إذا رآنى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتى كافراً، فتعال فاقتله». قال: « فيهلكهم اللَّه، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم[(١١)] ». قال: «فعند[(١٢)] ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم، فلا يأتون على شىء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه» قال: « ثم يرجع الناس إلىّ فيشكونهم. فأدعو اللَّه عليهم، فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم ـ أى: تنتن» قال: «فينزل اللَّه المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر. ففيما عهد إلى ربى: أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم، لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها، ليلاً أو نهاراً» .

وأخرجه ابن ماجه، عن بُنْدار، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب[(١٣)].

---

(١) زيادة من: ف، أ.
(٢) جزء الحسن بن عرفة برقم(٦٩).
(٣) فى ت، ف: « من الغرابة». (٤) فى ت: « ثم سؤالهم له». (٥) زيادة من ف،أ.
(٦) فى ف: « وقيل». (٧) فى ت: «عليه». (٨) فى ف، أ: «المسجد الأقصى».
(٩) فى ت، ف: « مرثد». (١٠) فى ت: «عليه الصلاة والسلام». (١١) فى ت: « وأقطانهم».
(١٢) فى ت: «فبعد».
(١٣) المسند(١/ ٣٧٥)، وسنن ابن ماجة برقم(٤٠٨١) وقال البوصيرى فى الزوائد(٣/ ٢٦١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، مؤثر ابن عفارة ذكره ابن حبان فى الثقات، وباقى رجال الإسناد ثقات».

رواية عبد الرحمن بن قرط، أخى عبد اللَّه بن قرط الثمالى:

قال سعيد بن منصور: حدثنا مسكين بن ميمون ـ مؤذن[١] مسجد الرملة ـ حدثنى عُروة بن رُوَيْم، عن عبد الرحمن بن قُرط، أن رسول اللَّه ﷺ ليلة أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بين زمزم[٢] والمقام، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العلى، فلما رجع قال: «سمعت تسبيحاً فى السموات العلى مع تسبيح كثير[٣]، سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات من ذى العلو بما علا، سبحان العلى الأعلى، سبحانه وتعالى»[٤].

ويذكر هذا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْع**﴾الآية [الإسراء: ٤٤].

رواية عمر بن الخطاب، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى سنان، عن عبيد بن آدم وأبى مريم وأبى شعيب؛ أن عمر بن الخطاب، رضى اللَّه عنه، كان بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس قال: قال أبو سلمة: فحدثنى أبو سنان، عن عبيد بن آدم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب: أين ترى أن أصلى؟ قال[٥]: إن أخذت عنى صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر، رضى اللَّه عنه: ضاهيت اليهودية، [لا][٦] ولكن أصلى حيث صلى رسول اللَّه ﷺ فتقدم إلى القبلة، فصلى ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة فى ردائه، وكنس الناس[٧].

فلم يعظم الصخرة تعظيما يصلى وراءها وهى بين يديه، كما أشار كعب الأحبار وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم. ولكن منّ اللَّه عليه بالإسلام، فهُدى إلى الحق؛ ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين: ضاهيت اليهودية، ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلة اليهود، ولكن أماط الأذى، وكنس عنها الكناس بردائه. وهذا شبيه بما جاء فى صحيح مسلم عن أبى مرثد الغَنَوِى قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها»[٨].

رواية أبى هريرة، رضى الله عنه:

وهى مطولة جداً، وفيها غرابة. قال الإمام أبو جعفر بن جرير فى تفسير «سورة سبحان»: حدثنا على بن سهل، حدثنا حجاج، حدثنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية الرياحى، عن أبى هريرة أو غيره ـ شك أبو جعفر ـ فى قول اللَّه عز وجل: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ قال: جاء جبريل [إلى النبى ﷺ ومعه ميكائيل، فقال جبريل][٩] لميكائيل: ائتنى بطَسْت من ماء زمزم، كيما أطهر قلبه وأشرح له صدره. قال: فشق عنه بطنه، فغسله ثلاث مرات. واختلف إليه

(١) فى ت، أ: «مؤدب». (٢) فى ت، ف: «من بين زمزم». (٣) فى ت: «كبير».

(٤) سيأتى من رواية الطبرانى من طريق سعيد بن منصور، وانظر تخريجه هناك عند الآية: ٤٤ من هذه السورة.

(٥) فى ف: «فقال». (٦) زيادة من ت، ف، والمسند.

(٧) المسند (١/٣٨).

(٨) صحيح مسلم برقم (٩٧٢).

(٩) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.

ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم، فشرح صدره ونزع ماكان فيه من غل، وملأه حلمًا وعلماً، وإيماناً ويقيناً وإسلاماً، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة.

ثم أتاه بفرس فحمل(١) عليه، كل خطوة منه منتهى بصره ـ أو: أقصى بصره ـ قال: فسار وسار معه جبريل عليهما(٢) السلام قال: فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال النبى(٣) ﷺ: « ياجبريل، ما هذا ؟ » قال: هؤلاء المجاهدون فى سبيل اللّه، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين.

ثم أتى على قوم تُرضَخ رؤوسهم بالصخر، كلما رُضِخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شىء، فقال: « ما هؤلاء ياجبريل ؟ » قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الإبل والنعم، ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها، قال(٤): «ما هؤلاء ياجبريل؟» قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم اللّه شيئاً وما اللّه بظلام للعبيد.

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر(٥) ولحم آخر نيئ فى قِدر خبيث، فجعلوا يأكلون من النيئ الخبيث ويدعون النضيج الطيب، فقال: «ما هؤلاء ياجبريل ؟ » فقال: هذا الرجل من أمتك، تكون عنده المرأة الحلال الطيبة، فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ،[والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً، فتأتى رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح](٦).

قال: ثم أتى على خشبة على الطريق، لا يمر بها ثوب إلا شقته، ولا شىء إلا خرقته، قال: «ماهذا ياجبريل؟» قال: هذا مثل أقوام من أمتك، يقعدون على الطريق يقطعونه(٧)، ثم تلا ﴿ **وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ [وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ]**(٨) ﴾ [الأعراف:٨٦].

قال: ثم أتى على رجل قد جمع(٩) حزمة [حطب](١٠) عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: « ما هذا ياجبريل؟» فقال(١١) :هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها.

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شىء، قال: « ما هؤلاء ياجبريل ؟ » قال: هؤلاء خطباء الفتنة.

ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من [حيث](١٢) خرج، فلا يستطيع، فقال: « ما هذا ياجبريل؟» فقال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها.

ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة، وريح مسك، وسمع صوتاً، فقال: «ياجبريل، ما هذه(١٣) الريح الطيبة الباردة؟ وما هذا المسك؟ وما هذا الصوت؟» قال: هذا صوت الجنة، تقول: يارب آتنى ما وعدتنى، فقد كثرت غرفى، وإستبرقى وحريرى وسندسى، وعبقريى ولؤلؤى ومرجانى، وفضتى

---

(١) فى ف، أ: « فحمله». (٢) فى ت، ف، أ: «عليه». (٣) فى ف : « فقال رسول الله».
(٤) فى ف: « فقال». (٥) فى ت، ف :«قدور». (٦) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.
(٧) فى ت، ف: « فيقطعونه». (٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى ت: «حمل».
(١٠) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى. (١١) فى ف: « قال». (١٢) فى ت، هـ : «موضع» والمثبت من الطبرى.
(١٣) فى ت، ف، أ: « ما هذا».

وذهبى وأكوابى وصحافى، وأباريقى ومراكبى، وعسلى ومائى، وخمرى ولبنى فآتنى ما[١] وعدتنى. فقال: لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحاً ولم يشرك بى، ولم يتخذ من دونى أنداداً ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألنى أعطيته، ومن أقرضنى جزيته، ومن توكل علىّ كفيته، إنى أنا اللّه لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون، وتبارك اللّه أحسن الخالقين، قالت: قد رضيت.

قال: « ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً، ووجد ريحاً منتنة، فقال: « ما هذه[٢] الريح يا جبريل؟ وما هذا الصوت؟ » فقال: هذا صوت جهنم تقول: يارب آتنى ما وعدتنى، فقد كثرت سلاسلى وأغلالى، وسعيرى وحميمى، وضريعى، وغساقى وعذابى، وقد بعد قعرى، واشتد حرى، فآتنى كل ما وعدتنى، فقال: لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة، وكل خبيث وخبيثة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب. قالت: قد رضيت.

قال: ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فنزل فربط فرسه إلى صخرة، ثم دخل فصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة قالوا: ياجبريل، من هذا معك؟ قال: محمد ﷺ. قالوا: أو قد أرسل محمد؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء.

قال: ثم لقى أرواح الأنبياء، فأثنوا على ربهم، فقال إبراهيم: الحمد للّه الذى اتخذنى خليلاً، وأعطانى ملكاً عظيماً، وجعلنى أمة قانتاً يؤتم بى، وأنقذنى من النار، وجعلها علىّ برداً وسلاماً. ثم[٣] إن موسى، عليه السلام[٤]، أثنى على ربه، عز وجل، فقال: الحمد للّه الذى كلمنى تكليماً، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بنى إسرائيل على يدى، وجعل من أمتى قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون. ثم إن داود ،عليه السلام[٥]، أثنى على ربه[عز وجل][٦] فقال: الحمد للّه الذى جعل لى ملكاً عظيماً، وعلمنى الزبور، وألان لى الحديد، وسخر لى الجبال يسبحن والطير، وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب. ثم إن سليمان، عليه السلام، أثنى على ربه[عز وجل][٧] فقال: الحمد للّه الذى سخر لى الرياح، وسخر لى الشياطين يعملون لى ماشئت من محاريب وتماثيل، وجفان كالجواب وقدور راسيات، وعلمنى منطق الطير، وآتانى من كل شيء فضلاً، وسخر لى جنود الشياطين والإنس والطير، وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين ، وآتانى ملكاً عظيماً لا ينبغى لأحد من بعدى، وجعل ملكى ملكاً طيباً ليس فيه حساب . ثم إن عيسى، عليه السلام، أثنى على ربه، عز وجل، فقال: الحمد للّه الذى جعلنى كلمته، وجعل مثلى مثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: «كن» فيكون ، وعلمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وجعلنى أخلق من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن اللّه، وجعلنى أبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذنه[٨]، ورفعنى وطهرنى، وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل . قال: ثم إن محمداً[٩] ﷺ أثنى على ربه، عز وجل، فقال: « فكلكم أثنى على ربه، وإنى مثن على ربى [عز وجل][١٠] فقال: الحمد للّه الذى أرسلنى رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل علىّ الفرقان[١١] فيه بيان لكل شيء، وجعل

---

(١) فى ت: «بما». (٢) فى أ: «ما هذا». (٣) فى ف، أ: «قال: ثم» .
(٤ ، ٥) فى ت: «عليه الصلاة والسلام». (٦ ، ٧) زيادة من أ. (٨) فى ف، أ: « بإذن الله».
(٩) فى أ: «محمدا رسول الله». (١٠) زيادة من ف، أ. (١١) فى ت، ف: « القرآن».

أمتى خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتى أمة وسطاً، وجعل أمتى هم الأولين وهم الآخرين، وشرح لى صدرى، ووضع عنى وزرى، ورفع لى ذكرى، وجعلنى فاتحاً وخاتماً » فقال إبراهيم [عليه السلام][(١)] : بهذا فضلكم محمد ﷺ .

قال أبو جعفر الرازى: خاتم النبوة، فاتح بالشفاعة يوم القيامة.

ثم أتى بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها، فأتى بإناء منها فيه ماء فقيل: اشرب. فشرب منه يسيراً ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن، فقيل له: اشرب، فشرب منه حتى روى. ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر فقيل له: اشرب فقال: «لا أريده قد رويت» . فقال له جبريل [عليه السلام][(٢)] :أما إنها ستحرم على أمتك، ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليل .

قال: ثم صعد به إلى السماء فاستفتح، فقيل: من هذا ياجبريل؟ فقال: محمد ، قالوا: أوقد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. فدخل فإذا هو برجل تام الخلق[(٣)] لم ينقص من خلقه شيء كما ينقص من خلق الناس، عن[(٤)] يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة ، إذا نظر إلى الباب الذى عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر إلى الباب الذى عن يساره بكى وحزن، فقلت:« ياجبريل، من هذا الشيخ التام الخلق الذى لم ينقص من خلقه شيء؟ وما هذان البابان؟» فقال: هذا أبوك آدم [عليه السلام][(٥)]، وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة، إذا نظر إلى من يدخل[(٦)] من ذريته ضحك واستبشر ، والباب الذى عن شماله باب جهنم، إذا نظر إلى من يدخله من ذريته بكى وحزن.

ثم صعد به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا معك؟ فقال: محمد رسول اللَّه. قالوا: أو قد أرسل محمد ؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فلنعم الأخ ولنعم الخليفة ونعم المجيء جاء. قال: فدخل فإذا هو بشابين فقال:«يا جبريل، من هذان الشابان؟» قال: هذا عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، ابنا الخالة عليهما السلام.

قال: فصعد به إلى السماء الثالثة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل ؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل فإذا هو برجل قد فضل على الناس فى الحسن، كما فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب،قال:« من هذا ياجبريل الذى قد فضل على الناس فى الحسن؟» قال: هذا أخوك يوسف، عليه السلام[(٧)] .

قال: ثم صعد به إلى السماء[(٨)] الرابعة فاستفتح، فقالوا[(٩)]: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل؟ [(١٠)] قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل، فإذا هو برجل، قال: «من هذا ياجبريل؟» قال: هذا إدريس، رفعه اللَّه [تعالى][(١١)]مكاناً علياً.

(١ ، ٢) زيادة من ف ، أ.
(٣) فى ف: « تام الخلقة».
(٤) فى ف: «على».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى ت، ف: «يدخله».
(٧) فى ت: «عليه الصلاة والسلام».
(٨) فى ف: « ثم صعدت إلى السماء».
(٩) فى ف: «فقيل ».
(١٠) فى ف، أ: «أرسل إليه».
(١١) زيادة من ت.

ثم صعد به إلى السماء الخامسة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل[١] إليه؟ قال: نعم. قالوا:حياه[٢] اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. ثم دخل فإذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم، قال: «من هذا يا جبريل؟ ومن هؤلاء حوله؟» قال: هذا هارون المحبب [فى قومه][٣]وهؤلاء بنو إسرائيل.

ثم صعد به إلى السماء السادسة فاستفتح، قيل:[٤] من هذا؟ قال: جبريل. قالوا:ومن معك؟ قال: محمد، قالوا: أو قد أرسل؟ [٥] قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء[٦] . فإذا هو برجل جالس، فجاوزه فبكى الرجل، فقال:« يا جبريل، من هذا؟» قال: موسى ، قال:« فما باله [٧] يبكى ؟» قال: زعم[٨] بنو إسرائيل أنى أكرم بنى آدم على اللَّه، عز وجل، وهذا رجل من بنى آدم قد خلفنى فى دنيا، وأنا فى أخرى، فلو أنه بنفسه لم أبال، ولكن مع كل نبى أمته.

قال: ثم صعد به إلى السماء السابعة فاستفتح، فقيل له: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسى، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس ، وقوم فى ألوانهم شىء، فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد[٩] خلص من ألوانهم شىء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص [من][١٠] ألوانهم [شىء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلصت ألوانهم][١١] فصارت مثل ألوان أصحابهم، فجاؤوا فجلسوا إلى أصحابهم، فقال: «ياجبريل من هذا الأشمط؟ ثم من هؤلاء البيض الوجوه؟ ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء؟ وما هذه الأنهار التى دخلوا فيها فجاؤوا وقد صَفَت ألوانهم؟» قال: هذا أبوك إبراهيم [عليه السلام][١٢] أول من شمط على الأرض. وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم. وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء، فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابوا فتاب اللَّه عليهم. وأما الأنهار فأولها رحمة اللَّه، والثانى نعمة اللَّه، والثالث سقاهم ربهم شراباً طهوراً .

قال: ثم انتهى إلى السدرة فقيل له: هذه السدرة ينتهى إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك ، فإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذّة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى، وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاماً لا يقطعها. والورقة منها مغطية للأمة كلها. قال: فغشيها نور الخلاق، عز وجل، وغشيتها[١٣] الملائكة أمثال الغربان حين يقعن[١٤] على الشجرة قال: فكلمه اللَّه تعالى عند ذلك[١٥]،

---

(١) فى ف، أ: «أرسل إليه».
(٢) فى ف، أ: «قالوا: مرحبا به حياه».
(٣) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.
(٤) فى ف: « فقيل».
(٥) فى ف، أ: «أرسل إليه».
(٦) فى ت، ف، أ: «المجيء جاء».
(٧) فى ت: «فماله».
(٨) فى ت، أ:« يزعم».
(٩) فى ت:« قد».
(١٠) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(١١) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) فى ت: « وغشيها».
(١٤) فى ت، ف، أ: « حتى تقع».
(١٥) فى ت: « فكلمه يعنى عند ذلك» .

قال له: سل[(١)]، قال: «إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيت داود ملكاً عظيماً، وألنت له الحديد، وسخرت له[الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيمًا، وسخرت له الجن والإنس والشياطين، وسخرت له][(٢)] الرياح، وأعطيت له ملكاً عظيمًا لا ينبغى لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذنك، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل». فقال له ربه عزوجل: وقد اتخذتك خليلاً - وهو مكتوب فى التوراة: حبيب الرحمن[(٣)] - وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معى، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولين و الآخرين، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول النبيين خلقاً، وآخرهم بعثاً، وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعاً من المثانى لم يعطها نبى قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والصدقة، والصلاة، وصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجعلتك فاتحاً وخاتماً. فقال النبى ﷺ: « فضلنى ربى بست: أعطانى فواتح الكلام[(٤)] وخواتيمه وجوامع الحديث، وأرسلنى إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وقذف فى قلوب عدوى الرعب من مسيرة شهر، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض كلها طهوراً ومسجداً».

قال: وفرض عليه خمسين صلاة. فلما رجع إلى موسى قال: بم أمرت يامحمد؟ قال: «بخمسين صلاة» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، فقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع النبى ﷺ إلى ربه، عز وجل، فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. ثم رجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: « بأربعين» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع النبى ﷺ إلى ربه[عز وجل][(٥)] فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً، فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: « أمرت بثلاثين»، فقال له موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع إلى ربه[عز وجل][(٦)] فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً، فرجع إلى موسى فقال[(٧)]: بكم أمرت؟ قال: «أمرت بعشرين». قال: ارجع إلى ربك [عز وجل][(٨)] فاسأله التخفيف فإن أمتك أضعف الأمم وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع إلى ربه[عز وجل][(٩)] فسأله التخفيف فوضع عنه عشرًا. فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: « أمرت بعشر»، قال: ارجع إلى ربك[عز وجل][(١٠)] فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع على حياء إلى ربه[عز وجل][(١١)] فسأله التخفيف فوضع عنه خمساً. فرجع إلى موسى، عليه السلام، فقال[(١٢)] :بكم أمرت؟ قال: «بخمس»، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن

---

(١) فى ف: «فقال». (٢) زيادة من ف، أ، والطبرى. (٣) فى ت: «محمد حبيب الرحمن».
(٤) فى ف: «الكلم». (٥) زيادة من ف. (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ت: «قال». (٨ ـ ١١) زيادة من ف، أ. (١٢) فى ف: «قال».

أمتك أضعف الأمم وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة ، قال: «قد رجعت إلى ربى حتى استحييت، فما أنا براجع إليه»، قيل: أما إنك كما صبرت نفسك على خمس صلوات، فإنهن يجزين عنك خمسين صلاة، فإن كل حسنة بعشر أمثالها. قال: فرضى محمد ﷺ كل الرضا ، قال: وكان موسى، عليه السلام، من أشدهم عليه حين مرّ به وخيرهم له حين رجع إليه(١).

ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبيد اللّه، عن أبى النضر هاشم بن القاسم، عن أبى جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية أو غيره ـ شك أبو جعفر ـ عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فذكره بمعناه(٢).

وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقى، عن أبى سعيد المالينى، عن ابن عدى، عن محمد بن الحسن السَّكُونى البالسى بالرملة، حدثنا على بن سهل، فذكر مثل مارواه ابن جرير عنه(٣)، وذكر البيهقى أن الحاكم أبا عبد اللّه رواه عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعرانى، عن جده، عن إبراهيم بن حمزة الزبيرى، عن حاتم بن إسماعيل، حدثنى عيسى بن ماهان ـ يعنى أبا جعفر الرازى ـ عن الربيع بن أنس ،عن أبى العالية، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فذكره(٤).

وقال ابن أبى حاتم: ذكر أبو زُرْعَة، حدثنا محمد بن عبد اللّه بن نمير، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عيسى بن عبد اللّه التميمى(٥) ـ يعني: أبا جعفر الرازى ـ عن الربيع بن أنس البكرى، عن أبى العالية أو غيره ـ شك عيسى ـ عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ[إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا]**(٦) ﴾» فذكر الحديث بطوله كنحو مما سقناه.

قلت: «أبو جعفر الرازى» قال فيه الحافظ أبو زرعة: «الرازى يهم فى الحديث كثيراً» وقد ضعفه غيره أيضاً، ووثقه بعضهم، والأظهر أنه سيئ الحفظ ففيما تفرد به نظر . وهذا الحديث فى بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة، وفيه(٧) شىء من حديث المنام من رواية سمرة بن جندب فى المنام الطويل عند البخارى، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى، أو منام أو قصة أخرى غير الإسراء، واللّه أعلم.

وقد روى البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن الزهرى، أخبرنى سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ حين أسرى به: « لقيت موسى» قال: فنعته فإذا رجل ـ حسبته قال: ـ مضطرب، رَجْل الرأس، كأنه من رجال شنوءة. قال: «ولقيت عيسى» ـ فنعته النبى ﷺ ـ ربعة(٨) أحمر كأنما خرج من ديماس - يعنى حمام. قال: «ورأيت إبراهيم، وأنا أشبه ولده به». قال: « وأتيت بإناءين فى أحدهما لبن وفى الآخر خمر، قيل لى: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن، فشربت، فقيل لى: هديت الفطرة ـ أو: أصبت الفطرة ـ أما إنك لو

(١) تفسير الطبرى (١٥/ ٦).
(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ١٠).
(٣) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٦ ، ٣٩٧).
(٤) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٧).
(٥) فى ت: « اليمنى».
(٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «فيه».
(٨) فى ت، أ: «قال: ربعة».

أخذت الخمر غوت أمتك». وأخرجاه من وجه آخر. عن الزهرى ـ به نحوه[١].

وفى صحيح مسلم، عن محمد بن رافع، عن حُجَيْن بن المثنى، عن عبد العزيز بن أبى سلمة، عن عبد اللّه بن الفضل الهاشمى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، رضى اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى[٢]، فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه اللّه لى أنظر إليه، ما سألونى عن شىء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلى، وإذا هو رجل ضربٌ جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلى أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم - يعنى نفسه - فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت قال قائل: يامحمد، هذا مالك صاحب النار،[فسلم عليه][٣] فالتفت إليه فبدأنى بالسلام »[٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى الصلت، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: « رأيت ليلة أسرى بى لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوق[٥] فإذا رعد وبرق وصواعق» . قال: «وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم فقلت: من هؤلاء ياجبريل ؟ قال: هؤلاء أكلة الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى فإذا أنا برَهَج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا ياجبريل ؟ قال: هذه الشياطين يحرفون على أعين بنى آدم ألا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب ».

ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان، كلاهما عن حماد بن سلمة، به. ورواه ابن ماجه من حديث حماد، به [٦].

رواية جماعة من الصحابة[رضى الله عنهم][٧] ممن تقدم وغيرهم:

قال الحافظ البيهقى: أخبرنا أبو عبد اللّه ـ يعنى الحاكم ـ أخبرنا عبدان بن يزيد بن يعقوب الدقاق بهمذان، حدثنا إبراهيم بن الحسين الهمذانى، حدثنا أبو محمد هو إسماعيل بن موسى الفزارى، حدثنا عمر بن سعد النصرى[٨] من بنى نصر[٩] بن قُعَين، حدثنى عبد العزيز، وليث بن أبى سليم[١٠] وسليمان الأعمش، وعطاء بن السائب ـ بعضهم يزيد فى الحديث على بعض ـ عن على بن أبى طالب و عبد اللّه[١١] بن عباس ـ و محمد بن إسحاق بن يسار، عمن حدثه عن ابن عباس ـ

---

(١) صحيح البخارى برقم(٣٣٩٤) وصحيح مسلم برقم(١٦٨).
(٢) فى ت: «عن أمرى».
(٣) زيادة من ف، أ، ومسلم.
(٤) صحيح مسلم برقم (١٧٢).
(٥) فى ف، أ: «فوق رأسى».
(٦) المسند(٢/ ٣٥٣ ــ ٣٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٧٣). وسبق الحديث من رواية أحمد عند تفسير الآية: ١٨٥ من سورة الأعراف، وعقب عليه الحافظ ابن كثير بقوله: « على بن زيد بن جدعان له منكرات».
(٧) زيادة من أ.
(٨) فى ف:« النضرى».
(٩) فى ف: « من بنى نضرة».
(١٠) فى أ: « سلمة».
(١١) فى ت، ف: «وعن عبد الله».

وعن سليم بن مسلم العقيلى، عن عامر الشعبى، عن عبد اللَّه بن مسعود ـ وجويبر، عن الضحاك، ابن مزاحم قالوا: كان رسول اللَّه ﷺ فى بيت أم هانئ راقداً، وقد صلى العشاء الآخرة. قال أبو عبد اللَّه الحاكم: قال لنا هذا الشيخ . . . وذكر الحديث، فكتب[(١)] المتن من نسخة مسموعة منه، فذكر حديثاً طويلاً، يذكر فيه عدد الدرج والملائكة وغير ذلك مما لا ينكر شىء منها فى قدرة اللَّه إن صحت الرواية .

قال البيهقى: فيما ذكرنا قبل فى حديث أبى هارون العبدى فى إثبات الإسراء والمعراج كفاية، وباللَّه التوفيق[(٢)].

قلت: وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين، رحمة اللَّه عليهم أجمعين.

رواية عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها:

قال[الإمام][(٣)] البيهقى: أخبرنا أبو عبد اللَّه الحافظ، أخبرنى مكرم بن أحمد القاضى، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدى[(٤)] ،حدثنا محمد بن كثير الصَّنْعانى، حدثنا معمر بن راشد، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبى بكر، فقالوا: هل لك فى صاحبك ؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس! فقال: أو قال ذلك ؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح ؟ قال: نعم، إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء فى غَدْوة أو رَوْحة. فلذلك سمى أبو بكر: الصديق ، رضى الله عنه[(٥)].

رواية أم هانئ بنت أبى طالب ، رضى الله عنها:

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن السائب الكلبى، عن أبى صالح باذان، عن أم هانئ بنت أبى طالب [رضى الله عنها][(٦)] فى مسرى رسول اللَّه ﷺ أنها كانت تقول: ما أسرى برسول اللَّه ﷺ إلا وهو فى بيتى، نائم عندى تلك الليلة، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول اللَّه ﷺ فلما صلى الصبح وصلينا معه قال:«يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين»[(٧)].

الكلبى: متروك بمرة ساقط، لكن رواه أبو يعلى فى مسنده عن محمد بن إسماعيل الأنصارى، عن ضَمْرَة بن ربيعة، عن يحيى بن أبى عمرو السيبانى[(٨)] ،عن أبى صالح،عن أم هانئ بأبسط من هذا

---

(١) فى ت: « فثبت».

(٢) دلائل النبوة (٢/ ٤٠٤).

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ت: «البكرى».

(٥) دلائل النبوة (٢/ ٣٦٠) وهو فى المستدرك (٣/ ٦٢) وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٦) زيادة من أ.

(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ٣) من طريق محمد بن إسحاق.

(٨) فى ت، ف، أ :« الشيبانى».

السياق، فليكتب ههنا(١).

وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث عبد الأعلى بن أبى المُسَاور، عن عكرمة، عن أم هانئ قالت: بات رسول اللَّه ﷺ ليلة أسرى به فى بيتى، ففقدته من الليل، فامتنع منى النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش، فقال رسول اللَّه ﷺ: «إن جبريل، عليه السلام، أتانى فأخذ بيدى فأخرجنى، فإذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار، فحملنى عليها، ثم انطلق حتى انتهى بى إلى بيت المقدس، فأرانى إبراهيم يشبه خلقه خلقي، ويشبه خلقي خلقه، وأرانى موسى آدم طويلاً سبط الشعر، شبهته برجال أزد شنوءة ، وأرانى عيسى ابن مريم رَبْعة أبيض يضرب إلى الحمرة، شبهته بعروة بن مسعود الثقفى، وأرانى الدجال ممسوح العين اليمنى، شبهته بِقَطَن بن عبد العزى»

(١) كذا ولم أجد فى النسخ إثباته، وقد رواه أبو يعلى فى معجم شيوخه برقم (١٠) قال: « حدثنا محمد بن إسماعيل الوساوسى، حدثنا ضمرة بن ربيعة، حدثنا يحيى بن أبى عمرو السيبانى، عن أبى صالح مولى أم هانئ، عن أم هانئ قالت: دَخَلَ علىّ رسول الله ﷺ بِغَلَس، فجلس، وأنا على فراشى، فقال: «شَعُرتِ أنى بت الليلَة فى المسجد الحرام، فأتانى جبريل، فذهب بى إلى باب المسجد، فإذا بدابة أبيض، فوقَ الحمارِ، ودونَ البغل، مضطرب الأذنين، فركبت وكان يضع حافره مدَّ بصره، إذا أخذنى فى هبوطٍ طالت يداه وقَصُرت رجلاه، وإذا أخذنى فى صعودٍ طالت رجلاه وقَصُرت يداه، وجبريلُ لا يفوتنى، حتى انتهينا إلى بيت المقدس، فأوثقتُه بالحَلْقة التى كانت الأنبياء توثق بها، فنُشر لى رهط من الأنبياء، منهم إبراهيم، وموسى، وعيسى، فصليت بهم، وكلّمتهم، وأُتيت بإناءين أحمر وأبيض، فشربت الأبيض، فقال لى جبريل: شربت اللبن، وتركت الخمر، لو شربت الخمر لارتدَّت أمتك. ثم ركبته، فأتيت المسجد الحرام وصليت به الغَداة» قالت: فعلقتُ بردائه: أنشدك الله يا ابن عمى! أن تحدثَ بهذا قريشاً، فيكذّبك من صدّقك. فضرب بيده على ردائه، فانتزعه من يدى، فارتفع عن بطنه، فنظرت إلى عُكَنه، فوق إزاره كأنها طى القراطيس، فإذا نورٌ ساطعٌ عند فؤاده، كاد يخطف بصرى، فخررت ساجدة، فلما رفعتُ رأسى إذا هو قد خرج، فقلت لجاريتى نَبْعَة: ويحكِ اتبعيه، فانظرى ماذا يقول، وماذا يقال له؟ فلما رجعت نَبْعَةُ، أخبرتنى أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر من قريش، فى الحطيم، فيهم المطعم بن عَدِى، وعَمْرو بن هشام، والوليد بن المغيرة، فقال: «إنى صليت الليلة العشاء فى هذا المسجد، وصليت به الغَداة، وأتيتُ فيما دون ذلك بيت المقدس، فنُشر لى رهط من الأنبياء منهم إبراهيم، وموسى، وعيسى، وصليت بهم وكلّمتهم».

فقال عمرو بن هشام كالمستهزئ به: صِفْهم لى، فقال: «أما عيسى، ففوق الربْعَة، ودون الطول، عريض الصدر، ظاهر الدم، جعد، أشعر تعلوه صُهبة، كأنه عروة بن مسعود الثَقَفى. وأما موسى، فضخم آدم، طُوالٌ، كأنه من رجال شَنوءة، متراكب الأسنان، مقلّص الشفة، خارج اللثة، عابس. وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بى، خَلْقاً، وخُلقاً». قال: فضجّوا، وأعظموا ذلك، فقال المطعم بن عدى: كل أمرك كان قبل اليوم، كان أَمَماً غير قولك اليوم، أمّا أنا، فأشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس، نصعد شهراً، ونحدر شهراً، تزعم أنك أتيته فى ليلة، واللاتِ والعُزَّى لا أُصدِّقك، وما كان الذى تقول قَطُّ. وكان للمطعم بن عدى حوض على زمزم أعطاه إياه عبدُ المطلب، فهدمه وأقسم باللاتِ والعُزَّى لا يسقى قطرة أبداً، فقال أبو بكر: يا مطعم، بئسَ ما قلتَ لابن أخيك جبهتَه وكذبته، أنا أشهد أنه صادق، فقالوا: يا محمد، فصِفْ لنا بيت المقدس، قال: «دخلت ليلاً وخرجت منه ليلاً». فأتاه جبريل بصورته فى جناحه، فجعل يقول: «باب منه كذا، فى موضِعِ كذا، وباب منه كذا، فى موضع كذا»، وأبو بكر يقول: صدقت، قالت نَبْعة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ: «يا أبا بكر، إنى قد سمّيتك (الصديق)». قالوا: يا مطعم، دعنا نسأله عَمّا هو أغنى لنا من بيت المقدس. يا محمد، أخبرنا عن عيرنا، فقال: «أتيت على عير بنى فلان بالروحاء، قد أضلوا ناقةً لهم، فانطلقوا فى طلبها، فانتهيتُ إلى رحالهم، ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء، فشربت منه، فاسألوهم عن ذلك» قالوا: هذه والإله آية. «ثم انتهيتُ إلى عير بنى فلان، فنفرتْ منى الإبلُ، وبرك منها جمل أحمر، عليه جوالق محيط ببياض، لا أدرى أكسر البعير، أم لا، فاسألوهم عن ذلك» قالوا: هذه والإله آية «ثم انتهيتُ إلى عير بنى فلان فى التنعيم، يقدُمها جمل أورق، وها هى ذه يطلع عليكم من الثَنِيّة». فقال الوليد بن المغيرة: ساحر، فانطلقوا فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال. فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. قلت لأم هانئ: ما الشجرة الملعونة فى القرآن؟ قالت: الذين خُوِّفوا فلم يزدهم التخويف إلا طغياناً وكفراً».

قال: «وأنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت». فأخذت بثوبه فقلت: إنى أذكرك[١] اللَّه، إنك تأتى قوما يكذبونك وينكرون مقالتك، فأخاف أن يسطوا بك. قالت: فضرب ثوبه من يدى، ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس، فأخبرهم ما أخبرنى، فقام جبير بن مطعم فقال: يامحمد لو كنت شابا[٢] كما كنت، ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا. فقال رجل من القوم: يامحمد، هل مررت بإبل لنا فى مكان كذا وكذا؟ قال: « نعم، واللَّه قد وجدتهم أضلوا بعيراً لهم فهم فى طلبه». قال: فهل مررت بإبل لبنى فلان ؟ قال: « نعم، وجدتهم فى مكان كذا وكذا ، وقد انكسرت[٣] لهم ناقة حمراء، وعندهم قصعة من ماء، فشربت ما فيها». قالوا: فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة [قال: «قد كنت عن عدتها مشغولاً» .فنام فأوتى بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة][٤] ثم أتى قريشاً فقال لهم: «سألتمونى عن إبل بنى فلان، فهى كذا وكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان، وسألتمونى عن إبل بنى فلان، فهى كذا وكذا، وفيها من الرعاة ابن أبى قحافة وفلان وفلان، وهى مصبحتكم من الغداة[٥] على الثنية». قال: فقعدوا[٦] على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال؟ فاستقبلوا الإبل فسألوهم: هل ضل لكم بعير ؟ قالوا: نعم. فسألوا الآخر: هل انكسرت لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كان عندكم قصعة؟ قال أبو بكر: أنا واللَّه وضعتها فما شربها أحد، ولا أهراقوه فى الأرض. فصدقه أبو بكر [رضى الله عنه][٧] وآمن به، فسمى يومئذ الصديق[٨].

فصل

وإذا[٩] حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول اللَّه ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة فى أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء، عليهم السلام . ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ولم يحصل على مطلب .

وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه، عليه السلام[١٠] ،أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشىء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جداً، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبى ﷺ به أمته، ولنقلته[١١] الناس على التعدد والتكرر .

قال موسى بن عقبة ،عن الزهرى: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وكذا قال عروة.

وقال السدى: بستة عشر شهراً.

والحق أنه، عليه السلام[١٢] ،أسرى به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البراق،

---

(١) فى ت: «أذكر». (٢) فى ت، ف: « أن لو كنت لك شاباً». (٣) فى ت: « وقد كسرت».
(٤) زيادة من الخصائص الكبرى للسيوطى (١/ ٤٣٩).
(٥) فى ف: « بالغداة». (٦) فى ت، ف: « فغدوا». (٧) زيادة من ف، أ.
(٨) المعجم الكبير (٢٤/ ٤٣٢) وعبد الأعلى بن أبى المساور كذاب.
(٩) فى ف : « فإذا». (١٠) فى ف: « بانه صلى الله عليه وسلم». (١١) فى ت: « ولتعلمه».
(١٢) فى ف: « أنه صلى الله عليه وسلم».

فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين. ثم أتى المعراج[١] ـ وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها ـ فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم عليه الأنبياء[عليهم السلام][٢] الذين فى السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم فى السادسة، وإبراهيم الخليل فى السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع[٣] فيه صريف الأقلام، أى: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيها من أمر اللَّه، تعالى، عظمة عظيمة، من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور[٤] وإبراهيم الخليل بانى الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . ورأى الجنة والنار، وفرض اللَّه[عز وجل][٥] عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس؛ رحمة منه ولطفاً بعباده. وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها . ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ. ومن الناس من يزعم أنه أمهم فى السماء. والذى تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس، ولكن فى بعضها أنه كان أول[٦] دخوله إليه . والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مرّ بهم فى منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوى ليفرض عليه وعلى أمته مايشاء اللَّه، تعالى. ثم لما فرغ من الذى أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين[صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين][٧] ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه فى الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام[٨] له فى ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم.

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر ، أو اللبن والماء، أو الجميع ـ فقد ورد أنه فى بيت المقدس، وجاء أنه فى السماء . ويحتمل أن يكون ههنا وههنا؛ لأنه كالضيافة للقادم، واللَّه أعلم.

ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام[٩] وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكر أن يكون رسول اللَّه ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عليه السلام[١٠] كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ والدليل على هذا قوله [عز وجل][١١] : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان مناماً لم يكن فيه كبير شىء ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدّ جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد،

---

(١) فى ت، ف: «بالمعراج». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ت: « سمع»، وفى ف، أ: «فسمع».
(٤) فى ت، ف، أ: «المعمور الذى». (٥) زيادة من ف. (٦) فى ف، أ: «كان فى أول».
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى ت: «عليه الصلاة والسلام». (٩) فى ف: « صلى الله عليه وسلم».
(١٠) فى أ: « صلى الله عليه وسلم» . (١١) زيادة من: ف، أ.

وقد قال[عز شأنه][١] : ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء : ٦٠]، قال ابن عباس[رضى الله عنهما][٢] :هى رؤيا عين أريها رسول اللّه ﷺ[ليلة أسرى به، والشجرة الملعونة: شجرة الزقوم][٣]. رواه البخارى. وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضاً فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج فى حركتها إلى مركب تركب[٤] عليه، واللّه أعلم.

وقال آخرون: بل أسرى برسول اللّه ﷺ بروحه لا بجسده. قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس؛ أن معاوية بن أبى سفيان [رضى الله عنهما][٥] كان إذا سئل عن مسرى رسول اللّه ﷺ قال: كانت رؤيا من اللّه صادقة.

وحدثنى بعض آل أبى بكر أن عائشة كانت تقول: ما فقد جسد رسول اللّه ﷺ، ولكن أسرى بروحه.

قال ابن إسحاق: فلم ينكر ذلك من قولها، لقول الحسن: إن هذه الآية نزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، ولقول[٦] اللّه فى الخبر عن إبراهيم: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[الصافات: ١٠٢]، ثم مضى على ذلك. فعرفت أن الوحى يأتى للأنبياء من اللّه أيقاظاً ونياما.

فكان[٧] رسول اللّه ﷺ يقول: « تنام عيناى، وقلبى يقظان » فاللّه أعلم أى ذلك كان قد جاءه، وعاين فيه من اللّه ما عاين، على أى حالاته كان، نائماً أو يقظان، كل ذلك حق وصدق. انتهى كلام ابن إسحاق[٨].

وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير فى تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع، بأن هذا خلاف[٩] ظاهر سياق القرآن، وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدم[١٠]، واللّه أعلم.

فائدة حسنة جليلة:

روى الحافظ أبو نُعَيم الأصبهانى فى كتاب «دلائل النبوة» من طريق محمد بن عمر الواقدى: حدثنى مالك بن أبى الرجال، عن عمرو بن عبد اللّه، عن محمد بن كعب القرظى، قال: بعث رسول اللّه ﷺ دَحْية بن خليفة إلى قيصر ـ فذكر وروده عليه وقدومه إليه. وفى السياق دلالة عظيمة على وُفُور عقل هرقل ـ ثم استدعى من بالشام من التجار، فجىء بأبى سفيان صخر بن حرب

(١، ٢) زيادة من ف، أ. (٣) زيادة من ت، ف، أ.
(٤) فى ف: «يركب». (٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى ف: «وكقول».
(٧) فى ف: « وكان».
(٨) ذكره الطبرى فى تفسيره(١٥/١٣) بإسناده إلى ابن إسحاق.
(٩) فى ف: « اختلاف».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/١٣، ١٤).

وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التى رواها البخارى ومسلم، كما سيأتى بيانه، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده. قال فى هذا السياق عن أبى سفيان: واللّه ما يمنعنى أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أنى أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها علىّ، ولا يصدقنى بشىء. قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسرى به قال: فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا ـ أرض الحرم ـ فى ليلة فجاء مسجدكم هذا ـ مسجد إيلياء، ورجع[1] إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبَطْرِيقُ إيلياء عند رأس قيصر، فقال: بَطْرِيق إيلياء: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر [2] قيصر، وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إنى كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى، فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى كلهم فعالجته فغلبنى، فلم نستطع أن نحركه، كأنما نزاول به جبلاً، فدعوت إليه النجاجرة، فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى. قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذى فى زاوية الباب[3] مثقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة قال: فقلت لأصحابى: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبى، وقد صلى الليلة فى مسجدنا. وذكر تمام الحديث [4].

فائدة:

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دَحْيَة فى كتابه «التنوير فى مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد ـ ثم قال: وقد تواترت الروايات فى حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلى[بن أبى طالب][5] وابن مسعود، وأبى ذر، ومالك بن صعصعة، وأبى هريرة، وأبى سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبى بن كعب، وعبد الرحمن بن قُرْط، وأبى حبة وأبى ليلى الأنصاريين[6]، وعبد اللّه بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبى أيوب، وأبى أمامة، وسمرة بن جُنْدُب، وأبى الحمراء، وصهيب الرومى، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتى أبى بكر الصديق، رضى اللّه عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع فى المسانيد، وإن لم تكن[7] رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقة الملحدون[8] ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) ﴾.

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد، صلوات الله وسلامه عليه[9]، عطف بذكر موسى عبده

---

(١) فى ف: «فرجع». (٢) فى ف، أ: «فنظر إليه». (٣) فى ف، هـ: «المسجد».

(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور(٥/ ٢٢٤) وعزاه لأبى نعيم فى الدلائل، ولم أجده فى المطبوع من الدلائل.

(٥) زيادة من ف. (٦) فى ت، ف: «الأنصارى». (٧) فى ف: «يكن».

(٨) فى ف: « والملحدون». (٩) فى ف: « صلى الله عليه وسلم».

وكليمه [عليه السلام][(١)] أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام[(٢)] وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب ﴿هُدًى﴾ أي هادياً ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا﴾ أي لئلا يتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله[(٣)] أن يعبده وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهييج وتنبيه على المنة، أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهوا بأبيكم، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً ﷺ. وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف: أن نوحاً، عليه السلام، كان يحمد الله [تعالى][(٤)] على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمي عبداً شكوراً .

قال الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبي حُصَين، عن عبد الله بن سنان، عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمي نوح عبداً شكوراً؛ لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله[(٥)].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بُرْدَة، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها».

وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من طريق أبي أسامة، به[(٦)].

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال.

وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي زُرْعَة، عن أبي هريرة[رضي الله عنه][(٧)] ،عن النبي ﷺ قال: « أنا سيد الناس يوم القيامة ـ بطوله ، وفيه ـ: فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت[(٨)] أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك » وذكر الحديث بكماله[(٩)].

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ

(١) زيادة من ف،أ. (٢) في ت: « عليهما الصلاة والسلام». وفي ف، أ:«عليهما من الله الصلاة والسلام».
(٣) في ت: « أرسل». (٤) زيادة من أ.
(٥) المعجم الكبير (٦/ ٣٢).
(٦) المسند (٣/ ١١٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٣٤) وسنن الترمذي برقم (١٨١٦) وسنن النسائي الكبرى برقم(٦٨٩٩).
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) في ف، أ: «يا نوح، إنك أنت».
(٩) صحيح البخاري برقم(٤٧١٢).

نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)﴾.

يقول تعالى: إنه قضى إلى بنى إسرائيل فى الكتاب، أى: تقدم إليهم وأخبرهم فى الكتاب الذى أنزله عليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلون[1] علواً كبيراً، أى: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كما قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾[الحجر:٦٦] أى: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به.

وقوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ أى: أولى الإفسادتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أى: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولى بأس شديد، أى: قوة وعدة وسلطة[2] شديدة ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ أى: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أى: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ .

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المسلطين عليهم: من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجَزَرِىّ وجنوده، سلط عليهم أولاً، ثم أديلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ .

وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده. وعنه أيضاً، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل .

وقد ذكر ابن أبى حاتم له قصة عجيبة فى كيفية ترقيه من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيراً مقعداً ضعيفاً يستعطى الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقتل بها خلقاً كثيراً من بنى إسرائيل.

وقد روى ابن جرير فى هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً[3] ، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب فى ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث! والعجب كل العجب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره! وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزى، رحمه الله، بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب .

وقد وردت فى هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضع [بعض][4] زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن فى غُنْيَة عنها، ولله الحمد. وفيما قص الله تعالى علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بَيْضَتَهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء .

---

(١) فى ف، أ: « ولتعلن». (٢) فى ف: «وسلطنة».

(٣) تفسير الطبرى(١٥/ ١٧).

(٤) زيادة من ف، أ.

وقد روى ابن جرير: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بُختنَصَّر على الشام، فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلى على كِبًا، فسألهم: ماهذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر. قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن(١).

وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه خلقاً منهم أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها. ولو وجدنا ماهو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، واللّه أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أى: فعليها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أى: المرة الآخرة(٢)، أى: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أى: يهينوكم ويقهروكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ أى بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: فى التى جاسوا فيها خلال الديار ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أى: يدمروا ويخربوا ﴿ مَا عَلَوْا﴾ أى: ما ظهروا عليه ﴿ تَتْبِيرًا. عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ أى: فيصرفهم عنكم ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أى: متى عدتم إلى الإفساد ﴿ عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم فى الدنيا مع ماندخره لكم فى الآخرة من العذاب والنكال ، ولهذا قال[تعالى](٣) : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أى: مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه .

قال ابن عباس [رضى الله عنهما](٤): ﴿حَصِيرًا ﴾ أى: سجناً.

وقال مجاهد: يحصرون فيها. وكذا قال غيره.

وقال الحسن: فراش ومهاد.

وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط اللّه عليهم هذا الحى، محمد ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ ﴾.

يمدح تعالى كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدى لأقوم الطرق، وأوضح السبل ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أى: يوم القيامة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ أى: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

---

(١) تفسير الطبرى(١٥/ ٢٤).

(٢) فى ت: « الأخرى». (٣) زيادة من ت. (٤) زيادة من ف، أ.

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾.

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِالشَّرِّ﴾ أى: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس: ١١]، وكذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقد تقدم فى هذا الحديث: « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم، أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها ».

وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾.

وقد ذكر سلمان الفارسى وابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ههنا قصة آدم، عليه السلام، حين همّ بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلى رجليه، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله. فقال الله: يرحمك ربك يا آدم. فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه، فهمّ بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع[(١)]، وقال: يارب عجل [(٢)] قبل الليل .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) ﴾.

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا فى الليل وينتشروا فى النهار للمعايش والصناعات[(٣)] والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضى الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: فى معايشكم[(٤)] وأسفاركم ونحو ذلك ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شىء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ . وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧١ ـ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[الفرقان: ٦١، ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يُكَوِّرُ[(٥)] اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾[الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[الأنعام: ٩٦]، وقال

(١) فى ت: « قبل أن يستطيع». (٢) فى ت، ف: « اعجل». (٣) فى ت، ف، أ: « والصنائع».
(٤) فى ت، ف: « معاشكم». (٥) فى ت: « ويكور» وهوخطأ.

تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨].

ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أى: علامة يعرف بها[(١)] وهى الظلام وظهور القمر فيه ، وللنهار علامة، وهى النور وظهور[(٢)] الشمس النيرة فيه، وفاوت بين ضياء القمر وبرهان الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ إلى قوله: ﴿ لآيَاتٍ [(٣)] لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦]،كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩] .

قال ابن جُرَيْج ، عن عبد اللّه بن كثير فى قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ قال: ظلمة الليل وسُدفة[(٤)] النهار .

وقال ابن جريج عن مجاهد :الشمس آية النهار، والقمر آية الليل ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ قال: السواد الذى فى القمر ،وكذلك [(٥)] خلقه اللّه تعالى.

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان القمر يضىء كما تضىء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: السواد الذى فى القمر.

وقد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكَوَّاء سأل [أمير المؤمنين][(٦)] على ابن أبى طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللطخة التى فى القمر ؟ فقال: ويحك. أما تقرأ القرآن؟ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوه .

وقال قتادة فى قوله :﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾: كنا نحدث أن[(٧)] محو آية الليل سواد القمر الذى فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة، أى: منيرة، خلق الشمس أنور من القمر وأعظم.

وقال ابن أبى نجيح عن ابن عباس :﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما اللّه، عز وجل [(٨)].

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾.

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بنى آدم: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: من خير وشر، يُلزم به ويجازى عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٥، ٦]، وقال تعالى :﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق: ١٧ ،

(١) فى ت: « يعرفونها».
(٢) فى ت، ف: «وطلوع».
(٣) فى ف، أ: ﴿إن فى ذلك لآيات﴾ وهو خطأ.
(٤) فى ت، ف، أ: « وسدف».
(٥) فى ف: « ولذلك».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ت: « ما نجد كان».
(٨) فى ف: « الله تعالى».

١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٠ـ ١٤]، قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهيعة، عن أبى الزبير، عن جابر: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « لَطَائر كل إنسان فى عنقه ». قال ابن لهيعة: يعنى الطيرة[١].

وهذا القول من ابن لهيعة فى تفسير هذا الحديث، غريب جداً، واللّه أعلم.

وقوله[تعالى][٢]: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أى: نجمع له عمله كله فى كتاب يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقياً ﴿مَنشُورًا﴾ أى: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣ ـ ١٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أى: إنك[٣] تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى.

وقوله [تعالى][٤]: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ إنما ذكر العنق؛ لأنه عضو لا نظير له فى[٥] الجسد، ومن ألزم بشىء فيه فلا محيد له عنه، كما قال الشاعر[٦]:

اذهب بها اذهب بها طوقتها طوق الحمامة

قال قتادة، عن جابر بن عبد اللّه، رضى الله عنه[٧]، عن نبى الله ﷺ أنه قال: « لا عَدْوَى ولا طيرَة وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ». كذا رواه ابن جرير[٨].

وقد رواه الإمام عبد بن حميد، رحمه الله، فى مسنده متصلاً، فقال: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن أبى الزبير، عن جابر [رضى الله عنه][٩] قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «طير كل عبد فى عنقه»[١٠].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، حدثنا عبد اللّه، حدثنا ابن لهيعة، حدثنى يزيد: أن أبا الخير حدثه: أنه سمع عقبة بن عامر [رضى اللّه عنه][١١] يحدث عن النبى ﷺ قال: « ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: ياربنا، عبدك فلان، قد حبسته؟ فيقول الرب جل جلاله: اختموا له على مثل عمله، حتى يبرأ أو يموت»[١٢].

---

(١) المسند (٣/ ٣٦٠)، وقال الهيثمى فى المجمع(٧/ ٤٩): « فيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح».
(٢) زيادة من ت. (٣) فى ت، ف: « أى أنت». (٤) زيادة من ت. (٥) فى ت، أ: « من».
(٦) هو أبو أحمد بن جحش، والأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٠٠).
(٧) فى ف، أ: « عنهما».
(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ٣٩).
(٩) زيادة من ف، أ.
(١٠) المنتخب لعبد بن حميد برقم(١٠٥٣).
(١١) زيادة من ف، أ.
(١٢) المسند (٤/ ١٤٦).

إسناده جيد قوى، ولم يخرجوه.

وقال مَعْمَر، عن قتادة: ﴿ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال: عمله. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ قال معمر: وتلا الحسن البصرى ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] يا ابن آدم، بسطت لك صحيفتك[١]، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل[٢] ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ قد عدل ـ والله[٣] ـ عليك من جعلك حسيب نفسك.

هذا من حسن[٤] كلام الحسن، رحمه الله.

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾.

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة[٥] لنفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أى: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجنى على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه.

ثم قال: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجنى جانٍ إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾[فاطر: ١٨].

ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله[تعالى][٦]، ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[النحل: ٢٥]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم فى أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً. وهذا من عدل الله ورحمته بعباده.

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨، ٩]، وكذا قوله[تعالى][٧]: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

(١) فى ت، ف، أ: «صحيفة». (٢) فى ت، ف، أ: «فاملك». (٣) فى ت، ف، أ: «الله»
(٤) فى ف: «أحسن». (٥) فى ف: «الحمد». (٦، ٧) زيادة من ت.

نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن اللَّه تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه ، ومن ثم طعن جماعة من العلماء فى اللفظة التى جاءت مقحمة فى صحيح البخارى عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

حدثنا عبيد اللَّه بن سعد، حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن صالح بن كَيْسَان، عن الأعرج بإسناده إلى[١] أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « اختصمت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما الجنة فلا يظلم اللَّه من خلقه أحداً، وأنه ينشئ للنار خلقاً فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟[٢]» ثلاثا ، وذكر تمام الحديث[٣].

فإن هذا إنما جاء فى الجنة لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه. وقد تكلم جماعة من الحفاظ فى هذه اللفظة[٤] وقالوا: لعله انقلب على الراوى بدليل ما أخرجاه فى الصحيحين واللفظ للبخارى من حديث عبد الرزاق[٥] ،عن مَعْمَر، عن همام، عن أبى هريرة قال: قال النبى[٦] ﷺ :« تحاجت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال: «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها قدمه، فتقول: قط ،قط، فهنالك تمتلئ ويزوى[٧] بعضها إلى بعض، ولا يظلم اللَّه من خلقه أحداً ، وأما الجنة فينشئ الله لـها خلقاً » [٨].

بقى ههنا مسألة قد اختلف الأئمة[٩] ،رحمهم اللَّه تعالى، فيها[١٠] قديماً وحديثاً وهى: الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات فى الفَتْرة ولم تبلغه[١١] الدعوة. وقد ورد فى شأنهم أحاديث أنا ذاكرها لك بعون اللَّه [تعالى][١٢] وتوفيقه ثم نذكر فصلاً ملخصاً من كلام الأئمة فى ذلك، واللَّه[١٣] المستعان .

فالحديث الأول : عن الأسود بن سَرِيع:

قال الإمام أحمد: حدثنا على بن عبد اللَّه، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى، عن قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع[رضى الله عنه][١٤] أن نبى الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة:رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هَرَم ، ورجل مات فى فترة ، فأما الأصم فيقول: رب، قد[١٥] جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونى[١٦] بالبعر ، وأما الهَرَمُ فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً،

---

(١) فى ت ، ف، أ: « عن».
(٢) فى ت، ف، أ: «هل من مزيد؟ ويلقون فيها فتقول: هل من مزيد».
(٣) صحيح البخارى برقم (٧٤٤٩).
(٤) فى ت: « الفظلة» وهو خطأ.
(٥) فى ت: « وعبد الرزاق».
(٦) فى ف:« قال رسول الله».
(٧) فى ف: « وينزوى».
(٨) صحيح البخارى برقم(٤٨٥٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٦).
(٩) فى أ: « العلماء».
(١٠) فى ف: « اختلف العلماء فيها».
(١١) فى ت: « ومن لم تبلغه».
(١٢) زيادة من ت، ف.
(١٣) فى ت، ف، أ: « و بالله».
(١٤) زيادة من ف، أ.
(١٥) فى ف: « لقد».
(١٦) فى ت:«يقذفونى».

وأما الذى مات فى الفترة فيقول: رب، ما أتانى لك رسول . فيأخذ مواثيقهم لَيُطعنّه[١] فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً »[٢] .

وبالإسناد عن قتادة، عن الحسن، عن أبى رافع، عن أبى هريرة ،مثل هذا الحديث غير أنه قال فى آخره : « من[٣] دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها»[٤] .

وكذا رواه إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقى فى كتاب الاعتقاد، من حديث حنبل[٥] بن إسحاق، عن على بن عبد اللَّه المدينى،به[٦] .وقال: هذا إسناد صحيح ، وكذا رواه حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى رافع، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أربعة كلهم يدلى على اللَّه بحجة » فذكر نحوه[٧] .

ورواه ابن جرير، من حديث مَعْمَر، عن همام، عن أبى هريرة، فذكره موقوفاً ، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٨] .

وكذا رواه معمر عن عبد اللَّه بن طاوس ،عن أبيه ،عن أبى هريرة موقوفاً .

الحديث الثانى: عن أنس بن مالك:

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا الربيع، عن يزيد بن أبان[٩] قال: قلنا لأنس: يا أبا حمزة، ما تقول فى أطفال المشركين ؟ فقال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لم يكن لهم سيئات فيعذبوا[١٠] بها فيكونوا من أهل النار ، ولم يكن لهم حسنات فيجازوا بها فيكونوا من ملوك أهل الجنة هم من خدم أهل الجنة»[١١] .

الحديث الثالث : عن أنس أيضاً:

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدثنا جرير، عن لَيْث، عن عبد الوارث، عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود، والمعتوه، ومن مات فى الفَتْرَة، والشيخ الفانى الهم، كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار: ابرز. ويقول لهم: إنى كنت أبعث إلى عبادى رسلاً من أنفسهم، وإنى رسول نفسى إليكم ادخلوا هذه. قال: فيقول من كتب عليه الشقاء: يارب، أنى ندخلها ومنها كنا نفر ؟ قال: ومن كتبت عليه السعادة يمضى فيقتحم فيها مسرعاً، قال: فيقول اللَّه تعالى: أنتم لرسلى أشد تكذيباً ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة، وهؤلاء النار».

---

(١) فى ت، ف: « لتطيعنه».

(٢) المسند (٤/ ٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٦): « رجاله رجال الصحيح».

(٣) فى ف : «فمن».

(٤) المسند(٤/ ٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٦): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) فى ف، أ: « أحمد». (٦) الاعتقاد (ص ١٦٩).

(٧) رواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٤٠٤) من طريق الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة به .

(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ٤١)

(٩) فى ف: « زيد هو أبان». (١٠) فى ت: « ليعذبوا».

(١١) رواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ٣٠٨) من طريق سفيان الثورى، عن الربيع بن صبيح به، وضعفه الحافظ ابن حجر فى الفتح (٣/ ٢٤٦) وله شواهد من حديث أبى سعيد الخدرى، وسمرة بن جندب رضى الله عنهما. وكأن فى متن الحديث نكارة لمخالفته ما ورد فى الصحيحين أولاً، ولأن الله وصف خدم أهل الجنة بالخلود فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩] وسيأتى تضعيف الحافظ ابن كثير له، والله تعالى أعلم.

وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، بإسناده مثله[١].

الحديث الرابع : عن البراء بن عازب، رضى الله عنه:

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده أيضاً: حدثنا قاسم بن أبى شيبة، حدثنا عبد الله ـ يعنى ابن داود ـ عن عمر بن ذر، عن يزيد بن أمية، عن البراء قال: سُئل رسول اللَّه ﷺ عن أطفال المسلمين قال: «هم مع آبائهم». وسئل عن أولاد المشركين فقال: « هم مع آبائهم ». فقيل: يارسول اللَّه، ما يعملون ؟ قال :«اللَّه أعلم بهم»[٢].

ورواه عمر بن ذر ،عن يزيد بن أمية ،عن رجل، عن البراء، عن عائشة، فذكره[٣].

الحديث الخامس : عن ثوبان:

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى، حدثنا ريحان بن سعيد، حدثنا عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبى قِلاَبة، عن أبى أسماء، عن ثوبان؛ أن النبى ﷺ عظَّم شأن المسألة، قال: « إذا كان يوم القيامة، جاَء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم فيسألهم ربهم، فيقولون: ربنا لم ترسل إلينا رسولاً، ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولاً لكنا أطوع عبادك، فيقول لهم ربهم: أرأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعونى ؟ فيقولون: نعم ، فيأمرهم[٤] أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيظاً وزفيراً، فرجعوا إلى ربهم فيقولون: ربنا أخرجنا ـ أو: أجرنا ـ منها ، فيقول لهم: ألم تزعموا أنى إن أمرتكم بأمر تطيعونى ؟ فيأخذ على ذلك مواثيقهم. فيقول: اعمدوا إليها، فادخلوها. فينطلقون حتى إذا رأوها فَرِقوا ورجعوا، فقالوا: ربنا فَرِقنا منها، ولا نستطيع أن ندخلها. فيقول: ادخلوها داخرين». فقال نبى اللَّه ﷺ: « لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً ». ثم قال البزار: ومتن هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه، لم يروه عن أيوب إلا عباد، ولا عن عباد إلا ريحان بن سعيد[٥].

قلت: وقد ذكره ابن حبان فى ثقاته ، وقال يحيى بن معين والنسائى: لا بأس به، ولم يرضه أبو داود. وقال أبو حاتم: شيخ لا بأس به يكتب حديثه ولا يحتج به .

الحديث السادس: عن أبى سعيد ـ سعد بن مالك بن سنان الخدرى:

قال الإمام محمد بن يحيى الذُّهَلى: حدثنا سعيد بن سليمان، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « الهالك فى الفترة والمعتوه والمولود: يقول الهالك

---

(١) مسند أبى يعلى(٧/ ٢٢٥) ومسند البزار برقم (٢١٧٧) «كشف الأستار» وليث بن أبى سليم ضعيف، وعبد الوارث قال عنه البخارى:« منكر الحديث».

(٢) وذكره المؤلف فى جامع المسانيد والسنن (٣٧/ ٨٧) من مسند أبى يعلى ،ولم أقع عليه فى المطبوع من المسند.

(٣) لم أقع على هذا الطريق، ولعلى أستدركه فيما بعد ـ إن شاء الله. وروى الإمام أحمد فى مسنده (٦/ ٨٤) من طريق بهية عن عائشة نحوه.

(٤) فى ت: « فأمرهم».

(٥) مسند البزار برقم (٣٤٣٣) «كشف الأستار».

فى الفترة: لم يأتنى كتاب ، ويقول المعتوه: رب، لم تجعل لى عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً ، ويقول المولود: رب لم أدرك العقل فترفع[١] لهم نار فيقال لهم[٢] :ردوها» ، قال: فيردها من كان فى علم اللَّه سعيداً لو أدرك العمل ، ويمسك عنها من كان فى علم اللَّه شقياً لو أدرك العمل ، فيقول: إياى عصيتم، فكيف لو أن رسلى أتتكم ؟ ».

وكذا رواه البزار، عن محمد بن عمر بن هَيَّاج الكوفى، عن عبيد اللَّه[٣] بن موسى، عن فضيل ابن مرزوق، به[٤] .ثم قال: لا يعرف من حديث أبى سعيد إلا من طريقه، عن عطية عنه ، وقال فى آخره :« فيقول اللَّه: إياى عصيتم فكيف برسلى بالغيب؟ » .

الحديث السابع: عن معاذ بن جبل، رضى اللَّه عنه:

قال هشام بن عَمَّار ومحمد بن المبارك الصورى[٥] :حدثنا عمر بن واقد، عن يونس بن حلبس، عن أبى إدريس[٦] الخولانى، عن معاذ بن جبل، عن نبى اللَّه ﷺ قال: « يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلاً، وبالهالك فى الفترة، وبالهالك صغيراً. فيقول الممسوخ: يارب، لو آتيتنى عقلاً ماكان[٧] من آتيته عقلاً بأسعد منى ـ وذكر فى الهالك فى الفترة والصغير نحو ذلك ـ فيقول الرب عز وجل: إنى آمركم بأمر فتطيعونى ؟ فيقولون: نعم، فيقول: اذهبوا فادخلوا النار ـ قال: ولو دخلوها ما ضرّتهم ـ فتخرج عليهم قوابص، فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق اللَّه من شىء، فيرجعون سراعاً، ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك، فيقول الرب عزّ وجل: قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون، وعلى علمى خلقتكم، وإلى علمى تصيرون ، ضميهم ، فتأخذهم النار»[٨].

الحديث الثامن : عن أبى هريرة ، رضى اللَّه عنه:

قد تقدم روايته مندرجة مع رواية الأسود بن سريع، رضى اللَّه عنه:

وفى الصحيحين، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرَانه ويُمَجِّسانه، كما تنتج[٩] البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ »[١٠].

وفى رواية قالوا: يارسول اللَّه،أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «اللَّه أعلم بما كانوا عاملين»[١١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود،حدثنا عبد الرحمن بن ثابت،عن عطاء بن قُرَّة،عن عبد اللَّه بن ضمرة،عن أبى هريرة،رضى اللَّه عنه،عن النبى ﷺ ـ فيما أعلم، شك موسى ـ قال:

---

(١) فى ف : «فرفع». (٢) فى ت: « فيقول لهم». (٣) فى ت: «عبد الله».
(٤) مسند البزار برقم (٢١٧٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٦) « فيه عطية وهو ضعيف».
(٥) فى ت: « الغورى». (٦) فى ت: « عن أبى ذر». (٧) فى ت: « ما مات».
(٨) ورواه ابن عدى فى الكامل (٥/ ١١٨) من طريق عبد الصمد بن عبد الله، عن هشام بن عمار، عن عمرو بن واقد به. وقال بعد أن ساق أحاديث عمرو بن واقد عن يونس:« كلها غير محفوظة إلا من رواية عمرو بن واقد عن يونس، عن أبى إدريس، عن معاذ ابن جبل وهو من الشاميين ممن يكتب حديثه ولا يحتج به».
(٩) فى ت، ف: «تولد».
(١٠) صحيح البخارى برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم(٢٦٥٨).
(١١) الرواية فى صحيح مسلم برقم (٢٦٥٨).

«ذرارى المسلمين فى الجنة ، يكفلهم إبراهيم عليه السلام[١]»[٢].

وفى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار، عن رسول اللَّه ﷺ، عن اللَّه، عز وجل، أنه قال: «إنى خلقت عبادى حنفاء» [٣]. وفى رواية لغيره «مسلمين» .

الحديث التاسع: عن سمرة ، رضى اللَّه عنه:

رواه الحافظ أبو بكر البرقانى فى كتابه «المستخرج على البخارى» من حديث عوف الأعرابى، عن أبى رجاء العطاردى، عن سَمُرَة ، رضى اللَّه عنه، عن النبى ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة» فناداه الناس: يارسول اللَّه ، وأولاد المشركين؟ قال : «وأولاد المشركين»[٤].

وقال الطبرانى: حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم الضَّبِّى، عن عيسى بن شعيب، عن عباد بن منصور، عن أبى رَجَاء، عن سمرة قال: سألنا رسول اللَّه ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «هم خدم أهل الجنة» [٥].

الحديث العاشر : عن عم حسناء[٦]:

قال: [الإمام][٧] أحمد: [حدثنا إسحاق، يعنى الأزرق][٨]، أخبرنا رَوْح، حدثنا عوف، عن حسناء[٩] بنت معاوية من بنى صريم قالت: حدثنى عمى قال: قلت: يارسول اللَّه، من فى الجنة ؟ قال : «النبى فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والمولود فى الجنة ، والوئيد فى الجنة » [١٠].

فمن العلماء من ذهب إلى التوقف[١١] فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة، لحديث سَمُرة بن جندب فى صحيح البخارى: أنه عليه الصلاة والسلام[١٢] قال فى جملة ذلك المنام، حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم، عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، قالوا: يارسول اللَّه، وأولاد المشركين؟ . قال «نعم، وأولاد المشركين »[١٣].

ومنهم من جزم لهم بالنار، لقوله عليه السلام[١٤] : « هم مع آبائهم ».

ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة فى العَرَصَات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم اللَّه فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً، وانكشف علم اللَّه فيه بسابق[١٥] الشقاوة.

---

(١) فى ت: «عليه الصلاة والسلام».

(٢) المسند(٢/٣٢٦) وقال الهيثمى فى المجمع(٧/٢١٩): « فيه عبد الرحمن بن ثابت وثقه ابن المدينى وجماعة، وضعفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات».

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٤) أصله فى صحيح البخارى برقم (٧٠٤٧) من طريق عوف به نحوه.

(٥) المعجم الكبير (٧/ ٢٤٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٩): «وفيه عبادة بن منصور وثقة يحيى القطان وفيه ضعف».

(٦) فى ت، ف، أ: « خنساء».

(٧) زيادة من ت، أ.

(٨) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٩) فى ت، ف، أ: « خنساء».

(١٠) المسند(٥/٥٨) وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٣/٢٤٦): « إسناده حسن».

(١١) فى ت، ف، أ: «الوقف».

(١٢) فى ف، أ: «صلى الله عليه وسلم».

(١٣) صحيح البخارى برقم (٧٠٤٧).

(١٤) فى ت: « عليه الصلاة والسلام» ، وفى ف، أ: « صلى الله عليه وسلم».

(١٥) فى ت، ف، أ: « بتقدم».

وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض. وهذا القول هو الذى حكاه الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى، رحمه الله، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذى نصره الحافظ أبو بكر البيهقى فى «كتاب الاعتقاد» وكذلك غيره من محققى العلماء والحفاظ النقاد.

وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النَّمَرى بعد ماتقدم من أحاديث الامتحان، ثم قال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية، ولا تقوم بها حجة وأهل العلم ينكرونها؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك فى وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ؟!

والجواب عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح، كما قد نص على ذلك غير واحد من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ماهو ضعيف يقوى[1] بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متعاضدة على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها ، وأما قوله:«إن الآخرة دار جزاء»، فلا شك أنها دار جزاء، ولا ينافى التكليف فى عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعرى عن مذهب أهل السنة والجماعة، من امتحان الأطفال، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُود ﴾[ن:٤٢]، وقد ثبتت السنة فى الصحاح[2] وغيرها: أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأما المنافق فلا يستطيع ذلك ويعود ظهره طبقاً واحداً كلما أراد السجود[3] خَرَّ لقفاه [4].

وفى الصحيحين فى الرجل الذى يكون آخر أهل النار خروجاً منها أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه ألاّ يسأل غير ماهو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول الله تعالى: يا ابن آدم، ما أغدرك! ثم يأذن له فى دخول الجنة[5].

وأما قوله :«وكيف يكلفهم[6] دخول النار، وليس ذلك فى وسعهم؟» فليس هذا بمانع من صحة الحديث، فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحدّ من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم، كالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم الساعى ومنهم الماشى، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدوش على وجهه فى النار ، وليس ماورد فى أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم ، وأيضاً فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار ، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذى يرى أنه نار، فإنه يكون عليه برداً وسلاماً، فهذا نظير ذلك ، وأيضاً فإن الله تعالى[قد][7] أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل فى غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم فى عماية غمامة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لايتقاصر [8]عما ورد فى الحديث المذكور، والله أعلم .

---

(١) فى ف، أ: « يتقوى». (٢) فى ت: « والصحاح». (٣) فى ف: « سجوداً».
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩١٩) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.
(٥) صحيح البخارى برقم (٨٠٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٢) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.
(٦) فى ت، ف: « كلفهم الله»، وفى أ: «يكفهم الله النار». (٧) زيادة من ت، ف، أ. (٨) فى ف: «لاتتقاصر».

فصل

فإذا تقرر هذا ،فقد اختلف الناس فى ولدان المشركين على أقوال:

أحدها: أنهم فى الجنة، واحتجوا بحديث سَمُرَة أنه، عليه السلام[١] ،رأى مع إبراهيم أولاد المسلمين وأولاد المشركين وبما تقدم فى[٢] رواية أحمد عن حسناء[٣] ،عن عمها أن رسول اللّه ﷺ قال: «والمولود فى الجنة». وهذا استدلال صحيح، ولكن أحاديث الامتحان أخص منه . فمن علم اللّه[عز وجل][٤] منه أنه يطيع جعل[٥] روحه فى البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة ، ومن علم منه أنه لا يجيب، فأمره إلى اللّه تعالى، ويوم القيامة يكون فى النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان، ونقله الأشعرى عن أهل السنة [والجماعة][٦]، ثم من هؤلاء القائلين بأنهم فى الجنة من يجعلهم مستقلين فيها، ومنهم من يجعلهم خدماً لهم، كما جاء فى حديث على بن زيد، عن أنس، عند أبى داود الطيالسى [٧].وهو ضعيف، واللّه أعلم .

القول الثانى: أنهم مع آبائهم فى النار، واستدل عليه بما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبى المغيرة حدثنا عتبة بن ضمرة[٨] بن حبيب،حدثنى عبد اللّه بن أبى قيس مولى غُطَيْف، أنه أتى عائشة فسألها عن ذرارى الكفار فقالت: قال رسول اللّه ﷺ: « هم تبع لآبائهم ». فقلت: يارسول اللّه، بلا عمل؟ فقال :« اللّه أعلم بما كانوا عاملين »[٩].

وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حرب،عن محمد بن زياد الألهانى،سمعت عبد اللّه بن أبى قيس سمعت،عائشة تقول:سألت رسول اللّه ﷺ عن ذرارى المؤمنين قال[١٠]:«هم من آبائهم». قلت: فذرارى المشركين؟ قال:«هم مع آبائهم» قلت:بلا عمل؟ قال:«اللّه أعلم بما كانوا عاملين»[١١].

ورواه [الإمام][١٢] أحمد أيضاً، عن وكيع، عن أبى عَقِيل يحيى بن المتوكل ـ وهو متروك ـ عن مولاته بُهَيَّة عن عائشة؛ أنها ذكرت لرسول اللّه ﷺ أطفال المشركين فقال: « إن شئت أسمعتك تضاغيهم فى النار »[١٣].

وقال عبد اللّه بن الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبى شيبة، عن محمد بن فضيل بن[١٤] غزوان، عن محمد بن عثمان، عن زاذان عن على، رضى اللّه عنه، قال : سألت خديجة رسول اللّه ﷺ عن ولدين لها ماتا فى الجاهلية فقال: «هما فى النار». قال:فلما رأى الكراهية فى وجهها [قال][١٥]: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما». قالت: فولدى منك ؟ قال:[قال:«فى الجنة». قال: ثم قال رسول الله

---

(١) فى ف، أ :«صلى الله عليه وسلم». (٢) فى ت، ف: «من». (٣) فى ت، ف، أ: « خنساء».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ت، ف، أ: «جعل الله». (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) سبق الحديث والكلام عليه عند هذه الآية. (٨) فى ف: «حمزة».
(٩) المسند(٦/ ٨٤) .
(١٠) فى ف، أ: « فقال».
(١١) سنن أبى داود برقم (٤٧١٢).
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) المسند(٦/ ٢٠٨).
(١٤) فى ت: «عن». (١٥) زيادة من ف، أ، والمسند.

ﷺ][١] :« إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم فى النار» ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ [أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ][٢]﴾ [الطور: ٢١] [٣].

وهذا حديث غريب؛ فإن محمد بن عثمان هذا مجهول الحال، وشيخه زاذان لم يدرك علياً، والله أعلم .

وروى أبو داود من حديث ابن أبى زائدة، عن أبيه، عن الشعبى قال: قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والموؤودة فى النار ». ثم قال الشعبى :حدثنى به علقمة، عن أبى وائل، عن ابن مسعود[٤].

وقد رواه جماعة عن داود بن أبى هند، عن الشعبى، عن علقمة، عن سلمة بن قيس الأشجعى قال : أتيت أنا وأخى النبى ﷺ فقلنا: إن أمنا ماتت فى الجاهلية، وكانت تقرى الضيف وتصل الرحم، وأنها وأدت أختاً لنا فى الجاهلية لم تبلغ الحنث. فقال: « الوائدة والموؤودة فى النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام، فتسلم ». وهذا إسناد حسن [٥].

والقول الثالث: التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله ﷺ : « الله أعلم بما كانوا عاملين ». وهو فى الصحيحين من حديث جعفر بن أبى إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال[٦] :« الله أعلم بماكانوا عاملين»[٧] .وكذلك هو فى الصحيحين ،من حديث الزهرى، عن عطاء بن يزيد ، وعن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: أنه سئل عن أطفال المشركين ،فقال :« الله أعلم بماكانوا عاملين»[٨].

ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف. وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة؛ لأن الأعراف ليس دار قرار، ومآل أهلها إلى الجنة كما تقدم تقرير ذلك فى «سورة الأعراف»، والله أعلم .

فصل

وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضى أبو يعلى بن الفرّاء الحنبلى، عن الإمام أحمد أنه قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذى نقطع[٩] به إن شاء الله، عز وجل . فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن بعض العلماء: أنهم توقفوا فى ذلك، وأن الولدان كلهم تحت شيئة[١٠] الله، عز وجل[١١] .قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث

(١، ٢) زيادة من ف، أ.

(٣) زوائد المسند (١/ ١٣٤).

(٤) سنن أبى داود برقم (٤٧١٧).

(٥) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٤٧٨) من طريق ابن أبى عدى، عن داود بن أبى هند به.

(٦) فى ت،ف: «فقال».

(٧) صحيح البخارى برقم (١٣٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٠).

(٨) صحيح البخارى برقم (١٣٨٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٩).

(٩) فى ف:« يقطع». (١٠) فى ت، ف، أ: « مشيئة». (١١) فى أ: « تعالى».

منهم: حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه وغيرهم قالوا: وهو يشبه ما رسم مالك فى موطئه فى أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث فى ذلك ، وعلى ذلك أكثر أصحابه. وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين فى الجنة وأطفال المشركين خاصة فى المشيئة [(١)] .انتهى كلامه وهو غريب جداً .

وقد ذكر أبو عبد اللّه القرطبى فى كتاب «التذكرة»[(٢)] نحو ذلك أيضاً، واللّه أعلم .

وقد ذكروا فى ذلك حديث عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت : دعى النبى[(٣)] ﷺ إلى جنازة صبى من الأنصار، فقلت: يارسول اللّه، طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال: «أو غير ذلك يا عائشة ، إن اللّه خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم فى أصلاب آبائهم». رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه [(٤)].

ولما كان الكلام فى هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها ، روى ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، ومحمد بن الحنفية وغيرهم. وأخرج ابن حبان فى صحيحه، عن جرير بن حازم سمعت أبا رجاء العُطَاردى، سمعت ابن عباس وهو على المنبر يقول : قال رسول اللّه ﷺ: «لا يزال أمر هذه الأمة مواتياً ـ أو مقارباً ـ ما لم يتكلموا فى الوِلْدان والقَدَر».

قال ابن حبان: يعنى أطفال المشركين.

وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم، به[(٥)] .ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبى رجاء، عن ابن عباس موقوفاً .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ .

اختلف القراء فى قراءة قوله: ﴿ أَمَرْنَا ﴾ فالمشهور قراءة التخفيف،واختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً ،كقوله تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا ﴾ [يونس: ٢٤]، فإن اللّه لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب.

وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة .رواه ابن جريج[(٦)] ،عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبير أيضاً.

(١) فى ف: « وأطفال الكفار تحت المشيئة».
(٢) التذكرة: (ص ٥١١ ــ ٥١٧).
(٣) فى ف، أ: « رسول الله ».
(٤) المسند(٦/ ٤١) وصحيح مسلم برقم(٢٦٦٢) وسنن أبى داود برقم (٤٧١٣) وسنن النسائى (٤/ ٥٧) وسنن ابن ماجة برقم (٨٢).
(٥) صحيح ابن حبان برقم (١٨٢٤) «موارد»، ومسند البزار برقم (٢١٨٠) « كشف الأستار».
(٦) فى أ: « ابن جرير».

وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء.

قلت: إنما يجيء هذا[١] على قراءة من قرأ ﴿ أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ قال على بن طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم[٢] بالعذاب، وهو قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس.

وقال العَوْفى عن ابن عباس: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن مالك عن الزهرى: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا.

وقد استشهد بعضهم بالحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا أبو نعامة العدوى، عن مسلم بن بُدَيْل، عن إياس بن زهير، عن سُوَيْد بن هُبَيْرة، عن النبى ﷺ قال: «خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة».

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه اللّه، فى كتابه «الغريب»: المأمورة: كثيرة النسل. والسِّكة: الطريقة المصطفة من النخل، والمأبورة: من التأبير، وقال بعضهم: إنما جاء هذا متناسباً كقوله: «مأزورات غير مأجورات»[٣].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) ﴾.

يقول تعالى منذراً كفار قريش فى تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسل من بعد نوح، ودل هذا على[٤] أن القرون التى كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله[٥] ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة[٦] قرون كلهم على الإسلام.

ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على اللّه منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى.

وقوله[تعالى][٧]: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أى: هو عالم بجميع أعمالهم، خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية [سبحانه وتعالى][٨].

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾.

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد اللّه

---

(١) فى ت، ف: «هذا إنما يجيء». (٢) فى أ: «أهلكناهم».
(٣) ذكره الزيلعى فى تخريج الكشاف (٢/ ٢٦٢) وزاد: «لأنه من التأبيد وهو ما يصلح النخل من سقى وغيره».
(٤) فى ت: «ودل على هذا». (٥) فى ت: «كما قال». (٦) فى ت، ف: «عشر».
(٧) زيادة من ت. (٨) زيادة من ف، أ.

ما يشاء.

وهذه مقيدة لإطلاق ماسواها من الآيات[١] فإنه قال: ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا ﴾ أى: فى الآخرة ﴿يَصْلاهَا﴾ أى: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أى: فى حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه[٢]، إذ اختار الفانى على الباقى ﴿مَّدْحُورًا﴾: مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً .

قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا ذويد[٣] ،عن أبى إسحاق، عن زُرْعَة، عن عائشة، رضى اللَّه عنها، قالت : قال رسول اللَّه ﷺ: « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له »[٤].

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ ﴾ أى: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أى: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أى: وقلبه مؤمن، أى: مصدق بالثواب والجزاء ﴿ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ .

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) ﴾.

[يقول تعالى: ﴿ كُلاًّ ﴾ أى كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أى: هو المتصرف الحاكم الذى لا يجور، فيعطى كلاً ما يستحقه من الشقاوة والسعادة ولا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد ؛ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أى: ممنوعا، أى: لا يمنعه أحد ولا يرده راد.

قال قتادة: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أى: منقوصاً .

وقال الحسن وابن جريج وابن زيد : ممنوعاً.

ثم قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ فى الدنيا، فمنهم الغنى والفقير وبين ذلك ، والحسن والقبيح وبين ذلك ، ومن يموت صغيراً ، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً ، وبين ذلك ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ أى: ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا؛ فإن منهم من يكون فى الدركات فى جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون فى الدرجات العُلَى ونعيمها وسرورها ، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفى الصحيحين: « إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء»[٥] ؛ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَلآخِرَةُ

(١) فى ت: «الإيمان». (٢) فى ت: « وصنعه». (٣) فى ت، ف: « حسين بن دويل».

(٤) المسند(٦/ ٧١) وقال الهيثمى فى المجمع(١٠/ ٢٨٨): « رجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة».

(٥) تقدم تخريجه عند تفسير الآية:٦٩ من سورة النساء من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه، وفى لفظه اختلاف عن هذا اللفظ. ورواه بهذا اللفظ الحميدى فى مسنده برقم(٧٧٥) من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه.

أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا﴾][١].

﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) ﴾.

يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف فى عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على إشراكك [٢] ﴿مَّخْذُولاً﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذى عبدت معه، وهو لا يملك لك[٣] ضراً ولا نفعاً؛ لأن مالك الضر والنفع[٤] هو اللّه وحده لاشريك له. وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا بشير بن سلمان، عن سَيَّار أبى الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد اللّه ـ هو ابن مسعود ـ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها باللّه أوشك الله له بالغنى، إما أجلٌ [عاجل][٥] وإما غنى عاجل».

ورواه أبو داود، والترمذى من حديث بشير بن سلمان، به[٦]، وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾.

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لاشريك له؛ فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر.

قال مجاهد: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعنى: وصى، وكذا قرأ أبىّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، والضحاك بن مزاحم: «ووصى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه» ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى: وأمر بالوالدين إحساناً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾أى: لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ أى: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبى رباح فى قوله: ﴿ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ أى: لا تنفض[٧] يدك على والديك.

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ أى: ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم.

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ أى: تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا ﴾أى: فى كبرهما وعند وفاتهما ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ف: «شركك». (٣) فى ت: «له».
(٤) فى ف: «النفع والضر». (٥) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٦) سنن أبى داود برقم(١٦٤٥) وسنن الترمذى برقم (٢٣٢٦).
(٧) فى ف: «ولا تنفض».

قال ابن عباس: ثم أنزل اللَّه [تعالى][١] : ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ**﴾ [التوبة: ١١٣].

وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها الحديث المروى من طرق عن أنس وغيره: أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال: « آمين آمين آمين »: فقالوا: يارسول اللَّه، علام أمنت ؟ قال: «أتانى جبريل فقال: يامحمد، رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك ، فقل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له ، قل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قل: آمين . فقلت: آمين»[٢].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا على بن زيد، أخبرنا زُرَارَة بن أَوْفَى، عن مالك بن الحارث ـ رجل منهم ـ أنه سمع النبى ﷺ يقول: « من ضَمَّ يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه، وجبت له الجنة البتة ، ومن أعتق امرأ[٣] مسلماً كان فكَاكه من النار، يجزى بكل عضو منه عضواً منه».

ثم قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت على بن زيد ـ فذكر معناه، إلا أنه قال: عن رجلٍ من قومه يقال له: مالك أو ابن مالك، وزاد: « ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار، فأبعده اللَّه»[٤].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا على بن زيد، عن زرارة بن أوفى[٥] ،عن مالك بن عمرو القشيرى: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « من أعتق رقبة مسلمة فهى فداؤه من النار، مكان كل عَظْم من عظامه مُحَرّره بعظم من عظامه ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له، فأبعده اللَّه عز وجل ، ومن ضم يتيماً بين[٦] أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه اللَّه، وجبت له الجنة »[٧].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت زرارة بن أوفى[٨] يحدث عن أبى بن مالك القشيرى قال : قال النبى ﷺ: « من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فأبعده اللَّه وأسحقه ».

ورواه أبو داود الطيالسى عن شعبة به[٩]. وفيه زيادات أخر .

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) رواه البزار فى مسنده برقم (٣١٦٨) «كشف الأستار» من طريق جعفر بن عون، عن سلمة بن وردان، عن أنس، رضى الله عنه، وقال: وسلمة صالح وله أحاديث يستوحش منها ولا نعلم روى أحاديث بهذه الألفاظ غيره. وجاء من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، أخرجه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥١) وسيأتى. ومن حديث كعب بن عجرة رضى الله عنه، رواه الحاكم فى المستدرك (١٥٣/٤). ومن حديث عمار بن ياسر وجابر بن سمرة وابن مسعود وعبد الله بن الحارث رواها البزار فى مسنده برقم (٣١٦٤ـ ٣١٦٧) .

(٣) فى ت: « رجلا».

(٤) المسند(٣٤٤/٤).

(٥) فى ت: « زرارة بن أبى أوفى».

(٦) فى ف، أ: « من».

(٧) المسند(٣٤٤/٤).

(٨) فى ت:« زرارة بن أبى أوفى».

(٩) المسند (٣٤٤/٤) .

حديث آخر: قال الإمام أحمد :حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سهيل[١] بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه أحدهما أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة».

صحيح من هذا الوجه، ولم يخرجه سوى مسلم، من حديث أبى عوانة وجرير وسليمان بن بلال ،عن سهيل، به [٢].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا رِبعىّ بن إبراهيم ـ قال أحمد: وهو أخو إسماعيل بن عُلَيَّة، وكان يفضل على أخيه ـ عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علىّ !ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان، فانسلخ قبل أن يغفر له! ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه[٣] الكبر فلم يدخلاه الجنة » قال ربعى :لا أعلمه [٤] إلا قال :«أحدهما ».

ورواه الترمذى، عن أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقى، عن ربعى بن إبراهيم، ثم قال: غريب من هذا الوجه[٥].

حديث آخر: وقال[٦] الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن الغَسِيل، حدثنا أسيد بن على، عن أبيه على بن عبيد، عن أبى أسيد وهو مالك بن ربيعة الساعدى، قال: بينما أنا جالس عند رسول اللَّه ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يارسول اللَّه، هل بقى علىّ من برّ أبوىّ شىء بعد موتهما أبرهما به ؟ قال: « نعم، خصال أربع : الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذى بقى عليك بعد موتهما من برهما»[٧].

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن سليمان ـ وهو ابن الغسيل ـ به[٨].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرنى محمد بن طلحة بن عبد اللَّه[٩] بن عبد الرحمن،عن أبيه، عن معاوية بن جاهمة السلمى؛ أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال: يارسول اللَّه، أردت الغزو، وجئتك أستشيرك ؟ فقال: « فهل لك من أم ؟» قال[١٠] : نعم. فقال:« الزمها. فإن الجنة تحت رجليها[١١]» ثم الثانية، ثم الثالثة فى مقاعد شتى،كمثل هذا القول.

ورواه النسائى وابن ماجه ،من حديث ابن جريج، به [١٢].

---

(١) فى ت: «إسماعيل».

(٢) المسند(٢/ ٣٦٤) وصحيح مسلم برقم(٢٥٥١).

(٣) فى ت: « أدرك أبواه عنده». (٤) فى ف: «ولا علم».

(٥) المسند (٢/ ٢٥٤) وسنن الترمذى برقم (٣٥٤٥).

(٦) فى ت: «قال». (٧) فى ف: « من برهما بعد موتهما».

(٨) المسند (٣/ ٤٩٧) وسنن أبى داود برقم (٥١٤٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣٦٦٤).

(٩) فى أ: « عبيد الله» . (١٠) فى ت، ف: «فقال». (١١) فى ف: « عند رجلها».

(١٢) المسند(٣/ ٤٢٩) وسنن النسائى (٦/ ١١) وسنن ابن ماجة برقم (٢٧٨١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن بَحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن المقدام بن معد يكرب[١] الكندى، عن النبى ﷺ قال: «إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب» .

وقد أخرجه ابن ماجه، من حديث [عبد الله][٢] بن عياش، به [٣].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا أبو عوَانة، عن الأشعث بن سليم، عن أبيه، عن رجل من بنى يربوع قال: أتيت النبى ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول: «يد المعطى[العليا][٤] أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»[٥].

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده: حدثنا إبراهيم ابن المستمر العُرُوقى، حدثنا عمرو بن سفيان، حدثنا الحسن بن أبى جعفر، عن ليث بن أبى سليم، عن علقمة بن مرثد[٦] ،عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه؛ أن رجلاً كان فى الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبى ﷺ: هل[٧] أديت حقها ؟ قال: « لا، ولا بزفرة واحدة » أو كما قال. ثم قال البزار :لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه [٨].

قلت: والحسن بن أبى جعفر ضعيف ،والله أعلم .

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) ﴾ .

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون[٩] منه البادرة إلى أبويه، وفى نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به ـ وفى رواية :لا يريد إلا الخير بذلك ـ فقال: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾.

وقوله[تعالى][١٠] : ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة.

وعن ابن عباس: المسبحين .وفى رواية عنه: المطيعين المحسنين.

وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين .وقال بعضهم :هم الذين يصلون الضحى[١١].

وقال شعبة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب فى قوله: ﴿[فَإِنَّهُ][١٢] كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال : الذي يصيب الذنب ثم يتوب ،ويصيب الذنب ثم يتوب.

وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثورى ومعمر، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب نحوه، وكذا رواه الليث وابن جريج ،عن يحيى بن سعيد، عن ابن][١٣] المسيب، به. وكذا قال عطاء بن يسار.

(١) فى ت، ف: « معدى كرب». (٢) زيادة من ف، أ.
(٣) المسند(٤/ ١٣٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣٦٦١).
(٤) زيادة من ف، أ، والمسند .
(٥) المسند(٤/ ٦٤).
(٦) فى ف، أ: «يزيد». (٧) فى ت: «فسأل النبى ﷺقال: هل».
(٨) مسند البزار برقم (١٨٧٢) «كشف الأستار» ووقع فيه: « ولابركزة» وفى مجمع الزوائد: « ولابركة».
(٩) فى ت،ف: « يكون». (١٠) زيادة من ت. (١١) فى ت: « الصبح».
(١٢) فى ت، ف : « إنه »وهو خطأ. (١٣) زيادة من ف.

وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: هم الراجعون إلى الخير.

وقال مجاهد عن عبيد بن عمير فى قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ قال: هو الذى إذا ذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر اللَّه منها. ووافقه على ذلك مجاهد[١].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير، فى قوله: ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ قال: كنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهم اغفر لى ما أصبت[٢] فى مجلسى هذا[٣].

وقال ابن جرير: والأولى فى ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره اللَّه إلى ما يحبه ويرضاه[٤].

وهذا الذى قاله هو الصواب؛ لأن الأوّاب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾[الغاشية: ٢٥]، وفى الحديث الصحيح، أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا رجع من سفر قال[٥]: « آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون »[٦].

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً (٢٨) ﴾.

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، كما تقدم فى الحديث: « أمك وأباك، ثم أدناك أدناك » وفى رواية: « ثم الأقرب فالأقرب ».

وفى الحديث: « من أحب أن يبسط له رزقه[٧] وينسأ له فى أجله، فليصل رحمه»[٨].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التيمى[٩]، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبى سعيد قال لما نزلت، هذه الآية ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ دعا رسول اللَّه ﷺ فاطمة فأعطاها «فدك». ثم قال: لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التيمى[١٠]، وحميد بن حماد بن أبى الخوار[١١] [١٢].

---

(١) فى ف: « ووافقه مجاهد فى ذلك». (٢) فى ت: « ما أحببت».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٢٠).

(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٢).

(٥) فى ف ،أ: « يقول».

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٧٩٧) من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما.

(٧) فى ت، ف، أ: «له فى رزقه».

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٩٨٦) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥٧).

(٩) فى ت: أبو نجى التمى»، وفى ف: «التميمى». (١٠) فى ت: « أبو نجى التميمى».

(١١) فى ت، ف ، أ: « الجوزاء».

(١٢) مسند البزار برقم (٢٢٢٣)« كشف الأستار» وعطية العوفى متروك.

وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده؛ لأن الآية مكية، وفَدَك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة فكيف يلتئم هذا مع هذا ؟!

وقد تقدم الكلام على المساكين وابن السبيل فى «سورة براءة» بما أغنى عن إعادته ههنا.

قوله[تعالى][١] :﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أى: أشباههم فى ذلك.

وقال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق فى غير حق .وكذا قال ابن عباس.

وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق، لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً فى غير حقه كان تبذيرًا.

وقال قتادة :التبذير: النفقة[٢] فى معصية اللّه تعالى، وفى غير الحق وفى الفساد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا لَيْث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبى هلال، عن أنس بن مالك أنه قال: أتى رجل من بنى تميم إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يارسول اللّه، إنى ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين[٣] ». فقال: يارسول اللّه، أقلل[٤] لى ؟ فقال :﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾. فقال[٥] :حسبى يارسول اللّه، إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى اللّه وإلى رسوله؟ فقال رسول اللّه ﷺ: « نعم، إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها، فلك أجرها، وإثمها على من بدلها »[٦].

وقوله [تعالى][٧] :﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أى: فى التبذير والسفه وترك طاعة اللّه وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال :﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أى: جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة اللّه عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته .

وقوله[تعالى][٨] : ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا﴾ أى: وإذا سألك أقاربك ومن أمرنا بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴾ أى: عدهم وعداً بسهولة، ولين إذا جاء رزق اللّه فسنصلكم إن شاء اللّه ، هكذا فسر قوله ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا﴾ بالوعد : مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة وغير واحد.

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى ف، أ: « الإنفاق». (٣) فى ت: « حق المسكين السائل والجار والمسكين».
(٤) فى ت: « أتلك». (٥) فى ف: «قال».
(٦) المسند (٣/ ١٣٦).
(٧، ٨) زيادة من ت.

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد فى العيش ذامّا للبخل ناهياً عن السَّرَف: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أى: لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطى أحداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن اللَّه: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤] أى نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب.

وقوله: ﴿ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ أى: ولا تسرف فى الإنفاق فتعطى فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملوماً محسوراً.

وهذا من باب اللف والنشر أى: فتقعد إن بخلت ملوماً، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير بن أبى سُلمى فى المعلقة :

ومن كان ذا مال ويبخل بماله على قومه يستغن عنه ويذمم[(١)]

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شىء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التى قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفاً وعجزاً[(٢)] ،فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٣، ٤] أى: كليل عن أن يرى عيباً. هكذا فسر هذه الآية ـ بأن المراد هنا البخل والسرف ـ ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم.

وقد جاء فى الصحيحين، من حديث أبى الزِّنَادَ، عن الأعرج، عن أبى هريرة؛ أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثدييهما[(٣)] إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلا سَبَغَت ـ أو: وفرت ـ على جلده، حتى تُخفى بنانه وتعفو[(٤)] أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا[(٥)] تتسع».

هذا لفظ البخارى فى الزكاة[(٦)].

وفى الصحيحين من طريق هشام بن عُرْوَةَ، عن زوجته فاطمة بنت المنذر، عن جدتها أسماء بنت أبى بكر قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «أنفقى هكذا وهكذا وهكذا، ولا تُوعى فَيُوعى اللَّه عليك، ولا توكى فيوكى اللَّه عليك » وفى لفظ: «ولا تُحصى فيحصى اللَّه عليك»[(٧)].

وفى صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إن اللَّه قال لى :أنفق أنفق عليك»[(٨)].

وفى الصحيحين من طريق معاوية بن أبى مُزَرِّد ،عن سعيد بن يسار، عن أبى هريرة، رضى

---

(١) البيت فى ديوانه (ص ٣٠). (٢) فى ت، ف:« عجزًا وضعفاً». (٣) فى أ: « من يديهما».

(٤) فى ت، ف: « يخفى بنانه ويعفو». (٥) فى ف: « ولا».

(٦) صحيح البخارى برقم(١٤٤٣) وليس فى صحيح مسلم من طريق أبى الزناد، وإنما هو فيه من طريق الحسن بن مسلم وعبد الله بن طاوس، عن طاوس، عن أبى هريرة برقم (١٠٢١).

(٧) صحيح البخارى برقم (١٤٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٩).

(٨) صحيح مسلم برقم (٩٩٣).

الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً »(١).

وروى مسلم، عن قتيبة، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء(٢)، عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً: « ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً(٣)، ومن تواضع لله رفعه الله»(٤).

وفي حديث أبي كثير، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: « إياكم والشُّح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا »(٥).

وروى البيهقي من طريق سعدان بن نصر، عن أبي معاوية، عن الأعمش، [عن ابن بريدة](٦) عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما يخرج رجل صدقة، حتى يفك لَحْيَي سبعين شيطانا»(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا سُكَين(٨) بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعوده قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد»(٩).

وقوله[تعالى](١٠): ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أي: خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر(١١)، كما جاء في الحديث: « إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه».

وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة عياذاً بالله من هذا وهذا.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) ﴾.

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه ينهى [تعالى](١٢)

---

(١) صحيح البخاري برقم (١٤٤٢) وصحيح مسلم برقم(١٠١٠).

(٢) في ف: «عن العلاء بن عبد الرحمن».

(٣) في ت، ف، أ: « إلا غنى».

(٤) صحيح مسلم برقم(٢٥٨٨).

(٥) رواه أحمد في المسند(٢/١٥٩) وأبو داود في السنن برقم (١٦٩٨) وابن حبان في صحيحه برقم (١٥٨٠) «موارد» من طرق عن شعبة عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن الحارث، عن أبي كثير الزبيدي به.

(٦) زيادة من ف، أ، والسنن الكبرى، وصحيح ابن خزيمة.

(٧) السنن الكبرى (٤/١٨٧) ورواه ابن خزيمة في صحيحه برقم (٢٤٥٧) من طريق محمد المخزومي، عن أبي معاوية، به، وقال: « إن صح الخبر، فإني لا أقف هل سمع الأعمش من ابن بريدة أم لا».

(٨) في ت: « مسكين»، وفي ف، أ: «سكن».

(٩) المسند (١/٤٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٥٢): « فيه إبراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف».

(١٠) زيادة من ت.

(١١) في ف، أ: « بمن يستحق الفقر ومن يستحق الغنى».

(١٢) زيادة من ت، ف، أ.

عن قتل الأولاد، كما أوصى بالأولاد فى الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته، فنهى اللَّه [تعالى][1] عن ذلك فقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ أى: خوف أن تفتقروا فى ثانى الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وفى الأنعام[2]: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ من إِمْلَاقٍ ﴾أى: من فقر﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ[3]﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً﴾ أى: ذنباً عظيماً.

وقرأ بعضهم: «كان خَطَأً كبيراً» وهو بمعناه.

وفى الصحيحين عن عبد اللَّه بن مسعود: قلت: يارسول اللَّه، أى الذنب أعظم ؟ قال: « أن تجعل للّه نداً وهو خلقك». قلت: ثم أى ؟ قال:«أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك». قلت: ثم أى ؟ قال:« أن تزانى بحليلة [4]جارك » [5].

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ﴾ .

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربته، وهو مخالطة أسبابه[6] ودواعيه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ أى: ذنباً عظيماً ﴿ وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ أى: وبئس طريقاً ومسلكاً .

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا جرير،حدثنا سليم بن عامر، عن أبى أمامة قال:إن فتى شاباً أتى النبى[7] ﷺ فقال : يارسول اللَّه، ائذن لى بالزنا .فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا : مَهْ مَهْ. فقال: «ادنه». فدنا منه قريباً[8] ،فقال[9] :« اجلس». فجلس، قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا واللَّه، جعلنى اللَّه فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال:«أفتحبه لابنتك؟». قال: لا واللَّه يارسول اللَّه، جعلنى اللَّه فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أتحبه لأختك؟» قال: لا واللَّه، جعلنى اللَّه فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا واللَّه،جعلنى اللَّه فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لعماتهم» قال:«أفتحبه لخالتك؟» قال: لا واللَّه، جعلنى اللَّه فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن[10] فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء[11].

وقال[12] ابن أبى الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بَقِيَّةُ، عن أبى بكر بن أبى مريم، عن الهيثم بن مالك الطائى، عن النبى ﷺ قال: « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند اللَّه من نطفة

(١) زيادة من ف، أ.
(٢) فى ت، ف، أ: « وقال فى سورة الأنعام».
(٣) فى ت:« نرزقهم وإياكم» وهو خطأ.
(٤) فى ف: « خليلة»، وفى أ:« حليلة».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٧) وصحيح مسلم برقم(٦٨).
(٦) فى ت: « أشباهه».
(٧) فى ت: «أتى إلى النبى».
(٨) فى ف: « قريبًا منه» .
(٩) فى ت: «فقال له».
(١٠) فى ف: « وأحصن».
(١١) المسند(٥/٣٥٦).
(١٢) فى ف ، أ: « قال».

وضعها رجل فى رحم لا يحل له»[(١)].

﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) ﴾.

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعى، كما ثبت فى الصحيحين؛ أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزانى المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[(٢)].

وفى السنن: « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم[(٣)] ».

وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ أى: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قَوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك. وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة، وأنه سيملك؛ لأنه كان ولى عثمان، وقد قتل عثمان مظلوماً، رضى الله عنه، وكان معاوية يطالب علياً، رضى الله عنه، أن يسلمه قتلته حتى يقتص منهم؛ لأنه أموى، وكان على، رضى الله عنه، يستمهله فى الأمر[(٤)] حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب على من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى[(٥)] معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة، وأبى أن يبايع علياً هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه كما تفاءل[(٦)] ابن عباس واستنبط من هذه الآية الكريمة. وهذا من الأمر العجيب، وقد روى ذلك الطبرانى فى معجمه حيث قال:

حدثنا يحيى بن عبد الباقى، حدثنا أبو عمير بن النحاس، حدثنا ضَمْرَةُ بن ربيعة، عن ابن شَوْذَب، عن مطر الوراق، عن زَهْدَم الجَرْمى قال: كنا فى سمر ابن عباس فقال: إنى محدثكم حديثا ليس بسر ولا علانية؛ إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان ـ يعنى عثمان ـ قلت لعلى: اعتزل، فلو كنت فى جحر طلبت حتى تستخرج، فعصانى، وايم الله ليتأمرن عليكم معاوية، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ الآية[(٧)] وليحملنكم[(٨)] قريش على سنة فارس والروم وليقيمن عليكم النصارى واليهود والمجوس، فمن أخذ منكم يومئذ بما يُعْرَف نجا، ومن ترك وأنتم تاركون، كنتم كقرن من القرون، هلك فيمن هلك[(٩)].

وقوله[تعالى][(١٠)]: ﴿ فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ﴾ قالوا: معناه: فلا يسرف الولى فى قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل.

---

(١) الورع لابن أبى الدنيا برقم(١٣٧) وفيه ثلاث علل: الأولى: تدليس بقية. الثانية: ابن أبى مريم ضعيف. الثالثة: الإرسال. ا. هـ. مستفاداً من حاشية الأستاذ محمد الحمود، وسيأتى الحديث عند تفسير الآية: ٦٨ من سورة الفرقان.

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٨٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود، رضى الله عنه.

(٣) فى أ: « المسلم». (٤) فى ت: « الأمور». (٥) فى ف: « فابى».

(٦) فى ت، ف، أ: «قال». (٧) فى ت، ف، أ: « ﴿إنه كان منصوراً﴾ ». (٨) فى ت: « يتحملنكم».

(٩) المعجم الكبير (١٠/ ٣٢٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٣٥): «وفيه من لم أعرفهم».

(١٠) زيادة من ت.

وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً ﴾ أى أن الولى منصور على القاتل شرعاً ،وغالباً قدراً .

﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى: لا تتصرفوا له إلا بالغبطة﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيراً ﴾[النساء: ٢] و ﴿لا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦] .

وقد جاء فى صحيح مسلم؛ أن رسول اللَّه ﷺ قال لأبى ذر: « يا أبا ذر، إنى أراك ضعيفاً، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى: لا تَأَمَّرَن على اثنين، ولا تولين مال يتيم[(١)] »[(٢)].

وقوله[تعالى][(٣)] : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ أى: الذى تعاهدون عليه الناس والعقود التى تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ أى: عنه.

وقوله[تعالى][(٤)] : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ أى: من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم.

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾ قرئ بضم القاف وكسرها، كالقرطاس وهو الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية .

وقوله :﴿ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أى: الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب.

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أى: لكم فى معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال :﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أى: مآلاً ومنقلباً فى آخرتكم .

قال سعيد، عن قتادة: ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أى: خير ثواباً وعاقبة . وأما ابن عباس كان يقول: يا معشر الموالى، إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال، وهذا الميزان. قال وذكر لنا أن نبى اللَّه ﷺ كان يقول: « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه، ليس به إلا مخافة اللَّه، إلا أبدله اللَّه فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك » [(٥)].

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ .

---

(١) فى ت: «بخيل».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨٢٦).

(٣، ٤) زيادة من ت.

(٥) وقد جاء فى مسند أحمد (٥/٧٨) عن أبى قتادة وأبى الدهماء عن رجل من أهل البادية، أن النبى ﷺ أخذ بيده وقال: « إنك لا تدع شيئًا اتقاء الله، عز وجل، إلا أعطاك الله خيرًا منه» .

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يقول: لاتقل.

وقال العوفى عنه: لاتَرْم أحدًا بما ليس لك به علم.

وقال محمد بن الحَنَفية: يعنى شهادة الزور.

وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم؛ فإن الله سائلك عن ذلك كله.

ومضمون ماذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذى هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢]، وفى الحديث: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذبُ الحديث»[(١)]. وفى سنن أبى داود: « بئس مطيةُ الرجل: زعموا»[(٢)]، وفى الحديث الآخر: « إن أفرى الفِرَى أن يُرِى [(٣)] عينيه ما لم تريا»[(٤)]. وفى الصحيح: « من تحلم حلما كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شَعيرتين، وليس بعاقد[(٥)]»[(٦)].

وقوله: ﴿كُلُّ أُوْلَئِكَ﴾ أى: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ أى: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتُسأل[(٧)] عنه وعما عمل فيها. ويصح استعمال«أولئك» مكان «تلك»، كما قال الشاعر[(٨)]:

ذُمَّ المَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلة اللِّوَى ... وَالْعَيْش بَعْدَ أولئكَ الأيّام

﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ﴾.

يقول تعالى ناهيًا عباده عن التَّجبّر والتبختر فى المشية: ﴿وَلا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى: متبخترًا متمايلاً مشى الجَبَّارين﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾ أى: لن تقطع الأرض بمشيتك[(٩)]، قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رُؤبة بن العَجَّاج:

وقَاتِم الأعْمَاق خَاوى المُخترقْ[(١٠)]

وقوله [تعالى][(١١)]: ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا﴾ أى: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم(٦٠٦٦) ومسلم فى صحيحه برقم(٢٥٦٣) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه .
(٢) برقم (٤٩٧٢).
(٣) فى ف، أ: «يرى الرجل».
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٤٣) من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما .
(٥) فى ف: «بفاعل».
(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٤٢) معلقًا، ووصله النسائى فى السنن (٨/ ٢١٥) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.
(٧) فى ت: « ويسأل».
(٨) هو جرير بن عطية، والبيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ٦٢).
(٩) فى ت ، ف : « بمشيك».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٣).
(١١) زيادة من ت.

يجازى فاعل ذلك بنقيض[١] قصده. كما ثبت فى الصحيح: « بينا رجل يمشى فيمن كان قبلكم، وعليه بُرْدَان يتبختر فيهما، إذ خُسِف به الأرض، فهو يتجلجل[٢] فيها إلى يوم القيامة»[٣].

وكذلك[٤] أخبر الله[تعالى][٥] عن قارون أنه خرج على قومه فى زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض، وفى الحديث: « من تواضع لله رفعه الله، فهو فى نفسه حقير وعند الناس كبير، ومن استكبر وضعه الله، فهو فى نفسه كبير وعند الناس حقير، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب أو الخنزير»[٦].

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب «الخمول والتواضع»: حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير، حدثنا حجاج بن محمد، عن أبى بكر الهذلى قال: بينما نحن مع الحسن، إذ مَر عليه ابن الأهتم[٧] ـ يريد المنصور ـ وعليه جبَابُ خَزّ قد نُضّد[٨] بعضها فوق بعض على ساقه، وانفرج عنها قباؤه، وهو يمشى ويتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف، شامخ بأنفه، ثان عطفه، مصعر خده، ينظر فى عطفيه، أىّ حُمَيْق ينظر فى عطفه فى نِعَم غير مشكورة ولا مذكورة، غير المأخوذ بأمر الله فيها، ولا المؤدّى حقّ الله منها! والله إن يمشى أحدهم طبيعته يتلجلج تلجلج المجنون، فى كل عضو منه نعمة، وللشيطان به لعنة ، فسمعه ابن الأهتم[٩] فرجع يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إلى، وتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا**﴾[١٠].

ورأى البخترىّ العابدُ رجلاً من آل على يمشى وهو يخطِر فى مشيته، فقال له: يا هذا، إن الذى أكرمك به لم تكن هذه مشيته! قال: فتركها الرجل بعد.

ورأى ابن عمر رجلا يخطر فى مشيته ، فقال : إن للشياطين إخواناً.

وقال خالد بن مَعْدان: إياكم والخَطْر، فإن الرّجل يَدُه من سائر[١١] جسده. رواهما ابن أبى الدنيا.

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا حماد بن زيد، عن[١٢] يحيى، عن سعيد، عن يُحَنَّس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمتى المطيطاء، وخدمتهم فارس والروم،

---

(١) فى ت: « ببعض». (٢) فى ت: «يتخلل».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٧٨٩) وصحيح مسلم برقم(٢٠٨٨) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه.

(٤) فى أ:« ولذلك». (٥) زيادة من ف.

(٦) رواه أبو نعيم فى الحلية(٧/ ١٢٩) والخطيب فى تاريخ بغداد(٢/ ١١٠) من طريق سعيد بن سلام، عن الثورى عن الأعمش، عن إبراهيم بن عابس، عن ربيعة، عن عمر بن الخطاب بنحوه وقال: « غريب من حديث الثورى، تفرد به سعيد بن سلام، وهو كذاب».

(٧) فى هـ ،ت، ف: « ابن الأهيم»، والصواب ما أثبتناه من الخمول والتواضع لابن أبى الدنيا.

(٨) فى ت، ف: « فضل».

(٩) فى هـ، ت، ف:« ابن الأهيم»، والصواب ما أثبتناه من الخمول والتواضع.

(١٠) الخمول والتواضع برقم (٢٣٧).

(١١) فى ت، ف، أ:« من دون سائر». (١٢) فى ف : «بن».

سلط بعضهم على بعض»(١).

وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ أما من قرأ: ﴿سَيِّئَةً﴾ أى: فاحشة. فمعناه عنده: كل هذا الذى نهينا عنه، من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ إلى ههنا، فهو سيئة مؤاخذ عليها ﴿مَكْرُوهًا﴾ عند الله، لا يحبه ولا يرضاه.

وأما من قرأ ﴿سَيِّئُهُ﴾ على الإضافة فمعناه عنده: كل هذا الذى ذكرناه من قوله: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ إلى ههنا فسيئه، أى: فقبيحه مكروه(٢) عند الله، هكذا وجَّه ذلك ابن جرير، رحمه الله(٣).

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩) ﴾.

يقول تعالى: هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أى: تلومك نفسك [ويلومك الله](٤) والخلق. ﴿مَّدْحُورًا﴾. قال ابن عباس وقتادة: مطرودًا.

والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ؛ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾.

يقول تعالى رادًا على المشركين الكاذبين(٥) الزاعمين ــ عليهم لعائن الله ــ أن الملائكة بناتُ الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، ثم ادّعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطؤوا فى كل من المقامات الثلاث(٦) خطأ عظيماً، قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ أى: خصصكم بالذكور ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ أى: اختار لنفسه على زعمكم البنات؟ ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أى: فى زعمكم لله ولدًا، ثم جعلكم ولده الإناث التى تأنفون(٧) أن يكُنّ لكم، وربما قتلتموهُن بالوأد، فتلك إذا قسْمة ضيزَى. قال [الله](٨) تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا. وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ

---

(١) الخمول والتواضع برقم(٢٤٩) وهو مرسل، وجاء من حديث ابن عمر رضى الله عنهما، رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٢٦١) من طريق زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عنه، ولفظ آخره« سلط الله شرارها على خيارها» وقال الترمذى: «هذا حديث غريب».

(٢) فى ت، ف، أ: « قبيحه مكروها».

(٣) تفسير الطبرى(١٥/٦٣).

(٤) زيادة من ت، ف،أ.

(٥) فى ف: « المكذبين».

(٦) فى ت، ف: « الثلاث المقامات».

(٧) فى ت: « تألفون».

(٨) زيادة من ف.

عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤١) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا[١] فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا[٢] ﴾ أى: صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا[٣] عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أى: الظالمين منهم ﴿ إِلاَّ نُفُورًا ﴾ أى: عن الحق، وبعدًا منه.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) ﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تُعْبد لتقرّب إليه وتشفع لديه ـ لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تَدْعُونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه .

ثم نزه نفسه الكريمة وقدّسها فقال: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أى: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون فى زعمهم أن معه آلهة أخرى﴿عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أى: تعالياً كبيرا، بل هو الله الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفُوًا أحد.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ .

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أى: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجلّه وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وإلهيته:

فَفِى كُلّ شَىءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلّ عَلَىَ أنّه واحد

كما قال تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ[٤] مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . [وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا][٥] ﴾ [مريم: ٩٠ ـ ٩٢].

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا مسكين[٦] ابن ميمون مؤذّن مسجد الرملة، حدثنا عروة بن رُوَيم، عن عبد الرحمن بن قرط؛ أن رسول الله ﷺ

(١) فى ت، ف،أ: «صرفنا للناس»وهو خطأ. (٢) فى ت ،ف: «القرآن من كل مثل» وهو خطأ. (٣) فى ف: « فينزجرون».
(٤) فى ت، ف: « ينفطرن» وهو خطأ. (٥) زيادة من أ. (٦) فى ت: «أن».

ليلة أسرى إلى المسجد الأقصى، كان[١] بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطار به حتى بلغ السموات السبع[٢]، فلما رجع قال: سمعت تسبيحًا فى السموات العلى مع تسبيح كثير: سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا، سبحان العلىّ الأعلى، سبحانه وتعالى[٣].

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أى: وما من شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله[٤] ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أى: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم. وهذا عام فى الحيوانات[٥] والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل[٦].

وفى حديث أبى ذر: أن النبى[٧] ﷺ أخذ فى يده حصيات، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا يد أبى بكر وعمر وعثمان، رضى الله عنهم [أجمعين][٨]، وهو حديث مشهور فى المسانيد[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا زَبَّان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه مَرّ على قوم وهم وقوف على دوابّ لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرا لله تعالى منه»[١٠].

وفى سنن النسائى عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: «نقيقها تسبيح»[١١].

وقال قتادة، عن عبد الله بن بَابى[١٢]، عن عبد الله بن عمرو: أن الرجل إذا قال: «لا إله إلا الله»، فهى كلمة الإخلاص التى لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها. وإذا قال: «الحمد لله» فهى كلمة الشكر التى لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها، وإذا قال: «الله أكبر» فهى تملأ[١٣] مابين السماء والأرض، وإذا قال: «سبحان الله»، فهى صلاة الخلائق التى لم يَدْعُ الله أحداً من خلقه إلا قَرّره بالصلاة والتسبيح. وإذا قال: «لاحول ولا قوة إلا بالله[١٤]»، قال: أسلم عبدى واستسلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبى، سمعت الصَّقْعَبَ بن زُهير[يحدث][١٥] عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى النبى ﷺ أعرابىّ عليه جبة

---

(١) فى ت، ف، أ: «الأقصى، فلما رجع كان». (٢) فى ت: «السبع السموات».

(٣) المعجم الأوسط برقم(٥٨)«مجمع البحرين» وقال: «لايروى عن النبى ﷺ إلا بهذا الإسناد، تفرد به سعيد». وذكر الذهبى هذا الحديث فى الميزان (٤/١٠١) فى ترجمة مسكين بن أبى ميمون وقال: «منكر».

(٤) فى ف: «بحمده». (٥) فى ت، ف: «الحيوان».

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٥٧٩).

(٧) فى ت، ف، أ: «أن رسول الله». (٨) زيادة من ف.

(٩) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٤١٥).

(١٠) المسند (٣/٤٣٩).

(١١) سنن النسائى(٧/ ٢١٠) من حديث عبد الرحمن بن عثمان، رضى الله عنه.

(١٢) فى ت: «بانى»، وفى ف: «أبى». (١٣) فى ت: «الله أكبر ملأ». (١٤) فى أ:«بالله العلى العظيم».

(١٥) زيادة من ف، أ، والمسند.

من طيالسة مكفوفة[1] بديباج ـ أو: مزورة بديباج ـ فقال: إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع ابن راع، ويضع كل رأس ابن رأس. فقام إليه النبى ﷺ مغضبًا، فأخذ بمجامع جبته فاجتذبه، فقال: «لا أرى عليك ثياب من لا يعقل». ثم رجع رسول الله ﷺ فجلس فقال: «إن نوحاً، عليه السلام، لما حضرته الوفاة، دعا ابنيه[2] فقال: إنى قاص عليكما الوصية: آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشرك بالله والكبر، وآمركما بلا إله إلا الله، فإن السموات والأرض وما بينهما لو وضعت فى كفة الميزان، ووضعت« لا إله إلا الله» فى الكفة الأخرى، كانت أرجح، ولو أن السموات والأرضِ كانتا[3] حلقة، فوضعت « لا إله إلا الله» عليهما لفصمتهما أو لقصمتهما. وآمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شىء، وبها يرزق كل شىء»[4].

ورواه الإمام أحمد، أيضا، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن الصَّقْعَب[5] بن زهير، به أطول من هذا. تفرد به[6].

وقال ابن جرير: حدثنى نصر بن عبد الرحمن الأوْدِىّ، حدثنا محمد بن يَعْلى، عن موسى بن عبيدة، عن زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه[7] قال: قال رسول الله ﷺ: « ألا أخبركم بشىء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحا، عليه السلام، قال لابنه: يابنى، آمرك أن تقول:« سبحان الله »، فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق، قال الله تعالى: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾»[8]. إسناده فيه ضعف، فإن الربّذى[9] ضعيف عند الأكثرين.

وقال عكرمة فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾ قال: الأسطوانة تسبح، والشجرة تسبح[10] ـ الأسطوانة: السارية.

وقال بعض السلف: إن صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه، قال الله تعالى: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾.

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن إبراهيم قال : الطعام يسبح.

ويشهد لهذا القول آية السجدة أول [سورة][11] الحج.

وقال آخرون: إنما يسبح ماكان فيه روح. يعنون من حيوان أو نبات.

وقال قتادة فى قوله: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾ قال: كل شىء فيه الروح يسبح من شجر[12] أو شىء فيه.

---

(١) فى ت، ف:« ملفوفة». (٢) فى ت: «بنيه». (٣) فى ت: «كانت».

(٤) المسند(٢/ ٢٢٥).

(٥) فى ف: «الصعقب».

(٦) المسند(٢/ ١٦٩).

(٧) فى ف: « عنهما».

(٨) تفسير الطبرى(١٥/ ٦٥).

(٩) فى ت: « الزيدى»، وفى ف:« الأودى». (١٠) فى ت، ف:«والشجر يسبح». (١١) زيادة من ف.

(١٢) فى ف:«من شجرة».

وقال الحسن، والضحاك في قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ قالا: كل شيء فيه الروح.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب قالا: حدثنا جرير أبو الخطاب قال: كنا مع يزيد الرَّقاشي، ومعه الحسن في طعام، فقدموا الخوان، فقال يزيد الرقاشي: يا أبا سعيد، يسبح هذا الخِوَان؟ فقال: كان يسبح مرة[١].

قلت: الخِوَان هو المائدة من الخشب. فكأن الحسن، رحمه الله، ذهب إلى أنه لما كان حيا فيه خضرة، كان يسبح، فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه. وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير[٢]، أما أحدهما فكان لا يَسْتَتِر من البول، وأما الآخر فكان يمشي[٣] بالنميمة». ثم أخذ جريدة رطبة، فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا». أخرجاه في الصحيحين[٤].

قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء: إنما قال: «ما لم ييبسا» لأنهما يسبحان مادام فيهما خضرة، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم.

وقوله[تعالى][٥]: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ أي: أنه [تعالى][٦] لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ الآية [هود: ١٠٢][٧]، وقال[الله][٨] تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]. ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال ههنا: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إلى أن قال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾[فاطر: ٤١ ـ ٤٥].

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٦٥).
(٢) في ت: «كثير».
(٣) في ت: «وأما الآخر فيمشي»، وفي أ: «وكان الآخر يمشي».
(٤) صحيح البخاري برقم (٢١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٢).
(٥) زيادة من ت.
(٦) زيادة من ت.
(٧) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم(٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنهما.
(٨) زيادة من ف، أ.

عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت ـ يامحمد ـ على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجابا مستوراً.

قال قتادة، وابن زيد: هو الأكنّة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ**﴾[فصلت: ٥] أى : مانع حائل[1] أن يصل إلينا مما تقول شيء.

وقوله: ﴿**حِجَابًا مَّسْتُورًا**﴾ أى: بمعنى ساتر، كميمون ومشؤوم، بمعنى: يامن وشائم؛ لأنه من يَمنهم وشأمَهم.

وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير، رحمه الله.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا أبو موسى الهروى إسحاق بن إبراهيم، حدثنا سفيان، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن تدرس، عن أسماء بنت أبى بكر[الصديق][2] رضى الله عنها[3]، قالت: لما نزلت. ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾[سورة المسد] جاءت العوراء أم جميل ولها ولوَلة، وفى يدها فِهْر وهى تقول: مُذَمَّما أتينا ــ أو: أبينا، قال أبو موسى: الشك منى ــ ودينه قَلَيْنَا، وأمره عصينا. ورسول الله جالس، وأبو بكر إلى جنبه ــ أو قال: معه ـ قال: فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن ترانى»، وقرأ قرآنا اعتصم به منها: ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا**﴾. قال: فجاءت حتى قامت على أبى بكر، فلم تر النبىّ ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، بلغنى أن صاحبك هجانى. فقال أبو بكر: لاورب هذا البيت ما هجاك. قال: فانصرفت وهى تقول: لقد[4] علمت قريش أنى بنت سيدها[5].

وقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً**﴾: جمع «كنان»، الذى يغشى القلب﴿**أَن يَفْقَهُوهُ**﴾أى: لئلا يفهموا القرآن﴿**وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**﴾ وهو الثقل الذى يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به.

وقوله: ﴿ **وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ**﴾ أى: إذا وحَّدت الله فى تلاوتك، وقلت: «لا إله إلا الله» ﴿ **وَلَّوْا**﴾ أى: أدبروا راجعين ﴿**عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**﴾ ونفور: جمع نافر، كقعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾[الزمر: ٤٥].

قال قتادة فى قوله: ﴿**وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**﴾: إن المسلمين لما قالوا: «لا إله إلا الله»، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم، وضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها وينصرها ويُفْلجها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها

---

(١) فى ف: «مانع وحائل». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ف، أ: « عنهما».
(٤) فى ف: «قد».
(٥) مسند أبى يعلى (١/ ٥٣) وحسنه الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ١٦٩).

نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين، التى يقطعها الراكب فى ليال قلائل، ويسير الدهر فى فئام من الناس، لا يعرفونها ولا يقرّون بها.

قول آخر فى الآية:

وروى[١] ابن جرير: حدثنى الحسين بن محمد الذارع[٢]، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبى، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس فى قوله: **﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾**: هم الشياطين.

هذا غريب جدًا فى تفسيرها، وإلا فالشياطين[٣] إذا قرئ القرآن، أو نودى بالأذان، أو ذكر الله، انصرفوا[٤].

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨) ﴾.

يخبر تعالى نبيه ــ صلوات الله [وسلامه][٥] عليه ــ بما تناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءة رسول الله ﷺ سراً من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السّحر على المشهور، أو من «السَّحْر»، وهو الرئة، أى: إن تتبعون ـ إن اتبعتم محمدًا ــ **﴿إلا بشرًا﴾** يأكل [ويشرب][٦]، كما قال الشاعر[٧]:

فَإِن تَسأَلينا فيم نَحْنُ فَإِنَّنا ... عصافيرُ مِنْ هَذا الأَنَام المُسَحَّر

وقال الراجز[٨]:

ونُسْحَر [٩] بالطَّعام وبالشراب

أى: نُغذى: وقد صوب هذا القول ابنُ جرير، وفيه نظر؛ لأنهم إنما أرادوا ههنا أنه مسحور له رئى يأتيه بما استمعوه من الكلام الذى يتلوه ومنهم من قال: «شاعر»، ومنهم من قال: «كاهن»، ومنهم من قال: «مجنون»، ومنهم من قال: «ساحر»؛ ولهذا قال تعالى: **﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾** أى: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

قال محمد بن إسحاق فى السيرة: حدثنى محمد بن مسلم[١٠] بن شهاب الزهرى، أنه حُدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شَرِيق بن عمرو بن وهب الثقفى، حليف ابن[١١] زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلى بالليل فى بيته، فأخذ كل واحد

---

(١) فى ت، ف: «قال». (٢) فى ت، ف، أ: «الذراع». (٣) فى ف: «فالشيطان».
(٤) فى ف: «انصرف». (٥) زيادة من ت، ف، أ. (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) هو لبيد بن ربيعة، والبيت فى ديوانه (ص٥٧).
(٨) هو امرؤ القيس، والرجز فى اللسان مادة «سحر».
(٩) فى ت: «تسحر»، وفى أ: «تسحرنا». (١٠) فى ت: «سلام». (١١) فى أ: «بنى».

منهم مجلسًا يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا. حتى إذا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئًا، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم[1] الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل[2] منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجَمعهم[3] الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لانعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شَرِيق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته، فقال: أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف مايُراد بها، وسمعتُ أشياء ماعرفتُ معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذى حَلَفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، مارأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعتُ؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُّكب، وكنا كفَرَسى رِهان قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لانؤمن به[4] أبدا ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه[5].

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: **﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾** أى: تراباً. قاله مجاهد.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: غباراً.

﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أى: يوم القيامة **﴿ خَلْقًا جَدِيدًا﴾** أى: بعد ما بلينا وصرنا عدماً لايذكر. كما أخبر عنهم فى الموضع الآخر: **﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ .أَءِذا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾**[النازعات: ١٠ــ١٢]، قال تعالى[6]: **﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ .قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾**[يس: ٧٨، ٧٩].

---

(١) فى ف، أ: «تفرقوا فجمعتهم» . (٢) فى ت: «كل واحد». (٣) فى ت، ف، أ: «حتى إذا اجمعتهم».
(٤) فى ف: «بهذا» .
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣١٥).
(٦) فى ف: «وقال تعالى».

وهكذا أمر رسوله ههنا(١) أن يجيبهم فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ وهما(٢) أشد امتناعا من العظام والرفات ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾.

قال ابن إسحاق عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت.

وروى عطية، عن ابن عمر أنه قال فى تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك.

ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو(٣) صِرتُم مَوْتاً الذى هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع(٤) عليه شىء إذا أراده.

وقد ذكر بن جرير [هاهنا](٥) حديث: « يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كَبْش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. ثم يقال: ياأهل النار، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: ياأهل الجنة، خلود بلا موت، ويا أهل النار، خلود بلا موت»(٦).

وقال مجاهد: ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعنى: السماء والأرض والجبال.

وفى رواية: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله بعد موتكم.

وقد وقع فى التفسير المروى عن الإمام مالك، عن الزهرى فى قوله: ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال: النبى ﷺ، قال مالك: ويقولون: هو الموت.

وقوله[تعالى](٧): ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ أى: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديدًا أو خلقًا آخر شديدًا ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: الذى خلقكم ولم تكونوا شيئًا مذكوراً، ثم صرتم بشرًا تنتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أى حال ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧].

وقوله[تعالى](٨): ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾: قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء.

وهذا الذى قالاه هو الذى تفهمه العرب من لغاتها؛ لأن(٩) الإنغاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظليم ـ وهو ولد النعامة ـ: نغضًا؛ لأنه إذا مشى عَجل(١٠) فى مشيته وحرَك رأسه. ويقال: نَغَضَت(١١) سنُه إذا تحركت وارتفعت من مَنْبَتها؛ قال الراجز(١٢):

ونَغَضَتْ مِنْ هَرَم أسنانها

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ إخبار عنه بالاستبعاد منهم لوقوع(١٣) ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ

---

(١) فى ف: « هنا». (٢) فى ف: «إذا هما». (٣) فى ف: «قد».
(٤) فى ت: « إذا شاء فلا». (٥) زيادة من أ.
(٦) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٩) من طريق العوفيين عن ابن عمر، رضى الله عنه، وإسناده مسلسل بالضعفاء وأصله فى صحيح مسلم برقم(٢٨٤٩) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.
(٧، ٨) زيادة من ت. (٩) فى ت، ف: «فإن».
(١٠) فى ت، ف: « أعجل». (١١) فى ت: «نغض».
(١٢) الرجز فى تفسير الطبرى (١٥/ ٧٠).
(١٣) فى ت: « وقوع».

مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله: ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

وقوله[تعالى][(١)]: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أي: الرب تعالى﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] أي: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخالَف ولا يُمَانع، بل كما قال[تعالى][(٢)]: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] أي: إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها[(٣)]، كما قال: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أي: تقومون[(٤)] كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: بأمره. وكذا قال ابن جريج.

وقال قتادة: بمعرفته وطاعته.

وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أي: وله الحمد فى كل حال، وقد جاء فى الحديث: «ليس على أهل« لا إله إلا الله» وحشة فى قبورهم، وكأنى[(٥)] بأهل«لا إله إلا الله» يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم، يقولون: لا إله إلا الله». وفى رواية يقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ [فاطر: ٣٤] وسيأتى فى سورة فاطر [إن شاء الله تعالى][(٦)].

وقوله: ﴿ وَتَظُنُّونَ ﴾ أى: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ [أى][(٧)] : فى الدار الدنيا ﴿إِلاَّ قَلِيلاً ﴾، وكما قال: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا . يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا .نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾[الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ . قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤].

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) ﴾.

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا فى مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام

(١، ٢) زيادة من ت. (٣) فى ت: «ظهرها». (٤) فى ت، ف: «تقولون».
(٥) فى ت، ف: « فكأنى». (٦) زيادة من ف، أ. (٧) زيادة من ف.

الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ فى يده، أى: فربما أصابه بها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمر، عن همام، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « لايشيرنّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان أن ينزع فى يده، فيقع فى حفرة من نار[(١)]».

أخرجاه من حديث عبد الرزاق[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أنبأنا على بن زيد، عن الحسن قال: حدثنى رجل من بنى سَلِيط قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى أزْفَلَة من الناس، فسمعته يقول: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، التقوى هاهنا ـ [قال حماد: وقال بيده إلى صدره ـ ماتواد رجلان فى الله فتفرّق بينهما إلا بحدث يحدثه أحدهما][(٣)]، والمحدث شَر، والمحدث شر، والمحدث شر»[(٤)].

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) ﴾.

يقول الله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها الناس، من يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ [يامحمد][(٥)] ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ أى: إنما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار.

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: بمراتبهم فى الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ﴾ كما قال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهذا لا ينافى ما [ثبت][(٦)] فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا تفضلوا بين الأنبياء»[(٧)] ؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهى والعصبية[(٨)]، لا بمقتضى الدليل، [فإنه إذا دل الدليل][(٩)] على شىء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصا[(١٠)] فى آيتين من القرآن فى سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ

(١) فى ف، أ: «النار».

(٢) المسند(٢/٣١٧) وصحيح البخارى برقم (٧٠٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦١٧).

(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٤) المسند(٥/٧١).

(٥) زيادة من ف، أ.

(٦) زيادة من ف.

(٧) صحيح البخارى برقم (٣٤١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٣) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه.

(٨) فى ت:« والمعصية».

(٩) زيادة من ف، وفى ت:« فإنه إذا كان».

(١٠) فى ت: «قصا».

أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب:٧]، وفى الشورى[فى قوله][١] : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣]. ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور، وقد بسطنا هذا بدلائله فى غير هذا الموضع، والله الموفق.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه.

قال البخارى: حدثنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمر، عن هَمَّام، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: « خُفف على داود القرآن، فكان يأمر بدابته لتُسْرج، فكان يقرأ قبل أن يَفْرغ». يعنى القرآن[٢].

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿لا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾أى: بالكلية، ﴿وَلا تَحْوِيلاً﴾ أى: أن يحولوه إلى غيركم.

والمعنى: أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذى له الخلق والأمر.

قال العَوْفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا، وهم الذين يدعون، يعنى الملائكة والمسيح وعزيراً.

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. روى البخارى، من حديث سليمان بن مِهْران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبى مَعْمر، عن عبد الله فى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ قال: ناس من الجن، كانوا يعبدون، فأسلموا. وفى رواية قال: كان ناس من الإنس، يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم[٣].

وقال قتادة، عن معبد [٤]بن عبد الله الزِّمَّانى[٥]، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ قال: نزلت فى نفر من العرب، كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجِنِّيُّون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم،

---

(١) زيادة من ف.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧١٣) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧١٤، ٤٧١٥).

(٤) فى ت: « سعيد».

(٥) فى ت، ف: «الرمانى».

فنزلت هذه الآية.

وفى رواية عن ابن مسعود: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم: الجن، فذكره.

وقال السدى، عن أبى صالح، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ قال: عيسى وأمه، وعُزير.

وقال مغيرة، عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول فى هذه الآية: هم عيسى، وعُزير، والشمس، والقمر.

وقال مجاهد: عيسى، والعُزير، والملائكة.

واختار ابن جرير قول ابن مسعود؛ لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، وهذا لا يعبر به[1] عن الماضى، فلا يدخل فيه عيسى والعُزير. قال: والوسيلة هى القربة، كما قال قتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: لاتتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف[2] عن المناهى، وبالرجاء ينبعث على[3] الطاعات.

وقوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أى: ينبغى أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذاً بالله منه.

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) ﴾.

هذا إخبار من الله بأنه قد حتَمَ وقضى بما قد كتبه عنده فى اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعَهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال عن الأمم الماضين: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧، ٨].

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) ﴾.

قال سُنَيْد، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن سعيد بن جُبَيْر قال: قال المشركون: يا محمد، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء، فمنهم من سُخّرت له الريح، ومنهم من كان يحيى الموتى، فإن سرّك أن نؤمن بك ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً. فأوحى الله إليه: « إنى قد سمعت الذى

---

(١) فى ت: «لا يغن به». (٢) فى ف، أ: «ينكشف». (٣) فى ف: «إلى».

قالوا، فإن شئت أن نفعل الذى قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب؛ فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن نَستأنى بقومك استأنيتُ بهم؟» قال: «يارب، استأن بهم».

وكذا قال قتادة، وابن جريج، وغيرهما.

قال[١] الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس[٢]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأنى بهم، وإن شئت أن نُؤتيهم الذى سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكتُ من كان قبلهم من الأمم: قال: «لا، بل استأن بهم». وأنزل الله: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾. رواه[٣] النسائى من حديث جرير، به[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سَلَمة بن كُهيل، عن عمران أبى الحكم[٥]، عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبى ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، ونؤمن بك. قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عَذّبته عذاباً لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. فقال: « بل باب التوبة والرحمة»[٦].

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا محمد بن إسماعيل بن على الأنصارى، حدثنا خلف ابن تميم المصيصى، عن عبد الجبار بن عمار الأيلىّ، عن عبد اللَّه بن عطاء بن إبراهيم، عن جدته أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت: سمعت الزبير يقول: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صاح رسول اللَّه ﷺ على أبى قُبيس: «يا آل عبد مناف، إنى نذير! » فجاءته قريش فحذرهم وأنذرهم، فقالوا: تزعم أنك نبى يوحى إليك، وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيى الموتى، فادع اللَّه أن يسير عنا هذه الجبال، ويفجر[٧] لنا الأرض أنهاراً، فنتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع اللَّه أن يحيى لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع اللَّه أن يصير لنا هذه الصخرة التى تحتك ذهباً، فننحت منها، وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم! قال: فبينا نحن حوله، إذ نزل عليه الوحى، فلما سرى عنه قال: «والذى نفسى بيده، لقد أعطانى ما سألتم، ولو شئت لكان، ولكنه خيرنى بين أن تدخلوا باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم، فتضلوا عن باب الرحمة، فلا يؤمن منكم أحد، فاخترت باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم. وأخبرنى أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم، أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين » ونزلت: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن

(١) فى ف: «وقال». (٢) فى ف، أ: « ابن أبى إياس». (٣) فى أ: «قد رواه».
(٤) المسند (١/ ٢٥٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٩٠).
(٥) فى هـ: « عمران بن حكيم»، والتصويب من أطراف المسند وكتب الرجال.
(٦) المسند(١/ ٢٤٢).
(٧) فى ف: «وتفجر».

كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُون ﴾ وحتى قرأ ثلاث آيات ونزلت: **﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾** [الرعد: ٣١][(١)] .

ولهذا قال تعالى: **﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ ﴾** أى: نبعث الآيات ونأتى بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفى أمثالهم أنهم لايؤخرون إذا كذبوا بها بعد نزولها، كما قال اللَّه تعالى فى المائدة: **﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾** [المائدة: ١١٥]. وقال تعالى عن ثمود، حين سألوا آية: ناقة تخرج[(٢)] من صخرة عيَّنُوها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا **﴿فَظَلَمُوا بِهَا ﴾**[(٣)] أى: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: **﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾** [هود: ٦٥]؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾** أى: دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذى أجيب دعاؤه فيها **﴿فَظَلَمُوا بِهَا ﴾** أى: كفروا بها ومنعوها شِرْبها وقتلوها، فأبادهم اللَّه عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله: **﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾** قال قتادة: إن اللَّه خوف الناس بما يشاء[(٤)] من آياته لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذُكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود فقال: يا أيها الناس، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه.

وهكذا رُوى أن المدينة زُلزلت على عهد عمر بن الخطاب مرات، فقال عمر: أحدثتم، واللَّه لئن عادت لأفعلن ولأفعلن . وكذا قال رسول اللَّه ﷺ فى الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن اللَّه، عز وجل، يرسلهما يخوف بهما[(٥)] عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره». ثم قال: « يا أمة محمد، واللَّه ما أحد أغير من اللَّه أن يزنى عبده أو تزنى أمته ؛ يا أمة محمد، واللَّه لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً »[(٦)].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرّضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم فى قبضته وتحت قهره وغلبته .

قال مجاهد، وعروة بن الزبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم فى قوله : **﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ**

---

(١) مسند أبى يعلى (٢/ ٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٨٥): «رواه أبو يعلى من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلى، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، وكلاهما وثق، وقد ضعفهما الجمهور».

(٢) فى ف، أ: « أن يخرج لهم ناقة». (٣) فى أ: « فلما ظلموا بها» وهو خطأ. (٤) فى ف: « بأشياء».

(٥) فى ف، أ: «ولكن يخوف الله بهما».

(٦) صحيح البخارى برقم (١٠٤٤) وصحيح مسلم برقم (٩٠١).

بِالنَّاسِ﴾ أى: عصمك منهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال البخارى: حدثنا على بن عبد اللَّه، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: هى رؤيا عين أريها رسول اللَّه ﷺ[١] ليلة أسرى به ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ شجرة الزقوم[٢].

وكذا رواه أحمد، وعبد الرزاق، وغيرهما، عن سفيان بن عيينة به[٣]، وكذا رواه العوفى، عن ابن عباس، وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ومسروق، وإبراهيم، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد. وقد تقدمت أحاديث الإسراء فى أول السورة مستقصاة، ولله[٤] الحمد والمنة. وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل اللَّه ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين؛ ولهذا[٥] قال: ﴿إِلاَّ فِتْنَةً﴾ أى: اختباراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهى شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول اللَّه ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله[٦] [بقوله][٧]: هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل هذا بهذا ويقول: تَزَقَّموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا.

حكى ذلك ابن عباس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصرى، وغير واحد، وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسره كذلك[٨] بشجرة الزقوم.

وقد قيل: المراد بالشجرة الملعونة: بنو أمية. وهو غريب ضعيف.

قال ابن جرير: حدثت عن محمد بن الحسن بن زَبَالة، حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل ابن سعد، حدثنى أبى عن جدى قال: رأى رسول اللَّه ﷺ بنى فلان ينزون على منبره نَزو القرود[٩]، فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات. قال: وأنزل[١٠] اللَّه فى ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية[١١].

وهذا السند ضعيف جداً؛ فإن «محمد بن الحسن بن زَبَالة» متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية. ولهذا اختار ابن جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هى شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أى: فى الرؤيا والشجرة.

وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أى: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أى: تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال. وذلك من خذلان اللَّه لهم.

(١) فى ف: «النبى ﷺ».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧١٦).
(٣) المسند(١/ ٢٢١).
(٤) فى ت: «فلله». (٥) فى ت: « فلهذا». (٦) فى ف، أ: «عليه لعائن الله».
(٧)زيادة من ت. (٨) فى ف: «فسر ذلك». (٩) فى أ: « القردة». (١٠) فى ف: «فأنزل».
(١١) تفسير الطبرى (١٥/ ٧٧).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) ﴾.

يذكر تعالى عَدَاوَةَ إبليس ـ لعنه اللّه ـ لآدم، عليه السلام، وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال أيضاً: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾، يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم(١) وينظر ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلاً.

وقال مجاهد: لأحتوين. وقال ابن زيد: لأضلنهم.

وكلها متقاربة، والمعنى : أنه يقول: أرأيتك هذا الذى شرفته وعظمته علىّ، لئن أنظرتنى لأضلن ذرّيته إلا قليلاً منهم !

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) ﴾.

لما سأل إبليس[عليه اللعنة](٢) النظرة قال اللّه له: ﴿اذْهَبْ﴾ فقد أنظرتك. كما قال فى الآية الأخرى : ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ . إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر ٣٧، ٣٨] ثم أوعده ومن تَبِعه من ذرية آدم جهنم، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُم فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ أى: على أعمالكم ﴿جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾.

قال مجاهد: وافراً. وقال قتادة: مُوَفّرا عليكم، لا ينقص لكم منه.

وقوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللهو والغناء، أى: استخفهم بذلك.

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال: كل داع دعا إلى معصية اللّه، عز وجل، وقاله قتادة، واختاره ابن جرير.

---

(١) فى ت، أ: «يحكم».

(٢) زيادة من ف، أ.

وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خيَّالتهم ورَجْلَتَهم[(١)]؛ فإن «الرَّجْل» جمع «راجل»، كما أن «الركب» جمع «راكب» و «صحب» جمع «صاحب».

ومعناه: تسلط عليهم لكل ما تقدر عليه. وهذا أمر قدرى، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] أى: تزعجهم إلى المعاصى إزعاجاً، وتسوقهم إليها[(٢)] سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد فى قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قال: كل راكب وماش فى معصية اللَّه.

وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه.

وتقول العرب: «أجلب فلان على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه: «نهى فى المسابقة عن الجَلَب والجَنَب» ومنه اشتقاق «الجلبة»، وهى ارتفاع الأصوات.

وقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال فى معاصى اللَّه.

وقال عطاء: هو الربا. وقال الحسن: [هو][(٣)] جمعها من خبيث، وإنفاقها فى حرام. وكذا قال قتادة.

وقال العوفى، عن ابن عباس، رضى اللَّه عنهما: أما مشاركته إياهم فى أموالهم، فهو ما حرموه من أنعامهم، يعنى: من البحائر والسوائب ونحوها. وكذا قال الضحاك وقتادة.

[ثم][(٤)] قال ابن جرير: والأولى أن يقال: إن الآية تعم ذلك كله.

وقوله: ﴿وَالأَوْلادِ﴾ قال العوفى عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: يعنى أولاد الزنا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم.

وقال قتادة، عن الحسن البصرى: قد واللَّه شاركهم فى الأموال والأولاد مَجَّسُوا وهودوا ونَصّروا وصبغوا غير صبغة الإسلام، وجَزَّؤوا من أموالهم جزءاً للشياطين[(٥)]، وكذا قال قتادة سواء.

وقال أبو صالح، عن ابن عباس: هو تسميتهم أولادهم «عبد الحارث» و«عبد شمس» و«عبد فلان».

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى، عصى اللَّه فيه، بتسميته ما[(٦)] يكرهه اللَّه، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه اللَّه، أو بالزنا بأمه، أو بقتله ووأده، وغير ذلك من الأمور التى يعصى[(٧)] اللَّه بفعله به أو فيه، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه؛ لأن اللَّه لم يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ماعصى اللَّه فيه ـ أو به، و أطيع فيه الشيطان ـ أو به، فهو مشاركة.

---

(١) فى ت، ف: «ورجالتهم». (٢) فى ت: « إلينا». (٣، ٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى ف: «الشيطان». (٦) فى ف: «بما».
(٧) فى ت: «يعفى».

وهذا الذى قاله مُتَّجه، وكل[1] من السلف، رحمهم اللَّه، فسر بعض المشاركة، فقد ثبت فى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار[2]، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يقول اللَّه عز وجل: إنى خلقت عبادى حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم[3] عن دينهم، وحَرّمت عليهم ما أحللت لهم»[4].

وفى الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال: « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال: بسم اللَّه، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدّر بينهما ولد فى ذلك، لم يضره الشيطان أبداً»[5].

وقوله: ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضى بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ أى: حافظاً ومؤيداً وناصرًا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهيعة، عن موسى بن وَرْدَان، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن المؤمن ليُنْضى شياطينه[6]، كما ينضى أحدكم بَعيَره فى السفر»[7].

ينضى، أى: يأخذ بناصيته ويقهره.

﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)﴾.

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه فى تسخيره لعباده الفلك فى البحر، وتسهيلها[8] لمصالح عباده، لابتغائهم من فضله[9] فى التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أى: إنما فعل هذا بكم، من فضله عليكم، ورحمته بكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧)﴾.

---

(١) فى ت، ف: «فكل».
(٢) فى ف، أ: « عن ابن عباس عن عياض بن حمار». وفى ت: « حماد» بدل «حمار».
(٣) فى ت: « واجتالتهم».
(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).
(٥) صحيح البخارى برقم (١٤١) وصحيح مسلم برقم (١٤٣٤).
(٦) فى ت: «شيطانه».
(٧) المسند (٢/ ٣٨٠).
(٨) فى ت، ف، أ: « وتسهيله لها».
(٩) فى ف، أ: «فضله لهم».

يخبر تعالى أنه إذا مس الناس ضرّ، دعوه منيبين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ أى: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله، كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل لما ذهب فاراً من رسول اللَّه ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً، فركب فى البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم[1] ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لايغنى عنكم إلا أن تدعوا اللَّه وحده. فقال عكرمة فى نفسه: واللَّه لئن كان لا ينفع فى البحر غيره، فإنه لا ينفع فى البر غيره، اللهم لك علىّ عهد، لئن أخرجتنى منه لأذهبن فأضعن[2] يدى فى يديه[3]، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول اللَّه ﷺ فأسلم وحسن[4] إسلامه، رضى اللَّه عنه وأرضاه.

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أى: نسيتم ماعرفتم من توحيده فى البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لاشريك له.

﴿وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا﴾ أى: سَجِيَّتُه هذا، ينسى النعم ويجحدها، إلا من عصم اللَّه.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨)﴾.

يقول تعالى: أفحسبتم أن نخرجكم[5] إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه!

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وهو: المطر الذى فيه حجارة. قاله مجاهد، وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ[6] حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] وقد قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[7]﴾ [هود: ٨٢]، وقال: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ أى: ناصراً يرد ذلك عنكم، وينقذكم منه [والله سبحانه وتعالى أعلم][8].

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا فى البحر، وخرجوا إلى البر[9] ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ فى البحر مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ أى: يقصف الصوارى

---

(١) فى ف: « فجاءهم». (٢) فى ت: « فأضع»، وفى ف: « فلأضعن». (٣) فى أ: « يدى محمد».
(٤) فى ت: «ﷺ فأحسن». (٥) فى ت: «أن يخرجوكم»، وفى ف، أ: «أن يخرجكم». (٦) فى ف: «عليكم» وهو خطأ.
(٧) فى ت، ف، أ: «من طين» وهو خطأ. (٨) زيادة من ف. (٩) فى ت: «إلى التراب».

ويغرق المراكب.

قال ابن عباس وغيره: القاصف: ريح البحار[١] التى تكسر المراكب وتغرقها[٢].

وقوله: ﴿ فَيُغْرِقَكُم [٣]بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أى: بسبب كفركم وإعراضكم عن اللّه تعالى.

وقوله: ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ قال ابن عباس: نصيراً.

وقال مجاهد: نصيراً ثائرًا، أى: يأخذ بثأركم بعدكم.

وقال قتادة: ولانخاف أحداً يتبعنا بشىء من ذلك.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) ﴾.

يخبر تعالى عن تشريفه لبنى آدم، وتكريمه إياهم، فى خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها[٤]، كما قال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[التين: ٤] أى: يمشى قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه ـ وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه ـ وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الأمور الدنيوية والدينية.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ [٥] ﴾أى: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفى ﴿ وَالْبَحْرِ ﴾ أيضًا على السفن الكبار والصغار.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم[٦] والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة[٧] من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحى.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ أى: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وقد استُدل بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة، قال عبد الرزاق:

أخبرنا مَعْمَر، عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة: يا ربنا، إنك أعطيت بنى آدم الدنيا، يأكلون منها ويتنعمون، ولم تعطنا ذلك فأعطناه فى الآخرة. فقال اللّه:«وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى، كمن قلت له: كن فكان»[٨].

وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه، وقد روى من وجه آخر متصلاً.

وقال[٩] الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن محمد بن صَدَقَة البغدادى، حدثنا إبراهيم

---

(١) فى [illegible] البحارة». (٢) فى ف: « يكسر المراكب ويغرقها». (٣) فى ت: «فتغرقكم». وفى ف: « فيغرقكم».
(٤) فى أ: « وأجملها». (٥) فى ت، ف: «البر والبحر». (٦) فى ت: «الأطعمة».
(٧) فى ت، ف، أ: «المرتفعة».
(٨) تفسير عبد الرزاق(١/ ٣٢٥).
(٩) فى ف: «فقال».

ابن عبد اللَّه بن خالد المِصِّيصِىّ، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو غَسَّان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سُليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد اللَّه بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: « إن الملائكة قالت: يا ربنا، أعطيت بنى آدم الدنيا، يأكلون فيها[(١)] ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى، كمن قلت له: كن، فكان»[(٢)].

وقد روى ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازى، حدثنا الحسن بن على بن خلف الصيدلانى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثنى عثمان بن حصن بن عبيدة بن عَلَّاق، سمعت عروة بن رُوَيْم اللخمى، حدثنى أنس بن مالك، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن الملائكة قالوا: ربنا، خلقتنا وخلقت بنى آدم، فجعلتهم يأكلون الطعام، ويشربون الشراب، ويلبسون الثياب، ويتزوجون النساء، ويركبون الدواب، ينامون[(٣)] ويستريحون، ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال اللَّه عز وجل: لا أجعل من خلقته بيدى، ونفخت فيه من روحى، كمن قلت له: كن، فكان»[(٤)].

وقال الطبرانى: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا عمر[(٥)] بن سهل، حدثنا عبيد اللَّه بن تمام، عن خالد الحذاء، عن بشر بن شغَاف[(٦)] عن أبيه، عن عبد اللَّه بن عمرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما شىء أكرم على اللَّه يوم القيامة من ابن آدم». قيل: يارسول اللَّه، ولا الملائكة؟ قال: «ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر»[(٧)]. وهذا حديث غريب جداً.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)﴾.

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة: أنه يحاسب كل أمة بإمامهم.

وقد اختلفوا فى ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أى بنبيهم. وهذا كقوله: **﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾**[يونس: ٤٧].

(١) فى ت: «منها».

(٢) وفى إسناده إبراهيم بن عبد الله المصيصى وهو كذاب، ورواه فى المعجم الأوسط برقم (٨٧) «مجمع البحرين» من طريق طلحة بن زيد عن صفوان بن سليم به، وقال: «لم يروه عن صفوان إلا طلحة، وأبو غسان محمد بن مطرف» وفى إسناده طلحة بن زيد وهو كذاب.

(٣) فى ت: «وينامون».

(٤) وذكره الهندى فى كنز العمال (١٢/ ١٩١) وعزاه لابن عساكر من حديث أنس، وقد جاء من وجه آخر؛ فرواه الطبرانى فى مسند الشاميين من طريق أحمد بن يعلى، عن هشام بن عمار، عن عثمان بن علاق قال: سمعت عروة بن رويم يحدث عن جابر فذكره، ورواه البيهقى فى الأسماء والصفات من طريق جنيد بن حكيم، عن هشام بن عمار، عن عبد ربه بن صالح قال: سمعت عروة بن رويم يحدث عن جابر فذكره. ا. هـ. مستفاداً ذلك الزيلعى فى كتابه تخريج الكشاف.

(٥) فى ت، ف: «معمر». (٦) فى ف: «شعاب».

(٧) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ٨٢): « رواه الطبرانى فى الكبير، وفيه عبيد الله بن تمام وهو ضعيف».

وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبى ﷺ.

وقال ابن زيد: بكتابهم الذى أنزل على نبيهم، من التشريع.

واختاره ابن جرير، وروى عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد مارواه العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أى: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضحاك. وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

وهذا لاينافى[(١)] أن يجاء بالنبى إذا حكم اللَّه بين أمته، فإنه لابد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾، [الزمر: ٦٩]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

ولكن المراد ههنا بالإمام[(٢)] هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أى: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ. إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٦].

وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ[(٣)] فَتِيلًا﴾ قد تقدم أن «الفتيل» هو الخيط المستطيل فى شق النواة.

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً فى هذا فقال: حدثنا محمد بن يَعْمَر[(٤)]، ومحمد بن عثمان ابن كرامة قالا: حدثنا عبيد اللَّه بن موسى، عن إسرائيل، عن السُّدِّىّ، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، عن النبى ﷺ فى قول اللَّه: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له فى جسمه، ويُبَيَّض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة تَتَلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا[(٥)] بهذا، وبارك لنا فى هذا. فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا، فإن لكل رجل منكم مثل هذا. وأما الكافر فَيُسْود وجهه، ويمدّ له فى جسمه، ويراه أصحابه فيقولون: نعوذ باللَّه من هذا ـ أو: من شر هذا ـ اللهم لاتأتنا به. فيأتيهم فيقولون: اللهم اخزه[(٦)]. فيقول: أبعدكم اللَّه، فإن لكل رجل منكم مثل هذا».

---

(١) فى ت، ف: «لا ينفى». (٢) فى ف: «بالإمام هاهنا». (٣) فى ف: «تظلمون».

(٤) فى ت، ف، أ: «معمر». (٥) فى هـ، ت: «اعترينا»، والمثبت من ف. (٦) فى ت: «أجرنا».

ثم قال البزار: لا يروى إلا من هذا الوجه [١].

وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن حجج الله وآياته وبيناته ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أي: وأضل منه كما كان في الدنيا، عياذاً بالله من ذلك.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)﴾.

يخبر تعالى عن تأييد [٢] رسوله، صلوات الله عليه وسلامه [٣]، وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولى أمره ونصره، وأنه لايكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر [٤] دينه على من عاداه وخالفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها، ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧)﴾.

قيل: نزلت في اليهود، إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء، وترك سكنى المدينة.

وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك.

وقيل: إنها نزلت بتبوك. وفي صحته نظر.

قال البيهقي، عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العُطاردي، عن يونس بن بُكَيْر، عن عبد الحميد بن بَهْرَام، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنْم؛ أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقاً أنك نبي، فالحق بالشام؛ فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فصدق [٥] ماقالوا، فغزا غزوة تبوك، لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تبوك، أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد ماختمت السورة: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿تَحْوِيلاً﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك، ومنها تبعث [٦].

(١) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣١٣٦) من طريق عبد الله بن عبد الرحمن، عن عبيد الله بن موسى به، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) في ف: «تأييده».

(٣) في ت: «صلوات الله وسلامه عليه».

(٤) في ت: «فيظهر».

(٥) في ت، ف: «قال: فصدق».

(٦) دلائل النبوة (٥/ ٢٥٤).

وفى هذا الإسناد نظر. والأظهر أن هذا ليس[١] بصحيح؛ فإن النبى ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، إنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله[٢] تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة، من أصحابه، والله أعلم. ولو صح هذا لحمل عليه الحديث الذى رواه الوليد بن مسلم، عن عُفَير بن مَعْدان، عن سُلَيم بن عامر، عن أبى أمامة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن فى ثلاثة أمكنة: مكة، والمدينة، والشام»[٣]. قال الوليد: يعنى بيت المقدس. وتفسير الشام بتبوك أحسن مما قال الوليد: إنه بيت المقدس والله أعلم.

وقيل: نزلت فى كفار قريش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه[٤] لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف. حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم[٥]، وسبى سراتهم[٦]؛ ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أى: هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا وآذوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم: ويأتيهم العذاب. ولولا أنه عليه [الصلاة و][٧] السلام رسول الرحمة، لجاءهم من النقم فى الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩)﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات فى أوقاتها: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ قيل[٨]: لغروبها. قاله ابن مسعود، ومجاهد، وابن زيد.

وقال هُشَيْم، عن مغيرة، عن الشعبى، عن ابن عباس: «دلوكها»: زوالها. ورواه نافع، عن ابن عمر. ورواه مالك فى تفسيره، عن الزهرى، عن ابن عمر. وقاله أبو بَرْزَة الأسلمى وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود. ومجاهد. وبه قال الحسن، والضحاك، وأبو جعفر الباقر، وقتادة. واختاره ابن جرير، ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حميد، عن الحكم بن بشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن ابن أبى ليلى، [عن رجل][٩]، عن جابر بن عبد الله قال: دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندى، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبى ﷺ فقال: «اخرج يا أبا بكر، فهذا حين دلكت الشمس»[١٠].

---

(١) فى ت: «ليس هذا». (٢) فى ف: «ولقوله».
(٣) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٠١) من طريق هشام بن عمار، عن الوليد بن مسلم به، وعفير بن معدان ضعيف.
(٤) فى ت: «خرجوه». (٥) فى ت: «أشرارهم». (٦) فى ف، أ: «ذراريهم».
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى ت: «قبل». (٩) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ٩٣).

ثم رواه عن سهل بن بكار، عن أبى عَوَانة، عن الأسود بن قيس، عن نبيح العنْزى، عن جابر عن رسول اللَّه ﷺ، نحوه. فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة فمن قوله: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وهو: ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله[تعالى][١]: ﴿و قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يعنى: صلاة الفجر.

وقد ثبتت السنة عن رسول اللَّه ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله[٢]، بتفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه عمل أهل الإسلام[٣] اليوم، مما تلقوه خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر فى مواضعه، ولله الحمد.

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود ـ وعن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه[٤]، عن النبى ﷺ فى هذه الآية: ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»[٥].

وقال البخارى: حدثنا عبد اللَّه بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن أبى سلمة ـ وسعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر». ويقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ ـ وحدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة ،عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ قال: « تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار».

ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، ثلاثتهم عن عُبَيْد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به[٧]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وفى لفظ فى الصحيحين، من طريق مالك، عن أبى الزِّناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « يتعاقبون فيكم ملائكة الليل وملائكة النهار[٨] ،ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر، فَيَعْرُجُ الذين باتوا فيكم فيسألهم ـ وهو أعلم بكم ـ كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون ،وتركناهم وهم يصلون»[٩].

وقال عبد اللَّه بن مسعود: يجتمع الحرسان[١٠] فى صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء.

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت: «أقواله وأفعاله». (٣) فى ت: «السلام».
(٤) فى ت، ف، أ: «عنهما».
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ٩٤).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧١٧).
(٧) المسند (٢/ ٤٧٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٩٣) وسنن ابن ماجة برقم (٦٧٠) وهو عند أهل السنن من رواية الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه.
(٨) فى ت: « بالليل وملائكة بالنهار».
(٩) صحيح البخارى برقم (٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٦٣٢).
(١٠) فى ت، ف: « الحرستان».

وكذا قال إبراهيم النَّخَعى، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد فى تفسير هذه الآية.

وأما الحديث الذى رواه ابن جرير ههنا ـ من حديث الليث بن سعد، عن زيادة، عن محمد بن كعب القرظى، عن فضالة بن عُبيد، عن أبى الدرداء، عن رسول اللَّه ﷺ، فذكر حديث النزول وأنه تعالى يقول: «من يستغفرنى أغفر له، من يسألنى أعطه[(١)]، من يدعنى فأستجيب له حتى يطلع الفجر». فلذلك يقول: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فيشهده اللَّه، وملائكة الليل، وملائكة النهار[(٢)] ـ فإنه تفرد به زيادة، وله بهذا حديث فى سنن أبى داود[(٣)].

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾: أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول اللَّه ﷺ، أنه سئل: أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صلاة الليل»[(٤)].

ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد: ما كان بعد نوم. قاله علقمة، والأسود، وإبراهيم النخعى، وغير واحد وهو المعروف فى لغة العرب. وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول اللَّه ﷺ: أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس، وعائشة، وغير واحد من الصحابة، رضى اللَّه عنهم، كما هو مبسوط فى موضعه[(٥)]، ولله الحمد والمنة.

وقال الحسن البصرى: هو ماكان بعد العشاء. ويحمل[(٦)] على ما بعد النوم.

واختلف فى معنى قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجباً فى حقه دون الأمة. رواه العوفى عن ابن عباس، وهو أحد قولى العلماء، وأحد قولى الشافعى، رحمه اللَّه، واختاره ابن جرير.

وقيل: إنما جعل قيام الليل[(٧)] فى حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر، وغيرهُ من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التى عليه، قاله مجاهد، وهو فى المسند عن أبى أمامة الباهلى، رضى اللَّه عنه[(٨)].

وقوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أى: افعل هذا الذى أمرتك به، لنقيمك يوم القيامة مقاماً يحسدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم، تبارك وتعالى.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذى يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ماهم فيه من شدة ذلك اليوم.

ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن[(٩)] أبى إسحاق، عن

---

(١) فى ف: «أعطيه».

(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ٩٤).

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٨٩٢) وأوله: «من اشتكى منكم شيئًا أو اشتكاه أخ له فليقل». وزيادة منكر الحديث.

(٤) صحيح مسلم برقم (١١٦٣).

(٥) فى ف: «مواضعه». (٦) فى ت: «ويحتمل». (٧) فى ف، أ: «قيام الليل واجبا».

(٨) المسند (٥/ ٢٥٦).

(٩) فى ت: «ابن».

صلة بن زُفَر، عن حذيفة قال: يجمع الناس فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر، حفاة عُراة كما خلقوا قياماً، لا تكلم نفس إلا بإذنه، ينادى: يامحمد، فيقول: « لبيك وسعديك، والخير فى يديك، والشر ليس إليك ، والمهدىّ من هَدَيْت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت». فهذا المقام المحمود الذى ذكره اللّه عزوجل[(١)] [(٢)].

ثم رواه عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن أبى إسحاق، به[(٣)] . وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثورى، عن أبى إسحاق، به[(٤)].

وقال ابن عباس: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد. وقاله الحسن البصرى.

وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض[(٥)]، وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذى قال اللّه : ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

قلت: لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم تسليماً تشريفات [يوم القيامة][(٦)] لا يشركه فيها[(٧)] أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض[(٨)]، ويبعث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذى آدم فمن دُونَه تحت لوائه، وله الحوض الذى ليس فى الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند اللّه ليأتى لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: «لست لها» حتى يأتوا إلى محمد[(٩)] ﷺ فيقول: « أنا لها، أنا لها » كما سنذكر ذلك مفصلاً فى هذا الموضع، إن شاء اللّه تعالى. ومن ذلك أنه يشفع فى أقوام قد أمر بهم إلى النار، فيردون عنها. وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته. وهو أول شفيع فى الجنة، كما ثبت فى صحيح مسلم. وفى حديث الصور: أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته. وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم. ويشفع فى رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم. وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذن اللّه تعالى فى الشفاعة للعصاة[(١٠)] شفع[(١١)] الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو فى خلائق لا يعلم عدتهم[(١٢)] إلا اللّه، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه فى ذلك. وقد بسطت ذلك مستقصى فى آخر كتاب «السيرة» فى باب الخصائص، وللّه الحمد والمنة.

---

(١) فى أ، ف: «الله تعالى».
(٢) تفسير الطبرى (١٥/٩٧).
(٣) تفسير الطبرى(١٥/٩٧) والرواية كما هى عند الطبرى: حدثنا محمد بن المثنى قال: حدثنا محمد بن جعفر «غندر» فلعله سبق نظر.
(٤) تفسير الطبرى (١٥/٩٨).
(٥) فى ت: «تنشق الأرض عنه».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ت: « فينا».
(٨) فى ت: «الأرض عنه».
(٩) فى أ، ف: « يأتوا محمدًا».
(١٠) فى ت، ف: « فى العصاة».
(١١) فى أ: «تشفع».
(١٢) فى ت: «عددهم».

ولنذكر الآن[١] الأحاديث الواردة في المقام المحمود، وبالله المستعان:

قال البخارى: حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن على، سمعت ابن عمر [يقول][٢]: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً[٣].

ورواه حمزة بن عبد الله، عن أبيه، عن النبى ﷺ.

قال ابن جرير: حدثنى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا[٤] شعيب بن الليث، حدثنى[٥] الليث، عن عبيد الله بن أبى جعفر أنه قال: سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر يقول: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لَتدنو حتى يبلغ[٦] العَرَقُ نصفَ الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا[٧] بآدم، فيقول: لست صاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد فيشفع بين الخلق[٨]، فيمشى حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محمودا». [يحمده أهل الجنة كلهم][٩].

وهكذا رواه البخارى فى «الزكاة» عن يحيى بن بُكَيْر، وعبد الله بن صالح، كلاهما عن الليث بن سعد، به[١٠]. وزاد: «فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم».

قال البخارى: وحدثنا على بن عيَّاش، حدثنا شعيب بن أبى حَمْزة، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حلَّت له شفاعتى يوم القيامة». انفرد به دون مسلم[١١].

حديث أُبَىّ:

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدى، حدثنا زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبى بن كعب، عن أبيه، عن النبى ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، كنت إمام الأنبياء وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غير فَخْر»[١٢].

وأخرجه الترمذى، من حديث أبى عامر عبد الملك بن عَمْرو العَقَدىّ، وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل به. وقد قدمنا فى حديث: «أبى بن كعب» فى قراءة القرآن على سبعة أحرف، قال رسول الله ﷺ فى آخره: «فقلت: اللهم، اغفر لأمتى، اللهم اغفر لأمتى، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلىّ فيه الخلق، حتى إبراهيم عليه السلام»[١٣].

---

(١) فى ت: «الآية». (٢) زيادة من ت، ف،أ، والبخارى.
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧١٨).
(٤) فى ت: «قال: حدثنا». (٥) فى ت: «قال: حدثنى». (٦) فى ت: «تبلغ».
(٧) فى ت: «استغاث». (٨) فى ت: «الخلائق». (٩) زيادة من أ.
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/٩٨) وصحيح البخارى برقم (١٤٧٥).
(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧١٩).
(١٢) المسند (٥/١٣٧).
(١٣) سنن الترمذى برقم (٣٦١٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣١٤).

حديث أنس بن مالك:

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة، حدثنا قتادة، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: « يجتمع[١] المؤمنون يوم القيامة، فيلهمون ذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فأراحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو[٢] البشر، خلقك اللّه بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كلّ شيء، فاشفع لنا إلى ربك[٣] حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذى أصاب، فيستحيى ربه، عز وجل، من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه اللّه إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئة[٤] سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيى ربه من ذلك، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا موسى، عبداً كلمه اللّه، وأعطاه التوراة. فيأتون موسى فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس[٥]، فيستحيى ربه من ذلك، ولكن ائتوا عيسى عبد اللّه ورسوله، وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً عبداً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتونى». قال الحسن هذا الحرف[٦]: « فأقوم فأمشى بين سِماطين من المؤمنين» . قال أنس: « حتى أستأذن على ربى، فإذا رأيت ربى وقعت له - أو: خررت - ساجداً لربى، فيدعنى ماشاء اللّه أن يدعنى». قال: « ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسى، فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحدّ لى حداً، فأدخلهم الجنة»: «ثم[٧] أعود[٨] إليه الثانية، فإذا رأيت ربى وقعت [٩] ـ أو: خررت ـ ساجداً لربى، فيدعنى ماشاء اللّه أن يدعنى. ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحدّ لى حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود فى الثالثة؛ فإذا رأيت ربى وقعت - أو: خررت - ساجداً لربى، فيدعنى ماشاء اللّه أن يدعنى، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة. ثم أعود الرابعة فأقول: يارب، ما بقى إلا من حبسه القرآن». فحدثنا أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: « فيخرج من النار من قال: « لا إله إلا اللّه» وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا اللّه» وكان فى قلبه من الخير ما يزن بُرَّة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا اللّه» وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة ».

أخرجاه[فى الصحيح][١٠] من حديث سعيد، به[١١]. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطوله[١٢].

(١) فى ف، أ: «يجمع».
(٢) فى ت: «أول».
(٣) فى ت: «ربنا».
(٤) فى ت، ف، أ: « خطيئته».
(٥) فى ف: « بغير حق».
(٦) فى ت: «الخوف».
(٧) فى ف، أ: «قال: ثم».
(٨) فى ت: « أدعو».
(٩) فى أ: «وقعت له».
(١٠) زيادة من أ.
(١١) المسند (٣/ ١١٦) وصحيح البخارى برقم (٤٤٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٩٣).
(١٢) المسند(٣/ ٢٤٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حرب بن ميمون أبو الخطاب الأنصارى، عن النضر بن أنس، عن أنس قال: حدثنى نبى اللَّه ﷺ قال: «إنى لقائم أنتظر أمتى تعبر الصراط، إذ جاءنى عيسى، عليه السلام، فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يامحمد يسألون ـ أو قال: يجتمعون إليك ـ ويَدْعُون اللَّه أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء اللَّه، لغمّ (١) ماهم فيه، فالخلق مُلجَمون بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكْمَة، وأما الكافر فيغشاه الموت، فقال: انتظر حتى أرجع إليك. فذهب نبى اللَّه ﷺ فقام تحت العرش، فلقى ما لم يلق مَلَك مصطفى ولا نبى مرسل. فأوحى اللَّه، عز وجل، إلى جبريل: أن اذهب إلى محمد، وقل له: ارفع رأسك، وسل تُعطَه، واشفع تشفع. فشفَعت (٢) فى أمتى: أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً. فما زلت أتردد إلى ربى، عز وجل، فلا أقوم منه مقاماً إلا شفعت، حتى أعطانى اللَّه من ذلك، أن قال: يامحمد، أَدْخِلْ [من أمتك] (٣) من خلق اللَّه، عز وجل، من شهد أن لا إله إلا اللَّه يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك» (٤).

حديث بريدة، رضى اللَّه عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا الأسود بن عامر، أخبرنا أبو إسرائيل، عن الحارث بن حَصِيرة، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه: أنه دخل على معاوية، فإذا رجل يتكلم، فقال بريدة: يامعاوية، تأذن لى فى الكلام؟ فقال: نعم ـ وهو يرى أنه يتكلم بمثل (٥) ما قال الآخر ـ فقال بريدة: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول: « إنى لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما على الأرض من شجرة ومدرة». قال: فترجوها أنت يا معاوية، ولا يرجوها علىّ، رضى اللَّه عنه؟! (٦).

حديث ابن مسعود:

قال الإمام أحمد: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا سعيد بن زيد، حدثنا على بن الحكم البُنَانى، عن عثمان، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء ابنا مُلَيْكَة إلى النبى ﷺ فقالا: إن أمَّنا [كانت] (٧) تكرم الزوج، وتعطف على الولد ـ قال: وذكر الضيف ـ غير أنها كانت وأدت فى الجاهلية؟ فقال: « أمكما فى النار». قال: فأدبرا والسوء يرى فى وجوههما، فأمر بهما فَرُدا، فَرَجَعَا والسرور (٨) يرى فى وجوههما؛ رجاء أن يكون قد حدث شىء، فقال: «أمى مع أمكما». فقال رجل من المنافقين: وما يغنى هذا عن أمه شيئاً! ونحن نطأ عقبيه. فقال رجل من الأنصار ـ ولم أر رجلاً قط أكثر سؤالاً منه ـ : يارسول اللَّه، هل وعدك ربك فيها أو فيهما؟. قال: فظن أنه من شىء قد سمعه، فقال: «ما شاء اللَّه ربى، وما أطمعنى (٩) فيه، وإنى لأقوم المقام المحمود يوم القيامة». فقال الأنصارى: يارسول اللَّه، وما ذاك المقام المحمود ؟ قال: « ذاك إذا

(١) فى ت: «نعم». (٢) فى ت: «فتشفعت». (٣) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٤) المسند (٣/١٧٨) و قال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٧٤): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) فى ت: «بميل».

(٦) المسند (٥/٣٤٧)، وأبو إسرائيل الملائى ضعيف.

(٧) زيادة من ت، ف، أ، والمسند. (٨) فى ت: « والسوء». (٩) فى ت: « وما طمعنى».

جىء بكم حفاة عراة غرلاً، فيكون أول من يكسى إبراهيم، عليه السلام، فيقول: اكسوا خليلى. فيؤتى بريطتين بيضاوين، فيلبسهما ثم يقعده مستقبل العرش، ثم أوتى بكسوتى فألبسها، فأقوم عن يمينه مقاماً لا يقومه أحد، فيغبطنى فيه الأولون والآخرون. ويفتح نهر(١) من الكوثر إلى الحوض». فقال المنافقون: إنه ماجرى ماء قط إلا على حال أو رضراض. فقال رسول اللّه ﷺ: « حاله المسك، ورضراضه التُّوم».[قال المنافق: لم أسمع كاليوم. قلّما جرى ماء قط على حال أو رضراض، إلا كان له نبتة. فقال الأنصارى: يارسول اللّه، هل له نبت؟ قال: «نعم، قضبان الذهب»](٢). قال المنافق: لم أسمع كاليوم، فأنه قلما ينبت قضيب إلا أورق، وإلا كان له ثمر! قال الأنصارى: يارسول اللّه، هل له ثمرة ؟ قال: « نعم، ألوان الجوهر، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، من شرب منه شربةً (٣) لا يظمأ بعده، ومن حرمه لم يَرْوَ بعده»(٤).

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا يحيى بن سَلَمَة بن كُهَيْل، عن أبيه، عن أبى الزّعْرَاء، عن عبد اللّه قال: ثم يأذن اللّه، عز وجل، فى الشفاعة، فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل اللّه، ثم يقوم عيسى أو موسى ـ قال أبو الزعراء: لا أدرى أيهما ـ قال: ثم يقوم نبيكم ﷺ رابعاً، فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفع، وهو المقام المحمود الذى قال اللّه عز وجل: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾(٥).

حديث كعب بن مالك، رضى اللّه عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا الزبيدى، عن الزهرى، عن عبد الرحمن بن عبد اللّه [بن كعب](٦) بن مالك، عن كعب بن مالك أن رسول اللّه ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتى على تل، ويكسونى ربى، عز وجل، حلة خضراء(٧). ثم يؤذن لى فأقول ماشاء اللّه أن أقول، فذلك المقام المحمود »(٨).

حديث أبى الدرداء، رضى اللّه عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا يزيد بن أبى حبيب، عن عبد الرحمن ابن جُبَير، عن أبى الدرداء، قال: قال رسول اللّه ﷺ: « أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى ما بين يدى، فأعرف أمتى من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يمينى مثل ذلك، وعن شمالى مثل ذلك ». فقال رجل: يارسول اللّه، كيف تعرف أمتك من بين الأمم، فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غرّ مُحَجَّلُون، من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يُؤتَونَ كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى(٩) بين أيديهم ذريتهم»(١٠).

---

(١) فى ت: «لهم» (٢) زيادة من ف، أ، والمسند. (٣) فى ت، أ: «شرابا».

(٤) المسند (١/ ٣٩٨).

(٥) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٩٦) من طريق بندار، عن غندر، عن شعبة، عن سلمة بن كهيل بنحوه.

(٦) زيادة من ف، أ، والمسند. (٧) فى ت: «حمراء».

(٨) المسند(٣/ ٤٥٦).

(٩) فى ت، أ: « يسعى».

(١٠) المسند (٥/ ١٩٩).

حديث أبي هريرة، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا أبو حَيَّان، حدثنا أبو زُرْعَة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة، قال: أتَى رسول الله ﷺ بلحم، فَرُفع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فَنَهَسَ منها نَهْسة(١)، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد، يُسْمعهم الداعى وَينفذُهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم(٢) والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض: [ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم عز وجل؟ فيقول بعض الناس لبعض](٣): أبوكم آدم!.

فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: يانوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لى دعوة(٥) على قومى، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبى اللَّه وخليله من أهل الأرض،[اشفع لنا إلى ربك](٦) ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغـــضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسى، نفسى، نفسى [اذهبوا إلى غيرى](٧) اذهبوا إلى موسى .

فيأتون موسى فيقولون: ياموسى، أنت رسول اللَّه، اصطفاك اللَّه برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: ياعيسى، أنت رسول اللَّه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ـ قال: هكذا هو ـ وكلمت الناس فى المهد ، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمد.

---

(٢) فى أ: « فنهش منها نهشة». (٣) فى ت: «الهم». (٤) زيادة من المسند.

(٥) فى ت، أ: «دعوة دعوتها». (٦، ٧) زيادة من ف، أ، والمسند.

فيأتونى فيقولون: يامحمد، أنت رسول اللَّه، وخاتم الأنبياء، غفر اللَّه لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأقوم فآتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربى، عز وجل، ثم يفتح اللَّه علىّ، ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلى. فيقال: يامحمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يارب، أمتى أمتى، يارب أمتى أمتى، يارب، أمتى أمتى! فيقال: يامحمد: أَدْخِل من أمتك من لاحساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب». ثم قال: « والذى نفس محمد بيده لما بين مِصْراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وَهَجَر، أو كما بين مكة وبُصْرَى». أخرجاه فى الصحيحين [١].

وقال مسلم، رحمه اللَّه: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا هِقْلُ بن زياد، عن الأوزاعى، حدثنى أبو عمار، حدثنى عبد اللَّه بن فرُّوخ، حدثنى أبو هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مُشَفَّع»[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وَكيع، عن داود بن يزيد الزّعافرى، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، سئل عنها فقال: «هى الشفاعة»[٣].

رواه الإمام أحمد عن وكيع وعن محمد[٤] بن عبيد، عن داود، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، قال: «هو المقام الذى أشفع لأمتى فيه »[٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن على بن الحسين قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، مدّ اللَّه الأرض مدّ الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدمه[٦]». قال النبى ﷺ: « فأكون أول من يدعى، وجبريل عن يمين الرحمن[٧] واللَّه مارآه قبلها، فأقول[٨]: رب، إن هذا أخبرنى أنك أرسلته إلىّ. فيقول اللَّه تبارك وتعالى: صدق، ثم أشفع. فأقول: يارب عبادك عبدوك فى أطراف الأرض»، قال: «فهو المقام المحمود»[٩]، وهذا حديث مرسل.

---

(١) المسند (٢/٤٣٥) وصحيح البخارى برقم (٤٧١٢) وصحيح مسلم برقم (٨٩٤).
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٨).
(٣) تفسير الطبرى (١٥/٩٨).
(٤) فى هـ: « عن وكيع عن محمد بن عبيد»، والمثبت من ت.
(٥) المسند (٢/٤٤١، ٤٤٤).
(٦) فى ت، ف: «قدميه».
(٧) فى ت: « الرحمن عز وجل»، وفى ف، أ: « الرحمن تبارك وتعالى».
(٨) فى ت، ف، أ: «فاقول: أى».
(٩) تفسير عبد الرزاق (١/٣٢٨).

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس بن[1] أبي ظَبْيَان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: **﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾**[2].

وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، وأراد الله قتال أهل مكة، فأمره أن يخرج إلى[3] المدينة، فهو الذي قال الله عزوجل: **﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾**.

وقال قتادة: **﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾** يعني: المدينة **﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾** يعني: مكة.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهر الأقوال.

وقال العوفي عن ابن عباس: **﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾** يعني: الموت **﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾** يعني: الحياة بعد الموت. وقيل غير ذلك من الأقوال. والأول أصح، وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: **﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾** قال الحسن البصري في تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس، وعز[4] فارس، وليجعلنه له، وملك الروم، وعز الروم، وليجعلنه له.

وقال قتادة فيها إن نبي الله ﷺ، علم ألاَّ طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم.

قال مجاهد: **﴿سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾**: حجة بينة.

واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه؛ ولهذا قال[سبحانه و][5] تعالى: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾** [الحديد: ٢٥]، وفي الحديث: «إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن» أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، مالا يمتنع كثيرٌ من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله: **﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾** تهديد ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد

---

(١) في ف: «عن».

(٢) المسند (١/ ٢٢٣).

(٣) في ت: «على». (٤) في ت: «وغير». (٥) زيادة من ف، أ.

جاءهم من اللَّه الحق الذى لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه اللَّه به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وَزَهَق باطلهم، أى: اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال البخارى: حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن أبى[١] مَعْمر، عن عبد اللَّه بن مسعود قال: دخل النبى ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود فى يده، ويقول: «﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»[٢].

وكذا رواه البخارى أيضاً فى غير هذا الموضع، ومسلم، والترمذى، والنسائى، كلهم من طرق عن سفيان بن عيينة به[٣]. [وكذا رواه عبد الرزاق عن الثورى عن ابن أبى نجيح][٤].

وكذا رواه الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا شَبَابة، حدثنا المغيرة، حدثنا أبو الزبير، عن جابر، رضى اللَّه عنه، قال: دخلنا مع رسول اللَّه ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً[٥] يعبدون من دون اللَّه. فأمر بها رسول اللَّه ﷺ فأكبت لوجهها، وقال: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً»[٦].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (٨٢) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ ـ وهو القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ـ إنه: ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: يذهب ما فى القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء فى حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وتكذيباً وكفراً. والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. والآيات فى ذلك[٧] كثيرة.

---

(١) فى ت: «ابن».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٠).

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٤٧٨، ٤٢٨٧)، وصحيح مسلم برقم (١٧٨١) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٩٧).

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ت: «نصبًا».

(٦) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٤/٤٨٧): حدثنا شبابة بن سوار به.

(٧) فى ت، ف: «هذا».

قال قتادة في قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه[1] ولا يعيه، فإن اللَّه جعل هذا القرآن شفاء، ورحمة للمؤمنين.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً (٨٤)﴾.

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم اللَّه تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة اللَّه وعبادته ونأى بجانبه.

قال مجاهد: بَعُدَ عنا.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وبأنه إذا مسه الشر ـ وهو المصائب والحوادث والنوائب ـ ﴿كَانَ يَؤُوسًا﴾ أي: قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ. إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠، ١١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على حدته وطبيعته. وقال قتادة: على نيته. وقال ابن زيد: دينه.

وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى. وهذه الآية ـ واللَّه أعلم ـ تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ. وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ أي: منا ومنكم، وسيجزى كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمة، عن عبد اللَّه ـ هو ابن مسعود رضى اللَّه عنه ـ قال: كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرث فى المدينة، وهو متوكئ على عَسِيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال بعضهم: لا تسألوه. قال: فسألوه عن الروح، فقالوا[2]: يامحمد، ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

---

(١) فى ف: «لا يحفظه ولا ينتفع به».
(٢) فى ت: «فقال بعضهم».

فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه .

وهكذا رواه البخارى ومسلم من حديث الأعمش، به[١] .ولفظ البخارى عند تفسير هذه الآية، عن عبد الله بن مسعود قال : بينا أنا مع النبى[٢] ﷺ فى حَرْث، وهو متوكئ[٣] على عسيب، إذ مر اليهود[٤]، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم[٥] إليه. وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشىء تكرهونه. فقالوا: سلوه فسألوه عن الروح، فأمسك النبى ﷺ فلم يرد عليه شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامى، فلما نزل الوحى قال: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ**[٦] **عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ الآية[٧].

وهذا السياق يقتضى[٨] فيما يظهر بادى الرأى: أن هذه الآية مدنية، وأنها إنما نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا: بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوا بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهى هذه الآية: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ**﴾ ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد:

حدثنا قتيبة، حدثنا يحيى بن زكريا ، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه، فنزلت: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً. قال: وأنزل الله: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾ [الكهف: ١٠٩][٩].

وقد روى ابن جرير، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن داود، عن عكرمة قال: سأل أهلُ الكتاب رسولَ الله ﷺ عن الروح، فأنزل الله: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ فقالوا: يزعم[١٠] أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة، وهى الحكمة ﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾؟ [البقرة: ٢٦٩] قال: فنزلت: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**﴾ [لقمان: ٢٧]. قال: ما أوتيتم من علم، فنجاكم الله به من النار، فهو كثير طيب وهو فى علم الله قليل[١١] .

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، أتاه أحبار يهود. وقالوا: يامحمد، ألم

(١) المسند (١/ ٣٨٩) وصحيح البخارى برقم (١٢٥، ٧٤٦٢) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٤).
(٢) فى ف: «مع رسول الله».
(٣) فى ت، ف: «متكئ».
(٤) فى ت، ف: «باليهود».
(٥) فى ت، ف: «ما رأيكم».
(٦) فى ت، ف: « يسألونك».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٢١).
(٨) فى ت: «تقضى».
(٩) المسند(١/ ٢٥٥).
(١٠) فى ت، ف: «تزعم».
(١١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٠٤).

يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أفعَنَيْتَنَا أم عنيت قومك؟ فقال: «كلا قد عنيت». قالوا: إنك تتلو أنا أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «هى فى علم اللَّه قليل، وقد آتاكم ما إن عملتم به استقمتم»، وأنزل اللَّه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[لقمان: ٢٧].

وقد اختلف المفسرون فى المراد بالروح ههنا على أقوال:

أحدها: أن المراد [بالروح](١) : أرواح بنى آدم.

قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية، وذلك أن اليهود قالوا للنبى ﷺ: أخبرنا عن(٢) الروح؟ وكيف تعذب الروح التى فى الجسد، وإنما الروح من اللَّه؟ ولم يكن نزل عليه فيه شىء، فلم يُحرْ إليهم شيئاً. فأتاه جبريل فقال له: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ فأخبرهم النبى ﷺ بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ فقال: «جاءنى به جبريل من عند اللَّه؟» فقالوا له: واللَّه ما قاله لك إلا عدو لنا. فأنزل اللَّه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ [مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ](٣)﴾ الآية [البقرة: ٩٧].

وقيل: المراد بالروح ههنا: جبريل. قاله قتادة، قال: وكان ابن عباس يكتمه.

وقيل: المراد به ههنا: ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها. قال(٤) على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ يقول: الروح: ملك.

وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن عبد اللَّه بن عُرْس(٥) المصرى، حدثنا وهب بن رزق أبوهريرة(٦)، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعى، حدثنا عطاء، عن عبد اللَّه بن عباس قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن للّه ملكاً، لو قيل له: التقم السموات السبع والأرضين(٧) بلقمة واحدة، لفعل، تسبيحه: سبحانك حيث كنت»(٨).

وهذا حديث غريب، بل منكر.

وقال أبو جعفر بن جرير، رحمه اللَّه: حدثنى على، حدثنا عبد اللَّه، حدثنى أبو نمْران يزيد بن سَمُرَة صاحب قيسارية، عمن حدثه عن على بن أبى طالب، رضى اللَّه عنه، أنه قال فى قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ قال: هو مَلَك من الملائكة، له سبعون ألف وجه، لكل وجه منها سبعون ألف لسان، لكل لسان منها [سبعون](٩) ألف لغة، يسبح اللَّه تعالى بتلك اللغات كلها، يخلق اللَّه من كل تسبيحة ملَكًا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة(١٠).

---

(١) زيادة، من ت، ف، أ. (٢) فى ت، ف، أ: «ما». (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) فى ت، ف: «قاله». (٥) فى ت: «ابن عباس».
(٦) فى هـ، ف، أ: «روق أبو هبيرة»، والمثبت من الطبرانى. (٧) فى ف: «والارض».
(٨) المعجم الكبير (١١/ ١٩٥) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٨٠): «وهب بن رزق لم أر من ذكر له ترجمة».
(٩) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٠٥).

وهذا أثر غريب عجيب، واللّه أعلم.

وقال السهيلى: روى عن علىّ أنه قال: هو ملك، له مائة ألف رأس، لكل رأس مائة ألف وجه، فى كل وجه مائة ألف فم، فى كل فم مائة ألف لسان، يسبح اللّه تعالى بلغات مختلفة.

قال السهيلى: وقيل المراد بذلك: طائفة من الملائكة على صور بنى آدم.

وقيل: طائفة يرون الملائكة ولا تراهم[١] ،فهم للملائكة كالملائكة لبنى آدم.

وقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أى: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى.

والمعنى: أن علمكم فى علم اللّه قليل، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى. وسيأتى إن شاء اللّه فى قصة موسى والخضر: أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة، فنقر فى البحر نقرة، أى: شرب منه بمنقاره، فقال: ياموسى، ماعلمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم اللّه إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر. أو كما قال صلوات اللّه وسلامه عليه؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

وقال السهيلى: قال بعض الناس: لم يجبهم عما سألوا؛ لأنهم سألوا على وجه التعنت. وقيل: أجابهم، وعول السهيلى على أن المراد بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أى: من شرعه، أى: فادخلوا فيه، وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة، وإنما ينال من جهة الشرع. وفى هذا المسلك الذى طرقه وسلكه نظر، واللّه أعلم.

ثم ذكر السهيلى الخلاف بين العلماء فى أن الروح هى النفس، أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر. وقرّر أن الروح التى ينفخها الملك فى الجنين هى النفس بشرط اتصالها بالبدن، واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهى إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر، ثم يكسب[٢] بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار إما مُصْطَاراً أو خمراً، ولا يقال له: «ماء» حينئذ إلا على سبيل المجاز، وهكذا لا يقال للنفس: «روح» إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح: نفس[٣] إلا باعتبار ما تؤول إليه. فحاصل ما يقول أن الروح أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهى هى من وجه لا من كل وجه[٤]. وهذا معنى حسن، واللّه أعلم.

قلت: وقد تكلم الناس فى ماهية الروح وأحكامها وصنفوا فى ذلك كتباً. ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده، فى كتاب سمعناه فى: الروح[٥].

(١) فى أ: «ولا تراهم الملائكة». (٢) فى ت، ف: «يكتسب». (٣) فى ت، ف: « نفسًا» وهو خطأ.

(٤) الروض الأنف (١/١٩٨، ١٩٩).

(٥) وللإمام ابن القيم، رحمه الله، كتاب الروح مطبوع بتحقيق بسام العموش، أكثر النقل فيه عن كتاب ابن مندة هذا وذكر خلاصته فيه.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (٨٧) قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٨٩) ﴾.

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

قال ابن مسعود، رضى اللَّه عنه: يطرق الناس ريح حمراء ـ يعنى فى آخر الزمان ـ من قبل الشام، فلا يبقى فى مصحف رجل ولا فى قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية .

ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا[(١)] على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين [(٢)] كلام الخالق، الذى لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟!

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد، عن سعيد [بن جبير][(٣)] أو عكرمة، عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت فى نفر من اليهود، جاؤوا رسول اللَّه ﷺ فقالوا له: إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به، فأنزل اللَّه هذه الآية.

وفى هذا نظر؛ لأن هذه السورة مكية، وسياقها كله مع قريش، واليهود إنما اجتمعوا به فى المدينة. فاللَّه أعلم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى: بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ أى: جحوداً ورداً للصواب .

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾.

---

(١) فى ت: «والقول». (٢) فى أ: «المخلوقين إلى». (٣) زيادة من ف، أ، والطبرى (١٥/١٠٦).

قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يونس بن بُكَيْر، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنى شيخ من أهل مصر، قدم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بنى عبد الدار، وأبا البَخْتَرى أخا بنى أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام(١)، وعبد اللّه بن أبى أمية، وأمية ابن خلف، والعاص بن وائل، ونُبَيها ومُنَبِّها ابنى الحجاج السَّهْمِيَّيْن، اجتمعوا، أو: من اجتمع منهم، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه(٢). فبعثوا إليه: أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم رسول اللّه ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بداء، وكان عليهم حريصاً، يحب رُشْدَهم، ويعز عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يامحمد، إنا قد بعثنا إليك لنُعْذرَ فيك، وإنا واللّه ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه(٣) ما أدخلت على قومك! لقد شتمت الآباء، وعبتَ الدين، وسَفَّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقى من أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد(٤) غلب عليك - وكانوا(٥) يسمون التابع من الجن: الرئى - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا فى طلب الطب، حتى نبرئك منه، أو نُعْذر فيك.

فقال رسول اللّه ﷺ: «ما بى ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثنى(٦) إليكم رسولاً، وأنزل علىّ كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر(٧) لأمر اللّه، حتى يحكم اللّه بينى وبينكم». أو كما قال رسول اللّه ﷺ تسليماً.

فقالوا: يامحمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضَيَّقت علينا، ولْيبسُط لنا بلادنا، ولْيُفَجر(٨) فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يُبْعثَ لنا قُصىّ بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول(٩)، حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك، صدقناك، وعرفنا منزلتك عند اللّه، وأنه بعثك رسولاً كما تقول!

فقال لهم رسول اللّه ﷺ: «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند اللّه بما بعثنى به، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر اللّه، حتى يحكم

(١) فى ت: «هاشم» وهو خطأ.
(٢) فى ت: «إليه».
(٣) فى ت: «قومك».
(٤) فى ف: «وقد».
(٥) فى ت: «فكانوا».
(٦) فى ت: «بعثنى الله».
(٧) فى ت: «أصير».
(٨) فى ت: «وليخرج»، وفى ف: «وليجر».
(٩) فى ت: «ليسألهم عما يقول».

اللَّه بينى وبينكم ».

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فاسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول[(١)] ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جناناً، وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف[(٢)] فضل منزلتك من ربك، إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: « ما أنا بفاعل، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن اللَّه بعثنى بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر اللَّه حتى يحكم اللَّه بينى وبينكم».

قالوا: فأسقط السماء، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: « ذلك إلى اللَّه إن شاء فعل بكم ذلك».

فقالوا: يامحمد، أما[(٣)] علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ماهو صانع فى ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة، يقال له: الرحمن، وإنا واللَّه لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يامحمد، أما واللَّه لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهى بنات اللَّه. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتى[(٤)] باللَّه والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك قام رسول اللَّه ﷺ عنهم، وقام معه عبد اللَّه بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد اللَّه ابن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يامحمد، عرض عليك قومك ماعرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من اللَّه، فلم[(٥)] تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فواللَّه لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتى معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة، يشهدون أنك كما تقول. وايم اللَّه، لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك. ثم انصرف عن رسول اللَّه ﷺ، وانصرف رسول اللَّه ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته، مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه[(٦)].

وهكذا رواه زياد بن عبد اللَّه البَكَّائى، عن ابن إسحاق، حدثنى بعض أهل العلم، عن سعيد ابن جبير وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء.

وهذا المجلس الذى اجتمع هؤلاء له، لو[(٧)] علم اللَّه منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا

---

(١) فى ت: « يقول».
(٢) فى ت: «تعرف».
(٣) فى ت: « لما».
(٤) فى ف: «تأتينا».
(٥) فى ت: «ثم لم».
(٦) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٦).
(٧) فى ف: «فلو».

إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقيل للرسول : إن شئت أعطيناهم ما سألوا فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة» كما تقدم ذلك فى حديثى[١] ابن عباس والزبير بن العوام أيضاً، عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾[الإسراء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا . انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً. تَبَارَكَ الَّذِى إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا . بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ١١].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجرى لهم عيناً معيناً فى أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك[٢] سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ .وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أى: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهى، وتدلى أطرافها، فعجل ذلك فى الدنيا، وأسقطها كسفاً [أى: قطعاً، كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: ﴿أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا]﴾[٣] مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]. فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبىّ الرحمة، ونبىّ التوبة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل اللّه أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه[٤] حتى «عبد اللّه ابن أبى أمية» الذى تبع النبى ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وأناب إلى اللّه عز وجل .

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب . وكذلك هو فى قراءة ابن مسعود: «أو يكون لك بيت من ذهب»، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أى: تصعد[٥] فى سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ قال مجاهد: أى مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من اللّه لفلان ابن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه[٦].

---

(١) فى ف: «حديث». (٢) فى ت، ف: «وهذا». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ف: «وحسن إسلامه بعد ذلك».
(٥) فى ت: «يصعد». (٦) فى ف: « يصبح عند رأسه موضوع».

وقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ أى: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل.

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا على بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زَحْر، عن على بن يزيد، عن القاسم[1]، عن أبى أمامة، عن النبى ﷺ قال: «عرض ربى عز وجل ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يوماً، وأجوع يوماً - أو نحو ذلك ـ فإذا جُعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك».

ورواه الترمذى فى «الزهد» عن سُوَيْد بن نصر[2]، عن ابن المبارك، به[3]. وقال: هذا حديث حسن. وعلى بن يزيد يُضَعَّفُ فى الحديث.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أى: أكثرهم ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثته[4] البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٢].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، وقال فرعون وملؤه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وكذلك قالت[5] الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات فى هذا كثيرة.

ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥١، ١٥٢]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أى: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ أى: من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً، بعثنا فيكم رسلنا[6] منكم لطفاً ورحمة.

(١) فى ت: «ألتم». (٢) فى أ: «زهير».
(٣) المسند (٥/ ٢٤٥) وسنن الترمذى برقم (٢٣٤٧) وعبد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم ضعفاء.
(٤) فى ت: «بعثة». (٥) فى ت: «قالوا». (٦) فى ت: «رسلا».

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) ﴾ .

يقول تعالى مرشداً نبيه إلى الحجة على قومه، فى صدق ما جاءهم به: أنه شاهد علىّ وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً [عليه][١] انتقم منى أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ .ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أى: عليم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال [٢]والإزاغة؛ ولهذا قال :

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه فى خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له، بأنه من يهده فلا مضلّ له ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ﴾ أى: يهدونهم، كما قال: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[الكهف: ١٧].

وقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ قال الإمام أحمد:

حدثنا ابن نمير، حدثنا إسماعيل عن نُفَيْع قال[٣]: سمعت أنس بن مالك يقول: قيل: يارسول اللَّه، كيف يحشر[٤] الناس على وجوههم ؟ قال: « الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم». وأخرجاه فى الصحيحين[٥].

وقال الإمام أحمد أيضاً: [حدثنا يزيد][٦] ،حدثنا الوليد بن جُمَيْع القرشى، عن أبيه، حدثنا أبو الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد قال: قام أبو ذر فقال: يابنى غفار، قولوا ولا تحلفوا، فإن الصادق المصدوق حدثنى: أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج[٧] يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار. فقال قائل منهم: هذان قد عرفناهما، فما بال الذين يمشون ويسعون[٨]؟ قال: يلقى اللَّه، عز وجل، الآفة على[٩] الظهر حتى لا يبقى ظهر،حتى إن الرجل لتكون له الحديقة المعجبة، فيعطيها بالشارف ذات القتب ،فلا يقدر عليها [١٠].

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «الضلال». (٣) فى ت: «نفيع كذا قال».
(٤) فى ف: «تحشر».
(٥) المسند (٣/ ١٦٧) وصحيح البخارى برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٦).
(٦) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(٧) فى ف: «وقوم». (٨) فى ت: «ويسقون». (٩) فى ت: « الأئمة هل»، وفى ف: «الأئمة على».
(١٠) المسند (٥/ ١٦٤).

وقوله: ﴿عُمْيًا﴾ أى: لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ يعني: لا ينطقون ﴿وَصُمًّا﴾: لا يسمعون. وهذا يكون فى حال دون حال جزاء لهم كما كانوا فى الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق فجوزوا فى محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي: منقلبهم[1] ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس: سكنت[2]. وقال مجاهد: طفئت ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أى: لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا (٩٩)﴾.

يقول تعالى: هذا الذى جازيناهم به، من البعث على العمى والبكم والصمم، جزاؤهم الذى يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أى: بأدلتنا[3] وحججنا، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ بالية نخرة ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أى: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب فى الأرض نعاد مرة ثانية؟. فاحتج[4] تعالى عليهم، ونبههم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨١، ٨٣]. .

وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أى: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، ويعيدهم كما بدأهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لابد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤].

وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ أى: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلاَّ كُفُورًا﴾: إلا تمادياً فى باطلهم وضلالهم.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠)﴾.

---

(١) فى أ: «مقبلهم». (٢) فى ت: «ستكتب». (٣) فى ت: «بآياتنا».

(٤) فى ف: «واحتج».

يقول تعالى لرسوله صلوات اللَّه عليه وسلامه[١] قل لهم يامحمد: لو أنكم ـ أيها الناس ـ تملكون التصرف فى خزائن اللَّه، لأمسكتم خشية الإنفاق.

قال ابن عباس، وقتادة: أى الفقر أى: خشية أن تذهبوها[٢]، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ قال ابن عباس، وقتادة[٣]: أى بخيلاً منوعاً. وقال اللَّه تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ٥٣] أى: لو أن لهم نصيباً فى ملك اللَّه لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، واللَّه تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه اللَّه وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه[٤] وجوده وإحسانه، وقد جاء فى الصحيحين: «يد اللَّه ملأى لا يَغيُضها نفقة، سَحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يَغض ما فى يمينه » [٥].

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾.

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهى الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهى: العصا، واليد، والسنين[٦]، والبحر، والطوفان[٧]، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. قاله ابن عباس.

وقال محمد بن كعب: هى اليد، والعصا، والخمس فى الأعراف، والطَّمْسَة والحجر.

وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة والشعبى، وقتادة: هى يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وهذا القول ظاهر جلى حسن قوى. وجعل الحسن البصرى «السنين ونقص الثمرات» واحدة، وعنده أن التاسعة هى: تلقف العصا ما يأفكون. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]

---

(١) فى ف: «ﷺ». (٢) فى أ: «تنهبوها». (٣) فى ف، أ: «ومجاهد».

(٤) فى ف: «كرم الله».

(٥) صحيح البخارى برقم (٧٤١٩) وصحيح مسلم برقم (٩٩٣).

(٦) فى ت، ف، أ: ولسانه». (٧) فى ف، أ: « والطوفان والبحر».

أى: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت[(١)] فيهم، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك[(٢)] سألوا، وقالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء اللَّه، كما قال فرعون لموسى ـ وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات ـ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ قيل: بمعنى ساحر. واللَّه تعالى أعلم.

فهذه الآيات التسع التى ذكرها هؤلاء الأئمة هى المرادة ههنا، وهى المعنية فى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ . إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [النمل: ١٠ ـ ١٢]. فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبين الآيات الباقيات فى «سورة الأعراف» وفصلها.

وقد أوتى موسى، عليه السلام، آيات أخرَ كثيرة، منها ضربُه الحجر بالعصا، وخروج الأنهار منه، ومنها تظليلهم الغمام، وإنزال المنّ والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً. فأما الحديث الذى رواه الإمام [أحمد][(٣)]:

حدثنا يزيد، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مُرَّة قال: سمعت عبد اللَّه بن سلمة[(٤)] يحدث، عن صفوان بن عَسّال المرادى، رضى اللَّه عنه، قال: قال يهودى لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبى [ﷺ][(٥)] حتى نسأله عن هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ فقال: لا تقل له: نبى فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين. فسألاه، فقال النبى ﷺ: « لا تشركوا باللَّه شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرم اللَّه إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة - أو قال: لا تفروا من الزحف ـ شعبة الشاك - وأنتم يايهود، عليكم[(٦)] خاصة ألا تعدوا فى السبت». فقبلا يديه ورجليه، وقالا: نشهد أنك نبى. [قال: «فما يمنعكما أن تتبعانى ؟» قالا: لأن داود، عليه السلام، دعا ألا يزال من ذريته نبى][(٧)]، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود.

فهذا الحديث رواه هكذا الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن جرير فى تفسيره من طرق عن شعبة بن الحجاج، به[(٨)] . وقال الترمذى: حسن صحيح.

وهو حديث مشكل، وعبد اللَّه بن سلمة فى حفظه شىء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها، وصايا فى التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، واللَّه أعلم.

(١) فى ت: «وما نجوت». (٢) فى ت: «مثل». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ف: « مسلم». (٥) زيادة من ت. (٦) فى ت: «أيكم». (٧) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٨) المسند (٤/ ٢٣٩) وسنن الترمذى برقم (٣١٤٤) وسنن النسائى (٧/ ١١١) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٠٥) وتفسير الطبرى (١٥/ ١١٥).

ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ أى: حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ أى: هالكاً. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس ملعوناً . وقال أيضاً هو والضحاك: ﴿مَثْبُوراً ﴾ أى: مغلوباً. والهالك ـ كما قال مجاهد ـ يشمل[1] هذا كله، قال عبد الله بن الزبعرى :

إِذْ أُجَارِى الشَّيْطَانَ فى سَنَنِ الغَـ ـىِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُور[2]

[بمعنى هالك][3].

وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله: ﴿ عَلِمْتُ ﴾ وروى ذلك عن على بن أبى طالب. ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب[4] لفرعون، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ .وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٣ ، ١٤] .

فهذا كله مما يدل على[5] أن المراد بالتسع الآيات إنما هى مما تقدّم ذكره[6] من العصا، واليد، والسنين، ونقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم. التى فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذى أرسله. وليس المراد منها كما ورد فى هذا الحديث، فإن هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه، وأى مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل «عبد الله بن سلمة[7]» فإن له بعض ما يُنكر. والله أعلم . ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات، فاشتبه على الراوى بالتسع الآيات، فحصل وَهْم فى ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ أى: يخليهم منها ويزيلهم[8] عنها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا .وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ وفى هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً . سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله[9] مكة، فدخلها عَنْوَة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم

---

(١) فى ت: «يشتمل».
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/١١٧).
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى ف: « على الخطاب فتح التاء».
(٥) فى أ: «عليه».
(٦) فى ت، ف: «ذكرها».
(٧) فى ف: « مسلم».
(٨) فى ت: « ويرسلهم».
(٩) فى ت: «ورسوله».

وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال ههنا: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: جميعكم أنتم وعدوكم.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: ﴿لَفِيفًا﴾ أي: جميعاً.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦)﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أي: متضمنًا للحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] أي: متضمنا علم الله الذى أراد أن يُطْلِعكم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه.

وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: ووصل إليك ـ يامحمد ـ محفوظاً محروساً، لم يُشَب بغيره، ولا زيدَ فيه ولا نُقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القُوى، [القَوِىّ][1] الأمين المكين المطاع فى الملأ الأعلى.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي: يا محمد ﴿إِلاَّ مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين.

وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف، فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفرقًا منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عباس.

وعن ابن عباس أيضًا أنه قال: ﴿فَرَّقْنَاهُ﴾ بالتشديد، أي: أنزلناه آية آية، مبيناً مفسراً؛ ولهذا قال: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: مَهَل ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ أي: شيئًا بعد شيء.

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يامحمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا﴾ أي: سواء آمنتم به أم لا، هو حق فى نفسه، أنزله اللّه ونوه بذكره فى سالف الأزمان[2] فى كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي: من صالح أهل الكتاب الذين يُمَسّكون بكتابهم ويقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا

---

(١) زيادة من ت، ف، أ.
(٢) فى أ: «الزمان».

القرآن، ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ﴾ جمع ذَقْن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أى: لله، عز وجل، شكراً على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً، إن أدركوا هذا الرسول الذى أنزل عليه [هذا][1] الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أى: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذى وعدهم على ألسنة الأنبياء [المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾][2].

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أى: خضوعاً لله عز وجل وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ويزيدهم الله خشوعاً، أى: إيماناً وتسليماً كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله: ﴿ وَيَخِرُّونَ﴾ عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود، كما قال الشاعر:

إلَى المَلك القَرْم وابن الهُمام ... ولَيْث الكَتيبَة فى المُزْدَحَم

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله، عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أى: لا فرق بين دعائكم له باسم «الله» أو باسم[3] «الرحمن»، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إلى أن قال: ﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

وقد روى مكحول[4]: أن رجلاً من المشركين سمع النبى ﷺ وهو يقول فى سجوده: « يارحمن يارحيم »، فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو اثنين. فأنزل الله هذه الآية. وكذا روى عن ابن عباس، رواهما ابن جرير.

وقوله: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ﴾ الآية ، قال الإمام أحمد :

حدثنا هُشَيْم، حدثنا أبو بشر، عن[5] سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: نزلت[6] هذه الآية وهو متوار بمكة ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا [وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً][7]﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لنبيه: ﷺ ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ أى: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من ت، ف. (٣) فى ت: «واسم».
(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢١) وكأن الحافظ اختصره هنا.
(٥) فى ف: «حدثنا». (٦) فى ت: «قرأت». (٧) زيادة من أ.

﴿ وَلا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾.

أخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى بشر جعفر بن إياس، به [١] . وكذا روى[٢] الضحاك عن ابن عباس، وزاد: «فلما هاجر إلى المدينة، سقط ذلك، يفعل أىّ ذلك شاء»[٣].

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلى، تفرقوا عنه وأبوا أن يستمعوا منه، فكان الرجل إذا أراد أن يستمع[٤] من رسول اللَّه ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلى، استرق السمع دونهم فرقاً منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع[٥]، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع[٦]، فإن خفض صوته ﷺ[٧] لم يستمع الذين[٨] يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل اللَّه: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فلا تُسمع من أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم، لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع، فينتفع به ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾.

وهكذا قال عكرمة، والحسن البصرى، وقتادة: نزلت هذه الآية فى القراءة فى الصلاة.

وقال شعبة عن أشعث بن أبى سليم[٩] عن الأسود بن هلال، عن ابن مسعود: لم يُخافتْ بها مَنْ أسمع أذنيه.

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سلمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبى بكر: لم تصنع هذا ؟ قال: أناجى ربى، عز وجل، وقد علم حاجتى. فقيل: أحسنت. وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان، وأوقظ الوَسْنَان . قيل: أحسنت. فلما نزلت: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ قيل لأبى بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً [١٠].

وقال أشعث بن سَوَّار، عن عكرمة، عن ابن عباس: نزلت فى الدعاء. وهكذا روى الثورى، ومالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: نزلت فى الدعاء. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو عياض، ومكحول، وعروة بن الزبير.

وقال الثورى عن [ابن][١١] عياش العامرى، عن عبد اللَّه بن شداد قال: كان أعراب من بنى تميم إذا سلم النبى[١٢] ﷺ قالوا: اللهم ارزقنا إبلاً وولداً. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ .

---

(١) المسند (١/ ٢٣) وصحيح البخارى برقم (٢٧٢٢) وصحيح مسلم برقم (٤٤٦).
(٢) فى ف: «رواه».
(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١٢٣).
(٤، ٥) فى ت، ف: « يسمع».
(٦) فى ت: «يسمع».
(٧) فى ف: «وإن خفض رسول الله ﷺ صوته».
(٨) فى ت: « ولم يسمع الذى».
(٩) فى هـ ، ت: «عن أبى سليم» والمثبت من الطبرى.
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢٤).
(١١) زيادة من ف.
(١٢) فى ف، أ: «رسول الله».

قول آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها، نزلت[(١)] هذه الآية فى التشهد: ﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا**﴾.

وبه قال حفص، عن أشعث بن سوار، عن محمد بن سيرين، مثله.

قول آخر: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا**﴾ قال: لا تصل مراءاة الناس، ولا تدعها مخافة الناس. وقال الثورى، عن منصور، عن الحسن البصرى: ﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا**﴾ قال: لا تحسن علانيتها وتسىء سريرتها. وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن، به. وهُشَيْم، عن عوف، عنه به. وسعيد، عن قتادة، عنه كذلك.

قول آخر: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿**وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا**﴾ قال: أهل الكتاب يخافتون، ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به، ويصيحون هم به وراءه، فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء، وأن يخافت كما يخافت القوم، ثم كان السبيل الذى بين ذلك، الذى سن له جبريل من الصلاة.

وقوله: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**﴾: لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نَزَّه نفسه عن النقائص فقال: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ**﴾ بل هو الله الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ،ولم يكن له كفواً أحد .

﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ**﴾ أى: ليس بذليل فيحتاج[(٢)] أن يكون له ولى أو وزير أو مشير، بل هو تعالى[شأنه][(٣)] خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومقدرها ومدبرها[(٤)] بمشيئته وحده، لا شريك له.

قال مجاهد فى قوله: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ**﴾: لم يحالف أحداً ولا يبتغى[(٥)] نصر أحد.

﴿**وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾ أى: عظِّمه وأجِلَّه عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

قال ابن جرير: حدثنى يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى أبو صخر، عن القرظى أنه كان يقول فى هذه الآية: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**﴾ الآية، قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولداً، وقال[(٦)] العرب: [لبيك][(٧)] لبيك، لا شريك لك؛ إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذل. فأنزل الله هذه الآية: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِى مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾.

وقال أيضاً: حدثنا بشر، [حدثنا يزيد][(٨)]، حدثنا سعيد، عن قتادة: ذكر لنا أن النبى ﷺ كان

---

(١) فى ت: «أنزلت». (٢) فى أ: «فلايحتاج». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، ف: «ومدبرها ومقدرها». (٥) فى ف: «ولم يبتغ». (٦) فى ت، ف، أ: «وقالت».
(٧) زيادة من ف. (٨) زيادة من ت، ف، أ.

يعلم أهله هذه الآية ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ الصغير من أهله[١] والكبير .

قلت: وقد جاء فى حديث أن رسول الله ﷺ سماها آية العز[٢]. وفى بعض الآثار: أنها ما قرئت فى بيت فى ليلة فيصيبه سرق أو آفة. والله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن سيحان البصرى، حدثنا حرب بن ميمون، حدثنا موسى ابن عبيدة الرَّبَذى، عن محمد بن كعب القُرَظى، عن أبى هريرة قال: خرجت أنا ورسول الله ﷺ، ويدى فى يده، فأتى على رجل رث الهيئة، فقال: « أى فلان[٣] ،ما بلغ بك ما أرى؟». قال: السقم والضرّ يارسول الله. قال: « ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر ؟ » قال: لا، قال: مايسرنى بها[٤] أن شهدت معك بدراً أو أحداً . قال: فضحك رسول الله ﷺ وقال: « وهل يدرك أهل بدر وأهل أحد ما يدرك الفقير القانع ؟ ». قال: فقال[٥] أبو هريرة: يا رسول الله، إياى فعلمنى قال: فقل يا أبا هريرة: «توكلت على[٦] الحى الذى لا يموت، الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك فى الملك، ولم يكن له ولى من الذل، وكبره تكبيراً». قال: فأتى علىّ رسول الله وقد حَسُنَت حالى، قال: فقال لى: « مَهْيم ». قال: قلت: يارسول الله، لم أزل[٧] أقول الكلمات التى علمتنى [٨].

إسناده ضعيف وفى متنه نكارة. [والله أعلم][٩].

---

(١) فى ف «منهم».

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٤٠) من حديث معاذ بن أنس مرفوعًا: « آية العز: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾. الآية كلها».

(٣) فى ت: « أنى تلك». (٤) فى ت: «لا يرى بها». (٥) فى ت:«فقال قال».

(٦) فى ت: «صلى» . (٧) فى ت: « لم أنزل».

(٨) مسند أبى يعلى (١٢/ ٢٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٥٢): «وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف».

(٩) زيادة من ف، أ.

ووقع فى ت: «آخر تفسير سورة الإسراء، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة، غفر الله لكاتبه ولمن قرأ فيه ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين أجمعين آمين».

/ سورة بني إسرائيل [٣٥٨و]

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما إنّها مكيّة غير قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء، ٧٣/١٧] إلى قوله تعالى ﴿سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء، ٨٠/١٧].[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ عَلَم للتسبيح كـ"عُثمان" للرجل، وحيث كان المسمّى معنًى لا عَينًا وجنسًا لا شخصًا لم تكن إضافته مِن قبيل ما في "زيدُ المَعارِكِ" أو "حاتمُ طيّئ"، وانتصابه بفعل متروكِ الإظهار، تقديرُه: أسبِّح الله سبحانَ... إلخ. وفيه ما لا يخفى مِن الدلالة على التنزيه البليغ مِن حيث الاشتقاقُ مِن السَّبْح الذي هو: الذهاب والإبعاد في الأرض، ومنه "فرسٌ سَبوح"، أي: واسعُ الجَرْي، ومِن جهة النقل إلى التفعيل، ومِن جهة العدول مِن المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصّة لاسيّما وهو عَلَم يُشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن ومِن جهة قيامه مَقام المصدر مع الفعل.

وقيل: هو مصدر كـ"غُفران" بمعنى التنزّه، ففيه مبالغة مِن حيث إضافةُ التنزّه إلى ذاته المقدَّسة ومناسبة تامّة بين المحذوف وبين ما عُطف عليه في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾،[٢] كأنّه قيل: تنزَّه بذاته وتعالى.

والإسراء: السَّير بالليل خاصّة كـ"السُّرى"، وقوله تعالى: ﴿لَيْلًا﴾ لإفادة قِلّة زمان الإسراء لِما فيه مِن التنكير الدالّ على البعضيّة مِن حيث الأجزاءُ دلالتَه على البعضيّة مِن حيثُ الأفراد، فإنّ قولك: "سِرتُ ليلًا" كما يفيد بعضيّة زمان سَيرك

---

[١] ط س: سورة بني إسرائيل، مكيّة، وهي مائة وعشرون آية.

[٢] الإسراء، ٤٣/١٧.

مِن الليالي يفيد بعضيّته مِن فرد واحد منها، بخلاف ما إذا قلتَ: "سرتُ الليلَ"، فإنّه يفيد استيعابَ السَّير له جميعًا، فيكون مِعيارًا للسَّير لا ظرفًا له، ويؤيِّده قراءة: "مِنَ اللَّيْلِ"،[١] أي: بعضِه.

وإيثارُ لفظ "العبد" للإيذان بتمحُّضه عليه السلام في عبادته سبحانه وبلوغه في ذلك غايةَ الغايات القاصية ونهايةَ النهايات النائية حسبما يلوِّح به مبدأ
[٣٥٨ظ] الإسراء ومنتهاه. / وإضافة التنزيه أو التنزّه إلى الموصول المذكور للإشعار بعلّيّة ما في حيّز الصلة للمضاف، فإنّ ذلك مِن أدلّة كمالِ قدرته وبالغِ حكمته ونهايةِ تنزُّهه عن صفات المخلوقين.

﴿مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ اختُلف في مبدأ الإسراء: فقيل: هو المسجد الحرام بعينه. وهو الظاهر؛ فإنّه رُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «بَيْنا أنا في المسجد الحرام في الحِجْر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريلُ عليه السلام بالبُراق»؛[٢] وقيل: هو دار أمّ هانئ بنت أبي طالب،[٣] والمراد بالمسجد الحرام الحرمُ لإحاطته بالمسجد والتباسه به، أو لأنّ الحرَم كلَّه مسجد، فإنّه رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه عليه الصلاة السلام كان نائمًا في بيت أمّ هانئ بعد صلاة العِشاء فكان ما كان فقصّه عليها، فلمّا قام ليخرُج إلى المسجد تشبّثتْ بثوبه عليه السلام لتمنعه خشيةَ أن يكذِّبه القوم، قال عليه السلام: «وإن كذّبوني». فلمّا خرج جلس إليه أبو جهل فأخبره عليه السلام بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: «يا معشر كعب بن لؤيّ بن غالب! هلُمّ فحدِّثْهم»،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٦.

٢ بلفظ قريب في **صحيح البخاري**، ١٠٩/٤ (٣٢٠٧)؛ و**صحيح مسلم**، ١٤٩/١ (٢٦٤)؛ و**جامع البيان** للطبري، ٤١٥/١٤؛ وهو بلفظه ههنا في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٥/٢.

٣ انظر: **جامع البيان** للطبري، ٤١٣/١٤؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٥٧/٥. | هي فاختة بنت أبي طالب بنت عبد المطلب الهاشميّة القرشيّة، وقيل: اسمها هند، وقيل: فاطمة والأصحّ الأوّل، المشهورة بأمّ هانئ (ت. بعد ٤٠هـ/ بعد ٦٦١م). أخت أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، وابنة عمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. أسلمت عام الفتح بمكّة وهرب زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي إلى نجران، وفرّق الإسلام بينهما وعاشت أيّمًا. روت أحاديثَ عن النبيّ عليه الصلاة والسلام، وماتت بعد أخيها عليًّا، حدّث عنها ابنها جُعدة وابنه يحيى وغيرهم. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٣١٧/٨؛ و**سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣١١/٢؛ و**الأعلام** للزركلي، ١٢٦/٥.

فمِن مُصفِّق وواضعٍ يدَه على رأسه تعجُّبًا وإنكارًا، وارتدّ ناس ممّن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر فقال: «إن كان قال ذلك لقد صدَق»، قالوا: «أتُصدِّقه على ذلك؟» قال: «إنّي أُصدِّقه على أبعدَ مِن ذلك»، فسُمِّيَ الصدِّيق. وكان فيهم. مَن يعرف بيت المَقدِس فاستنعتوه المَسجِدَ فجُلّي له بيت المَقدِس فطفِق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: «أمّا النعت فقد أصاب». فقالوا: «أخبِرْنا عن عِيرنا»، فأخبرهم بعدد جِمالها وأحوالها، وقال: «تقدَم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدُمها جمل أورَقُ»،[١] فخرجوا يشتدُّون ذلك اليومَ نحو الثنيّة، فقال قائل منهم: «هذه والله الشمس قد أشرقت»، فقال آخرُ: «هذه والله العِيرُ قد أقبلت يقدُمها جمل أورقُ كما قال محمّد»، ثمّ لم يؤمنوا.[٢] قاتلهم الله أنّى يؤفَكون!

/ واختُلف في وقته أيضًا، فقيل: كان قبل الهجرة بسنة،[٣] وعن أنس والحسن أنّه كان قبل البعثة.[٤] [٣٥٩و]

واختُلف أيضًا أنّه في اليقظة أو في المنام: فعن الحسن أنّه كان في المنام،[٥] «وأكثرُ الأقاويل بخلافه».[٦] والحقّ أنّه كان في المنام قبل البعثة وفي اليقظة بعدها.

واختُلف أيضًا أنّه كان جسمانيًا أو روحانيًا، فعن عائشةَ رضي الله عنها أنّها قالت: «ما فُقِد جسدُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ولكن عُرج بروحه».[٧] وعن معاويةَ أنّه قال: «إنّما عُرج بروحه».[٨] والحقُّ أنّه كان جسمانيًا على ما يُنبئ عنه التصدير بالتنزيه وما في ضمنه مِن التعجّب، فإنّ الرُّوحاني ليس في الاستبعاد والاستنكار وخَرْق العادة بهذه المثابة، ولذلك تعجَّبت منه قريش وأحالوه،

---

١ الأورَق: الأسمر. لسان العرب لابن منظور، «ورق».

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩٠/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٥٥/٢-٢٥٩.

٣ عن مقاتل في معالم التنزيل للبغوي، ٥٨/٥؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

٥ عنه بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤٤٦/١٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢. ورجَّح ذلك الطبريُّ في جامع البيان، ٤٤٦/١٤؛ والبغويُّ في معالم التنزيل، ٥٨/٥.

٧ عنها بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤٤٥/١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٨/٥؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

٨ عنه بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤٤٥/١٤؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

ولا استحالةَ فيه، فإنّه قد ثبت في الهندسة أنّ قُطر الشمس ضِعف قُطر الأرض مائة ونيِّفًا وستّين مرّة، ثمّ إنّ طرَفها الأسفل يصل إلى موضع طرفها الأعلى بحركة الفَلك الأعظم مع معاوَقة حركة فلَكها لها في أقلَّ مِن ثانية، وقد تقرّر أنّ الأجسام متساوية في قَبول الأعراض التي مِن جُملتها الحركة، وأنّ الله سبحانه قادر على كلّ ما يحيط به حيطةَ الإمكان فيقدِر على أن يخلُق مِثل تلك الحركة؛ بل أسرعَ منها في جسد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو فيما يحمِله، ولو لم يكن مستبعَدًا لم يكن معجزة.

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ أي: بيتِ المَقدس، سُمّيَ به إذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد، وفي ذلك مِن تربية معنى التنزيه والتعجّب ما لا يخفى. ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ببركات الدِّين والدنيا؛ لأنّه مَهبِط الوحي ومُتعبَّد الأنبياء عليهم السلام.

﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ غاية للإسراء، ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ العظيمة التي مِن جُملتها ذهابه في بُرهة مِن الليل مسيرةَ شهر، ولا يقدَح في ذلك[1] كونه قبل الوصول إلى المَقصِد ومشاهدةِ بيت المَقدِس وتمثُّل الأنبياء له ووقوفِه على مقاماتهم العليّة عليهم السلام. والالتفاتُ إلى التكلّم لتعظيم تلك البركات والآيات، وقُرئ: "لِيُرِيَهُ"[2] بالياء.

[٣٥٩ظ] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقواله عليه السلام بلا أُذن / ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأفعاله بلا بصَر، حسبما يؤذِن به القَصْر، فيُكرِمه ويقرّبه بحسب ذلك. وفيه إيماء إلى أنّ الإسراء المذكور ليس إلّا لتكرِمته عليه السلام ورفعِ منزلته، وإلّا فالإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة مِن غير حاجة إلى التقريب. والالتفاتُ إلى الغَيبة لتربية المَهابة.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة. وفيه إيماء إلى دعوته عليه السلام إلى الطُّور وما وقَع فيه مِن المناجاة جمعًا بين الأمرين المتّحدَين في المعنى، ولم يُذكر ههنا العُروج بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى السماء وما كان فيه

---

[1] وفي هامش م: في كون الذهاب المذكور من جملة الآيات. «منه».

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٦.

ممّا لا يُكتنه كُنهه حسبما نطقت به سورة النجم تقريبًا للإسراء إلى قَبول السامعين، أي: آتيناه التوراةَ بعد ما أسرَينا به إلى الطُّور.

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: ذلك الكتابَ ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يهتدون بما في مَطاويه: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾ بالتاء[1] على "أي[2] لا تتّخذوا" نحو "كتبتُ إليه أن افعلْ كذا"، وقرئ بالياء[3] على أنّ "أنْ" مصدريّة، والمعنى: آتينا موسى الكتاب لهِداية بني إسرائيلَ لئلّا يتّخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي: ربًّا تكِلون إليه أموركم، والإفرادُ لِما أنّ "فعيلًا" مفرَد في اللفظ جَمْع في المعنى.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء على قراءة النهي، والمرادُ تأكيد الحَمْل على التوحيد بتذكير إنعامه تعالى عليهم في ضمن إنجاء آبائهم مِن الغرق في سفينة نوحٍ عليه السلام،[4] أو على أنّه أحد مفعولَي "لَا يَتَّخِذُوا" على قراءة النفي،[5] و﴿مِن دُونِى﴾[6] حال مِن ﴿وَكِيلًا﴾،[7] فيكون كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران، ٣/٨٠].

وقُرئ بالرفع[8] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أو بدل مِن واو ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾[9] بإبدال الظاهرِ مِن ضمير المخاطَب كما هو مذهب بعض البغادِدَة،[10] وقرئ: "ذِرِّيَّةَ"[11] بكسر الذال.

---

[1] ط س - بالتاء. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[2] ط س: بأن. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س. | ويريد المُصنِّف أنّ "أن" مفسِّرة، ولذلك جاء بـ"أي" المفسِّرة ههنا.

[3] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٦.

[4] وفي هامش م: فإنّ عيسى وعُزيرًا من ذرّيّة المحمولين مع نوحٍ في الفُلك. «منه».

[5] يعني قراءة الغيبة، وليس فيها نفي؛ بل نهي كقراءة الخِطاب. انظر: الحُجّة لأبي عليّ، ٥/٨٣-٨٥.

[6] في الآية السابقة.

[7] في الآية السابقة.

[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨.

[9] في الآية السابقة.

[10] وفي هامش م: ومن ضمير الغائب على قراءة "لَا يَتَّخِذُوا" بالياء التحتانيّة. «منه». | انظر: اللباب لابن عادل، ١٢/٢٠٧.

[11] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن ثابت والأعمش وأبان بن عثمان. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٢١.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إنّ نوحًا عليه السلام ﴿كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ كثيرَ الشُّكر في
[٣٦٠و] مَجامع حالاته. وفيه / إيذانٌ بأنّ إنجاء مَن معه كان ببركة شُكره عليه السلام، وحثٌّ للذرِّيّة على الاقتداء به، وزجرٌ لهم عن الشِّرك الذي هو أعظم مراتب الكُفران. وقيل: الضمير لموسى عليه السلام.[١]

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤﴾

﴿وَقَضَيۡنَآ﴾ أي: أتممنا وأحكمنا مُنزِلين ﴿إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أو مُوحين إليهم ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: في التوراة، فإنّ الإنزال والوحيَ إلى موسى عليه السلام إنزال ووحيٌ إليهم، ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جوابُ قسَم محذوف. ويجوز إجراء القضاء المحتوم مُجرى القسَم، كأنّه قيل: وأقسمنا لتُفسِدُنّ ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾ مصدر، والعاملُ فيه مِن غير جنسه. أُولاهما: مخالفة حُكم التوراة وقَتْل شعيا عليه السلام وحبسُ أرميا حين أنذرهم سخط الله تعالى، والثانية: قَتْل زكريّا ويحيى وقَصْد قَتْل عيسى عليهم السلام.[٢]

﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ لتَستكبِرُنّ عن طاعة الله سبحانه، أو لتَغلِبُنّ الناس بالظلم والعدوان وتُفرِطُنّ في ذلك إفراطًا مُجاوِزًا للحدود.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥﴾

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أُولى كرّتَي الإفساد، أي: حان وقت حلول العقاب الموعود ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ لمؤاخذتكم بجناياتكم ﴿عِبَادٗا لَّنَآ﴾، وقرئ: "عَبِيدًا لَنا"،[٣] ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ ذوي قوّة وبطش في الحروب، هم سنجاريبُ

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٩١.
٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٧.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وعليّ بن الحسين وزيد بن عليّ والحسن البصري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٧.

مِن أهل نينوى وجنودُه.[١] وقيل: بُخْتَ نَصَّرُ عاملُ لُهْرَاسْب.[٢] وقيل: جالوتُ.[٣]

﴿فَجَاسُواْ﴾ أي: تردّدوا لطلبكم بالفساد. وقرئ بالحاء[٤] والمعنى واحد، وقرئ: "وَجَوَّسُوا"[٥] ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ في أوساطها للقتل والغارة، وقرئ: "خَلَلَ الدِّيَارِ"،[٦] فقتلوا علماءهم وكبارهم وأحرقوا التوراةَ وخرَّبوا المسجد وسَبَوا منهم سبعين ألفًا، وذلك مِن قبيل تَولية بعضِ الظالمين بعضًا ممّا جرت به السُّنّة الإلهيّة. ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿وَعۡدٗا / مَّفۡعُولٗا﴾ لا محالةَ، بحيث لا صارفَ عنه ولا مبدِّلَ. [٣٦٠ظ]

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ﴾ أي: الدولةَ والغلَبة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الذين فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنة حين تُبتُم ورجعتُم عمّا كنتُم عليه مِن الإفساد والعلُوّ. قيل: هي قتل بُخْتَ نَصَّرَ واستنقاذ بني إسرائيلَ أُساراهم وأموالَهم ورجوعُ المُلْك إليهم،[٧] وذلك أنّه لمّا ورِث بهمنُ بنُ إسفنديارَ المُلكَ مِن جدّه كشتاسف بن لهراسف ألقى الله تعالى في قلبه الشفقة عليهم فردّ أُساراهم إلى الشام

---

[١] مَرويّ عن سعيد بن جبير في **جامع البيان** للطبري، ٤٧٢/١٤؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٧٩/٥؛ وبلا نسبة في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٧/٢.

[٢] مَرويّ عن سعيد بن جبير وسعيد بن المسيّب في **جامع البيان** للطبري، ٤٧٢/١٤-٤٧٥؛ وعن ابن إسحاق في **معالم التنزيل** للبغوي، ٧٩/٥؛ وبلا نسبة في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٧/٢. | لُهْرَاسب بن قنوج بن كيمس بن كيناس بن كيناسة بن كيقباذ، مِن ملوك الفرس، حين وضع التاج اتّخذ سريرًا مِن ذهب مكلّلًا بأنواع الجواهر للجلوس عليه، وأمر فبُنيت له بأرض خراسان مدينة بلخ وسمّاها الحسناء، ودوّن الدواوين وقوّى ملكه، وأحسن السيرة لرعيّته، وشملهم عدله، وكان ملكه مائة وعشرين سنةً، وفي أيّامه ظهر زرادشت بن سقيمان الذي ادّعى النبوّة وتبعه المجوس. انظر: **الكامل** لابن الأثير، ٢٥٨/١؛ و**مروج الذهب** للمسعودي، ٢٥١/١.

[٣] مَرويّ عن ابن عبّاس وقتادة في **جامع البيان** للطبري، ٤٧١/١٤-٤٧٢؛ وعن قتادة في **معالم التنزيل** للبغوي، ٧٩/٥؛ وعن ابن عبّاس في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٧/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وطلحة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٧؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٢٣.

[٥] لم أجِدها فيما وقفتُ عليه من كتب القراءات والتفسير. وفيها قراءة قريبة: "فَجَوَّسُوا"، وهي قراءة شاذّة، غير منسوبة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٧.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٧.

[٧] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٨/٢.

وملّك عليهم دانيال عليه السلام فاستولَوا على مَن كان فيها مِن أتباع بُخْتَ نَصَّرَ. وقيل: هي قتلُ داودَ عليه السلام لجالوت.[١]

﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ كثيرة بعدما نُهبت أموالكم، ﴿وَبَنِينَ﴾ بعدما سُبيَت أولادكم،[٢] ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ممّا كنتم مِن قبل، أو مِن عدوّكم. والنفيرُ: مَن ينفِر مع الرجُل مِن قومه، وقيل: جمعُ "نفَر" وهم القوم المجتمعون للذهاب إلى العدو كـ"العَبيد" و"المَعيز".[٣]

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ أعمالكم سواء كانت لازمةً لأنفسكم أو متعدِّية إلى الغير، أي: عمِلتموها على الوجه اللائق ولا يُتصوَّر ذلك إلّا بعد أن تكون الأعمال حسنةً في أنفسها، وإن فعلتُم الإحسان ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ لأنّ ثوابها لها. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أعمالَكم بأن عمِلتموها لا على الوجه اللائق، ويلزَمه السوء الذاتي، أو فعلتم الإساءة ﴿فَلَهَا﴾ إذ عليها وبالُها، وعن عليّ كرّم الله تعالى وجهه: «ما أحسنتُ إلى أحد ولا أسأتُ إليه»، وتلاها.[٤]

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ حان وقت ما وُعد مِن عقوبة المَرّة الآخرة ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ متعلِّق بفعل حُذف لدلالة ما سبَق عليه، أي: بعثناهم ليسوءوا، ومعنى ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾: ليجعلوا آثار المَساءة والكآبة بادية في وجوهكم، كقوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك، ٦٧/٢٧] / وقرئ: "لِيَسُوءَ"[٥] [٣٦١و]
على أنّ الضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث، و"لِنَسُوءَ"[٦] بنون العظمةِ، وفي قراءة عليّ رضي الله تعالى عنه: "لَنَسُوأَنَّ"[٧] على أنّه جوابُ ﴿إِذَا﴾، وقُرئ:

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢.
٢ وفي هامش م: فيه كلام في تقديم الأموال على البنين كما في سورة الكهف.
٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢.
٤ له في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢. ولم أقف عليه في مظانّه.
٥ قرأ بها ابن عامر وحمزة وأبو بكر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.
٦ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وأُبيّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩.

"لنَسُوأنْ"[١] بالنون الخفيفة، و"لَيَسُوأَنّ".[٢] و"اللام" في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾ عطفٌ على ﴿لِيَسُـُٔواْ﴾ متعلِّق بما تعلَّق هو به. ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أي: في أوّل مرّة.

﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ أي: يُهلِكوا ﴿مَا عَلَوۡاْ﴾ ما غلبوه واستولَوا عليه، أو مدّةَ علُوّهم، ﴿تَتۡبِيرًا﴾ فظيعًا لا يُوصَف، بأن سلّط الله عزّ سلطانه عليهم الفُرس فغزاهم مَلِك بابِلَ مِن ملوك الطوائف اسمُه جودرد، وقيل: جردوس. وقيل: دخل صاحب الجيش فذبح قرابينهم فوجد فيه دمًا يغلي فسألهم عنه، فقالوا: «دم قُربان لم يُقبَل منّا»، فقال: «لم تصْدُقوني»، فقتَل على ذلك ألوفًا فلم يهدأ الدم، ثمّ قال: «إن لم تصْدُقوني ما تركتُ منكم أحدًا»، فقالوا: «إنّه دم يحيى بن زكريّا عليهما السلام»، فقال: «لمِثل هذا ينتقم منكم ربُّكم»، ثمّ قال: «يا يحيى قد علِم ربّي وربُّك ما أصاب قومَك مِن أجلك، فاهدأ بإذن الله قبل ألّا أُبقيَ منهم أحدًا»، فهدأ.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡ﴾ بعد المرّة الآخرة إن تبتُم توبةً أخرى وانزجرتُم عمّا كنتم عليه مِن المعاصي. ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ﴾ إلى ما كنتم فيه مِن الفساد مرّة أخرى ﴿عُدۡنَا﴾ إلى عقوبتكم، ولقد عادوا فأعاد الله سبحانه عليهم النقمة بأن سلَّط عليهم الأكاسرة ففعلوا بهم ما فعلوا مِن ضَرْب الإتاوة ونحو ذلك. وعن الحسن: «عادوا فبعث الله تعالى محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم، فهم يُعطُون الجزيةَ عن يد وهم صاغرون».[٣] وعن قتادة مثلُه.[٤]

﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مَحبِسًا لا يستطيعون الخروج منها أبدَ الآبدين. وقيل: بِساطًا كما يُبسَط الحصير.[٥] وإنّما عُدل عن أن يقال: وجعلنا جهنّمَ لكم؛ تسجيلًا على كفرهم بالعَود وذمًّا لهم بذلك وإشعارًا بعِلّة الحُكم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٧.

٣ عنه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢.

٤ عنه في جامع البيان للطبري، ٥٠٦/١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨٠/٥.

٥ مرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ٥٠٨/١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨٠/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي آتيناكَهُ ﴿يَهْدِى﴾ أي: الناسَ كافّة لا فِرقة مخصوصة منهم / كدأب الكتاب الذي آتيناه موسى. ﴿لِلَّتِى﴾ للطريقة التي ﴿هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: [٣٦١ظ] أقومُ الطرائق وأسدُّها، أعني ملّة الإسلام والتوحيد. وتركُ ذِكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخَصلة ونحوِها ممّا يُعبَّر به عن المَقصِد المذكور؛ بل للإيذان بالغِنى عن التصريح بها لغاية ظهورها، لاسيّما بعد ذِكر الهداية التي هي مِن رَوادفها. والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدي إليها مَن يتمسَّك به، لا تحصيلُ الاهتداء بالفعل، فإنّه مخصوص بالمؤمنين حينئذ.

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما في تضاعيفه مِن الأحكام والشرائع، وقُرئ بالتخفيف.[١] ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي شُرِحت فيه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنّ لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ بحسب الذات وبحسب التضعيف عشرَ مرّات فصاعدًا.[٢]

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وأحكامِها المشروحة فيه مِن البعث والحساب والجزاء. وتخصيصُها بالذِّكر مِن بين سائر ما كفروا به لكونها مُعظمَ ما أُمِروا بالإيمان به، ولمراعاة التناسُب بين أعمالهم وجزائها الذي أنبأ عنه قولُه عزّ وجلّ: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذاب جهنّم، أي: أعتدنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجوده مِن الآخرة عذابًا أليمًا، وهو أبلغ في الزجر؛ لِما أنّ إتيانَ العذاب مِن حيث لا يُحتسَب أفظعُ وأفجعُ. والجملة معطوفة على جملة ﴿يُبَشِّرُ﴾[٣] بإضمار "يُخبِر"، أو على قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾،[٤] داخلةٌ معه تحت التبشير المرادِ به مجازًا مطلقُ الإخبار المنتظِمِ للإخبار بالخبر السارّ،

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٩.
٢ س – فصاعدًا.
٣ في الآية السابقة.
٤ في الآية السابقة.

وبالنبأ الضارّ حقيقةً، فيكون ذلك بيانًا لهداية القرآن بالترغيب والترهيب، ويجوز كون التبشير بمعناه، والمرادُ تبشير المؤمنين ببشارتين: ثوابِهم وعقابِ أعدائهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ بيان لحال المَهديّ إثرَ بيان حال الهادي، وإظهارٌ لِما بينهما مِن التباين، والمرادُ بـ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الجنس، أُسنِد إليه حالُ بعض أفراده أو حُكي عنه حالُه في بعض أحيانه:

فالمعنى / على الأوّل: أنّ القرآن يدعو الإنسان إلى الخير الذي لا خيرَ فوقه مِن الأجر الكبير، ويُحذِّره مِن الشرّ الذي لا شرَّ وراءه مِن العذاب الأليم، وهو، أي: بعض منه وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو الشرّ مِن العذاب المذكور: إمّا بلسانه حقيقةً، كدأب مَن قال منهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨]، ومَن قال: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود، ٣٢/١١] إلى غير ذلك ممّا حُكيَ عنهم؛ وإمّا بأعمالهم السيّئة المُفضية إليه الموجِبة له مجازًا، كما هو ديدن كلِّهم. [٣٦٢و]

﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي: مثلَ دعائِه بالخير المذكور فرضًا لا تحقيقًا، فإنّه بمَعزِل مِن الدعاء به، وفيه رمز إلى أنّه اللائق بحاله.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: مَن أُسنِد إليه الدعاء المذكور مِن أفراده ﴿عَجُولًا﴾ يُسارع إلى طلب كلّ ما يخطر بباله متعاميًا عن ضرره، أو مبالغًا في العجلة يستعجل العذابَ وهو آتيه لا محالةَ، ففيه نوعُ تهكُّم به. وعلى تقدير حَمْل الدعاء على أعمالهم تُحمَل العَجوليّة على اللَّجّ والتمادي في استيجاب العذاب بتلك الأعمال.

وعلى الثاني: أنّ القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير، وهو في بعض أحيانه كما عند الغضبِ يدعُه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شرّ، وكان الإنسان بحسب جِبِلّته عجولًا ضَجِرًا لا يتأنّى إلى أن يزول عنه ما يعتريه. رُوي أنّه عليه السلام دفع إلى سَوْدةَ أسيرًا فأَرْخَت كِتافه رحمة لأنينه بالليل مِن ألم القِدّ فهرَب، فلمّا أخبرَت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «اللّهمّ اقطع يديها»، فرفعت سَوْدةُ يديها تتوقَّع الإجابة، فقال عليه السلام: «إني سألتُ الله تعالى

أن يجعَل دعائي على مَن لا يستحقّ مِن أهلي عذابًا رحمةً».[١] أو يدعو بما هو شرّ[٢] وهو يحسبه خيرًا، وكان الإنسان عجولًا غيرَ متبصّر لا يتدبّر في أموره حقّ التدبّر ليتحقّق ما هو خير حقيق بالدعاء به، وما هو شرّ جدير بالاستعاذة منه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

[٣٦٢ظ] ﴿وَجَعَلْنَا / ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ شروع في بيان بعض وجوه ما ذُكر مِن الهداية بالإرشاد إلى مَسلَك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقيّة التي كلّ واحدة منها برهانٌ نيّر لا ريبَ فيه ومنهاجٌ بيّن لا يضِلّ مَن ينتحيه، فإنّ الجعل المذكور وما عُطف عليه مِن مَحْو آية الليل وجَعْل آية النهار مبصرة وإن كانت مِن الهدايات التكوينيّة لكنّ الإخبار بذلك مِن الهدايات القرآنيّة المنبِهة على تلك الهدايات.

وتقديمُ ﴿ٱلَّيْلَ﴾ لمراعاة الترتيب الوجوديّ؛ إذ منه ينسلِخ النهار وفيه تظهَر غُرَر الشهور، ولو أنّ الليلة أضيفت إلى ما قبلها مِن النهار لكانت مِن شهر وصاحبُها مِن شهر آخرَ، ولترتيبِ غاية آية النهار[٣] عليها بلا واسطة، أي: جعلنا المَلَوين[٤] بهَيآتهما وتعاقُبهما واختلافهما في الطُّول والقِصَر على وتيرة عجيبة يحار في فهمها العقولُ آيتين تدلّان على أنّ لهما صانعًا حكيمًا قادرًا عليمًا، وتهديان إلى ما هدى إليه القرآن الكريم مِن ملّة الإسلام والتوحيد.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ الإضافة إمّا بيانيّة كما في إضافة العدد إلى المعدود، أي: محَوْنا الآية التي هي الليل. وفائدتها تحقيق مضمون الجملة السابقة، ومحوُها جَعْلها ممحُوّة الضوء مطموسَته، لكن لا بَعدَ أن لم تكن كذلك؛ بل إبداعها على ذلك كما في قولهم: "سبحان مَن صغّر البعوضَ وكبّر الفيل"، أي:

---

[١] بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٩/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩٤/٢. ولم أجده في مظانّه.

[٢] السياق: يدعو الله تعالى لنفسه... أو يدعو...

[٣] وفي هامش م: وهي قوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُواْ﴾ الآية.

[٤] الملوان: الليل والنهار. لسان العرب لابن منظور، «ملا».

أنشأهما كذلك. و"الفاء" تفسيريّةٌ؛ لأنّ المحو المذكور وما عُطف عليه ليسا ممّا يحصل عَقيبَ جعل الجديدين آيتين؛ بل هما مِن جملة ذلك الجَعْل ومُتمِّماته.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: الآية التي هي النهار على نحو ما مرّ، ﴿مُبْصِرَةً﴾ مُضيئة يُبصَر فيها الأشياءُ وصفًا لها بحال أهلها، أو مبصِرةً للناس مِن "أبصَره فبَصُر".

وإمّا حقيقيّة،[١] وآية الليل والنهار نيّراهما، ومَحْوُ القمر إمّا خَلْقُه مطموسَ النور في نفسه فـ"الفاء" / كما ذُكر، وإمّا نقصُ ما استفاده مِن الشمس شيئًا [٣٦٣و] فشيئًا إلى المِحاق[٢] على ما هو معنى المحو، و"الفاء" للتعقيب، وجعلُ الشمس مُبصِرةً إبداعُها مضيئة بالذات ذاتَ أشعّة تظهَر بها الأشياء المظلمة.

﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ كما أشيرَ إليه، أي: وجعلناها مضيئة لتطلُبوا لأنفسكم في بياض النهار ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رزقًا، إذ لا يتسنّى ذلك في الليل. وفي التعبير عن الرزق بـ"الفضل" وعن الكسب بـ"الابتغاء" والتعرّضِ لصفة الربوبيّة المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئًا فشيئًا دلالةٌ على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثيرٌ سوى الطلب، وإنّما الإعطاء إلى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه؛ بل تفضّلًا بحُكم الربوبيّة.

﴿وَلِتَعْلَمُوا۟﴾ متعلِّق بكلا الفعلين، أعني مَحْو آية الليل وجعلَ آية النهار مُبصِرة لا بأحدهما فقط، إذ لا يكون ذلك بانفراده مدارًا للعِلم المذكور، أي: لتعلموا بتفاوت الجديدَين[٣] أو نيّرَيهما ذاتًا مِن حيث الإظلامُ والإضاءة مع تعاقُبهما أو حركاتهما وأوضاعهما وسائر أحوالِهما ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ التي يتعلَّق بها غرض عِلمي لإقامة مصالحكم الدينيّة والدنيويّة، ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: الحسابَ المتعلِّق بما في ضمنها مِن الأوقات، أي: الأشهرَ والليالِيَ والأيّامَ وغير ذلك ممّا نِيط به شيء مِن المصالح المذكورة. ونفسُ السَّنة مِن حيث تحقّقها ممّا ينتظِمه الحساب، وإنّما الذي تعلَّق به العدّ طائفة منها، وتعلُّقه في ضمن ذلك

---

١ السياق: الإضافة إمّا بيانيّة... وإمّا حقيقيّة...

٢ المِحاق والمُحاق: آخر الشهر، إذا امّحق الهلال فلم يُرَ. لسان العرب لابن منظور، «محق».

٣ الجديدان: الليل والنهار؛ لأنهما لا يبليان أبدًا. لسان العرب لابن منظور، «جدد».

بكلّ واحدة منها ليس مِن الحيثيّة المذكورة، أعني حيثيّةَ تحققها وتحصّلها مِن عدّة أشهر قد يحصُل كلّ واحد منها مِن عدّة أيّام قد حصل كلّ منها بطائفة مِن الساعات مثلًا، فإنّ ذلك وظيفة الحساب؛ بل مِن حيث إنّها فرد مِن تلك الطائفة المعدودة / يعدّها، أي: يُفنيها مِن غير أن يعتبر في ذلك تحصُّل شيء معيَّن. [٣٦٣ظ]

وتحقيقه ما مرّ في سورة يونسَ،[١] مِن أنّ الحِساب: إحصاء ما له كمّيّة منفصلة بتكرير أمثاله مِن حيث يتحصَّل بطائفة معيَّنة منها حدٌّ معيَّن منه له اسم خاصّ وحُكم مستقلّ، كما أشيرَ إليه آنفًا، والعَدّ: إحصاؤه بمجرَّد تكرير أمثاله مِن غير أن يتحصَّل منه شيء كذلك. ولِما أنّ السنين لم يُعتبَر فيها حدّ معيَّن له اسم خاصّ وحُكم مستقلّ أضيفَ إليها العدد وعُلِّق الحساب بما عداها ممّا اعتُبر فيه تحصُّل مراتبَ معيَّنة لها أسام خاصّة وأحكام مستقلّة، وتحصّلُ مراتب الأعداد مِن العشرات والمئات والألوف اعتباري لا يجدي في تحصّل المعدودات.

وتقديم "العدد" على ﴿ٱلْحِسَابَ﴾، مع أنّ الترتيب بين متعلّقَيهما وجودًا وعِلمًا على العكس، للتنبيه مِن أوّل الأمر على أنّ متعلِّق الحساب ما في تضاعيف السنين مِن الأوقات، أو لأنّ العِلم المتعلِّق بعدد السنين عِلم إجمالي بما تعلّق به الحساب تفصيلًا، أو لأنّ العدد مِن حيث إنّه لم يُعتبَر فيه تحصُّل شيء آخرَ منه، حسبما ذُكر، نازلٌ مِن الحساب المُعتبَر فيه ذلك منزلةَ البسيط مِن المركَّب، أو لأنّ العِلم المتعلِّق بالأوّل أقصى المراتب، فكان جديرًا بالتقديم في مقام الامتنان، والله سبحانه أعلمُ.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ تفتقرون إليه في المعاش والمعاد سوى ما ذُكر مِن جَعْل الليل والنهار آيتين وما يتبعه مِن المنافع الدينيّة والدنيويّة، وهو منصوب بفعل يفسّره قوله تعالى: ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي: بيّناه في القرآن الكريم بيانًا بليغًا لا التباسَ معه، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل، ٨٩/١٦]، فظهر كونه هاديًا للتي هي أقوم ظهورًا بيّنًا.

---

[١] في تفسير الآية الخامسة منها.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾ مكلَّفٍ ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ أي: عملَه الصادر عنه باختياره حسبما قُدِّر له كأنّه طار إليه مِن عُشّ الغيب ووَكْر القدَر، / أو ما وقَع له في القِسمة الأزليّة الواقعة حسب استحقاقه في العِلم الأزلي مِن قولهم: "طار له سهمٌ كذا". ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ تصوير لشِدّة اللزوم وكمالِ الارتباط، أي: ألزمناه عمله بحيث لا يفارقه أبدًا بل يلزَمه لزومَ القِلادة أو الغُلّ للعنق لا ينفكّ عنه بحال، وقرئ بسكون النون.[1] [٣٦٤و]

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾ بنون العظمة، وقد قُرئ بالياء مبنيًّا للفاعل[2] على أنّ الضمير لله عزّ وجلّ، وللمفعول[3] والضمير لـ"الطائر"، كما في قراءة: "يَخْرُجُ"[4] مِن "الخروج". ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ والبعث للحساب ﴿كِتَٰبًا﴾ مسطورًا فيه ما ذُكر مِن عمله نقيرًا وقِطميرًا، وهو مفعول لـ﴿نُخْرِجُ﴾ على القراءتين الأُولَيين، أو حال مِن المفعول المحذوف الراجع إلى الطائر، وعلى الأخيرَتين حال مِن المستتِر في الفعل مِن ضمير "الطائر".

﴿يَلْقَىٰهُ﴾ أي: يلقى الإنسانَ أو يلقاه الإنسانُ ﴿مَنشُورًا﴾ وهما صفتان للكتاب، أو الأوّل صفة والثاني حال منها. وقرئ: "يُلَقَّاهُ"[5] مِن "لقَّيتُه كذا"، أي: يُلقَّى الإنسان إيّاه. قال الحسن: «بُسِطت لك صحيفة ووُكِّل بك ملَكان فهما عن يمينك وعن شمالك، فأمّا الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأمّا الذي عن شمالك فيحفظ سيّئاتك، حتّى إذا مُتَّ طُويت صحيفتُك، وجُعلت معك في قبرك حتّى تُخرَجَ لك يوم القيامة».[6]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أحمد بن موسى واللؤلئي عن أبي عمرو. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٧٩، **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٨.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وهارون عن أبي عمرو. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٨؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٢٦.

[3] قرأ بها أبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

[4] قرأ بها يعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

[5] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

[6] **جامع البيان** للطبري، ٥٢٤/١٤؛ **والتفسير البسيط** للواحدي، ٢٧٩/١٣؛ **واللباب** لابن عادل، ٢٢٧/١٢.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ١٤﴾

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أي: قائلين ذلك، عن قتادة: «يقرأ ذلك اليومَ مَن لم يكن في الدنيا قارئًا».[1] وقيل: المراد بـ"الكتاب" نفسُه المنتقشةُ بآثار أعماله،[2] فإنّ كلّ عمل يصدُر مِن الإنسان خيرًا أو شرًّا يحدُث منه في جوهر روحِه أمرٌ مخصوص، إلّا أنّه يخفى ما دام الروحُ متعلِّقًا بالبدن مشتغِلًا بواردات الحواسّ والقُوى، فإذا انقطعت علاقتُه عن البدن قامت قيامته؛ لأنّ النفس كانت ساكنة مستقرّة في الجسد، وعند ذلك قامت وتوجّهت نحو الصعود / إلى العالم [٣٦٤ظ] العُلوي، فيزول الغطاء وتنكشِف الأحوال ويظهر على لَوح النفس نقش كلِّ شيء عمِلَه في مدّة عمره، وهذا معنى الكتابة والقراءة.

﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: كفى نفسُك، و"الباء" زائدة، و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف لـ﴿كَفَىٰ﴾، و﴿حَسِيبًا﴾ تمييز و"على" صلتُه؛ لأنّه بمعنى الحاسب، كـ"الصريم" بمعنى "الصارم"، مِن "حسَب عليه كذا"، أو بمعنى الكافي، وُضِع موضعَ الشهيد؛ لأنّه يكفي المُدّعيَ ما أهمّه. وتذكيره لأنّ ما ذُكر مِن الحساب والكفاية ممّا يتولّاه الرجال، أو لأنّه مبنيّ على تأويل "النفس" بـ"الشخص" على أنّها عبارة عن نفس المذكِّر، كقول جَبَلَةَ بن حُرَيث:

يا نفسُ إنّك باللذّات مسرورُ فاذكُر فهل يَنفعَنْكَ اليومَ تذكيرُ[3]

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ١٥﴾

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ فَذلكَة لِما تقدّم مِن بيان كون القرآن هاديًا لأقوَم الطرائق ولزومِ الأعمال لأصحابها، أي: مَن اهتدى بهدايته وعمِل بما في تضاعيفه مِن الأحكام وانتهى عمّا نهاه عنه فإنّما يعود منفعةُ اهتدائه إلى نفسه،

---

[1] جامع البيان للطبري، ١٤/٥٢٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ٥/٨٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٤٠؛

[2] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٩٤.

[3] البيت لجَبَلة في شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي، ١/٣٦١؛ وشرح أبيات المغني للبغدادي، ٢/١٦٨، ورواية صدره فيهما:

يا قلبُ إنّك في أسماءَ مغرورُ

وما وجدته بالرِّواية التي أوردَها المؤلِّف ههنا.

لا تتخطّاه إلى غيره ممّن لم يهتدِ. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الطريقة التي يهديه إليها ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فإنّما وبال ضلاله عليها لا على مَن عداه ممّن لم يباشره حتّى يمكن مفارقةُ العمل صاحبَه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تأكيد للجملة الثانية، أي: لا تحمل نفس حاملةٌ للوِزر وِزرَ نفس أخرى حتّى يمكن تخلُّص النفس الثانية عن وِزرها ويختلَّ ما بين العامل وعمَله مِن التلازم؛ بل إنّما تحمل كلّ منها وِزرها، وهذا تحقيق لمعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء، ١٣/١٧].

وأمّا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء، ٨٥/٤]، وقولُه تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل، ٢٥/١٦] مِن حَمْل الغير وِزر الغير وانتفاعِه بحسنته وتضرُّره بسيّئته فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسِه وتضرُّر بسيّئته، / فإنّ جزاء الحسنة والسيّئة اللتين يعمَلهما العامل [٣٦٥و] لازمٌ له. وإنّما الذي يصِل إلى مَن يشفع جزاءُ شفاعته لا جزاءُ أصل الحسنة والسيّئة، وكذلك جزاءُ الضلال مقصور على الضالّين، وما يحمِله المُضلُّون إنّما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال.

وإنّما خُصّ التأكيد بالجملة الثانية قطعًا للأطماع الفارغة، حيثُ كانوا يزعُمون أنّهم لم يكونوا على الحقّ، فالتبِعة على أسلافهم الذين قلّدوهم.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ بيان للعناية الربانيّة إثرَ بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها وعدم حِرمان المهتدي مِن ثمرات هدايته وعدمِ مؤاخذة النفس بجِناية غيرها، أي: وما صحّ وما استقام منّا، بل استحال في سنّتنا المبنيّة على الحِكَم البالغة، أو ما كان في حُكمنا الماضي وقضائِنا السابق أن نعذِّب أحدًا مِن أهل الضلال والأوزار اكتفاءً بقضيّة العقل ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ﴾ إليهم ﴿رَسُولًا﴾ يهديهم إلى الحقّ ويردَعهم عن الضلال، ويُقيم الحُجج ويمهِّد الشرائع حسبما في تضاعيف الكتاب المنزَل عليه.

والمراد بالعذاب المنفيّ إمّا عذابُ الاستئصال، كما قاله الشيخ أبو منصور الماتريدي[١] رحمه الله،[٢] وهو المناسِب لِما بعده، أو الجنسُ الشامل للدنيوي والأخروي وهو مِن أفراده. وأيًّا ما كان فالبعثُ غاية لعدم صحّة وقوعه في وقته المقدَّر له لا لعدم وقوعه مطلقًا، كيف لا، والأخرويُّ لا يمكن وقوعه عَقيبَ البعث، والدنيويُّ أيضًا لا يحصُل إلّا بعد تحقّق ما يوجِبه مِن الفسق والعصيان، ألا يُرى إلى قوم نوحٍ كيف تأخَّر عنهم ما حلّ بهم زُهاءَ ألف سنة.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ بيان لكيفيّة وقوع التعذيب بعد البعثة التي جُعلت غاية لعدم صحّته، وليس المراد بالإرادة / تحقُّقها بالفعل إذ لا يتخلّف عنها المراد، ولا الإرادة الأزليّة المتعلِّقة بوقوع المراد في وقته المقدَّر له، إذ لا يقارنها[٣] الجزاء الآتي؛ بل دنوّ وقتها كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل، ١/١٦]، أي: وإذا دنا وقت تعلُّق إرادتنا بإهلاك قرية بأن نعذِّب أهلها بما ذكرنا[٤] مِن عذاب الاستئصال الذي بيَّنّا أنّه لا يصحّ منّا قبل البعثة، أو بنوع[٥] ممّا ذكرنا شأنه مِن[٦] مطلَق العذاب، أعني: عذاب الاستئصال،[٧] لِما لهم مِن الظلم والمعاصي دنوًّا يقتضيه الحكمة مِن غير أن يكون له حدٌّ معيَّن. [٣٦٥ظ]

﴿أَمَرْنَا﴾ بواسطة الرسول المبعوث إلى أهلها ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ متنعِّميها وجبّاريها وملوكها، خصّهم بالذِّكر مع توجّه الأمر إلى الكلّ؛ لأنّهم الأصول في الخطاب والباقي أتباع لهم، ولأنّ توجّه الأمر إليهم آكَد. وعدمُ التعرّض للمأمور به

---

١ هو محمّد بن محمّد بن محمود الماتُريدي السمرقندي، أبو منصور (ت. ٣٣٣هـ/٩٤٤م). مِن أئمّة علماء الكلام. نسبته إلى ماتُريد محلّة بسمرقند، ومات بها. مِن مؤلّفاته: كتاب التوحيد، وتأويلات القرآن، وهما مطبوعان، وبيان وهم المعتزلة، والجدل في أصول الفقه. انظر: الأعلام للزركلي، ١٩/٧.

٢ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٢٤٣/٨.

٣ ط س: يقارنه.

٤ وفي هامش م: على الوجه الأوّل.

٥ وفي هامش م: على الوجه الثاني.

٦ وفي هامش م: بيان لـ"ما".

٧ وفي هامش م: تفسير للنوع.

إمّا لظهور أنّ المراد به الحقّ والخير؛ لأنّ الله لا يأمُر بالفحشاء، لاسيّما بعد ذِكر هداية القرآن لِما يهدي إليه، وإمّا لأنّ المراد "وُجِد منّا الأمر"، كما يقال: "فلان يعطي ويمنع". ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ أي: خرجوا عن الطاعة وتمرّدوا.

﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: ثبَت وتحقّق موجبه بحلول العذاب إثرَ ما ظهر منهم ما ظهر مِن الفِسق والطغيان[١] ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا﴾ بتدمير أهلها ﴿تَدۡمِيرٗا﴾ لا يُكتنَه كُنهه ولا يُوصَف. هذا هو المناسب لِما سبَق.

وقيل: "الأمر" مجاز عن الحَمْل على الفسق والتسبّبِ له بأن صَبَّ عليهم ما أبطَرهُم وأفضى بهم إلى الفسوق.[٢] وقيل: هو بمعنى التكثير، يقال: "أَمَرتُ الشيءَ فأَمِرَ"، أي: كثَّرتُه فكثُر، وفي الحديث: «خير المال سِكّة مأبورة ومُهْرة مأمورة»،[٣] أي: كثيرة النِّتاج،[٤] ويعضدُه قراءة "آمَرْنَا"[٥] و"أَمَّرْنَا"[٦] مِن الإفعال والتفعيل، وقد جُعلتا مِن الإمارة، أي: جعلناهم أمراء. وكلُّ ذلك / لا يساعده [٣٦٦و] مقام الزجر عن الضلال والحثِّ على الاهتداء، فإنّ مؤدّى ذلك أنّ طغيانهم مَنُوط بإرادة الله سبحانه وإنعامه عليهم بنِعَم وافرة أبطَرَتهم وحمَلَتهم على الفِسق حَمْلًا حقيقًا بأن يُعبَّر عنه بالأمر به.

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ أي: وكثيرًا ما أهلكنا ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ بيان لـ﴿كَمۡ﴾ وتمييز له، والقَرن: مدّة مِن الزمان يُخترَم فيها القوم، وهي عِشرون أو ثلاثون أو أربعون

---

١ ط س - ثبَت وتحقّق موجَبه بحلول العذاب إثرَ ما ظهر منهم ما ظهر مِن الفِسق والطغيان؛ ط س + كلمة العذاب السابق بحلوله، أو بظهور معاصيهم، أو بانهماكهم فيها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٨١/٢.

٣ بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٧٢/٢٥ (١٥٨٤٥)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٢٨/١٤؛ والمعجم الكبير للطبراني، ٩١/٧ (٦٤٧٠).

٤ القول بمعناه في مجاز القرآن لأبي عُبيدة، ٣٧٢/١، نقله عن بعضهم الزمخشري في الكشّاف، ٤٨٢/٢.

٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عثمان النهدي وليث عن أبي عمرو وأبان عن عاصم وأبي بَحرية والحسن وأبي السَّمّال وابن مِقسَم والجَحدري وأبي العالية الرياحي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٢٧.

أو ثمانون أو مائة -وقد أُيِّد ذلك بأنّه صلّى الله عليه وسلّم دعا لرجل فقال: «عِش قرنًا»،[١] فعاش مائة سنة- أو مائة وعشرون. ﴿مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ﴾ مِن بعد زمنه عليه السلام كعادٍ وثمودَ ومَن بعدهم ممّن قُصّت أحوالهم في القرآن العظيم ومَن لم تُقَصّ، وعدمُ نَظْم قومه عليه السلام في تلك القرون المُهلَكة لظهور أمرهم، على أنّ ذِكره عليه السلام رمز إلى ذِكرهم.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أي: كفى ربُّك ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ يحيط بظواهرها وبواطنها فيُعاقب عليها، وتقديمُ "الخبير" لتقدُّم متعلَّقه مِن الاعتقادات والنيّات التي هي مبادي الأعمال الظاهرة، أو لعمومه حيث يتعلّق بغير المُبصَرات أيضًا. وفيه إشارة إلى أنّ البعث والأمر وما يتلوهما مِن فِسقهم ليس لتحصيل العِلم بما صدر عنهم مِن الذنوب، فإنّ ذلك حاصل قبل ذلك، وإنّما هو لقَطْع الأعذار وإلزامِ الحُجّة مِن كلّ وجه.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾﴾

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله التي يعمَلها، سواء كان ترتُّب المراد عليها بطريق الجزاءِ كأعمال البِرّ، أو بطريق ترتُّبِ المعلولات على العِلَل كالأسباب، أو بأعمال الآخرة، فالمراد بـ"المريد" على الأوّل الكفَرة وأكثر الفَسَقة، وعلى الثاني أهلُ الرياء والنفاق والمهاجِرُ للدنيا والمجاهدُ لمَحْض الغنيمة.

﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ فقط مِن غير أن يريد معها الآخرةَ كما ينبئ عنها الاستمرار المستفاد مِن زيادة ﴿كَانَ﴾ ههنا مع الاقتصار على مطلق الإرادة في قسيمه، / والمراد بـ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ الدار الدنيا، وبـ"إرادتها" إرادةُ ما فيها مِن فنون مطالبها، [٣٦٦ظ]
كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الشورى، ٢٠/٤٢].

ويجوز أن يراد الحياة العاجلة، كقوله عزّ وجلّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود، ١٥/١١] لكنّ الأوّل أنسب بقوله تعالى: ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي:

---

١ لم أجده في مظانّه. وهو في الفائق للزمخشري، ١٧٢/٣؛ والنهاية لابن الأثير، ٥١/٤.

في تلك العاجلة، فإنّ الحياة واستمرارها مِن جملة ما عُجّل له، فالأنسبُ بذلك كلمة "مِن" كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران، ١٤٥/٣].

﴿مَا نَشَآءُ﴾ أي: ما نشاء تعجيله له مِن نعيمها لا كلَّ ما يريد. ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ تعجيلَ ما نشاء له، وهو بدل مِن الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ بإعادة الجارّ بدلَ البعض، فإنّه راجع إلى الموصول المنبئ عن الكثرة، وقرئ: "لِمَنْ يَشَاءُ"[١] على أنّ الضميرَ لله سبحانه، وقيل: هو لـ﴿مَن﴾ فيكون مخصوصًا بمَن أراد به ذلك، وهو واحد مِن الدَّهماء.[٢]

وتقييد المعجَّل والمعجَّل له بما ذُكر مِن المشيئة والإرادة لِما أنّ الحِكمة التي عليها يدور فلَك التكوين لا يقتضي وصول كلّ طالب إلى مَرامه ولا استيفاءَ كلّ واصل لِما يطلُبه بتمامه، وأمّا ما يتراءى مِن قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود، ١٥/١١] مِن نَيل كلّ مؤمِّل لجميع آماله ووصولِ كلّ عامل إلى نتيجة أعماله، فقد أشيرَ إلى تحقيق القول فيه في سورة هود بفضل الله تعالى.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ مكانَ ما عجّلنا له ﴿جَهَنَّمَ﴾ وما فيها مِن أصناف العذاب ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يدخُلها، وهو حال مِن الضمير المجرور، أو مِن جهنّم، أو استئناف، ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مِن رحمة الله تعالى. وقيل: الآية في المنافقين كانوا يُراءون المسلمين ويغزون معهم، ولم يكن غرضهم إلّا مساهمتَهم في الغنائم ونحوها.[٣] ويأباه ما يقال: إنّ السورة مكّيّة سوى آياتٍ معيَّنة.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

﴿وَمَنْ أَرَادَ﴾ بأعماله ﴿ٱلْءَاخِرَةَ﴾ الدارَ الآخرة وما فيها مِن النعيم المقيم ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: السعيَ اللائق بها، وهو الإتيان بما أُمر والانتهاء عما نُهي،

---

[١] ما وقفتُ عليها فيما بين يديّ من كتب التفسير والقراءات. وفيها قراءة قريبة: "ما يَشَاءُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن سلام والزعفراني وابن المُنادي عن نافع. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٢٨.

[٢] دهماء الناس: جماعتهم وكثرتهم. لسان العرب لابن منظور، «دهم».

[٣] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩٦/٢.

[٣٦٧و] لا التقرّبُ بما يخترعون بآرائهم. وفائدةُ "اللام" اعتبار النيّة والإخلاص. / ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيمانًا صحيحًا لا يخالطه شيء قادح فيه. وإيراد الإيمان بالجملة الحاليّة للدلالة على اشتراط مقارنته لِما ذُكر في حيّز الصلة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول بعنوان اتّصافه بما في حيّز الصلة، وما في ذلك مِن معنى البعد للإشعار بعُلوّ درجتهم وبُعد منزلتهم، والجمعيّةُ لمراعاة جانب المعنى إيماءً إلى أنّ الإثابة المفهومة مِن الخبر تقع على وجه الاجتماع، أي: أولئك الجامعون لِما مرّ مِن الخِصال الحميدة، أعني إرادة الآخرة والسعيَ الجميل لها والإيمان، ﴿كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ مقبولًا عند الله تعالى بحسن القَبول مُثابًا عليه، وفي تعليق المشكوريّة بالسعي دون قرينَيه إشعارٌ بأنّه العمدةُ فيها.

﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ۝٢٠﴾

﴿كُلّٗا﴾ التنوين عِوَض عن المضاف إليه، أي: كلَّ واحد مِن الفريقين لا الفريقِ الأخير المريد للخير الحقيقِ بالإسعاف فقط، ﴿نُّمِدُّ﴾ أي: نزيد مرّة بعد مرّة[١] بحيث يكون الآنِفُ مدَدًا للسالف، وما به الإمداد ما عُجّل لأحدهما مِن العطايا العاجلة وما أُعِدّ للآخر مِن العطايا الآجلة المشار إليها بمشكوريّة السعي، وإنّما لم يُصرِّح به تعويلًا على ما سبَق تصريحًا وتلويحًا واتّكالًا على ما لحِق عبارة وإشارة، كما ستقف عليه.

وقوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل مِن ﴿كُلّٗا﴾، ﴿وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ عطفٌ عليه، أي: نُمدّ هؤلاء المعجَّلَ لهم وهؤلاء المشكورَ سعيُهم، فإنّ الإشارة متعرِّضة لذات المشار إليه بما له مِن العنوان لا للذات فقط كالإضمار، ففيه تذكيرٌ لِما به الإمداد وتعيين للمضاف إليه المحذوف دفعًا لتوهُّم كونه أفرادَ الفريق الأخير، وتأكيدٌ للقصر المستفاد مِن تقديم المفعول. وقوله تعالى: ﴿مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: مِن معطاه الواسع الذي لا تناهيَ له، متعلقٌ بـ﴿نُّمِدُّ﴾ ومُغنٍ عن ذِكر ما به الإمداد

---

[١] س: أخرى.

ومنبِّهٌ على أنّ الإمداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعي والعمل؛ بل بمَحْض التفضّل.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ أي: دُنيويًّا كان أو أخرويًّا، وإنّما أُظهر إظهارًا لمزيد الاعتناء بشأنه وإشعارًا بعلّيّته للحُكم، ﴿مَحْظُورًا﴾ ممنوعًا ممّن يريده؛ بل هو فائض على مَن قُدِّر له بموجَب المشيئة المبنيّة على الحكمة وإن وُجد منه ما يقتضي الحَظْر كالكافر، وهو في معنى التعليل لشمول الإمداد للفريقين. والتعرّض لعنوان الربوبيّة / في الموضعين للإشعار بمبدئيّتها لِما ذُكر مِن الإمداد وعدمِ الحَظْر. [٣٦٧ظ]

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كيف في محلّ النصب بـ﴿فَضَّلْنَا﴾ على الحاليّة، والمرادُ توضيح ما مرّ مِن الإمداد وعدمِ محظوريّة العطاء بالتنبيه على استحضار مراتبِ أحد العطاءين والاستدلالِ بها على مراتب الآخر، أي: انظر بنظَر الاعتبار كيف فضّلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم به مِن العطايا العاجلة، فمِن وضيع ورفيع وظالع وضليع ومالك ومملوك ومُوسِر وصُعلوك تعرِفُ بذلك مراتبَ العطايا الآجلةِ ودرجاتِ تفاضل أهلِها على طريقة الاستشهاد بحال الأدنى على حال الأعلى، كما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ أي: هي وما فيها أكبرُ مِن الدنيا، وقرئ: "أكثرُ"[١] ﴿دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ لأنّ التفاوت فيها بالجنّة ودرجاتها العالية التي لا يقادر قَدْرها ولا يُكتنَه كُنهها، كيف لا، وقد عُبِّر عنه بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطَر على قلب بشر.

هذا، ويجوز أن يُراد بما به الإمداد العطايا العاجلة فقط، ويُحمَل القَصْر المذكور على دَفْع توهّم اختصاصها بالفريق الأوّل، فإنّ تخصيص إرادتهم لها ووصولهم إليها بالذِّكر مِن غير تعرّض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثاني إرادة ووصولًا ممّا يُوهِم اختصاصها بالأوّلين، فالمعنى: كلُّ واحد مِن الفريقين

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أحمدَ بن أبي معاذ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٩.

نُمِدّ بالعطايا العاجلة -لا مَن ذكرنا إرادتَه لها فقط مِن الفريق الأوّل- مِن عطاء ربّك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوي محظورًا مِن أحد ممّن يريده وممّن يريد غيره.[1] انظر كيف فضّلنا في ذلك العطاء بعضَ كلّ مِن الفريقين على بعض آخرَ منهما وللآخِرةُ... الآية.

واعتبارُ عدم المحظوريّة بالنسبة إلى الفريق الأوّل تحقيقًا لشمول الإمداد له، كما فعله الجمهور حيث قالوا: "لا يمنعه مِن عاصٍ لعصيانه"، يقتضي كون القَصْر لدَفْع توهّم اختصاص الإمداد الدنيوي بالفريق الثاني، مع أنّه لم يسبِق في الكلام ما يُوهِم ثبوتَه له فضلًا عن إيهام اختصاصه به.[2]

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

[٣٦٨و] ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ / الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم. والمراد به أُمّته، وهو مِن باب التهييج والإلهاب، أو لكلّ أحد ممّن يصلح للخطاب، ﴿فَتَقْعُدَ﴾ بالنصب جوابًا للنهي. والقعود بمعنى الصيرورة مِن قولهم: "شحَذ الشفرةَ حتّى قعَدتْ كأنّها حَرْبة"، أو بمعنى العَجْز، مِن "قعَد عنه"، أي: عجز عنه، ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ خبران أو حالان، أي: جامعًا على نفسك الذمَّ مِن الملائكة والمؤمنين والخِذلانَ مِن الله تعالى، وفيه إشعارٌ بأنّ الموحِّد جامع بين المدح والنُّصرة.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: أمَر أمرًا مُبرمًا، وقُرئ: "وَأَوْصَى رَبُّكَ"[3] و"وَصَّى رَبُّكَ"[4] ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أي: بألّا تعبدوا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ على أنّ "أن" مصدريّة و"لا" نافية،

---

[1] وفي هامش م: أي الآخرة.

[2] ط س - به. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ بن أبي طالب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٢٨-١١٢٩.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود وأصحابه وأُبيّ والضحّاك وإبراهيم النخَعي وسعيد بن جُبير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٢٨.

أو أي: لا تعبدوا، على أنّها مُفسِّرةٌ و"لا" ناهية؛ لأنّ العبادة غاية التعظيم فلا تحِقُّ إلّا لمَن له غاية العظمة ونهايةُ الإنعام، وهو كالتفصيل للسعي للآخرة. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ أي: وبأن تُحسِنوا[1] بهما، أو وأحسنوا[2] بهما ﴿إِحْسَٰنًا﴾ لأنّهما السبب الظاهر للوجود والتعيّش.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إمّا مركَّبة مِن "إن" الشرطيّة و"ما" المَزيدة لتأكيدها ولذلك دخَل الفعلَ نونُ التأكيد، ومعنى ﴿عِندَكَ﴾ في كنفك وكفالتك، وتقديمُه على المفعول مع أنّ حقّه التأخّر عنه للتشويق إلى وروده، فإنّ مدار تضاعُف الرعاية الإحسانُ، و﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف والمفعول لئلّا يطول الكلام به وبما عُطف عليه. وقُرئ: "يَبْلُغَانِّ"،[3] فـ﴿أَحَدُهُمَا﴾ بدل مِن ضمير التثنية و﴿كِلَاهُمَا﴾ عطفٌ عليه، ولا سبيلَ إلى جَعْل ﴿كِلَاهُمَا﴾ تأكيدًا للضمير. وتوحيدُ ضمير الخطاب في ﴿عِندَكَ﴾ وفيما بعده -مع أنّ ما سبق على الجمع- للاحتراز عن التباس المراد، فإنّ المقصود نهيُ كلّ أحد عن تأفيف والديه ونهْرِهما، ولو قُوبل الجمع بالجمع، أو بالتثنية لم يحصُل هذا المَرام.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا﴾ أي: لواحد منهما حالتَي الانفراد والاجتماع: / ﴿أُفٍّ﴾ وهو صوت ينبئ عن تضجُّر، أو اسمُ فعل هو "أتضجَّرُ"، وقُرئ بالكسر بلا تنوين[4] وبالفتح[5] والضمّ منوّنًا[6] وغيرَ مُنوّن،[7] أي: لا تتضجَّرْ بما تستقذِر منهما وتستثقِل مِن مُؤَنهما، وبهذا النهي يُفهَم النهيُ عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النصّ. وقد خُصّ بالذِّكر بعضُه إظهارًا للاعتناء بشأنه فقيل: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تزجُرهما عمّا لا يعجِبك بإغلاظ. قيل: النهيُ والنهرُ والنهْمُ أخواتٌ.[8] [٣٦٨ظ]

---

١ وفي هامش م: على الأوّل.

٢ وفي هامش م: على الثاني.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

٤ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

٥ قرأ بالفتح من غير تنوين ابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢-٣٠٧. والفتح مع التنوين قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وحُميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة واليماني. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٣٠.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩.

٨ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٤/٢.

﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدلَ التأفيف والنهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ذا كرَم، أو هو وصف له بوصف صاحبه، أي: قولًا صادرًا عن كرَم ولطف، وهو القول الجميلُ الذي يقتضيه حُسن الأدب ويستدعيه النزول على المروءة، مثل أن يقول: "يا أبتاه" و"يا أمّاه"، كدأب إبراهيمَ عليه السلام إذ قال لأبيه: "يا أبتِ" مع ما به مِن الكفر، ولا يدعوهما بأسمائهما فإنّه مِن الجفاء وسوء الأدب وديدنِ الدُعّار.[١]

وسئل الفُضَيل بن عِياض عن برّ الوالدين فقال: ألّا تقوم إلى خدمتهما عن كسَل. وقيل: ألّا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظُر إليهما شزْرًا، ولا يَرَيا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن، وأن تترحّم عليهما ما عاشا وتدعوَ لهما إذا ماتا، وتقومَ بخدمة أوِدّائهما مِن بعدهما،[٢] فعن النبي صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ مِن أَبَرّ البِرّ أن يصِل الرجُل أهل ودِّ أبيه».[٣]

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ عبارة عن إلانة الجانب والتواضعِ والتذلُّل لهما، فإنّ إعزازهما لا يكون إلّا بذلك فكأنّه قيل: واخفض لهما جناحَك الذليل، أو جُعل لذُلّه جَناح، كما جَعل لبيدٌ في قوله:

وغداةِ ريح قد كشفْتُ وقِرّةٍ   إذ أصبحتْ بيد الشَّمال زمامُها[٤]

للقِرّة[٥] زِمامًا وللشَّمال يدًا، تشبيهًا له بطائر يخفِض جناحه لأفراخه تربية لها وشفقة عليها، وأمّا جعلُ خَفْض الجناح عبارةً عن ترك الطيران كما فعله القفّال[٦] فلا يناسب المقام.

---

١ الدُّعّار جمع داعر: وهو الخبيث المُفسِد. لسان العرب لابن منظور، «دعر».

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٦.

٣ مسند أحمد، ٩/٤٣٥ (٥٦١٢)؛ صحيح مسلم، ٤/١٩٧٩ (٢٥٥٢)؛ سنن أبي داود، ٧/٤٥٦ (٥١٤٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٦.

٤ البيت للبيد بن ربيعة في ديوانه ٣١٥. وهو له في أسرار البلاغة للجرجاني، ص ٤٥، وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٩٨، على ما نحن فيه.

٥ القِرّة والقُرّ: البرد، أو هي ما أصاب الإنسان وغيرَه من البرد. لسان العرب لابن منظور، «قرر».

٦ قوله في تفسير الرازي، ٢٠/٣٢٦، واللباب لابن عادل، ١٢/٢٥٩.

﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ مِن فَرْط رحمتك وعطفك عليهما / ورِقّتك لهما، لافتقارهما اليوم إلى مَن كان أفقَر خَلْق الله تعالى إليهما، ولا تكتفِ برحمتك الفانية؛ بل ادعُ الله تعالى لهما برحمته الواسعة الباقية. [٣٦٩و]

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ برحمتك الدنيويّة والأخرويّة التي مِن جملتها الهداية إلى الإسلام، فلا ينافي ذلك كفرَهما.

﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ "الكاف" في محلّ النصب على أنّه نعت لمصدر محذوف، أي: رحمة مِثلَ تربيتهما لي،[1] أو مِثلَ رحمتهما لي،[2] على أنّ التربية رحمة. ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معًا، وقد ذُكر أحدُهما في أحد الجانبين والآخرُ في الآخر كما يُلوّح به التعرّض لعنوان الربوبيّة في مطلَع الدعاء، كأنّه قيل: ربّ ارحمهما وربّهما كما رحِماني وربّياني ﴿صَغِيرٗا﴾. ويجوز أن يكون "الكاف" للتعليل، أي: لأجل تربيتهما لي كقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة، ١٩٨/٢].

ولقد بالغ عزّ وجلّ في التوصية بهما حيثُ افتتحها بأن شفَع الإحسانَ إليهما بتوحيده سبحانه ونظمَهما في سِلك القضاء بهما معًا، ثمّ ضيّق الأمر في باب مراعاتهما حتّى لم يرخِّص في أدنى كلمة تنفلِت مِن المتضجِّر مع ما له مِن موجبات الضجر ما لا يكاد يدخل تحت الحصر، وختمَها بأن جعل رحمتَه التي وسعت كلَّ شيء مُشبّهة بتربيتهما.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رِضا الله في رضا الوالدين وسخطُه في سخطهما»،[3] ورُوي «يفعل البارُّ ما يشاء أن يفعل فلن يدخُل النارَ، ويفعل العاقُّ ما يشاء أن يفعَل فلن يدخُل الجنّة»،[4] وقال رجل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

---

١ وفي هامش م: ابن عطيّة. | انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة ٤٤٩/٣.

٢ وفي هامش م: أبو البقاء. | انظر: التبيان للعُكبري، ٨١٨/٢.

٣ هو بلفظ «رضا الربّ في رضا الوالد، وسخط الربّ في سخط الوالد» في الأدب المفرد، ص ١٤ (٢)؛ وسنن الترمذي، ٣١٠/٤ (١٨٩٩)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٢٤٧/١٠ (٧٤٤٧)، وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٥/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٦٣/٢-٢٦٤.

٤ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٦/١٦، وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٥/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٦٤/٢.

إنّ أبوَيَّ بلغا مِن الكِبَر أنّي ألي منهما ما وَليا منّي في الصغر، فهل قضيتُهما حقّهما؟ قال: «لا؛ فإنّهما كانا يفعلان ذلك وهما يُحبّان بقاءَك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما»،[1] ورُوي أن شيخًا أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: إنّ ابني هذا له مال كثير وإنّه لا ينفق عليَّ مِن ماله، فنزل جبريلُ عليه السلام [٣٦٩ظ] وقال: إنّ هذا الشيخ / قد أنشأ في ابنه أبياتًا ما قُرع سَمْع بمثلها، فاستنشَدها فأنشدها الشيخَ فقال:

غذوتُك مولودًا ومُنْتُك يافعًا ... تُعَلُّ بما أحنى عليك وتنهلُ
إذا ليلةٌ ضافتْك بالسُّقم لم أبِتْ ... لسُقمِك إلّا باكيًا أتململُ
كأنّي أنا المطروق دونك بالذي ... طُرِقَتْ به دوني وعينيَ تَهمُلُ
فلمّا بلغتَ السنَّ والغايةَ التي ... إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمِّلُ
جعلتَ جزائي غِلظةً وفظاظةً ... كأنّك أنتَ المُنعِم المتفضِّلُ
فليتَكَ إذ لم ترعَ حقَّ أُبوّتي ... فعلتَ كما الجارُ المجاوِر يفعَلُ[2]

فغضب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال: «أنتَ ومالُكَ لأبيك».[3]

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥﴾

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ مِن البرّ والعُقوق ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ قاصدين الصلاح والبِرّ دون العقوق والفساد ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ﴾ أي: الرجّاعين إليه تعالى عمّا فرَط منهم ممّا لا يكاد يخلو عنه البشر ﴿غَفُورٗا﴾ لِما وقَع منهم مِن نوع تقصير أو أذيّة فعليّة أو قوليّة. وفيه ما لا يخفى مِن التشديد في الأمر بمراعاة حقوقهما، ويجوز أن يكون عامًّا لكلّ تائب ويدخُل فيه الجاني على أبويه دخولًا أوّليًّا.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٥/٢. ولم أجده في مظانّه.

٢ الأبيات في المعجم الصغير للطبراني، ١٥٢/٢ (٩٤٧). وهي لأميّة بن أبي الصلت في ديوانه، ص ٤٣٠-٤٣١؛ وشرح الحماسة للمرزوقي، ص٧٥٣-٧٥٤؛ والدُّرّ الفريد لابن آيدمر، ١٤٩/٣.

٣ المصنَّف لابن أبي شيبة، ٥١٧/٤ (٢٢٧٠٠)؛ مسند أحمد، ٥٠٣/١١ (٦٩٠٢)؛ سنن ابن ماجه، ٣٩١/٣ (٢٢٩١).

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: ذا القرابة ﴿حَقَّهُۥ﴾ توصيةٌ بالأقارب إثرَ التوصية ببرّ الوالدين، ولعلّ المرادَ بهم المحارم وبحقّهم النفقة، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فإنّ المأمورَ به في حقّهما المواساة الماليّة لا محالةَ، أي: وآتِهما حقَّهما ممّا كان مفترَضًا بمكّةَ بمنزلة الزكاة، وكذا النهيُ عن التبذير وعن الإفراط في القبض والبسط، فإنّ الكلّ مِن التصرُّفات الماليّة.

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ نهيٌ عن صَرْف المال إلى مَن سواهم ممّن لا يستحقّه، فإنّ التبذير تفريق في غير موضعه، مأخوذ مِن تفريق حبّات وإلقائها كيفما كان مِن غير تعهُّد لمواقعه، لا عن الإكثار في صَرْفه إليهم وإلّا لناسَبه الإسراف الذي هو / تجاوُز الحدّ في صَرْفه، وقد نُهي عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ [٣٧٠و] [الإسراء، ١٧/٢٩]، وكلاهما مذموم.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تعليل للنهي عن التبذير ببيان أنّه يجعل صاحبه ملزوزًا في قَرَن الشياطين، والمراد بـ"الأخوّة": المماثلة التامّة في كلّ ما لا خيرَ فيه مِن صفات السوء التي مِن جملتها التبذير، أي: كانوا بما فعلوا مِن التبذير أمثالَ الشياطين؛ أو الصداقةُ والملازمة، أي: كانوا أصدقاءهم وأتباعهم فيما ذُكر مِن التبذير والصرفِ في المعاصي، فإنّهم كانوا ينحَرون الإبل ويتياسَرون عليها، ويبذّرون أموالَهم في السُّمعة وسائر ما لا خيرَ فيه مِن المَناهي والمَلاهي؛ أو المقارنةُ، أي: قرناءَهم في النار على سبيل الوعيد.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ مِن تتمّة التعليل، أي: مبالِغًا في كفران نِعَمه تعالى؛ لأنّ شأنه أن يصرِف جميع ما أعطاه الله تعالى مِن القُوى والقُدَر إلى غير ما خُلقت هي له مِن أنواع المعاصي والإفساد في الأرض، وإضلالِ الناس وحَمْلِهم على الكفر بالله وكفران نِعَمه الفائضة عليهم وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به. وتخصيص هذا الوصف بالذِّكر مِن بين سائر أوصافه القبيحة

للإيذان بأنّ التبذير الذي هو عبارة عن صَرْف نِعَم الله تعالى إلى غير مَصرِفها مِن باب الكفران المقابل للشكر الذي هو عبارة عن صَرْفها إلى ما خُلقت هي له. والتعرّض لوصف الربوبيّة للإشعار بكمال عُتوّه، فإنّ كفران نعمة الربّ مع كون الربوبيّة مِن أقوى الدواعي إلى شُكرها غاية الكُفران ونهايةُ الضلال والطغيان.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي: إن اعتراك أمر اضطَرّك إلى أن تُعرِض عن أولئك المستحقّين ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: لفَقْد رزق مِن ربّك، إقامةٌ للمسبَّب مُقام السبب، فإنّ الفقد سبب للابتغاء، ﴿تَرْجُوهَا﴾ مِن الله تعالى لتُعطيَهم، وكان صلّى الله عليه وسلّم إذا سُئل شيئًا وليس عنده أعرَض عن السائل وسكَت حياء، فأُمر بتعهُّدهم بالقول الجميل لئلّا يعتريَهم الوَحشة بسكوته عليه السلام، فقيل: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ / سهلًا ليّنًا وعِدْهم وعدًا جميلًا، مِن "يُسِر الأمرُ" نحو "سُعِد"، [٣٧٠ظ]
أو قل لهم: رزَقَنا الله وإيّاكم مِن فضله على أنّه دعاء لهم ييسِّر عليهم فَقْرهم.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ تمثيلان لمنع الشحيح وإسرافِ المبذِّر زجرًا لهما عنهما وحَمْلًا على ما بينهما مِن الاقتصاد:

كلا طَرفَي قَصْدِ الأمور ذميمُ[١]

وحيث كان قُبح الشحّ مقارنًا له معلومًا مِن أوّل الأمر رُوعيَ ذلك في التصوير بأقبح الصور؛ ولمّا كان غائلة الإسراف في آخره بُيّن قُبحُه في إثره فقيل: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ أي: فتصيرَ ملومًا عند الله تعالى وعند الناس وعند نفسك إذا احتجتَ وندِمتَ على ما فعلتَ ﴿مَّحْسُورًا﴾ نادمًا أو منقطَعًا بك لا شيءَ عندك، مِن "حسَره السَّفَرُ" إذا بلغ منه.

---

[١] عجز بيت، صدره:

ولا تكُ فيها مُفرِطًا أو مُفرِّطًا

وما عرفت قائله. وهو بلا نسبة في **النهاية** لابن الأثير، ٣٨٢/٣؛ **وشرح الرضيّ على الكافية** ٣٤١/١؛ **وخزانة الأدب** للبغدادي، ١٢٢/٢.

وما قيل مِن أنّه رُويَ عن جابر رضيَ الله عنه أنّه قال: بينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قاعدٌ إذ أتاه صبيّ فقال: «إنّ أمّي تستكْسِيك دِرعًا»، فقال عليه السلام: «مِن ساعة إلى ساعة فَعُد إلينا»،[١] فذهب إلى أمّه فقالت له: «قل: إنّ أمّي تستكْسِيك الدرعَ الذي عليك»، فدخل عليه السلام داره ونزَع قميصه وأعطاه وقعد عُرْيانًا، وأذّن بلال، وانتظروا فلم يخرُج للصلاة، فنزلت، فيأباه[٢] أنّ السورة مَكّيّة خلا آياتٍ في آخرها. وكذا ما قيل إنّه عليه السلام أعطى الأقرع بن حابس مائة مِن الإبل، وكذا عُيَينةَ بن حِصْن الفزاريَّ فجاء عبّاسُ بن مِرداس فأنشأ يقول:

أتـجـعَـل نَـهـبي ونـهـبَ الـعُـبَيـ ـد بـيـن عُـيَـيـنـةَ والأقـرَعِ
ومـا كـان حِـصْـنٌ ولا حـابسٌ يـفـوقـان مِـرداسَ فـي مَـجـمَـعِ
ومـا كـنـتُ دون امـرئ منهما ومَـن تَـضَـعِ الـيـومَ لا يُـرفـعِ[٣]

فقال عليه السلام: «يا أبا بكر اقطعْ لسانه عنّي، أعطِه مائة مِن الإبل»،[٤] وكانوا جميعًا مِن المؤلّفة القلوب، فنزلت.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ۝٣٠ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـٔٗا كَبِيرٗا ۝٣١﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ تعليل لِما مرّ، أي: يوسّعه على بعض ويضيّقه / على آخرين، حسبما يتعلّق به مشيئتُه التابعة للحِكمة، فليس ما [٣٧١و] يَرْهقُك مِن الإضافة التي تُحوِجُك إلى الإعراض عن السائلين أو نفاد ما في يدك إذا بسطتها كلّ البسط إلّا لمصلحتك.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ تعليل لِما سبَق، أي: يعلم سِرَّهم وعلَنَهم فيعلم مِن مصالحهم ما يخفى عليهم. ويجوز أن يراد أنّ البسط والقبض مِن أمر الله العالم بالسرائر والظواهر الذي بيده خزائنُ السماوات والأرض، فأمّا العبادُ

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٥/١٦؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٩٤-٢٩٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ٩٠/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٢.

٢ السياق: وما قيل... فيأباه...

٣ الأبيات في ديوان العبّاس بن مِرداس السُّلمي، ص ١١١-١١٢، وفيه «فأصبح» مكان «أتجعل»؛ وهي له في صحيح مسلم، ٧٣٧/٢ (١٠٦٠)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٢.

٤ بمعناه في صحيح مسلم، ٧٣٧/٢ (١٠٦٠)، وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٢.

فعليهم أن يقتصدوا، وأن يُراد أنّه تعالى يبسُط تارةً ويقبِض أخرى، فاستنُّوا بسنّته، فلا تقبِضوا كلَّ القبض ولا تبسُطوا كلَّ البسط، وأن يُراد أنّه تعالى يبسُط ويقدِر حسب مشيئتِه فلا تبسُطوا على مَن قُدِر عليه رزقه، وأن يكون تمهيدًا لقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: مخافةَ فقْر، وقرئ بكسر الخاء،[١] كانوا يئِدون بناتِهم مخافة الفقر فنُهوا عن ذلك.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ لا أنتم، فلا تخافوا الفاقة بناء على عِلمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم، وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهي المذكور بإبطال موجبه في زعمهم. وتقديم ضمير الأولاد على المخاطَبين على عكس ما وقع في سورة الأنعام للإشعار بأصالتهم في إفاضة الرزق، أو لأنّ الباعث على القتل هناك الإملاق الناجز، ولذلك قيل: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام، ١٥١/٦]، وههنا الإملاقُ المتوقَّع، ولذلك قيل: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾، فكأنّه قيل: نرزقُهم مِن غير أن يُنتقَص مِن رزقكم شيءٌ فيعتريكم ما تخشَونه وإيّاكم أيضًا رزقًا إلى رزقكم.

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ تعليل آخرُ ببيان أنّ المَنهي عنه في نفسه مُنكَر عظيم. والخِطءُ: الذنب والإثم يقال: "خطِئ خِطئًا" كـ"أثِم إثمًا"، وقرئ بالفتح والسكون[٢] وبفتحتين[٣] بمعناه كـ"الحِذْر" و"الحَذَر". وقيل: بمعنى ضدّ الصواب، وبكسر الخاء والمدّ،[٤] وبفتحها ممدودًا،[٥] وبفتحها وحذف الهمزة[٦] وبكسرها كذلك.[٧]

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ٣٢﴾

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ بمباشرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلًا عن مباشرته، وإنّما نهى عن قُربانه على خلاف ما سبَق ولحِق مِن القتل للمبالغة في النهي عن نفسه،

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعُبيد بن عُمير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٢.

٣ قرأ بها أبو جعفر وابن ذكوان وهشام بخلاف. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

٤ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والعمري وشيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٠.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد والزُّهري. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٢.

ولأنّ قُربانه داعٍ إلى مباشرته. / وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قَتْل الأولاد [٣٧١ظ]
والنهي عن قَتْل النفس المحرّمة على الإطلاق باعتبار أنّه قَتْل للأولاد لِما أنّه تضييع للأنساب، فإنّ مَن لم يثبُتْ نسبُه ميّت حُكمًا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ فَعلةً ظاهرةَ القبح متجاوِزةً عن الحدّ، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: بئس طريقًا طريقُه، فإنّه غَضب الأبضاع المؤدّي إلى اختلال أمر الأنساب وهيَجان الفِتَن، كيف لا، وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا زنى العبد خرَج منه الإيمان فكان على رأسه كالظُّلّة فإذا انقطع رجَع إليه»،[١] وقال عليه السلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمِن»،[٢] وعن حذيفةَ رضي الله عنه أنّه قال عليه السلام: «إيّاكم والزِّنا فإنّ فيه ستَّ خصال، ثلاثٌ في الدنيا وثلاثٌ في الآخرة، فأمّا التي في الدنيا فذهاب البهاء ودوامُ الفقر وقِصَرُ العمر، وأمّا التي في الآخرة فسخط الله تعالى وسوءُ الحساب والخلودُ في النار».[٣]

﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣﴾

﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قَتْلها بأن عصَمها بالإسلام أو بالعهد ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلّا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزِنًا بعد إحصان، وقَتْل نفس معصومة عمدًا، فالاستثناءُ مفرَّغ، أي: لا تقتلوها بسبب مِن الأسباب إلّا بسبب الحقّ أو ملتبِسين أو ملتبِسةً بشيء مِن الأشياء، ويجوز أن يكون نعتًا لمصدر محذوف، أي: لا تقتلوها قتلًا ما إلّا قتلًا متلبِسًا بالحقّ.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير حقّ يوجب قَتْله أو يُبيحه للقاتل حتّى إنّه لا يُعتبر إباحتُه لغير القاتل، فإنّ مَن عليه القصاص إذا قتَله غير مَن له القصاص يُقتصّ له، ولا يفيده قول الوليّ: "أنا أمرتُه بذلك" ما لم يكن الأمر ظاهرًا.

---

١ سنن الترمذي، ١٥/٥ (٢٦٢٥)؛ المستدرك للحاكم، ٧٢/١ (٥٦).

٢ مسند أحمد، ٢٦٩/١٢ (٧٣١٨)؛ صحيح البخاري، ١٣٦/٣ (٢٤٧٥)؛ صحيح مسلم، ٧٦/١ (١٠٠).

٣ شعب الإيمان للبيهقي، ٣٣٢/٧ (٥٠٩١)؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ١٢٨/٣ (المائدة، ٨٠/٥).

﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ لمَن يلي أمره مِن الوارث، أو السلطان عند عدم الوارث ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ تسلّطًا واستيلاء على القاتل يؤاخِذه بالقصاص أو بالدِّية حسبما يقتضيه جنايتُه، أو حجّةً غالبة.

﴿فَلَا يُسۡرِف﴾ وقرئ: "لَا تُسْرِفْ"[١] ﴿فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ أي: لا يُسرِف الوليّ في أمر القتل بأن يتجاوز الحدّ المشروع، بأن يزيد عليه المُثْلة، أو بأن يقتُل غير القاتل مِن أقاربه، أو بأن يقتُل الاثنين مكانَ الواحد / كما يفعله أهل الجاهليّة، أو بأن [٣٧٢و]
يقتل القاتلَ في مادّة الدِّية، وقرئ بصيغة النفي[٢] مبالغةً في إفادة معنى النهي.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ تعليل للنهي، والضميرُ للوليّ على معنى أنّه تعالى نصره بأن أوجَب له القصاص أو الدِّية وأمَر الحكّام بمعونته في استيفاء حقّه، فلا يبْغِ ما وراء حقِّه ولا يستزِدْ عليه ولا يخرُجْ مِن دائرة أمر الناصر أو للمقتول ظلمًا، على معنى أنّه تعالى نصَره بما ذُكر فلا يُسرِف وليُّه في شأنه، أو للذي يقتله الوليُّ ظلمًا وإسرافًا، ووجهُ التعليل ظاهر.

وعن مجاهد أنّ الضمير في ﴿لَا يُسۡرِف﴾ للقاتل الأوّل،[٣] ويعضُده قراءة "فَلَا تُسْرِفُوا"،[٤] والضميران في التعليل عائدان إلى الوليّ أو المقتول، فالمراد بالإسراف حينئذ إسراف القاتل على نفسه بتعريضه لها للهلاك العاجل والآجل لا الإسرافُ وتجاوز الحدّ في قتل،[٥] أي: لا يُسرف على نفسه في شأن القتل، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الزمر، ٣٩/٥٣].

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ نهيٌ عن قُربانه لِما ذُكر مِن المبالغة في النهي عن التعرّض له ومِن إفضاء ذلك إليه، وللتوسّل إلى الاستثناء بقوله تعالى:

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي مسلم العِجلي صاحب الدولة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٠.

٣ قوله في جامع البيان للطبري، ١٤/٥٨٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٩١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٠.

٥ ط س: القتل. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: إلّا بالخَصلة والطريقة التي هي أحسنُ الخِصال والطرائق، وهي حفظُه واستثماره ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لجواز التصرّف على الوجه الأحسن المدلول عليه بالاستثناء، لا للوجه المذكور فقط.

﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ﴾ سواء جرى بينكم وبين ربّكم أو بينكم وبين غيركم مِن الناس، والإيفاءُ بالعهد والوفاء به: هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يُستعمل إلّا بالباء فرقًا بينه وبين الإيفاء الحسّي كإيفاء الكيل والوزن.

﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ﴾ أُظهِر في مقام الإضمار إظهارًا لكمال العناية بشأنه، أو لأنّ المراد مطلق العهد المنتظِم للعهد المعهود، ﴿كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ / أي: مسئولًا عنه [٣٧٢ظ]
على حذف الجارّ وجَعْل الضمير بعد انقلابه مرفوعًا مستكِنًّا في اسم المفعول، كقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود، ١١/١٠٣] أي: مشهود فيه، ونظيرُه ما في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس، ١٠/١]، على أنّ أصله "الحكيمُ قائلُه"، فحُذف المضاف وجُعل الضمير مستكِنًّا في ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ بعد انقلابه مرفوعًا. ويجوز أن يكون تخييلًا، كأنّه يقال للعهد: لِمَ نُكِثتَ وهلّا وُفيَ بك؟ تبكيتًا للناكث، كما يقال للموءودة: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير، ٨١/٩].

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أتِمُّوه ولا تُخسِروه ﴿إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ أي: وقت كيلِكم للمشترين. وتقييد الأمر بذلك لِما أنّ التطفيف هناك يكون، وأمّا وقت الاكتيال على الناس فلا حاجةَ إلى الأمر بالتعديل، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ الآية [المطففين، ٨٣/٢].

﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾ هو القَرَسْطون، وقيل: كلّ ميزان صغيرًا كان أو كبيرًا.[١] روميٌّ معرَّب، ولا يقدح ذلك في عربيّة القرآن لانتظام المعرَّبات في سِلك الكلِم العربيّة. وقرئ بضمّ القاف.[٢]

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩٠.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: العَدْل السويّ. ولعلّ الاكتفاء باستقامته عن الأمر بإيفاء الوزن لِما أنّ عند استقامتِه لا يُتصوَّر الجَور غالبًا، بخلاف الكَيل فإنّه كثيرًا ما يقع التطفيف مع استقامة الآلة، كما أنّ الاكتفاء بإيفاء الكيل عن الأمر بتعديله لِما أنّ إيفاءه لا يُتصوَّر بدون تعديل المِكيال، وقد أُمِر بتقويمه أيضًا في قوله تعالى: ﴿أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [هود، ٨٥/١١].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيفاء الكَيل والوَزن بالميزان السويّ ﴿خَيْرٌ﴾ في الدنيا إذ هو أمانةٌ توجِب الرغبة في معاملته والذِّكرَ الجميل بين الناس، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبةً، تفعيلٌ مِن "آل" إذا رجع، والمرادُ ما يئول إليه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبعْ مِن "قفا أثرَه"، أي: تبِعه، وقرئ: "وَلَا تَقُفْ"[1] مِن "قاف أثرَه"، أي: قفاه، ومنه "القَافة" في جمع "القائف". ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تكن في اتّباع ما لا علمَ لك به / مِن قول أو فعل كمَن يتّبع مَسلَكًا لا [٣٧٣و] يدري أنّه يُوصِله إلى مقصِده. واحتجّ به مَن منَع اتّباع الظنّ. وجوابه أنّ المراد بالعِلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد مِن سند قطعيًا كان أو ظنيًا، واستعمالُه بهذا المعنى ممّا لا يُنكَر شيوعه. وقيل: إنّه مخصوص بالعقائد. وقيل: بالرمي وشهادة الزُّور.[2] ويؤيّده قوله عليه السلام: «مَن قفا مؤمنًا بما ليس فيه حبَسه الله تعالى في رَدْغة الخَبال حتّى يأتيَ بالمخرَج»،[3] ومنه قول الكُمَيت:[4]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الكلبي وإسحاق بن الحجّاج عن يحيى عن أبي بكر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٠؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٣٣.

[2] القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٠١/٢.

[3] بلفظ قريب في **مسند أحمد**، ٣٨٠/٩ (٥٥٤٤)؛ وبلفظه ههنا في **شعب الإيمان** للبيهقي، ٩٦/٩ (٦٣١٠)؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٤٩٠/٢.

[4] هو الكُميت بن زيد بن خنس الأسدي، أبو المستهلّ (ت. ١٢٦هـ/٧٤٤م). شاعر الهاشميّين مِن أهل الكوفة، مِن أعلام الشعراء في العصر الأموي، وهو عالم بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه، وهو خطيب بني أسد وفقيه الشيعة وفارس شجاع سخيّ وراميّ لم يكن في قومه أرمى منه، وقيل: كان أصمّ لا يسمع شيئًا. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ٥٦٦/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٣٣/٥.

ولا أرمي البريء بغير ذنب ولا أقفو الحواصِنَ إن رُمينا[١]

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ وقرئ بفتح "الفاء" و"الواو" المقلوبةِ مِن الهمزة عند ضمّ "الفاء".[٢] ﴿كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: كلُّ واحد مِن تلك الأعضاء، فأُجريت مُجرى العقلاء لمّا كانت مسئولة عن أحوالها شاهدةً على أصحابها. هذا وإنّ "أُولاءِ"، وإن غلب في العقلاء، لكنّه مِن حيث إنّه اسمُ جمع لـ"ذا" الذي يعُمّ القَبيلين، جاء لغيرهم أيضًا، قال:

ذُمَّ[٣] المَنازلَ بعد مَنزِلة اللِّوى والعيشَ بعد أولئك الأيّامِ[٤]

﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أي: كان كلّ مِن تلك الأعضاء مسئولًا عن نفسه، على أنّ اسم ﴿كَانَ﴾ ضمير يرجِع إلى ﴿كُلُّ﴾ وكذا الضميرُ المجرور. وقد جُوّز أن يكون الاسم ضمير القافي بطريق الالتفات، إذ الظاهرُ أن يقال: كنتَ عنه مسئولًا. وقيل: الجارُّ والمجرور في محلّ الرفع قد أُسند إليه ﴿مَسْـُٔولًا﴾[٥] معلّلًا بأنّ الجارّ والمجرور لا يلتبس بالمبتدأ، وهو السبب في مَنْع تقديم الفاعل وما يقوم مقامَه. ولكنّ النحّاس[٦] حكى الإجماعَ على عدم جواز تقديم القائم مقامَ الفاعل إذا كان جارًّا ومجرورًا.[٧] ويجوز أن يكون مِن باب الحذف على شريطة التفسير، ويُحذف الجارّ مِن المفسِّر ويعود الضمير مستكِنًّا كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود، ١١/١٠٣].

---

١ ليس في ديوانه ولا في ذيله. وهو له في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩٠؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٢٨٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجرّاح بن عبد الله العُقيلي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

٣ وفي هامش م: أمرٌ مِن "ذَمّ يذُمّ".

٤ البيت لجرير في ديوانه، ص ٩٩٠، وفيه «الأقوام» مكان «الأيّام»؛ وهو بلا نسبة في جامع البيان للطبري، ١٤/٥٩٦؛ وله في التفسير البسيط للواحدي، ١٣/٣٣٣، على ما نحن فيه.

٥ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩١.

٦ هو أحمد بن محمّد بن إسماعيل بن يونس المرادي المصري، أبو جعفر النحّاس (ت. ٣٣٨هـ/٩٥٠م). مفسّر ونحوي ولغوي وأديب مولده ووفاته بمصر، وهو مِن أهل الفضل الشائع والعلم الذائع. زار العراق واجتمع بعلمائه، وكان يناقش أهل العلم فيما أشكل عليه في مصنّفاته. وكان الناس يحبّون الأخذ عنه وانتفع به خلق كثير، مِن مصنّفاته المطبوعة: إعراب القرآن، ومعاني القرآن الكريم، وتفسير أبيات سيبويه، وشرح القصائد التسع، والقطع والائتناف، وأدب الكتّاب، وغيرها. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ١/٣٦٢؛ والأعلام للزركلي ١/٢٠٨.

٧ نقله ابن عادل في اللباب، ١٢/٢٨٥.

وجُوّز أن يكون ﴿مَسْـُٔولًا﴾ مُسنَدًا إلى المصدر المدلول عليه بالفعل،[١] وأن [٣٧٣ظ] يكون فاعله المصدرَ وهو "السؤال" و﴿عَنْهُ﴾ / في محلّ النصب. وسأل ابن جنّي أبا عليّ عن قولهم: "فيك يُرغَب"، وقال: لا يرتفع بما بعده، فأين المرفوع؟ فقال: المصدرُ، أي: فيك يُرغَب الرَّغَبُ،[٢] بمعنى: يُفعَل الرغبةُ، كما في قولهم: "يُعطي ويمنع"، أي: يفعَل الإعطاءَ والمنعَ. وجُوّز أن يكون اسمُ ﴿كَانَ﴾ أو فاعلُه ضميرَ ﴿كُلُّ﴾ بحذف المضاف، أي: كان صاحبه عنه مسئولًا أو مسئولًا صاحبُه.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التقييد لزيادة التقرير والإشعار بأنّ المشيَ عليها ممّا لا يليق بالمرَح. ﴿مَرَحًا﴾ تكبّرًا وبطَرًا واختيالًا، وهو مصدر وقَع موقعَ الحال، أي: ذا مرح، أو تمرَح مرَحًا، أو لأجل المرَح، وقرئ بالكسر.[٣]

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ تعليل للنهي، وفيه تهكُّم بالمختال وإيذانٌ بأنّ ذلك مفاخرة مع الأرض وتكبُّر عليها، أي: لن تخرِق الأرض بدَوسك وشدّة وطأتك، وقرئ بضمّ الراء.[٤] ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ﴾ التي هي بعض أجزاء الأرض ﴿طُولًا﴾ حتّى يمكن لك أن تتكبَّر عليها، إذ التكبّرُ إنّما يكون بكثرة القوّة وعِظَم الجثّة، وكلاهما مفقود، وفيه تعريضٌ بما عليه المختال مِن رَفْع رأسه ومشيه على صدور قدميه.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما عُلم في تضاعيف ذِكر الأوامر والنواهي مِن الخِصال الخمس والعشرين. ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ الذي نُهيَ عنه وهي اثنتا عشرة خَصلة، ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ مبغَضًا غيرَ مَرضيّ، أو غيرَ مراد بالإرادة الأوّليّة، لا غيرَ مرادٍ مطلقًا لقيام الأدلّة القاطعة على أنّ جميع الأشياء واقعة بإرادته سبحانه،

---

١ وفي هامش م: ﴿لَا تَقْفُ﴾. «منه».

٢ الكلام عنهما بلفظ قريب في فتوح الغيب للطِّيبي، ٢٩٦/٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر وأبي حاتم عن يعقوب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجرّاح قاضي البصرة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

وهو تتمّة لتعليل الأمور المنهيّ عنها جميعًا. ووصفُ ذلك بمطلق الكراهة مع أنّ البعض مِن الكبائر للإيذان بأنّ مجرّد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الانتهاء عن ذلك.

وتوجيه الإشارة إلى الكلّ ثمّ تعيينُ البعض دون توجيهها إليه ابتداءً لِما أنّ البعض المذكور ليس بمذكور جملةً؛ / بل على وجه الاختلاط، وفيه إشعار [٣٧٤و] بكون ما عداه مَرضيًا عنده تعالى، وإنّما لم يصرَح بذلك إيذانًا بالغنى عنه. وقيل: الإضافة بيانيّة كما في آية الليل وآية النهار.

وقرئ: "سَيِّئَةً"[١] على أنّه خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما نُهي عنه مِن الأمور المذكورة، و﴿مَكْرُوهًا﴾ بدل مِن "سيّئةً" أو صفةٌ لها محمولة على المعنى، فإنّه بمعنى "سَيِّئًا" وقد قُرئ به،[٢] أو مُجرى على موصوف مذكّر، أي: أمرًا مكروهًا، أو مُجرًى مُجرى الأسماء زالٌّ عنه معنى الوصفيّة، ويجوز كونه حالًا مِن المستكِنّ في ﴿كَانَ﴾ أو في الظرف على أنّه صفةُ "سيّئةً"، وقرئ: "سَيِّئَاتُهُ"،[٣] وقرئ: "شَأْنُهُ".[٤]

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي تقدَّم مِن التكاليف المفصَّلة ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ أي: بعض منه أو مِن جنسه ﴿مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ التي هي عِلم الشرائع، أو معرفة الحقّ لذاته والعملُ به، أو مِن الأحكام المحكَمة التي لا يتطرّق إليها النسخ والفساد. وعن ابن عبّاس رضي الله عنه[٥] أنّ هذه الآيات الثمانيَ عشرةَ كانت في ألواح موسى عليه السلام أوّلها: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي بكر الصدّيق وأُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٤.

٥ س – رضيَ الله عنه.

﴿فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ [الأعراف، ١٤٥/٧]، وهي عشرُ آيات في **التوراة**.[1] و﴿مِنَ﴾ إمّا متعلِّقة بـ﴿أَوْحَىٰ﴾ على أنّها تبعيضيّة، أو ابتدائيّة، وإمّا بمحذوف وقَع حالًا مِن الموصول أو مِن ضميره المحذوف في الصلة، أي: كائنًا مِن الحِكمة، وإمّا بدل مِن الموصول بإعادة الجارّ.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم والمرادُ غيره ممّن يُتصوَّر منه صدور المنهيّ عنه عنه، وقد كُرِّر للتنبيه على أنّ التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، وأنّه رأس كلّ حكمة وملاكُها، ومَن عدِمه لم يَنفَعْه علومُه وحِكَمُه وإن بذّ فيها أساطينَ الحُكماء وحَكّ بيَافوخِه عَنانَ السماء، / وقد رُتِّب عليه ما هو عائدةُ الإشراك أوّلًا، حيث قيل: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾،[2] ورُتِّب عليه ههنا نتيجتُه في العُقبى فقيل: ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ مِن جهة نفسِك ومِن جهة غيرك ﴿مَّدْحُورًا﴾ مبعَدًا مِن رحمة الله تعالى. وفي إيراد الإلقاء مبنيًّا للمفعول جَرْيٌ على سَنن الكبرياء، وازدراءٌ بالمشرِك، وجَعْلٌ له مِن قبيل خشَبة يأخذها آخذٌ بكفّه فيطرحها في التنُّور. [٣٧٤ظ]

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ خطاب للقائلين بأنّ الملائكة بنات الله سبحانه. والإصفاء بالشيء جَعْله خالصًا، و"الهمزةُ" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يفسِّره المذكور، أي: أفَضَّلكم على جَنابه فخصّكم بأفضل الأولاد على وجه الخُلوص وآثرَ لذاته أخسَّها وأدناها، كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم، ٢١/٥٣]، وقولِه تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور، ٣٩/٥٢]. وقد قُصِد ههنا بالتعرّض لعنوان الربوبيّة تشديدُ النكير وتأكيده، وأشيرَ بذِكر الملائكة عليهم السلام وإيرادِ "الإناث" مكانَ "البنات" إلى كَفْرة لهم أخرى، وهي وصفهم لهم عليهم السلام بالأنوثة التي هي أخسُّ صفات الحيوان، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف، ١٩/٤٣].

---

[1] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٩١/٢.

[2] الإسراء، ٢٢/١٧.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ﴾ بمقتضى مذهبكم الباطل الذي هو إضافة الولد إليه سبحانه ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادَر قَدْرُه في استتباع الإثم وخَرْقه لقضايا العقول بحيث لا يجترئ عليه أحد، حيث يجعلونه تعالى مِن قبيل الأجسام المتجانسة السريعةِ الزوال، وليس كمثله شيء وهو الواحد القهّار الباقي بذاته، ثمّ تضيفون إليه ما تكرهون مِن أخسّ الأولاد، وتفضِّلون عليه أنفسَكم بالبنين، ثمّ تصِفون الملائكة الذين هم مِن أشرف الخلائق بالأنوثة التي هي أخسُّ أوصاف الحيوان، فيا لها مِن ضَلّة ما أقبحَها وكَفْرةٍ ما أشْنَعَها وأفْظعَها!

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

/ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ هذا المعنى وكرّرناه ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ على وجوه مِن التصريف في مواضعَ منه. وإنّما تُرك الضمير تعويلًا على الظهور. وقرئ بالتخفيف.[1] ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ما فيه ويقِفوا على بُطلان ما يقولونه. والالتفات إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء الحال أن يُعرَض عنهم ويُحكى للسامعين هَناتُهم. وقرئ بالتخفيف[2] مِن الذِّكر بمعنى التذكّر. ويجوز أن يراد بـ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ ما نطق ببُطلان مقالتهم المذكورة مِن الآيات الكريمةِ الواردة على أساليبَ مختلفة. ومعنى التصريفِ فيه: جعلُه مكانًا له، أي: أوقعنا فيه التصريفَ كقوله: [٣٧٥و]

يجرَحْ في عراقيبها نَصْلي[3]

وقد جُوّز أن يراد به إبطال إضافتهم إليه تعالى البنات، وأنت تعلم أنّ إبطالها مِن آثار القرآن ونتائجها. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: والحال أنّه ما يزيدهم ذلك

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وإبراهيم النخَعي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

[3] جزء مِن عجز بيت، وهو بتمامه:
وإن تعتذر بالمَحْل عن ذي ضُروعِها
على الضيف يجرَح في عَراقيبها نَصْلي
والبيت لذي الرُّمّة في ديوانه بشرح الباهلي، ص ١٥٦، وفي شرحه: إن لم يجُد ضَرع إبلي باللبن للضيف زمن الجَدب ذبحتها بسيفي له. وهو له في شرح المفصَّل لابن يعيش، ٢/٣٩، على ما نحن فيه، وانظر في تخريجه أقوالًا أخرى في شرح الرضيّ على الكافية، ٤/٣٢٩.

التصريف البالغ ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحقّ وإعراضًا عنه، فضلًا عن التذكّر المؤدّي إلى معرفة بُطلان ما هم عليه مِن القبائح.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾

﴿قُل﴾ في إظهار بطلان ذلك مِن جهة أخرى ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾ تعالى ﴿ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: المشركون قاطبةً، وقرئ بالتاء[١] خطابًا لهم مِن قِبَل النبي صلّى الله عليه وسلّم، و"الكافُ" في محلّ النصب على أنّها نعت لمصدر محذوف، أي: كونًا مشابهًا لِما يقولون، والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة.

﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ جواب عن مقالتهم الشنعاء وجزاء لـ﴿لَّوْ﴾، أي: لطلبوا ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: إلى مَن له المُلك والربوبيّة على الإطلاق ﴿سَبِيلًا﴾ بالمغالبة والممانعة، كما هو دَيدن الملوك بعضِهم مع بعض، على طريقة قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء، ٢٢/٢١]. وقيل: بالتقرّب إليه تعالى كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء، ٥٧/١٧].[٢]

[٣٧٥ظ] والأوّل هو الأظهر الأنسب لقوله: / ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ فإنّه صريح في أنّ المراد بيان أنّه يلزم ممّا يقولونه محذورٌ عظيم مِن حيث لا يحتسبون. وأمّا ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرّب فليس ممّا يختصّ بهذا التقرير، ولا هو ممّا يلزمهم مِن حيث لا يشعرون؛ بل هو أمر يعتقدونه رأسًا، أي: تنزّه بذاته تنزُّهًا حقيقًا به. ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾ متباعدًا ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ مِن العظيمة التي هي أن يكون معه آلهة، وأن يكون له بناتٌ، ﴿عُلُوًّا﴾ تعاليًا، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح، ١٧/٧١]، ﴿كَبِيرًا﴾ لا غايةَ وراءه.

كيف لا، وإنّه سبحانه في أقصى غايات الوجود، وهو الوجوب الذاتي، وما يقولونه مِن أنّ له تعالى شركاءَ وأولادًا في أبعد مراتب العدم أعني الامتناع،

---

[١] قرأ بها نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٢/٢.

لا لأنّه تعالى في أعلى مراتب الوجود -وهو كونه واجب الوجودِ لذاته- واتّخاذُ الولد مِن أدنى مراتبه -فإنّه مِن خواصّ ما يمتنع بقاؤه- كما قيل، فإنّ ما يقولونه ليس مجرَّد اتّخاذ الولد؛ بل اتّخاذه تعالى له وأن يكون معه آلهةٌ، ولا ريبَ في أنّ ذلك ليس بداخل في حدّ الإمكان فضلًا عن دخوله تحت الوجود، وكونُه مِن أدنى مراتب الوجود إنّما هو بالنسبة إلى مَن مِن شأنه ذلك.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

﴿تُسَبِّحُ﴾ بالفَوقانيّة، وقُرئ بالتحتانيّة،[1] وقُرئ: "سَبَّحَتْ"[2] ﴿لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ مِن الملائكة والثقلين، على أنّ المراد بالتسبيح معنًى منتظِم لِما ينطِق به لسان المقال ولسان الحال بطريق عموم المجاز.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ مِن الأشياء حيوانًا كان أو نباتًا أو جمادًا ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ ملتبِسًا ﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي: ينزِّهه تعالى بلسان الحال عمّا لا يليق بذاته الأقدس مِن لوازم الإمكان ولواحق الحدوث، إذ ما مِن موجود إلّا وهو بإمكانه وحدوثه يدلّ دلالة واضحة على أنّ له صانعًا عليمًا قادرًا حكيمًا واجبًا لذاته قطعًا للسلسلة، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ أيها المشركون لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يُفهَم ذلك، وقرئ: "لا تُفَقَّهُونَ"[3] على صيغة المبنيّ للمفعول مِن باب التفعيل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع ما أنتم عليه مِن موجباتها مِن الإعراض عن التدبّر في الدلائل الواضحة الدالّة على التوحيد، والانهماكِ في الكفر والإشراك ﴿غَفُورًا﴾ لمَن تاب منكم.

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وطلحة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

[3] ما وجدتها فيما بين يديّ من كتب القراءات والتفسير. وفيها قراءة شاذّة بالبناء للفاعل وتشديد القاف "تَفَقَّهُون"، مَروية عن مالك بن دينار. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾

[٣٧٦و] / ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الناطقَ بالتسبيح والتنزيه ودعوتَهم إلى العمل بما فيه مِن التوحيد ورفضِ الشِّرك وغيرِ ذلك مِن الشرائع، ﴿جَعَلْنَا﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنيّة على دواعي الحِكَم الخفيّة ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أوثرَ الموصول على الضمير ذمًّا لهم بما في حيّز الصلة، وإنّما خُصَّ بالذِّكر كفرهم بالآخرة مِن بين سائر ما كفروا به مِن التوحيد ونحوه دلالة على أنها مُعظَم ما أُمروا بالإيمان به في القرآن، وتمهيدًا لِما سيُنقل عنهم مِن إنكار البعث واستعجاله ونحو ذلك.

﴿حِجَابًا﴾ يحجبهم مِن أن يدركوك على ما أنت عليه مِن النبوّة ويفهموا قَدْرك الجليل، ولذلك اجترأوا على تفوّه العظيمة التي هي قولُهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء، ١٧/٤٧].

وحملُ "الحِجاب" على ما رُوي عن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنه مِن أنّه لمّا نزلت سورةُ تبّتْ أقبلت العوراء أمُّ جميل امرأةُ أبي لهَب وفي يدها فِهْر[١] والنبيُّ صلّى الله عليه وسلّم قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فلمّا رآها قال: يا رسول الله، لقد أقبلتْ هذه وأخاف أن تراك، قال عليه السلام: «إنّها لن تراني»، وقرأ قرآنًا فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تَرَ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، ممّا لا يقبله الذوق السليم[٢] ولا يساعده النظم الكريم.

﴿مَّسْتُورًا﴾ ذا سَتْر كما في قولهم: "سَيل مُفعَم"، أو مستورًا عن الحسّ بمعنى غيرَ حسّي، أو مستورًا في نفسه بحجاب آخرَ أو مستورًا كونُه حجابًا حيث لا يدرون أنّهم لا يدرون.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ۝٤٦﴾

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية كثيرة جمع "كِنان". ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ مفعول

---

[١] الفِهْر: هو الحَجر ملء الكفّ. لسان العرب لابن منظور، «فهر».

[٢] السياق: وحَمْلُ "الحِجاب"... ممّا لا يقبله...

لأجله، أي: كراهةَ أن يفقهوه، أو مفعول لِما دلّ عليه الكلام، أي: منعناهم أن يقِفوا على كُنهه ويعرِفوا أنّه مِن عند الله تعالى، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صمَمًا وثِقلًا مانعًا مِن سماعه اللائق به، وهذه تمثيلات مُعرِبة عن كمال جهلهم بشئون النبيّ صلّى الله عليه وسلّم / وفرطِ نُبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومَجّ أسماعِهم [٣٧٦ظ] له، جيء بها بيانًا لعدم فِقْههم لتسبيح لسان المقال إثرَ بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال، وإيذانًا بأنّ هذا التسبيح مِن الظهور بحيث لا يُتصوَّر عدم فهمه إلّا لمانع قويّ يعتري المشاعر فيُبطلها، وتنبيهًا على أنّ حالهم هذا أقبحُ مِن حالهم السابق، لا حكاية لِما قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت، ٤١/٥].

كيف لا، وقَصْدهم بذلك إنّما هو الإخبار بما اعتقدوه في حقّ القرآن والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم جهلًا وكُفرًا مِن اتّصافهما بأوصاف مانعة مِن التصديق والإيمان، ككون القرآن سِحرًا وشِعرًا وأساطيرَ، وقِسْ عليه حال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لا الإخبارُ بأن هناك أمرًا وراء ما أدركوه قد حال بينهم وبين إدراكه حائل مِن قِبَلهم. ولا ريبَ في أنّ ذلك المعنى ممّا لا يكاد يلائم المقام.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ واحدًا غيرَ مشفوعٍ به آلهتُهم، وهو مصدر وقع موقعَ الحال، أصلُه يَحِدُ وَحْدَه. ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾ أي: هربوا ونفَروا ﴿نُفُورًا﴾ أو ولَّوا نافرين.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦ﴾ متلبِسين به مِن اللغو والاستخفاف والهُزْء بك وبالقرآن، يُروى أنّه كان يقوم عن يمينه عليه السلام رجلان مِن عبد الدار وعن يساره رجلان فيُصفِّقون ويصفِرون ويخلِّطون عليه بالأشعار. ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرف لـ﴿أَعْلَمُ﴾، وفائدتُه تأكيد الوعيد بالإخبار بأنّه كما يقع الاستماع المزبور منهم يتعلّق به العِلم، لا أنّ العِلمَ يستفاد هناك مِن أحد.

[٣٧٧و] وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ لكن لا مِن حيث تعلُّقه / بما به الاستماع؛ بل بما به التناجي المدلول عليه بسياق النظم، والمعنى نحن أعلمُ بالذي يستمعون ملتبِسين به ممّا لا خيرَ فيه مِن الأمور المذكورة وبالذي يتناجَون به فيما بينهم، أو الأوّلُ ظرف لـ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ والثاني لـ"يتناجَون"، والمعنى نحن أعلمُ بما به الاستماعُ وقت استماعهم مِن غير تأخير وبما به التناجي وقت تناجيهم. و﴿نَجْوَىٰٓ﴾ مرفوع على الخبريّة بتقدير المضاف، أي: ذوو نجوى، أو هو جَمْع "نَجيّ" كـ"قتلى" جمع "قتيل"، أي: متناجُون.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بدل مِن ﴿إِذْ هُمْ﴾، وفيه دليل على أنّ ما يتناجَون به غيرُ ما يستمعون به، وإنّما وُضع الظالمون موضعَ المُضمَر إشعارًا بأنّهم في ذلك ظالمون مجاوزون للحدّ، أي: يقول كلّ منهم للآخرين عند تناجيهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ ما تتّبعون إن وُجد منكم الإتّباع فرضًا، أو ما تتّبعون باللغو والهُزء ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي: سُحِر فجُنّ، أو رجلًا ذا سَحْر، أي: رئةٍ يتنفّس، أي: بشرًا مثلَكم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: مثّلوك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿فَضَلُّواْ﴾ في جميع ذلك عن منهاج المُحاجّة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى طَعْن يمكن أن يقبله أحد، فيتهافتون ويخبِطون ويأتون بما لا يرتاب في بطلانه أحد، أو إلى سبيل الحقّ والرشاد، وفيه مِن الوعيد وتسلية الرسول صلّى الله عليه وسلّم ما لا يخفى.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ استفهام إنكاري مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعد ما آل الحال إلى هذا المآل لِما بين غضاضة الحيّ ويُبوسة الرميم مِن التنائي، كأنّ استحالة الأمر مِن الظهور بحيث لا يقدر المخاطَب

على التكلّم به. والرُّفات: ما بُولغ في دقِّه وتفتيته،[١] وقال الفرّاء: هو التراب،[٢] وهو قولُ مجاهدٍ،[٣] وقيل: هو الحُطام.[٤]

و﴿أَءِذَا﴾ متمحِّضة للظرفيّة، وهو الأظهر، والعاملُ فيها ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ لا نفسُه، لأنّ ما بعد "إنّ" و"الهمزة" و"اللام" لا يعمل فيما قبلها، وهو "نبعث" أو "نعاد" وهو المرجِع للإنكار، وتقييدُه بالوقت المذكور ليس لتخصيص[٥] إنكاره[٦] به، فإنّهم منكرون الإحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله؛ بل لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له.

وتكرير الهمزة في قولهم: ﴿أَءِنَّا﴾ لتأكيد النكير، وتحليةُ الجملة بـ"إنّ" و"اللام" لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد، كما عسى يُتوَّهم مِن ظاهر النظم، فإنّ تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة، كما في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢] ونظائرِه على رأي الجمهور، فإنّ المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا إنكارُ التعقيب كما هو المشهور، وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين في المبعوثيّة بالفعل في حال كونهم عظامًا ورفاتًا كما يتراءى مِن ظاهر الجملة الاسميّة؛ بل كونِهم بعَرَضيّة ذلك / واستعدادِهم له، ومرجعُه إلى إنكار البعث بعد تلك الحالة، وفيه [٣٧٧ظ] مِن الدلالة على غُلوّهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيدَ عليه.

﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ نصب على المصدر مِن غير لفظه، أو الحاليّةِ على أنّ "الخَلْق" بمعنى المخلوق.

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾

﴿قُلْ﴾ جوابًا لهم وتقريبًا لِما استبعدوه: ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

---

١ اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٢.

٢ معاني القرآن للفرّاء، ١٢٥/٢، اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٢.

٣ جامع البيان للطبري، ٦١٤/١٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٩٨/٥؛ اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٢.

٤ أورده الواحدي في التفسير الوسيط، ١١١/٣؛ وهو عنه في اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٢.

٥ ط س: لتخصيصه.

٦ ط س - إنكاره.

﴿أَوْ خَلْقًا﴾ آخرَ ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: يعظُم عندكم مِن قَبول الحياة لكمال المباينة والمنافاة بينها وبينه، فإنكم مبعوثون ومُعادُون لا محالةَ، ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ مع ما بيننا وبين الإعادةِ مِن مِثل هذه المباعدة والمباينة، ﴿قُلْ﴾ لهم تحقيقًا للحقّ وإزاحة للاستبعاد وإرشادًا لهم إلى طريقة الاستدلال ﴿الذى﴾ أي: يعيدكم القادر العظيم الذي ﴿فَطَرَكُمْ﴾ اخترَعكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مِن غير مثال يحتذيه ولا أسلوب ينتحيه، وكنتم ترابًا ما شمّ رائحة الحياة، أليس الذي يقدِر على ذلك بقادر على أن يعيد العِظام البالية إلى حالتها المعهودة؟ بلى إنّه على كلّ شيء قدير.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: سيحرِّكونها نحوك تعجُّبًا وإنكارًا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاءً ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: ما ذكرتَه مِن الإعادة. ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ ذلك ﴿قَرِيبًا﴾ نصب على أنّه خبر لـ﴿يَكُونَ﴾ أو ظرف على أنّ "كان" تامّة، أي: أن يقع في زمان قريب، ومحلُّ ﴿أَن﴾ مع ما في حيّزها إمّا نصب على أنّه خبر لـ﴿عَسَىٰ﴾، وهي ناقصة واسمها ضمير عائد إلى ما عاد إليه هو، أي: عسى البعثُ أن يكون قريبًا، أو عسى البعثُ يقع في زمان قريب، أو رفع على أنّه فاعل لـ﴿عَسَىٰ﴾، وهي تامّة، أي: عسى كونه قريبًا، أو وقوعه في زمان قريب.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ منصوب بفعل مضمَر، أي: اذكروا، أو على أنّه بدل مِن ﴿قَرِيبًا﴾[١] على أنّه ظرف، أو بـ﴿يَكُونَ﴾[٢] تامّةً بالاتّفاق، أو ناقصةً عند مَن يجوّز إعمالَ الناقصة في الظروف، أو بضمير المصدر المستكِنّ في ﴿عَسَىٰ﴾[٣] أو ﴿يَكُونَ﴾،[٤] أعني البعث عند مَن يجوّز إعمالَ ضمير المصدر / كما في قول زهير: [٣٧٨و]

وما الحربُ إلّا ما علِمتُمْ وذُقتمُ   وما هو عنها بالحديث المُرجَّمِ[٥]

فهو ضميرُ المصدر وقد تعلّق به ما بعده مِن الجارّ.

[١] في الآية السابقة.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] في الآية السابقة.

[٥] البيت من معلّقة زهير، وهو في ديوانه، ص ٢٦؛ وهو له في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٧٠/٧؛ واللباب لابن عادل، ٣٠٨/١٢، على ما نحن فيه.

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي: يوم يبعثكم فتبعثون، وقد استُعير لهما الدعاء والإجابة إيذانًا بكمال سهولة التأتّي وبأنّ المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجواب ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حال مِن ضمير ﴿تَسْتَجِيبُونَ﴾، أي: منقادين له حامدين لِما فعَل بكم غيرَ مستعصين، أو حامدين له تعالى على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعاينة أحكامها. ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ عطفٌ على ﴿تَسْتَجِيبُونَ﴾، أي: تظنُّون عندما ترَون ما ترَون مِن الأمور الهائلة، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ كالذي مرّ على قرية أو ما لبثُم في الدنيا.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ أي: المؤمنين ﴿يَقُولُوا۟﴾ عند محاورتهم مع المشركين ﴿ٱلَّتِى﴾ أي: الكلمةَ التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ ولا يُخاشنوهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت، ٢٩/٤٦].

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يُفسِد ويَهيّج الشرّ والمِراء ويُغري بعضهم على بعض ليقع بينهم المُشاقّة والمُشَارّة والمُغَارّة والمُضَارّة، فلعلّ ذلك يؤدّي إلى تأكُّد العِناد وتمادي الفساد، فهو تعليل للأمر السابق. وقرئ بكسر الزاء.[1] ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ﴾ قِدمًا ﴿لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهرَ العداوة، وهو تعليل لِما سبق مِن أنّ الشيطان ينزَغ بينهم.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالإماتة على الكفر، وهذا تفسيرُ ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وما بينهما اعتراض، أي: قولوا لهم هذه الكلمة وما يشاكلها ولا تصرِّحوا بأنّهم مِن أهل النار، فإنّه ممّا يَهيجهم على الشرّ، مع أنّ العاقبة ممّا لا يعلمه إلّا الله سبحانه فعسى يهديهم إلى الإيمان.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ موكولًا إليك أمورُهم تقسِرُهم على الإيمان / وإنّما أرسلناك بشيرًا ونذيرًا فدارِهم ومُرْ أصحابَك بالمُداراة والاحتمال وترك المُحَاقّة والمُشَاقّة، وذلك قبل نزول آيةِ السيف. وقيل: نزل في عُمرَ رضي الله تعالى عنه، شتمه رجلٌ فأُمر بالعفو. وقيل: أفرط أذيّةُ المشركين بالمؤمنين فشكَوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت. وقيل: الكلمة التي هي أحسنُ أن يقولوا: يهديكم الله، يرحمكم الله.[1] [٣٧٨ظ]

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ۝٥٥﴾

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وتفاصيل أحوالهم الظاهرة والكامنة التي بها يستأهلون الاصطفاء والاجتباء، فيختار منهم لنبوّته وولايته مَن يشاء ممّن يشاء ممّن يستحقه، وهو ردّ عليهم، إذ قالوا: بعيد أن يكون يتيمُ أبي طالب نبيًّا، وأن يكون العُراة الجُوَّع أصحابَه دون أن يكون ذلك مِن الأكابر والصناديد. وذِكرُ مَن في السماوات لإبطال قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان، ٢١/٢٥]، وذِكرُ مَن في الأرض لردّ قولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣].

﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ بالفضائل النفسانيّة والتنزّه عن العلائق الجسمانيّة لا بكثرة الأموال والأتباع. ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ بيان لحيثيّة تفضيلِه عليه السلام، فإنّ ذلك إيتاء الزَّبور لا إيتاء المُلك والسلطنة، وفيه إيذانٌ بتفضيل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ نعوته الجليلة وكونه خاتمَ النبيّين مسطورة في الزَّبور، وأنّ المراد بعباد الله الصالحين في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء، ١٠٥/٢١] هو النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وأمّته.

وتعريف "الزَّبور" تارة وتنكيرُه أخرى إمّا لأنّه في الأصل "فَعول" بمعنى "المفعول" كـ"الحَلوب"، أو مصدر بمعناه كـ"القَبول"؛ وإمّا لأنّ المراد آتينا داودَ

---

[1] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٥/٢.

زَبورًا مِن الزُّبُر، أو بعضًا مِن الزَّبور فيه ذكرُه صلّى الله عليه وسلّم. وقرئ بضمّ الزاء[1] على أنّه جمع "زِبْر" بمعنى "مزبور".

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنّها آلهةٌ ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى مِن الملائكة والمسيح وعُزيرٍ ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون / ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ بالمرّة كالمرض [٣٧٩و] والفقر والقَحطِ ونحو ذلك ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: ولا تحويلَه إلى غيركم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: أولئك الآلهةُ الذين يدعوهم المشركون مِن المذكورين ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ ومالكِ أمورهم ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ القربةَ بالطاعة والعبادة، ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدلٌ مِن فاعل ﴿يَبْتَغُونَ﴾، و"أيٌّ" موصولة، أي: يبتغي مَن هو أقربُ إليه تعالى الوسيلةَ فكيف بمَن دونه؟ أو ضُمِّن الابتغاءُ معنى الحِرص، فكأنّه قيل: يحرِصون أيُّهم يكون أقربَ إليه تعالى بالطاعة والعبادة.

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ بها ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥ﴾ بتركها كدأب سائر العباد فأين هم مِن كَشف الضُّرّ فضلًا عن الإلهيّة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقًا بأن يحذَره كلّ أحد حتّى الملائكةُ والرسل عليهم السلام، وهو تعليل لقوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥ﴾، وتخصيصه بالتعليل لِما أنّ المقام مَقام التحذير مِن العذاب وإنّ بينهم[2] وبين العذاب بَونًا بعيدًا.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ بيان لتحتُّم حلول عذابه تعالى بمَن لا يحذَره إثرَ بيان أنّه حقيق

---

[1] قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٥٣/٢.

[2] وفي هامش م: حاليّة.

بالحذَر وأنّ أساطين الخَلْق مِن الملائكة والنبيّين عليهم السلام على حذَر مِن ذلك. وكلمةُ ﴿إن﴾ نافية و﴿مِن﴾ استغراقيّة، والمراد بـ"القرية" القرية الكافرة، أي: ما مِن قرية مِن قرى الكفّار ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي: مخرِّبوها البتّةَ بالخَسْف بها أو بإهلاك أهلها بالمرّة لِما ارتكبوا مِن عظائم المُوبِقات المستوجِبة لذلك، وفي صيغة الفاعل وإن كانت بمعنى المستقبَل ما ليس فيه مِن الدلالة على التحقّق والتقرّر، وإنّما قيل: ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لأنّ الإهلاك يومئذ غيرُ مختصّ بالقرى الكافرة، ولا هو بطريق العقوبة، وإنّما هو لانقضاء عُمر الدنيا.

﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ أي: مُعذِّبو أهلِها على الإسناد المجازي ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لا بالقتل والسَّبْي ونحوهما مِن البلايا الدنيويّة فقط؛ بل بما لا يُكتَنه كُنهُه مِن فنون العقوبات الأخرويّة أيضًا، حسبما يُفصِح عنه إطلاق التعذيب عمّا قُيّد به الإهلاك مِن قَبْليّة يوم القيامة، كيف لا، وكثير مِن القرى العاتية العاصية قد أُخِّرت عقوباتها إلى يوم القيامة.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِر مِن الإهلاك والتعذيب ﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: اللوح [٣٧٩ظ] المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوبًا لم يغادَر منه شيء / إلّا بُيِّن فيه بكيفيّاته وأسبابه الموجبة له ووقتِه المضروب له. هذا وقد قيل: الهلاكُ للقُرى الصالحة والعذابُ للطالحة.[١] وعن مقاتل: «وجدتُ في كتاب الضحّاك بن مُزاحِم في تفسيرها أمّا مكّةُ فُيخرِبها الحبشة، وتهلِك المدينة بالجوع، والبصرةُ بالغرَق، والكوفةُ بالتُّرك، والجبالُ بالصواعق والرواجف، وأمّا خراسانُ فهلاكُها ضُروبٌ، ثمّ ذكرها بلدًا بلدًا».[٢]

وقال الحافظ أبو عمرو الداني[٣] في كتاب الفتن: أنّه رُوي عن وهْب بن مُنبِّه

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٦/٢.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٦/٢.

٣ هو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني، أبو عمرو (ت. ٤٤٤هـ/١٠٥٢م). مِن موالي بني أميّة، المعروف في زمانه بابن الصيرفي، مِن أهل دانيا بالأندلس، مِن حفّاظ الحديث ومِن الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره. قيل: هو أستاذ الأستاذين وشيخ مشايخ المقرئين ومالكيّ المذهب، له أكثر مِن مائة تصنيف منها: التيسير في القراءات السبع، وطبقات القرّاء، وجامع البيان في القراءات، وغيرها. انظر: غاية النهاية لابن الجزري، ٥٠٣/١؛ والأعلام للزركلي، ٢٠٦/٤.

أنّ «الجزيرة آمنةٌ مِن الخراب حتّى تخرَب أرمينيّة،[١] وأرمينيّةُ آمنة حتّى تخرَب مصرُ، ومصرُ آمنة حتّى تخرَب الكوفة ولا تكون المَلحمَة الكبرى حتّى تخرَب الكوفة، فإذا كانت المَلحمَة الكبرى فُتحت قُسطنطينيّةُ على يَدي رجلٍ مِن بني هاشم، وخرابُ الأندلس مِن قِبَل الزِّنْج،[٢] وخرابُ إفريقيّة مِن قِبَل الأندلس، وخرابُ مصرَ مِن انقطاع النِّيل واختلافِ الجيوش فيها، وخرابُ العراق مِن الجوع، وخرابُ الكوفة مِن قِبل عدوّ مِن ورائهم يحصُرهم حتّى لا يستطيعون أن يشربوا مِن الفُرات قطرةً، وخرابُ البَصرة مِن قِبَل الغرَق، وخرابُ الأيْلة مِن قبل عدوّ يحصُرهم برًّا وبحرًا، وخرابُ الرَّيّ[٣] مِن الدَّيلم،[٤] وخرابُ خُراسانَ مِن قبل التُّبت،[٥] وخرابُ التُّبت مِن قبل الصِّين، وخرابُ الهندِ واليمن مِن قبل الجرَاد والسلطان، وخرابُ مكّةَ مِن الحبشة، وخرابُ المدينة مِن قِبَل الجُوع».[٦]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «آخرُ قريةٍ مِن قرى الإسلام خرابًا المدينةُ»،[٧] وقد أخرجه العُمري مِن هذا الوجه. وأنت خبير بأنّ تعميم "القرية" لا يساعده السِّباق ولا السِّياق.

---

١ أرمِينيّة: بفتح الهمزة وكسرها، وهي اسم لصقع عظيم واسع مِن جهة الشمال والنسبة إليها أرمني. وقيل: هما أرمينيّتان الكبرى والصغرى، وحدّهما مِن برذعة إلى باب الأبواب ومِن الجهة الأخرى إلى بلاد الروم وجبل القبق وصاحب السرير. وقيل: الكبرى خلاط ونواحيها، والصغرى تفليس ونواحيها. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ١/١٥٩.

٢ الزّنج: جيلٌ مِن السودان يتميّز بالجلد الأسود، يسكن حول خطّ الاستواء، وتمتدّ بلادهم مِن المغرب إلى الحبشة، وبعض بلادهم على نيل مصر، وانظر لِما قيل فيهم في المصادر: **أنساب الأشراف** للبلاذُري، ٧/٢٩٩-٣٠٠؛ و**قلائد الجمان** للقلقشندي، ١/٣٠.

٣ الرّيّ: بفتح أوّله وتشديد ثانيه، مدينة مشهورة مِن أمّهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محطّ الحاجّ على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا، وإلى قزوين سبعة وعشرون، وإلى أبهر اثنا عشر، وإلى زنجان خمسة عشر. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣/١١٦.

٤ الدَّيلم: كان الديلم في أيّام الأكاسرة إذا خرجوا للغارة عسكروا فيها، وخلّفوا سوادهم لديها وانتشروا في الأرض غائبين، فإذا فرغوا مِن غاراتهم عادوا إليها، ورحلوا إلى مستقرّهم. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٢/٥٤٤.

٥ التُّبت: مملكة متاخمة لمملكة الصين ومتاخمة مِن إحدى جهاتها لأرض الهند، ومِن المشرق لبلاد الهياطلة، ومِن المغرب لبلاد الترك، ولهم مدن وعمائر كثيرة ذوات سَعة. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٢/١٠.

٦ **السُّنن الواردة** للداني، ٤/٨٨١ (٤٥٥).

٧ **سنن الترمذي**، ٥/٧٢٠ (٣٩١٩)؛ **مسند البزّار**، ١٤/٣٤٩ (٨٠٤٥)؛ **السُّنن الواردة** للداني، ٤/٨٩٠ (٤٦٠).

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الآياتِ التي اقترحتها قريش مِن إحياء الموتى وقلب الصَّفا ذهبًا ونحو ذلك ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأشياء، أي: وما منعنا إرسالَها شيء مِن الأشياء إلّا تكذيبُ الأوّلين بها

[٣٨٠و] حين جاءتهم باقتراحهم، / وعدمُ إرساله تعالى بها وإن كان بمشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة، لا لمَنْع مانع عن ذلك مِن التكذيب أو غيره لاستحالة العجز عليه تعالى، لكنّ تكذيبهم المذكور بواسطة استتباعه لاستئصالهم بحُكم السُّنّة الإلهيّة، واستلزامِه لتكذيب الآخرين بحُكم الاشتراك في العتوّ والعِناد، وإفضائِه إلى أن يحِلّ بهم مثلُ ما حلّ بهم بحُكم الشِّرْكة في الجَريرة، لمّا كان منافيًا لإرسال ما اقترحوه مِن الآيات لتعيُّن التكذيب المستدعي للاستئصال المخالفِ لِما جرى به قلَم القضاء مِن تأخير عقوبات هذه الأمّة إلى الآخرة لحِكَم باهرة مِن جملتها ما يُتوَهم مِن إيمان بعض أعقابِهم،[١] عُبِّر عن تلك المنافاة بالمَنْع[٢] على نهج الاستعارة إيذانًا بتعاضد مبادي الإرسال، لا كما زعَموا مِن عدم إرادته تعالى لتأييده عليه السلام بالمعجِزات، وهو السرُّ في إيثار "الإرسال" على "الإيتاء" لِما فيه مِن الإشعار بتداعي الآيات إلى النزول لولا أن تُمسِكها يدُ التقدير.

وإسناد هذا المَنْع إلى تكذيب الأوّلين لا إلى عِلمه تعالى بما سيكون مِن الآخِرين كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال، ٢٣/٨] لإقامة الحجّة عليهم بإبراز الأُنموذج، وللإيذان بأنّ مدار عدم الإجابة إلى إيتاء مقترحِهم ليس إلّا صنيعَهم.

﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ عطفٌ على ما يُفصِح عنه النظم الكريم كأنّه قيل: وما منعنا أن نُرسِل بالآيات إلّا أن كذّب بها الأوّلون حيث آتيناهم ما اقترحوا

---

[١] وفي هامش م: وأمّا إيمان بعضهم، كما قيل، فلا يلائم مَقام بيان تماديهم في الكفر والعِناد. «منه».

[٢] السياق: لكنّ تكذيبهم... لمّا كان منافيًا... عُبِّر عن تلك...

مِن الآيات الباهرة فكذّبوها، وآتينا ثمودَ[١] الناقةَ[٢] باقتراحهم[٣] ﴿مُبْصِرَةً﴾ على صيغة الفاعل، أي: بَيِّنةً ذاتَ إبصار، أو بصائرَ يدركها الناس، أو أسنِدَ إليها حال مَن يشاهدها مجازًا،[٤] أو جاعلتَهم ذوي بصائرَ مِن "أبصَرَه" جعَله بصيرًا، وقُرِئ على صيغة المفعول،[٥] وبفتح الميم والصاد[٦] وهي نصب على الحاليّة، وقرئ بالرفع[٧] على أنّها خبرُ مبتدأ محذوف.

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ فكفروا بها ظالمين، أي: لم يكتفوا بمجرّد الكفر بها؛ بل فعلوا بها ما فعلوا مِن العَقر، أو ظلموا أنفسهم وعرّضوها للهلاك بسبب عَقرها. ولعلّ تخصيصَها بالذِّكر لِما أنّ ثمودَ عرب مثلهم وأنّ لهم مِن العلم بحالهم ما لا مزيدَ عليه حيث يشاهدون آثارَ / هلاكِهم ورودًا وصُدورًا، أو لأنّها مِن جهة [٣٨٠ظ] إنّها حيوان أُخرِج مِن الحَجر أوضحُ دليل على تحقّق مضمونِ قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.[٨]

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ﴾ المقترَحة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ لمَن أُرسِلت هي عليهم ممّا يعقُبها مِن العذاب المستأصِل كالطليعة له، وحيث لم يخافوا ذلك فُعل بهم ما فُعل فلا مَحلّ للجملة حينئذ مِن الإعراب، ويجوز أن يكون حالًا مِن ضمير ﴿ظَلَمُواْ﴾، أي: فظلموا بها ولم يخافوا عاقبته، والحالُ أنّا ما نُرسِل بالآيات التي هي مِن جملتها إلّا تخويفًا مِن العذاب الذي يعقُبها، فنزَل بهم ما نزَل.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ أي: عِلمًا، كما نقله الإمامُ الثعلبيُّ

---

١ ط س: باقتراحهم. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف في هذه واللتين بعدها، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ ط س: ثمود.

٣ ط س: الناقة.

٤ وفي هامش م: للمبالغة إذ فيه إيماء إلى أنّ مدار الإبصار ليس مِن قبل المشاهِدين؛ بل مِن المشاهَد. «منه».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٠.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وابن أبي عبلة وعليّ بن الحسين. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٢؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٣٧.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. **اللباب** لابن عادل، ٣١٩/١٢.

٨ الإسراء، ٥٠/١٧.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما،[١] فلا يخفى عليه شيء مِن أفعالهم الماضية والمستقبَلة مِن الكفر والتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية تنبيهٌ على تحقّقها[٢] بالاستدلال عليها بما صدَر عنهم عند مجيء بعض الآيات لاشتراك الكلّ في كونها أمورًا خارقة للعادات منزَّلة مِن جناب الله سبحانه لتصديق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فتكذيبهم لبعضها مستلزِم لتكذيب الباقي، كما أنّ تكذيب الآخرين بغير المقترَحة يدلّ على تكذيبهم بالآيات المقترَحة.

والمراد بـ﴿ٱلرُّءْيَا﴾ ما عاينه صلّى الله عليه وسلّم ليلة المِعراج مِن عجائب الأرضِ والسماء حسبما ذُكر في فاتحة السورة الكريمة. والتعبير عن ذلك بـ﴿ٱلرُّءْيَا﴾ إمّا لأنّه لا فرقَ بينها وبين الرؤية، أو لأنّها وقعت بالليل، أو لأنّ الكفرة قالوا: لعلّها رؤيا، أي: وما جعلنا الرؤيا التي أريناكها عِيانًا، مع كونها آيةً عظيمة وأيّةُ آيةٍ! حقيقةً بأن لا يتلعثَم في تصديقها أحدٌ ممّن له أدنى بصيرة إلّا فتنةً افتُتن بها الناس حتّى ارتدّ بعضهم.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ عطفٌ على الرؤيا، والمرادُ بلَعْنها فيه لَعْن طاعمها على الإسناد المجازي أو إبعادُها عن الرحمة، فإنّها تنبُت في أصل الجحيم في أبعدِ مكان مِن الرحمة، أي: وما جعلناها إلّا فتنة لهم حيث أنكروا ذلك، وقالوا: إنّ محمّدًا يزعُم أنّ الجحيم يحرُق الحجارة، ثمّ يقول:
[٣٨١و] ينبُت فيها الشجرُ / ولقد ضلّوا في ذلك ضلالًا بعيدًا، حيث كابروا قضيّة عقولهم، فإنّهم يرَون النعامة تبتلع الجَمْر وقِطَع الحديد المُحماة فلا تضرّها، ويشاهِدون المناديلَ المتّخَذة مِن وبَر السَّمَندَر[٣] تُلقى في النار فلا تؤثّر فيها،

---

[١] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٦/٣٦٩.

[٢] وفي هامش م: أي: تحقُّقِ أفعالهم، أي: عِلمِها يقينًا، مِن "تحقّقتُ الأمر" إذا تيقّنتَه. «منه».

[٣] في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩٧: أنّه «دُوَيبّة ببلاد الترك تتّخذ منه مناديلُ، وإذا اتّسختْ طُرِحت في النار، فذهب الوسخ وبقيَ المنديل سالمًا لا تعمل فيه النار»، وذكروا أنّه السَّمَندَر أو السَمندَل، وأنّه دابّة أو طائر. انظر: تاج العروس للزَبيدي، «سمند»؛ وتكملة المعاجم العربيّة لدوزي، «سمند».

ويرَون أنّ في كلّ شجر نارًا.[١] وقرئ بالرفع[٢] على حَذْف الخبر كأنّه قيل: والشجرةُ الملعونةُ في القرآن كذلك.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بذلك وبنظائرها مِن الآيات فإنّ الكلّ للتخويف. وإيثارُ صيغة الاستقبال للدلالة على التجدّد والاستمرار. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويفُ ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ متجاوزًا عن الحدّ، فلو أنّا أُرسِلنا بما اقترحوه مِن الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها، وفُعِل بهم ما فُعِل بأشياعهم، وقد قضينا بتأخير العقوبة العامّة لهذه الأمّة إلى الطامّة الكبرى. هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم.

وقد حمَل أكثر المفسّرين الإحاطة على الإحاطة بالقدرة تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا عسى يعتريه مِن عدم الإجابة إلى إنزال الآيات التي اقترحوها؛ لأنّ إنزالها ليس بمصلحة مِن نوع حزن مِن طَعْن الكفَرة حيث كانوا يقولون: لو كنتَ رسولًا حقًّا لأتيتَ بهذه المعجزات كما أتى بها موسى وغيره مِن الأنبياء عليهم الصلاة السلام، فكأنّه قيل: اذكر وقتَ قولنا لك: إنّ ربّك اللطيف بك قد أحاط بالناس فهمْ في قبضة قدرته، لا يقدرون على الخروج مِن مشيئته فهو يحفَظك منهم، فلا تهتمّ بهم وامضِ لِما أمرتُك به مِن تبليغ الرسالةِ، ألا ترى أنّ الرؤيا التي أريناك[٣] مِن قبلُ جعلناها فتنةً للناس مُورثةً للشبهة، مع أنّها ما أورثت ضَعفًا لأمرك وفُتورًا في حالك.

وقد فُسِّر الإحاطة بإهلاك قريش يوم بدر،[٤] وإنّما عُبّر عنه بالماضي مع كونه منتظَرًا حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر، ٤٥/٥٤] وقولُه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران، ١٢/٣] وغيرُ ذلك، جريًا على عادته سبحانه في إخباره. وأُوِّلت الرؤيا بما عسى رآه عليه السلام في المنام مِن مصارعهم،[٥] لِما رُوي أنّه عليه السلام لمّا ورد ماءَ بدر قال: / «واللهِ لكأنّي أنظُر إلى مصارع القوم، وهو يُومئ إلى الأرض، [٣٨١ظ]

---

[١] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٢.

[٣] ط س: أرينا.

[٤] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٩٦/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٨/٢.

[٥] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٨/٢.

هذا مصرَع فلان وهذا مصرع فلان»،[١] فتسامعت به قريش فاستسخروا منه، وبما رآه عليه السلام[٢] أنّه سيدخل مكّةَ وأخبر به أصحابَه فتوجّه إليها فصدّه المشركون عامَ الحديبية، واعتُذِر عن كون ما ذُكر مدنيًا بأنّه يجوز أن يكون الوحيُ بإهلاكهم وكذا الرؤيا واقعًا بمكّة، وذِكرُ الرؤيا وتعيينُ المَصارع واقعَين بعد الهجرة.[٣]

وأنت خبير بأنّه يلزم منه أن يكون افتتان الناس بذلك واقعًا بعد الهجرة، وأن يكون ازديادهم طغيانًا متوقَّعًا غيرَ واقع عند نزول الآية.

وقد قيل: الرؤيا ما رآه عليه السلام في وقعة بدر مِن مضمون قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ [الأنفال، ٨/٤٣].[٤] ولا ريبَ في أنّ تلك الرؤيا مع وقوعها في المدينة ما جُعلت فتنة للناس.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تذكير لِما جرى منه تعالى مِن الأمر ومِن الملائكة مِن الامتثال والطاعة مِن غير تردّد، وتحقيقٌ لمضمون ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء، ١٧/٥٧]. ويُعلَم مِن حال الملائكة حالُ غيرهم مِن عيسى وعُزيرٍ عليهما السلام في الطاعة وابتغاء الوسيلة ورجاء الرحمة ومخافة العذاب، ومِن حال إبليسَ حالُ مَن يعاند الحقّ ويُخالِف الأمر، أي: واذكر وقتَ قولنا لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ تحيّة وتكريمًا لِما له مِن الفضائل المستوجِبة لذلك، ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ له مِن غير تلعثُم امتثالًا للأمر وأداءً لحقِّه عليه السلام، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وكان داخلًا في زُمرتهم مندرِجًا تحت الأمر بالسجود.

﴿قَالَ﴾ أي: عندما وُبّخ بقوله عزّ سلطانه: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر، ١٥/٣٢]، وقولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف، ٧/١٢]،

---

١ بلفظ قريب في صحيح مسلم، ٣/١٤٠٣ (١٧٧٩)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ١٠/١٤٧ (١٠٢٧٠)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٠٨.

٢ السياق: وأوّلت الرؤيا بما عسى... وبما رآه...

٣ الكلام بمعناه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٠٨.

٤ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٠٨.

وقولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا[١] خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص، ٣٨/٧٥]، كما أشير إليه في سورة الحِجر.[٢] ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ / وأنا مخلوق مِن العنصر العالي ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [٣٨٢و]
نصب على نزع الخافض، أي: مِن طين، أو حالٌ مِن الراجع إلى الموصول، أي: خلقتَه وهو طين، أو مِن نفس الموصول، أي: أأسجُد له وأصلُه طين؟ والتعبيرُ عنه عليه السلام بالموصول لتعليل إنكاره بما في حيّز الصلة.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: إبليسُ لكن لا عَقيبَ كلامه المحكيّ؛ بل بعد الإنظار المترتِّب على استنظاره المتفرّع على الأمر بخروجه مِن بين الملأ الأعلى باللعن المؤبَّد، وإنّما لـم يُصرَّح بذلك اكتفاءً بما ذُكِر في مواضعَ أُخرَ، فإنّ توسيطَ ﴿قَالَ﴾ بين كلامَي اللعين للإيذان بعدم اتّصال الثاني بالأوّل وعدم ابتنائه عليه؛ بل على غيره، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ [الحجر، ١٥/٥٧] بعد قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر، ١٥/٥٦].

﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ "الكاف" لتأكيد الخطاب لا محلّ لها مِن الإعراب، و﴿هَٰذَا﴾ مفعول أوّلُ والموصولُ صفته، والثاني محذوف لدلالة الصلة عليه، أي: أخبِرْني عن هذا الذي كرّمته عليّ بأن أمَرتَني بالسجود له لِمَ كرّمتَه عليّ؟ وقيل: ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ حُذف عنه حرف الاستفهام والموصولُ مع صلته خبره، ومقصودُه الاستصغار والاستحقار، أي: أخبِرْني أهذا مَن كرّمتَه عليّ؟ وقيل: معنى أرأيتَك "أتأمّلتَ"، كأنّ المتكلِّم ينبّه المخاطَب على استحضار ما يخاطبه به عَقيبه.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ حيًا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كلام مبتدأ، و"اللام" موطِّئة للقسَم وجوابُه قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: لَأستأصِلَنّهم، مِن قولهم: "احتنَك الجرادُ الأرض" إذا جرّد ما عليها أكلًا، أو لأقودنّهم حيثما شئتُ ولأستولِينّ عليهم

---

[١] م س: لمَن.

[٢] في تفسير الآية الثانية والثلاثين منها.

استيلاء قويًا، مِن قولهم: "حنكْتُ الدابّةَ" و"احتنكتُها" إذا جعلتَ في حنَكها الأسفل حبلًا تقودُها به، / وهذا كقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٣٨٢ظ] [الحجر، ٣٩/١٥]. وإنّما عَلِم تسَنّيَ ذلك المطلَب له تلقّيًا مِن جهة الملائكةِ عليهم السلام، أو استنباطًا مِن قولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة، ٣٠/٢]، أو توسُّمًا مِن خَلْقه.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم، وهم المخلَصون الذين عصمهم الله تعالى.

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ أي: امضِ لشأنك الذي اخترتَه، وهو طرد له وتخلية بينه وبين ما سوّلت له نفسه. ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي: جزاؤك وجزاؤهم فغُلّب المخاطَب على الغائب رعايةً لحَقّ المتبوعيّة ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي: جزاءً مكمَّلًا مِن قولهم: "فِرْ لصاحبِك عِرضَه فِرَةً"، أي: وفّر، وهو نصب على أنّه مصدر مؤكِّد لِما في قوله: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ مِن معنى "تُجازُون"، أو للفعل المقدَّر، أو حال موطِّئة لقوله: ﴿مَّوْفُورًا﴾.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ أي: استخِفّ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ أن تستفِزَّه ﴿بِصَوْتِكَ﴾ بدعائك إلى الفساد ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ أي: صِحْ عليهم مِن "الجَلَبة" وهي: الصِّياح، ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: بأعوانك وأنصارك مِن راكِب وراجِل مِن أهل العبث والفساد. قال ابن عبّاس رضيَ الله عنهما ومجاهدٌ وقتادةُ: إنّ له خيلًا ورَجِلًا مِن الجنّ والإنس، فما كان مِن راكِب يقاتل في معصية الله تعالى فهو مِن خَيل إبليسَ، وما كان مِن راجِل يقاتل في معصية الله تعالى فهو مِن رَجِل إبليس.[1]

[1] بمعناه في جامع البيان للطبري، ٦٥٨/١٤-٦٥٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٠٥/٥.

والخيلُ: الخيّالة، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «يا خيلَ الله اركبي».[١] والرَّجْلُ: اسمُ جمع للراجل كـ"الصَّحْب" و"الرَّكْب"، وقرئ بكسر الجيم وهي قراءةُ حفصٍ على أنّه فَعِلٌ بمعنى فاعل كـ"تعِب" و"تاعب"، وبضمّه[٢] مثلُ "حدِث" و"حدُث"، و"ندِس" و"ندُس"، ونظائرِهما، أي: جمعك الراجل ليطابق الخيل، وقرئ: "رِجَالِكَ"[٣] و"رُجَّالِكَ".[٤] ويجوز أن يكون استفزازه بصوته وإجلابه بخيله ورَجْله تمثيلًا لتسلّطه على مَن يُغويه، فكأنّه مِغوارٌ أَوْقَعَ على قوم فصوَّت بهم / صوتًا يزعجهم مِن أماكنهم ويُقلِقهم عن مراكزهم، وأجْلَب عليهم بجُنده مِن خيّالة ورَجّالة حتّى استأصلهم. [٣٨٣و]

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بحملهم على كَسْبها وجَمْعها مِن الحرام والتصرّف فيها على ما لا ينبغي، ﴿وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ بالحثّ على التوصّل إليهم بالأسباب المحرَّمة والإشراكِ، كتسميتهم بـ"عبد العُزّى" والتضليل بالحَمْل على الأديان الزائغة والحِرَف الذميمة والأفعال القبيحة.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيدَ الباطلة، كشفاعة الآلهة، والاتّكالِ على كرامة الآباء، وتأخيرِ التوبة بتطويل الأمل. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ اعتراض لبيان شأن مواعيده، والالتفاتُ إلى الغَيبة لتقوية معنى الاعتراض، مع ما فيه مِن صَرْف الكلام عن خطابه وبيانِ شأنه للناس، ومِن الإشعار بعلّيّة شيطنته للغرور، وهو تزيينُ الخطأ بما يُوهِم أنّه صواب.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الإضافة للتشريف، وهم المخلَصون، وفيه أنّ مَن تبِعه ليس منهم، وأنّ الإضافة[٥] لثبوت الحُكم في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾

---

١ جامع البيان للطبري، ٣٦٣/٨ (المائدة، ٣٣/٥)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ١٥٨/١٣ (١٠١٠٦)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٩/٢.

٢ قرأ بها العشرة إلّا حفصًا. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وقتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن جابر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

٥ ط س + عليه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

أي: تسلُّط وقُدرة على إغوائهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل، ١٦/٩٩].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ لهم يتوكّلون عليه ويستمِدّون به في الخلاص عن إغوائك. والتعرّض لوصف الربوبيّة المنبئة عن المالكيّة المطلقة والتصرّف الكلّي مع الإضافة إلى ضمير إبليسَ للإشعار بكيفيّة كفايته تعالى لهم، أعني سَلْب قدرته على إغوائهم.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ مبتدأ وخبر، والإزجاء: السَّوق حالًا بعد حال، أي: هو القادر الحكيم الذي يسوق لمنافعكم الفُلك ويُجريها في البحر ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ مِن رزقه الذي هو فَضْل مِن قِبَله أو مِن الربح الذي هو مُعطيه. و﴿مِن﴾ مزيدة أو تبعيضيّة. وهذا تذكير لبعض النِّعم التي هي دلائل التوحيد وتمهيدٌ لذِكر توحيدهم عند مِساس الضرّ تكملةً لِما مرّ / مِن قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾، الآية.[1] [٣٨٣ظ]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ﴾ أزلًا وأبدًا ﴿رَحِيمًا﴾ حيث هيّأ لكم ما تحتاجون إليه وسهّل عليكم ما يَعسُر مِن مباديه، وهذا تذييل فيه تعليل لِما سبق مِن الإزجاء لابتغاء الفَضل. وصيغة "الرحيم" للدلالة على أنّ المراد بالرحمة الرحمةُ الدنيويّة والنعمةُ العاجلة المنقسمة إلى الجليلة والحقيرة.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ خوفُ الغرقِ فيه ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ أي: ذهب عن خواطركم ما كنتُم تَدْعون مِن دون الله مِن الملائكة أو المسيح أو غيرهم ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وحدَه مِن غير أن يخطُر ببالكم أحد منهم وتدعُوه لكشفه استقلالًا أو اشتراكًا، أو ضلّ كلُّ مَن تدعُونه عن إغاثتكم وإنقاذكم ولم يقدِر على ذلك إلّا الله، على الاستثناء المنقطِع.

---

[1] الإسراء، ١٧/٥٦.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ مِن الغرق وأوصَلكم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن التوحيد، أو اتّسعتم في كُفران النعمة. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ تعليل لِما سبَق مِن الإعراض.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة للإنكار و"الفاء" للعطف على محذوف تقديره: أنَجوتُم فأمِنتُم ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الذي هو مأمنكم، أي: يَقلِبَه مُلتبِسًا بكم أو بسبب كونكم فيه. وفي زيادة "الجانب" تنبيهٌ على تساوي الجوانب والجهات بالنسبة إلى قدرته سبحانه وقهره وسلطانه، وقرئ بنون العظمة.[1]

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ مِن فوقكم، وقرئ بالنون،[2] ﴿حَاصِبًا﴾ ريحًا ترمي بالحَصْباء. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يحفَظكم مِن ذلك أو يصرِفه عنكم، فإنّه لا رادَّ لأمره الغالب.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر، أُوثرت كلمةُ "في" على كلمة "إلى" المنبئةِ عن مجرَّد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه. ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ إسناد الإعادة إليه تعالى مع أنّ العَود باختيارهم باعتبار خَلْق الدواعي المُلجئة لهم إلى ذلك، وفيه إيماءٌ إلى كمال شِدّة هَولِ ما لاقَوه في التارة الأولى، بحيث لولا الإعادةُ / لَما عادوا. [٣٨٤و]

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ وأنتم في البحر، وقرئ بالنون،[3] ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ وهي التي لا تمرّ بشيء إلّا كسرَتْه وجعلتْه كالرميم، أو التي لها قصيف: وهو الصوت الشديد، كأنّها تتقصّف، أي: تتكسّر. ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ بعد كَسْر فُلْككم كما ينبئ عنه

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.
٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.
٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

عنوان القَصْف، وقرئ بالنون[1] وبالتاء[2] على الإسناد إلى ضمير ﴿ٱلرِّيحِ﴾. ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراككم، أو كفرانِكم لنعمة الإنجاء.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ أي: ثائرًا يطالبنا بما فعلنا انتصارًا منّا ودَرْكًا للثأر مِن جهتنا، كقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس، ١٥/٩١].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ قاطبةً تكريمًا شاملًا لبَرّهم وفاجرِهم، أي: كرّمناهم بالصورة والقامة المعتدِلة والتسلّط على ما في الأرض والتمتّع به والتمكّن مِن الصناعات وغير ذلك ممّا لا يكاد يُحيط به نِطاق العبارة. ومِن جملته ما ذكَره ابن عبّاس رضي الله عنهما مِن أنّ كلّ حيوان يتناول طعامه بفيه إلّا الإنسان، فإنّه يرفعه إليه بيده.[3] وما قيل مِن شِرْكة القِرد له في ذلك مبنيّ على عدم الفرق بين اليد والرِّجل، فإنّه متناول له برِجله التي يطأ بها القاذورات لا بيده.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ على الدوابّ والسُّفن، مِن "حملْتُه" إذا جعلتَ له ما يركَبه، وليس مِن المخلوقات شيء كذلك. وقيل: حملناهم فيهما حيث لم يخسِف بهم الأرض ولم يُغرِقهم الماء، وأنت خبير بأنّ الأوّل هو الأنسب بالتكريم، إذ جميع الحيوانات كذلك. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: فنون النِّعم وضُروب المستلَذّات ممّا يحصُل بصُنعهم وبغير صُنعِهم.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ في العلوم والإدراكات بما ركّبنا فيهم مِن القُوى المدرِكة التي بها يتميّز الحقّ مِن الباطل والحسَن مِن القبيح، ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ وهم مَن عدا الملائكةِ عليهم السلام ﴿تَفْضِيلًا﴾ عظيمًا فحَقّ عليهم / أن يشكروا هذه النِّعم ولا يكفروها، ويستعملوا قُواهم في تحصيل العقائد الحَقّة، [٣٨٤ظ]

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

[2] قرأ بها أبو جعفر ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

[3] مرويّ بمعناه عن ابن جُريج في جامع البيان للطبري، ٥/١٥؛ وعن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ١٠٨/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠١/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٣٩/١٢.

ويرفضوا ما هم عليه مِن الشِّرك الذي لا يقبَله أحد ممّن له أدنى تمييز فضلًا عمّن فُضِّل على مَن عدا الملأ الأعلى الذين هم العقول المَحضة، وإنّما استُثنيَ جنس الملائكة مِن هذا التفضيل؛ لأنّ علومَهم دائمةٌ عارية عن الخطأ والخَلَل، وليس فيه دلالة على أفضليّتهم بالمعنى المتنازَع فيه، فإنّ المراد[1] بيان التفضيل في أمر مشترَك بين جميع أفراد البشر صالحِها وطالحِها، ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضلَ في عِظم الدرجة وزيادةِ القُربة عند الله سبحانه.

إن قيل: أيُّ حاجةٍ إلى تعيين ما[2] فيه التفضيل بعد بيان ما هو المراد بالمفضَّلين؟ فإنّ استثناء الملائكة عليهم السلام مِن تفضيل جميع أفراد البشر عليهم لا يستلزِم استثناءهم مِن تفضيل بعض أفراده عليهم. قلنا: لا بدّ مِن تعيينه البتّةَ، إذ ليس مِن الأفراد الفاجرة للبشر أحد يُفضَّل على أحد مِن المخلوقات فيما هو المتنازَع فيه أصلًا؛ بل هم أدنى مِن كلّ دنيء، حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[3] [الأعراف، ١٧٩/٧]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال، ٥٥/٨].

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ﴾ نصب على المفعوليّة بإضمار "اذكر"، أو ظرفٌ لِما دلّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾، وقرئ بالياء[4] على البناء للفاعل وللمفعول،[5] و"يُدْعَوْ"[6] بقلب الألف واوًا على لغة مَن يقول في "أَفْعَى": أَفْعَوْ. وقد جُوِّز كون "الواو" علامةَ الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ [طه، ٦٢/٢٠]،

---

١ وفي هامش م: هنا.

٢ وفي هامش م: مِن العلوم والإدراكات التي هي مَناط تمييز الحقّ مِن الباطل والحسَن من القبيح، كما مرّ. «منه».

٣ م س + سبيلًا.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وقتادة والعمري عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٢.

أو ضميرَه، و﴿كُلَّ﴾ بدلًا منه، و"النونُ" محذوفة لقلّة المبالاة بها، فإنّها ليست إلّا علامة الرفع، وقد يُكتفى بتقديره كما في "يُدْعَي".

﴿كُلَّ أُنَاسٍ﴾ مِن بني آدمَ الذين فعلنا بهم في الدنيا ما فعلنا مِن التكريم والتفضيل. وهذا شروع في بيان تفاوت أحوالهم في الآخِرة بحسب أحوالهم وأعمالهم في الدنيا. ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أي: بمَن ائتمّوا به مِن نبيّ، أو مقدَّم في الدِّين، أو كتابٍ، أو دِين.
[٣٨٥و] وقيل: بكتاب أعمالِهم التي قدّموها، فيقال: / يا أصحاب كتاب الخير، يا أصحابَ كتاب الشرّ، أو يا أهل دِين كذا، يا أهلَ كتاب كذا.[1] وقيل: "الإِمَام" جمعُ "أُمّ" كـ"خُفّ" و"خِفاف"،[2] والحكمةُ في دعوتهم بأمّهاتهم إجلال عيسى عليه السلام وتشريف الحسنين رضي الله تعالى عنهما، والسَّتر على أولاد الزِّنا.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ يومئذ مِن أولئك المدعوّين ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ صحيفةَ أعماله ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ إبانة لخطر الكتاب المؤتى وتشريفًا لصاحبه وتبشيرًا له مِن أوّل الأمر بما في مطاويه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَنْ﴾ باعتبار معناه إيذانًا بأنّهم حزب مجتمِعون على شأن جليل، أو إشعارًا بأنّ قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما في حال الإيتاء.

وما فيه مِن الدلالة على البعد للإشعار برفعة درجاتهم، أي: أولئك المختصُّون بتلك الكرامة التي يُشعِر بها الإيتاء المزبور ﴿يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ الذي أوتوه على الوجه المبيَّن تبجّحًا بما سُطِّر فيه مِن الحسنات المستتبِعة لفنون الكرامات. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يُنقَصون مِن أجور أعمالهم المرتسِمة في كتبهم؛ بل يؤتَونها مضاعَفةً. ﴿فَتِيلًا﴾ أي: قدْرَ فتيل: وهو القِشرة التي في شقّ النواة، أو أدنى شيء، فإنّ الفَتيل مثَل في القِلّة والحَقارة.

﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَمَن كَانَ﴾ مِن المَدعوّين المَذكورين ﴿فِى هَٰذِهِۦ﴾ الدنيا التي فُعِل بهم فيها

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٢.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٢، وذكر أنّه مِن بِدع التفاسير.

ما فُعِل مِن فنون التكريم والتفضيل ﴿أَعْمَىٰ﴾ فاقدَ البصيرة[١] لا يهتدي إلى رُشده ولا يعرِف ما أوليناه مِن نعمة التكرِمة والتفضيل فضلًا عن شكرها والقيام بحقوقها، ولا يستعمِل ما أودعنا فيه مِن العقول والقُوى فيما خُلِقنَ له مِن العلوم والمعارِف الحَقّة، ﴿فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ التي عُبِّر عنها بـ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ﴾[٢] ﴿أَعْمَىٰ﴾ كذلك، أي: لا يهتدي إلى ما يُنجيه ولا يَظفَر بما يُجديه؛ لأنّ العمى الأوّلَ موجِب للثاني، وقد جُوِّز كون الثاني بمعنى التفضيل / على أنّ عماه في الآخرة [٣٨٥ظ]
أشدّ مِن عماه في الدنيا، ولذلك قرأ أبو عمرو الأوّل مُمَالًا والثاني مفخَّمًا.[٣]

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: مِن الأعمى لزوال الاستعداد الممكِن وتعطُّل الآلات بالكلّيّة، وهذا بعينه هو الذي أوتيَ كتابه بشماله بدلالة حال ما سبَق مِن الفريق المقابِل له. ولعلّ العدولَ عن ذِكره بذلك العنوان مع أنّه الذي يستدعيه حُسن المقابلة حسبما هو الواقع في سورة الحاقّة[٤] وسورة الانشقاق[٥] للإيذان بالعِلّة المُوجِبة له، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقعة، ٩٢/٥٦] بعد قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ[٦] إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة، ٩٠/٥٦]، وللرمز إلى عِلّة حال الفريق الأوّل.

وقد ذُكر في أحد الجانبين المسبَّب وفي الآخر السبب، ودُلّ بالمذكور في كلّ منهما على المتروك في الآخر تعويلًا على شهادة العقل، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس، ١٠٧/١٠].

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ نزلت في ثقيف إذ قالوا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

---

١ س: البصر.
٢ في الآية السابقة.
٣ انظر: النشر لابن الجزري، ٤٣/٢.
٤ يعني المقابلة بين قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة، ١٩/٦٩]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة، ٢٥/٦٩].
٥ يعني المقابلة بين قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق، ٧/٨٤]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق، ١٠/٨٤].
٦ م س: فأمّا.

«لا ندخُل في أمرك حتّى تُعطيَنا خِصالًا نفتخر بها على العرب لا نُعشَر ولا نُحشَر ولا نحبّي[1] في صلاتنا، وكلُّ رِبًا لنا فهو لنا وكلُّ ربًا علينا فهو موضوع عنّا، وأن تُمتِّعنا باللات سنةً وأن تُحرِّم وادينا وَجَّ كما حرَّمتَ مكّة، فإذا قالت العرب: "لِمَ فعلتَ؟" فقل: "إنّ الله أمرني بذلك"».[2] وقيل: في قريش حيث قالوا: «اجعل لنا آيةَ رحمةٍ آيةَ عذابٍ وآيةَ عذابٍ آيةَ رحمةٍ».[3] أو قالوا: «لا نُمكِّنك مِن استلام الحَجر حتّى تُلمّ بآلهتنا».[4] فـ﴿إن﴾ مخفَّفة مِن المشدَّدة، وضميرُ الشأن الذي هو اسمها محذوف، و"اللام" هي الفارقة بينها وبين النافية، أي: الشأن قارَبوا أن يفتنوك، أي: يخدعوك فاتنين ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مِن أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا.

[٣٨٦و] ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥ﴾ لتتقوَّل / علينا غيرَ الذي أوحينا إليك ممّا اقترحَتْه ثقيفٌ أو قريشٌ حسبما نُقل. ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ أي: لو اتّبعت أهواءهم لكنتَ لهم وليًا ولخرجتَ مِن ولايتي.

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ على ما أنت عليه مِن الحقّ بعِصمتنا لك ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ مِن الركون الذي هو أدنى مَيلٍ، أي: لولا تثبيتُنا لك لَقاربت أن تميل إليهم شيئًا يسيرًا مِن المَيل اليسير لقوّة خُدَعِهم وشدّة احتيالهم، لكن أدركَتْك العصمة فمنعَتْك مِن أن تقرَب مِن أدنى مراتب الركون إليهم فضلًا عن نفس الركون، وهذا صريح في أنّه عليه السلام ما همّ بإجابتهم مع قوّة الداعي إليها، ودليلٌ على أنّ العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته.

---

[1] كذا في الأصول، وهي في المصادر الآتية: "نحني" أو "ننحني".

[2] بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ٢٩٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢.

[3] بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٤٨/١٢.

[4] مرويّ عن سعيد بن جُبير بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٣/١٥؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٩٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١١/٥.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾

﴿إِذًا﴾ لو قاربتَ أن تركنَ إليهم أدنى رَكْنة ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: عذابَ الدنيا وعذابَ الآخرة ضعفَ ما يُعذَّب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرُك؛ لأنّ خطأ الخطير خطير. وكان أصل الكلام عذابًا ضِعفًا في الحياة وعذابًا ضِعفًا في الممات، بمعنى: مضاعَفًا، ثمّ حُذف الموصوف وأُقيمت الصفةُ مُقامَه، ثمّ أُضيفت إضافةَ موصوفِها. وقيل: الضِّعف مِن أسماء العذاب. وقيل: المراد بـ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ عذابُ الآخرة، وبـ﴿ضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ عذابُ القبر. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفَع عنك العذاب.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾

﴿وَإِن كَادُواْ﴾ الكلام فيه كما في الأوّل، أي: كاد أهل مكّة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي: ليُزعِجونك بعداوتهم ومكرِهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأرضِ التي أنت فيها وهي أرض مكّة، ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ بالرفع عطفًا على خبر "كاد"، وقُرئ: "لَا يَلْبَثُوا"[١] بالنصب بإعمال ﴿إِذًا﴾ على أنّ الجملة معطوفة على جملة ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾.

/ ﴿خِلَٰفَكَ﴾ أي: بعدك، قال: [٣٨٦ظ]

خلتِ الديار خِلافَهم فكأنّما بَسَط الشواطِبُ بينهنّ حصيرا[٢]

أي: ولو خرجتَ لا يبقَون بعد خروجك، وقُرئ: "خَلْفَكَ".[٣]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

[٢] البيت مختلف في نسبته: فهو للحارث بن خالد المخزومي في ديوانه، ص ٦٣، وفيه «عَقَب الرَّذاذُ» مكان «خلتِ الديارُ»؛ وهو له في مجاز القرآن لأبي عُبيدة، ٢٦٤/١، وفيه «عَقَب الربيعُ» مكان «خلتِ الديارُ». وهو للأحوص في التفسير البسيط للواحدي، ٥٧٧/١٠ (التوبة، ٨١/٩)، وليس في ديوان الأحوص ولا في ملحقاته. وهو لجرير في العين للفراهيدي، ١٧٩/١، وليس في ديوان جرير. وهو بلا نسبة في جامع البيان للطبري، ٢١/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢، وفي مطبوعه «عفَت» مكان «خلَت». والشواطب: النساء اللواتي يُشقِّقن الخُوص ويقشِرنَ العُسُب ليتّخذْنَ منه الحُصُر. لسان العرب لابن منظور، «شطب».

[٣] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلّا زمانًا قليلًا، وقد كان كذلك فإنّهم أُهلِكوا ببدر بعد هجرته عليه السلام. وقيل: نزلت الآية في اليهود حيث حسدوا مُقامَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة، فقالوا: «الشام مُقام الأنبياء عليهم السلام، فإنْ كنتَ نبيًّا فالحَقْ بها حتّى نُؤمِن بك»، فوقَع ذلك في قلبه عليه السلام، فخرَج مرحلةً، فنزلت فرجع. ثمّ قُتل منهم بنو قريظةَ وأُجليَ بنو النضير بقليلٍ.[1]

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ نصب على المصدريّة، أي: سنّ الله تعالى سُنّةً، وهي أن يُهلك كلّ أمّة أخرجَت رسولهم مِن بين أظهُرهم، فالسُّنّة لله تعالى، وإضافتُها إلى الرسل؛ لأنّها سُنّتْ لأجلهم، على ما ينطِق به قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي: تغييرًا.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لزوالها،[2] كما ينبئ عنه قولُه عليه السلام: «أتاني جبريلُ عليه السلام لدُلوك الشمس حين زالت فصلّى بي الظهر»،[3] واشتقاقه مِن الدَّلْك؛ لأنّ مَن نظر إليها حينئذ يدلُك عينه. وقيل: لغروبها، مِن "دلَكَتِ الشمسُ"، أي: غرَبت.[4] وقيل: أصل الدُّلوك المَيل، فينتظِم كلا المعنيين. و"اللام" للتأقيت مِثلُها في قولك: "لثلاثٍ خلَوْن".[5]

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى اجتماع ظلمته، وهو وقت صلاة العِشاء، وليس المراد إقامتَها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار؛ بل إقامةَ كلّ صلاة في وقتها

---

١ بلفظه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣١٤.

٢ مرويٌّ عن ابن عبّاس وابن عمرَ وجابر وأكثر التابعين. انظر: جامع البيان للطبري، ١٥/٢٥-٣٠، ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١١٤.

٣ جامع البيان للطبري، ١٥/٢٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٣،

٤ مرويٌّ عن ابن مسعود والنخَعي وغيرهما. انظر: جامع البيان للطبري، ١٥/٢٢-٢٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١١٤، واختاره الزمخشري في الكشّاف، ٢/٥٠٥.

٥ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣١٤.

الذي عُيِّن لها ببيان جبريلَ عليه السلام، كما أنّ أعداد ركعات كلّ صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلام. ولعلّ الاكتفاءَ ببيان المبدأ والمنتهى في أوقات الصلوات / مِن غير فَصْل بينها، لِما أنّ الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة، [٣٨٧و] فبعضُها متَّصل ببعض بخلاف أوّل وقت العشاء والفجر، فإنّها باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدهما عن الآخر، ولذلك فُصل وقت الفجر عن سائر الأوقات.[١] والتحديد المذكور بيانٌ لمبدئه ومنتهاه واستُدِلّ به على امتداد وقته.[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: صلاةَ الفجر.[٣] نصب عطفًا على مفعول ﴿أَقِمِ﴾، أو على الإغراء، قاله الزجّاج.[٤] وإنّما سُمِّيت قرآنًا؛ لأنّه رُكنها، كما تُسمّى رُكوعًا وسُجودًا. واستُدلّ به على الركنيّة، ولكن لا دلالةَ له على ذلك لجواز كون مدار التجوّز كون القراءة مندوبة فيها. نعَم لو فُسِّر بالقراءة في صلاة الفجر لدلّ الأمر بإقامتها على الوجوب فيها نصًّا وفيما عداها دلالةً.[٥] ويجوز أن يكون ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ حثًّا على تطويل القراءةِ في صلاة الفجر.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أظهِر في مقام الإضمار إبانةً لمزيد الاهتمامِ به ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، أو شواهدُ القدرة مِن تبدُّل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذي هو أخو الموت، أو يشهَده كثير مِن المصلّين أو مِن حقّه أن يشهَده الجمّ الغفير. فالآية على تفسير الدُّلوك بالزوال جامعة للصلوات الخمس، وعلى تفسيره بالغروب لِما عدا الظهرَ والعصر.

---

١ ط س + وقيل: المراد بالصلاة صلاة المغرب. | وكانت مُثبتةً في م ثمّ ضُرِب عليها، فكأنّ ذلك وقع بعد نسخ ط س. هذا والقول المذكور مرويٌّ عن قتادة. انظر: جامع البيان للطبري، ٣١/١٥-٣٢، ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٤/٥.

٢ ط س + إلى غُروب الشفق. | وكانت مُثبتةً في م ثمّ ضُرِب عليها، فكأنّ ذلك وقع بعد نسخ ط س.

٣ مرويٌّ عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وغيرهم. انظر: جامع البيان للطبري، ٣٥/١٥، ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٤/٥.

٤ لم أجِده للزّجّاج. والمذكور في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٩٨/٧، واللباب لابن عادل، ٣٥٩/١٢، أنّه قول الأخفش تبعه عليه أبو البقاء، وذكرا أنّ أصول البصريّين تأباه. وانظر: معاني القرآن للأخفش، ٤٢٦/٢، والتبيان للعكبري، ٨٣٠/٢.

٥ هذا الاستدلال وما عليه من كلام مذكور بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٥/٢، وبعضه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٥/٢.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ قيل: هو نصب على الإغراء، أي: الزَم بعضَ الليل.[1] وقيل: لا
[٣٨٧ظ] يكون / المُغرى به حرفًا، ولا يجدي نفعًا كون معناها التبعيض، فإنّ واو "مع" ليست اسمًا بالإجماع، وإن كانت بمعنى الاسم الصريح؛[2] بل هو منصوب على الظرفيّة بمضمَر، أي: قُم بعضَ الليل.

﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ أي: أزِلْ وألقِ الهجود، أي: النوم، فإنّ صيغة التفعُّل تجيء للإزالة كـ"التحرُّج" و"التحنُّث" و"التأثُّم" ونظائرِها. والضمير المجرور لـ"القرآن" مِن حيث هو، لا بقيد إضافته إلى الفجر أو للبعض المفهوم مِن قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّيْلِ﴾، أي: تهجّد في ذلك البعض، على أنّ "الباء" بمعنى "في". وقيل: منصوب بـ﴿تَهَجَّدْ﴾، أي: تهجَّدْ بالقرآن بعضَ الليل، على طريقة ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة، ٢/٤٠].[3]

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فريضةً زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصّةً بك دون الأمّة، ولعلّه هو الوجه في تأخير ذِكرها عن ذِكر صلاة الفجر مع تقدّم وقتها على وقتها، أو تطوّعًا،[4] لكن لا لكونها زيادة على الفرائض؛ بل لكونها زيادة له صلّى الله عليه وسلّم في الدرجات، على ما قال مجاهدٌ والسدّي،[5] فإنّه عليه السلام مغفور له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر فيكون تطوُّعه زيادةً في درجاته، بخلاف مَن عداه مِن الأمّة، فإنّ تطوُّعهم لتكفير ذنوبهم وتدارُكِ الخَلَل الواقع في فرائضهم.

وانتصابُها إمّا على المصدريّة بتقدير "تَنَفَّلْ"، أو بجَعْل ﴿تَهَجَّدْ﴾ بمعناه، أو بجَعْل ﴿نَافِلَةً﴾ بمعنى تهجُّدًا، فإنّ ذلك عبادة زائدة، وإمّا على الحاليّة مِن الضمير الراجع إلى القرآن، أي: حالَ كونها صلاة نافلة، وإمّا على المفعوليّة لـ﴿تَهَجَّدْ﴾،

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٥.
٢ هذا الردُّ مذكور في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧/٣٩٨؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٣٦٠.
٣ يعني: من ناحية التقدير، فهو في الآية: وإيّايَ ارهبوا فارهبون. انظر: مفتاح العلوم للسكّاكي، ص ٣٥٩.
٤ السياق: فريضة... أو تطوُّعًا...
٥ انظر: جامع البيان للطبري، ١٥/٤١.

إذا جُعل بمعنى "صلِّ" وجُعل الضمير المجرور للبعض، أي: فَصَلِّ في ذلك البعض نافلةً لك.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ﴾ / الذي يُبلِّغك إلى كمالك اللائق بك مِن بعد الموت الأكبر لِما انبعثْتَ مِن النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة، ﴿مَقَامٗا﴾ نصب على الظرفيّة على إضمار "فيُقيمَك"، أو تضمينِ "البعث" معنى الإقامة، إذ لا بدّ مِن أن يكون العامل في مِثل هذا الظرف فعلًا فيه معنى الاستقرار، ويجوز أن يكون حالًا بتقدير مضاف، أي: يبعثك ذا مَقام. ﴿مَّحۡمُودٗا﴾ عندك وعند جميع الناس.[1] وفيه تهوينٌ لمشقّة قيام الليل. [٣٨٨و]

وروى أبو هريرةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «المقام المحمود هو المقام الذي أشفَع فيه لأمّتي»،[2] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: مقامًا يحمَدك فيه الأوّلون والآخرون وتُشرف فيه على جميع الخلائق، تسأل فتُعطى، وتشفَع فتُشفَّع، ليس أحد إلّا تحت لوائك.[3] وعن حذيفةَ رضي الله تعالى عنه: يُجمَع الناس في صَعيد واحد فلا تتكلَّم فيه نفس، فأوّلُ مَدعُوّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم فيقول: «لبّيكَ وسَعْدَيكَ، والشرُّ ليس إليك، والمَهديُّ مَن هَديتَ، وعبدُك بين يديك، وبك وإليك، لا ملجأَ ولا مَنجى منك إلّا إليك، تباركتَ وتعاليتَ، سبحانك ربَّ البيت».[4]

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ۝٨٠﴾

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي﴾ أي: القبرَ ﴿مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ أي: إدخالًا مَرضيًّا ﴿وَأَخۡرِجۡنِي﴾ أي: منه عند البعث ﴿مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ أي: إخراجًا مَرضيًّا مُلقًّى بالكرامة، فهو تلقين للدعاء بما وعده مِن البعث المقرون بالإقامة المعهودة التي لا كرامةَ فوقها.

---

١ وفي هامش م: الخلق.

٢ مسند أحمد، ١٥/٤٢٧ (٩٦٨٤)؛ جامع البيان للطبري، ١٥/٤٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٦.

٣ التفسير البسيط للواحدي، ١٣/٤٤٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٦. ولم أجده في مظانّه.

٤ مسند الطيالسي، ١/٣٣٠ (٤١٤)؛ مسند البزّار، ٧/٣٢٩ (٢٩٢٦)؛ جامع البيان للطبري، ١٥/٤٣-٤٤، ٤٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٦.

وقيل: المراد إدخال المدينة والإخراج مِن مكّةَ.[١] وتغيير ترتيب الوجود لكون الإدخال هو المقصدَ، وقيل: إدخالُه عليه السلام مكّةَ ظاهرًا عليها، / وإخراجُه [٣٨٨ظ] منها آمنًا مِن المشركين. وقيل: إدخاله الغارَ وإخراجُه منه سالمًا. وقيل: إدخاله فيما حُمِّله مِن أعباء الرسالة، وإخراجُه منه مؤدّيًا حَقَّه. وقيل: إدخاله في كلّ ما يلابسه مِن مكان أو أمر وإخراجُه منه.[٢] وقرئ: "مَدْخَلَ" و"مَخْرَجَ" بالفتح[٣] على معنى: أدخلني فأدخُلَ دخولًا وأخرجني فأخرُجَ خروجًا، كقوله:

وعَضّةُ دهرٍ يا بنَ مروانَ لم يدَع ... مِن المال إلّا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ[٤]

أي: لم يدَع فلم يبْقَ.

﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ حجّةً تنصُرني على مَن يخالفني، أو مُلكًا وعِزًّا ناصرًا للإسلام مُظهِرًا له على الكفر، فأجيبت دعوته عليه السلام بقوله عزّ وعلا: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة، ٥/٦٧]، ﴿فَإِنَّ[٥] حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة، ٥/٥٦]، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف، ٦١/٩]، ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور، ٢٤/٥٥].

﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾

﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الإسلام والوحيُ الثابت الراسخ ﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ أي: ذهب وهلَك الشِّرك والكفر وتسويلات الشيطان، مِن "زهَق روحُه" إذا خرَج. ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ كائنًا ما كان ﴿كَانَ زَهُوقٗا﴾ أي: شأنه أن يكون مضمحِلًا غيرَ ثابت، وهو عِدَة كريمة بإجابة الدعاء بالسلطان النصير الذي لُقِّنه.

---

١ مرويٌّ عن ابن عبّاس والحسن وقتادة. انظر: مسند أحمد، ٤١٧/٣ (١٩٤٨)؛ وسنن الترمذي، ٣٦٢/٥ (٣١٣٩)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٤/١٥-٥٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٢٢/٥.

٢ الأقوال الأربعة في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي عبلة والمفضّل وحُميد والرفاعي عن يحيى عن أبي بكر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٤١.

٤ البيت للفرزدق في ديوانه، ص ٣٨٦؛ وهو له في جامع البيان للطبري، ٤٣٥/٨ (المائدة، ٤٢/٥)؛ وجمهرة اللغة لابن دريد، ١٢٥٩/٣، وذكر فيه المعنى الذي أورده المؤلِّف. والرِّواية فيها جميعًا وفي غيرها:

وعضُّ زمان يا بن مروانَ لم يَدَع ... من المال إلّا مُسحتًا أو مُجلّفُ

٥ م س: ألا إنّ.

عن ابن مسعود رضيَ الله عنه أنّه عليه السلام دخل مكّةَ يوم الفتح وحول البيت ثلاثُمائة وستّون صنمًا فجعل ينكُت بمِخْصَرة[١] كانت بيده في عين واحدٍ واحدٍ فيقول: «جاء الحقُّ وزهق الباطلُ»، فينكبّ لوجهه حتّى أَلْقَى جميعَها، وبقيَ صنم خُزاعةَ فوق الكعبة، وكان مِن صُفْر،[٢] فقال: «يا عليُّ ارمِ به»، فصعِد فرمى به فكسره.[٣]

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وقرئ: "نُنْزِلُ"[٤] مِن الإنزال ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ لِما في الصدور مِن أدواء الرِّيب وأسقام الأوهام ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به العاملين بما في تضاعيفه، أي: ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي / للمرضى. [٣٨٩و]

و﴿مِن﴾ بيانيّة قُدِّمت على المُبيَّن اعتناءً، فإنّ كلّ القرآن كذلك، وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن لم يستَشْفِ بالقرآن فلا شفاه الله»،[٥] أو تبعيضيّة لكن لا بمعنى أنّ بعضه ليس كذلك؛ بل بمعنى أنّا نُنزِّل منه في كلّ نَوبة ما يستدعي الحكمة نزوله حينئذ، فيقع ذلك ممّن نزل عليهم بسبب موافقته لأحوالهم الداعية إلى نزوله موقعَ الدواء الشافي المصادِف، لا بأنّه مِن المرضى المحتاجين إليه بحسب الحال مِن غير تقديم ولا تأخير، فكلُّ بعضٍ منه متّصف بالشفاء لكن لا في كلّ حين؛ بل عند تنزيله.

وتحقيق التبعيض باعتبار الشفاء الجسماني كما في "الفاتحة" وآياتِ الشفاء لا يساعده قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: لا يزيد القرآن كلُّه أو كلُّ بعضٍ منه الكافرين المكذِّبين به الواضعين للأشياءِ في غير مواضعِها، مع كونه في نفسه شفاءً مِن الأسقام، إلّا خَسارًا، أي: هلاكًا بكفرهم وتكذيبهم،

---

١ المِخصرة: ما يأخذه الرجُل بيده ليتوكّأ عليه مِن عصًا ونحوها. لسان العرب لابن منظور، «خصر».

٢ الصُفر: النُّحاس. لسان العرب لابن منظور، «صفر».

٣ بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٢. وبعضه عن ابن مسعود في جامع البيان للطبري، ٦١/١٥؛ وصحيح ابن حبّان، ١٧٢/١٣ (٥٨٦٢)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ١٩١/١٠ (١٠٤٢٧).

٤ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢، ٣٠٨.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٦١/١٦؛ التفسير البسيط للواحدي، ٤٥٣/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٢-٥٠٨.

لا نقصانًا كما قيل،[١] فإنّ ما بهم مِن داء الكفرِ والضلال حقيقٌ بأن يُعبَّر عنه بالهلاك، لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعض مبادي الإسلام فيهم، وزيادتُهم في مراتب الهلاك مِن حيث إنّهم كلّما جدّدوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة تدريجًا ازدادوا بذلك هلاكًا. وفيه إيماء إلى أنّ ما بالمؤمنين مِن الشُّبَه والشُّكوك المعترية لهم في أثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الأمراض، وما بالكفَرة مِن الجهل والعِناد بمنزلة الموت والهلاك.

وإسنادُ الزيادة المذكورة إلى القرآن مع أنّهم هم المُزدادون في ذلك بسوء صنيعهم باعتبار كونه سببًا لذلك، وفيه تعجيب مِن أمره حيث يكون مَدارًا للشفاء والهلاك.

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ بالصحّة والنعمة ﴿أَعۡرَضَ﴾ عن ذكرنا فضلًا عن القيام بمواجب الشكر ﴿وَنَـَٔا﴾ تباعدَ عن طاعتنا ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ النأيُ بالجانب: / أن يَلويَ عن الشيء عِطفَه ويُوليَه عُرضَ وجهه، فهو تأكيد للإعراض أو عبارة عن الاستكبار؛ لأنّه مِن ديدن المستكبرين. [٣٨٩ظ]

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ مِن فقر أو مرض أو نازلة مِن النوازل. وفي إسناد المِساس إلى الشرّ بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيذانٌ بأنّ الخير مراد بالذات، والشرّ ليس كذلك.

﴿كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ شديدَ اليأس مِن رَوْحنا. وهذا وَصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممّن هو على هذه الصفة، ولا يُنافيه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصلت، ٥١/٤١] ونظائرُه، فإنّ ذلك شأن بعض آخرين منهم. وقيل: أريدَ به الوليد بن المغيرة. وقرئ: "نَاءَ"[٢] إمّا على القلب، كما يقال: "راءَ" في "رأى"، وإمّا على أنّه بمعنى "نَهَض".

---

[١] في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٨/٢.

[٢] قرأ بها أبو جعفر وابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ۝٨٤﴾

﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: كلّ أحد منكم وممّن هو على خلافكم ﴿يَعْمَلُ﴾ عمَله ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة أو جوهرِ رُوحه وأحوالِه التابعة لمِزاج بدنه، ﴿فَرَبُّكُمْ﴾ الذي برأكم على هذه الطبائع المتخالفة ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: أسدُّ طريقًا وأبينُ مِنهاجًا، وقد فُسِّرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدِّين.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الظاهر أنّ السؤال كان عن حقيقة الروح الذي هو مدبِّر البدن الإنساني ومبدأ حياته، رُوي أنّ اليهود قالوا لقريش: سلُوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القَرنين وعن الرّوح، فإن أجاب عنها جميعًا أو سكت فليس بنبيّ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبيّ. فبيَّن لهم القصّتين، وأبهَم أمر الرُّوح، وهو مُبهَم في التوراة.[1]

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ أظهِر في مقام الإضمار إظهارًا لكمال الاعتناء بشأنهم ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ كلمة ﴿مِن﴾ بيانيّة، و"الأمر" بمعنى الشأن، والإضافةُ للاختصاص العِلْمي لا الإيجادي لاشتراك الكلّ فيه، وفيها مِن تشريف المضاف ما لا يخفى، كما في الإضافة الثانية مِن تشريف المضاف إليه، أي: هو مِن جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه مِن الأسرار الخفيّة التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يمكن تعلُّقه بأمثال ذلك. رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا قال لهم ذلك قالوا: / «أنحن مختصّون بهذا الخطاب؟» قال [٣٩٠و] عليه السلام: «بل نحن وأنتم». فقالوا: «ما أعجبَ شأنَك! ساعةً تقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة، ٢/٢٦٩]، وتارة تقول هذا»، فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية [لقمان، ٣١/٢٧].[2]

---

[1] بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ٣٠٠، وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٨. ولم أجِده في مظانّه.

[2] بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٨؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٣٨٠. ولم أجِده في مظانّه.

وإنّما قالوا ذلك لركاكة عقولهم، فإنّ الحكمة الإنسانيّة أن يعلَم مِن الخير ما تسَعه الطاقة البشريّة؛ بل ما نِيط به المعاش والمعاد، وذلك بالإضافة إلى ما لا نهايةَ له مِن معلوماته سبحانه قليل يُنال به خير كثير في نفسه أو بالنسبة إلى الإنسان، أو هو مِن الإبداعيّات الكائنة بمَحض الأمر التكويني مِن غير تحصُّل مِن مادّة وتولُّد مِن أصل كأعضاء الجسد حتّى يمكن تعريفه ببعض مباديه، ومآله أنّه مِن عالم الأمر لا مِن عالم الخَلق.

وليس هذا مِن قَبيل قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس، ٣٦/٨٢]، فإنّ ذلك عبارة عن سرعة التكوين، سواءٌ كان الكائن مِن عالم الأمر أو مِن عالم الخَلْق، وفيه تنبيهٌ على أنّه ممّا لا يُحيط بكنهه دائرة إدراك البشر، وإنّما الممكن هذا القدر الإجمالي المندرِج تحت ما استُثنيَ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: إلّا علمًا قليلًا تستفيدونه مِن طرُق الحواسّ، فإنّ تعقّل المعارف النظريّة إنّما هو مِن إحساس الجزئيّات، ولذلك قيل: «مَن فقَدَ حِسًّا فقَدْ فَقَد عِلمًا».[1]

ولعلّ أكثرَ الأشياء لا يُدرِكه الحسُّ ولا شيئًا مِن أحواله التي يدور عليها معرفةُ ذاته، وأمّا حَمْل ما ذُكر على السؤال عن قِدَمه وحدوثه وجعلُ الجواب إخبارًا بحدوثه، أي: كائن بتكوينه حادث بإحداثه بالأمر التكويني، فمع عدم ملاءمته لحال السائلين لا يساعده التعرّض لبيان قلّة عِلمهم، فإنّ ما سألوا عنه ممّا يفي به عِلمهم حينئذ وقد أُخبر عنه.

وقيل: المراد بالروح خَلْق عظيم روحاني أعظمُ مِن المَلَك. وقيل: جبريلُ عليه السلام. وقيل: القرآنُ.[2] ومعنى ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ مِن وحيه وكلامه لا مِن كلام البشر.

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦﴾

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مِن القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين ومنبَع للعلوم التي أوتيتموها، وثبّتناك عليه حين كادوا يفتِنونك عنه،

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣١٧؛ فتوح الغيب للطِّيبي، ٩/٣٦٨.

[2] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٨.

ولولاه لكِدتَ تركَن إليهم شيئًا قليلًا. وإنّما عُبِّر عنه بالموصول تفخيمًا لشأنه
ووصفًا له بما في حيّز الصلة ابتداء / إعلامًا بحاله مِن أوّل الأمر وبأنه ليس مِن [٣٩٠ظ]
قبيل كلام المخلوق. و"اللام" موطِّئة للقسَم، و﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ جوابه النائب منابَ
جزاء الشرط، وبذلك حسُن حَذْف مفعول المشيئة.

والمراد مِن "الذهاب به" المَحْو عن المصاحف والصدور، وهو أبلغُ مِن الإذهاب. عن ابن مسعود رضيَ الله عنه: «أنّ أوّل ما تفقِدون مِن دينكم الأمانةُ وآخرَ ما تفقِدون الصلاةُ، وليُصَلّين قوم ولا دينَ لهم، وأنّ هذا القرآنَ تُصبحون يومًا وما فيكم منه شيء»، فقال رجل: «كيف ذلك، وقد أثبتْناه في قلوبنا وأثبتْناه في مصاحفنا، نُعلِّمه أبناءنا ويُعلِّمه أبناؤنا أبناءَهم؟» فقال: «يُسرى عليه ليلًا فيُصبِح الناس منه فقراءَ تُرفع المصاحفُ ويُنزَع ما في القلوب».[١]

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ مَن يتوكّل علينا استردادَه مسطورًا محفوظًا.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فإنّها إن نالَتْك لعلّها تستردّه عليك، ويجوز أن يكون استثناء منقطِعًا بمعنى: ولكن رحمةً مِن ربّك تركَتْه غيرَ مذهوب به، فيكون امتنانًا بإبقائه بعد المِنّة بتنزيله، وترغيبًا في المحافظة على أداء حقوقه، وتحذيرًا مِن أن لا يُقدر قَدْره الجليل ويُفرَّط في القيام بشُكره وهو أجلّ النِّعم وأعظمُها.

﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ كإرسالك وإنزال الكتاب عليك وإبقائه في حفظك وغير ذلك.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿قُل﴾ للذين لا يعرِفون جلالة قدر التنزيل ولا يفهمون فخامة شأنه الجليل؛

---

[١] بعضه عن ابن مسعود في جامع البيان للطبري، ٧٤/١٥؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٣٩٩/٣ (١٨٦٩)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٢٧/٥؛ وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٩/٢.

بل يزعُمون أنّه مِن كلام البشر: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ أي: اتّفقوا ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنعوت بما لا تُدرِكه العقول مِن النعوت الجليلة في البلاغة وحسنِ النظم وكمالِ المعنى. وتخصيص الثقلين بالذِّكر لأنّ المنكِر لكونه مِن عند الله تعالى منهما لا مِن غيرهما، لا لأنّ غيرهما قادر على المعارَضة.

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أوثِر الإظهار على إيراد الضمير الراجع إلى المِثل المذكور احترازًا عن أن يُتوَهم أنّ له مِثلًا معيَّنًا، وإيذانًا بأنّ المراد نفيُ الإتيان / بمِثلٍ ما، أي: لا يأتون بكلام مُماثِل له فيما ذُكر مِن الصفات البديعة وفيهم العرب العاربة أربابُ البراعة والبيان. وهو جواب للقسَم الذي تنبئ عنه "اللام" الموطِّئة، وسادّ مَسدّ جزاء الشرط، ولولاها لكانَ جوابًا له بغير جزم لكون الشرط ماضيًا، كما في قول زهير: [٣٩١و]

وإن أتـــاه خـليـل يـــومَ مسألـةٍ يقـول لا غـائبٌ مـالي ولا حَـرِمُ[١]

وحيث كان المراد بالاجتماع على الإتيان بمِثل القرآن مطلقَ الاتّفاق على ذلك، سواءٌ كان التصدّي للمعارضة مِن كلّ واحد منهم على الانفراد، أو مِن المجموع بأن يتألّبوا على تلفيق كلام واحد بتلاحُق الأفكار وتعاضُدِ الأنظار، قيل: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي: في تحقيق ما يَتوَخّونه مِن الإتيان بمِثله، وهو عطف على مقدَّر، أي: لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرًا لبعض ولو كان... إلخ، وقد حُذف المعطوفُ عليه حذفًا مطَّردًا لدلالة المعطوف عليه دلالة واضحة، فإنّ الإتيان بمِثله حيث انتفى عند التظاهُر فلَأن ينتفيَ عند عدمه أولى. وعلى هذه النُّكتة يدور ما في "إن" و"لو" الوَصليتَّين مِن التأكيد، كما مرّ غيرَ مرة.

ومحلُّه النصبُ على الحاليّة حسبما عُطف عليه، أي: لا يأتون بمِثله على كلّ حال مفروض، ولو في هذه الحال المنافية لعدم الإتيان به فضلًا عن غيرها. وفيه حَسمٌ لأطماعهم الفارغة في رَوْم تبديل بعض آياته ببعض.

---

[١] البيت لزهير بن أبي سُلمى في ديوانه، ص ١٢٠؛ وهو له في كتاب سيبويه، ٦٦/٣؛ والمفصّل للزمخشري، ص ٣٢٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٨/٢. وعجزه بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٩/٢.

ولا مساغَ لكون الآية تقريرًا لِما قبلها مِن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[١] كما قيل،[٢] لكن لا لِما قيل مِن أنّ الإتيان بمِثله أصعب مِن استرداد عينه، ونفيُ الشيء إنّما يقرِّره[٣] نفي ما دونه لا نفيَ ما فوقه، فإنّ أصعبيّة الاسترداد بغير أمره تعالى مِن الإتيان بمِثله ممّا لا شُبهةَ فيه؛ بل لأنّ الجملة القَسَمية ليست مَسوقة إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ بل إلى المكابِرين مِن قِبَله عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كرّرنا وردّدنا على أنحاء مختلفة توجب زيادةَ تقرير وبيانٍ وكادةَ رسوخ واطمئنان ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنعوت بما ذُكر مِن النعوت الفاضلة / ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ مِن كلّ معنى بديع هو في الحُسن والغرابة واستجلاب [٣٩١ظ] النفس كالمَثل ليتلقّوه بالقَبول.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ أوثرَ الإظهار على الإضمار تأكيدًا وتوضيحًا ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: إلّا جُحودًا، وإنّما صحّ الاستثناء مِن المُوجَب مع أنّه لا يصِحّ "ضربتُ إلّا زيدًا"، لأنّه متأوّل بالنفي، كأنّه قيل: ما قَبِل أكثرهم إلّا كفورًا. وفيه مِن المبالغة ما ليس في "أبَوا الإيمان"؛ لأنّ فيه دلالة على أنّهم لم يرضَوا بخَصلة سوى الكُفور مِن الإيمان والتوقّف في الأمر ونحو ذلك، وأنّهم بالغوا في عدم الرضا حتّى بلغوا مرتبة الإباء.

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ عند ظهور عجَزهم ووضوح مغلوبيّتهم بالإعجاز التنزيلي وغيره مِن المعجزات الباهرة متعلِّلين بما لا يمكن في العادة وجوده، ولا تقتضي الحكمة وقوعه مِن الأمور، كما هو دَيدَن المبهوت المحجوج: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ وقرئ بالتشديد[٤] ﴿لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مكّة ﴿يَنۢبُوعًا﴾ عينًا لا ينضُب ماؤها، "يفعول" مِن "نَبَع الماء" كـ"يعْبوب" مِن "عَبّ الماء" إذا زخَر.

---

[١] الإسراء، ٨٦/١٧.

[٢] في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٩/٢.

[٣] ط س: يُقرِّر.

[٤] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١﴾

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي: بستان يستر أشجارُه ما تحته مِن العَرْصة[١] ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ أي: تُجريها بقوّة ﴿خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ كثيرًا. والمراد إمّا إجراء الأنهار خلالَها عند سَقْيها، أو إدامةُ إجرائها، كما ينبئ عنه "الفاء" لا ابتداؤه.

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ جَمْع "كِسْفة" كـ"قِطْعة" و"قِطَع" لفظًا ومعنًى، وقرئ بالسكون[٢] كـ"سِدْرة" و"سِدْر"، وهي حال مِن ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾. و"الكاف" في كما في محلّ النصب على أنّه صفةُ مصدرٍ محذوف، أي: إسقاطًا مماثِلًا لِما زعمتَ، يعنُون بذلك قولَه سبحانه: ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ، ٩/٣٤].

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي: مقابِلًا كـ"العَشير" و"المُعاشِر"، أو كفيلًا يشهَد بصِحّة ما تدّعيه، وهو حال مِن الجلالة، وحالُ الملائكة محذوفة لدلالتها عليها، أي: والملائكةِ قُبَلاء، كما حُذف الخبر في قوله:

فإنّي وقيّارٌ بها لَغريبُ[٣]

أو جماعةً[٤] فيكون حالًا مِن ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾

---

١ العَرْصة: كلّ موضِع واسع لا بناءَ فيه. لسان العرب لابن منظور، «عرص».

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٩/٢.

٣ عَجُز بيت لضابئ بن الحارث البُرجُمي، قاله وهو محبوس بالمدينة في زمن عثمانَ رضي الله عنه، وصدره:

فمن يكُ أمسى بالمدينة رَحلهُ

وهو له في الأصمعيّات للأصمعي، ص ١٨٤؛ والنوادر لأبي زيد، ص ١٨٢؛ وكتاب سيبويه ٧٥/١، ١٩٠٩؛ والعجز بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٥١٠/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٩/٢.

٤ السياق: أي: مقابلًا... أو كفيلًا... أو جماعةً...

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ مِن ذهَب وقد قُرئ به،[١] وأصلُه الزينة، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ / أي: في معارجها، فحُذف المضاف، يقال: رقيَ في السُّلَّم وفي الدَّرَجة. [٣٩٢و]

﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي: لأجل رُقيِّك فيها وحدَه، أو لن نصدِّق رقيَّك فيها ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ﴾ منها ﴿عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ فيه تصديقُك ﴿نَّقْرَؤُهُ﴾ نحن مِن غير أن نتلقّى مِن قِبلك.

عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما: قال عبد الله بن أبي أميّة: «لن نؤمن لك حتّى تتّخذ إلى السماء سُلَّمًا، ثمّ ترقى فيه وأنا أنظُر حتّى تأتيَها وتأتِيَ معك بصكٍّ منشورٍ معه أربعة مِن الملائكة يشهدون أنّك كما تقول».[٢] وما كانوا يقصِدون بهاتيك الاقتراحات الباطلة إلّا العِنادَ واللَّجاج، ولو أنّهم أُوتوا أضعاف ما اقترحوا مِن الآيات ما زادهم ذلك إلّا مكابَرة، وإلّا فقد كان يكفيهم بعض ما شاهدوا مِن المعجزات التي تخِرُّ لها صُمّ الجبال.

﴿قُلْ﴾ تعجّبًا مِن شدّة شكيمتهم، وتنزيهًا لساحة السُّبحان عمّا لا يكاد يليق بها مِن مثل هذه الاقتراحات الشنيعة التي تكاد السماوات يتفطّرن منها، أو عن طلبك[٣] ذلك وتنبيهًا على بطلان ما قالوه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وقرئ: "قَالَ سُبْحَانَ رَبِي"،[٤] ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ لا ملَكًا حتّى يُتصوّر منّي الرقيُّ في السماء ونحوُه ﴿رَّسُولًا﴾ مأمورًا مِن قِبل ربّي بتبليغ الرسالة مِن غير أن يكون لي خِيَرة في الأمر كسائر الرسل، وكانوا لا يأتون قومهم إلّا بما يُظهره الله على أيديهم حسبما يلائم حال قومهم، ولم يكن أمر الآيات إليهم ولا لهم أن يتحكّموا على الله سبحانه بشيء مِنها، وقولُه: ﴿بَشَرًا﴾ خبر لـ﴿كُنتُ﴾ و﴿رَّسُولًا﴾ صفتُه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٣.

[٢] طرف حديث طويل عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ١٥/٨٧-٩٠؛ وبعضه في التفسير البسيط للواحدي، ١٣/٤٨٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٢٩؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١١.

[٣] م ط س: طلب النبيّ عليه السلام. [صُحّح في هامش م].

[٤] قرأ بها ابن كثير وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٩.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: الذين حُكيت أباطيلهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿مَنَعَ﴾، وقوله: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: الوحيُ ظرفٌ لـ﴿مَنَعَ﴾ أو ﴿يُؤْمِنُوٓاْ﴾، أي: وما منَعهم وقت مجيء الوحي المقرون بالمعجزات المستدعية للإيمان أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوّتك، أو ما منَعهم أن يؤمنوا بذلك وقت مجيء ما ذكَر، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ في محلّ الرفع على أنّه فاعلُ ﴿مَنَعَ﴾، أي: إلّا قولُهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ منكِرين أن يكون رسول الله تعالى مِن جنس البشر.

وليس المراد أن هذا القول صدَر عن بعضهم فمنع بعضًا آخرَ منهم؛ بل المانعُ هو الاعتقاد الشامل للكلّ المستتبعُ لهذا القول منهم. وإنّما عُبّر عنه بـ"القول" إيذانًا بأنّه مجرّد قول يقولونه بأفواههم مِن غير أن يكون له مفهوم ومِصداق. وحصرُ المانع مِن الإيمان فيما ذُكِر مع أنّ لهم موانعَ شتّى / لِما أنّه معظمها، أو لأنّه هو [٣٩٢ظ] المانع بحسب الحال، أعني عند سماع الجواب بقوله تعالى: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[١] إذ هو الذي يتشبّثون به حينئذ مِن غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى مِن شُبههم الواهية. وفيه إيذانٌ بكمال عِنادهم حيث يشير إلى أنّ الجواب المذكور مع كونه حاسمًا لموادّ شُبَهِهم مُلجِئًا إلى الإيمان يعكُسون الأمر ويجعلونه مانعًا منه.

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿قُل﴾ لهم أوّلًا مِن قِبَلنا تبيينًا للحكمة وتحقيقًا للحقّ المُزيح للرَّيب: ﴿لَّوْ كَانَ﴾ أي: لو وُجد واستقرّ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلَ البشر ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ قارّين فيها مِن غير أن يعرُجوا في السماء ويعلَموا ما يجب أن يُعلَم، ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ يهديهم إلى الحقّ ويُرشِدهم إلى الخير لتمكُّنهم مِن الاجتماع والتلقّي مِنه، وأمّا عامة البشر فهم بمَعزِل مِن استحقاق المفاوَضة الملَكية، كيف لا، وهي منوطة بالتناسُب والتجانُس، فبَعْثُ المَلَك إليهم مزاحِم للحكمة التي عليها مبنى التكوين والتشريع.

---

[١] في الآية السابقة.

وإنّما يُبعث المَلَك مِن بينهم إلى الخواصّ المختصّين بالنفوس الزكيّة المؤيَّدين بالقوّة القُدسيّة المتعلِّقين بكلا العالَمين الرُّوحاني والجسماني، ليتلقَّوا مِن جانب ويُلقُوا إلى جانب.

وقوله: ﴿مَلَكًا﴾ يحتمل أن يكون حالًا مِن ﴿رَسُولًا﴾ وأن يكون موصوفًا به، وكذلك ﴿بَشَرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾.[1] والأوّل أَولى.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ٩٦﴾

﴿قُلْ﴾ لهم ثانيًا مِن جهتك بعد ما قلتَ لهم مِن قِبَلنا ما قلتَ وبيَّنتَ لهم ما يقتضيه الحكمةُ في البعثة، ولم يرفعوا إليه رأسًا: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ وحدَه ﴿شَهِيدًا﴾ على أنّي أدّيتُ ما عليّ مِن مواجب الرسالة أكملَ أداء، وأنّكم فعلتُم ما فعلتُم مِن التكذيب والعِناد. وتوجيه الشهادة إلى كونه عليه السلام رسولًا بإظهار المعجِزة على وَفق دعواه كما اختيرَ،[2] لا يساعده قوله تعالى: ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ وما بعده مِن التعليل. وإنّما لم يقل: "بيننا" تحقيقًا للمفارَقة وإبانةً للمبايَنة. و﴿شَهِيدًا﴾ إمّا حال أو تمييز.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ مِن الرسل والمرسَل إليهم ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ محيطًا بظواهر أحوالهم وبواطنها فيُجازيهم على ذلك، وهو تعليل للكفاية. وفيه تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتهديدٌ للكفار.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ٩٧ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ٩٨﴾

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ كلام مبتدأ يفصِّل ما أشار إليه الكلام السابق / مِن مُجازاة [٣٩٣و] العبادِ إشارةً إجماليّة، أي: مَن يهدِه الله إلى الحقّ بما جاء مِن قبله مِن الهدى ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ إليه وإلى ما يؤدّي إليه مِن الثواب، أو المهتدي إلى كلّ مطلوب.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٢٠.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي: يخلُقْ فيه الضلال بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾ أوثرَ ضمير الجماعة اعتبارًا لمعنى ﴿مَن﴾ غِبَّ ما أوثرَ في مقابِله الإفرادُ نظرًا إلى لفظها تلويحًا بوَحدة طريق الحقّ وقلّة سالكيه وتعدُّد سُبل الضلال وكثرة الضُّلّال.

﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ مِن دون الله تعالى، أي: أنصارًا يهدونهم إلى طريق الحقّ، أو إلى طريق يوصِلهم إلى مطالبهم الدنيويّة أو الأخرويّة، أو إلى طريق النجاة مِن العذاب الذي يستدعيه ضلالهم، على معنى لن تجِد لأحد منهم وليًّا على ما تقتضيه قضيّة مقابلةِ الجَمْع بالجَمْع مِن انقسام الآحادِ إلى الآحاد.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ التفات مِن الغَيبة إلى التكلّم إيذانًا بكمال الاعتناء بأمر الحشر ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ حال مِن الضمير المنصوب، أي: كائنين عليها سَحْبًا، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر، ٥٤/٤٨] أو مَشيًا، فقد رُوي أنّه قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «كيف يمشون على وجوههم؟» قال: «إنّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يُمشِيَهم على وجوههم».[١]

﴿عُمْيًا﴾ حال مِن الضمير المجرور في الحال السابقة ﴿وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ لا يُبصِرون ما يُقِرّ أعينَهم، ولا ينطِقون ما يُقبل منهم، ولا يسمَعون ما يُلِذّ مسامعَهم، لِما قد كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعِبر، ولا ينطِقون بالحقّ ولا يستمعونه. ويجوز أن يُحشَروا بعد الحساب مِن الموقف إلى النار مُوفي القُوى والحواسّ، وأن يحشروا كذلك ثمّ يعاد إليهم قُوَاهم وحواسُّهم، فإنّ إدراكاتِهم بهذه المشاعر في بعض المواطن ممّا لا ريبَ فيه.

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ إمّا حال أو استئناف، وكذا قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: كلّما سكَن لهبُها بأن أكَلت جلودَهم ولحومهم، ولم يبقَ فيهم ما تتعلّق به النار وتُحرِقه،[٢] زدناهم توقّدًا بأن بدّلناهم جلودًا غيرَها فعادت مُلتهِبةً ومُستعِرةً.

---

[١] الحديث بمعناه عن أنس بن مالك في صحيح البخاري، ٨/١٠٩ (٦٥٢٣)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢١٦١ (٢٨٠٦)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٣١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٢.

[٢] ط س: وتحرقها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

ولعلّ ذلك عقوبة لهم على إنكارهم الإعادةَ بعد الفناء بتكريرها مرّة بعد أخرى ليرَوها عِيانًا حيث لم يعلموها برهانًا، كما يفصِح عنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ / أي: ذلك العذاب ﴿جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ العقليّة والنقليّة الدالّة على صحّة الإعادة دلالةً واضحة، فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ و﴿جَزَآؤُهُم﴾ خبرُه. ويجوز أن يكون مبتدًا ثانيًا و﴿بِأَنَّهُمْ﴾ خبرُه والجملة خبر لـ﴿ذَٰلِكَ﴾، وأن يكون ﴿جَزَآؤُهُم﴾ بدلًا مِن ﴿ذَٰلِكَ﴾ أو بيانًا له والخبرُ هو الظرف. [٣٩٣ظ]

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ منكرِين أشدَّ الإنكار ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ إمّا مصدر مؤكِّد مِن غير لفظه، أي: لَمَبعوثون بعثًا جديدًا، وإمّا حال، أي: مخلوقين مستأنَفين.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ٩٩﴾

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أي: ألم يتفكّروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ مِن غير مادّة مع عِظَمها ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ في الصِّغَر، على أنّ "المِثل" مقحَم، والمراد بالخَلْق الإعادة، كما عُبِّر عنها بذلك حيث قيل: خلقًا جديدًا.

﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ عطفٌ على ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ فإنّه في قوّة "قد رأوا"، والمعنى قد علموا أنّ مَن قدَر على خلقِ السماوات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم مِن الإنس وجَعَل لهم ولبعثهم أجلًا محقَّقًا لا ريبَ فيه هو القيامة.

﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وُضع موضعَ الضمير تسجيلًا عليهم بالظلم وتجاوُز الحدّ بالمرّة ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جُحودًا.

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورًا ١٠٠﴾

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾ خزائن رزقه التي أفاضها على كافّة الموجودات، و﴿أَنتُمۡ﴾ مرتفِع بفعل يفسِّره المذكور، كقول حاتم: «لو ذاتُ سِوار

لَطَمتْني»»،[١] وفائدة ذلك المبالغةُ والدلالةُ على الاختصاص. ﴿إِذًا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾ لبخِلتم ﴿خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ مخافة النَّفَاد بالإنفاق، إذ ليس في الدنيا أحد إلّا وهو يختار النفع لنفسه، ولو آثَر غيرَه بشيء فإنّما يُؤثره لعِوَض يفوقه، فإذن هو بخيل بالإضافة إلى جُود الله سبحانه.

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ مبالِغًا في البُخل؛ لأنّ مبنى أمره على الحاجة والضِّنّة بما يحتاج إليه وملاحظةِ العِوَض بما يبذُله.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ واضحات الدلالة على نبوّته وصِحّة
[٣٩٤و] ما جاء به / مِن عند الله، وهي العَصا واليد والجَراد والقُمّل والضفادع والدم والطوفان والسِّنون ونقص الثمرات. وقيل: انفجار الماء مِن الحَجر ونتْقُ الطُّور على بني إسرائيلَ وانفلاقُ البحر بدلَ الثلاث الأخيرة.[٢] ويأباه أنّ هذه الثلاث لم تكن مُنزَلة إذ ذاك، وأنّ الأوّلَين لا تعلُّقَ لهما بفرعونَ وإنّما أوتيهما بنو إسرائيلَ.

وعن صفوانَ بن عسّال[٣] أنّ يهوديًا سأل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عنها، فقال: «ألّا تشركوا به شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتُلوا النفس التي حرَّم الله إلّا بالحقّ، ولا تسحَروا، ولا تأكُلوا الرِّبا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتُله، ولا تقذِفوا مُحصَنة، ولا تفِرّوا مِن الزحف، وعليكم خاصّة اليهود ألّا تعْدوا في السبت»»،[٤] فقبّل اليهودي يدَه ورِجله عليه السلام. ولا يُساعده أيضًا ما ذُكر،

---

١ مَثَل للعرب، ويُروى أيضًا: «لو غير ذات سِوار لطمتني»، والمعنى لو ظلمني مَن كان كفئًا لي لهان عليّ. انظر: **مجمع الأمثال** للميداني، ١٧٢/٢، ٢٠٢، وهو في **الكشّاف** للزمخشري، ٥١٣/٢، على ما نحن فيه.

٢ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٢٢/٢.

٣ هو صفوان بن عسّال مِن بني الربض بن زاهر بن عوبثان بن زاهر المرادي، سكن الكوفة، أسلم وصحب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وروى عنه أحاديث، اشتهر ممّا رواه حديث المسح على الخفّين وفضل العلم والتوبة. يُذكَر أنّه غزا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم اثنتي عشرة غزوةً. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٦٥/٦؛ **والاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٧٢٤/٢؛ **والإصابة** لابن حجر، ٤٣٦/٣.

٤ **مسند أحمد**، ١٢/٣٠ (١٨٠٩٢)؛ **سنن الترمذي**، ٣٦/٥ (٢٧٣٣)؛ **سنن النسائي**، ١١١/٧ (٤٠٧٨)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥١٣/٢.

ولعلّ جوابَه عليه السلام بذلك لِما أنّه المُهِمّ للسائل، وقبولَه لِما أنّه كان في التوراة مسطورًا، وقد عُلِم أنّه ما علِمه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلّا مِن جهة الوحي.

﴿فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وقرئ: "فَسَلْ"،[١] أي: فقلنا له: سلْهم مَن فرعون؟ وقل له: أرسِل معي بني إسرائيلَ أو سَلْهم عن إيمانهم، أو عن حال دينهم، أو سَلْهم أن يعاضدوك. ويؤيّده قراءة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على صيغة الماضي.[٢] وقيل: الخطاب للنبيّ عليه السلام، أي: فاسألهم عن تلك الآياتِ لتزدادَ يقينًا وطُمَأنينة أو ليَظهَر صِدقك.[٣] ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ متعلّق بـ"قلنا" وبـ"سأل" على القراءة المذكورة وبـ﴿ءَاتَيْنَا﴾، أو بمضمر هو "يخبِروك" أو" اذكُر" على تقدير كون الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم.

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ﴾ "الفاء" فصيحة أي: فأظهَر عند فرعونَ ما آتيناه مِن الآيات البيّنات وبلّغه ما أُرسِل به، فقال له فرعونُ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ / سُحِرتَ فتخبّط عقلك. [٣٩٤ظ]

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني الآياتِ التي أظهرها ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقُهما ومدبِّرهما، والتعرّض لربوبيّته تعالى لهما للإيذان بأنّه لا يقدِر على إيتاء مثلِ هاتيك الآيات العِظام إلّا خالقُهما ومدبِّرهما. ﴿بَصَآئِرَ﴾ حال مِن الآيات، أي: بيّنات مكشوفات تُبصِّرك صدقي، ولكنّك تعاند وتكابر، نحوُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل، ١٤/٢٧]، ومِن ضرورة ذلك العلمِ العلمُ بأنّه عليه السلام على كمال رصانة العقل فضلًا عن توهّم المسحوريّة.

---

[١] قرأ بها الكسائي وابن كثير. النشر لابن الجزري، ١٥١/٢-١٥٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٣.

[٣] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٢/٢.

وقرئ: "عَلِمْتُ"[١] على صيغة التكلّم، أي: لقد علمتُ بيقين أنّ هذه الآياتِ الباهرةَ أنزلها الله عزّ سلطانه فكيف يُتوهَّم أن يحوم حولي سِحر؟

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ مصروفًا عن الخير مطبوعًا على الشرّ، مِن قولهم: ما ثَبرك عن هذا؟ أي: ما صرَفك؟ أو هالكًا. ولقد قارع عليه السلام ظنَّه بظنّه وشتّان بينهما، كيف لا، وظنُّ فرعونَ إفك مُبين، وظنُّه عليه السلام يُتاخِم اليقين.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾

﴿فَأَرَادَ﴾ أي: فرعونُ ﴿أَن يَسۡتَفِزَّهُم﴾ أي: يستخِفَّهم ويُزعجَهم ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرضِ مصرَ أو مِن الأرض مطلقًا بالقتل، كقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ [الأعراف، ١٢٧/٧]، ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا﴾ فعكسنا عليه مَكْره، واستفززناه وقومَه بالإغراق.

﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾

﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ مِن بعد إغراقِهم ﴿لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ التي أراد أن يستفزّكم منها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الكرّةُ الآخرة، أو الحياة، أو الساعة، أو الدار الآخرة، أي قيامُ القيامة ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ مختلطِين إيّاكم وإيّاهم، ثمّ نحكُم بينكم ونُميّز سعداءكم مِن أشقيائكم. واللفيف: الجماعاتُ مِن قبائلَ شتّى.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: وما أنزلنا القرآنَ إلّا ملتبِسًا بالحقّ
[٣٩٥و] المقتضي لإنزاله، وما نزَل إلّا ملتبِسًا بالحقّ الذي اشتمل عليه، أو / ما أنزلناه مِن السماء إلّا محفوظًا وما نزَل على الرسول إلّا محفوظًا مِن تخليط الشياطين، ولعلّ المرادَ بيان عدم اعتراء البطلان له أوّلَ الأمر وآخره.

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٠٩/٢.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ للمطيع بالثواب ﴿وَنَذِيرٗا﴾ للعاصي مِن العقاب، وهو تحقيق لحقيّة بعثته عليه السلام إثرَ تحقيق حقّيّة إنزال القرآن.

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾

﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ منصوب بمضمر يفسِّره قوله تعالى: ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ وقُرئ بالتشديد[١] دلالة على كثرة نجومِه. ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ على مَهل وتثبُّت، فإنّه أيسرُ للحفظ وأعونُ على الفهم، وقرئ بالفتح،[٢] وهو لغة فيه. ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ حسبما يقتضيه الحكمةُ والمصلحة ويقع مِن الحوادث والواقعات.

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧﴾

﴿قُلۡ﴾ للذين كفروا ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ فإنّ إيمانكم به لا يزيده كمالًا وامتناعَكم عنه لا يورثه نقصًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ أي: العلماءَ الذين قرأوا الكتب السالفة مِن قبل تنزيله وعرَفوا حقيقة الوحي وأماراتِ النبوّة وتمكّنوا مِن التمييز بين الحقّ والباطل والمُحقّ والمبطِل، أو رأوا فيها نعتك ونَعْت ما أنزل إليك ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾ أي: يسقطون على وجوههم ﴿سُجَّدٗا﴾ تعظيمًا لأمر الله تعالى، أو شكرًا لإنجاز ما وعَد به في تلك الكتب مِن بعثتك.

وتخصيص "الأذقان" بالذِّكر للدلالة على كمال التذلّل، إذ حينئذ يتحقّق الخُرور عليها، وإيثارُ "اللام" للدلالة على اختصاص الخُرور بها، كما في قوله:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ وابن عبّاس ومجاهد وابن مِقسَم والحسن وقتادة والزّعفراني وابن محيصن وحُميد وأبان عن عاصم والشافعي عن ابن كثير. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٤٥.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة والزعفراني والضحّاك وأبان عن عاصم. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٤٦.

فـخَـرَّ صـريـعًـا لـلـيـديـن ولـلـفـمِ[١]

وهو تعليل لِما يُفهَم مِن قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ مِن عدم المبالاة بذلك، أي: إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسنَ إيمانٍ مَن هو خير منكم. ويجوز أن يكون تعليلًا لـ﴿قُلۡ﴾ على سبيل التسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كأنّه قيل: تسلَّ بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكترث بإيمانهم وإعراضهم.

﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ في سجودهم ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عمّا يفعل الكفَرة مِن التكذيب، أو عن خُلْف وعده ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ ﴿إِن﴾ مخفَّفة مِن المثقَّلة، و"اللام" فارقة، أي: إنّ الشأن هذا.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾

[٣٩٥ظ] ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ﴾ / كرّر الخُرور للأذقان لاختلاف السبب فإنّ الأوّل لتعظيم أَمر الله تعالى أو الشكر لإنجاز الوعد، والثاني لِما أثّر فيهم مِن مواعظ القرآن حالَ كونهم باكين مِن خشية الله. ﴿وَيَزِيدُهُمۡ﴾ أي: القرآنُ بسماعهم ﴿خُشُوعٗا۩﴾ كما يزيدهم عِلمًا ويقينًا بالله تعالى.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ نزل حين سمع المشركون رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يا الله يا رحمنُ»، فقالوا: إنّه ينهانا عن عبادة إلهين،

---

[١] عجز بيت، صدره:

تـنـاولـه بـالـرمـح ثـم انـثـنـى لـه

البيت لجابر بن حُنَيّ التغلبي في المفضّليّات للضَّبّي، ص ٢١٢؛ والعجز بلا نسبة في التفسير البسيط للواحدي، ١٣/٥٠٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٥. وانظر تفصيل الكلام عليه في شرح أبيات المغني للبغدادي، ٤/٢٨٦-٢٩١.

وهو يدعو إلهًا آخرَ. وقالت اليهود: إنّك لتُقِلّ ذِكر "الرحمن" وقد أكثره الله تعالى في التوراة. والمراد على الأوّل هو التسوية بين اللفظين بأنّهما عبارتان عن ذات واحدة وإن اختلف الاعتبار، والتوحيدُ إنّما هو للذات الذي هو المعبود، وعلى الثاني أنّهما سِيّان في حُسن الإطلاق والإفضاء إلى المقصود، وهو أوفَق لقوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

والدعاء بمعنى التسمية، وهو يتعدّى إلى مفعولين حُذف أوّلهما استغناءً عنه. و﴿أَوِ﴾ للتخيير. والتنوينُ في ﴿أَيًّا﴾ عِوض عن المضاف إليه، و﴿مَّا﴾ مزيدةٌ لتأكيد ما في "أيّ" مِن الإبهام. والضمير في ﴿لَهُ﴾ للمسمّى؛ لأنّ التسميةَ له لا للاسم. وكان أصلُ الكلام أيًّا ما تدعوا فهو حسَن، فوُضع موضعَه ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه، إذ حُسْن جميع أسمائه يستدعي حُسْن ذينك الاسمين، وكونُها حُسنى لدلالتها على صفات الكمال مِن الجلال والجمال والإكرام.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءة صلاتك، بحيث تُسمع المشركين، فإنّ ذلك يحمِلهم على السبّ واللّغو فيها، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي: بقراءتها بحيث لا تُسمِع مَن خلفك مِن المؤمنين، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين الجهر والمخافَتة على الوجه المذكور ﴿سَبِيلًا﴾ أمرًا وسَطًا قَصْدًا، فإنّ خير الأمور أوساطها. والتعبير عن ذلك بـ"السبيل" باعتبار أنّه أمر يتوجّه إليه المتوجِّهون ويؤمّه المقتدون ويُوصِلهم إلى المطلوب.

ورُوي أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان يخفِت ويقول: «أناجي ربّي وقد علِم حاجتي»، وعمرُ رضي الله عنه / كان يجهَر بها ويقول: «أطرُد الشيطان [٣٩٦و]
وأوقظ الوَسْنان». فلمّا نزلت أمَر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبا بكر أن يرفعَ قليلًا وعمرَ أن يخفِض قليلًا.[١] وقيل: المعنى لا تجهَر بصلاتك كلِّها ولا تُخافت بها بأسرها وابتغِ بين ذلك سبيلًا بالمُخافتة نهارًا والجهر ليلًا. وقيل:

---

[١] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٣٢/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥١٦/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٤/٢-٣٢٥.

بصلاتك بدعائك.[١] وذهب قوم إلى أنّها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف، ٧/٥٥].[٢]

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ كما تزعم اليهود والنصارى وبنو مليح، حيث قالوا: عزيرٌ ابنُ الله، والمسيحُ ابنُ الله، والملائكةُ بنات الله، تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا. ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي: الألوهيّة، كما يقوله الثَّنويّة القائلون بتعدّد الآلهة. ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ ناصر ومانع منه لاعتزازه به، أو لم يُوالِ أحدًا مِن أجل مَذلّة ليدفعها به.

وفي التعرّض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذانٌ بأنّ المستحقَّ للحمد مَن هذه نُعوته دونَ غيره؛ إذ بذلك يتمّ الكمال والقُدرة التامّة على الإيجاد. وما يتفرّع عليه مِن إفاضة أنواع النِّعم وما عداه ناقص مملوكُ نعمة أو منعَمٌ عليه، ولذلك عُطف عليه قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾، وفيه تنبيه على أنّ العبد وإن بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في الطاعة والتحميد ينبغي أن يعترِف بالقصور في ذلك.

رُوي أنّه عليه السلام كان إذا فصُح[٣] الغلامُ مِن بني عبد المطّلب علّمه هذه الآية.[٤] وعنه صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة بني إسرائيلَ فرَقّ قلبه عند ذِكر الوالدَين كان له قنطار في الجنّة»،[٥] والقنطار: ألف أُوقيّة ومائتا أُوقيّة.

الحمدُ لله سبحانه، وله الكبرياء والعظمة والجبروت.[٦]

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥١٦/٢.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥١٦/٢.

٣ كذا في الأصول، وفي المصادر: أفصح.

٤ عمل اليوم والليلة لابن السُّنّي، ص ٣٧٤ (٤٢٤)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٥١٤/١٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٦/٢.

٥ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٤/١٦ (الإسراء، ١/١٧)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٩٣/٣ (الإسراء، ١/١٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥١٦/٢. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٦ وفي هامش م: إلى هنا انتهتِ المطالعة بفضله عزّ سلطانه، في ٨ ربيع الأوّل لسنة سبع وخمسين وتسعمائة، حامدًا ومُكبّرًا ومُصلّيًا.

سورة بني إسرائيل

وتسمَّى «الإسراء» و«سبحان» أيضاً. وهي ـ كما أَخرج ابنُ مردويه عن ابن عباسٍ وابنِ الزُّبير رضي الله عنهم ـ مكِّية[1]، وكونُها كذلك بتمامها قولُ الجمهور. وقال صاحبُ «الغنيان»: بإجماع. وقيل: إلَّا آيتين: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ [الآية: ٧٣] ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾ [الآية: ٧٦] وقيل: إلَّا أربعاً: هاتان وقولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الآية: ٦٠] وقولُه سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ [الآية: ٨٠] وزاد مقاتلٌ قولَه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ [الآية: ١٠٧] وعن الحسن إلَّا خمسَ آيات: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ﴾ [الآية: ٣٣] ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾ [الآية: ٣٢] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ [الآية: ٥٧] ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الآية: ٧٨] ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الآية: ٢٦]. وقال قتادة: إلَّا ثماني آيات، وهي قولُه تعالى: (وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ) إلى آخرهن. وقيل غيرُ ذلك.

وهي مئةٌ وعشرُ آيات عند الجمهور، وإحدى عشْرةَ عند الكوفيين.

وكان ﷺ ـ كما أَخرج أحمدُ، والترمذيُّ وحسَّنه، والنَّسائي[2]، وغيرُهم عن عائشةَ ـ يقرؤها و«الزمرَ» كلَّ ليلة.

وأخرج البخاريُّ، وابن الضُّرَيس، وابنُ مردويه عن ابن مسعود أنَّه قال في هذه السورةِ و«الكهفِ» و«مريمَ» و«طهَ» و«الأنبياءِ»: هنَّ من العِتاق الأُوَل، وهنَّ من تِلادي[3]. وهذا وجهٌ في ترتيبها.

---

(١) الدر المنثور ٤/١٣٦.

(٢) الدر المنثور ٤/١٣٦، ومسند أحمد (٢٤٣٨٨)، وسنن الترمذي (٢٩٢٠) و(٣٤٠٥)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٨٠).

(٣) الدر المنثور ٤/١٣٦، وصحيح البخاري (٤٧٣٩)، وفضائل القرآن ص٩٨.

ووجهُ اتصال هذه بـ «النحل» ـ كما قال الجلال السيوطيُّ[١] ـ أنه سبحانه لمَّا قال في آخرها: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [الآية: ١٢٤] ذكر في هذه شريعةَ أهلِ السَّبت التي شرعها سبحانَه لهم في التوراة، فقد أخرج ابن جَريرٍ[٢] عن ابن عباسٍ ﷺ أنَّه قال: إنَّ التوراة كلَّها في خمسَ عشرةَ آيةً من سورة «بني إسرائيل». وذكر تعالى فيها عصيانَهم وإفسادَهم، وتخريبَ مسجِدهم، واستفزازَهم النبيَّ ﷺ، وإرادتَهم إخراجَه من المدينة، وسؤالَهم إيَّاه عن الرُّوح، ثم ختمها جلَّ شأنُه بآيات موسى عليه السلام التسعِ، وخطابِه مع فرعون، وأَخبر تعالى أنَّ فرعونَ أراد أن يستفزَّهم من الأرض، فأُهلك ووَرِث بنو إسرائيل مِن بعده، وفي ذلك تعريضٌ بهم أنَّهم سينالهم ما نال فرعونَ، حيث أرادوا بالنبيِّ ﷺ ما أَراد هو بموسى عليه السلام وأصحابِه. ولمَّا كانت هذه السورةُ مصدَّرةً بقصَّة تخريبِ المسجدِ الأقصى، افتُتحت بذِكر إسراءِ المصطفى ﷺ، تشريفاً له بحلول رِكابه الشريفِ جبراً لما وقع من تخريبه.

وقال أبو حيَّان في ذلك[٣]: إنَّه تعالى لمَّا أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بالصَّبر ونهاه عن الحزن على الكفرة وضيقِ الصَّدر من مكرهم، وكان مِن مكرهم نسبتُه ﷺ إلى الكَذِب والسِّحر والشِّعر، وغير ذلك ممَّا رمَوه ـ وحاشاه ـ به، عقَّب ذلك بذِكر شرفِه وفضلِه وعلوِّ منزلتِه عنده عزَّ شأنه.

وقيل: وجهُ ذلك اشتمالُها على ذِكر نِعَمٍ، منها خاصَّة ومنها عامَّة، وقد ذكر في سورة النَّحل من النِّعم ما سمِّيت لأجله سورةَ النِّعم، واشتمالُها على ذِكر شأنِ القرآنِ العظيم كما اشتملت تلك، وذَكَرَ سبحانه هناك في «النحل»: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [الآية: ٦٩] وذَكَرَ هاهنا في القرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية: ٨٢] وذَكَر سبحانه في تلك أمرَه بإيتاء ذي القربى[٤]، وأَمَرَ هنا بذلك مع زيادةٍ في قوله سبحانه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ

(١) في تناسق الدرر ص٦٣-٦٤.
(٢) في تفسيره ١٥/ ١٣٨.
(٣) في البحر المحيط ٦/ ٤.
(٤) في الآية: ٩٠.

حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الآية: ٢٦] وذلك بعد أن أَمَرَ جلَّ وعلا بالإحسان بالوالدين اللذَين هما منشأُ القرابة، إلى غير ذلك ممَّا لا يُحصَى، فليُتَأمَّل، والله تعالى الموفِّق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ «سبحان» هنا ـ على ما ذهب إليه بعض المحقِّقين ـ مصدرُ: سبَّح تسبيحاً، بمعنى: نزَّه تنزيهاً، لا بمعنى: قال: سبحانَ الله. نعم جاءَ التسبيحُ بمعنى القولِ المذكورِ كثيراً، حتى ظنَّ بعضُهم أنَّه مخصوصٌ بذلك، وإلى هذا ذهب صاحبُ «القاموس» في شرح ديباجةِ «الكشَّاف» وجَعَلَ «سبحان» مصدرَ سَبَحَ مخفَّفاً. وليس بذاك.

وقد يُستعمل عَلَماً للتنزيه، فيُقطع عن الإضافة؛ لأنَّ الأعلام لا تضاف قياساً، ويُمنَع من الصَّرف للعَلَمية والزيادة، واستُدلَّ على ذلك بقول الأعشى:

قد قلت لما جاءني فخره سبحانَ مِن علقمةَ الفاخرِ[(١)]

وقال الرَّضيُّ: لا دليلَ على عَلَميته؛ لأنه أكثرُ ما يستعمل مضافاً، فلا يكون عَلَماً، وإذا قُطع فقد جاء منوَّناً في الشِّعر، كقوله:

سبحانَه ثم سبحاناً نعوذ به وقبلَنا سبَّح الجوديُّ والجَمَدُ[(٢)]

وقد جاء باللَّام، كقوله:

سبحانَك اللهمَّ ذو السُّبحانِ[(٣)]

ولا مانع من أن يقالَ في البيت الذي استدلُّوا به: حُذف المضافُ إليه وهو مرادٌ للعِلم به، وأُبقي المضافُ على حاله مراعاةً لأغلب أحواله، أي: التجرُّد عن التنوين، كقوله:

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٩٤، وسلف ٢/ ١٠٣.
(٢) البيت في الكتاب ١/ ٣٢٦، والخزانة ٣/ ٣٨٩، وسلف ٢/ ١٠٣. والجودي والجمد جبلان.
(٣) الرجز في أمالي ابن الشجري ٢/ ١٠٨، والخزانة ٣/ ٢٥٠ (دار صادر) دون نسبة، وسلف ٢/ ١٠٣.

خَـالَـطَ مِـن سَـلْـمـى خَـيـاشـيـمَ وَفَـا[1]

انتهى.

وظاهرُ كلامِ الزمخشريِّ[2] أنه عَلَمٌ للتسبيح دائماً، وهو عَلَم جنس؛ لأنَّ علم الجنس كما يوضع للذَّوات يوضع للمعاني، فلا تفصيلَ عنده. وانتصر له صاحبُ «الكشف» فقال: إنَّ ما ذهب إليه العلَّامة هو الوجه؛ لأنَّه إذا ثبتت العَلَمية بدليلها، فالإضافة لا تنافيها، وليست من باب: زيد المعارك، لتكونَ شاذَّة، بل من باب: حاتِم طيِّئ، وعنترة عبسٍ. وذَكَرَ أنه يدلُّ على التنزيه البليغ، وذلك من حيث الاشتقاق من السَّبح، وهو الذهابُ والإبعاد في الأرض، ثم ما يُعطيه نقلُه إلى التفعيل، ثم العدولُ عن المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصَّة، لا سيَّما وهو عَلَم يشير إلى الحقيقة الحاضرةِ في الذِّهن، وما فيه من قيامه مَقامَ المصدرِ مع الفعل، فإنَّ انتصابه بفعل متروكِ الإظهار، ولهذا لم يَجُز استعماله إلَّا فيه تعالى أسماؤه وعَظُمَ كبرياؤه، وكأنَّه قيل: ما أبعدَ الذي له هذه القدرةُ عن جميع النقائص، فلا يكون اصطفاؤه لعبده الخَصيصِ به إلَّا حكمةً وصواباً. انتهى.

وأُورد على ما ذكره أوَّلاً أنَّ مَن منع إضافةَ العلمِ قياساً، لم يفرِّق بين إضافةٍ وإضافة، فإن ادَّعى أنَّ بعض الأَعلامِ اشتهرت بمعنًى، كحاتم بالكرم، فيجوزُ في نحوه الإضافةُ لقصد التخصيص ودفعِ العمومِ الطارئ، فما نحن فيه ليس من هذا القبيل كما لا يخفَى. وما ذَكَرَ من دلالته على التَّنزيه من جميع النقائصِ هو الذي يشهد له المأثور، ففي «العِقد الفريد»: عن طلحةَ قال: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن تفسير «سبحان الله» فقال: «تنزيهٌ لله تعالى عن كلِّ سوء»[3].

وقال الطِّيبي في قول الزمخشريِّ: إنه دلَّ على التنزيه البليغِ عن جميع القبائحِ

(1) قائله العجاج، وهو في ديوانه ص٤٢٤، وصدره: حتى تناهى في صهاريج الصفا. يقول: حتى تناهى في صهاريج ـ أحواض ـ من صفا وحجارة، فهو صاف، ليس فيه كدر، كأن ريح فيها وخياشيمها هذه الخمر.

(2) في الكشاف ٢/٤٣٦.

(3) أخرجه البزار (٩٥٠)، والطبراني في الدعاء (١٧٥١)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٩٤-٩٥: رواه البزار، وفيه: عبد الرحمن بن حماد الطلحي، وهو ضعيف بسبب هذا وغيره. اهـ. وأورده الدارقطني في العلل ٤/٢٠٨ مرسلاً وموصولاً، وقال: والمرسل أصح.

التي يُضيفها إليه أعداءُ اللهِ تعالى: إنَّ ذلك مما يأباه مقامُ الإسراء إباءَ العَيوفِ[(١)] الورودَ، وهو مزيَّف، بل معناه التعجُّب كما قال في «النُّور»: الأصل في ذلك أن يسبّحَ الله تعالى عند رؤيةِ العجيبِ من صنائعه، ثم كَثُر حتى استُعمل في كلِّ متعجَّب منه[(٢)]. وليس بشيءٍ، ففي «الكشف»: أنَّ التنزيه لا ينافي التعجُّبَ كما توهّم واعترض، وجَعْلُه مداراً والتعجُّب تبعاً هاهنا هو الوجهُ بخلاف آيةِ «النور».

وذكر بعضُهم أنَّ الظاهرَ من كلام «الكشَّاف» في مواضعَ أنَّه لا يرتضي الجمعَ بين التنزيهِ والتعجُّب؛ للمنافاة بينهما، بل لأنَّ كلًّا منهما معنًى مستقلٌّ، فالجمعُ بينهما جمعٌ بين معنيَي المشترك، وعلى الجمع فالوجهُ ما ذُكر أنَّه الوجه، فافْهَمْ.

وقيل: إنَّ «سبحان» ليس عَلَماً أصلاً بلا تفصيل، ففيه ثلاثةُ مذاهب.

وذكر بعضُهم أنَّه في الآية على معنى الأمر، أي: نزِّهوا الله تعالى وبرِّئوه من جميع النَّقائص، ويدخل فيها العجزُ عما بعد. أو: من العجز عن ذلك. والمتبادرُ اعتبارُ المضارع.

والإسراء: السيرُ بالليل خاصَّة، كالسُّرى، فأَسرَى وسَرَى بمعنًى. وليست همزةُ أَسرى للتعدية، كما قال أبو عبيدة.

وقال ابنُ عطية[(٣)]: الهمزةُ للتعدية، والمفعولُ محذوف، أي: أَسرى ملائكتَه بعبده. قال في «البحر»[(٤)]: وإنَّما احتاج إلى هذه الدَّعوى اعتقاد أنَّه إذا كان أَسرى بمعنى سرى، لزم من كون الباءِ للتعدية مشاركةُ الفاعلِ للمفعول، وهذا شيءٌ ذهب إليه المبرِّد، فإذا قلت: قمتُ بزيد، يَلزم منه قيامُك وقيامُ زيدٍ عنده، وإذا جعلتَ الباءَ كالهمزة، لا يلزمُ ذلك كما لا يخفَى. وقال أيضاً: يحتمل أن يكونَ أَسرى بمعنى سَرَى، على حذف مضافٍ وإقامةِ المضافِ إليه مُقامَه، والأصلُ: أَسرى ملائكتُه، وهو مبنيٌّ على ذلك الاعتقادِ أيضاً.

وقال الليثُ: يقال: أَسرى، لأوَّل الليل، وسَرَى، لآخِره.

---

(١) العيوف من الإبل: الذي يشم الماء فيدعه وهو عطشان. القاموس (عيف).
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥، عند قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية: ١٦].
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٤.
(٤) ٦/ ٥.

وأمَّا سار، فالجمهورُ على أنه عامٌّ لا اختصاصَ له بليلٍ أو نهار. وقيل: إنه مختصٌّ بالنهار، وليس مقلوباً مِن سرى.

وإيثارُ لفظةِ العبدِ للإيذان بتمحُّضه ﷺ في عبادته سبحانه، وبلوغِه في ذلك غايةَ الغايات القاصية، ونهايةَ النهاياتِ النائية، حسبما يلوح به مبدأُ الإسراءِ ومنتهاه. والعبوديةُ ـ على ما نصَّ عليه العارفون ـ أشرفُ الأوصاف، وأعلى المراتب، وبها يفتخر المحبُّون، كما قيل:

لا تدعُني إلَّا بيا عبدها فإنَّه أشرف أسمائي[1]

وقال آخر[2]:

بالله إنْ سألوك عنِّي قل لهم عبدي وملكُ يدي وما أَعتقْتُه

وعن أبي القاسم سليمانَ الأنصاريِّ أنَّه قال: لمَّا وصل النبيُّ ﷺ إلى الدَّرجات العالية والمراتبِ الرفيعة، أَوحى اللهُ تعالى إليه: يا محمد، بمَ نشرِّفك؟ قال: بنسبتي إليك بالعبوديّة، فأنزل اللهُ تعالى: (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ)[3]. وجاء: «قولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه»[4].

وقيل: إنَّ في التعبير به هنا دون: حبيبِه، مَثَلاً سدًّا لباب الغلوِّ فيه ﷺ، كما وقع للنَّصارى في نبيِّهم عليه السلام. وذكروا أنَّه لم يعبِّر اللهُ تعالى عن أحدٍ بالعبد مضافاً إلى ضمير الغَيبةِ المشارِ به إلى الهُويَّة إلَّا النبيّ ﷺ، وفي ذلك مِن الإشارة ما فيه. ومَن تأمَّل أدنَى تأمُّل ما بين قولِه تعالى: (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ) وقولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣] ظهر له الفرقُ التامُّ بين مقامِ الحبيب ومقامِ الكليم صلى الله عليهما وسلَّم. وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى قريباً في هذه السورةِ ما يُفهَم منه الفرق أيضاً، فلا تغفُل.

---

(١) سلف ٢/ ٣٠.

(٢) هو عبد الله بن علي تقي الدين السروجي، والبيت في فوات الوفيات ٢/ ١٩٧، والوافي بالوفيات ١٧/ ٣٤٢، وثمرات الأوراق ص٢٠٨.

(٣) قال الإمام الرازي في تفسيره ٢٠/ ١٤٦: وسمعت الشيخ الإمام الوالد عمر بن الحسين رحمه الله قال: سمعت الشيخ الإمام أبا القاسم سليمان الأنصاري. . . ثم ذكره.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر ﷺ.

وإضافةُ «سبحان» إلى الموصول المذكورِ؛ للإشعارِ بعِلِّية ما في حيِّز الصلةِ للمضاف، فإنَّ ذلك من أدلَّة كمالِ قدرته، وبالغِ حكمته، وغاية تنزُّهه تعالى عن صفات النقص.

وقولُه تعالى: ﴿لَيۡلٗا﴾ ظرفٌ لـ «أَسرى»، وفائدته الدلالةُ بتنكيره على تقليل مدَّة الإسراءِ، وأنَّها بعضٌ من أجزاء الليل؛ ولذلك قرأ عبدُ الله وحذيفة: «من الليل»(١) أي: بعضه، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ﴾ [الإسراء: ٧٩].

واعتُرِض بأنَّ البعضيةَ المستفادَة مِن «مِن» التبعيضية هي البعضيةُ في الأجزاء، والبعضيةَ المستفادَة من التنكير البعضيةُ في الأفراد والجزئيَّات، فكيف يُستفاد من التنكير أنَّ الإسراءَ كان في بعضٍ من أجزاءِ الليل؟ فالصواب أنَّ تنكيره لدفع توهُّم أن الإسراء كان في ليال، أو لإفادة تعظيمه، كما هو المناسبُ للسِّياق والسِّباق، أي: ليلاً أيَّ ليلٍ دنا فيه المحبُّ إلى المحبوب، وفاز في مقام الشهودِ بالمطلوب.

وأجاب عن ذلك بعضُ الكاملين بما لا يخفَى نقصُه. وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ ما ذكر قد نصَّ عليه الشيخُ عبد القاهرِ في «دلائل الإعجاز»(٢) ولا يَرِد عليه الاعتراضُ ابتداءً.

وتحقيقُه على ما صرَّح به الفاضلُ اليمنيُّ نقلاً عن سيبويه وابنِ مالك: أنَّ الليلَ والنهار إذا عرِّفا كانا معياراً للتعميم وظرفاً محدوداً، فلا تقولُ: صحبتُه الليلةَ، وأنت تريد ساعةً منها، إلَّا أن تقصدَ المبالغة، كما تقول: أتاني أهلُ الدنيا، لناسٍ منهم، بخلاف المنكَّر؛ فإنَّه لا يفيد ذلك، فلمَّا عدل عن تعريفه هنا، عُلِمَ أنَّه لم يقصد استغراقَ السُّرى له، وهذا هو المرادُ من البعضيَّة المذكورة، ولا حاجةَ إلى جعل الليلِ مجازاً عن بعضه، كما أنك إذا قلت: جلستُ في السوق، وجلوسُك في بعض أماكنِه، لا يكون السوق فيه مجازاً كما لا يخفَى. وقد أشار إلى هذا المدقِّقُ في «الكشف».

وقيل: المرادُ بتنكيره أنه وقع في وسطه ومعظمِه، كما يقال: جاءني فلانٌ

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٦، والبحر ٦/ ٥.

(٢) انظر ص٢٨٨-٢٩٠.

بليل، أي: في معظم ظلمتِه، فيفيد البعضيةَ أيضاً. وينافيه ما سيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى في الحديث. وزَعْمُ أنَّ ذِكر «ليلاً» للتأكيد، أو تجريدِ الإسراء وإرادةِ مطلق السيرِ منه = ناشيءٌ من قلَّة البضاعةِ كما لا يخفَى.

وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى بيانُ حكمةِ كون الإسراءِ ليلاً.

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الظاهر أنَّ المرادَ به المسجدُ المشهورُ بين الخاصِّ والعامِّ بعينه، وكان ﷺ إذ ذاك في الحِجْر منه، فقد أخرج الشيخان والترمذيُّ والنَّسائي[1] من حديث أنسِ بن مالك، عن مالك بنِ صعصعةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بينا أنا في الحِجْر - وفي رواية: في الحطيم - بين النائمِ واليقظان، إذ أتاني آتٍ، فشقَّ ما بين هذه إلى هذه، فاستخرج قلبي فغسله، ثم أُعيد، ثم أُتيت بدابَّة دون البغلِ وفوقَ الحمار أبيضَ، يقال له: البُراق، فحُملت عليه..» الحديث.

وفي بعض الرِّوايات أنَّه جاءه جبريلُ وميكائيلُ عليهما السلام وهو مضطجعٌ في الحِجر بين عمِّه حمزةَ وابنِ عمِّه جعفر[2]، فاحتملته الملائكةُ عليهم السلام وجاؤوا به إلى زمزمَ، فألقَوه على ظهره، وشقَّ جبريلُ صدرَه من ثُغرة نحرِه إلى أسفل بطنه بغير آلةٍ ولا سيلانِ دمٍ ولا وجودِ ألم، ثم قال لميكائيل: ائتني بطَستٍ من ماءِ زمزم، فأتاه به، فاستخرج قلبَه الشريفَ، وغسله ثلاثَ مراتٍ، ثم أعاده إلى مكانه، وملأه إيماناً وحكمةً، وخَتَمَ عليه، ثم خرج به إلى باب المسجد، فإذا بالبُراق مُسرَجاً مُلجَماً، فركبه... الخبر.

ويُعلَم منه الجمعُ بين ما ذُكر من أنَّه عليه الصلاة والسلام كان إذ ذاك في الحِجر وما قيل: إنَّه كان بين زمزمَ والمقام. وقيل: المراد به الحَرَمُ، وأُطلق عليه لإحاطته به، فهو مجازٌ بعلاقة المجاورة الحِسِّية والإحاطة، أو لأنَّ الحرم كلَّه محلٌّ للسجود ومحرَّم ليس بحِلٍّ، فهو حقيقةٌ لغوية، والنكتةُ في هذا التعبيرِ مطابقةُ المبدأ المنتهى.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧)، وصحيح مسلم (١٦٤)، وجامع الترمذي (٣٣٤٦)، وسنن النسائي ١/ ٢١٧.

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٥٧٩ بصيغة التمريض.

وكان ﷺ إذ ذاك في دار فاختةَ أمِّ هانئٍ بنتِ أبي طالب؛ فقد أخرج النَّسائيُّ عن ابن عباسٍ[١]، وأبو يعلَى في «مسنده»، والطبرانيُّ في «الكبير»[٢] من حديثها: أنَّه ﷺ كان نائماً في بيتها بعد صلاة العشاء، فأُسري به ورجع من ليلته وقصَّ القصةَ عليها، وقال: «مُثِّل لي النبيُّون فصلَّيت بهم» ثم خرج إلى المسجد وأخبر به قريشاً، فمن مصفِّق، وواضعٍ يدَه على رأسه تعجُّباً وإنكاراً، وارتدَّ أُناس ممَّن آمن به عليه الصلاة والسلام، وسعى رجالٌ إلى أبي بكر، فقال: إنْ كان قال ذلك لقد صَدَقَ، قالوا: تصدِّقه على ذلك؟ قال: إني أصدِّقه على أبعدَ من ذلك، أصدِّقه بخبر السماءِ غَدوةً أو رَوحةً، فسمِّي: الصِّدِّيق. وكان في القوم مَن يعرف بيتَ المقدس، فاستنعتوه إيَّاه، فجُلِّي له، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أمَّا النعتُ فقد أصاب فيه، فقالوا: أَخْبِرنا عن عِيرنا فهي أهمُّ إلينا، هل لقيتَ منها شيئاً؟ قال: «نعم، مررت بعِيْر بني فلان، وهي بالرَّوحاء، وقد أضلُّو بعيراً لهم وهم في طلبه، وفي رِحالهم قدحٌ من ماء، فعطشت فأخذتُه وشربته ووضعته كما كان، فاسألوا: هل وجدوا الماءَ في القَدَح حين رجعوا»؟ قالوا: هذه آية. قال: «ومررت بعِيْر بني فلان، وفلانٌ وفلانٌ راكبان قعوداً، فنفر بعيرُهما منِّي فانكسر، فاسألوهما عن ذلك» قالوا: هذه آيةٌ أخرى، ثم سألوه عن العُدَّة والأحمال والهيئات، فمثلت له العِيرُ، فأخبرهم عن كلِّ ذلك وقال: «تَقدَم يومَ كذا مع طلوعِ الشمسِ وفيها فلانٌ وفلان، يَقدُمها جملٌ أَورق عليه غِرارتان[٣] مَخيطتان» قالوا: وهذه آيةٌ أخرى، فخرجوا يشتدُّون ذلك اليوم نحوَ الثنيَّة، فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمسُ فيكذِّبوه، إذ قال قائلٌ: هذه الشمسُ قد طلعت، وقال آخَر: هذه العِير قد أقبلت، يَقدُمها بعيرٌ أَورقُ فيها فلانٌ وفلانٌ كما قال، فلم يؤمنوا وقالوا: هذا سِحرٌ مبين. قاتلهم اللهُ أنَّى يؤفكون.

وفي بعض الآثارِ أنَّ أمَّ هانئ قالت: فَقَدْتُه ﷺ وكان نائماً عندي، فامتنع مني النومُ مخافةَ أن يكونَ عرض له بعضُ قريشٍ، ويقال: إنَّه تفرَّقت بنو عبدِ المطلب

---

(١) في الكبرى (١١٢١٩) و(١١٢٢١) وليس فيه ذِكر لأم هانئ أصلاً.

(٢) برقم (١٠٥٩).

(٣) الغرارة: وعاء من الخيش ونحوه، وهو أكبر من الجُوالق. المعجم الوسيط (غرر).

يلتمسونه، ووصل العبَّاس إلى ذي طوى وهو ينادي: يا محمدُ يا محمد، فأجابه ﷺ، فقال: يا ابنَ أخي، أَعييتَ قومَك أين كنت؟ قال: «ذهبتُ إلى بيت المقدس» قال: مِن ليلتك، قال: «نعم»، قال: هل أصابك إلَّا خير؟ قال: «ما أَصابني إلَّا خير» وقيل غيرُ ذلك.

وكما اختُلف في مبدأ الإسراء اختُلف في سَنته، فذكر النوويُّ في «الروضة» أنَّه كان بعد النبوَّة بعشر سنين وثلاثةِ أشهر، وفي «الفتاوى»[١] أنَّه كان سنةَ خمسٍ أو ستٍّ من النبوَّة، ونقل عنه الفاضلُ الملَّا أمين العمريُّ في شرح «ذات الشفاء»[٢] الجزمَ بأنَّه كان في السنة الثانيةَ عشرةَ من المبعث، وعن ابن حزمٍ دعوى الإجماعِ على ذلك، وضعف ما في «الفتاوى» بأنَّ خديجةَ ﵂ لم تصلِّ الخمسَ وقد ماتت قبل الهجرةِ بثلاث سنين. وقيل: كان قبل الهجرةِ بسنةٍ وخمسةِ أشهر، وقيل: ثلاثة أشهر، ووقع في حديث شريكِ بن أبي نَمِر[٣] عن أنسٍ أنَّه كان قبل أن يوحَى إليه ﷺ، وقد خطَّأه غيرُ واحدٍ في ذلك.

ونقل الحافظُ عبد الحقِّ في كتابه «الجمعُ بين الصحيحين»[٤] حديثَ شريكٍ الواقعَ فيه ذلك بطوله، ثم قال: هذا الحديثُ بهذا اللفظِ من رواية شريكٍ عن أنسٍ قد زاد فيه زيادةً مجهولةً، وأتى فيه بألفاظ غيرِ معروفة. وقد روَى حديثَ الإسراءِ عن أنسٍ جماعةٌ من الحفَّاظ المتقنين والأئمَّةِ المشهورين، كابن شِهاب، وثابتٍ البُناني، وقتادة، فلم يأتِ أحدٌ منهم بما أتى به شريك، وشريكٌ ليس بالحافظ عند أهلِ الحديث. وأجاب عن ذلك محيي السُّنةِ وغيرُه بما ستسمعه إن شاءَ الله تعالى.

وكذا اختُلف في شهره وليلتِه، فقال النوويُّ في «الفتاوى»[٥]: كان في شهر ربيعٍ الأوَّل، وقال في «شرح مسلم» تبعاً للقاضي عياض: إنَّه في شهر ربيعٍ

(١) ص٣٦.
(٢) في سيرة النبي والخلفاء، لابن الجزري.
(٣) في الأصل و(م): نمرة، وهو خطأ. وحديثه عند البخاري (٣٥٧٠) ومسلم (١٦٢).
(٤) ١/ ١٢٧-١٢٨. وهو أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الأندلسي الإشبيلي، الإمام الحافظ العلامة. توفي سنة (٥٨١هـ). سير أعلام النبلاء ٢١/ ١٩٨.
(٥) ص٣٦.

الآخِر[١]، وجزم في «الروضة» بأنَّه في رجب. وقيل: في شهر رمضانَ. وقيل: في شوَّال. وكان ـ على ما قيل ـ الليلةَ السابعةَ والعشرين من الشهر، وكانت ليلةَ السبت كما نقله ابنُ الملقِّن[٢] عن رواية الواقديِّ.

وقيل: كانت ليلةَ الجمعة؛ لمكان فضلِها وفضل الإسراء. ورُدَّ بأنَّ جبرائيلَ عليه السلام صلَّى بالنبيِّ ﷺ أوَّلَ يومٍ بعد الإسراء الظهرَ، ولو كانَ يومَ الجمعة لم يكن فرضُها الظهرَ. قاله محمدُ بن عمرَ السَّفيري[٣]، وفيه أنَّ العمريَّ ذكر في شرح «ذات الشِّفاء» أنَّ الجُمُعة والجنازةَ وجبتا بعد الصَّلواتِ الخمس، وفي شرح «المنهاج» للعلَّامة ابنِ حجر: أنَّ صلاةَ الجمعةِ فُرضت بمكَّة، ولم تُقَم بها لفقد العدد، أو لأنَّ شِعارها الإظهار، وكان ﷺ بها مستخفياً، وأوَّل مَن أقامها بالمدينة قبلَ الهجرةِ أسعدُ بن زرارةَ بقرية على ميلٍ من المدينة.

ونقلَ الدَّميري عن ابن الأثيرِ أنَّه قال: الصحيحُ عندي أنَّها كانت ليلةَ الاثنين. واختاره ابنُ المنير. وفي «البحر»[٤]: قيل: إنَّ الإسراء كان في سبعَ عشرةَ من شهر ربيعِ الأوَّل، والرسولُ ﷺ ابن إحدى وخمسين سنة وتسعةِ أشهرٍ وثمانيةٍ وعشرين يوماً، وحَكَى أنَّها ليلة السابعِ والعشرين من شهر ربيعٍ الآخِر عن الحربيِّ[٥].

وهي ـ على ما نقل السفيريُّ عن الجمهور ـ أفضلُ الليالي حتى ليلةِ القَدْر

---

(١) كذا قال المصنف رحمه الله، والذي في إكمال المعلم ١/ ٤٩٧ـ وتبعه عليه النووي ١/ ٢٠٩-٢١٠ ـ: إن الإسراء أقل ما قيل فيه: إنه كان بعد مبعثه بخمسة عشر شهراً، وقال الحربي: كان ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة، وقال الزهري: كان ذلك بعد مبعث النبي ﷺ بخمس سنين، وقال ابن إسحاق: أُسري به وقد فشا الإسلام بمكة والقبائل. وأشبه هذه الأقاويل قول الزهري وابن إسحاق.

(٢) هو أبو حفص عمر بن علي الأنصاري الأندلسي المصري الشافعي المعروف بابن الملقن. الفقيه الإمام المحدث الحافظ. له: البدر المنير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، وطبقات الأولياء، وغير ذلك. توفي سنة (٨٠٤هـ). الضوء اللامع ٦/ ١٠٠.

(٣) هو شمس الدين محمد بن زين الدين عمر السفيري الحلبي الشافعي، الإمام العلامة، ولد بحلب سنة (٨٧٧هـ) ولازم العلاء الموصلي والبدر السيوفي في فنون شتى، توفي سنة (٩٥٦هـ). الكواكب السائرة ٢/ ٥٦، وشذارت الذهب ٨/ ٣١١.

(٤) ٦/ ٥.

(٥) في الأصل و(م): الجرمي، وهو خطأ، انظر البحر وشرحَي القاضي عياض والنووي.

مطلقاً. وقيل: هي أفضلُ بالنِّسبة إلى النبيِّ ﷺ، وليلةُ القدرِ أفضلُ بالنِّسبة إلى أمَّته عليه الصلاة والسلام. ورُدَّ بأنَّ ما كان أفضلَ بالنسبة إليه ﷺ فهو أفضلُ بالنسبة إلى أمَّته عليه الصلاة والسلام، فهي أفضلُ مطلقاً، نعم لم يُشرَع التعبُّد فيها، والتعبُّد في ليلة القدرِ مشروعٌ إلى يوم القيامة. واللهُ تعالى أعلم.

واختُلف أيضاً أنَّه في اليقظة أو في المنام: فعن الحسنِ أنَّه في المنام. ورُوي ذلك عن عائشةَ ومعاويةَ رضي الله عنهما، ولعلَّه لم يصحَّ عنهما كما في «البحر»[1]، وكانت رضي الله عنها إذا ذاك صغيرةً، ولم تكن زوجتَه عليه الصَّلاة والسلام، وكان معاويةُ كافراً يومَئذ، واحتجَّ لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] لأنَّ الرؤيا تختصُّ بالنوم لغة، ووقع في حديث شريكٍ المتقدِّمِ ما يؤيِّده.

وذهب الجمهورُ إلى أنَّه في اليقظة ببدنه وروحِه ﷺ، والرُّؤيا تكون بمعنى الرؤيةِ في اليقظة، كما في قول الراعي يصف صائداً:

وكَبَّر للرؤيا وهشَّ فؤاده ... وبشَّر قلباً كان جمًّا بَلابِلُهْ[2]

وقال الواحديُّ: إنها رؤية اليقظةِ ليلاً فقط، وخبرُ شريكٍ لا يعوَّل عليه، على ما نُقل عن عبد الحقِّ.

وقال النوويُّ[3]: وأمَّا ما وقع في روايةٍ عن شريكٍ: وهو نائم، وفي أُخرى عنه: «بينا أنا عندَ البيتِ بين النائم واليقظان»، فقد يحتجُّ به مَن يجعلها رؤيا نوم، ولا حجَّةَ فيه؛ إذ قد يكون ذلك أوَّلَ وصولِ المَلَك إليه، وليس في الحديث ما يدلُّ على كونه ﷺ نائماً في القصَّة كلِّها.

واحتجَّ الجمهورُ لذلك بأنَّه لو كان مناماً، ما تعجَّب منه قريشٌ ولا استحالوه؛ لأنَّ النائمَ قد يرى نفسَه في السماء ويذهبُ من المشرق إلى المغرب، ولا يستبعده أحدٌ، وأيضاً العبدُ ظاهرٌ في الرُّوح والبدن.

---

(١) ٦/ ٥.

(٢) في الأصل و(م): بلاله، والمثبت من الروض الأُنُف للسُّهيلي ٢/ ١٤٩. والبيت في ديوان الراعي النميري ص٢٥٩، واللسان (هشش) برواية: وبشَّر نفساً كان قبلُ يلومها.

(٣) في شرح صحيح مسلم ١/ ٢١٠ نقلاً عن القاضي عياض.

وذهبت طائفةٌ، منهم القاضي أبو بكرٍ والبغويُّ[(١)]، إلى تصديق القائلين بأنَّه في المنام والقائلين بأنَّه في اليقظة، وتصحيحِ الحديثَين في ذلك بأنَّ الإسراء كان مرَّتين، إحداهما في نومه ﷺ قبل النبوَّة، فأُسري بروحه توطئةً وتيسيراً لما يَضعُف عنه قُوى البشر، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ ثم أُسري بروحه وبدنه بعد النبوَّة. قال في «الكشف»: وهذا هو الحقُّ، وبه يحصل الجمعُ بين الأخبار.

وحكى المازريُّ في «شرح مسلم»[(٢)] قولاً رابعاً جمع به بين القولَين، فقال: كان الإسراء بجسده ﷺ في اليقظة إلى بيت المقدس، فكانت رؤيةَ عَين، ثم أُسري بروحه الشريفةِ عليه الصلاة والسلام منه إلى ما فوقه، فكانت رؤيا قلب؛ ولذا شنَّع الكفَّار عليه عليه الصلاة والسلام قولَه: «أتيتُ بيتَ المقدس في ليلتي هذه»، ولم يشنِّعوا عليه قولَه فيما سوى ذلك، ولم يتعجَّبوا منه؛ لأنَّ الرؤيا ليست محلَّ التعجُّب.

وليس معنى الإسراءِ بالروح الذهابَ يقظةً كالانسلاخ الذي ذهب إليه الصوفيةُ والحكماء، فإنَّه وإن كان خارقاً للعادة ومحلًّا للتعجُّب أيضاً، إلَّا أنَّه أمرٌ لا تعرفه العربُ، ولم يذهب إليه أحدٌ من السلف.

والأكثرُ على أنَّ المعراج كالإسراء بالرُّوح والبدن، ولا استحالة في ذلك، فقد ثبتَ بالهندسة أنَّ مساحةَ قطرِ جِرم الأرضِ ألفان وخمسُ مئةٍ وخمسةٌ وأربعون فرسخاً ونصفُ فرسخ، وأنَّ مساحة قطرِ كرةِ الشَّمس خمسةُ أمثال ونصفُ مثل لقطر جِرم الأرض، وذلك أربعةَ عشرَ ألفِ فرسخ، وأنَّ طرفَ قطرِها المتأخِّر يصل موضع طرفِه المتقدِّم في ثُلُثي دقيقة، فتقطع الشمسُ بحركة الفَلَك الأعظم أربعةَ عشرَ ألفِ فرسخ في ثلثَي دقيقةٍ من ساعة مستوية.

وذكر الإمامُ في «الأربعين»[(٣)] أنَّ الأجسامَ متساويةٌ في الذَّوات والحقائق، فوجب أن يصحَّ على كلِّ واحدٍ منها ما يصحُّ على غيره من الأعراض؛ لأنَّ قابلية

---

(١) في تفسيره ٣/ ١٣٤ على هامش الخازن.

(٢) ١/ ٢٢٠.

(٣) في أصول الدين.

ذلك العَرض إن كان من لوازم تلك الماهيةِ فأينما حصلت لَزِمَ[1] حصولُ تلك القابلية، فوجب أن يصحَّ على كلٍّ منها ما يصحُّ على الآخَر، وإن لم يكن من لوازمها كان من عوارضها، فيعود الكلامُ، فإن سَلِمَ، وإلَّا دارَ أو تسلسل، وذلك محال، فلا بدَّ من القول بالصحَّة المذكورة، واللهُ تعالى قادرٌ على جميع الممكنات، فيقدرُ على أن يخلقَ مثل هذه الحركةِ السريعةِ في بدن النبيِّ ﷺ أو فيما يَحمله.

وقال العلَّامة البيضاويُّ[2]: الاستحالة مدفوعةٌ بما ثبت في الهندسة أنَّ ما بين طرَفَي قرصِ الشمس ضِعفُ ما بين طرفي كرةِ الأرض مئةً ونيِّفاً وستِّين مرة، ثم إنَّ طرفها الأسفلَ يصل موضعَ طرفها الأعلى في أقلَّ من ثانية... إلى آخِر ما قال.

وما ذكرناه هو الصوابُ في التعبير، فإنَّ المقدِّمتين اللتين ذكرهما ممنوعتان، أمَّا الأولى، بأنَّ النِّسبة التي ذكرها إنَّما هي نسبةُ جِرم الشمسِ إلى جرم الأرض، كما برهنوا عليه في باب مقادير الأجرام والأبعاد من كتب الهيئة، لكنَّهم قالوا: جرمُ الشمس مثلُ جرمِ الأرض مئةً وستةً وستين مرة وربعَ مرة وثُمُنَ مرة. والعلَّامة جعل ذلك نسبةَ القطرِ إلى القطر؛ لأنَّه المتبادرُ مما بين الطرفين، وإرادةُ الجِرم منه خلافُ الظاهر جداً، وكان يكفيه لو أَراد ذلك أن يقولَ: قرصُ الشمسِ ضعفُ كرةِ الأرض، فأيُّ معنًى لما زاده؟!

وأمَّا الثانية، فإن أَراد بالثانية الثانيةَ من دقيقة الدرجةِ الفَلَكية التي هي ستُّون دقيقة، فمَنْعُها بما حرَّره العلَّامة القطب الشيرازيُّ في «نهاية الإدراك»[3] حيث قال: مقدارُ الدرجةِ الواحدةِ من مقعَّر الفلك الأطلس بالأميال (٩٣٤٣٥٩٣) ميلاً، فالفلكُ الأعلى يقطع فيما مِقداره من الزمان جزءٌ واحد من خمسةَ عشرَ جزءاً من ساعة مستويةٍ ـ وهو ثُلث خمسِها ـ هذا المقدارَ من الأميال، فإذا تحرَّك مقدارَ دقيقة، وهي جزءٌ من تسع مئة جزءٍ من ساعة مستوية، كان قَدْرُ قطعِه من المسافة (١٥٥٧١٨) ميلاً وسدسَ ميلٍ وخُمسَ ربع أو رُبعَ خُمسِ ميل، ولأنَّ حينما يبدو

(١) في الأصل و(م): حصلت حصل لزم.. والمثبت من حاشية الشهاب ٦/٧.
(٢) في تفسيره ٣/١٩٦.
(٣) في دراية الأفلاك.

قَرنُ الشمس إلى أن تطلعَ بالتَّمام يكون بقدر ما يعدُّ واحدٌ من واحد إلى ثلاث مئة، فبمقدار ما يعدُّ ثلاثين يتحرَّك الفلك (١٥٥٧١٨) ميلاً، وهو ألفٌ وسبع مئةٍ واثنان وثلاثون فرسخاً من مقعَّره، واللهُ تعالى أعلم بما يتحرَّك محدَّبه حينئذ، فسبحان اللهِ تعالى ما أعظمَ شأنَه. اهـ.

وحاصلُ ذلك أنَّ الفَلَك الأَعظم يتحرَّك من ابتداءِ طلوع جِرم الشمسِ إلى أن يطلعَ بتمامه سُدُسَ درجة، وهو عَشرُ دقائقَ من ستِّين دقيقةً من درجة فَلَكية، ومقدارُ مساحة هذه الدقائق (٥١٩٦٠٠) أي: خمسُ مئةِ ألفٍ وتسعةَ عشرَ ألفاً وستّ مئةِ فرسخ، وإذا جعلنا هذه الدقائقَ ثوانيَ، كانت ستّ مئةِ ثانية، فأين الأقلُّ من ثانية؟

وإن أراد بالثانية الثانيةَ من دقيقة الساعةِ التي هي رُبعُ الدرجةِ الفَلَكية، فسُدُسُ الدرجةِ هاهنا يكون ثلثي دقيقة، وإذا جعلنا ثُلُثَي الدقيقة ثواني، كانا أربعين ثانيةً، وهذه الثَّواني هي الثواني الستُّ مئة بعينها، إلَّا أنَّ المنجِّمين لمَّا جعلوا الساعةَ ستِّين دقيقةً تسهيلاً للحساب، والساعةَ عبارةً عن خمسةَ عشرَ درجةً فلكية، اقتضى أن تكونَ الدرجةُ الفلكية وكلُّ ثانيةٍ من ثواني دقيقةِ الساعة بخمسةَ عشرَ ثانيةً من ثواني دقيقةِ الدرجات الفلكية، فالخلافُ بين ثواني دقائق الدرجةِ الفلكية وثواني دقيقة الساعة اعتبارٌ لفظي.

وأجاب عبدُ الرحمن الكرديُّ الشهيرُ بالفاضل بأنَّ الثانية جزءٌ من ستِّين جزءاً من دقيقة، والدقيقةُ قد تطلَق على جزءٍ من ستين جزءاً من درجة، وقد تطلق على جزءٍ من ستِّين جزءاً من ساعة، وقد تطلق على جزءٍ من ستِّين جزءاً من يومٍ بليلته.

ومراد العلَّامة البيضاويِّ من الثانية الثانيةُ الثالثة لا الثانيةُ الأولى، وهو ظاهرٌ، ولا الثانيةُ الثانية، كما ذهب إليه سعدي چلبي وتبعه ابنُ صدرِ الدِّين، وفيه أنَّه يُفهَم منه أنَّ الفلكيين قد يقسمون اليومَ بليلته إلى ستِّين دقيقة، كما يقسمونها إلى السَّاعات والدَّرجات والدقائقِ قسمةً يتميَّز بها أجزاءُ الزمان، ولم يقل بذلك أحدٌ منهم، وإنَّما ذكر ذلك بعضُهم تسهيلاً لمعرفة الكسرِ الزائدِ على الأيام التامَّة من السَّنة لتُعرَفَ منه السَّنةُ الكبيسة في ثلاث سنين أو أربع سنين، وهو بمعزلٍ عمَّا نحن فيه من قطع المسافةِ البعيدةِ بالزمان القليل، ولو سلَّمنا ما زعمه، كان ناقصاً من مدَّة حركةِ الفَلَك الأعظمِ من ابتداء طلوعِ قُرص الشمسِ إلى انتهائه، وهو ثُلُثا دقيقةٍ

هما أربعون ثانية، وذلك جزءٌ من تسعين جزءاً من ساعةٍ مستوية، كما حرَّره العلَّامة الشيرازي.

وما ذكره من أنَّ الثانيةَ من دقيقة اليوم بليلته عبارةٌ عن أربعةٍ وعشرين ثانيةً من ثواني دقيقةِ الساعة، وهي أقلُّ من ثلثي دقيقة بستةَ عشرَ ثانية، خطأٌ على خطأ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢٢]. نعم قد أصاب في الردِّ على الفاضلين، وقد أخطأ الفاضلُ الأوَّل في غير ذلك في هذا المقام، كما لا يخفَى على مَن وقف على كلامه وكان له أدنَى اطِّلاعٍ على كتب القوم؛ ولتداوُل هذا المبحثِ بين الطَّلبة وعدم وجدانهم مَن يبلُّ غليلهم تعرَّضنا له بما نرجو أن يُبَلَّ به الغليل، هذا والعلماءُ درجات، واللهُ تعالى الموفِّق لفهم الدقائق، فتأمَّل مرةً وثانيةً وثالثة، فلعل اللهَ سبحانه أن يفتحَ عليك غيرَ ذلك.

وما ذكر من تساوي الأجسامِ مبنيٌّ ـ على ما قيل ـ على تركُّبها من الجواهر الفردة، وفيه خلافُ النَّظَّامِ والفلاسفة، والبحثُ في ذلك طويل، ولا يستدلُّ على الاستحالة بلزوم الخَرقِ والالتئام، وقد برهنوا على استحالة ذلك؛ لأنَّا نقول: إنَّ برهانهم على ذلك أوهنُ من بيت العنكبوتِ كما بيِّن في محلِّه.

ولم تتعرَّض الآية لأنَّه ﷺ كان في الإسراء به محمولاً على شيءٍ، لكن صحَّت الأخبار بأنَّه عليه الصلاة والسلام أُسري به على البراق.

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وهو بيتُ المقدس. ووَصْفُه بالأقصى، أي: الأبعد، بالنِّسبة إلى مَن بالحجاز. وقال غيرُ واحدٍ: إنه سمِّي به لأنه أبعدُ المساجد التي تُزار من المسجد الحرام، وبينهما نحوٌ من أربعين ليلة. وقيل: لأنَّه ليس وراءه موضعُ عبادة، فهو أبعدُ مواضِعها. وقال ابنُ عطية[1]: يحتمل أن يرادَ بـ «الأقصى» البعيدُ، دون مفاضلةٍ بينه وبين ما سواه، وهو بعيدٌ في نفسه للزائرين، وقيل: المرادُ بُعدُه عن الأقذار والخبائث.

واختُلف في ركوب جبريلَ عليه السلام معه، فقيل: ركب خلفه عليه الصلاة والسلام. والصحيحُ أنَّه لم يركب، بل أخذ بركابه وميكائيلُ يقود البراق.

---

(١) في تفسيره ٣/ ٤٣٦.

واختُلف أيضاً في استمراره عليه الصلاة والسلام في عروجه إلى السماء، فقيل: عَرَجَ عليه. والصحيحُ أنه نُصب له معراجٌ فعرج عليه، وجاء في وصفه وعِظَمه ما جاء، ووهَّم الحافظُ ابن كثيرٍ[1] ـ كما قال الحلبيُّ[2] ـ القائلين ـ ومنهم صاحبُ الهَمْزية[3] ـ: إنَّ عروجَه ﷺ على البراق.

ومن الأكاذيب المشهورةِ أنَّه ﷺ لمَّا أراد العروج، صَعِدَ على صخرة بيتِ المقدس ورَكِبَ البراق، فمالت الصخرةُ وارتفعت لتلحقَه، فأمسكتها الملائكةُ، ففي طرفٍ منها أَثَرُ قدمِه الشَّريف، وفي الطرف الآخَر أثرُ أصابعِ الملائكة عليهم السلام، فهي واقفةٌ في الهواء قد انقطعت من كلِّ جهة، لا يُمسكها إلَّا الذي يُمسك السماءَ أن تقعَ على الأرض سبحانَه وتعالى.

وذكر العلائيُّ[4] «في تفسيره» أنَّه كان للنبيِّ عليه الصلاة والسلام ليلةَ الإسراء خمسةُ مراكب: الأوَّل: البراق إلى بيت المقدس، الثاني: المعراجُ منه إلى السماءِ الدنيا، الثالث: أجنحةُ الملائكةِ منها إلى السَّماء السابعة، الرابع: جناحُ جبريلَ عليه السلام منها إلى سِدرة المنتهَى، الخامس: الرَّفرف منها إلى قابِ قوسَين.

ولعل الحكمةَ في الرُّكوب إظهارُ الكرامة، وإلَّا فاللهُ سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يوصلَه إلى أيِّ موضعٍ أراد في أقلَّ من طرفةِ عين.

وقيل: لم يكن إلَّا البراقُ من المسجد الحرامِ إلى المسجد الأقصى، والمعراجُ منه إلى حيث شاءَ الله تعالى، وقد كان له عشرُ مراقٍ: سبعةٌ إلى السماوات،

---

(١) في البداية والنهاية ٤/ ٢٧٦.

(٢) هو نور الدين علي بن إبراهيم الحلبي القاهري الشافعي صاحب السيرة الحلبية، كان غاية في التحقيق، حادَّ الفهم، قوي الفكرة. توفي سنة (١٠٤٤هـ). خلاصة الأثر ٣/ ١٢٢.

(٣) حيث قال في همزيته:

فـصـف الـلـيـلـة الـتـي كـان لـلـمـخـ ... ـتـار فـيـهـا عـلـى الـبـراق اسـتـواءُ

وتـرقَّـى بـه إلـى قـابِ قـوسـيـ ... ـن وتـلـك الـسـيـادة الـقـعـسـاءُ

وهو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري، صاحب البردة والقصيدة المضرية وغير ذلك. توفي سنة (٦٩٦هـ). الوافي بالوفيات ٣/ ١٠٥، وفوات الوفيات ٣/ ٣٦٢.

(٤) في الأصل: العلامى، والعلائي هو علاء الدين محمد بن عبد الرحمن البخاري المعروف بالعلاء الزاهد، المتوفى سنة (٥٤٦هـ). كشف الظنون ١/ ٤٥٤.

والثامنُ إلى السِّدرة، والتاسعُ إلى المستوى الذي سمع فيه صريفَ الأَقلام، والعاشرُ إلى العرش، واللهُ تعالى أعلم.

ومن العجائب ما سمعتُه عن الطائفة الكشفيَّة ـ والعُهدةُ على الراوي ـ أنَّ للروح جسدين: جسدٌ من عالَم الغيبِ لا دخلَ للعناصر فيه، وجسدٌ من عالَم الشهادة كثيفٌ مركَّب من العناصر، والنبيُّ ﷺ حين عُرج به، أُلقي كلُّ عنصرٍ من عناصر الجسد العنصريِّ في كرته، فما وصل إلى فَلَك القمر حتى ألقى جميعَ العناصر، ولم يبقَ معه إلَّا الجسدُ اللطيف، فرَقِيَ به حيث شاءَ الله تعالى، ثم لمَّا رجع عليه الصلاة والسلام، رجع إليه ما ألقاه، واجتمع فيه ما تفرَّق منه، ولَعَمري إنه حديثُ خُرافة، لا مستندَ له شرعاً ولا عقلاً.

وذكر مولانا عبدُ الرحمن الدشتيُّ ثم الجاميُّ أنَّ المعراجَ إلى العرش بالرُّوح والجسد، وإلى ما وراءَ ذلك بالرُّوح فقط، وأنشد بالفارسية:

چُو رَفْرَفْ شُدْ مُشرَّف أز وُجودَشْ	گِرفْتْ أز دَسْت رَفْرَفْ عَرْشِ زُودَش
بَدَسْتِ عَرْش تَنْ چُون خِرْقَه بكذاشت	عَلَم بَرْ لا مَكان بي خرقه أفْرَاشت
گِلي بَرْدَنْد ازين دهليزه بَسْت	بَدَان دَرْگاه وَالَا دَسْتْ بَرْدَسْتْ
جِهَت را مُهْره أز شَشْدَرْ رهانيد	مَكَان رَا مَرْكب أزتنگي جَهَانيد
مكاني يَافْتْ خَالي أزمَكان نيز	كه تَنْ محرَمْ نَبُود آنْجاوجان نيز[1]

ولم أقف على مستندٍ له من الآثار، وكأنَّه لاحَظَ أنَّ العروج فوق العرشِ بالجسد يستدعي مكاناً، وقد تقرَّر عند الحكماءِ أنَّ ما وراء العرشِ لا خَلاءٌ ولا مَلاء، وبه تنتهي الأمكنةُ وتنقطع الجهات.

---

(١) ترجمة الأبيات:

حينما تشرفت مرتقى رفرف لحمله وارتقائه	سرعان ما وصل وارتقى العرش إلى عليائه
وحينما اقترب الجسد من قوائم العرش مرتدياً	خرقته رفع هناك لا مكان مستغنياً عنها
وقد ساروا به من الممر الضيق الدنيا	حتى ارتقى نحو العلا في رونق
قطع الجهات كلها بومضة عين	مخترقاً آفاقها كلمح البصر
حيث ارتقى مكاناً لا مكان	والروح تبقى في عالم الأجساد.

وقال بعضُهم: أَمْرُ المعراج أجلُّ من أن يكيَّف، وماذا عسى يقال سوى أنَّ المحبَّ القادرَ الذي لا يُعجزه شيٌ دعا حبيبَه الذي خَلَقه من نوره إلى زيارته، وأَرسل إليه مَن أرسل من خواصِّ ملائكتِه، فكان جبريلُ هو الآخذ برِكابه، وميكائيلُ الآخذ بزِمام دابَّته، إلى أن وصل إلى ما وصل، ثم تولَّى أمرَه سبحانه بما شاء حتى حصل، فأيُّ مسافةٍ تطول على ذلك الحبيبِ الربَّانيِّ، وأيُّ جسمٍ يمتنع عن الخرق لذلك الجسدِ النُّوراني؟!

جزْ بحزوَى فثمَّ عالمُ لطفٍ من بقايا أجساده الأرواحُ

ومَن تأمَّل في العين وإحساسِها بالقريب والبعيد ـ ولو كان فاقدَها وذُكر له حالُها لأنكر ذلك إنكاراً ما عليه مزيدٌ ـ وكذا في غير ذلك من آثارِ قدرةِ الله تعالى الظاهرةِ في الأنفس والآفاق، والواقعِ على جلالة قَدْرها الاتفاقُ = لم يَسَعه إلَّا تسليمُ ما نطقت به الآياتُ، وصحَّت به الروايات. ويُشبه كلامُ هذا البعضِ ما قاله بعضُ شعراءِ الفرس، إلَّا أنَّ فيه ميلاً إلى مذهب أهلِ الوحدة، وهو قولُه:

قصه بيرنگ معراج أزمَنِ بيدِل مَپرُسْ قطره دريا گشت وپيغمبر نميدَانَم چه شُدْ[1]

والظاهرُ أنَّ المسافةَ التي قطعها عليه الصلاة والسلام في مسيره كانت باقيةً على امتدادها. ويؤيِّد ذلك ما ذكره الثعلبيُّ في تفسيره في وصف البُراق أنَّه إذا أتى وادياً طالت يداه وقَصُرت رجلاه، وإذا أتى عَقَبةً طالت رجلاه وقصرت يداه، وكانت المسافةُ في غاية الطول، ففي «عقائق الحقائق»[2]: كانت المسافةُ من مكةَ إلى المقام الذي أَوحى اللهُ تعالى فيه إلى نبيِّه عليه الصلاة والسلام ما أَوحى قَدْرَ ثلاثِ مئةَ ألفِ سنة، وقيل: خمسين ألفاً، وقيل غيرُ ذلك.

وأنَّه ليس هناك طيُّ مسافةٍ على نحو ما يُثبته الصوفيةُ وبعضُ الفقهاءِ للأولياء كرامةً، وجهَّل بعضُ الحنفية مثبتيه لهم، وكفَّرهم آخرون، وليس له وجهٌ ظاهر،

---

(١) ترجمته:

لا تسلني أنا الولهان عن قصة المعراج العجيبة

إذ صارت القطرة بحراً ولست أدري إلام صار فيها الرسول.

(٢) قال في كشف الظنون٢/ ١١٤٩: لأبي النجم ركن الدين الخطيب المغربي، وهو كتاب في الموعظة، إلا أنه غير مصون عن الحشو.

وربما يَلزم مثبتيه القولُ بتداخل الجواهر، والفلاسفةُ والمتكلِّمون سوى النظَّام يُحيلونه ويبرهنون على استحالته، وادَّعى بعضُهم الضرورةَ في ذلك، وقالوا: المنعُ مكابرة، وقد أثبت الصوفيةُ للأولياء نشرَ الزمان، ولهم في ذلك حكاياتٌ عجيبة، واللهُ تعالى أعلمُ بصحَّتها، ولم أرَ مَن تعرَّض لذلك من المتشرِّعين، وهو أمرٌ وراء عقولِنا المشوبة بالأوهام، ومثلُه في ذلك قولُ مَن قال: الأزلُ والأبد نقطةٌ واحدة، الفرقُ بينهما بالاعتبار، وليس لفهم ذلك عندي إلَّا المتجرِّدون من جلابيب أبدانِهم، وقليلٌ ما هم. وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى في باب الإشارةِ حكايةُ إنكار طيِّ المسافةِ أيضاً وذِكرُ ما فيه، واللهُ تعالى الموفِّق.

وإنما أُسري به ﷺ ليلاً لمزيد الاحتفالِ به عليه الصلاة والسلام؛ فإنَّ الليلَ وقتُ الخلوةِ والاختصاص ومجالسةِ الملوك، ولا يكاد يدعو المَلِكُ لحضرته ليلاً إلَّا مَن هو خاصٌّ عنده، وقد أكرم اللهُ تعالى فيه قوماً من أنبيائه عليهم السلام بأنواع الكرامات، وهو كالأصل للنَّهار، وأيضاً الاهتداءُ فيه للمقصد أَبلغُ من الاهتداءِ في النهار، وأيضاً قالوا: إنَّ المسافرَ يقطع في الليل ما لا يقطع في النَّهار، ومِن هنا جاء: «عليكم بالدُّلْجة؛ فإنَّ الأرض تُطوَى بالليل ما لا تُطوَى بالنهار»(١) وأيضاً أُسري به ليلاً؛ ليكونَ ما يعرُج إليه من عالَم النورِ المحضِ أبعدَ عن الشَّبه بما يعرُج منه من عالَم الظُّلمة، وذلك أبلغُ في الإعجاب.

وقال ابنُ الجوزيِّ في ذلك: إنَّ النبيَّ ﷺ سِراج، والسراجُ لا يوقَد إلَّا ليلاً، وبدرٌ، وكذا مسيرُ البدر في الظُّلَم، إلى غير ذلك من الحِكَم التي لا يعلمها إلَّا اللهُ تعالى.

ثم إنَّ الآية ليست نصًّا في دخوله عليه الصلاة والسلام المسجدَ الأقصى، إلَّا أنَّ الأخبار الصحيحةَ نصٌّ في ذلك.

وقولُه سبحانه: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ صفةُ مدح، وفيها إزالةُ اشتراكٍ عارض، وبركتُه بما خُصَّ به من كونه متعبَّدَ الأنبياءِ عليهم السلام وقِبلةً لهم، وكثرةِ الأنهارِ

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٧١) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٧٢٥) من حديث جابر ﷺ. وليس فيهما: «ما لا تطوى بالنهار».

والأشجارِ حوله، وفي الحديث أنَّه تعالى باركَ فيما بين العريش إلى الفرات وخصَّ فلسطين بالتقديس[(١)]. وقيل: بركتُه أن جَعَلَ سبحانه مياهَ الأرض كلَّها تنفجر من تحتِ صخرته، واللهُ تعالى أعلمُ بصحَّة ذلك.

وهو أحدُ المساجدِ الثلاثةِ التي تُشدُّ إليها الرِّحال، والأربعةِ التي يُمنع من دخولها الدجَّال؛ فقد أخرج أحمدُ في «المسند»[(٢)] أنَّ الدجَّال يطوف الأرضَ إلَّا أربعةَ مساجد: مسجد المدينة، ومسجد مكَّة، والأقصى، والطُّور.

والصلاةُ فيه مضاعَفة؛ فقد أخرج أحمدُ أيضاً[(٣)]، وأبو داود[(٤)]، وابن ماجه[(٥)] عن ميمونةَ مولاةِ رسول الله ﷺ أنَّها قالت: يا نبيَّ الله، أَفتِنا في بيت المقدس، قال: «أرضُ المحشرِ والمنشر، ائتوه وصلُّوا فيه؛ فإنَّ صلاةً فيه بألفِ صلاة». وفي روايةٍ لأحمدَ[(٦)] عن بعض نسائه عليه الصلاة والسلام أنَّها قالت: يا رسولَ الله، فإن لم تستطع إحدانا أن تأتيَه؟ قال: «إذا لم تستطع إحداكنَّ أن تأتيَه، فلْتبعث إليه زيتاً يُسرَج فيه؛ فإنَّ مَن بعث إليه بزيت يُسرَج فيه، كان كمن صلَّى فيه» وروى بعضَه أبو داود.

وهو ثاني مسجدٍ وضع في الأرض؛ لخبر أبي ذرٍّ[(٧)]: قلت: يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وضع في الأرضِ أوَّلاً؟ قال: «المسجدُ الحرام» قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «المسجدُ الأقصى» قلت: كم بينَهما، قال: «أربعون سنةً، ثمَّ أينما أدركتك الصلاةُ فصلِّ؛ فإنَّ الفضلَ فيه».

وقد أسَّسه يعقوبُ عليه السلام بعد بناءِ إبراهيمَ عليه السلام الكعبةَ بما ذكر في الحديث، وجدَّده سليمانُ، أو أتمَّ تجديدَ أبيه عليهما السلام بعد ذلك بكثير، والكلامُ فيما يتعلَّق بذلك مفصَّل في محلِّه[(٨)].

---

(١) أخرجه بنحوه ابن عساكر موقوفاً على معاذ رضي الله عنه، كما في الدر المنثور ٢/ ٢٧٠.
(٢) برقم (٢٣٠٩٠).
(٣) في المسند برقم (٢٧٦٢٦).
(٤) في سننه (٤٥٧) مختصراً كما سيشير إليه المصنف.
(٥) في سننه (١٤٠٧).
(٦) هي الرواية السالفة، وهي عند أبي داود وابن ماجه.
(٧) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).
(٨) انظر ٤/ ٤-٥.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ أي: لنرفعَه إلى السماءِ حتى يرى ما يرى من العجائب العظيمة، فقد صحَّ أنَّه ﷺ عُرج به من صخرة بيتِ المقدس كما تقدَّم، واجتمع في كلِّ سماءٍ مع نبيٍّ من الأنبياءِ عليهم السلام، كما في «صحيح البخاري» وغيرِه[1]، واطَّلع عليه الصلاة والسلام على أحوال الجنةِ والنَّار، ورأى من الملائكة ما لا يَعلم عِدتهم إلَّا اللهُ تعالى.

ونُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه عليه الصلاة والسلام رأى ليلةَ المعراجِ في مملكة اللهِ تعالى خلقاً كهيئة الرِّجال على خيلٍ بُلْقٍ شاكين السلاحَ، طولُ الواحدِ منهم ألفُ عام، والفرسُ كذلك، يَتْبع بعضُهم بعضاً، لا يُرى أوَّلُهم ولا آخِرهم، فقال: «يا جبريل، مَن هؤلاء»؟ فقال: ألم تسمع قولَه تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١] فأنا أَهبط وأَصعد أراهم هكذا يمرُّون، لا أدري مِن أين يجيئون، ولا إلى أين يذهبون[2].

وقد صلَّى ﷺ بالأنبياء عليهم السلام في بيت المقدسِ، قال في «العقائق»: وكانت صلاتُه عليه الصلاة والسلام بهم ركعتين، قرأ في الأُولى: (قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ) وفي الثانية «الإخلاص». وقال بعضُهم: كانت دعاءً. وذكر أنَّ الأنبياء كانوا سبعةَ صفوف، ثلاثةٌ منهم مرسَلون، وأنَّ الملائكةَ عليهم السلام صلَّت معهم، وهذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام، كما قال القاضي زكريا في شرح «الرَّوض»، والحكمةُ في ذلك أنْ يظهرَ أنَّه إمامُ الكلِّ عليه الصلاة والسلام.

وهل صلَّى بأرواحهم خاصَّة، أو بها مع الأَجساد؟ فيه خلافٌ. وكذا اختُلف في أنَّه ﷺ صلَّى بهم قبل العروجِ أو بعدَه، فصحَّح الحافظ ابنُ كثير[3] أنَّه بعده، وصحَّح القاضي عياضٌ وغيرُه أنه قبلَه. وجاء في روايةٍ أنَّه عليه الصلاة والسلام صلَّى في كلِّ سماء ركعتين يؤمُّ أَملاكَها، وكان الإسراءُ والعروجُ في بعض ليلةٍ واحدة، وكان رجوعُه ﷺ على ما كان ذهابُه عليه، ولم يعيَّن مقدارُ ذلك البعض، وكيفما كان، فوقوعُ ما وقع فيه من أَعجبِ الآيات، وأغربِ الكائنات.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧)، وصحيح مسلم (١٦٤). وسلف تخريجه ص٣٦٨ من هذا الجزء.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) في تفسيره عند تفسير الآية.

وفي بعض الآثارِ أنَّه ﷺ لمَّا رجع وجد فراشَه لم يَبرُد من أثر النَّوم. وقيل: إنَّ غصنَ شجرةٍ أصابه بعِمامته في ذهابه، فلمَّا رجع وجده بعدُ يتحرك.

وزعم بعضُهم أنَّ ليلة الإسراء غيرُ ليلةِ المعراج، وظاهرُ الآية ـ على ما سمعتَ ـ يقتضي أنَّهما في ليلة واحدة.

وإنما أُسري به ﷺ أوَّلاً إلى بيت المقدس وعُرج به ثانياً منه؛ ليكونَ وصولُه إلى الأماكن الشَّريفة على التدريج؛ فإنَّ شرفَ بيتِ المقدس دون شرفِ الحضرة التي عَرَجَ إليها على ما قيل، وقيل: توطيناً له عليه الصلاة والسلام لما في المعراج من الغرابة العظيمةِ التي ليست في الإسراء وإنْ كان غريباً أيضاً. وقيل: لتتشرَّفَ به أرضُ المحشر ذهاباً وإياباً. وقيل: لأنَّ باب السماءِ الذي يقال له مصعدُ الملائكة عليهم السلام، على مقابلة صخرةِ بيتِ المقدس، فقد نُقل عن كعب الأحبارِ أنَّه قال: إنَّ لله تعالى باباً مفتوحاً من سماءِ الدنيا إلى بيت المقدس، ينزل منه كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك، يستغفرون لمن أتى بيتَ المقدس وصلَّى فيه، فأُسري به ﷺ إلى هناك أوَّلاً، ثم عُرج به ليكونَ صعودُه على الاستواء. وقيل: إنَّ أُسطواناتِ المسجدِ قالت: ربَّنا حَصَلَ لنا من كلِّ نبيٍّ حظٌّ، وقد اشتقنا إلى محمدٍ ﷺ، فارزقنا لقاءَه، فبدئ بالإسراء به إلى المسجد تعجيلاً للإجابة. وقيل غيرُ ذلك.

وعبَّر بـ «من» الدالَّةِ على التبعيض؛ لأنَّ إراءة جميعِ آيات الله تعالى ـ لعدم تناهيها ـ ممَّا لا تكاد تقع، ولو قيل: آياتِنا، لتبادرَ الكلُّ، وربَّما يستعان بالمقام على إرادته، واستُشكل بأنَّه كيف يرى نبيُّنا ﷺ بعضَ الآيات ويرى إبراهيمُ عليه السلام ملكوتَ السماواتِ والأرض كما نطق به قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] وفرقٌ بين الحبيبِ والخليل؟ وأُجيب بأنَّ بعض الآياتِ المضافةِ إليه تعالى أشرفُ وأعظمُ من ملكوت السماواتِ والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨].

وقال الخَفَاجيُّ[1]: السؤال غيرُ وارد؛ لأنَّ ما رآه إبراهيم عليه السلام ما فيها من الدَّلائل والحُجج، وليس ذلك مقاوِماً للمعراج، فتأمَّل.

---

(١) في حاشيته ٦/ ٨.

وقال ابنُ عطية[1]: يحتمل أن يكونَ معنى الآية: لِنُرِيَ محمداً ﷺ للناس آيةً من آياتِنا، أي: ليكونَ عليه الصلاة والسلام آيةً في أنَّه يصنع اللهُ تعالى ببشرٍ هذا الصنعَ، ويندفع بهذا السؤالُ المذكور، إلَّا أنه احتمالٌ في غاية البُعد.

ثم لا يخفَى أنه ليس في الآية إشارةٌ إلى أنَّه ﷺ رأى ربَّه ليلة الإسراء؛ إذ لا يَصْدق عليه تعالى أنَّه من آياته، بل لا يصدق سبحانه أنَّه آية. نعم مثبتو الرؤيةِ يحتجُّون بغير ذلك، وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى.

وكذا ليست الآيةُ نصًّا في المعراج، بل هي نصٌّ في الإسراء دونه؛ إذ يجوز حملُ بعض الآيات على ما حصل له ﷺ في الإسراء فقط، بل قال بعضُهم: ليس في الآيات مطلقاً ما هو نصٌّ في ذلك، ومِن هنا قالوا: إنَّ الإسراءَ إلى بيت المقدسِ قطعيٌّ ثبت بالكتاب، فمَن أنكره فهو كافر، والمعراجُ ليس كذلك، فمن أنكره فليس بكافر، بل مبتدعٌ. وكأنَّه سبحانه إنّما لم يصرِّح به كما صرَّح بالإسراء رحمةً بالقاصرين على ما قيل.

وفي «التفسير الخازني»[2] أنَّ فائدة ذِكر المسجدِ الأقصى فقط دونَ السماء، أنه لو ذكر صعودَه عليه الصلاة والسلام لاشتدَّ إنكارُهم لذلك، فلمَّا أَخبر أنَّه أسرى به إلى بيت المقدس، وبان لهم صِدقُه فيما أَخبر به من العلامات التي فيه وصدَّقوه عليها، أَخبر بعد ذلك بمعراجه إلى السماءِ، فكان الإسراءُ كالتَّوطئة للمعراج. اهـ.

وهذا ظاهرٌ في الخبر الوارد في هذا الباب، لا في الآية؛ لأنَّه لم يُخبِر فيها بالمعراج كما أَخبر فيها بالإسراء دلالةً. وقيل: إنَّ الإشارةَ بعد ذلك التصريحِ كافية، فتدبَّر.

وصرفُ الكلامِ من الغَيبة التي في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ إلى صيغة المتكلِّم المعظم في «باركنا» و«نريه» و«آياتنا» لتعظيم البركاتِ والآيات؛ لأنَّها كما تدلُّ على تعظيم مدلولِ الضميرِ تدل على عِظَم ما أُضيف إليه وصدر عنه، كما قيل: إنَّما يفعلُ العظيمَ العظيم.

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٦.

(٢) ٣/ ١٢٨

وقد ذكروا لهذا التلوينِ نكتةً خاصَّة، وهي: أنَّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ يدلُّ على مسيره عليه الصلاة والسلام من عالَم الشهادةِ إلى عالم الغيب، فهو بالغَيبة أنسب، وقولَه تعالى: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ دلَّ على إنزال البركات، فيناسب تعظيمَ المنزل، والتعبيرُ بضمير العظمةِ متكفِّل بذلك، وقوله سبحانه: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ على معنى: بعدَ الاتِّصال وعزِّ الحضور، فيناسب التكلُّمَ معه، وأما الغَيبة؛ فلكونه ﷺ إذ ذاك ليس من عالَم الشهادة، ولذا قيل: إنَّ فيه إعادةً إلى مقام السِّرِّ والغيبوبةِ من هذا العالَم، والغيبةُ بذلك أليَقُ، وقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ عودٌ إلى التعظيم كما سبقت الإشارة إليه.

وأما الغيبةُ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾ على تقدير كونِ الضميرِ له تعالى، كما هو الأظهر، وعليه الأكثر؛ فليطابقَ قولَه تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ ويرشِّح ذلك الاختصاصُ بما يوقع هذا الالتفاتَ أحسنَ مواقعِه، وينطبق عليه التعليلُ أتمَّ انطباق؛ إذ المعنى: قرَّبه وخصَّه بهذه الكرامة؛ لأنَّه سبحانه مطَّلع على أحواله، عالمٌ باستحقاقه لهذا المقام.

قال الطِّيبي: «إنَّه هو السميعُ» لأقوال ذلك العبد، «البصيرُ» بأفعاله، بكونها مهذَّبة خالصةً عن شوائب الهوى، مقرونةً بالصِّدق والصَّفا، مستأهلةً للقُرب والزُّلفى. وأمَّا على تقديرِ كون الضمير للنبيِّ ﷺ - كما نقله أبو البقاء[١] عن بعضهم، وقال: أي: «السميعُ» لكلامنا «البصيرُ» لذاتنا، وقال الجلبي: إنَّه لا يَبعد، والمعنى عليه: إنَّ عبدي الذي شرَّفته بهذا التشريفِ هو المستأهلُ له، فإنَّه «السميعُ» لأوامري ونواهيَّ، العاملُ بهما، «البصيرُ» الذي ينظر بنظرة العِبرة في مخلوقاتي فيعتبر، أو «البصيرُ» بالآيات التي أريناه إيَّاها، كقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] - فقيل: لمطابقة الضمائر العائدةِ عليه، وكذا لِما عبَّر به عنه من قوله سبحانه: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾. وقيل: للإشارة إلى اختصاصه ﷺ بالمِنَح والزُّلفى، وغيبوبةِ شهوده في عَين «بي يسمع وبي يبصر»[٢]. ولا يمتنع إطلاقُ السميعِ والبصيرِ على غيره تعالى كما تُوهِّم، لا مطلقاً ولا هنا.

---

(١) في الإملاء ٣/٤٦٨.
(٢) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في الأصل الثاني والستين بعد المئة ص٣٠٥.

قال الطِّيبي: ولعل السرَّ في مجيءِ الضميرِ محتملاً للأمرين الإشارة إلى أنَّه ﷺ إنَّما رأى ربَّ العزَّة وسمع كلامَه به سبحانه، كما في الحديث المشار إليه آنفاً، فافهم تَسمعْ وتُبصِر.

وتوسيطُ ضميرِ الفصل إمَّا لأنَّ سماعه تعالى بلا أُذن، وبصره بلا عَين، على نحوٍ لا يشاركه فيه تعالى أحدٌ، وإمَّا للإشعار باختصاصه ﷺ بتلك الكرامة.

وزعم ابنُ عطية[١] أنَّ قولَه تعالى: (إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) وعيدٌ للكفار على تكذيبهم النبيَّ ﷺ في أمر الإسراء، أي: «إنَّه هو السميعُ» لما تقولون أيها المكذِّبون، «البصيرُ» بما تفعلون، فيعاقبكم على ذلك.

وقرأ الحسن: «لِيُرِيَه» بياء الغَيبة[٢]، ففي الآية حينئذٍ أربعُ التفاتات.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراةَ ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتابَ، وهو الظاهرُ، أو موسى عليه السلام ﴿هُدًى﴾ عظيماً ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ متعلِّق بهُدًى، أو بجَعَلَ، واللامُ تعليلية، والواوُ استئنافية، أو عاطفةٌ على جملة (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ) لا على (أَسْرَىٰ) كما نقله في «البحر»[٣] عن العُكبَريِّ، وحَكَى نظيرَه عن ابن عطيةَ؛ لبُعده وتكلُّفه.

وعقب آيةَ الإسراءِ بهذه استطراداً؛ تمهيداً لذِكر القرآن، والجامعُ أنَّ موسى عليه السلام أُعطي التوراةَ بمسيره إلى الطُّور، وهو بمنزلة معراجِه؛ لأنَّه مُنح ثَمَّتَ التكليم، وشرِّف باسم الكليم، وطَلَبَ الرؤية، مدمَجاً فيه تفاوتُ ما بين الكتابَين ومَن أُنزلا عليه، وإن شئتَ فوازن بينَ (أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ) و(وَءَاتَيْنَا مُوسَى) وبين (هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) و﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الآية: ٩].

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ أي: أن لا تتَّخذوا، على أنَّ «أنْ» تفسيرية و«لا» ناهية، والتفسيرُ ـ كما قال أبو البقاء[٤] ـ لما تضمَّنه الكتابُ من الأمر والنَّهي، وقيل: لمحذوف، أي: آتينا موسى كتابةَ شيءٍ هو: لا تتَّخذوا، والكتابُ وإن كان المرادُ

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٦.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٣٧، والبحر ٦/ ٦.
(٣) ٦/ ٧.
(٤) في الإملاء ٣/ ٤٦٨.

به التوراة، فهو مصدرٌ في الأصل، ولا يخفَى أنَّه خلافُ الظاهر.

وجوَّز في «البحر»[1] أن تكونَ «أنْ» مصدريةً، والجارُّ قبلَها محذوف، و«لا» نافية، أي: لئلَّا تتَّخذوا، وقيل: يجوز أن تكونَ «أن» وما بعدها في موضع البدلِ من «الكتاب».

وجوَّز أبو البقاءِ[2] أن تكونَ زائدة، و(أَلَّا تَتَّخِذُواْ) معمولٌ لقولٍ محذوف، و«لا» فيه للنَّهي، أي: قلنا: لا تتَّخذوا. وتعقَّبه أبو حيَّان[3] بأنَّ هذا الموضعَ ليس من مواضع زيادة «أنْ».

وكذا جوِّز أن تكونَ «لا» زائدة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] والتقدير: كراهةَ أن تتَّخذوا. ولا يخفَى ما فيه.

وقرأ ابن عباسٍ، ومجاهدٌ، وعيسى، وأبو رجاءٍ، وأبو عَمرٍو من السبعة: «أنْ لا يتَّخذوا» بياء الغَيبة[4]، وجعل غيرُ واحدٍ «أنْ» على ذلك مصدريةً، ولم يذكروا فيها احتمالَ كونِها مفسِّرة.

وقال شيخ زاده[5]: لا وجهَ لأن تكونَ «أن» مفسِّرة على القراءة بياء الغَيبة؛ لأنَّ ما في حيِّز المفسِّرة مقولٌ من حيث المعنى، والذي يُلقَى إليه القولُ لا بدَّ أن يكونَ مخاطَباً، كما لا وجهَ لكونها مصدريةً على قراءة الخطاب؛ لأنَّ بني إسرائيل غيَّب، فتأمَّل.

والجارُّ عندهم على كونها مصدريةً محذوفٌ، أي: لأن لا يتَّخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلًا ۝﴾ أي: ربًّا تَكِلون إليه أمورَكم غيري، فالوكيل فعيلٌ بمعنى مفعول، وهو الموكولُ إليه، أي: المفوَّض إليه الأمورُ، وهو الربُّ.

---

(١) ٦/ ٧.
(٢) في الإملاء٣/ ٤٦٨.
(٣) في البحر ٦/ ٧.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٧، وقراءة أبي عمرو في التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٦.
(٥) هو محيي الدين محمد بن مصطفى القوجوي الحنفي الإمام العلامة. له: حواش على البيضاوي، وشرح الوقاية، وشرح المفتاح، وغير ذلك. توفي سنة (٩٥١هـ). شذرات الذهب ٨/ ٢٨٦.

قال ابنُ الجوزي[١]: قيل للربِّ وكيل؛ لكفايته وقيامِه بشؤون عباده، لا على معنى ارتفاعِ منزلةِ الموكِّل وانحطاطِ أمر الوكيل، و«من» سيف خطيب[٢]، و«دون» بمعنى «غير»، وقد صرَّح بمجيئها كذلك في غير موضع، وهي مفعولٌ ثانٍ لـ «تتخذوا»، و«وكيلاً» الأوَّل.

وجوَّز أن تكونَ «من» تبعيضية، واستُظهر الأول، والمرادُ النهيُ عن الإشراك به تعالى.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص، أو على النِّداء، والمراد الحملُ على التوحيد بذِكر إنعامه تعالى عليهم في ضمن إنجاءِ آبائهم من الغرق في سفينة نوحٍ عليه السلام، حين ليس لهم وكيلٌ يتوكَّلون عليه سِواه تعالى.

وخصَّ مكيٌّ النداءَ بقراءة الخطاب، قال[٣]: مَن قرأ: «يتخذوا» بياء الغَيبة، يَبعد معه النداءُ؛ لأنَّ الياءَ للغيبة، والنداء للخطاب، فلا يجتمعان إلَّا على بُعد، ونِعمَ ما قال. وقولُ بعضِهم: ليس كما زعم؛ إذ يجوز أن يُنادي الإنسانُ شخصاً ويُخبرَ عن أحدٍ فيقول: يا زيدُ ينطلق بكرٌ، و: فعلتَ كذا يا زيدُ ليفعلْ عَمرو كيت وكيت، إنْ كما زعم = لا يدفع البُعدَ الذي ادَّعاه مَكيّ.

وجوِّز أن يكونَ أحدَ مفعولَي «تتخذوا»، و«وكيلاً» الآخَر، وهو لكونه فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه الواحدُ المذكَّر وغيرُه، فلا يَرِدُ أنَّه كيف يجوز أن يكونَ مفعولاً ثانياً والمفعولُ الثاني خبرٌ معنًى وهو غيرُ مطابقٍ هنا؟ و«من دوني» حالٌ منه، و«من» يجوز أن تكونَ ابتدائية.

وجوِّز أيضاً أن يكونَ بدلاً من «وكيلاً» لأنَّ المبدَل منه ليس في حكم الطَّرح من كلِّ الوجوه، أي: لا تتَّخذوا من دوني ذرِيةَ مَن حملنا، والمراد نهيُهم عن اتِّخاذ عُزيرٍ وعيسى عليهما السلام ونحوِهما أرباباً.

وفي التعبير بما ذُكر إيماءٌ إلى عِلَّة النهي من أَوجُه: أحدها: تذكيرُ النعمة في

---

(١) في زاد المسير ٥/ ٦ نقلاً عن ابن الأنباري.
(٢) أي: زائدة للتوكيد، انظر حاشية الشهاب ٦/ ٨.
(٣) في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٧-٤٢٨.

إنجاء آبائهم كما ذُكر. والثاني: تذكيرُ ضعفِهم، وحالِهم المُحوجِ إلى الحمل. والثالث: أنَّهم أضعفُ منهم؛ لأنَّهم متولِّدون منهم. وفي إيثار لفظِ الذُّرية الواقعةِ على الأَطفال والنساءِ في العرف الغالبِ مناسبةٌ تامَّة لما ذُكر.

وجوَّز أبو البقاءِ[(١)] كونَه بدلاً من «موسى»، وهو بعيد جدًّا.

وقرأت فِرقة: «ذريةُ»[(٢)] بالرفع على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو ذرية، ولا بُعدَ فيه كما توهِّم، أو على البدل من ضمير «يتخذوا» قال أبو البقاءِ[(٣)]: على القراءة بياء الغَيبة.

وقال ابنُ عطية[(٤)]: ولا يجوز هذا على القراءة بتاء الخطاب؛ لأنَّ ضمير المخاطَب لا يبدَل منه الاسمُ الظاهر.

وتعقبه أبو حيَّان في «البحر»[(٥)] بأنَّ المسألةَ تحتاج إلى تفصيل، وذلك أنَّه إن كان في بدل بعضٍ من كلٍّ وبدلِ اشتمال، جاز بلا خلاف، وإنْ كان في بدل شيءٍ من شيءٍ وهما لعين واحدة، إن كان يفيد التوكيدَ، جاز بلا خلافٍ أيضاً، نحو: مررتُ بكم صغيرِكم وكبيرِكم، وإنْ لم يفد التوكيدَ، فمذهبُ جمهورِ البصريين المنعُ، ومذهبُ الأخفشِ والكوفيين الجوازُ، وهو الصحيحُ؛ لوجود ذلك في لسان العرب، وقد استَدلَّ على صحَّته في «شرح التسهيل».

وقرأ زيد بن ثابت وأبان بن عثمان وزيد بن علي ومجاهد في رواية بكسر ذال «ذرية». وفي روايةٍ أخرى عن مجاهدٍ أنَّه قرأ بفتحها، وعن زيد بن ثابتٍ أيضاً أنَّه قرأ: «ذَرِيَّة» بفتح الذالِ وتخفيف الراءِ وتشديد الياء، على وزن فَعِيلة كمَطِيَّة[(٦)].

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: نوحٌ عليه السلام ﴿كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ كثيرَ الشكر في مجامع حالاته.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٤٦٩.

(٢) القراءات الشاذة ص٧٤.

(٣) في الإملاء ٣/ ٤٦٩.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٧.

(٥) ٦/ ٧.

(٦) البحر المحيط ٦/ ٧، وانظر القراءات الشاذة ص٧٤، والمحتسب ١/ ١٥٦.

وأَخرج ابن جَرير[١]، وابنُ المنذر، والبيهقيُّ في «الشُّعب»[٢]، والحاكم[٣] وصحَّحه، عن سلمانَ الفارسيِّ قال: كان نوحٌ عليه السلام إذا لبس ثوباً أو طعم طعاماً، حَمِدَ اللهَ تعالى، فسمِّي عبداً شكوراً.

وأخرج عبدُ الله بن أحمدَ في زوائد «الزُّهد» عن إبراهيمَ قال: شُكْرُه عليه السلام أن يسمِّيَ إذا أكل، ويحمدَ اللهَ تعالى إذا فرغ.

وأخرج ابنُ مردويه عن معاذِ بن أنسٍ الجهنيِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّما سمَّى اللهُ تعالى نوحاً عبداً شكوراً؛ لأنَّه كان إذا أمسى وأصبح، قال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾»[٤] [الروم: ١٧-١٨].

وأخرج البيهقيُّ[٥] وغيرُه عن عائشةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ نوحاً لم يَقم عن خَلاءٍ قطُّ إلَّا قال: الحمدُ لله الذي أذاقني لذَّتَه، وأبقَى فيَّ منفعتَه، وأَذهب عنِّي أذاه» وهذا من جُملة شُكره عليه السلام.

وفي هذه الجملةِ إيماءٌ بأن إنجاءَ مَن معه عليه السلام كان ببركة شكره، وحثٌّ للذُّرية على الاقتداء به، وزجرٌ لهم عن الشِّرك الذي هو أعظمُ مراتبِ الكفر. وهذا وجهُ ملائمتِها لما تقدَّم، وقال الزمخشريُّ[٦]: يجوز أن يقالَ ذلك عند ذِكره على سبيل الاستطراد، وحينئذٍ فلا يُطلَب ملاءمتُه مع ما سيق له الكلام، إلَّا من حيث إنَّه كان من شأن مَن ذُكر، أَعني نوحاً عليه السلام.

وقيل: ضميرُ «إنه» عائدٌ على موسى عليه السلام، والجملة مسوقةٌ على وجه التعليل، إمَّا لإيتاء الكتاب، أو لجعله عليه السلام هدًى، بناءً على أنَّ ضمير «جعلناه» له، أو للنَّهي عن الاتِّخاذ، وفيه بُعد، فتدبَّر.

---

(١) في تفسيره ١٤/ ٤٥٢.
(٢) برقم (٤٤٧١).
(٣) في مستدركه ٢/ ٣٦٠.
(٤) الدر المنثور ٤/ ١٦٢.
(٥) في الشعب (٤٤٦٩).
(٦) في الكشاف ٢/ ٤٣٨.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أخرج ابن جَرير[١] وغيرُه عن ابن عباسٍ: أي: أَعلمناهم. وزاد الراغبُ[٢]: وأَوحينا إليهم وحياً جزماً، وصرَّح غيرُ واحد بتضمين القضاءِ معنى الإيحاء؛ ولهذا عدِّي بـ «إلى»، والوحيُ إليهم إعلامُهم ولو بالواسطة.

وقيل: «إلى» بمعنى «على»، ورُوي ذلك أيضاً عن ابن عباس، قال: أي: قضينا عليهم ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: التوراة، أو الجنس؛ بدليل قراءةِ أبي العالية وابن جُبَير: «الكُتُبِ» بصيغة الجمع[٣]، والظاهرُ الأوَّل على الأوَّل، أو اللوحُ المحفوظُ على الأخير.

وأخرج ابنُ المنذرِ والحاكمُ[٤] عن طاوسٍ قال: كنت عندَ ابنِ عباس ومعنا رجلٌ من القَدَرية، فقلت: إنَّ أُناساً يقولون: لا قَدَرَ، قال: أَوَفي القوم أحدٌ منهم؟ قلت: لو كان ما كنتَ تصنع به؟ قال: لو كان فيهم أحدٌ منهم، لأَخذتُ برأسه ثم قرأت عليه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾.

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جوابُ قَسَم محذوف، وحُذف متعلَّق القضاءِ أيضاً للعلم به، والتقدير: وقضينا إلى بني إسرائيلَ بفسادهم وعلوِّهم: واللهِ لَتُفْسدن. . إلخ، ويكون هذا تأكيداً لتعلُّق القضاءِ، ويجوز جعلُه جوابَ «قضينا» بإجراء القضاءِ مُجرَى القَسَم، فيُتلقَّى بما يتلقَّى به، نحو: قضاء اللهِ تعالى لأَفعلنَّ كذا.

والمرادُ بالأرض الجنسُ، أو أرضُ الشام وبيتُ المقدس.

وقرأ ابنُ عباس، ونصر بن عليٍّ، وجابر بنُ زيد: «لَتُفْسَدُنَّ» بضمِّ التاءِ وفتحِ السين مبنيًّا للمفعول[٥]، أي: يُفسدكم غيرُكم، فقيل: من الضَّلال، وقيل: من الغلبة.

وقرأ عيسى: «لَتَفْسُدُنَّ» بفتح التاءِ وضمِّ السين[٦] على معنى: لَتفسُدنَّ بأَنفسكم بارتكاب المعاصي.

---

(١) في تفسيره ١٤/ ٤٥٥.
(٢) في المفردات (قضى).
(٣) القراءات الشاذة ص٧٤.
(٤) في المستدرك ٢/ ٣٦٠.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٨، وانظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٤.
(٦) القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٤.

﴿مَرَّتَيْنِ﴾ منصوبٌ على أنَّه مصدرُ «لتفسدن» من غير لفظِه.

والمراد: إفسادَتين: أُولاهما ـ على ما نقل السُّدِّيُّ عن أَشياخه ـ قتلُ زكريا عليه السلام، ورُوي ذلك عن ابن عباسٍ وابنِ مسعود، وذلك أنَّه لمَّا مات صديقه مَلِكُهم، تنافسوا على المُلك وقتل بعضُهم بعضاً، ولم يسمعوا مِن زكريا، فقال اللهُ تعالى له: قُم في قومك أُوحِ على لسانك. فلمَّا فرغ ممَّا أَوحى عليه، عَدَوا عليه ليقتلوه، فهرب، فانفلقت له شجرةٌ، فدخل فيها، وأدركه الشيطانُ، فأخذ هُدْبةً من ثوبه فأَراهم إيَّاها، فوضعوا المنشارَ في وسط الشجرةِ حتى قطعوه في وسطها.

وقيل: سببُ قتله أنَّهم اتَّهموه بمريمَ عليها السلام، قيل: قالوا حين حملت: ضيَّع بنتَ سيِّدنا حتى زنت، فقطعوه بالمنشار في الشَّجرة.

وقال ابنُ إِسحاق: هي قتلُ شَعيا عليه السلام، وقد بُعث بعد موسى عليه السلام، فلمَّا بلَّغهم الوحيَ أرادوا قتله، فهرب، فقُتل، وهو صاحبُ الشجرة، وزكريا عليه السلام مات موتاً ولم يُقتَل.

وفي «الكشاف»(١): أُولاهما: قتلُ زكريا وحبس أرميا، والآخِرة: قتلُ يحيى وقصدُ قتلِ عيسى عليهما السلام.

وهذا فيمن جعل هلاكَ زكريا قبل يحيى عليهما السلام، وهو روايةُ ابنِ عساكر في «تاريخه» عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه(٢). ثم ضمُّ ذلك مع حبس أرميا في قَرن غيرُ سديد؛ لأنَّ أرميا كان في زمن بُخْتنَصَّر، وبينه وبين زكريا أكثرُ من مئتي سنة.

واختار بعضُهم ـ وقيل: إنه الحقُّ ـ أنَّ الأُولى تغييرُ التوراة وعدمُ العمل بها، وحَبسُ أرميا وجَرحُه إذ وعظهم وبشَّرهم بنبيِّنا ﷺ، وهو أوَّل مَن بشَّر به عليه الصلاة والسلام بعد بشارةِ التوراة. والأُخرى قتلُ زكريا ويحيى عليهما السلام.

ومَن قال: إنَّ زكريا مات في فراشه، اقتصرَ على يحيى عليه السلام. واختُلف في سبب قتلِه، فعن ابن عباسٍ وغيرِه أنَّ سبب ذلك أنَّ مَلِكاً أراد أن يتزوَّج مَن لا يجوز له تزوُّجُها، فنهاه يحيى عليه السلام، وكان الملكُ قد عوَّد تلك المرأةَ أن

---

(١) ٢/ ٤٣٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦٤/ ٢١١.

يقضيَ لها كلَّ عيدٍ ما تريد منه، فعلَّمتها أمُّها أن تسألَه دمَ يحيى في بعض الأعياد، فسألته، فأبى، فألحَّت عليه، فدعا بطَستٍ فذبحه فيه، فبدرت قطرةٌ على الأرض، فلم تزل تَغلي حتى قُتل عليها سبعون ألفاً.

وقال الرَّبيعُ بن أنس: إنَّ يحيى عليه السلام كان حسناً جميلاً جدًّا، فراودته امرأةُ الملك عن نفسه، فأبى، فقالت لابنتها: سلي أباك رأسَ يحيى، فسألته، فأعطاها إيَّاه.

وقال الجبَّائي: إنَّ الله تعالى ذكر فسادَهم في الأرض مرَّتين ولم يبيِّن ذلك، فلا يُقطَع بشيءٍ مما ذُكر.

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾ لَتستكبرُنَّ عن طاعة اللهِ تعالى، أو لَتَغلِبُنَّ الناس بالظُّلم والعدوان، وتُفرِّطن في ذلك إفراطاً مجاوزاً للحدّ، وأصلُ معنى العلوِّ الارتفاعُ، وهو ضدُّ السُّفل، وتجوِّز به عن التكبُّر والاستيلاءِ على وجه الظُّلم.

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «عِلِيًّا كبيراً» بكسر العين واللام والياءِ المشدَّدة[١]، قال في «البحر»: والتصحيح في فُعولِ المصدرِ أكثرُ، بخلاف الجمع، فإنَّ الإعلال فيه هو المقيسُ، وشذَّ التصحيحُ نحو: لُهوّ ومُهوّ، خلافاً للفرَّاءِ إذ جعل ذلك قياساً.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أُولى مرَّتي الإفساد. والوعدُ بمعنى الموعود مرادٌ به العقاب كما في «البحر»[٢]، وفي الكلام تقديرٌ: أي: فإذا حان وقتُ حلولِ العقاب الموعود.

وقيل: الوعدُ بمعنى الوعيد، وفيه تقديرٌ أيضاً.

وقيل: بمعنى الوعدِ الذي يراد به الوقتُ، أي: فإذا حان موعدُ عقابِ أُولاهما ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ أرسلنا لمؤاخذتكم بتلك الفَعلة ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ وقال الزمخشريُّ[٣]: خلَّينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعْهم. وفيه دسيسةُ اعتزال.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٩، والدر المصون ٧/ ٣١٣.

(٢) ٦/ ٩.

(٣) في الكشاف ٢/ ٤٣٨.

وقال ابنُ عطيَّة[١]: يحتمل أن يكونَ اللهُ تعالى أرسل إلى مَلِك أولئك العبادِ رسولاً يأمره بغزوِ بني إسرائيل، فتكون البعثةُ بأمرٍ منه تعالى.

وقرأ الحسنُ وزيد بن عليٍّ ﷺ: «عَبيداً»[٢].

﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي قوَّة وبطشٍ في الحروب.

وقال الراغبُ[٣]: البؤسُ والبأسُ والبأساء: الشدَّة والمكروه، إلَّا أنَّ البؤس في الفقر والحربِ أكثر، والبأسَ والبأساءَ في النِّكاية، ومن هنا قيل: إنَّ وصف البأسِ بالشديد مبالغةٌ، كأنه قيل: ذوي شديدةٍ، كظِلٍّ ظليل. ولا بأسَ فيه، وقيل: إنه تجريد، وهو صحيحٌ أيضاً.

واختُلف في تعيين هؤلاءِ العباد، فعن ابنِ عباس وقتادةَ: هم جالوت الجزري وجنودُه، وقال ابن جُبَير وابنُ إسحاق: هم سنجاريب[٤] مَلِكُ بابل وجنودُه.

وفي «الإعلام» للسُّهيلي: هم بُخْتنَصَّر ـ عاملُ لهراسف أحدِ ملوك الفرسِ الكيانية على بابل والرُّوم ـ وجنودُه، بُعثوا عليهم حين كذَّبوا أرميا وجرحوه وحبسوه[٥]، قيل: وهو الحقُّ.

﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي: تردَّدوا وَسَطها لطلبكم. قال الرَّاغب[٦]: جاسوا الدِّيار: توسَّطوها وتردَّدوا بينها، ويقاربه: حاسوا وداسوا، وقرأ: «حاسوا» بالحاء أبو السمَّال وطلحةُ، وقُرئ أيضاً: «تجوَّسوا» بالجيم على وزن: تكسَّروا[٧]. وقال أبو زيد: الجَوس والحَوس: طلب الشيء باستقصاء.

و«خلال» اسمٌ مفرد؛ ولذا قرأ الحسن: «خلل»[٨]، ويجوز أن يكونَ خِلال

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٩.
(٢) البحر ٦/ ٩، وينظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٤.
(٣) في المفردات (بأس).
(٤) كذا في الأصل و(م)، والذي في تاريخ اليعقوبي ١/ ٨٢ في ذكر ملوك بابل: سنحاريب. وكذا ورد في أغلب المصادر.
(٥) التعريف والإعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام في القرآن الكريم ص ٩٨-٩٩.
(٦) في المفردات (جوس).
(٧) البحر المحيط ٦/ ١٠، وينظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٥.
(٨) القراءات الشاذة ص٧٥.

جمعَ خَلَل، كجبال جمع جَبَل، ويُشير كلامُ أبي السُّعودِ[١] إلى اختياره، وكلامُ البيضاويِّ[٢] إلى اختيار الأوَّل.

﴿وَكَانَ﴾ أي: وعدُ أُولاهما ﴿وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾ محتَّمَ الفعلِ، فضميرُ «كان» للوعد السَّابق، وقيل: للجَوس المفهومِ من «جاسوا».

والجمهورُ على أنَّ في هذه البعثةِ خرَّب هؤلاء العبادُ بيتَ المقدس، ووقع القتلُ الذَّريع والجلاءُ والأسر في بني إسرائيل، وحرِّقت التوراة. وعن ابن عباس ومجاهدٍ أنَّه لم يكن ذلك، وإنَّما جاس الغازون خلالَ الدِّيار وانصرفوا بدون قتال.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ أي: الدَّولةَ والغلبة. وأصلُ معنى الكرِّ العطفُ والرجوع، وإطلاقُ الكَرَّة على ما ذُكر مجازٌ شائع، كما يقال: تراجعَ الأَمر. ولامُ «لكم» للتَّعدية، وقيل: للتعليل.

وقولُه تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: الذين فعلوا بكم ما فعلوا، متعلِّق بالكَرَّة؛ لما فيها من معنى الغلبةِ، أو حالٌ منها، وجوِّز تعلُّقه بـ «رَدَدْنا»، وهذا ـ على ما في «البحر»[٣] ـ إخبارٌ منه تعالى في التَّوراة لبني إسرائيل، إلَّا أنَّه جَعل «رددنا» موضع نردُّ؛ لتحقُّق الوقوع، وكان بين البعثِ والردِّ ـ على ما قيل ـ مئةُ سنة، وذلك بعد أن تابوا ورجعوا عمَّا كانوا عليه.

واختُلف في سبب ذلك، فرُوي أنَّ أزدشير بهمن بن أسفنديار بن كشتاسف بن لهراسف لمَّا ورث الملكَ من جدِّه كشتاسف، ألقى اللهُ تعالى في قلبه الشفقةَ على بني إسرائيل، فردَّ أُسراءَهم الذين أتى بهم بُخْتنَصَّر إلى بابل، وسيَّرهم إلى أرض الشام وملَّك عليهم دانيال، فاستولَوا على مَن كان فيها من أَتباع بختنصر، وجعل بعضُهم من آثار هذه الكَرَّةِ قتلَ بختنصر، ولم يَثبُت.

وفي «البحر»[٤] أنَّ مَلِكاً غزا أهلَ بابل، وكان بُخْتنَصَّر قد قتل من بني إسرائيل

(١) في تفسيره ٥/١٥٦.
(٢) في تفسيره ٣/١٩٦.
(٣) ٦/١٠.
(٤) ٦/١٠.

أربعين ألفاً ممَّن يقرأ التوراة، وأبقَى عنده بقيةً في بابل، فلمَّا غزاهم ذلك الملكُ وغلب عليهم، تزوَّج امرأةً من بني إسرائيل، فطلبت منه أن يردَّ بني إسرائيلَ إلى ديارهم، ففعل، وبعد مدَّة قامت فيهم الأنبياءُ ورجعوا إلى أحسنِ ما كانوا.

وقيل: ردُّ الكرَّةِ بأن سلَّط اللهُ تعالى داودَ عليه السلام فقتل جالوتَ. وتُعقِّب بأنَّه يَردُّه قولُه تعالى: (وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ)... إلخ فإنَّ المراد به بيتُ المقدس، وداودُ عليه السلام ابتدأ بنيانَه بعد قتلِ جالوت وإيتائه النبوَّةَ، ولم يتمَّه، وأتمَّه سليمانُ عليه السلام، فلم يكن قبلَ داودَ عليه السلام مسجدٌ حتى يدخلوه أوَّلَ مرَّة. ودُفع بأنَّ حقيقة المسجدِ الأرضُ لا البناءُ، ويُحمل قولُه تعالى: (دَخَلُوهُ) على الاستخدام. وهو كما ترى. والحقُّ أن المسجد كان موجوداً قبل داودَ عليه السلام كما قدَّمنا.

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ﴾ كثيرةٍ بعد ما نُهبت أموالكم ﴿وَبَنِينَ﴾ بعد ما سُبيت أولادُكم ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ ممَّا كنتم من قبل، أو من أعدائكم.

والنفيرُ ـ على ما قال أبو مسلم ـ كالنافر: مَن ينفر مع الرَّجل مِن عشيرته وأهل بيته. وقال الزجَّاج[1]: يجوز أن يكونَ جمعَ نَفْر، ككلب وكَلِيب، وعبد وعبيد، وهم المجتمعون للذَّهاب إلى العدوّ.

وقيل: هو مصدر، أي: أكثرَ خروجاً إلى الغزو، كما في قول الشَّاعر[2]:

فأكرم بقحطانَ من والدٍ وحِميرَ أكرِم بقومٍ نفيرا

ويُروى:

[و] بالحميريين أكرِم نفيرا[3]

وصحَّح السهيليُّ أنَّه اسمُ جمع؛ لغلبته في المفردات وعدم اِطِّراد مفردِه.

﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ﴾ أعمالَكم، سواءٌ كانت لازمةً لأنفُسكم أو متعدِّية للغير، أي:

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٨.
(٢) هو تبع بن بكر الحميري، كما في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٩، والنكت والعيون ٣/ ٢٣٠.
(٣) البحر المحيط ٦/ ١٠. وما بين حاصرتين لضرورة الوزن.

عملتموها على الوجه المستحسَنِ اللائق، أو فعلتم الإحسانَ ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: لنفعها بما يترتَّب على ذلك من الثَّواب ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أعمالَكم، لازمةً كانت أو متعدِّية، بأنْ عملتموها على غير الوجهِ اللائق، أو فعلتم الإساءةَ ﴿فَلَهَا﴾ أي: فالإساءةُ عليها؛ لما يترتَّب على ذلك من العقاب، فاللامُ بمعنى «على»، كما في قوله:

فخرَّ صريعاً لليدين وللفمِ[1]

وعبَّر بها لمشاكلة ما قبلَها.

وقال الطبريُّ[2]: هي بمعنى «إلى»، على معنى: فإساءتُها راجعةٌ إليها. وقيل: إنَّها للاستحقاق، كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

وفي «الكشَّاف»[3] أنَّها للاختصاص، وتعقِّب بأنَّه مخالفٌ لما في الآثار من تعدِّي ضررِ الإساءة إلى غير المذنب، اللهمَّ إلَّا أن يقال: إنَّ ضرر هؤلاءِ القومِ من بني إسرائيلَ لم يتعدَّهم، وفيه أنَّه تكلُّف لا يُحتاج إليه؛ لأنَّ الثواب والعقابَ الأُخرويين لا يتعدَّيان، وهما المرادُ هنا.

وقيل: اللامُ للنفع كالأُولى، لكن على سبيل التهكُّم.

وتعميمُ الإحسان ومقابِله بحيث يَشملان المتعدِّيَ واللازمَ هو الذي استظهره بعضُ المحقِّقين، وفسَّر الإحسانَ بفعل ما يُستحسن له ولغيره، والإساءةَ بضدِّ ذلك، وقال: إنَّه أنسبُ وأتمُّ؛ ولذا قيل: إنَّ تكرير الإحسانِ في النَّظم الكريمِ دون الإساءةِ إشارةٌ إلى أنَّ جانب الإحسان أَغلب، وأنَّه إذا فُعل ينبغي تكرارُه، بخلاف ضدِّه، وجاء عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهه أنَّه قال: ما أحسنتُ إلى أحدٍ ولا أسأت إليه، وتلا الآية.

ووجهُ مناسبتِها لما قبلها ـ على ما قال القطبُ ـ أنَّهم لمَّا عصَوا، سلَّط اللهُ

---

(١) قائله جابر بن حُنَيّ كما في المفضليات ص٢٠٨، ٢١٢. وصدره:
تناوَلَه بالرُّمح ثم اتَّنى له

(٢) في تفسيره ١٤/٤٧٨.
(٣) ٢/٤٣٩.

تعالى عليهم مَن قَصَدَهم بالنهب والأسر، ثم لمَّا تابوا وأطاعوا، حَسُنت حالهم، فظهر أنَّ إحسان الأعمال وإساءتَها مختصٌّ بهم. والآية تضمَّنت ذلك، وفيها من التَّرغيب بالإحسان والترهيبِ من الإساءة ما لا يخفَى، فتأمَّل.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ﴾ المرَّةِ ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ من مرَّتَي إفسادكم ﴿لِيَسُـُٔوا۟﴾ متعلِّق بفعل محذوفٍ لدلالة ما سبق عليه، وهو جوابُ «إذا»، أي: بعثناهم ليسوؤا ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ أي: ليجعلَ العبادُ المبعثون آثارَ المساءةِ والكآبة باديةً في وجوهكم، فإنَّ الأَعراض النفسانيةَ تظهر فيها، فيظهر بالفرح النَّضارةُ والإشراق، وبالحزن والخوفِ الكُلوحُ والسواد، فالوجوهُ على حقيقتها.

قيل: ويحتمل أن يعبَّر بالوجه عن الجملة، فإنَّهم ساؤوهم بالقتل والنهبِ والسَّبي، فحصلت الإساءة للذَّوات كلِّها، ويؤيِّده قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾ [الآية: ٧] ويحتمل أن يرادَ بالوجوه ساداتُهم وكبراؤهم.اهـ. وهو كما ترى. واختير هذا على ليسوؤكم، مع أنَّه أخصرُ وأظهرُ؛ إشارةً إلى أنَّه جُمع عليه ألمُ النفسِ والبدنِ المدلول عليه بقوله تعالى: (وَلِيُتَبِّرُوا۟) إلخ.

وقيل: (فَإِذَا جَآءَ) هنا مع كونِه من تفصيل المجملِ في قوله سبحانه: (لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ) فالظاهر: فإذا جاء وإذا جاء، للدَّلالة على أنَّ مجيءَ وعدِ عقابِ المرَّة الآخرةِ لم يتراخَ عن كثرتهم واجتماعِهم، دلالةً على شدَّة شكيمتِهم في كفران النِّعم، وأنَّهم كلَّما ازدادوا عُدَّة وعِدة، زادوا عدواناً وعزَّة، إلى أن تكاملت أسبابُ الثروةِ والكثرة، فاجأهم الله عزَّ وجلَّ على الغِرَّة، نعوذ بالله سبحانه من مباغتة عذابِه.

وقرأ أبو بكرٍ وابنُ عامر وحمزةُ: «ليسوءَ»(١) على التوحيد، والضميرُ لله تعالى، أو للوعد، أو للبعث المدلولِ عليه بالجزاء المحذوف، والإسنادُ مجازيٌّ على الأخيرَين، وحقيقيٌّ على الأول، ويؤيِّده قراءةُ عليٍّ كرم الله تعالى وجهَه، وزيدِ بن عليٍّ، والكِسائي: «لِنسوءَ»(٢) بنون العظمة، فإنَّ الضميرَ لله تعالى، لا يحتمل غيرَ ذلك.

---

(١) التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٦.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١١، وقراءة الكسائي في التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٦.

وقرأ أُبَيّ: «لِنَسوأنْ» بلام الأمرِ ونونِ العظمة أوَّله، ونونِ التوكيدِ الخفيفة آخرَه، ودخلت لامُ الأمر على فعل المتكلِّم كما في قوله تعالى: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] وجوابُ «إذا» على هذه القراءةِ هو الجملةُ الإنشائيةُ على تقدير الفاءِ؛ لأنَّها لا تقع جواباً بدونها.

وعن عليٍّ كرَّم اللهُ وجهَه أيضاً: «لَنسوأنَّ» و«لَيسوأنَّ» بالنون والياءِ أولاً ونونِ التوكيدِ الشديدة آخراً(١)، واللامُ في ذلك لامُ القَسَم، والجملة جوابُ القسم سادَّة مسدَّ جواب «إذا».

واللامُ في قوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ لامُ كي، والجارُّ والمجرور معطوفٌ على الجارِّ والمجرور قبله، وهو متعلِّق ببعثنا المحذوفِ أيضاً. وجوِّز أن يتعلَّق بمحذوفٍ غيره، فيكون العطفُ من عطف جملةٍ على أخرى. وعلى القراءة بلام الأمر أو لامِ القَسَم فيما تقدَّم يجوز أن تكونَ اللامُ لامَ الأَمر، وأن تكونَ لامَ كي.

والمراد بـ «المسجد» بيتُ المقدس، وهو مفعولُ «يدخلوا». وفي «الصِّحاح»(٢) أنَّ الصحيحَ في نحو: دخلتُ البيتَ، أنَّك تريد: دخلتُ إلى البيت، فحُذف حرفُ الجرِّ، فانتصب البيتُ انتصابَ المفعولِ به، وتحقيقُه في محلِّه.

﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ أي: دخولاً كائناً كدخولهم إيَّاه ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فهو في موضع النعتِ لمصدرٍ محذوف، وجوِّز أن يكونَ حالاً، أي: كائنين كما دخلوه، و«أول» منصوبٌ على الظرفيةِ الزمانية.

والمراد من التشبيه ـ على ما في «البحر»(٣) ـ أنَّهم يدخلونه بالسَّيف والقهرِ والغَلَبة والإذلال، وفيه أيضاً أنَّ هذا يُبعد قولَ مَن ذهب إلى أنَّ أُولى المرَّتين لم يكن فيها قتالٌ ولا قتلٌ ولا نهب.

﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ أي: يهلكوا، وقال قُطرب: يَهدموا، وأنشد قولَ الشاعر(٤):

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١١، وفيه قراءة أُبي، وانظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٥.
(٢) مادة (دخل).
(٣) ٦/ ١١.
(٤) هو لبيد، والبيت في ديوانه ص١٧٠.

ومـا الـنـاسُ إلَّا عـامـلان فـعـامـلٌ يـتـبِّـر مـا يـبـنـي وآخَـرُ رافـعُ

وقال بعضُهم: الهدم إهلاكٌ أيضاً، وأخرج ابنُ المنذر وغيرُه عن سعيد بن جُبَير أنَّ التتبيرَ كلمةٌ نَبَطية.

﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: الذي غلبوه واستولَوا عليه، فـ «ما» اسمٌ موصول، والعائدُ محذوف، وهو إمَّا مفعول، أو مجرورٌ، على ما قيل.

وجوِّز أن تكونَ «ما» مصدريةً ظرفية، أي: ليتبِّروا مدةَ دوامِهم غالبين قاهرين ﴿تَتْبِيرًا ۝٧﴾ فظيعاً لا يوصَف.

واختُلف في تعيين هؤلاءِ العبادِ المبعوثين بعد أنْ ذكروا قتلَ يحيى عليه السلام في الإفساد الأخير، فقال غيرُ واحد: إنَّهم بُخْتنَصَّر وجنودُه. وتعقَّبه السُّهيلي(١) بأنه لا يصحُّ؛ لأنَّ قتل يحيى بعد رفع عيسى عليهما السلام، وبُخْتنَصَّر كان قبل عيسى عليه السلام بزمنٍ طويل.

وقيل: الإسكندرُ وجنوده. وتعقَّبه أيضاً بأنَّ بين الإسكندرِ وعيسى عليه السلام نحواً من ثلاث مئةِ سنة، ثم قال: لكنَّه إذا قيل: إنَّ إفسادهم في المرَّة الأخيرةِ بقتل شَعيا، جاز أن يكونَ المبعوثُ عليهم بختنصر ومَن معه؛ لأنَّه كان حينئذٍ حيًّا.

ورُوي عن عبد الله بن الزُّبير ﵄ أنَّ الذي غزاهم ملك خردوش(٢)، وتولَّى قتلَهم على دم يحيى عليه السلام قائدٌ له، فسَكَنَ.

وفي بعض الآثارِ أنَّ صاحب الجيشِ دخل مذبحَ قرابينهم فوجد فيه دماً يغلي، فسألهم عنه، فقالوا: دمُ قربانٍ لم يُقبَل منَّا، فقال: ما صَدَقتموني، فقَتل عليه ألوفاً منهم، فلم يهدأ الدمُ، ثم قال: إن لم تَصْدقوني ما تركتُ منكم أحداً، فقالوا: إنَّه دمُ يحيى عليه السلام، فقال: بمثل هذا ينتقم ربُّكم منكم، ثم قال: يا يحيى، قد علم ربِّي وربُّك ما أصاب قومَك من أجلك، فاهدأ بإذن اللهِ تعالى قبل ألّا أُبقيَ أحداً منهم، فهدأ.

---

(١) في التعريف والإعلام ص٩٨.

(٢) كذا في الأصل و(م)، وفي الإعلام بأصول الأعلام ص٨٨: خردوس، ويقال: حردوس وجودرس وكردوس.

واختار في «الكشف» ـ وقال: هو الحقُّ ـ أنَّ المبعوث عليهم في المرَّة الثانيةِ بيردوس من ملوك الطوائف، وكأنَّه هو خردوش الذي مرَّ آنفاً، فقد ذكر أنَّه ملك بابل من ملوك الطَّوائف. وقيل: اسمُه جوزور.

وهؤلاء الملوكُ ظهروا بعد قتل الإسكندر دارا واستيلائه على ملك الفُرس، وكان ذلك بصنع الإسكندرِ متَّبعاً فيه رأيَ معلِّمه أرسطو، وعدتُهم تزيد على سبعين ملكاً، ومدةُ ملكهِم ـ على ما في بعض التواريخ ـ خمسُ مئة واثنتا عشرةَ سنة، وحصل اجتماعُ الفرسِ بعد هذه المدةِ على أزدشير بن بابك طوعاً وكرهاً، وكان أحدَ ملوكِ الطوائف على إصطخر.

وعلى هذا يكون المَلِكُ المبعوث لفساد بني إسرائيل بقتل يحيى عليه السَّلام مِن أواخر ملوكِ الطوائف كما لا يخفَى، ويكون بين هذا البعثِ والبعثِ الأوَّل ـ على القول بأنَّ المبعوث بُخْتنَصَّر وأتباعُه ـ مدةٌ متطاولة، ففي بعض التواريخِ أنَّ قتل الإسكندرِ دارا بعد بختنصر بأربع مئةٍ وخمس وثلاثين سنة، وبعد مُضيِّ نحوِ من ثلاث مئة سنة من غَلَبة الإسكندرِ وُلِدَ المسيحُ عليه الصلاة والسلام، ولا شكَّ أنَّ قتل يحيى عليه الصَّلاة والسَّلام بعد الولادةِ بزمان، والبعثُ بعد القتل كذلك، فيكون بين البعثَين ما يزيد على سبع مئةٍ وخمسٍ وثلاثين سنة.

والذي ذهب إليه اليهودُ أنَّ المبعوثَ أولاً بختنصر، وكان في زمن أرميا عليه السلام، وقد أَنذرهم مجيئَه صريحاً بعد أنْ نهاهم عن الفساد وعبادةِ الأصنام، كما نطق به كتابُه، فحبسوه في بئرٍ وجرحوه، وكان تخريبُه لبيت المقدسِ في السَّنة التاسعةَ عشرةَ من حكمه، وبين ذلك وهبوطِ آدمَ ثلاثةُ آلافٍ وثلاث مئة وثمانٍ وثلاثين سنة، وبقيَ خراباً سبعين سنة، ثم إنَّ أسبيانوس قيصرَ الروم وجَّه وزيرَه طوطوز إلى خرابه، فخربه سنةَ ثلاثةِ آلافٍ وثمان مئةٍ وثمانيةٍ وعشرين، فيكون بين البعثين عندهم أربعُ مئة وتسعون سنة. وتفصيلُ الكلامِ في ذلك في كتبهم، والله تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

ونِعمَ ما قيل: إنَّ معرفةَ الأقوام المبعوثين بأعيانهم وتاريخِ البعث ونحوِه ممَّا لا يتعلَّق به كبيرُ غرض؛ إذ المقصودُ أنَّه لما كثرت معاصيهم، سلَّط الله تعالى عليهم مَن ينتقم منهم مرّة بعد أخرى.

وظاهرُ الآية يقتضي اتِّحادَ المبعوثين أوَّلاً وثانياً، ومَن لا يقول بذلك، يجعل رجوعَ الضمائر للعباد على حدِّ رجوعِ الضمير للدِّرهم في قولك: عندي درهمٌ ونصفُه[1]، فافهم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد البعثِ الثاني إنْ تبتم وانزجرتم عن المعاصي. ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ للإفساد بعد الذي تقدَّم منكم ﴿عُدْنَا﴾ للعقوبة، فعاقبناكم في الدُّنيا بمثل ما عاقبناكم به في المرَّتين الأُوليين.

وهذا مِن المقضيِّ لهم في الكتاب أيضاً، وكذا الجملةُ الآتية، وقد عادوا بتكذيب النبيِّ ﷺ وقصدِهم قتلَه، فعاد اللهُ تعالى بتسليطه عليه الصَّلاة والسَّلام عليهم، فقتل قريظةَ وأَجلَى بني النَّضير، وضرب الجزيةَ على الباقين. وقيل: عادوا فعاد اللهُ تعالى بأن سلَّط عليهم الأكاسرةَ، ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الإتاوةِ ونحوِ ذلك. والأوَّلُ مرويٌّ عن الحسن وقتادة. والتعبيرُ بـ «إنْ»؛ للإشارة إلى أنَّه لا ينبغي أنْ يعودوا.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ قال ابن عباسٍ وغيرُه: أي: سجناً، وأنشد في «البحر»[2] قولَ لَبيد:

ومَقَامةٍ غُلْبِ الرِّقابِ كأنهمْ جِنٌّ على باب الحَصيرِ قيامُ[3]

فإنْ كان اسماً للمكان المعروف، فهو جامدٌ لا يَلزم تأنيثُه وتذكيرُه، وإنْ كان بمعنى حاصر، أي: محيطٌ بهم، وفَعيل بمعنى فاعل يَلزم مطابقتُه، فعدمُ المطابقةِ هنا إمَّا لأنَّه على النَّسب، كـ: لابن وتامر، أي: ذاتُ حَصْر، وعلى ذلك خُرِّج قولُه تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨] أي: ذاتُ انفطار، أو لحمله على فَعيل بمعنى مفعول.

وقيل: التذكيرُ على تأويل جهنَّم بمذكَّر. وقيل: لأنَّ تأنيثها ليس بحقيقيٍّ. نقل ذلك أبو البقاءِ[4]، وهو كما ترى.

---

(١) أي: ونصف درهم آخر.
(٢) ٦/ ١١.
(٣) ديوان لبيد ص٢٩٠. والمقامة: الجماعة يجتمعون في المجلس. وغلب الرقاب: غلاظها.
(٤) في الإملاء ٣/ ٤٧٢.

وأَخرج ابنُ المنذرِ وغيرُه عن الحسن أنه فسَّر ذلك بالفِراش والمِهاد. قال الرَّاغب(١): كأنَّه جعل الحصيرَ المرمول، وأَطلق عليه ذلك لحَصْر بعضِ طاقاته على بعض، فحصيرٌ على هذا بمعنى محصور، وفي الكلام التشبيهُ البليغ.

وجاء الحصيرُ بمعنى السُّلطان، وأَنشد الراغبُ(١) في ذلك البيتَ السابقَ، ثم قال: وتسميتُه بذلك، إمّا لكونه محصوراً، نحو محجَّب، وإمَّا لكونه حاصراً، أي: مانعاً لمن أراد أن يمنعَه من الوصول إليه. اهـ.

وحَمْلُ ما في الآية على ذلك ممَّا لم أرَ مَن تعرَّض له، والحَملُ عليه في غاية البُعد، فلا ينبغي أن يحملَ عليه وإنْ تضمَّن معنًى لطيفاً يُدرَك بالتأمُّل.

وكان الظاهرُ أن يقالَ: لكم، بدل: «للكافرين»، إلَّا أنه عُدل عنه تسجيلاً على كفرهم بالعَود، وذمًّا لهم بذلك، وإشعاراً بعلَّة الحكم.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي آتيناكَه، و«هذا» متعلِّق بصدر السورة كما مرَّت الإشارةُ إليه، وفي الإشارة بـ «هذا» تعظيمٌ لما جاء به النبيُّ المجتبى ﷺ.

﴿يَهْدِى﴾ أي: الناسَ كافَّة، لا فِرقةً مخصوصةً منهم كدأب الكتابِ الذي آتيناه موسى عليه السلام ﴿لِلَّتِى﴾ أي: للطريقة التي ﴿هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: أقومُ الطرقِ وأسدُّها، أعني ملَّةَ الإسلامِ والتوحيد، فـ «للتي» صفةٌ لموصوف حُذف اختصاراً، وقدَّره بعضُهم الحالةَ أو الملَّة، وأيُّما قدِّرت لم تَجِدْ مع الإثبات ذوقَ البلاغةِ الذي تجده مع الحذف؛ لما في الإبهام من الدَّلالة على أنَّه جرى الوادي وطمَّ على القُرى.

و«أقوم» أفعلُ تفضيلٍ على ما أَشار إليه غيرُ واحد.

وقال أبو حيَّان(٢): الذي يظهر من حيث المعنى أنَّه لا يُراد به التفضيلُ؛ إذ لا مشاركةَ بين الطريقةِ التي يَهدي لها القرآنُ وغيرِها من الطُّرق في مبدأ الاشتقاقِ لتفضَّلَ عليه، فالمعنى: للتي هي قيِّمة، أي: مستقيمة، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فِيهَا

(١) في المفردات (حصر).
(٢) في البحر ٦/ ١٣.

كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٣،٥]. اهـ. وإلى ذلك ذهب الإمامُ الرازي[١].

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما في تضاعيفه من الأحكام والشرائع.

وقرأ عبدُ الله، وطلحةُ، وابن وثَّاب، والأخوان: «وَيَبْشُرُ» بالتخفيف[٢]، مضارعُ بَشَرَ المخفَّف، وجاء: بَشَرْته وبشَّرته وأبشرته.

﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ﴾ الأعمالَ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي شُرحت فيه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنَّ لهم بمقابلة أعمالِهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا ٩﴾ بحسب الذَّات وبحسب التضعيفِ عشراً فصاعداً، وفسَّر ابنُ جُرَيج الأجرَ الكبيرَ وكذا الرزقَ الكريمَ في كلِّ القرآن بالجنَّة.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وأحكامِها المشروحةِ فيه، من البعث والحسابِ والجزاءِ من الثواب والعقابِ الروحانيَّين والجسمانيَّين.

وتخصيصُ الآخرةِ بالذِّكر من بين سائر ما لم يؤمن به الكفرةُ؛ لكونها معظمَ ما أُمروا بالإيمان به، ولمراعاة التناسبِ بين أعمالِهم وجزائها الذي أَنبأ عنه قولُه تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٠﴾ وهو عذابُ جهنَّم، أي: أعددنا وهيَّأنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجودَه من الآخرة عذاباً مؤلماً، وهو أبلغُ في الزجر؛ لِمَا أنَّ إتيان العذابِ من حيث لا يُحتَسب أفظعُ وأفجع.

ولعل أهلَ الكتابِ داخلون في هذا الحكم؛ لأنَّهم لا يقولون بالجزاء الجسمانيِّ، ويعتقدون في الآخرة أشياءَ لا أصلَ لها، فلم يؤمنوا بالآخرة وأحكامِها المشروحةِ في هذا القرآنِ حقيقةَ الإيمانِ، فافهم.

والعطفُ على: «أنَّ لهم أجراً كبيراً»، فيكون إعدادُ العذابِ الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة مبشَّراً به كثبوت الأجرِ الكبيرِ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، ومصيبةُ العدوِّ سرورٌ يبشَّر به، فكأنه قيل: يبشِّر المؤمنين بثوابهم وعقابِ أعدائهم.

---

(١) في تفسيره ٢٠/ ١٦١.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٣، وقراءة الأخوين حمزة والكسائي في التيسير ص٨٧، والنشر ٢/ ٢٣٩.

ويجوز أن تكونَ البِشارةُ مجازاً مرسلاً، بمعنى مطلَقِ الإخبار الشاملِ للإخبار بما فيه سرورٌ، وللإخبار بما ليس كذلك، وليس فيه الجمعُ بين معنيَي المشترك أو الحقيقةِ والمجاز حتى يقالَ: إنَّه من عموم المجاز، وإنْ كان راجعاً لهذا، أو العطف على «يبشر» أو «يهدي» بإضمار: يُخبر، فيكون من عطف الجملةِ على الجملة. ولا يخفَى ما في الآية من ترجيح الوعدِ على الوعيد.

ونبَّه سبحانه ـ على ما في «البحر»(١) ـ بوصف المؤمنين بالَّذين يعملون الصالحاتِ على الحالة الكاملةِ لهم؛ ليتحلَّى المؤمنُ بذلك، وأنت تعلم أنَّه إن فُسِّر الأجرُ الكبير بالجنة، فهو ثابتٌ للمؤمن العاملِ وللمؤمن المفرِّط؛ إذ أصلُ الإيمان متكفِّل بدخول الجنةِ فضلاً من الله تعالى ورحمةً. نَعَم ما أُعدَّ للعامل في الجنة أعظمُ مما أُعدَّ للمفرِّط، وإن فسِّر بما أعدَّه الله تعالى في الآخرة من الجنة والدرجاتِ العُلى وأنواعِ الكراماتِ فيها التي لا يتكفَّل بها مجرَّد الإيمان، فظاهرٌ أنَّ ذلك غيرُ ثابتٍ للمؤمن المفرِّط، فلا بدَّ من التوصيف، ولا يَلزم منه عدمُ دخولِ المفرِّط الجنةَ. نَعَم يلزم منه ألَّا يَثبتَ له الأجرُ الكبيرُ بالمعنى السابق، والآياتُ التي يُفهَم منها دخولُه الجنةَ كثيرة، ولعل هذه الآيةَ يُفهَم منها ذلك، واقتضى المقامُ عدمَ التصريحِ بحكمه.

وفي «الكشَّاف»(٢) أنَّه تعالى ذكر المؤمنين الأبرارَ والكفارَ ولم يذكر الفَسَقة؛ لأنَّ الناس حينئذٍ إمَّا مؤمنٌ تقيٌ، وإمَّا مشرك، وأصحابُ المنزلةِ بين المنزلتين إنَّما حدثوا بعد ذلك.

وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّه مكابرة، فقد وقع في زمان الرسولِ ﷺ من بعض المؤمنين هَفَواتٌ وسقطات، بعضُها مذكورٌ في القرآن، وبعضُها مذكورٌ في الأحاديث الصحيحة. اهـ.

والمقرَّر في الأصول أنَّ الأكثرَ على عدالة الصحابة، ومَن طرأ له منهم قادحٌ، كسرقة وزنًى، عُمِل بمقتضاه، ثمَّ ما ذكره من المنزلة بين المنزلتين، الظاهرُ أنَّه أراد

---

(١) ٦/١٣.
(٢) ٢/٤٣٩-٤٤٠.

بما ذهب إليه إخوانُه المعتزلة من أنَّ مرتكبَ الكبيرةِ ليس بمؤمن ولا كافرٍ، وإذا مات من غير توبةٍ خلِّد في النار، وقد رُدَّ ذلك في علم الكلام، فتدبَّر.

وقوله تعالى ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ قال شيخُ الإسلام[1]: بيانٌ لحال المهديِّ إثرَ بيان حالِ الهادي، وإظهارٌ لما بينهما من التبايُن.

والمرادُ بـ «الإنسان» الجنسُ، أُسند إليه حالُ بعضِ أفراده، وهو الكافرُ، وإليه يُشير كلامُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما. أو حُكي عنه حالُه في بعض أحيانه، كما يقتضيه ما رُوي عن الحسن ومجاهدٍ.

فالمعنى على الأول أنَّ القرآن يدعو الإنسانَ إلى الخير الذي لا خيرَ فوقه من الأجر الكبير، ويُحذِّره من الشرِّ الذي لا شرَّ وراءه من العذاب الأليم، وهو ـ أي: بعضُ أفراده، أعني الكافرَ ـ يدعو لنفسه بما هو الشرُّ من العذاب المذكور، إمَّا بلسانه حقيقةً، كدأب مَن قال منهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ومَن قال: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] إلى غير ذلك مما حُكي عنهم. وإمَّا بأعمالهم السيئةِ المفضيةِ إليه، الموجبةِ له مجازاً، كما هو ديدنُ كلِّهم. وبعضُهم جعل الدعاءَ باللسان مجازاً أيضاً عن الاستعجال استهزاءً.

﴿دُعَآءَهُۥ﴾ أي: دعاءً كدعائه، فحُذف الموصوفُ وحرفُ التشبيه، وانتصب المجرورُ على المصدريَّة، وهو مرادُ مَن قال: مِثلَ دعائه ﴿بِٱلْخَيْرِ﴾ المذكورِ فَرْضاً لا تحقيقاً؛ فإنَّه بمعزلٍ عن الدعاء به، وفيه رمزٌ إلى أنَّه اللائقُ بحاله.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: مَن أُسند إليه الدعاءُ المذكورُ من أفراده ﴿عَجُولًا ۝١١﴾ يسارع إلى طلب كلِّ ما يخطرُ بباله، متعامياً عن ضرره، أو مبالغاً في العجلة، يستعجل الشرَّ والعذابَ، وهو آتيه لا محالةَ، ففيه نوعُ تهكُّم به. وعلى تقدير حملِ الدعاءِ على أعمالهم تُجعل العَجوليةُ على اللَّجِّ والتمادي في استيجاب العذابِ بتلك الأعمال.

والمعنى على الثاني أنَّ القرآنَ يدعو الإنسانَ إلى ما هو خيرٌ، وهو في بعض

---

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/١٥٨-١٥٩.

أحيانِه ـ كما عند الغضب ـ يَدَعهُ ويدعو اللهَ تعالى لنفسه وأهلِه ومالِه بما هو شرٌّ، وكان الإنسانُ بحسب جِبلَّته عجولاً ضَجِراً، لا يتأنّى إلى أن يزولَ عنه ما يعتريه.

أخرج الواقديُّ في «المغازي»[1] عن عائشةَ رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ دخل عليها بأسيرٍ وقال لها: «احتفظي به» قالت: فلهوتُ مع امرأة، فخرج ولم أشعر، فدخل النبيُّ ﷺ فسأل عنه، فقلت: واللهِ لا أدري، وغفلتُ عنه فخرج، فقال: «قطع اللهُ يدَكِ» ثم خرج عليه الصَّلاة والسَّلام فصاح به، فخرجوا في طلبه حتى وجدوه، ثم دخل عليَّ فرآني وأنا أُقلِّب يدي، فقال: «ما لكِ»؟ قلت: أنتظر دعوتَك، فرفع يديه وقال: «اللهمَّ إنَّما أنا بشرٌ، آسَفُ وأغضب كما يغضب البشر، فأيُّما مؤمنٍ أو مؤمنةٍ دعوتُ عليه بدعوة فاجعلها له زكاةً وطُهراً».

أو يدعو بما هو شرٌّ ويحسبه خيراً، وكان الإنسان عجولاً غيرَ مستبصر، لا يتدبَّر في أموره حقَّ التدبُّر ليتحقَّقَ ما هو خيرٌ حقيقٌ بالدعاء به، وهو شرٌّ جديرٌ بالاستعاذة منه. اهـ مع بعضِ زيادةٍ وتغيير.

واختار إرادةَ الكافرِ من الإنسان الأوَّلِ بعضُ المحقِّقين، وذَكَرَ في وجه ربطِ الآيات أنَّه تعالى لمَّا شرح ما خصَّ به نبيَّه ﷺ من الإسراء وإيتاءِ موسى عليه السلام التوراةَ، وما فعله بالعصاة المتمرِّدين من تسليط البلاءِ عليهم، كان ذلك تنبيهاً على أنَّ طاعةَ اللهِ تعالى توجِب كلَّ خيرٍ وكرامة، ومعصيتَه سبحانه توجب كلَّ بليَّةٍ وغرامة، لا جَرَمَ قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ إلخ، ثم عطف عليه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ إلخ بجامع دليلِ العقلِ والسمع، أو نعمتَي الدِّين والدنيا، وأما اتِّصال قولِه تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلخ، فهو أنَّه سبحانه لمَّا وصف القرآنَ حتى بلغ به الدرجةَ القصوى في الهداية، أتى بذِكر مَن أفرط في كفران هذه النعمةِ العظمى قائلاً: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ إلخ.

ومثلُ هذا ما قيل: إنَّه تعالى بعد أن وصف القرآنَ بما وصف، ذمَّ قريشاً بعدمِ سؤالِهم الهدايةَ به، وطلبِهم إنزالَ الحجارةِ عليهم، أو إيتاءَ العذابِ الأليم إنْ كان حقًّا.

وفي «الكشف» أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلخ بيانُ أنَّ القرآنَ يهديهم للتي هي أقوم، ويأبون إلَّا التي هي ألوم، وهو وجهٌ للربط مطلقاً.

---

(١) وأحمد في المسند (٢٤٢٥٩).

وكلٌّ ما ذكروه في ذلك متقارِب. ويَرِد على حَمْل الدُّعاءِ على الدعاء بالأعمال، والعَجوليةِ على اللَّجِّ والتمادي في استيجاب العذابِ بتلك الأعمالِ خلافُ المتبادرِ كما لا يخفَى.

وفسَّر بعضُهم الإنسانَ الثاني بآدمَ عليه السلام؛ لِما أخرج ابنُ جَرير[١] وابنُ المنذر وغيرُهما عن سلمانَ الفارسيِّ قال: أوَّلُ ما خلق اللهُ تعالى من آدمَ عليه السلام رأسُه، فجعل ينظر وهو يُخلَق، وبقيت رجلاه، فلما كان بعدَ العصر قال: يا ربِّ أعجِل قبلَ الليل، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾. ورُوي نحوُه عن مجاهدٍ، وروى القرطبيُّ[٢] ـ والعُهدةُ عليه ـ أنه لمَّا وصلت الرُّوحُ لعينيه، نظر إلى ثمار الجنَّة، فلمَّا دخلت جوفَه اشتهاها، فوثب عَجِلاً إليها فسقط.

ووجهُ ارتباطِ «وكان الإنسان...» إلخ على هذا القولِ إفادتُه أنَّ عجلته بالدُّعاء لضجره، أو لعدم تأمُّله مِن شأنه، وأنَّه موروثٌ له من أصله، وشِنشنةٌ يعرفها من أخزم. فهو اعتراضٌ تذييليٌّ، وكلام تعليليٌّ، والأَوْلى إرادةُ الجنسِ وإن كان ألفاظُ الآيةِ لا تنبو عن إرادة آدمَ عليه السلام كما زعم أبو حيَّان[٣].

ثم إنَّ الباءَ في الموضعين على ظاهرها صِلةُ الدُّعاء. وقيل: إنَّها بمعنى «في»، والمعنى: يدعو في حالة الشرِّ والضُّرِّ كما كان يدعو في حالة الخيرِ، فالمدعوُّ به ليس الشرَّ والخير. وقيل: إنَّها للسببية، أي: يدعو بسبب ذلك. وكلا القولَين مخالفان[٤] للظاهر لا يعوَّل عليهما.

واستُدلَّ بالآية ـ على بعضِ الاحتمالات ـ على المنع من دعاءِ الرَّجل على نفسه، أو على ماله، أو على أَهله، وقد جاء النهيُ عن ذلك صريحاً في بعض الأخبار، فقد أخرج أبو داود[٥] والبزَّارُ عن جابرٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) في تفسيره ١٤/ ٥١٤.

(٢) أورده في تفسيره ١٣/ ٣٦ عن ابن مسعود ﷺ. وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٧٧٣) مطولاً.

(٣) في البحر ٦/ ١٣-١٤.

(٤) في الأصل و(م): مخالفين.

(٥) الدر المنثور ٤/ ١٦٦، وسنن أبي داود (١٥٣٢)، ولم نقف عليه عند البزار، وهو عند مسلم (٣٠٠٩).

«لا تَدْعوا على أنفسكم، لا تَدْعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم؛ لئلَّا توافقوا من الله تعالى ساعةً فيها إجابةٌ فيستجيب لكم» وبه يُرَدُّ على ما قيل من أنَّ الدعاءَ بذلك لا يُستجاب فضلاً من الله تعالى وكرماً.

واستُشكل بأنَّ النبيَّ ﷺ دعا على أهله كما سمعتَ في حديث الواقديِّ. وأُجيب عن ذلك بأنَّه كان للزَّجر وإنْ كان وقتَ الغضب، وقد اشترط ﷺ على ربِّه سبحانه في مِثل ذلك أن يكونَ رحمة، فقد صحَّ أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «إنِّي اشترطت على ربِّي فقلت: إنَّما أنا بَشَر، أرضى كما يرضى البشر، وأَغضب كما يغضب البَشَر، فأُيُّما أحدٍ دعوتُ عليه من أُمَّتي بدعوةٍ ليس لها بأهل، أن تجعلَها له طَهوراً وزكاةً وقُربة»[1].

وذكر النوويُّ[2] في جواب ما يقال: إنَّ ظاهر الحديثِ أنَّ الدعاءَ ونحوَه كان بِسَبب الغضب، ما قال المازريُّ[3] من أنَّه يحتمل أنَّه ﷺ أراد أنَّ دعاءَه وسبَّه ونحوَهما كان مما يخيَّر فيه بين أمرين: أحدهما: هذا الذي فعله، والثاني: زَجْرُه بأمر آخَر، فحمله الغضبُ لله تعالى على أحد الأمرين المخيَّرِ فيهما، وليس ذلك خارجاً عن حكم الشَّرع، والمرادُ من قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس لها بأهل» ليس لها بأهلٍ عند اللهِ تعالى وفي باطن الأمرِ، ولكنَّه في الظَّاهر مستوجِبٌ لذلك، وقد يُستدلُّ على ذلك بأَمارات شرعية، وهو مأمورٌ ﷺ بالحكم بالظَّاهر، واللهُ تعالى يتولَّى السرائر.

وقيل: إنَّ ما وقع منه عليه الصلاة والسلام من الدُّعاء ونحوِه ليس بمقصود، بل هو ممَّا جرت به عادةُ العربِ في وصل كلامِها بلا نيَّة، كـ: «تَرِبَت يمينُك»[4]، و«عَقْرَى حَلْقَى»[5]، لكن خاف ﷺ أن يصادِفَ شيءٌ من ذلك إجابةً، فسأل ربَّه

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٢٦٠٠) و(٢٦٠١) و(٢٦٠٢) و(٢٦٠٣) من حديث عائشة وأبي هريرة وجابر وأنس رضي الله عنهم.

(٢) في شرح صحيح مسلم ١٦/ ١٥٣.

(٣) في المعلم ٣/ ١٦٨.

(٤) أخرجه البخاري (٦١٥٦)، ومسلم (١٤٤٥) (٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه البخاري (٦١٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، والخبر المذكور أعلاه قاله ﷺ لصفية رضي الله عنها حين أراد أن ينفر في الحج، فرأى صفية على باب خبائها كئيبة حزينة لأنها حاضت، فقال لها ذلك، ومعنى عقرى حلقى: أي عقرها الله وأصابها بعقر في جسدها... النهاية (عقر).

سبحانه وتعالى ورَغِبَ إليه في أن يجعلَ ذلك زكاةً وقُربة، نَعَم في ذِكر حديث الواقديِّ ونحوِه، كالحديث الذي ذكره البيضاويُّ[1] في المقام الذي ذكر فيه، لا يخلو عن شيء، فتأمَّل.

ثم إنَّ القياس إثباتُ الواوِ في «يدع الإنسان» إذ لا جازمَ تُحذَف له، لكن نُقل القرآنُ العظيم كما سُمع، ولم يتصرَّف فيه الناقلُ بمقدار فهمِه وقوَّةِ عقله.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ هذا ـ على ما قيلَ ـ شروعٌ في بيان بعضِ ما ذُكر من الهداية بالإرشاد إلى مسلك الاستدلالِ بالآيات والدَّلائلِ الآفاقية، التي كلُّ واحدةٍ منها برهانٌ نيِّر لا ريبَ فيه، ومنهاجٌ بيِّن لا يَضلُّ مَن ينتحيه؛ فإنَّ الجعل المذكورَ وما عُطف عليه وإنْ كانا من الهدايات التكوينية، لكنَّ الإخبارَ بذلك من الهدايات القرآنيةِ المنبِّهة على تلك الهدايات.

وذكر الإمامُ[2] في وجه الربطِ وجوهاً:

الأوَّل: أنَّه تعالى لمَّا بيَّن في الآية المتقدِّمةِ ما أَوصل إلى الخَلق من نِعَم الدِّين وهو القرآنُ، أَتبعه ببيان ما أَوصل إليهِم من نِعَم الدُّنيا، فقال سبحانه: (وَجَعَلْنَا) إلخ، وكما أنَّ القرآن ممتزجٌ من المحكَم والمتشابه، كذلك الزمانُ مشتملٌ على الليل والنَّهار، وكما أنَّ المقصودَ من التكليف لا يتمُّ إلَّا بذكر المحكمِ والمتشابه، فكذلك الزمانُ لا يَكمل الانتفاعُ به إلَّا بالنَّهار والليل.

الثاني: أنَّه تعالى وصف الإنسانَ بكونه عجولاً، أي: منتقلاً من صفةٍ إلى صفة، ومن حالةٍ إلى حالة، بيَّن أنَّ كلَّ أحوالِ العالَم كذلك، وهو الانتقالُ من النُّور إلى الظلمة، وبالضِّدّ، وانتقالُ نورِ القمر من الزيادة إلى النُّقصان، وبالضِّد.

الثالث: نحوُ ما نقلناه أوَّلاً، ولعله الأَوْلى.

وتقديمُ الليل لمراعاة الترتيبِ الوجوديّ؛ إذ منه ينسلخُ النهار، وفيه تظهر غُررُ الشهورِ العربية، ولترتيب غايةِ النَّهار عليها بلا واسطة، وممَّا يزيد تقديمَ الليل حُسناً افتتاحُ السورة بقوله سبحانه: (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا).

---

(١) في تفسيره ٣/ ١٩٧.

(٢) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٦٣-١٦٤.

والجعلُ - على ما نُقل عن السَّمين[١] - بمعنى التصيير، مُتَعَدٍّ لاثنين، أو بمعنى الخلقِ متعدٍّ لواحد، و«آيتين» حالٌ مقدَّرة.

واستشكل الأوَّلَ الكرمانيُّ بأنَّه يستدعي أن يكونَ الليلُ والنهار موجودَين على حالةٍ ثم انتقلا منها إلى أخرى، وليس كذلك.

ودُفع بأنَّه من باب: ضيِّق فمَ الرَّكية، وهو مجازٌ معروف، واستظهر هذا أبو حيَّان[٢]، والمعنى: جعلنا المَلَوين بهيآتهما وتعاقبهما واختلافِهما في الطُّول والقِصَر على وتيرةٍ عجيبة آيتين تدلَّان على أنَّ لهما صانعاً حكيماً قادراً عليماً، ويَهديان إلى ما هدى إليه القرآنُ الكريم من الإسلام والتوحيد.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ الإضافةُ هنا وفيما بعدُ إمَّا بيانيّة، كما في إضافة العددِ إلى المعدود، نحو: أربع نسوة، أي: محونا الآيةَ التي هي الليلُ، أي: جعلنا الليلَ ممحوَّ الضوءِ مطموسَه، مظلماً لا يستبينُ فيه شيءٌ كما لا يستبين ما في اللوح الممحوِّ. وإلى ذلك ذهب صاحبُ «الكشَّاف»[٣]، ورُوي عن مجاهد، وهو على نحو: ضيِّق فمَ الرَّكية، والفاءُ تفسيرية؛ لأنَّ المحو المذكورَ وما عُطف عليه ليسا ممَّا يحصل عقيبَ جعلِ الجديدين آيتين، بل هما من جملة ذلك الجعلِ ومتمِّماته.

وقيل: معنى محوِ اللَّيل إزالةُ ظلمتِه بالضَّوء. ورجِّح بأنَّ فيه إبقاءَ المحوِ على حقيقته، وهو إزالة الشيءِ الثابت، وليس فيما ذكره الزمخشريُّ ذلك، ولا ينبغي العدولُ عن الحقيقة بلا ضرورة.

وتعقِّب بأنَّه يكفي ما بعده قرينةً على تلك الإرادة، فإنَّ محوَ الليلِ في مقابلة جعلِ النهارِ مبصراً. وعلى ما ذُكر من المعنى الحقيقيِّ لا يتعلَّق بمحو الليلِ فائدةٌ زائدةٌ على ما بعده، وقيل عليه: إنَّ الظلمةَ هي الأصل، والنور طارئ، فكونُ الليلِ مخلوقاً مطموسَ الضوءِ مفروغٌ عنه، فالمرادُ بيانُ أنَّ الله تعالى خلق الزمانَ ليلاً مظلماً، ثم جعل بعضَه نهاراً بإحداث الإشراق لفائدةٍ ذكرها سبحانه، وكونُ محو

(١) الدر المصون ٧/ ٣٢١.
(٢) في البحر ٦/ ١٤.
(٣) ٢/ ٤٤٠.

الليلِ في مقابلة جعلِ النَّهار مضيئاً لا يوجِب حملَه على المجاز؛ لفائدة بيانِ إبقاءِ بعض الزَّمان على إظلامه وجعلِ بعضِه مضيئاً. اهـ. ولا يخفَى ما فيه من التكلُّف، وأنَّ المقامَ لا يلائمه، فالمعوَّل عليه ما في «الكشَّاف».

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: الآيةَ التي هي النهارُ ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي: مضيئةً، فهو مجازٌ بعلاقة السَّببية، أو الإسنادُ مجازيٌّ كما في: نهارُه صائم، والمرادُ: يُبصِر أهلُها، أو الصيغةُ للنسب، أي: ذات إبصار، أو هي من: أبصره، المتعدِّي، أي: جعله مبصِراً ناظراً، والإسنادُ إلى النهار مجازيٌّ أيضاً، من الإسناد إلى السَّبب العاديِّ، والفاعل الحقيقيُّ هو اللهُ تعالى، أو من باب: أفعل، المرادِ به غيرُ مَن أُسند إليه، كأَضعفَ الرجل، إذا كانت دوابُّه ضعافاً، وأَجبنَ، إذا كان أهلُه جبناءَ، فأَبصرت الآيةُ، بمعنى: صار أهلُها بصراءَ. وروي ذلك عن أبي عبيدة، وهو معنًى وضعيٌّ لا مجازيٌّ.

وقرأ قتادةُ وعليُّ بن الحسين رضي الله عنهما: «مَبْصَرةً» بفتح الميمِ والصَّاد[1]، وهو مصدر أُقيم مُقامَ غيرِه، وكَثُر مثلُ ذلك في صفات الأَمكنة، كأَرضٍ مَسبَعة، ومكان مَضَبَّة.

وإما إضافة لامية، وآيتا الليلِ والنهارِ نيِّراهما القمرُ والشمس، ويُحتاج حينئذٍ في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ) إلى تقدير مضافٍ في الأول أو الثاني، أي: جعلنا نيِّرَي الليلِ والنهار آيتين، أو: جعلنا الليلَ والنهارَ ذَوَي آيتين، إن جُعِل «جعل» متعدِّياً إلى مفعولَين، والليلُ والنهارُ هو المفعولَ الأوَّل، وآيتين الثاني، فإن عُكِس، كما استظهره أبو حيَّان، وجُعل الليلُ والنهارُ نصباً على الظرفية في موضع المفعولِ الثاني، أي: جعلنا في الليل والنهارِ آيتين، وهما النيِّران، لا يُحتاج إلى تقدير، كما إذا جعل الجعلُ متعدِّياً لواحد، والليلُ والنهارُ منصوبان على الظرفية كما جوَّزه المعربون.

ومحوُ آيةِ الليل ـ وهي القمرُ على ما تدلُّ عليه الآثار ـ إزالةُ ما ثبت لها من النُّور يوم خُلِقت، فقد أَخرج ابن جَرير وابنُ المنذر[2] عن ابن عباسٍ في الآية أنَّه

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٤، وينظر القراءات الشاذة ص٧٥.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٦٦، وتفسير الطبري ١٤/ ٥١٦-٥١٧.

قال: كان القمرُ يضيءُ كما تضيءُ الشمس، وهو آيةُ الليلِ فمُحي، فالسَّوادُ الذي في القمر أثرُ ذلك المحو.

وأخرج عبدُ بن حُمَيد وغيرُه عن عكرمةَ أنَّه قال: خلق اللهُ تعالى نورَ الشمس سبعين جزءاً، ونورَ القمرِ سبعين جزءاً، فمحَى من نور القمرِ تسعةً وستِّين جزءاً، فجعله مع نور الشَّمس، فالشمسُ على مئةٍ وتسعةٍ وثلاثين جزءاً، والقمرُ على جزءٍ واحدٍ[1].

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن محمد بن كعبٍ القرظيِّ أنَّه قال: كانت شمسٌ بالليل وشمسٌ بالنهار، فمحَى اللهُ تعالى شمسَ الليل، فهو المحوُ الذي في القمر[1].

وأخرج البيهقيُّ في «دلائل النبوَّة» وابنُ عساكرٍ عن سعيدٍ المَقْبُري: أنَّ عبد الله بنَ سَلامٍ سأل النبيَّ ﷺ عن السَّواد الذي في القمر، فقال: «كانا شمسين» وقال: «قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ فالسَّوادُ الذي رأيتَ هو المحو»[2].

وفي حديثٍ طويل أَخرجه ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه بسند واهٍ عن ابن عباسٍ مرفوعاً: «إنَّ اللهَ تعالى خلق شمسَين من نورِ عرشِه، فأَرسل جبريلَ عليه السلام، فأمرَّ جناحَه على وجه القمر وهو يومئذٍ شمسٌ ثلاثَ مرَّات، فطُمس عنه الضوءُ، وبقي فيه النورُ، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ الآية[3]. إلى غير ذلك من الآثار.

وقيل: والفاءُ على هذا للتعقيب، وجَعْلُ آيةِ النهار ـ وهي الشمسُ ـ مبصرةً، على نحو ما تقدَّم، فتبصَّر.

وقيل: محو القمر إمَّا خَلْقُه كَمِداً مطموسَ النور غيرَ مشرقٍ بالذات، على ما ذكره أَهلُ الهيئةِ من أنَّه غيرُ مضيءٍ في نفسه، بل نورُه مستفادٌ من ضوء الشَّمس، فالفاءُ تفسيرية كما مرَّ، وإمَّا نقصُ ما استفاده من الشَّمس شيئاً فشيئاً بحسب الرُّؤية والإحساس، إلى أن ينمحقَ على ما هو معنى المحوِ، فالفاءُ للتعقيب.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٦٤.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٦٦، ودلائل النبوة ٦/ ٢٦١-٢٦٢، وتاريخ مدينة دمشق ٢٩/ ١١١.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٦٦.

وذكر الإمامُ[١] في نحوه قولَين: أحدهما: نقصُ نورِه قليلاً قليلاً إلى المُحاق، وثانيهما: جعلُه ذا كَلَف، ثم قال: حَمْله على الوجه الأوَّل أَوْلى؛ لأنَّ اللام في الفعلين بعدُ متعلِّق بما هو المذكورُ قبل، وهو محوُ آيةِ الليل وجَعْلُ آيةِ النهار مبصِرة، ومحوُ آيةِ اللَّيل إنَّما يؤثِّر في ابتغاء فضلِ اللهِ تعالى إذا حملنا محوَ القمرِ على زيادة نورِ القمر ونقصانِه؛ لأنَّ سبب حصولِ هذه الآيةِ مختلفٌ باختلاف أحوالِ نورِ القمر، وأهلُ التجاربِ أثبتوا أنَّ اختلاف أحوالِ القمرِ في مقادير النورِ له أثرٌ عظيمٌ في أحوال هذا العالَم ومصالِحه، مثلُ أحوالِ البحارِ في المدِّ والجزر، ومثلُ أحوالِ البحراناتِ على ما يذكره الأطباءُ في كتبهم[٢]. وأيضاً بسبب زيادةِ نورِ القمر ونقصانِه يحصل الشهورُ، وبسبب معاودةِ الشهور يحصل السِّنونَ العربيةُ المبنيةُ على رؤية الهلال، كما قال سبحانه: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ﴾ إلخ. اهـ.

وأنت تعلم أنَّه متى دلَّ أَثرٌ صحيح عن رسول اللهِ ﷺ ـ على ما ذكرناه أوَّلاً ـ لا ينبغي أن يُدَّعى أنَّ غيره أولى، وهو لَعمري وجهٌ لا كَلَفَ فيه عند مَن له عينٌ مبصرة.

وللفلاسفة في هذا المحوِ المرئيِّ في وجه القمرِ كلامٌ طويل، لا بأسَ بأن تحيطَ به خُبراً، فنقول:

ذكر الإمامُ في «المباحث المشرقية» أنَّ امتناعَ بعضِ المواضعِ في وجه القمرِ عن قَبول الضوءِ التامِّ، إمَّا أن يكونَ بسبب خارجٍ عن جِرم القمر، أو غيرِ خارجٍ عنه:

فإن كان بسببٍ خارج، فإمَّا أن يكونَ لمثل ما يَعرِض للمرايا من وقوع أشباحِ الأشياءِ فيها، فإذا رُئيت تلك الأشياءُ، لم تُرَ برَّاقة، فكذلك القمرُ لمَّا تصوَّرت فيه أَشباحُ الجبالِ والبحار، وجب ألَّا تُرى تلك المواضعُ في غاية الاستنارة.

وإمَّا أن يكونَ ذلك بسبب ساتر، والأوَّل باطل، أما أولاً؛ فلأنَّ الأشباحَ لا تنحفظ هيئاتها مع حركة المِرآة، وبتقدير سكونِها لا تستقرُّ تلك الأشباحُ فيها عند

---

(١) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٦٤-١٦٥.

(٢) البحران تغيّر يكون دفعه إما إلى جانب الصحة وإما إلى جانب المرض، وله دلائل يصل الطبيب منها إلى ما يكون منه. ينظر القانون لابن سينا ٣/ ٧٧ فما بعد.

اختلافِ مقاماتِ الناظرين، والآثارُ التي في وجه القمرِ ليست كذلك. وأمَّا ثانياً؛ فلأنَّ القمر ينعكس الضوءُ عنه إلى البصر، وما كان كذلك لم يصلحْ للتخييل. وأمَّا ثالثاً؛ فلأنَّه كان يجب أن تكونَ تلك الآثارُ كالكرات؛ لأنَّ الجبال في الأرض كتضريس أو خشونةٍ في سطحِ كرة، وليس لها من المقدار قَدْرُ ما يؤثِّر في كُرَية الأرض، فكيف لأشباحها المرئيةِ في المرآة؟

وأمَّا إنْ كان ذلك بسببِ ساتر، فذلك الساترُ إمَّا أن يكونَ عنصريًّا أو سماويًّا، والأوَّلُ باطل، أما أولاً؛ فلأنَّه كان يجب أن يكونَ المواضعُ المتستِّرة من جِرم القمر مختلفةً باختلاف مقاماتِ الناظرين، وأما ثانياً؛ فلأنَّ ذلك الساترَ لا يكون هواءً صِرفاً، ولا ناراً صرفةً؛ لأنَّهما شفَّافان، فلا يَحجبان، بل لا بدَّ وأن يكونَ مركَّباً، إمَّا بخاراً وإما دخاناً، وذلك لا يكون مستمرًّا.

وأمَّا إن كان الساترُ سماويًّا، فهو الحقُّ، وذلك إنَّما يكون لقيام أجسامٍ سماويةٍ قريبة المكانِ جدًّا من القمر، وتكون من الصِّغَر بحيث لا يُرى كلُّ واحدٍ منها، بل جملتها على نحو مخصوصٍ من الشَّكل، وتكون إمَّا عديمةَ الضوءِ، أو لها ضوءٌ أضعفُ من ضوءِ القمر، فتُرَى في حالةِ إضاءته مظلمة.

وأمَّا إن كان ذلك بسببٍ عائدٍ إلى ذات القمر، فلا يخلو: إمَّا أن يكونَ جوهرُ ذلك الموضعِ مساوياً لجواهر المواضعِ المستنيرة من القمر في الماهيَّة، أو لا يكون، فإن لم يكن، كان ذلك لارتكازِ أجرامٍ سماويةٍ مخالفةٍ بالنوع للقمر في جِرمه كما ذكرناه قبلُ، وهو قريبٌ منه.

وإمَّا أن تكونَ تلك المواضعُ مساويةَ الماهيَّة لجِرم القمر، فحينئذٍ يمتنع اختصاصُها بتلك الآثارِ إلَّا بسبب خارجيٍّ، لكنه قد ظهر لنا أنَّ الأجرامَ السماوية لا تتأثَّر بشيءٍ عنصري، وبذلك أُبطل قولُ مَن قال: إنَّ ذلك المحوَ بسبب انسحاقِ عَرض القمرِ من مماسَّة النار: أمَّا أولاً؛ فلأنَّ ذلك يوجِب أن يتأدَّى ذلك في الأزمان الطويلةِ إلى العدم والفسادِ بالكلِّية، والأرصادُ المتواليةُ مكذِّبة لذلك، وأيضاً القمرُ غيرُ مماسٍّ للنار؛ لأنه مفرَّق في فلك تدويره الذي هو في حامله الذي بينه وبين النار بُعدٌ بعيد، بدليل أنَّ النارَ لو كانت ملاقيةً لحامله، لتحرَّكت بحركته إلى المشرق، وليس كذلك؛ لأنَّ حركاتِ الشُّهب في الأكثرِ لا تكون إلَّا إلى جهة

المغرب، وتلك الحركةُ تابعةٌ لحركة النار، والحركةُ المستديرةُ ليست للنَّار بذاتها؛ فإنَّها مستقيمةُ الحركة، فذلك لها بالعرض تَبَعاً لحركة الكلِّ، فبطل ما قالوه. اهـ.

وذكر الآمديُّ في «أبكار الأفكار» زيادةً على ما يُفهَم ممَّا ذُكر من الأقوال، وهي أنَّ منهم مَن قال: إنَّ ما يُرى خيالٌ لا حقيقةَ له. وردَّه بأنَّه لو كان كذلك، لَاختلفَ الناظرون فيه، ومنهم مَن قال: إنَّه السوادُ الكائنُ في القمر في الجانب الذي لا يَلي الشمسَ. وردَّه بأنَّه لو كان كذلك لما رُئي متفرِّقاً. ومنهم مَن قال: إنَّه وجهُ القمر، فإنَّه مصوَّر بصورة وجهِ الإنسان، وله عينانِ وحاجبانِ وأنفٌ وفم. وردَّه بأنَّه مع بُعده يوجب أن يكونَ فِعلُ الطبيعة عندهم معطَّلاً عن الفائدة؛ لأنَّ فائدة الحاجبَين عندهم دفعُ أذى العرقِ عن العينين، وفائدة الأنفِ الشَّمُّ، وفائدة الفم دخولُ الغذاءِ، وليس للقمر ذلك. وقد ردَّ عليهم رحمةُ الله تعالى عليه سائرَ ما ذكروه[1].

وذكر الإمامُ في «التفسير»[2] أنَّ آخر ما ذكره الفلاسفةُ في ذلك: أنَّه ارتكز في وجه القمرِ أجسامٌ قليلةُ الضوء، مثل ارتكازِ الكواكبِ في أجرام الأفلاك، ولمَّا كانت تلك الأجرامُ أقلَّ ضوءاً من جِرم القمر، لا جَرَمَ شوهدت في وجهه كالكَلَف في وجه الإنسان، وفي ارتكازها في بعض أجزائه دون بعضٍ مع كونه متشابهَ الأجزاءِ عندهم دليلٌ على الصانع المختار، كما أنَّ في تخصيص بعضِ أجزائهِ بالنُّور القويِّ وبعضِها بالنُّور الضعيفِ مع تشابه الأجزاءِ دليلاً على ذلك.

ومِثلُ هذا التخصيصِ في الدَّلالة تخصيصُ بعضِ جوانب الفلكِ الذي هو عندهم أيضاً جِرمٌ بسيط متشابهُ الأجزاء بارتكاز الكواكبِ فيه دون البعضِ الآخر.

وزعم بعضُ أهلِ الآثار أنَّه مكتوبٌ في وجه القمر: لا إلهَ إلَّا الله، وقيل: لفظ: جميل، وقيل غيرُ ذلك، وأنَّ المحو المرئيَّ هو تلك الكتابةُ. ولا يعوَّل على شيءٍ من ذلك. نَعَم مكتوبٌ على كل شيءٍ: لا إله إلا الله، وكذا: جميلٌ، ولكنَّ ذلك بمعنًى آخَرَ كما لا يخفَى.

ونُقل لي عن أهل الهيئةِ الجديدةِ أنَّهم يزعمون أنَّ القمرَ كالأرض فيه الجبالُ

(١) أبكار الأفكار ٣/ ١٢٦-١٢٩.
(٢) ٢٠/ ١٦٥.

والوِهاد والأشجارُ والبحار، وأنَّهم شاهدوا ذلك في أَرصادهم، وأنَّ المواضعَ التي لا يُرى فيها محوٌ هي البحار، والتي فيها محوٌ هي أرضٌ غيرُ مستوية، وزعموا أنَّه لو وصل أحدٌ إلى القمر لَرأى الأرضَ كذلك، ومِن هنا قالوا: لا يَبعد أن يكونَ معموراً بخلائقَ نحوَ عمارةِ الأرض، بل قالوا: إنَّ جميع الكواكبِ مثلُه في ذلك، قياساً عليه، وإن كانت لا يُرى فيها لمزيد بُعدِها ما يُرى فيه، وبعيدٌ من الحكمة أن يعمرَ الله تعالى الأرضَ بالخلق على صِغَرها، ويتركَ أجساماً عظيمة أكثرُها أعظمُ من الأرض خاليةً بلا خَلق على كِبَرها، وهم منذ غرَّهم القمرُ، تشبَّثوا بحباله في عمل الحيلِ للعُروج إليه، فصنعوا سُفُناً زئبقيةً، فعرجوا فيها، فقَبْلَ أن يَصِلوا إلى كرة البخارِ انتفختْ أَجسامُهم، وضلَّت كما ضلَّت من قبلُ أفهامُهم، فانقلبوا صاغرين وهبطوا خاسئين.

وأنت تعلم أنَّ كلامَهم في هذا البابِ مخالفٌ لأُصول الفلسفة، ولا برهانَ لهم عليه سِوَى السَّفهِ، ومنشؤه محضُ أنَّهم رأوا شيئاً في القمر، ولم يتحقَّقوه، وظنُّوه ما ظنُّوه، وأيُّ مانعٍ من أن يكونَ قد جعل اللهُ تعالى المحوَ على وجهٍ يُتخيَّل فيه ذلك، بل لا مانعَ على أُصولنا من أن يقالَ: قد جعل اللهُ تعالى في القمر أَجراماً تُشبه ما حسبوه، لكن لم يَرِد في ذلك شيءٌ عن الصَّادق ﷺ، وهو الذي عُرج به إلى قابِ قوسين أو أدنى.

وما ذكروه من أنَّه بعيدٌ من الحِكمة أن يعمرَ اللهُ تعالى الأرضَ... إلخ، يَلزم عليه أن يكونَ ما بين الكواكبِ ـ ككواكب الدُّبِّ الأكبرِ مثلاً ـ معموراً بالخلائق كالأرضِ أيضاً، فإنَّه أوسعُ منها بأضعافٍ مضاعفة، وهم لا يقولون به، على أنَّا نقول: قد جاء: «أَطَّت السماءُ وحقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ قدم إلَّا وفيه مَلَكٌ راكعٌ أو ساجد»(١)، فيجوز أن يكونَ على جِرم القمرِ ملائكةٌ يعبدون اللهَ تعالى بما شاءَ وكيف شاء، بل يجوز أن يكونَ عند كلِّ ذرَّةٍ من ذرَّاته مَلَكٌ كذلك، وهذا نوعٌ من العِمارة بالخلق.

والأحسنُ عند مَن عزَّ عليه وقتُه عدمُ الالتفاتِ إلى مثل هذه الخرافاتِ وتضييعِ الوقت في ردِّها، واللهُ سبحانه الموفِّق.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٣١٢) عن أبي ذرّ رضي الله عنه، وسلف ٢/ ٨٧.

ثم ما تقدَّم من أنَّ المحو نقصُ ما استفاده القمرُ من الشمس شيئاً فشيئاً فيه القولُ بأنَّ نور القمرِ مستفادٌ من نور الشمس، وقد عدَّ الجُلُّ من العلماءِ ذلك في الحَدْسيات، وذكروا أنَّ الشمس مضيئةٌ بنفسها، وكلا الأمرين ممَّا ذكره الفلاسفةُ، وليس له في الشَّرع مستندٌ يعوَّل عليه، وقد نقله الآمديُّ، وتعقَّبه فقال: ذكروا أنَّ الشمس نيِّرة بنفسها، وما المانعُ من كونها سوداءَ الجِرم، واللهُ تعالى يخلقُ فيها النورَ في أوقات مشاهدتِنا لها، أو أن تكونَ مستنيرةً من كواكبَ أخرى فوقَها، وهي مستورةٌ عنا ببعض الأجرام السماويةِ المظلمة، كما يحدث للشَّمس في حالة الكسوف، وإن سلَّمنا أنَّها نيِّرة بنفسها، فلا نسلِّم أنَّ نور القمرِ مستفادٌ منها، وما المانعُ من كون الربِّ تعالى يخلق فيه النورَ في وقتٍ دون وقت، أو أن يكونَ مع كونه مركوزاً في فَلَكه دائراً على مركز نفسِه، وأحدُ وجهَيه نيِّرٌ والآخَر مظلم، كما كان بعضُ أجزاءِ الفلكِ شفَّافاً وبعضُها نيِّراً، وهو متحرِّك بحركة مساويةٍ لحركة فَلَكه، ويكونُ وجهُه المضيءُ عند مقابلة الشمسِ، وهو الذي يَلينا، وتكون الزيادةُ والنقصانُ فيما يظهر لنا على حسب بُعده وقربهِ من الشمس، فلا يكون مستنيراً من الشَّمس[1]. اهـ.

وأُورد أنَّه إذا ضمَّ الخسوف إلى الزيادة والنقصانِ قرباً وبعداً، لا يتمُّ ما ذكره، وصحَّ ما ذكروه من الاستفادة.

وأُجيب بأنَّه ما المانعُ من أن يكونَ الخسوفُ لحيلولة جِرم علويٍّ بيننا وبينه، لا لحيلولة الأرضِ بينَه وبين الشَّمس، فلا بدَّ لنفي ذلك من دليلٍ فافهم، واللهُ تعالى أعلمُ، وهو المتصرِّف في ملكه كيفما يشاء.

﴿لِتَبْتَغُواْ﴾ متعلِّق بقوله تعالى: (وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ) وفي الكلام مقدَّر، أي: جعلنا آيةَ النهارِ مبصرةً لتطلبوا لأنفسكم فيه ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رزقاً؛ إذ لا يتسنَّى ذلك في اللَّيل.

وفي التعبير عن الرِّزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء، والتعرُّضِ لصفة الرُّبوبية المنبئةِ عن التبليغِ إلى الكمال شيئاً فشيئاً، دلالةٌ ـ كما قال شيخُ الإسلام[2] ـ على

(١) أبكار الأفكار ٣/ ١٢٧-١٢٨.

(٢) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٦٠.

أنْ ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثيرٌ سوى الطَّلب، وإنَّما الإعطاءُ إلى الله سبحانه، لا بطريق الوجوبِ عليه تعالى، بل تفضُّلاً بحكم الرُّبوبية، ومعنى تأثيرِ الطلبِ على نحو تأثيرِ الأَسباب العادية، فإنَّه مِن جملتها، ولا توقُّفَ حقيقة للرزق عليه، وفي الخبر: «يطلبك رزقُك كما يطلبك أجلُك»، ولله تعالى دَرُّ القائل:

لقد علمتُ وما الإِشرافُ من خُلُقي ... أنَّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيُعْيِيني تطلُّبهُ ... ولو قعدتُ أتاني لا يعنِّيني[1]

﴿وَلِتَعۡلَمُواْ﴾ متعلِّق ـ كما قيل ـ بكلا الفعلَين، أعني: محوَ آيةِ الليل، وجعلَ آيةِ النهار مبصرةً، لا بأَحدهما فقط؛ إذ لا يكونُ ذلك بانفراده مداراً للعِلم المذكور، أي: لتعلموا بتفاوت الجديدَين أو نيِّرَيهما ذاتاً من حيث الإِظلامُ والإِضاءة، مع تعاقبهما أو حركاتِهما وأوضاعِهما وسائرِ أحوالهما ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ التي يتعلَّق بها غرضٌ علميٌّ لإِقامة مصالحِكم الدينيةِ والدنيويَّة ﴿وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ أي: الحسابَ المتعلِّق بما في ضمنها من الأوقات، أي: الأشْهُرَ والليالِيَ والأيام، وغيرَ ذلك مما نيط به شيٌّ من المصالح المذكورة.

ونفسُ السَّنةِ من حيث تحقُّقها ممَّا ينتظمه الحسابُ، وإنما الذي يتعلَّق به العدُّ طائفةٌ منها، وتعلُّقه في ضمن ذلك بكلِّ واحدةٍ منها ليس من حيثية التحقُّق والتحصُّل من عدَّة أشهر، حَصَلَ كلٌّ واحدٍ منها من عدَّة أيام، حصل كلٌّ واحدٍ منها من طائفةٍ من السَّاعات مثلاً، فإنَّ ذلك من وظيفة علمِ الحساب، بل من حيث إنَّها فردٌ من طائفة السنينَ المعدودةِ بعدها، أي: نفسها من غير أن يعتبرَ في ذلك تحصيلُ شيءٍ معيَّن، كما حقَّق ذلك شيخُ الإِسلام[2].

وقيل: المعنى: «لتعلموا» باختلافهما وتعاقُبِهما على نسقٍ واحدٍ أو بحركاتهما «عددَ السِّنين»... إلخ.

والمرادُ بالحساب جنسُه، أي: الجاري في المعاملات، كالإجارات والبيوعِ المؤجَّلة وغيرِ ذلك. وذكر بعضُهم أنَّ الظاهر المناسبَ أنَّ المراد: لتعلموا باللَّيل،

---

(١) البيتان لعروة بن أذنية كما في الأغاني ١٨/ ٣٢٢، وسلف ١١/ ٣٤٣.
(٢) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٦٠.

فإنَّ عدد السنينَ الشرعيةِ والحسابِ الشرعيِّ يُعلمان به غالباً، أو بالقمر؛ لقوله تعالى في الأهلَّة: ﴿قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وأنت تعلمُ أنَّ السنينَ شمسيةٌ وقمرية، وبكلٍّ منهما العملُ، فلو قيل: إحدى الآيتَين مبيِّنة لأحدهما، والأخرى للآخَر، لا محذورَ فيه، وكونُ الشرعِ معوِّلاً على أحدهما لا يضرّ.

وتقديمُ العددِ على الحساب من أنَّ الترتيبَ بين متعلَّقَيهما على ما سمعتَ أولاً وجوداً وعدماً على العكس؛ للتَّنبيه من أوَّل الأمر على أنَّ متعلَّق الحسابِ ما في تضاعيف السنينَ من الأوقات، أو لأنَّ العلم المتعلِّق بعدد السنينَ علمٌ إجماليٌّ بما تعلَّق به الحسابُ تفصيلاً، أو لأنَّ العلمَ المتعلِّق بالأوَّل أقصى المراتب، فكان جديراً بالتَّقديم في مقام الامتنان، أو لأنَّ العددَ نازلٌ من الحساب منزلةَ البسيطِ من المركب، بناءً على ما حقِّق من أنَّ الحسابَ إحصاءُ ما لَه كميةٌ منفصلةٌ بتكرير أمثالِه، من حيث يتحصَّل بطائفة معيَّنةٍ منها حدٌّ معيَّن منه له اسمٌ خاصٌّ وحكم مستقلٌّ، والعددُ إحصاؤه بمجرَّد تكريرِ أمثاله، من غير أن يتحصَّلَ شيءٌ كذلك؛ ولهذا وكونِ السنينَ ممَّا لم يُعتبَر فيها حدٌّ معيَّن له اسمٌ خاصٌّ وحكم مستقلٌّ، أُضيف إليها العددُ وعلِّق الحساب بما عداها، فتدبَّر.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ تفتقرون إليه في معاشكم ومعادِكم سوى ما ذُكر مِن جَعْل الليلِ والنَّهار آيتين، وما يَتْبعه من المنافع الدينيةِ والدنيوية. وهو منصوبٌ بفعلٍ يفسِّره قولُه تعالى: ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ وهذا من باب الاشتغال، ورجِّح النصبُ لتقدُّم جملةٍ فعلية. وجوِّز أن يكونَ معطوفاً على «الحساب»، وجملةُ «فصلناه» صفةَ «شيءٍ»، وهو بعيدٌ معنًى.

والتفصيلُ من الفَصل، بمعنى القطع، والمرادُ به الإبانةُ التامَّة، وجيءَ بالمصدر للتأكيد. فالمعنى: بيَّنا كلَّ شيءٍ في القرآن الكريم بياناً بليغاً لا التباسَ معه، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] فظهر كونُه هادياً للتي هي أقومُ ظهوراً بيِّناً.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾ منصوبٌ على حدِّ «كل شيء» أي: وألزمنا كلَّ إنسانٍ مكلَّفٍ ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ أي: عملَه الصادرَ منه باختياره حَسبما قدِّر له، خيراً كان أو شرًّا، كأنه طار إليه من عُشِّ الغيبِ ووَكرِ القَدَر.

وفي «الكشَّاف»[(١)] أنَّهم كانوا يتفاءلون بالطَّير ويسمُّونه زجراً، فإذا سافروا ومرَّ بهم طيرٌ زجروه، فإنْ مرَّ بهم سانحاً، بأن مرَّ من جهة اليسارِ إلى اليمين، تيمَّنوا، وإن مرَّ بارحاً، بأن مرَّ من جهة اليمينِ إلى الشِّمال، تشاءموا؛ ولذا سمِّي تطيُّراً، فلمَّا نَسبوا الخيرَ والشرَّ إلى الطائر، استُعير استعارةً تصريحيةً لما يُشبههما من قَدَر اللهِ تعالى وعملِ العبد؛ لأنَّه سببٌ للخير والشرّ. ومنه: طائرُ اللهِ تعالى لا طائرُك، أي: قَدَرُ اللهِ جلَّ شأنه الغالبُ الذي يُنسب إليه الخيرُ والشرُّ، لا طائرُك الذي تتشاءم به وتتيمَّن، وقد كَثُر فعلُهم ذلك، حتى فعلوه بالظِّباء أيضاً وسائر حيوانات الفَلَا، وسمَّوا كلَّ ذلك تطيُّراً كما في «البحر»[(٢)].

وتفسيرُه بالعمل هنا مرويٌّ عن ابن عباس، ورواه البيهقيُّ في «شُعب الإيمان»[(٣)] عن مجاهد، وذهب إليه غيرُ واحد.

وفسَّره بعضُهم بما وقع للعبد في القِسمة الأَزليةِ الواقعةِ حسبَ استحقاقِه في العلم الأزليِّ، من قولهم: طار إليه سهمُ كذا، ومن ذلك: فطار لنا من القادمين عثمانُ بن مظعون[(٤)]، أي: أَلزمنا كلَّ إنسانٍ نصيبَه وسهمَه الذي قَسَمناه له في الأَزَل ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ تصويرٌ لشدَّة اللزومِ وكمالِ الارتباط، وعلى ذلك جاء قولُه: إنَّ لي حاجةً إليك، فقال: بين أُذني وعاتقي ما تريد.

وتخصيصُ العنقِ لظهور ما عليه مِن زائن كالقلائد والأَطواق، أو شائنٍ كالأَغلال والأَوهاق[(٥)]؛ ولأنَّه العضوُ الذي يبقى مكشوفاً يظهر ما عليه، ويُنسب إليه التقدُّم والشَّرف، ويعبَّر به عن الجملة وسيِّدِ القوم. فالمعنى: أَلزمناه غُلَّه بحيث لا يفارقه أبداً، بل يلزمه لزومَ القِلادة والغُلِّ لا ينفكُّ عنه بحال.

---

(١) ٣/ ١٥١.

(٢) ٦/ ١٥.

(٣) برقم (٢١٦١).

(٤) هذا كلام أم العلاء امرأة من الأنصار، قالته عند اقتسام الأنصار للمهاجرين، كما في صحيح البخاري (١٢٤٣).

(٥) الوَهَق: حبل يلقى في عنق الشخص يؤخذ به ويوثق، وأصله للدواب. المصباح المنير (وهق).

وأَخرج ابنُ مَردويه عن حذيفةَ بنِ أُسَيد: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ النُّطفة التي يُخلَق منها النسمةُ تطير في المرأة أربعين يوماً وأربعين ليلةً، فلا يبقَى منها شعرٌ ولا بَشَرٌ ولا عِرقٌ ولا عظم إلّا دخلته، حتى إنَّها لَتدخل بين الظُّفر واللحم، فإذا مضى أربعون ليلةً وأربعون يوماً، أَهبطها اللهُ تعالى إلى الرَّحم، فكانت علقةً أربعين يوماً وأربعين ليلةً، ثم تكون مُضغةً أربعين يوماً وأربعين ليلةً، فإذا تمَّت لها أربعةُ أشهر، بعث اللهُ تعالى إليها مَلَكَ الأرحام، فيخلق على يده لحمَها ودمَها وشعرَها وبَشَرَها، ثم يقول سبحانه: صوِّر، فيقول: يا ربِّ، أُصوِّر؟ أزائدٌ أم ناقص، أذَكَر أم أنثى، أجميلٌ أم ذميم، أَجَعد أم سِبط، أقصيرٌ أم طويل، أأبيضُ أم آدَم، أسويٌّ أم غيرُ سويٍّ؟ فيكتبُ من ذلك ما يأمر اللهُ تعالى به، ثم يقول: أيْ ربِّ، أشقيٌّ أم سعيد؟ فإن كان سعيداً، نَفَخَ فيه بالسَّعادة في آخر أجَلِه، وإنْ كان شقيًّا، نفخ فيه بالشَّقاوة في آخِر أجله، ثم يقول: اكتب أَثَرَها ورزقَها ومصيبتها وعملَها بالطَّاعة والمعصية، فيكتب من ذلك ما يأمره اللهُ تعالى، ثم يقول المَلَك: يا ربِّ، ما أَصنع بهذا الكتاب؟ فيقول سبحانه: علِّقْه في عنقه إلى قضائي عليه. فذلك قولُه تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾»[1].

ولا يخفَى أنَّ الظاهرَ من هذا الخبرِ أنَّ ذِكر العنقِ ليس للتصوير المذكور، وأنَّ الطائر عبارةٌ عن الكتاب الذي كُتب فيه ما كُتب.

وأَخرج ابنُ أبي شيبة وابنُ المنذر عن أنسٍ أنَّه فسَّره بذلك صريحاً[2]، وبابُ المجازِ واسعٌ، ونحن نؤمن بالحديث إذا صحَّ، ونفوِّض كيفيةَ ما دلَّ عليه إلى اللَّطيف الخبيرِ جلَّ جلالُه.

والظاهرُ منه أيضاً عدمُ تقييدِ الإنسان بالمكلَّف، ويؤيِّد ذلك ما أَخرجه أبو داودَ في كتاب «القدر»، وابن جَرير، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتمٍ عن مجاهدٍ أنَّه قال في الآية: ما من مولودٍ يولَد إلَّا وفي عنقه ورقةٌ مكتوبٌ فيها شقيٌّ أو سعيد[3]. وآخِر الآيةِ ظاهرٌ في التقييد.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٦٧.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٦٧، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٦٧.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٦٧، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٢٠.

وقرأ مجاهدٌ والحسنُ وأبو رجاءٍ: «طَيْرَه»[١]. وقُرِئ: «عُنْقِه» بسكون النون[٢].

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ والبعثِ للحساب ﴿كِتَٰبًا﴾ هي صحيفةُ عمله، ونَصْبه على أنَّه مفعولُ «نخرج»، وجوِّز أن يكون حالاً من مفعولٍ لـ «نخرج» محذوفٍ، وهو ضميرٌ عائد على الطَّائر، أي: نخرجه له حالَ كونِه كتاباً. ويعضُدُ ذلك قراءةُ يعقوبَ ومجاهدٍ وابنِ محيصن: «ويَخرُج»[٣] بالياء مبنيًّا للفاعل، من: خَرَجَ يَخرُج، ونصبِ «كتاباً» فإنَّ فاعله حينئذٍ ضميرُ الطائر، و«كتاباً» حالٌ منه، والأصلُ توافقُ القراءتين، وكذا قراءةُ أبي جعفر: «ويُخرَج»[٤] بالياء مبنيًّا للمفعول، من: أَخرج، ونصبِ «كتاباً» أيضاً.

ووجهُ كونها عاضدةً أنَّ في «يُخرَج» حينئذٍ ضميراً مستتراً هو ضميرُ الطائر، وقد كان مفعولاً، واحتمالُ أن يكونَ «له» نائبَ الفاعلِ فلا تعضد، لا يُلتفت إليه؛ لأنَّ إقامة غيرِ المفعولِ مع وجوده مُقامَ الفاعل ضعيفة، وليس ثَمَّة ما يكون «كتاباً» حالاً منه، فيتعيَّن ما ذُكر كما قاله ابنُ يعيش في «شرح المفصَّل».

وعنه أيضاً[٥] أنَّه قرأ: «يُخرَج» بالبناء للمفعول أيضاً ورفعِ «كتاب» على أنَّه نائبُ الفاعل. وقرأ الحسن: «يَخرُج»[٦] بالبناء للفاعل من الخروج، ورفع «كتاب» على الفاعليَّة، وقرأت فِرقة: «ويُخرِج»[٧] بالياء، من الإخراج مبنيًّا للفاعل، وهو ضميرُ اللهِ تعالى، وفيه التفاتٌ من التكلُّم إلى الغَيبة.

وأَخرج أبو عُبَيد وابنُ المنذر عن هارون قال: في قراءة أُبيِّ بن كعب: «وكلَّ إنسانٍ أَلزمناه طائرَه في عُنُقه يقرأه يومَ القيامةِ كتاباً»[٨].

﴿يَلْقَىٰهُ﴾ أي: يلقَى الإنسانَ، أو يلقاه الإنسانُ ﴿مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ غيرَ مطويٍّ؛

(١) البحر المحيط ٦/ ١٥، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص٧٥.
(٢) البحر ٦/ ١٥، والقراءات الشاذة ص٧٥.
(٣) البحر ٦/ ١٥، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٠٦.
(٤) النشر ٢/ ٣٠٦.
(٥) أي: عن أبي جعفر، كما في البحر ٦/ ١٥.
(٦) البحر ٦/ ١٥.
(٧) البحر ٦/ ١٥.
(٨) الدر المنثور ٤/ ١٦٨.

لتُمكِنَ قراءتُه. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ذلك أمرٌ مهيَّأٌ له غيرُ مغفولٍ عنه.

وجملةُ «يلقاه» صفةُ «كتاباً»، و«منشوراً» حالٌ من ضميره. وجوِّز أن يكونا صفَتين له، وفيه تقدُّمُ الوصفِ بالجملة على الوصف بالمفرَد، وهو خلافُ الظاهر.

وقرأ ابنُ عامر، وأبو جعفرٍ، والجحدريُّ، والحسنُ بخلاف عنه: «يُلَقَّاه»[(١)] بضمِّ الياءِ وفتح اللام وتشديدِ القاف، من لقَّيته كذا، أي: يلقَّى الإنسان إيَّاه.

وأَخرج ابن جَريرٍ عن الحسن أنَّه قال: يا ابنَ آدم، بُسطَت لك صحيفة، ووكِّل بك مَلَكان كريمان، أحدُهما عن يمينك والآخَرُ عن شِمالك، حتى إذا متَّ، طُويَت صحيفتُك فجُعلت في عُنُقك في قبرك، حتى تجيءَ يومَ القيامةِ فتخرج لك[(٢)].

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ بتقدير: يقالُ له ذلك، وهذه الجملةُ إمَّا صفةٌ أو حالٌ أو مستأنفة.

والظاهرُ أنَّ جملة قولِه تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ من جملة مقولِ القولِ المقدَّر، و«كفى» فعلٌ ماض، و«بنفسك» فاعلُه، والباءُ سيفُ خطيب، وجاء إسقاطها ورفعُ الاسم، كما في قوله[(٣)]:

كفى الشَّيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا

وقولِه[(٤)]:

ويُخبرني عن غائب المرءِ هَدْيُهُ ... كفى الهَدْيُ عمَّا غيَّبَ المرءُ مُخبِرا

ولم تلحق الفعلَ علامةُ التأنيثِ وإن كان مثله تَلحقه، كقوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ﴾ [الأنبياء: ٦]، ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ﴾ [الأنعام: ٤] قيل: لأنَّ الفاعلَ مؤنَّث مجازيٌّ. ولا يَشفي الغَليل؛ لأنَّ فاعلَ ما ذُكر من الأفعال مؤنَّث مجازيٌّ مجرورٌ بحرف زائدٍ أيضاً، وقد لحق فِعْلَه علامةُ التأنيث، وغايةُ الأمرِ في مثل ذلك

---

(١) البحر ٦/ ١٥، وقراءة ابن عامر في التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٦، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٠٦.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٦٨، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٢٣-٥٢٤.

(٣) قائله سحيم عبد بني الحسحاس كما في البيان والتبيين ١/ ٧١، والخزانة ١/ ٢٦٧. وصدره:
عُميرةَ ودِّع إن تجهزتَ غاديا

(٤) قائله زيادة بن زياد كما في البيان والتبيين ٣/ ٢٤٤، واللسان (هدي)، والخزانة ١١/ ١٧٤.

جوازُ الإلحاق وعدمُه، ولم يُحفَظ ـ كما في «البحر»[(١)] ـ الإلحاقُ في كفى إذا كان الفاعلُ مؤنَّثاً مجروراً بالباء الزائدة، ومن هنا قيل: إنَّ فاعلَ كفى ضميرٌ يعود على الاكتفاء، أي: كفَى هو، أي: الاكتفاءُ بنفسك. وقيل: هو اسمُ فعلٍ بمعنى: اكتفِ، والفاعلُ ضميرُ المخاطَب، والباءُ على القولَين ليست بزائدة، ومَرضيُّ الجمهورِ ما قدَّمناه، والتزامُ التذكيرِ عندهم على خلاف القياس.

ووجَّه بعضُهم ذلك بكثرة جرِّ الفاعلِ بالباءِ الزائدة، حتى إنَّ إسقاطها منه لا يوجد إلَّا في أمثلةٍ معدودة، فانحطَّت رتبتُه عن رتبة الفاعِلِين، فلم يؤنَّث الفعلُ له، وهذا نحوُ ما قيل في: مرَّ بهند. وقيل غيرُ ذلك.

و«اليوم» ظرفٌ لـ «كفى»، و«حسيباً» تمييزٌ، كقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وقولِهم: للهِ تعالى درُّه فارساً. وقيل: حالٌ، و«عليك» متعلِّق به، قدِّم لرعاية الفواصل، وعدِّي بـ «على» لأنَّه بمعنى الحاسبِ والعادِّ، وهو يتعدَّى بعلى، كما تقول: عدَّد عليه قبائحَه. وجاء فعيلٌ الصفةُ من: فَعَلَ يَفعِل، بكسر العين في المضارع، كالصَّريم بمعنى الصارم، وضَريب القِداح بمعنى ضاربها، إلَّا أنَّه قليل.

أو بمعنى الكافي، فتجوِّز به عن معنى الشهيد؛ لأنَّه يكفي المدَّعي ما أهمَّه، فعدِّي بـ «على» كما يعدَّى الشهيد.

وقيل: هو بمعنى الكافي مِن غير تجوُّز، لكنه عُدِّي تعديةَ الشهيد لِلُزوم معناه له، كما في: أسدٌ عليّ، وهو تكلُّف بارد.

وتذكيرُه وهو فعيلٌ بمعنى فاعلٍ وصف للنفس المؤنَّثة معنًى؛ لأنَّ الحسابَ والشهادةَ ممَّا يغلب في الرجال، فأُجري ذلك على أغلبِ أحواله، فكأنَّه قيل: كفى بنفسك رجلاً حسيباً، أو لأنَّ النفس مؤوَّلة بالشخص، كما يقال: ثلاثة أنفُس، أو لأنَّ فعيل المذكورَ محمولٌ على فعيل بمعنى فاعل.

والظاهر أنَّ المرادَ بالنفس الذاتُ، فكأنَّه قيل: كفى بك حسيباً عليك. وجعل بعضُهم في ذلك تجريداً، فقيل: إنَّه غلطٌ فاحشٌ. وتعقِّب بأنَّ فيه بحثاً، فإنَّ الشاهدَ

(١) ٦/١٦.

يغاير المشهود عليه، فإن اعتُبر كون الشخص في تلك الحال كأنه شخصٌ آخَر، كان تجريداً، لكنه لا يتعلّق به غرضٌ هنا.

وعن مقاتل أنَّ المرادَ بالنفس الجوارحُ، فإنَّها تشهد على العبد إذا أنكر. وهو خلافُ الظاهر.

وعن الحسن أنَّه كان إذا قرأ الآية قال: يا ابنَ آدم، أَنصفكَ واللهِ مَن جعلك حسيبَ نفسِك. والظاهرُ أنَّه يقال ذلك للمؤمن والكافر. وما أَخرجه ابنُ أبي حاتم عن السُّدِّي من أنَّ الكافر يُخرَج له يومَ القيامةِ كتاب، فيقول: ربِّ إنك قضيتَ أنَّك لست بظلَّام للعبيد، فاجعلني أُحاسب نفسي، فيقال له: «اقرأ كتابك كفى بنفسك» الآية، لا يدلُّ على أنَّه خاصٌّ بالكافر كما لا يخفَى. ويَقرأ في ذلك اليومِ ـ كما رُوي عن قتادة ـ مَن لم يكن قارئاً في الدُّنيا.

وجاء أنَّ المؤمنَ يقرأ أوَّلاً سيئاتِه، وحسناتُه في ظهر كتابه يراها أهلُ الموقفِ ولا يراها هو، فيَغبِطونه عليها، فإذا استوفى قراءةَ السيئاتِ وظنَّ أنَّه قد هلك، رأى في آخرها: هذه سيئاتُك قد غفرناها لك، فيتبلَّج وجهُه ويَعظُم سرورُه، ثم يقرأ حسناتِه فيزداد نوراً، وينقلب إلى أهله مسروراً، ويقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۞ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠]. وأما الكافرُ، فيقرأ أوَّلاً حسناتِه، وسيئاتُه في ظهر كتابه يراها أهلُ الموقفِ فيتعوَّذون من ذلك، فإذا استوفى قراءةَ الحسنات، وجد في آخِرها: هذه حسناتُك قد رددناها عليك، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] فيسودُّ وجهُه، ويَعظُم كَربُه، ثم يقرأ سيئاتِه فيزداد بلاءً على بلاء، وينقلب بمزيد خيبةٍ وشقاء، ويقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٦] جعَلَنا اللهُ تعالى ممَّن يقرأ فيَرْقَى، لا ممَّن يقرأ فيشقَى، بمنِّه وكرمه.

هذا وفسَّر بعضُهم الكتابَ بالنَّفس المنتقشةِ بآثار الأعمال، ونشرَه وقراءتَه بظهور ذلك له ولغيره. وبيانُه: أنَّ ما يصدر عن الإنسان خيراً أو شرًّا يحصل منه في الرُّوح أثرٌ مخصوص، وهو خفيٌّ ما دامت متعلِّقةً بالبدن، مشتغلةً بواردات الحواسِّ والقُوى، فإذا انقطعت علاقتُها قامت قيامتُه؛ لانكشاف الغطاءِ باتِّصالها بالعالَم العلويّ، فيظهر في لوح النفسِ نقشُ أثرِ كلِّ ما عمله في عمره، وهو معنى الكتابةِ والقراءة.

ولا يخفَى أنَّ هذا منزعٌ صوفيٌّ حِكميٌّ، بعيدٌ من الظهور، قريبٌ من البطون، وفيه حملُ القيامةِ على القيامة الصُّغرى، وهو خلافُ الظاهر أيضاً، والرواياتُ ناطقةٌ بما يُفهم من ظاهر الآية، نَعَم ليس فيها نفيُ انتقاش النفْس بآثار الأعمال وظهورِ ذلك يومَ القيامة، فلا مانعَ من القول بالأمرَين. ومن هنا قال الإمامُ[1]: إنَّ الحق أنَّ الأحوال الظاهرةَ التي وردت فيها الرواياتُ حقٌّ وصدق لا مِريةَ فيها، واحتمالُ الآيةِ لهذه المعاني الروحانيةِ ظاهرٌ أيضاً، والمنهجُ القويم والصِّراطُ المستقيم هو الإقرارُ بالكلِّ. ونِعمَ ما قال، غيرَ أنَّ كونَ ذلك الاحتمالِ ظاهراً غيرُ ظاهر.

وقال الخَفَاجي[2]: ليس في هذا ما يخالف النقلَ، وقد حُمل عليه ما رُوي عن قتادةَ من أنَّه يقرأ في ذلك اليومِ مَن لم يكن قارئاً، ولا وجهَ لعدِّه مؤيِّداً له. وأنت تعلم أنَّ حملَ كلامِ قتادةَ على ذلك تأويلٌ له أيضاً، ولعل قتادةَ وأمثاله من سلف الأمَّة لا يخطرُ لهم أمثالُ هذه التأويلاتِ ببال، والكلام العربيُّ كالجمل الأنوف، والله تعالى أعلمُ بحقائق الأمور.

وفي كيفية النَّظمِ ثلاثةُ أوجهٍ ذكرها الإمام[3]:

الأوَّل: أنَّه تعالى لمَّا قال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ تضمَّن أنَّ كلَّ ما يُحتاج إليه من دلائل التوحيدِ والنبوَّة والمعادِ قد صار مذكوراً، وإذا كان كذلك فقد أُزيحت الأعذارُ وأُزيلت العِلل، فلا جَرَمَ كلُّ مَن ورد عَرْصةَ القيامة فقد أَلزمناه طائرَه في عُنُقه.

الثاني: أنَّه تعالى لمَّا بين أنَّه سبحانه أَوصل إلى الخلق أصنافَ الأشياءِ النافعةِ لهم في الدِّين والدنيا، مثل آيتي الليلِ والنهار وغيرِهما، كان مُنعِماً عليهم بوجوه النِّعم، وذلك يقتضي وجوبَ اشتغالِهم بخدمته تعالى وطاعتِه، فلا جَرَمَ كلُّ مَن ورد عَرْصَةَ القيامةِ يكون مسؤولاً عن أقواله وأعمالِه.

---

(١) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٧١.
(٢) في حاشيته ٦/ ١٦.
(٣) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٦٦-١٦٧.

الثالث: أنَّه تعالى بيَّن أنه ما خلق الخلقَ إلَّا لعبادته، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فلمَّا شرحَ أحوالَ الشمسِ والقمرِ والنهارِ والليلِ، كان [المعنى][1]: إنَّما خلقتُ هذه الأشياءَ لتنتفعوا بها فتصيروا متمكِّنين من الاشتغال بطاعتي، وإذا كان كذلك، فكلُّ مَن ورد عرصةَ القيامة سألته: هل أتى بتلك الطاعةِ أو تمرَّد وعصى. اهـ.

وقد يقال: وجهُ الربطِ أنَّ فيما تقدَّم شرحَ حالِ كتابِ الله تعالى المتضمِّنِ بيانَ النافعِ والضارِّ من الأعمال، وفي هذا شرحُ حالِ كتاب العبدِ الذي لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً من تلك الأعمالِ إلَّا أحصاها، وحسنُه وقبحُه تابعٌ للأخذ بما في الكتاب الأوَّل وعدمِه، فمَن أخذ به فقد هُدي، ومَن أعرضَ عنه فقد غَوَى.

وقولُه تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ فذلكةٌ لما تقدَّم من كون القرآنِ هادياً للتي هي أقوم، وللزوم الأعمالِ لأصحابها. أي: اهتدى بهدايته، وعمل بما في تضاعيفه من الأحكام، وانتهى عمَّا نهاه عنه، فإنَّما تعود منفعةُ الاهتداءِ به إلى نفسهِ، لا تتخطَّاه إلى غيره ممَّن لم يهتدِ.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عمَّا يهديه إليه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فإنَّما وبالُ ضلالِه عليها، لا على مَن لم يباشره. حتى يُمكِنَ مفارقةُ العملِ صاحبَه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تأكيدٌ للجملة الثانية، أي: لا تحمل نفسٌ حاملةٌ للوزر وزرَ نفسٍ أخرى حتى يمكنَ تخلُّصُ النفسِ الثانيةِ عن وزرها ويختلَّ ما بين العاملِ وعملِه من التلازم. وخُصَّ التأكيدُ بالجملة الثانيةِ قطعاً للأطماع الفارغة، حيث كانوا يزعمون أنَّهم إنْ لم يكونوا على الحقِّ فالتَّبِعةُ على أسلافهم الذين قلَّدوهم.

ورُوي عن ابن عباسٍ أنَّها نزلت في الوليد بنِ المغيرة لمَّا قال: اكفروا بمحمدٍ وعليَّ أوزارُكم.

ولا ينافي هذه الآيةَ ما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥] وقولُه تعالى:

(١) زيادة من التفسير الكبير.

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] مِن حَمل الغيرِ وزرَ الغيرِ وانتفاعِه بحسنته وتضرُّرِه بسيئته؛ لأنَّه في الحقيقة انتفاعٌ بحسنة نفسِه وتضرُّرٌ بسيئته، فإنَّ جزاءَ الحسنة والسيئةِ اللَّتين يعملهما العاملُ لازمٌ له، وإنَّما يصل إلى مَن يشفع جزاءُ شفاعته، لا جزاءُ أصلِ الحسنةِ والسيئة، وكذلك جزاءُ الضَّلال مقصورٌ على الضالِّين، وما يحمله المضِلُّون إنَّما هو جزاءُ الإِضلال لا جزاءُ الضلال. قاله شيخُ الإِسلام(١).

ولهذه الآيةِ طعنت عائشةُ رضي الله عنها في صحَّة خبرِ ابن عمرَ رضي الله عنهما أنَّه ﷺ قال: «إنَّ الميِّت يعذَّب ببكاءِ أهلِه عليه»(٢)، فإنَّ فيه أَخذَ الإِنسان بجُرم غيرِه، وهو خلافُ ما نطقت به الآية.

وأُجيب بأنَّ الحديث محمولٌ على ما إذا أَوصى الميِّتُ بذلك، فيكونُ ذلك التعذيبُ من قبيل جزاءِ الإِضلال. وقيل: المرادُ بالميِّت المحتضرُ مجازاً، وبالتعذيب التعذيبُ في الدنيا، أي: إنَّ المحتضر يتألَّم ببكاء أهلِه عليه، فلا ينبغي أنْ يبكوا.

ولها أيضاً مَنَعَ جماعةٌ من قدماء الفقهاءِ صرفَ الدِّية على العاقلة؛ لما فيه من مؤاخذة الإِنسان بفعل غيرِه.

وأُجيب بأنَّ ذلك تكليفٌ واقعٌ على سبيل الابتداءِ، وإلَّا فالمخطئُ نفسُه ليس بمؤاخَذٍ على ذلك الفعل، فكيف يؤاخَذ غيرُه عليه؟

واستدلَّ بها الجبائيُّ على أنَّ أطفالَ المشركين لا يعذَّبون، وإلَّا كانوا مؤاخذين بذنب آبائهم، وهو خلافُ ظاهرِ الآية. وزعم بعضُهم أنَّها نزلت فيهم، وليس بصحيح، نَعَم أخرج ابنُ عبد البرِّ في «التمهيد»(٣) بسند ضعيفٍ عن عائشةَ قالت: سألتْ خديجةُ رسولَ اللهِ ﷺ عن أَولاد المشركين، فقال: «هم مِن آبائهم» ثم سأَلَتْه بعدَ ذلك، فقال: «اللهُ تعالى أعلمُ بما كانوا عاملين» ثم سأَلَته بعدما استحكم

---

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٦٢.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٨).

(٣) ١٨/ ١١٧.

الإِسلامُ، فنزلت: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فقال: «هُم على الفِطرة» أو قال: «في الجنة».

والمسألةُ خلافية، وفيها مذاهبُ، فقال الأكثرون: هم في النَّار تَبَعاً لآبائهم، واستُدلَّ لذلك بما أَخرجه الحكيمُ الترمذيُّ في «نوادر الأُصول»[١] عن عائشةَ أيضاً قالت: سألتُ النبيَّ ﷺ عن وِلدان المسلمين: أين هم؟ قال: «في الجنَّة» وسألته عن وِلدان المشركين: أين هم؟ قال: «في النار» قلت: يا رسولَ الله، لم يُدركوا الأعمال، ولم تَجرِ عليهم الأَقلام؟! قال: «ربُّكِ أعلمُ بما كانوا عاملين، والذي نفسي بيده إنْ شئتِ أَسمعتُكِ تضاغيَهم في النَّار» وفيه أنَّ هذا الخبرَ قد ضعَّفه ابنُ عبد البرِّ[٢]، فلا يُحتجُّ به، نعم صحَّ أنَّه ﷺ سئل عن أَولاد المشركين، فقال: «اللهُ تعالى أعلمُ بما كانوا عاملين»[٣] وليس فيه تصريحٌ بأنَّهم في النار، وحقيقةُ لفظِه: الله تعالى أعلمُ بما كانوا عاملين لو بلغوا. ولم يبلغوا، والتكليفُ لا يكون إلَّا بالبلوغ.

وأَخرج الشيخانِ وأصحابُ السُّنن[٤] وغيرُهم عن ابن عباسٍ قال: حدَّثني الصعبُ بنُ جثَّامة: قلت: يا رسولَ اللهِ، إنَّا نُصيب في البَيَات مِن ذَراري المشركين، قال: «هم منهم». وهو عند المخالفين محمولٌ على أنَّهم منهم في الأحكام الدُّنيوية، كالاسترقاق.

وتوقَّفت طائفةٌ فيهم، ومن هؤلاء أبو حنيفةَ رضي الله عنه.

وقيل: فيهم مَن يدخل الجنةَ ومَن يدخل النَّار، لِمَا أَخرج الحكيمُ الترمذيُّ في «النَّوادر»[٥] عن عبد اللهِ بن شدَّاد: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أتاه رجلٌ فسأله عن ذَراري المشركينَ الذين هلكوا صغاراً، فوضع رأسَه ساعةً ثم قال: «أين السائل»؟ فقال:

(١) ص٨٧.
(٢) في التمهيد ١٨/ ١٢٢.
(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٣) و(١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩) و(٢٦٦٠) من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم.
(٤) صحيح البخاري (٣٠١٢)، وصحيح مسلم (١٧٤٥)، وسنن أبي داود (٢٦٧٢)، والترمذي (١٥٧٠)، والسنن الكبرى للنسائي (٨٥٦٨)، وابن ماجه (٢٨٣٩).
(٥) ص٨٨.

ها أنذا يا رسولَ الله، فقال: «إنَّ اللهَ تبارك وتعالى إذا قضى بين أهل الجنَّة والنارِ ولم يبقَ غيرُهم، عجُّوا فقالوا: اللهمَّ ربَّنا لم تأتنا رسلُك، ولم نَعلم شيئاً، فأرسل إليهم مَلَكاً، واللهُ تعالى أعلمُ بما كانوا عاملين، فقال: إني رسولُ ربِّكم إليكم فانطلِقوا، فاتَّبعوا حتى أتَوا النارَ، فقال: إنَّ الله تعالى يأمركم أنْ تقتحموا فيها، فاقتحمت طائفةٌ منهم، ثم خرجوا من حيث لا يَشعر أصحابُهم، فجُعلوا في السابقين المقرَّبين، ثم جاءهم الرسولُ فقال: إنَّ الله تعالى يأمركم أنْ تقتحموا في النَّار، فاقتحمت طائفةٌ أخرى، ثم أُخرجوا من حيث لا يشعرون، فجُعلوا في أصحاب اليمين، ثم جاء الرسولُ فقال: إنَّ الله تعالى يأمركم أنْ تقتحموا في النَّار، فقالوا: ربَّنا لا طاقَة لنا بعذابك، فأَمر بهم، فجُمعت نواصيهم وأقدامُهم ثم أُلقوا في النَّار».

وذهب المحقِّقون إلى أنَّهم من أهل الجنَّة، وهو الصَّحيح، ويُستدلُّ له بأشياءَ، منها الآيةُ على ما سمعتَ عن الجبَّائي.

ومنها حديثُ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام حين رآه النبيُّ ﷺ في الجنَّة وحولَه أولادُ الناس، قالوا: يا رسولَ الله، وأولادُ المشركين؟ قال: «وأولادُ المشركين» رواه البخاريُّ في «صحيحه»[(١)].

ومنها ما أَخرجه الحكيمُ الترمذيُّ أيضاً في «النَّوادر»[(٢)]، وابنُ عبد البرِّ[(٣)] عن أنسٍ قال: سألنا رسولَ الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «هم خدَّام أهلِ الجنة».

ومنها الآيةُ الآتيةُ حيث أَفادت أنْ لا تعذيبَ قبل التكليف، ولا يتوجَّه على المولود التكليفُ ويَلزمُه قولُ الرسولِ عليه الصَّلاة والسلام حتى يَبلغ.

ولم يخالف أحدٌ في أنَّ أولادَ المسلمين في الجنة، إلَّا بعض مَن لا يُعتدُّ به، فإنَّه توقَّف فيهم؛ لحديث عائشة[(٤)]: توفِّي صبيٌّ من الأنصار، فقلت: طوبَى له،

---

(١) برقم (٧٠٤٧).

(٢) ص٨٨.

(٣) في التمهيد ١٨/ ١١٨.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٢).

عُصفورٌ من عصافير الجنة، لم يعمل السوءَ ولم يُدرِكه، فقال ﷺ: «أَوَغيرَ ذلك يا عائشة، إنَّ اللهَ تعالى خلق للجنَّة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنَّار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلابِ آبائهم».

وأجاب العلماءُ عنه بأنَّه لعلَّه عليه الصلاة والسلام نهاها عن المسارعة إلى القَطع من غيرِ أن يكونَ لها دليلٌ قاطع، كما أَنكر على سعد بن أبي وقَّاص في قوله: أَعطِه إني لَأراه مؤمناً، قال: «أَوْ مسلماً. . .» الحديث[1]. ويحتمل أنَّه ﷺ قال ذلك قبل أنْ يعلمَ أنَّ أطفال المسلمين في الجنَّة، فلمَّا عَلِمَ قال ذلك في قوله ﷺ: «ما مِن مسلم يموت له ثلاثةٌ من الولد لم يَبلغوا الحِنث، إلَّا أدخله اللهُ تعالى الجنةَ بفضله ورحمتِه إيَّاهم»[2] إلى غيرِ ذلك من الأحاديث.

وقال القاضي: دلَّت الآيةُ على أنَّ الوِزر ليس مِن فعله تعالى؛ لأنَّه لو كان كذلك، لامتنع أن يؤاخَذَ العبدُ به، كما لا يؤاخَذ بوِزر غيرِه، ولأنَّه كان يجب ارتفاعُ الوزرِ أصلاً، لأنَّ الوازرَ إنَّما يوصَف بذلك إذا كان مختاراً يمكنه التحرُّز؛ ولهذا المعنى لا يوصَف الصبيُّ بذلك. وأنت تعلم أنَّ هذا إنَّما ينتهض على الجبرية، لا على الجماعةِ القائلين: لا جبرَ ولا تفويض.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ بيانٌ للعناية الربَّانية إثرَ بيانِ اختصاصِ آثارِ الهداية والضَّلال بأصحابها، وعدمِ حرمان المهتدي من ثَمَرات هدايته، وعدم مؤاخذةِ النَّفس بجناية غيرِها، أي: وما صحَّ وما استقام منَّا بل استحال في سُنَّتنا المَبنيَّةِ على الحِكَم البالغة، أو: ما كان في حكمنا الماضي وقضائنا السابقِ أن نعذِّبَ أحداً بنوعٍ ما من العذاب، دنيويًّا كان أو أخرويًّا، على فعل شيءٍ أو تركِ شيء، أصليًّا كان أَو فرعيًّا ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ﴾ إليه ﴿رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ يَهدي إلى الحقِّ ويَردع عن الضَّلال ويُقيم الحُجَجَ ويمهِّد الشرائع، أو: حتى نبعثَ رسولاً كذلك تَبلغه دعوتُه، سواءٌ كان مبعوثاً إليهِ أم لا، على ما ستعلمه إنْ شاءَ اللهُ تعالى من الخلاف.

وهذا غايةٌ لعدم صحَّةِ وقوعِ العذابِ في وقته المقدَّر له، لا لعدم وقوعِه مطلقاً،

(١) أخرجه البخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠) من حديثه رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (١٢٤٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

كيف والأُخرويُّ لا يمكن وقوعُه عقيبَ البعث، والدنيويُّ لا يحصل إلَّا بعد تحقُّق ما يوجِبه من الفِسق والعصيان؟ ألا يرى إلى قومِ نوحٍ عليه السلام كيف تأخَّر عنهم ما حلَّ بهم زهاءَ ألفِ سَنَة؟

وألزم المعتزلةُ القائلون بالوجوب العقليِّ قبل البعثةِ بهذه الآية؛ لأنَّه تعالى نفَى فيها التعذيبَ مطلقاً قبل البعثة، وهو من لوازم الوجوبِ بشرط تركِ الواجبِ عندهم، إذ لا يجوِّزون العفوَ، فينتفي الوجوبُ قبل البعثةِ لانتفاء لازمِه، ومحصولُه أنَّه لو كان وجوبٌ عقليٌّ لَثبت قبلَ البعثة، ولا شبهةَ في أنَّ العقلاءَ كانوا يتركون الواجباتِ حينئذ، فيَلزم أن يكونوا معذَّبين قبلها، وهو باطلٌ بالآية.

وتعقِّب بأنه إنَّما يتمُّ إذا أُريد بالعذاب ما يشمل الدنيويَّ والأخرويَّ كما أُشير إليه، لكن المناسب لِما بعدُ أن يرادَ عذابُ الاستئصالِ في الدنيا، ولا يَلزم من انتفاء العذابِ الدنيويِّ قبل البعثِ انتفاءُ الوجوب؛ لأنَّ لازم الوجوبِ عندهم هو العذابُ الأخرويّ.

وأُجيب بعد تسليمِ أنَّ المناسب لما بعدُ أن يرادَ العذابُ الدنيويُّ: بأنَّ الآية لمَّا دلَّت على أنَّه لا يليقُ بحكمته إيصالُ العذابِ الأدنَى على تركِ الواجبِ قبل التنبيهِ ببعثة الرسول، فدلالتُها على عدم إيصالِ العذابِ الأكبرِ على تركه قبلَ ذلك أولى.

وأورد الأصفهانيُّ[1] في شرح «المحصول» على مَن استدلَّ بالآية على نفي الوجوبِ العقليِّ قبل البعثةِ أموراً: الأوَّل: أنَّ المراد بالرَّسول فيها العقل. الثاني: أنَّا سلَّمنا أنَّ المراد النبيُّ المرسَل، لكن الآيةَ دلَّت على نفي تعذيبِ المباشرةِ قبل البعثة، ولا يَلزمُ منه نفيُ مطلقِ التعذيب. الثالث: أنَّا سلَّمنا ذلك، لكن ليس في الآية دلالةٌ على نفي التعذيبِ قبلها عن كلِّ الذنوب. الرابع: أنا سلَّمنا الدلالةَ، لكن لا يلزمُ من نفي المؤاخذةِ انتفاءُ الاستحقاق؛ لجواز سقوطِ المؤاخذةِ بالمغفرة.

ثمَّ أجاب عن الأوَّل بأنَّ حقيقة الرسولِ هو النبيُّ المرسَل، والأصلُ في الكلام الحقيقةُ. وعن الثاني بأنَّ مِن شأن عظيمِ القَدْر التعبيرُ عن نفي التعذيبِ مطلقاً بنفي

---

(١) هو شمس الدين محمد بن محمود الأصفهاني المتوفى سنة (٦٧٨هـ). وشرحه على كتاب المحصول حافل، ومات ولم يكمله، ذكره السبكي. كشف الظنون ٢/ ١٦١٥.

المباشرة. وعن الثالث بما أشرنا إليه من أنَّ تقديرَ الكلام: وما كنَّا معذِّبين أحداً، ويَلزم من ذلك انتفاءُ تعذيبِ كلِّ واحدٍ من الناس، وذلك هو المطلوبُ؛ لأنَّ الخصمَ لا يقول به. وعن الرابع بأنَّ الآية تدلُّ على انتفاء التعذيبِ قبلَ البعثة، وانتفاؤه قبلَها ظاهراً يدلُّ على عدم الوجوبِ قبلها، فمَن ادَّعى أنَّ الوجوب ثابتٌ وقد وقع التجاوزُ بالمغفرة فعليه البيانُ. اهـ.

وأنت تعلم أنَّه إذا كان الاستدلالُ إلزاميًّا كما قال به غيرُ واحد، لا يَرِد الأمرُ الرابع أصلاً؛ لأنَّ المعتزلة لا يجوِّزون العفوَ عن تارك الواجبِ العقليِّ، وقد أَشرنا إلى ذلك، نَعَم قال المراغيُّ في شرح «منهاج الأُصول» للقاضي: لا حاجةَ إلى جعل الدليلِ إلزاميًّا بل يجوز إتمامُه على تقدير جوازِ العفوِ أيضاً بأن يقالَ: وقوعُ العذابِ وإنْ لم يكن لازماً للوجوب، لكن عدمَ الأمنِ من وقوعه لازمٌ له ضرورةً؛ إذ يجوز العقابُ على ترك الواجبِ عندنا وإنْ لم يجب، وهذا اللازمُ، أعني عدمَ الأمنِ، منتفٍ؛ لدلالة الآيةِ على عدم وقوعِه، فينتفي الملزوم.

ورُدَّ ذلك أوَّلاً: بمنعِ أنَّ عدمَ الأمنِ من وقوع العذابِ من لوازم تركِ الواجبِ مطلقاً، بل عدمُ الأمن إذا لم يتيقَّن عدمُ وقوعِ العذاب بدليلٍ آخَر.

وأمَّا ثانياً: فبأنَّ انتفاءَ عدمِ الأمن إنَّما هو بالآية؛ إذ قبلَ ورودِها كان العقابُ جائزاً، ولا شكَّ أنَّ انتفاءه بها انتفاءٌ بالعفو؛ لأنَّ معنى العفوِ عدمُ العقاب، والآيةُ تدلُّ عليه، فلم يتمَّ الدليلُ على تقدير جوازِ العفو. وهو كما ترى.

وقيل: نجعل اللازمَ جوازَ العقاب، فيتمُّ الدليل تحقيقاً؛ لأنَّ جواز العفوِ لا ينافي جوازَ العقاب.

وردَّ بأنَّ الملازمةَ القائلةَ بأنَّه لو كان الوجوبُ ثابتاً قبل الشرعِ لَعذِّب تاركُ الواجب وإن كانت مسلَّمة حينئذ، لكنَّ بطلانَ التالي ممنوعٌ؛ لأنَّ الآية إنَّما تدلُّ على نفي وقوعِ العذابِ لا على نفي جوازِه.

وفيه أنَّ معنى: «ما كنَّا معذِّبين» ما سمعتَ، وهو يدلُّ على نفي الجواز. وقد كثر استعمالُ هذا التركيبِ في ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٩]

«وما كنا لاعبين»(١) إلى غير ذلك، ولو أُريد نفيُ الوقوعِ لَقيل: وما نعذِّب حتى نبعث رسولاً.

وضعَّف الإمامُ(٢) الاستدلالَ بالآية بأنَّه لو لم يَثبت الوجوبُ العقليُّ لم يثبت الوجوبُ الشرعيُّ البتَّة، وهذا باطلٌ، فذاك باطل، قال: بيانُ الملازمةِ من وجوه:

أحدها: أنَّه إذا جاءَ الشارعُ وادَّعى كونَه نبيًّا من عند اللهِ تعالى وأَظهرَ المعجزة، فهل يجبُ على المستمع استماعُ قولِه والتأمُّلُ في معجزته أَو لا يجب؟ فإنْ لم يجب، فقد بطل القولُ بالنبوَّة، وإن وجب، فإمَّا أن يجبَ بالشَّرع أو بالعقل، فإن وجب بالعقل فقد ثبت الوجوبُ العقليُّ، وإنْ وجب بالشَّرع فهو باطلٌ؛ لأنَّ ذلك الشارعَ إمَّا أن يكونَ هو ذلك المدَّعي أو غيرَه، والأوَّل باطل؛ لأنَّه يرجع حاصلُ الكلامِ إلى أن يقولَ ذلك الرجل: الدليل على أنَّه يجب قَبولُ قولي أنِّي أَقول: يجب قبولُ قولي. وهذا إثباتٌ للشيء بنفسه. وإنْ كان غيره، كان الكلامُ فيه كما في الأوَّل، ولزم إمَّا الدَّور أو التسلسلُ، وهما محالان.

وثانيها: أنَّ الشرع إذا جاء وأَوجبَ بعضَ الأفعالِ وحرَّم بعضَها، فلا معنى للإيجاب والتحريم إلَّا أن يقول: لو تركتَ كذا أو فعلتَ كذا لَعاقبتُك، فنقول: إمَّا أن يجبَ عليه الاحترازُ عن العقاب أَو لا يجب، فإن لم يجب، لم يتقرَّر معنى الوجوبِ البتَّةَ، وإنْ وجب، فإمَّا أن يجبَ بالعقل أو بالسَّمع، فإنْ وجب بالعقل فهو المقصودُ، وإنْ وجب بالسَّمع، لم يتقرَّر معنى الوجوبِ إلَّا بسبب ترتيبِ العقابِ عليه، وحينئذٍ يعود التقسيمُ الأولُ ويلزم التسلسلُ، وهو محال.

وثالثها: أنَّ مذهب أهلِ السُّنة أنَّه يجوز من الله تعالى العفوُ عن العقاب على تركِ الواجب، وإذا كان كذلك، كانت ماهيَّةُ الوجوبِ حاصلةً مع عدم العقاب، فلم يبقَ إلَّا أن يقالَ: إنَّ ماهيةَ الوجوبِ إنما تتقرَّر بسبب حصولِ الخوفِ من العقاب، وهذا الخوفُ حاصلٌ بمحض العقل، فثبت أنَّ ماهيةَ الوجوبِ إنَّما تحصلُ بسبب

---

(١) لا توجد آية بهذا اللفظ، وإنما جاء في سورة الأنبياء [١٦]: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾.

(٢) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٧٢-١٧٣.

هذا الخوف، وأنَّ هذا الخوفَ حاصلٌ بمجرَّد العقل، فلزم أنْ يقال: الوجوبُ حاصلٌ بمجرَّد العقل، فإنْ قالوا: ماهيةُ الوجوبِ إنَّما تتقرَّر بسبب حصولِ الذَّمّ، قلنا: إنَّه تعالى إذا عفا فقد سقط الذَّمّ، فعلى هذا ماهيةُ الوجوبِ إنَّما تتقرَّر بسبب حصولِ الخوفِ من الذمِّ، وذلك حاصلٌ بمحضِ العقل، فثبت بهذه الوجوهِ أنَّ الوجوب العقليَّ لا يمكن دفعُه.اهـ.

وتعقَّبه العباديُّ بأنه يمكنُ الجوابُ عن الأوَّل بأنَّه إذا أَظهر المعجزةَ على دعواه أنَّه رسول، ثبت صدقُه كما تقرَّر في محلِّه، فيجب قبولُ قولِه في كلِّ ما يُخبر به عن الله تعالى، من غير لزومِ محذورٍ من إثبات الشيءِ بنفسه أو الدَّورِ أو التسلسل، وإنْ كان ثبوتُ ما أَخبر به بالشَّرع، بمعنى أنَّ ثبوته بإخبار مَن ثبتت رسالتُه بالمعجزة عن الله تعالى بذلك، وليس حاصلُ الكلامِ على هذا أنَّه يقول: الدليلُ على أنَّه يجب قبولُ قولي أنِّي أقول: يجب [قبولُ][1] قولي، حتى يلزمَ ما يلزمُ، بل حاصلُه أنَّه يقول: يجب قبولُ قولي لأنَّه ثبت أنِّي رسولُ اللهِ تعالى، فيجبُ صدقي وتصديقي في كلِّ ما أدَّعيه. وليس في هذا شيءٌ من المحاذير السَّابقة.

وقد صرَّح السيدُ السندُ في شرح «المواقف»[2] بأنَّه يَثبت الشرعُ وتجب المتابعةُ بمجرَّد دعوى الرسالةِ مع اقتران المعجزةِ وتمكُّنِ المبعوث إليه العاقلِ من النَّظر وإنْ لم ينظر، وذَكَرَ أنه حينئذٍ لا يجوز للمكلَّف الاستمهال، ولو استَمهلَ لم يجب الإِمهال؛ لجريان العادةِ بإيجاب[3] العلمِ عقيبَ النظرِ الذي هو متمكِّن منه.

فعُلم أنَّه بمجرَّد دعوى الرسالةِ مع ما ذكر يثبت الوجوبُ بإخباره، وهو ثبوتُ الشَّرع؛ لأنَّ معنى الثبوتِ به هو الثبوتُ بالإخبار عن الله تعالى حقيقةً أو حكماً، وعلى هذا لا يتأتَّى الترديدُ الذي ذكره بقوله: لأنَّ ذلك الشرعَ إمَّا أن يكونَ..إلخ، فلْيتأمَّل.

وعن الثاني بأنَّ وجوبَ الاحترازِ عن العقاب ليس أمراً أجنبيًّا عن وجوبِ كذا حتى يتوجَّهَ عليه الترديدُ الذي ذكره، بل هو نفسُ وجوبِ كذا، أو لازمُه؛ إذ

---

(١) ما بين حاصرتين لم يرد في الأصل و(م)، وهي زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ٨/ ٢٣٢.

(٣) في شرح المواقف: بإيجاد.

الاحترازُ ليس إلَّا بالإتيان بكذا الذي هو الواجبُ، فوجوبُ الاحترازِ إمَّا وجوبُ كذا أو لازمُه، فوجوبُه بوجوبه، فلا يَلزم الترديدُ المذكور.

وعن الثالث بأنَّه إن أراد بقوله: إنَّ ماهيةَ الواجبِ إنَّما تتقرَّر بسبب حصولِ الخوفِ من العقاب، أنَّ حصولَ الواجبِ في الخارج بالإتيان به إنَّما هو بسبب حصولِ الخوف، فليس الكلامُ فيه، ومع ذلك إنَّا لا نسلِّم أنَّ الإتيان بالواجب متوقِّف على حصول الخوف، وإنْ أراد أن تحقُّق وجوبِ الواجب ـ أي: تعلُّقَ وجوبِه بالمكلَّف الذي هو التكليفُ التنجيزيُّ ـ متوقِّف على حصول الخوفِ المذكور، فهو ممنوعٌ كما هو ظاهر. اهـ، فتدبَّر.

وأنت تعلم أنَّ الاستدلالَ بالآية على تقدير تمامِه لا يختصُّ بالمعتزلة، بل يشاركهم في ذلك أحدُ فريقَي الحنفيةِ من أهل السُّنَّة، وهم الماتريديةُ وعامةُ مشايخِ سمرقند؛ لأنَّهم وإنْ لم يقولوا كالمعتزلة بأنَّ العقلَ حاكمٌ بالحُسن والقُبح اللَّذين أَثبتوهما جميعاً، لكنَّهم قالوا: إنَّ العقل آلةٌ للعلم بهما، فيخلقه اللهُ تعالى عقيبَ نظرِ العقل نظراً صحيحاً. وأَوجبوا الإيمانَ بالله تعالى وتعظيمَه، وحرَّموا نسبةَ ما هو شنيعٌ إليه سبحانه، حتى رُوي عن أبي حنيفةَ ﷺ أنَّه قال: لو لَم يَبعث اللهُ تعالى رسولاً، لوَجبَ على الخلق معرفتُه. وقد صرَّح غيرُ واحدٍ من علمائهم بأنَّ العقل حجَّةٌ من حُجج اللهِ تعالى، ويجب الاستدلالُ به قبلَ ورودِ الشَّرع، واحتجُّوا في ذلك بما أَخبر اللهُ تعالى به عن إبراهيمَ عليه السلام من قوله لأبيه وقومِه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٧٤] حيث قال ذلك ولم يَقُل: أُوحي إليَّ، ومن استدلاله بالنُّجوم ومعرفةِ اللهِ تعالى بها وجعلِها حجَّةً على قومه، وكذاك كلُّ الرسلِ حاجُّوا قومهم بحُجَج العقل، كما ينبئ عنه قولُه تعالى: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الآية [إبراهيم: ١٠] وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ الآية [المؤمنون: ١١٧] حيث لم يقل: ومَن يدعُ مع اللهِ إلهاً آخرَ بعد ما أُوحي إليه أو بلغته الدَّعوة، وبقوله سبحانه خبراً عن أهل النَّار: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] حيث أَخبروا أنَّهم صاروا في النَّار لتركهم الانتفاعَ بالسَّمع والعقل.

وفيه أنَّهم لو انتفعوا بالعقول في معرفة الصانعِ قبلَ ورودِ الشَّرع، لم يصيروا في

النَّار، وبأنَّ الحُجج السمعيةَ لم تكن حججاً إلَّا باستدلال عقليٍّ، وبأنَّ المعجزة بعد الدَّعوة لا تُعرف إلَّا بدليل عقليٍّ، وآياتُ الأنفسِ والآفاقِ أدلُّ على الصانع من دلالة المعجزةِ على أنَّها من الله تعالى، فلمَّا كان بالعقل كفايةُ معرفةِ المعجزة، كان به كفايةُ معرفةِ اللهِ تعالى من طريق الأولى، وبأنَّ دعاء جميع الكَفَرة إلى دين الإسلام واجبٌ على الأمَّة، ومعلومٌ أن الدَّهرية لا يُحتجُّ عليهم بكلامِ اللهِ تعالى ورسولِه عليه الصلاة والسلام، فلم يبقَ إلَّا حُجَجُ العقولِ، إلى غير ذلك، وحينئذٍ يقال لهم: لو وَجَبَ على الخلق معرفةُ اللهِ تعالى والإيمانُ به قبلَ بعثةِ رسول، لَزِمَ تعذيبُ الكافرِ قبلها؛ لإخباره تعالى بأنَّه لا يَغفر الشركَ به، وقد نفى التعذيبَ في الآية، فلا وجوبَ، ضرورةَ انتفاءِ الملزوم بانتفاء اللازم، على نهج ما فُعل مع المعتزلة.

والإمام الرازيُّ بعد أن ضعَّف الاستدلالَ بالآية وأَثبت الوجوبَ العقليَّ، ذكر في الآية وجهين: الأوَّل: حملُ الرسولِ على العقل. والثاني: تخصيصُ العمومِ بأن يقال: المرادُ: وما كنَّا معذِّبين في الأعمال التي لا سبيلَ إلى معرفتها إلَّا بالشَّرعِ إلَّا بعد مجيء الشَّرع، ثم قال: والذي نرتضيه ونذهب إليه أنَّ مجرَّد العقل سببٌ في أن يجبَ علينا فعلُ ما يُنتفعَ به وتركُ ما يتضرَّر به، ويمتنع أن يحكمَ العقلُ عليه تعالى بوجوب فعلٍ أو تركِ فعل[1]. اهـ.

وأنت تعلم ما قيل مِن حَمل الرَّسولِ على العقل، وهو خلافُ استعمالِ القرآنِ الكريم، ويُبعده توبيخُ الخزنةِ الكفارَ بقولهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٥٠] ولم يقولوا: أوَلم تكونوا عقلاءَ، وحملُ الرسولِ فيه على العقل ممَّا لا يرتضيه العقلُ، واعتذر هو عن التخصيصِ بأنَّه وإنْ كان عدولاً عن الظَّاهر، إلَّا أنَّه يجب المصيرُ إليه إذا قام الدليلُ عليه، وقد قام بزعمه.

وأبو منصورٍ الماتُريديُّ ومتَّبعوه حملوا الآيةَ على نفي تعذيبِ الاستئصالِ في الدُّنيا، وذهب هؤلاء إلى تعذيب أهلِ الفترةِ بترك الإيمانِ والتوحيد، وهم: كلُّ مَن كان بين رسولَين ولم يكن الأولُ مرسَلاً إليهم ولا أدركوا الثاني.

---

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ١٧٢-١٧٤.

واعتمد القولَ بتعذيبهم النوويُّ في «شرح مسلم»[1] فقال: إنَّ مَن مات في الفترة على ما كانت عليه العربُ من عبادة الأوثانِ في النَّار، وليس في هذا مؤاخذةٌ قبل بلوغِ الدَّعوة، فإنَّ هؤلاء كانت بلغتهم دعوةُ إبراهيمَ وغيرِه من الرُّسل عليهم السلام.

والظاهرُ أن النوويَّ يكتفي في وجوب الإيمان على كلِّ أحدٍ ببلوغه دعوةَ مَن قبله من الرُّسل وإنْ لم يكن مرسَلاً إليه، فلا منافاةَ بين حكمه بأنَّهم أهلُ فترةٍ بالمعنى السابق وحكمِه بأنَّ الدعوةَ بلغتهم، خلافاً للأُبِّيِّ في زعمه ذلك[2]، نَعَم إنَّما تلزم المنافاةُ لو ادَّعى أنَّ مَن تقدَّمهم من الرُّسل مرسلٌ إليهم، وليس فليس.

وإلى ذلك ذهب الحليميُّ، فقال في «منهاجه»[3]: إنَّ العاقلَ المميِّز إذا سمع أيةَ دعوةٍ كانت إلى الله تعالى، فترك الاستدلالَ بعقله على صحَّتها وهو من أهل الاستدلالِ والنَّظر، كان بذلك مُعرِضاً عن الدَّعوة، فكفر، ويَبعد أن يوجَد شخصٌ لم يبلُغْه خبرُ أحدٍ من الرُّسل على كثرتهم، وتطاولِ أزمانِ دعوتهم، ووفورِ عددِ الذين آمنوا بهم واتَّبعوهم، والذين كفروا بهم وخالفوهم؛ فإنَّ الخبرَ قد يَبلغ على لسان المخالفِ كما يبلغُ على لسان الموافق، ولو أمكن أن يكونَ لم يسمع قطُّ بدينٍ ولا دعوةِ نبيٍّ، ولا عَرَفَ أنَّ في العالَم مَن يُثبت إلهاً، ولا نرى أنَّ ذلك يكون، فأمرُه على الاختلاف في أنَّ الإيمان هل يجب بمجرَّد العقلِ أو لا بدَّ من انضمام النقل.

وهذا صريحٌ في ثبوت تكليفِ كلِّ أحدٍ بالإيمان بعد وجودِ دعوةِ أحدٍ من الرُّسل وإنْ لم يكن رسولاً إليه، وبالغ بعضُهم في اعتماد ذلك حتى قال: فمَن بلغته دعوةُ أحدٍ من الرُّسل عليهم السلام بوجهٍ من الوجوه فقصَّر في البحث عنها، فهو كافرٌ من أهل النَّار، فلا تغترَّ بقول كثيرٍ من النَّاس بنجاة أهلِ الفَترة مع إخبار النبيِّ ﷺ بأنَّ آباءهم الذين مضَوا في الجاهلية في النَّار. اهـ.

---

(١) ٣/ ٧٩.

(٢) في إكمال إكمال المعلم ١/ ٣٦٩-٣٧١. وهو أبو عبد الله محمد بن خِلْفة المعروف بالأبي الوشتاتي، وصفه ابن حجر بأنه عالم المغرب بالمعقول. وله شرح المدونة. مات سنة (٨٢٧هـ). شجرة النور الزكية ص٢٤٤، والبدر الطالع ٢/ ١٦٩، والأعلام ٦/ ١١٥.

(٣) ١/ ١٧٥.

والذي عليه الأشاعرةُ من أهل الكلام والأُصولِ والشافعيةُ من الفقهاء أنَّ أهلَ الفترةِ لا يعذَّبون، وأطلقوا القولَ في ذلك، وقد صحَّ تعذيبُ جماعةٍ من أهل الفَترة. وأُجيب بأنَّ أحاديثَهم آحادٌ لا تعارض القطعَ بعدم التعذيبِ قبلَ البعثة، وبأنَّه يجوزُ أن يكونَ تعذيبُ مَن صحَّ تعذيبُه منهم لأمرٍ مختصٍّ به يقتضي ذلك عَلِمَه اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ، نظير ما قيلَ في الحكمِ بكفر الغلامِ الذي قتله الخَضِرُ عليه السلام مع صِباه.

وقيل: إنَّ تعذيبَ هؤلاء المذكورين في الأحاديث مقصورٌ على مَن غيَّر وبدَّل من أهل الفترةِ بما لا يُعذَر به، كعبادة الأوثانِ وتغييرِ الشرائع، كما فعلَ عَمرو بن لُحيّ.

ولا يخفَى أنَّ هذا لا يوافق إطلاقَ هؤلاء الأئمة، ولا القولَ بأنَّه لا وجوبَ إلَّا بالشرع، ولو أمكنَ أن يكون مَن ثبت تعذيبُه من أَتباع مَن بقي شرعُه إذ ذاك، كعيسى عليه السلام، لم يبقَ إشكالٌ أصلاً.

واستَدلَّ بعضُ مَن يقول بتعذيبهم مطلقاً بما أَخرج الحكيمُ الترمذيُّ في «نوادر الأُصول»[١] والطبرانيُّ[٢]، وأبو نُعيم[٣] عن معاذ بن جبلٍ، عن رسولِ الله ﷺ قال: «يؤتَى يومَ القيامة بالممسوخ عقلاً، وبالهالك في الفَترة، وبالهالك صغيراً، فيقول الممسوخُ عقلاً: يا ربِّ، لو آتيتَني عقلاً، ما كان مَن آتيتَه عقلاً بأسعدَ بعقله منِّي، ويقول الهالكُ في الفترة: يا ربِّ، لو أتاني منك عهدٌ، ما كان مَن أتاه منك عهدٌ بأسعدَ بعهدك منِّي، ويقول الهالكُ صغيراً: يا ربِّ، لو آتيتَني عُمراً، ما كان مَن آتيتَه عُمراً بأسعدَ بعُمره منِّي، فيقولُ لهم الربُّ تبارك وتعالى: فاذهبوا فادخُلوا جهنَّم، ولو دخلوها ما ضرَّتهم شيئاً، فتخرج عليهم قوابصُ[٤] من نارٍ يظنُّون أنَّها قد أَهلكتْ ما خلق اللهُ تعالى من شيءٍ، فيرجعون سِراعاً ويقولون: يا ربَّنا خرجنا وعزَّتك نريد دخولَها فخرجت علينا قوابصُ من نارٍ ظننَّا أنْ قد أهلكتْ ما خلق اللهُ

(١) ص٨٧-٨٨.
(٢) في الأوسط (٧٩٥٥).
(٣) في الحلية ٥/١٢٧.
(٤) أي: طوائف وجماعات. النهاية (قبص).

تعالى مِن شيءٍ، ثم يأمرهم ثانيةً، فيرجعون لذلك ويقولون كذلك، فيقول الربُّ تعالى: خلقتُكم على عِلمي وإلى عِلمي تصيرون، يا نارُ ضمِّيهم، فتأخذهم النَّار».

وبعضُ الأخبار يَقتضي أنَّ منهم مَن يعذَّب ومنهم مَن لا يعذَّب. فقد أَخرج أحمدُ[(١)]، وابنُ راهويه[(٢)]، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ[(٣)] عن أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أربعة يحتجُّون يومَ القيامة: رجلٌ أصمُّ لا يسمع شيئاً، ورجلٌ أحمقُ، ورجل هَرِم، ورجلٌ مات في فترة. فأمَّا الأصمُّ فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلامُ وما أسمعُ شيئاً، وأمَّا الأحمقُ فيقول: ربِّ جاء الإسلامُ والصِّبيان يَحذفونني بالبَعر، وأما الهَرِمُ فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلامُ وما أَعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ ما أتاني لك رسولٌ. فيأخذُ سبحانه مواثيقَهم لَيطيعُنَّه، فيُرسل إليهم رسولاً أن ادخُلوا النَّار، فمَن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومَن لم يدخلْها سُحب إليها».

وأَخرج قاسمُ بن أصبغ، والبزَّار[(٤)]، وأبو يَعلى[(٥)]، وابنُ عبد البرِّ في «التمهيد»[(٦)] عن أنسٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يؤتَى يومَ القيامةِ بأربعة: بالمولود، والمعتوه، ومَن مات في الفَترة، والشيخ الهَرِم الفاني، كلُّهم يتكلَّم بحجَّته، فيقول الربُّ تبارك وتعالى لعُنُقٍ من جهنَّم[(٧)]: ابرُزي، ويقول لهم: إنِّي كنت أبعث إلى عبادي رسلاً مِن أنفسهم وإني رسولُ نفسي إليكم، فيقول لهم: ٱدخلوا هذه، فيقول مَن كُتب عليه الشَّقاء: يا ربِّ، أَتُدخِلُناها ومنها كنَّا نفرُّ؟ وأمَّا مَن كُتب له السعادةُ، فيَمضي فيقتحمُ فيها، فيقول الربُّ تعالى: قد عاينتموني فعصيتموني، فأنتم لرُسلي أشدُّ تكذيباً ومعصيةً، فيدخلُ هؤلاء الجنةَ وهؤلاء النَّار».

---

(١) في المسند (١٦٣٠٢).

(٢) في مسنده (٤٢).

(٣) في الاعتقاد ص١١١.

(٤) كشف الأستار ٧/٢١٦.

(٥) في مسنده (٤٢٢٤).

(٦) ١٨/١٢٨.

(٧) أي: طائفة منها. النهاية (عنق).

إلى غير ذلك من الأخبار، ويحتجُّ بها مَن قال بانقسام ذراري المشركين، بل وذراري المؤمنين، وفي القلب من صحَّتها شيءٌ، وإنْ قال في «الإصابة»(١): إنَّها وردت من عدَّة طُرُق، وعلى تقدير صحَّتها فمعارِضُها أصحُّ منها.

والذي يميلُ إليه القلبُ أنَّ العقل حجَّة في معرفة الصانعِ تعالى ووحدتِه، وتنزُّهِه عن الولد سبحانه قبلَ ورودِ الشَّرع؛ للأدلَّة السابقةِ وغيرِها وإنْ كان في بعضها ما يقال، وإرسالُ الرسلِ وإنزالُ الكتبِ رحمةٌ منه تعالى، أو أنَّ ذلك لبيان ما لا يُنال بالعقول من أَنواع العباداتِ والحدود، فلا يَرِد أنَّه لو كان العقلُ حجَّةً، ما أَرسل اللهُ تعالى رسولاً ولاكتفَى به.

وقيل في جوابه: لمَّا كان أمرُ البعثِ والجزاءِ مما يُشكل على العقلِ وحدَه إلَّا بعظيم تأمُّلٍ فيه حرجٌ يُعذَر الإنسانُ بمثله ولا إيمانَ بدونه، بَعَثَ اللهُ تعالى الرسلَ عليهم السلام لبيان ما به تتمَّةُ الدِّين، لا لنفس معرفةِ الخالق؛ فإنَّها تُنال ببداية العقول، فالبَعرة تدلُّ على البعير، والأَثرُ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذات فِجاج، وبحارٌ ذات أَمواج، أَلا تدلُّ على اللطيف الخبير؟

وأيضاً إنَّ اللهَ لم يَدَعْنا ورسولاً من أوَّل الأمر إلى آخره، والحجَّةُ كانت قائمةً بالواحد كما بقيت بمحمَّد ﷺ إلى يوم القيامة، ولم يدلَّ ذلك على أنَّ الأولَ لم يكن حجَّةً كافيةً، وكذلك لم يَدَعْنا سبحانه والبيانَ بآيةٍ واحدة، بل منَّ علينا جلَّ شأنُه بآيات متكرِّرة، ولا يدلُّ ذلك أنَّ الآيةَ الواحدة لم تكن حجَّةً كافية.

وقولُه تعالى خبراً عن قول الخزنةِ لأهل النار: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٥٠] توبيخٌ بالأظهر، وهو لا يدلُّ على أنَّ الآخر ليس بحجَّة، وقولُه تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] على معنى: لئلَّا يكونَ لهم احتجاجٌ بزعمهم بأنْ يقولوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤]، وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١] محمولٌ على الإهلاك بعذاب الاستئصالِ في الدنيا على تكذيب الرُّسل، وأمَّا جزاءُ الكفرِ فالنار في العُقبى.

---

(١) ١١/ ٢٢٤.

وكذا يُقال في الآية التي نحن فيها؛ لكثرة ما يدعو إليه، فلا عذرَ لمن لم يعرف ربَّه سبحانه من أهل الفَترةِ إذا كان عاقلاً مميِّزاً متمكِّناً من النَّظر والاستدلال، لا سيَّما إذا بلغته دعوةُ رسولٍ من الرُّسل عليهم السلام، ولا يكادُ يوجَدُ مَن لم تبلغه، كما سمعتَ عن الحليميِّ، وقيل: بوجوده في أمريقا، وهي المسمَّاة بـ: ينكي دنيا[(١)]، قبلَ أن يَظفرَ بها في حدود الألفِ بعد الهجرةِ كرشتوفيل المشهور بقلونبو[(٢)]؛ فإنَّ أهلَها ـ على ما بلغنا ـ إذ ذاك لم يسمعوا بدعوة رسولٍ أصلاً.

ثم المفهومُ من كلام الأجلَّة أنَّ النزاع إنَّما هو بالنِّسبة لأحكام الإيمان بالله تعالى، بخلاف الفُروع، فلا خلافَ في أنَّها لا تَثبت إلَّا في حقِّ مَن بلغته دعوةُ مَن أُرسل إليه، وهو الظَّاهر، نَعَم ما اتفق عليه المِلَلُ من الفروع هل هو كالإيمان حتى يجريَ فيه النِّزاع المتقدِّم؟ فيه نظر. وأمَّا الإيمانُ بنبيِّنا ﷺ فليس بواجبٍ على مَن لم تبلغه دعوتُه؛ إذ ليس للعقل في ذلك مجالٌ كما لا يخفَى على ذي عقل، بل قال حجَّة الإسلام الغزاليُّ: الناسُ بعد بعثتِه عليه الصلاة والسلام أصناف: صنفٌ لم تبلغهم دعوتُه ولم يسمعوا به أصلاً، فأولئك مقطوعٌ لهم بالجنَّة، وصنفٌ بلغتهم دعوتُه وظهورُ المعجزةِ على يده، وما كان عليه ﷺ من الأخلاق العظيمة، والصِّفاتِ الكريمة، ولم يؤمنوا به، كالكَفَرة الذين بين ظهرانَينا، فأولئك مقطوعٌ لهم بالنَّار، وصنفٌ بلغتهم دعوتُه عليه الصلاة والسلام وسمعوا به، لكن كما يسمعُ أحدُنا بالدجَّال، وحاشا قَدْرَه الشَّريفَ ﷺ عن ذلك، فهؤلاء أرجو لهم الجنةَ؛ إذ لم يسمعوا ما يرغِّبهم في الإيمان به. اهـ.

ولعل القطعَ بالجنَّة للأوَّلين ورجاءَها للآخِرين إنَّما يكونان إذا كانوا مؤمنين بالله تعالى، أمَّا إذا لم يكونوا كذلك، فهم على الخلاف.

ثم إنَّ مسألةَ عدمِ الوجوبِ قبل ورودِ الشَّرع إنَّما يتمُّ الاستدلالُ عليه بالآية عند المستدلِّين بها ـ كما قال الأصفهانيُّ ـ إذا كان المقصودُ تحصيلَ غلبةِ الظنِّ فيها، فإن كانت عِلمية، فلا يمكن إثباتُها بالدَّلائل الظنية.

---

(١) في(م): يكي دنيا. والمثبت من الأصل، وهي الدنيا الجديدة، أي أمريكا ـ أو: أمريقا كما قال المصنف ـ المعجم الفارسي ص٦٢٣.

(٢) كذا في الأصل و(م)، أي: كريستوف كولومبوس.

وفيها عندهم نوعُ اكتفاءٍ، أي: وما كنا معذِّبين ولا مثيبين حتى نبعثَ رسولاً. قالوا: واستغنى عن ذِكر الثَّواب بذكر مقابِلِه من العذاب ولم يعكس؛ لأنَّه أَظهرُ منه في تحقُّق معنى التكليف، فتأمَّل.

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ بيانٌ لكيفية وقوعِ العذابِ بعدَ البعثة، وليس المرادُ بالإرادة الإرادة الأزلية المتعلِّقة بوقوع المرادِ في وقته المقدَّر له أصلاً، إذ لا يقارنها الجزاءُ الآتي، ولا تحقُّقها بالفعل؛ إذ لا يتخلَّف عنه المرادُ، بل دنوُّ وقتِه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] أي: إذا دنا وقتُ تعلُّق إرادتِنا بإهلاكها بأن نعذِّبَ أهلَها بما ذُكر من عذاب الاستئصالِ الذي بيَّنا أنه لا يصحُّ منا قبلَ البعثة، أو بنوعٍ ممَّا ذكرنا شأنَه من مطلَق العذاب، أعني: عذابَ الاستئصالِ لما لهم من الظُّلم والمعاصي، دنوًّا تقتضيه الحكمةُ مِن غير أن يكونَ له حدٌّ معيَّن.

﴿أَمَرۡنَا﴾ بالطاعة، كما أَخرجه ابن جَرير[1] وغيرُه عن ابن عباسٍ وسعيد بنِ جُبَير، على لسان الرَّسولِ المبعوثِ إلى أهلها ﴿مُتۡرَفِيهَا﴾ متنعِّميها وجبَّاريها وملوكَها. وخصَّهم بالذِّكر مع توجُّه الأمر إلى الكلِّ؛ لأنَّهم أئمَّة الفسقِ ورؤساءُ الضلال، وما وقع مِن سواهم باتِّباعهم، ولأنَّ توجُّه الأمرِ إليهم آكَد.

ويدلُّ على تقدير الطاعةِ أنَّ: فَسَقَ وعصَى، متقاربان بحسَب اللُّغة، وإنْ خُصَّ الفسقُ في الشَّرع بمعصية خاصَّة، وذِكرُ الضدِّ يدلُّ على الضدِّ، كما أنَّ ذِكر النظيرِ يدلُّ على النَّظير، فذِكرُ الفسقِ والمعصيةِ يدلُّ على تقدير الطاعة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] فيكون نحو: أَمرتُه فأساءَ إليّ، أي: أمرتُه بالإِحسان، بقرينة المقابلةِ بينهما المعتضدةِ بالعقل الدالِّ على أنَّه لا يؤمَرُ بالإساءة كما لا يؤمَر بالفِسق، والنقلِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وجوِّز أن ينزَّلَ الفعلُ منزلةَ اللازمِ كما في: يعطي ويمنع، أي: وجَّهنا الأمر.

﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ أي: خرجوا عن الطَّاعة وتمرَّدوا.

---

(١) في تفسيره ١٤/٥٢٧-٥٢٨.

واختار الزمخشريُّ(١) أنَّ الأصل: أَمرناهم بالفِسق ففسقوا، إلَّا أنَّه يمتنع إرادةُ الحقيقةِ للدليل، فيُحمل على المجاز، إمَّا بطريق الاستعارةِ التمثيلية، بأن يُشبَّه حالُهم في تقلُّبهم في النِّعم مع عصيانهم وبَطَرهم بحال مَن أُمر بذلك، أو بطريق الاستعارةِ التصريحيَّة التبعية، بأنْ يُشبَّه إفاضةُ النعم المبطرةِ لهم وصبُّها عليهم بأمرهم بالفِسق، بجامع الحَملِ عليه والتسبُّبِ له، ويتمّم أَمرُ الاستعارةِ في الصُّورتين بما لا يخفَى.

وقيل: الأمرُ استعارةٌ للحمل والتسبُّبِ لاشتراكهما في الإفضاءِ إلى الشيء.

وآثَرَ أنَّ تقدير: أَمرناهم بالطَّاعة ففسقوا، غيرُ جائز؛ لزعمه أنَّه حَذفُ ما لا دليلَ عليه، بل الدليلُ قائمٌ على خلافه؛ لأنَّ قولهم: أمرتُه فقام، و: أمرتُه فقعد، لا يُفهَم منه إلَّا الأمرُ بالقيام والقعود، ولو أردتَ خلافَ ذلك، كنت قد رُمتَ من مخاطَبك علمَ الغيب، ولا نقضَ بنحو قولِهم: أمرتُه فعصاني، أو فلم يمتثلْ أَمري؛ لأنَّه لمَّا كان منافياً للأمر، عُلم أنَّه لا يصلحُ قرينةً للمحذوف، فيكون الفعلُ في ذلك مِن باب: يُعطي ويمنع.

واعتُرِض بأنَّه لِمَ لا يجوزُ أن يكونَ من قَبيل: أمرته فعصاني، لِمَا سمعتَ من تقارُب: فَسَقَ وعصى، وبأنَّ قرينة «إن الله لا يأمر بالفحشاء» لِمَ لا تكفي في تقدير: وجَّهْنا الأمر فوُجِدَ منهم الفِسق، لا أن يقدَّر متعلَّق الأمر؛ ثم لِمَ لا يجوزُ أن يكونَ التعقيبُ بالضدِّ قرينةً للضدِّ الآخَر، ونحوُه أكثرُ من أن يُحصَى.

وأَجابَ في «الكشف» عن ذلك فقال: الجوابُ عن الأولَين أنَّ صاحب «الكشَّاف» منع أن يرادَ: أمرنا بالطَّاعة، وأمَّا أن يرادَ توجيهُ الأمر، فلم يمنعْه من هذا المسلكِ، بل المانعُ أنَّ تخصيصَ المترَفين حينئذٍ يبقى غيرَ بيِّن الوجه، وكذلك التقييدُ بزمان إرادة الإهلاك، فإنَّ أمره تعالى واقعٌ في كلِّ زمان ولكلِّ أحد، ولظهوره لم يتعرَّض له.

وعن الثَّالث أنَّ شهرةَ الفسقِ في أحدِ معنيَيه تمنعُ مِن عدِّه مقابلاً بمعنى العِصيان، على أنَّ ما ذكرنا من نبوِّ المقامِ عن الإطلاق قائمٌ في التقييد بالطَّاعة، وفيه قولٌ بسلامة الأَمير، ونظرٌ بعين الرضا، وغفلةٌ عن وجه التخصيصِ الذي ذكرناه، وهو بيِّن لا غبارَ عليه، وكذا وجهُ التقييدِ بالزَّمان المذكور.

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٤٢.

والحقُّ أنَّ ما ذكره الزمخشريُّ مِن الحمل وجهٌ جميل، إلَّا أنَّ عدمَ ارتضائه ما روته الثقاتُ عن ترجُمان القرآنِ وغيرِه من تقدير الطاعة، مع ظهور الدليلِ ومساعدةِ مقام الزَّجر عن الضَّلال والحثِّ على الاهتداء، لا وجهَ له، كما لا يخفَى على مَن له قلب.

وحكى أبو حاتم عن أبي زيدٍ أنَّ «أمرنا» بمعنى كثَّرنا، واختاره الفارسيُّ[1]، واستدلَّ أبو عبيدة[2] على صحَّة هذه اللغةِ بما أخرجه أحمدُ[3]، وابنُ أبي شيبةَ في «مسندَيهما» والطبرانيُّ في «الكبير»[4] من حديث سُوَيد بن هُبَيرة: «خيرُ المالِ سِكَّة مأبورة، ومُهرَة مأمورة» أي: كثيرةُ النِّتاج، وأَمرَ ـ كما قيل ـ من باب ما لزم وعدِّي باختلافِ الحركة، فيقال: أَمَرته ـ بفتح الميم ـ فأَمِر، بكسرها، وهو نظيرُ: شَتَرَ اللهُ تعالى عينَه فشَتِرت[5]، وجَدَع أنفه فجَدِع، وثَلَمَ سنَّه فثَلِمت.

وقيل: إنَّ المكسورَ يكون متعدِّياً أيضاً، وأنَّه قرأ به الحسنُ، ويحيى بنُ يَعْمَر، وعِكرمة[6]، وحكى ذلك النحَّاس[7] وصاحبُ «اللوامح» عن ابن عبَّاس، وأنَّ ردَّ الفراءِ[8] له غيرُ ملتفتٍ إليه؛ لصحَّة النقل.

وفي «الكشف» أنَّ أَمَرَ بمعنى كثَّر كثيرٌ، وأمَّا أمرته المتعدِّي، فقال الزمخشريُّ في «الفائق»[9] ما معناه: ما عوَّل هذا القائلُ إلَّا على ما جاء في الخبر، أَعني: «مهرة مأمورة»[10] وما هو إلَّا من الأمر الذي هو ضدُّ النهي، وهو مجازٌ أيضاً كما في الآية، كأنَّ اللهَ تعالى قال لها: كوني كثيرةَ النتاجِ، فكانت، فهي إذن مأمورةٌ

---

(١) في الحجة ٥/ ٩١-٩٣.
(٢) انظر مجاز القرآن ١/ ٣٧٣.
(٣) في مسنده (٥٨٤٥).
(٤) برقم (٦٤٧٠) و(٦٤٧١).
(٥) الشَّتَر: انقلاب في جفن العين. الصحاح (شتر).
(٦) البحر المحيط ٦/ ٢٠. وينظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٦.
(٧) في معاني القرآن ٤/ ١٣٣.
(٨) في معاني القرآن ٢/ ١١٩.
(٩) الفائق في غريب الحديث ٣/ ١٨٩.
(١٠) وتمامه: «خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة» وهو عند أحمد (١٥٨٤٥) من حديث سويد بن هبيرة ﷺ، وهو حديث ضعيف.

على خلاف مَنهيَّة. وقيل: أَصلُه: مؤمرة، فعدل عنه إلى مأمورة لطلب الازدواجِ، مثل قولِه ﷺ: «مأزوراتٍ غيرَ مأجورات»[(١)] حيثُ لم يقل: مَوزورات.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه، وابنُ أبي إسحاق، وأبو رجاءٍ، وعيسى بن عَمرو[(٢)]، وعبدُ الله بن أبي زيد[(٣)]، والكلبيُّ: «آمرنا» بالمدِّ، وكذلك جاءَ عن ابن عباسٍ، والحسن، وقتادةَ، وأبي العالية، وابن هُرْمُز، وعاصم، وابن كثيرٍ، وأبي عَمرو، ونافع، وهو اختيارُ يعقوب[(٤)] ومعناه عند الجميع: كثَّرنا، وبذلك أُيِّد التفسيرُ السابق على القراءة المشهورة.

وقرأ ابنُ عباس، وأبو عثمانَ النَّهدي، والسُّدي، وزيدُ بن عليٍّ، وأبو العالية: «أَمَّرنا» بالتشديد، ورُوي ذلك أيضاً عن عليٍّ، والحسنِ، والباقرِ رضي الله عنهم، وعاصم، وأبي عَمرو[(٥)]. ومعناه على هذه القراءة قيل: كثَّرنا، أيضاً، وقيل: بمعنى ولَّيناهم وجعلناهم أمراءَ، واللازمُ من ذلك أَمُرَ، بالضمِّ، إلحاقاً له بالسَّجايا، أي: صار أميراً، والمرادُ به مَن يؤمَّرُ ويؤتمَر به، سواءٌ كان مَلِكاً أم لا، على أنَّه لا محذورَ لو أُريد به الملكُ أيضاً، خلافاً للفارسيِّ[(٦)]؛ لأنَّ القرية إذا ملك عليها مُترَفٌ ففسق، ثم آخَرُ ففسق، وهكذا، كَثُرَ الفساد، وتوالَى الكفرُ، ونزل بهم العذابُ على الآخِرِ من ملوكهم.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي: كلمةُ العذابِ السابقِ بحلوله، أو بظهور معاصيهم، أو بانهماكِهم فيها ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ۝١٦﴾ لا يُكتنَه كُنهه ولا يوصَف، والتدميرُ هو الإِهلاكُ مع طمس الأثر وهدمِ البناء.

والآيةُ تدلُّ على إهلاك أهلِ القريةِ على أتمِّ وجه، وإهلاكِ جميعِهم لصدور الفسقِ منهم جميعاً، فإنَّ غير المترَفِ يَتبعه عادةً، لا سيَّما إذا كان المترفُ من علماء

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٥٧٨) من حديث علي رضي الله عنه، وأبو يعلى (٤٠٥٦) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) في البحر المحيط ٦/ ٢٠- والكلام منه -: عيسى بن عمر.
(٣) في البحر: يزيد.
(٤) النشر ٢/ ٣٠٦. وينظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٥.
(٥) البحر ٦/ ٢٠، وينظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٦.
(٦) في الحجة ٥/ ٩٣.

السُّوءِ، ومِن هنا قيل: المعنى: «وإذا أردنا أن نُهلكَ قريةً أمرنا مترَفيها ففسقوا فيها» واتَّبعهم غيرُهم «فحقَّ عليها القولُ».. الآية.

وقيل: هلاكُ الجميعِ لا يتوقَّف على التَّبعية، فقد قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وصحَّ عن أمِّ المؤمنين زينبَ بنتِ جحش أنَّ النبيَّ ﷺ دخل عليها فَزِعاً يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتح اليومَ من رَدم يأجوجَ ومأجوج مثلُ هذه» وحلَّق بأُصبُعَيه الإبهامِ والتي تليها، قالت زينبُ: قلتُ: يا رسولَ الله أنهلِك وفينا الصَّالحون؟ قال: «نعم إذا كَثُرَ الخَبَث»(١).

هذا والظاهرُ أنَّ «أمرنا» جوابُ «إذا»، ولا تقديمَ ولا تأخيرَ في الآية، والإِشكالُ المشهورُ فيها على هذا التقديرِ من أنَّها تدلُّ على أنَّه سبحانه يريد إهلاكَ قومٍ ابتداءً، فيتوسَّل إليه بأن يأمرَهم فيفسُقون فيهلكهم، وإرادةُ ضررِ الغير ابتداءً من غير استحقاقِ الإضرار كالإضرار كذلك مما ينزَّه عنه تعالى لمنافاته للحِكمة، قد مرَّت الإشارةُ إلى جوابه(٢).

وأجاب عنه بعضُهم بأنَّ في الآية تقديماً وتأخيراً، والأصلُ: إذا أَمرنا مترفي قريةٍ ففسقوا فيها، أَردنا إهلاكَها فحقَّ عليها القول، ونظيرُه ـ على ما قيل ـ قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢].

وآخرون بأنَّ قولَه تعالى: (أَمَرْنَا) إلخ في موضع الصفةِ لـ «قرية»، وجوابُ «إذا» محذوفٌ؛ للاستغناءِ عنه بما في الكلام مِن الدَّلالة عليه، كما قيل في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤] وقولِ الهُذَليِّ، وهو آخِرُ قصيدة:

حتى إذا أَسلكوهم في قُتائدةٍ ... شَلًّا كما تطرد الجمّالةُ الشُّرُدا(٣)

وقيل في الجوابِ عن ذلك غيرُ ذلك، فتدبَّر.

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٦)، وصحيح مسلم (٢٨٨٠)، وسلف ١٣/ ٧٤.

(٢) قوله: قد مرت الإشارة.. خبر لقوله: والإشكال المشهور...

(٣) قائله عبد مناف بن رِبع الجُربي، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ٤٢. قوله: قتائدة، هي الثنية، والجمالة: أصحاب الجِمال.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: كثيراً ما أهلكنا ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ تمييز لـ «كم»، والقَرن ـ على ما قال الرَّاغب[1] ـ القومُ المقترِنون في زمانٍ واحد. وعن عبد الله بنِ أبي أوفى: هو مدَّة مئةٍ وعشرين سَنة. وعن محمد بنِ القاسم المازنيِّ[2] ـ ورُوي مرفوعاً ـ أنَّه مئةُ سنة، وجاء أنَّه ﷺ دعا لرجلٍ فقال: «عِش قَرناً»، فعاش مئةَ سنة[3]، أو مئةً وعشرين. وعن الكلبيِّ أنَّه ثمانون سنة. وعن ابن سِيرين أنَّه أربعون سَنة.

﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ من بعد زمنِه عليه السلام، كعادٍ وثمودَ ومَن بعدهم ممن قُصَّت أحوالُهم في القرآن العظيم ومَن لم تقصَّ، وخصَّ نوحٌ عليه السلام بالذِّكر ولم يقل: مِن بعدِ آدم؛ لأنَّه أوَّل رسولٍ آذاه قومُه فاستأصلهم العذابُ، ففيه تهديدٌ وإنذارٌ للمشركين، ولظهور حالِ قومِه لم يُنظَموا في القرون المهلَكة، على أنَّ ذِكره عليه السلام رمزٌ إلى ذِكرهم.

و«من» الأُولى للتَّبيين لا زائدة، والثانيةُ لابتداء الغاية؛ فلذا جاز اتِّحادُ متعلَّقهما، وقال الحوفيُّ: «من» الثانيةُ بدلٌ من الأولى. وليس بجيِّد.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أي: كفى ربُّك. وقد تقدَّم الكلامُ مفصَّلاً آنفاً في مِثل هذا التركيب ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ محيطاً بظواهرها وبواطِنها، فيعاقبُ عليها. وتقديمُ الخبيرِ لتقدُّم متعلَّقه من الاعتقاداتِ والنيَّات، التي هي مبادئُ الأعمالِ الظَّاهرة، تقدُّماً وجوديًا، وقيل: تقدُّماً رُتبيًا؛ لأنَّ العِبرة بما في القلب، كما يدلُّ عليه: «إنَّ اللهَ تعالى لا ينظر إلى صُوَركم وأعمالِكم، وإنَّما ينظرُ إلى قلوبكم ونيَّاتِكم»[4]، و: «إنَّما الأعمالُ بالنيَّات»[5]، و: «نيةُ المؤمنِ خيرٌ من عمله»[6] إلى غير ذلك. أو لعمومه مِن حيث يتعلَّق بغير المبصَرات أيضاً.

---

(١) في المفردات (قرن).

(٢) هو راوي الحديث الآتي عن عبد الله بن بُسر المازني ﷺ، وهو ختنه أيضاً كما في تفسير الطبري ١٤/ ٥٣٤-٥٣٥.

(٣) أخرجه الطبري والحاكم ٢/ ٥٤٩ من حديث عبد الله بن بسر، وهو الرجل المدعو له.

(٤) أخرج مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، وسلف تخريجه ٧/ ١٠٧.

(٥) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر ﷺ، وسلف ١١/ ٣٩٣.

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٩٤٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ، وأخرجه ابن

والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ «خبيراً بصيراً»، على سبيل التَّنازع. وقال الحوفيُّ: متعلِّق بـ «كفى». وهو وَهَم.

وفي تذييل ما تقدَّم بما ذُكر إشارةٌ ـ على ما قيل ـ إلى أنَّ البعثَ والأمرَ وما يتلوهما مِن فسقهم ليس لتحصيل العلمِ بما صدرَ عنهم من الذُّنوب؛ فإنَّ ذلك حاصلٌ قبل ذلك، وإنَّما هو لقَطع الأَعذار وإلزامِ الحجَّة من كلِّ وجه.

وفي «الكشَّاف»[1]: إنَّه سبحانه نبَّه بقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ إلخ على أنَّ الذنوبَ هي الأسبابُ المهلِكة لا غير.

وبيانُه ـ كما في «الكشف» ـ أنَّه جلَّ شأنُه لمَّا عقَّب إهلاكَهم بعلمه بالذُّنوب علماً أتمَّ، دلَّ على أنَّه تعالى جازاهم بها، وإلَّا لم ينتظم الكلامُ، وأما الحصرُ؛ فلأنَّ غيرها لو كان له مدخلٌ، كان الظاهرُ ذِكرَه في معرض الوعيد، ثم لا يكون السببُ تامًّا، ويكونُ الكلامُ ناقصاً عن أداءِ المقصود، فلزم الحصرُ، وهو المطلوب. ولا أرى كلامَه خالياً عن دسيسة اعتزالٍ تظهر بالتأمُّل، ولعله لذلك لم يتعرَّض له العلَّامة البيضاويُّ.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ أي: بعمله، كما أخرجه ابنُ أبي حاتمٍ عن الضحَّاك ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ فقط مِن غيرِ أن يريدَ معها الآخرةَ، كما يُنبِئُ عنه الاستمرارُ المستفادُ من زيادة «كان» هنا، مع الاقتصارِ على مطلَق الإرادة في قَسيمه. وقيل: لو لم يقيِّد، صدقَ على مريد العاجلةِ والآخِرة، والقسمةُ تنافي الشَّرِكة، ودلالةُ الإرادة على ذلك لأنَّها عَقدُ القلبِ بالشيء وخلوصُ همِّه فيه، ليس بذاك.

والمرادُ بالعاجلة الدارُ الدنيا، كما رُوي عن الضحَّاك أيضاً، وبإرادتها إرادةُ ما فيها من فنون مطالِبها، كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٢٠] وجوِّز أن يرادَ الحياةُ العاجلةُ، كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥].

= عبد البر في التمهيد ١٢/ ٢٦٥ من حديث علي ﷺ. وأخرجه البيهقي في الشعب ٩/ ١٧٥ (٦٤٤٥) مكتبة الرشد، من حديث أنس ﷺ.

(١) ٢/ ٤٤٣.

ورجِّح الأولُ بأنه أنسبُ بقوله تعالى: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: في تلك العاجلة، فإنَّ تلك الحياةَ واستمرارَها من جملة ما عجِّل، فالأنسبُ في ذلك كلمةُ «من» كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

﴿مَا نَشَآءُ﴾ أي: ما نشاءُ تعجيلَه له من نعيمها، لا كلَّ ما يريد. ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ تعجيلَ ما نشاءُ له. وقال أبو إسحاقَ الفَزاري(١): أي: لمن نريد هَلَكته. ولا يدلُّ عليه لفظٌ في الآية.

والجارُّ والمجرور بدلٌ من الجارِّ والمجرورِ السابق، أَعني «له» فلا يُحتاج إلى رابط، لأنَّه في بدل المفرَدات، أو المجرورُ بدلٌ من الضمير المجرورِ بإعادة العامل، وتقديره: لمن نريدُ تعجيلَه له منهم، والضميرُ راجعٌ إلى «من» وهي موصولةٌ، أو شرطية، وعلى التقديرَين هي منبئةٌ عن الكثرة، فهو بدلُ بعضٍ من كلٍّ.

وعن نافع أنَّه قرأ: «ما يشاء» بالياء(٢)، فقيل: الضميرُ فيه لله تعالى، فيتطابقُ القراءتان، وقيل: هو لـ «من» فيكون مخصوصاً بمَن أراد اللهُ تعالى به ذلك، كنمروذ وفرعونَ ممَّن ساعده اللهُ تعالى على ما أَراده استدراجاً له. واستُظهر هذا بأنَّه يلزم أن يكونَ على الأوَّل التفات، ووقوعُ الالتفاتِ في جملةٍ واحدة إنْ لم يكن ممنوعاً فغيرُ مستحسَن، كما فصَّله في «عروس الأفراح»(٣).

وتقييدُ المعجَّل والمعجَّلِ له بما ذُكر من المشيئة والإرادة؛ لِمَا أنَّ الحكمةَ التي يدورُ عليها فلكُ التكوينِ لا تقتضي وصولَ كلِّ طالبٍ إلى مرامه، ولا استيفاءَ كلِّ واصلٍ لما يطلبه بتمامه. وليس المرادُ بأعمالهم في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] أعمالَ كلِّهم، ولا كلَّ أعمالهم، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك، فتذكَّر. وذِكرُ المشيئةِ في أحدهما والإِرادةِ في الآخَر ـ إنْ قيل بترادفهما ـ تفنُّن.

---

(١) هو إبراهيم بن محمد الفزاري الشامي. كان من أئمة الحديث، وهو أخو عيينة بن حصن. حدث عنه الأوزاعي والثوري وهما من شيوخه. مات سنة (١٨٥ أو ١٨٦ هـ). السير ٨/ ٥٣٩.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١.

(٣) في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة (٧٧٣هـ).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ مكانَ ما عجَّلنا له ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ يقاسي حرَّها، كما قال الخليلُ[(١)]، أو يدخلُها، كما قيل. والجملةُ ـ كما قال أبو البقاءِ[(٢)] ـ حالٌ من الهاءِ في «له»، وقال أبو حيَّان[(٣)]: إنها حالٌ من «جهنم» وهي مفعولٌ أولُ لـ «جعلنا»، و«له» الثاني. وجوَّز أن تكونَ الجملةُ مستأنفة، وقال صاحبُ «الغنيان»: مفعولُ «جعلنا» الثاني محذوفٌ، والتقدير: مصيراً، أو جزاءً. ولا حاجةَ إلى ذلك.

﴿مَذْمُومًا﴾ حالٌ من فاعلِ «يصلى»، وهو من الذمِّ ضدِّ المدح، وفعله: ذَمَّ، وذُمته ذيماً وذأمته ذأماً بمعناه ﴿مَّدْحُورًا ⑱﴾ أي: مطروداً مُبعداً من رحمةِ اللهِ تعالى.

قال الإمامُ[(٤)]: إنَّ العقاب عبارةٌ عن مضرَّة مقرونةٍ بالإهانة والذمِّ، بشرط أن تكونَ دائمةً وخاليةً عن المنفعة، فقولُه تعالى: (جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا) إشارةٌ إلى المضرَّة العظيمة، و«مذموماً» إشارةٌ إلى الإهانة والذمِّ، و«مدحوراً» إشارةٌ إلى البعد والطَّرد من رحمته تعالى، فيفيد ذلك أنَّ تلك المضرةَ خاليةٌ عن شَوب النفعِ والرحمة، وتفيد كونَها دائمةً وخاليةً عن التبدُّل بالراحة والخلاص. اهـ.

ولا يخفَى أنَّ هذا ظاهرٌ في أنَّ الآية تدلُّ على الخلود، وحينئذٍ يتعيَّن عندنا أن يكونَ ذلك المريدُ من الكفرة. وفي «إرشاد العقل السليم»[(٥)]: «مَن كان يريد» أي: بأعماله التي يعملها، سواءٌ كان ترتُّب المرادِ عليها بطريق الجزاء، كأعمال البرِّ، أو بطريق ترتُّب المعلولاتِ على العِلل، كالأسباب، أو بأعمال الآخرة، فالمرادُ بالمريد على الأوَّل الكفرةُ وأكثرُ الفسقة، وعلى الثاني أهلُ الرياءِ والنِّفاقِ، والمهاجرُ للدنيا والمجاهدُ للغنيمة.

وأنت تعلم أنَّ إدراج الفاسقِ والمهاجرِ للدنيا والمجاهدِ للغنيمة إذا كان مؤمناً في التمثيل على القول بدلالة الآيةِ على الخلود، ممَّا لا يستقيم على أُصولنا، نعم

(١) في العين ٧/ ١٥٤.
(٢) قال في الإملاء ٣/ ٤٧٥: حال من «جهنم» أو من الهاء في «له».
(٣) في البحر ٦/ ٢١.
(٤) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٧٨.
(٥) ٥/ ١٦٣.

يصحُّ على أُصول المعتزلة. وقد أدرج الزمخشريُّ[1] الفاسقَ في ذلك، ودسائسُ الاعتزال منه ـ عامله الله تعالى بعدله ـ أكثرُ من أن تحصَى.

وظاهرُ كلامِ أبي حيَّان اختيارُ كونِ المريدِ من الكفرة، حيث قال[2]: العاجلةُ هي الدنيا، ومعنى إرادتِها إيثارُها على الآخرة، ولا بدَّ من تقدير محذوفٍ دلَّ عليه المقابلُ في قوله تعالى: «ومن أراد الآخرة» إلخ، أي: مَن كان يريد العاجلةَ وسعى لها سعيَها وهو كافر، عجَّلنا له فيها ما نشاءُ لمن نريد. وقيل: المرادُ: مَن كان يريد العاجلةَ بعمل الآخِرة، كالمنافق والمرائي والمجاهدِ للغنيمة والذِّكر والمهاجرِ للدنيا... إلى آخر ما قال.

فحكَى غيرَ القولِ الأوَّل الذي يكون يتعيَّن عليه كونُ المريدِ من الكَفَرة بعد أن قدَّمه بـ: قيل. ويؤيِّده تفسيرُ كثيرٍ «مَن كان يريد العاجلةَ» بمن كان همُّه مقصوراً عليها لا يريد غيرَها أصلاً؛ فإنَّ ذلك ممَّا لا يكاد يَصدقُ على مؤمنٍ فاسق، فإنَّه لو لم يكن له إرادةٌ للآخِرة ما آمن بها، وعلى القول بدخول الفاسقِ ونحوِه ممَّن لا يُحكم له عندنا بالخلود، يمنع القول بدلالة الآيةِ على الخلود، ويقال لمن أُدخل النَّار: مبعَدٌ عن رحمةِ الله تعالى ما دام فيها، فيصدقُ على الفاسق ما دام فيها، كما يَصدُق على الكافر المخلَّد.

وزعم بعضُهم أنَّ المريدَ هو المنافقُ الذي يغزو مع المسلمين للغنيمة لا للثَّواب، فإنَّ الآيةَ نزلت فيه، وفيه أنَّه يأبى ذلك ما سبق من أنَّ السورةَ مكِّية غيرَ آياتٍ معيَّنة ليست هذه منها، على أنَّ العِبرة بعموم اللفظِ لا بخصوص السبب، فافهم.

﴿وَمَنْ أَرَادَ﴾ الظاهرُ ـ على طبق ما مرَّ عن الضحَّاك ـ أن يرادَ بعمله أيضاً ﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: الدارَ الآخرةَ وما فيها من النَّعيم المقيم ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: الذي يحقُّ ويَليق بها، كما تنبئُ عنه الإضافة الاختصاصيةُ سواءٌ كان السعيُ مفعولاً به على أنَّ المعنى: عَمِلَ عَمَلَها، أو مصدراً مفعولاً مطلقاً، ويتحقَّق ذلك بالإتيان

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٤٣.

(٢) في البحر ٦/ ٢٠-٢١.

بما أَمر اللهُ تعالى والانتهاءِ عما نهَى سبحانه عنه، فيخرج مَن يتعبَّد من الكَفَرة بما يخترعه من الآراءِ ويزعم أنَّه يسعَى لها.

وفائدةُ اللامِ ـ سواءٌ كانت للأَجْل أو للاختصاص ـ اعتبارُ النيَّة والإخلاصِ لله تعالى في العمل.

واختار بعضُهم ـ ولا يخلو عن حُسن ـ أنَّه لا حاجَة إلى ما اعتبره الضحَّاك، بل الأَوْلى عدمُ اعتبارهِ؛ لمكان: «وسعى لها سعيها» وحينئذٍ لا يُعتبر فيما سبق أيضاً، ويكون في الآية على هذا مِن تحقير أمرِ الدنيا وتعظيم شأنِ الآخرة ما لا يخفَى على مَن تأمَّل.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماناً صحيحاً لا يخالطه قادحٌ، وإيرادُ الإيمان بالجملة الحالية؛ للدَّلالة على اشتراط مقارَنتِه لما ذُكر في حيِّز «مَن» فلا تنفع إرادةٌ ولا سعيٌ بدونه، وفي الحقيقة هو الناشئُ عنه إرادةُ الآخرة والسعيُ للنجاة فيها وحصولُ الثواب.

وعن بعض المتقدِّمين: مَن لم يكن معه ثلاثٌ، لم ينفعْه عمله: إيمانٌ ثابت، ونيَّة صادقة، وعملٌ مُصيب، وتلا هذه الآية.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى «مَن» بعنوان اتِّصافه بما تقدَّم. وما في ذلك من معنى البُعد؛ للإشعار بعلوِّ درجتِهم وبُعدِ منزلتهم، والجمعيةُ لمراعاة جانبِ المعنى، إيماءً إلى أنَّ الإثابة المفهومةَ من الخبر تقعُ على وجه الاجتماع، أي: فأولئك الجامعون لما مرَّ من الخصال الحميدة، أعني إرادةَ الآخرة والسعيَ الجميلَ لها والإيمانَ ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ مثاباً عليه مقبولاً عنده تعالى بحُسن القَبول.

وفسَّر بعضُهم السعيَ هاهنا بالعمل الذي يعبَّر عنه بفعل، فيشمل جميعَ ما تقدَّم، وهذا غيرُ السَّعي السابق، وقال بعضُهم: هو هو، وعلَّق المشكوريةَ به دون قرينَيه؛ إشعاراً بأنه العمدةُ فيها.

وأصلُ السعي ـ كما قال الراغبُ[1] ـ المشي السريعُ، وهو دون العَدْو،

---

(١) في المفردات (سعي).

ويُستعمل للجدِّ في الأمر، خيراً كان أو شرًّا، وأكثرُ ما يُستعمل في الأفعال المحمودة، قال الشاعر(١):

إنْ أَجزِ علقمةَ بنَ سعدٍ(٢) سعيَه لا أَجزِه ببلاءِ يومٍ واحدِ

﴿كُلًّا﴾ التنوينُ فيه ـ على المشهور عند النُّحاة ـ عوضٌ عن المضاف إليه، لا تنوينُ تمكين، أي: كلَّ الفريقَين، وهو مفعولُ ﴿نُّمِدُّ﴾ مقدَّم عليه، أي: نَزيد مرَّةً بعد مرَّة، بحيث يكونُ الآنفُ مدداً للسَّالف، وما به الإمدادُ ما عجِّل لأحدهما من العطايا العاجلة، وما أُعدَّ للآخَر من العطايا الآجلة المشارِ إليها بمشكوريَّة السَّعي، وإنَّما لم يصرَّح به، تعويلاً على ما سبق تصريحاً وتلويحاً، واتِّكالاً على ما لحق عبارةً وإشارة.

وقولُه تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدلٌ من «كلًّا» بدلَ كلٍّ على جهة التفصيل، أي: نمدُّ هؤلاء المعجَّلَ لهم وهؤلاء المشكور سعيُهم، فإنَّ الإشارة متعرِّضة لذات المشارِ إليه بما لَه من العُنوان، لا للذَّات فقط، كالإضمار، ففيه تذكيرٌ لما به الإمداد، وتعيينٌ للمضاف إليه المحذوف، دفعاً لتوهُّم كونِه أفرادَ الفريقِ الأخير المريدِ للخير الحقيقِ بالإسعاف فقط، وتأكيدٌ للقصر المستفادِ من تقديم المفعول.

وقولُه تعالى: ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: مِن معطاه الواسعِ الذي لا تناهيَ له، فهو اسمُ مصدرٍ واقعٍ موقعَ اسمِ المفعول، متعلِّق بـ «نُمِدُّ»، مُغنٍ عن ذِكر ما به الإمدادُ، ومنبِّه على أنَّ الإمداد المذكورَ ليس بطريق الاستيجابِ بالسَّعي والعمل، بل بمحض التفضُّل، كما قيل: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ أي: دنيويًّا كان أو أُخرويًّا.

والإظهارُ في موضع الإضمار لمزيد الاعتناءِ بشأنه، والإشعار بعِلِّيته للحكم.

﴿مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ ممنوعاً عمَّن يريده، بل هو فائضٌ على من قدِّر له بموجب المشيئةِ المبنيَّة على الحِكمة وإنْ وُجد فيه ما يقتضي الحظرَ، كالكفر، وهذا في معنى التعليلِ لشمول الإمداد للفريقَين.

---

(١) هو فدكي بن أعبد الطائي، رجل من بهراء.

(٢) كذا في مفردات الراغب، وفي البيان والتبيين ٣/ ٢٣٣، ومعجم الشعراء ص٤٤٦، وشرح المرزوقي ٤/ ١٥٩٠، وشرح التبريزي ٤/ ٧٠: علقمة بن سيف. وانظر الصحاح واللسان (لمم).

والتعرُّض لعنوان الرُّبوبية للإشعار بمبدئيَّتها لكلٍّ من الإمداد وعدم الحظر.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ «كيف» في محلِّ النصب بـ «فضَّلنا» على الحال، وليست مضافةً للجملة كما تُوهِّم، والجملةُ بتمامها في محلِّ نصبٍ بـ «انظر»، وهو معلَّق هنا.

والمرادُ ـ كما قال شيخ الإسلام[1] ـ توضيحُ ما مرَّ من الإمداد وعدمِ محظوريةِ العطاء، بالتَّنبيه على استحضار مراتبِ أحدِ العطاءَين، والاستدلالُ بها على مراتبِ الآخَر، أي: انظر بنظر الاعتبارِ كيف فضَّلنا بعضَهم على بعضٍ فيما أَمددناهم مِن العطايا العاجلة، فمن وضيعٍ ورفيع، وظالعٍ[2] وضَليع، ومالكٍ ومملوك، وموسر وصُعلوك، تعرف بذلك مراتبَ العطايا الآجلةِ، وتفاوتَ أهلِها، على طريقة الاستدلال بحال الأدنَى على حال الأعلى، كما أَفصح عنه قولُه تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ أي: أكبرُ من درجات الدنيا وتفضيلها؛ لأنَّ التفاوت فيها بالجنَّة ودرجاتِها العالية لا يُقادَر قَدْرُها، ولا يُكتنه كُنْهُها.

وفي بعض الآثارِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ بين أَعلى أهل الجنَّة وأسفلِهم درجةً كالنَّجم يُرى في مشارق الأرضِ ومغاربِها، وقد أَرضى اللهُ تعالى الجميعَ، فما يَغبِط أحدٌ أحداً»[3].

وعن الضحَّاك: الأَعلى يرى فضلَه على مَن هو أسفلُ منه، والأسفلُ لا يرى أنَّ فوقه أحداً. وصحَّ أنَّ اللهَ تعالى أعدَّ لعباده الصَّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر[4].

وروى ابنُ عبد البرِّ في «الاستيعاب»[5] عن الحسنِ قال: حضر جماعةٌ من الناس بابَ عمرَ رضي الله عنه وفيهم سُهيلُ بن عَمرو القرشي، وكان أحدَ الأَشرافِ في

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٦٥.
(٢) الظالع: الذي يغمز في مشيه. الصحاح (ظلع).
(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٤٠ عن قتادة مرسلاً دون قوله: وقد أرضى الله الجميع...
(٤) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وسلف ص٣٦ من هذا الجزء.
(٥) ٤/ ٢٨٩ على هامش الإصابة.

الجاهلية، وأبو سفيانَ بنُ حرب، وأولئك المشايخُ من قريش، فأذن لصُهَيب وبلالٍ وأهل بدر، وكان يحبُّهم، وكان قد أوصَى بهم، فقال أبو سفيان: ما رأيتُ كاليوم قطُّ، إنَّه ليؤذن لهؤلاء العبيدِ ونحن جلوسٌ لا يلتفت إلينا، فقال سُهيل وكان أعقلَهم: أيُّها القوم، إني واللهِ قد أرى الذي في وجوهكم، فإنْ كنتم غضاباً، فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القومُ ودُعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، أمَا واللهِ لَمَا سبقوكم به من الفضل أشدُّ عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تنافسون عليه.

وفي «الكشَّاف»[1] أنَّه قال: إنَّما أُتينا من قِبَلنا، إنهم دُعوا ودُعينا، فأسرعوا وأبطأنا، وهذا بابُ عمرَ، فكيف التفاوتُ في الآخرة، ولَئن حسدتموهم على باب عمرَ، لَمَا أعدَّ اللهُ تعالى لهم في الجنَّة أكبر.

وقُرئ: «أكثرُ تفضيلاً» بالثَّاء المثلَّثة[2].

وجوِّز أن يرادَ بما به الإمدادُ العطايا العاجلةُ فقط، وحَملُ القصرِ المذكورِ على دفع توهُّم اختصاصِها بالفريق الأوَّل، فإنَّ تخصيصَ إرادتِهم لها ووصولِهم إليها بالذِّكر من غير تعرُّضٍ لبيان النِّسبةِ بينها وبين الفريقِ الثاني إرادةً ووصولاً ممَّا يوهم اختصاصَها بالأوَّلين، فالمعنى: كلَّ الفريقين نمدُّ بالعطايا العاجلة، لا مَن ذكرنا إرادتَه لها فقط من الفريق الأوَّل، من عطاء ربِّك الواسع، وما كان عطاؤه الدنيويُّ محظوراً من أحدٍ ممَّن يريد[3] وممن يريد غيرَه، انظر كيف فضَّلنا في ذلك العطاءِ بعضَ كلٍّ من الفريقين على بعضٍ آخَرَ منهما، ولَلآخرةُ.. إلخ.

وإلى نحو هذا ذهب الحسنُ وقتادةُ، فقد رُوي عنهما أنَّهما قالا في معنى الآية: إنَّ اللهَ تعالى يرزق في الدنيا مريدي العاجلة الكافرين ومريدي الآخرةِ المؤمنين ويمدُّ الجميعَ بالرزق.

وذِكرُ الرزق من بين ما به الإمداد، قيل: على سبيل التَّمثيل، وقيل: تخصيصٌ لدَلالة السِّياق. وجوِّز أن يكونَ المرادُ به معناه اللغويُّ، فيتناول الجاهَ ونحوَه،

---

(١) ٢/ ٤٤٤.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٢.
(٣) في تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٤ (والكلام منه): يريده.

كما يقال: السعادةُ أرزاق. واعتبر الجمهورُ عدمَ المحظوريةِ بالنِّسبة إلى الفريق الأوَّل تحقيقاً لشمول الإمداد له، حيث قالوا: لا يمنعُه من عاصٍ لعصيانه. واعتُرض بأنَّه يقتضي كونَ القصرِ لدفع توهُّم اختصاص الإمداد الدنيويِّ بالفريق الثاني، مع أنّه لم يسبقْ في الكلام ما يوهمُ ثبوتَه له، فضلاً عن إيهام اختصاصِه، وفيه تأمُّل.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ معنى «من عطاء ربك» من الطَّاعات، ويمدُّ بها مريدَ الآخرة، والمعاصي، ويمدُّ بها مريدَ العاجلة. فيكون العطاءُ عبارةً عمَّا قسم اللهُ تعالى للعبد من خيرٍ أو شرٍّ.

وأنت تعلم أنَّه يَبعد غايةَ البعدِ إرادةُ المعاصي من العطاء، ولعل نسبةَ ذلك للحبر غيرُ صحيحة، فلا تغفُل.

واعلَم أنَّ التقسيمَ الذي تضمَّنته الآيةُ غيرُ حاصر، وذلك غيرُ مضرٍّ، والتقسيمُ الحاصر أنَّ كلَّ فاعلٍ إمَّا أن يريدَ بفعله العاجلةَ فقط، أو يريدَ الآخرةَ فقط، أو يريدَهما معاً، أو لم يُرِد شيئاً، والقسمان الأوَّلان قد عُلم حكمُهما من الآية، والقسمُ الثالثُ ينقسم إلى ثلاثةِ أقسام؛ لأنَّه إمَّا أن تكونَ إرادةُ الآخرةِ أرجح، أو تكونَ مرجوحة، أو تكونَ الإرادتان متعادلتَين، وفي قَبول العملِ في القسم الأوَّل بحثٌ عند الإمام، قال[1]: يحتمل عدمَ القبول؛ لما رُوي عن ربِّ العزَّة جلَّ شأنه: «أنا أغنَى الشُّركاء عن الشِّرك، مَن عمل عملاً أَشركَ فيه غيري تركتُه وشِركَه»[2].

ويمكن أن يقالَ: إذا كانت إرادةُ الآخِرة راجحةً على إرادة الدُّنيا، تعارض المِثلُ بالمثل، فيبقى القَدْرُ الزائدُ خالصاً للآخِرة، فيجب كونُه مقبولاً.

وإلى عدم القَبول ذهب العزُّ بن عبدِ السلام[3]، ومالَ إلى القول بأصل الثَّواب حجَّةُ الإسلام الغزاليُّ، حيث قال[4]: لو كان اطِّلاع الناسِ مرجِّحاً أو مقوِّياً لنشاطه

(١) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٨٠.
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) انظر قواعد الأحكام ١/ ١١٧-١١٨.
(٤) في إحياء علوم الدين ٣/ ٣٠٢.

ولو فُقد لم تُترك العبادة، ولو انفرد قَصْدُ الرياءِ لَما أقدم، فالذي نظُنُّه ـ والعلمُ عند اللهِ تعالى ـ أنَّه لا يحبَط أصلُ الثواب، ولكنه يُعاقَب على مِقدار قصدِ الرِّياء، ويثابُ على مقدار قصدِ الثَّواب.

وهذا ظاهرٌ في أنَّ الرِّياء ولو محرَّماً لا يمنع أصلَ الثَّوابِ عنده إذا كان باعثُ العبادةِ أَغلب.

وذكر ابنُ حجرٍ أنَّ الذي يتَّجه ترجيحُه أنَّه متى كان المصاحِبُ لقصد العبادةِ رياءً مباحاً، لم يقتضِ إسقاطَ ثوابها من أصله، بل يثابُ على مقدار قصدِ العبادة وإنْ ضَعُف، أو محرَّماً، اقتضى سقوطَه من أصله؛ للأخبار، وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] قد لا يعكِّر على ذلك؛ لأنَّ تقصيرَه بقصد المحرَّم اقتضى سقوطَ قصدِ الأَجرِ، فلم تبقَ له ذرَّة من خير، فلم تشملْه الآية.

واتَّفقوا على عدم قَبول ما ترجَّح فيه باعثُ الدنيا، أو كان الباعثانِ فيه متساويين، وخصَّ الغزاليُّ الأحاديثَ الدالَّة بظاهرها على عدم القبولِ مطلقاً بهذين القِسمين. وتمامُ الكلام في هذا المَقام في «الزَّواجر عن اقتراف الكبائر»[1].

وأمَّا القسمُ الرابع عند القائلين بأنَّ صدورَ الفعلِ من القادر يتوقَّف على حصول الدَّاعي، فهو ممتنعُ الحصول، والذين قالوا: إنَّه لا يتوقَّف، قالوا: ذلك الفعلُ لا أثرَ له في الباطن، وهو محرَّم في الظاهر؛ لأنَّه عبث، واللهُ تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارةِ في الآيات: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ فيه أربعُ إشارات: إشارةُ التقديسِ بـ «سبحان»، فهو تنزيهٌ له تعالى عن اللَّواحق الماديةِ والنقائصِ التشبيهية، وعن جميع ما يَرتسم في الأذهان. وإشارةُ الغَيرة بعدم ذِكر الاسمِ الظاهرِ من أسمائه الحسنى عزَّت أسماؤه، وكذا بعدم ذِكر اسمِه ﷺ. وإشارةُ الغيبِ بذِكر ضميرِ الغائب. وإشارة السرِّ بذكر الليل؛ فإنه محلُّ السرِّ والنجوى. وعن بعض الأكابر: لولا الليلُ ما أحببتُ البقاءَ في الدنيا.

---

(١) الزواجر ١/ ٤١.

وذكرَ غيرُ واحدٍ أنَّ في اختيار عنوانِ العبوديَّة إشارةً إلى أنَّها أعلى المقاماتِ، وقد أُشير إلى ذلك فيما سلف. وأصلُها الذلُّ والخضوع، وحيث إنَّ الذلَّ لشيءٍ لا يكون إلَّا بعد معرفته، دلَّت العبوديةُ لله تعالى على معرفته سبحانه، وكمالُها على كمالها.

ومن هنا فسَّر ابنُ عباس قولَه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] بقوله: إلَّا ليعرفون، وهي تسعةٌ وتسعون سهماً، بعدد الأسماءِ الإلهية التي مَن أحصاها دخل الجنَّة، لكلِّ اسمٍ إلهيٍّ عبوديةٌ مختصَّة به، يتعبَّد له مَن يتعبَّد من المخلوقين.

ولم يتحقَّق بهذا المقامِ على كماله مثلُ رسولِ الله ﷺ، فكان عبداً محضاً زاهداً في جميع الأحوالِ التي تُخرجه عن مرتبة العبوديَّة، وشهد اللهُ تعالى له بأنه عبدٌ مضاف إليه من حيث هُويتُه هنا، واسمُه الجامعُ في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [الجن: ١٩] ولمَّا أُمر ﷺ بتعريف مَقامِه يوم القيامة، قيَّد ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «أنا سيِّد ولدِ آدمَ ولا فخر» بالراء أو الزاي[١]، على اختلاف الرِّوايتين، وهي لِمَا علمتَ مِن معناها لا يمكنُ أن تكونَ نعتاً إلهيًّا أصلاً، بل هي صفةٌ خاصَّة لا اشتراكَ فيها، فقد قال أبو يزيدَ البِسطاميُّ: ما وجدتُ شيئاً يُتقرَّب به إليه تعالى؛ إذ رأيتُ كلَّ نعتٍ يُتقرَّب به للألُوهية فيه مدخلٌ، فقلت: يا ربِّ، بماذا أتقرَّب إليك؟ قال: تقرَّبْ إليَّ بما ليس لي، قلتُ: يا ربِّ، وما الذي ليس لك؟ قال: الذِّلَّة والافتقار.

وذُكر أنَّ العبدَ مع الحقِّ في حال عبوديَّته كالظِّل مع الشَّخص في مقابلة السِّراج، كلَّما قَرُبَ إلى السِّراج عَظُمَ الظِّلُّ، ولا قُربَ من الله تعالى إلَّا بما هو لك وصفٌ أخصُّ، لا له سبحانه، وكلَّما بعد عن السِّراج صَغُرَ الظِّلُّ، فإنَّه ما يُبعدك عن الحقِّ إلَّا خروجُك عن صفتك التي تستحقُّها، وطمعُك في صفته تعالى، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر: ٣٥] وهما صفتانِ لله تعالى، و﴿ذُقْ

---

(١) الرواية بالراء أخرجها ابن حبان (٦٢٤٢) من حديث واثلة بن الأسقع ﷺ، وسلفت ١٢/ ٣٧٨، والرواية بالزاي نقلها العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٣٥ عن الفتوحات المكية.

إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] وهما كذلك، وإلى هذا أشار ﷺ بقوله: «أعوذُ بك منك»(١).

وأوَّل بعضُهم الليلَ بظُلمة الغواشي البدنية والتعلُّقات الطبيعية، وقال: إنَّ الترقِّي والعروجَ لا يكون إلَّا بواسطة البدن، وقد صرَّحوا بأنَّه ﷺ أُسري به وكذا عُرج يقظةً لم يفارق بدنَه، إلَّا أن العارف الجاميَّ قال: إنَّ ذلك إلى المحدَّد، ثم ألقَى البدنَ هناك، وقد تقدَّم ذلك.

وفي «أسرار القرآن» أنَّه عليه الصلاة والسلام أُسري به من رؤية أفعالِه إلى رؤية صفاته، ومن رؤية صفاتِه إلى رؤية ذاتِه، فرأى الحقَّ بالحقِّ، وكانت صورتُه روحَه، وروحُه عقلَه، وعقلُه قلبَه، وقلبُه سرَّه، وكأنَّه أراد أنه ﷺ حصل له هذا الإسراءُ، وإلَّا فإرادةُ أنَّ الإسراءَ الذي في الآية هو هذا ممَّا لا ينبغي.

ولا يخفَى أنَّ الإسراءَ غيرُ المعراج، نعم قد يطلقون الإسراءَ على المعراج، بل قيل: إنَّهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

وقد ذكروا أنَّ لجميع الوارثين معراجاً، إلَّا أنَّه معراجُ أرواحٍ لا أشباح، وإسراءُ أسرارٍ لا أسوار، ورؤيةُ جَنان لا عِيان، وسلوك ذَوقٍ وتحقيق لا سلوكُ مسافةٍ وطريق، إلى سماوات معنًى لا مغنًى، وهذا المعراجُ متفاوتٌ حسب تفاوتِ مراتبِ الرِّجال.

وقد ذكر الشيخُ الأكبر قدِّس سرُّه في معراجه ما يحيِّر الألباب، ويقضى منه العجب العجاب، ولم يُستبعَد ذلك منه، بناءً على أنَّه ختمُ الولايةِ المحمَّدية عندهم. ومِن عجائب ما اتَّفق في زماننا أنَّ رجلاً يُدعَى بـ: عبد السلام نائبِ القاضي في بغداد، وكان جَسوراً على الحكم بالباطل، شَرَعَ في ترجمة معراجِ الشيخِ قدِّس سره بالتُّركية، مع شرح بعض مغلَقاته، ولم يكن من خبايا هاتيكَ الزَّوايا، فقبل أن يتمَّ مرامُه ابتُلي - والعياذُ بالله تعالى - بأَكِلَة في فمه، فأكلته إلى أذُنيه، فمات وعُرج بروحه إلى حيث شاءَ اللهُ تعالى، نسأل اللهَ سبحانه العفوَ والعافية، في الدِّين والدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٧)، والترمذي (٣٥٦٦) وحسنه من حديث علي رضي الله عنه، وسلف ١/ ١١٤.

ونُقل عن الشيخ قدِّس سرُّه أنَّ الإسراءَ وقع له ﷺ ثلاثين مرَّة. وفي كلام الشيخ عبد الوهَّاب الشعرانيِّ أن إسراءاتِهِ عليه الصلاة والسلام كانت أربعاً وثلاثين، واحدٌ منها بجسمه، والباقي بروحه، وقد صرَّحوا أنَّ الأوَّل من خصائصه ﷺ.

وفي «الخصائص الصُّغرى»: وخصَّ عليه الصلاة والسلام بالإسراء، وما تضمَّنه من خرق السَّماوات السبعِ والعلوِّ إلى قابِ قوسين، ووطئه مكاناً ما وطئه نبيٌّ مرسَل ولا مَلَك مقرَّب، وأنَّ قطعَ المسافةِ الطويلة في الزَّمن القصيرِ ممَّا يكون كرامةً للوليِّ، والمشهورُ تسميةُ ذلك بطيِّ المسافة، وهو من أَعظم خوارقِ العادات، وأَنكر ثبوتَه للأولياءِ الحنفيةُ، ومنهم ابنُ وهبان، قال:

ومَن لوليٍّ قال طيُّ مسافةٍ يجوز جهولٌ ثم بعضٌ يكفِّرُ

وهذا منهم مع قولِهم: إذا وُلد لمغربيٍّ ولدٌ من امرأته المشرقيةِ مثلاً يُلحق به وإنْ لم يلتقيا ظاهراً، غريب، والكتبُ ملأى من حكايات الثقاتِ هذه الكرامةَ لكثيرٍ من الصالحين، وكأنَّ مجهِّل قائلِها بنَى تجهيلَه على أنَّ في ذلك قولاً بتداخُل الجواهر، وقد أحاله المتكلِّمون خلافاً للنظَّام، وبرهنوا على استحالته بما لا مزيدَ عليه، وادَّعى بعضُهم الضرورةَ في ذلك.

وأنت تعلمُ أنَّ قطعَ المسافةِ الطويلة في الزَّمن القصيرِ لا يتوقَّف على تداخلِ الجواهر؛ لجواز أن يكونَ بالسُّرعة، كما قالوا في الإسراء، فليثبت للأولياءِ على هذا النَّحو، على أنَّ الكراماتِ ـ كالمعجزات ـ مجهولةُ الكيفية، فنؤمنُ بما صحَّ منها، ونفوِّض كيفيتَه إلى مَن لا يُعجزه شيءٌ سبحانه وتعالى، ومثلُ طيِّ المسافةِ ما يحكونه من نشر الزَّمان، وأنا مؤمنٌ ـ ولله تعالى الحمدُ ـ بما يصحُّ نقله من الأمرين، والمكفِّر جَهول، والمجهِّل ليس برسول، واللهُ تعالى الموفِّق للصواب، وإليه المرجعُ والمآب.

وأُوِّل المسجدُ الحرام بمقام القلبِ المحترَم عن أن يطوفَ به مشركو القُوى البدنية، ويرتكبَ فيه فواحشها وخطاياها، والمسجدُ الأَقصى بمقام الروحِ الأَبعد من العالَم الجسماني.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي: آياتِ صفاتنا، من جهة أنَّها منسوبةٌ إلينا ونحن المشاهدون بها، وإلَّا فأصلُ مشاهدةِ الصفات في مقام القلب.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ قال سهلٌ: أي: إنْ عُدتم إلى المعصية عُدنا إلى المغفرة، وإنْ عدتم إلى الإعراض عنّا عدنا إلى الإقبال عليكم، وإنْ عُدتم إلى الفِرار منّا عدنا إلى أخذ الطريقِ عليكم لترجعوا إلينا. وقال الورّاق: إنْ عدتم إلى الطاعةِ عدنا إلى التّيسير والقَبول. وقيل غيرُ ذلك.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الآية، أي: إنَّ هذا القرآنَ يَعرف أهلَه بنوره أقومَ الطُّرق إلى الله تعالى، وهو طريقُ الطاعة والاقتداءِ بمَن أُنزل عليه عليه الصلاة والسلام، فإنه لا طريقَ يوصل إلّا ذلك، ولله تعالى درُّ مَن قال:

وأنتَ بابُ الله أيُّ امرئٍ ... أتاه من غيرك لا يدخلُ[(١)]

وذكروا أنَّ القرآن يُرشد بظاهره إلى معاني باطنِه، وبمعاني باطنه إلى نورِ حقيقته، وبنور حقيقتِه إلى أصل الصِّفة، وبالصِّفة إلى الذّات، فطوبَى لمن استرشد بالقرآن، فإنّه يدلُّه على الله تعالى، وقد أَحسنَ مَن قال[(٢)]:

إذا نحن أَدلجنا وأنت أمامَنا ... كفَى لمطايانا بنوركَ هاديا

﴿وَيُبَشِّرُ﴾ أهلَه الذين يتّبعونه أنَّ لهم أجرَ المشاهدةِ وكشفَها بلا حجاب.

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ فيه إشارةٌ إلى أدبٍ من آداب الدُّعاء، وهو عدمُ الاستعجال، فينبغي للسّالك أن يصبرَ حتى يعرفَ ما يَليق بحاله فيدعو به. وقال سَهل: أَسلَمُ الدَّعوات الذِّكرُ وتركُ الاختيار؛ لأنَّ في الذِّكر الكفايةَ، وربَّما يسأل الإنسانُ ما فيه هلاكُه ولا يشعر. وفي الأثر: يقول الله تعالى شأنُه: «من شغله ذِكري عن مسألتي، أعطيه أفضلَ ما أعطي السائلين»[(٣)].

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ﴾ أي: ليلَ الكونِ وظلمة البدن ﴿وَالنَّهَارَ﴾ أي: نهارَ الإبداع والرُّوح ﴿آيَتَيْنِ﴾ يتوصَّل بهما إلى معرفة الذاتِ والصِّفات ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ بالفساد والفَناء ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ منيرةً باقيةً بكمالها، تُبصَر بنورها الحقائقُ ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو كمالُكم الذي تستعدُّونه ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ

---

(١) البيت للشيخ محمد البكري كما في خلاصة الأثر ٢/ ٤١٠، وسلف ٧/ ٣٧٣.

(٢) هو عمرو بن شأس. معجم الشعراء ص ٢٢، والحماسة البصرية ٢/ ١٤٥.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بلفظ: «من شغله القرآن وذكري...» ينظر ما سلف ١١/ ٤٣.

﴿ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: لتُحصوا عددَ المراتبِ والمقامات من بدايتكم إلى نهايتكم بالترقِّي فيها، وحسابَ أعمالِكم وأخلاقِكم وأحوالكم، فتُبدلوا السيئَ من ذلك بالحسن ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من العلوم والحِكَم ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ بنور عقولِكم الفرقانيةِ الحاصلةِ لكم عند الكمالِ ﴿تَفْصِيلًا﴾ لا إجمال فيه، كما في مرتبة العقلِ القرآنيِّ الحاصل عند البداية.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.. الآيةُ، تقدَّم ما يصلحُ أن يكونَ من باب الإشارة فيها.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ للصُّوفية في هذا الرسولِ ـ كغيرهم ـ قولان، فمنهم مَن قال: إنَّه رسولُ العقل، ومنهم مَن قال: رسولُ الشَّرع.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ الآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّه سبحانه إذا أراد أن يخربَ قلبَ المريد، سلَّط عليه عساكرَ هوى نفسِه، وجنودَ شياطينه، فيخرب بسنابك[(١)] خيولِ الشَّهوات، وآفات الطَّبْعيات، نعوذُ بالله تعالى من ذلك.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ لكدورة استعدادِه، وغَلَبة هواه وطبيعتِه ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا﴾ عن ذوي العقول ﴿مَّدْحُورًا﴾ في سخط اللهِ تعالى وقهرِه.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ لصفاء استعدادِه، وسلامةِ فِطرته ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ اللائقَ بها، وهو السعيُ على سبيل الاستقامةِ وما ترتضيه الشَّريعة. وقال بعضُهم: السعيُ إلى الدنيا بالأبدان والسعيُ إلى الآخرة بالقلوب، والسعيُ إلى الله تعالى بالهِمَم ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ثابتُ الإيمان لا تزعزعه عواصفُ الشُّبه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مقبولاً مثاباً عليه.

وعن أبي حفصٍ[(٢)]: أنَّ السعيَ المشكورَ ما لم يكن مَشوباً برياءٍ ولا بسمعة، ولا برؤية نفسٍ ولا بطلب عِوَض، بل يكون خالصاً لوجهه تعالى لا يشاركه في ذلك شيءٌ، فلا تغفُل.

---

(١) السُّنْبُك: طرف الحافر. القاموس (السنبك).

(٢) هو شهاب الدين السهروردي، والله أعلم.

﴿كُلًّا نُمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ لا تأثيرَ لإرادتهم وسعيِهم في ذلك، وإنما هي معرفاتٌ وعلاماتٌ لما قدَّرنا لهم من العطاء، ورأيتُ في «الفتوحات المكية»[1] أنَّ هذه الآيةَ نحوُ قولهِ تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] وهو نحوُ ما تقدَّم عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وقد سمعتَ ما فيه.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ عن أحد، مطيعاً كان أو عاصياً؛ لأنَّ شأنَه تعالى شأنُه الإفاضةُ حسبما تقتضيه الحِكمة.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا، بمقتضى المشيئةِ والحِكمة ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فهناك ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلبِ بشر، رَزَقنا اللهُ تعالى وإيَّاكم ذلك، إنَّه سبحانه الجوادُ المالك.

❁ ❁ ❁

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطابُ للرَّسول ﷺ، والمرادُ به أمَّتُه، على حدِّ: إياكِ أعني فاسمعي يا جارة، أو لكلِّ أحدٍ ممَّن يصلح للخطاب، على حدِّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا﴾ [الأنعام: ٢٧، ٣٠].

﴿فَتَقْعُدَ﴾ بالنَّصب على النهي، والقعودُ، قيل: بمعنى المُكث، كما تقول: هو قاعدٌ في أسوأ حال، أي: ماكثٌ ومقيم، سواءٌ كان قائماً أم جالساً. وقيل: بمعنى العَجز، والعربُ تقول: ما أقعدَك عن المكارِم، أي: ما أَعجزَك عنها. وقيل: بمعنى الصَّيرورة، من قولهم: شحذَ الشفرةَ حتى قعدت كأنَّها حربة، أي: صارت.

وتعقَّب هذا أبو حيَّان[2] بأنَّ مجيءَ قعد بمعنى صار مقصورٌ عند الأصحابِ على هذا المَثَل، ولا يطَّرد. وقال بعضُهم: إن اطَّرد فإنَّما يطَّرد في مثل الموضعِ الذي استعملته العربُ فيه أوَّلاً، يعني القولَ المذكور، فلا يقال: قعد كاتباً، بمعنى صار، بل: قعد كأنَّه سلطان، لكونه مثلَ: قَعَدت كأنَّها حربة.

ولعل مَن فسَّر القعودَ هنا بمعنى الصَّيرورة ذهب مذهبَ الفرَّاء؛ فإنه ـ كما قال

---

(١) في الباب الخامس ١/ ١١٣.
(٢) في البحر ٦/ ٢٢.

أبو حيَّان[1] وغيرُه ـ يقول باطِّراد ذلك، وجعل منه قولَ الراجزِ المذكورِ في «البحر» و«الحواشي الشِّهابية»[1] ولا حجَّةَ فيه. وحكى الكِسائي: قَعَدَ لا يسأل حاجةً إلَّا قضاها، واستعمالُ البغداديِّين على هذا.

ثم إنَّهم اختلفوا في القُعود بمعنى العجز، فقيل: هو مجازٌ من القعود ضدِّ القيام، كالمُقعَد بمعنى العاجزِ عن القيام، ثم تجوِّز به عن مُطلَق العجز. وقيل: هو كنايةٌ عن العجز؛ فإنَّ مَن أراد أخذَ شيءٍ يقوم له، ومَن عجز قعد. وأمَّا القعودُ بمعنى الزَّمانة فحقيقة، والإقعادُ مجاز، كأنَّ مرضه أقعده وجُعل هذا القعودُ بمعنى المكثِ حقيقةً. وتعقِّب بأنَّ فيه نظراً، إلَّا أن يريدَ حقيقةً عرفيةً لا لغوية؛ لأنَّه ضدُّ القيام. وإذا جُعل القعودُ هنا بمعنى العجز، فالفعلُ لازم، ومتعلَّقه محذوف، أي: فتعجزَ عن الفوز بالمقصود، مثلاً.

و: ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ إمَّا خبران لـ «تقعد»، على القول الأخير، وإمَّا حالان مترادفان، أي: فتقعدَ جامعاً على نفسك الخِذلانَ من الله تعالى، والذمَّ من الملائكة والمؤمنين، أو من ذَوِي العقول، حيث اتَّخذت محتاجاً مفتقِراً مثلَك لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا إلهاً، ونسبتَ إليه ما لا يصلحُ له، وجعلتَه شريكاً لمن له الكمالُ الذاتيُّ، وهو الذي خلقكَ ورزقكَ وأنعم عليك، على ما عداه.

وجوَّز أبو حيَّان[2] أن يرادَ بالقعود حقيقتُه؛ لأنَّ مِن شأن المذموم المخذولِ أن يقعدَ حائراً متفكِّراً، وهو من باب التعبيرِ بالحال الغالبة. وفي الآية إشعارٌ بأنَّ الموحِّد جامعٌ بين المدح والنُّصرة.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أخرج ابن جَريرٍ وابنُ المنذر من طريق عليٍّ بن أبي طلحةَ عن ابن عباسٍ أنَّه قال: أي: أَمَرَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[3] أي: بألَّا تعبدوا..إلخ، على أنَّ «أنْ» مصدرية، والجارَّ قبلها مقدَّر، و«لا» نافيةُ، والمراد النَّهي. ويجوز أن تكونَ ناهيةً كما مرَّ، ولا ينافيه التأويلُ بالمصدر كما أسلفناه.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٢، وحاشية الشهاب ٦/ ٢١، وينظر الرجز المذكور فيه، ولم نذكره لفحشه.

(٢) في البحر ٦/ ٢٢.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٧١، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٤٢.

أو: أَيْ: لا تعبدوا . . إلخ، على أنَّ «أنْ» مفسِّرة؛ لتقدُّم ما تضمَّن معنى القولِ دون حروفِه، و«لا» ناهيةٌ لا غير.

وجوَّز بعضُهم أن تكونَ «أن» مخفَّفة، واسمُها ضمير شأنٍ محذوف، و«لا» ناهيةٌ أيضاً. وهو كما ترى.

وجوَّز أبو البقاءِ[١] أن تكونَ «أن» مصدريةً، و«لا» زائدةً، والمعنى: اِلزَم ربَّك عبادته. وفيه أنَّ الاستثناءَ يأبى ذلك.

وفي «الكشَّاف»[٢] تفسيرُ «قضى» بـ: أمر أمراً مقطوعاً به. وجعل ذلك غيرُ واحدٍ من باب التَّضمين، وجعل المضمنَ أصلاً والمتضمنَ قيداً. وقال بعضُهم: أراد أن القضاءَ مجازٌ عن الأمر المبتوتِ الذي لا يحتمل النسخَ، ولو كان ذلك من التَّضمين لَكان متعلَّق القضاءِ الأمرَ دون المأمورِ به، وإلَّا لزم ألَّا يعبدَ أحدٌ غيرَ الله تعالى، فيحتاجُ إلى تخصيص الخطابِ بالمؤمنين، فيَرِد عليه بأنَّ جميع أوامرِ الله تعالى بقضائه، فلا وجهَ للتخصيص.

وتعقِّب بأنَّ ما ذكر متوجِّه لو أُريد بالقضاء أخو القَدَرِ، أمَّا لو أُريد به معناه اللغويُّ الذي هو البتُّ والقطع المشارُ إليه، فلا يَرِد ما ذكره.

ثم إنَّ لزوم ألَّا يعبدَ أحدٌ غيرَ اللهِ تعالى ادَّعاه ابنُ عباس ـ فيما يروى ـ للقضاءِ من غيرِ تفصيل، فقد أخرج أبو عُبيدٍ، وابنُ مَنيع، وابن المنذرِ، وابنُ مردويه من طريق ميمون بن مِهران عنه رضي الله عنه أنَّه قال: أنزل اللهُ تعالى هذا الحرفَ على لسان نبيِّكم: «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» فلصقت إحدى الواوَين بالصَّاد، فقرأ الناسُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ ولو نزلت على القضاءِ ما أشركَ به أحد[٣].

وأخرج مثلَ ذلك عنه جماعةٌ من طريق سعيد بن جُبير وابنُ أبي حاتمٍ من طريق الضحَّاك، ورُويت هذه القراءةُ عن ابن مسعودٍ وأبَيِّ بن كعب رضي الله عنهما أيضاً[٤]. وهذا ـ إن

---

(١) في الإملاء ٣/ ٤٧٦.
(٢) ٢/ ٤٤٤.
(٣) الدر المنثور ٤/ ١٧٠.
(٤) رواها عنهما الطبري في تفسيره ١٤/ ٥٤٢-٥٤٣، وينظر الدر المنثور ٤/ ١٧٠.

صحَّ ـ عجيبٌ من ابن عباس؛ لاندفاع المحذورِ بحمل القضاءِ على الأمر ـ ولا أقلّ ـ كما هو مرويٌّ عنه أيضاً، نعم قيل: إنَّ ذلك معنًى مجازيٌّ للقضاء، وقيل: إنَّه حقيقيٌّ.

وفي «مفرَدات» الرَّاغب[1]: القضاء: فصلُ الأمر، قولاً كان أو فعلاً، وكلٌّ منهما إلهيٌّ وبشري، فمن القولِ الإلهيِّ قولُه تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: أَمَرَ ربُّك. .إلى آخِر ما قال. ثم إنَّ هذا الأمرَ عند البعضِ بمعنى مطلَقِ الطلب، ليتناول طلبَ تركِ العبادةِ لغيره تعالى، ويُغني عن هذا التجوُّزُ، كما قيل: إنَّ معنى لا تعبدوا غيرَه: اُعبدوه وحده، فهو أمرٌ باعتبار لازمِه، وإنَّما اختير ذلك للإشارة إلى أنَّ التخليةَ بترك ما سواه مقدِّمة مهمَّة هنا، وأمر سبحانه ألَّا يعبدوا غيرَه تعالى؛ لأن العبادةَ غايةُ التعظيم، وهي لا تَليق إلَّا لمَن كان في غاية العظمة منعِماً بالنِّعَم العظام، وما غيرُ اللهِ تعالى كذلك. وهذا وما عُطف عليه من الأَعمال الحسنةِ كالتفصيل للسَّعي للآخرة.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: وبأن تُحسنوا بهما، أو: أَحسِنوا بهما إحساناً، ولعلَّه إذا نُظر إلى توحيد الخطابِ فيما بعدُ، قُدِّر: وأَحسن بالتوحيد أيضاً.

والجارُّ والمجرور متعلِّق بالفعل المقدَّر، وهو الذي ذهب إليه الزمخشريُّ[2]، ومنع تعلُّقَه بالمصدر؛ لأنَّ صلته لا تتقدَّم عليه، وعلَّقه الواحديُّ به، فقال الحلبيُّ[3]: إن كان المصدرُ منحلًّا بـ : «أنْ» والفعل، فالوجهُ ما ذهب إليه الزمخشريُّ، وإن جُعل نائباً عن الفعل المحذوف، فالوجهُ ما قاله الواحديُّ، ومذهبُ الكثيرِ من النُّحاة جوازُ تقديمِ معموله إذا كان ظرفاً مطلقاً؛ لتوسُّعهم فيه، والجارُّ والمجرورُ أخوه.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ «إمَّا» مركَّبة من «إن» الشرطيةِ و«ما» المزيدةِ لتأكيدها.

---

(١) مادة (قضى).
(٢) في الكشاف ٢/ ٤٤٤.
(٣) في الدر المصون ٧/ ٣٣٤.

قال الزمخشريُّ[(١)]: ولذا صحَّ لحوقُ النونِ المؤكِّدة للفعل، ولو أُفردت «إنْ» لم يصحَّ لحوقُها، واختُلف في لَحاقها بعد الزِّيادة، فقال أبو إسحاقَ بوجوبه، وعن سيبويه[(٢)] القولُ بعدم الوجوب، ويُستشهد له بقول أبي حيَّةَ النميري:

فـإمَّـا تَـرَي لِـمَّـتـي هـكـذا ... فـقـد أُدركُ الـفـتـيـاتِ الـخـفـارا[(٣)]

وعليه قولُ ابنِ دريد[(٤)]:

أمـا تَـرَي رأسـي حـاكـى لـونُـه ... طُـرَّةَ صـبـحٍ تـحـت أذيـالِ الـدُّجـى

ومعنى «عندك» في كَنَفك وكفالتِك، وتقديمُه على المفعول مع أنَّ حقَّه التأخيرُ عنه؛ للتَّشويق إلى وُروده، فإنَّه مدارُ تضاعفِ الرِّعاية والإحسان. و«أحدهما» فاعلٌ للفعل، وتأخيرُه عن الظَّرف والمفعول، لئلَّا يطولَ الكلام به وبما عُطف عليه، و«كلاهما» معطوفٌ عليه.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «إما يَبْلُغانِّ»[(٥)]، فـ«أحدهما» ـ على ما في «الكشَّاف»[(٦)] ـ بدلٌ من أَلِف الضميرِ لا فاعلٌ، والألفُ علامةُ التثنية على لغة: أَكلوني البراغيث، فإنه رُدَّ بأنَّ ذلك مشروطٌ بأن يُسندَ الفعلُ للمثنَّى، نحو: قاما أَخواك، أو لمفرَّق بالعطف بالواو خاصَّة، على خلافٍ فيه، نحو: قاما زيدٌ وعَمرٌو، وما هنا ليس كذلك.

واستُشكلت البدليةُ بأن «أحدهما» على ذلك بدلُ بعضٍ من كلٍّ، لا كلٍّ من كلّ؛ لأنَّه ليس عينَه، و«كلاهما» معطوفٌ عليه، فيكون بدلَ كلٍّ من كلٍّ، لكنه خالٍ عن الفائدة، على أنَّ عطف بدلِ الكلِّ على غيره ممَّا لم نجده.

وأُجيب بأنَّا نسلِّم أنه لم يُفِد البدلُ زيادةً على المبدَل منه، لكنه لا يضرُّ؛ لأنَّه

(١) في الكشاف ٢/ ٤٤٤.
(٢) الكتاب ٣/ ٥١٤-٥١٥.
(٣) البيت في منتهى الطلب ٧/ ٢٣٣، والشطر الثاني فيه:
فـأكـثـرتِ مـمـا رأيـت الـنِّـفـارا
(٤) مقصورة ابن دريد لمحمد بن أحمد بن هشام اللخمي ص١١٥، وسلف ٨/ ٢٢٩.
(٥) التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٦.
(٦) ٢/ ٤٤٤.

شأنُ التأكيد، ولو سلِّم أنَّه لا بدَّ من ذلك ففيه فائدةٌ؛ لأنه بدلٌ مقسم كما قاله ابنُ عطية[١]، فهو كقوله[٢]:

فكنتُ كذي رِجْلَين رِجْلٍ صحيحةٍ   وأُخرى رمى فيها الزمانُ فشلَّتِ

وتعقِّب بأنَّه ليس من البدل المذكور؛ لأنَّه شرطُه العطفُ بالواو، وألَّا يَصدقَ المبدلُ منه على أَحد قسمَيه، وهنا قد صَدَقَ على أحدهما. وبالجملة هذا الوجهُ لا يخلو عن القيلِ والقال.

وعن أبي عليٍّ الفارسي[٣] أنَّ «أحدهما» بدلٌ من ضمير التَّثنية، و«كلاهما» تأكيدٌ للضمير.

وتعقِّب بأنَّ التأكيدَ لا يُعطَف على البدل كما لا يُعطَف على غيره، وبأنَّ أحدهما لا يصلحُ تأكيداً للمثنَّى ولا غيره، فكذا ما عُطف عليه، وبأنَّ بين إبدال بدلِ البعض منه وتوكيدِه تدافعاً؛ لأنَّ التأكيد يدفع إرادةَ البعضِ منه.

ومِن هنا قال في «الدُّرّ المصون»[٤]: لابدَّ من إصلاحه بأن يجعلَ «أحدهما» بدلَ بعضٍ من كلٍّ، ويضمرَ بعده فعلٌ رافعٌ لضمير تثنية، و«كلاهما» توكيدٌ له، والتقدير: أو يبلغان كلاهما، وهو من عطف الجملِ حينئذ، لكن فيه حذفُ المؤكَّد وإبقاءُ تأكيدِه، وقد منعه بعضُ النُّحاة، وفيه كلامٌ في مفصَّلات العربية.

ولعل المختارَ إضمارُ فعل لم يتَّصل به ضميرُ التثنية، وجَعلُ «كلاهما» فاعلاً له، فإنَّه سالمٌ عما سمعتَ في غيره، ولذا اختاره في «البحر»[٥].

وتوحيدُ ضميرِ الخطابِ في «عندك» وفيما بعدَه، مع أنَّ ما صرَّح به فيما سبقَ على الجمع؛ للاحتراز عن التباس المراد، وهو نهيُ كلِّ أحدٍ عن تأفيف والدَيه ونهرِهما، فإنَّه لو قوبل الجمعُ بالجمع أو التثنيةُ بالتثنية، لم يحصل ذلك. وذكر أنَّه

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٨.
(٢) هو كثير عزة، والبيت في ديوانه ص٧٨.
(٣) الحجة ٥/ ٩٦.
(٤) ٧/ ٣٣٧.
(٥) ٦/ ٢٧.

وحّد الخطابُ في «ولا تجعل» للمبالغة، وجُمع في «أن لا تعبدوا إلا إياه» لأنّه أوفقُ لتعظيم أمر القضاء.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ﴾ أي: لواحدٍ منهما حالتَي الانفرادِ والاجتماع ﴿أُفٍّ﴾ هو اسمُ صوتٍ ينبئُ عن التضجُّر، أو اسمُ فعلٍ هو: أتضجَّر، واسمُ الفعلِ بمعنى المضارع ـ وكذا بمعنى الماضي ـ قليل، والكثيرُ بمعنى الأمر. وفيه نحوٌ من أربعين لغة، والواردُ من ذلك في القراءات سبع: ثلاثٌ متواترة، وأربعٌ شاذة[1]. فقرأ نافعٌ وحفصٌ بالكسر والتنوين[2]، وهو للتَّنكير، فالمعنى: أتضجَّر تضجُّراً ما، وإذا لم ينوِّن، دلَّ على تضجُّر مخصوص.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ بالفتح دونَ تنوين، والباقونَ بالكسر دونَ تنوين[2]، وهو على أصل التقاءِ السَّاكنَين، والفتحُ للخفَّة، ولا خلافَ بينهم في تشديد الفاءِ.

وقرأ نافعٌ في روايةٍ عنه بالرفع والتنوين، وأبو السمَّال بالضمِّ للإتْباع من غير تنوين، وزيدُ بن عليٍّ رضي الله عنه بالنَّصب والتنوين، وابنُ عباس رضي الله عنهما بالسُّكون[3].

ومحصَّلُ المعنى: لا تتضجَّرْ ممَّا يُستقذَر منهما وتستثقلُ من مؤنهما. والنهيُ عن ذلك يدلُّ على المنع من سائر أنواع الإيذاءِ قياساً جليًّا؛ لأنَّه يُفهم بطريق الأَولى، ويسمَّى مفهومَ الموافقة، ودلالَةَ النصِّ، وفحوى الخطاب. وقيل: يدلُّ على ذلك حقيقةً ومنطوقاً في عرف اللغة، كقولك: فلانٌ لا يملك النقيرَ والقطمير، فإنه يدلُّ كذلك على أنَّه لا يملك شيئاً قليلاً أو كثيراً.

وخصَّ بعض أَنواع الإِيذاءِ بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ للاعتناءِ بشأنه. والنَّهرُ ـ كما قال الراغبُ[4] ـ الزجرُ بإغلاظ. وفي «الكشَّاف»[5]: النهيُ والنَّهْر والنَّهم أَخوات، أي: لا تزجرْهما عمَّا يتعاطيانه مما لا يُعجبك.

وقال الإمام[6]: المرادُ من قوله تعالى: (فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ) المنعُ من إظهار

---

(١) ذكرها في البحر ٦/ ٢٧.

(٢) التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٦-٣٠٧.

(٣) ينظر القراءات الشاذة ص٧٦، والمحتسب ٢/ ١٨، والبحر المحيط ٦/ ٢٧.

(٤) في المفردات (نهر).

(٥) ٢/ ٤٤٤.

(٦) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٩٠.

الضَّجَرِ القليلِ والكثير، والمرادُ من قوله سبحانه: «ولا تنهرهما» المنعُ من إظهار المخالفةِ في القول على سبيل الردِّ عليهما والتكذيبِ لهما؛ ولذا رُوعيَ هذا الترتيب، وإلَّا فالمنعُ من التأفيف يدلُّ على المنع من النَّهر بطريق الأَولى، فيكون ذِكرُه بعده عبثاً، فتأمَّل.

﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدلَ التأفيفِ والنَّهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: جميلاً لا شراسةَ فيه. قال الرَّاغب[(١)]: كلُّ شيءٍ يشرف في بابه فإنَّه يوصف بالكرم.

وجَعَلَ ذلك بعضُ المحقِّقين من وصف الشيءِ باسم صاحبِه، أي: قولاً صادراً عن كرمٍ ولُطف، ويعودُ بالآخرة إلى القول الجميلِ الذي يقتضيه حسنُ الأدب، ويستدعيه النزولُ على المروءة، مثل أن يقولَ: يا أَبتاه، ويا أُمّاه، ولا يدعوهما بأسمائهما، فإنَّه من الجَفاء وسوءِ الأدب، وليس القولُ الكريم مخصوصاً بذلك، كما يوهمه اقتصارُ الحسنِ ـ فيما أَخرجه عنه ابنُ أبي حاتمٍ ـ عليه؛ فإنَّه من باب التمثيل[(٢)]، وكذا ما أَخرج عن زهير بنِ محمد أنَّه قال فيه: إذا دعواك فقل: لبَّيكما وسَعديكما.

وأخرج هو وابنُ جَريرٍ وابنُ المنذر[(٣)] عن أبي الهدَّاج[(٤)] أنَّه قال: قلتُ لسعيد بن المسيَّب: كلُّ ما ذكر الله تعالى في القرآن من بِرِّ الوالدين فقد عرفتُه، إلَّا قولَه سبحانه: (وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) ما هذا القولُ الكريم؟ فقال ابن المسيَّب: قولُ العبدِ المذنب للسيِّد الفظِّ.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: تواضعْ لهما وتذلَّل. وفيه وجهان: الأوَّل: أن يكونَ على معنى: جناحَك الذَّليل، ويكون «جناح الذل» بل خفضُ الجناحِ تمثيلاً في التواضع، وجاز أن يكونَ استعارةً في المفرد، وهو الجَناح، ويكون الخفضُ ترشيحاً تبعيًّا أو مستقلًّا. الثاني: أن يكونَ من قَبيل قولِ لبيد[(٥)]:

---

(١) في المفردات (كرم).

(٢) يقصد قول الحسن: يقول: يا أبت، يا أمه، ولا يسميهما بأسمائهما. الدر المنثور ٤/ ١٧١.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٧١، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٤٩.

(٤) هو سليمان بن الهداج التُّجيبي. روى عن سعيد بن المسيب، وروى عنه حرملة بن عمران. الجرح والتعديل ٤/ ١٤٨.

(٥) ديوانه ص٣١٥، وقد سلف ٧/ ٢٩٢.

وغـداةِ ريـحٍ قـد كـشـفـتُ وقَـرَّةٍ إذ أصـبـحـتْ بـيـد الـشِّـمـال زِمـامُـهـا

فيكونُ في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ وتخييلية، بأن يشبَّه الذُّلُّ بطائر منحطٍّ من علوٍّ تشبيهاً مضمراً، ويثبتَ له الجناحُ تخييلاً، والخفضُ ترشيحاً؛ فإنَّ الطائرَ إذا أراد الطيرانَ والعلوَّ، نشر جناحَيه ورفعهما ليرتفعَ، فإذا ترك ذلك خَفَضَهما، وأيضاً هو إذا رأى جارحاً يخافه لَصِق بالأرض وألصق جناحيه، وهي غايةُ خوفِه وتذلُّله. وقيل: المرادُ بخفضهما ما يفعله إذا ضمَّ فراخَه للتربية، وأنَّه أنسبُ بالمقام.

وفي «الكشف» أنَّ في الكلام استعارةً بالكناية ناشئةً من جعل الجَناح الذُّلَّ، ثم المجموع كما هو مثلٌ في غاية التَّواضع، ولمَّا أثبت لذلِّه جناحاً، أَمَرَه بخفضه تكميلاً، وما عسى يختلجُ في بعضِ الخواطرِ من أنَّه لمَّا أَثبت لذلِّه جناحاً، فالأمرُ برفع ذلك الجَناحِ أبلغُ في تقوية الذُّلِّ من خفضه؛ لأن كمالَ الطائرِ عند رفعِه، فهو ظاهرُ السقوطِ إذا جعل المجموعُ تمثيلاً؛ لأنَّ الغَرضَ تصويرُ الذلِّ كأنه مشاهَدٌ محسوس، وأمَّا على الترشيح، فهو وَهَم؛ لأنَّ جعل الجناحِ المخفوضِ للذلِّ يدلُّ على التواضع، وأمَّا جعلُ الجناحِ وحده فليس بشيءٍ؛ ولهذا جعل تمثيلاً فيما سلف.

وقرأ سعيد بن جُبَير: «من الذِّلِّ» بكسر الذَّال[1]، وهو الانقيادُ، وأصله في الدوابِّ، والنعتُ منه: ذَلول، وأما الذُّلُّ بالضمِّ، فأصلُه في الإنسان، وهو ضدُّ العزِّ، والنعتُ منه: ذَليل.

﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ أي: من فَرط رحمتِك عليهما، فـ «مِن» ابتدائيةٌ على سبيل التعليل، قال في «الكشف»: ولا يحتمل البيانَ حتى يقال: لو كان كذا لَرَجعت الاستعارةُ إلى التشبيه؛ إذ جناحُ الذُّلِّ ليس من الرحمة أبداً، بل خفضُ جناحِ الذُّل جاز أن يقالَ: إنَّه رحمة، وهذا بيِّن. واستفادةُ المبالغةِ مِن جَعل جنسِ الرحمةِ مبدأً للتذلُّل؛ فإنَّه لا ينشأ إلَّا من رحمةٍ تامةٍ، وقيل: من كون التعريفِ للاستغراق. وليس بذاك، وإنَّما احتاجا إلى ذلك؛ لافتقارهما إلى مَن كان أفقرَ الخلق إليهما، واحتياجُ المرءِ إلى مَن كان محتاجاً إليه غايةُ الضَّراعةِ والمسكنة، فيحتاج إلى أشدِّ

(١) القراءات الشاذة ص٧٦. وانظر المحتسب ٢/ ١٨.

رحمة، ولله تعالى درُّ الخفاجيِّ حيث يقول(١):

يا مَن أتى يسأل عن فاقتي ... ما حالُ مَن يسأل مِن سائلِهْ
ما ذِلَّةُ السلطانِ إلَّا إذا ... أصبح محتاجاً إلى عامله

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ وادعُ اللهَ تعالى أن يرحمَهما برحمته الباقية، وهي رحمةُ الآخرة، ولا تكتفِ برحمتك الفانية، وهي ما تضمَّنها الأمرُ والنهيُ السالفان. وخُصَّت الرحمةُ الأخرويةُ بالإرادة؛ لأنَّها الأعظمُ المناسبُ طلبُه من العظيم، ولأنَّ الرحمةَ الدنيويةَ حاصلةٌ عموماً لكلِّ أحد. وجوِّز أن يرادَ ما يعمُّ الرحمتين. وأيًّا ما كان، فهذه الرحمةُ التي في الدعاء، قيل: إنَّها مخصوصةٌ بالأبوين المسلمَين. وقيل: عامَّةٌ منسوخةٌ بآية النهيِ عن الاستغفار، وقيل: عامَّة ولا نسخَ؛ لأنَّ تلك الآيةَ بعد الموتِ، وهذه قبلَه، ومن رحمة اللهِ تعالى لهما أن يهديَهما للإيمان، فالدعاءُ بها مستلزمٌ للدُّعاء به، ولا ضيرَ فيه.

والقولُ بالنَّسخ أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرَد»، وأبو داودَ، وابن جَرير، وابنُ المنذر من طرقٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما(٢).

﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ الكافُ للتشبيه، والجارُّ والمجرور صفةُ مصدرٍمقدَّر، أي: رحمةً مثلَ تربيتهما لي، أو مثلَ رحمتِهما لي، على أنَّ التربيةَ رحمة. وجوِّز أن يكونَ لهما الرحمةُ والتربيةُ معاً وقد ذُكر أحدُهما في أحد الجانبين والآخَرُ في الآخَر، كما يلوِّح به التعرُّضُ لعنوان الرُّبوبية في مطلع الدعاءِ، كأنَّه قيل: ربِّ ارحمهما وربِّهما كما رحماني وربَّياني ﴿صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾. وفيه بُعدٌ.

وجوِّز أن تكونَ الكافُ للتعليل، أي: لأجل تربيتِهما لي. وتعقِّب بأنَّه مخالفٌ لمعناها المشهورِ مع إفادة التشبيهِ ما أفاده التعليل.

وقال الطِّيبي: إنَّ الكافَ لتأكيد الوجود، كأنَّه قيل: ربِّ ارحمهما رحمةً محقَّقةً مكشوفةً لا ريبَ فيها، كقوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:٢٣] قال في

---

(١) في حاشيته ٦/ ٢٥.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٧١ ولم يُذكر فيه أبو داود بل ذكر ابن أبي حاتم، والأدب المفرد (٢٣)، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٥٤.

«الكشف»: وهو وجهٌ حسن، وأمَّا الحملُ على أنَّ «ما» المصدريةَ جُعلت حيناً، أي: ارحمهما في وقتٍ أَحوج ما يكونان إلى الرحمة، كوقت رحمتِهما عليَّ في حال الصِّغر وأنا كلحمٍ على وَضَم، وليس ذلك إلَّا في القيامة، والرحمةُ هي الجنة، والبتُّ بأنَّ هذا هو التَّحقيقُ، فليت شِعري أَلِاستقامةِ وجهِه في العربية ارتضاه، أم لِطِباقه للمقام وفخامةِ معناه؟ اهـ.

وهو ـ كما أشار إليه ـ ليس بشيءٍ يعوَّل عليه، والظاهر أنَّ الأمرَ للوجوب، فيجب على الولد أنْ يدعوَ لوالدَيه بالرَّحمة، ومقتضى عدمِ إفادة الأمرِ التكرارَ أنَّه يكفي في الامتثال مرَّةً واحدة، وقد سئل سفيانُ: كم يدعو الإنسانُ لوالديه، في اليوم مرة، أو في الشَّهر، أو في السَّنة؟ فقال: نرجو أن يَجزَيه إذا دعا لهما في آخِر التشهُّدات، كما أنَّ الله تعالى قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فكانوا يرون أنَّ التشهُّد يكفي في الصَّلاة على النبيِّ ﷺ، وكما قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣] ثم يكبِّرون في أدبار الصَّلوات.

هذا وقد بالغ عزَّ وجلَّ في التوصية بهما من وجوهٍ لا تخفَى، ولو لم يكن سوى أنْ شَفَعَ الإحسانَ إليهما بتوحيده سبحانه ونَظَمهما في سِلك القضاءِ بهما معاً، لَكفى. وقد روَى ابن حِبَّان، والحاكمُ ـ وقال: صحيحٌ على شرط مسلم ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «رضا اللهِ تعالى في رضا الوالدَين، وسَخَطُ اللهِ تعالى في سَخَط الوالدين»[(١)].

وصحَّ أنَّ رجلاً جاء يستأذن النبيَّ ﷺ في الجهاد معه، فقال: «أحيٌّ والداك»؟ قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهِدْ»[(٢)].

وجاءَ أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «لو عَلِمَ اللهُ تعالى شيئاً أدنَى من الأُفِّ، لَنَهَى عنه، فلْيعمل العاقُّ ما شاء أن يعملَ، فلن يدخلَ الجنةَ، ولْيعمل البارُّ ما شاءَ أن يعملَ، فلن يدخلَ النَّار»[(٣)].

(١) صحيح ابن حبان (٤٢٩)، والمستدرك ٤/ ١٥١-١٥٢ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وهو عند الترمذي (١٨٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) هو في الفردوس(٥٠٦٣) من حديث الحسن بن علي مرسلاً. قال ابن عراق في تنزيه الشريعة =

ورأى ابنُ عمرَ رضي الله عنهما رجلاً يطوف بالكعبة حاملاً أمَّه على رقبته، فقال: يا ابنَ عمر، أَتراني جزيتُها؟ قال: لا، ولا بطلقةٍ واحدةٍ، ولكنَّك أحسنتَ، واللهُ تعالى يُثيبك على القليل كثيراً.

وروى مسلمٌ[1] وغيرُه: «لا يَجزي ولدٌ والدَه إلَّا أن يجدَه مملوكاً فيشتريَه فيُعتقَه».

وروى البيهقيُّ في «الدَّلائل»، والطبرانيُّ في «الأوسط» و«الصغير»[2] بسندٍ فيه مَن لا يُعرف عن جابرٍ قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ أبي أَخذ مالي، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «فاذهبْ فأتني بأبيك» فنزل جبريلُ عليه السلامُ على النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ اللهَ تعالى يُقرئك السلامَ ويقول: «إذا جاءك الشيخُ، فسَلْه عن شيءٍ قاله في نفسه ما سمعتْه أُذناه» فلمَّا جاء الشيخُ، قال له النبيُّ ﷺ: «ما بالُ ابنِك يشكوك تريد أن تأخذ مالَه»؟ قال: سَلْه يا رسولَ الله، هل أنفقتُه إلَّا على عمَّاته وخالاتِه، أو على نفسي، فقال النبيُّ ﷺ: «ايهِ، دَعْنا من هذا، أَخبرني عن شيءٍ قلتَه في نفسك ما سمعتْه أُذناك» فقال الشيخُ: واللهِ يا رسولَ الله ما يزال اللهُ تعالى يَزيدنا بك يقيناً، لقد قلتُ في نفسي شيئاً ما سمعتْه أذناي، فقال: «قلْ وأنا أسمع» فقال: قلت:

غذوتُك مولوداً ومُنتُك يافعاً ... تعلُّ بما أَجني عليك وتَنهَلُ
إذا ليلةٌ ضاقتك بالسُّقم لم أَبِت ... لِسُقمك إلَّا ساهراً أتملَّل
كأنِّي أنا المطروقُ دونك بالذي ... طُرقتَ به دوني فعينيَ تَهمُل
تخاف الرَّدَى نفسي عليك وإنها ... لتَعلم أن الموت وقتٌ مؤجَّل
فلمَّا بلغتَ السنَّ والغايةَ التي ... إليها مدَى ما كنتُ فيها أؤمِّل
جعلتَ جزائي غلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المنعِم المتفضِّل

= المرفوعة ٢/ ٢٣٣: وفيه عيسى بن عبيد الله، وعنه أصرم بن حوشب. اهـ. وأصرم بن حوشب متروك، واتهمه بعضهم بالوضع. انظر ميزان الاعتدال ١/ ٢٧٢.

(١) في صحيحه (١٥١٠).

(٢) دلائل النبوة ٦/ ٣٠٤-٣٠٥، والأوسط (٦٥٧٠)، والصغير(٩٤٧).

فليتك إذ لم ترعَ حقَّ أُبوَّتي فعلت كما الجارُ المجاورُ يفعل
تراه معدًّا للخلاف كأنه بردٍّ على أهل الصواب موكَّل

قال: فحينئذٍ أخذ النبيُّ ﷺ بتلابيب ابنهِ وقال: «أنت ومالُك لأبيك»[١].

والأمُّ مقدَّمة في البرِّ على الأب؛ فقد روى الشَّيخانِ[٢]: يا رسولَ الله، مَن أحقُّ الناس بحُسن صَحابتي؟ قال: «أمُّك» قال: ثم مَن؟ قال: «أمك» قال: ثم مَن؟ قال: «أمُّك» قال: ثم مَن؟ قال: «أبوك».

ولا يختصُّ البرُّ بالحياة، بل يكون بعد الموتِ أيضاً. فقد روى ابنُ ماجه[٣]: يا رسول الله، هل بقي مِن بِرِّ أبويَّ شيءٌ أَبَرُّهما به بعد موتِهما؟ فقال: «نعم، الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإيفاءُ عهدهِما من بعدهما، وصلةُ الرَّحم التي لا توصَل إلَّا بهما، وإكرامُ صديقِهما» ورواه ابن حبَّان في «صحيحه»[٤] بزيادة: قال الرجل: ما أكثرَ هذا يا رسولَ اللهِ وأطيبَه، قال: «فاعمَلْ به».

وأخرج البيهقيُّ[٥] عن أنسٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ العبد لَيموت والداه أو أحدهما وإنَّه لهما لَعاقٌّ، فلا يزالُ يدعو لهما ويستغفر لهما حتى يكتبَه اللهُ تعالى بارًّا» وأخرج[٦] عن الأوزاعيِّ قال: بلغني أنَّ مَن عقَّ والديه في حياتهما، ثم قضَى دَيناً إنْ كان عليهما، واستغفرَ لهما ولم يستسبَّ لهما، كُتب بارًّا. ومَن برَّ والدَيه في حياتهما، ثم لم يقضِ دَيناً إنْ كان عليهما، ولم يستغفرْ لهما، واستسبَّ لهما، كُتب عاقًّا» وأخرج[٧] هو أيضاً، وابنُ أبي الدُّنيا عن محمد بنِ النُّعمان يرفعه إلى النبيِّ ﷺ قال: «مَن زار قبرَ أبويه أو أحدهما في كلِّ جُمُعة، غُفر له وكتب بَرًّا».

---

(١) وقوله: «أنت ومالك لأبيك»، سيأتي تخريجه عند تفسير الآية(٦١) من سورة النور.
(٢) صحيح البخاري (٥٩٧١)، وصحيح مسلم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) في سننه (٣٦٦٤) من حديث أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه. وهو عند أبي داود (٥١٤٢).
(٤) برقم (٤١٨).
(٥) في الشعب (٧٩٠٢).
(٦) في الشعب ٦/ ٢٠٤ إثر حديث (٧٩٠٧).
(٧) الدر المنثور ٤/ ١٧٤، وشعب الإيمان (٧٩٠١).

وروى مسلمٌ(١) أنَّ ابن عمرَ ﷺ لَقِيه رجلٌ بطريق مكَّة، فسلَّم عليه ابنُ عمرَ وحمله على حمارٍ كان يركبه، وأعطاه عمامةً كانت على رأسه، فقال ابنُ دينار: فقلت له: أَصلحك اللهُ تعالى، إنَّهم الأَعراب، وهم يرضَون باليسير، فقال: إنَّ أبا هذا كان ودًّا لعمرَ بنِ الخطاب، وإني سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ أبرَّ البِرِّ صلةُ الولدِ أهلَ وِدِّ أبيه».

وأخرج ابنُ حبَّان في «صحيحه»(٢) عن أبي بُردةَ ﷺ قال: قَدِمت المدينةَ، فأتاني عبدُ الله بن عمرَ فقال: أتدري لم أتيتُك؟ قال: قلت: لا، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن أحبَّ أن يصلَ أباه في قبره، فلْيَصِلِ إخوانَ أبيه مِن بعده» وإنَّه كان بين أبي عمرَ وبين أبيك إخاءٌ ووُدّ، فأَحببتُ أن أصلَ ذلك.

وقد ورد في فضل البِرِّ ما لا يُحصَى كثرةً من الأَحاديث، وصحَّ عدُّ العقوقِ من أَكبر الكبائر، وكونُه منها هو ما اتَّفقوا عليه، وظاهرُ كلامِ الأكثرين ـ بل صريحُه ـ أنَّه لا فرقَ في ذلك بين أن يكونَ الوالدان كافرَين وأن يكونا مسلمَين، والتقييدُ بالمسلمَين في الحديث الحسنِ أنَّه ﷺ سُئل عن الكبائر فقال: «تِسعٌ، أعظمُهنَّ الإشراكُ، وقتلُ النفسِ المؤمنةِ بغير حقٍّ، والفرارُ من الزَّحفِ، وقذفُ المحصَنة، والسِّحر، وأكلُ مالِ اليتيم، وأكلُ الرِّبا، وعقوقُ الوالدين المسلمين»(٣)، إمَّا لأنَّ عقوقهما أقبحُ، والكلامُ هناك في ذِكر الأعظم، على أحد التقديرَين في عطفِ «وقتل المؤمن» وما بعدَه، وإمَّا لأنَّهما ذُكرا للغالب كما في نظائرَ أُخَر.

وللحليميِّ هاهنا تفصيلٌ مبنيٌّ على رأي له ضعيف، وهو أنَّ العقوقَ كبيرة، فإنْ كان معه نحوُ سبٍّ، ففاحشةٌ، وإنْ كان عقوقُه هو استثقالَه لأَمرهما ونهيهما والعبوسَ في وجههما والتبرُّمَ بهما مع بذل الطاعةِ ولزومِ الصمت، فصغيرةٌ، فإن كان ما يأتيه من ذلك يُلجئهما إلى أن يَنقبضا فيتركا أمرَه ونهيَه ويلحقَهما من ذلك ضررٌ، فكبيرة(٤).

وبينهم في حدِّ العقوقِ خلافٌ، ففي «فتاوى» البُلقيني: مسألة قد ابتلي الناسُ بها

(١) في صحيحه (٢٥٥٢).
(٢) برقم (٤٣٢).
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٩.
(٤) ينظر المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ٢٤١-٢٥٠.

واحتيجَ إلى بسط الكلام عليها وإلى تفاريعها؛ ليحصلَ المقصودُ في ضمن ذلك، وهي السؤالُ عن ضابط الحدِّ الذي يُعرَف به عقوقُ الوالدين، إذ الإحالةُ على العُرف من غير مثالٍ لا يحصل المقصود، إذ الناسُ تَحملهم أغراضُهم على أن يجعلوا ما ليس بعرفٍ عرفاً، فلابدَّ من مثالٍ يُنسَج على منواله، وهو أنَّه ـ مثلاً ـ لو كان له على أبيه حقٌّ شرعيّ، فاختار أن يرفعَه إلى الحاكم ليأخذَ حقَّه منه ولو حبسه، فهل يكونُ ذلك عقوقاً أو لا؟ أجاب: هذا الموضعُ قال فيه بعضُ الأكابر: إنه يَعسُر ضبطُه، وقد فتح اللهُ تعالى بضابطٍ أرجو من فضل الفتَّاح العليمِ أن يكونَ حسناً، فأقول: العقوقُ لأحد الوالدَين هو أن يؤذيَه بما لو فعله مع غيره كان محرَّماً من جملة الصَّغائر، فينتقل بالنِّسبة إليه إلى الكبائر، أو أن يخالفَ أمرَه أو نهيَه فيما يدخل منه الخوفُ على الولد من فَوت نفسِه أو عضوٍ من أعضائه مالم يتَّهم الوالدُ في ذلك، أو أن يخالفَه في سفرٍ يشقُّ على الوالد وليس بفرضٍ على الولد، أو في غَيبة طويلةٍ فيما ليس بعلم نافعٍ ولا كسبَ فيه، أو فيه وقيعةٌ في العِرض لها وَقع.

وبيانُ هذا الضابطِ أنَّ قولنا: أن يؤذيَ الولدُ أحدَ والدَيه بما لو فعله مع غير والدَيه كان محرّماً، فمثالُه: لو شتم غيرَ أحدِ والديه أو ضربه بحيث لا ينتهي الشتمُ أو الضربُ إلى الكبيرة، فإنَّه يكون المحرَّم المذكورُ إذا فعله الولدُ مع أحدِ والديه كبيرةً، وخرج بقولنا: أن يؤذيَ، ما لو أخذ فَلساً أو شيئاً يسيراً من مال أحدِ والديه، فإنَّه لا يكون كبيرةً، وإن كان لو أخذه مِن مال غيرِ والديه بغير طريقٍ معتبَر كان حراماً؛ لأنَّ أحدَ الوالدين لا يتأذَّى بمثل ذلك، لِمَا عنده من الشَّفقة والحنوِّ، فإنْ أخذ مالاً كثيراً بحيث يتأذَّى المأخوذُ منه من الوالدَين بذلك، فإنَّه يكون كبيرةً في حقِّ الأجنبيِّ، فكذلك هنا، لكن الضابطَ فيما يكون حراماً صغيرةً بالنِّسبة إلى غير الوالدَين. وخرج بقولنا: ما لو فعله مع غير أحدِ الوالدين كان محرَّماً، نحوُ ما إذا طالب بدَين، فإنَّ هذا لا يكون عقوقاً؛ لأنَّه إذا فعله مع غير الوالدينِ لا يكون محرَّماً، فافهمْ ذلك فإنَّه من النَّفائس.

وأمَّا الحبس، فإن فرَّعناه على جواز حبس الوالدِ بدَين الولدِ كما صحَّحه جماعةٌ، فقد طلب ما هو جائزٌ، فلا عقوقَ، وإن فرَّعنا على منع حبسِه المصحَّحِ عند آخرين، فالحاكمُ إذا كان معتقدُه ذلك، لا يُجيب إليه، ولا يكون الولدُ بطلب

ذلك عاقًّا إذا كان معتقداً الوجهَ الأوّل، فإن اعتقد المنعَ وأقدمَ عليه، كان كما لو طلب حبسَ مَن لا يجوز حبسُه من الأجانب لإعسار ونحوِه، فإذا حبسه الولدُ واعتقادُه المنعُ، كان عاقًّا؛ لأنَّه لو فعله مع غير والدِه حيث لا يجوزُ، كان حراماً، وأما مجرَّد الشَّكوى الجائزةِ والطلب الجائز، فليس من العقوق في شيءٍ، وقد شكا بعضُ ولدِ الصحابةِ إلى رسول اللهِ ﷺ، ولم ينهَه عليه الصلاة والسلام، وهو الذي لا يُقرُّ على باطل.

وأمَّا إذا نهر أَحدَ والديه، فإنَّه إذا فعل ذلك مع غير الوالدَين وكان محرَّماً، كان في حقِّ أحد الوالدين كبيرةً، وإنْ لم يكن محرَّماً، وكذا أُفٍّ، فإنَّ ذلك يكون صغيرةً في حقِّ أحد الوالدين، ولا يَلزم من النَّهي عنهما والحالُ ما ذُكر أن يكونا من الكبائر.

وقولُنا: أو أن يخالفَ أمرَه ونهيَه فيما يدخل منه الخوفُ. .إلخ، أَردنا به السفرَ للجهاد ونحوِه من الأسفار الخَطِرة؛ لما يُخافُ من فوات نفسِ الولدِ أو عضوٍ من أعضائه؛ لشدَّة تفجُّعِ الوالدين على ذلك. وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ من حديث عبدِ الله بن عَمرٍو في الرَّجل الذي جاء يستأذن النبيَّ ﷺ للجهاد أنَّه عليه الصلاة والسلام قال له: «أحيٌّ والداك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»، وفي رواية: «ارجع إليهما ففيهما المجاهدةُ»[1] وفي أخرى[2]: جئت أُبايعكَ على الهجرة، وتركت أبويَّ يبكيان، فقال: «ارجع فأَضحِكْهما كما أبكيتَهما» وفي إسناده: عطاءُ بن السائب، لكن من رواية سفيانَ عنه. وروى أبو سعيدٍ الخدريُّ أنَّ رجلاً هاجر إلى رسول اللهِ ﷺ، فقال: «هل لك أحدٌ باليمن»؟ قال: أبواي، قال: «أَذِنا لك؟» قال: لا، قال: «فارجْع فاستأذِنْهما، فإن أَذِنا لك فجاهد، وإلا فبِرَّهما» ورواه أبو داود[3] وفي إسناده من اختُلف في توثيقه.

وقولنا: ما لم يتَّهم الوالدُ في ذلك، أَخرجنا به ما لو كان الوالدُ كافراً، فإنَّه

---

(١) أخرجها البيهقي ٩/٢٥-٢٦، وفي رواية لمسلم (٢٥٤٩): «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما».

(٢) أخرجها أبو داود (٢٥٢٨)، والنسائي ٧/١٤٣، وابن ماجه (٢٧٨٢).

(٣) في سننه (٢٥٣٠).

لا يحتاج الولدُ إلى إذنه في الجهاد ونحوِه، وحيث اعتبرنا إذنَ الوالد، فلا فرقَ بين أن يكونَ حرًّا أو عبداً.

وقولنا: أو أن يخالفَه في سفر. . .إلخ، أردنا به السفرَ لحجِّ التطوُّع حيث كان فيه مشقَّة، وأَخرجنا بذلك حجَّ الفرض، وإذا كان فيه ركوبُ البحرِ يجب ركوبُه عند غَلَبة السَّلامة، فظاهرُ الفقهِ أنَّه لا يجب الاستئذانُ، ولو قيل بوجوبه لِمَا عند الوالدِ من الخوف في رُكوب البحرِ وإن غلبت السَّلامة، لم يكن بعيداً. وأمَّا سفرُه للعلم المتعيِّن، أو لفَرْض الكفاية، فلا منعَ فيه وإن كان يُمكنه التعلُّم في بلده، خلافاً لمن اشترط ذلك؛ لأنه قد يتوقَّع في السفر فراغَ قلب، وإرشادَ أستاذ، ونحوَ ذلك، فإن لم يتوقَّع شيئاً من ذلك، احتاج إلى الاستئذان.

وحيث وجبت النفقةُ للوالد على الولدِ وكان في سفره تضييعٌ للواجب، فللوالد المنعُ، وأمَّا إذا كان الولدُ بسفره يحصِّل وقيعةً في العِرض لها وَقْع، بأن يكونَ أمردَ ويخاف من سفره تُهَمة، فإنَّه يمنع من ذلك، وذلك في الأُنثى أَوْلى، وأمَّا مخالفةُ أمرِه ونهيِهِ فيما لا يدخل على الولد فيه ضررٌ بالكلِّية، وإنَّما هو مجرَّد إرشادٍ للولد، فلا تكون عقوقاً، وعدمُ المخالفةِ أَولى. اهـ كلامُ البُلقينيّ.

وذكر بعضُ المحقِّقين أنَّ العقوق فعلُ ما يحصل منه لهما أو لأَحدهما إيذاءٌ ليس بالهيِّن عرفاً، ويحتمل أنَّ العِبرة بالمتأذِّي، لكن لو كان الوالدُ مثلاً في غاية الحمقِ أو سفاهةِ العقل، فأَمَرَ أو نهَى ولدَه بما لا يعدُّ مخالفتُه فيه في العرف عقوقاً، لا يفسق ولدُه بمخالفته حينئذٍ؛ لعذره، وعليه فلو كان متزوِّجاً بمن يحبُّها، فأَمره بطلاقها ولو لعدم عفَّتها، فلم يمتثل أمرَه، لا إثمَ عليه، نعم الأفضلُ طلاقُها امتثالاً لأمر والدِه، فقد روى ابن حبَّان في «صحيحه»[1] أنَّ رجلاً أتى أبا الدَّرداءِ فقال: إنَّ أبي لم يزل بي حتى زوَّجني امرأةً، وإنَّه الآن يأمرني بفراقها، قال: ما أنا بالذي آمرُك أن تعقَّ والدَيك، ولا بالذي آمرُك أن تطلقَ زوجتك، غير أنك إن شئتَ حدَّثتُك بما سمعتُ عن رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «الوالدُ أَوسطُ أبوابِ الجنة» فحافِظْ على ذلك إن شئتَ أو دَعْ.

---

(١) برقم (٤٢٥)، وهو عند الترمذي (١٩٠٠)، وابن ماجه (٢٠٨٩) بنحوه.

وروى أصحاب السُّنن الأربعة[١]، وابنُ حبَّان في «صحيحه»[٢]، وقال الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيح، عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: كان تحتي امرأةٌ أحبُّها، وكان عمرُ يكرهها، فقال لي: طلِّقها، فأبيتُ، فأتى عمرُ رسولَ الله ﷺ، فذكر ذلك له، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «طلِّقها».

وكذا سائرُ أوامره التي لا حاملَ لها إلَّا ضعفُ عقلِهِ وسفاهةُ رأيه، ولو عُرضت على أرباب العقولِ لعَدُّوها متساهلاً فيها، ولَرأوا أنَّه لا إيذاءَ بمخالفتها، ثم قال: هذا هو الذي يتَّجه في تقرير الحدّ.

وتعقب ما نُقل عن البلقينيِّ بأنَّ تخصيصه العقوقَ بفعل المحرَّم الصغيرة بالنِّسبة للغير فيه وَقفة، بل ينبغي أنَّ المدار ـ على ما ذكر ـ من أنَّه لو فعل معه ما يتأذَّى به تأذِّياً ليس بالهيِّن عرفاً، كان كبيرةً وإن لم يكن محرَّماً لو فعله مع الغير، كأَن يلقاه فيقطِّبَ في وجهه، أو يَقدَمَ عليه في ملأٍ فلا يقومُ إليه ولا يعبأ به، ونحوِ ذلك مما يَقضي أهلُ العقلِ والمروءةِ من أهل العرفِ بأنّه مؤذٍ إيذاءً عظيماً، فتأمَّل.

ثم إنَّ السببَ في تعظيم أمرِ الوالدَين أنَّهما السببُ الظاهريُّ في إيجاده وتعيُّشه، ولا يكاد تكونُ نعمةُ أحدٍ من الخَلق على الولدِ كنعمة الوالدين عليه.

لا يُقال عليه: إنَّ الوالدين إنَّما طلبا تحصيلَ اللذَّة لأنفسهما، فلَزِمَ منه دخولُ الولدِ في الوجود، ودخولُه في عالَم الآفات والمخافات، فأيُّ إنعامٍ لهما عليه. وقد حُكي أنَّ واحداً من المتَّسمين بالحِكمة كان يضربُ أباه ويقول: هو الذي أدخَلَني في عالَم الكونِ والفساد، وعرَّضني للموت والفقرِ والعمَى والزَّمانة، وقيل لأبي العلاءِ المعرِّي ولم يكن ذا ولدٍ: ما نكتبُ على قبرك؟ فقال: اكتُبوا عليه:

هذا جناه أبي عليَّ ... وما جنيتُ على أحدْ[٣]

وقال في ترك التزوُّج وعدمِ الولد:

وتركتُ فيهم نعمةَ العدم التي ... سبقتْ وصدَّت عن نعيم العاجلِ

---

(١) سنن أبي داود (٥١٣٨)، والترمذي (١١٨٩)، وابن ماجه (٢٠٨٨)، والنسائي كما في تحفة الأشراف ٥/ ٣٣٩.

(٢) برقم (٤٢٦) و(٤٢٧).

(٣) معاهد التنصيص ١/ ١٤٥.

ولـوَ انَّـهـم وُلـدوا لَـنـالـوا شـدَّةً تَـرمي بـهـم فـي مـوبـقـات الآجـل[1]

وقال ابنُ رَشيق[2]:

قـبَّـح اللهُ لـذَّةً لـشَـقـانـا نـالـهـا الأُمَّـهـاتُ والآبـاءُ

نـحـن لـولا الـوجـودُ لـم نـألـم الـفـقـ ـدَ فـإيـجـادنـا عـلـيـنـا بـلاء

وقيل للإسكندر: أستاذُك أعظم مِنَّةً عليك أم والدُك؟ فقال: الأستاذ أعظمُ مِنَّة؛ لأنَّه تحمَّل أنواعَ الشدائدِ والمِحنَ عند تعليمي، حتى أوقفني على نور العِلم، وأمَّا الوالدُ، فإنَّه طلب تحصيلَ لذَّة الوِقاع لنفسه، فأخرجني إلى عالَم الكونِ والفساد.

لأنَّا نقول[3]: هَبْ أنَّه في أوَّل الأمرِ كان المطلوبُ لذَّة الوِقاع، إلَّا أن الاهتمامَ بإيصال الخيراتِ ودفعِ الآفات من أوَّل دخولِ الولدِ في الوجود إلى وقت بلوغهِ الكبَر، أعظمُ من جميع ما يتخيَّل من جهات الخيراتِ والمبرَّات.

وقد يقال: لو كان الإدخالُ في عالَم الكونِ والفساد، والتعريضُ للأكدارِ والأنكادِ دافعاً لحقِّ الوالدين، لَزِم أن يكونَ دافعاً لحقِّ اللهِ تعالى؛ لأنَّه سبحانه الفاعلُ الحقيقيّ، وأيضاً يعارض ذلك التعريضَ التعريضُ للنَّعيم المقيم، والثوابِ العظيم، كما لا يخفَى على ذي العقلِ السَّليم، ولَعَمري إنَّ إنكار حقِّهما إنكارٌ لأجلَى الأمور، ومَن لم يجعل اللهُ له نوراً فما له من نور.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ مِن قصد البِرِّ إليهما، وانعقادِ ما يجب من التوقير لهما. وهو ـ على ما قيل ـ تهديدٌ على أن يُضمرَ لهما كراهةً واستثقالاً. وفي «الكشف» أنَّه كالتعليل لما أكَّد عليهم من الإحسان إلى الوالدين، بأنَّ الله تعالى أعلمُ بما في ضمائرهم من ذلك، فمجازيهم على حَسَبه. والظاهرُ أنه وعدٌ لمن أَضمر البرَّ، ووعيدٌ لغيره، لكن غلَّب ذلك الجانبُ لأنَّ الكلامَ بالأصالة فيه.

---

(١) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٣٣٦ وفيهما اختلاف عن رواية المصنف.

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله، والبيتان في معجم الأدباء ١٠/ ٤١، والوافي بالوفيات ٣/ ١٣ ضمن قصيدة منسوبة لابن الشبل محمد بن الحسين أبي علي البغدادي.

(٣) جواب لقوله: لا يقال عليه... .

﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ قاصدين الصلاحَ والبِرَّ دون العقوقِ والفساد ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ تعالى شأنُه ﴿كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ أي: الراجعين إليه تعالى، التائبين عما فَرَطَ منهم مِّما لا يكاد يخلو منه البشرُ ﴿غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ لِمَا وقع منهم من نوعِ تقصيرٍ أو أَذيّة.

وهذا ـ كما في «الكشف» ـ تيسيرٌ بعد التأكيدِ والتعسيرِ مع تضييقٍ وتحذير، وذلك أنَّه شرط في البادرة التي تقع على النَّدرة قصدَ الصلاح، وعبَّر عنه بنفس الصَّلاح، ولم يصرِّح بصدورها، بل رمز إليه بقوله تعالى: «فإنه كان للأوابين غفوراً» لدلالة المغفرةِ على الذنب والأَوَّابِ أيضاً، فإنَّ التوبةَ عن ذنبٍ يكون، فشرط[1] قصدَ الصَّلاح، وأن يتوبَ عنه مع ذلك التوبةَ البالغة، وهو استئنافٌ ثانٍ يقتضيه مقامُ التأكيدِ والتشديد، كأنَّه قيل: كيف نقوم بحقِّهما وقد يَندر بوادرُ؟ فقيل: إذا بنيتم الأمرَ على الأساس، وكان المستمرُّ ذلك، ثم اتَّفق بادرةٌ من غير قصدٍ إلى المساءة فلُطفُ اللهِ تعالى يحجز دون عذابِه قائماً بالكلاءة.

وكونُ الآيةِ في البادرة تكونُ من الرَّجل إلى والديه مرويٌّ عن ابن جُبَير، وجوِّز أن تكونَ عامَّةً لكلِّ تائب، ويندرجُ الجاني على أبويه التائبُ من جنايته اندراجاً أوَّليًّا.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: ذا القرابةِ منك ﴿حَقَّهُۥ﴾ الثابتَ له.

قيل: ولعلَّ المرادَ بذي القُربى المحارمُ، وبحقِّهم النفقةُ عليهم إذا كانوا فقراءَ عاجزين عن الكسب، كما يُنبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فإنَّ المأمورَ به في حقِّهما المساواةُ المالية، أي: وآتِهما حقّهما ممَّا كان مفترَضاً بمكة بمنزلة الزَّكاة، وكذا النهيُ عن التبذير وعن الإفراط في القبض والبسط، فإنَّ الكلَّ من التصرُّفات المالية.

واستدلَّ بعضُهم بالآية على إيجاب نفقةِ المحارمِ المحتاجين وإن لم يكونوا أصلاً كالوالدَين، ولا فرعاً كالولد.

والكلامُ من باب التعميم بعدَ التخصيص، فإنَّ ذا القربَى يتناول الوالدين لغةً وإنْ لم يتناوله عرفاً؛ فلذا قالوا في باب الوصيَّةِ المبنيةِ على العُرف: لَو أَوصَى

---

(١) في (م): بشرط.

لذوي قرابتهِ، لا يدخلان. وفي «المعراج»[1] عن النبيِّ ﷺ: «مَن قال لأبيه: قريبي، فقد عقَّه» والغرضُ من ذلك تناولُ غيرِهما من الأقارب والتوصيةُ بشأنه.

وفي «الكشف» أنَّ الحقَّ أن إيتاءَ الحقِّ عامٌّ، والمقام يقتضي الشمولَ، فيتناول الحقَّ الماليَّ وغيرَه، من الصِّلة وحُسنِ المعاشرة، فلا تنتهض الآيةُ دليلاً على إيجاب نفقةِ المحارم.

وتعقَّب أنَّ قوله تعالى: «حقه» يُشعر باستحقاق ذلك؛ لاحتياجه، مع أنَّه إذا عمَّ دخل فيه الماليُّ وغيرُه، فكيف لا تنتهض الآيةُ دليلاً؟!

وأنا ممَّن يقول بالعموم وعدمِ اختصاص ذي القربى بذي القرابة الولاديَّة، والعطفُ وكذا ما بعده لا يدلُّ على تخصيصٍ قطعاً، فتدبَّر.

وقيل: المرادُ بذي القربى أقاربُ الرسولِ ﷺ، ورُوي ذلك عن السُّدِّي، وأخرج ابن جَريرٍ[2] عن عليِّ بن الحسينِ رضي الله عنهما أنَّه قال لرجلٍ من أهل الشَّام: أقرأتَ القرآن؟ قال: نعم، قال: أفما قرأتَ في «بني إسرائيل»: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾؟ قال: وإنَّكم القرابةُ الذي أَمَرَ اللهُ تعالى أن يؤتَى حقَّه؟ قال: نعم. ورواه الشيعةُ عن الصَّادق رضي الله عنه. وحقُّهم توقيرُهم وإعطاؤهم الخُمسَ.

وضعِّف بأنَّه لا قرينةَ على التخصيص. وأُجيب بأنَّ الخطاب قرينةٌ. وفيه نظرٌ، وما أَخرجه البزَّار، وأبو يَعلَى، وابنُ أبي حاتم، وابنُ مردويه عن أبي سعيدٍ الخدريِّ من أنَّه لمَّا نزلت هذه الآيةُ دعا رسولُ الله ﷺ فاطمةَ فأعطاها فَدَكاً[3] = لا يدلُّ على تخصيص الخطابِ به عليه الصلاة والسلام، على أنَّ في القلب من صحَّة الخبرِ شيءٌ[4]، بناءً على أنَّ السُّورة مكِّية، وليست هذه الآيةُ من المستثنَيات، وفدك لم تكن إذ ذاك تحت تصرُّف رسولِ الله ﷺ، بل طَلَبُها رضي الله عنها ذلك إرثاً بعد وفاتِه عليه الصلاة والسلام كما هو المشهورُ = يأبى القولَ بالصحَّة كما لا يخفَى.

---

(١) لعله معراج الدراية إلى شرح الهداية لقوام الدين محمد بن محمد البخاري الكاكي، المتوفى سنة (٧٤٩هـ).

(٢) في تفسيره ١٤/ ٥٦٣.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٧٧، وكشف الأستار (٢٢٢٣)، ومسند أبي يعلى (١٠٧٥).

(٤) وهذا شيء صحيح؛ ففي سنده عطية العوفي، وهو متروك على ما في مجمع الزوائد ٧/ ٤٩.

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ نهيٌ عن صرف المالِ إلى مَن لا يستحقُّه؛ فإنَّ التبذير إنفاقٌ في غير موضعِهِ، مأخوذٌ من تفريق البِذر وإلقائه في الأرض كيفما كان من غير تعهُّدٍ لمواقعه. وقد أخرج ابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، والطبرانيُّ، والحاكمُ وصحَّحه، والبيهقيُّ في «الشُّعب»[١] عن ابن مسعودٍ أنَّه قال: التبذيرُ: إنفاق المالِ في غير حقِّه.

وفي «مفردات» الرَّاغب[٢] وغيره أنَّ أصلَه إلقاءُ البذرِ وطرحُه، ثم استُعير لتضييع المال، وعَدَّ من ذلك بعضُهم تشييدَ الدارِ ونحوه.

وفرَّق الماورديُّ بينه وبين الإسراف بأنَّ الإسرافَ تجاوزٌ في الكمية، وهو جهلٌ بمقادير الحقوق، والتبذير تجاوزٌ في موقع الحقِّ، وهو جهلٌ بالكيفية وبمواقعها، وكلاهما مذمومٌ، والثاني أدخلُ في الذَّمّ.

وفسَّر الزمخشريُّ[٣] التبذيرَ هنا بتفريق المالِ فيما لا ينبغي، وإنفاقِه على وجه الإسراف، وذكر أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ التبذيرَ شاملٌ للإسراف في عرف اللغة، ويراد منه حقيقةٌ[٤]، وإنْ فرِّق بينهما بما فرِّق.

وفي «الكشف» بعد نقلِ الفرقِ والنصِّ على أنَّ الثانيَ أدخلُ في الذمّ: إنَّ الزمخشريَّ لم يَغِب ذلك عليه؛ لأنَّ الاشتقاق يُرشد إليه، وإنَّما أراد أنَّه في الآية يتناول الإسرافَ أيضاً بطريق الدَّلالة؛ إذ لا يفترقان في الأحكام، لاسيَّما وقد عقَّبه سبحانه بالحثِّ على الاقتصاد المناسبِ لاعتبار الكمِّيَّة، المرشدِ إلى إرادته من النصِّ.

وتعقِّب بأنه إذا كان التبذيرُ أَدخلَ في الذمِّ من الإسراف، كيف يتناولُه بطريق الدَّلالة، والنهيُ عن الإسراف فيما بعدُ يُبعد إرادتَه هاهنا؟ فتأمَّل.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٧٧، والمعجم الكبير (٩٠٠٥) و(٩٠٠٦) و(٩٠٠٧) و(٩٠٠٨) و(٩٠٠٩)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٣٦١، وشعب الإيمان ٥/ ٢٥٠.

(٢) مادة (بذر).

(٣) في الكشاف ٢/ ٤٤٦.

(٤) في حاشية الشهاب ٦/ ٦٢ـ والكلام منه ـ: حقيقته.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تعليلٌ للنهيِ عن التبذير ببيانِ أنَّه يجعل صاحبَه مَلزُوزاً في قَرن الشَّياطين.

والإخوانُ جمعُ: أخ، والمرادُ به المماثلُ مجازاً، أي: أنَّهم مماثلون لهم في صفات السوءِ، التي من جملتها التبذيرُ. أو الصديقُ والتابعُ مجازاً أيضاً، أي: أنَّهم أصدقاؤهم وأَتْباعهم فيما ذُكر من التبذير والصَّرفِ في المعاصي، فإنَّهم كانوا يَنْحرون الإِبل ويتياسرون عليها، ويبذرون أموالَهم في السُّمعة وسائرِ مالا خيرَ فيه من المناهي والملاهي. أو القرينُ كما سبق أيضاً، أي: أنَّهم قرناؤهم في النَّار على سبيل الوعيد.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ من تتمَّة التعليل، أي: مبالغاً في كُفران نِعَمِه تعالى؛ لأنَّ شأنه صرفُ جميعِ ما أَعطاه اللهُ تعالى من القُوى والقُدَر إلى غير ما خُلقت له، من أَنواع المعاصي والإِفسادِ في الأرض، وإضلالِ الناسِ وحَمْلهم على الكفر بالله تعالى، وكفرانِ نِعَمِه الفائضةِ عليهم، وصرفِها إلى غير ما أَمر اللهُ تعالى به.

وفي تخصيص هذا الوصفِ بالذِّكر من بين صفاتِه القبيحةِ إيذانٌ بأنَّ التبذيرَ الذي هو عبارةٌ عن صرف نِعَم اللهِ تعالى إلى غير مصرفِها من باب الكُفرانِ المقابلِ للشُّكر الذي هو صرفُها إلى ما خُلقت له.

وفي التعرُّض لعنوان الربوبيةِ إشعارٌ بكمال عتوِّه كما لا يخفَى. ويُشعر كلامُ بعضِهم بجواز حملِ الكفرِ هنا على ما يقابل الإيمانَ. وليس بذاك.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي: عن ذي القُربى والمسكينِ وابن السَّبيل، على ما هو الظَّاهر. وقيل: عن السَّائلين مطلقاً. والإِعراضُ في الأصل إظهارُ العُرْض، أي: الناحية، فمعنى أَعرضَ عنه: ولَّى مُبدياً عُرضَه. والمرادُ به هنا حقيقتُه على ما قيل، بناءً على ما رُوي من أنَّه ﷺ كان إذا سئل شيئاً ليس عنده، صرفَ وجهَه الشريفَ وسكت، فنزلت: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ والخطاب عامٌّ له ﷺ ولغيره.

والمرادُ بالرَّحمة ـ على ما أخرج ابنُ جَرير[1] عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ والضحَّاك ـ الرِّزق. ونصب «ابتغاء» على أنَّه مفعولٌ له.

قال في «الكشف»: قد أُقيم ابتغاءُ الرزقِ مُقامَ فُقدانه، وفيه لُطف، فكان ذلك

---

(١) في تفسيره ١٤/ ٥٧٠-٥٧١.

الإعراض لأجل السعيِ لهم، وهو من وضع المسبَّب موضعَ السببِ كما أوضحه في «الكشَّاف»[١]، وقد يفسَّر الابتغاءُ بالانتظار، ويجوز جعلُه في موضع الحالِ من ضمير «تعرضن» أي: مبتغياً. وجَعلُه حالاً من الضمير المجرورِ بعيدٌ.

وجوِّز أن يكونَ الإعراضُ كنايةً عن عدمِ النَّفع وتركِ الإعطاء؛ لأنه لازِمُه عرفاً، والابتغاءُ مجازاً عن عدم الاستطاعة، والتعلُّق أيضاً بالشَّرط. وأُيِّد ذلك بما أخرَجه سعيدُ بن منصورٍ وابنُ المنذر عن عطاءٍ الخراسانيِّ قال: جاء ناسٌ من مُزَينةَ يستحملون رسولَ اللهِ ﷺ، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولَّوا[٢] وأعينهم تفيض من الدمع حزناً، ظنُّوا ذلك من غضب رسولِ اللهِ عليه الصلاة والسلام عليهم، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ الآية.

وفسِّر الرحمةُ بالفيء، لكن أنت تعلم أنَّ هذا غيرُ ظاهر، بناءً على ما سمعتَ من أنَّ هذه السورةَ مكِّية، والآيةُ المذكورةُ ليست من المستثنَيات، وكأنَّه لهذا قيل: إنَّ المعنى: إنْ ثبت وتحقَّق في المستقبل أنَّك أعرضتَ عنهم في الماضي ابتغاءَ رحمةٍ من ربِّك ترجوها، فقل. . إلخ، والمرادُ سببيةُ الثبوتِ للأمر بالقول، فتأمَّل.

وجوِّز أن يتعلَّق «ابتغاء» بجواب الشَّرط، أعني قولَه تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: إمَّا تُعرضنَّ عنهم، فقل لهم ذلك ابتغاءَ رحمةٍ من ربِّك. وقدَّم هذا الوجهَ على سائر الأوجهِ الزمخشريُّ[٣].

واعتُرض بأنَّ ما بعد الفاءِ لا يعمل فيما قبلَها في غير بابِ «إمَّا» وما يلحق بها.

وأُجيب بأنَّه ذكره على المذهب الكوفيِّ المجوِّز للعمل مطلقاً. أو أراد التعلُّق المعنويَّ، فيُضمَر ما يَنصبه ويُجعلُ المذكورُ جارياً مَجرى التفسير. والإعراضُ ـ على هذا ـ على حقيقته، واحتمالُ كونِه كنايةً مختصٌّ بتعلُّقه بالشَّرط على ما زعمه الطِّيبيُّ، والحقُّ عدم الاختصاصِ كما لا يخفَى.

وجملةُ «ترجوها» على سائر الأوجُه يحتمل أن تكونَ وصفاً لـ «رحمة»، وأن تكونَ

---

(١) ٢/ ٤٤٧.

(٢) في الأصل(م): تولوا، وكذا وردت في الدر المنثور ٤/ ١٧٧-١٧٨، والمثبت من أسباب النزول للسيوطي ص٢٢٧.

(٣) في الكشاف ٢/ ٤٤٧.

حالاً من الفاعل، و«من ربك» متعلِّق بـ «ترجوها». وجوِّز أن يكونَ صفةً لـ «رحمة».

والميسورُ اسمُ مفعول، من يُسِر الأمرُ، بالبناء للمجهول، مثل: سُعِد الرجل، ومعناه: السَّهل، أي: فقل لهم قولاً سهلاً ليِّناً وعِدهم وعداً جميلاً. قال الحسن: أُمر أن يقولَ لهم: نَعَم وكرامة، وليس عندنا اليومَ، فإنْ يأتِنا شيءٌ نَعرِفْ حقَّكم.

وقيل: الميسورُ مصدر، وجُعل صفةَ مبالغة، أو بتقديرِ مضاف، أي: قولاً ذا ميسور، أي: يُسر، والمرادُ به القولُ المشتمِل على الدُّعاء باليسر، مثل: أغناكم اللهُ تعالى ويسَّر لكم. وفسَّره ابنُ زيد بِرَزَقنا اللهُ تعالى وإيَّاكم، بارك اللهُ تعالى فيكم.

وتعقِّب ذلك بأنَّ الميسورَ معناه ذا يُسر؛ ولهذا وقع صفةً لقول، فأيُّ ضرورةٍ في أن يجعلَ مصدراً ثم يؤوَّلَ بذا ميسور.

ودُفع بأنَّه إذا أُريد القولُ المشتملُ على الدُّعاء، لا يكون القولُ حينئذٍ ميسوراً، بل ميسِّر[1] لِمَا أرادوه. وميسورٌ مصدراً مما ثبت في اللُّغة من غير تكلُّف، فجعله صفةَ مبالغة، أو بتقدير مضافٍ، له وجهٌ وجيه، وفيه تأمُّل.

والحقُّ أنَّ اعتبارَه مصدراً خلافُ الظاهر، وفي الآية على القول الأخيرِ دلالةٌ على أنَّ الدعاءَ للسائل ممَّا لا بأسَ به، وعن الإمام مالكٍ رحمه الله تعالى أنَّه كان لا يرى أن يقالَ للسَّائل إذا لم يُعطَ شيئاً: رزقك اللهُ تعالى، ونحوُه، قائلاً: إنَّ ذلك ممَّا يَثقل عليه ويَكره سماعَه، ولا ينبغي أن يذكرَ اسمُ اللهِ تعالى لمن لا يهشُّ له. ولَعمري إنَّه مغزًى بعيد.

وأفاد بعضُهم أنَّ في الآية دليلاً على النَّهي عن الإعراض بالمعنى الأوَّل، فإنَّ المعنى: إن أردتَ الإعراضَ عنهم، فقل لهم قولاً ميسوراً ولا تُعرض. وله وجهٌ وجيه، لا يخفَى على مَن له بصرٌ حديد.

واستشكل العزُّ بن عبدِ السلام جعلَ «ابتغاء» من متعلِّقات الشرطِ بأنَّا مأمورون بالردِّ الجميل إنِ انتظرنا شيئاً يحصلُ لنا أو لم ننتظر. وأجاب بأنَّ المرادَ بالقول الميسورِ الوعدُ بالعطاء، فيكون مفادُ الآية: لا تَعِدوا إلَّا إذا كنتم على رجاءٍ من حصول ما تَعِدون به، فالتقييدُ بالابتغاء في غاية المناسبةِ للشَّرط؛ لأنَّه لا يَحسن الوعدُ عند عدمِ الرَّجاء، لِمَا أنه يؤدِّي إلى الإخلاف. وهو كما ترى.

---

(١) في حاشية الشهاب: ٦/ ٢٧: ميسِّراً.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ تمثيلانِ لمنع الشَّحيح وإسرافِ المبذِّر، زجراً لهما عنهما، وحملاً على ما بينَهما من الاقتصاد والتوسُّطِ بين الإفراطِ والتفريط، وذلك هو الجودُ الممدوح، فخيرُ الأمورِ أوساطُها. وأَخرج أحمدُ وغيرُه عن ابن عباسٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما عالَ مَن اقتصد»[1]، وأخرج البيهقيُّ[2] عن ابن عمرَ قال: قال رسول الله ﷺ: «الاقتصادُ في النفقة نصفُ المعيشة»، وفي روايةٍ عن أنسٍ مرفوعاً: «التدبيرُ نصفُ المعيشة، والتودُّد نصفُ العقل، والهمُّ نصفُ الهرم، وقلَّة العيالِ أحدُ اليسارَين»[3]، وكان يقال: حسنُ التدبيرِ مع العفاف، خيرٌ من الغنى مع الإسراف.

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ أي: فتصيرَ ملوماً عند اللهِ تعالى وعندَ الناس ﴿مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ نادماً مغموماً، أو منقطعاً بك لا شيءَ عندك. مِن: حَسَره السفرُ: أعياه وأوقفه حتى انقطعَ عن رُفقته.

قال الراغبُ[4]: يقال للمُعْيي: حاسرٌ ومحسور، أمَّا الحاسر، فتصور أنَّه قد حَسَرَ بنفسه قُواه، وأما المحسورُ، فتصور أنَّ التعبَ قد حسره. وهذا بيانُ قبحِ الإسرافِ المفهومِ من النَّهي الأخير، وبيِّنٌ في أَثره؛ لأنَّ غائلةَ الإسراف في آخِره، وحيث كان قبحُ الشحِّ المفهومِ من النهي الأوَّل مقارِناً له معلوماً من أوَّل الأمر، رُوعي ذلك في التصوير بأقبحِ الصُّوَر، ولم يُسلَك فيه مسلكُ ما بعده. كذا قيل، وفي أثرٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما - أَخرجه عنه ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتمٍ[5] - ما يقتضيه.

وقال بعضُ المحقِّقين: الأَوْلى أن يكونَ ذلك بياناً لقبح الأمرين ويُعتبر التوزيعُ: «فتقعد» منصوبٌ في جواب النَّهيَين، والملومُ راجعٌ إلى قوله تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ) كما قيل:

---

(١) أخرجه أحمد (٤٢٦٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وأخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما الطبراني في الكبير (١٢٦٥٦).

(٢) في الشعب ٥/ ٢٥٤-٢٥٥.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٣٢) عن علي رضي الله عنه.

(٤) في المفردات (حسر).

(٥) الدر المنثور ٤/ ١٧٨، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٧٤-٥٧٥.

إنَّ البخيلَ ملومٌ حيثما كانا[١]

والمحسورُ راجعٌ إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ وليس ببعيد.

وفي «الكشاف»: عن جابر: بينا رسولُ اللهِ ﷺ جالسٌ، إذ أتاه صبيٌّ فقال: إنَّ أمِّي تستكسيك درعاً، فقال: «من ساعةٍ إلى ساعةٍ يظهر، فعُد إلينا» فذهب إلى أمِّه فقالت: قل له: إنَّ أمِّي تستكسيكَ الدِّرعَ الذي عليك، فدخل ﷺ دارَه، ونزع قميصَه وأعطاه وقعد عُرياناً، وأذَّن بلالٌ وانتظر، فلم يخرج عليه الصلاة والسلام إلى الصَّلاة، فنزلت[٢].

وأنت تعلمُ أنه يأبى هذا كونُ السورةِ مكِّية، والآيةُ ليست من المستثنَيات، ولعل الخبرَ لم يَثبت، فعن وليِّ الدين العراقيِّ أنَّه لم يجده في شيءٍ من كتب الحديث. أي: بهذا اللَّفظ، وإلَّا فقد أخرج ابنُ مردويه عن ابن مسعودٍ قال: جاء غلامٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إن أمِّي تسألكَ كذا وكذا، فقال: «ما عندنا اليومَ شيء» قال: فتقولُ لك: اكسُني قميصَك، فخلع عليه الصَّلاة والسلام قميصَه فدفعه إليه، وجلسَ في البيت حاسراً، فنزلت[٣]. وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن المِنهال بن عَمرٍو نحوَه[٤]، وليس في شيءٍ منهما حديثُ أذانِ بلالٍ وما بعده.

وقيل: إنَّه عليه الصلاة والسلام أعطى الأقرعَ بن حابسٍ مئةً من الإبل وعيينةَ بن حصن الفَزاري، فجاء عباسُ بن مِرداس، فأنشأ يقول:

أَتجعلُ نهبي ونهبَ العُبيـ ... ـدِ بين عيينةَ والأقرعِ
وما كان حِصنٌ ولا حابسٌ ... يفوقان مرداسَ في مَجْمَعِ
وما كنتُ دون امرئٍ منهما ... ومَن يُخفَضِ اليومَ لم يُرفعِ

---

(١) البيت بتمامه ـ كما في ديوان زهير بن أبي سلمى ص١٥٢ ـ:
إن البخيل ملوم حيث كان ولـ ... ـكنَّ الجواد على عِلَّاته هَرِمُ

(٢) الكشاف ٢/٤٤٧.

(٣) أسباب النزول للسيوطي ص٢٢٨، وأورده أيضاً في الدر المنثور ٤/١٧٨ لكن عزاه لابن جرير.

(٤) الدر المنثور ٤/١٧٨.

فقال ﷺ: «يا أبا بكرٍ، اِقطَع لسانَه عني، أَعطِه مائةً من الإبل» وكانوا جميعاً من المؤلَّفة قلوبُهم، فنزلت[1].

وفيه الإباءُ السابقُ كما لا يخفَى. وكذا ما أخرجه سعيدُ بن منصورٍ وابنُ المنذر عن سيار أبي الحكم قال: أتى رسولَ اللهِ ﷺ بَزٌّ من العراق، وكان مِعطاءً كريماً، فقسمه بين الناس، فبلغ ذلك قوماً من العرب، فقالوا: نأتي النبيَّ ﷺ نسأله، فوجدوه قد فرغَ منه، فأنزل اللهُ تعالى الآيةَ[2].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ تعليلٌ لقوله سبحانه: (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ) إلخ، كأنَّه قيل: إن أعرضتَ عنهم لفقد الرِّزق، فقل لهم قولاً ميسوراً، ولا تهتمَّ لذلك؛ فإنَّ ذلك ليس لهوانٍ منك عليه تعالى، بل لأنَّ بيده جَلَّ وعلا مقاليدَ الرِّزق، وهو سبحانه يُوسِّعه على بعضٍ ويضيِّقه على بعض، حَسبما تتعلَّق به مشيئتُه التابعةُ للحكمة، فما يَعرِضُ لك في بعض الأحيانِ من ضيق الحالِ الذي يُحوجك إلى الإعراض ليس إلَّا لمصلحتك، فيكون قولُه تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ) إلخ معترِضاً، تأكيداً لمعنى ما تقتضيه حكمتُه عزَّ وجلَّ من القبض والبسط.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿كَانَ﴾ لم يَزَل ولا يزال ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ جميعِهم ﴿خَبِيرًۢا﴾ عالماً بسرِّهم ﴿بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ عالماً بعَلَنهم، فيعلمُ من مصالحهم ما يخفىَ عليهم = تعليلٌ لسابقه.

وجوِّز أن يكونَ ذلك تعليلاً للأمر بالاقتصاد المستفادِ من النَّهيَين؛ إمَّا على معنى أنَّ البسطَ والقبضَ أمران مختصَّان بالله تعالى، وأمَّا أنت فاقتصِد واترُك ما هو مختصٌّ به جلَّ وعلا. أو على معنى أنَّكم إذا تحقَّقتم شأنَه تعالى شأنُه، وأنَّه سبحانه يَبسط ويَقبض، وأمعنتم النظرَ في ذلك، وجدتموه تعالى مقتصِداً، فاقتصدوا أنتم واستنُّوا بسنَّته.

وجعله بعضُهم تعليلاً لجميع ما مرَّ، وفيه خفاءٌ كما لا يخفى.

وجوِّز كونُه تعليلاً للنَّهي الأخير، على معنى: إنَّه تعالى يَبسط ويَقبض حَسَبَ مشيئته، فلا تبسطوا على مَن قَدَرَ عليه رزقَه. وليس بشيءٍ.

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (١٠٦٠) من حديث رافع بن خديج ﷺ، وينظر الكافي الشاف ص٩٩.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٧٨.

وجوّز أيضاً كونُه تمهيداً لقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ واستُبعد بأنَّ الظاهرَ حينئذٍ: فلا.

والإملاق: الفقرُ، كما رُوي عن ابن عباسٍ وأنشد له قولَ الشاعر:

وإنّي على الإملاق يا قوم ماجدٌ أُعدُّ لأضيافي الشّواءَ المُضَهَّبا[1]

وظاهرُ اللفظِ النهيُ عن جميع أنواعِ قتل الأولاد، ذكوراً كانوا أو إناثاً، مخافةَ الفقرِ والفاقة، لكن رُوي أنَّ من أهل الجاهليةِ مَن كان يَئد البناتِ مخافةَ العجزِ عن النفقة عليهنَّ، فنُهي في الآية عن ذلك، فيكون المرادُ بالأولاد البنات وبالقتل الوأد.

والخشيةُ في الأصل خوفٌ يَشوبه تعظيم، قال الرَّاغب[2]: وأكثر ما يكونُ ذلك عن علمٍ بما يخشَى منه.

وقُرئ بكسر الخاءِ[3].

والظاهرُ أنَّ هذا النهيَ معطوفٌ على ما تقدَّم من نظيره. وجوَّز الطبرسيُّ[4] أن يكونَ عطفُه على قوله سبحانه: (أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ) وحينئذٍ فيحتملُ أن يكونَ الفعلُ منصوباً بـ «أنْ» كما في الفعل السَّابق.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ضمانٌ لرزقهم، وتعليلٌ للنَّهي المذكور بإبطال موجِبه في زعمهم، أي: نحن نرزقهم لا أنتم، فلا تخافوا الفقرَ بناءً على عِلمكم بعجزهم عن تحصيل رزقِهم. وتقديمُ ضميرِ الأولاد على ضمير المخاطَبين على عكس ما وقع في سورة الأنعام؛ للإشعار بأَصالتهم في إفاضة الرِّزق، وعارَضَ هذه النُّكتةَ هناك تقدُّمُ ما يستدعي الاعتناءَ بشأن المخاطَبين من الآيات. كذا قيل.

وجوَّز المولى شيخُ الإسلام[5] كونَ ذلك لأنَّ الباعثَ على القتل هناك الإملاقُ

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٧٩، واللحم المُضَهَّب: الذي قد شوي على جمر محمًى. اللسان (ضهب).

(٢) في المفردات (خشي).

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٢.

(٤) في مجمع البيان ١٥/ ٤٥.

(٥) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٦٩.

الناجز، ولذلك قيل: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١] وهاهنا الإملاقُ المتوقَّع؛ ولذلك قيل: «خشية إملاق» فكأنَّه قيل: «نرزقُهم» من غير أن يَنقصَ من رزقكم شيءٌ فيعتريكم ما تخشَونه «وإيَّاكم» أيضاً رزقاً إلى رزقكم.

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ تعليلٌ آخَر ببيان أنَّ المنهيَّ عنه في نفسه منكَرٌ عظيم؛ لِمَا فيه من قطع التناسلِ وقطعِ النوع. والخِطْءُ كالإثم، لفظاً ومعنًى، وفعلُهما من باب عَلِمَ.

وقرأ أبو جعفرٍ، وابنُ ذكوان عن عامر: «خَطَأً» بفتح الخاءِ والطاءِ من غير مدٍّ(١). وخرَّج ذلك الزجَّاجُ(٢) على وجهين: الأوَّل: أن يكونَ اسمَ مصدرٍ من: أَخطأ يُخطئ، إذا لم يُصِب، أي: إنَّ قتلَهم كان غيرَ صواب. والثاني: أن يكونَ لغةً في الخِطْء، بمعنى الإثم، مثل: مِثْل ومَثَل، وحِذْر وحَذَر، فمَن استشكل هذه القراءةَ بأنَّ الخطأَ ما لم يتعمَّد ـ وليس هذا محلَّه ـ فقد نادَى على نفسه بقلَّة الاطِّلاع.

وقرأ ابنُ كَثير: «خِطَاءً» بكسر الخاءِ وفتحِ الطاء والمدِّ(٣). وخُرِّج على وجهَين أيضاً: الأوَّل: أن يكونَ لغةً في الخِطءِ بمعنى الإثم، مثل: دِبْغ ودِباغ، ولِبْس ولباس. والثاني: أن يكونَ مصدرَ: خاطَأ يخاطئُ خِطاءً، مثل: قاتَلَ يقاتل قِتالاً.

قال أبو عليٍّ الفارسيُّ(٤): وإنْ كنَّا لم نجد: خاطَأ، لكن وُجد: تخاطأَ(٥) مطاوعُه، فدلَّنا عليه، وذلك في قولهم:

تخطَّأت(٦) النَّبلُ أحشاءَه

---

(١) التيسير ص ١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.
(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٦.
(٣) التيسير ص ١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٧.
(٤) في الحجة ٥/ ٩٦-٩٧.
(٥) في (م): تخطأ.
(٦) كذا في اللسان (خطأ)، وفي الحجة ٥/ ٩٧، والصحاح (خطأ)، وتفسير القرطبي ١٣/ ٧١، والبحر ٦/ ٣٢: تخاطأت. والبيت لأوفى بن مطر، وعجزه: وأخَّر يومي فلم يُعجَل.

وأنشد محمدُ بن السري في وصف كماةٍ كما في «مَجْمَع البيان»[١]:

وأشعثَ قد ناولتُه أحرشَ القَرَا أدرَّت عليه المُدْجناتُ الهواضبُ[٢]
تخطَّأه[٣] القنَّاص حتَّى وجدته وخُرطومه في منقع الماءِ راسبُ

والمعنى على هذا: إنَّ قتلَهم كان عُدولاً عن الحقِّ والصواب، فقولُ أبي حاتمٍ: إنَّ هذه القراءةَ غلطٌ، غلط.

وقرأ الحسن: «خَطَاءً» بفتح الخاءِ والطاءِ مع المدِّ[٤]، وهو اسمُ مصدر: أَخطَى، كالعطاء اسمُ مصدر: أَعطَى.

وقرأ الزُّهريُّ وأبو رجاءٍ: «خِطًا» بكسر الخاءِ وفتحِ الطاء وألفٍ في آخره مُبدَلةٍ من الهمزة[٥]، وليس من قَصْر الممدود؛ لأنَّه ضرورةٌ لا داعيَ إليه.

وفي روايةٍ عن ابن عامرٍ أنَّه قرأ: «خَطًا» كعَصًا[٦].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ بمباشرة مباديه القريبةِ أو البعيدة، فضلاً عن مباشرته. والنهيُ عن قُربانه على خلافِ ما سبقَ ولحق؛ للمبالغة في النَّهي عن نفسه، ولأنَّ قُربانه داعٍ إلى مباشرته. وفسَّره الراغبُ[٧] بوطء المرأةِ من غير عقدٍ شرعيٍّ. وجاءَ فيه المدُّ والقصرُ، وإذا مدَّ، يصحُّ أن يكونَ مصدرَ المفاعلة.

وتوسيطُ النهيِ عنه بين النَّهي عن قتل الأولادِ والنهي عن قتل النفسِ المحرَّمة مطلقاً ـ كما قال شيخُ الإِسلام[٨] ـ باعتبار أنَّه قتلٌ للأولاد؛ لِمَا أنَّه تضييعٌ للأنساب، فإنَّ مَن لم يَثبُت نسبُه ميِّت حكماً.

---

(١) ١٥/ ٤٣، وهو في الحجة ٥/ ٩٧، ورسالة الصاهل والشاحج ص ١٤٩.
(٢) أحرش القرا: خشن الظهر، المدجنات الهواضب: السحب الممطرة الدائمة.
(٣) في المصادر: تخاطأه.
(٤) المحتسب ٢/ ١٩، والبحر ٦/ ٣٢.
(٥) المحتسب ٢/ ١٩، والبحر ٦/ ٣٢.
(٦) البحر ٦/ ٣٢.
(٧) في المفردات (زنى).
(٨) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٦٩-١٧٠.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ فِعْلةً ظاهرةَ القبحِ زائدتَه ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ أي: وبئسَ السبيلُ سبيلاً؛ لِمَا فيه من اختلال أَمرِ الأَنساب وهيجانِ الفِتَن.

وقد روى الشَّيخان[(١)] وغيرُهما عن أبي هريرةَ، عن رسول اللهِ ﷺ أنَّه قال: «لا يَزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمنٌ» وجاء في غير روايةٍ أنَّه «إذا زنى الرجلُ، خرج منه الإيمانُ، فكان فوقَ رأسِه كالظُّلَّة، فإن تاب ونزع، رجع إليه»[(٢)]، وهو من الكبائر، وفاحشةٌ مطلقاً، على ما أجمع عليه المحقِّقون، بل في الحديث الصحيحِ أنَّه بحليلة الجارِ من أكبر الكبائر[(٣)].

وزعم الحليميُّ[(٤)] أنَّه فاحشةٌ إن كان بحليلة الجار، أو بذات الرَّحم، أو بأجنبيةٍ في شهر رمضان، أو في البلد الحرام، وكبيرةٌ إنْ كان مع امرأةِ الأب، أو حليلة الابن، أو مع أجنبيةٍ على سبيل القهرِ والإكراه، وإذا لم يُوجِب حدًّا يكون صغيرةً.

ولا يخفَى ردُّه وضعفُ مبناه، والآيةُ ظاهرةٌ في أنه فاحشةٌ مطلقاً، نعم أفحشُ أنواعِه الزِّنى بحليلة الجار، وقال بعضُهم: أعظمُ الزِّنى على الإطلاق الزنى بالمحارم، فقد صحَّح الحاكمُ[(٥)] أنَّه ﷺ قال: «مَن وقعَ على ذات محرمٍ فاقتلوه» وزنى الثيِّب أقبحُ من زنى البِكر، بدليل اختلافِ حدَّيهما، وزنى الشيخ ـ لكمال عقله ـ أقبحُ من زنى الشابِّ، وزنى الحُرِّ والعالِم ـ لكمالهما ـ أقبحُ من زنى القِنِّ والجاهل.

وهل هو أكبرُ من اللِّواط أم لا؟ فيه خلاف، وفي «الإحياء»[(٦)] أنَّه أكبرُ منه؛ لأنَّ الشهوة داعيةٌ إليه من الجانبين، فيَكثُرُ وقوعُه ويَعظُم الضَّرر، ومنه اختلاطُ الأنسابِ بكثرته.

وقد يعارَض بأنَّ حدَّه أَغلظ، بدليل قولِ مالكٍ وآخَرين برجم اللوطيِّ ولو غيرَ محصَن، بخلاف الزَّاني.

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٧٥)، وصحيح مسلم (٥٧).
(٢) سنن أبي داود (٤٦٩٠).
(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٤) المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ٣٦-٣٧.
(٥) في المستدرك ٤/ ٣٥٦.
(٦) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٠.

وقد يجاب بأنَّ المفضولَ قد يكون فيه مَزِيَّة. وفيه ما فيه.

وبالَغَ بعضُهم فقال: إنَّه مطلقاً يلي الشِّركَ في الكِبر، والأصحُّ أنَّ الذي يلي الشِّركَ هو القتلُ، ثم الزنى.

وخبرُ: «الغِيبةُ أشدُّ من ثلاثين زنيةً في الإسلام» الظاهرُ ـ كما قال ابنُ حجرٍ الهيتميُّ[1] ـ أنَّه لا أصلَ له. نَعَم روى الطبرانيُّ والبيهقيُّ[2] وغيرُهما: «الغِيبةُ أشدُّ من الزنى» إلَّا أنَّ له ما يبيِّن معناه، وهو ما رواه ابنُ أبي الدُّنيا[3] وأبو الشَّيخ عن جابرٍ وأبي سعيدٍ رضي الله عنهما: «إيَّاكم والغيبةَ، فإنَّ الغيبةَ أشدُّ من الزنى، إنَّ الرجل لَيزني فيتوبُ اللهُ تعالى عليه، وإنَّ صاحبَ الغيبةِ لا يُغفر له حتى يغفرَ له صاحبُه» فعُلم منه أنَّ أشدِّية الغيبةِ من الزِّنى ليست على الإطلاق، بل من جهة أنَّ التوبةَ الباطنةَ المستوفيةَ لجميع شروطها، من النَّدم من حيث المعصية، والإقلاعِ، وعزمِ ألَّا يعودَ مع عدم الغرغرةِ وطلوعِ الشَّمس مِن مغربها = مكفِّرةٌ لإثم الزِّنى بمجرَّدها، بخلاف الغِيبة، فإنَّ التوبةَ وإنْ وُجدت فيها هذه الشروطُ لا تكفِّرها، بل لا بدَّ وأن ينضمَّ إليها استحلالُ صاحبِها مع عفوه، فكانت الغيبةُ أشدَّ من هذه الحيثيةِ لا مطلقاً، فلا يعكِّر الحديثُ على الأصحِّ.

وعُلم منه أيضاً أنَّ الزِّنى لا يحتاج في التوبةِ منه إلى استحلال، وهو ما صرَّح به غيرُ واحدٍ من المحقِّقين، وهو مع ذلك من الحقوق المتعلِّقة بالآدميِّ، كيف لا وهو من الجناية على الأعراض والأنساب؟! ومعنى قولِهم: إنَّ الزِّنى لا يتعلَّق به حقُّ آدميٍّ، أي: من المال ونحوِه، وعدمُ اشتراطِ الاستحلالِ لا يدلُّ على أنَّه ليس من الحقوق المتعلِّقة بالآدميِّ مطلقاً، وإنَّما لم يُشترط الاستحلالُ لِمَا يترتَّب على ذِكره من زيادة العار، والظنُّ الغالبُ بأنَّ نحوَ الزوجِ أو القريبِ إذا ذُكر له ذلك، يبادر إلى قتل الزّاني، أو المزنيِّ بها، أو إلى قتلهما معاً، ومع ما ذُكر كيف يمكن القولُ باشتراطه؟!

---

(١) في الفتاوى الكبرى ٤/ ٢٤٢.

(٢) المعجم الأوسط (٦٥٩٠)، وشعب الإيمان ٥/ ٣٠٥ من حديث أبي سعيد وجابر رضي الله عنهما.

(٣) في كتاب الصمت (١٦٤).

وقد صرَّح بنحو ذلك حُجَّةُ الإسلام الغزاليُّ في «منهاج العابدين» فقال في ضمن تفصيلٍ ـ قال الأذرعيُّ(١): إنَّه في غاية الحسنِ والتحقيق ـ: أَمَّا الذنبُ في الحُرَم، فإنْ خُنتَه في أهله وولدِه، فلا وجهَ للاستحلال والإظهار؛ لأنه يولِّد فتنةً وغيظاً، بل تتضرَّع إلى الله سبحانه ليُرضيَه عنك، ويجعلَ له خيراً كثيراً في مقابلته، فإنْ أُمنت الفتنةُ والهيج، وهو نادرٌ، فتستحلُّ منه، وقد قال الأذرعيُّ في مواضعَ في الحسد والتوبةِ منه: ويُشبه أن يَحرُم الإخبارُ به إذا غلب على ظنِّه ألَّا يحلِّله، وأنَّه يتولد منه عداوةٌ وحقدٌ وأذًى للمخبِر. ثم قال: ويجوز أن ينظرَ إلى المحسود، فإنْ كان حَسَنَ الخُلقِ بحيث يظنُّ أنه يحلِّله، تعيَّن إخباره؛ ليخرجَ من ظُلامته بيقين، وإنْ غلب على ظنِّه أنَّ إخباره يجرُّ شرًّا وعداوة، حَرُمَ إخباره قطعاً، وإنْ تردَّد، فالظاهرُ ما ذكره النوويُّ من عدم الوجوبِ والاستحباب، فإنَّ النفس الزَّكية نادرةٌ، وربما جرَّ ذلك شرًّا وعداوةً وإنْ حلَّله بلسانه. اهـ.

فإذا كان هذا في الحسد مع سهولته عندَ أكثرِ النَّاس وعدمِ مبالاتهم به، ومن ثَمَّ أطلق النوويُّ عدمَ الإخبار فقال: المختارُ بل الصوابُ أنَّه لا يجب إخبارُ المحسودِ، بل لا يستحبُّ، ولو قيل: يكره، لم يَبْعد، فما بالُك في الزِّنى المستلزمِ أنَّ الزوجَ والقريبَ يقتل فيه بمجرَّد التوهُّم، فكيف مع التحقُّق؟

ويُعلم من الأخبار أنَّ ثمراتِ الزنى قبيحةٌ، منها أنَّه يورد النارَ والعذابَ الشديد، وأنَّه يورث الفقرَ وذهابَ البهاءِ، وقِصَرَ العمر، وأنَّه يؤخذ بمثله من ذريَّة الزاني.

ولمَّا قيل لبعض الملوكِ ذلك، أراد تجربتَه بابنةٍ له، وكانت غايةً في الحُسن، فأنزلها مع امرأةٍ وأمرها ألَّا تمنعَ أحداً أراد التعرُّضَ لها بأيِّ شيءٍ شاء، وأمرها بكشف وجهِها، فطافت بها في الأسواق، فما مرَّت على أحدٍ إلَّا وأطرق حياءً وخجلاً منها، فلمَّا طافت بها المدينةَ كلَّها ولم يمدَّ أحدٌ نظرَه إليها، رجعت بها إلى دار الملك، فلمَّا أرادت الدخولَ، أمسكها إنسانٌ وقبَّلها، ثم ذهب عنها، فأدخَلَتْها على الملك وذَكَرت له القصةَ، فسجد شكراً وقال: الحمدُ لله تعالى، ما وقع مني

---

(١) هو أحمد بن حمدان شهاب الدين أبو العباس الأذرعي، ولد بأذرعات الشام، ومات سنة (٧٨٣هـ)، وله شرحان على المنهاج في كل منهما ما ليس في الآخر. الدرر الكامنة ١/ ١٤٥.

في عُمُري قطُّ إلَّا قُبلةٌ، وقد قوصِصتُ بها. نسأل اللهَ سبحانه أن يعصمَنا وذراريَنا ومَن يُنسَب إلينا من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، بحرمة النبيِّ ﷺ.

وقرأ أُبيُّ بن كعبٍ ـ كما أَخرجه عنه ابنُ مردويه ـ: «ولا تَقربوا الزِّنى إنَّه كان فاحشةً ومقتاً وسَاءَ سبيلاً، إلَّا مَن تاب فإنَّ اللهَ كان غفوراً رحيماً» فذُكر لعمرَ رضي الله عنه، فأَتاه فسأله، فقال: أخذتُها من رسول اللهِ ﷺ، وليس لك عملٌ إلَّا الصفقُ بالنَّقيع[1]. وهذا إنْ صحَّ كان قبل العَرْضةِ الأخيرة.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: حرَّمها اللهُ تعالى، والمرادُ: حرَّم قتلَها بأنْ عصمها بالإسلام أو بالعهد ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّق بـ «لا تقتلوا»، والباءُ للسببية، والاستثناءُ مفرَّغ، أي: لا تقتلوها بسببٍ من الأسباب إلَّا بسبب الحقِّ. ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل أو المفعول، أي: لا تقتلوا إلا ملتبسين بالحقِّ، أو: لا تقتلوها إلا ملتبسةً بالحقّ. وجوِّز أن يكونَ نعتاً لمصدرٍ محذوف، أي: لا تقتلوها قتلاً ما إلَّا قتلاً ملتبساً بالحقّ. والأوَّلُ أظهر. وأما تعلُّقه بـ «حرَّم» فبعيدٌ وإنْ صحَّ.

وفسِّر الحقُّ بما رواه الشيخان[2] وغيرُهما عن ابن مسعود: «لا يحلُّ دمُ امرئٍ يشهد أن لا إله إلَّا اللهُ وأنِّي رسولُ اللهِ إلَّا بإحدى ثلاث: النَّفْس بالنفس، والثيِّب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

ونُقض الحصرُ بدفع الصَّائل، فإنَّ ذلك ربَّما أدَّى إلى القتل. ودُفع بأنَّ المرادَ ما يكون بنفسه مقصوداً به القتلُ، وما ذُكر المقصودُ به الدفعُ، وقد يُفضي إليه في الجملة.

والحقُّ عدم انحصار الحقِّ فيما ذُكر، وهو في الخبر ليس بحقيقيٍّ، وقد ذهب الشافعيةُ إلى أنَّ تركَ الصلاةِ كسلاً مبيحٌ للقتل، وكذا اللِّواطة عند جمعٍ من الأَجِلّة.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير حقٍّ يوجب قتلَه أو يُبيحه للقاتل، حتى إنَّه لا يُعتبر إباحتُه لغير القاتل، فقد نصَّ علماؤنا أنَّ مَن عليه القصاصُ إذا قتله غيرُ مَن له القصاص، يُقتصُّ له، ولا يُفيده قولُ الوليِّ: أنا أمرته بذلك، إلَّا أن يكونَ الأمرُ ظاهراً.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٧٩.

(٢) صحيح البخاري (٦٨٧٨)، وصحيح مسلم (١٦٧٦).

﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ لمن يَلي أمرَه، من الوارث أو السُّلطانِ عند عدمِ الوارث. واقتصارُ البعضِ على الأوَّل رعايةً للأغلب. ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: تسلُّطاً واستيلاءً على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين: القصاص أو الدِّية، وقد تتعيَّن الديةُ كما في القتل الخطأ، والمقتولُ خطأً مقتول ظلماً بالمعنى الذي أُشير إليه وإنْ قلنا: لا إثمَ في الخطأ؛ لحديث: «رُفع عن أُمَّتي الخطأ»[1] وشرع الكفَّارة فيه لعدم التثبُّت واجتنابِ ما يؤدِّي إليه، فليتأمَّل.

واستُدلَّ بتفسير الوليِّ بالوارث على أنَّ للمرأة دخلاً في القصاص. وقال القاضي إسماعيل: لا تدخل؛ لأنَّ لفظه مذكَّر.

﴿فَلَا يُسْرِف﴾ أي: الوليُّ ﴿فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ أي: فلا يتجاوز الحدَّ المشروعَ فيه، بأن يقتلَ اثنين مثلاً والقاتلُ واحد، كعادة الجاهلية، فإنَّهم كانوا إذا قُتل منهم واحدٌ قتلوا قاتلَه وقتلوا معه غيرَه، ومن هنا قال مهلهل:

كلُّ قتيلٍ في كُلَيب غُرَّه حتى ينالَ القتلُ آلَ مُرَّه[2]

وإلى هذا ذهب ابنُ جُبَير، وأخرجه ابنُ المنذر من طريق أبي صالحٍ عن ابن عباس[3].

أو بأن يقتلَ غيرَ القاتل ويتركَ القاتل. ورُوي هذا عن زيد بن أَسلَم؛ فقد أَخرج البيهقيُّ في «سُنَنه»[4] عنه أن الناس في الجاهلية إذا قَتل مَن ليس شريفاً شريفاً، لم يقتلوه به، وقتلوا شريفاً من قومه، فنُهي عن ذلك.

أو بأن يزيدَ على القتل المُثلةَ كما قيل. وأَخرج ابن جَريرٍ[5] وغيرُه عن طَلْق بن حبيب أنَّه قال: لا يَقتلْ غيرَ قاتله ولا يمثِّل به.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ «إن الله وضع عن أمتي الخطأ...»، وأخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ٩٥، وابن حبان (٧٢١٩)، والبيهقي ٧/ ٣٥٦، وغيرهم بلفظ «إن الله تجاوز لي عن أمتي...».

(٢) الأغاني ٥/ ٤٧.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٨١.

(٤) ٨/ ٢٥.

(٥) في تفسيره ١٤/ ٥٨٥-٥٨٦.

وقيل: بأن يَقتُلَ القاتلَ والمشروعُ عليه الدِّية. وأَخرج ابنُ أبي حاتم وغيرُه عن قتادةَ أنَّه قال في الآية: مَن قَتل بحديدة قُتل بحديدة، ومَن قتل بخشبةٍ قُتل بخشبة، ومَن قتل بحجرٍ قُتل بحجر، ولا يُقتل غيرُ القاتل[1]. وفيه القولُ بأنَّ القتل بالمثقَّل يوجِب القصاص، وهو خلافُ مذهبنا.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «فلا تُسرِفْ»[2] بالخطاب للوليِّ التفاتاً، وقرأ أبو مسلمٍ صاحبُ الدولة[3]: «فلا يُسرِفُ» بالرَّفع على أنَّه خبرٌ في معنى الأمر، وفيه مبالغةٌ ليست في الأمر.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ٣٣﴾ تعليلٌ للنهي، والضمير للوليِّ أيضاً، على معنى أنَّه تعالى نصره بأن أَوجب القصاصَ أو الدِّية وأمر الحكَّام بمعونته في استيفاء حقِّه، فلا يبلغ ما وراءَ حقِّه، ولا يخرج من دائرة إِمرة النَّاصر.

وأَخرج ابن جَريرٍ وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم عن مجاهدٍ أنَّ الضميرَ للمقتول[4]، على معنى أنَّ الله تعالى نصره في الدنيا بأَخذ القِصاص أو الدِّية، وفي الأُخرى بالثَّواب، فلا يُسرفْ وليُّه في شأنه.

وجوِّز أن يعودَ على الذي أَسرف به الوليُّ، أي: إنَّه تعالى نصره بإيجاب القصاصِ والتعزيرِ والوِزر على مَن أَسرف في شأنه.

وقيل: ضميرُ «يُسرف» للقاتل، أي: مريدُ القتل ومباشرُه ابتداءً؛ ونسبه في «الكشَّاف»[5] إلى مجاهد، والضَّميران في التعليل عائدان على الوليِّ أو المقتول، وأُيِّد بقراءة أُبَي: «فلا تسرفوا»[6] لأن القاتلَ متعدِّد في النَّظم في قوله تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوٓا)، والأصلُ توافقُ القراءتين، ولم تعيِّنه لأنَّ الوليَّ عامٌّ في الآية، فهو في معنى

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨١، وزاد نسبته لابن جرير وهو في تفسيره ١٤/ ٥٨٧.

(٢) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.

(٣) هو عبد الرحمن بن مسلم، أبو مسلم الخراساني، هازم جيوش الدولة الأموية والقائم بإنشاء الدولة العباسية. قتل في شعبان سنة (١٣٧هـ) وعمره (٣٧) سنة. السير ٦/ ٤٨. وقراءته في المحتسب ٢/ ٢٠، والبحر ٦/ ٣٤.

(٤) الدر المنثور ٤/ ١٨١.

(٥) ٢/ ٤٤٨.

(٦) الكشاف ٢/ ٤٤٨، والبحر ٦/ ٣٤.

الأولياءِ، فيجوز جمعُ ضميرِه بهذا الاعتبار، ويكون التفاتاً، وتوافقُ القراءتين ليس بلازم، والمعنى: فلا يُسرف على نفسه في شأن القتلِ بتعريضها للهلاك العاجلِ والآجل.

وفي «الكشف» أنَّه ردعٌ للقاتل على أسلوبِ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩] والنهيُ عن الإسراف لتصوير أنَّ القتلَ بغير حقٍّ كيفما قدِّر إسراف، ومعناه: فلا يقتل بغير حقٍّ. وأنت تعلم أنَّ هذا الوجهَ غيرُ وجيه، فلا ينبغي التعويلُ عليه.

وهذه الآيةُ ـ كما أخرج غيرُ واحدٍ عن الضحَّاك ـ أوَّل آيةٍ نزلت في شأن القتل، وقد علمتَ أنَّ الأصحَّ أنه أكبرُ الكبائرِ بعد الشِّرك، وكونُ القتلِ العمدِ العدوانِ من الكبائر مجمَعٌ عليه، وعدُّ شِبهِ العمدِ منها هو ما صرَّح به الهرويُّ وشريح الرُّوياني، وأمَّا الخطأ، فالصوابُ أنَّه ليس بمعصية، فضلاً عن كونه ليس بكبيرة، فليُحفَظ.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ نهي عن قِربانه لِمَا ذُكر سابقاً من المبالغة في النَّهي عن التعرُّض له، وللتوسُّل إلى الاستثناءِ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلَّا بالخصلة والطريقةِ التي هي أَحسنُ الخصالِ والطَّرائق، وهي حفظُه واستثماره.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ غايةٌ لجواز التصرُّف على الوجه الأحسنِ المدلولِ عليه بالاستثناء، لا للوجه المذكورِ فقط.

والأَشُدُّ قيل: جمع شدٍّ، كالأَضُرِّ جمع ضَرٍّ. والشدُّ القوَّة، وهو استحكامُ قوةِ الشبابِ والسنِّ، كما أنَّ شدَّ النهار ارتفاعُه، قال عنترة:

عهدي به شدَّ النهار[1] كأنما ... خُضب البنَانُ ورأسُه بالعِظْلِمِ[2]

وقيل: هو جمع شِدَّة، مثلُ نِعمة وأَنعُم. وقال بعضُ البصريِّين: هو واحدٌ مثل الآنُك.

والمرادُ ببلوغه الأشدَّ بلوغُه إلى حيث يُمكنه بسبب عقلِه ورُشدِه القيامُ بمصالح مالِه.

---

(١) في الديوان ص٢٧: مدَّ النهار.

(٢) العظلم: نبت يختضب به.

ثم التصرُّفُ بمال اليتيمِ بنحو الأكلِ على غير الوجهِ المأذونِ فيه من الكبائر. وتردَّد ابنُ عبدِ السلام بتقييده بنصاب السَّرقة، فقال في «القواعد»[1]: قد نصَّ الشرعُ على أنَّ شهادة الزُّور وأكلَ مالِ اليتيم من الكبائر، فإنْ وقعا في مالٍ خطير فهو ظاهرٌ، وإنْ وقعا في مالٍ حقير، كزبيبةٍ وتمرة، فيجوز أن يُجعلا من الكبائر فطاماً عن جِنس هذه المفسدة، كالقطرة من الخمر، وإن لم تتحقَّق المفسدةُ، ويجوز أن يُضبَطَ ذلك بنصاب السَّرقة. اهـ.

وقد يفرَّق بينهما بأنَّ في شهادة الزُّور مع الجراءة على انتهاك حرمةِ المالِ المعصومِ جراءةً على الكذب في الشَّهادة، بخلاف القليلِ من مال اليتيمِ فلا يُستبعَد التقييدُ به بخلافها. كذا قيل.

والحقُّ أن الآياتِ والأخبارَ الواردةَ في وعيد أكلِ مال اليتيمِ مطلقة، فتتناول القليلَ والكثير، فلا يجوز تخصيصُها إلَّا بدليل سمعيٍّ، وحيث لا دليلَ كذلك، فالتخصيصُ غيرُ مقبول، فالوجهُ أنَّه لا فرقَ بين أكلِ القليل وأكلِ الكثير في كونه كبيرةً يستحقُّ فاعلُه الوعيدَ الشَّديد، نَعَم الشيءُ التافه الذي تقتضي العادةُ المسامحةَ به لا يَبعد كونُ أكلهِ ليس من الكبائر، واللهُ تعالى أعلم. وقد توصَّل القضاةُ اليومَ إلى أكل مالِ اليتيمِ في صورة حِفظِه، عامَلَهم اللهُ تعالى بعدله، وأَذاقَ خائنهم في الدَّارين جزاءَ فعله.

﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ﴾ ما عاهدتم اللهَ تعالى عليه من التزام تكاليفِه، وما عاهدتم عليه غيرَكم من العباد، ويدخل في ذلك العقودُ. وجوِّز أن يكونَ المرادُ: ما عاهدكم اللهَ تعالى عليه وكلَّفكم به.

والإِيفاءُ بالعهد والوفاءُ به: هو القيامُ بمقتضاه والمحافظةُ عليه وعدمُ نقضه، واشتقاقُ ضدِّه ـ وهو الغدرُ ـ يدلُّ على ذلك، وهو التركُ، ولا يكادُ يُستعمَل إلَّا بالباء، فرقاً بينه وبين الإِيفاءِ الحسيِّ، كإيفاء الكيلِ والوزن.

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ﴾ أظهرَ في مقام الإِضمارِ إظهاراً لكمال العنايةِ بشأنه. وقيل: دفعاً لتوهُّم عودِ الضمير إلى الإِيفاء المفهومِ من «أوفوا».

---

(١) ١/١٩-٢٠.

﴿كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: مسؤولاً عنه، على حذف الجارِّ وجعلِ الضميرِ بعد انقلابِهِ مرفوعاً مستكنًّا في اسم المفعول، ويسمَّى الحذفَ والإيصال، وهو شائع.

وجوِّز أن يكونَ الكلامُ على حذفِ مضاف، أي: إنَّ صاحبَ العهدِ كان مسؤولاً.

وقيل: لا حذفَ أصلاً، والكلامُ على التخييل، كأنَّه يقال للعهد: لم نُكثت وهلَّا وُفي بك، تبكيتاً للنَّاكث، كما يقال للموؤدة: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٩] وقد يعتبر فيه الاستعارةُ المكنيةُ والتخييلية.

وزعم بعضُهم أنَّه يجوز أن يُجعلَ العهد متمثّلاً على هيئةِ مَن يتوجَّه عليه السؤال، كما تُجسَّم الحسناتُ والسيئاتُ لتوزَن.

وجوِّز أن يكونَ «مسؤولاً» بمعنى: مطلوباً، من: سألتُ كذا، إذا طلبت، وإسنادُ المطلوبيةِ إليه مجاز، والمراد: مطلوبٌ عدمُ إضاعته.

ويجوز أن يكونَ في الكلام مضافٌ محذوفٌ ارتفع الضميرُ واستتر بعد حذفِه. والأَصلُ ما أشرنا إليه، وقد سمعتَ آنفاً أنَّ مِثلَ ذلك شائع، وليس في ذلك تعليلُ الشيء بنفسه، فإنَّ المآلَ إلى أن يقال: أوفوا بالعهد؛ فإنَّ عدمَ إضاعته لم تزل مطلوبةً من كلِّ أحد، فتُطلب منكم أيضاً.

ثم إنَّ الإِخلال بالوفاءِ بالعهد على ما تقتضيه الأحاديثُ الصحيحةُ قيل: كبيرةٌ، وقد جاء عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه أنَّه عدَّ من الكبائر نكثَ الصَّفقة، أي: الغدر بالمعاهد، بل صرَّح شيخُ الإِسلام العلائيُّ بأنَّه جاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ أنَّه سمَّاه كبيرة[1].

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ في إطلاق كونِ الإِخلال المذكورِ كبيرةً نظراً، بناءً على أنَّ العهدَ هو التكليفاتُ الشرعية، فإنَّ من الإِخلال ما يكون كبيرةً، ومنه

---

(١) الزواجر ٢/١٦٩، ثم قال: لكن اعترضه الجلال البلقيني بأنه لم يرد في الأحاديث المنصوص فيها على الكبائر النصُّ على أن ذلك كبيرة، قال: وإنما فيه وعيد شديد كما تقدم. اهـ. والظاهر أنه أراد بما تقدم حديث أحمد (٨٦٩٢) والبخاري (٢٢٢٧): «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر...». انتهى كلام ابن حجر الهيتمي.

ما يكون صغيرةً، ويُنظَر في ذلك إلى حال المكلَّف به. ولعلَّ مَن قال: إنَّ الإخلال بالعهد كبيرةٌ، أراد بالعهد مبايعةَ الإمام، وبالإخلال بذلك نقضَ بيعته والخروجَ عليه لغير موجِبٍ ولا تأويل، ولا شبهةَ في أنَّ ذلك كبيرة، فليتأمَّل.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أتمُّوه ولا تُخسروه ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي: وقتَ كيلِكم للمشترين، وتقييدُ الأمرِ به لِمَا أنَّ التطفيفَ يكون هناك، وأمَّا وقت الاكتيالِ على الناسِ فلا حاجةَ إلى الأمر بالتعديل، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ الآية [المطففين: ٢].

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ هو القَبَّان على ما رُوي عن الضحَّاك، ويقال له: القَرَسْطُون، بلغة أهلِ الشَّامِ كما قال الأزهريُّ[١]. وقال الزجَّاج[٢]: هو الميزان، صغيراً كان أو كبيراً، من موازين الدَّراهم وغيرها. وقال الليث: هو أقومُ الموازين. وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن قتادةَ أنَّه العدل، وعن الحسنِ أنَّه الحديد. وهو روميٌّ معرَّب كما قال ابنُ دريد؛ لفقد مادَّته في العربية. وقيل: إنَّه عربيٌّ، ورُوي القولُ بتعريبه وأنَّه الميزانُ في اللغة الروميةِ عن ابن جُبَير وجماعة. وقيل: هو مركَّب من كلمتين: القِسط، وهو العدل، وطاس، وهو كِفَّة الميزان، لكنه حُذف أحدُ الطائين لأنَّ التركيب محلُّ تخفيف. وهو كما ترى.

وعلى القول بأنَّه روميٌّ معرَّب ـ وهو الصحيحُ ـ لا يقدحُ استعمالُه في القرآن في عربيَّته المذكورةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] لأنَّه بعد التعريبِ والسَّماعِ في فصيح الكلامِ يصير عربيًّا، فلا حاجةَ إلى إنكار تعريبه، أو ادِّعاءِ التغليب، أو أنَّ المراد عربيُّ الأُسلوب.

وقد قرأه الكوفيُّون بكسر القاف، والباقون بضمِّها[٣]، وقد تُبدَل السِّين الأُولى صاداً، كما أُبدلت الصادُ سيناً في الصِّراط.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: العدل السَّويِّ، وهو يُبعد تفسيرَ القسطاسِ بالعدل.

---

(١) قال في تهذيب اللغة ٩/ ٣٨٩: وقال الزجاج: قيل للقسطاس: القرسطون، وقيل: هو القبان.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٨.

(٣) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.

ولعلَّ الاكتفاءَ باستقامته عن الأمر بإيفاء الوزن ـ كما قال شيخُ الإسلام[١] ـ لِمَا أنَّ عند استقامتهِ لا يتصوَّر الجَور غالباً، بخلاف الكيل، فإنَّه كثيراً ما يقع التطفيفُ مع استقامة الآلة، كما أنَّ الاكتفاءَ بإيفاء الكيلِ عن الأمر بتعديله لِمَا أنَّ إيفاءَه لا يتصوَّر بدون تعديلِ المكيال، وقد أُمر بتقويمه أيضاً في قوله تعالى: ﴿أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود: ٨٥].

﴿ذَلِكَ﴾ أي: إيفاءُ الكيل والوزنِ بالقسطاس المستقيم ﴿خَيْرٌ﴾ في الدنيا؛ لأنَّه سببٌ لرغبة الناسِ في معاملة فاعلهِ وجلبِ الثناءِ الجميلِ عليه ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: عاقبةً؛ لِمَا يترتَّب عليه من الثَّواب في الآخرة. والتأويلُ تفعيلٌ من: آل إذا رجع، وأصلُه رجوع الشيءِ إلى الغاية المرادةِ منه عِلماً، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] أو فعلاً، كما في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وقولِ الشاعر[٢]:

وللنَّوى قبل يوم البَيْن تأويل

وقيل: المراد: ذلك خيرٌ في نفسه؛ لأنَّه أمانة، وهي صفةُ كمال، وأحسنُ عاقبةً في الدنيا؛ لأنه سببٌ لميل القلوبِ والرغبةِ في المعاملة والذِّكر الجميلِ بين الناس، ويُفضي ذلك إلى الغنى، وفي الآخرة؛ لأنه سببٌ للخلاص من العذاب، والفوزِ بالثَّواب. وقيل: أحسنُ تأويلاً، أي: أحسنُ معنًى وترجمة.

ثم إنَّ إيفاءَ الكيلِ والوزن واجبٌ إجماعاً، ونقصُ ذلك من الكبائر مطلقاً، على ما يقتضيه الوعيدُ الشديدُ لفاعله الواردُ في الآيات والأحاديثِ الصَّحيحة، ولا فرقَ بين القليلِ والكثير، نعم قال بعضُهم: إنَّ التطفيفَ بالشيءِ التافهِ الذي يسامح به أكثرُ الناسِ ينبغي أن يكونَ صغيرةً، فإن قلتَ: ذكروا في الغصب أنَّ غصبَ ما دون رُبعِ دينار لا يكونُ كبيرةً، وقضيَّته أن يكونَ التطفيفُ كذلك، قلتُ: قيل: ذلك مشكلٌ، فلا يقاس عليه، بل حُكي الإجماعُ على خلافه. وقال الأذرعيُّ: إنَّه تحديدٌ لا مستندَ له. انتهى.

وعلى التنزُّل فقد يفرَّق بأنَّ الغصبَ ليس مما يدعو قليلُه إلى كثيره؛ لأنَّه

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٧١.
(٢) شطر بيت لعبدة بن الطبيب كما في المفضليات ص١٣٦، وسلف ٤/ ٢٦.

إنَّما يكون على سبيل القهرِ والغَلَبة، بخلاف التَّطفيف، فتعيَّن التنفيرُ عنه بأنَّ كلًّا من قليله وكثيرِه كبيرةٌ، أخذاً ممَّا قالوه في شرب القطرةِ من الخمر من أنَّه كبيرةٌ وإنْ لم يوجَد فيها مفسدةُ الخمر؛ لأنَّ قليلَه يدعو إلى كثيره، ومثلُ التطفيفِ في الكيل والوزنِ النقصُ في الذَّرع، ولا يكاد يسلمُ كيَّال أو وزَّان أو ذرَّاع في هذه الأعصارِ من نقص، إلَّا مَن عصمه اللهُ تعالى.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تَتَّبع. وأصلُ معنى قفا اتَّبع قفاه، ثم استُعمل في مطلق الاتِّباع، وصار حقيقةً فيه.

وقُرِئ: «ولا تقفو»[1] بإثبات حرفِ العلَّة مع الجازم، وهو شاذٌّ. وقُرِئ أيضاً: «ولا تَقُفْ»[1] بضمِّ القافِ وسكونِ الفاء، كتَقُل، على أنَّه أجوفُ مجزومٌ بالسكون، وماضيه: قافَ، يقال: قاف أثَرَه يَقوفه، إذا قصَّه واتَّبعه، ومنه القِيافة، وأصلُها ما يُعلم من الأقدام وأثرِها. وعن أبي عبيدةَ أنَّ قافَ مقلوبُ قفا، كجَذَبَ وجبذ. وتُعقِّب بأنَّ الصحيح خلافُه.

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تتبع ما لا علمَ لك به من قولٍ أو فعل. وحاصلُه يرجع إلى النَّهي عن الحكم بما لا يكون معلوماً، ويندرج في ذلك أمور، وكلٌّ من المفسِّرين اقتصرَ على شيءٍ، فقيل: المراد نهيُ المشركين عن القول في الإلهيَّات والنبوَّاتِ تقليداً للأَسلاف واتِّباعاً للهوى.

وأَخرج ابن جَرير وابنُ المنذر عن محمد بن الحنفيةِ أنَّ المرادَ النهيُ عن شهادة الزُّور[2].

وقيل: المراد النهيُ عن القذف ورميِ المحصَنين والمحصَنات، ومن ذلك قولُ الكُميت:

ولا أرمي البريءَ بغير ذنبٍ ولا أَقفو الحواصنَ إن رُمينا[3]

وروى البيهقيُّ في «شُعَب الإيمان» وأبو نُعَيم في «الحِلية» من حديث

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦.
(٢) الدر المنثور ٤/ ١٨٢، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٩٤.
(٣) ديوانه ص٤٦٦. الحواصن جمع حَصان: وهي المرأة العفيفة المتزوجة.

معاذِ بن أنس: «مَن قفا مؤمناً بما ليس فيه يريد شَينَه به، حَبَسَه اللهُ تعالى على جسر جهنَّمَ حتى يخرجَ مما قال»[1].

وقيل: المراد النهيُ عن الكذب، أخرج ابن جَرير[2] وغيرُه عن قتادةَ أنَّه قال في الآية: لا تقل: سمعتُ، ولم تسمع، و: رأيت، ولم ترَ.

واختار الإمامُ العمومَ، قال[3]: إنَّ اللفظ عامٌّ يتناول الكلَّ، فلا معنى للتقييد.

واحتجَّ بالآية نفاةُ القياس؛ لأنَّه قفوٌ للظنِّ وحكمٌ به.

وأُجيب بأنَّهم أَجمعوا على الحكم بالظنِّ والعملِ به في صورٍ كثيرة، فمن ذلك: الصلاةُ على الميِّت، ودفنُه في مقابر المسلمين، وتوريثُ المسلم منه بناءً على أنَّه مسلم، وهو مظنونٌ، والتوجُّه إلى القِبلة في الصلاة، وهو مبنيٌّ على الاجتهاد بأماراتٍ لا تفيد إلَّا الظنَّ، وأكلُ الذبيحةِ بناءً على أنَّها ذبيحةُ مسلم، وهو مظنونٌ، والشهادة، فإنَّها ظنية، وقيمُ المتلَفات، وأُروشُ الجنايات، فإنَّها لا سبيلَ إليها إلَّا الظن. ومَن نظر ولو بمُؤْخِرِ العين، رأى أنَّ جميع الأعمال المعتبرةِ في الدنيا، من الأَسفار، وطلبِ الأَرباح، والمعاملاتِ إلى الآجال المخصوصة، والاعتمادِ على صَداقة الأَصدقاء وعداوة الأعداء، كلَّها مظنونة، وقد قال ﷺ: «نحن نحكم بالظَّاهر، واللهُ تعالى يتولَّى السرائر»[4] فالنهيُ عن اتِّباع ما ليس بعلم قطعيٍّ مخصوصٌ بالعقائد.

وبأنَّ الظنَّ قد يسمَّى عِلماً، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠] فإنَّ العلم بإيمانهنَّ إنَّما يكون بإقرارهنَّ، وهو لا يفيد إلَّا الظن.

---

(١) الشعب ٦/ ١٠٩، والحلية ٨/ ١٨٨-١٨٩، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٨٨٣).

(٢) في تفسيره ١٤/ ٥٩٤.

(٣) في التفسير الكبير ٢٠/ ٢٠٨.

(٤) قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص١٦٢: لا وجود له في كتب الأحاديث المشهورة، ولا الأجزاء المنثورة، وجزم العراقي بأنه لا أصل له، وكذا المزي وغيره. نعم في صحيح البخاري [٢٦٤١] عن عمر: إنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم. بل وفي مسلم [(١٠٦٤):(١٤٤)] من حديث أبي سعيد رفعه: «إني لم أومر أن أنقُبَ عن قلوب الناس». اهـ. وينظر كشف الخفاء ١/ ٢٢١-٢٢٣.

وبأنَّ الدليل القاطعَ لمَّا دلَّ على وجوب العمل بالقياس، كان ذلك الدليلُ دليلاً على أنَّه متى حصل ظنٌّ أنَّ حكمَ اللهِ تعالى في هذه الصورةِ يساوي حكمَه في محلِّ النص، فأنتم مكلَّفون بالعمل على وَفق ذلك الظن، فهاهنا الظنُّ واقعٌ في طريق الحكم، وأمَّا ذلك الحكمُ، فهو معلومٌ متيقَّن.

وأجاب النُّفاةُ عن الأوَّل بأنَّ قوله تعالى: (وَلَا نَقْفُ) الآية، عامٌّ دخله التخصيصُ فيما يذكرون فيه العملَ بالظن، فيبقى العمومُ فيما وراءه، على أنَّ بين ما يذكرونه من الصُّور وبين محلِّ النِّزاع فرقاً؛ لأنَّ الأحكام المتعلِّقة بالأول مختصَّة بأشخاصٍ معيَّنين في أوقاتٍ معينة، فالتنصيصُ على ذلك متعذِّر، فاكتُفي بالظنِّ للضَّرورة، بخلاف الثاني، فإنَّ الأحكام المثبَتة بالأقيسة كلِّية معتبَرة في وقائعَ كلِّية، وهي مضبوطةٌ، والتنصيصُ عليها ممكن، فلم يَجز الاكتفاءُ فيها بالظنّ.

وعن الثاني بأنَّ المغايرةَ بين العلم والظنِّ ممَّا لا شبهةَ فيه، ويدلُّ عليها قولُه تعالى: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام:١٤٨] والمؤمنُ هو المقرُّ، وذلك الإقرارُ هو العلمُ، فليس في الآية تسميةُ الظنِّ عِلماً.

وعن الثالث بأنَّه إنما يتمُّ لو ثبت حجيةُ القياس بدليلٍ قاطع، وليس فليس.

وأَحسن ما يُمكن أن يقالَ في الجواب ـ على ما قال الإمامُ(١) ـ أنَّ التمسُّك بالآية تمسُّكٌ بعامٍّ مخصوص، وهو لا يفيد إلَّا الظن، فلو دلَّت على أنَّ التمسُّك بالظنِّ غيرُ جائز، لدلَّت على أنَّ التمسكَ بها غيرُ جائز، فالقولُ بحجِّيتها يُفضي إلى نفيه، وهو باطل.

وللمُجيب أن يقولَ: نعلم بالتواتر الظاهرِ مِن دِين النبيِّ ﷺ أنَّ التمسكَ بآيات القرآنِ حجَّة في الشَّريعة.

ويمكن أن يجابَ عن هذا بأنَّ كون العامِّ المخصوصِ حجةً غيرُ معلومٍ بالتواتر، فتأمَّل.

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: كلُّ هذه الأعضاءِ. وأُشير إليها

---

(١) في التفسير الكبير ٢٠/٢٠٨.

بـ «أولئك» على القول بأنَّها مختصَّة بالعقلاء تنزيلاً لها منزلتهم، لمَّا كانت مسؤولةً عن أحوالها شاهدةً على أصحابها.

وقال بعضُهم: إنَّها غالبةٌ في العقلاء، وجاءت لغيرهم من حيث إنَّها اسمُ جمع لذا، وهو يعمُّ القبيلَين، ومن ذلك قولُ جريرٍ على ما رواه غيرُ واحد:

ذمَّ المنازلَ بعد منزلةِ اللِّوى والعيشَ بعد أولئك الأيامِ[1]

وعلى هذا لا حاجةَ إلى التَّنزيل وارتكابِ الاستعارةِ فيما تقدَّم.

﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ كلُّ الضمائرِ ضمائرُ «كل» أي: كان كلٌّ من ذلك مسؤولاً عن نفسه، فيقال له: هل استعملك صاحبُك فيما خُلقت له أم لا؟ وذلك بعد جعلِه أهلاً للخطاب والسُّؤال. وجوِّز أن يكونَ ضميرُ «عنه» لـ «كلّ»، وما عداه للقافي، فهناك التفاتٌ، إذ الظاهرُ: كنتَ عنه مسؤولاً.

وقال الزمخشريُّ[2]: «عنه» نائبُ فاعل «مسؤولاً» فهو مسنَدٌ إليه، ولا ضميرَ فيه، نحو: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

وردَّه أبو البقاءِ[3] وغيرُه بأنَّ القائم مقامَ الفاعلِ حكمُه حكمُه في أنَّه لا يجوز تقدُّمه على عامله كأصله. وذكر أنَّه حكى ابن النحَّاس الإجماعَ على عدم جوازِ تقديمِ القائم مقامَ الفاعلِ إذا كان جارًّا ومجروراً، فليس ذلك نظيرَ (غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) وليس لقائلٍ أن يقولَ: إنَّه على رأي الكوفيِّين في تجويزهم تقديمَ الفاعل، إلَّا أن ينازَعَ في صحَّة الحكاية، ونُقل عن صاحب «التقريب» أنَّه إنما جاز تقديمُ «عنه» مع أنَّه فاعلٌ؛ لمحاً لأصالة ظرفيتِه، لا لعروض فاعليَّته، ولأنَّ الفاعل لا يتقدَّم لالتباسه بالمبتدأ، ولا التباسَ هاهنا، ولأنَّه ليس بفاعلٍ حقيقةً. اهـ. والإنصافُ أنَّه مع هذا لا يُقال لما ذهب إليه شيخُ العربية: إنَّه غلط.

وذكر في شرح نحوِ «المفتاح» أنَّه مرتفعٌ بمضمَر يفسِّره الظاهر، وجوِّز إخلاءُ

(١) ذيل الديوان ٢/ ٩٩٠. وروايته: أولئك الأقوام.
(٢) في الكشاف ٢/ ٤٤٩.
(٣) في الإملاء ٣/ ٤٨١-٤٨٢.

المفسّر عن الفاعل إذا لم يكن فعلاً معلّلاً بأصالة الفعلِ في رفع الفاعل، فلا يجوز خلوُّه عنه، بخلاف اسمَي الفاعلِ والمفعول، تشبيهاً بالجوامد.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّ فيه نظراً، نقلاً وقياساً. أما الأوَّل فلتفرُّده به. وأمَّا الثاني، فلأنَّ الاحتياجَ إليه من حيث إنَّه إذا جرى على شيءٍ لا بدَّ من عائدٍ إليه ليرتبطَ به ويكونَ هو الذاتَ القائمَ هو بها إن كان فاعلاً أو ملابساً لتلك الذَّات، وليس كالجوامد في ارتباطها بالسَّوابق بنفس الحَمل؛ لأنَّها لا تدلُّ على معنًى متعلِّقٍ بذات، فالوجهُ أن يقال: حُذف الجارُّ واستتر الضميرُ بعده في الصِّفة، وقد سمعتَ عن قربٍ أنَّ هذا من باب الحذفِ والإيصال، وأنَّه شائع.

وجوِّز أن يكونَ مرفوعُ «مسؤولاً» المصدرَ، وهو السؤالُ، و«عنه» في محلِّ النصب. وسأل ابنُ جِنِّي أبا عليٍّ عن قولهم: فيك يُرغَب، وقال: لا يرتفع بما بعده فأين المرفوعُ؟ فقال: المصدرُ، أي: فيك يُرغب الرَّغَبُ، بمعنى: تُفعل الرغبةُ، كما في قولهم: يُعطي ويمنع، أي: يفعل الإعطاءَ والمنع.

وجوِّز أن يكونَ اسمُ «كان» أو فاعلُه ضميرَ «كل» محذوفَ المضاف، أي: كان صاحبُه عنه مسؤولاً، أو: كان عنه مسؤولاً صاحبُه، فيقال له: لم استعملتَ السمعَ فيما لا يَحلُّ، ولِمَ صرفت البصرَ إلى كذا، والفؤادَ إلى كذا؟

وقرأ الجرَّاح العقيليُّ: «والفَوَادَ» بفتح الفاءِ وإبدالِ الهمزة واواً[1]. وتوجيهُها أنَّه أُبدلت الهمزةُ واواً لوقوعها مع ضمَّةٍ في المشهور، ثم فُتحت الفاءُ تخفيفاً، وهي لغةٌ في ذلك، ولا عِبرةَ بإنكار أبي حاتمٍ لها.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ العبد يؤاخَذ بفعل القلب، كالتَّصميم على المعصية والأدواءِ القلبيَّة، كالحقد والحسدِ والعُجب، وغيرِ ذلك. نعم صرَّحوا بأن الهمَّ بالمعصية من غير تصميمٍ لا يؤاخَذ به؛ للخبر الصحيحِ في ذلك[2]. ثم إنَّ اتِّباع الظنِّ يكون كبيرةً ويكون صغيرةً، حَسَب أنواعِه وأصنافِه، ومنه ما هو أكبرُ الكبائر كما لا يخفى، نسأل الله تعالى أن يَعصِمَنا عن جميع ذلك.

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٦، والمحتسب ٢/ ٢١، والبحر ٦/ ٣٦.

(٢) يقصد قوله ﷺ: «قال الله عز وجل: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه...» أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: فخراً وكِبْراً. قاله قتادة. وقال الرَّاغب[١]: المرح: شدَّة الفرحِ والتوسُّعُ فيه. والأوَّل أنسب.

وهو مصدرٌ وقع موقعَ الحال، والكلامُ في مِثله إذا وقع حالاً أو خبراً أو صفةً شائعٌ. وجوِّز أن يكونَ منصوباً على المصدريَّة لفعلٍ محذوف، أي: تمرحُ مرحاً. وأن يكونَ مفعولاً له، أي: لأَجْل المرح.

وقُرِئ: «مَرِحاً» بكسر الراءِ[٢] على أنَّه صفة مشبَّهة، ونصبُه على الحاليَّة لا غير.

قيل: وهذه القراءةُ باعتبار الحكم أَبلغُ من قراءة المصدرِ المفيد للمبالغة بجعله عينَ المَرَح، نظيرُ ما قيل في: زيدٌ عدلٌ؛ لأنَّ الوصف واقعٌ في حيِّز النهيِ الذي هو في معنى النَّفي، ونفيُ أصلِ الاتِّصاف أبلغُ من نفي زيادتِهِ ومبالغته؛ لأنه ربَّما يُشعر ببقاء أصلِه في الجملة، وجَعْلُ المبالغةِ راجعةً إلى النفي دون المنفيِّ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦] بعيدٌ هنا، والقولُ بأنَّ الصفة المشبَّهة تدلُّ على الثبوت فلا يقتضي نفيُ ذلك نفيَ أصله كما قيل في المصدر = مغالطةٌ نشأت من عدم معرفةِ معنى الثبوتِ في الصِّفة، فإنَّ المرادَ به أنَّها لا تدلُّ على تجدُّدٍ وحدوث، لا أنَّها تدلُّ على الدوام.

والأخفشُ فضَّل القراءةَ بالمصدر لِمَا فيه من التأكيد[٣]، ولم ينظر إلى أنَّ ذلك في الإثبات لا في النفي أو ما في حكمه. وأورد على ما قيل أنَّ فيه تفضيلَ القراءةِ الشاذَّة على المتواترة. وهو كما ترى. ولذا فضَّل بعضُهم القراءةَ بالمصدر كالأخفش، وجعل المبالغةَ المستفادةَ منه راجعةً إلى النَّهي، ومنع كونَ ذلك بعيداً.

وقيل: إذا جُعل التقديرُ في المتواترة: ذا مَرَح، تتَّحد مع الشاذَّة. وتُعقِّب بأنَّ: ذا مرح، أبلغُ مِن: مَرِحاً، صفةً؛ لِمَا فيه من الدّلالة على أنَّه صاحبُ مَرَح وملازمٌ له، كأنَّه مالكٌ إياه، وفيه توقُّف كما لا يخفَى.

---

(١) في المفردات (مرح).

(٢) القراءات الشاذة ص٧٦.

(٣) كذا قال المصنف رحمه الله تعالى، ونقلها عن الشهاب في حاشيته ٦/ ٣٣، والذي في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦١٢: والمكسورة أحسنهما.

والتقييدُ بالأرض لا يصحُّ أن يقالَ: للاحتراز عن المشي في الهواءِ أو على الماء؛ لأنَّ هذا خارقٌ، ولا يحترز عنه، بل للتَّذكير بالمبدأ والمعَاد، وهو أَردعُ عن المشي مِشيةَ الفاخرِ المتكبِّر، وأدعَى لقَبول الموعظة، كأنَّه قيل: لا تمشِ فيما هو عنصرُك الغالبُ عليك الذي خُلقت منه وإليه تعود، والذي قد ضمَّ مِن أمثالك كثيراً مشيةَ الفاخرِ المتكبِّر.

وقيل: للتنصيص على أنَّ النهيَ عن المشي مرحاً في سائر البُقَع والأماكن لا يختصُّ به أرضٌ دون أرض. والأوَّلُ أَلطف.

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ تعليلٌ للنهي، وفيه تهكُّم بالمختال، أي: إنَّك لن تقدرَ أن تجعلَ فيها خَرْقاً بدَوسك وشدَّة وطأتك ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ﴾ التي عليها ﴿طُولًا ۝٣٧﴾ بتعاظُمك ومَدِّ قامتِك فأين أنت والتكبُّرُ عليها؟! إذ التكبُّر إنَّما يكون بكثرة القوَّة وعِظَم الجُثَّة، وكلاهما مفقودٌ فيك، أو: إنَّك لن تقدرَ على ذلك، فأنت أضعفُ من كلِّ واحدٍ من هذين الجمادين، فكيف يَليق بك التكبُّر؟!

وقال بعضُ المحقِّقين: مآلُ النَّهي والتعليل: لا تفعلْ ذلك؛ فإنَّه لا جدوَى فيه. وهو وجهٌ حسن.

ونصب «طولاً» على أنَّه تمييز، وجوِّز أن يكونَ مفعولاً له. وقيل: يُشير كلامُ بعضِهم إلى أنَّه منصوبٌ على نزع الخافض، وهو بمعنى التطاوُل، أي: لن تبلغَ الجبالَ بتطاوُلك. ولا يخفَى بُعدُه.

وإيثارُ الإظهارِ على الإضمار حيث لم يقل: لن تَخرِقَها؛ لزيادة الإيقاظِ والتقريع.

ثم إنَّ الاختيالَ في المشي كبيرةٌ كما تدلُّ عليه الأحاديثُ الصحيحة[١]، وهذا فيما عدا بين الصفَّين، أمَّا بينهما فهو مباحٌ لخبرٍ صحَّ فيه[٢]. ويكفي ما في الآية من

---

(١) من ذلك قوله ﷺ «بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة». أخرجه البخاري (٣٤٨٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) يقصد قوله ﷺ لأبي دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنه: «إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع». أخرجه الطبراني في الكبير (٦٥٠٨) عن خالد بن سليمان بن عبد الله بن خالد بن =

التهكُّم والتقريع زاجراً لمن اعتاده حيث لا يباح، ككثيرٍ من النَّاس اليوم.

وفي «الانتصاف»[(١)]: قد حفظ اللهُ تعالى عوامَّ زمانِنا من هذه المِشية، وتورَّط فيها قرَّاؤنا وفقهاؤنا، بينا أحدُهم قد عرف مسألتين، أو أَجلسَ بين يديه طالبَين، أو نال طرفاً من رياسة الدنيا، إذ هو يمشي خُيلاءَ، ولا يرى أنَّه يطاول الجبالَ، ولكن يرى أنَّه يحكُّ بيافوخه عَنانَ السماءِ، كأنَّهم على هذه الآية لا يمرُّون، أو يمرُّون عليها وهم عنها مُعرِضون. اهـ.

وإذا كان هذا حالَ قرَّاءِ زمانه وفقهائه، فماذا أقول أنا في قرَّاء زماني وفقهائهم سوى: لا كثَّر اللهُ تعالى أمثالَهم، ولا ابتلانا بشيءٍ من أفعالهم، وجعلها أَفعَى لهم؟

﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ المذكورِ في تضاعيف الأوامرِ والنَّواهي السابقةِ من الخصال المنحلَّة إلى نيِّف وعشرين ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ وهو ما نُهي عنه منها من الجَعل مع الله سبحانه إلهاً آخَرَ، وعبادةِ غيرِه تعالى، والتأفيف، والنَّهر، والتبذير، وجعلِ اليد مغلولةً إلى العنق، وبسطِها كلَّ البسط، وقتلِ الأولاد خشيةَ إملاق، وقتلِ النفس التي حرَّم اللهُ تعالى إلَّا بالحقِّ، وإسرافِ الوليِّ في القتل، وقفوِ ما ليس بمعلوم، والمشي في الأرض مَرَحاً. فالإضافةُ لامية من إضافة البعضِ إلى الكلِّ. ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾ أي: مبغَضاً وإنْ كان مراداً له تعالى بالإرادة التكوينيَّة، وإلَّا لَمَا وقع، كما يدلُّ عليه قولُه ﷺ: «ما شاء اللهُ تعالى كان، وما لم يشأ لم يكن»[(٢)] وغيرُ ذلك. وليست هذه الإرادةُ مرادفةً أو ملازمة للرِّضا ليلزمَ اجتماعُ الضِّدَّين: الإرادة المذكورة، والكراهة، كما يزعمه المعتزلة.

وهذا تتميمٌ لتعليل الأمورِ المنهيِّ عنها جميعاً. ووصفُ ذلك بمطلق الكراهةِ مع أنَّ أكثرَه من الكبائر؛ للإيذان بأنَّ مجرَّد الكراهةِ عنده تعالى كافيةٌ في وجوب الكفِّ عن ذلك.

وتوجيهُ الإشارة إلى الكلِّ ثم تعيينُ البعضِ دون توجيهِها إليه ابتداءً؛ لِمَا قيل

= سماك بن خرشة، عن أبيه، عن جده. قال الهيثمي في المجمع ٦/ ١٠٩: فيه من لم أعرفه.

(١) ٢/ ٤٤٩-٤٥٠.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٩٧٥٦) عن بعض بنات النبي ﷺ.

من أنَّ البعضَ المذكورَ ليس بمذكورٍ جملةً، بل على وجه الاختلاطِ لنكتةٍ اقتضته. وفيه إشعارٌ بكون ما عداه مرضيًّا عنده سبحانه، وإنَّما لم يصرِّح بذلك إيذاناً بالغنى عنه، وقيل: اهتماماً بشأن التنفيرِ عن النَّواهي؛ لِمَا قالوا من أنَّ التخليةَ أَولى من التحلية، ودرءَ المفاسدِ أهمُّ من جلب المصالح.

وجوِّز أن تكونَ الإضافةُ بيانيةً، و«ذلك» إمَّا إشارةٌ إلى جميع ما تقدَّم، ويؤخَذ من المأمورات أضدادُها، وهي منهيٌّ عنها كما في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ﴾ [الأنعام:١٥١] بعد قولِه سبحانه: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ)، وإمَّا إشارةٌ إلى ما نُهي عنه صريحاً فقط.

وقرأ الحجازيَّان والبصريان: «سيِّئةً»[1] بفتح الهمزةِ وهاءِ التأنيث، والنصبِ على أنَّه خبرُ «كان»، والإشارةُ إلى ما نُهي عنه صريحاً وضمناً، أو صريحاً فقط، و«مكروهاً» قيل: بدلٌ من «سيِّئةً» والمطابقةُ بين البدلِ والمبدَل منه غيرُ معتبرة. وضعِّف بأنَّ بدل المشتقِّ قليل.

وقيل: صفةُ «سيِّئةً» محمولةً على المعنى، فإنَّها بمعنى سيِّئاً، وقد قُرئ به[2]، أو أنَّ السيئةَ قد زال عنها معنى الوصفيةِ وأُجريت مُجرى الجوامد، فإنَّها بمعنى الذَّنب، أو تجري الصفةُ على موصوف مذكَّر، أي: أمراً مكروهاً.

وقيل: إنه خبرٌ لـ «كان» أيضاً، ويجوز تعدُّد خبرِها على الصحيح.

وقيل: حالٌ من المستكِنِّ في «كان» أو في الظَّرف، بناءً على جعله صفةَ «سيئة» لا متعلِّقاً بـ «مكروهاً» فيستترَ فيه ضميرُها، والحالُ على هذا مؤكِّدة.

وأنت تعلم أنَّ ضميرَ السيئةِ المستترَ مؤنَّث، فجَعْلُ «مكروهاً» حالاً منه كجعله صفةَ «سيئة» في الاحتياج إلى التأويل. وإضمارُه مذكَّراً كما في قوله:

ولا أرضَ أَبقَلَ إبقالَها[3]

لا يخفَى ما فيه.

---

(١) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.

(٢) القراءات الشاذة ص٧٧.

(٣) شطر بيت لعامر بن جوين الطائي، وهو في الكتاب ٢/ ٤٦، وسلف ٢/ ٢٣٩.

وعن أبي بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه أنَّه قرأ: «شأنُه»[١].

﴿ذَٰلِكَ﴾ المتقدِّمُ في التكاليف المفصَّلة ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ أي: بعضٌ منه، أو من جِنسه ﴿مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ التي هي علمُ الشَّرائع، أو معرفةُ الحقِّ سبحانه لذاته، والخيرِ للعمل به، أو الأحكامُ المحكَمة التي لا يتطرَّق إليها النسخُ والفساد.

وفي «الكشَّاف»[٢] عن ابن عبَّاس: هذه الثماني عشرةَ آيةً، يعني مِن «لا تجعل» فيما مرَّ إلى «ملوماً مدحوراً» بعدُ، كانت في ألواح موسى عليه السلام، وهي عشرُ آياتٍ في التوراة.

وفي «الدُّرّ المنثور»[٣]: أخرج ابن جَريرٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ التوراة كلَّها في خمسَ عشرةَ آيةً من بني إسرائيل، ثم تلا: (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ) وهذا أعظمُ مدحاً للقرآن الكريم ممَّا في «الكشَّاف».

و«من» إمَّا متعلقة بـ «أوحى»، على أنَّها تبعيضيةٌ أو ابتدائية، وإمَّا بمحذوفٍ وقع حالاً من الموصول، أو عائدِه المحذوف، أي: من الذي أَوحاه إليك ربُّك كائناً من الحكمة. وجوِّز أن يكونَ الجارُّ والمجرورُ بدلاً من «ما».

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطابُ نظيرُ الخطابِ السَّابق، كرِّر للتَّنبيه على أنَّ التوحيد مبدأُ الأمرِ ومنتهاه، وأنَّه رأسُ كلِّ حكمةٍ ومِلاكُها، ورتَّب عليه أوَّلاً ما هو عائدةُ الشِّركِ في الدنيا حيث قال: «فتقعد مذموماً مخذولاً» ورتَّب عليه هاهنا نتيجتَه في العُقبَى فقيل: ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ من جهة نفسِك ومن جهة غيرِك ﴿مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ مبعداً من رحمة اللهِ تعالى.

وفي «التفسير الكبير»[٤]: الفرقُ بين المذموم والملوم أنَّ المذمومَ هو الذي يُذكر أنَّ الفعلَ الذي أَقدم عليه قبيحٌ ومنكر، والملومَ هو الذي يقال له: لِمَ فعلت مِثلَ هذا الفعل؟ وما الذي حملك عليه؟ وما استفدتَ منه إلَّا إلحاقَ الضَّررِ بنفسك؟

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٥٠.
(٢) ٢/ ٤٥٠.
(٣) ٤/ ١٨٢.
(٤) ٢٠/ ٢١٤.

ومن هذا يُعلم أنَّ الذمَّ يكون أوَّلاً واللومَ آخراً. والفرقُ بين المخذولِ والمدحورِ أنَّ المخذولَ عبارةٌ عن الضعيفِ يقال: تخاذلت أعضاؤه، أي: ضَعُفت، والمرادُ به مَن تُركت إعانته وفوِّض إلى نفسه، والمدحورَ المطرودُ، والمرادُ به المهانُ والمستخفُّ به. انتهى.

وفي إيراد الإلقاءِ مبنيًّا للمفعول جَرْيٌ على سَنَن الكبرياء، وازدراءٌ بالمشرك، وجعلٌ له كخشبةٍ يأخذها مَن كان فيُلقيها في التَّنُّور.

هذا وقد وحَّد الخطابُ في بعض هذه الأوامرِ والنَّواهي، وجُمع في بعضٍ آخرَ منها، ولم يظهر لي سِرُّ اختيارِ كلٍّ من التوحيد والجمعِ فيما اختير فيه على وجهٍ يَسلم من القيل والقال، ويَهَشُّ له كُمَّلُ الرِّجال. وقد ذكرتُ ذلك لبعض أَحبابي من أجلَّة المحقِّقين ورؤساءِ المدرِّسين، وطلبتُ منه أن يحرِّرَ ما يظهر له، حيث إنِّي محقِّق كمالَه وفضلَه، فكتب ما نصُّه: أقول معترفاً بالقصور، محترزاً عن الغرور، معتذراً بالقول المأثور: المأمورُ معذور: يخطر على خاطر الفقيرِ: لتغيير أسلوب الخطاب وجوهٌ تسعةٌ لا تدخل في الحساب:

الأوَّل: الإشعارُ بانقسام هذه التكاليفِ إلى أقسامٍ ثلاثة:

قسم أهلِ الكلِّ خوطب به الأمَّةُ مرتين: مرةً تصريحاً بخطاب أنفسِهم، ومرةً تعريضاً بخطاب رسولِهم ﷺ، وهذا الأهمُّ هو التوحيد.

وقسم مهمٌّ جدًّا، لكن دون الأوَّل، خوطبوا به واحدةً تصريحاً، وهو أمورٌ سبعة: الأوَّل: مطلقُ الإحسان بالوالدين، فإنَّ انتفاءه ـ بألَّا يُحسِنَ إليهما أصلاً ـ من أشدِّ مراتبِ العقوق. والثاني: تركُ قتلِ الأولاد. والثالث: الزِّنى. والرابع: تركُ قتلِ النفس المحرَّمة إلَّا بالحقِّ. والخامس: تركُ التصرُّف في مال اليتيمِ إلَّا بالتي هي أَحسن. والسادس: الإيفاءُ بالعهد. والسابع: الوزنُ بالقِسطاس المستقيم.

وقسمٌ ثالثٌ دون الأوَّلَين في المهمية، خوطبوا به واحدةً تعريضاً، وهو أيضاً أمورٌ أحدَ عشر: الأوَّل: تركُ قولِ أفٍّ للوالدين. والثاني: تركُ النَّهْر؛ فإنَّ التأفيفَ والنهرَ من أَهون مراتبِ العقوق، بخلاف تركِ الإحسان مطلقاً. والثالث: قولُ القولِ الكريمِ لهما. والرابع: خفضُ الجَناح من الرَّحمة. والخامس: الدعاءُ برحمة اللهِ

تعالى. وهذه الثلاثةُ تَرْكها ليس كترك مطلقِ الإحسان مثلاً. والسادس: تركُ إيتاءِ حقِّ ذي القربى والمساكينِ وابنِ السبيل. وظاهرٌ أنَّ عدم القيامِ بإيتاء مجموعِ الحقوقِ الثلاثة أهونُ من ترك الأمورِ المذكورةِ في القِسم الثاني. والسابع: تركُ التبذير. والثامن: قولُ القولِ الميسور. والتاسع: العدلُ في المنع والعطاء. والعاشر: تركُ القَفو لما ليس به علمٌ، الصادق على القول بموجب الظنِّ مثلاً. والحادي عشر: تركُ المشي مَرَحاً. وتركُ واحدٍ من هذه الخمسة أيَّها كان لا يبلغ تركَ واحدٍ من الأمور المكلَّف بها المذكورةِ في القِسم الثاني كما لا يخفَى.

والثاني من تلك الوجوه: الإيماءُ باقتران خطابِ الأمَّة في النَّهي عن كبائرَ خطيرةٍ مثلاً بخطابه ﷺ عمَّا ليس في خطرها إلى أنَّ الذنوبَ تزداد عِظَماً بعظم مرتكبِها فرضاً، كما يدلُّ عليه آية: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥] وكريمة: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. وكما اشتهر أنَّ حسناتِ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين، وأنَّ المقرَّبين على خطرٍ عظيم، لكن لن تُراعَ هذه النكتةُ في النَّهي عن الشِّرك إشارةً إلى أنَّه في غاية العِظَم، بحيث لا ينبغي أن يتصوَّرَ في عظمه ازديادٌ وتفاوت الأفراد. أو نقول: لمَّا عارضت هذه النُّكتةَ نكتةٌ أخرى؛ رجِّحت لكونها بالرِّعاية أحرَى، وهي الإشارةُ إلى أنَّ الشِّرك كان عند اللهِ سبحانه عظيماً، فكُرِّر الخطابُ بالنهي عنه تخصيصاً وتعميماً. وهكذا نقول في عدم رعايةِ نكتةِ الوجوه الآتيةِ في التكليف بالتوحيد، ولا نُعيد.

والثالثُ من تلك الوجوه: التنبيهُ بتعميم الخطابِ في النَّهي عن بعض المعاصي والأمرِ ببعض الطاعاتِ على أنَّ فتنةَ فعلِ تلك المعاصي وتركِ تلك الطاعاتِ لا تُصيب الذين ظلموا خاصَّة.

والرابعُ منها: الإشارةُ بتعميم الخطاب فيما عمِّم فيه من المنهيَّات والمأموراتِ إلى أنَّ تلك المنهياتِ كما يجب على كلِّ مكلَّفٍ الانكفافُ عنها يجب عليه كفُّ الغير، بحيث لو تركه لَكان كفاعلها في أنَّه اقترف كبيرةً نُهي عنها نهيَ تلك المنهيَّات، وإلى أنَّ تلك المأموراتِ كما يجب على الكلِّ أداؤها يجب إجبارُ التاركِ

على أدائها، بحيث لو لم يُجبَر لَكان كتاركها في أنَّه ترك واجباً أُمر به أمرَ تلك المأمورات، وبتخصيص الخطابِ فيما خصِّص فيه إلى أنَّه ليس بتلك المثابة، فإنَّه وإنْ وجب إجبارُ الغيرِ على بعض تكاليفه، لكن عسى ألَّا يكونَ تركُه كبيرة.

والخامس: الرمزُ بتوحيد الخطابِ فيما وحِّد فيه أنَّ تلك الطاعةَ لا تَصدر إلَّا من الآحاد، لأنَّها لا يوفي حقَّها إلَّا المتورِّعون الصالحون، وقليلٌ ما هم، بخلاف غيرِها فإنَّه مضبوط.

والسادس: الإشعارُ بأنَّ التكاليفَ التي خوطب بها النبيُّ ﷺ والمرادُ أمَّتُه لا يقوم بها حقَّ القيامِ إلَّا هو، أو مَن يقتدي بأنواره، ويقتفي لآثاره، ويسعَى في اتِّباع سَننه القويم، ويجتهد في التخلُّق بخُلقه الكريم، بخلاف غيرِها ممَّا خوطبوا به صريحاً، فإنَّها تأتي من أغلبهم.

والسابع: أنه صُرِف الخطابُ عنه ﷺ في النهي عن قتل الأولادِ والزِّنى وقتلِ النفس المحرَّمة إلَّا بالحقِّ والتصرفِ في مال اليتيمِ إلَّا بالتي هي أحسنُ، إشارةً إلى أنَّ تلك الشنائعَ لا يأتيها النبيُّ عليه الصلاة والسلام وإنْ لم يُنهَ عنها؛ لأنَّ فِطرته وفِطنته، وسلامةَ طبعِهِ اللطيف، واستقامةَ مزاجِه الشَّريف، كانت كافيةً في كفِّه عنها. وكذا صُرِف عنه الخطابُ في الأمر بالإحسان بالوالدَين والإيفاءِ بالعهد والوزنِ بالقسطاس المستقيم، إشارةً إلى أنَّه ﷺ يأتي بهذه الأمورِ وإنْ لم يؤمَر بها؛ لأنَّ تركَ مطلقِ الإحسان بالوالدَين لو بلغا لديه الكِبَرَ مثلاً، يَلزمه من الفظاظة وغِلظةِ القلب وجَفاءِ الطبعِ ما كان يأباه طبيعتُه ﷺ، وكذا الغدرُ والتطفيفُ، كانا تأباهما أخلاقُه الكريمة، لكن خوطب بالنَّهي عن الشِّرك؛ لأنَّه ليس للطبع والخُلق في التوحيد والشِّرك دَخْل.

والثامن: أنَّه تعالى إجلالاً لحبيبه ﷺ لم يخاطبْه بنهيه عن فواحشِ قتل الولدِ والزِّنى وقتلِ النَّفس بغير حقٍّ؛ لئلَّا يوهِمَ أنه كان ـ وحاشاه ـ يأتيها قبل النَّهي، وكذا لم يخاطبْه بأمره بالإيفاء بالعهد والوزنِ بالقسطاس المستقيم؛ لئلَّا يوهم أنَّه كان ـ وحاشاه ـ يتركها قبلَ هذا، وهذا الإيهامُ أدعَى للاعتناء بدفعه من الإيهام فيما خوطب به وحدَه، وخوطب بالنَّهي عن الشِّرك؛ لأنَّ معهوديةَ دعوتِهِ ﷺ للخاصِّ والعامِّ، مدى الليالي والأيام، كفته هذا الإيهامَ.

والتاسع: لعل التكاليفَ التي خوطب ﷺ بها، كترك القَفو لِمَا ليس له به علم، وتركِ المشي في الأرض مرحاً، لم تكن في غير دِينهِ من سائر الأديان، أو لم تكن مصرَّحاً بها منصوصاً عليها في الكتب السماويةِ ما عدا القرآن، فوجَّه الخطابُ إليه وحده تلويحاً بأنَّها من خصائص دينهِ، أو بأنَّ التصريحَ بها والتنصيصَ عليها من خصائص كتابهِ. ويؤيِّد هذا الوجهَ قولُه تعالى بعد النَّهي عن القَفو بلا علمٍ والمشي مرحاً: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾.

ثم إنِّي لا أدَّعي في هذا بل وفي سائر الوجوهِ البتَّ والجزم، ولا أَقفو ما ليس لي به عِلم، بل أقول: هذا خطر ببالي الكَسير، والعلمُ عند اللطيفِ الخبير. اهـ.

ويَرِد على قوله في الأوَّل: فإنَّ انتفاءه ـ بألَّا يُحسِنَ إليهما أصلاً ـ من أشدِّ مراتبِ العقوق، أنَّ العقوق الذي هو كبيرةٌ فِعل ما يتأذَّى به من فعل معه من الوالدين تأذِّياً ليس بالهيِّن عرفاً كما سمعتَ، وعدمُ الإحسان أصلاً قد لا يكون من ذلك. قال العلَّامة ابن حجرٍ[١] في أثناء الكلامِ على الفرق بين العقوقِ وقطعِ الرَّحم: إنَّه لو فُرض أنَّ قريبه لم يصل إليه إحسانٌ ولا إساءة قط، لم يفسَّق بذلك؛ لأنَّ الأبوين إذا فُرض ذلك في حقِّهما من غير أن يفعلَ معهما ما يقتضي التأذِّيَ العظيمَ لغناهما مثلاً، لم يكن كبيرةً، فأولَى بقيةُ الأقارب. اهـ.

وكأنه ـ أَحسنَ اللهُ تعالى إليه ـ ظنَّ أنَّه إذا تحقَّق عدمُ الإحسان تحقَّقت الإساءة، وهو بمعزلٍ عن الصَّواب.

ويرد أيضاً على قوله: وظاهرٌ أنَّ عدم القيام بإيتاء مجموعِ الحقوق الثلاثةِ أهونُ من ترك الأمورِ المذكورةِ في القسم الثاني، أنَّه إن أراد أنَّه أهونُ من ترك مجموعِ تلك الأُمور، فلا شكَّ أنَّ بعضَ ما عدَّه في القسم الثالثِ كالوزن بالقسطاس المستقيم تركُ القيامِ به أهونُ من ترك مجموعِ التكليفات، فما معنى هذا التخصيصِ؟ وإنْ أراد أنَّه أهونُ من ترك كلِّ واحدٍ من تركِ الأمورِ المذكورة، فهو ممنوعٌ، كيف لا ويكون في ذلك قطيعةُ رحمٍ وقاطعُها ملعونٌ في كتاب اللهِ تعالى في ثلاثة مواضع؟ وروى أحمدُ[٢] بإسنادٍ صحيحٍ: «إنَّ من أَربى الرِّبا الاستطالةُ بغير حقٍّ،

(١) في الزواجر ٢/ ٧٤.

(٢) برقم (١٦٥١) عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، وسلف ٥/ ٢٦٩.

وإنَّ هذه الرحمَ شُجْنةٌ[١] من الرَّحمن، فمن قطعها حرَّم اللهُ تعالى عليه الجنَّةَ».
ومنعُ زكاةٍ أيضاً، وقد قال تعالى في ﴿حم﴾ السَّجدة، وهي مكية كهذه السُّورة: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦-٧].

وإنْ نوقش فيما ذكر قلنا: إنَّ عدم القيامِ بإيتاء ما ذكر صادقٌ على منع حقوقِ ثلاثةِ أصناف، ولا شكَّ أنَّ منعَ ذي الحقِّ حقَّه ظلمٌ له، فيتعدَّد الظلمُ فيما نحن فيه، ولا أظنُّ أنَّ ذلك أهونُ من التطفيف وإنْ كان ظلماً أيضاً:

وظلمُ ذوي القُربى أشدُّ مضاضةً   على القلب من وقع الحسامِ المهنَّدِ[٢]

وممَّا ذكرنا يُعلَم أنَّ قولَه: ظاهر، غيرُ ظاهر.

ويرد أيضاً على قوله: وتركُ واحدٍ من هذه الخمسةِ... إلخ، أنَّ قولَه سبحانه: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ) نهيٌ - على ما اختاره الإمام - عن كبائرَ لا شكَّ في أنَّ بعضها أعظمُ بكثير من بعضِ ما في القسم الثاني، كالقول في الإلهيَّات والنبوَّات نحوَ ما يقوله المشركون، تقليداً للأسلاف واتِّباعاً للهوى.

وإن أبيتَ إلَّا تخصيصَه ببعض ما قاله المفسِّرون ونقله الإمام ممَّا هو أهونُ أَفرادِه كالكذب، قيل لكَ: إنَّ في كونه أهونَ من انتفاء الإحسان مطلقاً مع كونه قد لا يكون كبيرةً، منعاً ظاهراً كما لا يخفَى. وكذا في كون المشيِ مَرَحاً دون كلِّ واحدٍ من الأمور السابقة بحثٌ. وقد أَخرج الشَّيخان[٣]: «بينما رجلٌ يمشي في حُلَّة تُعجبه نفسُه، مرجِّل مختالٌ في مِشيته، إذ خسف اللهُ تعالى به، فهو يتجلجلُ في الأرض إلى يوم القيامة» وروى أحمدُ وابنُ ماجه والحاكم: «ما من رجلٍ يتعاظم في نفسه ويختال في مِشيته، إلَّا لقي اللهَ تعالى وهو عليه غضبان»[٤]، وصحَّ: «لا يدخل الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرَّة من كِبْر»[٥] إلى غير ذلك من الأحاديث التي لم يجئْ مثلُها

---

(١) الشجنة: القرابة المشتبكة كاشتباك العروق. النهاية (شجن).
(٢) من معلقة طرفة، وهو في الديوان ص٣٦.
(٣) صحيح البخاري (٥٧٨٩)، وصحيح مسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٤) مسند أحمد (٥٩٩٥) والمستدرك ١/ ٦٠ من حديث ابن عمر ﷺ، ولم نقف عليه عند ابن ماجه.
(٥) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ، وسلف ٦/ ٤٤٨.

فيمن لم يُحسِن إلى والديه، نعم جاء ذلك فيمن عقَّ والديه، وبين عقوقِهما وعدمِ الإحسان إليهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق، وعلى هذا فلا يخفَى حالٌ كما لا يخفَى.

ويَرِد على الوجه الثاني ـ على ما فيه ـ أنَّه غير وافٍ بالغرض.

وعلى الثالث أنَّه مجرَّد دعوى لم تساعدها الآثار. نعم ورد في بعض ما ذَكَر أنَّ فتنته لا تُصيب الظالمَ فقط ما يؤيِّده، ومن ذلك ما أخرجه البيهقيُّ[1] وغيرُه: «يا معشرَ المهاجرين، خصالٌ خمسٌ إن ابتُليتم بهنَّ ونزلت بكم، أعوذُ بالله تعالى أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشةُ في قومٍ قطُّ حتى يُعلنوا بها، إلَّا فشا فيهم الأوجاعُ التي لم تكن في أسلافهم. ولم يَنقصوا المكيالَ والميزان، إلَّا أُخذوا بالسِّنين وشدَّةِ المؤنة وجَورِ السُّلطان. ولم يَمنعوا زكاةَ أموالهم، إلَّا مُنعوا المطرَ من السماء، ولولا البهائمُ لم يُمطَروا. ولا نقضوا عهدَ اللهِ تعالى وعهدَ رسولِه ﷺ إلَّا سلَّط اللهُ تعالى عليهم عدوًّا من غيرهم فيأخذوا بعضَ ما في أيديهم. وما لم تَحكم أئمَّتُهم بكتاب اللهِ تعالى إلَّا جعل اللهُ تعالى بأسَهم بينهم».

وإنْ كان في عدم إيتاءِ المسكين وابنِ السَّبيل حقَّهما منعُ الزكاة، فأمرُ الإيماءِ المذكورِ لا يخفَى حالُه؛ فإنَّ الأخبار قد تضافرت بعموم شؤمِ ذلك، فقد صحَّ: «ما منع قومٌ الزكاةَ إلَّا حبس اللهُ تعالى عنهم القَطر»[2] وفي روايةٍ صحيحة: «إلَّا ابتلاهم اللهُ تعالى بالسِّنين»[3] إلى غير ذلك.

ويَرِد على الوجه الرابعِ أنَّ بعضَهم قد أَطلق القولَ بأنَّ تركَ الأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر كبيرة، وصرَّح صاحبُ «العُدَّة» بأنَّ الغِيبة نفسَها صغيرة، وتركَ النَّهي عنها كبيرة، وقال بعضُ المتأخِّرين ـ ونقله الجلال البُلقيني ـ: ينبغي أن يفصَّل في النَّهي عن المنكَر فيقال: إن كان كبيرةً فالسكوتُ عليه مع إمكان دفعِه كبيرةٌ،

---

(١) في شعب الإيمان ٣/ ١٩٦-١٩٧ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وهو عند ابن ماجه (٤٠١٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٩٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في المجمع ٣/ ٦٥: فيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزي، ليَّنه الحاكم، وبقية رجاله موثقون وفيهم كلام.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٥٧٧) من حديث بريدة رضي الله عنه. قال الهيثمي في المجمع ٣/ ٦٥-٦٦: رجاله ثقات.

وإن كان صغيرةً، فالسكوتُ عليه صغيرة، ويقاس تركُ المأمور بهذا إذا قلنا: إنَّ الواجباتِ تتفاوت، وهو الظَّاهر. اهـ.

وقد علمتَ أنَّ فيما وحِّد الخطابُ فيه من الأوامر ما تَرْكُه كبيرة، ومن النَّواهي ما فِعلُه كذلك، فلم يتحقَّق ما رَجَا سلَّمه الله تعالى، على أنَّ في تعبيره بالإجبار فيما عبَّر فيه ما لا يخفَى.

ويَرِد على الخامس أنَّ في كون الطاعاتِ التي وحِّد فيها الخطابُ لا تَصدر إلَّا من الآحاد لأنَّها لا يوفي حقَّها إلَّا المتورِّعون، منعاً ظاهراً؛ فإنَّ أكثر النَّاسِ ـ صالِحهم وطالِحهم ـ لا يمشي في الأرض مَرَحاً، ومثلُ ذلك الدعاءُ للوالدين بالرَّحمة، فإنَّا نسمعه على أتمِّ وجهٍ من كثيرٍ ممَّن لا يعرف الورعَ أيُّ شيءٍ هو، وكذا في قوله: بخلاف غيرِها فإنَّه مضبوط، فإنَّ ترك التصرُّف في مال اليتيم إلَّا بالتي هي أحسنُ ممَّن له ولايةٌ عليه أمرٌ شاقٌّ، لا يكاد يقوم به إلَّا الأفراد، قال في «ردِّ المحتار حاشيةِ الدُّرِّ المختار»[1]: لا ينبغي للموصَى إليه أن يقبلَ؛ لصعوبة العدلِ جدًّا، ومن هنا قال أبو يوسف: الدخولُ في الوِصاية أولَ مرةٍ غلط، وثانيَ مرةٍ خيانة، وثالثَ مرةٍ سرقة. ومن هذا يُعلَم ما في الوجه السادس.

ويَرِد على السابع أيضاً أنَّ المشيَ في الأرض مرحاً كالأمور التي صُرِف الخطابُ في النَّهي عنها عنه ﷺ في أنَّ فطرته وفِطنته وسلامةَ طبعه اللطيفِ، واستقامةَ مِزاجه الشريف، كافيةٌ في الكفِّ عنه؛ فإنَّ الكِبْر من البشر لا ينشأ إلَّا عن جهلٍ وبلادة، وقد جُبِل عليه الصلاة والسلام على أكملِ ما يكون من التَّواضع، بل وسائرِ الصِّفات التي هي كمالٌ في النَّوع الإنسانيِّ، ويؤيِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] مع أنَّه لم يُصرَف الخطابُ فيه، وأنَّه حيث اعتُبر الفطنةُ في الكافي عن الكفِّ، لم ينفعْه الاعتذارُ عن توحيد الخطابِ في النَّهي عن الشِّرك بما اعتذر به؛ فإنَّ للفِطنة دخلاً تامًّا في التوحيد كما لا يخفَى على فَطِن.

ويَرِد على قوله في الثامن: وهذا الإيهام... إلخ، منعٌ ظاهر، فلا يخفَى حالُه كما لا يخفى.

---

(١) ٦/ ٧٠٠.

ويَرِد على التاسع أنَّه لا يساعده نقلٌ ولا عقل، بل جاءَ في النَّقل ما يخالفه، كما سمعت عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وإن اعتُبر النهيُ عن الشِّرك من تلك التكليفات، فهو كافٍ في تزييف هذا الوجه؛ لأنَّ النهيَ عن الشِّرك جاء به كلُّ رسول، ونطق به كلُّ كتاب، وما ذكره مؤيِّداً لغرضه بمعزلٍ عن التأييد.

هذا وبقيت إيراداتٌ أُخَرُ على هذه الوجوه، أعرضنا عنها وتركناها للذَّكيِّ الفطن حذراً من التَّطويل، فتأمَّل ذاك، واللهُ يتولَّى هداك.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ خطابٌ للقائلين بأنَّ الملائكة بناتُ اللهِ سبحانه. والإصفاءُ بالشيء جعلُه خالصاً، والهمزةُ للإنكار، وهي داخلةٌ على مقدَّر على أحد الرَّأيين، والفاءُ للعطف على ذلك المقدَّر، أي: أَفضَّلكم على جنابه فخصَّكم بأفضلِ الأولادِ على وجه الخلوصِ وآثَر لِذَاته أخسَّها وأدناها؟!

والتعرُّض لعنوان الرُّبوبيةِ لتشديد النكيرِ وتأكيدِه، وعبَّر بالإناث إظهاراً للخِسَّة.

وقال شيخُ الإسلام[1]: أُشير بِذكر الملائكةِ عليهم السلام وإيرادِ الإناث مكانَ البناتِ إلى كَفْرَةٍ لهم أخرى، وهي وصفُهم لهم عليهم السلام بالأنوثة التي هي أخسُّ صفاتِ الحَيَوان، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩].

وفي «الكشف» أنَّه تعالى لـمَّا نهى عن الشِّرك ودلَّ على فساده، أَتى بالفاء الواصلة، وأَنكر عليهم ذلك دليلاً على مكانِ التعكيس، وأنَّهم بعد ما عرفوا أنَّه سبحانه بريءٌ من الشَّريك بدليل العقلِ والسمع، نسبوا إليه تعالى ما هو شركٌ ونقص، وازدراءٌ بمن اصطفاه من عباده، فيا لَه من كَفْرةٍ شنيعة؛ ولذا قيل: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ﴾ بمقتضى مذهبِكم الباطلِ ﴿قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ لا يقادَر قدرُه في استتباع الإثم وخرقِه لقضايا العقول، بحيث لا يجترئُ عليه ذو عقل، حيث تجعلونه سبحانه من قَبيل الأجسام السَّريعة الزوالِ المحتاجةِ إلى بقاءِ النَّوع بالتوالُد، وليس كمِثله شيءٌ، وهو الواحدُ القهَّارُ الباقي بذاته، ثم تُضيفون إليه تعالى ما تكرهون من أَخسِّ

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٧٣.

الأولاد، وتفضِّلون عليه سبحانه أنفسَكم بالبنينَ، ثم تَصِفون الملائكةَ عليهم السلام بما تَصِفون.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ من التَّصريف، وهو كثرةُ صرف الشيءِ من حالٍ إلى حال، ومفعولُه هنا محذوفٌ للعلم به، أي: صرَّفناه، أي: هذا المعنى، والمراد: عبَّرنا عنه بعباراتٍ، وقرَّرناه بوجوهٍ من التقريرات. ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ العظيم، أي: في مواضعَ منه، فالمرادُ بالقرآن مجموعُ التنزيل.

وجوِّز أن يرادَ به البعضُ المشتملُ على إبطال إضافةِ البناتِ إليه سبحانه، ومفعولُ «صرفنا» محذوفٌ أيضاً، أي: صرَّفنا القولَ المشتملَ على إبطال الإضافة المذكورةِ في هذا المعنى.

وإيقاعُ القرآنِ على المعنى وجَعْلُه ظرفاً للقول: إمَّا بإطلاق اسمِ المحلِّ على الحالِّ؛ لِمَا اشتهر أنَّ الألفاظ قوالبُ المعاني، أو بالعكس، كما يقال: البابُ الفلانيُّ في كذا، وهذه الآيةُ في تحريم كذا، أي: في بيانه. ويجوز تنزيلُ الفعل منزلةَ اللازمِ وتعديتُه بـ «في»، كما في قوله:

... يـجـرحْ فـي عـراقـيـبـهـا نَـصْـلـي[1]

أي: أَوقعنا التصريفَ فيه.

وقُرِئ: «صَرَفنا» بالتَّخفيف[2]، والصَّرفُ كالتصريف إلَّا في التكثير.

﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي: ليتذكَّروا ويتَّعظوا ويطمئنُّوا له؛ فإنَّ التكرارَ يقتضي الإذعانَ واطمئنانَ النفس ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ ذلك التصريفُ ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ عن الحقِّ وإعراضاً عنه، وهو تعكيس.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ هنا وفي «الفرقان»: «ليذْكُروا»[3] من الذِّكر الذي هو بمعنى التذكُّر ضدِّ النِّسيان والغفلة. والتذكُّر على القراءة الأُولى بمعنى الاتِّعاظِ

(١) قطعة من بيت لذي الرمّة. وهو في ديوانه ١/ ١٥٦، وسلف ١٠/ ١٦١.
(٢) القراءات الشاذة ص٧٧، والمحتسب ٢/ ٢١.
(٣) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.

كما أُشير إليه، والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء الحالِ أن يُعرضَ عنهم ويُحكى للسَّامعين هَناتُهم.

﴿قُل﴾ في إظهار بطلانِ ذلك من جهةٍ أخرى: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾ سبحانَه وتعالى في الوجود ﴿ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: المشركون قاطبةً.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ بالتاء ثالثِ الحروفِ خطاباً لهم[1]، والأَمران في مثل هذا المقامِ شائعان، وذلك أنَّه إذا أُمر أحدٌ بتبليغ كلامٍ لأحد، فالمبلَّغُ له في حال تكلُّم الآمرِ غائب، ويصير مخاطباً عند التبليغ، فإذا لوحظ الأولُ حقُّه الغَيبة، وإذا لوحظ الثاني حقُّه الخطاب.

وكذا قرؤوا فيما بعد، وقرأ نافعٌ وابن عامرٍ وأبو بكرٍ عن عاصمٍ هنا بالتاء، وهناك بالياء آخرِ الحروف[2]، على أنَّه تنزيهٌ منه سبحانَه لنفسه ابتداءً من غير أمرِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام بقوله لهم، والكافُ في محلِّ النصبِ على أنَّها نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي: كوناً مشابهاً لما يقولون، والمرادُ بالمشابهة ـ على ما قيل ـ الموافقةُ والمطابقة.

﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ جوابٌ عن قولهم: إنَّ مع اللهِ سبحانه آلهةً، وجزاءٌ لـ «لو»، أي: لَطَلَبَ الآلهةُ ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: إلى مَن له الملكُ والربوبيةُ على الإطلاق ﴿سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ بالمغالبة والممانعة، كما اطَّردت العادةُ بين الملوك. وهي إشارةٌ إلى برهان التمانُع، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وذلك بتصوير قياسٍ استثنائيٍّ استُثني فيه نقيضُ التالي لينتجَ نقيضُ المقدَّم المطلوب. وسيأتي إن شاء اللهُ تعالى تقريرُه في محلِّه. وإلى هذا ذهب سعيدُ بن جُبَير كما أخرجه عنه ابنُ أبي حاتم.

وعن مجاهدٍ وقتادةَ أنَّ المعنى: إذاً لطلبوا الزُّلفى إليه تعالى والتقرُّبَ بالطاعة؛

---

(١) قرأ ابن كثير وحفص: «كما يقولون» بالياء، والباقون بالتاء. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «عما تقولون» [الآية: ٤٣] بالتاء، والباقون بالياء. التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.

(٢) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.

لِعلمهم بعلوِّه سبحانه عليهم وعظمتِه، وهذا كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء:٥٧] وهو إشارةٌ إلى قياس اقترانيٍّ: هكذا لو كان كما زعمتم آلهةٌ لتقرَّبوا إليه تعالى، وكلُّ مَن كان كذلك ليس إلهاً، فهم ليسوا بآلهة.

قيل: و«لو» على الأوَّل امتناعيةٌ، وعلى هذا شرطيةٌ، والقياسُ مركَّب من مقدِّمتين: شرطية اتِّفاقية، وحَمْلية.

واختار المحقِّقون الوجهَ الأوَّل؛ لأنَّه الأظهرُ الأنسبُ بقوله سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ فإنَّه ظاهرٌ في أنَّ المرادَ بيانُ أنَّه يَلزم ما يقولونه محذورٌ عظيم من حيث لا يحتسبون.

وأمَّا ابتغاءُ السبيلِ إليه تعالى بالتقرُّب، فليس ممَّا يختصُّ بهذا التقدير، ولا ممَّا يَلزمهم من حيث لا يشعرون، بل هو أمرٌ يعتقدونه رأساً، أي: ينزّه بذاته تنزيهاً حقيقاً به سبحانه ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ متباعداً ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من العظيمة التي هي أن يكونَ معه تعالى آلهةٌ، وأن يكونَ له بناتٌ ﴿عُلُوّٗا﴾ أي: تعالياً، فهو مصدرٌ من غير فعلِه، كقوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح:١٧] ﴿كَبِيرٗا ٤٣﴾ بعيدَ الغاية، بل لا غايةَ وراءه، كيف لا وإنَّه تعالى في أقصى غاياتِ الوجود، وهو الوجوبُ الذاتيُّ، وما يقولونه من أنَّ معه آلهةً وأنَّ له أولاداً، في أدنَى مراتب العدم، وهو الامتناعُ الذاتيُّ.

وقيل: لأنَّه تعالى في أَعلى مراتبِ الوجود، وهو كونُه واجبَ الوجود، والبقاءُ لذاته، واتِّخاذُ الولدِ من أدنَى مراتبه، فإنَّه من خواصِّ ما يمتنع بقاؤه.

وتعقِّب بأنَّ ما يقولونه ليس مجرَّدَ اتخاذِ الولد، بل مع ما سمعتَ، ولا ريبَ في أنَّ ذلك ليس بداخلٍ في حدِّ الإمكان، فضلاً عن دخوله تحتَ الوجود، وكونُه من أدنَى مراتبِ الوجود إنَّما هو بالنِّسبة إلى مَن مِن شأنه ذلك. واعتُذر بأنَّه من باب التنبيهِ بحال الأدنَى على حال الأعلى، ولا يخفَى أنَّ ذِكرَ العلوِّ بعد عنوانِه بذي العرشِ في أعلَى مراتبِ البلاغة.

﴿تُسَبِّحُ﴾ بالفوقانية، وهي قراءةُ أبي عَمرٍو والأَخوينِ وحفصٍ، وقرأ الباقون

بالتحتانيَّة[١]؛ لأنَّ تأنيثَ الفاعلِ مجازيٌّ، مع الفصل، وقُرئ: «سَبَّحتْ»[٢] ﴿لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: مِن الملائكة والثَّقلَين.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ من الأشياء، حيواناً كان أو نباتاً أو جماداً ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ ملتبِساً ﴿بِحَمْدِهِ﴾ تعالى.

والمرادُ من التسبيح الدلالةُ بلسان الحال، أي: تدلُّ بإمكانها وحدوثِها دلالةً واضحةً على وجوب وجودِه تعالى ووحدتِه وقدرتِه، وتنزُّهِه من لوازم الإمكان وتوابعِ الحدوث، كما يدلُّ الأثرُ على مؤثِّره، ففي الكلام استعارةٌ تبعيَّة كما في: نَطَقت الحالُ.

وجوِّز أن يعتبرَ فيه استعارةٌ تمثيلية، ولا يأبى حملَ التسبيح على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ بناءً على أنَّ كثيراً من العقلاء فَهِمَ تلك الدلالة؛ لِمَا أنَّ الخطابَ للمشركين والكَفَرة، لا للنَّاس على العموم؛ لأنَّه تقدَّم ذِكرُ قبائحِهم من نسبتهم إليه تعالى شأنُه ما لا يَليق بجلاله، فإنَّ اللهَ سبحانه وصف ذاتَه بالنَّزاهة عنه، وبالغَ فيه ما بالغ، ثم عقبه بما ذكر دلالةً على أنَّ كلَّ الأكوانِ شاهدةٌ بتلك النَّزاهة، مبالغةً على مبالغة، فلو كان الخطابُ مع غير هؤلاءِ المنكرين وأَضرابِهم، لم يتلاءم الكلامُ، ويَخرج عن النِّظام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ تذييلٌ من تتمَّة الإنكار على الوجه الأَبلغ، أي: إنَّه سبحانَه حليم؛ ولذلك لم يعاجلْكم بالعقوبة لإخلالكم بالنظر الصحيحِ الموصلِ إلى التوحيد، ولو تبتم ونظرتم لغَفر لكم ما صدر منكم من التَّقصير؛ فإنَّه غفورٌ لمن يتوب.

وظنَّ ابن المنيرِ أنَّ هذا التذييلَ يأبى كونَ الخطابِ للمشركين، قال[٣]: لأنَّه سبحانه لا يغفرُ لهم ولا يتجاوزُ عن جهلهم وإشراكهم، والظاهرُ أن المخاطَبَ المؤمنون، وعدمُ فقهِهم للتَّسبيح الصادرِ من الجمادات كنايةٌ ـ والله تعالى أعلم ـ عن عدم العملِ بمقتضَى ذلك؛ فإنَّ الإنسانَ لو تيقَّظ حقَّ التيقُّظِ إلى أنَّ النملة والبعوضةَ

(١) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٤١.
(٣) في الانتصاف ٢/ ٤٥١.

وكلَّ ذرَّةٍ من ذرَّات الكونِ يقدِّس اللهَ تعالى وينزِّهه، ويشهد بجَلاله وكبريائه وقَهره، وعَمَرَ خاطرَه بهذا الفهم، لَشغله ذلك عن الطعام، فضلاً عن فُضول الأفعال والكلام، والعاكفُ على الغِيبة - التي هي فاكهتُنا في زماننا - لو استشعر حالَ إفاضتهِ فيها أنَّ كلَّ ذرَّة من ذرَّات لسانِه الذي يلقلقه في سَخَط اللهِ تعالى عليه مشغولةٌ مملوءةٌ بتقديس اللهِ تعالى وتسبيحِه، وتخويفِ عقابه وإنذار جبروتِه، وتيقَّظ لذلك حقَّ التيقُّظ، لَكاد يَبكَم بقيةَ عُمُره. فالظاهرُ أنَّ الآية إنَّما وردت خطاباً على الغالب من أَحوال الغافلين وإنْ كانوا مؤمنين. اهـ.

وليس بسديد؛ لخروج الكلام على ذلك من النِّظام، ووجهُ التذييلِ ما سمعت، فلا إباءَ كما لا يخفَى على ذوي الأَفهام.

وجوِّز أن يرادَ بالتَّسبيح الدلالةُ على تنزيه الباري سبحانه عن لوازم الإِمكانِ وتوابع الحدوثِ مطلقاً، سواءٌ كانت حاليةً أو مقاليةً، على أنَّه مِن عموم المجاز، أو بالجمع بين المعنى الحقيقيِّ والمجازيِّ، على رأي مَن يجوِّزه، فتسبيحُ بعضٍ قاليٌّ، وتسبيحُ بعضٍ آخرَ حاليّ.

وتعقِّب بأنَّه لا يلائمه «لا تفقهون» لأنَّ مِن ذلك التسبيحِ ما يفقهه المشركون وغيرُهم، وهو التسبيحُ القاليّ.

وأُجيب بأنَّ المشركين لعدم تدبُّرِهم له وانتفاعِهم به كان فهمُهم بمنزلة العدم، أو أنَّهم لعدم فهمِهم بعضَ المرادِ من التسبيح جُعلوا ممَّن لا يفهم الجميعَ تغليباً.

وذهب بعضُ الظاهريةِ - وارتضاه الراغبُ[(١)]، وقال في «تفسير الخازن»[(٢)]: إنَّه الأصحُّ - إلى أنَّ التسبيحَ على معناه الحقيقيِّ، فالكلُّ يسبِّح بلسان القال، حتى الجمادات.

ولم يرتضِ ذلك الإمامُ[(٣)]؛ لأنَّ هذا التسبيحَ لا يحصل إلَّا مع العلم، وهو ممَّا لا يتصوَّر في الجماد؛ لفقد شرطِه العقليِّ، وهو الحياةُ، ولو لم يكن ذلك شرطاً

(١) في المفردات (سبح).
(٢) ٤/ ١٦٢.
(٣) في التفسير الكبير ٢٠/ ٢١٨-٢١٩.

عقليًّا، لانسدَّ بابُ العلمِ بكونه سبحانه وتعالى حيًّا، وأيضاً التذييلُ السابقُ يأبى ذلك؛ لدَلالته على أنَّ عدَمَ فقهِ التسبيح المذكورِ جُرمٌ، ولا شكَّ أنَّ عدمَ فقهِ تسبيح الجماداتِ بألفاظها ليس بجُرم، وإنَّما الجرمُ عدمُ فقهِ دلالتها للغفلة وقُصورِ النظر.

ومَن تتبَّع الأحاديثَ والآثارَ، رأى فيها ما يشهدُ بما ذهب إليه هذا البعضُ شهادةً لا تكاد تقبل التأويلَ، فقد صحَّ سماعُ تسبيحِ الحصا في كفِّه ﷺ[١].

وأَخرج أبو الشَّيخ[٢] عن أنسٍ قال: أُتي رسولُ الله ﷺ بطعام ثريدٍ فقال: «إنَّ هذا الطعامَ يسبِّح» فقالوا: يا رسولَ الله، وتفقه تسبيحَه؟ قال: «نعم» ثم قال لرجل: «أَدنِ هذه القصعةَ من هذا الرجل» فأدناها، فقال: نعم يا رسولَ الله، هذا الطعامُ يسبِّح، فقال: «أَدنِها من آخَر» فأدناها منه، فقال: يا رسولَ الله، هذا الطعامُ يسبِّح، ثم قال: «رُدَّها» فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، لو أُمرَّت على القوم جميعاً، فقال: «لا، إنَّها لو سكتت عند رجلٍ لَقالوا: من ذنب، رُدَّها» فردَّها.

وأَخرج ابنُ مردويه عن ابن مسعودٍ قال: كنَّا أصحابَ محمدٍ ﷺ نعدُّ الآياتِ بركة، وأنتم تعدُّونها تخويفاً، بينما نحن مع رسولِ الله ﷺ ليس معنا ماءٌ فقال لنا: «اطلبوا مَن معه فضلُ ماء» فأُتي بماءٍ، فوضعه في إناءٍ، ثم وضع يدَه فيه، فجعل الماءُ يخرج من بين أصابِعه، ثم قال: «حيَّ على الطَّهور المباركِ والبركةُ من الله تعالى» فشربنا منه، قال عبدُ الله: كنَّا نسمع صوتَ الماءِ وتسبيحَه وهو يشرب[٣].

وأخرج أحمدُ وابنُ مردويه عن ابن عمرَ[٤] أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ نوحاً عليه السلام لَمَّا حضرته الوفاةُ قال لابنَيه: آمرُكما بسبحان اللهِ وبحمده؛ فإنَّها صلاةُ كلِّ شيء، وبها يُرزق كلُّ شيء».

---

(١) أخرجه البزار (٢٤١٣-٢٤١٤ كشف الأستار)، والطبراني في الأوسط (١٢٤٤) و(٤٠٩٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه. قال ابن حجر في الفتح ٦/ ٥٩٢: ليس له إلا طريق واحدة ضعيفة.

(٢) في العظمة (١٢١٥).

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٨٥، وهو عند البخاري (٣٥٧٩) بنحوه.

(٤) الدر المنثور ٤/ ١٨٣، وأخرجه أحمد (٦٥٨٣) و(٧١٠١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وأخرجه البزار (٣٠٦٩ كشف الأستار) من حديث ابن عمر كما أورده المصنف. وانظر التعليق على مسند أحمد.

وأَخرج أحمدُ[١] عن معاذِ بن أنس، عن رسول اللهِ ﷺ أنَّه مرَّ على قومٍ وهم وقوفٌ على دوابَّ لهم ورواحلَ، فقال لهم: «اِركبوها سالمةً، ودعوها سالمة، ولا تتَّخذوها كراسيَّ لأحاديثكم في الطُّرق والأسواق، فربَّ مركوبةٍ خيرٌ من راكبها وأكثرُ ذِكراً لله تعالى منه».

وأخرج النَّسائيُّ وأبو الشَّيخ وابنُ مردويه عن ابن عمرَ[٢] قال: نهى النبيُّ ﷺ عن قتل الضِّفدِع، وقال: «نقيقُها تسبيح».

وأَخرج ابنُ أبي الدُّنيا[٣]، وابن أبي حاتم، والبيهقيُّ في «الشُّعب» عن أنس بن مالكٍ قال: ظنَّ داودُ عليه السلام في نفسه أنَّ أحداً لم يَمدح خالقَه بما مدحه، وإنَّ مَلَكاً نزل وهو قاعدٌ في المحراب والبِركةُ إلى جانبه فقال: يا داودُ، اِفهم إلى ما تصوِّت به الضِّفدِعُ، فأنصت داودُ، فإذا الضفدعُ تمدحه بمِدحةٍ لم يَمدحْه بها، فقال له المَلَكُ: كيف ترى يا داود، أفهمتَ ما قالت؟ قال: نعم، قال: ماذا قالت؟ قال: قالت: سبحانَك وبحمدك، منتهى عِلمِك يا ربّ، قال داود: لا والذي جعلني نبيَّه إنِّي لم أمدحْه بهذا.

وأَخرج أحمدُ في «الزُّهد» وأبو الشَّيخ عن شَهْر بن حَوْشب مِن حديثٍ طويل أنَّ داودَ عليه السلام أَتى البحرَ في ساعة فصلَّى، فنادته ضِفدِعة: يا داود، إنك حدَّثت نفسَك أنَّك قد سبَّحت في ساعةٍ ليس يَذكر اللهَ تعالى فيها غيرُك، وإنِّي في سبعين ألفِ ضفدعٍ كلُّها قائمةٌ على رِجل نسبِّح اللهَ تعالى ونقدِّسه[٤].

وأَخرج الخطيبُ[٥] عن أبي حمزةَ[٦] قال: كنَّا عند عليِّ بن الحسين رضي الله عنهما، فمرَّ بنا عصافيرُ يَصِحْن، فقال: أتدرون ما تقول هذه العصافيرُ؟ قلنا: لا، قال: أَمَا إنِّي

---

(١) في مسنده (١٥٦٢٩).

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٨٣، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (١٢٤٨) و(١٢٤٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وأخرج النسائي ٧/ ٢١٠ شطره الأول عن عبد الرحمن بن عثمان.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٨٤، والشكر (٣٦)، والشعب (٤٥٨١).

(٤) الدر المنثور ٤/ ١٨٤، والعظمة (١٢٥٤).

(٥) الدر المنثور ٤/ ١٨٥، وتاريخ بغداد ١١/ ٩٧-٩٨.

(٦) في (م): ضمرة.

ما أقول إنَّا نعلم الغيبَ، ولكن سمعتُ أبي يقول: سمعت أميرَ المؤمنين عليَّ بن أبي طالب كرَّم اللهُ تعالى وجهَه يقول: سمعت رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ الطيرَ إذا أَصبحت سبَّحت ربَّها وسأَلَتْه قُوتَ يومِها» وإنَّ هذه تسبِّح ربَّها وتسأله قُوتَ يومِها.

وأَخرج ابن راهُوْيه في «مسنده»من طريق الزُّهريِّ قال: أُتي أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه بغرابٍ وافرِ الجناحين، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما صِيدَ صَيدٌ، ولا عُضِدت عِضاه، ولا قُطعت وشيجة، إلَّا بِقِلَّة التسبيح»[1].

وأَخرج أبو نُعَيم في «الحِلية» وابنُ مردويه عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله عليه الصلاة والسلام: «ما صِيدَ مِن صيد ولا وُشج من وشج إلَّا بتضييعه التسبيحَ»[2].

وأَخرج أبو الشَّيخ[3] عن أبي الدَّرداء، وابنُ مردويه عن ابن مسعودٍ مثلَ ذلك مرفوعاً أيضاً[4].

وأَخرج أبو الشَّيخ[5] عن الحسن: لولا ما غُمَّ عليكم من تسبيح ما معكم من البيوتِ ما تقارَرْتم.

وأَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن لوط بن أبي لوطٍ قال: بلغني أنَّ تسبيحَ سماءِ الدنيا: سبحانَ ربِّي الأعلى، والثانيةِ: سبحانَه وتعالى، والثالثة: سبحانَه وبحمده، والرابعةِ: سبحانه لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا به، والخامسة: سبحان مُحيي الموتى وهو على كلِّ شيءٍ قدير، والسادسة: سبحانَ المَلِكِ القُدُّوس، والسابعة: سبحانَ الذي ملأ السماوات السبعَ والأَرَضينَ السبعَ عزَّةً ووقاراً[6]. إلى مالا يكاد يُحصَى من الأَخبار والآثار، وهي بمجموعها متعاضدةٌ في الدَّلالة على أنَّ التسبيحَ قاليٌّ كما لا يخفى، وهو مذهبُ الصوفية، وذكروا أنَّ السالكَ عند وصولِه إلى بعض

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨٤.
(٢) الدر المنثور ٤/ ١٨٤، والحلية ٧/ ٢٤٠ وقال: غريب تفرد به القشيري عن مسعر.
(٣) في كتاب العظمة (١٢٣١).
(٤) الدر المنثور ٤/ ١٨٤.
(٥) برقم (١٢٢٥).
(٦) الدر المنثور ٤/ ١٨٣.

المقاماتِ يسمع تسبيحَ الأشياءِ بلُغاتٍ شتَّى، وقد رُوي عن بعض السلفِ سماعُه لتسبيح بعضِ الجمادات.

واختلف القائلون بهذا التسبيحِ، فقال بعضُهم بثُبوته للأشياء مطلقاً.

وقيل: إنَّ التراب يسبِّح ما لم يبتلَّ، فإذا ابتلَّ ترك التسبيحَ، وإنَّ الخرزةَ تسبِّح ما لم تُرفع من موضعها، فإذا رُفعت تركت، وإنَّ الورقةَ تسبِّح ما دامت على الشَّجرة، فإذا سقطت تركت، وإنَّ الثوبَ يسبِّح ما لم يتَّسخ، فإذا اتَّسخ ترك، وإنَّ الوحشَ والطيرَ تسبِّح إذا صاحت، وإذا سكتت تركت.

وعلى هذا ما أخرج ابنُ ابي حاتمٍ عن ابن شَوْذَبٍ قال: جلس الحسنُ مع أصحابِه على مائدة، فقال بعضُهم: هذه المائدةُ تسبِّح الآن، فقال الحسن: كلَّا، إنَّما ذاك كلُّ شيء على أصله.

وأخرج عن السُّدِّي أنه قال: ما مِن شيءٍ على أصله الأوَّلِ لم يمت إلَّا وهو يسبِّح بحمده تعالى[1]. ولعلَّه أراد بالموت خروجَه عن أصله الأوَّل.

وأخرج عبدُ الرزاق[2] وابنُ جَرير[3] وابنُ المنذر وغيرُهم عن قتادةَ أنَّه قال في الآية: كلُّ شيءٍ فيه الروحُ يسبِّح، من شجرةٍ وحَيَوان. وكونُ الشجرةِ ذاتَ روحٍ مبنيٌّ على قول الناسِ فيها إذا يبست: ماتت.

واستثنى بعضُهم بعضَ الحيوانات من عموم كلِّ شيءٍ؛ لمَا أخرجه أبو الشَّيخ[4] عن ابن عباسٍ أنَّه قال: كلُّ شيءٍ يسبِّح إلَّا الحمارَ والكلب.

ولا أَرى لاستثناء ما ذكر وجهاً، وفي القلب من صحَّة الروايةِ عن الحبر شيءٌ، وكذا للتَّقييد بعدَ أنْ لم تكن الجماديةُ مانعةً عن التسبيح، والأخبارُ الظاهرةُ في عدم التقييدِ أكثرُ، ولا أظنُّ أنَّ لِمَا يخالفها امتيازاً عليها في الصحَّة.

ويُشكل على هذا القولِ ما تقدَّم عن الإمام من إباء التذييلِ عنه، وعدمِ وجود

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨٤.

(٢) في تفسيره ٢/ ٣٧٩.

(٣) في تفسيره ١٤/ ٦٠٦.

(٤) في العظمة (١٢٦٢).

العلمِ الذي يستدعيه التسبيحُ القاليُّ في الجمادات. وتَفصَّى بعضُهم[١] عن هذا بالتزامِ أنَّ لكل شيءٍ حياةً وعلماً لائقَين به، ولا يطَّلع على حقيقة ذلك إلَّا اللهُ تعالى اللطيف الخبير، فكلُّ ما في العالَم عند هذا الملتزِمِ حيٌّ عالم، لكنَّه متفاوتُ المراتبِ في العلم والحياة. ونقل الشعرانيُّ عن الخوَّاص أَنَّه قال: كلُّ جمادٍ يفهم الخطابَ ويتألَّم كما يتألَّم الحيوان.

وقال الشيخُ الأكبرُ قدِّس سرُّه[٢]: إنَّ المسمَّى بالجماد والنباتِ له عندنا أرواحٌ بَطَنت عن إدراك غيرِ الكشف إيَّاها في العادة، فالكلُّ عندنا حيٌّ ناطق، غيرَ أنَّ هذا المزاجَ الخاصَّ يسمَّى إنساناً لا غير بالصورة، ووقع التفاضلُ بين الخلائقِ في المزاج، والكلُّ يسبِّح اللهَ تعالى كما نطقت الآيةُ به، ولا يسبِّح إلا حيٌّ عاقل عالم عارفٌ بمسبَّحه، وقد ورد أنَّ المؤذِّن يشهد له مدى صوتهِ مِن رَطْبٍ ويابس[٣]. والشرائعُ والنبوَّات مشحونةٌ بما هو من هذا القَبيل، ونحن زدنا مع الإيمان بالأخبار الكشفَ إلى آخر ما قال.

واستدلَّ بعضُهم في هذا المقامِ بما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال في دعائه للحمَّى: «يا أمَّ مِلْدَم، إن كنتِ آمنتِ بالله تعالى، فلا تأكلي اللحمَ، ولا تشربي الدَّمَ، ولا تفوري من الفم، وانتقلي إلى مَن يزعم أنَّ مع اللهِ تعالى آلهةً أخرى، فإنِّي أشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسوله»[٤].

وجاء عن السجَّاد[٥] رضي الله عنه في الصَّحيفة في مخاطبة القمرِ ما هو ظاهرٌ في أنَّ له شعوراً. واستفاض عن عمرَ رضي الله عنه أَنَّه كتب للنِّيل كتاباً يخاطبه فيه بما يخاطبه[٦]، وضرب الأرضَ بالدِّرَّة حين تزلزلت وقال لها: إني أَعدِلُ عليك[٧].

---

(١) التفصِّي: التخلص من المضيق والبلية. مختار الصحاح (فصا).
(٢) في الفتوحات المكية ١/ ١٤٧.
(٣) ورد ذلك في أحاديث، منها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند البخاري(٦٠٩).
(٤) أورده بتمامه الديلمي في الفردوس(١٩٦٢) من حديث الحسن بن علي، وأخرجه عبد الغني المقدسي في الترغيب في الدعاء (١١٣) من حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه..
(٥) هو علي بن الحسين رضي الله عنهما.
(٦) أخرج الخبر اللالكائي في كرامات أولياء الله (٦٦). والأثر ضعيف لانقطاعه.
(٧) ذكره السبكي في طبقات الشافعية ١/ ٣٢٤ وعزاه لإمام الحرمين في كتابه الشامل.

وكم وكم في الأخبار نحوُ ذلك، قيل: ولا داعيَ لتأويلها؛ إذ لا أحدَ يقول: إنَّ شعورَ الجماداتِ كشعور الحيواناتِ الظاهرةِ بحيث يُدركه كلُّ أحدٍ حتى يكونَ العملُ بظاهر اللفظِ خلافَ حسِّ العقلاء، فيجب ارتكابُ التأويل والتجوُّز. ومَن علم عِظَمَ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأنَّه سبحانه لا يُعجزه شيءٌ، وأنَّ المخلوقين على اختلاف مراتبِهم، لاسيَّما المنغمسين في أوحال العلائقِ والعوائق الدُّنيوية، والمسجونين في سِجِّين الطبيعة الدَّنية، لم يقفوا على عُشر العُشر ممَّا أُودع في عالم الإمكان، ونُقش بيد الحِكمة على بُرود الأَعيان = سلَّم ما جاء به الصادقُ عليه الصلاة والسلام، وإنْ خالف ما عنده، نسب القُصورَ إلى نفسه، فربَّ فكرٍ يظنُّه المرءُ حقًّا وهو من الأوهام، كما لا يخفَى على من أنصف ولم يتعسَّف.

وعلى هذا الذي ذكروه لا تحتاج إعادةُ ضميرِ ذوي العلم في«تسبيحهم» على ما تقدَّم إلى توجيه.

وتفصَّى آخَرُ عن الأوّل بأنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ متعلِّق بقوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ولا يخفَى ما في هذا التفصِّي.

ولعل الأَوْلى فيه أن يلتزمَ حملُ التسبيحِ على ما هو الأعمُّ من الحاليِّ والقاليِّ، ويثبتَ كلا النوعين لكلِّ شيءٍ، والتذييلُ باعتبار القصورِ في فقه الحاليِّ لا باعتبار القصورِ في فقه الآخر.

ويُشكل أيضاً أنَّ مِن أفراد مَن نُسب إليه التسبيحُ الجحدُ فضلاً عن السَّاكت، فالحمل على المجاز واجب. وأجيب بأنَّ استثناء أولئك معلوم بقرينة السِّباق واللَّحاق، وزَعَمَ مَن زعم أنَّ الجاحدَ مقدِّس أيضاً، وأَنشدوا للحلَّاج:

جُحودي لك تقديسٌ ... وعقلي فيك منهوسُ
فما آدمُ إلَّاك ... وما في الكون إبليسُ

وأنتَ تعلم أنَّ مثل هذا الحَلْجِ والنَّدْف صار سبباً لِمَا لاقى من الحتف، فماذا عسى أَقول سوى: حسبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيل.

وقُرئ: «لا يُفقَّهون» على صيغة المبنيِّ للمفعول من باب التفعيل[1].

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٥.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الناطقَ بالتسبيح والتنزيهِ، ودعوتَهم إلى العمل بما فيه ﴿جَعَلْنَا﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنيَّةِ على الحِكَم الخفية ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهم المشركون المتقدِّمُ ذِكرهم.

وأُوثر الموصولُ على الضمير ذمًّا لهم بما في حيِّز الصلة، ويتمُّ به مع ما سبق الإشارةُ إلى كفرهم بالمبدأ والمعاد.

وفي «إرشاد العقلِ السليم»(١): إنَّما خصَّ بالذِّكر كفرَهم بالآخرة من بين سائرِ ما كفروا به من التوحيد ونحوِه؛ دَلالةً على أنَّها معظمُ ما أُمروا بالإيمان به في القرآن، وتمهيداً لِمَا سينقل عنهم من إنكار البعثِ واستعجالهِ ونحوِ ذلك. اهـ.

وفي كون الآخرةِ معظمَ ما أُمروا بالإيمان به في القرآن تردُّد، وربَّما يدَّعى أنَّ ذلك هو التوحيدُ، فالأَولى الاقتصارُ على أنَّه للتمهيد.

﴿حِجَابًا﴾ يَحجبهم مِن أن يُدركوك على ما أنتَ عليه من النبوَّة وجلالةِ القدر؛ ولذلك اجترؤوا على التفوُّه بالعظيمة، وهي قولُهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الآية: ٤٧].

وأصلُ الحجابِ كالحجب: المنعُ من الوصول، فهو مصدرٌ، وقد أُريد به الوصفُ، أي: حاجباً ﴿مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ أي: ذا سَتر، فهو للنَّسب كـ: رجلٍ مرطوب، ومكانٍ مَهول، وجاريةٍ مغنوجة، ومنه: ﴿وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] وكذا: سيلٌ مفعَم، بفتح العين، والأكثرُ مجيءُ فاعل لذلك، كـ: لابن وتامر.

وجوِّز أن يكونَ الإسنادُ مجازيًّا كما اشتهر في المثال الأخير.

وعن الأخفش(٢) أنَّ مفعول يَرِد بمعنى فاعل، كـ: ميمون ومشؤوم؛ بمعنى يامن وشائم، كما أنَّ فاعل يَرِد بمعنى مفعول، كـ: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق ٦]، فمستورٌ بمعنى ساتر، أو مستوراً عن الحسِّ، فهو على ظاهره، ويكون بياناً؛ لأنَّه حجابٌ معنويٌّ لا حسيٌّ، أو مستوراً في نفسه بحجابٍ آخَرَ، فيكون إيذاناً بتعدُّد الحُجُب، أو مستوراً كونُه حجاباً، حيث لا يدرون أنَّهم لا يدرون.

---

(١) ٥/ ١٧٥.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦١٣.

وقيل: إنَّه على الحذف والإيصال، أي: مستوراً به الرسولُ ﷺ.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطيةً، جمع: كِنان، والمرادُ ـ بمعونة المقام ـ التكثيرُ، أي: أَكِنَّةً كثيرة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ مفعولٌ له بتقديرِ مضاف،أي: كراهةَ أن يقفوا على كُنهه ويَعرفوا أنَّه من عند الله تعالى. أو مفعولٌ به لفعل مقدَّر مفهومٍ من الجملة، أو من«أكنة»، لا أنَّ «جعلنا» أو شيئاً ممَّا ذُكر قد ضُمِّنه كما يتوهَّم، أي: منعناهم فِقهَه والوقوفَ على كُنهه.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صَمَماً وثِقلاً عظيماً مانعاً من سَماعه اللائقِ به، فإنَّهم كانوا يسمعونه من غير تدبُّر. وهذه ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ تمثيلاتٌ مُعرِبة عن كمال جهلِهم بشؤون النبيِّ ﷺ، وفَرطِ نُبوِّ قلوبِهم عن فهم القرآنِ الكريم، ومجِّ أسماعِهم له، جِيءَ بها بياناً لعدم فِقههم فصيحَ المقال إثرَ بيانِ عدم فقهِهم دلالةَ الحال. وفيه إيذانٌ بأنَّ ما تضمَّنه القرآنُ من التسبيح في غاية الظُّهور، بحيث لا يتصوَّر عدمُ فهمه إلَّا لمانع قويٍّ يعتري المشاعرَ فيُبطلها، وتنبيهٌ على أنَّ حالَهم هذه أقبحُ من حالهم السَّابقة.

وحَمَلَ الآيةَ على ما ذُكر مَن لم يجعل التسبيحَ فيما سبق لفظيًّا، وعلى جَعْله لفظيًّا لا يَحسُن حملُها على ذلك كما لا يخفَى.

هذا وقال بعضُهم: المرادُ بالحجاب ما يَحجبهم عن فهم ما يقرؤه عليه الصَّلاة والسلام، فقد أَخرج ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتمٍ عن قتادةَ أنَّه قال: الحجابُ المستور: أكنَّة على قلوبهم أنْ يفقهوه وأنْ ينتفعوا به[1]. وإلى ذلك ذهب الزجَّاجُ[2].

وتعقِّب بأنَّه لا يلائم «بينك وبين الذين» إلخ إلَّا بتقدير مضافَين، أي: جعلنا بين فهمِ قراءتك، وأيضاً يلزم عليه التكرارُ من غير فائدةٍ جديدة.

وأُجيب بأنَّ الظاهرَ أنه لا يقدَّر فيه، وإنَّما يَلزم لو كان حقيقةً، وهذا تمثيلٌ لهم في عدم إسماع الحقِّ بمَن كان وراءَ جدارٍ وحجاب كما أنَّ الأكِنَّة كذلك، وأمَّا حديثُ التَّكرارِ من غير فائدة، فمدفوعٌ بأنَّ قولَه تعالى: (وَجَعَلْنَا) إلخ تصريحٌ

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨٦، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٠٨.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٢.

بما اقتضاه نفيُ فصيحِ المقال، بعد نفي فهم دَلالة الحال، من كونهم مطبوعين على الضَّلال. ولا يخفَى على المنصف أولويةُ ما تقدَّم.

وعن الجبَّائي أنَّ المرادَ بالحجاب ما يَحجبهم عن إِيذاء الرسولِ ﷺ، وذلك أنَّهم كانوا يَقصدونه إذا قرأ ليؤذوه، فآمنه اللهُ تعالى، وذَكَرَ له عليه الصلاة والسلام أنَّه جلَّ شأنُه جعل بينه وبينهم حجاباً عند القراءةِ فلا يُمكنهم الوصولُ إليه.

وهو عندي ممَّا لا بأسَ به وإنْ ذكره في مَعرِض التفصِّي عن استدلال أصحابِنا بالآية على أنَّ الله تعالى يمنع عن الإِيمان مَن شاء كما يَهدي إليه مَن شاء، نعم هو دون الأوَّلِ عند مَن يتأمَّل.

وقيل: المرادُ حجابُ منعهم رؤيةَ شخص النبيِّ ﷺ وذاتهِ الكريمة؛ فقد أخرج أَبو يعلَى[1]، وابنُ أبي حاتم، والحاكمُ وصحَّحه[2]، وابنُ مردويه، [وأبو نعيم] والبيهقيُّ معاً في «الدلائل»[3] عن أسماءَ بنت أَبي بكرٍ رضي الله عنهما قالت: لمَّا نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أَقبلت العوراءُ أُمُّ جميل ولها وَلولةٌ وفي يدها فِهرٌ[4] وهي تقول:

مذمَّماً أَبينا

ودينَه قَلَينا

وأمرَه عصينا

ورسولُ اللهِ ﷺ جالسٌ وأبو بكرٍ إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أَقبلَتْ هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنَّها لن تراني»، وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تَرَ النبيَّ عليه الصلاة والسلام، فقالت: يا أَبا بكر، بلغني أنَّ صاحبَك هجاني، فقال أبو بكر: لا وربِّ هذا البيتِ ما هجاك، فانصرفت وهي تقول: قد عَلِمتْ قريشٌ أني بنتُ سيِّدِها.

---

(١) في مسنده (٥٣).

(٢) في المستدرك ٢/ ٣٦١.

(٣) ٢/ ١٩٥، والخبر في الدر المنثور ٤/ ١٨٦ وما بين حاصرتين استدرك منه، ولم نقف عليه عند أبي نعيم في الدلائل.

(٤) الفهر: الحجر ملء الكف، أو الحجر مطلقاً. اللسان (فهر).

وجاءَ في رواية أنَّها حين ولَّت ذاهبةً قال أبو بكر: يا رسولَ الله، إنَّها لم تَرَك، فقال النبيُّ ﷺ: «حالَ بيني وبينها جبريلُ عليه السلام»[١].

وذكر الإمامُ[٢] أنَّه كان ﷺ إذا أراد تلاوةَ القرآن تلا قبلَها ثلاث آيات: قولَه تعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الآية:٥٧] وقولَه سبحانه في «النحل»: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الآية: ١٠٨] وقولَه جلَّ وعلا في سورة حم الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] فكان اللهُ تعالى يَحجبه ببركات هذه الآياتِ عن عيون المشركين، وهو المرادُ من قوله سبحانه: (وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا) إلخ.

واحتجَّ أصحابُنا بذلك على أنَّه يجوز أن تكونَ الحاسَّةُ سليمةً ويكونَ المرئيُّ حاضراً مع أنَّه لا يرى، بسبب أنَّ الله تعالى يخلق في العين مانعاً يمنع من الرُّؤية، قالوا: إنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام كان حاضراً وحواسُّ الكفارِ سليمة وكانوا لا يرونه، وقد أَخبر سبحانه أنَّ ذلك لأَجل أنَّه جعل بينه عليه الصلاة والسلام وبينَهم حجاباً مستوراً، ولا معنى للحجاب المستورِ إلَّا المعنى الذي يَخلقه في عيونهم ويكونُ مانعاً لهم من الرُّؤية. انتهى.

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ حملَ الحجابِ على ما رُوي من حديث أسماء ممَّا لا يقبله الذوقُ السَّليم، ولا يساعده النَّظمُ الكريم. وكأنَّه أراد أنَّ حملَه في الآية على الحجاب المانعِ من الرُّؤية كذلك، فهو واردٌ على ما نُقل عن الإمام أيضاً، ويُعلَم منه حالُ احتجاجِ الأَصحاب مع ما يَرِد على قولهم فيه: ولا معنى للحجاب. . . إلخ، من أنَّه مخالفٌ لِمَا في الرِّواية السابقةِ التي ذُكر فيها حيلولةُ جبريلَ عليه السلام، والخبرِ الذي أَخرجه الدارقطنيُّ وغيرُه عن ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال: «كان بيني وبينها مَلَكٌ يسترني بجناحَيه حتى ذهبت»[٣] فإنَّ كِلَا الخبرَين ظاهرٌ في أنَّ المانع

(١) الدر المنثور ١٨٦/٤، وعزاه لابن مردويه من حديث أبي بكر، وأخرجه البزار (٢٢٩٤-٢٢٩٥ كشف الأستار)، وأبو يعلى(٢٥)، وابن حبّان(٦٥١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «لم يزل ملك يسترني منها بجناحه».

(٢) في التفسير الكبير ٢٢١/٢٠.

(٣) الدر المنثور ١٨٦/٤، وعزاه لابن أبي شيبة، والدارقطني في الأفراد، وأبي نعيم في الدلائل. وينظر الحديث السالف.

لم يكن في عيونهم، بل هو إمَّا جبريلُ عليه السلام، أو مَلَك آخَرُ حال بينه ﷺ وبينهم فلم يَرَوه. لكن يبقى الكلامُ في أنَّ منع اللطيفِ الرؤيةَ خلافُ العادة أيضاً، وهو بحثٌ آخرَ فليتدبَّر. ثم إنَّ ما رُوي عن أسماءَ ليس نصًّا في أنَّ الحجابَ في الآية هو الحجابُ المانعُ عن الرُّؤية، كما لا يخفَى على مَن أمعن النظر.

وهذا القولُ إنَّما يُحتاج إليه إن اعتُبر تصحيحُ الحاكم، أو نصَّ على صحَّته مَن اعتُبر تصحيحُه من المحدِّثين، أمَّا إذا لم يكن ذلك، فأمرُه سهل.

وجَعَلَ الزمخشريُّ[١] ما تقدَّم حكايةً لِمَا قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥] على معنى: جَعَلنا على زعمهم. ولم يرتضِه شيخُ الإسلام[٢]؛ لأنَّ قصدهم بذلك إنَّما هو الإخبارُ بما اعتقدوه في حقِّ القرآنِ والنبيِّ ﷺ جهلاً وكفراً، من اتِّصافهما بأوصافٍ مانعةٍ من التصديق والإيمان، ككون القرآنِ سحراً وشعراً وأساطير، وقِس عليه حالَ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، لا الإخبارُ بأنَّ هناك أمراً وراءَ ما أدركوه وقد حال بينَهم وبين إدراكه حائلٌ من قِبَلهم. ولا ريبَ في أنَّ ذلك المعنى ممَّا لا يكاد يلائم المقام. انتهى.

وقد يقال: حيث كان الكلامُ مسوقاً لتعداد قبائحِهم والإنكار عليهم، فالملاءمةُ مما لا ريبَ فيها. نعم اختيارُ الزمخشريِّ هذا الوجهَ ممَّا لا يخلو عن دسيسةٍ اعتزالية، ولا أظنُّها تخفَى عليك.

﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ﴾ أي: غيرَ مقرونٍ بذِكره ذكرُ شيءٍ من آلهتهم التي يزعمونها كما كانوا يقولون: بالله تعالى واللاتِ، مثلاً، ويَصدق هذا بذِكره سبحانَه مع نفي الآلهة.

و«وحده» عند الزمخشريِّ[٣] مصدرُ الثلاثيِّ، يقال: وَحَدَه يَحِده وَحْداً وَحِدةً، كوعده يَعِده وعداً وعِدَةً، وهو سادٌّ مسدَّ الحال بمعنى واحداً. وقيل: هو مصدرُ: أَوحَدَ، على حذف الزَّوائد، وأصلُه: إيحاد، ومذهب سيبويه[٤] أنَّه ليس بمصدر، بل

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٥٢.
(٢) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٧٦.
(٣) في الكشاف ٢/ ٤٥٢.
(٤) انظر الكتاب ١/ ٣٧٦-٣٧٨.

هو اسمٌ موضوعٌ موضعَ المصدر، وهو: إيحادٌ، الموضوعُ موضعَ الحال، وهو موحِّد. ومذهب يونس أنَّه منصوبٌ على الظرفية، وتحقيقُ الأقوالِ فيه في «الرفدة»[١] كما قدَّمنا.

وذكر أنه على الحاليَّة إذا وقع بعد فاعلٍ ومفعولٍ كما هنا، جاز كونُه حالاً من كلٍّ منهما، أي: وإذا ذكرتَ ربَّك موحِّداً له، أو موحَّداً بالذِّكر ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾ هربوا ونفروا ﴿نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ فهو مفعولٌ مطلقٌ منصوب بـ «ولَّوا»؛ لتقارُب معناهما.

وجوَّز أن يكونَ مفعولاً لأجله، أي: ولَّوا لأَجل النفورِ والانزعاج.

وأَن يكونَ حالاً على أنَّه جمعُ نافر، أي: ولَّوا نافرين من ذلك.

والضميرُ للمشركين الذين لا يؤمنون بالآخِرة. وأَخرج ابن جَريرٍ[٢] وغيرُه عن ابن عباسٍ ما ظاهرُه أنَّه للشياطين. ولا يكاد يصحُّ عن الحَبر إلَّا بتأويل.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: ملتبسين به من اللَّغو والاستخفافِ والهُزءِ بك وبالقرآن. يُروى أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يقوم عن يمينه رجلان من عبد الدَّار، وعن يساره رجلان منهم، فيصفِّقون ويصفِّرون ويخلطون عليه بالأَشعار[٣]. ويجوز أن تكونَ الباءُ للسببية، أو بمعنى اللَّام، أي: نحن أَعلمُ بما يستمعون بسببه أو لأَجله من الهُزء، وهي متعلِّقة بـ «يستمعون»، وجَعْلُها على ظاهرها على معنى: أَيستمعون بقلوبهم أم بظاهر أسماعِهم، غيرُ ظاهر.

والباءُ الأولى متعلِّقة بـ «أعلم»، وأَفعلُ التفضيلِ في العلم والجهلِ يتعدَّى بالباء، وفي سوى ذلك يتعدَّى باللام، فيقال: هو أَكسَى للفقراء، مثلاً. والمرادُ من كونه تعالى أَعلمَ بذلك الوعيدُ لهم.

﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرفٌ لـ «أَعلم» لا مفعولٌ به، وفائدُته ـ كما قال شيخُ الإِسلام[٤] ـ تأكيدُ الوعيدِ بالإخبار بأنَّه كما يقع الاستماعُ المزبورُ منهم يتعلَّق به

---

(١) لعله «الرفدة في معنى الوحدة» للشيخ تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي. انظر كشف الظنون ١/ ٩٠٩.

(٢) في تفسيره ١٤/ ٦١٠.

(٣) أخرجه الطبري ١١/ ١٦٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

(٤) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٧٦.

العِلم، لا أنَّ العلمَ المستفادَ هناك من أَحد. وليس المرادُ تقييدَ علمِه تعالى بذلك الوقت، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ لكن من حيث تعلُّقه بما به التناجي المدلولُ عليه بسياق النَّظم. والمعنى: نحن أَعلمُ بما يستمعون به ممَّا لا خيرَ فيه ممَّا سمعت، وبما يتناجَون به فيما بينهم. وجوِّز أن يكونَ الأولُ ظرفاً لـ «يستمعون»، والثاني ظرفاً لـ «يتناجَون»، والمعنى: نحن أعلمُ بما به الاستماعُ وقتَ استماعِهم من غير تأخير، وبما به التَّناجي وقتَ تناجيهم. والأوَّل أَظهر.

و«نجوى» مصدرٌ مرفوعٌ على الخبرية، وفي ذلك ما في: زيدٌ عدل.

ويجوز أن يُعتبرَ جمعَ نَجِيٍّ، كقتلَى وقتيل، أي: إذ هم متناجُون.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بدلٌ من «إذ» الثانية، وبيانٌ لِمَا يتناجَون به، فهو غيرُ ما يستمعون به، لا معمولٌ لـ : اذكُرْ محذوفاً كما قيل.

و«الظالمون» من المُظهَر الذي أُقيم مُقامَ المضمر، للدَّلالة على أنَّ تناجيَهم بابٌ من الظلم، أي: يقول كلٌّ منهم للآخَرين عند تناجيهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتَّبعون إنْ وُجِد منكم الاتِّباعُ فَرْضاً.

وجوِّز أن يكونَ المعنى: ما تتَّبعون باللَّغو والهزءِ ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: سُحِر فجنَّ، فهو كقولهم: إنْ هو إلَّا رجلٌ مجنون.

وقيل: جُعل له سِحرٌ يَتوصَّل بلطفه ودقَّته إلى ما يأتي به ويدَّعيه، فهو في معنى قولِهم: ساحر. وجَعَلَ بعضُهم «مسحوراً» بمعنى ساحراً، كمستور بمعنى ساتر.

وعن أبي عُبيدة[١] أنَّ مسحوراً بمعنى: جُعِل له سَحر، أو ذا سَحرٍ، أي: رِئة، ومن هذا قولُ امرئ القيس[٢]:

أرانا موضِعِين لأمرِ غيبٍ ونُسْحَرُ بالطعام وبالشرابِ

وأراد: نُغذَى، وقولُ لبيدٍ أو أميةَ بن أبي الصَّلت:

فإنْ تسألينا فيمَ نحن فإنَّنا عصافيرُ من هذا الأنام المسحَّرِ[٣]

---

(١) مجاز القرآن١/ ٣٨١.

(٢) ديوانه ص ٩٧.

(٣) ديوان لبيد ص٥٦، وعصافير: صِغار ضعاف.

وكَنَّوا بذلك عن كونه بشراً يتنفَّس ويأكل ويشرب، لا يمتاز عنهم بشيءٍ يقتضي اتِّباعَه على زعمهم الفاسد.

ولا يخفَى ما فيه من البُعد، حتى قال ابنُ قتيبة[١]: لا أدري ما الذي حمل أبا عبيدةَ على هذا التفسير المستكرَه، مع أنَّ السلفَ فسَّروه بالوجوه الواضحة.

وقال ابنُ عطية[٢]: إنَّه لا يناسب قولَه تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: مثَّلوك، فقالوا تارةً: شاعر، وتارةً: ساحر، وتارةً: مجنون، مع عِلمهم بخلافه.

﴿فَضَلُّوا۟﴾ في جميعِ ذلك عن منهاج المحُاجَّة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ طريقاً ما إلى طعنٍ يُمكن أن يقبلَه أحدٌ بل يتهافتون[٣] ويَخبطون ويأتون بما لا يَرتاب في بطلانه مَن سمعه، أو إلى سبيل الحقِّ والرَّشاد. وفيه من الوعيد وتسليةِ الرَّسول ﷺ مالا يخفَى.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ عطفٌ على «ضربوا» ولمَّا عجَّب من ضربهم الأمثال، عطف عليه أمراً آخرَ يعجب منه أيضاً. وفي «الكشف»: الأظهرُ أن يكونَ هذا إلى تمام المقالاتِ الثلاثِ تفسيراً لـ «ضربوا لك الآمثالَ»، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ [الكهف:٣٢] وتفسيرُه بمثَّلوك غيرُ ظاهر، بل الظاهرُ: مثَّلوا لك. ولا خفاءَ أنَّ تجاوُبَ الكلامِ على ما ذكرنا أتمُّ، وذلك أنَّه لمَّا ذكر استهزاءهم به ﷺ وبالقرآن، عجَّبه من استهزائهم بمضمونه من البعث، دلالةً على أنَّه أدخلُ في التعجُّب؛ لأنَّ العقل أيضاً يدلُّ عليه، ولكن على سبيل الإجمال، وأمَّا على تفسيرِ«ضربوا لك الأمثال» بمثَّلوك، فوجهُه أن يكونَ معطوفاً على قوله سبحانه: (فَضَلُّوا۟) لأنَّه بابٌ من أبواب الضَّلال، أو على مقدَّر دلَّ عليه «كيف ضربوا» لأنَّ معناه: مثَّلوك وقالوا: شاعرٌ، ساحرٌ، مجنونٌ، وقالوا: «أئذا كنا..» إلخ. اهـ.

---

(١) في تفسير غريب القرآن ص ٢٥٦.
(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦١.
(٣) في (م): فيتهافتون.

ولا يخفى أنَّه على التفسير الذي اختاره يكون «قالوا» معطوفاً على «ضربوا» أيضاً عطفاً تفسيريًّا، لكنَّ الظاهرَ فيه حينئذٍ الفاءُ، وأنَّه لا يحتاج - على ما ذكرنا - إلى تكلُّف العطفِ على مقدَّر، والارتباطُ عليه لا يقصر عن الارتباطِ الذي ذكره، وعطفُه على «فضلُّوا» ممَّا لا يَحسُن؛ لعدم ظهورِ دخولِه معه في حيِّز الفاء. والاعتراضُ على التفسير بمثَّلوك بأنَّهم ما مثَّلوه عليه الصلاة والسلام بالشَّاعر والساحرِ مثلاً، بل قالوا تارةً كذا وأُخرى كذا، وأيضاً كان الظاهرُ أن يقالَ: فيك، بدل: لك = ليس بشيء؛ لأنَّ ما ذكروه على طريق التشبيهِ لتقريعه ﷺ وعجزِهم عن معارضته، و«لك» أظهرُ من: فيك؛ لأنَّه عليه الصلاةُ والسلام الممثَّل له.

هذا وأقول: أنظر هل ثَمَّ مانعٌ من عطف «قالوا» على «يقول الظالمون»، وجَعْلُ هذا القولِ ممَّا يتناجَون به أيضاً وإعلانُهم به أحياناً لا يمنع من هذا الجعل، وكذا اختلافُ المتعاطفَين ماضَويةً ومضارعيةً لا يمنعُ من العطف، نعم يحتاج إلى نُكتة، ولا أظنُّها تخفى، فتدبَّر.

والرُّفات ما تكسَّر وبَلِيَ من كلِّ شيء، وكثر بناءُ فُعَال في كلِّ ما تحطَّم وتفرَّق، كدُقاق وفُتات.

وأَخرج ابن جَريرٍ[1] وغيرُه عن مجاهدٍ أنَّه التراب، وهو قولُ الفرَّاء[2]. وأخرج ابنُ المنذرِ وغيرُه عن ابن عباسٍ أنَّه الغبار[3]. وقال المبرِّد: هو كلُّ شيءٍ مدقوقٍ مبالَغٍ في دَقِّه. وهي أقوالٌ متقاربة.

والهمزةُ للاستفهام الإنكاريِّ، مفيدةٌ لكمال الاستبعادِ والاستنكارِ للبعث بعد ما آلَ الحالُ إلى هذا المآل، كأنَّهم قالوا: إنَّ ذلك لا يكون أصلاً.

ومنشؤه أنَّ بين غضَاضةِ الحيِّ وطراوتهِ المقتضيةِ للاتِّصال المقتضي للحياة، وبين يبوسةِ الرَّميم المقتضيةِ للتفرُّق المقتضي لعدم الحياةِ تنافياً.

---

(١) في تفسيره ١٤/ ٦١٤.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٢٥.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٨٧، وتفسير الطبري ١٤/ ٦١٤.

و«إذا» هنا ـ كما في «الدرّ المصون»(١) ـ متمحِّضة للظرفية، والعاملُ فيها ما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ لا نفسُه؛ لأنَّ «إنَّ» لها الصَّدر، فلا يعملُ ما بعدَها فيما قبلَها، وكذا الاستفهامُ وإنْ كان تأكيداً، مع كونِ الاستفهامِ بالفعل أولى، وهو: نُبعَث أو نعاد، وهو مصبُّ الإنكار. وتقييدُه بالوقت المذكور؛ لتقوية إنكار البعثِ بتوجيهه إليه في حالةٍ منافيةٍ له، وإلَّا فالظاهرُ من حالهم أنَّهم منكرون للإحياء بعد الموتِ وإنْ كان البدنُ على حاله.

وجوِّز أن تكونَ شرطيةً وجوابُها مقدَّر، أي: نُبعَث، أو نحوُه، وهو العاملُ فيها، وقيل: الشرطُ، والمعنى: أَنُبعَث وقد كنَّا رُفاتاً في وقت، وهو مذهبٌ لبعض النحويِّين غيرُ مشهورٍ ولا معوَّلٍ عليه.

وتحليةُ الجملة بـ «إنَّ» واللام؛ لتأكيد الإنكار، لا لإنكارِ التأكيد كما عسى يُتوهَّم من ظاهر النَّظم. وليس مدارُ إنكارِهم كونَهم ثابتين في المبعوثية بالفعل في حال كونِهم عظاماً ورُفاتاً كما يتراءى من ظاهر الجملةِ الاسمية، بل كونَهم بعَرَضية ذلك واستعدادِهم له، ومرجعُه إلى إنكار البعثِ بعد تلك الحالة. وفيه من الدَّلالة على غلوِّهم في الكفر وتماديهم في الضَّلال ما لا مزيدَ عليه. قاله بعضُ المحقِّقين.

﴿خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ نصب بمبعوثين على أنَّه مفعولٌ مطلَق له من غير لفظِ فعلِه، أو حالٌ على أنَّ الخلقَ بمعنى المخلوق، ووُحِّد لاستواء الواحدِ في المصدر وإنْ أُريد منه اسمُ المفعول، أي: مخلوقين.

﴿قُلْ﴾ جواباً لهم وتقريباً لما استبعدوه: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ ردَّ سبحانه قوله: «كونوا» على قولهم: «كنا»، فهو من باب المشاكلةِ والمقابلةِ بالجِنس.

ومعنى الأمرِ ـ كما قيل ـ الاستهانةُ، كما في قول موسى عليه السلام: ﴿أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠] وجعَلَه صاحبُ «الإيضاح» أمرَ إهانة، والفاضلُ الطِّيبيُّ أمرَ تسخير، كما في قوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥] لكنَّه قال: إنَّه على الفرض.

---

(١) ٧/ ٣٦٧.

وفي «الكشف» أنَّه غيرُ ظاهر، ولو جُعل من بابِ كن فلاناً، على معنى: أنتَ فلانٌ، مِن استعمال الطالبِ في معنى الخبر، أي: أنتم حجارةٌ ولستم عظاماً ومع ذلك تُبعَثون لا محالةَ، لَكان وجهاً قويماً.

وبحث فيه الشِّهاب[1] بأنَّه كيف يقال: أنتم حجارة، على أنَّه خبرٌ وهو غيرُ مطابقٍ للواقع؟ فلابدَّ مِن قصد الإهانة وعدمِ المبالاة، وجعلِ الأمرِ مجازاً عن الخبر، والخبرُ خبرٌ فَرْضي، وليس فيه ما يدلُّ على الفَرْض كـ: «إن» و«لو» الشرطيتَين، فهو ممَّا لا يخفَى بُعدُه، وليس بأقربَ ممَّا استبعده، فالصوابُ أنَّه للإهانة كما جنح إليه صاحبُ «الإيضاح» فتدبَّر.

والحجارةُ جمع حَجَر، كأحجار، وهو معروفٌ، وكذا الحديدُ، وهو مفرَد: وجمعه: حدائدُ وحديدات.

والظاهرُ أنَّ المرادَ: كونوا من هذين الجِنسين ﴿أَوْ خَلْقًا﴾ أي: مخلوقاً آخَرَ ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: ممَّا يُستبعَد عندكم قبولُه الحياةَ؛ لكونه أبعدَ شيءٍ منها، وتعيينُه مُفوَّضٌ إليكم، فإنَّ اللهَ تعالى لا يُعجزه إحياؤكم؛ لتساوي الأجسامِ في قبول الأعراض، فكيف إذا كنتم عِظاماً باليةً وقد كانت موصوفةً بالحياة قبل؟ والشيءُ أقبلُ لِمَا عُهد فيه مما لم يُعهَد.

وقال مجاهدٌ: الذي يَكبُر: السماواتُ والأرضُ والجبالُ.

وأخرج ابن جَرير[2] وجماعةٌ عن ابن عباسٍ وابن عمرَ والحسنِ وابن جُبيرٍ أنَّهم قالوا: ما يَكبُر في صدورهم الموتُ، فإنَّه ليس شيءٌ أكبرَ في نفس ابنِ آدمَ من الموت، والمعنى: لو كنتم مجسَّمين من نفس الموت، لأَعادكم، فضلاً عن أصلٍ لا يضادُّ الحياةَ إنْ لم يقتضِها. وفيه مبالغةٌ حسنةٌ وإنْ كان اللفظُ غيرَ ظاهرٍ فيه.

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ لك: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ مع ما بينَنا وبين الإعادة من مثل هذه المباعدةِ والمباينة.

---

(١) في حاشيته ٦/ ٣٩.

(٢) في تفسيره ١٤/ ٦١٦-٦١٧.

﴿قُلِ﴾ لهم تحقيقاً للحقِّ، وإزاحةً للاستبعاد، وإرشاداً إلى طريقة الاستدلال: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ أي: القادرُ العظيمُ الذي اخترعكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من غير مثالٍ يحتذيه، ولا أسلوبٍ يَنتحيه، وكنتم تراباً ما شمَّ رائحةَ الحياة، أليس الذي يَقدر على ذلك بقادرٍ على أن يُفيضَ الحياةَ على العظام البالية ويُعيدَها إلى حالها المعهودة؟ بلى إنَّه سبحانه على كلِّ شيءٍ قدير.

والموصولُ مبتدأ، خبرُه: يُعيدكم، المحذوفُ؛ لدَلالة السؤالِ عليه، أو فاعلٌ به، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، على اختلافٍ في الأَوْلى كما فصِّل في محلِّه. و«أول مرة» ظرفُ «فطركم».

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: سيحرِّكونها نحوَك استهزاءً، كما رُوي عن ابن عباسٍ وأَنشدَ عليه قولَ الشاعر:

أَتُنغض لي يومَ الفخارِ وقد ترى خيولاً عليها كالأُسود ضواريا[1]

ومثلُه قولُ الآخَر:

أَنغضَ نحوي رأسَه وأقنعا كأنَّه يطلب شيئاً أطمَعا[2]

وفي«القاموس»[3]: نَغَضَ: كنصر وضرب، نَغضاً، ونُغوضاً، ونَغَضاناً ونَغَضاً، محرَّكتين: تحرَّك واضطرب، كأَنْغَضَ، وحرَّك كأَنغض.

وفسَّر الفرَّاءُ[4] الإنغاضَ بتحريك الرأسِ بارتفاعٍ وانخفاض.

وقال أبو الهيثم: مَن أُخبر بشيءٍ فحرَّك رأسَه إنكاراً له، فقد أنغض رأسَه، فكأنَّه: سيحرِّكون رؤوسهَم إنكاراً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاءً ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: ما ذكرتَه من الإعادة. وجوِّز أن يكونَ الضميرُ للعود أو البعثِ المفهومِ من الكلام.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ ذلك ﴿قَرِيبًا ۝٥١﴾ فإنَّ ما هو محقَّق إتيانُه

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨٧-١٨٨.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٣٤٤، والنكت والعيون٣/ ١٤١، والمحرر الوجيز٣/ ٣٦٢، والبحر المحيط ٦/ ٤٥ دون نسبة.

(٣) مادة (نغض).

(٤) في معاني القرآن ٢/ ١٢٥.

قريب. ولم يعيِّن زمانَه؛ لأنَّه من المغيَّبات التي لا يطَّلع عليها غيرُه تعالى، ولا يُطلِع عليها سبحانَه أحداً. وقيل: قُربه لأنَّ ما بقي من زمان الدُّنيا أقلُّ ممَّا مضى منه.

وانتصابُ «قريباً» على أنَّه خبرُ «كان» الناقصة، واسمُها ضميرٌ يعود على ما أشير إليه.

وجوِّز أن يكون منصوباً على الظرفية، والأصل: زماناً قريباً، فحُذِف الموصوف، وأقيمت صفته مقامَه، فانتصب انتصابَه، و«كان» على هذا تامَّة، وفاعلُها ذلك الضميرُ، أي: عسى أن يقعَ ذلك في زمانٍ قريب.

وأن يكونَ في تأويل مصدر منصوبٍ وقع خبراً لـ «عسى»، واسمها ضميرٌ يعود على ما عاد عليه اسم يكون، وجوز أن يكون مرفوعاً بـ «عسى»، وهي تامَّةٌ لا خبرَ لها، أي: عسى كونُه قريباً، أو في وقتٍ قريب.

واعتُرِض بأنَّ «عسى» للمقاربة، فكأنَّه قيل: قَرُبَ أن يكون قريباً، ولا فائدةَ فيه.

وأُجيب بأنَّ نجمَ الأئمَّةِ لم يُثبت معنى المقاربةِ في «عسى»، لا وضعاً ولا استعمالاً. ويدلُّ له ذِكرُ «قريباً» بعدَها في الآية، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّها جرِّدت عنه، فالمعنى: يُرجَى ويتوقَّع كونُه قريباً.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ منصوبٌ بفعلٍ مضمَر، أي: اذكروا، أو بدلٌ من «قريباً» على أنَّه ظرف، أو متعلِّق بـ «يكون» تامَّةً بالاتفاق، وناقصةً عند مَن يجوِّز إعمالَ الناقصةِ في الظُّروف، أو بـ: تُبعثون، محذوفاً، أو بضمير المصدرِ المستتر في «يكون» أو «عسى» العائدِ على العود مثلاً، بناءً على مذهبِ الكوفيين المجوِّزين إعمالَ ضميرِ المصدر، كما في قوله[1]:

وما الحربُ إلَّا ما علمتمْ وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ

وجَعلُه بدلاً من الضمير المستترِ بدلَ اشتمالٍ ولم يُرفَع لأنَّه إذا أُضيف إلى مِثل هذه الجملةِ قد يُبنَى على الفتح = تكلُّفٌ، وادِّعاءُ ظهورِه مكابرة.

(١) قائله زهير، والبيت في ديوانه ص١٨.

والدعاءُ قيل: مجازٌ عن البعث، وكذا الاستجابةُ في قوله تعالى: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ مجازٌ عن الانبعاث، أي: يومَ يبعثكم فتنبعثون، فلا دعاءَ ولا استجابة، وهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] في أنَّه لا خطابَ ولا مخاطَبَ في المشهور، وتُجوِّز بالدُّعاء والاستجابةِ عن ذلك؛ للتنبيه على السُّرعة والسُّهولة؛ لأنَّ قول: قُمْ يا فلان، أمرٌ سريعٌ لا بطءَ فيه، ومجرَّد النداءِ ليس كمزاولة الإيجادِ بالنسبة إلينا، وعلى أنَّ المقصودَ الإحضارُ للحساب والجزاءِ، فإنَّ دعوةَ السيِّد لعبده إنَّما تكون لاستخدامه، أو للتفحُّص عن أمره، والأوَّلُ منتفٍ؛ لأنَّ الآخرةَ لا تكليفَ فيها، فتعيَّن الثاني.

وقال الإمامُ وأبو حيَّان[1]: «يدعوكم» بالنِّداءِ الذي يسمعكم، وهو النفخةُ الأخيرةُ، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ الآية [ق: ٤١].

ويقال: إنَّ إسرافيلَ عليه السلام، وفي رواية: جبرائيل عليه السلام ينادي على صخرة بيتِ المقدس: أيَّتها الأجسامُ البالية، والعظامُ النَّخِرة، والأجزاء المتفرِّقة، عودي كما كنتِ.

وأخرج أبو داودَ وابنُ حِبَّان[2] عن أبي الدرداءِ أنَّه قال: قال ﷺ: «إنَّكم تُدعَون يومَ القيامةِ بأسمائكم وأسماءِ آبائكم، فحسِّنوا أسماءَكم» ولعل هذا عندَ الدعاءِ للحساب، وهو بعد البعثِ من القبور.

واقتصر كثيرٌ على التجوُّز السابق، فقيل: إنَّ فيه إشارةً إلى امتناع الحملِ على الحقيقة؛ لِمَا يَلزم من الحمل عليها خطابُ الجماد، وهو الأجزاءُ المتفرِّقة، ولو لم تمتنع إرادةُ الحقيقة، لَكان ذلك كنايةً عن البعث والانبعاث، لا مجازاً، والمجوِّزُ لإرادتها يقول: إنَّ الدعوةَ بالأمر التكوينيِّ، وهو ممَّا يوجَّه إلى المعدوم، وقد قال جمعٌ به في قولِ «كن»، ولم يتجوَّزوا في ذلك، وأمَّا أنَّه لو لم تمتنع إرادةُ الحقيقةِ لَكان كنايةً لا مجازاً، فأمرٌ سهلٌ كما لا يخفَى، فتدبَّر.

﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حالٌ من ضمير المخاطَبين، وهم الكفَّار كما هو الظَّاهر، والباءُ

---

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ٢٢٧، والبحر المحيط٦/ ٤٧.

(٢) سنن أبي داود (٤٩٤٨)، وصحيح ابن حبان(٥٨١٨).

للملابسة، أي: فتستجيبون ملتبسين بحمده، أي: حامدين له تعالى على كمال قدرته.

وقيل: المراد: معترفين بأنَّ الحمدَ له على النِّعم لا تُنكرون ذلك؛ لأنَّ المعارفَ هناك ضروريَّة.

وأخرج عبد بن حميد وغيرُه عن ابن جُبَير أنَّه قال: يَخرجون من قبورِهم وهم يقولون: سبحانك اللهمَّ وبحمدك. ولا بُعدَ في صدور ذلك من الكافر يومَ القيامةِ وإنْ لم ينفعْه[١].

وحَمَلَ الزمخشريُّ[٢] ذلك على المجاز، والمرادُ المبالغةُ في انقيادهم للبعث، كقولك لمَن تأمره بركوب ما يشقُّ عليه فيتأبَّى ويمتنع: ستركبه وأنت حامدٌ شاكر، يعني أنَّك تُحمَل عليه وتُقسَر قسراً، حتى إنَّك تلين لينَ المسمح الراغبِ فيه الحامدِ عليه، فكأنَّه قيل: منقادين لبعثه انقيادَ الحامدين له.

وتعلُّق الجارِّ بـ: «يدعوكم» ليس بشيءٍ. وعن الطبريِّ[٣] أنَّ «بحمده» معترِضٌ بين المتعاطفَين اعتراضَه بين اسمِ «إنَّ» وخبرِها في قوله:

فإنِّي بحمد اللهِ لا ثوبَ فاجرٍ لبستُ ولا من غَدرةٍ أتقنَّعُ[٤]

ويكونُ الكلام على حدِّ قولِك لرجلٍ وقد خصمتَه في مسألة: أخطأتَ بحمد اللهِ تعالى، فكأنَّ الرسولَ عليه الصلاة والسلام قال: عسى أن يكونَ البعثُ قريباً يومَ تُدعَون فتقومون بخلاف ما تعتقدون اليوم، وذلك بحمد اللهِ سبحانه على صِدق خبري، وملخَّصُه: يكون ذلك على خلاف اعتقادِكم والحمدُ لله تعالى.

ولا يخفَى أنَّه معنًى متكلَّف لا يكاد يُفهَم من الكلام، ونحن في غنًى عن ارتكابه والحمدُ لله.

وقيل: الخطابُ للمؤمنين، وانقطع خطابُ الكافرين عند قولِه تعالى: ﴿قَرِيبًا﴾

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨٨.

(٢) في الكشاف ٢/ ٤٥٣.

(٣) في تفسيره ١٤/ ٦٢٢-٦٢٣.

(٤) تفسير الطبري١٤/ ٦٢٣ دون نسبة، ونسبه المرزباني في معجمه ص٤٣٦ لأوفى بن مطر، وصاحب اللسان (طهر) لغيلان، وصاحب الأغاني ١٦/ ٢٣٥-٢٣٦ لبرذع بن عدي.

فيستجيبون حامدين له سبحانه على إحسانه إليهم وتوفيقِه إيَّاهم للإيمان بالبعث.

وأَخرج الترمذيُّ[(١)] والطبرانيُّ[(٢)] وغيرُهما عن ابن عمرَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ليس على أهلِ لا إله إلا اللهُ وحشةٌ في قبورهم ولا في منشرهم، وكأنِّي بأهلِ لا إله إلا الله يَنفضون الترابَ عن رؤوسهم ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]».

وفي روايةٍ عن أنسٍ مرفوعاً[(٣)]: «ليس على أهلِ لا إله إلا الله وحشةٌ عند الموت، ولا في القبور، ولا في الحشر، وكأنّي بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورِهم ينفضون رؤوسَهم من التُّراب، يقولون: الحمدُ لله الذي أذهب عنَّا الحَزَن».

وقيل: الخطابُ للفريقين، وكلُّهم يقولون ما رُوي عن ابن جُبَير.

﴿وَتَظُنُّونَ﴾ الظاهرُ أنَّه عطفٌ على «تستجيبون» وإليه ذهب الحوفيُّ وغيرُه. وقال أبو البقاءِ[(٤)]: هو بتقديرِ مبتدأ، والجملةُ في موضعِ الحال، أي: وأنتم تظنُّون ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ كالذي مرَّ على قريةٍ، أو ما لبثتم في الدنيا، كما روَى غيرُ واحدٍ عن قتادة.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: يستقلُّون لَبثَهم بين النفختَين، فإنَّه يُزال عنهم العذابُ في ذلك البَين؛ ولذا يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].

وقيل: يستقلُّون لبثَهم في عَرْصة القيامة؛ لِمَا أنَّ عاقبةَ أمرِهم الدخولُ إلى النار. وهذا في غاية البعدِ كما لا يخفَى.

والظنُّ يحتمل أن يكونَ على بابه، ويحتمل أن يكونَ بمعنى اليقين، وهو معلَّق عن العمل بـ «إنْ» النافية، وقلَّ مَن ذكرها من أدوات التعليق، قاله أبو حيَّان[(٥)].

---

(١) هو الحكيم الترمذي، والحديث في نوادر الأصول ص ٢٤٧-٢٤٨.
(٢) في الأوسط(٩٤٧٨).
(٣) أخرجها ابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/ ١٨٨.
(٤) في الإملاء٣/ ٤٨٥.
(٥) في البحر٦/ ٤٨.

وانتصابُ «قليلاً» على أنَّه نعتٌ لزمانٍ محذوف، أي: إلَّا زماناً قليلاً. وجوِّز أن يكونَ نعتاً لمصدرٍ محذوف، أي: لبثاً قليلاً، ودلالةُ الفعلِ على مصدره دلالةٌ قوية.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ أي: المؤمنين، فالإضافةُ لتشريف المضاف ﴿يَقُولُوا۟﴾ عند محاورتِهم مع المشركين ﴿ٱلَّتِى﴾ أي: الكلمةَ أو العبارةَ التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ ولا يخاشنوهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ومقولُ فعلِ الأمرِ محذوف، أي: قل لهم: قولوا التي هي أحسن، يقولوا ذلك، فجزم يقولوا لأنَّه جوابُ الأمر، وإلى هذا ذهب الأخفش[١]، ولكون المقولِ لهم هم المؤمنون المسارعون لامتثال أمرِ اللهِ تعالى وأمرِ رسوله ﷺ بمجرَّد ما يقالُ لهم، لم يكن غبارٌ في هذا الجزم.

وقال الزجَّاج: إنَّ«يقولوا» هو المقول، وجزمُه بلام الأمرِ محذوفةً، أي: قل لهم ليقولوا التي... إلخ.

وقال المازنيّ: إنَّه المقولُ أيضاً، إلَّا أنَّه مضارعٌ مبنيٌّ لحلوله محلَّ المبنيّ، وهو فعلُ الأمر، والمعنى: قل لعبادي: قولوا التي هي أحسن. وهو كما ترى.

ومقولُ يقولوا «التي» وإذا أُريد به الكلمة، حُمِلت على معناها الشاملِ للكلام.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفسد ويهيِّج الشرَّ بين المؤمنين والمشركين بالمخاشنة، فلعلَّ ذلك يؤدِّي إلى تأكُّد العناد، وتمادي الفساد، فالجملةُ تعليلٌ للأمر السابق.

وقرأ طلحة: «يَنْزِغ» بكسر الزاي[٢]. قال أبو حاتم: لعلَّها لغة، والقراءةُ بالفتح. وقال صاحبُ«اللوامح»: الفتحُ والكسرُ لغتان، نحو: يَمنَح ويَمنِح.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ﴾ قِدْماً ﴿لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ ظاهرَ العداوة، فهو من أبانَ

---

(١) في معاني القرآن٢/ ٦١٤.

(٢) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر ٦/ ٤٩.

اللازم، والجملة تعليلٌ لمَا سبق من أنَّ الشيطانَ ينزغ بينهم.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالإماتة على الكفر. وهذا تفسيرُ «التي هي أحسن»، والجملتان اعتراضٌ بينهما، والخطابُ فيه للمشركين، فكأنَّه قيل: قولوا لهم هذه الكلمةَ وما يشاكلها، وعلِّقوا أمرَهم على مشيئة اللهِ تعالى، ولا تصرِّحوا بأنَّهم من أهلِ النَّار، فإنَّه مما يهيِّجهم على الشرّ، مع أنَّ الخاتمة مجهولةٌ لا يعلمها غيرُه تعالى، فلعلَّه سبحانه يَهديهم إلى الإيمان.

والظاهرُ أنَّ «أو» للانفصال الحقيقي. وقال الكَرماني: هي للإضراب؛ ولذا كُرِّرت معها«إنْ»، وقال ابنُ الأنباريّ: دَخَلَت«أو» هنا لسعة الأمرين عند اللهِ تعالى، ويقال لها: المُبيحة، كالتي في قولهم: جالِس الحسنَ أو ابنَ سيرين، فإنَّهم يَعنُون: قد وسَّعنا لك الأمر. وهو كما ترى.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ أي: موكولاً ومفوَّضاً إليك أمرُهم تَقسِرهم على الإسلام وتُجبرهم عليه، وإنَّما أرسلناك بشيراً ونذيراً، فدارِهم ومُرْ أصحابَك بمداراتهم، وتحمُّلِ أذيَّتهم، وتَرْكِ المشاقَّة مِعهم. وهذا قبل نزولِ آيةِ السيف.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبأحوالهم الظاهرةِ والباطنة، فيختار منهم لنبوَّته وولايته مَن يشاء ممَّن تراه حكمتُه أهلاً لذلك، وهو ردٌّ عليهم إذ قالوا: بعيدٌ أن يكونَ يتيمُ ابن أبي طالب نبيًّا، وأن يكون العراةُ الجوَّعُ ـ كصهيب وبلال وخبَّاب وغيرهم ـ أصحابَه، دون أن يكون ذلك من الأكابر والصَّناديد.

وذِكْرُ مَن في السماوات لإبطال قولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١] وذِكْرُ مَن في الأرض لردِّ قولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فلا يدلُّ تخصيصُهما بالذِّكر وتعلُّقهما بـ «أعلم» على اختصاص أعلميَّتِهِ تعالى بما ذُكر، فما قاله أبو عليٍّ من أنَّ الجارَّ متعلِّق بعَلِمَ محذوفاً ولا يجوز تعلُّقه بأَعلم لاقتضائه أنَّه سبحانه ليس بأَعلمَ بغير ذلك = ناشئٌ عن عدم العلم بما ذكرنا، على أنَّ أبا حيَّانَ(١) أنكر تعدِّي عَلِمَ بالباء، وإنَّما يتعدَّى لواحدٍ بنفسه في مِثل هذا الموضع.

(١) في البحر٦/ ٥٠.

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ بالفضائل النفسانيَّة، والمزايا القُدسية، وإنزالِ الكتبِ السماوية، لا بكثرة الأموالِ والأتباع ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ بيانٌ لحيثية تفضيلهِ عليه الصلاة والسلام، وأنَّه بإيتائه الزَّبورَ لا بإيتائه الملكَ والسَّلطنة، وفيه إيذانٌ بتفضيل نبيِّنا ﷺ، فإنَّ كونه عليه الصلاة والسلام خاتمَ الأنبياء وأمَّتهِ خيرَ الأمم ممَّا تضمَّنه الزَّبور، وقد أخبر سبحانه عن ذلك بقوله عزَّ قائلاً: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] يعني محمداً ﷺ وأمَّته.

ونصَّ بعضهم أنَّ هذا من باب التلميحِ، نحو قصَّة المنصورِ وقد وعد الهُذليَّ بعدَةٍ فنسيها، فلمَّا حجَّا وأتيا المدينة، قال له يوماً وهو يسايره: يا أميرَ المؤمنين، هذا بيتُ عاتكةَ الذي يقول فيه الأحوص:

يا بيتَ عاتكةَ الذي أتغزَّلُ[1]

ففَطِن لمراده حيث قال ذلك، ولم يسألْه، وعلم أنَّه يشير إلى قولِه في هذه القصيدة:

وأَراكَ تفعلُ ما تقولُ وبعضُهمْ مَذِقُ اللسانِ يقولُ ما لا يفعلُ

فأنجز عِدَتَه.

والزَّبور في الأصل وصفٌ للمفعول كالحَلوب، أو مصدرٌ كالقَبول. نعم هذا الوزنُ في المصادر قليل، والأكثرُ ضمُّ الفاء، وبه قرأ حمزة[2]، وجَعَله بعضُهم على هذه القراءةِ جمعَ زِبْر، بكسر الزَّاي، بمعنى مزبور، ثم جُعل عَلَماً للكتاب المخصوص، وليس فيه من الأحكام شيء، أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن الربيع بنِ أنسٍ قال: الزَّبور ثناءٌ على الله عزَّ وجلَّ ودعاءٌ وتسبيح. وأخرج هو وابنُ جَرير[3] عن

---

(١) ديوانه ص ١٥٢، وعجزه: حَذَرَ العِدى وبه الفؤاد موكَّلُ.
والخبر مذكور في ثمرات الأوراق ص١١٣، والأحوص هو ابن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت. وقيل: إن اسمه عبد الله، وإنَّه لقِّب الأحوص لحَوَص [وهو ضيق في مؤخر العينين أو في إحداهما] كان في عينيه. مات سنة (١٠٥ هـ). الشعر والشعراء ١/ ٥١٨، والأغاني ٤/ ٢٢٤، والأعلام ٤/ ١١٦.

(٢) التيسير ص٩٨، والنشر٢/ ٢٥٣.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٨٨، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٢٥-٦٢٦.

قتادةَ قال: كنَّا نحدِّث أنَّ الزبور دعاءٌ علَّمه داود عليه السلام وتحميدٌ وتمجيدٌ لله عزَّ وجلّ، ليس فيه حلالٌ ولا حرام، ولا فرائضُ ولا حدود.

والذي تدلُّ عليه بعضُ الآثار اشتمالُه على بعض النَّواهي والأوامر، فقد روى ابنُ أبي شيبة[1] أنَّه مكتوبٌ فيه: إنِّي أنا اللهُ لا إله إلا أنا، ملكُ الملوك، قلوبُ الملوكِ بيدي، فأيُّما قومٍ كانوا على طاعة، جعلتُ الملوكَ عليهم رحمة، وأيُّما قومٍ كانوا على معصية، جعلتُ الملوكَ عليهم نِقمة، فلا تَشغلوا أنفسَكم بسبِّ الملوك، ولا تتوبوا إليهم وتوبوا إليّ، أَعطِفْ قلوبَهم عليكم. والمزاميرُ التي يُفهَم منها الأمرُ والنهيُ كثيرةٌ فيه كما لا يخفَى على من رآه. ومع هذا الفرقُ بينه وبين التَّوراةِ ظاهر.

ودخولُ «أل» عليه في بعض الآياتِ لِلَمح الأصل، وذلك لا ينافي العَلَمية، كما في العبَّاس والفضل. وجوِّز أن يكونَ نكرةً غيرَ عَلَم، ونُكِّر ليفيدَ أنَّه بعضٌ من الكتب الإلهية، أو من مُطلق الكتب، ولا إشكالَ أيضاً في دخول «أل» عليه، أي: آتيناه زَبوراً من الزُّبر. وجوِّز أن يكونَ مختصًّا بكتاب داودَ عليه السلام، وليس بعَلَم، بل من غلبة اسمِ الجنس، وهو كالقرآن يُطلَق على المجموعِ وعلى الأجزاء، وتقدَّم إفادةُ التنكيرِ للبعضية في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾ فيجوز أن يكونَ المرادُ هنا: آتيناه بعضاً من الزَّبور فيه ذِكرُه ﷺ.

هذا ووجهُ ربطِ الآياتِ بما تقدَّم على هذا التفسير ـ على ما في«الكشف» ـ أنَّه تعالى لمَّا أَرشد نبيَّه ﷺ إلى جواب الكفارِ بجدِّه في استهزائهم وتوقُّرِه في استخفافهم؛ ليكونَ أغيظَ لهم وأشجَى لحلوقهم، أَرشده إلى أن يَحمل أصحابَه أيضاً على ذلك، وأن يستنُّوا بسنَّته، وعلَّل ذلك بما اعترض به من أنَّ الشيطانَ بنزغه يَحمل على المخاشنة، فعلى العاقلِ الحازمِ ألَّا يغترَّ بوساوسه، كيف وقد تبيَّن له أنَّه عدوٌّ مبين؟

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ متعلِّق بجميع السابقِ من قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟﴾ المشتملِ على مجادلَته بالتي هي أحسن «وقل لعبادي» المشتملِ على حَملهم عليها إلى قوله سبحانه: ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من تتمَّة: «إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً» فإنَّهم طعنوا فيه ـ وحاشاه ـ تارةً

(١) في مصنفه ١٣/ ١٨٧.

بأنَّه شاعر، ساحر، مجنون، وأُخرى بنحو: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، و: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] فأجيب عن الأوَّل بما أُجيب، وعن الثاني بقولهِ سبحانه: (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ)، وربك أعلم.

وجوِّز أن يكونَ الخطابُ في قوله تعالى: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ) إلخ للمؤمنين، ورُوي ذلك عن الكلبيّ، وأخرج الأوَّلَ ابنُ جَرير وابنُ المنذر عن ابن جُرَيج[1]، والمعنى: إنَّه تعالى إنْ يشأ يرحمْكم أيُّها المؤمنون في الدنيا بإنجائكم من الكَفَرة ونصرِكم عليهم، أو إنْ يشأ يعذِّبْكم بتسليطهم عليكم.

والمرادُ بـ «التي هي أحسنُ» المجادلةُ الحسنةُ، فكأنَّه تعالى لمَّا ذكر الحجَّة اليقينية في صحَّة المعاد، أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يقولَ للمؤمنين: إذا أردتم إيرادَ الحجَّة على المخالفين، فاذكروا الدَّلائلَ بالطريق الأحسن، وهو ألَّا يكونَ ذلك ممزوجاً بالشَّتم والسَّبّ؛ لأنَّه لو اختلط به لا يَبعُد أن يقابَلَ بمثله، فيزداد الغضبُ ويهيج الشَّرّ، فلا يحصُلُ المقصود، وأشار سبحانه إلى ذلك بقوله عزَّ قائلاً: (إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ) إلخ.

وضميرُ «بينهم» إمَّا للكفار، أو للفريقين. ورُوي أنَّ المشركين أفرطوا في إيذاء المؤمنين، فشَكَوا إلى رسول الله ﷺ، فنزلت. وقيل: شتم عمرَ رجلٌ، فهمَّ رضي الله عنه به، فأمره اللهُ تعالى بالعفو.

قال في «الكشف»: إنَّه على هذين القولَين الكلمةُ «التي هي أحسنُ» نحو: يَهديكم اللهُ تعالى، وليست مفسَّرةً بـ «ربُّكم أعلمُ بكم»، وقولُه سبحانه: (إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ) تعليلٌ للأمر بالاحتمال بأنَّ المخاشنةَ من فِعل الشيطان، والخطابُ في قوله تعالى: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ) للمؤمنين، وفيه حثٌّ على المداراة، أي: فداروهم؛ لأنَّ ربَّكم أعلمُ بكم، وبما يصلُحُ لكم من أوامر، إنْ يشأ يرحمْكم بقَبول أوامرِه ونواهيه، أو إن يشأ يعذِّبْكم بإبائكم، أو إن يشأ يرحمكم بالملاينة والتراحم؛ لأنه سبب السلامة عن أذى الكفار، أو إن يشأ يعذبْكم بمخاشنتكم في غير إبَّانها «وما أرسلناك عليهم وكيلاً» فهؤلاء المؤمنون وهم أَتباعُك أولى وأولى بألَّا يكونوا وكيلاً عليهم.

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨٨، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٢٤-٦٢٥.

ثم قال: والأوَّل أوفقُ لتأليف النَّظم، وفي إفادة«ربكم أعلم بكم» الحثُّ ـ على ما قرِّر ـ تكلُّف ما. اهـ.

وقيل: المرادُ من «عبادي» الكفارُ، وحيث كان المقصودُ من الآيات الدعوةَ، لا يَبعُد أن يعبَّرَ عنهم بذلك؛ ليصيرَ سبباً لجذب قلوبِهم وميلِ طباعِهم إلى قَبول الدِّين الحقّ، فكأنَّه قيل: قل يا محمدُ لعبادي الذين أقرُّوا بكونهم عباداً لي: يقولوا التي هي أحسن، وهي الكلمةُ الحقَّة الدالَّة على التوحيد وإثباتِ القدرةِ على البعث، وعرِّفْهم أنَّه لا ينبغي لهم أن يُصرُّوا على المذهب الباطل تعصُّباً للأسلاف، فإنَّ ذلك من الشَّيطان، وهو للإنسان عدوٌّ مبين، فلا ينبغي أن يُلتفتَ إلى قوله.

والمرادُ من الأمر بالقول الأمرُ باعتقاد ذلك، وذَكَرَ القولَ لِمَا أنَّه دليلُ الاعتقادِ ظاهراً، ثمَّ قال لهم سبحانه: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالهداية ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ بالإماتة على الكفر، إلَّا أنَّ تلك المشيئةَ غائبةٌ عنكم، فاجتهِدوا أنتم في طلب الدِّين الحقّ، ولا تصرُّوا على الباطل؛ لئلَّا تصيروا محرومين عن السَّعادات الأبدية، والخيراتِ السَّرمدية.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: لا تشدِّد الأمرَ عليهم، ولا تُغلِظ لهم بالقول. والمقصودُ من كلِّ ذلك إظهارُ اللِّين والرِّفق لهم عند الدَّعوة؛ لأنَّه أقربُ لحصول المقصود.

ثم إنَّه تعالى عمَّم عِلمَه بقوله: «وربك أعلم..» إلخ، ويَحسُن ـ على هذا ـ ما رُوي عن ابن عباسٍ وأخرجه ابنُ أبي حاتم عن ابن سِيرين من تفسير «التي هي أحسن» بـ: لا إله إلا الله. ونقل ذلك ابنُ عطيَّةَ[1] عن فِرقةٍ من العلماء، ثم قال: ويَلزم عليه أنْ يرادَ بعبادي جميعُ الخلق؛ لأنَّ جميعَهم مدعوٌّ إلى قول: لا إله إلا الله، ويجيءُ قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ﴾ غيرَ مناسبٍ إلَّا على معنى: ينزغ خلالَهم وأثناءهم، ويفسَّر النزغُ بالوسوسة والإملال.

ولا يخفَى أنَّه في حيِّز المنع، وما ذَكَرَ من الدليل لا يتمُّ إلَّا إذا لم يكن للتخصيص نكتة، وهي هاهنا ظاهرة.

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٤.

ويكون قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ إلخ كالاستدلال على حقِّية ما دعاهم إليه من التوحيد. ورَبْطُه بما تقدم ـ على ما ذكرناه أوَّلاً ـ لا أظنُّه يخفى.

والزَّعم بتثليث الزاي قريبٌ من الظنّ، ويقال: إنَّه القولُ المشكوكُ فيه، ويُستعمل بمعنى الكَذِب، حتى قال ابنُ عباس: كلُّ ما ورد في القرآن زعم فهو كَذِب. وقد يُطلَق على القول المحقَّق والصدقِ الذي لا شكَّ فيه، فقد أخرج مسلمٌ[1] من حديث أنسٍ أنَّ رجلاً من أهل البادية ـ واسمُه: ضِمَام بنُ ثعلبة ـ جاء إلى رسول اللهِ ﷺ فقال: يا محمد، أتانا رسولُك فزعم أنَّك تزعم أنَّ اللهَ تعالى أرسلك، قال: «صدق..» الحديثَ، فإنَّ تصديق النبيِّ عليه الصلاة والسلام إيَّاه مع قولِه: زعم، وتَزْعُم، دليلٌ على ما قلنا. وورد عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «زعم جبريلُ عليه السلام كذا»[2]. وقد أكثر سيبويه ـ وهو إمامُ العربية ـ في «كتابه» من قوله: زَعَمَ الخليل، زعم أبو الخطَّابِ، يريد بذلك القولَ المحقَّق، وقد نقل ذلك جماعاتٌ من أهل اللغةِ وغيرِهم، ونقله أبو عمرَ الزاهدُ[3] في شرح «الفصيح» عن شيخه أبي العباسِ ثعلب، عن العلماء باللُّغة من الكوفيين والبصريين.

وهو ممَّا يتعدَّى إلى مفعولَين، وقد حُذفا هاهنا، أو ما يسدُّ مسدَّهما، أي: زعمتم أنَّهم آلهة، أو: زعمتموهم آلهة، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ وحَذْفُ المفعولَين معاً أو حذفُ ما يسدُّ مسدَّهما جائز، والخلافُ في حذف أحدهما.

والظاهرُ أنَّ المرادَ من الموصول كلُّ مَن عُبد من دون اللهِ سبحانه من العقلاء، وأَخرج عبدُ الرزاق[4]، وابنُ أبي شيبة، والبخاريّ[5]، والنَّسائي[6]، والطبراني[7]، وجماعةٌ عن ابن مسعودٍ قال: كان نفرٌ من الإنس يعبدون نفراً من الجِنّ، فأسلم النفرُ من الجنِّ وتمسَّك الإنسيُّون بعبادتهم، فنزلت هذه الآية. وكان هؤلاء الإنسُ

---

(١) برقم (١٢)، وسلف ٦/ ١٠٦.

(٢) أخرجه عبد بن حميد (١٩٢) عن أبي قتادة رضي الله عنه، وسلف ٦/ ١٠٦.

(٣) هو غلام ثعلب.

(٤) في تفسيره ٢/ ٣٧٩-٣٨٠.

(٥) في صحيحه (٤٧١٤) و(٤٧١٥).

(٦) في الكبرى (١١٢٢٣) و(١١٢٢٤) و(١١٢٢٥).

(٧) في الكبير (٩٠٧٧) و(٩٧٩٨)، والخبر في الدر المنثور ٤/ ١٨٩.

من العرب كما صرَّح به في رواية البيهقيِّ[١] وغيرِه عنه. وفي أخرى التصريحُ بأنَّهم من خزاعة[٢]. وفي رواية ابن جَرير[٣] أنَّه قال: كان قبائلُ من العرب يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم: الجِنّ، ويقولون: هم بناتُ اللهِ سبحانه، فنزلت الآية.

وعن ابن عباسٍ أنَّها نزلت في الذين أشركوا بالله تعالى، فعبدوا عيسى وأمَّه وعُزَيراً والشمسَ والقمرَ والكواكب.

وعلى هذا ففي الآية ـ على ما في «البحر»[٤] ـ تغليبُ العاقلِ على غيره، ومتى صحَّ إدراجُ الشمسِ والقمرِ والكواكبِ على سبيل التغليب، بناءً على أنَّها ليست من ذوي العلم، فليُدرَج سائرُ ما عُبد بالباطل من الأصنام ويُرتكبِ التغليب.

وتعقِّب بأنَّ ما سيأتي قريباً إنْ شاء اللهُ تعالى من ابتغاء الوسيلةِ ورجاءِ الرحمةِ والخوفِ من العذاب يؤيِّد إرادةَ العقلاءِ، كعيسى وعُزَيرٍ عليهما السلام، بناءً على أنَّ الأصنامَ لا يُعقَل منها ذلك، وارتكابُ التغليبِ هناك أيضاً خلافُ الظاهرِ جدًّا.

والدعاءُ كالنِّداء، لكنَّ النداءَ قد يقال إذا قيل: يا، أو: أَيَا، أو نحوُهما، من غيرِ أن يضمَّ إليه الاسمُ، والدُّعاءُ لا يكاد يقال إلَّا إذا كان معه الاسم، نحو: يا فلان، وقد يُستعمَل كلٌّ منهما موضعَ الآخَر، والمراد: ادعوهم لكشف الضُّرِّ الذي هو أَولى من جلب النفعِ وأهمّ، وتوجُّهُ القلبِ إلى مَن يكشفه أكملُ وأتمّ.

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون بأنفسهم ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ كالمرض والفقرِ والقحطِ وغيرِها ﴿وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ ولا نقلَه منكم إلى غيرِكم ممَّن لم يعبدهم. أو: ولا تبديلَه بنوعٍ آخر، ومَن لا يملك ذلك لا يستحقُّ العبادة؛ إذ شرطُ استحقاقِها القدرةُ الكاملةُ التامَّة على دفع الضُّرِّ وجلبِ النفع، ولا تكونُ كذلك إذا كانت مُفاضةً من الغير.

وكأنَّ المرادَ من نفي ملكِهم ذلك نفيُ قدرتهم التامَّةِ الكاملةِ عليه، وكونُ قدرةِ الآلهة الباطلةِ مفاضةً منه تعالى مسلَّم عند الكفرة؛ لأنَّهم لا يُنكرون أنَّها مخلوقةٌ لله

---

(١) في دلائل النبوة كما عزاه إليه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٨٩، ولم نقف عليه عنده، وأخرجه أيضاً الطبري ١٤/ ٦٢٩، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢٥١)، ولعله المراد.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٧٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في تفسيره ١٤/ ٦٣٠.

(٤) ٦/ ٥١.

تعالى بجميع صفاتِها، وأنَّ اللهَ سبحانه أقوى وأكملُ صفةً منها. وبهذا يتمُّ الدليل ويحصل الإفحام، وإلَّا فنفيُ قدرةِ نحو الجنِّ والملائكةِ الذين عُبدوا من دون الله تعالى مطلقاً على كشف الضُّرِّ ممَّا لا يظهر دليلُه، فإنَّه إنْ قيل: هو أنَّا نرى الكفرةَ يتضرعون إليهم ولا تحصلُ لهم الإجابة، عورضَ بأنَّا نرى أيضاً المسلمين يتضرَّعون إلى الله تعالى ولا تحصُلُ لهم الإجابة. وقد يقال: المرادُ نفيُ قدرتِهم على ذلك أصلاً، ويحتجُّ له بدليل الأشعريِّ على استناد جميعِ الممكناتِ إليه عزَّ وجلَّ ابتداء.

وفسَّر بعضُهم الضُّرَّ هنا بالقحط، بناءً على ما رُوي أنَّ المشركين أَصابهم قحطٌ شديدٌ أكلوا فيه الكلابَ والجِيفَ، فاستغاثوا بالنبيِّ ﷺ ليدعوَ لهم، فنزلت. وأنت تعلم أنَّ هذا لا يوجب التخصيص. واستُدلَّ بهذه الروايةِ على أنَّ نفيَ الاستطاعةِ مطلقاً عن آلهتهم كان إذ ذاك مسلَّماً عندهم، وإلَّا لَمَا تركوها واستغاثوا بالنبيِّ ﷺ ليدعوَ لهم. وفيه نظر، فانظر وتدبَّر.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: أولئك الآلهةُ الذين يدعونهم ويسمُّونهم آلهة، أو يَدْعونهم وينادونهم لكشف الضُّرِّ عنهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون باجتهادٍ لأنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ ومالكِ أمرهم ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ القُربةَ بالطَّاعة والعبادة.

فضمير «يدعون» للمشركين، وضمير «يبتغون» للمشار إليهم. وقال ابنُ فُورَك: الضميرانِ للمشار إليهم، والمرادُ بهم الأنبياءُ الذين عُبدوا من دون اللهِ تعالى، ومفعولُ «يدعون» محذوف، أي: يدعون الناسَ إلى الحقّ، أو يدعون اللهَ سبحانه ويتضرَّعون إليه جلَّ وعلا. وعلى هذا لا يتعيَّن كونُ المرادِ بهم الأنبياءَ عليهم السلام كما لا يخفَى. وهو كما ترى.

وقرأ ابنُ مسعودٍ وقتادة: «تَدعون» بالتاءِ ثالثةِ الحروف. وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «يُدْعَون» بالياءِ آخرِ الحروف مبنيًّا للمفعول. وقرأ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «إلى ربِّك» بكاف الخطاب(١).

واسمُ الإشارةِ مبتدأ، والموصولُ نعتٌ أو بيان، والخبرُ جملة «يبتغون»، أو الموصولُ هو الخبر، و«يبتغون» حال، أو بدلٌ من الصِّلة.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٥١-٥٢.

وقولُه تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ فيه وجوهٌ من الإعراب، فالزمخشريُّ ذكر وجهَين[1]:

الأوَّل: كونُ «أيٍّ» موصولةً بدلاً من ضمير «يبتغون» بدلَ بعضٍ من كلٍّ، وهي إمَّا معرَبةٌ أو مبنيَّة على اختلاف الرأيين، أي: أولئك المعبودون يَطلب مَن هو أقربُ منهم الوسيلةَ إلى الله تعالى بطاعته، فكيف بالأبعد. وليس فيه إلَّا حذفُ صدرِ الصِّلة، والتقدير: أيُّهم هو أقرب، وهو ممَّا لا بأسَ به، ولا ينافي ذلك جمعُ «يرجون» و«يخافون» فيما بعدُ؛ لعدم اختصاصِ ما ذُكر بالأقرب، أو لكون الأقربِ متعدِّداً.

والثاني: كونُ «أيٍّ» استفهاميةً، وهي مبتدأ، و«أقرب» خبرُها، والجملةُ في محلِّ نصبٍ بـ «يبتغون»، وضمِّن معنى يحرصون، فكأنَّه قيل: يَحرصون أيُّهم يكون أقربَ إلى الله تعالى، وذلك بالطاعة وازديادِ الخيرِ والصلاح، قيل: واعتُبر التضمينُ ليصحَّ التعليق، فإنَّه مختصٌّ بأفعال القلوبِ خلافاً ليونُس.

وقال الطِّيبيّ: لا بدَّ من تقدير حرفِ الجرّ؛ لأنَّ حَرَصَ يتعدَّى بـ: على، كقوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ [النحل: ٣٧] ولا بدَّ من تأويل الإنشاء بأنْ يقال: يحرصون على ما يقال فيه: أيُّهم أقربُ إلى اللهِ تعالى بسببه من الطَّاعة، ويتعلَّق حينئذٍ قولُه تعالى: «إلى ربهم» بـ «أقرب». وهو كما ترى.

وقال صاحبُ «الكشف» في تحقيق هذا الوجه: إنَّ المطالبَ إذا كانت مشترَكة، اقتضت التسارعَ إليها في العادة، وهو نفسُ الحرص، أو ما لا ينفكُّ عنه، فناسبَ أن يضمَّن الابتغاءُ معنى الحرص، لا سيَّما وبعده استفهامٌ لا يَحسُن موقعُه دون تضمينِه؛ لأنَّ قولك: أيُّهم أقربُ إلى فلانٍ بكذا، سؤالٌ عن مميِّز أحدِهم عن الباقين بما يتقرَّب به زيادةَ فضيلةٍ مع الاستواءِ في أصل التقرُّب، فإذا ورد استئنافاً بعد فعلٍ صالحٍ لأن يكونَ معلولَه، وجب تقديرُه، ذلك لأنَّك إذا قلت: هؤلاء يَحرصون على الهدى، كان كلاماً جارياً على الظاهر، وإذا قلت: هؤلاء يَحرصون أيُّهم يكون أَهدَى، أفاد أنَّ حرصَهم ذلك على الهدى مع مغالبة بعضِهم بعضاً فيه، فيكونُ أتمَّ في وصفهم بالحِرص عليه.

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٥٤.

ووجه الإفادة أنَّه تعقيبُه على وجهِ التعليل، وكأنَّ كلَّ واحدٍ يسأل نفسَه: أهو أهدَى أم غيرُه؟ أي: هو أشدُّ حرصاً عليه أم غيرُه؟ إذ لا معنى لهذا السؤالِ عن النفس إلَّا الحثُّ وتعرُّفُ أنَّ ثمَّتَ تقصيراً في ذلك أو لا، وعلى هذا لو قلت: يحرصون على الهدى أيُّكم يكون أهدى، عُدَّ مستهجناً؛ لأنَّ الاستئناف سدَّ مسدَّ صلتِه، كما في: أمرته فقام، و: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ﴾ [يونس: ٩٩] و: ودَّ لو أنَّه أحسن، وكم وكم. فعلى هذا الطلبُ واقعٌ على الوسيلة، وهي الطاعة، والحرصُ على الأقربية بها والازديادِ منها، ولا يمكن أن يُستغنَى عن يحرصون بإجراء «أيهم أقرب» مُجرى التعليلِ لـ «يبتغون» على ما أُشير إليه؛ لأنَّ «أيهم أقرب» لا يصلُح جواباً فارقاً بين الطالبين وغيرِهم، إنَّما هو فارقٌ بين الطالبين - أعني المتقرِّبين - بعضهم مع بعض، وهو يناسب الحرصَ والشَّغَف، ولأن صلَة الطلب - أعني الوسيلةَ - مذكورة، وقد عرفتَ أنَّ الاستئنافَ مغنٍ عن ذلك، والجمعُ مستهجَن. اهـ.

ولَعَمري لم يُبقِ في القوس مَنزِعاً في تحقيقه، لكنَّ الوجهَ مع هذا متكلَّف. وجوَّز الحوفيُّ والزجَّاج[1] أن يكونَ «أيهم أقرب» مبتدأ وخبر، والجملةُ في محلِّ نصبٍ بينظرون، أي: يفكرون، والمعنى: ينظرون أيُّهم أقربُ فيتوسَّلون به، وكأنَّ المرادَ: يتوسَّلون بدعائه، وإلَّا ففي التوسُّل بالذَّوات ما فيه.

وتعقَّب ذلك في «البحر»[2] بأنَّ في إضمار الفعلِ المعلَّق نظراً، ومع ذا هو وجهٌ غيرُ ظاهر.

وجوَّز أبو البقاءِ[3] كونَ «أيهم أقرب» جملةً استفهاميةً في موضع نصبٍ بـ «يدعون»، وكونَ «أيُّ» موصولةً بدلاً من ضمير «يدعون».

وتعقَّب الأوَّلُ بأنَّ فيه تعليقَ ما ليس بفعل قلبيّ، والجمهورُ على منعه، وأما الثاني فقال أبو حيَّان[4]: فيه الفصلُ بين الصِّلة ومعمولِها بالجملة الحاليَّة،

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٦.
(٢) ٦/ ٥٢.
(٣) في الإملاء ٣/ ٤٨٦.
(٤) في البحر ٦/ ٥٢.

لكنه لا يَضُرّ؛ لأنَّها معمولةٌ للصلة. وأنت إذا نظرتَ في المعنى على هذا لم ترضَ أن تحملَ الآيةَ عليه.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ﴾ عطفٌ على «يبتغون»، أي: يبتغون القُربةَ بالعبادة ويتوقَّعون ﴿رَحْمَتَهُۥ﴾ تعالى ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ كدأب سائرِ العباد، فأين هم مِن مُلك كشفِ الضُّرِّ فضلاً عن كونهم آلهة؟

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ حقيقاً بأن يحذرَه ويحترزَ عنه كلُّ أحدٍ من الملائكة والرُّسلِ عليهم السلام وغيرِهم. والجملةُ تعليلٌ لقوله سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ وفي تخصيصه بالتعليل زيادةُ تحذيرٍ للكَفَرة من العذاب.

وتقديمُ الرجاءِ على الخوف لِمَا أنَّ متعلَّقه أسبقُ من متعلَّقه، ففي الحديث القدسيّ: «سَبَقَت رحمتي غضبي»[1]، وفي اتِّحاد أسلوبَي الجملتين إيماءٌ إلى تساوي رجاءِ أولئك الطالبين للوسيلة إليه تعالى بالطاعة والعبادةِ وخوفِهم، وقد ذكر العلماءُ أنَّه ينبغي للمؤمن ذلك ما لم يحضُرْه الموت، فإذا حضره الموتُ ينبغي أن يغلِّب رجاءه على خوفه.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ رجاءَ الرحمةِ وخوفَ العذاب ممَّا لا يُخلُّ بكمال العابد، وشاع عن بعضِ العابدين أنَّه قال: لست أَعبدُ اللهَ تعالى رجاء جنَّتِهِ ولا خوفاً من ناره. والناسُ بين قادحٍ لمن يقول ذلك ومادح، والحقُّ التفصيل، وهو أنَّ مَن قاله إظهاراً للاستغناء عن فضل اللهِ تعالى ورحمتِهِ، فهو مخطئٌ كافر، ومَن قاله لاعتقاد أنَّ الله عزَّ وجلَّ أهلٌ للعبادة لذاته، حتى لو لم يكن هناك جنةٌ ولا نارٌ لَكان أهلاً لأن يُعبَد، فهو محقِّق عارفٌ كما لا يخفى.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ الظاهرُ العموم؛ لأنَّ «إنْ» نافية، و«مِن» زائدةٌ لاستغراقِ الجنس، أي: وما مِن قريةٍ من القرى ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإماتة أهلِها حتفَ أنوفهم ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالقتل وأنواعِ البلاء. ورُوي هذا عن مقاتل، وهو ظاهرُ ما رُوي عن مجاهد، وإليه ذهب الجبَّائيُّ وجماعة. ورُوي عن الأوَّل أنه قال: الهلاكُ للصالحة، والعذابُ للطالحة. وقال أيضاً: وجدتُ في

(١) سلف ١/ ١١٤.

كتاب الضحَّاك بنِ مزاحم في تفسيرها: أمَّا مكةُ فتخرِّبها الحبشة، وتهلك المدينةُ بالجوع، والبصرةُ بالغرق، والكوفةُ بالتُّرك، والجبالُ بالصواعق والرَّواجف، وأمَّا خراسانُ فهلاكُها ضروب، ثمَّ ذكر بلداً بلداً.

ورُوي عن وهب بن منبِّه أنَّ الجزيرةَ آمنةٌ من الخراب حتى تخربَ إرمينية، وإرمينيةُ آمنةٌ حتى تخربَ مِصر، ومصرُ آمنةٌ حتى تخربَ الكوفة، ولا تكون الملحمةُ الكبرى حتى تخربَ الكوفة، فإذا كانت الملحمةُ الكبرى فُتحت قُسطَنطِينية على يد رجلٍ من بني هاشم، وخرابُ الأندلسِ من قِبلَ الزّنج، وخراب إفريقيةَ من قِبَل الأندلس، وخرابُ مصرَ من انقطاع النيلِ واختلافِ الجيوشِ فيها، وخرابُ العراقِ من الجوع، وخرابُ الكوفةِ من قبل عدوٍّ يَحصرهم ويمنعهم الشُّربَ من الفرات، وخرابُ البصرةِ من قِبَل العراق[1]، وخرابُ الأُبُلَّة من عدوٍّ يَحصرهم برًّا وبحراً، وخراب الرِّيِّ من الديلم، وخرابُ خراسانَ من قِبَل النبت[2]، وخراب النبت[2] من قبل الصِّين، وخراب الهندِ واليمنِ من قِبَل الجرادِ والسُّلطان، وخرابُ مكةَ من الحبشة، وخراب المدينةِ من قِبَل الجوع.

وعن أبي هريرةَ ﵁ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «آخِرُ قريةٍ من قرى الإِسلام خراباً المدينة» كذا نقله العلَّامة أبو السُّعود[3]، وما في كتاب الضحَّاك، وكذا ما رُوي عن وهبٍ لا يكاد يُعوَّل عليه، وما رُوي عن أبي هريرَة مقبول، وقد رواه عنه بهذا اللفظِ النَّسائيُّ، ورواه أيضاً الترمذيُّ بنحوه وقال: حسنٌ غريب[4]، ورواه أبو حيَّان[5] بلفظ: «آخِرُ قريةٍ في الإِسلام خراباً المدينة».

وفي «البحور الزاخرة» أنَّ سببَ خرابِها أنَّ بعضَ أهلِها يخرجون مع المهديِّ إلى الجهاد، ثم تَرجُف بمنافقيها وتَرميهم إلى الدجَّال، ويهاجر بعضُ المخلصين

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب الغرق، كما في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٨٠، ونسخة في هامش السنن الواردة في الفتن(٤٥٦)، والخبر مخرج فيه.

(٢) كذا في (م)، وفي الأصل: المنبت، والصواب: التبت، كما في إرشاد العقل السليم، والسنن الواردة في الفتن.

(٣) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٨٠.

(٤) سنن الترمذي (٣٩١٩)، ولم نقف عليه عند النسائي.

(٥) لعله أراد أن يكتب ابن حبان فسها به قلمه، فالحديث في صحيحه (٦٧٧٦) بلفظ المصنف.

إلى بيت المقدسِ عند إِمامهم، ومَن بقي منهم تَقبِضُ الريحُ الطيِّبة روحَه، فتبقَى خاوية.

ويأبى كونَها سببُ خرابها الجوعُ - حَسبما سمعتَ عن الضحَّاك وابنِ منبِّه - ظاهرُ ما أخرجه الشيخان[1]: «لتُتركنَّ المدينةُ على خيرِ ما كانت، مذلَّلة ثمارُها، لا يغشاها إلَّا العوافي - الطيرُ والسِّباع - وآخِر مَن يُحشر راعيان من مُزَينة..» الحديثَ.

وأخرج الإمام أحمدُ[2] بسندٍ رجالُه ثقات: «المدينةُ يتركها أهلُها وهي مُرطِبة» قالوا: فمَن يأكلها؟ قال: «السِّباعُ والعوافي».

وما ذُكر من أنَّ مكةَ تخرِّبها الحبشةُ ثابتٌ في الصحيحين وغيرِهما، لكن بلفظ: «يخرِّب الكعبةَ ذو السُّويقتين من الحبشة»[3]، وفي حديثِ حذيفةَ مرفوعاً: «كأنِّي أنظر إلى حبشيٍّ أحمرِ الساقين، أزرقِ العينين، أفطسِ الأنف، كبيرِ البطن، وقد صفَّ قدميه على الكعبةِ هو وأصحابٌ له، يَنقضونها حجراً حجراً، ويتداولونها بينهم حتى يطرحوها في البحر»، وفي حديثِ أحمدَ[4] عن أبي هريرةَ أنَّه تجيءُ الحبشةُ فيخرِّبونه، أي: البيت، خراباً لا يعمر بعده أبداً.

نعم اختُلف في أنَّه متى يكون ذلك؟ فقيل: زمنَ عيسى عليه السلام. وقيل: حينَ لا يبقى على الأرض مَن يقول: الله، وهو آخرُ الآيات. ومال إلى ذلك السَّفاريني، وظاهرُ ما تقدَّم في المدينة من الأخبار بأنَّها آخرُ قرى الإِسلام خراباً يقتضي أنَّ خرابَ مكةَ قبلها، واللهُ تعالى أعلم.

وما ذُكر في خبر ابنِ منبِّه من أنَّ مصرَ آمنةٌ حتى تخربَ الكوفةُ - إن صحَّ - يقتضي أنَّ الكوفةَ تُعمَر ثم تخرب، وإلَّا فهي قد خربت منذ مئاتٍ من السنين وبقيت إلى الآن خراباً، ومصرُ آمنةٌ عامرةٌ على أحسنِ حالِ اليوم، وبِعمارتها - حَسبما يقتضيه

(١) صحيح البخاري (١٨٧٤)، وصحيح مسلم (١٣٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في مسنده (١٤٥٥٧) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٣) صحيح البخاري (١٥٩١)، وصحيح مسلم (٢٩٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) في مسنده (٧٩١٠).

الخبرُ ـ جاءت آثارٌ عديدةٌ، كما لا يخفَى على مَن طالع الكتبَ المؤلَّفة في أمارات الساعةِ وأخبارِ المهديِّ والسُّفياني، إلَّا أنَّ في أكثرها للمنقِّر مقالاً. وزعم البونيُّ وأَضرابُه أنَّها تعمر في أواخر القرنِ الثالثَ عشر، وقد أخذوا ذلك من كلام الشيخ محيي الدين قدِّس سرُّه. وأنتَ تعلم أنه أشبهُ شيءٍ بالهندية، ولا يكاد يُعدُّ من اللغة العربية.

وما ذُكر من أنَّ خرابَ العراقِ من الجوع يعمُّ بغدادَ؛ فإنَّها قاعدته.

وقال القاضي عياضٌ في «الشِّفا»(١): رُوي أنَّه ﷺ قال: «تُبنَى مدينةٌ بين دجلة ودُجَيل وقُطْرُبُلَّ والصَّرَاة، تنتقل إليها الخزائن، يُخسَف بها»(٢) يعني بغداد. وهذا صريحٌ في أنَّ هلاكَها بالخسف لا بالجوع، لكن ذكر المحدِّثون أنَّ في سند الخبرِ مجهولاً.

ثم الظاهرُ ـ على هذا التفسير ـ أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ إلخ مقيَّد بمثل ما قيِّد به المعطوفُ عليه، فيكون كلٌّ من الإهلاك والتعذيبِ قبل يومِ القيامة، أي: في الزمان القريبِ منه. وقد شاع استعمالُ ذلك بهذا المعنى، وستسمعه قريباً إن شاء اللهُ تعالى في الحديث، وإنكارُه مكابرةٌ غيرُ مسموعة، وكأنَّه سبحانه بعد أنْ ذكر من شأن البعثِ والتوحيدِ ما ذكر، ذكر بعضَ ما يكون قبلَ يومِ البعث ممَّا يدلُّ على عظمتِه سبحانه، وفيه تأييدٌ لما ذكر قبله، وقد صحَّ أنَّه بعد موتِ عيسى عليه السلام تجيءُ ريحٌ باردة من قِبَل الشام، فلا تُبقي على وجه الأرضِ أحداً في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من إيمانٍ إلَّا قبضته، فيبقى شرارُ الناسِ، وعليهم تقومُ الساعة(٣).

وجاء في غيرِ ما خبرٍ ما يصيب الناسَ قبل قيامِها من العذاب، فمن ذلك ما أخرجه الطبرانيُّ وابنُ عساكرٍ(٤) عن حذيفةَ بن اليمان ﷺ: «لتَقصدنَّكم نارٌ هي اليومَ خامدةٌ في وادٍ يقال له: بَرَهُوت، يغشى الناسَ فيها عذابٌ أليم، تأكل الأنفُسَ

---

(١) ٧٠٣/١/١.

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه ٢٨/١، وابن عدي في الكامل ١٧٢٦/٥ وقال: هذا حديث منكر.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٤) بنحوه.

(٤) في تاريخه ٢٦٧/٦٤، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية ١٩٢/٥، ولم نقف عليه عند الطبراني.

والأموال، تدور الدنيا كلَّها في ثمانيةِ أيام، تطير طيرانَ الريحِ والسَّحاب، حرُّها بالليل أشدُّ مِن حرِّها بالنهار، ولها بين السماءِ والأرض دويٌّ كدويِّ الرعدِ القاصف» قيل: يا رسول الله، أسليمةٌ يومئذٍ على المؤمنين والمؤمنات؟ قال: «وأين المؤمنون والمؤمنات؟ الناسُ يومئذٍ شرٌّ من الحُمُر، يتسافدون كما يتسافد البهائمُ، وليس فيهم رجلٌ يقول: مَه مَه» إلى غير ذلك من الأَخبار.

ولا يَبعُد بَعْدَ أن اعتُبر العمومُ في القرية حملُ الإِهلاك والتعذيبِ على ما تضمَّنته تلك الأَخبارُ مِن إِماتة المؤمنين بالرِّيح وتعذيبِ الباقين من شِرار الناسِ بالنار المذكورة، وصحَّ أنَّها تسوقهم إلى المحشر، وورد أنَّهم يتَّقون بوجوههم كلَّ حدبٍ وشوك، وأنَّه تُلقَى الآفةُ على الظَّهر حتى لا تبقَى ذاتُ ظهر، حتى إنَّ الرجل لَيعطي الحديقةَ المعجبةَ بالشارف ذاتِ القَتَب ليفرَّ عليها.

وكونُ ذلك قبلَ يومِ القيامة هو المعوَّلُ عليه، وقد اعتمده الحافظُ ابن حجر[1]، وصوَّبه القاضي عِياض، وذهب إليه القرطبيُّ والخطَّابي، وجاء مصرَّحاً به في بعض الأَحاديث، فقد أخرج الإِمامُ أحمدُ والترمذيُّ[2] - وقال: حسنٌ صحيح - عن ابن عمرَ رضي الله عنهما مرفوعاً: «ستخرج نارٌ من حَضْرَمَوت، أو من بحرِ حضرموت، قبلَ يومِ القيامةِ تحشر الناس...» الحديثَ. ولا يَبعُد أن يعذَّبوا بغير ذلك أيضاً، بل في الآثار ما يقتضيه.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من الإهلاكِ والتعذيب ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في اللَّوح المحفوظ، كما رُوي عن إبراهيمَ التيميِّ وغيرِه ﴿مَسْطُورًا ۝٥٨﴾ مكتوباً. وذكر غيرُ واحدٍ أنَّه ما من شيءٍ إلا بيِّن فيه بكيفيَّاته وأسبابِه الموجِبة له ووقتِه المضروبِ له.

واستُشكل العمومُ بأنَّه يقتضي عدمَ تناهي الأَبعاد، وقد قامت البراهينُ النقليةُ والعقليةُ على خلافِ ذلك، فلا بدَّ أن يقالَ بالتخصيص، بأن يحملَ الشيءُ على ما يتعلَّق بهذه النشأةِ أو نحوِ ذلك.

وقال بعضُهم بالعموم، إلَّا أنَّه التزم كونَ البيانِ على نحوٍ يجتمع مع التَّناهي،

---

(١) في فتح الباري ١١/ ٣٨١.

(٢) مسند أحمد (٤٥٣٦)، وسنن الترمذي (٢٢١٧).

فاللوحُ المحفوظ في بيانه جميع الأشياءِ الدنيويةِ والأُخروية وما كان وما يكون، نظيرُ الجفرِ الجامعِ في بيانه لما يبيِّنه، وقد رأيتُ أنا صحيفةً للشيخ الأكبرِ قدِّس سرُّه ادَّعى أنَّه يعلم منها ما يقع في أرض المحشرِ يومَ القيامة، وأخرى ادَّعى أنَّه يعلم منها أسماءَ أهلِ الجنةِ والنارِ وأسماءَ آبائهم، وأخرى ادَّعى أنَّه يعلم منها الحوادثَ التي تكون في الجنة. وقَبولُ هذه الدعاوى وردُّها مفوَّض إليك.

وفسَّر بعضُهم «الكتابَ» بالقضاء السابق، ففي الكلام تجوُّز لا يخفى.

هذا وذهب أبو مسلمٍ إلى أنَّ المراد: ما من قريةٍ من قرى الكفَّار، واختاره المولى أبو السُّعود[1]، وجَعَلَ الآيةَ بياناً لتحتُّم حلولِ عذابِه تعالى بمَن لا يحذره إثرَ بيانِ أنَّه حقيقٌ بالحذر، وأنَّ أساطينَ الخلقِ من الملائكة والنبيِّين عليهم السلام على حَذَرٍ من ذلك. وذَكَرَ أنَّ المعنى: ما مِن قريةٍ من قرى الكفَّارِ إلَّا نحن مخربوها البتَّةَ بالخسف بها، أو بإهلاك أهلِها بالمرَّة لِمَا ارتكبوا من عظائم الموبقاتِ المستوجبةِ لذلك، أو معذِّبو أهلِها عذاباً شديداً لا يُكتنَه كُنهُه، والمراد به ما يعمُّ البلايا الدنيويةَ من القتل والسَّبي ونحوهما، والعقوباتِ الأخرويةَ ممَّا لا يعلمه إلَّا اللهُ تعالى، حَسبما يُفصح عنه إطلاقُ التعذيب عمَّا قيِّد به الإهلاكُ من قَبْلية يومِ القيامة، ولا يخصُّ بالبلايا الدنيوية، كيف وكثيرٌ من القرى العاتيةِ العاصيةِ قد أُخِّرت عقوبتُها إلى يوم القيامة؟ ثم إنَّه يحتمل أن يقال في وجه الرَّبطِ على تقدير التخصيص: إنَّه سبحانه بعد أن أشار إلى أنَّ الكفرةَ المخاطَبين في بلاءٍ وضُرّ، وأنَّ آلهتهم لا يملكون كشفَ ذلك عنهم ولا تحويلَه، أشار إلى أنَّ مثلَ ذلك لا بدَّ وأن يصيبَ الكفرة، ولا يملك أحدٌ كشفَه ولا تحويلَه عنهم. وهذا ظاهرٌ بناءً على ما تقدَّم عن البعض في سبب النزولِ الذي بسببه فسِّر الضُّرُّ بالقحط، فتأمَّل.

وفي اختيار صيغةِ الفاعل في الموضعين ـ وإنْ كانت بمعنى المستقبل ـ من الدَّلالة على التحقُّق والتقرُّر ما فيه. والتقييدُ بيوم القيامة؛ لأنَّ الإهلاكَ يومئذٍ غيرُ مختصٍّ بالقرى الكافرة، ولا هو بطريق العقوبة، وإنَّما هو لانقضاء عُمْرِ الدنيا.

ثم قال: إنَّ تعميمَ القريةِ لا يساعده السِّياق ولا السِّباق. اهـ. وفيه تأمُّل.

---

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٧٩.

ومن الناس مَن رجَّحه على ما سبق بأنَّ فيه حملَ الإِهلاك على ما يتبادر منه، وهو ما يكونُ عن عقوبة، ولا كذلك فيما سبق.

وأُجيب بأنَّ ذلك سهل، فقد استُعمل في مقام التخويفِ فيما لم يكن عن عقوبة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الآياتِ التي اقترحتها قريش، فقد أَخرج أحمدُ، والنسائيّ، والحاكمُ وصحَّحه، والطبرانيّ[1]، وغيرُهم عن ابن عباسٍ قال: سأل أهلُ مكةَ النبيَّ ﷺ أن يجعلَ لهم الصَّفا ذهباً، وأن ينحِّيَ عنهم الجبالَ فيزرعوا، فقيل له: إن شئتَ أن تستأنيَ بهم، وإن شئت أن تؤتيَهم الذي سألوا، فإنْ كفروا أُهلكوا كما أُهلكت مَن قبلهم من الأمم، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا، بل أستأني بهم» فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية.

و«أنْ» وما بعدها في تأويل مصدرٍ منصوبٍ على أنَّه مفعولُ منع، على ما صرَّح به الطَّبرسي[2].

أو منصوبٌ بنزع الخافض ـ كما قيل ـ لتعدِّي الفعلِ إلى مفعوله الثاني بالحرف، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ [النساء: ١٤١] أي: وما منعنا الإِرسالَ أو من الإِرسال بالآيات ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا﴾ أي: بجِنسها ﴿ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ من الأُمم السابقةِ المقترِحة.

والاستثناءُ مفرَّغ من أعمِّ الأشياء، و«أنْ» وما بعدها في تأويل مصدرٍ فاعل منع، أي: ما منعنا شيءٌ من الأشياء إلَّا تكذيبُ الأوَّلين. وزعم أبو البقاءِ[3] أنَّه على تقديرِ مضاف، أي: إلَّا إهلاكُ تكذيبِ الأوَّلين، ولا حاجةَ إليه عند الآخرين.

والمنعُ لغةً: كفُّ الغير وقَسْرُه عن فعلٍ يريد أن يفعلَه، ولاستحالة ذلك في حقِّه سبحانه لاستلزامه العجزَ المحالَ المنافيَ للرُّبوبية قالوا: إنَّه هنا مستعارٌ للصَّرف، وأنَّ المعنى: وما صرفنا عن إرسال الآياتِ المقترَحة إلَّا تكذيبُ الأوَّلين المقترِحين المستتبعُ لاستئصالهم، فإنَّه يؤدِّي إلى تكذيب الآخِرين المقترحين بحكم اشتراكِهم

---

(١) مسند أحمد (٢٣٣٣)، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٢٦)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٣٦٢، والمعجم الكبير (١٢٧٣٦).

(٢) في مجمع البيان ١٥/ ٦٤.

(٣) في الإملاء ٣/ ٤٨٧.

في العُتوِّ والعناد، وهو مُفضٍ إلى أن يَحلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بهم بحكم الشَّركة في الجريرة والفساد، وجريانِ السنَّة الإلهية والعادةِ الربَّانية بذلك، وفعلُ ذلك بهم مخالفٌ لِمَا كُتب في لوح القضاءِ بمداد الحكمةِ من تأخير عقوبتهم، وحاصلُه: إنَّا تركنا إرسالَ الآياتِ لسبق مشيئتنا تأخيرَ العذابِ عنهم لحِكَمٍ نعلمها.

واستشعر بعضُهم من الصَّرف نوعَ محذورٍ، فجعل المنعَ مجازاً عن التَّرك.

وتعقَّب بأنَّه لا يصحُّ مع كون الفاعلِ التكذيب؛ لأنَّ التاركَ هو اللهُ تعالى.

وأُجيب بأنَّ دعوى لزومِ اتِّحاد الفاعلِ في المعنى الحقيقيِّ والمستعارِ له ممَّا لم يَقُمْ عليه دليل، بل الظاهرُ خلافه.

وذكر بعض المحقِّقين ـ ولله تعالى أبوه وإنْ نوقش ـ أنَّ تكذيبَ الأوَّلين المستتبعَ للاستئصال، والمستلزمَ لتكذيب الآخِرين المفضي لحلول الوبال، منافٍ لإرسال الآياتِ المقترَحة؛ لتعيُّن التكذيبِ المستدعي لِمَا ينافي الحكمةَ في تأخير عقوبةِ هذه الأمَّة، فعبَّر عن تلك المنافاةِ بالمنع على نهجِ الاستعارة، إيذاناً بتعاضُد مبادي الإرسال، لا كما زعموا من عدم إرادته تعالى لتأييد رسولِه ﷺ بالمعجزات، وهو السرُّ في إيثار الإرسال على الإيتاء؛ لمَا فيه من الإشعار بتداعي الآياتِ إلى النزول لولا أن تُمسكَها يدُ التقدير.

وإسنادُ المنعِ إلى تكذيب الأوَّلين لا إلى عِلمه تعالى بما سيكون من المقترِحين الآخِرين كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] لإقامة الحجَّة عليهم بإبراز الأُنموذج، وللإيذان بأنَّ مدارَ عدم الإجابة إلى إيتاءِ مقترَحهم ليس إلَّا صنيعُهم.

ثم حكمةُ التأخيرِ، قيل: إظهارُ مزيدِ شرف النبيِّ ﷺ. وقيل: العنايةُ بمَن سيولد من بعضِهم من المؤمنين وبمَن سيؤمن منهم. وينبغي أن يزادَ في كل إلى غير ذلك مثلاً، وإلَّا فلا حصر.

وقيل: معنى الآية: إنَّا لا نرسلُ الآياتِ المقترحةَ لِعلمنا بأنَّهم لا يؤمنون عندَها كما لم يؤمن بها مَن اقترحوها قبلَهم، فيكون إرسالُها عبثاً لا فائدةَ فيه، والحكيمُ لا يفعله.

وأنتَ تعلم أنَّه إذا كان إرسالُ المقترَح إذا لم يؤمِنْ عنده المقترِح عبثاً لا يفعله الحكيمُ، أَشكلَ فِعلُه من أوَّل مرَّة، على أنَّ ما رُوي في سبب النزولِ يقتضي التفسيرَ الأوَّل كما لا يخفَى، وفسِّرت الآياتُ بالمقترَحة؛ لأنَّ ما بها إثباتُ دعوى الرسالةِ من مقتضيات الإرسال، وما زاد على ذلك ولم يكن عن اقتراحٍ لطفٌ من المَلِك المتعال.

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ عطفٌ على ما يُفصح عنه النظمُ الكريم، كأنَّه قيل: وما منعنا أن نُرسلَ بالآيات إلَّا أن كذَّب بها الأوَّلون حيث آتيناهم ما اقترحوا على أنبيائهم عليهم السلامُ من الآيات الباهرةِ فكذَّبوها، وآتينا ثمودَ الناقةَ باقتراحهم على نبيِّهم صالحٍ عليه السلام، وأخرجناها لهم من الصَّخرة ﴿مُبْصِرَةً﴾ على صيغة اسمِ الفاعل، حالٌ من الناقة. والمراد: ذاتَ إبصار، أو ذات بصيرةٍ يُبصِرها الغير ويتبصَّر بها، فالصيغةُ للنَّسب. أو جاعلةً الناسَ ذوي بصائر، على أنَّه اسمُ فاعل مِن أبصَرَه، والهمزةُ للتعدية، أي: جعله ذا بصيرةٍ وإدراك، ويحتمل أن يكونَ إسنادُ الإبصار إليها مجازاً، وهو في الحقيقة حالُ مَن يشاهدها.

وقرأ قوم: «مُبْصَرَةً» بزنة اسم المفعول[1]، أي: يُبصرها الناس. ولا خفاءَ في ذلك.

وقرأ قتادة: «مَبْصَرةً» بفتح الميمِ والصاد[2]، أي: محلَّ إبصار، بجعل الحاملِ على الشيءِ بمنزلة محلِّه، نحو: «الولدُ مَبخَلَة مَجبَنَة»[3].

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «مُبصِرةٌ» بزنة اسم الفاعلِ والرفعِ[4] على إضمار مبتدأ، أي: هي مُبصِرة.

وقرأ الجمهور: «ثمود» ممنوعاً من الصرف. وقال هارون: أهل الكوفة ينوِّنون في كلِّ وجه، وقال أبو حاتم: لا تنوِّن العامَّة والعلماء بالقرآن «ثمود» في وجهٍ من الوجوه، وفي أربعة مواطنَ أَلِفٌ مكتوبة، ونحن نقرؤه بغير ألف. اهـ.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٥٣.
(٢) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر المحيط ٦/ ٥٣.
(٣) سلف ٤/ ٦١.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٥٣.

وهو- كما قال الراغب(١) - عجمي. وقيل: عربي، وتركُ صرفِه لكونه اسمَ قبيلة. وهو فعولٌ من الثَّمد، وهو الماءُ القليلُ الذي لا مادَّةَ له، ومنه قيل: فلانٌ مثمودٌ ثَمَدَتْه النساءُ، أي: قطعن مادةَ مائه لكثرة غشيانِه لهنَّ، ومثمود، إذا كَثُرَ عليه السُّؤَّالُ حتى نفدت مادَّةُ مالِه.

وصحَّح كثيرٌ عربيَّته، أي: آتينا تلك القبيلةَ الناقةَ ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ أي: فكفروا بها وجحدوا كونَها من عند اللهِ تعالى لتصديق رسولِه. أو: فكفروا بها ظالمين، أي: لم يكتفوا بمجرَّد الكفرِ بها، بل فعلوا بها ما فعلوا من العَقر. أو ظلموا أنفسَهم وعرَّضوها للهلاك بسبب عَقرِها.

ولعلَّ تخصيصَ إيتائها بالذِّكر لِمَا أنَّ ثمودَ عربٌ مثلُ أهلِ مكَّة المقترِحين، وأنَّ لهم من العلم بحالهم ما لا مزيدَ عليه، حيث يشاهدون آثارَ هلاكِهم؛ لقُرب ديارِهم منهم وروداً وصدوراً. وجوِّز أن يكونَ ذلك لأنَّ الناقةَ من جهة أنَّها حيوانٌ أُخرج من الحجر أوضحُ دليلٍ على تحقُّق مضمونِ قولِه تعالى: (قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا) إلخ. والأوَّل أقرب.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ أي: لمن أُرسلت عليهم، والمرادُ بها إمَّا المقترَحة، فالتخويفُ بالاستئصال لإنذارها به في عادة اللهِ تعالى، أي: ما نُرسلها إلَّا تخويفاً من العذاب المستأصِل كالطَّليعة له، فإنْ لم يخافوا فُعل بهم ما فُعل، وإمَّا غيرُها، كآيات القرآنِ والمعجزات، فالتخويفُ بعذاب الآخرةِ دون العذابِ الدنيويِّ بالاستئصال، أي: ما نُرسلها إلَّا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة.

واستظهر أبو حيَّان(٢) كونَ المرادِ بها الآياتِ التي معها إمهال، كالخسوف والكسوفِ، وشدَّةِ الرعد والبرقِ، والرِّياح والزَّلازل، وغَور ماءِ العيون وزيادتِها على الحدِّ حتى يغرقَ منها بعضُ الأَرَضين. وعدَّ الحسنُ من ذلك الموتَ الذَّريع، أي: ما نُرسلها إلَّا تخويفاً مما هو أعظمُ منها.

أَخرج ابن جَرير(٣) عن قتادةَ قال: إنَّ اللهَ تعالى يخوِّف الناسَ بما شاء من آياته لعلَّهم يُعتِبون، أو يذَّكَّرون ويرجعون.

---

(١) في المفردات (ثمد).

(٢) في البحر ٦/ ٥٣.

(٣) في تفسيره ١٤/ ٦٣٨.

وذكر ابنُ عطيةَ[1] أنَّ آياتِ اللهِ تعالى المعتَبَر بها ثلاثةُ أقسام: قسمٌ عامٌّ في كلِّ شيءٍ:

فـفـي كـلِّ شـيءٍ لـه آيـة تـدلُّ عـلـى أنَّـه واحـدُ[2]

وهناك فِكرةُ العلماء. وقسمٌ معتاد، كالرَّعد والكسوف، وهناك فكرةُ الجَهَلة. وقسمٌ خارقٌ للعادة، وقد انقضى بانقضاءِ النبوَّة، وإنَّما يُعتبر اليومَ بتوهُّم مثلِه وتصوُّره. اهـ.

وفيه غفلةٌ عن الكرامة، فإنَّ أهل السنَّة يُثبتونها للوليِّ في كلِّ عصر.

والجملةُ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب. وجوِّز على الوجه الأوَّل أن تكونَ حالاً من ضميرِ «ظلموا»، أي: فظلموا بها ولم يخافوا العاقبةَ والحالُ أنَّا ما نُرسل بالآيات التي هي مِن جملتها إلَّا تخويفاً من العذاب الذي يعقبها، فنزل بهم ما نزل.

ونصب «تخويفاً» على أنه مفعولٌ له. وجوِّز أن يكونَ حالاً، أي: مخوِّفين، والباءُ في الموضعَين سيفُ خطيب[3]، و«الآيات» مفعولُ «نرسل»، أو للملابسة والمفعولُ محذوف، أي: ما نرسل نبيًّا ملتبساً بها، وقيل: إنَّها للتعدية، وإنَّ «أرسل» يتعدَّى بنفسه وبالباء. ورُدَّ بأنَّه لم يُنقَل عن أحدٍ من الثِّقات، قال الخفاجي[4]: ولا حجَّةَ في قولِ كثيِّر[5]:

لقد كذب الواشون ما بُحتُ عندهم بـسـرٍّ ولا أَرسـلـتـهـم بـرسـولِ

لاحتمال الزيادةِ فيه أيضاً، مع أنَّ الرسولَ فيه بمعنى الرِّسالة، فهو مفعولٌ مطلق، والكلامُ في دخولها على المفعول به، ولا يخفَى أنَّ جعلَ الرسولِ مفعولاً به وزيادة الباءِ فيه ممَّا لا يُقدِم عليه فاضل.

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: واذكُر زمانَ قولِنا بواسطة الوحي ﴿لَكَ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي: علماً، كما رواه غيرُ واحدٍ عن ابن عباس ﵄، فلا يخفَى عليه

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٧.

(٢) سلف ١/ ٢٧١.

(٣) أي: زائدة للتوكيد.

(٤) في حاشيته ٦/ ٤٤.

(٥) ديوانه ص٢٧٨، وسلف ٢/ ٣٤١.

سبحانه شيءٌ من أحوالهم وأفعالِهم الماضيةِ والمستقبلةِ من الكفر والتكذيب.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية، تنبيهٌ على تحقُّقها بالاستدلال عليها بما صدر عنهم عند مجيءِ بعض الآيات؛ لاشتراك الكلِّ في كونها أموراً خارقةً للعادات، منزلةً من جناب ربِّ العزَّة جلَّ مجدُه لتصديق رسولِه عليه الصلاة والسلام، فتكذيبُهم ببعضها يدلُّ على تكذيب الباقي، كما أنَّ تكذيبَ الأوَّلين بغير المقترَحة يدلُّ على تكذيبهم بالمقترَحة.

والمرادُ بـ «الرؤيا» ما عاينه ﷺ ليلةَ أُسري به من العجائب السماويةِ والأرضية، كما أَخرجه البخاريُّ والترمذيُّ والنسائيُّ وجماعةٌ عن ابن عباس[1]، وهي عند كثيرٍ بمعنى الرؤيةِ مطلقاً، وهما مصدرُ رأى، مثل: القُربى والقَرابة.

وقال بعض: هي حقيقةٌ في رؤيا المنامِ ورؤيا اليقظةِ ليلاً.

والمشهورُ اختصاصُها لغةً بالمناميَّة، وبذلك تمسَّك مَن زعم أنَّ الإسراءَ كان مناماً، وفي الآية ما يردُّ عليه، والقائلون بهذا المشهورِ الذاهبون إلى أنَّه كان يقظة ـ كما هو الصحيح ـ قالوا: إنَّ التعبيرَ بها إمَّا مشاكلةً لتسميتهم له رؤيا، أو جارٍ على زعمهم كتسميةِ الأصنامِ آلهة؛ فقد رُوي أنَّ بعضَهم قال له ﷺ لمَّا قصَّ عليهم الإسراء: لعله شيءٌ رأيتَه في منامك. أو على التشبيه بالرؤيا لِمَا فيها من العجائب، أو لوقوعها ليلاً، أو لسرعتها، أي: وما جعلنا الرؤيا التي أريناكَها عياناً مع كونها آيةً عظيمة، وأيَّةُ آية، وقد أقمتُ البرهانَ على صحَّتها إلَّا فتنةً افتتن بها الناس، حتى ارتدَّ بعضُ مَن أسلم منهم.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ﴾ عطفٌ على «الرؤيا» أي: وما جعلنا الشجرةَ ﴿ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ إلَّا فتنةً لهم أيضاً.

والمرادُ بها ـ كما روى البخاريُّ[2] وخلقٌ كثيرٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ شجرةُ الزقُّوم. والمرادُ بلعنها لعنُ طاعميها من الكفرة، كما رُوي عنه أيضاً، ووصفُها بذلك من المجازِ في الإسناد، وفيه من المبالغةِ ما فيه. أو لعنها نفسَها، ويراد

(١) انظر أحاديث الإسراء في بداية الجزء.

(٢) في صحيحه (٣٨٨٨).

باللَّعن معناه اللغويّ، وهو البُعد، فهي في أبعدِ مكانٍ من الرحمة ـ وهو أصلُ الجحيم الذي تنبت فيه ـ ملعونةٌ حقيقة.

وأَخرج ابنُ المنذر عن الحَبر أنَّها وُصفت بالملعونة لتشبيه طلعِها برؤوس الشياطين، والشياطينُ ملعونون(١). وقيل: تقول العربُ لكلِّ طعامٍ مكروهٍ ضارّ: ملعون.

ورُوي في جعلها فتنةً لهم أنَّه لمَّا نزل في أمرها في «الصافَّات»(٢) وغيرِها ما نزل، قال أبو جهلٍ وغيرُه: هذا محمدٌ يتوعَّدكم بنارٍ تحرق الحجارة، ثم يقول: ينبت فيها الشَّجر، وما نعرف الزُّقومَ إلَّا التمرَ بالزُّبد، وأمر أبو جهلٍ جاريةً له فأحضرت تمراً وزُبداً، وقال لأصحابه: تزقَّموا(٣).

وافتتن بهذه المقالةِ أيضاً بعضُ الضعفاءِ، ولقد ضلُّوا في ذلك ضلالاً بعيداً، حيث كابروا قضيةَ عقولِهم؛ فإنَّهم يرَون النعامةَ تبتلع الجمرَ وقِطَعَ الحديد المحمَّاة الحُمْرَ فلا تضرُّها، والسَّمَنْدلَ(٤) يُتَّخذ من وَبَره مناديلُ تُلقى في النار إذا اتَّسخت، فيذهب الوسخُ وتبقَى سالمة، ومن أمثالهم: في كلِّ شجرٍ نار، واستمجدَ المَرْخُ والعَفَار(٥).

وعن ابن عباسٍ أنَّها الكَشوث(٦) المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] ولعنُها في القرآن وصفُها فيه بما سمعتَ في هذه الآية، ومرَّ آنفاً ما مرَّ عن العرب، والافتتانُ بها أنَّهم قالوا عند سماعِ الآية: ما بالُ الحشائشِ تُذكَر في القرآن. والمعوَّل عليه عند الجمهورِ روايةُ الصحيحِ عن الحَبر.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٩٢.
(٢) في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ إلخ [الآيات: ٦٢-٦٧].
(٣) أخرجه أحمد (٣٥٤٦)، والنسائي في الكبرى (١١٤٢٠)، وأبو يعلى (٢٧٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.
(٤) طائر بالهند لا يحترق بالنار.
(٥) مجدت الإبل تمجد مجوداً: إذا نالت من الخَلَى قريباً من الشبع، واستمجد المرخ والعفار: استكثرا وأخذا من النار ما هو حسبهما، شبها بمن يكثر العطاء طلباً للمجد. يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض. مجمع الأمثال ٢/ ٧٤.
(٦) نبات مجتث مقطوع الأصل. اللسان (كشث).

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «والشجرةُ» بالرفعِ[(١)] على الابتداءِ وحذفِ الخبر، أي: والشجرةُ الملعونةُ في القرآن كذلك.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بذلك ونظائرِه من الآيات، فإنَّ الكلَّ للتخويف، وإيثارُ صيغةِ الاستقبال للدَّلالة على الاستمرار التجدُّدي.

وقرأ الأعمش: «ويخوِّفهم» بالياءِ آخرِ الحروف[(٢)].

﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويفُ ﴿إِلَّا طُغْيَانًا﴾ تجاوزاً عن الحدّ ﴿كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ لا يقادَر قَدْرُه، فلو أَرسلنا بما اقترحوه من الآيات، لَفعلوا بها فِعلَهم بأَخواتها، وفُعِل بهم ما فُعل بأَمثالهم، وقد سبقت كلمتُنا بتأخير العقوبةِ العامَّة إلى الطَّامَّة الكبرى. هذا فيما أَرى هو الأَوفقُ بالنَّظم الكريم، واختاره في «إرشاد العقل السليم»[(٣)].

وعن الحسنِ ومجاهدٍ وقتادةَ وأكثرِ المفسِّرين تفسيرُ الإِحاطة بالقدرة، والكلامُ مسوقٌ لتسلية رسولِ الله ﷺ عمَّا عسى يعتريه من عدم الإِجابة إلى إِنزال الآياتِ المقترَحة لمخالفتها للحكمة مِن نوعِ حزنٍ مِن طَعْنِ الكفرة، حيث كانوا يقولون: لو كنتَ رسولاً حقًّا لأَتيت بهذه المعجزةِ كما أَتى بها مَن قبلك مِن الأنبياءِ عليهم السلام. فكأَنَّه قيل: اذكر وقتَ قولِنا لك: إنَّ ربَّك اللطيفَ بك قد أَحاط بالناس، فهم في قبضة قدرتِه، لا يَقدرون على الخروج من ربقة مشيئته، فهو يحفظُك منهم، فلا تهتمَّ بهم، وامضِ لِمَا أمرتُك به من تبليغ الرِّسالة، ألا ترى أنَّ الرؤيا التي أريناك من قبلُ جعلناها فتنةً للناس مورثةً للشُّبهة، مع أنَّها ما أَورثت ضعفاً لأمرك وفتوراً في حالك؟

وبعضُهم حمل الإِحاطةَ على الإِحاطة بالعلم، إلَّا أنَّه ذَكَرَ في حاصل المعنى ما يَقرُب ممَّا ذكر، فقال: أي: إنَّه سبحانه عالمٌ بالناس على أتمِّ وجه، فيعلم قصدَهم إلى إِيذائك إذا لم تأتِهم بما اقترحوا ويَعصمُك منهم، فامضِ على ما أنت فيه من التبليغ والإِنذار، ألا ترى... إلخ.

(١) البحر المحيط ٦/ ٥٦.
(٢) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر ٦/ ٥٦.
(٣) ٥/ ١٨١.

ولا يخفى أنَّ ذكر الربِّ مضافاً إلى ضميره ﷺ، وأَمْرَه عليه الصلاة والسلام بذِكر ذلك القولِ أَنسبُ بكون الآيةِ مسوقةً لتسليته على الوجه الذي نُقل، وذِكْرَ التخويفِ وأنَّه ما يَزيدهم إلَّا طغياناً كبيراً أوفقُ بما فسِّرت به الآيةُ أولاً. وادَّعى بعضُهم أنَّه لا يخلو عن نوعِ تسلية.

وقيل: الإحاطةُ هنا الإهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف:٤٢] والناسُ قريش، ووقتُ ذلك الإهلاكِ يومُ بدر، وعبّر عنه بالماضي مع كونه منتظراً حَسبما ينبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥] وقولُه سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران: ١٢] وغيرُ ذلك؛ لتحقُّق الوقوع.

وأوِّلت الرؤيا بما رآه ﷺ في المنامِ من مصارعهم، كما صرِّح به في بعض الرِّوايات وصحَّ أنَّه ﷺ لمَّا ورد ماءَ بدرٍ كان يقول: «واللهِ لَكأني أَنظر إلى مصارعِ القوم» وهو يضع يدَه الشريفةَ على الأرضِ هاهنا وهاهنا ويقول: «هذا مصرعُ فلان، هذا مصرع فلان»[(١)]. وهو ظاهرٌ في كون ذلك مناماً.

ويُروى أنَّ قريشاً سمعت بما أُوحي إلى رسول اللهِ ﷺ في شأن بدرٍ وما أُري في منامه من مصارِعهم، فكانوا يضحكون ويسخرون، وهو المرادُ بالفتنة، وبما رآه عليه الصلاة والسلام أنَّه سيدخل مكةَ وأَخبر أصحابَه فتوجَّه إليها فصدَّه المشركون عامَ الحديبية. وإليه ذهب أبو مسلمِ والجبَّائي، واعتذر عن كون ما ذُكر مدنيًّا بأنَّه يجوز أن يكونَ الوحيُ بإهلاكهم ـ وكذا الرُّؤيا ـ واقعاً بمكَّة، وذِكرُ الرُّؤيا وتعيينُ المصارعِ واقعَين بعد الهجرة، ويلزمُ منه أن يكونَ الافتتانُ بذلك بعد الهجرة، وأن يكونَ ازديادُهم طغياناً متوقَّعاً غيرَ واقعٍ عند نزولِ الآية، وكلُّ ذلك خلافُ الظاهر.

وأخرج ابن جريرٍ[(٢)] عن سهلِ بن سعد قال: رأى رسولُ الله ﷺ بني أميةَ يَنْزُون على مِنبره نَزْوَ القِردة، فساءَه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات عليه الصلاة والسلام، وأَنزل اللهُ تعالى هذه الآية: (وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا) إلخ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٩).

(٢) في تفسيره ١٤/٦٤٦، وذكره ابن كثير في تفسيره بإسناد الطبري وقال: وهذا السند ضعيف جداً؛ فإنَّ محمد بن الحسن بن زبالة متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية.

وأَخرج ابنُ أبي حاتم، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ في «الدَّلائل»، وابنُ عساكرٍ عن سعيد بن المسيّب قال: رأى رسولُ الله ﷺ بني أميةَ على المنابر فساءه ذلك، فأَوحى اللهُ تعالى إليه: إنَّما هي دنيا أُعطوها، فقرَّت عينُه، وذلك قولُه تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا)[1] إلخ.

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن يعلى بن مرَّة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ بني أميةَ على منابر الأرض، وسيملكونكم، فتجدونهم أربابَ سوء» واهتمَّ عليه الصلاة والسلام لذلك، فأنزل اللهُ سبحانه: (وَمَا جَعَلْنَا) الآية[2].

وأَخرج عن ابن عمرَ أنَّ النبي ﷺ قال: «رأيتُ ولدَ الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنَّهم القِرَدة» وأنزل اللهُ تعالى في ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ إلخ. والشجرةُ الملعونةُ: الحَكَمُ وولدُه[2]. وفي عبارة بعض المفسِّرين: بنو أمية.

وأَخرج ابنُ مردويه عن عائشةَ ﵂ أنَّها قالت لمروان بنِ الحكم: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لأَبيك وجدِّك: «إنَّكم الشجرةُ الملعونةُ في القرآن»[2].

فعلى هذا معنى إحاطته تعالى بالناس إحاطةُ أَقداره بهم، والكلامُ ـ على ما قيل ـ على حذفِ مضاف، أي: وما جعلنا تعبيرَ الرُّؤيا، أو الرؤيا فيه مجازٌ عن تعبيرها. ومعنى جعلِ ذلك فتنةً للناس جعلُه بلاءً لهم ومختبَراً، وبذلك فسَّره ابن المسيّب، وكان هذا بالنِّسبة إلى خلفائهم الذين فعلوا ما فعلوا، وعَدَلوا عن سَنَن الحقِّ وما عدلوا، وما بعده بالنِّسبة إلى ما عدا خلفاءهم منهم ممَّن كان عندهم عاملاً، وللخبائث عاملاً، أو ممَّن كان من أَعوانهم كيفما كان. ويحتمل أن يكون المرادُ: ما جعلنا خلافتَهم وما جعلناهم أنفسَهم إلَّا فتنة، وفيه من المبالغة في ذمِّهم ما فيه. وجَعْل ضميرِ «نخوفهم» على هذا لِمَا كان له أولاً، أو للشَّجرة باعتبار أنَّ المرادَ بها بنو أمية، ولعنُهم لِمَا صدر منهم من استباحة الدماءِ المعصومة، والفروجِ المحصَنة، وأَخذ الأموالِ من غير حلِّها، ومنعِ الحقوقِ عن أهلها، وتبديلِ الأَحكام، والحُكمِ بغير ما أنزل اللهُ تعالى على نبيِّه عليه الصلاة والسلام، إلى غير

(١) الدر المنثور ٤/ ١٩١، والدلائل ٦/ ٥٠٩، وتاريخ مدينة دمشق ٥٧/ ٣٤١.
(٢) الدر المنثور ٤/ ١٩١.

ذلك من القبائح العِظام، والمخازي الجِسام، التي لا تكاد تُنسَى ما دامت الليالي والأيَّام.

وجاء لعنُهم في القرآن إمَّا على الخصوصِ كما زعمته الشِّيعة، أو على العموم كما نقول، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد:٢٢-٢٣] إلى آياتٍ أُخَر. ودخولُهم في عموم ذلك يكاد يكون دخولاً أوليًّا، لكن لا يخفَى أنَّ هذا لا يَسوغ عند أكثرِ أهل السُّنَّة لعنُ واحدٍ منهم بخصوصه، فقد صرَّحوا أنَّه لا يجوز لعنُ كافرٍ بخصوصه ما لم يتحقَّق موتُه على الكفر، كفِرعون ونمروذ، فكيف مَن ليس كافراً؟

وادَّعى السِّراج البُلقينيُّ جوازَ لعنِ العاصي المعيَّن، ونوَّر دعواه بحديث الصَّحيحين[1]: «إذا دعا الرجلُ امرأتَه إلى فراشه فأَبت أن تجيءَ، فبات غضبان، لعنتها الملائكةُ حتى تُصبِح». وقال ولدُه الجلال: بحثتُ مع والدي في ذلك باحتمالِ أن يكونَ لعنُ الملائكةِ لها بالعموم بأن يقول: لعن اللهُ تعالى مَن باتت مهاجرةً فراشَ زوجها.

ولو استدلَّ لذلك بخبر مسلم[2] أنَّه ﷺ مرَّ بحمارٍ وُسِم بوجهه فقال: «لعن اللهُ تعالى مَن فعل هذا» لَكان أَظهرَ؛ إذ الإشارةُ بهذا صريحةٌ في لعن معيَّن، إلَّا أن يؤوَّلَ بأنَّ المرادَ فاعلُ جنسِ ذلك لا فاعلُ هذا المعيَّن. وفيه ما فيه.

واستدلَّ بعضُ مَن وافقه لذلك أيضاً بما صحَّ أنَّه ﷺ قال: «اللهمَّ العَنْ رِعلاً وذَكوان وعُصَيَّة؛ عَصَوا اللهَ تعالى ورسولَه»[3] فإنَّ فيه لعنَ أقوامٍ بأعيانهم.

وأُجيب بأنَّه يجوز أنَّه عليه الصلاة والسلام علم موتَهم أو موتَ أكثرِهم على الكفر، فلم يلعن إلَّا مَن علم موتَه عليه. وهو كما ترى.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٧)، وصحيح مسلم (١٤٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) برقم (٢١١٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وسلف ٤/ ٣١٤.

(٣) أخرجه مسلم (٦٧٩) من حديث خُفاف بن إيماء الغفاري بنحوه.

ولا يخفى أنَّ تفسيرَ الآيةِ بما ذُكر غيرُ ظاهر الملاءمةِ للسِّياق، واللهُ تعالى أعلمُ بصحَّة الأحاديث.

وقيل: الشجرةُ الملعونةُ مجازٌ عن أبي جهل، وكان فتنةً وبلاءً على المسلمين لعنه اللهُ تعالى، وقيل: مجازٌ عن اليهودِ الذين تظاهروا على رسول اللهِ ﷺ، ولعنُهم في القرآن ظاهر، وفتنتُهم أنَّهم كانوا ينتظرون بعثتَه عليه الصلاة والسلام، فلما بُعث كفروا به، وقالوا: ليس هو الذي كنَّا ننتظره، فثبَّطوا كثيراً من الناس بمقالتهم عن الإِسلام.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تذكيرٌ لما جَرَى منه تعالى من الأمر، ومن الملائكةِ من الامتثال والطاعةِ من غير تثبُّط، وتحقيقٌ لمضمون قولِه تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ) إلخ. أمَّا إن كان المرادُ من الموصول الملائكةَ فظاهر، وأمَّا إن كان غيرَهم فللمقايسة.

وفيه إشارةٌ إلى عاقبة أولئك الذين عاندوا الحقَّ واقترحوا الآياتِ وكذَّبوا الرسولَ عليه الصلاة والسلام، فإنَّهم داخلون في الذُّرِّية الذين احتنكهم إبليسُ عليه اللعنةُ واتَّبعوه اتِّباعَ الظلِّ لذويه دخولاً أوليًّا، ومشاركون له في العناد أتمَّ مشاركة، حتى قالوا: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فوجهُ مناسبةِ الآية لما قبلَها ظاهر.

وقيل: الوجه مشابهةُ قريشٍ الذين كذَّبوا النبيَّ ﷺ لإبليسَ في أنَّ كلًّا منهما حَمَله الحسدُ والكِبْر على ما صدر منه، أي: واذكُر وقتَ قولِنا للملائكة: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ تحيةً وتكريماً له عليه السلام. وقيل: المعنى: اجعلوه قبلةَ سجودِكم لله تعالى ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ من غيرِ تلعثمٍ امتثالاً لأمره تعالى ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لم يكن من السَّاجدين، وكان معدوداً في عِدادهم، مندرجاً تحت الأمرِ بالسجود.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيّ، كأنَّه قيل: فما كان منه بعد التخلُّف؟ فأُجيب بأنَّه قال ـ أي: بعد أن وبِّخ بما وبِّخ مما قصَّه اللهُ سبحانه في غير هذا الموضعِ على سبيل الإنكار والتعجُّب ـ: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ وقد خلقتَني من نارٍ ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ نصب على نزعِ الخافض، أي: مِن طين، كما صرَّح به في آيةٍ أخرى.

وجوَّز الزجَّاج[١] كونَه حالاً من العائدِ المحذوف، والعاملُ «خلقت» فيكون المعنى: أَأَسجد لمن كان في وقت خلقِه طيناً؟ فالطينيةُ وإنْ كانت مقدَّمةً على خلقه إنساناً لكنَّها مقارِنةٌ لابتداء تعلُّقِه به.

والزمخشريُّ[٢] أيضاً كونَه حالاً من نفسِ الموصول، والعاملُ حينئذٍ «أأسجد» على معنى: أَأَسجُد له وهو طين؟ أي: أصلُه طين.

قال في «الكشف»: وهو أبلغ؛ لأنَّه مؤيِّد لمعنى الإنكار، وفيه تحقيرٌ له عليه السلام ـ وحاشاه ـ بجعله نفسَ ما كان عليه لم تَزُل عنه تلك الذِّلَّة، وليس في جعله حالاً من العائدِ هذه المبالغة.

وأنت تعلم أنَّ الحاليةَ على كلِّ حالٍ خلافُ الظاهر؛ لكون الطينِ جامداً؛ ولذا أوَّله بعضُهم بمتأصِّلاً.

وجوَّز الزجَّاج[٣] أيضاً ـ وتَبِعه ابنُ عطية[٤] ـ كونَه تمييزاً. ولا يظهر ذلك.

وذِكرُ الخلقِ مع أنَّه يكفي في المقصود أن يقال: لمن كان مِن طين، أَدخلُ في المقصود، مع أنَّه فيه ـ على ما قيل ـ إيماءٌ إلى عِلَّة أخرى، وهي أنَّه مخلوق، والسجود إنَّما هو للخالق تعالى مَجده.

﴿قَالَ﴾ أي: إبليس. وفي إعادة الفعلِ بين كلامَي اللعين إيذانٌ بعدم اتِّصال الثاني بالأوَّل، وعدمِ اِبتنائه عليه، بل على غيره، وقد ذكر ذلك في مواضعَ أُخرَ، أي: قال بعد طردِه من المحلِّ الأعلى ولعنِه واستنظارِه وإنظاره: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ الكافُ حرفُ خطابٍ مؤكِّدٌ لمعنى التاءِ قبله، وهو من التأكيد اللغويّ، فلا محلَّ له من الإعراب. ورأى عِلمية، فتتعدَّى إلى مفعولين، و«هذا» مفعولُها الأوَّل، والموصولُ صفته، والمفعولُ الثاني محذوفٌ لدلالة الصلةِ عليه. وهذا الإنشاءُ مجازٌ عن إنشاءٍ آخرَ، ومِن هنا تسمعُهم يقولون: المعنى: أَخبرني عن

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٩.
(٢) في الكشاف ٢/ ٤٥٦.
(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٩.
(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٩.

هذا الذي كرَّمتَه عليّ، لِمَ كرَّمته عليّ وأنا أكرمُ منه؟ والعلاقةُ ما بين العلم والإخبار من السَّببية والمسبَّبية واللازميةِ والملزومية، وجملةُ لِمَ كرَّمته، واقعةٌ ـ على ما نصَّ عليه أبو حيَّان[١] ـ موقعَ المفعولِ الثاني.

وذهب بعضُ النُّحاة إلى أنَّ رأى بَصَرية، فتتعدَّى إلى واحد، واختاره الرَّضيّ، ويجعلون الجملةَ الاستفهاميةَ المذكورةَ مستأنفة.

وقال الفرَّاء: الكافُ ضميرٌ في محلِّ نصب، أي: أرأيت نَفسَك، وهو كما تقول: أتدبَّرت آخرَ أمرِك، فإني صانعٌ كذا، و«هذا الذي كرمت عليَّ» مبتدأٌ وخبر، وقد حُذف منه الاستفهام أي: أهذا.. إلخ. وقال بعضُهم بهذا إلَّا أنَّه جعل الكافَ حرفَ خطابٍ مؤكِّد، أي: أَخبِرني أهذا مَن كرَّمته عليّ؟

وقال ابنُ عطية[٢]: الكافُ حرفٌ كما قيل، لكن معنى «أَرأيتَكَ»: أتأمَّلت، كأنَّ المتكلِّم ينبِّه المخاطَب على استحضارِ ما يخاطبه به عَقِيبَه.

وكونُه بمعنى أخبِرني قولُ سيبويه[٣] والزجَّاج[٤]، وتَبِعهما الحوفيُّ والزمخشريُّ[٥] وغيرُهما، وزعم ابنُ عطيةَ[٦] أنَّ ذلك حيث يكون استفهام، ولا استفهامَ في الآية.

وأنت تعلم أنَّ المقرَّر في أرأيتَ بمعنى أخبرني أن تدخلَ على جملةٍ ابتدائيةٍ يكون الخبرُ فيها استفهاماً مذكوراً أو مقدَّراً، فمجرَّد عدمِ وجودِه لا يأبى ذلك. وأيًّا ما كان فاسمُ الإشارةِ للتحقير، والمرادُ من التكريمِ التفضيل.

وجملةُ: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ استئنافٌ وابتداءُ كلام، واللامُ موطِّئة للقَسَم، وجوابُه: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾.

---

(١) في البحر ٦/ ٥٧.
(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٩.
(٣) في الكتاب ١/ ٢٣٩.
(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٩.
(٥) في الكشاف ٢/ ٤٥٦.
(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٩.

وفي «البحر»(١): لو ذهب ذاهبٌ إلى أنَّ هذا مفعولٌ أوَّلُ لـ «أَرأيتك» بمعنى أَخبِرني، والمفعولُ الثاني الجملةُ القَسَميةُ المذكورة؛ لانعقادهما مبتدأً وخبراً قبل دخولِ «أرأيتَكَ»، لَذهب مذهباً حسناً؛ إذ لايكونُ في الكلام على هذا إِضمار. وهو كما ترى.

والمرادُ من «أَخَّرتني»: أَبقيتَني حيًّا، أو: أَخَّرت موتي.

ومعنى «لأحتنكن ذريته»: لأَستوليَّن عليهم استيلاءً قويًّا، من قولهم: حنك الدابَّةَ واحتنكها، إذا جعل في حَنَكها الأَسفلِ حبلاً يقودها به. وأخرج هذا ابنُ جَريرٍ(٢) وغيرُه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وإليه ذهب الفرَّاء(٣).

أو: لَأستأصلنَّهم وأُهلِكنَّهم بالإغواء، من قولهم: احتنك الجرادُ الأرض، إذا أَهلك نباتَها وجرَّد ما عليها، واحتنك فلانٌ مالَ فلان، إذا أَخذه وأكله، وعلى ذلك قولُه:

نشكو إليك سَنَةً قد أَجحفت جهداً إلى جهدٍ بنا فأَضعفت
واحتنكت أموالَنا وأَجلفت(٤)

وكأنه مأخوذٌ من الحَنَك، وهو باطنُ أَعلى الفمِ من داخل المِنقار، فهو اشتقاقٌ من اسمِ عين، واختار هذا الطبريُّ(٥) والجبائيُّ وجماعة.

وأَخرج ابنُ أبي حاتم عن ابنِ زيدٍ أَنَّه قال: يقول: لأُضلنَّهم. وهو بيانٌ لخلاصة المعنى، وهذا كقولِ اللعين: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

---

(١) ٦/ ٥٧.
(٢) في تفسيره ١٤/ ٦٥٥.
(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٢٧.
(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٨٤، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٥٤ دون نسبة. وقوله: أجلفت: ذهبت السنون بأمواله. القاموس (جلف).
(٥) انظر تفسيره ١٤/ ٦٥٤.

﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ منهم، وهو العباد المخلَصون الذين جاءَ استثناؤهم في آيةٍ أخرى، جَعَلَنا اللهُ تعالى وإيَّاكم منهم.

وعَلِمَ اللعينُ تسنِّيَ هذا المطلبِ له حتى ذكره مؤكَّداً، إمَّا بواسطة التلقِّي من الملائكة سماعاً وقد أخبرهم اللهُ تعالى به، أو رأوه في اللوح المحفوظ، أو بواسطة استنباطِه من قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] مع تقريرِ اللهِ تعالى له، أو بالفراسة لِمَا رأى فيه من قوَّة الوهمِ والشهوةِ والغضبِ المقتضية لذلك، ولا يَبعُد أن يكونَ استثناءُ القليل بالفراسة أيضاً، وكأنَّه لمَّا رأى أنَّ المانعَ من الاستيلاءِ في القليل مشتركاً بينه وبين آدمَ عليه السلام ذكره من أول الأمر.

وعن الحسن أنَّه ظنَّ ذلك لأنَّه وسوس إلى آدمَ وغرَّه حتى كان ما كان، فقاس الفرعَ على الأَصل. وهو مُشكِل؛ لأنَّ هذا القولَ كان قبل الوسوسةِ التي كان بسببها ما كان، ومَن زعم أنَّه كان هناك وسوستان، فعليه البيان، ولا يأتي به حتى يؤوبَ القارظان(١)، أو يسجدَ لآدمَ عليه السلام الشيطانُ. ﴿قَالَ﴾ اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿ٱذْهَبْ﴾ ليس المرادُ به حقيقةَ الأمرِ بالذَّهاب ضدِّ المجيء، بل المرادُ تخليتُه وما سوَّلته نفسُه إهانةً له، كما تقولُ لمن يخالفك: اِفعلْ ما تريد.

وقيل: يجوز أن يكونَ من الذَّهاب ضدِّ المجيء، فمعناه حينئذٍ كمعنى قولِه تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤].

وقيل: هو طردٌ وتخلية. ويَلزم على ظاهره الجمعُ بين الحقيقةِ والمجاز، والقائلُ ممَّن يرى جوازَه.

ويدلُّ على أنَّه ليس المرادُ منه ضدَّ المجيءِ تعقيبُه بالوعيد في قولِه سبحانه: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ وضلَّ عن الحقِّ ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي: جزاؤك وجزاؤهم. فغلَّب المخاطَبَ على الغائبِ رعايةً لحقِّ المتبوعية.

---

(١) القارظان: يَذْكُرُ بن عَنَزَة وعامر بن رُهْم، خرجا في طلب القَرَظ فلم يرجعا. والقرظ: ورق السلم. القاموس (قرظ).

وجوَّز الزمخشريُّ(١) ـ وتَبِعه غيرُ واحد ـ أن يكونَ الخطابُ للتابعين على الالتفاتِ من غَيبة المُظهَر إلى الخطاب.

وتعقَّبه ابنُ هشام في «تذكرته» فقال: عندي أنَّه فاسد؛ لخلوِّ الجوابِ أو الخبرِ عن الرابط، فإنَّ ضميرَ الخطابِ لا يكون رابطاً.

وأُجيب بأنَّه مؤوَّل بتقدير: فيقال لهم: إنَّ جهنَّم جزاؤكم. ورُدَّ بأنَّه يخرج حينئذٍ عن الالتفات.

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ ضمير الخطابِ إن سلِّم أنَّه لا يكون عائداً، لا نسلِّم أنَّه إذا أُريد به الغائبُ التفاتاً لا يُربَط به؛ لأنَّه ليس بأبعدَ من الرَّبط بالاسمِ الظاهر، فاحفظ.

﴿جَزَآءً مَّوۡفُورًا ۝٦٣﴾ أي: مكمَّلاً لا يدَّخر منه شيء، كما قال ابنُ جبير مِن: فِرْ ـ كعِدْ ـ لصاحبك عِرضَه فِرَةً، أي: كمِّل لصاحبك عِرضَه، وعلى ذلك قولُه:

ومَن يجعلِ المعروفَ من دونِ عِرضه يَفِرْه ومَن لا يتَّقِ الشَّتمَ يُشتَم(٢)

وجاء وَفَرَ لازماً، نحو: وفر المالُ يَفِر وفوراً، أي: كَمُلَ وكَثُر.

وانتصب «جزاء» على المصدر بإضمار تُجزَون، أو تجازون؛ فإنَّهما بمعنًى، وهذا المصدرُ لهما.

وجوَّز أبو حيَّان(٣) وغيرُه كونَ العاملِ فيه «جزاؤكم» بناءً على أنَّ المصدرَ ينصب المفعولَ المطلق، وجوَّز كونَه حالاً موطِّئة لصفتها التي هي حالٌ في الحقيقة؛ ولذا جاءت جامدةً كقوله تعالى: ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] ولا حاجة لتقدير: ذوي، فيه حينئذ، وصاحبُ الحال مفعولُ تُجزَونه محذوفاً، والعاملُ الفعل. وقيل: إنَّه حالٌ من فاعله بتقدير: ذوي جزاء.

وقال الطِّيبي: قيل: المعنى: ذوي جزاء؛ ليكونَ حالاً عن ضمير المخاطَبين،

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٥٦.

(٢) البيت من معلقة زهير، وهو في ديوانه ص٣٠.

(٣) في البحر ٦/ ٥٨.

ويكون المصدرُ عاملاً، وإلّا فالعاملُ مفقود. ثم قال: الأظهرُ أنّه حالٌ مؤكِّدة لمضمونِ الجملة، نحو: زيدٌ حاتمٌ جواداً.

وفي «الكشف» أنَّ هذا متعيّن، وليس الأوّلُ بالوجه، ومثلُه جعلُه حالاً عن الفاعل. وقيل: هو تمييز. ولا يُقبَل عند ذَويه.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ أي: واستَخِفَّ، يقال: استفزَّه، إذا استخفَّه فخدعه وأَوقعه فيما أَراده منه، وأصلُ معنى الفزِّ: القَطْع، ومنه: تفزَّز الثوب، إذا انقطع، ويقال للخفيف: فَزّ؛ ولذا سمِّي به ولدُ البقرةِ الوحشية، كما في قول زهير:

إذا استغاث بشيءٍ[1] فَزُّ غيطلةٍ خاف العيونَ فلم تُنظر به الحَشَكُ[2]

والواو ـ على ما في «البحر»[3] ـ للعطفِ على «اذهب»، والمرادُ من الأمرِ التهديد، وكذا من الأَوامر الآتية، ويَمنع من إرادة الحقيقةِ أَنَّ اللهَ تعالى لا يأمرُ بالفحشاء.

﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ أي: الذي استطعتَ أن تستفزَّه ﴿مِنْهُم﴾ فـ «مِن» موصولٌ مفعولُ «استفزز»، ومفعولُ «استطعت» محذوف، هو ما أشرنا إليه.

واختار أبو البقاءِ[4] كونَ «مَن» استفهاميةً في موضع نصبٍ بـ «استطعت». وهو خلافُ الظاهرِ جدًّا، ولا داعيَ إلى ارتكابه.

﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي: بدعائك إلى معصية اللهِ تعالى ووسوستِك. وعبَّر عن الدُّعاء بالصوت تحقيراً له، حتى كأنَّه لا معنى له كصوتِ الحمار.

وأَخرج ابنُ المنذر وابن جَريرٍ وغيرُهما عن مجاهدٍ تفسيرَه بالغناءِ والمزاميرِ واللهوِ والباطل[5].

---

(١) في الديوان ص١٧٧: بسيءٍ. قال شارحه: هو اللبن الذي يكون في الضَّرع قبل نزول الدِّرَّة.

(٢) الغيطلة: شجر ملتف، والحشك: الاجتهاد والدفع باللبن.

(٣) ٦/ ٥٨.

(٤) في الإملاء ٣/ ٤٨٨.

(٥) الدر المنثور ٤/ ١٩٢، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٥٧.

وذَكَرَ الغزنويُّ أنَّه آدم عليه السلام أَسكن ولدَ هابيلَ أعلى جبل، وولدَ قابيل أَسفلَه، وفيهم بناتٌ حِسَان، فزمر الشيطان، فلم يتمالكوا أن انحدروا واقترنوا.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ أي: صِحْ عليهم، من الجَلَبة، وهي الصياح. قاله الفرَّاءُ وأبو عبيدة، وذكر أنَّ جلب وأجلب بمعنى. وقال الزجَّاج: أجلب على العدوّ: جمع عليه الخيل. وقال ابن السِّكِّيت: جلب عليه: أعان عليه. وقال ابن الأعرابيّ: أجلب على الرَّجل: إذا توعَّده الشرَّ وجمعَ عليه الجمع.

وفسَّر بعضُهم «أجلب» هنا اجمعْ، فالباءُ في قوله تعالى: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ مزيدةٌ، كما في:

.... لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَر[1]

وقرأ الحسن: «واجلُب» بوصل الألفِ وضمِّ اللام[2]، من: جَلَبَ، ثلاثيًّا.

والخيلُ يطلق على الأفراس حقيقة، ولا واحدَ له من لفظِه. وقيل: إنَّ واحدَه: خائل؛ لاختياله في مَشيه. وعلى الفُرسان مجازاً وهو المرادُ هنا، ومنه قولُه ﷺ في بعض غزواته لأصحابِه ﷺ: «يا خيلَ اللهِ اركبي»[3].

والرَّجِل بكسر الجيمِ فَعِلٌ بمعنى فاعل، فهو صفة، كحَذِر بمعنى حاذر، يقال فلانٌ يمشي رَجِلاً، أي: غيرَ راكب. وقال صاحبُ «اللَّوامح»: هو بمعنى الرِّجال، يعنى أنَّه مفردٌ أُريد به الجمع؛ لأنَّه المناسبُ للمقام وما عُطف عليه. وبهذا قرأ حفص، وأبو عَمرو في رواية، والحسن[4].

وظاهرُ الآيةِ يقتضي أنَّ للَّعِين خيلاً ورَجلاً، وبه قال جمع، فقيل: هم من الجِنّ. وقيل: منهم ومن الإنس، وهو المرويُّ عن ابن عباس ﵄ ومجاهدٍ وقتادة، قالوا: إنَّ له خيلاً ورَجلاً من الجِنِّ والإنس، فما كان مِن راكبٍ يقاتل في معصية اللهِ

(١) قطعة بيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص١٢٢، وسلف ٩/ ٣٦٢.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٥٨.
(٣) سلف ١٣/ ٢٤.
(٤) المحتسب ٢/ ٢١، والبحر ٦/ ٥٨، وقراءة حفص في التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٨.

تعالى، فهو من خيلِ إبليس، وما كان مِن راجلٍ يقاتل في معصية اللهِ تعالى، فهو من رَجل إبليس.

وقال آخَرون: ليس للشيطان خيلٌ ولا رجَّالة، وإنَّما هما كنايةٌ عن الأعوان والأَتباع، من غير ملاحظةٍ لكون بعضِهم راكباً وبعضِهم ماشياً.

وجوَّز بعضُهم أن يكونَ استفزازُه بصوته وإجلابُه بخيله ورَجلهِ تمثيلاً لتسلُّطه على مَن يُغويه، فكأنَّ مِغواراً وقع على قوم، فصوَّت بهم صوتاً يُزعجهم من أماكنهم، وأجلبَ عليهم بجنده من خيَّالة ورجَّالة حتى استأصلهم. ومرادُه أن يكون في الكلام استعارةٌ تمثيلية، ولا يضرُّ فيها اعتبارُ مجازٍ أو كنايةٍ في المفردات، فلا تغفُل.

وقرأ الجمهور: «رَجْلِكَ» بفتح الراءِ وسكونِ الجيم، وهو اسمُ جمعِ راجل، كرَكْب وراكب، لا جمعٌ؛ لغلبة هذا الوزنِ في المفردات.

وقُرئ: «رَجُلِكَ» بفتح الراءِ وضمِّ الجيم[1]، وهو مفردٌ كما في قراءةِ حفص، وقد جاءت ألفاظٌ من الصِّفة المشبَّهة على فَعِل وفَعُل، كسراً وضمًّا، كَحذْث ونَدْس[2] وغيرِهما.

وقرأ عكرمةُ وقتادة: «رِجالِك» كنِبَالك[3]. وقُرئ: «رُجَّالِك» ككفَّارك[4]. وكلاهما جمعُ رَجْلانَ وراجل، كما في «الكشف»، وفي بعض نُسخ «الكشَّاف» أنَّه قُرئ: «رَجَّالِك» بفتح الراءِ وتشديدِ الجيم، على أنَّ أصلَه رجَّالة، فحُذف تاؤه تخفيفاً[5]، وهي نسخةٌ ضعيفة.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بحملهم على كسبها ممَّا لا ينبغي وصرفِها فيما لا ينبغي. وقيل: بحملهم على صَرفها في الزِّنى. وعن الضحَّاك: بحملهم على الذَّبح للآلهة. وعن قتادة: بحملهم على تسييب السوائب، وبحرِ البحائر. والتعميمُ أولى.

---

(١) البحر ٦/ ٥٩.
(٢) الندس: الفَهِم. القاموس (ندس).
(٣) القراءات الشاذة ص٧٧، والمحتسب ٢/ ٢٢، والبحر ٦/ ٥٩.
(٤) القراءات الشاذة ص٧٧، وحاشية الشهاب ٦/ ٤٧.
(٥) الكشاف ٢/ ٤٥٦، وحاشية الشهاب ٦/ ٤٧.

﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بالحثِّ على التوصُّل إليهم بالأسباب المحرَّمة، وارتكابِ ما لا يُرضي اللهَ تعالى فيهم. وأَخرج ابن جَريرٍ وابنُ مردويه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: المشاركةُ في الأولاد حَملُهم على تسميتهم بـ: عبد الحارث، وعبدِ شمس[1]. وفي رواية: حملهم على أن يرغِّبوهم في الأديان الباطلة ويَصبَغوهم بغير صِبغة الإسلام. وفي أخرى: حَملُهم على تحصيلهم بالزِّنى. وفي أخرى: تزيينُ قتلِهم إيَّاهم خشيةَ الإملاق أو العار. وقيل: حَملُهم على أن يرغِّبوهم في القتال وحفظِ الشِّعر المشتملِ على الفُحش والحِرَف الخسيسةِ الخبيثة. وعن مجاهدٍ أنَّ الرجل إذا لم يسمِّ عند الجِماع، فالجانُّ ينطوي على إحليله فيجامعُ معه، وذلك هي المشاركةُ في الأولاد. والأَوْلى ما ذكرنا.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيدَ الباطلة، كشفاعةِ الآلهة، ونفعِ الأنسابِ الشريفة مَن لم يُطع اللهَ تعالى أصلاً، وعدمِ خلود أحدٍ في النار لمنافاة ذلك عِظَمَ الرَّحمة، وطولِ أمل البقاءِ في الدنيا. ومِن الوعد الكاذبِ وعدُه إياهم أنَّهم إذا ماتوا لا يُبعثون، وغيرُ ذلك ممَّا لا يحصى كثرة. ثمَّ هذا من قَبيل المشاركةِ في النَّفس كما في «البحر»[2].

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ اعتراضٌ بين ما خوطب به الشيطانُ لبيان حالِ مواعيدِه. والالتفاتُ إلى الغَيبة لتقويةِ معنى الاعتراض، مع ما فيه من صرف الكلامِ عن خطابه وبيان حالِه للناس، ومن الإشعار بعلِّية شيطنتِه للغرور، وهو تزيينُ الخطأ بما يوهِم أنَّه صواب. ويقال: غرَّ فلاناً، إذا أصاب غِرَّتَه، أي: غفلتَه، ونال منه ما يريد. وأصلُ ذلك ـ على ما قال الراغب[3] ـ من الغَرّ، وهو الأثرُ الظاهرُ من الشيء.

ونصبُه على أنَّه وصفٌ لمصدرٍ محذوف، أي: وعداً غُروراً، على الأوجُه التي في: رَجُلٌ عَدْلٌ. وجوَّز أن يكونَ مفعولاً من أجله، أي: وما يعدهم ويمنِّيهم ما لا يتمُّ ولا يقع إلَّا لأن يغرَّهم. والأولُ أَظهر. وذكر الإمامُ[4] في سبب كونِ

(١) الدر المنثور ٤/ ١٩٢، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٦٥.
(٢) ٦/ ٥٩.
(٣) في المفردات (غرر).
(٤) في التفسير الكبير ٢١/ ٨.

وعدِ الشيطان غروراً لا غير أنَّه إنَّما يدعو إلى أحدِ ثلاثةِ أمور: قضاء الشهوة، وإمضاء الغضب، وطلب الرياسةِ والرِّفعة. ولا يدعو البتةَ إلى معرفة اللهِ تعالى وخدمته. وتلك الأشياءُ الثلاثة ليست لذائذَ في الحقيقة، بل دفعُ آلام. وإنْ سلمَ أنَّها لذائذ، لكنَّها خسيسةٌ يشترك فيها الناقصُ والكامل، بل الإنسانُ والكلب، ومع ذلك هي وشيكةُ الزوال، ولا تحصل إلَّا بمتاعبَ كثيرة، ومشاقَّ عظيمة، ويَتْبعها الموتُ والهرم، واشتغالُ البالِ بالخوف من زوالها، والحرص على بقائها، ولذَّاتُ البطنِ والفرجِ منها لا تتمُّ إلَّا بمزاولة رطوباتٍ متعفِّنة مستقذَرة، فتزيينُ ذلك لا يكاد يكون إلَّا بما هو أكذبُ من دعوى اجتماعِ النقيضَين، وهو الغرور.

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الإضافةُ للتعظيم، فتدلُّ على تخصيص العبادِ بالمخلَصين كما وقع التصريحُ به في الآيةِ الأخرى(١)، ولقرينة كونِ اللهِ تعالى وكيلاً لهم يحميهم من شرِّ الشيطان، فإنَّ مَن هو كذلك لا يكون إلَّا عبداً مكرَّماً مختصًّا به تعالى، وكثيراً ما يقال لمن يستولي عليه حبُّ شيءٍ فينقادُ له: عبدُ ذلك الشيء، ومنه: عبدُ الدِّينار والدِّرهم، وعبدُ الخميصةِ وعبدُ بطنِه، ومِن هنا يقال لمن يتبعُ الشيطان: عبدُ الشيطان، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ في الكلام صفةً محذوفة، أي: إنَّ عبادي المخلَصين.

وزعم الجبائيُّ أنَّ «عبادي» عامٌّ لجميع المكلَّفين، وليس هناك صفةٌ محذوفة، لكن تُرك الاستثناءُ اعتماداً على التصريح به في موضعٍ آخَر. وليس بشيء.

وفي هذه الإضافة إيذانٌ بعلَّة ثبوتِ الحكم في قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: تسلُّط وقدرةٌ على إغوائهم، وتأكيدُ الحكمِ مع اعترافِ الخصمِ به لمزيد الاعتناء.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ لهم يتوكَّلون عليه جلَّ وعلا، ويستمدُّون منه تعالى في الخلاص عن إغوائك، فيحميهم سبحانه منه.

والخطابُ في هذه الجملةِ قيل: للشَّيطان، كما في الجملةِ السابقة، ففي التعرُّض لوصفِ الرُّبوبية المنبئةِ عن المالكية المطلقةِ والتصرُّف الكليِّ مع الإضافةِ

---

(١) أي في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

إلى ضميره إشعارٌ بكيفية كفايتِه تعالى لهم وحمايتِه إيَّاهم منه، أعني سلبَ قدرتِه على إغوائهم.

وقيل: للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، أو للإنسان. كأنَّه لمَّا بيَّن سبحانه مِن حالِ الشيطان ما بيَّن، صار ذلك لحصول الخوفِ في القلوب، فقال سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أيُّها النبيُّ، أو أيُّها الإنسانُ ﴿وَكِيلًا﴾، فهو جلَّ جلالُه يدفع كيدَ الشيطانِ ويحفظ منه.

والقلبُ يميلُ إلى عدم كونِه خطاباً للشيطانِ وإنْ كان في السابق له.

واستُدلَّ بالآية على أَنَّ المعصومَ مَن عصمه اللهُ تعالى، وأنَّ الإنسانَ لا يُمكنه أن يحترزَ بنفسه عن مواقع الضَّلال، وإلَّا لَقيل: وكفى بالإنسان وكيلاً لنفسه.

هذا وهاهنا سؤالانِ ذكرهما الإمام[١] مع جوابَيهما؛ الأوَّل: أنَّ إبليسَ هل كان عالماً بأنَّ الذي تكلَّم معه بهذه التهديداتِ هو إلهُ العالَم، أو لم يكن عالماً، فإنْ كان الأوَّل، فكيف لم يَصِر الوعيد الشديدُ بقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ مانعاً له من المعصية مع أنَّه سمعه من الله جلَّ جلالُه من غيرِ واسطة؟ وإنْ كان الثاني، فكيف قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾؟

والجواب: لعلَّه كان شاكًّا في الكلِّ، وكان يقولُ في كلِّ قِسمٍ ما يخطر ببالِه على سبيل الظنّ.

وأقول: لا يخفَى ما في هذا الجواب، والحقُّ فيه أنَّه كان جازماً بأنَّ الذي تكلَّم معه بذلك هو إلهُ العالَم جلَّ وعلا، إلَّا أنَّه غلبت عليه شِقوتُه التي استعدَّت لها ذاتُه، فلم يَصِر الوعيدُ مانعاً له؛ ولذا حين تُنصَب لهلاكه الحبائلُ إذا جاء وقتُه، ويعاينُ من العذاب ما يعاين، وتضيق عليه الأرضُ بما رَحُبت، فيقال له: ٱسجد اليومَ لآدم عليه السلام لتنجو، لا يسجد، ويقول: لمْ أَسجدْ له حيًّا، فكيف أَسجد له ميتاً؟ كما ورد في بعض الآثار[٢]. وليس هذا بأعجبَ من حال الكفَّارِ الذين

(١) في تفسيره ٢١/٩.

(٢) منها ما أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان كما في الدر المنثور ١/٥١ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

يعذّبون يومَ القيامةِ أشدَّ العذابِ على كفرهم، ويطلبون العودَ ليؤمنوا، حيث أَخبر اللهُ تعالى بأنَّهم لو رُدُّوا لَعادوا لما نُهوا عنه.

وربَّما يقال: إنَّ اللعينَ مع هذا الوعيدِ له أملٌ بالنَّجاة، فقد حُكي أنَّ مولانا عبدَ الله التُّستَريَّ سأل اللهَ تعالى أن يُريَه إبليس، فرآه، فسأله: هل تطمعُ في رحمة اللهِ تعالى؟ فقال: كيف لا أَطمعُ فيها واللهُ سبحانه يقول: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ وأنا شيءٌ من الأشياء، فقال التُّستَري: ويلَك إنَّ الله تعالى قيَّد في آخِر الآية، فقال إبليسُ له: ويحكَ ما أَجهلَك، القيدُ لك لا له. ولعلَّه يزعمُ أنَّ آياتِ الوعيدِ مطلقاً مقيَّدة بالمشيئة وإنْ لم تُذكَر، كما يقوله بعضُ الأشاعرةِ في آيات الوعيدِ للعُصاة من المؤمنين.

السؤال الثاني: ما الحكمةُ في أنَّ اللهَ تعالى أَنظره إلى يوم القيامةِ ومكَّنه من الوسوسةِ، والحكيمُ إذا أراد أمراً وعلم أنَّ له مانعاً يمنع من حصولِه، لا يسعَى في تحصيلِ ذلك المانع؟

والجواب: أمَّا على مذهبنا فظاهر، وأمَّا المعتزلة، فقال الجبَّائي منهم: إنَّ اللهَ تعالى علم أنَّ الذين يكفرون عند وسوسةِ إبليسَ يكفرون بتقديرِ ألَّا يوجد، وحينئذٍ لم يكن في وجوده مزيدُ مفسدة. وقال أبو هاشم: لا يَبعُد أن يحصُلَ من وجوده مزيدُ مفسدة، إلَّا أنَّه تعالى أَبقاه تشديداً للتكليفِ على الخلق؛ ليستحقُّوا بذلك مزيدَ الثواب.

وأنا أقول: إنَّ إبليس ليس مانعاً ممَّا يريده اللهُ جلَّ مجدُه وتعالى جدُّه، فما شاء اللهُ سبحانه كان وما لم يشأ لم يكن، واللهُ تبارك وتعالى خلق الخلقَ طِبقَ عِلمِه، وعَلِمَ به طبقَ ما هو عليه في نفسه، فافهمْ، والله تعالى أعلم.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦﴾

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ﴾ مبتدأٌ وخبر. وقيل: الموصولُ صفةُ «ربكم» وهو صفةٌ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمۡ﴾ [الآية: ٥١] أو بدلٌ منه، وذلك جائزٌ وإنْ تباعد ما بينهما. اهـ. وفيه ما فيه.

وأصل الإزجاءِ السَّوقُ حالاً بعد حال، والمرادُ به الإجراء، وكأنَّ اختيارَه عليه لِمَا أنَّه أدلُّ منه على القَسْر، وهو أوفقُ بالمقام، وأَعظمُ في الإنعام. أي: هو سبحانَه وتعالى القادرُ الحكيمُ الذي يُجري لنفعكم السفنَ في البحر بالرِّيح الليِّنة وبالآلات، حَسبَما جرت به عادتُه تعالى.

﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ تصريحٌ بالنفع، أي: لتطلبوا مِن رزقه الذي هو فضلٌ من قِبَله سبحانه، أو من الرِّبح الذي هو جلَّ شأنُه معطيه. و«مِن» تبعيضية[1]، وتفسيرُ الفضلِ بالحجِّ أو الغزوِ غيرُ مناسب. وهذا تذكيرٌ لبعض النِّعمِ التي هي دلائلُ التوحيدِ الذي هو المرادُ الأصليُّ من البعثة، وتمهيدٌ لِذِكر توحيدِهم عند مَساس الضُّرِّ؛ تكملةً لما مرَّ من قوله سبحانه: «فلا يملكون» الآية.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أزلاً وأبداً ﴿بِكُمۡ رَحِيمًا ٦٦﴾ حيث هيَّأ لكم ما تحتاجون إليه، وسهَّل عليكم ما يَعسُر من مباديه. وهذا تذييلٌ فيه تعليلٌ لما سبق من الإزجاء والابتغاءِ للفضل. وصيغةُ الرحيم ـ كما في «إرشاد العقلِ السليم»[2] ـ للدَّلالة على أنَّ المرادَ بالرَّحمة الرحمةُ الدنيوية، والنعمةُ العاجلةُ المنقسمةُ إلى الجليلةِ والحقيرة، وهو مبنيٌّ على اختصاص الرَّحيمِ بالدنيا كما هو المشهور، وعليه:

---

(١) في الأصل: ومن ربح أو تبعيضية. وفي تفسير أبي السعود ٥/ ١٨٤: ومن مزيدة أو تبعيضية.

(٢) ٥/ ١٨٥.

«يا رحمنَ الدنيا والآخرة، ورحيمَ الدنيا»، وقيل بعدم الاختصاص، وعليه: «يا رحمن الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما[(١)]».

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ خوفُ الغرقِ بعصف الرِّيح وتقاذفِ الأَمواج ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ أي: ذهب عن خواطركم كلُّ مَن تدعونه وترجون نفعَه، فلا تَذكُرونه ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ جلَّ وعلا، فإنَّكم تذكرونه وحدَه سبحانه، ولا تذكرون سِواه، ولا يَخطُر ببالكم غيرُه تعالى لكشفِ ما حلَّ بكم من الضُّرّ، استقلالاً أو اشتراكاً. فالمرادُ بضلالهم غَيبتُهم عن الفِكر، لا عن النظر والحِسّ؛ لأنَّه أمرٌ معلومٌ من قولهم: ضلَّ عنه كذا، إذا نسيه.

وفي «الكشف»: هو من: ضلَّ عنه كذا، إذا ضاع، ولا حاجةَ إلى تضمين، أو مِن: ضلَّه فلانٌ: ذهب عنه فلم يقدر عليه، ذكره الأَزهريُّ وأنشد:

والسائلُ المبتغي كرائمَها ... يعلم أني تَضِلُّني عِلَلي[(٢)]

أي: تفارقني وتذهب عني فلا أتعلَّل بعِلَّة، وهذا أظهر، نَعَم الضلالُ راجعٌ إلى الذِّكر لا بمعنى إِضمارِه، فإنَّه ركيك، يقال: ضلَّ عن خاطري كذا: إذا لم تذكرْه، فإنَّه ضلالٌ له لا أنَّه ضلالُ ذِكرُه، ولا تقول: ضلَّ عن خاطري ذِكره، وكذلك: ضلَّني الأمر. اهـ.

والدعاءُ في هذا على ظاهرِه، والاستثناءُ متصل، بناءً على أنَّ «ما»[(٣)] عبارةٌ عن المدعوِّين مطلقاً، وأنَّهم كانوا يَدعون اللهَ تعالى وغيرَه في الحوادث، وإنْ كانت ما[(٣)] عبارةً عن آلهتهم الباطلةِ فقط، وأنَّهم كانوا في حالة السرَّاءِ يدعونها وحدَها كما يدلُّ عليه ظاهرُ ما بعد، فالاستثناءُ منقطع، وفسِّر الدعاءُ على هذا بدعاء العبادةِ واللَّجأ. وقال أبو حيان[(٤)]: الظاهرُ الانقطاع؛ لأنَّه تعالى لم يندرجْ في «مَن تدعون»، إذ المعنى: ضلَّت آلهتهم، أي: معبوداتُهم، وهم لا يعبدون اللهَ تعالى.

---

(١) ورد ضمن حديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ١٥٩ عن معاذ بن جبل، والحاكم ١/ ٥١٥ عن عائشة ﵂.

(٢) تهذيب اللغة ١١/ ٤٦٢-٤٦٣ والبيت لإبراهيم بن هرمة كما في التاج (ضلل).

(٣) كذا في الأصل و(م)، والصواب: من.

(٤) في البحر ٦/ ٦٠.

وتعقِّب بأنَّ مقتضَى كونِهم مشركين أنَّهم يعبدونه سبحانَه أيضاً، لكن على طريق الإشراك، بل قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] كما قصَّ سبحانه عنهم يقتضي أنَّه جلَّ مجدُه المعبودُ الحقيقيُّ عندهم. وقد يقال: إنَّ الشارع أسقط مثلَ هذه العبادةِ عن درجة الاعتبار، فهم غيرُ عابدِين اللهَ جلَّ وعلا شرعاً، بل قيل: إنَّهم غيرُ عابدِين لغةً؛ لأنَّ العبادة لغةً غايةُ الخضوعِ والتذلُّل، ولا يتحقَّق ذلك مع الشَّركة ولو على الوجهِ الذي زعموه، فتأمَّل.

وجوَّز غيرُ واحدٍ أن يكونَ المعنى: ضلَّ مَن تدعونه عن إغاثتكم إلَّا إيَّاه تعالى. والضلالُ فيه إمَّا بمعنى الغَيبة، أو بمعنى عدمِ الاهتداءِ منه[1]، كأنَّه قيل: ضلَّ عن محجَّة الصوابِ في إنقاذكم ولم يَقدِر على ذلك، وأمرُ الاستثناءِ من الاتِّصال والانقطاع، ومبنَى كلٍّ على حاله.

والزمخشريُّ[2] جوَّز أن يكونَ المعنى: ضلَّ مَن تدعون من الآلهةِ عن إغاثتكم، ولكنَّ اللهَ تعالى هو الذي ترجونه، وجعل الاستثناءَ عليه منقطعاً، فقيل: إنَّ ذلك لتخصيصه المدعوِّين بالآلهةِ.

وفي «الكشف»: لعلَّ الوجهَ فيه أنَّه تعالى ما كانوا يدعونه ـ أي: دعاءَ العبادةِ واللَّجأ ـ إلَّا في تلك الحالة، وأمَّا في حالة السَّرَّاء، فيخصُّون آلهتَهم بالدُّعاء، والتحقيقُ أنَّ الضلالَ بهذا المعنى لم يتناول الحقَّ سبحانه؛ لأنَّ معناه: ضلَّ المدعوُّون وغابوا عن إغاثتهم، ولا يُراد: غابوا وحضر جلَّ وعلا، بل المراد: ولكن رجَوا أن يغيثَهم ولا يخذُلَهم فعلُ المدعوِّين على حسبانهم، وهذا هو الوجهُ إنْ شاء اللهُ تعالى. اهـ.

ومبنى التحقيقِ لا يخفى على المتدرِّب في علم النَّحو.

هذا ومن اللطائفِ أنَّ بعضَ الناسِ قال لبعض الأئمَّة: أَثبِتْ لي وجودَ اللهِ تعالى ولا تذكرْ لي الجوهرَ والعَرَض، فقال له: هل ركبتَ البحر؟ قال: نعم، قال: فهل عَصَفت الرِّيح؟ قال: نعم، قال: فهل أَشرفت بك السفينةُ على الغرق؟ قال: نعم،

(١) لفظة: منه، ليست في الأصل.
(٢) في الكشاف ٢/ ٤٥٧.

قال: فهل يئستَ مِن نفعِ مَن في السفينة ونحوِهم من المخلوقين لك وإنجائهم ممَّا أنت فيه إيَّاك؟ قال: نعم، قال: فهَل بقي قلبُك متعلِّقاً بشيءٍ غيرِ أولئك؟ قال: نعم، قال: ذلك هو اللهُ عزَّ وجلَّ، فاستحسنَ ذلك.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من الضُّرِّ وأَوصلكم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن ذِكره تعالى بعد أنْ كنتم غيرَ ذاكرين إلَّا إياه سبحانه. أو أَعرضتم عن توحيده جلَّ وعلا، أو عن شكره عزَّ وجلَّ بتوحيده وطاعتِه سبحانه، أو توغَّلتم في التوسُّع في كُفران النِّعمة، على أنَّه من العَرْض مقابل الطول، وجُعل كنايةً عن ذلك كما في قول ذي الرُّمَّة:

عطاءُ فتًى تمكَّن في المعالي فأَعرضَ في المكارمِ واستطالا[1]

وكأنه أُريد: أَعرضتم واستطلتم في الكُفران، إلَّا أنَّه استُغني بذِكر العَرْض عن ذِكر الطولِ للزومه له.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ كالتعليل للإعراض، وهو بيانٌ لحكم الجِنس، ويُعلَم منه حكمُ أولئك المخاطَبين. وفيه لطافة، حيث أَعرض سبحانه عن خِطابهم بخصوصِهم وذكر أنَّ جنسَ الإنسانِ مجبولٌ على الكُفران، فلمَّا أَعرضوا أَعرض اللهُ سبحانه عنهم.

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزةُ للإنكار، على معنى أنَّه لا ينبغي الأمن، والفاءُ للعطف على محذوفٍ متوسِّط بينها وبينَ الهمزة، أي: أَنجوتم فأَمنتم؟ وهو مذهبُ بعضِ النحويِّين. واختار بعضُهم أنَّ الهمزةَ مقدَّمة من تأخير؛ لأَصالتها في الصَّدارة، والعطف على ماقبلَه، وجملةُ «كان الإنسان...» إلخ معترِضةٌ بين المتعاطفَين، ولا حذفَ في مثل ذلك. وهو مذهبُ الأكثرين، لكن لا يظهر تسبُّب الإنكار للأَمن على ما قبلُ على ما يقتضيه هذا المذهب، بل الظاهرُ ترتُّبه على النَّجاة فقط، ولا مدخلَ للإعراض في تسبُّب الإنكار.

والحقُّ عندي في أمثالِ ذلك ما فيه استقامةُ المعنى من غير تكلُّف، ولا يتعيَّن التزامُ أحدِ المذهبَين، وإنْ أدَّى إلى التكلُّف فإنَّه تعصُّب محض.

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٤٨، والبيت في الديوان ٣/ ١٥٤٩، والشطر الأول فيه: تبوَّأ فابتنى وبنى أبوه. وهو في أمالي القالي ١/ ١٢١ برواية: عطاء فتى بنى وبنى أبوه...

والخطابُ لمن تقدَّم: أَفأَمنتم أيُّها المعرِضون عند النجاةِ ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الذي هو مأمُنكم، أي: أن يغيِّبَه اللهُ تعالى ويذهبَ به في أعماق الأرضِ مصاحباً بكم، أي: وأنتم عليه، على أنَّ الباءَ للمصاحبة والجارَّ والمجرورَ في موضعِ الحال.

وجوَّز أن تكونَ الباءُ للسببية والجارُّ والمجرورُ متعلِّق بما عنده، أي: أن يغيِّبَه سبحانَه بسببكم.

وتعقِّب بأنَّه لا يَلزم مِن قلبه بسببهم أن يكونوا مهلَكين مخسوفاً بهم.

وأُجيب بأنَّه حيث كان المرادُ من «جانب البر» جانبَه الذي هم فيه، استلزم خسفُه هلاكَهم، ولولا هذا لم يكن في التوعُّد به فائدة.

ونصب «جانب» في الوجهَين على أنَّه مفعولٌ به لـ «يخسف». وفي «الدُّرِّ المصون» أنه منصوبٌ على الظرفية[1]، وحينئذٍ يجوز كونُ الباءِ للتعدية، على معنى: أَفأمنتم أن يغيِّبَكم في ذلك.

وفي «القاموس»[2]: خسف اللهُ تعالى بفلانٍ الأرض: غيَّبه فيها. والظاهرُ أنَّه بيانٌ للمعنى اللغويِّ للَّفظ.

وفي ذكر الجانبِ تنبيهٌ على أنَّهم عندما وصلوا الساحلَ أعرضوا، أو ليكونَ المعنى أنَّ الجوانبَ والجهاتِ متساويةٌ بالنسبة إلى قدرتِه سبحانه وقهرِه وسلطانِه، فله في كلِّ جانب برًّا كان أو بحراً سببٌ مُرصَدٌ من أَسباب الهَلَكة، فليس جانبُ البحرِ وحده مختصًّا بذلك، بل إنْ كان الغرقُ في جانبِ البحر، ففي جانبِ البرِّ ما هو مثلُه، وهو الخسف؛ لأنَّه تغييبٌ تحت التُّراب، كما أنَّ الغرقَ تغييبٌ تحت الماء، فعلى العاقلِ أن يخافَ من اللهِ تعالى في جميع الجوانبِ وحيث كان.

والأوَّل على تقديرِ أن يرادَ بجانب البَرِّ طرفُه ممَّا يلي البحر، وهو السَّاحل، وهذا على احتمالِ أن يرادَ به ما يشمل جميعَ جوانِبه.

---

(١) قال في الدر المصون ٧/ ٣٨٤: فيه وجهان، أظهرهما أنه مفعول به.. والثاني: أنه منصوب على الظرف.

(٢) مادة (خسف).

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرو: «نَخسِفَ» بنون العَظَمة، وكذا في الأربعةِ التي بعده[١].

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ مِن فوقِكم ﴿حَاصِبًا﴾ أخرج ابنُ المنذر عن ابن عباس أنَّه قال: هو مطرُ الحجارة. أي: مطراً يَحصِبكم، أي: يرميكم بالحصباء، وهي صغارُ الحجارة. وأخرج ابن جَريرٍ وابنُ أبي حاتم عن قتادةَ أنَّه فسَّر الحاصبَ بالحجارة نفسِها[٢]، ولعلَّه حينئذٍ صيغةُ نسبة، أي: ذا حصب، ويراد منه الرَّمي. وقال الفرَّاء: الحاصب: الرِّيح التي ترمي بالحصباء. وقال الزَّجاج[٣]: هو الترابُ الذي فيه الحصباء، والصيغةُ عليه صيغةُ نسبةٍ أيضاً. وجاءَ بمعنى ما تناثر من دُقاق الثلجِ والبَرَد، ومنه قولُ الفرزدق:

مستقبلين شمالَ الشامِ تَضربهمْ بحاصبٍ كنَديف القطن منثورِ[٤]

وبمعنى السَّحابِ الذي يرمي بهما.

واختار الزمخشريُّ[٥] ومَن تبعه تفسيرَ الفرَّاء، والظاهرُ أنَّ الكلامَ عليه على حقيقته، فالمعنى: أو إنْ لم يُصِبْكم بالهلاك من تحتكم بالخسف، أصابكم به مِن فوقِكم بريحٍ يُرسلها عليكم فيها الحصباءُ يَرجمكم بها، فيكون أشدَّ عليكم من الغرقِ في البحر. ويقال نحوُ هذا على سائر تفاسيرِ الحاصب.

وقال الخَفاجيُّ[٦] في وصف الريحِ بالرَّمي بالحصباء: إنَّه عبارةٌ عن شدَّتها، وذِكرُها إشارةٌ إلى أنَّهم خافوا إهلاكَ الريحِ في البحر، فقيل: إنْ شاءَ أهلككم بالرِّيح في البرِّ أيضاً.

ولا أدري ما المانعُ من إرادة الظاهرِ والشدَّةُ تلزم الرميَ المذكورَ عادة، والإشارةُ هي الإشارة.

---

(١) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/٣٠٨.
(٢) تفسير الطبري ١٤/٦٦٩، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/١٩٣.
(٣) في معاني القرآن ٣/٢٥١.
(٤) ديوان الفرزدق ١/٢١٣.
(٥) في الكشاف ٢/٤٥٨.
(٦) في حاشيته ٦/٤٨.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨﴾ تكِلون إليه أمورَكم فيحفظكم من ذلك أو يَصرفه عنكم، غيرَه جلَّ وعلا، فإنَّه لا رادَّ لأمره الغالبِ جلَّ جلالُه.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أي: بل أأمنتم ﴿أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي: في البحر الذي نجَّاكم منه فأعرضتم برُكوب الفُلك، لا في الفلك؛ لأنَّها مؤنَّثة. وأُوثرت كلمةُ «في» على كلمة إلى المنبئةِ عن مجرَّد الانتهاء؛ للدَّلالة على استقرارِهم فيه.

﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: مرةً غيرَ المرةِ الأُولى. وهو منصوبٌ على الظرفية، ويُجمع على: تارات وتِيَر، كما في قوله:

يقوم تاراتٍ ويمشي تِيَرا[1]

وربَّما حذفوا منه الهاء، كقوله:

بالويل تاراً والثُّبورِ تارا[2]

وإسنادُ الإعادةِ إليه تعالى مع أنَّ العودَ باختيارهم وممَّا يُنسَب إليهم ـ وإنْ كان مخلوقاً له سبحانه كسائر أفعالِهم ـ باعتبار خلقِ الدَّواعي فيهم الملجئةِ إلى ذلك. وفيه إيماءٌ إلى كمال شدَّةِ هولِ ما لاقَوه في التارة الأولى، بحيث لولا الإعادةُ ما عادوا.

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ وأنتم في البحرِ ﴿قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ وهي الريحُ الشديدةُ التي تقصف ما تمرُّ به من الشجر ونحوِه، أو التي لها قَصيف، وهو الصوتُ الشديد، كأنها تتقصَّف، أي: تتكسَّر.

وأَخرج ابنُ جَريرٍ[3] وابنُ المنذر عن ابن عباسٍ ﵄ أنَّه قال: القاصفُ من الرِّيح الريحُ التي تُغرق. وقيل: الريحُ المهلِكةُ في البرِّ حاصب، والريحُ المهلكةُ في البحر قاصف، والعاصفُ كالقاصف، كما رُوي عن عبد الله بنِ عَمرو. وفي روايةٍ عن ابن عباسٍ تفسيرُ القاصفِ بالعاصف.

---

(١) الصحاح (تير) واللسان (تور) دون نسبة.

(٢) الصحاح واللسان (تير) دون نسبة.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٦٧١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ١٩٣.

وقرأ أبو جعفر: «من الرِّياح» بالجمع(١).

﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ اللهُ سبحانه بواسطةِ ما ينال فُلْكَكم من القاصف.

وقرأ أبو جعفر: «فتُغرِقَكم» بالتاء ثالثةِ الحروف(٢)، على أنَّ الفعل مسنَدٌ إلى الرِّيح. والحسنُ وأبو رجاء: «فيُغَرِّقَكم» بالياء آخرِ الحروفِ وفتحِ الغين وشدِّ الراء(٣). وفي روايةٍ عن أبي جعفرٍ كذلك، إلَّا أنَّه بالتاءِ لا الياء(٤). وقرأ حميدٌ بالنون وإسكان الغينِ وإدغام القافِ في الكاف، ورُويت عن أبي عمرٍو وابنِ مُحَيصن(٥).

﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب كفرِكم السابق، وهو إعراضُهم عند الإنجاء في المرَّة الأولى. وقيل: بسبب كفرِكم الذي هو دأبُكم دائماً.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ أي: نصيراً، كما رُوي عن ابن عباس، أو ثائراً يطلبنا بما فعلنا انتصاراً منَّا أو دَرْكاً للثأر من جهتِنا، فهو كقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٤-١٥] كما رُوي عن مجاهد.

وضميرُ «به» قيل: للإرسال. وقيل: للإغراق. وقيل: لهما، باعتبار ما وقع ونحوِه، كما أُشير إليه.

وكأنَّه سبحانه لمَّا جعل الغرقَ حين الإعادة إلى البحر انتقاماً في مقابلةِ الكفر، عقَّبه تعالى بنفي وجدانِ التَّبيع، فكأنَّه قيل: ننتقم من غيرِ أن يقومَ لنصركم، فهو وعيدٌ على وعيد، وجعَلَ ما قبلُ من شِقِّ العذاب كمسِّ الضُّرِّ في البحر، عقَّبه بنفي وجدانِ الوكيل، فكأنَّه قيل: لا تجدون مَن تتَّكلون عليه في دفعه غيرَه تعالى؛ لقوله سبحانه: (ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ) وهذا اختيارُ صاحبِ «الكشف» فلا تغفُل.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أي: جعلناهم قاطبةً، برَّهم وفاجرَهم، ذوي كَرَم، أي: شرفٍ ومحاسنَ جمَّة لا يُحيط بها نطاقُ الحصر.

---

(١) النشر ٢/ ٢٢٣.
(٢) النشر ٢/ ٣٠٨.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٦١.
(٤) النشر ٢/ ٣٠٨.
(٥) البحر ٦/ ٦١.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كرَّمهم سبحانَه بالعقل. وفي رواية: بتناولهم الطعامَ بأيديهم، لا بأفواهِهم كسائرِ الحيوانات.

وعن الضحَّاك: بالنُّطق. وعن عطاء: بتعديل القامةِ وامتدادِها. وعن زيد بنِ أَسلَم: بالمطاعم واللذَّات. وعن يمان: بحسن الصُّورة. وعن ابن جَرير[1]: بالتسلُّط على غيرهم من الخلقِ وتسخيرِه لهم. وعن محمد بنِ كعب: بجعل محمدٍ ﷺ منهم.

وقيل: بخلق اللهِ تعالى أباهم آدمَ بيديه. وقيل: بتدبير المعاشِ والمعاد. وقيل: بالخطِّ. وقيل: باللِّحية للرَّجل والذُّؤابةِ للمرأة. وقيل وقيل، والكلُّ في الحقيقةِ على سبيلِ التمثيل، ومَن ادَّعى الحصرَ في واحد ـ كابن عطيةَ حيث قال[2]: إنَّما التكريمُ بالعقل لا غير ـ فقد ادَّعى غلطاً، ورام شَطَطاً، وخالف صريحَ العقل، وصحيحَ النقل. ولذا استدلَّ الإمام الشافعيُّ بالآية على عدم نجاسةِ الآدميِّ بالموت.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ على أكبادٍ رطبةٍ وأعوادٍ يابسةٍ من الدوابِّ والسفن. فهو من: حملتُه على كذا، إذا أعطيتَه ما يركبه ويَحمله، فالمحمولُ عليه مقدَّر بقرينة المقام. وقيل: المرادُ من حملِهم في البرِّ والبحرِ جعلُهم قارِّين فيهما بأن لم يَخسف بهم الأرضَ ولم يُغرِقهم بالماء. والأولُ أنسبُ بالتكريم؛ إذ لا يثبتُ لشيءٍ من الحَيَوانات سواهم، بخلافِ الثاني.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: فنونِ النِّعم وضروبِ المستلَذَّات ممَّا يحصُل بصُنعهم وبغير صنعِهم، من المأكولاتِ والملبوساتِ والمفروشاتِ والمقتنَيات وغيرِ ذلك.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ قيل: أي: بالتكريم المذكورِ ﴿عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ عظيماً. والمرادُ أنَّ ذلك مخصوصٌ بهم بالنِّسبة إلى الكثير، فلم يكرَّم الكثيرُ كما كُرِّموا.

وبحث الإمامُ[3] في هذا المقامِ بأنَّه تعالى قال أوَّلاً: «ولقد كرمنا بني آدم» وقال سبحانَه هنا: «وفضلناهم» فلا بدَّ من فرقٍ بين التكريمِ والتفضيل؛ لئلَّا يلزمَ

---

(١) في تفسيره ١٤/ ٦٧٢-٦٧٣.
(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣.
(٣) في التفسير الكبير ٢١/ ١٥-١٦.

التَّكرار. والأَقربُ في ذلك أن يقال: إنَّه تعالى فضَّل الإنسان على سائرِ الحيواناتِ بأمور خَلقية طبيعيةٍ ذاتية، مثلِ العقلِ، والنُّطق، والخطّ، والصورةِ الحسنة، والقامةِ المديدة، ثم إنه عزَّ وجلَّ عرَّضه بواسطة العقلِ والفهمِ لاكتساب العقائدِ الحقَّة والأخلاق الفاضلة، فالأولُ هو التكريم، والثاني هو التفضيل، فكأنَّه قيل: فضَّلناهم بالتعريض لاكتسابِ ما فيه النجاةُ والزُّلفى بواسطة ما كرَّمناهم به من مبادي ذلك، فعليهم أنْ يشكروا ويَصرِفوا ما خُلِق لهم لما خُلق له، فيوحِّدوا الله تعالى ولا يُشركوا به شيئاً، ويَرفضوا ما هم عليه من عبادة غيرِه عزَّ وجلّ. ويقال نحوُ هذا على ما سبق أيضاً بقليلِ تغيير.

وقال الطِّيبي: قد كرَّر في الآية ما يُنبئُ عن غاية المدحِ من ذِكر الكرامةِ والتَّفضيل، وتسخيرِ الأشياءِ على سبيل الترقِّي، كأنَّه قيل: ولقد كرَّمنا بني آدم بكرامةِ أبيهم عليه السلام، ثم سخَّرنا لهم الأشياءَ ورزقناهم من الطيِّبات، ثم فضَّلناهم تفضيلاً أيَّ تفضيل؛ ولذا عقَّب بها قولَه سبحانه: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا...» إلخ، وهو لبيان كرامةِ أبيهم، وما توسَّط بينهما من الآياتِ كالاستطرادِ والاعتراض... إلى آخرِ ما قال.

ويُعلَم منه دفعُ التكرارِ وإنْ لم يَسُقْه لذلك الغرض. وفيه تخصيصُ التكريم، وكذا فيما قيل: إنَّ التكريمَ بالنِّعم التي يصحُّ بها التكليفُ، والتفضيلَ بالتكليف الذي عرَّضهم به للمُنازَلة الرفيعة.

والمرادُ بالكثير مَن عدا الملائكةَ عليهم السلام عندَ الكثير، ومنهم الزمخشريُّ[1]، وزعم أنَّ الآيةَ صريحةٌ في تفضيل المَلَكِ على البشر، وشنَّع على أهل السُّنَّة تشنيعاً أقذعَ فيه.

والحقُّ أنَّها لا تصلُح للاحتجاج على التفضيل المتنازَعِ فيه، ففي «الكشف» أنَ الظاهرَ من سياق الآيةِ أنَّه حثٌّ للإنسان على الشُّكر، وعلى ألَّا يشركَ به تعالى، حيثُ ذكر ما في البرِّ والبحرِ من حسن كلاءتِه سبحانه له، وضمَّن فيه أنَّه جلَّ وعلا هداهم إلى الفُلك وصَنعته وما يترتَّب عليه من الفوائدِ في قوله سبحانه: «ربكم الذي يزجي لكم الفلك» الآياتِ، فقال عزَّ وجلّ: «ولقد كرمنا بني آدم» أي: هذا

(١) في الكشاف ٢/ ٤٥٨.

النوعَ من بين سائرِ الأنواع باصطناعاتٍ خصصناهم بها، فذَكَرَ تعالى منها حملَهم في البرِّ والبحر، ورزقَهم من الطيِّبات، وتفضيلَهم على كثيرٍ من المخلوقات، وهذا التفضيلُ لا يراد منه عِظَمُ الدرجةِ وزيادةُ القُربة عند الله تعالى، وهو المتنازَعُ فيه؛ لأنَّ الحكمَ للنَّوع من حيث هو، وذَكَرَ اللهُ تعالى لذلك موجباتٍ تَعمُّ الصالحَ والطالح، فسواءٌ دخل في هذا الكثيرِ الملائكةُ أو لم يدخلْ لم يدلَّ على الأفضلية بالمعنى المذكور، فلا يصلُح لاحتجاج إحدى الطائفتَين. اهـ.

ثم إنَّه على فَرْض أنَّ التفضيلَ بالمعنى المتنازَعِ فيه، لاتدلُّ الآيةُ على أنَّ المَلَكَ أفضلُ من البشر إلَّا بطريق المفهوم، وفي حجِّيته خلاف، وأبو حنيفةَ ﷺ لا يقولُ به، على أنَّه يدلُّ على أنَّهم فضِّلوا على الكثير ولم يفضَّلوا على مقابِله، وهو يحتمل المساواةَ وتفضيلَ المقابل، فليس نصًّا في مذهبِ الزمخشريّ.

وجعل الطِّيبيُّ «مِن» بيانية؛ كما في قولِك: بذلتُ له العريضَ مِن جاهي، أي: فضَّلناهم على الكثيرين الذين خلقناهم مِن ذوي العقول، كما هو الظاهرُ مِن «مَن» وهم منحصرونَ في المَلَك والجِنِّ والبشر، فحيث خرج البشر؛ لأنَّ الشيءَ لا يفضَّل على نفسه، بقي المَلَكُ والجِنّ، فيكون المرادُ بيانَ تفضيلِ البشرِ عليهم جميعاً، وهو الذي يقتضيه مقامُ المدح، فإنَّ الآيةَ مسوقةٌ له، وإذا جُعلت للتبعيض كان «ممن خلقنا» بدلاً، أي: فضَّلناهم على بعضِ المخلوقين.

وذِكرُ البعضِ في هذا المقامِ يدلُّ على تعظيم المفضَّلِ عليه، كما قرِّر في قولِه تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وأيُّ مدحٍ لبني آدمَ وإثباتٍ للفضل والكرامةِ بالجملة القَسَمية إذا جُعلوا مفضَّلين على الجِنِّ والشَّياطين، على أنَّ صفةَ الكثرةِ إذا جُعلت مخصِّصةً لإخراج البعض، كانت الملائكةُ أَوْلى من الجِنِّ والشياطين؛ لأنَّهم هم الموصوفون بالكثرة، كما تدلُّ عليه الأخبارُ الكثيرة، كخبر أَطيطِ السماء[(١)]، وخبرِ نزولِ قَطَرات المطر[(٢)]، وخبرِ ما يدخل البيتَ المعمورَ في

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٣١٢) عن أبي ذرّ ﷺ، وسلف ٢/ ٨٧.
(٢) أخرج ابن جرير ١٤/ ٤٠-١٤، وأبو الشيخ في العظمة (٤٩٥) عن الحكم بن عتيبة: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم يُحْصُون كلَّ قطرة حيث تقع وما تنبت.

كلِّ يومٍ من الملائكة[(١)]، إلى غير ذلك، وإليه ينظر قولُ صاحبِ «التقريب»: إنَّه يحتمل أن يرادَ بـ «كثيرٍ ممَّن خلقنا» الملائكةُ؛ إذ هم كثيرٌ من العقلاءِ المخلوقين. اهـ.

وتعقِّب بأنَّ ما ذكره مِن حَمل «مَن خلقنا» على تعميمِ ذوي العقولِ مقبول، فإنَّ تفضيلَهم على غيرِ ذوي العقولِ حينئذٍ آتٍ من طريق مفهومِ الموافقة، فلا حاجةَ إلى ارتكابِ خلاف الظاهرِ واعتبارِ تغليبِهم ليعمَّهم وغيرَهم، لكنَّ حَمل «مِن» على البيانِ غيرُ مقبول؛ فإنَّه بعيدٌ جدًّا؛ لأنَّ قيدَ الكثرةِ يضيِّع عليه حملَ «مِن» على التعميم التغليبيِّ أو الوضعيّ، ولأنَّ استعمالَه في التبعيض شائعٌ أينما وقع في التنزيلِ واستعمالاتِ الفصحاء، وهو أكثرُ تعسُّفاً من حمله على ابتداء[(٢)] الغاية في قوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[(٣)] [المائدة:٦] على ما ذكره الزمخشريُّ[(٤)] فيه، وأنَّه إذا قوبل بشيءٍ آخَرَ دلَّ على القلَّة في المقابل، كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٦] فإنَّه صرَّح بأنه يدل على أنَّ الغلبةَ للفسَّاق للمقابلة، أمَّا ما ورد ابتداءً فربَّما كان الأكثرُ خلافَ ذلك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥] فقولُه: إنَّ صفةَ الكثرةِ إذا جُعلت مخصِّصة... إلخ، كلامٌ لم يَصدر عن ثبت، ولهذه النُّكتةِ قال صاحبُ «التقريب»: يحتمل...، دلالةً على أنَّه مرجوح.

هذا ثم إنَّ مسألة التفضيلِ مختلَفٌ فيها بين أهل السُّنة، فمنهم مَن ذهب إلى تفضيلِ الملائكة، وهو مذهبُ ابنِ عباس ﷺ، واختيارُ الزجَّاجِ[(٥)] على ما رواه الواحديُّ في «البسيط».

ومنهم مَن فصَّل فقال: إنَّ الرُّسل من البشر أفضلُ مطلقاً، ثم الرُّسل من الملائكةِ على مَن سواهم من البشرِ والملائكة، ثم عموم الملائكةِ على عموم

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) عن مالك بن صعصعة ﷺ.
(٢) لفظة: ابتداء. ليست في (م).
(٣) في الأصل و(م): فامسحوا برؤوسكم وأرجلكم منه. ولا توجد آية بهذا اللفظ.
(٤) في الكشاف ١/ ٥٢٩.
(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٢.

البشر. وهذا ما عليه أصحابُ الإمامِ أبي حنيفةَ عليه الرحمةُ وكثيرٌ من الشافعيةِ والأشعرية.

ومنهم مَن عمَّم تفضيلَ الكُمَّلِ من نوع الإنسان نبيًّا كان أو وليًّا.

ومنهم مَن فضَّل الكَروبيِّين[(١)] من الملائكةِ مطلقاً، ثم الرسلَ من البشر، ثم الكمَّلَ منهم، ثم عمومَ الملائكةِ على عمومِ البشر. وهذا ما عليه الإمامُ الرازيّ، وبه يُشعر كلامُ الغزاليِّ في مواضعَ عديدةٍ في كتبه.

ومن هذا يُعلَم أنَّ إطلاق القولِ بأنَّ أهلَ السُّنةِ يفضِّلون البشرَ على المَلَك ليس على ما ينبغي. وهذه المسألةُ ومسألةُ تفضيلِ الأئمَّة ليستا مما يُبدَّع الذاهبُ إلى أحدِ طرفَيهما على ما في «الكشف»؛ إذ لا يرجع إلى أصلٍ في الاعتقاد، ولا يستند إلى قطعيٍّ بعد أن يسلمَ من الطَّعن، وما يخلُّ بتعظيمٍ في المسألتين، لكنَّ المشهورَ في مسألة تفضيلِ الأئمَّة أنَّ القولَ بخلاف ما استقرَّ عليه رأيُ أهلِ السُّنة ابتداع، ومَن أنصف قال بما في «الكشف»، فهَذَرُ الزمخشريِّ على مَن خالفه محضُ جهالة إذا لم يكن بتلك الغايةِ، فكيف وهو قد بلغ فيه من السَّفاهة غايتَها، ومن البذاذةِ نهايتَها؟ وسيرى جزاءَ ذلك.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ شروعٌ في بيان تفاوتِ أحوال بني آدمَ في الآخرة بعد بيانِ حالِهم في الدنيا. و«يوم» مفعولٌ به لفعلٍ محذوف، أي: اذكر يومَ ندعوا... إلخ.

وجوَّز ابن عطيةَ[(٢)] وغيرُه أن يكونَ ظرفاً لفعلٍ يدلُّ عليه «لا يُظلمون» ولم يُجعل ظرفاً له بناءً على أنَّ الفاءَ لا يعمل ما بعدَها فيما قبلَها ولو ظرفاً.

وجوَّز أيضاً أن يكون مبتدأً، وهو مبنيٌّ لإضافته إلى غير متمكِّن، والخبرُ جملةُ «فمن أوتي..» إلخ[(٣)]، ويقدَّر للرَّبط فيها «فيه» وفيه. أنَّ المنقسمَ إلى متمكِّن وغير متمكِّنٍ هو الاسمُ لا الفعل، وما في حيِّزه هنا فعلٌ مضارع، على أنَّ بناءَ أسماءِ

---

(١) هم المقربون من الملائكة. المعجم الوسيط (كرب).

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣.

الظروفِ المضافةِ إلى جملةٍ هو أحدُ ركنَيها، بناءً على مذهبِ الكوفيين، والبصريُّون لا يجوِّزون ذلك، ومع هذا هو تخريجٌ متكلَّف.

وجوَّز أيضاً كونَه ظرفاً لـ «فضلناهم»، قال: وتفضيلُ البشرِ على سائر الحَيَواناتِ يومَ القيامة بيِّن[1]، وبه قال بعضُ النُّحاة، إلَّا أنَّه قال: فضَّلناهم بالثَّواب. وفيه أنَّه أيُّ تفضيلٍ للبشر ذلك اليومَ والكفَّارُ منهم أخسُّ من كلِّ شيء؟ إلَّا أن يقال: يكفي في تفضيل الجنسِ تفضيلُ بعضِ أفراده، أَلَا ترى صحَّةَ: الرِّجالُ أفضلُ من النِّساء، مع أنَّ مِن النساءِ مَن هي أفضلُ من بعض الرجالِ بمراتب. وأيضاً إذا أُريد التفضيلُ بالثَّواب، لا يصحُّ إخراجُ الملائكة؛ لأنَّ جنسَ البشرِ يُثابون، والملائكةُ عليهم السلام لا يُثابون، كما هو مقرَّر في محلِّه. ثم إنَّهم يشاركهم في الثوابِ الجِنّ؛ لأنَّ مؤمنيهم يُثابون كما يثاب البشرُ عند بعض. وقيل: إنَّ ثوابَهم دون ثوابِهم؛ لأنَّهم لا يرون اللهَ تعالى في الجنةِ عند مَن قال: إنَّ الله تعالى يُرى فيها، فالبشرُ مفضَّلون عليهم في الثَّواب من هذه الجهة.

وقيل: ظرف «يقرؤون» أو ما دلَّ عليه. وفيه أنَّهم لا يقرؤون كتابَهم وقتَ الدعوة. وأُجيب بأنَّ المرادَ بيومَ يدعون وقتٌ طويل، وهو اليومُ الآخِر الذي يكون فيه ما يكون، ويبقى في جَعلِه ظرفاً للمذكور حديثُ الفاء.

وقال الفرَّاء: وهو ظرفٌ لِنعيدكم محذوفاً. وقيل: ظرفٌ ليستجيبون. وقيل: هو بدلٌ من «يوم يدعوكم». وقيل: العاملُ فيه ما دلَّ عليه قولُه سبحانه: «متى هو» [الآية:٥١]. وهي أقوالٌ في غاية الضَّعف، وأَقربُ الأَقوالِ وأَقواها ما ذكرناه أوَّلاً.

والإمام: المقتدَى به والمتَّبع، عاقلاً كان أو غيرَه. والجارُّ والمجرورُ متعلِّق بـ «ندعو»، أي: ندعو كلَّ أناسٍ من بني آدمَ الذين فعلنا بهم في الدُّنيا ما فعلنا من التكريمِ وما عُطف عليه بمَن ائتمُّوا به، من نبيّ، أو مقدَّم في الدِّين، أو كتاب، أو دين، فيقال: يا أَتباعَ فلان، يا أهلَ دِين كذا أو كتابِ كذا.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣.

وأخرج ابنُ مردويه عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه قال: قال رسول الله ﷺ في الآية: «يُدعَى كلُّ قومٍ بإمام زمانِهم وكتابِ ربِّهم وسُنَّةِ نبيِّهم»[١].

وأخرج ابن أبي شيبةَ وابنُ المنذر وغيرُهما عن ابن عباسٍ أنَّه قال: إمامُ هدًى وإمامُ ضلالة[٢]. وأخرج ابن جَريرٍ[٣] من طريق العوفيِّ عنه رضي الله عنه أنَّه قال: بإمامهم: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحابَ كتابِ الخير، يا أصحابَ كتاب الشَّرّ. ورُوي ذلك عن أبي العالية والرَّبيعِ والحسن.

وقُرئ: «بكتابِهم»[٤] ولعل وجهَ كون ذلك إمامَهم أنَّهم متَّبِعون لِمَا يحكم به من جنةٍ أو نار.

وقال الضَّحاك وابنُ زيد: هو كتابُهم الذي نُزِّل عليهم.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وابنُ مردويه، والخطيبُ في «تاريخه» عن أنسٍ أنَّه قال: هو نبيُّهم الذي بُعث إليهم[٥]. واختار ابنُ عطيةَ[٦] - كغيره - عمومَ الإمام لِمَا ذُكِر في الآثار.

وقيل: المراد القُوى الحاملةُ لهم على عقائدِهم وأفعالِهم، كالقوَّة النظريةِ والعملية، والقوةِ الغضبيَّة والشَّهْوية، سواءٌ كانت الشهوةُ شهوةَ النُّقود، أو الضِّياع، أو الجاهِ والرِّياسة؛ ولاتِّباعهم لها دُعيت إماماً. وهو مع كونِه غيرَ مأثورٍ بعيدٌ جدًّا، فلا يقتدَى بقائله وإنْ كان إماماً.

وفي «الكشَّاف»[٧] أنَّ مِن بِدَع التفاسيرِ أنَّ الإمامَ جمعُ أُمّ، كخُفٍّ وخِفَاف، وأنَّ الناسَ يُدعون يومَ القيامةِ بأُمهاتهم، وأنَّ الحكمةَ في الدُّعاء بهنَّ دون الآباءِ

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٩٤، وهو حديث موضوع، ينظر الفردوس للديلمي ٥/٥٢٨، والميزان ٢/٨ ترجمة داود بن سليمان الجرجاني.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٩٣-١٩٤.

(٣) في تفسيره ١٥/ ٧.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٦.

(٥) الدر المنثور ٤/ ١٩٤، وهو في تاريخ بغداد ١/ ٣١٧.

(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣.

(٧) ٢/ ٤٥٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

رعايةُ حقِّ عيسى عليه السلام وشرفِ الحسنِ والحسين و[أن]لا يُفضحَ أولادُ الزِّنى، وليت شعري أيُّهما أبدع: أصحَّةُ تفسيرِه أم بهاءُ حكمتِه؟ انتهى. وهو مرويٌّ عن محمد بنِ كعب. ووجهُ عدمِ قبوله ـ على ما في «الكشف» ـ أمَّا أوَّلاً: فلأنَّ «إمام» جمعَ أُمٍّ غيرُ شائع، وإنَّما المعروفُ الأمَّهات. وأمَّا ثانياً: فلأنَّ رعايةَ حقِّ عيسى عليه السلام في امتيازه بالدُّعاء بالأُمِّ، فإنَّ خلقَه من غيرِ أبٍ كرامةٌ له، لا غضٌّ منه ليُجبَرَ بأنَّ الناسَ أسوته في انتسابِهم إلى الأمَّهات. وإظهارُ شرفِ الحسنين بدون ذلك أتمّ؛ فإنَّ أباهما خيرٌ من أمِّهما، مع أنَّ أهلَ البيتِ كحلقةٍ مُفرَغة. وأمَّا افتضاحُ أولادِ الزِّنى، فلا فضيحةَ إلَّا للأُمهات، وهي حاصلةٌ دُعيَ غيرُهم بالأمَّهات أو بالآباء، ولا ذنبَ لهم في ذلك حتى يترتَّبَ عليه الافتضاح. انتهى.

وما ذُكر من عدم شيوعِ الجمعِ المذكور بيِّن، وأمَّا الطعنُ في الحكمةِ فقد تعقِّب، فإنَّ حاصلَها أنَّه لو دُعي جميعُ الناسِ بآبائهم ودُعي عيسى عليه السلام بأمِّه، لَربَّما أشعر بنقص، فرُوعي تعظيمُه عليه السلام، ودُعي الجميعُ بالأمَّهات، وكذا رُوعي تعظيمُ الحسنَين رضي الله عنهما، لِمَا أنَّ في ذلك بيانَ نسبِهما من رسول اللهِ ﷺ، ولو نُسبا إلى أبيهما كرَّم الله تعالى وجهَه لم يفهم هذا، وإنْ كان هو هو رضي الله عنه، وفي ذلك أيضاً سَترٌ على الخلق حتى لا يفتضحَ أولادُ الزِّنى، فإنه لو دُعي الناسُ بآبائهم ودُعوا هم بأُمهاتهم، عُلم أنَّهم لا نسبةَ لهم إلى آباءٍ يُدعَون بهم، وفيه تشهيرٌ لهم، ولو دُعوا بآباءٍ لم يُعرَفوا بهم في الدنيا وإنْ لم يُنسَبوا إليهم شرعاً كان كذلك، وعلى هذا يسقط ما في «الكشف».

وعندي أنَّ القائلَ بذلك لا يكادُ يقول به من غيرِ أن يتمسَّكَ بخبر؛ لأنَّه خلافُ ما ينساق إلى الأذهان على اختلافِ مراتبها، ولا تكاد تَسلم حكمةٌ[1] عن وَهْن، ولا يُصلِح العطارُ ما أفسد الدهر، ولعل الخبرَ ـ إنْ كان ـ ليس بالصَّحيح، ويعارضه ما قدَّمناه غيرَ بعيدٍ من قوله ﷺ: «إنَّكم تُدعَون يومَ القيامةِ بأسمائكم وأسماءِ آبائكم، فأَحسِنوا أسماءكم»[2] والله تعالى أعلم.

---

(١) في (م): حكمته.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٤٨) عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وسلف ١٤/ ٥٤٩.

وما ذُكر من تعلُّق الجارِّ بما عنده هو الظاهرُ الذي ذهب إليه الجمهور، وجوِّز أن يكونَ متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع حالاً، أي: مصحوبين بإمامهم.

ثم إنَّ الداعي إمَّا اللهُ عزَّ وجلّ، وإمَّا المَلَك، وهو الذي تُشعر به الآثار، فإسنادُ الفعلِ إليه تعالى مجاز.

وقرأ مجاهد: «يَدعو» بالياءِ آخرِ الحروف[١]، أي: يدعو اللهُ تعالى أو المَلَك.

والحسنُ في روايةٍ: «يُدْعَى»[٢] بالبناءِ للمفعول ورفعِ «كل» على النِّيابة عن الفاعل.

وفي روايةٍ أخرى: «يُدعَوا» بضمِّ الياءِ وفتحِ العين بعدَها واو[٣]، ورفعِ «كل»، وخرِّجت على وجهين، فإنَّ الظاهرَ: يُدعَون، بإثبات النونِ التي هي علامةُ الرفع:

الأوَّل: أنَّ الواو ليست ضميرَ جمعٍ ولا علامتَه، وإنَّما هي حرفٌ من نفسِ الكلمة، وكانت ألفاً، والأصل: يُدعَى، كما في القراءة الأُخرى، وقُلبت الألفُ واواً على لغةِ مَن يقول في أفعى وهي الحية: أفعو، وهذه اللغةُ مخصوصةٌ بالوقفِ على المشهور، فيكون قد أُجري هنا الوصلُ مُجرَى الوقف. ونُقل عن سيبويه أنَّ قلبَ الألفِ في الآخِر واواً لغةٌ مطلقاً[٤].

والثاني: أنَّ الواو ضميرٌ أو علامةٌ كما في: «يتعاقبونَ فيكم ملائكة»[٥] والنونُ محذوفةٌ كما في قوله ﷺ: «لا تُؤمنوا حتى تحابُّوا»[٦] و: «كما تكونوا يولَّى عليكم»[٧] في قول، وكذا في قولِ الشاعر:

أبيتُ أسري وتبيتي تدلُكي ... وجهَك بالعنبرِ والمسكِ الذَّكي[٨]

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر المحيط ٦/ ٦٢.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٦٢، وانظر القراءات الشاذة ص٧٧.
(٣) المحتسب ٢/ ٢٢، والبحر المحيط ٦/ ٦٢، وانظر القراءات الشاذة ص٧٧.
(٤) الكتاب ٤/ ٢٤١.
(٥) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وسلف ١٣/ ٦٧.
(٦) أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٧) أخرجه الصيداوي في معجم الشيوخ ١/ ١٤٩، وفي إسناده وضاع. ينظر ما سلف ٢/ ٣١٨.
(٨) البحر المحيط ٦/ ٣٦، والخزانة ٨/ ٣٣٩ وقال: لم أقف على قائله.

وكأنَّها لكونها علامةَ إعرابٍ عوملت معاملةَ حركتِه في إظهارها تارةً وتقديرِها أخرى.

ولا فرقَ في كونِها علامةَ إعرابٍ بين أن تكون الواو ضميراً وأن تكونَ علامة جمعٍ على الصَّحيح، والظاهر أن حذفها في مثل ما ذُكر شاذٌّ لا ضرورة، وإلَّا فلا يَصحُّ هذا التخريجُ في الآية.

وفي توجيهِ رفع «كل» على هذه القراءةِ الأقوالُ في توجيه الرفعِ في أَمثاله، وهي مشهورةٌ في كتب النَّحو.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ يومئذٍ من أولئك المدعوِّين ﴿كِتَابَهُ﴾ صحيفة أعمالِهم، والله سبحانه أعلمُ بحقيقتها ﴿بِيَمِينِهِ﴾ إبانةً لخطر الكتابِ المؤتَى، وتشريفاً لصاحبه، وتبشيراً له من أوَّل الأمرِ بما في مطاويه ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ إشارةٌ إلى «مَن» باعتبار معناه، وكأنَّه أُشير بذلك إلى أنَّهم حزبٌ مجتمعون على شأنٍ جليل.

وقيل: فيه إشعارٌ بأنَّ قراءتهم لكُتبهم على وجه الاجتماعِ لا على وجهِ الانفرادِ كما في حالِ الإيتاء. وأكثرُ الأخبارِ ظاهرةٌ في أنَّ حالَ القراءةِ كحال الإيتاء، نعم جاءَ من حديثِ عائشةَ رضي الله عنها أنَّه يؤتَى العبدُ كتابَه بيمينه، فيقرأ سيئاتِه ويقرأ الناسُ حسناتِه، ثم يحوِّل الصحيفة، فيحوِّل اللهُ تعالى حسناتِه، فيقرؤها الناسُ فيقولون: ما كان لهذا العبدِ من سيِّئة[1].

ويحتمل أن يكونَ كلُّ مَن يؤتَى كتابَه بيمينه بعد أن يقرأه منفرداً يأتي أصحابَه ويقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] فيجتمعون عليه ويقرؤونه، ويقرؤه هو أيضاً معهم تلذُّذاً به، لكن لم نجدْ في ذلك أثراً، ومع هذا لا يُجدي نفعاً فيما أراد القائل.

وفي إلحاق اسم الإشارةِ علامةَ البُعد إشارةٌ إلى رفعة درجاتِ المشارِ إليهم، أي: أولئك المختصُّون بتلك الكرامةِ التي يُشعر بها إيتاءُ الكتابِ باليمين ﴿يَقْرَءُونَ﴾ ولو لم يكونوا قارئين في الدُّنيا ﴿كِتَابَهُمْ﴾ الذي أُوتوه باليمين؛ ليذكروا أعمالَهم ويقفوا على تفاصيلِها فيحاسبوا عليها.

---

(١) لم نقف عليه.

وقيل: يقرؤونه تبجُّحاً بما سُطر فيه من الحسناتِ المستتبِعة لفنون الكرامات. والإظهارُ في مقام الإضمارِ لمزيد الاعتناء.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يُنقصَون من أُجور أعمالِهم المرتسمةِ في كتبهم، بل يؤتَونها مضاعفة.

﴿فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ أي: قدرَ فتيل، وهو القِشرُ الذي في شَقِّ النَّواة، سمِّي بذلك لأنَّه على هيئة الشيءِ المفتول. وقيل: هو ما تَفتِله بين أصابعِك من خيطٍ أو وسخ، ويُضرَب به المثلُ في الشيءِ الحقير.

ثم إنَّ الذي يُسرع إلى الذِّهن أنَّ فاعلَ الإيتاءِ الملائكةُ عليهم السلام يُعطُون السعيدَ بعد أن يُدعى كتابَه بيمينه، فيقرؤه، فيُحاسَب حساباً يسيراً، وينقلبُ إلى أهله مسروراً.

لكن أَخرج العُقيليُّ عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «الكتبُ كلُّها تحت العرش، فإذا كان يومُ القيامة، يبعث اللهُ تعالى ريحاً فتُطيرها إلى الأيمان والشَّمائل، وأوَّل خطٍّ فيها ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]»(١). وهو ظاهرٌ في أنَّ فاعلَ الإيتاءِ ليس المَلَك، إلَّا أنَّ الخبرَ يحتاج إلى تنقير، فإنِّي لست من صحَّته على يقين.

نعم جاءَ في حديثٍ أَخرجه الإمام أحمدُ(٢) عن عائشةَ الصِّدِّيقةِ ﵂ أنَّها قالت: قلت: يارسولَ الله، هل يذكر الحبيبُ حبيبَه يومَ القيامة؟ قال: «أمَّا عند ثلاثٍ فلا.. إلى أن قال: وعند تطايرِ الكُتُب» وهو مؤيِّد بظاهره الخبرَ السابق، واللهُ تعالى أعلم.

وجاءَ في بعض الآثارِ أنَّ أوَّل مَن يؤتَى كتابَه بيمينه مِن هذه الأمَّةِ أبو سلمةَ عبدُ الله بنُ عبدِ الأسد، وأوَّل مَن يؤتَى كتابَه بشماله أخوه الأسودُ(٣) سوَّد اللهُ تعالى

---

(١) الضعفاء للعقيلي ٤/ ٤٦٦، وفي إسناده يغنم بن سالم، قال عنه أبو حاتم: ضعيف. وقال ابن حبان: كان يضع على أنس بن مالك. الميزان ٤/ ٤٥٩.

(٢) في مسنده (٢٤٧٩٣).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في الأوائل ص٣٤، والطبراني في الأوائل (٨٢) من حديث ابن =

وجهه، بعد أن يمدَّ يمينَه ليأخذَه بها فيخلعُها مَلَك. وسببُ ذلك مذكورٌ في السِّيَر.

﴿وَمَن كَانَ﴾ من المدعوِّين المذكورين ﴿فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا التي فُعل بهم فيها من التكريمِ والتفضيلِ ما فُعل ﴿أَعْمَىٰ﴾ لا يهتدي إلى طريق نجاتِه من النَّظر إلى ما أَولاه مولاه جلَّ عُلاه، والقيامِ بحقوقه، وشكرِه سبحانه بما ينبغي له عزَّ شأنه من الإيمان والعمل.

﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ التي عبَّر عنها بـ «يوم ندعو» ﴿أَعْمَىٰ﴾ لا يهتدي أيضاً إلى ما يُنجيه، ولا يَظفر بما يُجديه؛ لأنَّ العَمَى الأوَّل موجبٌ للثاني، وهو في الموضعَين مستعارٌ من آفة البصر.

وجوِّز أن يكونَ «أعمى» الثاني أفعلَ تفضيلٍ من عَمَى البصيرة، وهو من العيوبِ الباطنةِ التي يجوز أن يصاغَ منها أفعلُ التفضيل، كالأحمقِ والأبله، وبُني على ذلك إمالةُ أبي عَمرٍو الأولَ وتفخيمُه الثاني[1]، وبيانُه أنَّ الألفَ في الأوَّل آخرُ الكلمةِ كما ترى، وتَحسُن الإمالة في الأواخر، وهي في الثاني على تقدير كونِه أفعلَ تفضيلٍ كأنَّها في وسطِ الكلمة؛ لأنَّ أفعل المذكورَ غيرَ معرَّفٍ باللام ولا مضافٍ لا يُستعمَل بدون «مِن» الجارَّة للمفضَّل عليه، ملفوظةً أو مقدَّرة، وهو معها في حكم الكلمةِ الواحدة، ولا تَحسُن الإمالةُ فيها ولا تَكثُر كما في المتطرِّفة.

وقد صرَّح بذلك أبو عليٍّ في «الحجَّة»[2] فلا يَرِد إمالةُ «أدنى من ذلك» و«الكافرين» وأنَّ حمزةَ والكسائيَّ وأبا بكرٍ يُميلون الأعمى في الموضعين[3]، ولا حاجةَ إلى أن يقال: إنَّهم لا يرونه أفعلَ تفضيل، أو أنَّ الإمالةَ فيما يرونه كذلك للمشاكلة.

= عباس رضي الله عنهما، وجاء بدل: الأسود، في الأول: سفيان، وفي الثاني: أبو سفيان. والخبر في إسناده حبيب بن زريق، قال عنه ابن عدي: أحاديثه كلها موضوعة. الكامل ٢/ ٨١٨، والميزان ١/ ٤٥٢.

(١) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٥ فما بعد.

(٢) ٥/ ١١٢-١١٣.

(٣) انظر التيسير ص١٤٠، وص٤٦ فما بعد، والنشر ٢/ ٣٥ فما بعد.

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّه لمَّا أُريد افتراقُ معنيَي الأعمى في الموضعين، افترق اللفظان إمالةً وتفخيماً، وفخِّم الثاني لأنَّ ما يدلُّ على زيادةِ المعنى أَوْلى بالتفخيم، مع عدم حُسنِ الإمالة فيه حُسنَها في الأوَّل، ولا يُظَنُّ بأبي عليٍّ أنَّه يقول بامتناع الإمالة، وإنَّما يقول بأولويَّة التفخيم.

وقال بعضُهم: إنْ كان العمى فيما يكون للبصرِ وما يكون للبصيرةِ حقيقةً، فلا إشكال، وإنْ كان حقيقةً في الأوَّل وتجوِّز به عن الثاني، ففيه إشكال، إلَّا أن يقال: إنَّه أُلحق بما وُضع لذلك، وقد منعه آخَرون؛ لأنَّ العِلَّة ـ وهي الإلباسُ بالوصف ـ موجودةٌ فيه، فتدبر.

وقوِّي هذا التأويلُ بعطف قولِه تعالى: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ منه في الدنيا؛ لزوالِ الاستعداد، وعدمِ إمكانِ تداركِ ما فات. وهذا بعينه هو الذي أُوتي كتابه بشِماله، بدلالة حالِ ما سبق من الفريق المقابلِ له. ولعل العُدولَ إلى هذا العنوانِ للإيذان بالعلَّة الموجبةِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الواقعة:٩٢] بعد قولِه سبحانه: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾ وللرمز إلى عِلَّة حالِ الفريقِ الأوَّل، وفي ذلك ما هو من قَبيل الاحتباك، حيث ذكر في أحدِ الجانبَين المسبَّبَ وفي الآخَر السبب، ودلَّ بالمذكور في كلٍّ منهما على المتروكِ في الآخَر، تعويلاً على شهادةِ العقل.

وجعله ابنُ المنير(١) مقابلاً للقسم الأوَّل، على معنى: فمَن أُوتي كتابَه بيمينه فهو الذي يتبصَّره ويقرؤه، ومن كان في الدُّنيا أعمى غيرَ متبصِّر في نفسه، ولا ناظرٍ في معاده، فهو في الآخرة كذلك غيرُ متبصِّرٍ في كتابه، بل أعمى عنه، أو أشدُّ عمًى ممَّا كان في الدُّنيا، على اختلافِ التأويلين.

وهو خلافُ الظاهر، ويُشعر أيضاً بأنَّ مَن كان في الدُّنيا أعمى عن السُّلوك في طريق نجاتِه، لا يقرأ في الآخرة كتابَه. وهو خلافُ المصرَّح به في الآياتِ والأحاديث. نعم فرَّق بين القراءتين، ولعل الآيةَ تُشعر بالفرق وإنْ لم تقرِّر المقابلةَ بما ذُكر.

---

(١) في الانتصاف ٢/ ٤٦٠.

هذا وعن أبي مسلم تفسيرُ «أعمى» الثاني بأعمَى العينِ ولا تجوُّز، أي: مَن كان في الدُّنيا أعمى القلب، فهو في الآخرةِ أعمَى العين، أي: يُحشَر كذلك عقوبةً له على ضلالتِه في الدنيا، وهو كقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] الآية، وتأوّل ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] بالعِلم والمعرفة.

وعنه أيضاً تجويزُ أنْ يكونَ العمَى عبارةً عمَّا يَلحقه من الغمِّ المفرِط، كأنَّه قيل: مَن كان في الدُّنيا ضالًّا فهو في الآخرةِ مغمومٌ جدًّا، فإنَّ مَن لا يرى إلَّا ما يسوءُه والأعمى سواءٌ، وهذا كما يقال: فلانٌ سخينُ العين. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ «هذه» إشارةٌ إلى النِّعم المذكورةِ قبلُ، على معنى: مَن كان أعمَى غيرَ متبصِّر في هذه النِّعمِ وقد عايَنَها، فهو في شأن الآخرةِ التي لم يعايِنْها أعمَى وأضلُّ سبيلاً. واستند في ذلك إلى ما أخرجه الفريابيُّ وابنُ أبي حاتمٍ عن عِكرمةَ قال: جاء نفرٌ من أهل اليمنِ إلى ابن عبَّاس، فسأله رجلٌ منهم: أرأيتَ قولَه تعالى: «ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى» فقال ابنُ عباس: لم تَصِل المسألةَ، اقرأ ما قبلَها: «هو الذي يزجي لكم الفلك في البحر» حتَّى بلغ «وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً» ثم قال: مَن كان أعمَى عن هذه النِّعم التي قد رأى وعايَن، فهو في أمر الآخرةِ التي لم يَرَ ولم يعاينْ أعمى وأضلُّ سبيلاً[(١)].

وفي روايةٍ أخرى أَخرجها عنه ابنُ أبي حاتمٍ وأبو الشيخِ في «العظمة»[(٢)] من طريق الضحَّاك أنَّه قال في الآية: يقول تعالى: مَن كان في الدُّنيا أعمى عمَّا رأى من قدرتي من خلق السماءِ والأرضِ والجبالِ والبحارِ والناس والدوابِّ وأشباهِ هذا، فهو عمَّا وصفتُ له في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً، يقول سبحانه: أبعدُ حجَّة. وروى أبو الشَّيخ عن قتادةَ نحوَه[(٣)].

ولا يخفَى أنَّ كلا التأويلَين بعيدٌ جدًّا، وإن كان الثاني دون الأوَّل في البُعد، ولا أظنُّ الحَبرَ يقول ذلك، واللهُ تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) الدر المنثور ٤/ ١٩٤.
(٢) برقم (٢٦)، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ١٩٤.
(٣) العظمة (٦٩).

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ قالت الوجودية من الصُّوفية: إنَّه تعالى سبق قضاؤه ألَّا يُعبَد سواه، فكلُّ عابدٍ إنَّما يعبد الله سبحانه من حيث يدري ومن حيث لا يدري، فإنَّه جلَّ شأنه الأولُ والآخِرُ والظاهرُ والباطن، والأعيانُ الثابتة ما شمَّت رائحةَ الوجود، ولا تشَمُّه أبداً. وممَّا ينسبونه إلى زينِ العابدين رضي الله عنه ويزعمون أنَّه مشيرٌ إلى مدَّعاهم قولُه:

إنِّي لأكتم مِن علمي جواهرَهُ ... كيلا يرى الحقَّ ذو جهلٍ فيفتتنا
وقد تقدَّم في هذا أبو حسنٍ ... إلى الحسينِ وأوصَى قبله الحسنا
فرُبَّ جوهرِ علمٍ لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممَّن يعبد الوثنا
ولاستحلَّ رجالٌ مسلمون دمي ... يرون أقبحَ ما يأتونه حَسَنا

قالوا: إنَّه رضي الله عنه عنَى بهذا الجوهرِ الذي لو باح به لَقيل له: أنت ممَّن يعبد الوثن: علمَ الوحدة؛ إذ منه يُعلم أنَّ الوثنَ ـ وكذا غيرُه ـ مَظهرٌ له جلَّ وعلا، وليس في الدَّار غيرُه ديَّار.

وقد مرَّ عن قُربٍ ما نُقل عن الحلَّاج، ومثلُه كثيرٌ للشيخ الأكبر قدِّس سرُّه ولغيرِه عرباً وعجماً، وهو عفا اللهُ تعالى عنه قد فتح باباً في هذا المطلبِ لا يُسدُّ إلى أن يأتيَ أمرُ اللهِ عزَّ وجلّ، وكأنَّه أُوصي إليه بأن يبوحَ وينثرَ هاتيك الجواهر، بين الأصاغرِ والأكابر، كما أُوصي إلى الحسنين بأنْ يكتما من ذلك ما عَلِما.

وفي بعض كتبِه قدِّس سرُّه ما هو صريحٌ في أنَّه مأمور، فإنْ صحَّ ذلك فهو معذور. وأنا لا أرى عُذراً لمن يقفو أثرَه في المقال، مع مباينتِه له في الحال، فإنَّ هذا المطلبَ أجلُّ من أن يحصُلَ لغريق الشهوات، وأسيرِ المألوفات، ورهينِ العادات، ولله تعالى دَرُّ مَن قال:

تقول نساءُ الحيِّ تطمع أن ترى ... محاسنَ ليلى مُتْ بداء المَطامعِ
وكيف ترى ليلى بعينٍ ترى بها ... سواها وما طهَّرتَها بالمدامع
وتطمعُ منها بالحديث وقد جرَى ... حديثُ سواها في خروقِ المسامع[1]

---

(١) الأبيات في وفيات الأعيان ٤/ ٣٥٤-٣٥٥ منسوبةً ليزيد بن معاوية، وهي في الكشكول ٢/ ٢٣٠ منسوبة لمجنون ليلى.

ولا يخفَى أنَّه على تأويل الصوفيةِ هذه الآيةَ لا يكون قولُه تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ داخلاً فيما قضى؛ إذ لا يسعهم أن يقولوا: إنَّ كلَّ أحدٍ محسنٌ بوالديه مِن حيث يدري ومِن حيث لا.

ويُفهَم من كلام بعضِ المتصوِّفة أنَّ هذا إيصاءٌ بالإحسانِ إلى الشيخ أيضاً، وعليه فيحتمل أن يكونَ تثنيةُ الوالدَين كما في قولهم: القلمُ أحدُ اللِّسانين.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قيل: ذو القربى إشارةٌ إلى الرُّوح؛ لأنَّها كانت قبلُ في القربةِ والمشاهدة، ثم هبطت حيثُ هبطت، والمسكينُ إشارةٌ إلى العقل؛ لأنَّه عاجزٌ عن تحصيل العلم بحقيقة ربِّه سبحانه، وابنُ السبيلِ إشارةٌ إلى القلب؛ لأنه يتقلَّب في سُبُل السلوكِ إلى مَلِك الملوك، وحقُّ الروحِ المشاهدة، والعقلِ الفكرُ، والقلبِ الذِّكر.

وقيل: الأوَّل إشارةٌ إلى إخوان المعرفةِ الذين وصلوا معاليَ المقامات، وحقُّهم ذِكرُ ما يزيد تمكينَهم، والثاني إشارةٌ إلى العاشقين الذين سَكَّنهم عشقُ مولاهم عن طلبِ ما سواه، وحقُّهم ذِكرُ ما يَزيد عشقَهم، والثالثُ إشارةٌ إلى السَّالكين سُبُلَ الطلب، الممتطين نجائبَ الهِمَّة، وحقُّهم ذكرُ ما يزيد رغبتَهم ويهوِّن مشقَّتَهم.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فيه إشارةٌ للمشايخ كيف يكونون مع المريدين، أي: لا تبخلْ على المريد بنشر فضائلِ المعرفة وحقائقِ القُربة، ولا تذكر شيئاً لا يتحمَّلُه فيَهلِكَ، وكن بينَ بين.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ الذي أُخذ منكم قبلَ خلقِ الأشباح، وهو أن توحِّدوه تعالى ولا تُشركوا به شيئاً.

وقال يحيى بنُ معاذ: لربِّك عليك عهودٌ ظاهراً وباطناً، فعَهد على الأسرار ألَّا تشاهدَ سواه جلَّ جلالُه، وعَهد على الرُّوح ألَّا تفارقَ مقامَ القُربة، وعَهد على القلب ألَّا يفارقَ الخوف، وعَهد على النفس ألَّا تتركَ شيئاً من الفرائض، وعَهد على الجوارح أن تلازمَ الأدبَ وتتركَ المخالفات.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ قيل: فيه إشارةٌ للمشايخ أيضاً ألَّا ينقُصوا المستعدِّين ما يقتضيه استعدادُهم من الفيوضاتِ القلبية، وفي قوله تعالى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ

ٱلْمُسْتَقِيمِۚ﴾ إشارةٌ لهم أن يَعرِضوا أعمالَ المريدين القلبيةَ والقالَبيةَ على الشَّريعة، فهي القِسطاسُ المستقيم، وكِفَّتاها الحظرُ والإِباحة.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ الآيةَ، فيه إشارةٌ إلى بعض ما يَلزم السالكَ من التثبُّت والاحتياطِ والكفِّ عن الدَّعاوي العاطلة.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ﴾ الآية، وقد علمت ما عند الصوفيةِ في تسبيح الأشياءِ من أنَّه قاليّ، إلَّا أنَّه لا يسمعه إلَّا مَن فاز بقُرب النوافلِ أو مَن أَشرق عليه شيءٌ من أنواره، كالذين سمعوا تسبيحَ الحصى في مجلسِ سيِّد الكاملين ﷺ، والتسبيحُ الحاليُّ مما لا يُنكره أحدٌ من المسلمين، وقرَّره بعضُ الصوفيةِ بأنَّ لكلِّ شيءٍ خاصِّيةً ليست لغيره، وكما لا يخصُّه دون ما عداه فهو يشتاقه ويطلبُه إذا لم يكن حاصلاً له، ويحفظه ويحبُّه إذا حصل، فهو بإظهار خاصِّيته ينزِّه اللهَ تعالى من الشَّريك، وإلَّا لم يكن متوحِّداً فيها، فلسانُ حالِه يقول: أوحِّده على ما وحَّدني، وبطلب كمالِه ينزِّهه سبحانه عن صفاتِ النَّقص، كأنَّه يقول: يا كاملُ كمِّلني، وبإظهار كمالِه كأنَّه يقول: كمَّلني الكاملُ المكمِّل، وعلى هذا القياسُ، وحينئذٍ يقال: تسبِّحه السماواتُ بالكمال والتأثيرِ والرُّبوبية، وبأنه كلَّ يومٍ هو في شأن، ونحوِ ذلك، والأرضُ بالخلَّاقية والرزَّاقية والرَّحمةِ إلى غير ذلك، والملائكةُ بالعلم والقدرةِ والتجرُّد عن المادَّة، على القول بأنَّهم أرواحٌ مجرَّدة، وهكذا.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ من الجهلِ وعَمَى القلب، فلا يرون حقيقتَك القُدسية، ولا يُدركون منك إلَّا الصورةَ البشرية، وإنَّما خصَّ ذلك بوقت قراءةِ القرآنِ مع أنَّهم في كلِّ وقتٍ هم أَجهلُ الخلقِ به ﷺ؛ لأنَّ في ذلك الوقتِ يظهر إشراقُ أنوارِ الصفاتِ عليه عليه الصلاة والسلام، فإذا كانوا محجوبين إذ ذاك، كانوا في غيرِه من الأوقاتِ أحجبَ وأَحجب.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ من الغِشاوات الطبيعيةِ والهيئاتِ البدنية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ فإنَّ القرآنَ كلامُه تعالى، وهو أحدُ صفاته، وإذا لم يعرفوا نبيَّه ﷺ لم يعرفوه عزَّ وجلّ، وإذا لم يعرفوه سبحانَه لم يعرفوا صفاتِه تعالى، فلم يعرفوا كلامَه سبحانه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ﴾ لرسوخ أوساخِ التعلُّقات فيها يمنعهم عن سماعِ القراءة، وهذا ناشئٌ من جهلهم بأفعالِه تعالى.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ لتشتُّت أهوائهم وتفرُّقِ همِّهم في عبادة آلهتِهم المتنوِّعة، فلا تُناسب الوحدةُ بواطنهم.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ للقيامِ من القبور ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ حامدين له تعالى مجدُه بلسان القالِ أو بلسانِ الحال، حيث أَظهر فيكم الحياةَ بعد الموتِ ونحوَ ذلك. ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾ في القبورِ أو في الدُّنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لذُهولكم عن ذلك الزَّمان، أو لاستقصاركم الدُّنيا بالنِّسبة إلى الآخرة.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المشيئةَ تابعةٌ للعلم، فمَن علِمَ سبحانه أهليَّتَه للرَّحمة، شاءَ تعالى رحمتَه فرَحِمه، ومَن عَلِمَ جلَّ وعلا أهليَّته للعذاب، شاء عذابَه فعذَّبه. ولا يخفَى ما في تقديم شِقِّ مشيئةِ الرَّحمة من تقويةِ الأمل.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يدعونهم الكفارُ ويعبدونهم ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي: يطلب الأقربُ منهم الوسيلةَ إلى الله تعالى، فكيف بغير الأقرب؟

والوسيلةُ في الأصل الواسطةُ التي يتوسَّل ويتقرَّب بها إلى الشيء، وهي هنا الطاعةُ كما تقدَّم. وقيل: هي كرمُه تعالى القديم، وإحسانُه عزَّ وجلَّ العميم. وقيل: هي الشفاعةُ يومَ القيامة.

ولمَّا كان مقامُ الوسيلةِ بهذا المعنى خاصًّا بنبيِّنا ﷺ، أطلقوا الوسيلةَ عليه عليه الصلاة والسلام، وفسَّرها بذلك هنا بعضُ الصُّوفية. فكلُّ مَن عُبد مِن دون اللهِ تعالى من عيسى وعُزَير والملائكةِ عليهم السلام وسيلتُهم إلى اللهِ تعالى نبيُّنا ﷺ، بل هو عليه الصلاة والسلام وسيلةُ سائرِ الموجودات، والواسطةُ بينهم وبين اللهِ تعالى في إفاضته سبحانه الوجودَ، وكذا سائرُ ما أُفيض عليهم، وأحظَى الخلقِ بوساطته الأنبياءُ عليهم السلام، فإنَّهم أشعةُ أنوارِه، وعكوساتُ آثارِه، وهو النورُ الحقّ، والنبيُّ المطلق، وكان نبيًّا وآدمُ بين الماءِ والطين[1]، وقد تلقَّى الأنبياءُ منه من وراء حجابِ الأرحامِ والأَصلاب، وظهروا إذ كان محتجباً ظهورَ الكواكبِ في

(١) لفظه في كتب الحديث: «وآدم بين الروح والجسد» وينظر ما سلف ٨/ ١٤٠.

الليل، فلمَّا بزغت شمسُ النبوَّة المطلقةِ من أُفق الظُّهور، غابوا ونُسخت أحكامُهم، على نحو غيبوبةِ الكواكبِ وانمحاقِ أنوارها وأضوائها عند طلوع الشمسِ من تحت الحجاب، منخلعةً عن الجلباب.

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ لِعلمهم بجماله وجلاله. والرجاءُ والخوفُ جناحا مَن يطيرُ إلى حضرة القُدس، وروضةِ الأُنس، ومَن عطَّل أحدَهما تعطَّل عن الطيران.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ فيه إشارةٌ إلى اختلاف مراتبِ تمكُّن الشيطانِ من إغواء بني آدم، فمن كان منهم ضعيفَ الاستعداد، استفزَّه واستخفَّه بصوته، فأغواه بوسوسةٍ وهمس، بل هاجسةٍ ولَمَّة، ومن كان قويَّ الاستعداد، فإنْ كان خالصاً عن شوائبِ الغيرية، أو عن شوائب الصفاتِ النفسانية، لم يتمكَّن من إغوائه، وهذا هو المرادُ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ وإنْ لم يكن خالصاً، فإنْ كان منغمساً في الشواغل الحِسِّية، منهمكاً في الأمور الدُّنيوية، شاركه في أَمواله وأولادِه، وحرَّضه على إشراكهم بالله تعالى في المحبَّة، وسوَّل له التمتُّع والتكاثرَ والتفاخرَ بهم، ومنَّاه الأمانيَ الكاذبة، وزيَّن له الآمالَ الفارغة، وإنْ لم ينغمس، فإن كان عالماً بتسويلاته، أَجلبَ عليه بخَيله ورَجِله، أي: مَكَرَ بأنواع الحِيلَ، وكاده بصنوفِ الفتن، وأَفتاه بأنَّ تحصيل أنواعِ الحُطام والملاذِّ من جملة مصالحِ المعاش، وغرَّه بعلمه، وحمله على الإعجاب به، وأمثالِ ذلك، حتى أضلَّه على علم، وإن لم يكن عالماً بل كان عابداً متنسِّكاً، أَغواه بالوعد، وغرَّه برؤية الطاعةِ وتزكيةِ النفس.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الآية. قيل: كرَّمهم تعالى بأنْ خَلَق أباهم آدمَ على صورة الرَّحمن[١]، وجعل لهم ذلك بحكم الوراثةِ وأنَّ الولد سرُّ أبيه، وفضَّلهم على الكثير بأنْ جعل لهم من النِّعم ما يستغرق العدّ. وجوِّز أن يقال: تكريمُهم بأن بسط موائدَ الإنعام لهم وجعل مَن عداهم طُفيليًّا، وتفضيلُهم بما ذُكر في التكريم أولاً. وفيه احتمالاتٌ أُخَر.

---

(١) إشارة إلى حديث سلف ٢/ ٩١.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: نناديهم بنِسبتهم إلى مَن كانوا يقتدون به في الدُّنيا؛ لأنَّه المستعلي محبَّتُهم إياه على سائر محبَّاتهم ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي: من جهة العقلِ الذي هو أقوى جانبَيه ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ ويأخذون أجورَ أعمالِهم المكتوبةِ فيه ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ أدنى شيءٍ حقيرٍ من ذلك ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ عن الاهتداء إلى الحقِّ ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ أيضاً ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ لبطلان الكسبِ هناك، وهذا الذي يؤتَى كتابَه بشِماله، أي: من جهة النفسِ التي هي أضعفُ جانبَيه، إلَّا أنَّه عبَّر عنه بما ذكر لِمَا قدَّمنا، واللهُ تعالى هو الهادي إلى سواءِ السبيل.

* * *

ثم إنَّه عزَّ وجلَّ لمَّا عدَّد نعمَه على بني آدم، ثم ذكر حالَهم في الآخرة وانقسامَهم إلى قسمَين: سعداء وأشقياء، أتْبع ذلك بذِكر بعضِ مساوي بعضِ الأشقياءِ في الدنيا، من المكرِ والخِداع والتلبيسِ على سيِّد أهل السَّعادةِ المقطوعِ له بالعِصمة ﷺ. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّهم داخلون فيمن عَمِيَ عن الاهتداء في الدُّنيا دخولاً أوليًّا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ قيل: نَزَلَت في ثَقيف، قالوا للنبيِّ ﷺ: لا ندخلُ في أمرك حتى تُعطيَنا خصالاً نفتخر بها على العرب: لا نُعشَر ولا نُحشَر، ولا نُجَبِّي في الصلاة، وكلُّ ربًا لنا فهو لنا، وكلُّ ربًا علينا فهو موضوعٌ عنا، وأن تمتِّعَنا باللَّات سَنَة، وأن تحرِّمَ وادينَا وَجًّا كما حرَّمت مكة، فإنْ قالت العرب: لم فعلتَ ذلك؟ فقل: إنَّ اللهَ تعالى أمرني. وروى ذلك الثعلبيُّ عن ابن عباسٍ ولم يذكرْ له سنداً، وقال العراقيُّ فيه: إنَّا لم نجده في كتبِ الحديث. ونقله الزمخشريُّ بزيادة[1].

ونقل غيرُه أنَّهم طلبوا ثلاثَ خصال: عدم التجبيةِ في الصلاة، وكسر أصنامِهم بأيديهم، وتمتيعهم باللَّات سَنَةً من غيرِ أن يعبُدوها، بل ليأخذوا ما يُهدَى لها،

(١) الكشاف ٢/ ٤٦٠، وقوله: لا نُعشر، هو أخذ العشر، وقوله: ولا نحشر، أي: لا نبعث ونساق إلى غزاةٍ وجهاد، ونجبِّي بضم النون وفتح الجيم وكسر الباء الموحدة، والياء آخر الحروف، من التجبية وهي وضع اليدين على الركبتين أو على الأرض أو الانكباب على الوجه، والمراد: لا نصلي. انظر حاشية الخفاجي ٦/ ٥١.

فقال ﷺ: «لا خيرَ في دينٍ لا ركوعَ فيه ولا سجود. وأمَّا كسرُ أصنامِكم بأيديكم فذلك لكم. وأمَّا الطاغيةُ اللات، فإني غيرُ ممتِّعكم بها» وقام رسولُ اللهِ ﷺ، فقال عمرُ بن الخطَّاب ﷺ: ما بالُكم آذيتم رسولَ اللهِ عليه الصلاة والسلام، وإنَّه لا يدعُ الأصنامَ في أرض العرب، فما زالوا به حتى أنزل اللهُ تعالى الآية.

وأخرج ابنُ إسحاقَ وابنُ مردويه وغيرُهما عنه ﷺ أنَّ أُميةَ بن خَلَف وأبا جهل ورجالاً من قريشٍ أتَوا رسولَ اللهِ ﷺ فقالوا: تعال فتمسَّحْ بآلهتنا وندخلُ معك في دينك، وكان رسولُ الله ﷺ يشتدُّ عليه فراقُ قومه، ويحبُّ إسلامَهم، فرقَّ لهم، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ إلى قولِه سبحانه: ﴿نَصِيرًا﴾[(١)].

وأخرج ابنُ مردويه من طريق الكلبيِّ، عن باذان، عن جابر بنِ عبدِ الله مثلَه[(٢)].

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن جُبَير بن نُفَير أنَّ قريشاً أتَوا النبيَّ ﷺ فقالوا له: إنْ كنتَ أُرسلتَ إلينا، فاطرُدِ الذين اتَّبعوك من سقَّاط الناسِ ومواليهم لنكونَ نحن أصحابَك، فنزلت[(٣)].

وقيل: إنَّهم قالوا له عليه الصلاة والسلام: اِجعلْ لنا آيةَ رحمةٍ آيةَ عذاب، وآيةَ عذابٍ آيةَ رحمةٍ حتى نؤمنَ بك، فنزلت.

وفي ذلك رواياتٌ أُخَرُ مختلفةٌ أيضاً، وفي بعضها مالا يصحُّ نسبتهُ إلى الرَّسول ﷺ ولا يكاد يؤوَّل، وذلك يدلُّ على الوضع، والتفسيرُ لا يتوقَّف على شيءٍ من ذلك.

وأيًّا ما كان، فضميرُ الجمعِ للكفار، وهم إمَّا ثقيفٌ أو قريش، و«إنْ» مخفَّفة من المثقَّلة، واسمُها ضميرُ شأنٍ مقدَّر، واللامُ هي الفارقةُ بين المخفَّفة وغيرِها، أي: إنَّ الشأن قاربوا في ظنِّهم أنْ يوقعوك في الفتنة صارِفيك ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ

---

(١) الإتقان ١/ ١٠٤، وفي إسناده محمد بن أبي محمد، قال الذهبي في الميزان ٤/ ٢٦: لا يُعرف. وذكره ابن الجوزي في زاد السير ٥/ ٢٦ وقال: هذا باطل، لا يجوز أن يُظنَّ برسول الله ﷺ، وهو محال في حقِّه وفي حق الصحابة أنهم رووا ذلك عنه.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٩٤، والكلبي متروك.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٩٤.

﴿إِلَيْكَ﴾ من الأوامر والنَّواهي والوعدِ والوعيدِ ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ لتتقوَّل علينا غيرَ الذي أَوحيناه إِليك ممَّا اقترح عليك ثقيفٌ من تحريم وَجٍّ مثلاً، أو قريشٌ مِن جعل آيةِ الرحمةِ آيةَ عذابٍ وبالعكس.

وقيل: المعنى: لتحلَّ محلَّ المفتري علينا؛ لأنَّك إن اتَّبعت أهواءهم أوهمتَ أنَّك تفعل ذلك عن وحينا؛ لأنَّك رسولُنا، فكنتَ كالمفتري.

﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: لو فعلتَ لَيتخذُنَّك صديقاً لهم. وكأنَّ المراد: ليكونَنَّ بينك وبينهم مخالَّةٌ وصداقة، وهم أعداءُ اللهِ تعالى، مخالَّتهم تقتضي الانقطاعَ عن ولايته عزَّ وجلَّ، كما قيل:

إذا صافَى صديقُك من تعادي ... فقد عاداك وانقطع الكلامُ[1]

وقيل: الخليلُ هذا من الخَلَّة، بمعنى الحاجة، أي: لاتَّخذوك فقيراً محتاجاً إليهم. وهو كما ترى.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ أي: لولا تثبيتُنا إيَّاك على ما أنت عليه من الحقِّ بعِصمتنا لك ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ من الرُّكون الذي هو أدنى الميل، وأصلُه الميلُ إلى ركن، وذكروا أنَّه إذا أُطلق يقع على أدنَى الميل، ونصبُ «شيئاً» على المصدرية، أي: لولا ذلك لَقاربتَ أن تميلَ إليهم شيئاً يسيراً من الميلِ اليسير؛ لقوَّة خَدعِهم وشدَّة احتيالهم، لكن أَدركتك العصمةُ فمنعتك من أن تقرُبَ أدنَى الأدنى من المَيل إليهم، فضلاً عن نفس الميلِ إليهم.

وهذا صريحٌ في أنَّه ﷺ لم يهمَّ بإجابتهم ولم يكد، وبه يُرَدُّ على مَن زعم أنَّه عليه الصلاة والسلام همَّ فمنعه نزولُ الآية، وكأنه غرَّه ظواهرُ بعضِ الرِّوايات في بيان سببِ النزول، ك: رقَّ، في رواية ابن إسحاقَ ومَن معه عن الحَبر. ولا يخفَى أنَّ في قوله سبحانه: «إليهم» دون «إلى إجابتهم» ما يقوِّي الدَّلالة على أنَّه عليه الصلاة والسلام بمَعزلٍ عن الإجابة في أقصَى الغايات.

وهذا الذي ذُكر في معنى الآيةِ هو الظاهرُ المتبادرُ للأفهام، وذهب ابن الأَنباريِّ إلى أنَّ المعنى: لقد كادوا أن يُخبروا عنك أنك ركنتَ إليهم، ونُسب

---

(١) سلف ٨/ ٧٤.

فِعلُهم إليه عليه الصلاة والسلام مجازاً واتِّساعاً، كما تقول للرجل: كدتَ تقتلُ نفسَك، أي: كاد الناسُ يقتلونك بسببِ ما فعلت. وهو من الإلغاز المستغنَى عنه.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ العصمةَ بتوفيق اللهِ تعالى وعنايتِه.

وقرأ قتادةُ وابنُ أبي إسحاقَ وابن مصرِّف: «تَرْكُن» بضمِّ الكافِ[1] مضارعُ رَكَنَ بفتحها، وهو على قراءة الجمهورِ مضارعُ رَكِنَ بكسر الكاف، وقيل: بفتحها أيضاً، وجُعِلَ ذلك من تداخل اللُّغتَين.

﴿إِذًا﴾ أي: لو قاربتَ أن تركنَ إليهم أدنَى رَكنة ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أي: مضاعَفَ الحياة، وهو صفةُ محذوف، والإضافةُ على معنى في، أو للملابسة، أي: عذاباً مضاعفاً في الحياة، والمرادُ بها الحياةُ الدنيا؛ لأنَّه المتبادر عند إطلاق لفظِها، وكذا يقال في قولِه تعالى: ﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: وعذاباً ضِعفاً في الممات. والمرادُ به ما يشمل العذابَ في القبر وبعدَ البعث.

واستسهل بعضُ المحقِّقين أن يكونَ التقديرُ من أوَّل الأمر: لأذقناك ضعفَ عذابِ الحياة وضعفَ عذابِ الممات، وتكون الإضافةُ لامية، والقرينةُ على تقديرِ العذاب «لأذقناك» والمعنى: لو قاربتَ ما ذكرنا، لَنضاعفنَّ لك العذابَ المعجَّل للعصاة في الحياة الدنيا والعذابَ المؤجَّلَ لهم بعد الموت.

وقيل: المرادُ بالحياة حياةُ الآخرة، وبعذاب الممات ما يكونُ في القبر، وأمرُ الإضافةِ والتقديرِ على حاله، والمعنى: لو قاربتَ لنضاعفنَّ لك عذابَ القبرِ وعذابَ يومِ القيامة المدَّخرَين للعصاة.

وفي هذه الشرطيةِ إجلالٌ عظيم بمكان رسولِ الله ﷺ، وتنبيهٌ على أنَّ الأقربَ أشدُّ خطراً، وذلك أنَّه أُوعد بضعف العذابِ على مقاربة أدنَى رُكون، وقد وُضع عنَّا الركون ما لم يصدِّقه العمل. ونظيرُ ذلك مِن وجهِ ما جاءَ في نسائه عليه الصلاة والسلام من قولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وذُكر في وجه مضاعفةِ جزاءِ خطأ الخطيرِ أنَّه يكون

(١) البحر المحيط ٦/ ٦٥.

سبباً لارتكاب غيرِه مثلَه والاحتجاجِ به، فكأنَّه سنَّ ذلك، وقد جاء: «ومَن سنَّ سيئةً، فعليه وزرُها ووزرُ مَن عمل بها إلى يومِ القيامة»(١) وعلى هذا يضاعَف عذابُ الخطيرِ في خطئه أضعافاً مضاعفة، ولا يَلزم من إثبات الضِّعف الواحدِ نفيُ الضعفِ المتعدِّد.

وقيل: الضِّعف من أسماءِ العذاب، وأنشدوا على ذلك قولَه:

لِـمـقـتـلِ مـالـكٍ إذ بـانَ مـنـي ... أَبيتُ الـليـلَ فـي ضـعـفٍ ألـيـمِ(٢)

وذكر بعضُهم أنَّ الضعفَ ليس من أسماءِ العذاب وضعاً، لكن يعبَّر به عنه لكثرة وصف العذابِ به، كما في قولِه تعالى: ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف:٣٨] وزعم أنَّ ذلك مرادُ القائل، واللهُ تعالى أعلم.

واللام في «لأذقناك» و«لاتخذوك» لامُ القَسَم على ما نصَّ عليه الحوفي، والماضي في الموضعَين واقعٌ موقعَ المضارعِ الدالِّ عليه اللامُ والنون، على ما نصَّ عليه أبو حيَّان(٣) وأشرنا إليه فيما سبق.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ يدفع العذابَ أو يرفعه عنك، رُوي عن قتادةَ أنَّه لمَّا نزل قولُه تعالى: «وإن كادوا» إلى هنا، قال ﷺ: «اللهمَّ لا تكِلني إلى نفسي طرفةَ عين» وينبغي للمؤمن إذا تلا هذه الآيةَ أن يجثوَ عندها ويتدبَّرها، وأن يستشعرَ الخشيةَ وازديادَ التصلُّب في دين اللهِ تعالى، ويقولَ كما قال النبيُّ ﷺ.

﴿وَإِن كَادُواْ﴾ أي: أهـلُ مـكـة، كـمـا رُوي عـن ابـن عـبـاسٍ وقـتـادةَ وغيرِهما ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ليَزعجونك ويستخفُّونك بعداوتهم ومكرِهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأرضِ التي أنت فيها، وهي أرضُ مكَّة ﴿لِيُخْرِجُوكَ﴾ أي: ليتسبَّبوا إلى خروجك ﴿مِنْهَا﴾.

وكان هذا الاستفزازُ بما فعلوا مِن حَصْره ﷺ في الشِّعب والتضييقِ عليه عليه

---

(١) أخرجه أحمد (١٩١٥٦)، ومسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي ﷺ، وسلف ١٤/ ٧٨.

(٢) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٢٦٠، ومجمع البيان ١٥/ ٨٢ دون نسبة.

(٣) في البحر ٦/ ٦٥.

الصلاة والسلام، ووقع ذلك بعد نزولِ الآيةِ كما في «البحر»[(١)] وصار سبباً لخروجه ﷺ مهاجراً.

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ أي: إن استفزُّوك فخرجتَ لا يبقَون ﴿خِلَٰفَكَ﴾ أي: بعدك، وبه قرأ عطاءُ بن أبي رباح[(٢)]، واستُحسن أنَّها تفسيرٌ لا قراءة؛ لمخالفتها سوادَ المصحف، وأنشدوا:

عفت الديارُ خلافَهم فكأنما بَسَطَ الشواطبُ بينهنَّ حصيرا[(٣)]

وقرأ أهلُ الحجاز وأبو بكرٍ وأبو عَمرٍو: «خَلْفَك» بغير أَلف[(٤)]، والمعنى واحد، واللفظانِ في الأصلِ من الظروفِ المكانية، فتجوِّز فيهما واستُعملا للزمان. وقد اطَّرد إضافتُهما ـ كقبلُ وبعد ـ إلى أسماء الأعيانِ على حذف مضافٍ يدلُّ عليه ما قبلَه، أي: لا يلبثون خلفَ استفزازِك وخروجِك ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾ أي: إلَّا زماناً قليلاً.

وجوِّز أن يكونَ التقدير: إلَّا لَبثاً قليلاً، والمعنيانِ متقاربان. واختير التقديرُ الأوَّل لأنَّ التوسُّع ـ أعني إقامةَ الوصفِ مُقامَ الموصوف ـ بالظروف أَشبه.

وهذا وعيدٌ لهم بإهلاك مجموعِهم من حيث هو مجموعٌ بعد خروجِه ﷺ بقليل، وتحقَّق بإفناء البعضِ في بدر، لاسيَّما وقد كانوا صناديدَهم والرؤوس، وأنت تعرفُ أنَّ معظمَ الشيءِ يقام مُقامَ كلِّه. وكان الزمانُ القليل ـ على ما روى ابنُ أبي حاتمٍ عن السُّدِّي ـ ثمانيةَ عشر شهراً[(٥)].

ويجوز أن يفسَّرَ الإخراجُ بالإكراه على الخروج، والوعيدُ بإهلاك كلِّ واحدٍ منهم، أي: لو أخرجوك لاستؤصلوا على بَكرةِ أبيهم، لكن لم يقع المقدَّم لأنَّ الإكراهَ على الخروج مباشرةً، وقد خرج رسولُ الله ﷺ مهاجراً بأمر ربِّه عزَّ وجلَّ،

---

(١) ٦/ ٦٦.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٦٦.

(٣) قائله الحارث بن خالد المخزومي كما في العين ٤/ ٢٦٦، واللسان (خلف). والشواطب: النساء اللاتي تشطب الجريد، أي: تشققه لتعمل منه الحصر. الصحاح (شطب).

(٤) التيسير ص١٤١، والنشر ٢/ ٣٠٨.

(٥) الدر المنثور ٤/ ١٩٥.

فلم يقع التالي، وهذا هو التفسيرُ المرويُّ عن مجاهد، قال: أرادت قريشٌ ذلك ولم تفعلْ؛ لأنَّه سبحانه أَراد استبقاءها وعدمَ استئصالها ليُسلِمَ منها ومن أَعقابها مَن يُسلم، فأَذِن لرسوله عليه الصلاة والسلام بالهجرة، فخرج بإذنه لا بإخراج قريشٍ وقهرِهم، والإخراجُ في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:١٣] محمولٌ على المعنى الأول، وكذا في قولِ ورقة: ياليتني كنتُ جَذَعاً إذ يُخرجك قومُك، وقولِه عليه الصلاة والسلام: «أَوَ مخرجيَّ هم»[(١)]، فلم تتضمَّن الآيةُ وكذا الخبرُ إثباتَ إخراجٍ قلنا بنفيه هنا.

والقولُ بأنَّه يلزم على هذا التناقضُ بين هذه الآيةِ والآيةِ السابقة، بناءً على تفسير الإخراج فيها بالتسبُّب إلى الخروج؛ لأنَّ كاد تدلُّ على مقاربته لا حصولِه وهذه الآيةُ دلَّت على حصوله: مجابٌ عنه بأنَّ قصارى ما دلَّت عليه الآيةُ السابقة على التفسيرِ الأوَّل قُربُ حصولِ الاستفزازِ منهم ليتسبَّبوا به إلى خروجه ﷺ، وأنَّه لم يكن حاصلاً وقتَ نزولِ الآية، لا أنَّه لا يكون حاصلاً أبداً ليناقضَ حصولَه بعد.

وحكى الزجَّاج أنَّ استفزازَهم ما أَجمعوا عليه في دار النَّدوةِ من قتله ﷺ، والمرادُ من الأرض وجهُ البسيطةِ مطلقاً، وقال أبو حيَّان[(٢)]: المرادُ بها ـ على هذا ـ الدُّنيا.

وقيل: ضميرُ «كادوا» وما بعدَه لليهود، فقد أَخرج ابنُ أبي حاتمٍ، والبيهقيُّ في «الدلائل» وابنُ عساكر عن عبد الرحمنِ بن غَنْم قال: إنَّ اليهودَ أَتوا النبيَّ ﷺ فقالوا: إن كنتَ نبيًّا فالْحَقْ بالشام؛ فإنَّها أرضُ المحشرِ وأرضُ الأَنبياء، فصدَّق رسولُ اللهِ عليه الصلاة والسلام ما قالوا، فغزا غزوةَ تبوكٍ لا يريد إلَّا الشام، فلمَّا بلغ تبوكَ أَنزل اللهُ تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ إلى: ﴿تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ وأَمَره بالرُّجوع إلى المدينة، وقال: فيها مَحياك وفيها مماتُك ومنها تُبعَث[(٣)].

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها مطولاً.
(٢) في البحر ٦/ ٦٦، وعنه نقل المصنف قول الزجاج، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٤.
(٣) دلائل النبوة ٥/ ٢٥٤، وتاريخ ابن عساكر ١/ ١٧٨، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ١٩٥.

وفي روايةٍ أنَّهم قالوا: يا أبا القاسم، إنَّ الشام أرضٌ مقدَّسة، وهي أرضُ الأنبياء، فلو خرجتَ إليها لآمنَّا بك، وقد علمنا أنَّك تخافُ الرُّوم، فإن كنتَ نبيًّا فاخرجْ إليها، فإنَّ اللهَ تعالى سيحميك كما حمَى غيرَك من الأنبياء، فخرج عليه الصلاة والسلام بسببِ قولِهم، وعسكر بذي الحُلَيفة وأقام ينتظر أصحابَه، فنزلت هذه الآية، فرجع ﷺ، ثم إنَّه عليه الصلاة والسلام قتل منهم بني قريظةَ وأجلَى بني النَّضير بقليل.

وتعقِّب بأنَّه ضعيفٌ لم يقع في سيرةٍ ولا كتابٍ يُعتَمد عليه، وذو الحليفةِ ليس في طريق الشامِ من المدينة، وكيفما كان يكون المراد من الأرضِ عليه المدينة، وقيل: أرضُ العرب. وكأنَّ مَن ذهب إلى أن هذه الآيةَ مدنيةٌ يستند إلى ما ذُكر من الرِّوايات، وقد صرَّح الخفاجيُّ[١] بأنَّ هذا المذهبَ غيرُ مرضيّ، واللهُ تعالى أعلم.

وقرأ عطاء: «لايُلَبَّثون» بضمِّ الياءِ وفتح اللامِ والباءِ مشدَّدة[٢]. وقرأ يعقوبُ كذلك، إلَّا أنَّه كسر الباء[٣]. وقرأ أُبَيٌّ: «وإذاً لا يلبثوا» بحذف النُّون[٤]، وكذا في مصحفِ عبدِ الله[٥].

وتوجيهُ الإثبات والحذفِ أنَّ النحويين عدُّوا من جملة شروطِ عمل إذن كونَها في أوَّل الجملة، فعلى قراءةِ الحذفِ تكون الجملةُ معطوفةً على جملة «ليستفزونك» وهي خبرُ كاد، فيكون الشرطُ منخرماً؛ لتوسُّطِها حينئذٍ في الكلام، لِكونِ ما بعدها خبرَ كاد كالمعطوفِ هو عليه، وعلى قراءة الإثباتِ تكون الجملةُ معطوفةً على جملةِ «وإن كادوا» فيتحقَّق الشرط، والعطفُ لا يضرُّ في ذلك.

ووجَّه أبو حيَّان الإِهمالَ بأنَّ «لا يلبثون» جوابُ قَسَم محذوف، أي: واللهِ إن استفزُّوك فخرجتَ لا يلبثون، وقد توسَّطت «إذاً» بين القَسَم المقدَّر والفعل، فأُهملت. ثم قال: ويحتمل أن يكونَ «لا يلبثون» خبراً لمبتدأ محذوفٍ يدلُّ عليه

---

(١) في حاشيته ٦/ ٥٢.
(٢) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر ٦/ ٦٦.
(٣) البحر ٦/ ٦٦.
(٤) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر ٦/ ٦٦.
(٥) البحر ٦/ ٦٦.

المعنى، تقديره: وهم إذاً لا يلبثون، فتكون «إذاً» واقعةً بين المبتدأ وخبرِه، ولذلك أُلغيت[1]. وكلا التوجيهَين ليس بوجيهٍ كما لا يخفَى.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ نصبٌ على المصدرية، أي: سننَّا سنَّةَ مَن إلخ، وهي ألَّا ندعَ أمَّةً تستفزُّ رسولَها لتُخرجَه من بين ظهرانَيها تلبثُ بعده إلَّا قليلاً. فالسُّنَّة لله عزَّ وجلَّ وأُضيفت للرُّسل عليهم السلام لأنَّها سُنَّت لأجلهم، ويدلُّ على ذلك قولُه سبحانه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ حيث أضاف السُّنَّةَ إليه تعالى.

وقال الفرَّاء[2]: انتصب «سنة» على إسقاط الخافض، أي: كسنَّةٍ؛ فلا يوقَفُ على قوله تعالى: «قليلاً» فالمرادُ تشبيهُ حالِه ﷺ بحال مَن قبله، لا تشبيهُ الفردِ بفردٍ من ذلك النوع.

وجوَّز أبو البقاءِ[3] أن يكونَ مفعولاً به لفعلٍ محذوف، أي: اتَّبعْ سنَّةَ... إلخ، كما قال سبحانه: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. والأنسب بما قبلُ ما قبل، وكأنَّه اعتبر الأوامرَ بَعد، وهو خلافُ ما عليه عامَّةُ المفسِّرين.

والتحويلُ التغيير، أي: لا تجد لِمَا أَجرينا به العادةَ تغييراً، أي: لا يغيِّره أحد.

والمرادُ من نفي الوِجدان هنا وفيما أَشبهه نفيُ الوجود، ودليلُ نفي وجودِ مَن يغيِّر عادةَ اللهِ تعالى أَظهرُ من الشمس في رابعة النَّهار، وللإمام[4] كلامٌ في هذا المقامِ لا يخلو عن بحث.

ثم إنَّه تعالى بعد أنْ ذكر كيدَ الكفارِ وسلَّى نبيَّه عليه الصلاة والسلام بما سلَّى، أَمره أن يُقبِلَ على شأنه من عبادة ربِّه تعالى شأنُه، ووعده بما يَغبطه عليه كلُّ الخلق، ويتضمَّن ذلك إرشادَه إلى ألَّا يَشغلَ قلبَه بهم. أو أنَّه سبحانه بعد أن قدَّم

---

(١) البحر ٦/ ٦٦.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٢٩.

(٣) في الإملاء ٣/ ٤٩٤.

(٤) في التفسير الكبير ٢١/ ٢٤.

القولَ في الإلهيات والمعادِ والنبوّات، أمر بأشرف العباداتِ بعد الإيمان، وهي الصَّلاة، فقال جلَّ وعلا: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: المفروضةَ ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: لزوالها عن دائرة نصفِ النَّهار. وهو المرويُّ عن عمرَ بنِ الخطاب، وابنِه، وابن عباسٍ في رواية، وأنسٍ، وأبي بَرزةَ الأسلميّ، والحسن، والشعبيّ، وعطاءٍ، ومجاهد، ورواه الإماميةُ عن أبي جعفرٍ وأبي عبد اللهِ ﵄ وخلقٍ آخَرين.

وأخرج ابنُ جَرير، وإسحاقُ بن راهويه في «مسنده» وابنُ مردويه في «تفسيره» والبيهقيُّ في «المعرفة» عن أبي مسعودٍ عقبةَ بنِ عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريلُ عليه السلام لِدلوك الشمسِ حين زالت فصلَّى بي الظُّهر»[1].

وقيل: لغروبها. وهو المرويُّ عندنا عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وأخرجه ابنُ مردويه، والطبرانيّ، والحاكمُ وصحَّحه، وغيرُهم عن ابن مسعود[2]، وابنُ المنذر وغيرُه عن ابنِ مسعود[3]، ورُوي عن زيد بنِ أسلم، والنخعيّ، والضحَّاك، والسُّدِّي، وإليه ذهب الفرَّاء[4] وابن قتيبة[5]، وأنشد لذي الرُّمَّة:

مصابيحُ ليست باللَّواتي يقودها ... نجومٌ ولا بالآفلات الدوالكِ[6]

وأصلُ مادَّة (د ل ك) تدلُّ على الانتقال، ففي الزوال انتقالٌ من دائرة نصفِ النَّهار إلى ما يليها، وفي الغروبِ انتقالٌ من دائرة الأُفق إلى ما تحتها، وكذا في الدَّلك المعروفِ انتقالُ اليد من محلٍّ إلى آخر، بل كلُّ ما أوَّله دالٌ ولامٌ مع قطع النظرِ عن آخرِه يدلُّ على ذلك، كدَلَجَ بالجيم من الدُّلْجة، وهي سيرُ الليل، وكذا دَلَجَ بالدَّلو إذا مشى بها من رأس البئرِ للمصبّ، ودَلَح بالحاءِ المهمَلة إذا مشى مشياً متثاقلاً، ودَلَعَ بالعين المهملةِ إذا أخرج لسانَه، ودَلَفَ بالفاءِ إذا مشى مِشيةَ المقيَّد،

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩ ومعرفة السنن والآثار (٢٣٤٤).

(٢) المعجم الكبير (٩١٢٧-٩١٣٨)، والمستدرك ٢/ ٣٦٣.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: عن علي، وقد أخرجه ابن المنذر في الأوسط ٢/ ٣٢٣ عن علي وابن مسعود، وينظر الدر المنثور ٤/ ١٩٥.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ١٢٩.

(٥) في تفسير غريب القرآن ص٢٥٩.

(٦) تتمة الديوان ٣/ ١٧٣٤.

وبالقاف إذا أَخرج المائعَ من مقرِّه، ودَلِهَ إذا ذهب عقلُه، وفيه انتقالٌ معنويٌّ، إلى غير ذلك، وهذا المعنى يشملُ كلا المعنيَين السابقين وإنْ قيل: إنَّ الانتقالَ في الغروب أتمّ؛ لأنَّه انتقالٌ من مكانٍ إلى مكان، ومن ظهورٍ إلى خفاء، وليس في الزَّوال إلَّا الأوَّل.

وقيل: إنَّ الدُّلوك مصدرٌ مزيدٌ مأخوذٌ من المصدر المجرَّد، أَعني الدلكَ المعروف، وهو أَظهرُ في الزَّوال؛ لأنَّ مَن نظر إلى الشمسِ حينئذٍ يَدلُك عينَه، ويكون على هذا في دُلوك الشمسِ تجوُّز عن دلوك ناظرِها.

وقد يُستأنس في ترجيح القولِ الأوَّل مع ما سبق بأنَّ أولَ صلاةٍ صلَّاها النبيُّ ﷺ نهارَ ليلةِ الإسراءِ الظُّهر، وقد صحَّ أنَّ جبريلَ عليه السلام ابتدأ بها حين علَّم النبيَّ عليه الصلاة السلام كيفيةَ الصلاةِ في يومين[1].

وقال المبرِّد: دلوكُ الشمسِ من لَدُن زوالِها إلى غروبها، فالأمرُ بإقامة الصلاةِ لدُلوكها أمرٌ بصلاتين: الظُّهر والعصر، وعلى القولَين الآخَرين أمرٌ بصلاة واحدة: الظهر أو العصر.

واللامُ للتأقيت متعلِّقة بـ «أقم»، وهي بمعنى بَعد، كما في قول متمِّم بن نُويرة يرثي أخاه:

فلمَّا تفرَّقنا كأني ومالكاً لِطول اجتماعٍ لم نَبِت ليلةً معا[2]

ومنه: كتبتُه لثلاثٍ خَلَونَ من شهرٍ كذا، وتكونُ بمعنى عند أيضاً، وقال الواحديّ: هي للتعليل؛ لأنَّ دخولَ الوقتِ سببٌ لوجوب الصلاة.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: إلى شدَّة ظلمتِه، كما قال الراغبُ[3] وغيرُه، وهو وقتُ العشاء. وأَخرج ابنُ الأنباريِّ في «الوقف»[4] عن ابن عباسٍ أنَّ نافع بنَ الأَزرقِ قال

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٥٣٨)، والترمذي (١٥٠)، والنسائي ١/ ٢٦٣ من حديث جابر ﷺ. ومن حديث ابن عباس أخرجه أبو داود (٣٩٣)، والترمذي (١٤٩) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) المفضليات ص ٢٦٧، والشعر والشعراء ١/ ٣٣٨، والخزانة ٨/ ٢٧٢.

(٣) في المفردات (غسق).

(٤) ١/ ٨٩.

له: أَخبِرني ما الغسق؟ فقال: دخولُ الليلِ بظُلمته، وأَنشد قولَ زهيرِ بن أبي سُلمى:

ظلَّت تجود يداها وهي لاهيةٌ حتى إذا جنح الإظلامُ والغسقُ

وقال النَّضر بن شُميل: غسقُ الليلِ دخولُ أوَّله، قال الشاعر[1]:

إنَّ هذا الليلَ قد غسقا واشتكيتُ الهمَّ والأرقا

وهو عنده وقتُ المغرب، ورُوي ذلك عن مجاهد، وأصلُه من السَّيلان، يقال: غَسِقَت العينُ تَغسِق، إذا هَمَلت بالماء، كأنَّ الظُّلمة تنصبُّ على العالَم.

وقيل: المرادُ من غَسَق الليلِ ما يعمُّ وقتَي المغربِ والعشاء، وهو ممتدٌّ إلى الفجر، كما أنَّ المرادَ بدُلوك الشمسِ ما يعمُّ وقتَي الظهرِ والعصر، ففي الآية ـ بدخول الغايةِ تحت المغيَّا وبضمٍّ ما بَعد ـ إشارةٌ إلى أوقات الصَّلوات الخمس. واختاره جماعةٌ من الشِّيعة، واستدلُّوا بها على أنَّ وقتَ الظهرِ موسَّع إلى غروبِ الشمس، ووقتَ المغرب موسَّع إلى انتصافِ الليل، وهي أحدُ أدلَّة الجمعِ في الحضر بلا عذرٍ الذي ذهبوا إليه، وأيَّدوا ذلك بما رواه العيّاشيُّ بإسناده عن عُبيد بن زرارة[2]، عن أبي عبد اللهِ أنَّه قال في هذه الآية: إنَّ الله تعالى افترض أربعَ صلوات، أوَّلُ وقتِها من زوال الشَّمس إلى انتصافِ الليل، منها صلاتانِ أولُ وقتِهما من عند زوالِ الشمسِ إلى غروبها، إلَّا أنَّ هذه قبل هذه، ومنها صلاتان أوَّلُ وقتهما غروبُ الشمسِ إلى انتصاف اللَّيل، إلَّا أن هذه قبلَ هذه. وهو مرتضَى المرتضَى في أوقات الصَّلاة.

والمعتمدُ عليه عندَ جمهورِ المفسِّرين أنَّ دلوكَ الشمسِ وقتُ الظهر، وغسقَ الليل وقتُ العشاء، كما ينبئُ عنه إقحامُ الغسقِ وعدمُ الاكتفاءِ بـ «إلى الليل».

والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ «أقم»، وأجاز أبو البقاءِ[3] تعلُّقَه بمحذوفٍ وقع حالاً من الصلاة، أي: ممدودةً إلى الليل، والأوَّل أولى.

---

(١) هو عبيد الله بن قيس الرقيات، والبيت في ديوانه ص١٨٧.

(٢) في الأصل و(م): عبيدة وزرارة، والمثبت من مجمع البيان ١٥/ ٨٧، والكلام منه. وهو عبيد بن زرارة بن أعين، ينظر الفهرست ص ٢٧٦.

(٣) في الإملاء ٣/ ٤٩٤.

وليس المرادُ بإقامة الصلاةِ فيما بين هذين الوقتَين على وجهِ الاستمرار، بل إقامةُ كلِّ صلاةٍ في وقتها الذي عيِّن لها ببيان جبريلَ عليه السلام الثابتِ في الرِّوايات الصحيحةِ التي لم يروِها مَن شَهِدَ أحدٌ من الأئمَّة الطاهرين بزندقتهم ونجاسةِ بواطنهم، كما أنَّ أعدادَ ركعاتِ كلِّ صلاةٍ موكولةٌ إلى بيانِه عليه الصلاة والسلام.

ولعل الاكتفاءَ ببيان المبدأ والمنتَهى في أوقات الصلاةِ من غير فصلٍ بينها لِمَا أنَّ الإنسانَ فيما بين هذه الأوقاتِ على اليقظة، فبعضُها متَّصل ببعض، بخلاف وقتِ العشاءِ والفجر، فإنَّه باشتغاله فيما بينهما بالنَّوم عادةً ينقطع أحدُهما عن الآخَر؛ ولذلك فَصَل وقتَ الفجرِ عن سائر الأوقات.

ثم إنَّ المستدلَّ من الشِّيعة بالآية لا يتمُّ له الاستدلالُ بها على جواز الجمعِ بين صلاتَي الظهرِ والعصر وبين صلاتَي المغربِ والعشاءِ ما لم يضمَّ إلى ذلك شيئاً من الأَخبار، فإنَّها إذا لم يضمَّ إليها ذلك أَولى بأن يستدلَّ بها على جواز الجمعِ بين الأربعةِ جميعِها، لا بين الاثنتينِ والاثنتين. ولا يخفَى ما في الاستدلالِ بها على هذا المطلب؛ ولذا لم يرتضِه أبو جعفرٍ منهم. نعم ما ذهبوا إليه مما يؤيِّده ظواهرُ بعضِ الأحاديثِ الصَّحيحة، كحديث ابنِ عبَّاس وهو في صحيحِ مسلم[1]: صلَّى رسولُ اللهِ ﷺ الظهرَ والعصرَ جمعاً بالمدينة. وفي روايةٍ أنَّه ﷺ صلَّى ثمانياً جميعاً وسبعاً جميعاً من غير خوفٍ ولا سفر[2].

واختُلف في تأويلِه، فمنهم مَن أوَّله بأنَّه جَمَعَ بعذر المطر، والجمعُ بسبب ذلك تقديماً وتأخيراً مذهبُ الشافعيِّ في القديم، وتقديماً فقط في الجديد، بالشَّرط المذكورِ في كتبهم.

وخصَّ مالكٌ جوازَ الجمعِ بالمطر في المغربِ والعشاء، وهذا التأويلُ مشهورٌ عن جماعةٍ من الكبار المتقدِّمين، وهو ضعيف؛ لمَا في صحيحِ مسلمٍ عنه أيضاً: جمع رسولُ اللهِ ﷺ بين الظُّهر والعصرِ والمغربِ والعشاءِ بالمدينة في غير خوفٍ

---

(١) برقم (٧٠٥)، والحديث عند البخاري (٥٤٣) و(٥٦٢) و(١١٧٤) بنحوه.
(٢) انظر الحديث السابق.

ولا مطر[١]. وكونُ المراد: ولا مطرٍ كثير، لا يرتضيه ذو إنصافٍ قليل، والشذوذُ غير مسلَّم.

ومنهم مَن أوَّله بأنَّه كان في غيم، فصلَّى ﷺ الظهرَ ثم انكشفَ الغيم، وبَانَ أنَّ أولَ وقتِ العصر دخل فصلَّاها. وفيه أنَّه وإنْ كان فيه أدنَى احتمالٍ في الظُّهر والعصر، إلَّا أنه لا احتمالَ في المغربِ والعشاء.

ومنهم مَن أوَّله بأنه عليه الصلاة والسلام أخَّر الأُولى إلى آخِر وقتها فصلَّاها فيه، فلمَّا فرغ منها، دخل وقتُ الثانيةِ فصلَّاها، فصارت الصورةُ صورةَ جمع. وفيه أنَّه مخالفٌ للظاهر مخالفةً لا تُحتَمل، ويردُّه أيضاً ما صحَّ عن عبد اللهِ بن شَقيقٍ قال: خَطَبَنا ابنُ عباس يوماً بعد العصرِ حتى غربت الشمسُ وبدت النُّجوم، وجعل الناسُ يقولون: الصلاةَ الصلاة، فجاءَ رجلٌ من بني تميم فجعل لا يَفتُر ولا يَنثني: الصلاةَ الصلاة، فقال ابنُ عباس: أتعلِّمني بالسُّنَّة لا أمَّ لك؟ رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ جمع بين الظُّهر والعصرِ والمغربِ والعشاء. قال عبدُ الله بن شقيق: فحاكَ في صدري من ذلك شيء، فأتيتُ أبا هريرةَ فسألته، فصدَّق مقالَته[٢].

ومنهم مَن قال: هو محمولٌ على الجمع بعذر المرضِ أو نحوِه ممَّا هو في معناه من الأعذار. وهذا قولُ الإمامِ أحمد، والقاضي حسينٍ من الشافعية، واختاره منهم الخطَّابيُّ[٣] والمتولِّي والرُّوياني. وقال النوويّ[٤]: هو المختارُ في التأويل.

ومذهبُ جماعةٍ من الأئمَّة جوازُ الجمعِ في الحضرِ للحاجة لمن لا يتَّخذه عادة. وهو قولُ ابنِ سيرين، وأشهبَ من أصحابِ مالك، وحكاه الخطابيُّ[٥] عن القفَّال الشاشيِّ الكبير من أصحابِ الإمام الشافعيّ، وعن أبي إسحاقَ المروزيّ، وعن جماعةٍ من أصحاب الحديث، واختاره ابنُ المنذر[٦]. ويؤيِّده ظاهرُ ما صحَّ

---

(١) صحيح مسلم (٧٠٥): (٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (٧٠٥): (٥٧).

(٣) انظر معالم السنن ١/ ٢٦٥.

(٤) في شرح صحيح مسلم ٥/ ٢١٨.

(٥) في معالم السنن ١/ ٢٦٥.

(٦) انظر الأوسط ٢/ ٤٣٢-٤٣٤.

عن ابن عباسٍ ورواه مسلمٌ أيضاً[١] أنَّه لمَّا قال: جَمَعَ رسولُ اللهِ ﷺ بين الظُّهر والعصرِ والمغربِ والعشاءِ بالمدينة في غير خوفٍ ولا مطر، قيل له: لِمَ فعل ذلك؟ فقال: أراد ألَّا يُحرِجَ أحداً من أمَّته. وهو من الحرجِ بمعنى المشقَّة، فلم يعلِّله بمرضٍ ولا غيره.

ويعلم ممَّا ذكرنا أنَّ قول الترمذيِّ في آخر كتابه: ليس في كتابي حديثٌ أجمعت الأمَّة على ترك العملِ به إلَّا حديثُ ابنِ عبَّاس في الجَمع بالمدينة من غير خوفٍ ولا مطر، وحديثُ قتلِ شارب الخمرِ في المرَّة الرابعة[٢]= ناشئٌ من عدم التتبُّع. نَعَم ما قاله في الحديثِ الثاني صحيحٌ؛ فقد صرَّحوا بأنَّه حديثٌ منسوخ دلَّ الإجماعُ على نسخه.

وقال ابنُ الهُمام[٣]: إنَّ حديثَ ابن عباس معارَضٌ بما في مسلم[٤] من حديث ليلةِ التَّعريس أنَّه ﷺ قال: «ليس في النَّوم تفريط، إنَّما التفريطُ في اليقظة أن يؤخِّرَ الصلاةَ حتى يدخلَ وقتُ صلاةٍ أُخرى» وللبحثِ في ذلك مجال.

ومذهبُ الإمامِ أبي حنيفةَ عدمُ جوازِ جمعِ صلاتَي الظُّهر والعصرِ في وقتِ إحداهما، والمغربِ والعشاءِ كذلك مطلقاً، إلَّا بعرفات، فيُجمع فيها بين الظُّهر والعصرِ بسبب النُّسك، وإلَّا بمزدلفة، فيُجمع فيها بين المغربِ والعشاءِ بسبب ذلك أيضاً، واستَدلَّ بما استدلّ، وفي الصَّحيحين[٥] وسنن أبي داودَ[٦] وغيرِه ما لا يساعده على التخصيص. وأنت تعلمُ أنَّ الاحتياطَ فيما ذهب إليه الإمامُ رضي الله عنه، فالمحتاطُ لا يُخرج صلاةَ الظهرِ ـ مثلاً ـ عن وقتها المتيقَّن الذي لا خلافَ فيه إلى وقتٍ فيه خلاف، وقد صرَّح غيرُ واحدٍ بأنَّه إذا وقع التعارضُ يقدَّم الأحوط، وتعارضُ الأخبارِ في هذا الفصلِ ممَّا لا يخفَى على المتتبِّع.

---

(١) صحيح مسلم (٧٠٥): (٥٠).
(٢) سنن الترمذي ٥/ ٧٣٦ في أول كتاب العلل.
(٣) في فتح القدير ١/ ٤٠٧.
(٤) برقم (٦٨١) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.
(٥) صحيح البخاري (١١٠٦-١١٠٨)، وصحيح مسلم (٧٠٣-٧٠٥) من حديث ابن عمر وابن عباس وأنس رضي الله عنهم.
(٦) برقم (١٢٠٦-١٢٢٠) من حديث معاذ وابن عمر وابن عباس وجابر وأنس رضي الله عنهم.

هذا وزعم بعضُهم أنَّ المرادَ بالصلاة المأمورِ بإقامتها صلاةُ المغرب، والتحديدُ المذكورُ بيانٌ لمبدأ وقتِها ومنتهاه على أنَّ الغايةَ خارجة، واستدلَّ به على امتدادِه إلى غروبِ الشَّفق، وهو خلافُ ما ذهب إليه الإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه في الجديدِ من أنَّه ينقضي بمُضِيِّ قَدْرِ زمنِ وضوءٍ وغُسلٍ وتيمُّم، وطلبِ خفيف، وإزالةِ خبثٍ مغلَّظ يعمُّ البدنَ والثوبَ والمحلّ، وسَترِ عورة، واجتهادٍ في القِبلة، وأذانٍ وإقامة، وأُلحق بها سائرُ سننِ الصلاة المتقدِّمة، كتعمُّم وتقمُّصٍ، ومشيٍ لمحلِّ الجماعة، وأكلِ جائعٍ حتى يشبع، وسبعِ رَكَعات، ولعلَّ الزمانَ الذي يسع كلَّ هذا يَزيد على زمن ما بين غروبِ الشمس وغروبِ الشفق أيَّ شفقٍ كان في أكثر الأَعراض.

ثم لا يخفَى أنَّه إذا كان المرادُ من غَسَق الليلِ وقتَ العشاء وفسِّر الغسقُ باجتماع الظلمةِ وشدَّتها، كان ذلك مؤيِّداً لما في ظاهر الرِّوايةِ عن الإمام أبي حنيفةَ رضي الله عنه من أنَّ أوَّل وقتِ العشاءِ حين يغيب الشفقُ بمعنى البياضِ الذي يَعقُب الحُمرةَ في الأُفق الغربيّ؛ لأنَّ الظلمةَ لا تجتمع ولا تشتدُّ ما لم يَغِب. ولا يأبَى ذلك أنَّ الأحاديثَ الصحيحةَ صريحةٌ في أنَّ أولَ وقتِها حين يغيب الشفقُ وهو في اللغةِ الحمرةُ المعلومة؛ لأنَّ تفسيرَه بالبياض قد جاء أيضاً، ورُوي ذلك عن أبي بكرٍ الصدِّيق، وعمرَ، ومعاذِ بن جبل، وعائشةَ رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ورواه عبدُ الرزاق عن أبي هريرةَ وعن عمرَ بنِ عبد العزيز[1]، وبه قال الأوزاعيّ، والمُزَني، وابنُ المنذر[2]، والخطَّابي، واختاره المبرِّد وثعلب[3]. وما رواه الترمذيُّ[4] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أوَّلُ وقتِ العشاءِ حين يَغيب الأُفق» ظاهرٌ في كون الشَّفقِ البياض؛ إذ لا غيبوبةَ للأُفق إلَّا بسقوطه.

نَعَم ذهب صاحباه إلى أنَّه الحمرةُ، وهو قولُ ابنِ عباس[5] وابنِ عمرَ رضي الله عنهم، ورواه أَسدُ بن عَمرٍو عن الإمام أيضاً، لكنَّه خلافُ ظاهرِ الرِّواية عنه.

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٢٠٤٠) و(٢١١٠).

(٢) انظر الأوسط ٢/ ٣٤٠-٣٤٢.

(٣) انظر مجالس ثعلب ص٣٠٨.

(٤) في جامعه (١٥١).

(٥) جاء فوقها في الأصل: أي: في رواية. اهـ منه.

والصحيحُ المفتَى به عندنا ما جاءَ في ظاهرِ الرِّواية، وقد نصَّ على ذلك المحقِّق ابنُ الهُمام[١]، والعلَّامة قاسم وابن نُجَيم، وغيرُهما.

وما قاله الإمامُ أبو المفاخرِ من أنَّ الإمام رجع إلى قولِهما وقال: إنَّه الحُمرة، لِمَا ثَبَتَ عنده من حَمل عامَّةِ الصحابةِ إيَّاه على ذلك وعليه الفتوى، وتَبِعه المحبوبيُّ وصدرُ الشريعة = ليس بشيء؛ لأنَّ الرجوع لم يثبت، ودون إثباته ـ مع نقل الكافَّة عن الكافةِ خلافَه ـ خَرْطُ القتاد. وكذا دعوى حملِ عامَّة الصحابةِ خلافُ المنقول كما سمعتَ، حتى إنَّ البيهقيَّ[٢] لم يروِ أنَّ الشَّفقَ الحُمرةُ إلّا عن ابن عمرَ ﵄. وما رواه الدارَقطنيُّ[٣] عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الشفقُ الحُمرة، فإذا غابَ وجبت الصلاة» قال البيهقيُّ والنوويُّ فيه: الصحيحُ أنَّه موقوفٌ على ابن عمرَ ﵄[٤].

ومثلُ هذا الاختلافِ الاختلافُ في أوَّل وقتِ العصر، فقال الإمام: هو إذا صار ظلُّ كلِّ شيءٍ مثلَيه بعد ظلِّ الزَّوال، وقالا: إذا صار ظلُّ كلِّ شيءٍ مثلَه بعد ظلِّ الزَّوال. وفتوى المحقِّقين على قولِه رحمةُ الله تعالى عليه، بل قال ابن نُجيم: إنَّ الإفتاء بغيره لا يجوز، وقد أَطال الكلامَ في ذلك في رسالته «رفعُ الغِشاء عن وقتَي العصرِ والعشاء».

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ عطفٌ على مفعول «أقم» أو نصبٌ على الإغراء كما قال الزجَّاج[٥] وأبو البقاءِ[٦]، والجمهورُ على الأوَّل.

والمرادُ بقرآن الفجرِ صلاتُه كما رُوي عن ابن عباسٍ ومجاهد. وسميت قرآناً ـ أي: قراءةً ـ لأنَّها ركنُها، كما سمِّيت ركوعاً وسجوداً. وهذه حجَّة على ابن عُلَيّة والأصمِّ في زعمهما أنَّ القراءةَ ليست بركنٍ في الصلاة، قاله في «الكشَّاف»[٧].

---

(١) في فتح القدير ١/ ١٥٥.
(٢) في سننه ١/ ٣٧٣.
(٣) في سننه (١٠٥٦).
(٤) سنن البيهقي ١/ ٣٧٣، والمجموع ٣/ ٤٤.
(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥ دون ذكر النصب على الإغراء.
(٦) في الإملاء ٣/ ٤٩٤.
(٧) ٢/ ٤٦٢.

ورُدَّ بأنَّ ذلك لا يدل على الرُّكنية؛ لجواز كونِ مدارِ التجوُّز كونَ القراءةِ مندوبةً فيها.

وفي «الكشف» أنَّه مدفوعٌ بأنَّ العلاقةَ المعتَبرة في إطلاق غيرِ الصلاة وإرادةِ الصلاة هي علاقةُ الكلِّ والجزء، بدليل النَّظائر، وهاهنا إذ ورد تجوُّزاً فحملُه على معلوم النظيرِ من الاستقراءِ واجب، على أنَّ النَّدْبيةَ لا تصلُح علاقةً معتَبرة إلَّا بالتكلُّف وجَعْلِ سبَّح بمعنى صلَّى؛ لأنَّ التسبيحَ بمعنى التنزيهِ البالغ، والمصلِّي مسبِّح قولاً بقراءة الفاتحة، بل بالتكبير الواجبِ بالاتِّفاق، وفعلاً أيضاً بالرُّكوعِ والسجودِ مثلاً الدالَّين على كمال التعظيمِ والتبجيل، فهو الرُّكن كلُّه، لا لأنَّ التسبيحَ بمعنى قولِ: سبحان الله، ليقالَ: تُجوِّز عن الصلاة بما هو مندوبٌ فيها.

وتعقِّب بأنَّ الاكتفاءَ بعلاقة الندبيةِ التي يقول بها الأصمُّ وابنُ عُلَيّة لا تكلُّفَ فيه، فإن القرآنَ جزءٌ من الصلاةِ الكاملة، فيكونُ ذلك كالنَّظائر بلا ضررٍ ولا ضَير، وبأنَّ مذهبهما في التكبير غيرُ معلوم، فدعوى الاتِّفاقِ غيرُ مسلَّمة منه، ولو كان كما ذكره لكان الوجوبُ كافياً في علاقةٍ أخرى، وهي اللُّزوم. وفيه بحث.

وأبقى الجصَّاص[1] القرآنَ على حقيقتِه وقال: في الآية دَلالةٌ على وجوب القراءةِ في صلاةِ الفجر؛ لأنَّ التقديرَ فيها: وأَقِم قرآنَ الفجر، والأمر للوجوب، ولا قراءةَ في ذلك الوقتِ واجبةٌ إلَّا في الصلاة، وزعمُ أنَّ كونَ المعنى: صلُّوا الفجر، غلطٌ من وجهَين: الأوَّل: أنَّه صرفٌ عن الحقيقة بغيرِ دليل. والثاني: أنَّ «فتهجد به» فيما بعدُ يأباه؛ إذ لا معنى للتهجُّد بصلاةِ الفجر.

وفيه أنَّ الدليلَ قائم، وهو «أقم» لاشتهار «أقم الصلاة» دون أَقم القراءة، وضمير «به» فيما بعدُ يجوز أن يرجعَ إلى القرآنِ بمعناه الحقيقيِّ استخداماً[2]، وهو أكثرُ من أن يُحصَى، ثم متى دلَّت الآيةُ على وجوب القراءةِ في صلاة الفجرِ نصًّا، كان ثبوتُ وجوبِها في غيرِها من الصلاةِ قياساً.

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ٢٠٦.

(٢) الاستخدام: هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

وذكر بعضُهم أنَّ في التعبير عن صلاة الفجرِ بخصوصها بما ذُكر إشارةً إلى أنّه يُطلَب فيها من تطويل القراءةِ ما لم يُطلَبْ في غيرها، وهو حسن.

وقال الإمام(١): إنَّ في الآية دلالةً على أنه يسنُّ التغليسُ في صلاة الفجر؛ لأنَّه أُضيف فيها القرآنُ إلى الفجر على معنى: أَقم قرآنَ الفجر، والأمرُ للوجوب، والفجرُ أوَّل طلوعِ الصُّبح؛ لانفجار ظلمةِ الليلِ عن نور الصباحِ حينئذ، ولذلك سمِّي الفجرُ فجراً، فيقتضي ذلك وجوبَ إقامة صلاة الفجرِ أولَ الطلوع، وحيث أُجمع على عدم وجوبِ ذلك بقي النَّدب؛ لأنَّ الوجوبَ عبارةٌ عن رُجحان مانعِ الترك، فإذا منع مانعٌ من تحقُّق الوجوبِ كالإجماع هنا، وجب أن يرتفعَ المنعُ من التركِ وأن يبقَى أصلُ الرُّجحان حتى تقلَّ مخالفةُ الدليل.

وأنت تعلمُ ما للعلماء من الخلاف في الباقي بعد رفعِ الوجوب، وما ذكر قولٌ في المسألة، لكنَّه لا يُفيد المطلوب؛ لأنَّ صلاة الفجرِ اسمٌ للصلاة المخصوصة، سواءٌ وقعت بغلسٍ أم إسفار، والأخبارُ الصحيحة تدلُّ على سنِّية الإسفار بها، كخبر الترمذيِّ(٢) ـ وهو كما قال حسنٌ صحيح ـ: «أسفِروا بالفجر؛ فإنَّه أَعظمُ للأجر» وحَملُه على تبيُّن الفجرِ حتى لا يكونَ شكٌّ في طلوعِه ليس بشيء؛ إذ ما لم يتبيَّن لا يُحكَم بجواز الصلاةِ فضلاً عن إصابة الأجر المفادِ بآخر الخبرِ ولو حُمِلَ «أعظمُ» فيه على عظيم، ورُدَّ أنَّ المناسبَ في التعليل: فإنَّه لا تصحُّ الصلاةُ بدونه، على أنَّه ـ على ما فيه ـ يَنفيه روايةُ الطَّحاوي(٣): «أسفِروا بالفجر، فكلَّما أَسفرتم فهو أَعظمُ للأجر» أو «لأُجوركم» أو كما قال. وروى بسنده الصَّحيحِ(٤) عن إبراهيمَ قال: ما اجتمع أصحابُ رسولِ الله ﷺ على شيءٍ ما اجتمعوا على التَّنوير. ومحالٌ ـ نظراً إلى علوِّ شأنِهم ـ أن يجتمعوا على خلافِ ما فارقهم عليه حبيبُهم رسولُ اللهِ عليه الصلاة والسلام.

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ٢٧.

(٢) برقم (١٥٤) من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه. وهو عند أبي دواد (٤٢٤)، والنسائي ١/ ٢٧٢، وابن ماجه (٦٧٢) بنحوه.

(٣) في شرح معاني الآثار ١/ ١٧٨.

(٤) في شرح معاني الآثار ١/ ١٨٤.

وفي الصَّحيحين(١) عن ابنِ مسعود: ما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ صلَّى صلاةً [إلَّا] لميقاتها، إلَّا صلاتين: صلاة المغربِ والعشاءِ بجمع، وصلَّى الفجرَ يومئذٍ قبلَ ميقاتها. مع أنَّه كان بعدَ الفجرِ كما يفيده لفظُ البخاريّ، فيكون المراد: قبل ميقاتِها الذي اعتاد الأداءَ فيه. والظاهرُ أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يكن يعتادُ التغليس، إلَّا أنَّه فعله يومئذٍ ليمتدَّ الوقوف، ونحن نقول بسنِّيته بفجرِ جمعٍ لهذا الحديث.

وخبرُ عائشةَ ﵂(٢): كان ﷺ يصلِّي الصبحَ بغلس، فتشهد معه نساءٌ متلفِّعاتٌ بمروطهنّ، ثم يَرجعنَ إلى بيوتهنَّ ما يعرفهنَّ أحدٌ من الغلس= حَمَلَ الغلسَ فيه بعضُ أصحابِنا على غلسٍ داخلَ المسجد، ويأباه قولُها: ثم يرجعنَ إلى بيوتهنَّ ما يعرفهن أحدٌ من الغلس؛ إذ لا يمكن حملُ هذا الغلسِ المانعِ من معرفتهنَّ في طريق رجوعهنَّ إلى بيوتهنَّ على غلسٍ داخلَ المسجد، وكونُ المراد: ما يعرفهنَّ أحدٌ في داخل المسجدِ من الغلس، خلافُ الظاهرِ على تقدير جعلِ الجملةِ حالاً من ضميرِ يرجعن. والظاهرُ ما أشرنا إليه، وكذا جعلُ الجملةِ حالاً من نساء أو صفةً لها، كأنَّه قيل: فتشهد معه نساءٌ بمروطهنَّ ما يعرفهن أحدٌ من الغَلَس ثم يرجعنَ إلى بيوتهنّ.

وقيل: كان ذلك في يومِ غيم، ويُبعده «كان» فإنَّها شائعةُ الاستعمالِ فيما كان يداومُ عليه عليه الصلاة والسلام.

وقيل: هو منسوخ، كما يدلُّ عليه اجتماعُ الصحابةِ على التنوير. ويُبعد ذلك أنَّ النسخَ يقتضي سابقيةَ وجودِ المنسوخ، وقولُ ابنِ مسعود: ما رأيتُ... إلخ، يفيد أنْ لا سابقيةَ له.

وقال بعضُهم: تُرجَّح في الأخبار المتعارضةِ هنا روايةُ الرِّجال خصوصاً، مثل ابنِ مسعود؛ فإنَّ الحالَ أكشفُ لهم في صلاة الجماعة، فتأمَّل.

وذكر الطحاويُّ(٣) أنَّ الذي ينبغي الدخولُ في الفجر وقتَ التغليس والخروجُ

---

(١) صحيح البخاري (١٦٨٢)، وصحيح مسلم (١٢٨٩)، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.
(٢) أخرجه البخاري (٥٧٨)، ومسلم (٦٤٥).
(٣) في شرح معاني الآثار ١/ ١٨٤.

وقتَ الإسفار، وهو قولُ الإمامِ أبي حنيفةَ وصاحبَيه، وهو خلافُ ما يذكره الأصحابُ عنهم من البدءِ والختم في الإسفار، وهو الذي يفيده حديثُ الترمذيِّ وغيره، والله تعالى أعلم.

ثم إنَّ صلاةَ الفجرِ وإنْ كانت إحدى الصلواتِ الخمسِ التي فُرضت ليلةَ الإسراء عليه ﷺ وعلى أمَّته ودلَّت هذه الآيةُ على وجوبِ إقامتها كذلك، إلَّا أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يصلِّها صبحَ تلك الليلة؛ لعدم العلمِ بكيفيَّتها حينئذ، وإنَّما علم الكيفيةَ بعد.

وقد قدَّمنا قريباً أنَّ البداءةَ وقعت في صلاةِ الظُّهر إشارةً إلى أنَّ دِينَه عليه الصلاة والسلام سيظهر على الأديان ظهورَها على بقية الصَّلوات.

ونوَّه سبحانه هنا بشأن صلاةِ الفجرِ بقوله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ حيث لم يقل سبحانه: إنَّه ﴿كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾.

أَخرج أحمد، والنَّسائي، وابنُ ماجه، والترمذيّ، والحاكم، وصحَّحاه[1]، وجماعةٌ عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال في تفسير ذلك: «تشهده ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهار» وفي الصَّحيحين[2] عنه رضي الله عنه أنَّه قال: قال النبيُّ ﷺ: «تجتمع ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ في صلاةِ الفجر» ثم قال أبو هريرة: اِقرؤوا إن شئتم: (وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) والمرادُ بهؤلاء الملائكةِ الكتبةُ والحفظة، فتنزل ملائكةُ النهارِ وتصعد ملائكةُ الليل، وتلتقي الطائفتان في ذلك الوقت، وكذا تلتقي الطائفتان - وأمرُ النزولِ والصُّعود على العكس - وقتَ العصر، كما جاءَ في الآثار[3]. وهذا ممَّا يعكِّر على الإمام في زعمه أنَّ هذا أيضاً دليلٌ قويٌّ على أنَّ التغليسَ أفضلُ من التنوير؛ لأنَّ الإنسان إذا شرع في الصلاة من أوَّل الصُّبح يكون ملائكةُ الليلِ حاضرين لبقاءِ الظُّلمة، فإذا امتدَّت الصلاةُ بسبب ترتيلِ القراءةِ وتكثيرِها، زالت الظلمةُ وظهر الضوءُ وحضر

---

(١) مسند أحمد (١٠١٣٣)، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٢٩)، وسنن ابن ماجه (٦٧٠)، وسنن الترمذي (٣١٣٥)، والمستدرك ١/ ٢١٠-٢١١.

(٢) صحيح البخاري (٦٤٨)، وصحيح مسلم (٦٤٩): (٢٤٦).

(٣) انظر ما سلف ١٣/ ٦٧.

ملائكةُ النهار، فإنه يَلزمه ـ على هذا البيانِ الذي لا يروج إلَّا على الصِّبيان ـ القولُ بأنَّ تأخيرَ صلاةِ العصر إلى أن يزولَ الضوءُ وتظهرَ الظُّلمة، وهو لا يقول به، بل لا يقولُ به أحد.

وهل الطائفةُ التي تشهد اليومَ مثلاً تشهد غداً، أو كلَّ يومٍ تشهد طائفةٌ أخرى لم تشهد قبلُ ولا تشهدُ بعد؟ فيه خلاف، وسيأتي الكلامُ إن شاءَ اللهُ تعالى فيما يتعلَّق بذلك.

وقيل: يشهدُه الكثيرُ من المصلِّين في العادة. وقيل: مِن حقِّه أن تشهدَه الجماعةُ الكثيرة. وقيل: تشهده وتحضرُ فيه شواهدُ القدرة، من تبدُّلِ الضياءِ بالظُّلمة، والانتباهِ بالنوم الذي هو أخو الموت. وهو احتمالٌ أبداه الإمامُ[1] وبسط الكلامَ فيه، ثم قال: وهذا هو المرادُ من قولِه تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ثم ذكر احتمالَ كونِ المرادِ: مشهوداً بالجماعة الكثيرةِ، وبسط الكلامَ أيضاً في تحقيقه.

وأنت تعلم أنَّه لا وجهَ للحصر المدلولِ عليه بقوله: وهذا هو المرادُ، ثم إبداءُ ذلك الاحتمال، على أنَّه بعدما صحَّ تفسيرُ النبيِّ ﷺ له بما سمعتَ لا ينبغي أن يقالَ في غيره: هذا هو المراد.

ولا يخفَى ما في هذه الجملةِ من الترغيب والحثِّ على الاعتناءِ بأمر صلاةِ الفجر؛ لأنَّ العبدَ في ذلك الوقتِ مشيَّعٌ كِراماً ومتلقٍّ كراماً، فينبغي أن يكونَ على أَحسنِ حالٍ يتحدَّث به الراحل، ويرتاحُ له النازل.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ قيل: أي: وعليك بعضَ الليل، وظاهرُه أنَّه من باب الإغراء، كما نُقل عن الزجَّاج وأبي البقاءِ في قوله تعالى: «وقرآن الفجر».

وتعقَّبه أبو حيَّان[2] بأنَّ المُغرَى به لا يكون حرفاً، ولا يُجدي نفعاً كونُ «مِن» للتبعيض؛ لأنَّ ذلك لا يجعلها اسماً، أَلَا ترى إجماعَ النُّحاةِ على أنَّ واوَ «مَعَ» حرفٌ وإنْ قُدِّرت بـ«مَعَ».

وأُجيب بأنَّه يحتملُ أن يكونَ القائلُ بذلك قائلاً باسميَّة «مِن» في مِثل ذلك،

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ٢٨.

(٢) في البحر ٦/ ٧١.

كما قالوا باسميةِ الكافِ في نحو: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:٥] و«عن» في نحو:

مـن عـن يـمـيـنـي تـارةً وشِـمـالـي(١)

و«على» نحو: مِن عليه، وكذا القائلُ بأنَّ ذلك نصبٌ على الظرفية بمقدَّر، أي: وقم بعضَ الليل. واختار الحوفيُّ أنَّ «مِن» متعلِّقة بفعلٍ دلَّ عليه معنى الكلام، أي: واسهَرْ من الليل، فالفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ إمَّا عاطفةٌ على ذلك المقدَّر، أو مفسِّرةٌ بناءً على أنَّه من أسلوب ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة:٤٠].

وفي «الكشف» أنَّ الإغراءَ هو الظاهرُ هاهنا بخلافه فيما تقدَّم؛ لأنَّ النصبَ على التفسير والصِّلاتُ مختلفةٌ لا يتَّضح كلَّ الاتِّضاح، ومعنى الإغراءِ من السابق واللاحقِ تتعاضد الأدلةُ عليه. وفيه منعٌ ظاهر.

والتهجُّد ـ على ما نُقل عن الليث ـ الاستيقاظُ من النَّوم للصلاة، ويُطلق على نفس الصلاةِ بعد القيامِ من النَّوم ليلاً، يقال: تهجَّد، أي: صلَّى في الليل بعدَ الاستيقاظ، وكذا هَجَدَ، وهذا يقتضي سابقيةَ النوم في تحقُّق التهجُّد، فلو لم ينم وصلَّى ما شاء، لا يقال له: تَهَجَّدَ، وهو المرويُّ عن مجاهدٍ والأسودِ وعلقمةَ وغيرِهم.

وقال المبرِّد: هو السَّهرُ للصلاة أو لِذِكر اللهِ تعالى.

وقيل: السهرُ للطاعة. وظاهرُه عدمُ اشتراطِ سابقيةِ النوم في تحقُّقه، والمشهورُ أنَّ ذلك يسمَّى قياماً، وما بعد النومِ يسمَّى تهجُّداً.

وأغربَ الحجَّاج بنُ عَمرِو المازني(٢)، فإنَّه رُوي عنه أنَّه قال: أيحسب أحدُكم

---

(١) البيت بتمامه ـ كما في حماسة أبي تمام ١/ ٦٨ـ:

فـلـقـد أرانـي لـلـرِّمـاح دريـئـةً مـن عـن يـمـيـنـي مـرَّةً وأمـامـي

ونسبه لقطري بن الفجاءة المازني.

(٢) الأنصاري الخزرجي، مختلف في صحبته، قال أبو نعيم: شهد صفِّين مع علي رضي الله عنه. الإصابة ٢/ ٢١٦ والخبر أخرجه الطبراني في الكبير (٣٢١٦)، وابن قانع في معجم الصحابة ١/ ١٩٤.

إذا قام من الليلِ فصلَّى حتى يُصبحَ أنَّه قد تهجَّد، إنَّما التهجُّدُ الصلاةُ بعد الرُّقاد، ثم صلاةٌ أخرى بعد رَقدة، ثم صلاةٌ أخرى بعد رَقدة، هكذا كانت صلاةُ رسولِ الله ﷺ.

وأنا أقول: إنَّ تخلُّل النومِ بين الصلواتِ جاءَ في صحيح مسلمٍ من رواية حُصين عن حبيبِ بن أبي ثابتٍ[١]، وهي ممَّا استدركها الدارقطنيُّ على مسلمٍ لاضطرابها، فقد قال: ورُوي عنه على سبعة أَوجُه، وخالف فيه الجمهور. يعني الخبرَ الذي فيه تخلُّل النوم، والكثيرُ من الرِّوايات ليس فيه ذلك، فليُحفَظ.

واشتُرط ألَّا تكونَ الصلاةُ إحدى الخَمس، فلو نام عن العشاءِ ثم قام فصلَّاها لا يسمَّى متهجِّداً، ولا ضررَ في كونها واجبة، كأَنْ نام عن الوِتر ثم قام إليها.

وفي «القاموس»: الهجودُ النوم، كالتهجُّد، وتهجَّد: استيقظ، كهجد، ضِدٌّ[٢]. وقال ابن الأَعرابي: هَجَدَ الرجل: صلَّى من الليل، وهجد: نام بالليل. وقال أبو عبيدة: الهاجد: النائمُ والمصلِّي[٣].

وفي «مَجمع البيان»[٤] أنَّه يقال: هَجَّدته: إذا أَنمتَه، وعليه قولُ لبيد:

قلت هجِّدْنا فقد طال السُّرى[٥]

ونُقل عن ابن بُزُرْج[٦] أنَّه يقال: هجَّدته: إذا أيقظتَه، ومصدرُ هذا التهجيدُ، وصرَّح في «القاموس»[٧] بأنَّه من الأَضداد أيضاً.

وذكر بعضُهم أنَّ المعروفَ في كلام العربِ كونُ الهجودِ بمعنى النوم، وفسَّر

---

(١) برقم (٧٦٣): (١٩١).
(٢) القاموس (هجد).
(٣) انظر مجاز القرآن ١/ ٣٨٩.
(٤) ١٥/ ٨٥.
(٥) ديوان لبيد ص١٨٢، وعجزه: وقَدَرْنا إن خَنَى دهرٍ غَفَلْ.
(٦) في الأصل و(م): برزخ، والصواب ما أثبتناه، وهو عبد الرحمن بن بُزُرْج، كان حافظاً للغريب والنوادر، قال الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ١٩: قرأت له كتاباً بخط أبي الهيثم الرازي في النوادر فاستحسنه. وكلامه في تهذيب اللغة ٦/ ٣٦.
(٧) مادة (هجد).

التهجُّد بترك الهجود، أي: النوم، على أنَّ التفعُّل للسَّلْب، كالتأثُّم والتحنُّث، وهو مأخذُ مَن فسَّره بالاستيقاظ.

ويجوزُ أن يقال: إنَّ التفعُّل للتكلُّف، أي: تكلُّف الهجودِ بمعنى اليقظة. ورجِّح هذا بأنَّ مجيءَ التفعُّل للتكلُّف أكثرُ من مجيئه للسَّلْب.

وعُورض بأنَّ استعمالَ الهجودِ في اليقظة مختلَفٌ في ثبوته، وإنْ ثبت فهو أَقلُّ من استعماله في النَّوم.

والضميرُ المجرورُ في «به» للقرآنِ من حيث هو، لا بقيد إضافتِه إلى الفجر. واستُدلَّ بذلك على تطويل القراءةِ في صلاة التهجُّد، وقد صرَّح العلماءُ بندب ذلك، وفي صحيح مسلم(١) من حديث حذيفةَ: صلَّيتُ وراءَ النبيِّ ﷺ ذاتَ ليلة، فافتتح «البقرة» فقلت: يركع عندَ المئة، ثم مضى، فقلت: يصلِّي بها في رَكعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح «النِّساء» فقرأها، ثم افتتح «آل عمران» فقرأها، يقرأ مترسِّلاً، إذا مرَّ بآيةِ تسبيحٍ سبَّح... الخبر.

ويجوز أن يكونَ للبعض المفهومِ من قولِه تعالى: «ومن الليل» والباءُ للظرفية، أي: فتهجَّد في ذلك البعض. وقال ابنُ عطية(٢): هو عائدٌ على الوقت المقدَّر في النظم الكريم، أي: قُمْ وقتاً من الليل فتهجَّد فيه ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فريضةً زائدةً على الصَّلوات الخمسِ المفروضةِ خاصَّةً بك دون الأمَّة، ولعله الوجهُ في تأخير ذِكرِها عن ذِكر صلاة الفجر مع تقدُّم وقتِها على وقتها.

واستدلَّ به على أنَّ ما أُمر به ﷺ فأمَّته مأمورون به أيضاً، إلَّا أن يدلَّ دليلٌ على الاختصاصِ كما هنا. ويدلُّ على أنَّ المرادَ ما ذُكر ما أَخرجه ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال في ذلك: يعني خاصَّةً للنبيِّ ﷺ، أُمر بقيامِ الليلِ وكُتب عليه(٣). لكن صحَّح النوويُّ أنَّه نُسخ عنه عليه الصلاة والسلام فَرْضيةُ التهجُّد، ونقله أبو حامدٍ من الشافعية، وقالوا: إنَّه الصحيح.

---

(١) برقم (٧٧٢).

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٩٦، وهو في تفسير الطبري ١٥/ ٤٠.

وقيل الخطابُ في «لك» له ﷺ، والمرادُ هو وأمَّته، على حدِّ الخطابِ في «أقم الصلاة» فيما سبق، أي: فريضةً زائدةً على الصلوات الخمسِ لِنفعكم، ففيه دليلٌ على فَرْضية التهجُّد عليه عليه الصلاة والسلام، بناءً على ما أَخرجه ابنُ أبي حاتم عن الضَّحاك قال: نُسخ قيامُ الليلِ إلَّا عن النبيِّ ﷺ[1]. أو ونُسخ في حقِّه ﷺ أيضاً بناءً على الصحيح، وهو خلافُ الظاهرِ جدًّا.

ويجوز أن يرادَ بالنافلةِ الفضيلة، إما لأنَّه عليه الصلاة والسلام فُضِّل على أمَّته بوجوبها وإن نُسخ بعد، أو لأنَّها فضيلةٌ له ﷺ وزيادةٌ في درجاته، وليست بالنِّسبة إليه مكفِّرةً للذنوب وسادَّةً للخَلَل الواقعِ في الفرائض، كما أنَّها وسائرَ النوافلِ بالنِّسبة إلى الأمَّة كذلك؛ لكونه عليه الصلاة والسلام قد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وفرائضُه وسائرُ تعبُّداته واقعةٌ على الوجه الأكمل. وقد أَخرج هذا الأخيرَ البيهقيُّ في «الدلائل» وابن جَريرٍ وغيرُهما عن مجاهد[2]، وابنُ أبي حاتم عن قتادة، وابنُ المنذر عن الحسن[3]، واستحسنه الإمام[4]، وضعَّفه الطبري[5]، وجوَّز ابنُ عطيةَ عمومَ الخطاب كما سمعتَ آنفاً، إلَّا أنَّه حمل «نافلة» على تطوُّعاً. وليس بشيءٍ أيضاً.

وربَّما يختلج في بعض الأذهانِ بناءً على ما تقدَّم عن أبي البقاءِ في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ من أنَّه بتقدير: اتَّبعْ سنَّة، كما قال سبحانه: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] احتمالُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ﴾ إلخ بياناً للاتِّباع المأمورِ به، وهو متضمِّن للأمر بالصلواتِ الخمس، وقد كان الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام يصلُّونها، على ما يدلُّ عليه قولُ جبريلَ عليه السلام في خبرِ تعليمِه عليه الصلاة والسلام كيفيةَ الصلاةِ بعد صلاتِه الخمس: هذا وقتُ الأنبياءِ من قبلك[6]، فإنَّه ظاهرٌ في أنَّهم عليهم السلام كانوا يصلُّونها.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٩٦.
(٢) دلائل النبوة ٥/ ٤٨٧، وتفسير الطبري ١٥/ ٤١.
(٣) الدر المنثور ٤/ ١٩٦.
(٤) في التفسير الكبير ٢١/ ٣٠.
(٥) في تفسيره ١٥/ ٤١-٤٢.
(٦) أخرجه أبو داود (٣٩٣)، والترمذي (١٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

غايةُ ما في الباب أنَّه على القولِ بأنَّها لم تجتمعْ لغير نبيِّنا ﷺ - وهو الصَّحيح - يحتمل أنَّ المرادَ أنَّه وقتُهم على الإجمال وإن اختصَّ مَن اختصَّ منهم بوقت، حيث ورد أنَّ الصبحَ لآدم، والظهرَ لداود، وفي رواية: لإبراهيم، والعصرَ لسليمان، وفي رواية: ليونُس، والمغربَ ليعقوب، وفي رواية: لعيسى، والعشاءَ ليونُس، وفي رواية: لموسى عليهم السلام، إلَّا أنَّ ذلك لا يضرّ، بل هو أنسبُ بالأمر باتِّباع سنَّة جميعِهم.

وقد استدلَّ الإمامُ[1] على أنَّه ﷺ أفضلُ من سائر الأنبياءِ عليهم السلام بقوله تعالى: «فبهداهم اقتده» من جهة أنَّه عليه الصلاة والسلام أُمر بالاقتداءِ بهدى جميعِهم وامتثلَ ذلك، فكان عندَه من الهدى ما عندَ الجميع، فيكون أفضلَ من كلِّ واحدٍ منهم، وحينئذٍ يقال: معنى كونِ ذلك نافلةً له عليه الصلاة والسلام أنَّه زائدٌ على الصلواتِ الخمس، خاصٌّ به ﷺ دون سائرِ الأنبياء عليهم السلام المأمورِ باتِّباع سنَّتهم. وهو ممَّا لا ينبغي أن يُلتفتَ إليه ويعوَّلَ عليه، بل اللائقُ به أن يجعلَ من قبيلِ حديث النَّفْس، وتخيُّلِها بحراً من مسكٍ مَوجُه الذهب، فإنَّ فسادَه تأصيلاً وتفريعاً ممَّا لا يخفَى على مَن له أدنَى مُسكةٍ وأقلُّ اطِّلاع، واللهُ تعالى العاصمُ من الزَّلل، والحافظُ من الخطأ والخَطَل.

وانتصابُ «نافلة» إمَّا على المصدرية بتقدير: تنفَّل. وقدَّر الحوفيُّ: نفَّلناك. أو بجعل «تهجَّدْ» بمعنى تنفَّل. أو بجعل «نافلةً» بمعنى تهجُّداً، فإنَّ ذلك عبادةٌ زائدة. وإمَّا على الحالِ من الضمير الراجعِ إلى القرآن، أي: حالَ كونِه صلاةً نافلةً كما قال أبو البقاء[2]. وإمَّا على المفعول لـ «تهجَّد» - كما جوَّزه الحوفيّ - إذا كان بمعنى: صلِّ، وجُعِلَ الضميرُ المجرورُ للبعضِ المفهوم، أو للوقت المقدَّر، أي: فصلِّ فيه نافلةً لك ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ﴾ الذي يبلِّغك إلى كمالك اللائقِ بك من بعد الموتِ الأكبر، لمَّا انبعثتَ من الموت الأصغرِ بالصلاة والعبادة. فالمعنى على التعليل والتهوينِ لمشقَّة قيام الليل، حتى زعم بعضُهم أنَّ «عسى» بمعنى كي، وهو وَهَم، بل هي - كما قال أهلُ المعاني - للإطماع، ولمَّا كان إطماع الكريمِ إنساناً بشيءٍ ثم

---

(١) في التفسير الكبير ١٣/ ٧١.

(٢) في الإملاء ٣/ ٤٩٤.

حرمانُه منه غروراً، واللهُ عزَّ وجلَّ أجلُّ وأكرمُ من أن يغرَّ أحداً فيُطمعَه في شيءٍ ثم لا يُعطيَه، قالوا: هي للوجوبِ منه تعالى مجدُه، على معنى أنَّ المُطمَعَ به يكون ولا بدَّ للوعد.

وقيل: هي على بابها للترجِّي، لكن يُصرف إلى المخاطَب، أي: لتكن على رجاءٍ من أنْ يبعثَك ربُّك ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ وهي تامَّة، و«أن يبعثك» فاعلُها، و«ربك» فاعلُه، و«مقاماً» ـ كما قال جمعٌ ـ منصوبٌ على الظَّرفية، إمَّا على إضمار فعلِ الإقامة، أو على تضمين الفعلِ المذكورِ ذلك، أي: عسى أن يبعثَك فيُقيمَك مقاماً، أي: في مقام، أو يُقيمَك في مقام محمودٍ باعثاً، إذ لا يصحُّ أن يعملَ في مثل هذا الظرفِ إلَّا فعلٌ فيه معنى الاستقرار، خلافاً للكسائي.

واستظهرَ في «البحر»[(١)] كونَه معمولاً لـ «يبعثَك»، وهو مصدرٌ من غير لفظِ الفعل؛ لأنَّ نبعث بمعنى نُقيم، تقول: أُقيم من قبره، و: بُعث من قبره.

وجوَّز أبو البقاءِ[(٢)] وغيرُه كونَه حالاً بتقديرِ مضاف، أي: نبعثك ذا مقام.

وقيل: يجوز أن يكونَ مفعولاً به لـ «يبعثَك» على تضمينه معنى نُعطيك.

وجوَّز أبو حيَّانَ أن تكونَ «عسى» ناقصة، و«ربك» الفاعل[(٣)]، على تقدير أن ينتصبَ «مقاماً» بمحذوفٍ لا بـ «يبعث»؛ لئلَّا يلزمَ الفصلُ بين العاملِ والمعمولِ بأجنبيّ.

وتنكيرُ «مقاماً» للتعظيم. والمرادُ بذلك المقام مقامُ الشفاعةِ العظمى في فصل القضاء، حيث لا أحدَ إلَّا وهو تحت لوائه ﷺ، فقد أخرج البخاريُّ[(٤)] وغيرُه عن ابن عمرَ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ الشمس لَتدنو حتى يبلغَ العرقُ نصفَ الأُذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لست بصاحبِ ذلك، ثم موسى، فيقول كذلك، ثم محمَّد، فيشفع، فيقضي اللهُ تعالى بين الخلق، فيمشي

---

(١) ٦/ ٧٢.

(٢) في الإملاء ٣/ ٤٩٤.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وهو خطأ ظاهر، والصواب: اسمها، كما في البحر ٦/ ٧٢.

(٤) في صحيحه (١٤٧٥).

حتى يأخذَ بحلقة بابِ الجنَّة، فيومئذٍ يبعثه اللهُ تعالى مقاماً محموداً يحمده أهلُ الجمعِ كلُّهم».

وأَخرج الترمذيُّ وحسَّنه(١) عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أنا سيِّد ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فخر، وما من نبيٍّ يومئذٍ فمَن سواه إلَّا تحت لوائي، وأنا أول من تنشقّ عنه الأرض ولا فخر، وبيدي لواءُ الحمدِ ولا فخر، فيفزع الناسُ ثلاث فزعات، فيأتون آدمَ فيقولون: أنت أبونا فاشفعْ لنا إلى ربِّك، فيقول: إني أَذنبتُ ذنباً أُهبطت منه إلى الأرض، ولكن ائتوا نوحاً، فيأتون نوحاً، فيقول: إني دعوتُ على أهل الأرضِ دعوةً فأُهلكوا، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقول: ائتوا موسى، فيقول: إني قتلتُ نفساً، ولكن ائتوا عيسى، فيقول: إني عُبدت من دون اللهِ تعالى، ولكن ائتوا محمداً، فيأتونني، فأَنطلق معهم فآخذُ بحلقة بابِ الجنةِ فأُقعقعها، فيقال: مَن هذا، فأقول: محمَّد، فيفتحون لي ويقولون: مرحباً، فأخِرُّ ساجداً، فيُلهمني اللهُ تعالى من الثَّناء والحمدِ والمجد، فيقال: اِرفعْ رأسَك، سَلْ تُعطَ، واشفعْ تشفَّع، وقل يُسمعْ لقولك، فهو المقامُ المحمودُ الذي قال اللهُ تعالى: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً»».

وجاء في بعض الرِّواياتِ أنَّه عليه الصلاة والسلام يسجد أربعَ سجدات ـ أي: كسجود الصلاةِ كما هو الظَّاهر ـ تحتَ العرش، فيُجاب لِمَا فزعوا إليه.

وذكر الغزاليُّ في «الدُّرَّة الفاخرة» أنَّ بين إتيانهم نبيًّا وإتيانهم ما بعدَه ألفَ سَنَة، ولا أصلَ له كما قال الحافظُ ابن حجر(٢).

وقيل: هو مقامُ الشفاعةِ لأمَّته ﷺ؛ لِمَا أَخرجه أحمدُ، والترمذيُّ، والبيهقيُّ في «الدَّلائل» عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ أنَّه سئل عن المقام المحمودِ في الآية فقال: «هو المقامُ الذي أَشفع فيه لأمَّتي»(٣).

(١) كما في تحفة الأشراف ٣/ ٤٦٨، وتحفة الأحوذي ٨/ ٥٨٨، والذي في المطبوع من سنن الترمذي (٣١٤٨): حديث حسن صحيح.

(٢) في فتح الباري ١١/ ٤٣٤.

(٣) مسند أحمد (٩٦٨٤)، وجامع الترمذي (٣١٣٧)، ودلائل النبوة ٥/ ٤٨٤. ولفظ الترمذي والبيهقي: قال: «هي الشفاعة».

وأَجاب مَن ذهب إلى الأوَّل بأنَّه يحتمل أن يكونَ المرادُ: المقامُ الذي أَشفع فيه أوَّلاً لأمَّتي، فقد أَخرج الشيخان(١) وغيرُهما عن أبي هريرةَ أيضاً من حديثٍ طويل في الشفاعةِ فيه فَزَعُ الناسِ إلى آدمَ ونوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم السلام، واعتذارُ كلٍّ منهم ـ ما عدا عيسى عليه السلام ـ بذنب، أنَّه ﷺ قال: «فيأتوني ـ يعني الناسَ بعد مَن علمتَ من الأنبياءِ عليهم السلام ـ فيقولون: يا محمد، أنت رسولُ اللهِ وخاتَمُ الأنبياء، وقد غفر اللهُ تعالى لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر، اِشفعْ لنا إلى ربِّك، أَلا ترى إلى ما نحن فيه، فأَنطلقُ فآتي تحتَ العرشِ فأقعُ ساجداً لربِّي، ثم يفتح اللهُ تعالى عليَّ من محامده وحُسنِ الثناءِ عليه شيئاً لم يفتحه على أحدٍ قبلي، ثم يقال: يا محمَّد، اِرفع رأسَك، سل تعطَه، واشفع تشفَّع، فأَرفع رأسي فأقول: أُمَّتي يارَبِّ، فيقال: يا محمد، أَدخل مِن أُمَّتك مَن لا حسابَ عليهم من الباب الأَيمنِ من أبواب الجنَّة، وهم شركاءُ الناسِ فيما سوى ذلك من الأَبواب».

ومِن الناس مَن فسَّره بمقام الشفاعةِ في موقفِ الحشر، حيث يعترف الجميعُ بالعجز، أعمُّ من أن تكونَ عامَّةً كالشَّفاعة لفصلِ القضاء، أو خاصَّةً كالشفاعة لبعض عُصاةِ أُمَّته ﷺ في العفو عنهم، والاقتصارُ على أَحد الأمرَين في بعض الأخبارِ لنكتةٍ اقتضاها الحال، ولكلٍّ مقامٍ مقال، وحَمَلَ هذا الشفاعةَ للأمَّة في خبر أبي هريرةَ المتقدِّم على الشفاعة لبعض عصاتِهم في الموقفِ قبل دخولِهم النار، وإلَّا فلو أُريد الشفاعةُ لهم بعد الحساب ودخولِ أهل الجنةِ الجنةَ وأهلِ النارِ النار ـ كما رُوي عن أبي سعيد ـ لم يتيسَّر الجمعُ بين الرِّوايات، إلَّا بأن يقال: المقامُ المحمودُ هو مقامُ الشفاعة، أعمُّ من أن تكونَ في الموقف عامَّةً وخاصةً وأن تكونَ بعد ذلك، ويكونُ الاقتصارُ لنكتة.

وقد جاءَ تفسيرُه بمقام الشفاعةِ مطلقاً، فقد أَخرج ابنُ مردويه عن سعد بنِ أبي وقاصٍ قال: سئل النبيُّ ﷺ عن المقامِ المحمود، فقال: «هو الشفاعة»(٢).

(١) صحيح البخاري (٤٧١٢)، وصحيح مسلم (١٩٤).
(٢) الدر المنثور ٤/ ١٩٧.

وأَخرج ابن جَريرٍ عن وَهْب، عن أبي هريرةَ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «المقامُ المحمودُ الشفاعة»(١).

وأخرج ابن جَريرٍ والطبرانيُّ وابنُ مردويه من طرقٍ عن ابن عباسٍ أنه فسَّره بذلك(٢).

ثم الشفاعةُ من حيث هي وإن شاركه فيها ﷺ غيرُه من الملائكة والأنبياءِ عليهم السلام وبعضِ المؤمنين، إلَّا أنَّ الشفاعةَ الكاملة والأنواعَ الفاضلة لا تَثْبت لغيره عليه الصلاة والسلام، وقد أَوصل بعضُهم الشفاعةَ المختصَّة به ﷺ إلى عشر، وذكره بعضُ شرَّاح البخاريِّ فليراجع.

ووصفُ المقامِ بأنَّه محمودٌ ـ على ما ذُكر ـ باعتبار أنَّ النبيَّ ﷺ يُحمَد فيه على إنعامه الواصل إلى الخاصِّ والعامِّ من أَصناف الأَنام.

وأَخرج النَّسائي، والحاكمُ وصحَّحه(٣)، وجماعةٌ عن حذيفةَ رضي الله عنه قال: يُجمَع الناسُ في صعيدٍ واحدٍ يسمعهم الدَّاعي ويَنفُذهم البصر، حفاةً كما خُلقوا، قياماً، لا تكلَّم نفسٌ إلَّا بإذنه، فينادَى: يامحمد، فيقول: لبَّيك وسَعدَيك، والخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك، والمَهديُّ مَن هَديت، وعبدُك بين يديك وبك وإليك، لا ملجأً ولا منجَى منك إلَّا إليك، تباركتَ وتعاليت، سبحانَك ربَّ البيت. فهذا المقامُ المحمود.

وأَخرج الطبرانيُّ(٤) عن ابن عباسٍ أنَّه قال في الآية: يُجلسه فيما بينه وبين جبريلَ عليه السلام ويشفع لأمَّته، فذلك المقامُ المحمود.

وأَخرج ابن جَريرٍ(٥) عن مجاهدٍ أنَّه قال: المقامُ المحمودُ أن يُجلسَه معه على عرشه.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٤٧ ولكن من طريق يزيد بن عبد الرحمن الأودي عن أبي هريرة به.
(٢) الدر المنثور ٤/ ١٩٧، وهو في تفسير الطبري ١٥/ ٤٤.
(٣) السنن الكبرى (١١٢٣٠)، والمستدرك ٢/ ٣٦٣.
(٤) في الكبير (١٢٤٧٤).
(٥) في تفسيره ١٥/ ٤٧.

وأنت تعلم أنَّ الحمد على أكثرِ ما في هذه الرِّواياتِ مجازٌ عند مَن يقول: إنَّه مختصٌّ بالثَّناء على الإنعام، وأمَّا عند مَن يقول بعدمِ الاختصاص، فلا مجاز.

وتعقَّب الواحديُّ القولَ بأنَّ المقام المحمودَ إجلاسُه ﷺ معه عزَّ وجلَّ على العرشِ بعد ذِكر روايتِه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما[1] بأنَّه قولٌ رَذِل موحِشٌ فظيع، لا يصحُّ مثلُه عن ابن عباس، ونصُّ الكتابِ ينادي بفساده من وجوه:

الأوَّل: أنَّ البعثَ ضدُّ الإجلاس، يقال: بعث اللهُ تعالى الميِّت، إذا أَقامه من قبره، وبعثتُ الباركَ والقاعد فانبعث، فتفسيرُه به تفسيرُ الضِّدِّ بالضد.

الثاني: لو كان جالساً سبحانَه وتعالى على العرش، لَكان محدوداً متناهياً، فيكون محدَثاً، تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيراً.

الثالث: أنَّه سبحانه قال: «مقاماً» ولم يقل مَقعداً، والمقامُ موضعُ القيامِ لا القعود.

الرابع: أنَّ الحمقى والجهَّالَ يقولون: إنَّ أهل الجنةِ كلَّهم يجلسون معه تعالى ويسألهم عن أَحوالهم الدُّنياوية، فلا مزيَّةَ له ﷺ بإجلاسه معه عزَّ وجلّ.

الخامس: أنَّه إذا قيل: بعث السلطانُ فلاناً، يُفهَم منه أنَّه أَرسله إلى قومٍ لإصلاح مهمَّاتهم، ولا يُفهَم منه أنَّه أَجلسه مع نفسه. انتهى.

وأبو عمرَ[2] لم يطَّلع إلَّا على رواية ذلك عن مجاهدٍ فقال: إنَّ مجاهداً وإن كان أحدَ الأئمَّة بتأويلِ القرآنِ حتى قيل: إذا جاءك التأويلُ عن مجاهدٍ فحسْبُك، إلَّا أنَّ له قولَين مهجورَين عند أهلِ العلم، أحدُهما: تأويلُ المقامِ المحمودِ بهذا الإجلاس، والثاني: تأويلُ «إلى ربها ناظرة» [القيامة: ٢٣] بانتظار الثَّواب.

وذكر النقَّاش عن أبي داود السِّجستانيِّ أنَّه قال: مَن أَنكر هذا الحديثَ فهو عندنا متَّهم. فما زال أهلُ العلمِ يحدِّثون به.

---

(١) أخرجه الذهبي في الميزان ٤/ ١٢٤ من طريق علي بن محمد القادسي، عن مقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس. وقال: فهذا لعله وضعه أحد هؤلاء أصحاب مقاتل أو القادسي. اهـ. وكلام الواحدي في البحر ٦/ ٧٣.

(٢) هو ابن عبد البر، وكلامه في التمهيد ٧/ ١٥٧-١٥٨، ونقله المصنف عن البحر ٦/ ٧٢.

قال ابنُ عطية: أراد: مَن أنكره على تأويله فهو متَّهم[١]. وقد يؤوَّل قولُه ﷺ: «يُجلسني معه» على رفع محلِّه وتشريفِه على خلقه، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف:٢٠٦] وقولِه سبحانه حكايةً: ﴿ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا﴾ [التحريم:١١] وقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] إلى غير ذلك ممَّا هو كنايةٌ عن المكانةِ لا عن المكان.

وأنت تعلم أنَّه لا ينبغي لمجاهدٍ ولا لغيره أن يفسِّرَ المقامَ المحمودَ بالإِجلاس على العرش حَسْبما سمعتَ من غير أن يثبتَ عنده ذلك الإِجلاسُ في خبر، كخبر الديلميِّ عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ في قولِه سبحانه: «عسى أن يبعثك. . .» إلخ: «يُجلسني معه على السَّرير»[٢] فإنْ تمسَّك المفسِّرُ بهذا أو نحوِه، لم يناظَر إلَّا بالطَّعن في صحَّته، وبعد إِثبات الصحَّة لا مجالَ للمؤمن إلَّا التسليم.

وما ذكره الواحديُّ لا يستلزم عدمَ الصحة، فكم وكَمْ من حديثٍ نصُّوا على صحَّته ويَلزم من ظاهرِه المحال، كحديث أبي سعيد الخدريِّ المشتملِ على رؤية المؤمنين اللهَ عزَّ وجلَّ ثم إتيانِه إياهم في أدنَى صورةٍ من التي رأوه فيها، وقولِه تعالى لهم: «أنا ربكم» وقولِهم: نعوذُ بالله تعالى منك، حتى يكشفَ لهم عن ساق، فيسجدون، ثم يرفعون رؤوسَهم وقد تحوَّل في صورته التي رأوه فيها أوَّل مرَّة. وهو في الصَّحيحين[٣]، وحديثِ لَقيطِ بن عامرٍ المشتملِ على قوله ﷺ: «تلبثون ما لبثتم، ثم يتوفَّى نبيُّكم، ثم تلبثون ما لبثتم، ثم تُبعث الصائحة ـ لَعَمرُ إلهِك ـ لا تدعُ على ظهرها شيئاً إلَّا مات والملائكةُ الذين مع ربِّك عزَّ وجلّ، فأَصبح ربُّك يطوفُ في الأرض وخلت عليه البلاد. . .» الحديث[٤]، وقد رواه أئمَّة السنَّةِ في كتبهم وتلقَّوه بالقَبول، وقابلوه بالتسليم والانقياد، إلى ما لا يُحصَى من هذا القبيل، ومذاهبُ المحدِّثين وأهلِ الفكر من العلماءِ في الكلام على ذلك ممَّا لا يخفى، ومتى أُجريت هناك فلتُجرَ هنا، فالكلُّ قريب من قريب.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٩ وما سيأتي هو من كلام أبي حيان في البحر ٦/ ٧٢-٧٣.
(٢) الفردوس (٤١٥٩).
(٣) صحيح البخاري (٧٤٣٩)، وصحيح مسلم (١٨٣) بنحوه.
(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات المسند (١٦٢٠٦) والطبراني في الكبير ١٩/ (٤٧٧).
قال ابن كثير في البداية والنهاية ٧/ ٣٣: هذا حديث غريب جدًّا، وألفاظه في بعضها نكارة.
وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢/ ٢٦٠: هو حديث غريب جدًّا.

والصوفية يقولون: إنَّ لله عزَّ وجلَّ الظهورَ فيما يشاءُ على ما يشاء، وهو سبحانَه في حال ظهورِه باقٍ على إطلاقه حتى عن قيد الإطلاق، فإنَّه العزيزُ الحكيم، ومتى ظهر جلَّ وعلا في صورة، أُجريت عليه سبحانه أحكامُها من حيث الظُّهور، فيوصف عزَّ مجدُه عندهم بالجلوس ونحوِه من تلك الحيثية، وينحلُّ بذلك أمورٌ كثيرة. إلَّا أنَّه مبنيٌّ على ما دون إثباتِه خَرْطُ القتاد.

ويَرِد على ما ذكره الواحديُّ في الوجه الثالثِ أنَّ المقام وإنْ كان في الأصل بمعنى محلِّ القيام، إلَّا أنَّه شاع في مطلق المحلِّ، ويُطلقَ على الرُّتبة والشرف.

وعلى ما ذكره في الوجه الأوَّل أنَّه ليس هناك إلَّا تفسيرُ المقام المحمود بالإجلاس، لا تفسيرُ البعثِ بالإجلاس، نَعَم فيه مسامحة، والمرادُ أنَّ إحلالَه في المحلِّ المحمودِ هو إجلاسُه على العرش، وهذا المعنى يتأتَّى بإبقاء البعثِ على معناه وتقديرِ فيُقيمك بمعنى فيُحلُّك، وبتفسيره بالإقامة بمعنى الإحلال، وقد يقال: لا مسامحة، والمرادُ من المقام الرُّتبة، والبعثُ متضمِّن معنى الإعطاء، أي: عسى يُعطيك ربُّك رتبةً محمودة، وهي إجلاسُه إياك على عرشه باعثاً.

وما ذكره في الوجهِ الثاني حقٌّ لو أُريد من الجلوس على العرش ظاهرُه، أما لو أُريد معنًى آخر، فلا نسلِّم اللازم، وبابُ التأويلِ واسع.

وقد أوِّل الإجلاسُ معه على رفع المحلِّ والتشريف، وهو مقولٌ بالتشكيك، فمتى صحَّ أنَّ أهل الجنةِ كلَّهم يجلسون معه، آمنَّا به مع إثبات المزيةِ للرَّسول ﷺ، فاندفع ما ذكره في الوجهِ الرابع.

ويَرِد على ما في الوجه الخامسِ أنَّ الإجلاسَ معه لم يُفهَم من مجرَّد البعث، وما ادَّعى أحدٌ ذلك، فكونُ: بَعَثَ السلطانُ فلاناً، يُفهَم منه أنَّه أرسله إلى قومٍ لإصلاح مهمَّاتهم، ولا يُفهَم منه أنَّه أَجلسه مع نفسه، لا يضرُّنا، كما لا يخفَى على منصف.

وبالجملة كلُّ ما قيل أو يقال لا يُصغى إليه إن صحَّ التفسيرُ عن رسول اللهِ ﷺ، لكن يبقَى حينئذٍ أنَّه يلزم التعارضُ بين ظواهر الرِّوايات، ومن هنا قال بعضُهم: المرادُ بالمقام المحمودِ ما ينتظم كلَّ مقامٍ يتضمَّن كرامةً له ﷺ، والاقتصارُ في

بعض الرِّوايات على بعضٍ لنكتة نحو ما مرّ، ووصفُه بكونه محموداً إمَّا باعتبار أنَّه ﷺ يحمد الله تعالى عليه أَبلغَ الحمد، أو باعتبار أنَّ كلَّ من يشاهده يحمده، ولم يشترطْ أن يكونَ الحمدُ في مقابلة النِّعمة، ويدخل في هذا كلُّ مقامٍ له ﷺ محمودٍ في الجنة.

وكذا يدخلُ فيه ما جوَّز مفتي الصوفيةِ سيِّدي شهابُ الدِّين السُّهرَورديُّ أن يكونَ المقامَ المحمود، وهو إعطاؤه عليه الصلاة والسلام مرتبةً من العلم لم تُعطَ لغيره من الخلقِ أصلاً، فإنَّه ذكر في رسالةٍ له في العقائد أنَّ علمَ عوامِّ المؤمنين يكون يومَ القيامةِ كعلم علمائهم في الدُّنيا، ويكون علمُ العلماءِ إذ ذاك كعلم الأَنبياءِ عليهم السلام، ويكون علمُ الأنبياءِ كعلم نبيِّنا ﷺ، ويعطَى نبيُّنا عليه الصلاة والسلام من العلم ما لم يعطَ أحدٌ من العالمين، ولعله المقامُ المحمود. ولم أرَ ذلك لغيره عليه الرَّحمة، واللهُ تعالى أعلم.

ثم هذا الاختلافُ في المقام المحمودِ هنا لم يقع فيه في دعاءِ الأذان، بل ادَّعى العلَّامة ابنُ حجرٍ الهيتميُّ أنّه فيه مقامُ الشفاعةِ العُظمى لفصل القضاءِ اتفاقاً، فتأمَّل في هذا المقام، واللهُ تعالى ولي الإنعامِ والإفهام.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي: إدخالاً مَرْضيًّا جيداً لا يرى فيه ما يكره، والإِضافةُ للمبالغة. ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ نظيرُ الأوَّل.

واختُلف في تعيين المرادِ من ذلك، فأَخرج الزُّبير بن بكَّار عن زيد بن أسلمَ أنَّ المرادَ إدخالُ المدينةِ والإِخراجُ من مكة، ويدلُّ عليه ـ على ما قيل ـ قولُه تعالى: (وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ) إلخ. وأيِّد بما أخرجه أحمد، والطبرانيّ، والترمذيُّ وحسَّنه، والحاكم وصحَّحه[1]، وجماعةٌ عن ابن عباسٍ قال: كان النبيُّ ﷺ بمكة ثم أُمر بالهجرة، فأنزل اللهُ تعالى عليه: (وَقُل رَّبِّ) الآية. وبدأ بالإِدخال لأنّه الأهمّ.

وأَخرج ابن جَريرٍ[2] وابنُ أبي حاتم عن ابن عباسٍ أنّه الإِدخالُ في القبر والإِخراجُ منه. وأيِّد بذِكره بعد البعث.

---

(١) مسند أحمد (١٩٤٨)، والمعجم الكبير (١٢٦١٨)، وجامع الترمذي (٣١٣٩)، والمستدرك ٣/٣.

(٢) في تفسيره ١٥/٥٦.

وقيل: إدخالُ مكةَ ظاهراً عليها بالفتح وإِخراجُه ﷺ منها آمناً من المشركين.

وقيل: إخراجُه من المدينة وإدخالُ مكةَ بالفتح.

وقال محمد بنُ المنكدر: إدخالُه الغارَ وإخراجُه منه.

وقيل: الإِدخالُ في الجنة والإِخراجُ من مكَّة.

وقيل: الإِدخالُ في الصلاة والإِخراجُ منها.

وقيل: الإدخالُ في المأمورات والإخراجُ عن المنهيَّات.

وقيل: الإدخالُ فيما حمله ﷺ من أَعباء النبوَّة وأداءِ الشرع، وإخراجُه منه مؤدِّياً لِمَا كلَّفه من غيرِ تفريط.

وقيل: الإدخالُ في بحار التوحيدِ والتنزيه، والإخراجُ من الاشتغال بالدَّليل إلى معرفةِ المدلول، والتأمُّلِ في الآثار إلى الاستغراقِ في معرفة الواحدِ القهَّار.

وقيل وقيل، والأَظهرُ أنَّ المراد إدخالُه عليه الصلاة والسلام في كلٍّ ما يدخل فيه ويلابسه من مكانٍ أو أَمر، وإخراجُه منه، فيكون عامًّا في جميع المواردِ والمصادر، واستظهر ذلك أبو حيَّان[١]، وفي «الكشف» أنَّه الوجهُ الموافقُ لظاهر اللفظ، والمطابقُ لمقتضى النَّظم، فسابقُه ولاحقُه لا يختصَّان بمكانٍ دون آخَر، وكفاك قولُه تعالى: «واجعل لي» إلخ شاهدَ صدقٍ على إيثاره.

وقرأ قتادةُ وأبو حيوةَ وحميدٌ وإبراهيمُ بن أبي عبلة: «مَدخَلَ» و«مَخرَجَ» بفتح الميمِ فيهما[٢]، قال صاحبُ «اللوامح»: وهما مصدران مِن: دَخَلَ وخَرَجَ، لكنَّهما جاءا من معنى: «أَدخِلني» و«أَخرجني» السابقَين دونَ لفظِهما، ومثلُ ذلك: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧] ويجوز أن يكونا اسمَي مكانٍ وانتصابُهما على الظرفية.

وقال غيرُه من المحقِّقين: هما مصدرانِ منصوبان على تقدير فِعلَين ثلاثيين؛ إذ مصدرُ المزيدين مضمومُ الميم كما في القراءة المتواترة، أي: أَدخِلني فأَدْخُلَ مَدخَلَ صدقٍ وأَخرجني فأَخْرُجَ مَخرجَ صدق.

---

(١) في البحر ٦/ ٧٣.

(٢) البحر ٦/ ٧٣، وانظر القراءات الشاذة ص٧٧.

﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ۝٨٠﴾ أي: حجَّةً تنصرني على مَن خالفني، وهو مرادُ مجاهدٍ بقوله: حجَّةً بيِّنة. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه كتابٌ يحوي الحدودَ والأحكام. وعن الحسن أنَّه أُريد التسلُّطُ على الكافرين بالسَّيف، وعلى المنافقين بإقامة الحدود. وقريبٌ ما قيل أنَّ المراد قهراً وعزًّا تنصر به الإسلامَ على غيره. وزعم بعضُهم أنَّه فتحُ مكة.

وقيل: السلطان: أحدُ السلاطينِ الملوك. فكأنَّ المرادَ الدعاءُ بأن يكونَ في كلِّ عصرٍ مَلِكٌ ينصر دينَ اللهِ تعالى؛ قيل: وهو ظاهرُ ما أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل» والحاكمُ(١) وصحَّحه عن قتادةَ قال: أخرجه اللهُ تعالى من مكة مُخرجَ صدق وأدخله المدينةَ مُدخلَ صِدق، وعَلِمَ نبيُّ اللهِ أنَّه لا طاقةَ له بهذا الأمرِ إلَّا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب اللهِ تعالى وحدودِه وفرائِضه، فإنَّ السلطانَ عزَّةٌ من الله عزَّ وجلَّ جعلها بين أَظهُر عبادِه، لولا ذلك، لأغار بعضُهم على بعضٍ وأكل شديدُهم ضعيفَهم. وفيه نظر.

وفعيلٌ على سائر الأَوجُه مبالغةٌ في فاعل. وجوِّز أن يكونَ في بعضها بمعنى مفعول.

والحقُّ أنَّ المرادَ من السُّلطان كلُّ ما يُفيده الغلبةَ على أعداء اللهِ تعالى، وظهورَ دينه جلَّ شأنُه. ووصفُه بـ «نصيراً» للمبالغة.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ الإسلامُ والدِّين الثابتُ الراسخ. والجملةُ عطفٌ على جملة «قل» أوَّلاً، واحتمالُ أنَّها من مقول القولِ الأوَّل لِمَا فيها من الدَّلالة على الاستجابة في غاية البُعد.

﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: زال واضمحلّ، ولم يَثبت الشِّركُ والكفرُ وتسويلاتُ الشيطان، مِن: زَهَقَت نفْسُه، إذا خرجت من الأَسف.

وعن قتادةَ أنَّ الحقَّ القرآن، والباطلَ الشيطان. وعن ابن جُريج أنَّ الأولَ الجهاد، والثاني الشِّرك. وعن مقاتلٍ: الحقُّ عبادةُ اللهِ تعالى، والباطلُ عبادةُ الشيطان. وهذا قريبٌ ممَّا ذكرنا.

---

(١) دلائل النبوة ٢/ ٥١٧، والمستدرك ٣/ ٣، وسكت عنه الحاكم والذهبي.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ﴾ كائناً ما كان ﴿كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ مضمحلًّا غيرَ ثابتٍ الآن، أو فيما بعد، أو مطلقاً؛ لكونه كأن لم يكن. وصيغةُ فَعول للمبالغة.

أَخرج الشيخان[(١)] وجماعةٌ عن ابن مسعودٍ قال: دخل النبيُّ ﷺ مكةَ وحولَ البيتِ ستُّون وثلاثُ مئة نُصُب، فجعل يطعنها بعودٍ في يده ويقول: «﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾» [سبأ: ٤٩]. وفي رواية الطبرانيِّ في «الصغير» والبيهقيِّ في «الدلائل» عن ابن عباسٍ أنَّه ﷺ جاء ومعه قضيب، فجعل يَهوي به إلى كلِّ صنم منها، فيَخرُّ لوجهه، فيقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ حتى مرَّ عليها كلِّها[(٢)].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما هو في تقويم دينِهم واستصلاحِ نفوسهم كالدَّواء الشافي للمرضى.

و«من» للبيان، وقدِّم اهتماماً بشأنه ـ وأنكر أبو حيَّان[(٣)] جوازَ التقديم، واختار هنا كونَ «مِن» لابتداءِ الغاية، وهو إنكارٌ غيرُ مسموع ـ فيفيد أنَّ كلَّ القرآنِ كذلك، وفي الخبر: «مَن لم يستشفِ بالقرآن، فلا شفاه اللهُ تعالى»[(٤)].

أو للتبعيض، ومعناه ـ على ما في «الكشف» ـ: وننزِّل ما هو شفاء، أي: تدرَّج في نزوله شفاءً فشفاء. وليس معناه أنَّه منقسمٌ إلى ما هو شفاءٌ وليس بشفاءٍ والمنزَّلُ الأوَّل، كما وهم الحوفيُّ فأَنكر جوازَ إرادةِ التبعيض، وإنَّما المعنى أنَّ ما لم ينزل بعدُ ليس بشفاءٍ للمؤمنين؛ لعدم الاطِّلاع، وأنَّ كلَّ ما ينزل فهو شفاءٌ لداء خاصٍّ، يتجدَّد نزولُ الشفاءِ كِفاءَ تجدُّدِ الداء. وفيه أيضاً أنَّ هذا الوجهَ أوفقُ لمقتضَى المقام. ولا يخفَى عليك بُعده؛ ولذا اختير في توجيه التبعيضِ أنَّه باعتبار الشفاءِ الجسماني، وهو من خواصِّ بعضٍ دونَ بعض.

---

(١) صحيح البخاري (٤٢٨٧)، وصحيح مسلم (١٧٨١).
(٢) المعجم الصغير (١١٥٢)، والدلائل ٥/ ٧١-٧٢.
(٣) في البحر ٦/ ٧٤.
(٤) عزاه في كنز العمال (٢٨١٠٦) إلى الدارقطني في الأفراد من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه الثعلبي من حديث رجاء الغنوي مرفوعاً، كما في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص ١٠٢، وفي إسناده أحمد بن الحارث الغساني وهو متروك. وفي الاستيعاب ٣/ ٢٦٦: رجاء الغنوي لا يصح حديثه، ولا تصح له صحبة.

ومن البعض الأوَّلِ الفاتحة، وفيها آثارٌ مشهورة، وآياتُ الشِّفاء، وهي ستّ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧] ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩] ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

قال السُّبكي: وقد جرَّبت كثيراً، وعن القشيريِّ أنَّه مرض له ولدٌ أَيِس من حياته، فرأى اللهَ تعالى في منامه، فشكى له سبحانَه ذلك، فقال له: اِجمَع آياتِ الشِّفاء واقرأها عليه، أو اكتُبها في إناءٍ واسقِه فيه ما محيت به، ففعل، فشفاه اللهُ تعالى. والأطبَّاء معترفون بأنَّ من الأُمور والرُّقى ما يَشفي بخاصِّية روحانية، كما فصَّله الأندلسيُّ في «مفرَداته» وكذا دواودُ في الجلدِ الثاني من «تذكرته»[(١)]، ومَن ينكِر لا يُعبأ به.

نعم اختلف العلماءُ في جواز نحوِ ما صنعه القشيريُّ عن الرؤيا، وهو نوعٌ من النُّشرة، وعرَّفوها بأنَّها أن يُكتبَ شيءٌ من أسماء اللهِ تعالى أو من القرآن، ثم يُغسل بالماء، ثم يُمسح به المريضُ أو يسقاه. فمنع ذلك الحسنُ والنخعيُّ ومجاهد، وروى أبو داودَ[(٢)] من حديث جابرٍ أنَّ النبيَّ ﷺ سئل عن النُّشرة فقال: «هي من عملِ الشَّيطان».

وأجاز ذلك ابنُ المسيَّب. والنشرةُ التي قال فيها ﷺ ما قال هي النشرةُ التي كانت تُفعل في الجاهلية، وهي أَنواع، منها ما يفعله أهلُ التعزيم في غالب الأعصارِ من قراءة أشياءَ غيرِ معلومةِ المعنى ولم تثبتْ في السُّنَّة، أو كتابتِها وتعليقها، أو سقيِها.

وقال مالك: لا بأسَ بتعليق الكتبِ التي فيها أسماءُ اللهِ تعالى على أَعناق المرضَى على وجه التبرُّك بها إذا لم يُرِد معلِّقها بذلك مدافعةَ العين. وعنى بذلك أنَّه

---

(١) تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، لداود بن عمر الأنطاكي، الحكيم الطبيب المشهور، نزيل القاهرة، المتوفى سنة (١٠٠٨ أو ١٠٠٥ أو ٩٨٩ أو ١٠١١ هـ). شذرات الذهب ٨/ ٤١٥، وخلاصة الأثر ٢/ ١٤٠، وكشف الظنون ١/ ٣٨٦.

(٢) في سننه (٣٨٦٨).

لا بأسَ بالتعليق بعد نزول البلاءِ رجاءَ الفَرَج والبُرء، كالرُّقى التي وردت السنةُ بها من العين، وأما قبلَ النزولِ ففيه بأس. وهو غريب.

وعند ابنِ المسيَّب يجوز تعليقُ العُوْذةِ من كتاب اللهِ تعالى في قصبةٍ ونحوِها، وتوضع عند الجِماع وعند الغائط، ولم يقيِّد بقَبل أو بَعد.

ورخَّص الباقرُ في العُوذة تُعلَّق على الصِّبيان مطلقاً.

وكان ابنُ سِيرين لا يرى بأساً بالشيءِ من القرآن يعلِّقه الإنسانُ كبيراً أو صغيراً مطلقاً، وهو الذي عليه الناسُ قديماً وحديثاً في سائر الأمصار.

لكن توجيه التبعيضِ بما ذُكر لا يساعده قولُه سبحانه: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ أي: لا يزيد القرآنُ كلُّه أو كلُّ بعضٍ منه الكافرين المكذِّبين به الواضعين للأشياءِ في غير موضِعها ـ مع كونه في نفسه شفاءً لما في الصُّدور من أَدواء الرِّيب وأسقامِ الأوهام ـ إلَّا خساراً، أي: هلاكاً بكفرهم وتكذيبِهم. وزيادتُهم من حيث إنَّهم كلَّما جدَّدوا الكفرَ والتكذيبَ بالآية النازلةِ تدريجاً، ازدادوا بذلك هلاكاً.

وفسَّر بعضُهم الخسارَ بالنقصان، ورجَّح أبو السُّعودِ[1] الأوَّلَ بأنَّ ما بهم من داءِ الكفر والضَّلال حقيقٌ بأن يعبَّرَ عنه بالهلاك، لا بالنقصان المُنبئِ عن حصول بعضِ مبادئ الإسلام فيهم. وفيه ـ كما قال ـ إيماءٌ إلى أنَّ ما بالمؤمنين من الشُّبه والشكوكِ المعتريةِ لهم في أثناء الاهتداءِ والاسترشادِ بمنزلة الأمراض، وما بالكَفَرة من الجهل والعنادِ بمنزلة الموتِ والهلاك.

وإسنادُ الزيادةِ المذكورةِ إلى القرآن مع أنَّهم المزدادون في ذلك؛ لسوءِ صنيعهم باعتبار كونِه سبباً لذلك، وفيه تعجيبٌ من أمره من حيث كونُه مداراً للشِّفاء والهلاك:

كماءٍ صار في الأَصداف دُرًّا وفي ثغر الأفاعي صار سُمّا

هذا وربَّما يقال: إنَّ انقسامَ القرآنِ إلى ما هو شفاءٌ من أدواء الرِّيب وأَسقامِ الوهمِ وإلى ما ليس كذلك ممَّا لا ينبغي أن يكونَ فيه ريب؛ لأنَّ الشافيَ من أَدواء الرِّيبَ إنَّما هو الأدلَّة، كالآيات الدالَّةِ على بطلان الشِّرك وثبوتِ الوحدانيةِ له

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٩١.

تعالى، وكالآيات الدالَّةِ على إمكان الحشرِ الجسمانيّ، وليس كلُّ آياتِ القرآنِ كذلك، فإنّ منه ما هو أمرٌ بصلاة وصوم وزكاة، ومنه ما هو نهيٌ عن قتلٍ وزنًى وسرقة، ونحو ذلك، وهو لا يُشفَى به أدواءُ الريبِ وأسقامُ الوهم، وكذا آياتُ القَصَص، نَعَم فيما ذكر نفعُ غيرِ الشفاءِ من تلك الأداوء، فهو رحمة، وحينئذٍ يقال: في الآية حذف، أي: ننزِّل من القرآنِ ما هو شفاءٌ وما هو رحمة، على معنى: ننزِّل من القرآن آياتٍ هي شفاءٌ وآياتٍ هي رحمة.

وفيه أنَّ الريبَ غيرُ مختصٍّ فيما يتعلّق بالله عزَّ وجلَّ وبإمكان الحشر، بل يكون أيضاً في الرِّسالة وصِدقِه ﷺ في دعواها، وما من آيةٍ في القرآن إلَّا وهي مستقلَّة أو لها دخلٌ في الشِّفاء من ذلك الداء؛ لِمَا فيها من الإعجاز، وكذا ما مِن آيةٍ إلَّا وفيها نفعٌ من جهة أخرى، فكلُّ آيةٍ رحمة، كما أنَّ كلَّها شفاء، لكن كونُه رحمةً بالنسبة إلى كلِّ واحدٍ واحدٍ من المؤمنين، إذ كلُّ مؤمنٍ ينتفع به نوعاً من الانتفاع، وكونُه شفاءً بالفعل بالنِّسبة إلى مَن عرض له شيءٌ من أدواء الرِّيبِ وأَسقامِ الوهم، وليس كلُّ المؤمنين كذلك، والقولُ بأنَّ كلًّا كذلك في أوَّل الإيمانِ غيرُ مسلَّم، ولا يُحتاج إليه كما لا يخفَى.

والإمامُ[1] عمَّم شفائيَّته، وقد أَحسن فقال: هو شفاءٌ للأمراض الرُّوحانية، وهي نوعان: اعتقاداتٌ باطلة، وأخلاقٌ مذمومة؛ فلاشتماله على الدَّلائل الحقَّة الكاشفةِ عن المذاهب الباطلةِ في الإلهيات والنبوَّات والمعادِ والقضاءِ والقَدَر المبيِّنةِ لبطلانها، يَشفي عن النوع الأوَّلِ من الأمراض، ولاشتماله على تفاصيل الأَخلاقِ المذمومةِ، وتعريفِ ما فيها من المفاسد، والإرشادِ إلى الأَخلاق الفاضلةِ والأعمالِ المحمودة، يَشفي عن النوع الآخَر، والشفاءُ إشارةٌ إلى التخلية، والرَّحمةُ إشارةٌ إلى التحلية، ولأنَّ الأُولى أهمُّ من الثانية قدَّم الشفاءَ على الرَّحمة، فتأمَّل واللهُ تعالى الموفِّق.

وقرأ البصريَّان: «نُنْزِلُ» بالنُّون والتخفيف[2]. وقرأ مجاهدٌ بالياء والتخفيف، ورواها المروزيُّ عن حفص[3]. وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «شفاءً ورحمةً» بنصبهما.

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ٣٤.

(٢) التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨، ٣٠٨.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٧٤.

قال أبو حيَّان[١]: ويتخرَّج ذلك على أنَّهما حالان، والخبرُ «للمؤمنين»، والعاملُ في الحال ما في الجارِّ والمجرورِ من الفعل، ونظيرُ ذلك: ﴿وَالسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧] في قراءة نصب: «مطويات»[٢] وقولُ الشاعر[٣]:

رهطُ ابنِ كوزٍ محقبي أدراعِهم فيهم ورهطُ ربيعةَ بنِ حُذارِ

ثم قال: وتقديمُ الحالِ على العاملِ فيه من الظرفِ لا يجوز إلَّا عند الأخفش، ومَن منع جَعَلَه منصوباً على إضمار أعني.

وأنت تعلم أنَّ مَن يجوِّز مجيءَ الحالِ من المبتدأ لا يحتاج إلى ذلك.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا﴾ بالصِّحة والسَّعة ونحوِهما ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي: جنسِه، فيكفي في صحَّة الحكمِ وجودُه في بعض الأفراد، ولا يضرُّ وجودُ نقيضِه في البعض الآخَر. وقيل: المرادُ به الوليدُ بن المغيرة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذِكرنا كأنَّه مستغنٍ عنا، فضلاً عن القيامِ بمواجب شكرِنا ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ لوى عِطفَه عن طاعتنا وولَّاها ظهره.

وأصلُ معنى النأيِ البُعد، وهو تأكيدٌ للإعراض بتصوير صورتِه، فهو أوفَى بتأدية المرادِ منه، ومِثلُه يجوز عَطفُه لإيهام المغايرةِ بينهما، وهو أبلغُ من ترك العطفِ على ما بيِّن في محلِّه. على أنَّ ما ذكره أهلُ المعاني من أنَّ التأكيدَ يتعيَّن فيه تركُ العطفِ لكمال الاتصالِ غيرُ مسلَّم، والجانبُ على ظاهره، والمراد: تَرْكَ ذلك، ويجوز أن يكونَ كنايةً عن الاستكبار؛ فإنَّ ثَنْيَ العِطف من أفعال المستكبرين، ولا يَبعد أن يرادَ بالجانب النَّفْس، كما يقال: جاء من جانبِ فلانٍ كذا، أي: منه، وهو كنايةٌ أيضاً، كما يعبَّر بالمقام والمجلسِ عن صاحبه.

وقرأ ابنُ عامرٍ برواية ابنِ ذَكوان: «وناءَ» هنا وفي «فُصِّلت»[٤] فقيل: ذلك من باب القلبِ ووضعِ العين محلَّ اللام، كراء ورأى. وقيل: لا قلبَ، وناء بمعنى نهض، كما في قوله:

---

(١) في البحر ٦/ ٧٤، وما قبله منه.

(٢) هي قراءة عيسى بن عمر كما في القراءات الشاذة ص١٣١.

(٣) هو النابغة الذبياني، والبيت في ديوانه ص٥٩.

(٤) التيسير ص١٤١، والنشر ٢/ ٣٠٨.

حتى إذا ما التأمت مفاصلُهْ ونـاءَ في شِقِّ الشِّمالِ كاهلُهْ[1]

أي: نهض متوكِّئاً على شِماله، وفسِّر نهض هنا بأَسرع، والكلامُ على تقديرِ مضاف، أي: أَسرعَ بصرف جانبِه. وقيل: معناه: تثاقَل عن أَداء الشكرِ فعلَ المُعرِض.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ من مرضٍ أو فقرٍ أو نازلةٍ من النوازل ﴿كَانَ يَـُٔوسًا ۝٨٣﴾ شديدَ اليأسِ من رحمتنا؛ لأنَّه لم يُحسِن معاملتَنا في الرَّخاء حتى يرجو فضلَنا في الشدَّة.

وفي إِسناد المساسِ إلى الشرِّ بعد إِسناد الإِنعام إلى ضميره تعالى إيذانٌ بأَنَّ الخيرَ مرادٌ بالذات، والشرَّ ليس كذلك؛ لأنَّ ذلك هو الذي يقتضيه الكرمُ المطلقُ والرحمةُ الواسعة، وإلى ذلك الإِشارةُ بقوله: ﷺ: «اللهمَّ إنَّ الخيرَ بيديك، والشرَّ ليس إليك»[2].

وللفلاسفة ومَن يحذو حذوَهم في ذلك بحثٌ طويلٌ لا بأسَ بالاطِّلاع عليه؛ ليؤخَذَ منه ما صفا ويتركَ منه ما كدر، قالوا: إنَّ الأوَّل تعالى تامُّ القدرةِ والحكمةِ والعلم، كاملٌ في جميع أفاعيلِه، لا يتصوَّر بخلُه بإفاضة الخيرات، وليس الداعي له لذلك إلَّا علمُه بوجوه الخيرِ ومصالح الغيرِ الذي هو عينُ ذاتِه، كسائر صفاتِه، وأمَّا النقائصُ والشرورُ الواقعةُ في ضربٍ من الممكنات وعدمُ وصولِها إلى كمالها المتصوَّرِ في حقِّها، فهي لقصور قابلياتِها ونقصِ استعداداتها، لا من بخل الحقِّ تعالى مجدُه عن ذلك. وقصورُ القابليةِ ينتهي في الآخرة إلى لوازم الماهياتِ الإمكانيةِ ومنبعُها الإِمكان.

وتحقيقُ ذلك أنَّ الشرَّ يُطلَق عرفاً على معنَيين:

أحدُهما ما هو عدم، كالفقر والجهلِ البسيط، وهذا على ضربين:

الأوَّل: عدمٌ محضٌ ليس بإزاء الوجودِ الذي يطلبه طباعُ الشيء، ولا ما يمكن حصولُه له من الكمالاتِ والخيرات، كقصور الممكنِ عن الوجود الواجبيِّ

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٤٠ قال: وقد أنشدني بعض العرب... ثم ذكره، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٨٠، واللسان (نوأ)، والبحر ٦/ ٧٥، والدر المصون ٧/ ٤٠٤.

(٢) أخرجه أحمد (٨٠٣)، ومسلم (٧٧١): (٢٠١) من حديث علي ﷺ، وسلف ٩/ ٤٨٠.

والوجوبِ الذاتيّ، وقصورِ بعضِ الممكنات عن بعض، كقصور الأَجسامِ عن النفوس، فالخيرُ الذي يقابل هذا منحصرٌ في الواجب تعالى؛ إذ له الكمالُ المطلقُ والوجودُ الحقُّ بلا جهةِ إمكانيةٍ بوجه من الوجوه، وما عداه من المهيَّآت المعروضةِ للوجود لا يخلو من شَوب شَرِّيَّةٍ ما وظلمةٍ ما، على تفاوتِ إمكاناتهم حَسَبَ تفاوتِ طبقاتهم في البعد عن يَنبوع الوجود، ومطلعِ نورِ الخيرِ والجود، وهذا الشرُّ منبعه الإِمكانُ الذاتي.

والثاني: ما يكون عدمَ ما يطلبه الشيء، أو ما يمكن حصولُه له من الكمالات، ولا يتصوَّر هذا في غير المادِّيات، إذ الإبداعياتُ يكون وجودُها على أكملِ ما يتصوَّر في حقِّها، فلا يكون لها شرِّيةٌ بهذا المعنى، وما عداها من المتعلِّقة بالمادَّة لا تخلو من شرِّية، على تفاوت إِمكاناتها الاستعداديةِ بحسَب تفاوتِ مراتبها في التعلُّق بالهيولى، وهذا الشرُّ منبعُه الهيولَى، ومنبعُها الإِمكان؛ إذ لولاه ما صدرت من مصدرها، فآلَ الشرُّ إلى الإِمكان كما سمعتَ أولاً.

وثانيهما: ما يمنع الشيءَ عن الوصولِ إلى الخير الممكنِ في حقِّه من الوجود أو كمالِ الوجود، كالبرد والحرِّ المفسدَين للثِّمار، والمطرِ المانعِ للقصَّار عن تبييض الثِّياب، والأخلاقِ الذميمةِ المانعةِ للنفْس عن وصولها إلى كمالها العقليّ، كالبخل، والإسراف، والجهل المركَّب، والسَّفاهة، والأفعالِ الذميمة، كالزِّنى والسرقةِ والنميمة، وأَشباهِ ذلك من الآلام والغموم، وغيرِ ذلك من الأشياءِ الوجودية، لكن يَتْبعها إعدام.

وإطلاق الشرِّ عندهم على المعنى الأوَّلِ حقيقةٌ، وعلى الثاني مجاز؛ لأنَّ الشرَّ الحقيقيَّ لا ذاتَ له، بل هو إما عدمُ ذات، أو عدمُ كمالٍ لذات، والبرهانُ عليه أنَّه لو كان أمراً وجوديًا، فلا يخلو: إمَّا أن يكونَ شرًّا لنفسه، أو لغيره، والأوَّل باطل، وإلَّا لَمَا وُجد؛ إذ الشيءُ لا يقتضي لذاته عدمَه أو عدمَ كماله، كيف وجميعُ الأشياءِ طالبةٌ لكمالاتها لا مقتضيةٌ لعدمها، مع أنَّه لو اقتضى كان الشرُّ ذلك العدمَ لا نفسَه، وكذا الثاني؛ لأنَّ كونه لغيره إمَّا لأنَّه لعدمِ ذلك الغير، أو لأنَّه لعدم بعضِ كمالاته، فإنه لو لم يكن معدِماً لشيءٍ أصلاً، لا لوجوده ولا لكمال وجودِه، لم يكن شرًّا لذلك الشيء، ضرورةَ أنَّ كلَّ ما لا يوجِب عدمَ شيءٍ ولا عدمَ كمالٍ له لا يكون

شرًّا له، فإذن ليس الشرُّ إلَّا عدمَ ذلك الشيءِ أو عدمَ كماله، لا نفسَ الأمرِ الوجوديِّ المعدم، بل هو في ذاته من الكمالات النفسانيةِ أو الجسمانية، كالظُّلم فإنَّه وإن كان شرًّا بالقياس إلى المظلوم وإلى النَّفْس الناطقةِ التي كمالُها في تسخير قُواها وكسرِها، لكنَّه خيرٌ بالقياس إلى القوَّة الغَضَبية التي كمالُها بالانتقام، وكذا الإحراقُ كمالٌ للنار، وشرٌّ لمن يتضرَّر به، فعُلِم أنَّ الشرَّ إمَّا عدمُ ذاتٍ أو عدمُ كمالٍ لها، فالوجودُ من حيث إنَّه وجودٌ خيرٌ محض، والعدمُ من حيث إنَّه عدمٌ شرٌّ محض.

ثم إنَّك قد علمتَ أنَّ الشرَّ الذي هو بمعنى العدمِ منه ما هو من لوازم الماهياتِ التي لا علَّةَ لها، ومنه ما لا يكونُ من هذا القبيل، بل قد يَلحق الماهياتِ لا من ذاتها، فلا بدَّ له من علَّة، والكلامُ ليس في الأوَّل الذي لا لِميَّة له، إذ قد تقرَّر أنَّه ليس للماهيَّات في كونها ممكنةً ولا في حاجتها إلى علَّة لوجودها عِلَّةٌ، ولا لقصور الممكنِ عن الواجب بذاته ولا لتفاوت مراتبِ هذا النقصانِ في الماهيات عِلَّة، بل إنَّما ذلك لاختلاف الماهياتِ في حدود ذاتِها، لا لأمرٍ خارجٍ عنها، كيف ولو كان النقصُ في جميعها متشابهاً لكانت الماهياتُ ماهيةً واحدة، بل الكلامُ في الثاني، وهو عدمُ ما هو من الأمور الزائدةِ على مقتضى النوع، كالجهل بالفلسفة للإنسان مثلاً، فإنَّ ذلك ليس شرًّا له لأجل كونِه إنساناً، بل لأجل أنَّه فقدٌ لما اقتضاه شخصٌ مستعدٌّ له مشتاقٌ إليه، من حيث إنَّه وُجد فيه هذا الاستحقاقُ والاشتياقُ الذي لا صلاحَ في أن يَعمّ.

وهذا الشرُّ إنَّما يوجد في الأشياءِ على سبيلِ النَّدرة، فكلُّ ما وجد فهو خيرٌ محض، أو خيرُه أكثرُ من شرِّه، وأمَّا ما يكون شرًّا محضاً، أو مستوليَ الشرِّية، أو متساويَ الطرفين، فممَّا لا وجودَ له أصلاً حتى يُحتاجَ فيه إلى منشئٍ سوى الواجبِ تعالى الذي هو خيرٌ محض لا يوجد منه شرٌّ أصلاً، كما توهَّمه كفرةُ المجوس.

ثم كلُّ ما كان خيراً محضاً، أو كان خيرُه أكثر، يصدر من الواجب بمقتضَى أنَّ مِن شأنه إفاضةَ الخير؛ لأنَّ ترك الأوَّل شرٌّ محض، وتركَ الثاني شرٌّ غالب، وعالَم العناصرِ من القسم الثاني، فإنَّ إيجابَه للشُّرور على الوجهِ النادر، ولا تسوِّغُ عنايةُ المبدعِ ورحمةُ الجَوَاد إهمالَه، وإلَّا لزم خيرٌ كثير لشرٍّ قليل، وهو شرٌّ كثير، على

أنَّها إنَّما تكون للنَّفع في أشياءَ لو لم تُخلَق لَخَلُقَ سربالُ الوجود، وقَصُر رداءُ الجود، وبقي في كتم العدمِ عوالمُ كثيرة، ونفائسُ جمَّة غفيرة، فمن هذه الحيثيةِ يكون ذلك الشرُّ القليلِ مقتضياً بالذات، وهي مع ذلك إنَّما توجد تحت كرةِ القمرِ في بعض جوانبِ الأرضِ التي هي حقيرة، بل لاشيءَ بالنِّسبة إلى ما عند ربِّك سبحانه، وتكونُ لبعض الأشخاصِ في بعض الأوقات، وليست أيضاً شروراً بالنِّسبة إلى نظام الكلّ، فإذا تصوّرت ذَرَّةُ الشرِّ في أبحر أشعَّةِ شمسِ الخير، لا يضرُّها، بل يزيدها بهاءً وجمالاً، وضياءً وكمالاً، كالشامة السوداءِ على الصُّورة المليحةِ البيضاء، يزيدها حُسناً ومَلاحة، وإشراقاً وصَباحة.

ولا يخفى أنَّ هذا إنما يتمُّ على القول بأنَّه تعالى لا يُمكن أن تكونَ إرادتُه متساويةَ النسبةِ إلى الشيءِ ومقابلِه بلا داعٍ ومصلحة، كما هو مذهبُ الأشاعرة، وإلَّا فقد يقال: إنَّ الفاعل للكلِّ إذا كانَ مختاراً، فله أن يختارَ أيَّما شاء من الخيرات والشُّرور، لكنَّ الحكماءَ وأساطينَ الإسلامِ قالوا: إنَّ اختيارَه تعالى أرفعُ من هذا النَّمَط، وأمورُ العالَم منوطةٌ بقوانينَ كلِّية، وأفعالُه تعالى مربوطةٌ بحِكَمٍ ومصالحَ جليةٍ وخفية.

وقولُ الإمام: إنَّ الفلاسفةَ لمَّا قالوا بالإيجاب والجبرِ في الأفعال، فخوضُهم في هذا المبحثِ من جملة الفضولِ والضَّلال؛ لأنَّ السؤالَ بلمَ عن صدورها غيرُ وارد، كصدور الإحراقِ من النار؛ لأنَّه يَصدر عنها لذاتها= ناشئٌ من التعصُّب؛ لأنَّ محقِّقيهم يُثبتون الاختيار، وليس صدورُ الأفعالِ من الله تعالى عندهم صدورَ الإحراقِ من النار، وبعد فَرْض التسليم بحثُهم عن كيفية وقوعِ الشرِّ في هذا العالَم لأجل أنَّ الباريَ تبارك اسمُه خيرٌ محضٌ بسيطٌ عندهم، ولا يجوِّزون صدورَ الشرِّ عمَّا لا جهةَ شرِّيةٍ فيه أصلاً فيلزمَ عليهم في بادئ النظرِ إثباتُ ما افترته الثَّنويةُ من مبدأين: خيريٍّ وشرِّي، فتخلَّصوا عن ذلك بذلك البحث، فهو فضلٌ لا فضول.

وبالجملة ما يصدر عنه تعالى إمَّا ما هو بريءٌ بالكلِّية عن الشرّ، وإمَّا ما يلزمه شرٌّ قليلٌ وفي تركه شرٌّ كثير، ولا يَصدر عنه تعالى ذلك أيضاً في حقِّ شخصٍ إلَّا بعد طلبِ ماهيَّتِه له في نفسها، كما يُشير إليه قولُه تعالى: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] إلى غير ذلك من الآيات.

وفي «الإشارات»[1] وشروحِها كلامٌ طويل يتعلَّق بهذا المقام، ولعلَّ فيما ذكرنا كفايةً لذوي الأفهام.

هذا ثم إنَّه سبحانه بعد أن ذكر حالَ القرآنِ بالنِّسبة إلى المؤمنين وإلى الكافرين وبيَّن حالَ الكافرِ في حالَي الإنعام ومقابِله، ذكر ما يصلح جواباً لمن يقول: لِمَ كان الأمرُ كذلك؟ فقال عزَّ قائلاً: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: [كل][2] واحدٍ من المؤمن والكافر، والمعرضِ والمقبِل، والراجي والقانط ﴿يَعْمَلُ﴾ عملَه ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: على مذهبه وطريقتِه التي تشاكل حالَه وما هو عليه في نفس الأمر، وتشابهه في الحُسن والقبح، من قولهم: طريقٌ ذو شواكل، أي: طرقٍ تتشعَّب منه، وهو مأخوذٌ من الشَّكل بفتح الشِّين، أي: المِثل والنظير، ويقال: لستَ من شَكلي ولا شاكلتي، وأما الشِّكل بكسرِ الشينِ فالهيئة، يقال: جاريةٌ حسنةُ الشِّكل، أي: الهيئة، وظاهرُ عبارةِ «القاموس»[3] أنَّ كلًّا من الشَّكل والشِّكل يُطلَق على المِثل والهيئة.

وهذا التفسيرُ مرويٌّ عن الفرَّاء والزجَّاج[4]، واختاره الزمخشريُّ[5] وغيرُه؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ﴾ الذي برأكم متخالفين ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ أسدُّ طريقاً وأَبينُ منهاجاً.

وفسَّر مجاهدٌ الشاكلةَ بالطبيعة، على أنَّها مِن: شكلتُ الدابَّة: إذا قيَّدتَها، أي: على طبيعته التي قيَّدته؛ لأنَّ سلطانَ الطبيعةِ على الإنسان ظاهر، وهو ضابطٌ له وقاهر، ورُوي ذلك عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

ومثلُ ذلك في المأخذ تفسيرُ بعضِهم بالعادة، ومن مشهور كلامِهم: العاداتُ قاهرات. وكذا تفسيرُ ابن زيدٍ لها بالدِّين.

وكلا التفسيرَين دون الأوَّلَين. ولعل الدِّين هنا بمعنى الحال، وهو أحدُ معانيه.

---

(١) الإشارات والتنبيهات في المنطق والحكمة، لابن سينا، وهو كتاب صغير الحجم، وله شروح منها: شرح الإمام فخر الدين الرازي، وشرح العلَّامة نصير الدين الطوسي. كشف الظنون ١/ ٩٤.

(٢) زيادة يقتضيها السياق، ينظر غرائب القرآن للنيسابوري ١٥/ ٧٢، تفسير أبي السعود ٥/ ١٩٢.

(٣) مادة (شكل).

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٠، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٧.

(٥) في الكشاف ٢/ ٤٦٤.

وجوَّز الإمامُ(١) وغيرُه أن يكونَ المرادُ أنَّ كلَّ أحدٍ يفعل على وَفق ما شاكل جوهرَ نفسِه ومقتضَى روحِه، فإن كانت نفساً مشرقةً حرَّة طاهرةً عُلوية، صدرت عنه أفعالٌ فاضلةٌ كريمة (وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ) وإن كانت نفساً كَدِرة نَذْلةً خبيثةً ظلمانيةً سفلية، صدرت عنه أفعالٌ خسيسةٌ فاسدة ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨] واختار أنَّ النفوسَ الناطقةَ البشريةَ مختلفةُ الماهية، ولذا اختلفت آثارُها. وسيأتي الكلامُ على ذلك إن شاء اللهُ تعالى قريباً.

ولا يَرِد أنَّ خِسَّة الأفعالِ وشرافتَها إذا كانتا تابعتَين لخسَّة النفسِ وشرافتها وهما أمران خَلقيان لا مدخلَ للاختيار فيهما، فعلامَ المدحُ والذمُّ والثوابُ والعقاب؟ لأنَّهم قالوا: إنَّ ذلك لأمرٍ ذاتي، وهو حسنُ استعدادِ النفس في نفسها وسوءُ استعدادِها أيضاً في نفسها، ولا تثاب النفسُ ولا تعاقب إلّا لاستعدادها في الأزل وطلبِها لذلك بلسان حالِها، والمشهورُ إطلاقُ القولِ بأنَّ ذلك غيرُ مجعول، وإنَّما المجعولُ وجودُه وإبرازه على طِبق ما هو عليه في نفسه «فاعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خُلِق له»(٢) و«من وجد خيراً فليَحمد اللهَ تعالى، ومَن وجد غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلّا نفسه»(٣). وقال بعض: إنَّه مجعولٌ بالجعل البسيط، على معنى أنَّه أثرُ الفيضِ الأَقدس الذي هو مقتضَى ذاته عزَّ وجلَّ بطريق الإيجاب، ويَجري نحوُ هذا في الوجهين الأوَّلين.

وقال(٤) بعض المتأخِّرين من فلاسفة الإسلام المتصدِّين للجمع برأيهم بين الشريعةِ والفلسفة: إنَّ ذات الإنسان بحسَب الفطرةِ الأصليةِ لا تقتضي إلّا الطاعة، واقتضاؤها للمعصية بحسب العوارضِ الغريبةِ الجارية مَجرَى المرضِ والخروجِ عن الحالةِ الطبيعية، فيكون ميلُها للمعصية مثلَ ميلِ منحرفِ المزاج الأصليِّ إلى أكل الطِّين، وقد ثبت في الحِكمة أنَّ الطبيعةَ بسبب عارضٍ غريبٍ تُحدِث في جسم

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/٣٦.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٨) من حديث علي رضي الله عنه، وسلف ١/٤٠٧.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، وسلف ١/٣٩٠.

(٤) جاء في هامش الأصل هنا: الملا صدر الدين الشيرازي صاحب الأسفار لا صاحب حواشي شرح التجريد المشهور حاله مع ملا جلال. اهـ منه.

المريضِ مزاجاً خاصًّا يسمَّى مرضاً، فالمرضُ من الطبيعة بتوسُّط العارضِ الغريبِ كما أنَّ الصحَّة منها، وفي الحديث القدسيّ[1]: «إنِّي خلقتُ عبادي كلَّهم حنفاء، وإنَّهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دِينهم» وفي الأثر[2]: «كلُّ مولودٍ يولَد على فطرة الإسلام، ثم أبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه» أي: بواسطة الشَّياطين، أو المرادُ بهم ما يعمُّ شياطينَ الإنس والجنّ، أو الشياطينُ كنايةٌ عن العوارض الغريبة، فالخلقُ لو لم يحصل لهم مسٌّ من الشيطان ما عَصَوا، ولَبقُوا على فطرتهم، لكنْ مسَّهم الشيطان ففسدت عليهم فطرتُهم الأَصلية، فاقتضَوا أشياءَ منافيةً لهم مضادَّة لجوهرهم البهيّ الإلهيّ من الهيئات الظُّلمانية، ونسُوا أنفسَهم وما جُبلوا عليه:

ولولا المزعجاتُ من الليالي لَمَا ترك القطا طيبَ المنامِ[3]

ولذا احتاجوا إلى رسلٍ يبلِّغونهم آياتِ اللهِ تعالى ويَسنُّون لهم ما يذكِّرهم عهدَ ذواتهم، من نحو الصلاةِ والصيامِ والزَّكاة وصِلة الأرحام؛ ليعودوا إلى فطرتهم الأصليةِ ومقتضَى ذاتِهم البهية، ويعتدلَ مزاجُهم ويتقوَّمَ اعوجاجُهم؛ ولذا قيل: الأنبياءُ أطبَّاء، وهم أعرفُ بالداءِ والدَّواء. ثم إنَّ ذلك المرضَ الذي عرض لذواتهم والحالةَ المنافيةَ التي قامت بهم، لولا أنْ وجدوا من ذواتهم قَبولاً لعروضهما لهم ورخصةً في لحوقهما بهم، لم يكونا يَعرضان ولا يلحقان، فإذن كان ممَّا تقتضيه ذواتُهم أنْ تلحقَهم أمورٌ منافيةٌ مضادَّة لجواهرهم، فإذا لحقتهم تلك الأُمور، اجتمعت فيها جهتان: الملاءمةُ، والمنافاة، أمَّا كونُها ملائمة؛ فلكون ذواتِهم اقتضتها، وأمَّا كونُها منافية؛ فلأنَّها اقتضتها على أن تكون منافيةً لهم، فلو لم تكن منافية لم يكن ما فُرض مقتضًى لها، بل أمراً آخرَ، وانظر إلى طبيعة التي تقتضي يبوسةً حافظةً لأيِّ شكلٍ كان، حتى صارت ممسكةً للشَّكل القسريِّ المنافي لكرويتها الطبيعيةِ ومنعت عن العودِ إليها، فعروضُ ذلك الشكلِ للأرضية لكونها مقسورةً من وجهٍ ومطبوعةً من وجه، فالإنسانُ عند عروضِ مثل هذا المنافي ملتذٌّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) عن عياض المجاشعي ﵁، وسلف ٩/ ١٦٦.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة ﵁، وسلف ٤/ ٣١٠.

(٣) قطر الندى ص٤٣ دون نسبة.

متألِّم، سعيدٌ شقي، ملتذٌّ ولكنَّ لذَّته ألمُه، سعيدٌ ولكن سعادتَه شقاوتُه، وهذا لَعمرُك أمرٌ عجيب، لكنَّه أُوضِح بنمطٍ غريب.

ومَن تأمَّل وأَنصف، ظهر له أنْ لا مخلصَ لكثيرٍ من الشُّبهات في هذا الفصلِ إلَّا بالذَّهاب إلى القولِ بالاستعداد الأزليّ، وأنَّ لكلِّ شيءٍ حالةً في نفسه مع قطع النظرِ عن سائر الاعتبارات، لا يفاض عليه إلَّا هي، لئلَّا يلزمَ انقلابُ العلم جهلاً، وهو من أعظمِ المستحيلات، والإثابةُ والتعذيبُ تابعان لذلك، فسبحانَ الحكيمِ المالك، فتثبَّت، فكم قد زلَّت في هذا المقام أقدامُ أعلام كالأعلام، نسأل اللهَ تعالى أن ينوِّر أفهامَنا، ويثبِّتَ أقدامنا، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله العليِّ العظيم.

ثم اعلمْ أنه رُوي عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ أنَّه قال: لم أرَ في القرآن أَرجَى من هذه الآية، لا يشاكَلُ بالعبد إلَّا العصيان، ولا يشاكل بالربِّ إلَّا الغفران. قال ذلك حين تذاكروا القرآنَ فقال عمر: لم أرَ آيةً أرجَى من التي فيها ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر:٣] قدَّم الغفرانَ قبل قَبولِ التوبة، وقال عثمان: لم أرَ آيةً أرجَى من ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩]. وقال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: لم أرَ أرجَى من ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الزمر:٥٣] الآية.

وقيل في الأرجَى غيرُ ذلك، وسيمرُّ عليك إن شاء اللهُ تعالى، لكن ما قاله الصِّدِّيق لا يتأتَّى إلَّا على تقدير أنْ يرادَ: كلُّ أحدٍ مطلقاً يعمل على شاكلته، فافهم.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ الظاهرُ عند المُنصِف أنَّ السؤالَ كان عن حقيقة الرُّوح الذي هو مدارُ البدنِ الإنسانيِّ ومبدأُ حياته؛ لأنَّ ذلك من أدقِّ الأمورِ التي لا يسع أحداً إنكارها، ويشرئبُّ كلٌّ إلى معرفتها، وتتوفَّر دواعي العقلاء إليها، وتكلُّ الأذهانُ عنها، ولا تكاد تُعلَم إلَّا بوحي.

وزعم ابنُ القيِّم(١) أنَّ المسؤولَ عنه الروحُ الذي أَخبر الله تعالى عنه في كتابه أنَّه يقوم يومَ القيامةِ مع الملائكة عليهم السلام، قال: لأنَّهم إنَّما يسألونه عليه الصلاة والسلام عن أمرٍ لا يُعرَف إلَّا بالوحي، وذلك هو الروح الذي

(١) في كتاب الروح ص ١٧٨ (طبعة الرسالة).

عند الله تعالى لا يعلمه الناس، وأمَّا أرواحُ بني آدمَ فليست من الغيب، إلى آخرِ ما قال، وقد أطال. وفي «البحور الزاخرة» أنَّ هذا هو الذي عليه أكثرُ السلف بل كلُّهم.

والحقُّ ما ذكرنا، وهو الذي عليه الجمهورُ كما نصَّ عليه في «البحر»[١] وغيره، نَعَم ما زعمه ابنُ القيِّم مرويٌّ عن بعض السَّلف، فقد أخرج عبد بنُ حُميد وأبو الشيخ عن ابن عباس أنَّه قال: الرُّوح خلقٌ من خلق اللهِ تعالى، وصُوَرهم على صورةِ بني آدم، وما ينزل من السماءِ مَلَك إلَّا ومعه واحدٌ من الرُّوح، ثم تلا ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النبأ: ٣٨][٢].

وأخرج أبو الشيخ[٣] وغيرُه من طريق عطاءٍ عنه ﷺ أنَّه قال في الرُّوح المسؤولِ عنه: هو مَلَكٌ واحدٌ له عشرةُ آلافِ جناح، جناحان منها ما بين المشرقِ والمغربِ، له ألفُ وجه، لكلِّ وجهٍ لسانٌ وعينانِ وشفتان، يسبِّح اللهَ تعالى بذلك إلى يومِ القيامة.

وأخرج هو وغيرُه أيضاً عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه أنَّه قال فيه: هو مَلَك من الملائكة له سبعونَ ألفَ وجه، لكلِّ وجهٍ منها سبعونَ ألفَ لسان، لكلِّ لسانٍ منها سبعون ألفَ لغة، يسبِّح اللهَ تعالى بتلك اللغاتِ كلِّها، يخلق اللهُ تعالى من كلِّ تسبيحةٍ مَلَكاً يطير مع الملائكةِ إلى يوم القيامة[٤]. وتعقَّب هذا بأنَّه لا يصحُّ عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وطعن الإمامُ[٥] في ذلك بما طعن.

وأخرج ابنُ الأنباري في كتاب «الأضداد»[٦] عن مجاهدٍ أنَّه قال: الرُّوح خلقٌ من الملائكة عليهم السلام، لا يراهم الملائكة كما لا تَرَون أنتم الملائكة.

---

(١) ٦/ ٧٦.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٠٠، وهو في كتاب العظمة (٤٠٦) دون قوله: ثم تلا.....
(٣) في العظمة (٤١١).
(٤) العظمة (٤١٠)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٥/ ٧١، وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن علي ﷺ، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا أثر غريب عجيب.
(٥) في التفسير الكبير ٢١/ ٣٩.
(٦) ص ٤٢٢-٤٢٣.

وأَخرج أَبو الشيخِ[(١)] عن سلمانَ أنَّه قال: الإنسُ والجنُّ عشرة أَجزاء، فالإنسُ جزءٌ والجنُّ تسعةُ أجزاء، والملائكةُ والجِنُّ عشرةُ أجزاء، فالجنُّ من ذلك جزءٌ والملائكةُ تسعة، والملائكةُ والروحُ عشرة أَجزاء، فالملائكةُ من ذلك جزءٌ والرُّوح تسعةُ أجزاء، والروحُ والكَروبيُّون عشرةُ أجزاء، فالروحُ من ذلك جزءٌ والكروبيون تسعةُ أجزاء.

وقال الحسنُ وقتادة: الروحُ هو جبرائيلُ عليه السلام، وقد سمِّي روحاً في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] والسؤالُ عن كيفية نزولِه وإلقائه الوحيَ إليه عليه الصلاة والسلام.

وقال بعضُهم: هو القرآن، وقد سمِّي روحاً في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقيل غيرُ ذلك.

وزَعَمَ بعضُهم أنَّ السؤالَ عن حدوث الرُّوح بالمعنى الأوَّل وقِدَمه. وليس بشيءٍ كما ستسمعه إنْ شاء الله تعالى.

وضميرُ «يسألون» لليهود؛ فقد أَخرج الشيخان[(٢)] وغيرُهما عن ابن مسعودٍ ﷺ قال: كنت أَمشي مع النبيِّ ﷺ في خرب المدينةِ وهو متَّكئٌ على عَسيب، فمرَّ بقومٍ من اليهود، فقال بعضُهم لبعض: سلوه عن الرُّوح، وقال بعضُهم: لا تسألوه، فسألوه فقالوا: يا محمدُ ما الرُّوح؟ فما زال متوكِّئاً على العَسيب، فظننت أنَّه يوحَى إليه، فلما نزل الوحيُ قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الآيةَ.

وقال بعضُهم: لقريش؛ لِمَا أَخرج أَحمد، والنَّسائي، والتِّرمذي، والحاكم، وصحَّحاه، وابنُ حِبّان[(٣)]، وجماعةٌ عن ابن عباسٍ قال: قالت قريشٌ لليهود: أَعطُونا شيئاً نسأل هذا الرجلَ، فقالوا: سلوه عن الرُّوح، فسألوه، فنزلت «ويسألونك...» إلخ.

---

(١) في العظمة (٤٢٢).

(٢) صحيح البخاري (١٢٥) و(٧٤٥٦)، ومسلم (٢٧٩٤).

(٣) مسند أحمد (٢٣٠٩)، والسنن الكبرى (١١٢٥٢)، وجامع الترمذي (٣١٤٠)، والمستدرك ٢/ ٥١٣، وصحيح ابن حبان (٩٩).

وفي السِّيَر عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ قريشاً بعثت النَّضرَ بن الحارث وعُقبةَ بن أبي مُعَيط إلى أَحبار يهودَ بالمدينة وقالوا لهم: سلوهم عن محمد[1]؛ فإنَّهم أهلُ كتابٍ عندهم من العلمِ ما ليس عندنا، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوهم، فقالوا: سلوه عن أَصحاب الكهف، وعن ذي القَرنين، وعن الرُّوح، فإن أَجاب عنها أو سكت فليس بنبيٍّ، وإن أجاب عن بعضٍ وسكت عن بعضٍ فهو نبيٌّ، فجاؤوا وسألوه، فبيَّن لهم ﷺ القضيَّتين وأبهم أَمرَ الرُّوح وهو مبهَمٌ في التوراة.

والآيةُ على هذا وما قبلَه مكِّية، وعلى خبر الصحيحَين مدنيَّة، وجمع بعضُهم بين ذلك بأنَّ الآيةَ نزلت مرَّتين، فتدبَّر.

وأيًّا ما كان، فوجهُ تعقيبِ ما تقدَّم بها ـ إنْ فسِّر الروحُ بالقرآن ـ ظاهرٌ ملائمٌ لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ ولِمَا بعدَه من الامتنانِ عليه وعلى متَّبعيه بحفظه في الصُّدور والبقاء، وكذلك إنْ فسِّر بجبرائيلَ عليه السلام، وأمَّا على قولِ الجمهور، فقد ورد معترضاً دلالةً على خَسار الظالمين وضلالِهم، وأنَّهم مشتغلون عن تدبُّر الكتابِ والانتفاعِ به إلى التعنُّت بسؤال ما اقتضت الحكمةُ سدَّ طريقِ معرفته. ويقال نحوُ هذا على القول المرويِّ عن بعضِ السلف.

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ أظهرَ في مقام الإضمار إظهاراً لكمال الاعتناءِ ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ كلمةُ «من» تبعيضيَّة، وقيل: بيانية، والأمرُ واحدُ الأمور، بمعنى الشأن، والإضافةُ للاختصاص العلميِّ لا الإيجادي؛ إذ ما من شيءٍ إلَّا وهو مضافٌ إليه عزَّ وجلَّ بهذا المعنى، وفيها من تشريف المضافِ ما لا يخفَى، كما في الإضافة الثانيةِ من تشريفِ المضاف إليه، أي: هي من جِنس ما استأثر اللهُ تعالى بعلمه من الأَسرار الخفيةِ التي لا تكاد تدركها عيونُ عقولِ البشر.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ لا يمكن تعلُّقه بأمثال ذلك. وهذا ـ على ما قيل ـ تركٌ للبيان ونهيٌ لهم عن السؤال.

---

(١) في الأصل وم: سلوهم محمداً، والمثبت من السير والمغازي لابن إسحاق ص ٢٠١، وتفسير الطبري ١٥/ ١٤٣، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٧٠، وغيرها.

أخرج ابن إسحاقَ وابن جَريرٍ[١] عن عطاء بن يسارٍ قال: نزلت هذه الآية بمكة، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة، أتاه أحبارُ يهودَ فقالوا: يامحمد، أَلَم يبلغْنا عنك أنَّك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أفعنيتَنا أم قومَك؟ قال: «كلًّا قد عَنَيت» قالوا: فإنَّك تتلو أنَّا أوتينا التوراةَ وفيها تِبيانُ كل شيء، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «هي في علم الله تعالى قليل، وقد آتاكم اللهُ تعالى ما إنْ عملتم به انتفعتم»، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [لقمان: ٢٧-٢٨]. وكأنَّه ﷺ أشار إلى أنَّ المرادَ في الآية: تبياناً لكلِّ شيءٍ من الأُمور الدِّينية، ولا شكَّ أنها أقلُّ قليلٍ بالنِّسبة إلى معلومات اللهِ تعالى التي لا نهايةَ لها، وبهذا يُردُّ على القائلِ بالعموم الحقيقيّ.

وفي رواية النَّسائي، وابن حِبّان، والترمذيِّ، والحاكم، وصحَّحاها: أنَّ اليهودَ قالوا حين نزلت الآية: أُوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومَن أُوتي التوراةَ فقد أُوتي خيراً كثيراً، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ الآيةَ[٢].

ولا يخفَى أنَّ هذا أيضاً لا يَلزم منه التناقض؛ لأنَّ الكثرةَ والقلَّة من الأُمور الإضافية، فالشيءُ يكون قليلاً بالنِّسبة إلى ما فوقه وكثيراً بالنِّسبة إلى ما تحته، فما في التوراةِ قليلٌ بالنسبة إلى ما في علم اللهِ تعالى شأنُه، كثيرٌ بالنِّسبة إلى أمرٍ آخر.

وفي روايةٍ أَخرجها ابنُ مردويه عن عكرمةَ أنَّه ﷺ لمَّا قال ذلك قال اليهود: نحن مختصُّون بهذا الخطاب؟ فقال: بل نحن وأنتم، فقالوا: ما أعجبَ شأنَك، ساعةً تقول: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ وساعةً تقول هذا، فنزل ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾ إلخ.

ولا يلزم منه التناقضُ أيضاً على نحو ما تقدَّم، بأن يقال: الحكمةُ الإنسانية أن يعلمَ من الخير ما تسعه القوةُ البشرية، بل ما ينتظم به أمرُ المعاشِ والمعاد، وهو قليلٌ بالنِّسبة إلى معلوماتِه تعالى، كثيرٌ بالنِّسبة إلى غيرها.

(١) في تفسيره ١٥/ ٧٢.
(٢) هو بعض حديث ابن عباس السالف قريباً.

وإلى تعميم الخطابِ بحيث يشمَلُ الناسَ أجمعين ذهب ابنُ جُريج، كما أَخرجه عنه ابنُ جَرير وابنُ المنذر(١).

لكن يعكِّر على القولِ بالعموم ظاهرُ قراءةِ ابن مسعودٍ والأعمش: «وما أوتوا»(٢) فإنَّه يقتضي الاختصاصَ بالسائلين، والحديثُ الأخير الذي هو نصٌّ فيه قال العراقي: إنَّه غيرُ صحيح، والحديثُ الأوَّل اللهُ تعالى أعلمُ بحاله.

وقال غيرُ واحد: معنى كونِ الرُّوح من أَمره تعالى أنَّه من الإبداعيَّات الكائنةِ بالأمر التكوينيّ، من غير تحصُّلٍ من مادَّة وتولُّدٍ من أصلٍ كالجسد الإنساني، فالمرادُ من الأمر واحدُ الأوامر، أعني: كن، والسؤالُ عن الحقيقة والجوابُ إجمالي.

ومآلُه أن الرُّوح من عالَم الأمر(٣) مبدَعةٌ من غير مادَّة، لا من عالَم الخلق، وهو من الأُسلوب الحكيم، كجوابِ موسى عليه السلام سؤالَ فرعونَ إياه: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] إشارةً إلى أنَّ كُنهَ حقيقتِه ممَّا لا يحيط به دائرةُ إدراكِ البشر، وإنَّما الذي يُعلَم هذا المقدار الإجماليُّ المندرجُ تحت ما استُثني بقوله تعالى: (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أي: إلَّا علماً قليلاً تستفيدونه من طرق الحواسّ، فإنَّ تعقُّل المعارفِ النظريةِ إنَّما هو في الأكثر من إحساسِ الجزئيات؛ ولذلك قيل: مَن فقد حسًّا فقد فقدَ علماً. ولعلَّ أكثر الأشياءِ لا يدركه الحسُّ لكونه غيرَ محسوس، أو محسوساً مَنَعَ من إحساسه مانع، كالغَيبة مثلاً، وكذا لا يُدرِك شيئاً من عَرَضيَّاته ليَرسمَه بها، فضلاً عن أن ينتقلَ منها الفكرُ إلى الذاتيات ليقفَ على الحقيقة، وظاهرُ كلامِ بعضهم أنَّ الوقوفَ على كُنه الروحِ غيرُ ممكن، فلا فرقَ عنده بين الجوابَين.

وفرَّق الخفاجيُّ(٤) بأنَّ بيانَ كنهِ الرُّوح ممكن، بخلاف كنهِ الذاتِ الأقدس.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٧٣ وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٠٠.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٧٦، وانظر حديث الصحيحين السالف.
(٣) في (م): الأرض.
(٤) في حاشيته ٦/ ٥٨.

وفي «الكشف» أنَّ سبيلَ معرفةِ الروح إزالة الغشاءِ عن أبصار القلوبِ باجتلاء كُحل الجواهرِ من كلام علَّام الغيوب، فهو عند المكتحلين أجلى جَليّ، وعند المشتغلين أخفى خَفيّ.

ويُشكل على هذا ما أخرجه ابنُ أبي حاتمٍ عن عبد اللهِ بن بُريدة قال: لقد قُبض النبيُّ ﷺ وما يَعلم الرُّوح[1].

ولعل عبدَ الله هذا يزعم أنَّها يمتنع العلمُ بها، وإلَّا فلم يُقبَض رسولُ اللهِ ﷺ حتى عَلِمَ كلَّ شيءٍ يمكن العلمُ به، كما يدلُّ عليه ما أخرجه الإمامُ أحمد، والترمذيُّ - وقال: حديثٌ صحيح، وسأل البخاريَّ عنه فقال: حديثٌ حسنٌ صحيح - عن معاذٍ ﵁ أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «إنِّي قُمت من الليل، فصلَّيت ما قدِّر لي، فنَعَست في صلاتي حتى استثقلت، فإذا أنا بربِّي عزَّ وجلَّ في أَحسنِ صورة، فقال: يا محمد، فيمَ يختصم الملأُ الأعلى؟ قلت: لا أدري ربِّ، قال: يامحمد، فيمَ يختصم الملأ الأعلَى؟ قلت: لا أدري ربِّ، قال: يا محمد، فيمَ يختصم الملأُ الأعلى، قلت: لا أدري ربِّ، فرأيته وضع كفَّه بين كتفَيّ، حتى وجدتُ بَردَ أناملِه بين صدري، وتجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعرفت...» الحديثَ[2].

ورأيت «يعلم» في الخبر السابقِ في بعضِ الكتبِ مضبوطاً بالبناءِ للمفعول، مضبوطاً بالرفع، والإشكالُ على ذلك أوهن، إلَّا أنَّه خلافُ الظاهر.

ويُفهَم من كلامِ بعضِ متأخِّري الصوفيةِ أنَّه يمتنع الوقوفُ على حقيقة الرُّوح، بل ذَكَرَ هذا البعضُ أنَّ حقيقةَ جميع الأشياءِ لا يوقَف عليها. وهو مبنيٌّ على مالا يخفَى عليك، وردُّه أو قَبوله مفوَّض إليك.

ثم إنَّ لي في هذا الوجه وقفة، فإنَّ الظاهرَ أن إطلاقَ عالَمِ الأمرِ على الكائن من غير تحصُّلٍ من مادَّة وتولُّدٍ من أصل، وإطلاقَ عالَم الخلقِ على خلافه، محضُ اصطلاحٍ لا يُعرَف للعرب ولا يعرفونه، وفي الاستدلالِ عليه بقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ما لا يخفَى على منصِف.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٠٠.

(٢) مسند أحمد (٢٢١٠٩)، وسنن الترمذي (٣٢٣٥).

هذا وذَكَرَ الإمامُ[(١)] أنَّ السؤالَ عن الرُّوح يقع على وجوهٍ كثيرة، وليس في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ ما يدلُّ على وجهٍ منها، إلَّا أنَّ الجوابَ المذكورَ لا يليق إلَّا بوجهين منها: الأوَّل: كونُه سؤالاً عن الماهية، والثاني: كونُه سؤالاً عن القِدَم والحدوث.

وحاصلُ الجوابِ على الأوَّل: أنَّها جوهرٌ بسيطٌ مجرَّد محدَث بأمر اللهِ تعالى وتكوينِه وتأثيرِه إفادةَ الحياةِ للجسد، ولا يَلزم من عدم العلمِ بحقيقته المخصوصة [نفيُه] فإنَّ أكثرَ حقائقِ الأشياءِ ماهياتُها مجهولة، ولم يَلزم من كونها مجهولةً نفيُها، ويُشير إليه «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» ومبنَى هذا أيضاً الفرقُ بين عالَم الأمرِ وعالَمِ الخلق، وقد سمعتَ ما فيه.

وحاصلُ الجوابِ على الثاني أنَّه حادثٌ حصل بفعل اللهِ تعالى وتكوينِه وإيجاده، وجَعَلَ قوله تعالى: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» احتجاجاً على الحدوث، بمعنى أنَّ الأرواحَ في مبدأ الفطرةِ تكون خاليةً عن العلومِ والمعارف، ثم يحصلُ فيها ذلك، فلا تزال في تغيُّر من حالٍ إلى حال، وهو من أَمارات الحدوث.

وأنت تعلم أنَّ حملَ السؤالِ على ما ذَكَرَ وجَعْلَ الجوابِ إخباراً بالحدوث مع عدمِ ملاءمته لحالِ السائلين لا يساعده التعرُّض لبيانِ قلَّة عِلمهم، فإنَّ ما سألوا عنه ممَّا يفي به علمُهم حينئذٍ، وقد أَخبر عنه، وجَعْلُ ذلك احتجاجاً على الحدوث من أَعجب الحوادث، كما لا يخفَى على ذي رُوح، واللهُ تعالى أعلم.

وهاهنا أبحاثٌ لا بأسَ بإيرادها: البحثُ الأوَّل في شرح مذاهبِ الناسِ في حقيقة الإنسان، وظاهرُ كلامِ الإمام[(٢)] أنَّ الاختلافَ في حقيقته عينُ الاختلافِ في حقيقة الرُّوح، وفي القلبِ من ذلك ما فيه، فذهب جمهورُ المتكلِّمين إلى أنَّه عبارةٌ عن هذه البِنية المحسوسةِ، والهيكلِ المجسَّم المحسوس، وهو الذي يُشير إليه الإنسانُ بقوله: أنا.

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ٣٧-٣٨، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٢) في التفسير الكبير ٢١/ ٣٩ فما بعد.

وأبطل ذلك الإمامُ(١) بسبعَ عشرةَ حجَّةً نقليةً وعقلية، لكن للبحث في بعضِها مجال، منها ما تقدَّم من أنَّ أجزاءَ البنيةِ متغيِّرة زيادةً ونقصاناً، وذبولاً ونموًّا، والعلم الضروريُّ قاضٍ بأنَّ الإنسانَ من حيث هو أمرٌ باقٍ من أوَّل العُمرِ إلى آخره، وغيرُ الباقي غيرُ الباقي.

ومنها أنَّ الإنسانَ قد يعتريه ما يَشغله عن الالتفات إلى أجزاءِ بنيتِه كلًّا وبعضاً، ولا يغفُل عن نفسه المعيَّنة، بدليل أنَّه يقول مع ذلك الشاغلِ: فعلتُ وتركت، مثلاً، وغيرُ المعلومِ غيرُ المعلوم.

ومنها أنَّه قد توجد البنيةُ المخصوصةُ وحقيقةُ الإنسانِ غيرُ حاصلة، فإنَّ جبريلَ عليه السلام كثيراً ما رُئي في صورة دِحيةَ الكلبي(٢)، وإبليسُ عليه اللعنةُ رئي في صورة شيخٍ نجديّ(٣)، وقد تنتفي البنيةُ مع بقاءِ حقيقةِ الإنسان، فإن الممسوخ قرداً ـ مثلاً ـ باقيةٌ حقيقتُه مع انتفاء البنيةِ المخصوصة، وإلَّا لم يتحقَّق مسخ، بل إماتةٌ لذلك الإنسانِ وخلقُ قرد.

ومنها أنَّه جاءَ في الخبر «أنَّ الميِّت إذا حُمل على النَّعش، رفرف روحُه فوق النعشِ ويقول: يا أهلي ويا ولدي، لا تلعبنَّ بكم الدُّنيا كما لعبت بي، جمعتُ المالَ من حلِّه ومن غير حلِّه، ثم تركته لغيري، فالهناءُ له والتَّبعةُ عليّ، فاحذروا مثل ما حلَّ بي»(٤). فصرَّح ﷺ بأنَّ هناك شيئاً ينادي غيرَ المحمول، كان الأهلُ أهلاً له وكان الجامعَ للمال من الحلالِ والحرام، وليس ذلك إلَّا الإنسان. إلى غير ذلك ممَّا ذكره في تفسيره.

وقيل: إنَّ الإنسانَ هو الرُّوح الذي في القلب.

وقيل: إنَّه جزءٌ لا يتجزَّأ في الدِّماغ.

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ٤٠-٤٣.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وسلف ٣/ ٤٦.

(٣) أخرجه ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما. سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٠، وانظر مصنف عبد الرزاق (٩٧٤٣).

(٤) أورده الرازي في التفسير الكبير ٢١/ ٤١ وهو بنحوه في الزهد لأحمد ص ٢٠٦ عن أم الدرداء قولها.

وقيل: إنَّه أجزاءٌ نارية مختلطةٌ بالأرواح القلبيةِ والدِّماغية، وهي المسمَّاة بالحرارةِ الغريزية.

وقيل: هو الدمُ الحالُّ في البدن.

وقيل وقيل، إلى نحو ألفِ قول، والمعوَّل عليه عند المحقِّقين قولان:

الأول: أنَّ الإنسان عبارةٌ عن جسم نورانيٍّ علويٍّ حيٍّ متحرِّك مخالفٍ بالماهية لهذا الجسمِ المحسوس، سارٍ فيه سريانَ الماءِ في الورد والدُّهنِ في الزيتون والنارِ في الفحم، لا يقبل التحلُّلَ والتبدُّل، والتفرُّقَ والتمزُّق، مفيدٌ للجسم المحسوسِ الحياةَ وتوابعَها مادام صالحاً لقَبول الفيض؛ لعدم حدوث مايمنع من السَّريان، كالأخلاط الغليظة، ومتى حدث ذلك حصل الموت؛ لانقطاع السَّريان، والروحُ عبارةٌ عن ذلك الجسم.

واستحسن هذا الإمامُ[(١)] فقال: هو مذهب قويٌّ وقولٌ شريف يجب التأمُّل فيه؛ فإنَّه شديد المطابقةِ لما ورد في الكتب الإلهيَّة من أحوال الحياةِ والموت.

وقال ابن القيِّم في كتابه «الرُّوح»: إنَّه الصواب، ولا يصحُّ غيرُه، وعليه دلَّ الكتابُ والسُّنَّة، وإجماعُ الصحابة، وأدلَّةُ العقلِ والفطرة. وذَكَرَ له مئةَ دليلٍ وخمسةَ أدلَّة، فليُراجع[(٢)].

الثاني: أنَّه ليس بجسمٍ ولا جسمانيّ، وهو الرُّوح، وليس بداخل العالَمِ ولا خارجَه، ولا متَّصل به ولا منفصل عنه، ولكنَّه متعلِّق بالبدن تعلُّقَ التدبيرِ والتصرُّف. وهو قولُ أكثرِ الإلهيِّين من الفلاسفة، وذهب إليه جماعةٌ عظيمةٌ من المسلمين، منهم الشيخُ أبو القاسم الراغبُ الأصفهانيُّ، وحجَّة الإسلامِ أبو حامدٍ الغزالي، ومن المعتزلة مُعمَّر بنُ عبَّاد السُّلَمي[(٣)]، ومن الشيعة الشيخُ المفيد، ومن الكرَّامية جماعة، ومن أهل المكاشفةِ والرِّياضة أكثرُهم، وقد قدَّمنا لك الأدلَّةَ على

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ٤٤.
(٢) الروح ص ٢٠٨-٢٢٧، وفيه مئة وستة عشر دليلاً.
(٣) معتزلي من أهل البصرة، ثم سكن بغداد، وناظر النظّام، مات سنة (٢١٥هـ). لسان الميزان ٨/ ١٢٢.

ذلك، ومَن أراد الإحاطةَ بذلك فلْيرجع إلى كتب الشيخَين أبي عليٍّ[١] وشهابِ الدِّين المقتول[٢]، وإلى كتب الإمامِ الرازيّ، كـ «المباحث المشرقية» وغيرِه، وللشيخ الرئيسِ رسالةٌ مفرَدة في ذلك سمَّاها بـ «الحُجَج الغُرّ»، أحكمُها وأتقنُها ما يُبتنَى على تعقُّل النفس لذاتها، وابنُ القيِّم زيَّف حججَه في كتابه، وهو كتابٌ مفيد جدًّا، يهب للرُّوح روحاً، ويُورِث للصدر شرحاً.

واستدلَّ الإمامُ[٣] على ذلك في تفسيره بالآية المذكورةِ فقال: إنَّ الرُّوح لو كان جسماً منتقلاً من حالةٍ إلى حالة ومن صفةٍ إلى صفة، لَكان مساوياً للبدن في كونه متولِّداً من أجسامٍ اتَّصفت بصفاتٍ مخصوصة بعد أن كانت موصوفةً بصفات أُخَر، فإذا سئل رسولُ الله ﷺ عنه، وجب أن يبيِّنَ أنَّه جسمٌ كان كذا ثم صار كذا وكذا حتى صار روحا، مثلَ ما ذَكَرَ في كيفية تولُّد البدنِ أنَّه كان نطفةً ثم علقةً ثم مضغة، فلمَّا لم يقل ذلك وقال: «هو من أمر ربِّي»، بمعنى أنَّه لا يحدثُ ولا يدخل في الوجود إلَّا لأجل أنَّ اللهَ تعالى قال له: كن، فيكون، دلَّ ذلك على أنَّه جوهرٌ ليس من جنس الأَجسام، بل هو جوهرٌ قدسيٌّ مجرَّد.

ولا يخفَى أنَّ ذلك من الإقناعيات الخِطابية، وهي كثيرةٌ في هذا الباب، منها قولُه تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] وقولُه سبحانه: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] فإنَّ هذه الإضافةَ مما تنبِّه على شرف الجوهرِ الإنسيّ، وكونِه عرياناً[٤] عن الملابس الحِسِّية، ومنها قولُه عليه الصلاة والسلام: «أنا النذيرُ العُريان»[٥] ففيه إيماءٌ إلى تجرُّد الروحِ عن علائق الأَجرام، وقولُه ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى خلق آدمَ على صورةِ الرحمن» وفي رواية: «على صورته»[٦] وقولُه عليه

---

(١) الظاهر أنه ابن سينا.

(٢) هو السهروردي.

(٣) في التفسير الكبير ٢١/ ٥٢.

(٤) في (م): عريا.

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣) من حديث أبي موسى ﷺ مطولاً.

(٦) سلفت الروايتان ٢/ ٩٠-٩١، والثانية في صحيح البخاري (٦٢٢٧)، وصحيح مسلم (٢٦١٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الصلاة والسلام[١]: «أَبِيتُ عند ربِّي يُطعمني ويسقيني» ففي ذلك إيذانٌ بشرف الرُّوح، وقُربِه من ربِّه قرباً بالذَّات والصفات، مجرَّداً عن علائق الأَجرام وعوائقِ الأجسام، إلى غير ذلك ممَّا لا يُحصَى، وهو على هذا المنوال، وللبحث فيه مجالٌ أيُّ مجال.

وكان ثابتُ بن قُرَّة يقول: إنَّ الروحَ متعلِّق بأجسامٍ سماويَّة نورانيةٍ لطيفة، غيرِ قابلةٍ للكون والفسادِ والتفرُّق والتمزُّق، وتلك الأجسامُ ساريةٌ في البدن، وهي مادامت ساريةً كان الروحُ مدبِّراً للبدن، وإذا انفصلت عنه انقطع التعلُّق. وهو قولٌ ملفَّق، وأنا لا أستبعده.

البحثُ الثاني: في اختلاف الناسِ في حدوث الرُّوح وقِدَمه. أَجمع المسلمون على أنَّه حادثٌ حدوثاً زمانيًّا كسائر أجزاءِ العالَم، إلَّا أنَّهم اختلفوا في أنَّه هل هو حادثٌ قبل البدنِ أم بعده؟ فذهب طائفةٌ إلى الحدوث قبلُ، منهم محمدُ بن نصرٍ المروزيّ، وأبو محمدٍ بنُ حزم الظاهريّ، وحكاه إجماعاً وقد افترى، واستدلَّ لذلك بما في الصَّحيحين من حديثِ عائشةَ ﵂ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الأَرواحُ جنودٌ مجنَّدة، فما تعارفَ منها ائتلف، وما تناكرَ منها اختلف»[٢].

قال ابن الجوزيِّ في «تبصرته[٣]»: قال أبو سليمانَ الخطَّابيُّ: معنى هذا الحديثِ الإخبارُ عن كون الأرواحِ مخلوقةً قبل الأَجساد، وزعم ابنُ حزمٍ أنَّها في برزخ، وهو منقطعُ العناصر، فإذا استعدَّ جسدٌ لشيءٍ منها هبط إليه، وأنَّها تعود إلى ذلك البرزخِ بعد الوفاة، ولا دليلَ لهذا في كتابٍ أو سنة.

وبعضُهم استدلَّ على ذلك بخبر «خلق اللهُ تعالى الأرواحَ قبل الأجسادِ بألفَي عام»[٤] وتعقَّبه ابن القيِّم[٥] بأنه لا يصحُّ إسناده.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٥-١٩٦٦)، ومسلم (١١٠٣) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٢) صحيح البخاري (٣٣٣٦)، وهو عند مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٣) ٢/ ٢٩٦.
(٤) أخرجه ابن منده كما في الروح ص ١٨٨، وفي إسناده عطاء بن عجلان الحنفي، وهو متروك. وسلف ١٣/ ٤٦١.
(٥) في كتاب الروح ص ٢٠١.

وذهب آخرون ـ منهم حجَّة الإسلامِ الغزاليّ ـ إلى الحدوث بعدُ. ومن أدلَّة ذلك ـ كما قال ابن القيِّم[1] ـ الحديثُ الصحيح[2]: «إنَّ خلق ابنِ آدمَ يُجمع في بطن أمِّه أربعين يوماً دماً، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثلَ ذلك، ثم يُرسل إليه المَلَكُ فينفخ فيه الرُّوح» ووجهُ الاستدلالِ أنَّ الروحَ لو كان مخلوقاً قبلُ لقيل: ثم يُرسَل إليه المَلَك بالرُّوح فيُدخِله فيه. وصرَّح في «روضة المحبِّين ونزهة المشتاقين»[3] باختيار هذا القولِ فقال: إنَّ القولَ بأنَّ الأرواحَ خُلقت قبلَ الأجسادِ قولٌ فاسد وخطأٌ صريح، والقولُ الصحيحُ الذي دلَّ عليه الشرعُ والعقلُ أنَّها مخلوقةٌ مع الأَجساد، وأنَّ المَلَك ينفخ الرُّوح ـ أي: يُحدثه بالنَّفخ في الجسد ـ إذا مضى على النطفة أربعةُ أشهُرٍ ودخلت في الخامس، ومَن قال: إنَّها مخلوقةٌ قبل، فقد غلط، وأَقبحُ منه قولُ مَن قال: إنَّها قديمة. انتهى، وفيه تأمُّل. ويوافق مذهبَ الحدوث قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فلْيُفهم.

وذهب أفلاطونُ ومَن تقدَّمه من الفلاسفة إلى قِدَم الرُّوح، وذهب المعلِّم الأولُ إلى حدوثها مع حدوثِ البدن المستعدِّ له، كما ذهب إليه بعضُ الإسلاميين.

وقد تقدَّم الكلامُ في استدلال كلٍّ جرحاً وتعديلاً، ويقال هنا: إنَّ المعلِّم الأولَ قائلٌ ـ كغيره من الفلاسفة ـ بتجرُّد الروحِ المسمَّاة بالنفس الناطقةِ عندهم عن المادَّة، فكيف يسعه القولُ بحدوثها مع قولِهم: كلُّ حادث زمانيٍّ يحتاج إلى مادَّة؟ وأُجيب بأنَّ المادةَ هاهنا أعمُّ من المحلِّ والمتعلَّق به، والبدنُ مادةٌ للنفس بهذا المعنى.

وأنت تعلم أنَّ استعدادَ الشيءِ للشيء لا يكون إلَّا فيما إذا كان ذلك مقترِناً به لا مبايناً عنه، فالأَوْلى أن يقال: إنَّ البدنَ الإنسانيَّ لمَّا استدعى لمزاجه الخاصِّ صورةً مدبِّرة له متصرِّفةً فيه، أي: أمراً موصوفاً بهذه الصفةِ من حيث هو كذلك، وجب على مقتضَى جُودِ الواهبِ الفيَّاض وجودُ أمرٍ يكون مبدأً للتدابير الإنسية والأفاعيلِ البشرية، ومثلُ هذا الأمرِ لا يمكن إلَّا أن يكونَ ذاتاً مدرِكةً للكلِّيات مجرَّدةً في ذاتها، فلا محالةَ قد فاض عليه حقيقةُ النفسِ لا من حيث إنَّ البدنَ

(١) في الروح ص ٢٠٤.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وسلف ٣/ ٣٢٤.

(٣) ص ٧٥، وهو لابن القيم.

استدعاها، بل من حيث عدمُ انفكاكِها عمَّا استدعاه، فالبدنُ استدعى باستعداده الخاصِّ أمراً ماديًا، وجُودُ المبدأ الفيَّاضِ أفاد جوهراً قدسيًا، وكما أنَّ الشيءَ الواحدَ قد يكون على ما قرَّروه ـ جوهراً وعرضاً باعتبارَين، كذلك يكون أمرٌ واحدٌ مجرَّداً وماديًا باعتبارين، فالنفسُ الإنسانية مجرَّدة ذاتاً ماديةٌ فعلاً، فهي من حيث الفعلُ من التدبيرِ والتحريكِ مسبوقةٌ باستعداد البدنِ مقترنةٌ به، وأمَّا من حيث الذاتُ والحقيقة، فمنشأُ وجودِها وجودُ المبدأ الواهبِ لا غير، فلا يَسبقها من تلك الحيثيةِ استعدادُ البدن، ولا يَلزمها الاقترانُ في وجودها به، ولا يلحقها شيءٌ من مثالب المادِّيات إلَّا بالعَرَض. ويمكن تأويلُ ما نُقل عن أفلاطونَ في بابِ قِدَمِ النَّفْس إلى هذا بوجهٍ لطيف. كذا قاله بعضُ صدورِ المتأخِّرين، فتأمَّله.

البحثُ الثالث: اختلف الناسُ في الرُّوح والنفسِ هل هما شيءٌ واحدٌ أم شيئان؟ فحكى ابنُ زيدٍ عن أكثر العلماءِ أنَّهما شيءٌ واحد، فقد صحَّ في الأَخبار إطلاقُ كلٍّ منهما على الآخَر، وما أَخرجه البزَّار[1] بسند صحيح عن أبي هريرةَ رَفَعه: «إنَّ المؤمنَ ينزل به الموتُ ويعاينُ ما يعاين يودُّ لو خرجت نفْسُه، والله تعالى يحبُّ لقاءه، وإنَّ المؤمنَ تصعد روحُه إلى السماء، فتأتيه أرواحُ المؤمنين فيستخبرونه عن معارفِهِ من أَهل الدُّنيا» الحديثَ = ظاهرٌ في ذلك.

وقال ابنُ حبيب: هما شيئان، فالروحُ هو النفسُ المتردِّد في الإنسان، والنفسُ أمرٌ غير ذلك، لها يدانِ ورجلان ورأسٌ وعينان، وهي التي تلتذُّ وتتألَّم وتفرحُ وتحزن، وإنَّها هي التي تتوفَّى في المنام، وتخرجُ وتسرح وترى الرُّؤيا، ويبقى الجسدُ دونها بالرُّوح فقط، لا يلتذُّ ولا يفرح حتى تعود، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ الآية [الزمر: ٤٢].

وحكى ابنُ منده عن بعضهم أنَّ النفس طينيةٌ نارية، والروحَ نوريةٌ روحانيَّة. وعن آخَرَ أنَّ النفسَ ناسوتيّة، والروحَ لاهوتيّة، وذَكَرَ أنَّ أهل الأثرِ على المغايرة، وأنَّ قِوَام النفسِ بالرُّوح، والنفسُ صورةُ العبد، والهوى والشهوةُ والبلاءُ معجونٌ فيها، ولا عدوَّ أعدَى لابن آدمَ من نفسه، لا تريد إلَّا الدنيا ولا تحبُّ إلَّا إياها، والروحُ تدعو إلى الآخرة وتؤثِرُها.

---

(١) في مسنده (٨٧٤ – كشف الأستار) مطولاً.

وظاهرُ كلامِ بعضِ محقِّقي الصوفيةِ القولُ بالمغايرة، ففي «منتهَى المدارك» للمحقِّق الفرغانيِّ[1] أنَّ النفسَ المضافةَ إلى الإنسان عبارةٌ عن بخار ضبابيٍّ منبعثٍ من باطن القلبِ الصَّنوبري، حاملٍ لقوَّة الحياة، متجنِّسٍ بأثر الرُّوح الروحانيةِ المرادةِ بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] الثابتِ تعيُّنها في عالَم الأرواح، وأثرُها واصلٌ إلى هذا البخارِ الحاملِ للحياة، فالنفسُ إذن أمرٌ مجتمعٌ من البخار ووصفِ الحياة وأثرِ الرُّوح الرُّوحانية، وهذه النفسُ بحكم تجنُّسها بأثر الرُّوح الروحانيةِ متعيِّنةٌ لتدبير البدنِ الإنساني، قابلةٌ لمعالي الأمور وسفاسِفها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] والروحُ الروحانيةُ أمرٌ لا يُكتَنَه.

والحقُّ أنهما قد يتَّحدان إطلاقاً وقد يتغايران، وابنُ القيِّم اعتمد ما عليه الأكثرون من الاتِّحاد ذاتاً، وذكر غيرُ واحدٍ أنَّه هو الذي عليه الصُّوفية، بيدَ أنَّهم قالوا: إنَّ النفسَ هي الأصلُ في الإنسان، فإذا صُقِلت بالرِّياضة وأنواعِ الذِّكر والفكر، صارت روحاً، ثم قد تترقَّى إلى أن تصيرَ سرًّا من أسرار اللهِ تعالى.

وتفصيلُ الكلامِ حينئذٍ في هذا المقامِ أنَّ للنفس مراتبَ تترقَّى فيها، الأُولى: تهذيبُ الظاهر باستعمال النواميسِ الإلهية، من القيام والصيامِ وغيرهما، الثانية: تهذيبُ الباطنِ عن المَلَكات الرَّديةِ والأخلاقِ الدَّنية، الثالثة: تحلِّي النفسِ بالصُّور القدسية، الرابعة: فناؤها عن ذاتها وملاحظتُها جلالَ ربِّ العالمين جلَّ جلالُه.

ويقال في كيفية الترقِّي في هذه المراتب: إنَّ الإنسان أوَّلَ ما يولد فهو كباقي الحيوانات، لا يعرف إلَّا الأكلَ والشُّرب، ثم بالتدريجِ يظهر له باقي صفاتِ النفس، من الشَّهوة والغضبِ والحرصِ والحسد، وغيرِ ذلك من الهيئات التي هي نتائجُ الاحتجابِ والبعدِ من معدن الجودِ والصفاتِ الكمالية، ثم إذا تيقَّظ من سِنة الغفلة وقام من نومِ الجهل، وبان له أنَّ وراءَ هذه اللذَّاتِ البهيميةِ لذاتٍ أُخَر، وفوقَ هذه المراتبِ مراتبَ أُخَرَ كمالية، يتوب عن اشتغاله بالمنهيَّات الشرعية، ويُنيب إلى الله تعالى بالتوجُّه إليه، فيشرع في ترك الفضولِ الدُّنيوية طلباً للكمالات

---

(١) هو محمد بن أحمد الشهير بسعيد الفرغاني الصوفي، المتوفى سنة (٦٩٩هـ)، واسم كتابه: منتهى المدارك ومشتهى لب كل كامل وعارف وسالك، وهو شرح لتائية ابن الفارض في التصوف. كشف الظنون ١/ ٢٦٦، وهدية العارفين ٢/ ١٣٩.

الأُخروية، ويعزم عزماً تامًّا، ويتوجَّه إلى السُّلوك إلى مَلِك الملوكِ من مقام نفسِه، فيهاجرُ منه ويقع في الغربة، ويا طوبَى للغرباء، وإن قيل: إنَّما الغربةُ للأحرار ذَبْح(١)، ثم إذا دخل في الطريقِ يزهدُ عن كلِّ ما يَعُوقه عن مقصوده، ويَصدُّه عن معبوده، فيتَّصف بالورع والتقوى والزهدِ الحقيقيّ، ثم يحاسب نفسَه دائماً في أقواله وأفعالِه، ويتَّهمها في كلِّ ما تأمر به، وإن كان عبادةً فإنَّها مجبولةٌ على حبِّ الشهوات، ومطبوعةٌ على الدسائس الخفيَّات، فلا ينبغي أن يأمنَها ويكونَ على ثقةٍ منها.

يُحكَى عن بعض الأكابرِ أنَّ نفسه لم تزل تأمره بالجهاد وتحثُّه عليه، فاستغربَ ذلك، ثم فَطِنَ أنَّها تريد أن تستريحَ من نَصَب القيامِ والصيامِ بالموت، فلم يُجِبها إلى ذلك.

فإذا خَلَصَ منها وصفا وقتُه وطاب عيشُه بما يجده في طريق المحبوب، يتنوَّر باطنُه، ويظهرُ له لوامعُ أنوارِ الغيب، وينفتحُ له بابُ المَلَكوت، وتلوح منه لوائحُ مرَّةً بعد أخرى، فيشاهد أموراً غيبيةً في صُوَرٍ مثالية، فإذا ذاق شيئاً منها، يرغب في العزلة والخلوةِ والذِّكر، والمواظبةِ على الطَّهارة والعبادة، والمراقبةِ والمحاسبة، ويُعرض عن الملاذِّ الحسِّية كلِّها، ويُفرغ القلبَ عن محبَّتها، فيتوجَّه باطنُه إلى الحقِّ تعالى بالكلِّية، فيظهر له الوجدُ والسُّكر، والشوقُ والعِشق والهَيَمان، ويجعله فانياً عن نفسه غافلاً عنها، فيشاهد الحقائقَ السرِّية والأنوارَ الغيبية، فيتحقَّق بالمشاهدة والمعاينةِ والمكاشفة، ويظهر له أنوارٌ حقيقيةٌ تارةً وتختفي أخرى، حتى يتمكَّنَ ويتخلَّصَ من التلوين، وينزل عليه السكينةُ الروحيةُ والطمأنينةُ الإلهية، ويصير ورودُ هذه البوارقِ والأحوالِ له مَلَكة، فيدخلُ في عوالم الجبروت، ويشاهد العقولَ المجرَّدة والأنوارَ القاهرة، من الملائكة المقرَّبين والمَهيمين، ويتحقَّق بأنوارهم، فيظهر له أنوارُ سلطانِ الأحدية، وسواطعُ العظمةِ والكبرياءِ الإلهية، فتجعله هباءً منثوراً، ويندكُّ حينئذٍ جبالُ إنِّيَّتِه، فيخرُّ لله تعالى خروراً، ويتلاشَى في التعيُّن الذاتيّ، ويضمحلُّ وجودُه في الوجود الإلهيّ.

---

(١) عجز بيت لفتح الله بن النحاس، وصدره: حسَّنوا القول وقالوا غربة. نفحة الريحانة ٢/ ٥٢٢.

وهذا مقامُ الفناءِ والمحو، وهو غايةُ السفرِ الأوَّل للسالكين، فإن بقي في الفناء والمحو ولم يجئ إلى البقاءِ والصحو، صار مستغرقاً في عين الجمع، محجوباً بالحقِّ عن الخلق، لا يزيغُ بصرُه عن مشاهدة جمالِه عزَّ شأنه، وأنوارِ ذاته وجلالِه، فاضمحلَّت الكثرةُ في شهوده، واحتجب التفصيلُ عن وجوده، وذلك هو الفوزُ العظيم.

وفوقَ ذلك مرتبةٌ يُرجَع فيها إلى الصَّحو بعد المحو، وينظر إلى التفصيل في عينِ الجمع، ويسع صدرُه الحقَّ والخلق، فيشاهد الحقَّ في كلِّ شيء، ويرى كلَّ شيءٍ بالحقّ، على وجهٍ لا يوجب التكثُّر والتجسُّم، وهو طَورٌ وراء طورِ العقل. ووقع في عبارة بعضِهم أنَّه قد يصير العارفُ متخلِّقاً بأخلاق اللهِ تعالى بالحقيقة، لا بمعنى صيرورةِ صفاتِه تعالى عرضاً قائماً بالنفس، فإنَّ هذا ممَّا لا يتصوَّر أبداً، والقولُ به خروجٌ عن الشريعة والطريقةِ والحقيقة، بل بمعنى علاقةٍ أخرى أتمَّ من علاقتها مع الصفات الكونيةِ البدنيةِ وغيرِها، لا تُعلَم حقيقتها.

ولعل مرادَهم بالمرتبة التي تترقَّى إليها النفسُ فتكون سرًّا من أسرار اللهِ تعالى هي هذه المرتبة، والاطِّلاعُ عليها يحتاج إلى سلوك طريقةِ الأبرار، ولا يتمُّ بمجرَّد الأنظارِ والأفكار، واللهُ تعالى الموفِّق للسلوك، والمتفضِّل بالغِنَى على الصُّعلوك.

البحث الرابع: اختلف الناسُ في الرُّوح هل تموت أم لا؟ فذهبت طائفةٌ إلى أنَّها تموت؛ لأنَّها نفس، وكلُّ نفس ذائقةُ الموت، وقد دلَّ الكتابُ على أنَّه لا يبقى إلَّا اللهُ تعالى وحدَه، وهو يستدعي هلاكَ الأرواحِ كغيرها من المخلوقات، وإذا كانت الملائكةُ عليهم السلام يموتون، فالأرواحُ البشرية أَوْلى، وأيضاً أخبر سبحانه عن أهل النارِ أنَّهم يقولون: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] ولا تحقَّق الإماتتان إلَّا بإماتة البدنِ مرَّةً وإماتةِ الرُّوح أخرى.

وقالت طائفة: إنَّها لا تموت؛ للأحاديث الدالَّة على نعيمها وعذابِها بعد المفارقةِ إلى أن يُرجعَها اللهُ تعالى إلى الجسد، وإنْ قلنا بموتها لزم انقطاعُ النعيمِ والعذاب.

والصوابُ أن يقال: موتُ الروح هو مفارقتُها الجسدَ، فإن أُريد بموتها هذا القَدْر، فهي ذائقةُ الموت، وإنْ أُريد أنَّها تعدم وتضمحلّ، فهي لا تموت، بل تبقى مفارقةً ما شاء اللهُ تعالى، ثم تعود إلى الجسد وتبقَى معه في نعيمٍ أو عذاب، أبدَ

الآبدين ودهرَ الداهرين، وهي مستثناةٌ ممَّن يصعق عند النفخ في الصُّور، على أنَّ الصعقَ لا يلزمُ منه الموت، والهلاكُ ليس مختصًّا بالعدم، بل يتحقَّق بخروج الشيءِ عن حدِّ الانتفاعِ به ونحوِ ذلك، وما ذُكر في تفسير الإماتتين غيرُ مسلَّم، وسيأتي إن شاء اللهُ تعالى الكلامُ فيه.

وإلى أنَّها لا تموت بموت البدنِ ذهبت الفلاسفةُ أيضاً، واحتجَّ الشيخُ عليه بأنْ قال: قد ثبت أنَّ النفسَ يجب حدوثُها عند حدوثِ البدن، فلا يخلو إمَّا أن يكونا معاً في الوجود، أو لأحدهما تقدُّم على الآخَر،فإن كانا معاً، فلا يخلو إمَّا أن يكونا معاً في الماهية، أو لا في الماهية، والأولُ باطل، وإلَّا لكانت النفسُ والبدنُ متضايفَين، لكنَّهما جوهران، هذا خَلف، وإن كانت المعيةُ في الوجود فقط من غير أن يكونَ لأحدهما حاجةٌ في ذلك الوجودِ إلى الآخَر، فعدمُ كلٍّ واحدٍ منهما يوجِب عدمَ تلك المعية، أمَّا[1] لا يوجب عدمَ الآخر، وأمَّا إن كان لأحدهما حاجةٌ في الوجود إلى الآخَر، فلا يخلو إمَّا أن يكونَ المقدَّم هو النفسَ، أو البدنَ، فإن كان المقدَّم في الوجود هو النفسَ، فذلك التقدُّم إمَّا أن يكونَ زمانيًّا، أو ذاتيًّا، والأولُ باطل؛ لِمَا ثبت أنَّ النفسَ ليست موجودةً قبل البدن، وأمَّا الثاني فباطلٌ أيضاً؛ لأنَّ كلَّ موجودٍ يكون وجودُه معلولَ شيءٍ كان عدمُه معلولَ عدمِ ذلك الشيء؛ إذ لو انعدم ذلك المعلولُ مع بقاءِ العلَّة، لم تكن تلك العلَّةُ كافيةً في إيجابها، فلا تكون العلَّةُ علة، بل جزءاً من العلَّة، هذا خَلف، فإذن لو كان البدنُ معلولاً، لامتنع عدمُ البدنِ إلَّا لعدم النفس، والتالي بطلانُ البدنِ[2] قد ينعدم لأسبابٍ أُخَر، مثل سوءِ المزاج، أو سوءِ التركيب، أو تفرُّق الاتِّصال، فبطل أن تكونَ النفسُ علَّةً للبدن، وباطلٌ أيضاً أن يكونَ البدنُ علَّةً للنفس؛ لأنَّ العِلَلَ ـ كما عُرِف ـ أربع.

ومحالٌ أن يكونَ البدنُ علَّة فاعليةً للنفس، فإنَّه لا يخلو إمَّا أن يكونَ علَّةً فاعليةً لوجود النفسِ بمجرَّد جسميَّته، أو لأمرٍ زائدٍ على جسميَّته، والأوَّل باطل، وإلَّا لَكان كلُّ جسمٍ كذلك، والثاني باطل، أمَّا أوَّلاً: فلِمَا ثبت أنَّ الصورَ المادِّية إنَّما تفعل بواسطة الوضع، وكلُّ ما لا يفعل إلَّا بواسطة الوضعِ استحال أن يفعلَ أفعالاً مجرَّدة عن الحيِّز والوضع، وأمَّا ثانياً: فلأنَّ الصُّور المادية أضعفُ من

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعلها: إنما.

(٢) في الأصل: العدم.

المجرَّد القائم بنفسه، والأضعفُ لا يكون سبباً للأقوى.

ومحالٌ أن يكونَ البدنُ علَّةً قابلية؛ لِمَا ثبت أنَّ النفسَ مجرَّدةٌ مستغنيةٌ عن المادَّة، ومحالٌ أن يكونَ علَّةً صوريةً للنفس أو تمامية؛ فإنَّ الأمرَ أَوْلى أن يكونَ بالعكس، فإذن ليس بين البدنِ والنفسِ علاقةٌ واجبةُ الثبوتِ أصلاً، فلا يكون عدمُ أحدِهما علَّةً لعدم الآخَر.

فإن قيل: ألستم جعلتم البدنَ علَّةً لحدوث النفس؟ فنقول: قد بيِّن أن الفاعلَ إذا كان منزَّهاً عن التغيُّر ثم صدر عنه الفعلُ بعد أن كان غيرَ صادر، فلا بدَّ وأن يكونَ لأجلِ أنَّ شرطَ الحدوثِ قد حصل في ذلك الوقتِ دونَ ما قبله، ثم إنَّ ذلك الشرطَ لمَّا كان شرطاً للحدوث فقط، وكان غنيًّا في وجودِه عن ذلك الشيءِ، استحال أن يكونَ عدمُ ذلك الشرطِ مؤثِّراً في عدم ذلك الشيء، ثم لمَّا اتَّفق أن كان ذلك الشرطُ مستعدًّا لأن يكونَ آلةً للنفس في تحصيلِ الكمالات، والنفسُ لذاتها مشتاقةٌ إلى الكمال، لا جرمَ حصل للنفس شوقٌ طبيعيٌّ إلى التصرُّف في ذلك البدنِ والتدبيرِ فيه على الوجه الأَصلح، ومثلُ ذلك لا يمكن أن يكونَ عدمُه علَّةً لعدم ذلك الحادث، بل ذهب الفلاسفةُ إلى استحالة انعدامِ النفس، وبرهنوا على ذلك بما برهنوا، وعندنا لا استحالةَ في ذلك.

البحث الخامس: في تمايُز الأرواحِ بعد مفارقتِها الأبدان. نصَّ ابن القيِّم(١) على أن كلَّ روحٍ تأخذ من بدنها صورةً تتميَّز بها عن غيرها، وأنَّ تمايُز الأرواحِ أعظمُ من تمايزِ الأبدان، إلَّا أنَّه زعم أنه لا يمكن التمايزُ بينها على القول بأنَّها جوهرٌ مجرَّد عن المادَّة. وفيه نظر؛ فإنَّ القائلين بذلك قائلون بالتمايز أيضاً، باعتبار ما يحصل لها من التعلُّق بالبدن أو بنحوٍ آخَرَ من التمايز.

وذكر الشيخ إبراهيمُ الكورانيُّ في بعض رسائلِه أنَّ الأرواحَ بعد مفارقتها أبدانَها المخصوصةَ تتعلَّق بأبدانٍ أخَرَ مثاليةٍ حَسْبما يليق بها، وإلى ذلك الإشارةُ بالطَّير الخُضرِ في حديث الشهداء، ففي صحيح مسلمٍ(٢) عن ابن مسعودٍ: «إنَّ أرواحَ الشهداءِ في أجوافِ طيرٍ خضر». وأخرج سعيدُ بن منصورٍ عن مكحولٍ عن النبيِّ ﷺ

---

(١) في الروح ص ٥٠ و٥١.

(٢) (١٨٨٧)، وسلف ٣/ ٤٤.

أنَّ ذراري المؤمنين أرواحُهم في عصافيرَ في شجر في الجنَّة[١]. أي: إنَّها تكون في أبدانٍ على تلك الصُّور.

ويؤيِّد ذلك روايةُ ابنِ ماجه[٢] عن ابنِ مسعود: «أرواحُ الشهداءِ عند اللهِ تعالى كطيرٍ خُضر»، وفي لفظٍ عن كعب: أرواحُ الشهداءِ طيرٌ خضر. ولفظُ ابنِ عمر: في صورةِ طيرٍ بيض، وفي رواية عليِّ بن عثمانَ اللاحقيِّ عن مكحولٍ أنَّ ذراري المؤمنين أرواحُهم عصافيرُ في الجنة.

وعلى هذا يكون إنكار قومٍ من المتكلِّمين خبرَ «في أَجواف طير» وكذا خبرَ «في عصافير» لِمَا في ذلك من تعلُّق روحَين في بدنٍ واحدٍ وقد قالوا باستحالته = ناشئاً من عدم التأمُّلِ والتثبُّت؛ لأنَّه ـ على ما قرَّرنا ـ لا يكونُ للطائر روحٌ غير روحِ الشهيد، على أنَّه لو بقي الخبرُ على ظاهره، لم يلزمْ محال؛ لجواز أن تكونَ الروحُ في جوف الطيرِ على نحوِ كونِ الجنين في بطن أمِّه، فتدبَّر.

البحث السادس: في مستقَرِّ الأرواحِ بعد مفارقةِ الأبدان. الذي دلَّت عليه الأخبارُ أنَّ مستقرَّ الأرواحِ بعد المفارقةِ مختلف، فمستقرُّ أرواحِ الأنبياء عليهم السلام في أعلى عِلِّيين، وصحَّ أن آخرَ كلمةٍ تكلم بها ﷺ: «اللهمَّ الرفيقَ الأَعلى»[٣] وهو يؤيِّد ما ذكر. ومستقرُّ أرواحِ الشهداءِ في الجنة، تَرِد من أنهارها وتأكلُ من ثمارها، وتأوي إلى قناديلَ معلَّقةٍ بالعرش. ورُوي في أرواحِ أطفالِ المؤمنين ما هو قريبٌ من ذلك.

وروى ابنُ المباركِ عن كعبٍ قال: جنةُ المأوى جنةٌ فيها طيرٌ خضر، ترعى فيها أَرواحُ الشهداءِ على بارق نهرٍ بباب الجنةِ في قبةٍ خضراء، يخرج عليهم رزقُهم من الجنة بكرةً وعشيًّا[٤].

ولعل هذا ـ كما قال ابنُ رجب ـ في عوامِّ الشهداء، وما تقدَّم في خواصِّهم، أو لعلَّ هذا في شهداءِ الآخرة، كالغريق والمبطونِ إلى غير ذلك.

---

(١) سنن سعيد بن منصور (٥١٤).

(٢) في سننه (٢٨٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٦٣)، ومسلم (٢٤٤٤): (٨٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) الجهاد لابن المبارك (٦١)، وأخرجه أحمد (٢٣٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وإسناده حسن.

وأما مستقرُّ أرواحِ سائر المؤمنين، فقيل: في الجنة أيضاً؛ وهو نصُّ الإمام الشافعيّ، وقد أخرج الإمام مالكٌ عن كعب بنِ مالك مرفوعاً: «إنَّما نسمةُ المؤمنِ طائرٌ يَعلُق في شجر الجنةِ حتى يُرجعَه اللهُ تعالى في جسده حين يبعثه» ورواه الإمام أحمدُ في «مسنده» وخرَّجه النسائيُّ من طريق مالك، وخرَّجه ابنُ ماجه(١)، ورواه خلقٌ كثير.

وروى ابن مَندَه من حديث أمِّ بشرٍ مرفوعاً ما هو نصٌّ في أنَّ مستقرَّ أرواحِ المؤمنين نحوُ مستقرِّ أرواحِ الشهداء(٢).

وقال وهب بن منبِّه: إنَّ لله تعالى في السماء السابعةِ داراً يقال لها البيضاء، يجتمع فيها أَرواحُ المؤمنين، ومستقرُّ أرواحِ الكفار في سِجِّين. وفي حديث أمِّ بشرٍ أنَّ أرواحَ الكفارِ في حواصل طيرٍ سُود، تأكل من النارِ وتشربُ من النار، وتأوي إلى جُحرٍ في النار، يقولون: ربَّنا لا تُلحق بنا إخوانَنا، ولا تؤتِنا ما وعدتَنا(٣).

وقيل: مستقرُّ أرواحِ الموتى أَفنيةُ قبورهم، وحكى هذا ابنُ حزمٍ عن عامَّة أهلِ الحديث، واستدلَّ له بعضُهم بحديث ابنِ عمرَ(٤) عن النبيِّ ﷺ: «إذا مات أحدُكم، عُرض عليه مقعدُه بالغداة والعَشيّ، إنْ كان من أهل الجنةِ فمن أهل الجنّة، وإنْ كان من أهل النارِ فمن أهل النَّار، يقال: هذا مقعدُك حتى يبعثَك اللهُ تعالى» وبأنه ﷺ حين زَار الموتى قال: «السلامُ عليكم دارَ قومٍ مؤمنين»(٥).

ورجَّح ابن عبد البرِّ أنَّ مستقرَّ أرواحِ ماعدا الشهداءَ بأفنية القبور(٦). وفيه أنَّه إن أُريد أنَّ الأرواحَ لا تفارق الأفنية، فهو خطأ يردُّه نصوصُ الكتابِ والسنة، وإن أُريد أنَّها تكون هناك وقتاً من الأوقات ـ كما رُوي عن مجاهد: الأرواحُ على القبور

(١) الموطأ ١/ ٢٤٠، ومسند أحمد (١٥٧٧٧)، والمجتبى ٤/ ١٠٨، وسنن ابن ماجه (٤٢٧١). قوله: يعلق، أي: يأكل.
(٢) وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١٤٤٩)، وينظر الحديث (١٥٧٧٦) في مسند أحمد.
(٣) لم نقف عليه.
(٤) أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).
(٥) أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، و(٩٧٤) من حديث عائشة ﷺ.
(٦) التمهيد ١٤/ ١٠٩، وما سيأتي هو من كلام ابن القيم في الروح ص ١٢٢-١٢٣.

سبعةَ أيامٍ من يوم دفنِ الميت ـ أو لها إشراقٌ على قبورها وهي في مقرِّها، فهو حقّ، لكن لا يقال: مستقرُّها أفنيةُ القبور.

وعوَّل بعض المحقِّقين على أنَّ الأرواحَ حيث كانت لها اتِّصالٌ لا يعلم حقيقتَه إلَّا اللهُ تعالى، وبذلك تردُّ السلام، وتعرف المسَلِّمَ، ويُعرض عليها مقعدُها من الجنَّة أو النار. وقال بعضُهم: لا مانعَ من انتقالها من مستقرِّها وعودِها إليه في أسرعِ وقتٍ حيث يشاء اللهُ تعالى ذلك، نعم جاءَ في حديث البراءِ بن عازبٍ[1] ما يدلُّ على أنَّ أرواحَ المؤمنين تستقرُّ في الأرض ولا تعود إلى السماءِ بعد عرضِها، حيث قال فيه في صفة قبضِ روحِ المؤمن: «فإذا انتهى إلى العرش كُتب كتابُه في علِّيين، ويقول الربُّ تعالى شأنه: رُدُّوا عبدي إلى مضجعه، فإني وعدتهم أنِّي منها خلقتهم وفيها أُعيدهم ومنها أُخرجهم تارةً أخرى»، وفي لفظ: «رُدُّوا روحَ عبدي إلى الأرض، فإنِّي وعدتهم أن أردَّهم فيها»، ثم قرأ رسولُ اللهِ ﷺ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ الآية، لكن قال الحافظُ ابن رجب: إنَّ حديثَ البراءِ وحده لا يعارض الأحاديثَ الكثيرةَ المصرِّحة بأنَّ الأرواحَ في الجنة، لاسيَّما الشهداء، وقولُه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ إلخ باعتبار الأبدان.

وقالت طائفة: مستقرُّ الأرواحِ مطلقاً في السماء الدُّنيا عن يمين آدمَ عليه السلام وعن شِماله، ويدلُّ عليه ما في الصَّحيحين[2] عن أبي ذرٍّ من حديث المعراج، ففيه: «لما فُتح علونا السماءَ الدنيا، فإذا رجلٌ قاعد، على يمينه أَسوِدةٌ وعلى يساره أَسوِدة، فإذا نظر قِبَلَ يمينِه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح، قلت لجبريل: مَن هذا؟ قال: آدم، وهذه الأَسودةُ عن يمينه وشمالهِ نَسَمُ بنيه، وأهلُ اليمينِ هم أهلُ الجنة، والأسودةُ التي عن شِماله أهلُ النار».

ويجاب بأنَّ المرادَ أنَّه عليه السلام يرى هذين الصِّنفين من جهة يمينِه وجهةِ شماله، وهو يجامع كونَ أرواحِ كلِّ فريقٍ في مستقرِّها من الجنَّة والنار. فقد رأى النبي ﷺ الجنةَ والنارَ في صلاة الكسوفِ وهو في الأرض[3]، والجنةُ ليست فيها،

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، والطبري في تهذيب الآثار (٧٢٣).
(٢) صحيح البخاري (٣٤٩)، وصحيح مسلم (١٦٣).
(٣) أخرجه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

ورآهما وهو في السماء، والنارُ ليست فيها، وفي حديثٍ لأبي هريرةَ في الإسراء[(١)] مايؤيِّد ما قلنا.

والنسفيُّ في «بحر الكلام» جعل الأرواحَ على أربعةِ أقسام: أرواحُ الأنبياءِ عليهم السلام تخرج من جسدها ويصير مثلُ صورتِها مثلَ المسكِ والكافور، وتكونُ في الجنة، تأكلُ وتشرب وتتنعَّم، وتأوي بالليل إلى قناديلَ معلَّقةٍ تحت العرش. وأرواحُ الشهداءِ تخرجُ من جسدها وتكون في أجواف طيرٍ خضرٍ في الجنة، تأكل وتتنعَّم وتأوي إلى قناديلَ كأرواح الأنبياءِ عليهم السلام. وأرواحُ المطيعين من المؤمنين برَبَض الجنة، لا تأكل ولا تتمتَّع، ولكن تنظرُ إلى الجنَّة، وأرواحُ العصاةِ منهم تكون بين السماءِ والأرضِ في الهواء، وأما أرواحُ الكفارِ ففي سِجِّين في جوف طيرٍ سودٍ تحت الأرضِ السابعة، وهي متَّصلة بأجسادها، فتعذَّب الأرواحُ وتتألَّم من ذلك الأجساد. انتهى.

وما ذكره في أرواح المطيعين مخالفٌ لما صحَّ من أنها تتمتَّع في الجنة.

وفي «الإفصاح»[(٢)] أنّ المنعَّم من الأرواح على جهاتٍ مختلفة، منها ما هو طائرٌ في شجر الجنَّة، ومنها ما هو في حواصل طيرٍ خضر، ومنها ما يأوي إلى قناديلَ تحت العرش، ومنها ما هو في حواصل طيرٍ بيض، ومنها ما هو في حواصلِ طير كالزَّرازير[(٣)]، ومنها ما هو في أشخاص صُوَرٍ من صُوَر الجنة، ومنها ما هو في صورةٍ تُخلَق من ثواب أَعمالهم، ومنها ما تسرح وتتردَّد إلى جثَّتها وتزورها، ومنها ما تتلقَّى أرواحَ المقبوضين، وممَّن سوى ذلك ما هو في كفالة ميكائيلَ عليه السلام، ومنها ما هو في كفالة آدمَ عليه السلام، ومنها ما هو في كفالة إبراهيمَ عليه السلام. انتهى.

قال القرطبيّ[(٤)]: وهذا قولٌ حسنٌ يجمع الأخبارَ حتى لا تتدافع. وارتضاه الجلالُ السُّيوطي.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٤/ ٤٢٤ فما بعد، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٣٩٦ فما بعد، مطولاً جدًّا.

(٢) لضياء الدين شيث بن إبراهيم المعروف بابن الحاج، والكلام من التذكرة للقرطبي ص١٥٩.

(٣) جمع زُرْزُور، وهو طائر أكبر قليلاً من العصفور. المعجم الوسيط (زرزر).

(٤) في التذكرة ص ١٥٩.

وأخرج ابنُ أبي الدُّنيا عن مالكٍ قال: بلغني أنَّ الروحَ مرسلَة تذهب حيث شاءت. وهو إن صحَّ ليس على إطلاقه.

وقيل في مستقرِّ الأرواحِ غيرُ ذلك، حتى زعم بعضُهم أنَّ مستقرَّها العدمُ المحض، وهو مبنيٌّ على أنَّها من الأعراض، وهي الحياة، وهو قولٌ باطلٌ عاطل، فاسدٌ كاسد، يردُّه الكتابُ والسنة، والإجماعُ والعقلُ السليم.

ويُعجبني في هذا الفصلِ ما ذكره الإمامُ العارفُ ابن بَرَّجان في «شرح أسماءِ الله تعالى الحسنى» حيث قال: والنفسُ مُبْرَأَةٌ من باطن ما خُلق منه الجسم، وهي روحُ الجسم، وأوْجَدَ تبارك وتعالى الروحَ من باطن ما برَأ منه النفس، وهو للنَّفس بمنزلة النفسِ للجسم، والنفس حجابُه، والروحُ يوصف بالحياة بإحياء اللهِ تعالى شأنه له، وموتُه خمود، إلَّا ما شاء الله تعالى يومَ خمودِ الأرواح، والجسمُ يوصف بالموت حتى يحيَى بالرُّوح، وموتُه مفارقةُ الروحِ إياه، وإذا فارق هذا العبدُ الروحانيُّ الجسمَ صُعِد به، فإن كان مؤمناً فُتحت له أبوابُ السماءِ حتى يصعدَ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ، فيؤمر بالسُّجود، فيسجد، ثم يُجعل حقيقتُه النفسانيةُ تَعمُر السفلَ من قبره إلى حيث شاءَ اللهُ تعالى من الجوّ، وحقيقتُه الروحانيةُ تعمر العلوَ من السماءِ الدنيا إلى السابعة في سرورٍ ونعيم؛ ولذلك لقي رسولُ اللهِ ﷺ موسى عليه السلام قائماً في قبره يصلِّي[١] وإبراهيمَ عليه السلام تحت الشجرةِ قبل صعودهِ إلى السماءِ الدنيا[٢]، ولَقيهما في السماوات العُلى[٣]، فتلك أرواحُهما وهذه نفوسُهما وأجسادُهما في قبورهما، وإنْ كان شقيًّا لم يُفتَح له، فرُمي من علوٍّ إلى الأرض. انتهى.

وفيه القولُ بالمغايرة بين الرُّوحِ والنفسِ، وبهذا التحقيقِ تندفع معارضاتٌ كثيرة، واعتراضاتٌ وفيرة، ويُعلَم أنَّ حديثَ «ما مِن أحدٍ يمرُّ بقبر أخيه المؤمنِ كان يعرفه في الدنيا فسلَّم عليه، إلَّا عرفه وردَّ عليه السلام»[٤] ليس نصًّا في أنَّ الروحَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحسن بن عرفة في جزئه كما في تفسير ابن كثير ٣/ ١٦.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في الاستذكار ٢/ ١٦٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

على القبر، إذ يُفهَم منه أنَّ الذي في القبر حقيقتُه النفسانيةُ المتَّصلة بالرُّوح اتِّصالاً لا يَعلم كنهَه إلَّا اللهُ تعالى.

وللرُّوح مع ذلك أحوالاً وأطواراً(١) لا يعلمها إلَّا الله تعالى، فقد تكون مستغرقةً بمشاهدة جمالِ الله تعالى وجلالِه سبحانه ونحوِ ذلك، وقد تصحو عن ذلك الاستغراق، وهو المرادُ بردِّ الروح في خبر: «ما من أحدٍ يسلِّم عليَّ إلَّا ردَّ اللهُ تعالى عليَّ روحي فأردُّ عليه السلام»(٢).

والذي ينبغي أن يعوَّلَ عليه ـ مع ما ذُكر ـ أنَّ الأرواحَ وإن اختلف مستقرُّها بمعنى محلِّها الذي أُعطيته بفضل اللهِ تعالى جزاءَ عملها، لكنَّ لها جَوَلاناً في ملك اللهِ تعالى حيث شاء جلَّ جلالُه، ولا يكون إلَّا بعد الإذن، وهي متفاوتةٌ في ذلك حَسَبَ تفاوتِها في القُرب والزُّلفَى من الله تعالى، حتى إنَّ بعضَ الأَرواح الطاهرةِ لَتظهر فيراها مَن شاء اللهُ تعالى من الأحياء يقظة، وإنَّ أرواحَ الموتى تتلاقَى وتتزاورُ وتتذاكر، وقد تتلاقى أرواحُ الأمواتِ والأحياءِ مناماً، ولا ينكر ذلك إلَّا مَن يجعل الرُّؤيا خيالاتٍ لا أصلَ لها، وذلك لا يُلتفت إليه، لكن لا ينبغي أن يُبنَى على ذلك حكمٌ شرعي؛ لاحتمال عدمِ الصحَّة وإنْ قامت قرينةٌ عليها.

وما صحَّ من أنَّ ثابتَ بن قيسِ بن شمَّاسٍ خرج مع خالد بن الوليد إلى حربِ مسيلمة، فاستشهد ﷺ، وكان عليه درعٌ نفيسة، فمرَّ به رجلٌ من المسلمين فأَخذها، فبينا رجلٌ من الجند نائم، إذ أتاه ثابتٌ في منامه فقال له: أُوصيك بوصيّة، فإيَّاك أن تقولَ: هذا حلم، فتضيِّعَه، إنِّي لما قُتلت أمس مرَّ بي رجلٌ من المسلمين فأخذ درعي، ومنزلُه في أَقصى الناس، وعند خِبائه فرسٌ يستنُّ في طِوَله(٣)، وقد كفأ على الدِّرع بُرمة وفوقَ البرمةِ رحل، فأتِ خالداً فمُره أن يبعثَ إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت المدينةَ على خليفة رسولِ الله ﷺ فقل له: إنَّ عليَّ من الدَّين كذا وكذا، وفلانٌ من رقيقي عتيق، فأتى الرجلُ خالداً فأخبره، فبعث إلى الدِّرع وأتى بها، وحدَّث أبا بكرٍ ﷺ برؤياه، فأجاز وصيَّته. وقد ذكر

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب: أحوال وأطوار.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أي: يعدو لمرحه ونشاطه ولا راكب عليه، والطِّوَل: الحبل الذي يطوَّل للدابة لترعى فيه.

ذلك ابنُ عبدِ البرِّ[١] وغيرُه = مجابٌ عنه بأنَّ ذلك كان بإجازة الوارث؛ وهي بنتُه، لغلبة ظنِّ صدقِ الرُّؤيا بما قام من القرينة، ولو لم تُجِزْ لم يَسُغ لأبي بكرٍ رضي الله عنه ذلك بمجرَّد الرؤيا. وقيل: إنَّ أبا بكر لم يرَ الردّ، ففعل ذلك من حصَّة بيتِ المال.

ومثلُ هذه القصَّةِ قصةُ الصعب[٢] بن جثَّامة وعوفِ بن مالك، وقد ذكرها ابن القيِّم في كتاب «الرُّوح»[٣] وهي أغربُ مما ذكر بكثير.

وربَّما يؤذَن لأرواح بعضِ الناس في زيارة أَهليهم، كما ورد في بعض الآثار، وبعضُ الأرواح تُحبس في قبرها أو حيث شاء اللهُ تعالى عن مقامها، كروح مَن يموت وعليه دَينٌ استدانه في محرَّم، لا مطلقاً كما هو المشهور، وتحقيقُه في «شرح الشَّمائل» للعلَّامة ابنِ حجر.

ثم اعلَمْ أنَّ اتِّصال الرُّوح بالبدن لا يختصُّ بجزءٍ دون جزء، بل هي متصلةٌ مشرقةٌ على سائر أجزائه، وإن تفرَّقت وكان جزءٌ بالمشرق وجزء بالمغرب، ولعل هذا الإشراقَ على الأجزاء الأصلية؛ لأنَّها التي يقوم بها الإنسانُ من قبره يومَ القيامةِ على ما اختاره جمع.

واعلم أيضاً أنَّ الروحَ على القول بتجرُّدها لا مستقرَّ لها، بل لا يقال: إنها داخلَ العالَم أو خارجَه، كما سمعتَ، وإنَّما المستقرُّ حينئذٍ للبدن الذي تتعلَّق به.

وقد نصَّ بعضُ الصوفيةِ على أنَّه لا مانعَ من أن تتعلَّقَ نفسٌ ببدنين فأكثر، بل هو واقعٌ عندهم، وذكر بعضُهم أنَّ أحدَ البدنين هو البدنُ الأصليّ، والآخر مثاليٌّ يظهر للعِيان على وجه خرقِ العادة. وقال آخر: إنَّ الآخرَ من باب تطوُّر الروحِ وظهورِها بصورة، على نحو ظهورِ جبريلَ عليه السلام بصورة دحيةَ الكلبيِّ[٤]، وظهورِ القرآنِ لحافظه بصورة الرجلِ الشاحبِ يومَ القيامة[٥].

---

(١) في الاستيعاب ٢/ ٧٣-٧٤، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٣٢٠)، والحاكم ٣/ ٢٣٥.
(٢) في (م): مصعب.
(٣) ص ٢٠ وأخرجها ابن أبي الدنيا في كتاب المنامات (٢٥).
(٤) أخرجه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وسلف ٣/ ٤٦.
(٥) أخرجه أحمد (٢٢٩٧٦)، وابن ماجه (٣٧٨١) من حديث بريدة رضي الله عنه، وسلف ٥/ ١٠٤.

والفلاسفةُ قالوا: لا يجوز أن تتعلَّق نفسٌ واحدة بأبدانٍ كثيرة؛ لأنَّه يلزم أن يكونَ معلومُ أحدِها معلومَ الآخَر ومجهولُ أحدِها مجهولَ الآخَر، ومعلومٌ أنَّ الأمرَ ليس كذلك. ولا يخفَى أنَّ هذا الدليلَ يدلُّ على أنَّ كلَّ إنسانَين يعلم أحدُهما ما لا يعلم الآخَر، فإنَّ نفسَهما متغايرتان، فلمَ لا يجوز وجودُ إنسانين يتعلَّق ببدنهما نفسٌ واحدة، ويكون كلُّ ما علمه أحدُهما علمه الآخَرُ لا محالة، وما يجهله أحدُهما يكون مجهولاً للآخَر، لا بدّ لعدم الجوازِ من دليل.

وعلى ما ذكره هؤلاء الصوفيةُ يجوز أن تتعلَّقَ الروحُ ببدنٍ في الجنة وببدنٍ آخَر حيث شاء اللهُ تعالى، بل يجوز أن تظهرَ في صورٍ شتَّى في أماكنَ متعدِّدة، على حدِّ ما قالوه في جبريلَ عليه السلام أنَّه في حال ظهورِه في صورة دِحيةَ أو أعرابيٍّ غيرِه بين يدي النبي ﷺ لم يفارق سِدرةَ المنتهى.

وأنت تعلمُ ما يقولون في تجلِّي الله تعالى في الصُّور، وسمعتَ خبرَ «إنَّ اللهَ تعالى خلق آدمَ على صورته»(١)، ومن هنا قالوا: مَن عرف نفسَه فقد عرف ربَّه، فافهم الإشارة، ولَعَمري هي عبارة.

ثم إنَّ أرواحَ سائرِ الحيوانات من البهائم ونحوِها قيل: تكون بعد المفارقةِ في الهواء ولا اتِّصال لها بالأبدان. وقيل: تُعدَم ولا يُعجِز اللهَ تعالى شيء.

ومِن الناس مَن قال: إنْ كان للحيوانات حشرٌ يوم القيامةِ كما هو المشهورُ الذي تقتضيه ظواهرُ الآياتِ والأخبار، فالأَوْلى أن يقالَ ببقاءِ أَرواحها في الهواء، أو حيث شاء اللهُ تعالى، وإنْ لم يكن لها حشر، كما ذهب إليه الغزاليُّ وأوَّلَ الظواهر، فالأَولى أن يقالَ بانعدامها.

هذا وبقيت أبحاثٌ كثيرة، تركناها لضيقِ القفص، واتِّساع دائرةِ الغصص، ولعلَّ فيما ذكرناه هنا مع ما ذكرناه فيما قبلُ كفايةً لأهل البداية، وهدايةً لمن ساعدته العناية، والله عزَّ وجلَّ وليُّ الكرمِ والجود، ومنه سبحانه بدءُ كلِّ شيءٍ وإليه جلَّ وعلا يعود.

---

(١) سلف ص٩١ من هذا الجزء، و٢/ ٩٠-٩١.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القرآنِ الذي هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين، والذي ثبَّتناك عليه حين كادوا يفتنونكَ عنه، إلى غير ذلك من أوصافه التي يُشعر بها السِّياق. وإنَّما عبَّر عنه بالموصول؛ تفخيماً لشأنه ووصفاً له بما في حيِّز الصلةِ ابتداءً، إعلاماً بحاله من أوَّل الأمر، وبأنَّه ليس من قَبيل كلامِ المخلوق.

واللامُ الأُولى موطِّئة للقسم، و«لنذهبن» جوابُه النائبُ منابَ جزاءِ الشرط، فهو مُغْنٍ عن تقديره، وليس جزاءً؛ لدخول اللامِ عليه، وهو ظاهر، وبذلك حَسُنَ حذفُ مفعولِ المشيئة.

والمرادُ بالذهاب به محوُه عن المصاحف والصُّدور، وهو أبلغُ من الإفعال، ويُراد على هذا من القرآن ـ على ما قيل ـ صورتُه، أعمُّ من أن تكونَ في نقوش الكتابة، أو في الصُّوَر التي في القوَّة الحافظة.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ أي: القرآنِ ﴿عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ أي: متعهِّداً وملتزماً استردادَه بعد الذهابِ به، كما يلتزم الوكيلُ ذلك فيما يتوكَّل عليه، حالَ كونِه متوقَّعاً أن يكونَ محفوظاً في السطور والصدورِ كما كان قبل، فالوكيلُ مجازٌ عما ذكر.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ استثناءٌ منقطع، على ما اختاره ابنُ الأنباريِّ وابنُ عطية[1] وغيرُهما، وهو مفسَّر بـ «لكنْ» في المشهور، والاستدراكُ ـ على ما صرَّح به الطِّيبيُّ وغيرُه، واقتضاه ظاهرُ كلامِ جمعٍ ـ عن قوله تعالى: (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ).

وقال في «الكشف»: إنَّه ليس استدراكاً عن ذلك؛ فإنَّ المستثنَى منه «وكيلاً» وهذا من المنقطع الممتنعِ إيقاعُه موقعَ الاسمِ الأوَّل الواجبِ فيه النصبُ في لغتَي الحجازِ وتميم، كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] في رأي، وقولهم: لا تكوننَّ من فلانٍ إلَّا سلاماً بسلام، فقد صرَّح الرَّضِيُّ وغيرُه بأنَّ الفريقين يوجبون النَّصب، ولا يجوِّزون الإبدالَ في المنقطع فيما لا يكون قبلَه اسمٌ يصحُّ حذفه، وكونُ ما نحن فيه من ذلك ظاهرٌ لمن له ذوق، والمعنى: ثم بعد الإذهابِ لا تجد مَن يتوكَّل علينا بالاسترداد، ولكن رحمةً من ربِّك تركتُه غيرَ

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٢.

مذهوب[١]، فلم تحتج إلى مَن يتوكَّل للاسترداد مأيوسٍ عنه بالفقدان المدلولِ عليه بـ «لا تجد»، والتغايرُ المعنويُّ بين الكلامين من دَلالة الأوَّل على الإذهاب ضمناً والثاني على خلافه حاصل، وهو كافٍ، فافهَم.

ويُفهِم صنيعُ البعضِ اختيارَ أنه استثناءٌ متصلٌ من «وكيلاً»، أي: لا تجد وكيلاً باسترداده إلَّا الرحمةَ، فإنك تجدها مستردَّة، وأنت تعلم أنَّ شمولَ الوكيلِ للرَّحمة يحتاج إلى نوع تكلُّف.

وقال أبو البقاءِ[٢]: إنَّ «رحمة» نصبٌ على أنه مفعولٌ له، والتقدير: حفظناه عليك للرَّحمة، ويجوز أن يكونَ نصباً على أنه مفعولٌ مطلق، أي: ولكن رحمناك رحمةً. انتهى. وهو كما ترى.

والآيةُ ـ على تقدير الانقطاع ـ امتنانٌ بإبقاء القرآنِ بعد الامتنانِ بتنزيله، وذكروا أنَّها على التقدير الآخَر دالَّة على عدم الإبقاء، فالمنَّةُ حينئذٍ إنَّما هي في تنزيله، ولا يخفَى ما فيه من الخفاء، وما يُذكَر في بيانه لا يَروي الغليل.

والآية ظاهرةٌ في أنَّ مشيئة الذَّهابِ به غيرُ متحقِّقة، وأنَّ فقدان المستردِّ إلَّا الرحمةَ إنَّما هو على فَرْض تحقُّق المشيئة، لكن جاءَ في الأخبار أنَّ القرآنَ يُذهَب به قبل يومِ القيامة، فقد أَخرج البيهقي، والحاكمُ وصحَّحه، وابنُ ماجه بسند قويٍّ عن حذيفةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدرُسُ الإسلامُ كما يَدرسُ وَشْيُ الثوب، حتى لا يُدرَى ما صيامٌ ولا صدقةٌ ولا نُسُك، ويُسرَى على كتاب اللهِ تعالى في ليلة، فلا يبقَى في الأرضِ منه آية، ويبقى الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ يقولون: أَدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلَّا الله، فنحن نقولها»[٣].

وأَخرج ابنُ مردويه عن ابن عباسٍ وابنِ عمرَ قالا: خطب رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، ما هذه الكتبُ التي بلغني أنَّكم تكتبونها مع كتاب الله تعالى، يوشك أن يغضبَ اللهُ تعالى لكتابه، فيُسرَى عليه ليلاً لا يُترَك في قلبٍ ولا ورقٍ منه

(١) في (م): منصوب، وهو خطأ.
(٢) في الإملاء ٣/ ٤٩٧.
(٣) الشعب ٢/ ٣٥٦، والمستدرك ٤/ ٤٧٣، وسنن ابن ماجه (٤٠٤٩).

حرفٌ إلَّا ذُهب به» فقيل: يا رسولَ الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات؟ قال: «مَن أراد اللهُ تعالى به خيراً أبقَى في قلبه لا إله إلا الله»[١].

وأَخرج ابنُ أبي حاتم، والحاكمُ وصحَّحه[٢] عن أبي هريرةَ قال: يُسرَى على كتاب اللهِ تعالى فيُرفع إلى السماءِ، فلا يبقَى في الأرض آيةٌ من القرآن ولا من التوراة والإنجيل والزَّبور، فيُنزع من قلوب الرِّجال، فيصبحون في الضَّلالة لا يدرون ما هم فيه.

وأخرج الدَّيلميُّ عن ابن عمرو[٣] مرفوعاً: «لا تقوم الساعةُ حتى يرجعَ القرآنُ من حيث جاء، له دويٌّ حول العرشِ كدويِّ النحل، فيقول الله عزَّ وجلّ: ما لَكَ؟ فيقول: منك خرجتُ وإليك أعود، أُتلَى ولا يُعمل بي» وأَخرج محمدُ بن نصرٍ نحوَه موقوفاً عن عبد اللهِ بن عَمرو بنِ العاص.

وأَخرج غيرُ واحدٍ عن ابن مسعودٍ أنَّه قال: سيُرفع القرآنُ من المصاحف والصُّدور، ثم قرأ: (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ) الآية، وفي «البهجة» أنَّه يُرفَع أولاً من المصاحف، ثم يرفع لأعجلِ زمنٍ من الصدور.

والذاهبُ به هو جبريلُ عليه السلام، كما أَخرجه ابنُ أبي حاتمٍ من طريق القاسمِ بن عبدِ الرَّحمن، عن أبيه، عن جدِّه[٤]. فيا لَها من مصيبةٍ ما أعظَمَها، وبليَّةٍ ما أوخمَها، فإن دلَّت الآيةُ على الذهاب به، فلا منافاةَ بينها وبين هذه الأخبار، وإذا دلَّت على إبقائه، فالمنافاةُ ظاهرة، إلَّا أن يقال: إنَّ الإبقاءَ لا يستلزم الاستمرار، ويكفي فيه إبقاؤه إلى قُرب قيامِ الساعة، فتدبَّر.

وممَّا يرشد إلى أنَّ سَوق الآيةِ للامتنان قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ﴾ لم يزل ولا يزال ﴿عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ ومنه إنزالُ القرآن، واصطفاؤه على جميعِ الخلق، وختمُ الأنبياءِ عليهم السلام به، وإعطاؤه المقامَ المحمود، إلى غير ذلك.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٠١-٢٠٢، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٧٥١٤).
(٢) في المستدرك ٤/ ٥٠٦ وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٠١.
(٣) في الأصل و(م): عمر، والمثبت في مسند الفردوس (٧٥١٣) وهو الصواب، فإنه من طريق أبي قبيل (واسمه حيي بن هانئ) عن عبد الله بن عمرو به، وينظر تهذيب الكمال ٧/ ٤٩١.
(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٠٢.

وقال(١) أبو سهل إلى أنَّها سيقت لتهديد غيرِه ﷺ بإذهاب ما أُوتوا ليصدَّهم عن سؤال ما لم يؤتَوا، كعلم الرُّوح وعلمِ الساعة.

وقال صاحبُ «التحرير»: يحتمل أن يقال: إنَّه ﷺ لمَّا سئل عن الرُّوح وذي القَرنين وأهلِ الكهف وأبطأ عليه الوحي، شقَّ عليه ذلك، وبلغ منه الغايةَ، فأنزل الله تعالى هذه الآيةَ تسكيناً له ﷺ والتقدير: أيعِزُّ عليك تأخُّر الوحي، فإنَّا إن شئنا ذهبنا بما أَوحينا إليك جميعِه، فسكن ما كان يجدُه ﷺ وطاب قلبُه. انتهى، وكلا القولَين كما ترى.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ أي: اتَّفقوا ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنعوتِ بما لا تُدركه العقولُ من النُّعوت الجليلةِ الشأن، من البلاغة وحسنِ النَّظم وكمالِ المعنى.

وتخصيصُ الثقلينِ بالذِّكر لأنَّ المنكِر لكونه من عند اللهِ تعالى منهما لا من غيرهما، والتحدِّي إنَّما كان معهما وإنْ كان النبيُّ ﷺ مبعوثاً إلى المَلَك كما هو مبعوثٌ إليهما، لا لأنَّ غيرَهما قادرٌ على المعارضة، فإنَّ الملائكةَ عليهم السلام ـ على فَرْض تصدِّيهم لها وحاشاهم؛ إذ هم معصومون لا يفعلون إلَّا ما يؤمرون ـ عاجزونَ كغيرهم.

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أي: هذا القرآنِ. وأُوثر الإظهار على إيراد الضميرِ الراجعِ إلى المثل المذكور؛ احترازاً عن أن يتوهَّم أنَّ له مثلاً معيَّناً، وإيذاناً بأنَّ المراد نفيُ الإتيانِ بمثلٍ مَّا، أي: لا يأتون بكلامٍ مماثلٍ له فيما ذكر من الصِّفات الجليلةِ الشأن وفيهم العربُ العرباءُ أربابُ البراعةِ والبيان.

وقيل: المرادُ تعجيزُ الإنس، وذِكرُ الجنِّ مبالغةٌ في تعجيزهم؛ لأنَّهم إذا عجزوا عن الإتيان بمثله ومعهم الجنُّ القادرون على الأفعال المستغرَبة، فهم عن الإتيان بمثله وحدَهم أَعجز. وليس بذاك.

وقيل: يجوز أن يرادَ من الجنِّ ما يشمل الملائكةَ عليهم السلام، وقد جاءَ

(١) كذا في الأصل و(م)، وهو وهم من المصنف رحمه الله، والصواب: وذهب...، ينظر البحر ٦/ ٧٦.

إطلاقُ الجنِّ على الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات:١٥٨] نعم الأكثرُ استعمالُه في غير الملائكة عليهم السلام. ولا يخفى أنَّه خلاف الظاهر.

وزعم بعضُهم أن الملائكةَ عليهم السلام حيث كانوا وسائطَ في إتيانه لا ينبغي إدراجُهم؛ إذ لا يلائمه حينئذٍ «لا يأتون بمثله». وفيه أنَّه ليس المرادُ نفيَ الإتيان بمثله من عند اللهِ تعالى في شيءٍ ممن أُسند إليهم الفعل.

وجملةُ «لا يأتون» جوابُ القسمِ الذي ينبئُ عنه اللامُ الموطِّئةُ، وسادٌّ مسدَّ جزاءِ الشرط، ولولاها لكان «لا يأتون» جزاءَ الشرطِ وإن كان مرفوعاً بناءً على القول بأنَّ فعلَ الشرطِ إذا كان ماضياً يجوز الرفعُ في الجواب، كما في قول زهير:

وإنْ أتاه خليلٌ يومَ مسغبةٍ يقول لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ[1]

لأنَّ أداةَ الشرطِ إذا لم تؤثِّر في الشَّرط ظاهراً مع قُربه، جاز ألَّا تؤثِّرَ في الجواب مع بُعده. وهذا القولُ خلافُ مذهبِ سيبويه ومذهبِ الكوفيِّين والمبرِّدِ كما فصِّل في موضعه[2].

ولا يجوز عند البصريِّين مع وجودِ هذه اللامِ جعلُ المذكورِ جوابَ الشرطِ خلافاً للفرَّاء[3]، وأمَّا قولُ الأعشى:

لَئن مُنيتَ بنا عن غِبِّ معركةٍ لا تُلفِنا عن دماء الخلقِ ننتفلُ[4]

فاللامُ ليست الموطِّئة، بل هي زائدةٌ على ما قيل، فافهم.

وحيث كان المرادُ بالاجتماع على الإتيان بمثل القرآنِ مطلقَ الاتفاقِ على ذلك، سواءٌ كان التصدِّي للمعارضة من كلِّ واحدٍ منهم على الانفراد، أو من المجموعِ بأن يتألَّبوا على تلفيق كلامٍ واحدٍ بتلاحق الأفكارِ وتعاضدِ الأنظار = قال

(١) ديوان زهير ص ١٥٣.
(٢) انظر ٢/ ٣٦٣.
(٣) انظر معاني القرآن ٢/ ١٣٠-١٣١.
(٤) ديوان الأعشى ص ١١٣.

سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ أي: مُعِيناً في تحقيق ما يتوخَّونه من الإِتيان بمثله.

والجملة عطفٌ على مقدَّر، أي: لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضُهم لبعضٍ ظهيراً ولو كان... إلخ. وهي في موضع الحالِ كالجملة المحذوفة، والمعنى: لا يأتون بمثله على كلِّ حالٍ مفروض، ولو في مثل هذه الحالِ المنافيةِ لعدم الإتيان به فضلاً عن غيرها. وفيه ردٌّ لليهود أو قريش في زعمهم الإتيانَ بمثله، فقد رُوي أنَّ طائفةً من الأوَّلين قالوا: أَخبِرنا يا محمدُ بهذا الحقِّ الذي جئتَ به، أحقٌّ من عند اللهِ تعالى؟ فإنَّا لا نراه متناسقاً كتناسق التَّوراة، فقال ﷺ لهم: «أمَا واللهِ إنَّكم لتعرفونه أنَّه من عند اللهِ تعالى» قالوا: إنَّا نجيئك بمثلِ ما تأتي به، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية(١).

وفي روايةٍ أنَّ جماعةً من قريشٍ قالوا له ﷺ: جئنا بآية غريبةٍ غيرِ هذا القرآن، فإنَّا نحن نقدر على المجيءِ بمثله، فنزلت. ولعل مرادَهم بهذه الآيةِ الغريبةِ ما تضمَّنه الآياتُ بعد، وهي قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ إلخ، وحينئذٍ قيل: يمكن أن تكونَ هذه الآيةُ مع الآياتِ الأُخر ردًّا لجميع ما عَنَوه بهذا الكلام، إلَّا أنَّه ابتدأ بردِّ قولهم: نحن نقدر.. إلخ، اهتماماً به، فإنَّ قولَهم ذلك منشأُ طلبهم الآيةَ الغريبة.

وفي «إرشاد العقلِ السليم»(٢) أنَّ في هذه الآيةِ حسمَ أطماعِهم الفارغةِ في رَوم تبديلِ بعض آياتِه ببعض، ولا مساغَ لكونها تقريراً لمَا قبلها من قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ كما قيل، لكن لا لِمَا قيل من أنَّ الإتيانَ بمثله أصعبُ من استرداد عينِه ونفيُ الشيءِ إنَّما يقرِّره نفي ما دونه دونَ نفي ما فوقه؛ لأنَّ أصعبيةَ الاستردادِ بغير أمرِهِ تعالى من الإتيان المذكورِ ممَّا لا شبهةَ فيه، بل لأنَّ الجملةَ القَسَمية ليست مسوقةً إلى النبيِّ ﷺ، بل إلى المكابرين من قَبلِه عليه الصلاة والسلام. انتهى.

ومنه يُعلَم ما في قول بعضِهم في وجهِ التقرير: إنَّ عدم قدرةِ الثَّقلين على ردِّه بعد إذهابه مساوٍ لعدم قدرتِهم على مثله؛ لأنَّ ردَّه بعينه غيرُ ممكن، لعدم وصولِهم

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٧٦ مطولاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) ٥/ ١٩٤.

إلى الله تعالى شأنُه، فلم يبقَ إلَّا ردُّه بمثله، فصرَّح بنفيه تقريراً له من النَّظر وعدمِ الجدوى.

هذا واستدلَّ صاحبُ «الكشَّاف»[١] بإعجاز القرآنِ على حدوثه؛ إذ لو كان قديماً لم يكن مقدوراً، فلا يكونُ معجزاً، كالمحال. وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّه لا نزاعَ في حدوث النَّظمِ ـ وإن تحاشَى أهلُ السنةِ من إطلاق المخلوقِ عليه للإيهام ـ وهو المعجز، إنَّما النزاعُ في المعبَّر بهذه العبارةِ المعجزة، وهو المسمَّى بالكلام النفسيّ، فهو استدلالٌ لا ينفعه. وذكر نحوَه ابنُ المنير[٢].

وقال صاحبُ «التقريب»: الجوابُ منعُ الملازمة؛ إذ مصحِّح المقدوريةِ الإمكانُ، وهو حاصلٌ، لا الحدوث، وأيضاً المعجزُ لفظُه، ولا يقال بقِدَمه، والقديمُ كلامُ النفس، ولا يقال بإعجازه، وأيضاً سلَّمنا أنَّ القديمَ لا يقدر البشرُ على عينه، لكن لم لا يقدر على مِثله.

واختار العلَّامةُ الطيبيُّ هذا الأخيرَ في الجواب، وقد ذكرنا في المقدِّمات من الكلام ما ينفعكَ في هذا المقام، فتدبَّر، واللهُ تعالى وليُّ الإنعام، ومسدِّد الأفهام.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كرَّرنا وردَّدنا على أساليبَ مختلفةٍ توجب زيادةَ تقريرٍ ورسوخ ﴿لِلنَّاسِ﴾ أهلِ مكةَ وغيرِهم، كما هو الظاهرُ ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنعوتِ بما ذُكر من النعوتِ الفاضلة ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كلِّ معنًى بديع، هو في الحُسن والغرابةِ واستجلابِ النُّفوس كالمثل.

ومفعولُ «صرفنا» ـ على ما استظهره أبو حيَّان[٣] ـ محذوف، أي: البيانَ، وقدَّره البيناتِ والعِبرَ، و«مِن» لابتداء الغاية، وجوَّز ابن عطية[٤] أن تكونَ سيفَ خطيب، فـ «كل» هو المفعول، وهذا مبنيٌّ على مذهب الكوفيِّين والأخفش؛ لأنَّهم يجوِّزون زيادةَ مِن في الإيجاب دون جمهورِ البصريين.

(١) ٢/ ٤٦٥.
(٢) في الانتصاف ٢/ ٤٦٥.
(٣) في البحر ٦/ ٧٩.
(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٤.

وقرأ الحسن: «صَرَفنا» بتخفيف الراءِ(١)، وقراءةُ الجمهورِ أبلغ.

وأيًّاما كان، فالمرادُ: فعلنا ذلك للنَّاس ليُذعنوا ويتلقَّوه بالقَبول ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾﴾ أي: جحوداً، وفسِّر به لثبوت الصِّدق بأصل الإعجاز.

والمرادُ بالناس المذكورون أولاً، وأُوثر الإظهارُ على الإضمار تأكيداً وتوضيحاً، والمرادُ بالأكثر قيل: مَن كان في عهده ﷺ من المشركين وأهلِ الكتاب. واستظهر في «البحر»(٢) أنَّهم أهلُ مكة، بدليل أنَّ الضمائرَ الآتيةَ لهم.

ونصب «كفوراً» على أنَّه مفعولُ «أبى»، والاستثناءُ مفرَّغ، وصحَّ ذلك هنا مع أنَّه مشروطٌ بتقدُّم النفي ـ فلا يصحّ: ضربتُ إلَّا زيداً ـ لأنَّ «أبى» قريبٌ من معنى النفي، فهو مؤوَّل به، فكأنَّه قيل: ما قَبِل أكثرهم إلَّا كفوراً، وفيه من المبالغة ما ليس في: أَبوا الإيمان؛ لأنَّ فيه زيادةً على أنهم لم يرضَوا بخصلةٍ سوى الكفرِ من الإيمان والتوقُّفِ في الأمر ونحوِ ذلك، وأنَّهم بالغوا في عدم الرِّضا حتى بلغوا مرتبةَ الإباء، وإنَّما لم يَجُز ذلك في الإثباتِ لفساد المعنى، إذ لا قرينةَ على تقديرِ أمرٍ خاصّ، والعمومُ لا يصحّ، إذ لا يمكن في المثال أن تضربَ كلَّ أحدٍ إلَّا زيداً، فإن صحّ العمومُ في مثال، جاز التفريغُ في غير تأويلٍ بنفي، فيجوز: صلَّيتُ إلَّا يومَ كذا، إذ يجوز أن تصلِّي كلَّ يوم غيرَه. وجوِّز أن تكونَ الآيةُ من هذا القَبيل، بأن يكونَ المراد: أَبوا كلَّ شيءٍ فيما اقترحوه إلَّا كفوراً.

﴿وَقَالُواْ﴾ عند ظهورِ عجزِهم ووضوحِ مغلوبيَّتهم بالإعجاز التنزيليِّ وغيرِه من المعجزاتِ الباهرة، متعلِّلين بما لا تقتضي الحكمةُ وقوعَه من الأمور، ولا توقُّفَ لثبوت المدَّعى عليه، وبعضُه من المحالاتِ العقلية: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ﴾ بالتخفيف من باب نَصَرَ المتعدِّي، وبذلك قرأ الكوفيُّون(٣)، أي: تفتح، وقرأ باقي السبعة: «تفجِّرَ» من فجَّر مشدَّداً، والتضعيفُ للتكثير لا للتعدية.

---

(١) البحر المحيط ٦/٧٩.
(٢) ٦/٧٩.
(٣) التيسير ص ١٤١، والنشر ٢/٣٠٨.

وقرأ الأعمشُ وعبد اللهِ بنُ مسلم بنِ يسار: «تُفْجِرَ»[1] من أفجر رباعيًا، وهي لغةٌ في فجر.

﴿لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مكَّة؛ لقلَّة مياهها، فالتعريف عهديّ ﴿يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾ مفعولٌ من: نَبَعَ الماءُ، كيَعبُوب، من عبَّ الماءُ، إذا زخر وكثر موجُه، فالياءُ زائدةٌ للمبالغة، والمراد: عيناً لا ينضُب ماؤها.

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن السُّدِّي أنَّ الينبوعَ هو النهرُ الذي يجري من العين[2]، والأولُ مرويٌّ عن مجاهد، وكفى به.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ﴾ خاصَّة ﴿جَنَّةٌ﴾ بستانٌ تستر أشجارُها ما تحتها من العَرصة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ خصُّوهما بالذِّكر لأنَّهما كانا الغالبَ في هاتيك النَّواحي مع جلالة قَدْرِهما ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ أي: تُجريها ﴿خِلَـٰلَهَا﴾ نصبٌ على الظرفية، أي: وَسْطَ تلك الجنةِ وأثناءها ﴿تَفْجِيرًا ۝٩١﴾ كثيراً. والمراد: إمَّا إجراءُ الأنهارِ خلالَها عند سقيها، أو إدامةُ إجرائها كما يُنبئ الفاء.

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾ الجِرمَ المعلوم ﴿كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ جمع كِسْفة، كقِطعة وقِطَع، لفظاً ومعنًى، وهو حالٌ من السماء.

والكافُ في «كما» في محلِّ النصبِ على أنَّه صفةُ مصدرٍ محذوف، أي: إسقاطاً مماثلاً لما زعمت، يعنُون بذلك قولَه تعالى: ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩].

وزعم بعضُهم أنَّهم يعنون ما في هذه السورةِ من قولِه تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الآية: ٦٨] وليس بشيءٍ.

وقيل: إنَّ المعنى: كما زعمت أنَّ ربَّك إن شاءَ فعل. وسيأتي ذلك إن شاء اللهُ تعالى في خبر ابنِ عباس.

وقرأ مجاهد: «يَسقطَ السماءُ» بياء الغَيبة ورفعِ «السماء»[3].

---

(١) البحر ٦/ ٧٩.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٠٣.

(٣) القراءات الشاذة ص ٧٧، والبحر ٦/ ٧٩.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو وحمزةُ والكِسائيُّ ويعقوب: «كِسْفاً» بسكون السينِ في جميع القرآن إلَّا في «الرُّوم»، وابنُ عامر إلَّا في هذه السُّورة، ونافعٌ وأبو بكرٍ في غيرهما، وحفصٌ فيما عدا «الطُّور»، في قول. وفي «النَّشر»(١) أنَّهم اتَّفقوا على إسكان السينِ في «الطور» وهو إمَّا مخفَّف من المفتوح؛ لأنَّ السكونَ من الحركة مطلقاً، كسِدْر وسِدَر، أو هو فِعْلٌ صفةٌ بمعنى مفعول، كالطِّحْن بمعنى المطحون، أي: شيئاً مكسوفاً، أي: مقطوعاً.

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ أي: مقابِلاً، كالعشير والمعاشِر. وأرادوا ـ كما أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباس ـ عياناً(٢)، وهذا كقولهم: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وفي روايةٍ أخرى عن الحَبر والضحَّاك تفسيرُ القبيلِ بالكفيل، أي: كفيلاً بما تدَّعيه، يعنون شاهداً يشهد لك بصحَّة ما قلته، وضماناً يضمن ما يترتَّب عليه، وهو على الوجهَين حالٌ من الجلالة، وحالُ «الملائكةِ» محذوفةٌ لدَلالة الحالِ المذكورةِ عليها، أي: قُبَلاء، كما حُذف الخبرُ في قوله:

ومن يكُ أمسى في المدينة رحلُه ... فإني وقيَّارٌ بها لغريبُ(٣)

وذكر الطبرسيُّ عن الزجَّاج أنَّه فسَّر «قبيلاً» بـ: مقابلةً ومعاينة، وقال: إنَّ العربَ تُجريه في هذا المعنى مُجرَى المصدر، فلا يثنَّى ولا يُجمع ولا يؤنَّث(٤)، فلا تغفُل.

وعن مجاهد: القبيلُ الجماعةُ كالقبيلة، فيكون حالاً من «الملائكة».

وفي «الكشف» جعله حالاً من الملائكة لقُرب اللفظ وسدادِ المعنى؛ لأنَّ المعنى: تأتي بالله تعالى وجماعةٍ من الملائكة، لا: تأتي بهما جماعةً، ليكون حالاً

---

(١) ٢/ ٣٠٩.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٠٣.

(٣) قائله ضابئ بن الحارث البرجمي، كما في الكتاب ١/ ٧٥، والحماسة البصرية ٢/ ٥٦، والخزانة ١٠/ ٣١٢-٣٢٠، وسلف ٧/ ١٨٣، ٣٣٦.

(٤) مجمع البيان ١٥/ ٩٧، وانظر معاني القرآن للزجاج٣/ ٢٥٩-٢٦٠.

على الجمع، إذ لا يراد معنى المعيةِ معه تعالى، أَلَا ترى إلى قولهِ سبحانه حكايةً عنهم: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] والقرآنُ يفسِّر بعضُه بعضاً. انتهى.

وقرأ الأعرج: «قِبَلاً»[١] من المقابلة. وهذا يؤيِّد التفسيرَ الأوَّل.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ من ذهب، كما رُوي عن ابن عباسٍ وقتادةَ وغيرِهما، وأصلُه الزينة، وإطلاقُه على الذهب؛ لأنَّ الزينةَ به أرغبُ وأعجب.

وقرأ عبدُ الله: «من ذهب»، وجعل ذلك في «البحر»[٢] تفسيراً لا قراءة؛ لمخالفته سوادَ المصحف.

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعد في معارجها، فحذف المضاف، يقال: رقَى في السُّلَّم والدرجة، والظاهرُ أنَّ السماءَ هنا المُظِلَّة.

وقيل: المرادُ المكانُ العالي، وكلُّ ما ارتفع وعلا يسمَّى سماءً، قال الشاعر:

وقد يسمَّى سماءً كلُّ مرتفعٍ وإنَّما الفضلُ حيث الشمسُ والقمرُ[٣]

﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي: لأجل رقيِّك فيها وحدَه، أو لن نصدِّقَ رقيَّك فيها ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ﴾ منها ﴿عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ بلُغتنا على أُسلوب كلامِنا وفيه تصديقُك.

﴿قُلْ﴾ تعجُّباً من شدَّة شكيمتهم، وفَرطِ حماقتهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أو قل ذلك تنزيهاً لساحة الجلالِ عمَّا لا يكاد يليقُ بها من مِثل هذه الاقتراحات، التي تضمَّنت ما هو من أَعظمُ المستحيلات، كإتيان اللهِ تعالى على الوجه الذي اقترحوه، أو عن طلبِ ذلك. وفيه تنبيهٌ على بطلانِ ما قالوه.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وابن عامر: «قال سبحانَ ربِّي»[٤] أي: قال النبيُّ ﷺ.

﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ كسائر الرُّسلِ عليهم السلام، وكانوا لا يأتون

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٨٠.
(٢) ٦/ ٨٠.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٨٠، وزهر الأكم ٢/ ٩٠ دون نسبة، ونسبه العماد الكاتب في الخريدة (٢/ ١١٧ قسم شعراء المغرب) إلى ابن اللبانة الداني الأندلسي.
(٤) التيسير ص ١٤١، والنشر ٢/ ٣٠٩.

قومَهم إلَّا بما يُظهره اللهُ تعالى على أيديهم حَسْبما تقتضيه الحِكمة، من غير تفويضٍ إليهم فيه، ولا تحكُّمٍ منهم عليه سبحانه.

و«بشراً» خبرُ كان، و«رسولاً» صفتُه، وهو معتمدُ الكلام، وكونُه بشراً توطئةٌ لذلك، ردًّا لما أنكروه من جواز كونِ الرَّسول بشراً، ودلالةً على أنَّ الرسلَ عليهم السلام من قبلُ كانوا كذلك، ولهذا قال الزمخشريّ[1]: هل كنتُ إلَّا رسولاً كسائر الرسلِ بشراً مثلَهم.

وزعم بعضٌ أنَّ ذِكرَ «بشراً» ليس للتَّوطئة، فإنَّ طلب القومِ منه عليه الصلاة والسلام ما طلبوه يحتمل أن يكونَ طلبَ أن يأتيَ به بقدرة نفسِه ﷺ، ويحتمل أن يكونَ طلبَ أن يأتيَ به بقدرة اللهِ تعالى، فذكر «بشراً» لنفي أن يأتيَ بذلك بقدرة نفسِه، كأنَّه قال: هل كنتُ إلَّا بشراً، والبشرُ لا قدرةَ له على الإتيانِ بذلك، وذَكَرَ «رسولاً» لنفي أن يأتيَ به بقدرة اللهِ تعالى، كأنَّه قيل: هل كنتُ إلَّا رسولاً والرسولُ لا يتحكَّم على ربِّه سبحانه.

وتعقِّب بأنَّ هذا مع ما فيه من مخالفةِ الآثارِ ـ كما ستعلمه قريباً إن شاءَ اللهُ تعالى ـ ظاهرٌ في جعل الاسمين خبرَين، وهو مما يأباه الذَّوقُ السليم.

وقال الخَفاجي[2]: إنَّ كونَ الاسمين خبرين غيرُ متوجِّه؛ لأنَّه يقتضي استقلالَهما، وأنَّهم أنكروا كلًّا منهما حتى ردَّ عليهم بذلك، ولم يُنكِر أحدٌ بشريَّته ﷺ.

وتعقِّب بأنَّهم لمَّا طلبوا منه عليه الصلاة والسلام ما لا يتأتَّى من البشر، كالرُّقيِّ في السماءِ، كانوا بمنزلة مَن أنكر بشريَّته. وهو كما ترى.

وجوَّز بعضُهم كونَ «بشراً» حالاً من النكرة، وسوَّغ ذلك تقدُّمُه عليها، وهو ركيك؛ لأنَّه يقتضي أن له ﷺ حالاً آخَرَ غيرَ البشرية، ولا يقول بذلك أحد، اللهم إلَّا أن يكونَ من الوجودية.

هذا والظاهرُ اتِّحاد القائلِ لجميع ما تقدَّم، ويحتمل عدمَ الاتِّحاد، بأن يكونَ

---

(١) في الكشاف ٦/ ٦١.
(٢) في حاشيته ٦/ ٦١.

بعضٌ اقترح شيئاً وبعضٌ آخَرُ اقترح آخَرَ، لكن نُسب القولُ إلى الجميع لرضا كلٍّ بما اقترح الآخر.

وأخرج سعيد بنُ منصور وغيرُه عن ابن جُبيرٍ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ إلخ نزل في عبد اللهِ بن أبي أمية، وهو ظاهرٌ في أنَّه القائل، ولا يعكِّر عليه ضميرُ الجمع؛ لِمَا أشرنا إليه.

وأخرج ابنُ إسحاق وجماعةٌ عن ابن عباسٍ ﷺ: أنَّ عتبة وشيبةَ ابنَي ربيعة، وأبا سفيانَ بنَ حرب، والأسودَ بن المطلب، وزمعةَ بنَ الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهلٍ، وعبدَ اللهِ بنَ أبي أمية، وأمية بن خلف، وناساً آخَرين اجتمعوا بعد غروبِ الشَّمس عند الكعبة، فقال بعضُهم لبعض: ابعثوا إلى محمدٍ فكلِّموه حتى تُعذِروا فيه، فبعثوا إليه، فجاءهم ﷺ سريعاً وهو يظنُّ أنَّهم قد بدا لهم في أمره بَداء، وكان عليهم حريصاً، يحبُّ رُشدَهم ويَعِزُّ عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمَّد، إنَّا قد بعثنا إليك لنُعذِرَك، وإنَّا واللهِ ما نعلم رجلاً من العربِ أدخلَ على قومه ما أَدخلتَ على قومك، لقد شتمتَ الآباء، وعِبت الدِّين، وسفَّهت الأَحلام، وشتمت الآلهة، وفرَّقت الجماعة، فما بقي من قبيحٍ إلَّا وقد جئتَه فيما بيننا وبينك، فإن كنتَ إنَّما جئت بهذا الحديثِ تطلب مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكونَ أكثرَنا مالاً، وإن كنتَ إنَّما تطلب الشرفَ فينا، سوَّدناك علينا، وإنْ كنت تريد ملكاً، ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيكَ بما يأتيك رئيًّا تراه قد غلب عليك، بذلنا أَموالَنا في طلب الطبِّ، حتى نُبرئَك منه أو نُعذِرَ فيك. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتُكم بما جئتكم به أَطلب أموالَكم ولا الشرفَ فيكم ولا الملكَ عليكم، ولكنَّ اللهَ تعالى بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكونَ لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغتُكم رسالةَ ربِّي ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظُّكم في الدُّنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ، أَصبر لأمرِ اللهِ تعالى حتى يَحكمَ اللهُ تعالى بيني وبينكم». فقالوا: يا محمَّد، فإنْ كنتَ غيرَ قابلٍ منَّا ما عرضنا عليك، فقد علمتَ أنَّه ليس أحدٌ من الناس أضيقَ بلاداً ولا أقلَّ مالاً ولا أشدَّ عيشاً منا، فاسأل ربَّك الذي بعثكَ بما بعثك به فليسيِّر عنا هذه الجبالَ التي ضيَّقَت علينا، وليَبسُط لنا بلادنا، وليُجرِ فيها أنهاراً كأنهار الشامِ

والعراق، ولْيبعثْ لنا مَن قد مضَى من آبائنا، وليكن فيمن يبعثُ لنا منهم قصيُّ بن كلاب، فإنَّه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول حقٌّ هو أم باطل، فإنْ صنعتَ ما سألناك وصدَّقوك صدَّقناك وعرفنا به منزلتَك عند اللهِ تعالى، وأنَّه بعثك رسولاً. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما بهذا بُعثت، إنَّما جئتكم من عند اللهِ تعالى بما بعثني به، فقد بلَّغتكم ما أُرسلت به إليكم، فإنْ تقبلوه فهو حظُّكم في الدُّنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليّ، أَصبرْ لأمر اللهِ تعالى حتى يحكم اللهُ تعالى بيني وبينكم» قالوا: فإنْ لم تفعلْ لنا هذا، فخذ لنفسك، فاسأل ربَّك أن يبعثَ مَلَكاً يصدِّقك بما تقول، فيراجعنا عنكَ، وتسأله أن يجعلَ لك جِناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهبٍ وفضة، ويُغنيك بها عمَّا نراك تبتغي، فإنَّك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاشَ كما نلتمسه، حتى نعرفَ منزلتَك من ربِّك إن كنتَ رسولاً كما تزعم. فقال ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكنَّ اللهَ تعالى بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتُكم به، فهو حظُّكم في الدُّنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليّ، أَصبرْ لأمر اللهِ تعالى حتى يحكمَ اللهُ تعالى بيني وبينكم» قالوا: فتُسقط السماءَ كما زعمتَ أنَّ ربَّك إن شاء فعل، فإنَّا لن نؤمنَ لك إلَّا أن تفعل. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «ذلك إلى اللهِ تعالى، إنْ شاءَ فعل بكم ذلك» فقالوا: يا محمَّد، فاعلم[1] ربَّك أنَّا سنجلس معك ونسألُك عمَّا سألناك عنه ونطلبُ منك ما نطلب، فيتقدَّم إليك ويُعلِّمك ما تراجعنا به، ويُخبرك بما هو صانعٌ في ذلك بنا إذا لم نقبلْ منك ما جئتَنا به، فقد بلغنا أنَّه إنما يعلِّمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له: الرَّحمن، وإنَّا واللهِ لا نؤمن بالرَّحمن أبداً، فقد أَعذرنا إليك يا محمد، أَمَا واللهِ لا نتركك وما فعلتَ بنا حتى نُهلكَك أو تُهلكَنا، وقال قائلُهم: لن نؤمنَ لك حتى تأتي بالله والملائكةِ قبيلاً، فلمَّا قالوا ذلك، قام رسولُ اللهِ ﷺ عنهم، وقام معه عبدُ اللهِ بنُ أبي أميةَ فقال: يا محمد، عَرَضَ عليك قومُك ما عرضوا، فلم تقبلْه منهم، ثم سألوكَ لأنفسهم أموراً يتعرَّفوا بها منزلتَك من اللهِ تعالى، فلم تفعلْ، ثم سألوك أن تعجِّلَ ما تخوِّفهم به من العذاب، فواللهِ لا نؤمن بك أبداً حتى تتخذَ إلى السماءِ

(١) كذا في الأصل و(م) والسير لابن إسحاق ص ١٩٩، ولعلها محرفة عن: فما علم. كما في تفسير الطبري ١٥/ ٨٩، وجاء في سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٧، وتفسير القرطبي ١٣/ ١٧٤: أفما علم.

سلَّماً، ثم ترقَى فيه وأنا أنظر، حتى تأتيَها وتأتيَ معك بنسخة منشورةٍ معك بأربعةٍ من الملائكةِ يشهدون لك أنَّك كما تقول، وايمُ اللهِ لو فعلتَ ذلك لَظننتُ أني لَأصدِّقك. ثم انصرف، وانصرف رسولُ اللهِ ﷺ إلى أهله حزيناً أَسفاً لِمَا فاته ممَّا كان طَمِعَ فيه من قومه حين دَعَوه ولِمَا رأى من مباعدتهم، فأُنزل عليه هذه الآياتُ وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ﴾ الآية [الرعد: ٣٠] وقولُه سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية [الرعد: ٣١]. اهـ. واللهُ تعالى أعلم.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: الذين حُكيت أباطيلُهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ مفعولُ «مَنَعَ»، وقولُه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ظرفُ «منع»، أو «يؤمنوا»، أي: ما منعهم وقتَ مجيءِ الوحي المقرونِ بالمعجزات المستدعيةِ للإيمان أنْ يؤمنوا بالقرآن وبنبوَّتك، أو: ما منعهم أن يؤمنوا وقتَ مجيءِ ما ذُكر ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ فاعل «منع»، أي: إلَّا قولُهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ منكرين أن يَكونَ رسولُ اللهِ عليه الصلاة والسلام من جِنس البشر.

وليس المرادُ أنَّ هذا القولَ صدر عن بعضٍ فمنع آخَرين، بل المانعُ هو الاعتقادُ الشاملُ للكلِّ المستتبعُ لهذا القولِ منهم. وإنَّما عبَّر عنه بالقول، إيذاناً بأنه مجرَّد قولٍ يقولونه بأفواههم، من غير أن يكونَ له مفهومٌ ومصداق.

وحَصْرُ المانعِ فيما ذُكر مع أنَّ لهم موانعَ شتَّى؛ لِمَا أنَّه معظمُها، أو لأنَّه هو المانعُ بحسب الحال، أعني عند سماعِ الجوابِ بقوله تعالى: (هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا) إذ هو الذي يتشبَّثون به حينئذٍ من غير أن يخطرَ ببالهم شبهةٌ أخرى من شُبَهِهم الواهية، وفيه ـ على هذا ـ إيذانٌ بكمال عنادِهم، حيث يشير إلى أنَّ الجوابَ المذكورَ مع كونه حاسماً لموادِّ شبههم، مقتضياً للإيمان، يعكسون الأمرَ ويجعلونه مانعاً. قاله بعضُ المحقِّقين.

وظاهرُ ذلك أنَّ القومَ لا يقولون برسالة أحدٍ من الرُّسل المشهورين، كإبراهيمَ وموسى عليهما السلام، أصلاً. وصرَّح بعضُهم بأنهم لم يُنكِروا إرسالَ غيرِه ﷺ منهم، وبأنَّ قولَهم هذا كان تعنُّتاً. وهذا خلافُ الظاهرِ هنا، ولعل القومَ كانوا في ريبٍ وتردُّد لا يستقيمون على حال، فتدبَّر.

والظاهر أنَّ الآيةَ إخبارٌ منه عزَّ مجدُه عن الأمر المانعِ إيَّاهم عن الإيمان، ويظهر من كلامِ ابن عطيةَ[1] أنَّ هذا الكلامَ منه عليه الصلاة والسلام، قاله على معنى التوبيخِ والتلهُّف. وحاشا مَن له أدنَى ذوقٍ من أن يذهبَ إلى ذلك.

﴿قُل﴾ لهم أوّلاً من قِبَلنا تبييناً للحكمة، وتحقيقاً للحقِّ المزيحِ للرَّيب: ﴿لَّوْ كَانَ﴾ أي: لو وُجد ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بدلَ البشر ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ كما يمشي البشر، ولا يطيرون إلى السماءِ فيسمعوا من أهلها ويَعلَموا ما يجب عِلمُه ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنينَ مقيمين فيها. وقال الجبَّائي: أي: مطمئنِّين إلى الدنيا ولذَّاتها، غيرَ خائفين ولا متعبِّدين بشرعٍ؛ لأن المطمئنَّ مَن زال الخوفُ عنه.

﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ يعلِّمهم ما لا تستقلُّ قُدَرُهم بعلمه؛ ليسهل عليهم الاجتماعُ به والتلقِّي منه، وأمَّا عامةُ البشر، فلا يَسهلُ عليهم ذلك، لبُعد ما بين المَلَكِ وبينهم، فلا يُبعث إليهم وإنَّما يبعث إلى خواصِّهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد وهبهم نفوساً زكيَّة، وأيَّدهم بقُوًى قدسيَّة، وجعل لهم جهتين: جهةً مَلَكية، بها من المَلَك يَستفيضون، وجهةً بشرية، بها على البشر يُفيضون، وجَعْلُ كلِّ البشرِ كذلك مُخِلٌّ بالحكمة.

وإنزالُ المَلَك عليهم على وجهٍ يسهل التلقِّي منه بأن يظهرَ لهم بصورة بشرٍ كما ظهر جبريلُ عليه السلام مِراراً في صورة دِحيةَ الكلبيِّ[2]، وقد صحَّ[3] أن أعرابيّاً جاء وعليه أثرُ السفرِ إلى رسول اللهِ ﷺ، فسأله عن الإسلام والإيمانِ والإحسان وغيرِها، فأجابه عليه الصلاة والسلام بما أجابه، ثم انصرف ولم يعرفْه أحدٌ من الصحابة ﷺ، فقال ﷺ: «هذا جبريلُ جاءكم يعلِّمكم أمرَ دينكم» = ممَّا[4] لا يُجدي نفعاً لأولئك الكَفَرة، كما قال تعالى جَدُّه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩].

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٦.

(٢) سلف ص ١٠٤ من هذا الجزء.

(٣) صحيح البخاري (٥٠)، وصحيح مسلم (٨)، وسلف تخريجه ١/ ٢٩٥.

(٤) خبر لقوله: وإنزال الملك.

وقيل: علَّة تنزيلِ المَلَك عليهم أنَّ الجِنس إلى الجنس أَميل، وهو به آنس. ولعل الأَوَّلَ أَوْلى وإن زُعم خلافُه.

وحكى الطبرسيُّ[1] عن بعضهم أنَّه قال في الآية: إنَّ العربَ قالوا: كنَّا ساكنين مطمئنِّين، فجاء محمدٌ (ﷺ) فأزعجنا وشوَّش علينا أمرنا. فبيَّن سبحانه أنَّه لو كان ملائكةٌ مطمئنين، لأَوجبت الحكمةُ إرسالَ الرسلِ إليهم، ولم يمنع اطمئنانُهم الإرسال، فكذلك الناسُ لا يمنع كونُهم مطمئنِّين إرسالَ الرسلِ إليهم. وأنت تعلم أنَّ هذا بمراحلَ عن السِّياق، ولا يصحُّ فيه أثرٌ كما لا يخفَى على المتتبِّع.

ونَصْبُ «ملكاً» يحتمل أن يكونَ على الحاليَّة من «رسولاً» الواقعِ مفعولاً لـ «نَزَّلنا»، وسوَّغ ذلك التقدُّم، ويحتمل أن يكونَ على المفعولية لـ «نَزَّلنا» و«رسولاً» صفةٌ له. وكذا الكلامُ في قوله تعالى: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ورجَّح غيرُ واحدٍ الأَوَّل بأنَّه أكثرُ موافقةً للمقام وأنسب.

ووجَّه ذلك القطبُ وصاحبُ «التقريب» بأنَّه على الحالية يُفيد المقصودَ بمنطوقه، وعلى الوصفية يُفيد خلافَ المقصودِ بمفهومه، أمَّا الأول؛ فلأنَّ منطوقه: أَبعث اللهُ تعالى رسولاً حالَ كونِه بشراً لا مَلَكاً، و: لنزَّلنا عليهم رسولاً حالَ كونِه مَلَكاً لا بشراً. وهو المقصود، وأمَّا الثاني؛ فلأنَّ التقييد بالصفة يفيد: أَبعث اللهُ تعالى بشراً مرسَلاً لا بشراً غيرَ مرسل، و: لنزَّلنا عليهم مَلَكاً مرسلاً لا ملكاً غيرَ مرسل. وهو خلافُ المقصود، بل غيرُ مستقيم.

وقال صاحبُ «الكشف» تبعاً لشيخه العلَّامة الطيبيِّ في ذلك: لأنَّ التقديم إزالةٌ عن موضعه الأَصليّ دلالةً على أنه مصبُّ الإنكار في الأوَّل، أعني: أَبعث اللهُ بشراً رسولاً، فيدلُّ على أنَّ البشرية منافيةٌ لهذا الثابت، أعني الرِّسالة، كما تقول: أَضربتَ قائماً زيداً، ولو قلت: أَضربتَ زيداً قائماً، أو القائم، لم يُفِد تلك الفائدة؛ لأنَّ الأولَ يفيد أنَّ المنكَرَ ضربُه قائماً لا الضربُ مطلقاً، والثاني يُفيد أنَّ المنكَرَ ضربُ زيدٍ لاتِّصافه بهذه الصفةِ المانعةِ، ولا يفيد أنَّ أصلَ الضربِ حسنٌ ومسلَّم والجهةُ منكَرة، هذا إن جُعل التقديمُ للحصر، وإن جُعل للاهتمام، دلَّ على كونه

(١) في مجمع البيان ١٥/ ١٠٠.

مصبَّ الإِنكار وإن لم يدلَّ على ثبوت مقابله. وعلى التقديرَين فائدةُ التقديمِ لائحة. اهـ. وهو أكثرُ تحقيقاً.

واستشكل بعضُهم هذه الآيةَ بأنَّها ظاهرةٌ في أنَّه إنما يُرسل إلى كلِّ قبيلٍ ما يناسبه ويجانسه، كالبشر للبشر، والمَلَك للملك، ولا يُرسل إلى قبيلٍ ما لا يناسبه ولا يجانسه، وهو ينافي كونَه ﷺ مرسَلاً إلى الجنِّ كالإنس إجماعاً معلوماً من الدِّين بالضرورة، فيكفر منكِرُه، ومَن نازع في ذلك فقد وَهَم.

وأُجيب بمنع كونِها ظاهرةً في ذلك، بل قُصارى ما تدلُّ عليه أنَّ القوم أَنكروا أن يبعثَ اللهُ تعالى إلى البشر بشراً، وزعموا أنَّه يجب أن يكونَ المبعوثُ إليهم مَلَكاً، ومَرامُهم نفيُ أن يكونَ النبيُّ ﷺ مبعوثاً إليهم، فأُجيبوا بما حاصلُه أنَّ الحكمة تقتضي بعثَ الملكِ إلى الملائكة؛ لوجود المناسبةِ المصحِّحة للتلقِّي، لا إلى عامَّة البشر؛ لانتفاءِ تلك المناسبة، فأمرُ الوجوبِ الذي يزعمونه بالعكس، وليس في هذا أكثرُ من الدَّلالة على أنَّ أمر البعثِ منوطٌ بوجود المناسبة، فمتى وُجدت صحَّ البعث، ومتى لم توجَد لا يصحُّ البعث، وأنَّها موجودةٌ بين المَلَك والملك، لا بينه وبينَ عامَّة البشرِ كالمنكِرين المذكورين، وهذا لا ينافي بعثتَه ﷺ إلى الجِنّ؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام متى صحَّ فيه المناسبةُ المصحِّحة للاجتماع مع المَلَك والتلقِّي منه، صحَّ فيه المناسبةُ المصحِّحةُ للاجتماع مع الجِنِّ والإِلقاءِ إليهم، كيف لا وهو عليه الصلاة والسلام نسخةُ اللهِ تعالى الجامعة، وآيتُه الكبرى الساطعة، وإذا قلنا: إنَّ اجتماعَه عليه الصلاة والسلام بالجِنِّ وإلقاءَه عليهم بعد تشكُّلهم له، فأمرُ المناسبةِ أَظهر، وليس تشكُّل الملكِ لو أُرسل إلى البشر بمُجدٍ؛ لما سمعتَ آنفاً.

ويقال نحوُ هذا في إرساله ﷺ إلى الملائكة؛ لِمَا فيه عليه الصلاة والسلام من قوَّة الإِلقاءِ إليهم، كالتلقِّي منهم، وإلى كونه عليه الصلاة والسلام مرسَلاً إليهم ذهب من الشافعية تقيُّ الدين السُّبكي والبارزيُّ والجلالُ المحلِّي في «خصائصه»، ومن الحنابلة ابنُ تيميةَ، وابنُ مفلحٍ في كتاب «الفروع»، ومن المالكية عبدُ الحقِّ، وقال كابن تيمية: لا نزاعَ بين العلماءِ في جنس تكليفِهم بالأمر والنَّهي.

وقال إبراهيمُ اللقَاني: لا شكَّ في ثبوت أصلِ التكليفِ بالطاعات العملية في حقِّهم، وأمَّا نحوُ الإِيمان، فهو فيهم ضروريّ، فيستحيل تكليفُهم به.

وقال السُّبكي في «فتاويه»[(١)]: الجنُّ مكلَّفون بكلِّ شيءٍ من هذه الشَّريعة؛ لأنَّه إذا ثبت أنَّه عليه الصلاة والسلام مرسلٌ إليهم كما هو مرسلٌ إلى الإنس، وأنَّ الدعوةَ عامةٌ والشريعةَ كذلك، لزمتهم جميعُ التكاليفِ التي توجد فيهم أسبابُها؛ إلَّا أن يقومَ دليلٌ على تخصيص بعضِها، فنقول: إنَّه يجب عليهم الصلاةُ والزكاةُ إن ملكوا نصاباً بشرطه، والحجُّ وصومُ رمضانَ، وغيرُها من الواجبات، ويحرم عليهم كلُّ حرامٍ في الشريعة، بخلاف الملائكة، فإنَّا لا نلتزم أنَّ هذه التكاليفَ كلَّها ثابتةٌ في حقِّهم إذا قلنا بعموم الرِّسالة إليهم، بل يحتمل ذلك ويحتمل الرسالةَ في شيءٍ خاصّ. اهـ.

ولا مانعَ من أن يكلِّفَهم كلَّهم بما جاءه من ربِّه جلَّ جلالُه بواسطة بعضِهم، على أنَّه ليس كلُّ ما جاء به عليه الصلاة والسلام حاصلاً بوساطة المَلَك، فيمكن أن يكونَ ما كُلِّفوا به لم يكن بوساطة أحدٍ منهم.

وأَنكر بعضُهم إرسالَه ﷺ إليهم، وبعدم الإرسالِ إليهم جزم الحليميُّ والبيهقيُّ من الشافعية، ومحمودُ بن حمزةَ الكرمانيُّ في كتابه «العجائب والغرائب» من الحنفية، بل نقل البرهان النسفيُّ والفخر الرازيُّ في تفسيرَيهما الإجماعَ عليه، وجزم به من المتأخِّرين زينُ الدِّين العراقيُّ في نكته على ابن الصَّلاح[(٢)]، والجلالُ المحلِّي في شرح «جمع الجوامع»[(٣)].

وصريحُ آيةِ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] إذ العالَم ما سوى اللهِ تعالى وصفاتِه، وخبرُ مسلمٍ: «أُرسلت إلى الخلق كافة»[(٤)] يؤيِّد المذهبَ الأول. نعم استدل أهلُ هذا المذهبِ بما استدلُّوا به، وفيه ما فيه.

وقد ادَّعى بعضُ الناس أنَّ الآية تؤيِّد مذهبهم؛ لأنَّه تعالى خصَّ فيها المَلَكَ بالإرسال إلى الملائكة، فيتعيَّن أن يكونَ هو الرسولَ إليهم لا البشر، سواءٌ كان بينه وبينهم مناسبةٌ أم لا، وقد سمعتَ ما نُقل عن العلَّامة القطبِ وصاحبِ «التقريب» من أنَّ المراد: لَنزَّلنا عليهم رسولاً حالَ كونِه مَلَكاً لا بشراً.

---

(١) ٢/ ٦٢٣.

(٢) التقييد والإيضاح ص ٢٥٤.

(٣) ذكره العطار في حاشيته على شرح المحلي ٢/ ١٩٧ نقلاً عن العراقي.

(٤) صحيح مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأُجيب بأنَّه بعد إِرخاء العِنانِ لا تدلُّ الآيةُ إلَّا على تعيُّن إرسالِ المَلَك إلى الملائكة إذا كانوا في الأرض يمشون مطمئِنِّين بدلَ البشر، ولا يَلزم منه ألَّا يصحَّ إرسال البشرِ إليهم إذا لم يكونوا كذلك؛ لجواز أن يكونَ حكمةَ التعيُّن في الصورة الأولى ـ سوى المناسبةِ المترتِّب عليها سهولةُ الاجتماعِ والتلقِّي ـ شيءٌ آخَرُ لا يوجد في الصُّورة الثانية، وذلك أنَّه إذا كان أهلُ الأرضِ ملائكةً وأُرسل إليهم بشرٌ له قوَّة الإِلقاء إليهم والإفاضةِ عليهم، نحوُ إرسالِ رُسُل البشرِ عليهم السلام إليهم، صَعُبَ بحسَب الطبعِ على ذلك الرسولِ بقاؤه معهم زمناً يعتدُّ بهم، كما يبقى رسلُ البشرِ مع البشر كذلك، إلَّا أن يجعلَ مشاركاً لهم فيما جُبلوا عليه ويُلحقَ بهم، وهو أشبهُ شيءٍ بإخراجه عن الطبيعة البشريةِ بالمرَّة، فيكون العدولُ عن إرسال مَلَكٍ إلى إرساله أشبهَ شيءٍ بالعبث المنافي للحكمة. اهـ. فتدبَّر، فلعل اللهَ سبحانه يمنُّ عليك بما يروي الغليل، وتأمَّل في جميع ما تقدَّم، فلعلك توفَّق بعَون اللهِ تعالى إلى الجَرح والتعديل.

﴿قُلْ﴾ لهم ثانياً من جهتك بعد ما قلتَ لهم من قِبَلنا ما قلت، وبيَّنتَ لهم ما تقتضيه الحكمةُ في البعثة، ولم يرفعوا إليه رأساً: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ عزَّ وجلَّ وحدَه ﴿شَهِيدًۢا﴾ على أنِّي قد أدَّيت ما عليَّ من مواجب الرِّسالة أكملَ أداء، وأنَّكم فعلتم ما فعلتم من التكذيبِ والعناد.

وقيل: شهيداً على أني رسولُ اللهِ تعالى إليكم بإظهار المعجزةِ على وَفق دعواي.

ورجِّح الأوَّلُ بأنه أَوفقُ بقوله تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ وكذا بقوله سبحانه تعليلاً للكفاية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: الرسلِ والمرسَل إليهم ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ أي: محيطاً بظواهرهم وبواطنِهم، فيجازيهم على ذلك.

وزعم الخفاجيُّ[1] أنَّ الثاني أوفقُ بالسِّباق منه، إذ يكون الكلامُ عليه كالسابق ردّاً لإِنكارهم أن يكونَ الرسولُ بشراً. وإلى ذلك ذهب الإمام[2]، وأنَّ كونَ الأولِ

---

(١) في حاشيته ٦/ ٦٢.

(٢) في التفسير الكبير ٢١/ ٦٠.

أوفقَ بقوله تعالى: (إِنَّهُۥ كَانَ) إلخ لا وجهَ له؛ لأنَّ معناه التهديدُ والوعيدُ بأنَّه سبحانه يعلم ظواهرَهم وبواطنهم، وأنَّهم إنَّما ذكروا هذه الشُّبهةَ للحسد وحبِّ الرِّياسة والاستنكافِ عن الحقّ، وفيه من التسليةِ لحبيبه ﷺ ما فيه.

وأنت تعلم أنَّ إنكارَ كونِ الأوَّل أوفقَ بذلك ممَّا لا وجهَ له؛ لظهور خلافِه، ولا ينافيه تضمُّنُ الجملةِ الوعيدَ والتسلية، وأيضاً يبقَى أمرُ أوفقيَّته بـ «بيني وبينكم» في البَين، ومع ذلك في تصدير الكلامِ بـ «قُلْ» نوعُ تأييدٍ لإرادة الأوَّل، كما لا يخفَى على الذَّكي. هذا وإنَّما لم يقلْ سبحانه: بيننا، تحقيقاً للمفارقة، وإبانةً للمباينة.

ونصبُ «شهيداً» إمَّا على الحال، أو على التمييز.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ كلامٌ مبتدأ غيرُ داخلٍ في حيِّز «قل» يفصِّل ما أشار إليه الكلامُ السابقُ من مجازاة العباد؛ لِمَا أنَّ علمَه تعالى في مثل هذا الموضعِ مستعملٌ بمعنى المجازاة، أي: مَن يَهدِ اللهُ تعالى إلى الحقِّ ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ إليه وإلى ما يؤدِّي إليه من الثَّواب، أو المهتدي إلى كلِّ مطلوب. والأكثرون حذفوا ياءَ المهتدي.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يخلق فيه الضلالَ لسوءِ اختياره وقبحِ استعداده، كهؤلاء المعاندين ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أنصاراً ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عزَّ وجلَّ يَهدونهم إلى طريق الحقّ، أو إلى طريقٍ يوصلهم إلى مطالبهم الدنيويةِ والأخروية، أو إلى طريق النجاةِ من العذاب الذي يستدعيه ضلالُهم، على معنى: لن تجدَ لأحدٍ منهم وليّاً، على ما يقتضيه قضيةُ مقابلةِ الجمعِ بالجمع من انقسام الآحادِ على الآحاد، على ما هو المشهور.

وقيل: قال سبحانه: «أولياء» مبالغةً؛ لأنَّ الأولياءَ إذا لم تنفعْهم فكيف الوليُّ الواحد؟ وضميرُ «لهم» عائدٌ على «مَن» باعتبار معناه، كما أنَّ «هو» عائدٌ عليه باعتبار لفظِه، فلذا أُفرد الضميرُ تارةً وجُمع أخرى. وفي إيثار الإفراد والجمعِ فيما أُوثرا فيه تلويحٌ بوحدة طريقِ الحقِّ وقلَّةِ سالكيه، وتعدُّدِ سبل الضَّلال وكثرةِ الضُّلَّال.

وذكر أبو حيَّان[1] ـ وتبعه بعضُهم ـ أنَّ الجملة الثانيةَ من المواضع التي جاءَ فيها الحملُ على المعنى ابتداءً من غير أن يتقدَّمَه الحملُ على اللفظ، وهي قليلةٌ في القرآن.

---

(١) في البحر ٦/ ٨٢.

وتعقَّب ذلك الخَفاجيُّ[1] بأنه لا وجهَ له، فإنَّه حمل فيها الضميرَ على اللفظ أوَّلاً، إذ في قوله تعالى: (يُضْلِلْ) ضميرٌ محذوفٌ مفرَد، إذ تقديرُه: يُضْلِله، على الأصل، وهو راجعٌ إلى لفظ «مَن»، فلا يقال: إنه لم يتقدَّمه حملٌ على اللفظ. ثم قال: وأغربُ من ذلك ما قيل: إنَّه قد يقال: إنَّ الحملَ على اللفظِ قد تقدَّمه في قوله سبحانه: «من يهد الله» وإن كان في جملةٍ أخرى. اهـ.

وفيه أنَّ وجهَه جَعْلُ أبي حيانَ «مَن» مفعولَ «يضلل» كما نصَّ عليه في «البحر»[2] وكذا نصَّ على أنَّها في الجملة الأُولى مفعولُ «يهد» وحينئذٍ ليس هناك ضميرٌ مفرد محذوفٌ كما لا يخفَى، فتفطَّن.

وجوِّز كونُ الجملتَين داخلتَين في حيِّز «قل» لمجيءِ «ومَن» بالواو، وقولُه تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ أوفقُ بالأوَّل، وفيه التفاتٌ من الغَيبة إلى التكلُّم؛ للإيذان بكمال الاعتناءِ بأمر الحشر، وعلى الاحتمالِ الثاني يجعل حكايةً لِمَا قاله اللهُ تعالى له عليه الصلاة والسلام.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ حين يقومون من قبورهم ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ في موضع الحالِ من الضمير المنصوب، أي: كائنين عليها، إمَّا مشياً، بأن يزحفوا[3] منكبِّين عليها، ويشهد له ما أخرجه الشيخان[4] وغيرُهما عن أنسٍ قال: قيل: يا رسولَ الله، كيف يُحشر الناسُ على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادرٌ على أن يُمشيَهم على وجوههم».

والمراد: كيف يُحشر هذا الجنسُ على الوجه؛ لأنَّ ذلك خاصٌّ بالكفار، وغيرُهم يحشر على وجهٍ آخَر. فقد أخرج أبو داود[5]، والترمذيُّ وحسَّنه[6]، وابن جَرير[7]، وغيرُهم عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يُحشَر الناسُ يومَ

---

(١) في حاشيته ٦/ ٦٢.
(٢) ٦/ ٨١.
(٣) في الأصل و(م): يزحفون، والمثبت هو الجادة.
(٤) صحيح البخاري (٤٧٦٠)، وصحيح مسلم (٢٨٠٦).
(٥) لعله الطيالسي، فهو في مسنده (٢٥٦٦).
(٦) في جامعه (٣١٤٢).
(٧) في تفسيره ١٧/ ٤٥٠. وهو عند أحمد (٨٦٤٧).

القيامة على ثلاثةِ أصناف: صنف مشاة، أي: على العادة، وصنف رُكبان، وصنف على وجوههم» قيل: يا رسولَ الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إنَّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يمشيَهم على وجوههم، إنَّهم يتَّقون بوجوههم كلَّ حَدَبٍ وشوك».

وإمَّا سحباً، بأن تجرَّهم الملائكةُ منكبِّين عليها، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر:٤٨] ويشهد له ما أخرجه أحمد، والنَّسائي، والحاكمُ وصحَّحه[١] عن أبي ذَرٍّ أنَّه تلا هذه الآية: (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ) إلخ فقال: حدَّثني الصادقُ المصدوقُ ﷺ «أنَّ الناسَ يُحشَرون يومَ القيامةِ على ثلاثة أَفواج: فوج طاعمين كاسين راكبين، وفوج يمشون ويسعَون، وفوج تسحبهم الملائكةُ على وجوههم».

وأخرج أحمدُ، والنَّسائي، والتِّرمذيُّ وحسَّنه[٢] عن معاويةَ بنِ حَيْدَةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّكم تُحشَرون رِجَالاً ورُكباناً وتجرُّون على وجوهكم».

ولْيُطلَبْ وجهُ الجمع، فإنْ لم يوجد، فالمعوَّل عليه ما شهد له حديثُ الشيخين، ولا تعيِّن الآيةُ ـ أعني قولَه تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ـ الثاني؛ لأنَّ القرآنَ يفسِّر بعضُه بعضاً، لأنَّها في حالهم بعدَ دخولِ النار، وما هنا في حالهم قبلُ، فتغايرا.

وزعم بعضُهم أنَّ الكلامَ على المجاز، وذلك كما يقال للمنصرف عن أمرٍ خائباً مهموماً: انصرفَ على وجهه، فالمراد: ونحشرهم يومَ القيامةِ مهمومين خائبين، وكأنَّ الداعيَ لهذا الارتكابِ أنَّه قد رُوي عن ابن عباسٍ حملُ الأحوالِ الآتيةِ على المجاز، وحينئذٍ تكون جميعُ الأحوالِ على طِرزٍ واحد، ولا يخفَى عليك، فإياك أن تلتفتَ إلى تأويلٍ نَطَقَت السنةُ النبويةُ بخلافه، ولا تعبأْ بقومٍ يفعلون ذلك.

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ أحوالٌ من الضمير المستكِنِّ في الجارِّ والمجرورِ الواقعِ حالاً أولاً.

---

(١) مسند أحمد (٢١٤٥٦)، وسنن النسائي ٤/١١٦-١١٧، والمستدرك ٢/٣٦٧-٣٦٨.

(٢) مسند أحمد (٢٠٠١١)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٦٧)، وسنن الترمذي (٣١٤٣).

وفي «إرشاد العقل السليم» أنها أحوالٌ من الضمير المجرورِ في الحال السابقة[(١)]، والأوَّل أبعدُ عن القيل والقال.

وجوَّز أبو البقاءِ[(٢)] كونَ ذلك بدلاً من تلك الحال. وهو كما ترى.

واستظهر أبو حيَّان[(٣)] كونَ المرادِ مما ذُكر حقيقتَه، ويكونُ ذلك في مبدأ الأمر، ثم يردُّ الله تعالى إليهم أبصارَهم ونطقَهم وسمعَهم، فيرون النارَ ويسمعون زفيرَها، وينطقون بما حكى اللهُ تعالى عنهم في غيرِ موضع. نعم قد يُختَم على أفواههم في البَين.

وقيل: هو على المجاز، على معنى أنَّهم لفَرط الحَيرةِ والذُّهول يُشبهون أصحابَ هذه الصِّفات، أو على معنى أنَّهم لا يرون شيئاً يسرُّهم ولا يسمعون كذلك ولا ينطقون بحجَّة، كما أنَّهم كانوا في الدُّنيا لا يستبصرون ولا يَنطِقون بالحقِّ ولا يسمعونه. وأخرج ذلك ابنُ جَريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباس[(٤)]، ورُوي أيضاً عن الحسن، فنُزِّل ما يقولونه ويسمعونه ويُبصرونه منزلةَ العدم؛ لعدم الانتفاعِ به، ولا يعكِّر عليه أنَّ بعضَ الآياتِ يدلُّ على سلب بعضِ القُوى عنهم؛ لاختلاف الأوقات.

وقيل: عُمْياً عن النَّظَر إلى ما جعل اللهُ تعالى لأوليائه، بُكماً عن الكلامِ معه سبحانه، صُمًّا عما مدح اللهُ تعالى به أولياءه.

وقيل: يحصل لهم ذلك حقيقةً بعدَ قولِه تعالى لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

وعلى هذا تكونُ الأحوالُ مقدَّرة، كقوله تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مستقرُّهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ على تقدير جَعلِهِ حالاً، ويحتمل أن يكونَ استئنافاً، وقولُه سبحانه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ يحتمل أيضاً الاستئناف، ويحتمل أن يكونَ حالاً

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٩٧.

(٢) في الإملاء ٣/ ٤٩٨-٤٩٩.

(٣) في البحر ٦/ ٨٢.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٩٣-٩٤، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي الدر ٤/ ٢٠٤.

من «جهنَّمَ» كما قال أبو البقاءِ[١]، وجعل العاملَ في الحالِ معنى المأوى، وقال الطبرسيّ[٢]: هو حالٌ منها؛ لأنَّها توضع [موضعَ] متلظٍّ ومتسعِّر، ولولا ذلك ما جُعل حالاً منها.

وجوِّز جعلُه حالاً مما جُعلت الجملةُ الأولى منه، لكن بعد اعتبارِها في النظم، والرابطُ الضميرُ المنصوب في «زدناهم»، وهو كما ترى، والاستئنافُ أقلُّ مؤونة.

والخَبْو ـ وكذا الخُبُوُّ، بضمَّتين وتشديد، وهما مصدرا: خَبَت النار ـ سكونُ اللهب. قال في «البحر»[٣]: يقال: خبت النارُ تخبو: إذا سكن لهبُها، وخمدت: إذا سكن جمرُها وضَعُف، وهمدت: إذا طفئت جملة.

وقال الراغب[٤]: خبت النار: سكن لهبُها وصار عليها خِباءٌ من رماد، أي: غِشاء.

وفي «القاموس» تفسيرُ خَبَت بسكنت وطفئت، وتفسيرُ طفئت بذَهَبَ لهبها[٥]. وفيه مخالفةٌ لما في «البحر»، والأكثرون على ما فيه.

ومن الغريب ما أَخرجه ابنُ الأنباريّ[٦] عن أبي صالحٍ من تفسير «خبت» في الآية بحميت، وهو خلافُ المشهورِ والمأثور.

والسعيرُ: اللهب، والمعنى: كلَّما سكن لهبُها بأن أكلت جلودَهم ولحومَهم ولم يبقَ ما تتعلَّق به النارُ وتُحرقه، زدناهم لهباً وتوقُّداً بأن أَعدناهم على ما كانوا، فاستعرت النارُ بهم وتوقَّدت.

أخرج ابن جَريرٍ وابنُ المنذر وغيرُهما عن ابن عباسٍ ﵄ أنَّه قال في الآية: إنَّ الكفرةَ وَقودُ النار، فإذا أحرقتهم فلم يبقَ شيء، صارت جمراً تتوهَّج، فذلك

---

(١) في الإملاء ٣/ ٤٩٩.
(٢) في مجمع البيان ١٥/ ١٠٢، وما بين حاصرتين منه.
(٣) ٦/ ٦٨.
(٤) في المفردات (خبو).
(٥) القاموس (خبو)، (طفئ).
(٦) في الأضداد ص ١٥٠.

خبوُّها، فإذا بُدِّلوا خلقاً جديداً عاودتهم[١]. ولعلَّ ذلك ـ على ما قاله بعض الأجِلَّة ـ عقوبةً لهم على إنكارهم الإعادةَ بعد الإفناء، بتكرُّرها مرةً بعد الأخرى؛ ليرَوها عياناً حيث لم يروها برهاناً، كما يُفصح عنه ما بعد.

واستشكل ما ذُكر بأنَّ قولَه تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦] يدلُّ على أنَّ النارَ لا تتجاوز عن إنضاجهم إلى إحراقهم وإفنائهم، فيعارض ذلك.

وأَجاب بعضُهم بأنَّ تبديلَهم جلوداً غيرَها بإحراقها وإفنائها وخلقِ غيرها، فكأنَّه قيل: كلَّما نضجت جلودُهم، أَحرقناها وأفنيناها وخلقنا لهم غيرَها.

وبعضٌ بأنَّ المراد: كلَّما نضجت جلودُهم كمالَ النضج بأن يبلغَ شَيُّها إلى حدٍّ لو بقيت عليه لا يُحسُّ صاحبُها بالعذاب ـ وهو مرتبةُ الاحتراق ـ بدَّلناهم إلخ. ويدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

وقال الخَفاجي[٢]: أُجيب بأنَّه يجوز أن يحصلَ لجلودهم تارةً النضجُ وتارةً الإِفناء، أو كلٌّ منهما في حقِّ قوم، على أنَّه لا سدَّ لباب المجاز بأن يجعلَ النُّضج عبارةً عن مطلق تأثيرِ النار، إذ لا يحصل في ابتداء الدخولِ غيرُ الإحراق دونَ النُّضج. اهـ.

ولا يخفَى ما في قوله: بأن يجعلَ النُّضج عبارةً عن مطلق تأثيرِ النار، من المساهلة، وفي قوله: إذ لا يحصل... إلخ منعٌ ظاهر. وذَكَرَ أنَّه أُورد على الجواب الأوَّل أنَّ كلمة «كلَّما» تنافيه. وفيه بحث، فتأمَّل.

وربما يتوهَّم أنَّ بين هذه الآيةِ وقولِه تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [البقرة:١٦٢] تعارضاً؛ لأن الخبوَّ يستلزم التخفيف. وهو مدفوعٌ بأنَّ الخبوَّ سكونُ اللهبِ كما سمعت، واستلزامُه تخفيفَ عذابِ النار ممنوع. على أنَّا لو سلَّمنا الاستلزام، فالعذابُ الذي لا يخفَّف ليس منحصراً بالعذاب بالنار والإِيلامِ بحرارتها، وحينئذٍ فيمكن أن يعوَّضَ ما فات منه بسكون اللهبِ بنوعٍ آخَرَ من العذاب ممَّا لا يعلمه إلَّا الله تعالى.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٩٦، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٠٤.

(٢) في حاشيته ٦/ ٦٣.

وذكر الإمامُ[١] أنَّ قولَه سبحانه: «زدناهم سعيراً» يقتضي ظاهرُه أنَّ الحالةَ الثانية أزيدُ من الحالة الأُولى، فتكون الحالةُ الأولى تخفيفاً بالنِّسبة إلى الحالة الثانية. وأجاب بأنَّه حصل في الحالة الأولى خوفُ حصولِ الثانية، فكان العذابُ شديداً. ويحتمل أن يقال: لمَّا عَظُمَ العذاب، صار التفاوتُ الحاصلُ في أثنائه غيرَ مشعورٍ به، نعوذ بالله تعالى منه. اهـ.

وقد يقال: ليس في الآية أكثرُ من ازدياد توقُّدهم، ولعلَّه لا يستلزم ازديادَ عذابهم، والمرادُ من الآية: كلَّما أُحرقوا أُعيدوا، إلَّا أنه عبَّر بما عبَّر للمبالغة. ويُشير إلى كون المرادِ ذلك قولُه تعالى: «زدناهم» دونَ زدناها، فتدبَّر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: العذابُ المفهومُ من قوله سبحانه: «كلما خبت زدناهم سعيراً» أو إلى جميع ما ذُكر من حشرهم على وجوههم عُمياً وبكماً وصمّاً.. إلخ، والمفهومُ ممَّا ذكرنا مندرجٌ فيه ﴿جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنَّهم ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآنيةِ والآفاقية، الدالَّةِ على صحَّة الإِعادة دلالةً واضحة، أو على صحَّة ما أَرسلناك به مطلقاً، فيشمل ما ذكر.

و«ذلك» مبتدأ، و«جزاؤهم» خبرُه، والظرفُ متعلِّق به. وجوَّز أن يكونَ «جزاؤهم» مبتدأً ثانياً والظرفُ خبره، والجملةُ خبرٌ لـ «ذلك». وأن يكونَ «جزاؤهم» بدلاً من «ذلك»، أو بياناً، والخبرُ هو الظرف. وقيل: «ذلك» خبرُ مبتدأ محذوف، أي: الأمرُ ذلك، وما بعده مبتدأٌ وخبر. وليس بشيء.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ منكِرين أشدَّ الإنكار: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ هو في الأصل ـ كما قال الراغب[٢] ـ كالفُتات: ما تكسَّر وتفرَّق من التِّبن. والمراد هنا: بالين متفرِّقين ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨﴾ إما مصدرٌ مؤكِّد من غير لفظِه، أي: لَمبعوثون بعثاً جديداً، وإمَّا حال، أي: مخلوقين مستأنفين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: ألم يتفكَّروا ولم يعلموا أنَّ الله تعالى الذي قَدَرَ على خلق هذه الأَجرامِ والأجسامِ الشديدةِ العظيمة التي

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ٦١.

(٢) في المفردات (رفت).

بعضُ ما تحويه البشر ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ من الإنس، أي: ومَن هو قادرٌ على ذلك كيف لا يقدر على إعادتهم وهي أهونُ عليه جلَّ وعلا؟

وقال بعضُ المحقِّقين: «مِثل» هنا مثلُها في: مِثلُك لا يبخل، أي: قادرٌ على أن يخلقَهم، والمرادُ بالخلق الإعادة، كما عبَّر عنها أوَّلاً بذلك حيث قيل: «خلقاً جديداً» ولا يخلو عن بُعد.

وزعم بعضُهم أنَّ المراد: قادرٌ على أن يخلقَ عبيداً آخَرين يوحِّدونه تعالى، ويقرُّون بكمال حكمتِه وقدرتِه، ويتركون ذِكرَ هذه الشُّبهاتِ الفاسدة، كقوله تعالى: ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩﴾ [إبراهيم: ١٩] وقولِه سبحانه: ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [التوبة: ٣٩] وفيه أنَّه لا يلائم السِّياق، كما لا يخفَى على ذوي الأذواق.

ثم اعلمْ أنَّ ظاهرَ الآيةِ أنَّ الكفرةَ أنكروا إعادتَهم يومَ القيامةِ على معنى جمعِ أجزائهم المتفرِّقةِ وعظامِهم المتفتِّتة، وتأليفها وإفاضةِ الحياةِ عليها كما كانت في الدُّنيا، فهو الذي عَنَوه بقولهم: «أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً» بعد قولِهم: «أئذا كنا عظاماً ورفاتاً» فردَّ عليهم بإثبات ذلك بطريقٍ برهانيّ.

وعلى هذا تكون الآيةُ أحدَ أدلَّة مَن يقول: إنَّ الحشر بإعادة أجزاءِ الأبدان التي تتفرَّق ـ كأبدان ما عدا الأنبياءَ عليهم السلام، ومَن لم يعمل خطيئةً قط، والمؤذِّنين احتساباً، ونحوِهم ممَّن حُرِّمت أجسادُهم على الأرض كما جاءَ في الأخبار(١) ـ وجمعِها بعد تفرُّقها، وعَنَوا بذلك الأجزاءَ الأصلية، وهي الحاصلةُ في أوَّل الفطرةِ حالَ نفخِ الرُّوح، وهي عندهم محفوظةٌ من أن تصيرَ جزءاً لبدنٍ آخَرَ، فضلاً عن أن تصيرَ جزءاً أصليّاً له.

والذاهبون إلى هذا هم الأقلّ، وحكاه الآمديُّ بصيغة قيل، لكن رجَّحه الفخر الرازيُّ وذَكَرَ أنَّ الأكثر على أنَّ الله سبحانه يعدم الذواتِ بالكلِّية ثم يُعيدها، وقال: إنَّه الصحيح. وكذا قال البدرُ الزَّركشي، وذكر اللقَانيُّ أنه قولُ أهلِ السنَّة والمعتزلةِ القائلين بصحَّة الفناءِ والعدمِ على الأجسام، بل بوقوعه، وإن اختلفوا في أنَّ ذلك هل هو بحدوثِ ضِدّ، أو بانتفاءِ شرط، أو بِلا ولا.

(١) حديث تحريم أجساد الأنبياء على الأرض أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي ٣/ ٩١-٩٢، وابن ماجه (١٠٨٥) عن أوس بن أوس رضي الله عنه. وسترد هذه الأخبار ١٧/ ١٠٢.

فذهب إلى الأخير القاضي[1] من أهل السنَّة وأبو الهذيلِ من المعتزلة، قالا: إنَّ اللهَ تعالى يُعدِم ما يريد إعدامَه على نحو إيجادِه إياه، فيقول له ـ عند أبي الهذيل ـ: اِفنَ، فيفنَى، كما يقول له: كن، فيكون.

وذهب جمهورُ المعتزلةِ إلى الأوّل، فقالوا: إنَّ فناءَ الجوهرِ بحدوث ضدٌّ له، وهو الفناءُ، ثم اختلفوا، فذهب ابنُ الإخشِيد[2] إلى أنَّ اللهَ تعالى يخلق الفناءَ في جهةٍ من جهات الجواهر، فتعدم الجواهرُ بأسرها، وقال ابنُ شبيب: إنَّه تعالى يُحدِث في كلِّ جوهرٍ بعينه فناءً يقتضي عدمَ الجوهرِ في الزمان الثاني، وذهب أبو عليٍّ وأبو هاشمٍ وأتباعُهما إلى أنَّ اللهَ تعالى يُعدِم الجوهرَ بخلق فناءٍ لا في محلٍّ معيَّن منه، ثم اختلفا، فقال أبو عليٍّ وأتباعُه: إنَّ اللهَ سبحانه يخلق فناءً واحداً لا في محلّ، فيُفني به الجواهرَ بأسرها، وقال أبو هاشمٍ وأتباعُه: إنَّه تعالى يخلق لكلِّ جوهرٍ فناءً لا في محلّ.

وذهب إمامُ الحرمين وأكثرُ أهلِ السنَّة وبشرٌ المريسيُّ والكعبيُّ من المعتزلة إلى الثاني، ثم اختلفوا في تعيين الشَّرط، فقال بِشر: إنَّه بقاءٌ يخلقه سبحانه لا في محلّ، فإن لم يخلقه عُدِم الجوهر. وقال الأكثرُ والكعبيّ: إنه بقاءٌ قائمٌ بالجوهر يخلقه جلَّ وعلا فيه حالاً فحالاً، فإذا لم يخلقْه تعالى فيه انتفَى الجوهر. وقال إمامُ الحرمين: إنَّه الأعراضُ التي يجب اتِّصافُ الجسمِ بها، فإنَّ اللهَ تعالى شأنُه يخلقها في الجسم حالاً فحالاً، فمتى لم يخلقْها سبحانه فيه انعدم. وقال النَّظَّام: إنَّه خلقُ اللهِ تعالى الجوهرَ حالاً فحالاً، فإنَّ الجواهرَ عنده لابقاءَ لها، بل هي متجدِّدة بتجدُّد الأعراض، فإذا لم يُوالِ عزَّ مجدُه على الجوهر خَلْقَه فَني.

وأنت تعلم أنَّ أكثرَ هذه الأقاويلِ من قَبيل الأباطيل، سيما القولُ بأنَّ الفناءَ أمرٌ محقَّق في الخارج ضدٌّ للبقاء قائمٌ بنفسه أو بالجوهر، وكونُ البقاءِ موجوداً لا في محلّ. ولعل وجهَ البطلانِ غنيٌّ عن البيان.

---

(١) هو أبو بكر الباقلاني، وكلامه ـ وكذا ما سيأتي من أقوال ـ في شرح المقاصد للتفتازاني ٥/ ٩٨ فما بعدها.

(٢) هو العلامة أبو بكر أحمد بن علي بن بيغجور الإخشيد، شيخ المعتزلة. كان يدري الحديث، وله تواليف في الفقه والنحو والكلام. توفي سنة (٣٢٦هـ). السير ١٥/ ٢١٧.

واحتجُّوا لهذا المذهبِ بقوله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] وقولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦] وأجابوا عن الآية بأنَّ الكفار اكتفَوا بأقلِّ اللازم وأرادوا المبالغةَ في الإنكار؛ لأنَّه إذا لم يُمكن بزعمهم الحشرُ بعد كونِهم عظاماً ورُفاتاً، فعدمُ إمكانه بعد فنائهم بالمرَّة أظهرُ وأظهر.

وفيه أنَّ هلاكَ كلِّ شيءٍ خروجُه عن صفاته المطلوبةِ منه، والتفرُّق كذلك، فيقال له هلاك، ويسمَّى أيضاً فناءً عرفاً، فالاحتجاجُ بالآيتين غيرُ تامّ، وأنَّ ما قالوه في الجواب عن الآية خلافُ الظاهر. ولا يَرِد عليهم أنَّ إعادةَ المعدومِ محالٌ لِمَا ذكره الفلاسفةُ من الأدلَّة؛ لِمَا ذكره المسلمون في إبطالها.

ومِن الناس مَن قال: إنَّ عَجْبَ الذَّنَب لا يفنَى وإن فَنِيَ ما عداه من أجزاءِ البدن؛ لحديث الصَّحيحين[1]: «ليس من الإنسان شيءٌ إلَّا يبلَى، إلَّا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنَب، منه خلق الخلق يومَ القيامة». وفي رواية مسلم[2]: «كلُّ ابنِ آدم يأكله الترابُ إلَّا عَجْبَ الذَّنَب، منه خُلق ومنه يركَّب».

وصحَّح المزنيُّ أنَّه يفنَى أيضاً، وتأوَّل الحديثَ بأنَّ المرادَ منه أنَّ كلَّ الإنسان يبلَى بالتراب ويكون سببَ فنائه إلَّا عَجْبَ الذَّنب، فإنَّ الله تعالى يُفنيه بلا تراب، كما يُميت مَلَكَ الموتِ بلا مَلَكِ موت، والخلقُ منه والتركيبُ يمكن أن يكونَ بعد إعادته، فليس ما ذكر نصّاً في بقائه، ووافقه على ذلك ابنُ قتيبة، وأنت تعلم أنَّ ظواهرَ الأخبارِ تدلُّ على عدم فنائه مطلقاً.

وتوقَّف بعضُ العلماءِ عن الجزم بأحد المذهبَين السابقين في كيفيَّة الحشر. وقال السَّعد[3]: إنَّه الحقّ، وهو اختيارُ إمام الحرمين[4] وفي «المواقف» وشرحِه[5] للسيِّد السَّند: هل يُعدِم اللهُ تعالى الأجزاءَ البدنيةَ ثم يُعيدها، أو يفرِّقها ويُعيد فيها التأليف؟ الحقُّ أنَّه لم يثبت في ذلك شيء، فلا جزمَ فيه نفياً ولا إثباتاً، لعدم الدليلِ على شيءٍ من الطرفين.

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٣٥)، وصحيح مسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) برقم (٢٩٥٥): (١٤٢).
(٣) في شرح المقاصد ٥/ ١٠٠-١٠١.
(٤) في الإرشاد ص٣١٥.
(٥) ٨/ ٢٩٧.

وقال حجَّة الإسلامِ الغزاليُّ في كتاب «الاقتصاد»[1]: فإن قيل: ما تقولون، هل تعدم الجواهرُ والأعراض ثم يعادان جميعاً، أو تعدم الأعراضُ دون الجواهرِ ثم تعاد الأعراضُ فقط؟ قلنا: كلُّ ذلك ممكن، والحقُّ أنه ليس في الشرع دليلٌ قاطع على تعيين أحدِ الأمرَين الممكنين.

وقال بعضُهم: الحقُّ وقوعُ الأمرين جميعاً: إعادة ما انعدم بعينه، وإعادة ما تفرَّق بأعراضه. وهو حَسَن.

والكلامُ في هذا المقامِ طويلٌ جدّاً، ولعل اللهَ سبحانه وتعالى يمنُّ علينا باستيفائه ولو في مواضعَ متعدِّدة.

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ وهو ميقاتُ إعادتهم وحشرِهم، أو موتِهم، وهو ـ على هذا ـ اسمُ جنس؛ لأنَّ لكلِّ أحدٍ أجلاً للموت يخصُّه، وقد جاءَ إطلاقُ الأجلِ على الموت، ووجهُه أنَّه يطلق على مدَّة الحياةِ وعلى آخِرها، والموتُ مجاورٌ لذلك.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا ينبغي الرَّيبُ فيه والإنكارُ لمن تدبَّره. أو النفيُ على ظاهره. والجملةُ معطوفةٌ على «أو لم يروا» وهي وإن كانت إنشائيةً ـ وفي عطف الإخباريةِ عليها مقال ـ مؤوَّلةٌ بخبرية، والعطفُ على الصِّلة فيما مرَّ متعذِّر؛ للفصل بخبر «أنَّ»، وكذا على ما بعدَ «أنْ» المصدريةِ لفظاً ومعنًى.

والمعنى كما في «الكشف» وغيرِه: قد علموا بدليل العقلِ أنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على إعادتهم، وقد جعل أجلاً لها لا ريبَ فيه، فلا بدَّ منها، أي: إذا كان ذلك ممكناً في نفسه واجبَ الوقوعِ بخبر الصادق، لا يبقَى للإنكار معنًى، فإنْ كان الأجلُ بمعنى ميقاتِ إعادتهم، أي: يومَ القيامة؛ لقولهم: «أئذا كنا عظاماً ورفاتاً» وهو الظاهرُ، فهو واضح، وإنْ كان بمعنى الموت، فوجهُه أنَّهم قد علموا إمكانه، وأنَّهم ميِّتون لا محالة، منسلخون من هذه الحياة، وأنه لا بدَّ لهم من جزاء، فلم يُخلَقوا عبثاً، ولم يُتركوا سُدًى، ففيمَ الإنكار؟ وكأنَّه قد اكتفى بالموت عمَّا بعده، لأنَّه أولُ القيامة، ومَن مات فقد قامت قيامتُه[2]، فالعطفُ في التقدير على: قد

(١) ص٢٠٠.

(٢) إشارة إلى حديث سلف ٨/ ١٢٢، وسنده ضعيف.

علموا، ويُعلَم من هذا التقريرِ أنَّ الجامعَ بين الجملتين لصحَّة العطفِ في غاية القوَّة.

وزعم القطبُ أنَّ الأَوْلى العطفُ على ما بعدَ «أنْ» المصدرية، أمَّا أولاً: فلأنَّه أقرب، وأمَّا ثانياً: فلأنَّ جعل الأجلِ يدخل حينئذٍ تحتَ قدرتِه تعالى وتحتَ علمهم، بخلاف ما إذا عُطف على قوله سبحانه: «أو لم يروا..» إلخ. ولا يخفَى ما فيه على مَن استدارت كُرَةُ فِكرِه على مِحور التحقيق.

﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ الذين كفروا بالآيات وقالوا ما قالوا. ووضع الظاهر موضعَ ضميرِهم؛ تسجيلاً عليهم بالظُّلم وتجاوزِ الحدِّ بالمرَّة ﴿إِلَّا كُفُورًا ۝٩٩﴾ أي: جحوداً.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ أي: خزائنَ نِعَمِه التي أفاضها على كافَّة الموجودات، فالرحمةُ مجازٌ عن النِّعم، والخزائنُ استعارةٌ تحقيقيةٌ أو تخييلية.

و«أنتم» ـ على ما ذهب إليه الحوفيُّ والزمخشريُّ[1] وأبو البقاءِ[2] وابنُ عطية[3] وغيرُهم ـ فاعلٌ لفعلٍ محذوف يفسِّره المذكور؛ لأنَّ «لو» يمتنع أن يليَها الاسم، والأصلُ: لو تملكون تملكون، فلمَّا حُذف الفعلُ انفصل الضمير، ومِثلُ ذلك قولُ حاتمٍ وقد أُسر فلطمته جارية: لو ذاتُ سِوارٍ لطمتني[4]، وقولُ المتلمِّس[5]:

ولو غيرُ أخوالي أرادوا نقيصتي جعلتُ لهم فوق العرانينِ[6] مِيسَما

وفائدةُ الحذفِ والتفسير ـ على ما قيل ـ الإيجازُ؛ فإنَّه بعد قصدِ التوكيدِ لو قيل: تملكون تملكون، لَكان إطناباً وتكراراً بحسَب الظاهر. والمبالغةُ؛ لتكرير الإسناد، أو لتكرير الشَّرط، فإنَّه يقتضي تكرُّرَ ترتُّب الجزاءِ عليه والدَّلالةَ على الاختصاص،

(١) في الكشاف ٢/ ٤٦٧-٤٦٨.
(٢) في الإملاء ٣/ ٥٠٠.
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٨.
(٤) أي: لو لطمتني حرة؛ لأن السِّوار إنما يكون للحرائر عندهم. حاشية الشهاب ٦/ ٦٣.
(٥) في الأصل و(م): الملتمس، والبيت في الأصمعيات ص٢٤٥، والكامل ١/ ٣٦٣، والخزانة ١٠/ ٥٩.
(٦) جمع العِرنين: وهو الأنف كله، وقيل: رأس الأنف. اللسان (عرن).

وذلك بناءً على أنَّ «أنتم» بعينه ضميرُ «تملكون» المؤخَّر، فهو في المعنى فاعلٌ مقدَّم، وتقديمُ الفاعلِ المعنويِّ يفيد الاختصاصَ إذا ناسب المقام، فيفيد الكلامُ حينئذٍ ترتُّبَ الإمساك. وسيأتي قريباً إن شاءَ اللهُ تعالى المرادُ منه على تفرُّدهم بملك الخزائن، ويُعلَم منه ترتُّبه على ملكها بالاشتراك بالطَّريق الأَوْلى.

وإلى تخريج مثلِ هذا التركيبِ على هذا الطَّرز ذهب البصريُّون، بَيدَ أنَّ أبا الحسن بنَ الضائع وغيرَه صرَّحوا بأنَّهم يمنعون إيلاءَ «لو» فعلاً مضمراً في الفصيح، ويُجيزونه في الضَّرورة وفي نادرِ كلام، ولعل شِعرَ المتلمِّس وَمثَلَ حاتِمٍ عندهم من ذلك، والحقُّ خلافُ ذلك.

وقال أبو الحسن عليُّ بن فضَّال[1] المجاشعي: إنَّ التقدير: لو كنتم أنتم تملكون. وظاهرُه أنَّ أنتم عنده توكيدٌ للضمير المحذوفِ مع الفعل، وليس بشيء.

وقال أبو الحسن بنُ الضائع: إنَّ الأصل: لو كنتم تملكون، فحُذفت كان وحدَها وانفصل الضمير، فهو عنده اسمٌ لكان محذوفةً، وجملةُ «تملكون» خبرُها. وعلى هذا تخرَّج نظائرُه.

قال أبو حيَّان[2] بعد نقل ما تقدَّم: وهذا التخريجُ أَحسن؛ لأنَّ حذفَ «كان» بعد «لو» معهودٌ في لسان العرب.

ولا يخفَى أنَّ الكلامَ على ما سمعتَ أوَّلاً أَفيد، وإن كان الظاهرُ أنَّ الإِمساكَ على هذا يكون على استمرار الملك.

والمرادُ من الإِمساك البخل؛ وذلك لأنَّ البخلَ إمساكٌ خاصّ، فلمَّا حُذف المفعولُ ووجِّه إلى نفس الفعلِ بمعنى: لَفعلتم الإِمساك، جُعل كنايةً عن أَبلغ أنواعِه وأقبحِها. وإلى كونه كنايةً عمَّا ذُكر ذهب صاحبُ «الفرائد» وغيرُه.

وجوِّز أن يكونَ مضمَّناً معنى البخل. وتعقِّب بأنَّه ليس بشيءٍ لفظاً ومعنًى.

وعلى ما ذكرنا يتخرَّج قولُهم للبخيل: ممسك.

---

(١) في الأصل و(م): فضالة، والمثبت من البحر ٦/ ٨٤، وهو الصواب، وقد سلفت ترجمته ١٣/ ٣٨١.

(٢) في البحر ٦/ ٨٤.

﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ﴾ أي: مخافةَ الفقر، كما أَخرجه ابنُ جَرير وابنُ المنذرِ عن ابنِ عباس[١]، ورُوي نحوُه عن قتادةَ. وإليه ذهب الراغبُ[٢]، قال: يقال: أَنفقَ فلان، إذا افتقر. وأبو عبيدةَ قال: أَنفق وأَملق وأَعدم وأَصرم بمعنًى واحد.

وقال بعضُهم: الإنفاقُ بمعناه المعروف، وهو صرفُ المال، وفي الكلام مقدَّر، أي: خشيةَ عاقبةِ الإنفاق. وجوِّز أن يكونَ مجازاً عن لازمه، وهو النَّفاد.

ونصب «خشية» على أنَّه مفعولٌ له. وجَعْلُه مصدراً في موضع الحال ـ كما جوَّزه أبو البقاءِ[٣] ـ خلافُ الظاهر.

وقد بلغت هذه الآيةُ من الوصف بالشُّحِّ الغايةَ القصوَى التي لا يبلغها الوهم، حيث أَفادت أنَّهم لو ملكوا خزائنَ رحمةِ اللهِ تعالى التي لا تتناهَى وانفردوا بملكها من غيرِ مزاحم، أمسكوها من غير مقتضٍ إلَّا خشيةَ الفقر، وإن شئتَ فوازن بقول الشاعر:

ولَوَ انَّ دارك أَنبتت لك أرضُها ... إبَراً يضيق بها فِناءُ المنزِلِ
وأتاك يوسفُ يستعيرك إبرةً ... ليَخِيطَ قَدَّ قميصِه لم تفعل[٤]

مع أنَّ فيه من المبالغات ما يزيد على العشرة، ترى التفاوتَ الذي لا يُحصَر.

وجعل غيرُ واحدٍ الخطابَ فيها عامّاً، فيقتضي أن يكونَ كلُّ واحدٍ من الناس بخيلاً، كما هو ظاهرُ ما بعد، مع أنَّه قد أثبت لبعضهم الإِيثارَ مع الحاجة.

وأُجيب بأنَّ ذلك بالنِّسبة إلى الجَواد الحقيقيِّ والفيَّاض المطلق عزَّ مجدُه؛ فإنَّ الإنسانَ إمَّا ممسكٌ أو منفق، والإنفاقُ لا يكون إلَّا لغرضٍ للعاقل، كعِوَض ماليّ، أو معنوي، كثناءٍ جميل، أو خدمةٍ واستمتاع كما في النفقة على الأهل، أو نحوِ ذلك، وما كان لعِوَض كان مبادلةً لا مباذلة، أو هو بالنظر إلى الأغلب وتنزيلِ غيرِه منزلةَ العدم، كما قيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٩٨، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٠٤.
(٢) في المفردات (نفق).
(٣) في الإملاء ٣/ ٥٠٠.
(٤) نسبهما صاحب العقد الفريد ٦/ ١٨١ لمحمد بن مسلمة، وصاحبُ الوافي بالوفيات ١٤/ ١٩١-١٩٢ لزرزر الرفاء، وصاحب معاهد التنصيص ٣/ ٢١-٢٢ لابن الرومي.

عَــدِّنــا فــي زمــانــنــا عــن حــديــث الــمــكــارمِ
مــن كــفَــى الــنــاسَ شــرَّه فــهــو فــي جُــود حــاتــم[١]

وهذا الجوابُ عندي أَوْلى من الأوَّل، وعلى ذلك يُحمَل قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ مبالغاً في البخل.

وجاء القَتْر بمعنى تقليلِ النفقة، وهو بإزاء الإسراف وكلاهما مذموم، ويقال: قترت الشيءَ وأقترته وقتَّرته، أي: قلَّلته، وفلان مُقتِر: فقير. وأصل ذلك ـ كما قال الراغبُ[٢] ـ من القُتار والقَتَر، وهو الدخانُ الساطعُ من الشِّواء والعُود ونحوِهما، فكأن المقتِر والمقتِّر هو الذي يتناول من الشيءِ قُتارَه.

وقيل: الخطابُ لأهل مكةَ الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوعِ والأنهارِ وغيرِها، والمرادُ من الإنسان كما في القول الأوَّل الجِنس، ولاشكَّ في أنَّ جنسَ الإنسان مجبولٌ على البخل؛ لأنَّ مبنَى أمرِه الحاجة. وقيل: الإنسان المعهود، وعليه الإمام[٣].

ووجهُ ارتباطِ الآيةِ بما قبلَها ـ على تخصيص الخطاب ـ أنَّ أهل مكةَ طلبوا ما طلبوا من اليَنبوع والأنهارِ لتكثرَ أقواتُهم وتتَّسعَ عليهم، فبيَّن سبحانه أنَّهم لو ملكوا خزائنَ رحمةِ الله تعالى لَبخلوا وشحُّوا، ولَمَا قَدِموا على إيصال النفعِ لأحد، والمرادُ التشنيعُ عليهم بأنَّهم في غاية الشُّحِّ ويقترحون ما يقترحون، أو المرادُ أنَّ صفتَهم هذه، فلا فائدةَ في إسعافهم بما طلبوا. كذا قال العسكريُّ وغيرُه، فالآيةُ عندهم مرتبطةٌ بقوله تعالى: (وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا) ويكفي على العموم اندراجُ أهلِ مكةَ فيه.

وقال أبو حيَّان[٤]: المناسبُ في وجه الارتباطِ أن يقال: إنَّه عليه الصلاة

---

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٦٤. والبيتان لأبي الحسن محمد بن لنكك البصري، كما في زهر الآداب ١/ ٤٣. وفيه: عدِّيا، بدل: عدنا.

(٢) في المفردات (قتر).

(٣) في التفسير الكبير ٢١/ ٦٣، وقال: وهم الذين قالوا: «لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً».

(٤) في البحر المحيط ٦/ ٨٣-٨٤.

والسلام قد منحه اللهُ تعالى ما لم يمنحْه لأحدٍ من النبوَّة والرِّسالة إلى الإنس والجنّ، فهو ﷺ أحرصُ الناسِ على إيصال الخيرِ إليهم وإنقاذهم من الضَّلال، يثابر على ذلك ويخاطرُ بنفسه في دعائهم إلى الله تعالى، ويَعرض ذلك على القبائل وأحياءِ العرب، سمحاً بذلك لا يطلب منهم أجراً، وهؤلاء أقرباؤه لا يكاد يُجيب منهم أحدٌ إلَّا الواحدُ بعدَ الواحد، قد لجُّوا في عِناده وبغضائه، فلا يصل منهم إليه إلَّا الأذى، فنبَّه تعالى شأنُه بهذه الآيةِ على سماحته عليه الصلاة والسلام وبذلِ ما آتاه الله تعالى، وعلى امتناع هؤلاء أن يصلَ منهم شيءٌ من الخير إليه ﷺ، فهي قد جاءت مبيِّنة تباينَ ما بينَه عليه الصلاة والسلام وبينَهم مِن حرصه على نفعهم، وعدم إيصال شيءٍ من الخير منهم إليه. اهـ.

فالارتباطُ بين الآيةِ وبين مجموعِ الآياتِ السابقة من حيث إنَّها تُشعر بحرصه ﷺ على هدايتهم، ولَعَمري إنَّ هذا ممَّا يأباه الذوقُ السليم والذهنُ المستقيم.

ويحتمل أن يكونَ وجهُ الارتباطِ اشتمالَها على ذمِّهم بالشحِّ المفرِط، كما أنَّ ما قبلها مشتملٌ على ذمِّهم بالكفر كذلك، وهما صفتان سيِّئتان، ضررُ إحداهما قاصرٌ وضررُ الأخرى متعدٍّ، فتأمَّل فلمسلك الذهنِ اتِّساع، واللهُ تعالى أعلمُ بمراده.

ولمَّا حكى سبحانه عن قريشٍ ما حكى من التعنُّت والعنادِ مع رسولِهِ ﷺ، سلَّاه تعالى جَدُّه بما جرى لموسى عليه السلام مع فرعونَ وما صنع سبحانه بفرعونَ وقومِه، فقال عزَّ قائلاً: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ ظاهرُ السِّياق والنظائرِ يقتضيانِ كونَ المعنى: تسعَ أدلَّةٍ واضحاتِ الدَّلالة على نبوَّة موسى عليه السلام وصحَّة ما جاءَ به من عند اللهِ تعالى، ولا ينافيه أنَّه قد أُوتي من ذلك ما هو أكثرُ مما ذُكر؛ لأنَّ تخصيصَ العددِ بالذِّكر لا يدلُّ على نفي الزائد، كما حقِّق في الأصول. وإلى هذا ذهب غيرُ واحد، إلَّا أنه اختُلف في تعيين هذه التِّسع، ففي بعض التفاسير: هي ـ كما في التَّوراة ـ العصا، ثم الدم، ثم الضفادع، ثم القُمَّل، ثم موتُ البهائم، ثم بردٌ كنارٍ أُنزل مع نار مضطرمةٍ أَهلكت ما مرَّت به من نباتٍ وحَيَوان، ثم جراد، ثم ظُلمة، ثم موتٌ عمَّ كبارَ الآدميين وجميعَ الحيوانات.

وأخرج عبدُ الرزاق، وسعيدُ بن منصور، وابن جَرير، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتمٍ من طرقٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أنَّها العصا، واليدُ، والطُّوفان، والجراد،

والقمَّل، والضَّفادع، والدمُ، والسِّنين، ونقصٌ من الثمرات[١]. ورُوي ذلك عن مجاهدٍ والشعبيِّ وقتادةَ وعكرمة.

وتُعقِّب هذا بأنَّ السِّنين والنقصَ من الثمرات آيةٌ واحدة، كما رُوي عن الحسن.

ورُدَّ بأنَّه ليس بالحسن؛ إذ ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:١٣٠] يقتضي المغايرة، فيحمل الأوَّلُ على الجدب في بَوَاديهم، والثاني على النُّقصان في مزارعهم، أو على نحوِ ذلك، وقد تقدَّم الكلامُ فيه، فلا ضيرَ في عدِّهما آيتين.

وأخرج ابن جَريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ في روايةٍ أخرى عن الحَبر أنَّها: يدُه عليه السلام، ولسانُه، وعصاه، والبحر، والطُّوفان، والجراد، والقمَّل، والضَّفادع، والدم[٢].

وفي «الكشَّاف»[٣] عنه رضي الله عنه أنَّها: العصا، واليد، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدمُ، والحجر، والبحر، والطورُ الذي نَتَقَه اللهُ تعالى على بني إسرائيل.

وتعقَّبه في «الكشف» بقولِه فيه: إنَّ الحجرَ والطُّور ليسا من الآيات المذهوبِ بها إلى فِرعون، وقال تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل:١٢] وذَكَر سبحانه في هذه السُّورة: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الآية:١٠٢] والإشارةُ إلى الآيات، ثم قال: والجواب: جاز أن يكونَ التسعُ البيناتُ بعضاً منها غيرَ البعضِ من تلك التِّسع، وليس في هذه الآيةِ أن الكلَّ لفرعونَ وقومِه، وأما الإشارةُ فإلى البعض بالضَّرورة؛ لأنَّ الكلَّ إنما حصلت على التدريج، وفلقُ البحرِ لم يكن في معرض التحدِّي، بل عندما حقَّ الهلاك. اهـ.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٩٠-٣٩١، وتفسير الطبري ١٥/ ١٠١-١٠٢، والكلام من الدر المنثور ٤/ ٢٠٤.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٩٩ والكلام من الدر المنثور ٤/ ٢٠٤.

(٣) ٢/ ٤٦٨.

ولا يخلو عن ارتكاب خلافِ الظاهر، وما رُوي عن ابن عباسٍ أوّلاً لائحُ الوجه ما فيه إشكال، ونَسَبَه في «الكشّاف»[1] إلى الحسن، وهو خلافُ ما وجدناه في الكتب التي يعوَّل عليها في أمثالِ ذلك.

ورُوي أنَّ عمرَ بن عبدِ العزيز عليه الرحمةُ سأل محمدَ بن كعبٍ عن هذه الآيات، فعدَّ ما عدَّ وذَكَرَ فيه الطَّمس، فقال عمر: كيف يكونُ الفقيهُ إلَّا هكذا، ثم قال: يا غلام، أَخرج ذلك الجِراب، فأَخرجه فنفضه، فإذا بيضٌ مكسورٌ بنصفين، وجوزٌ مكسور، وفومٌ وحِمَّص وعدس، كلُّها حجارة.

هذا وظاهرُ بعضِ الأَخبار يقتضي خلافَ ذلك. فقد أَخرج أحمد، والبيهقيّ، والطبرانيّ، والنَّسائي، وابنُ ماجه، والترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيح، والحاكمُ وقال: صحيحٌ لا نعرف له علَّة، وخلقٌ آخرون، عن صفوانَ بنِ عَسَّال: أنَّ يهوديين قال أحدُهما لصاحبه: إنطلق بنا إلى هذا النبيِّ نسأله، فأَتَياه ﷺ فسألاه عن قول اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تُشركوا بالله شيئاً، ولا تَزنوا، ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم اللهُ تعالى إلَّا بالحقّ، ولا تَسرقوا، ولا تَسحَروا، ولا تأكلوا الرِّبا، ولا تمشوا ببريءٍ إلى سلطانٍ ليقتلَه، ولا تقذفوا محصَنة، ولا تفرُّوا من الزَّحف ـ وفي رواية: أو قال: «لا تفرُّوا من الزَّحف» شكَّ شعبة ـ وعليكم يا يهودُ خاصَّةً أن لا تعتدوا في السَّبت» فقبَّلا يديه ورِجليه وقالا: نشهد أنَّك نبيّ. . الخبر[2].

ومن هنا قيل: المرادُ بالآيات الأَحكام، وقال الشِّهاب الخَفاجيّ[3]: إنه التفسيرُ الصحيح، ووجهُ إطلاقها عليها بأنَّها علاماتٌ على السَّعادة لمن امتثلها والشَّقاوةِ لغيره.

وقيل: أُطلقت عليها لأنَّها نزلت في ضمن آياتٍ بمعنى عباراتٍ دالَّة على

---

(١) مسند أحمد (١٨٠٩٦)، وسنن البيهقي ٨/ ١٦٦، والمعجم الكبير (٧٣٩٦)، وسنن النسائي ٧/ ١١١، وسنن ابن ماجه (٣٧٠٥) مختصراً جدّاً، وجامع الترمذي (٢٧٣٣)، والمستدرك ١/ ٩ وروايةُ شَكِّ شعبة أخرجها أحمد (١٨٠٩٢)، والترمذي (٣١٤٤).

(٢) انظر التخريج السالف.

(٣) في حاشيته ٦/ ٦٥.

المعاني نحو آياتِ الكتاب، فيكون من قبيل إطلاق الدالّ وإرادةِ المدلول.

وقيل: لا ضيرَ أن يرادَ على ذلك بالآيات العباراتُ الإلهيةُ الدالَّة على تلك الأحكامِ من حيث إنها دالَّة عليها.

وفيه ـ وكذا في سابقه ـ القولُ بإطلاق الآياتِ على ما أُنزل على غير نبيِّنا ﷺ من العبارات الإلهيةِ كإطلاقها على ما أُنزل عليه عليه الصلاة والسلام منها.

واستُشكل بأنَّ الآياتِ في الرِّواية التي لا شكَّ فيها عشرة، وما في الآية المسؤولِ عنها تِسع.

وأُجيب بأنَّ الأخيرَ فيها، أعني: لا تعتدوا في السَّبت، ليس من الآيات؛ لأنَّ المرادَ بها أحكامٌ عامَّة ثابتةٌ في الشرائع كلِّها، وهو ليس كذلك؛ ولذا غيِّر الأسلوبُ فيه، فهو تذييلٌ للكلام وتتميمٌ له بالزِّيادة على ما سألوه ﷺ.

وفي «الكشف» أنَّه من الأُسلوب الحكيم؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام لمَّا ذكر التسعَ العامةَ في كلِّ شريعة، ذكر خاصًّا بهم؛ ليدلَّ على إحاطة علمِه ﷺ بالكلّ. وهو حسن، وليس الأسلوبُ الحكيمُ فيه بالمعنى المشهور، فإطلاقُ القولِ بأنَّه ليس من الأسلوبِ الحكيم ـ كما فعل الخَفاجي[1] ـ ليس في محلِّه.

وقال بعضُ الأجلَّة: إنَّ هذه الأشياءَ لا تعلُّق لها بفرعون، وإنَّما أُوتيها بنو إسرائيل، ولعل جوابَه ﷺ بما ذكر؛ لِمَا أنه المهمُّ للسائل، وقَبولَه؛ لمَا أنَّه كان في التوراة مسطوراً، وقد عُلِم أنه ما عَلِمه رسولُ اللهِ ﷺ إلَّا من جهة الوحي. اهـ.

وتعقِّب بأنَّا لا نسلِّم أنه يجب في الآيات المذكورةِ في الآية أن تكونَ ممَّا له تعلُّق بفرعون، وما بعدُ ليس نصًّا في ذلك، نعم هو كالظَّاهر فيه، لكن كثيراً ما تُترك الظواهرُ للأخبار الصحيحة، سلَّمنا أنَّه يجب أن يكونَ لها تعلُّق، لكن لا نسلِّم أنَّ تلك الأحكامَ لا تعلُّق لها؛ لجواز أن يكونَ كلُّها أو بعضُها مما خوطب به فرعونُ وبنو إسرائيلَ جميعاً، لابدَّ لنفي ذلك من دليل، وكأنَّ حاصلَ ما أَراد من قوله: لعل جوابه ﷺ إلخ، أنَّ ذلك الجوابَ من الأُسلوب الحكيم، بأن يكونَ موسى عليه

(١) في حاشيته ٦/ ٦٥.

السلام قد أُوتي تسعَ آياتٍ بيِّنات بمعنى المعجزاتِ الواضحات، وهي المرادةُ في الآية، وأُوتي تسعاً أخرى بمعنى الأحكام، وهي غيرُ مرادة، إلَّا أن الجوابَ وقع عنها لِمَا ذكر. وهو كما ترى، فتأمَّل.

فمؤيِّدات كلٍّ من التفسيرين، أعني تفسيرَ الآياتِ بالأدلَّة والمعجزاتِ وتفسيرَها بالأحكام، متعارضة، وأقوى ما يؤيِّد الثاني الخبرُ.

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وقرأ جمعٌ: «فسَلْ»(١). والظاهر أنَّه خطابٌ لنبيِّنا ﷺ، والسؤالُ بمعناه المشهور. إلَّا أن الجمهورَ على أنه خطابٌ لموسى عليه السلام، والسؤالُ إمَّا بمعنى الطلب، أو بمعناه المشهور؛ لقراءة رسولِ الله ﷺ، وأخرجها أحمدُ في «الزُّهد» وابنُ المنذر، وابن جَرير، وغيرُهم عن ابن عباس: «فسَال» على صيغة الماضي بغيرِ همز(٢)، كقال، وهي لغةُ قريش، فإنَّهم يُبدِلون الهمزةَ المتحرِّكة؛ وذلك لأنَّ هذه القراءةَ دلَّت على أنَّ السائلَ موسى عليه السلام، وأنَّه مستعقَبٌ عن الإِيتاء، فلا يجوز أن يكونَ «فاسأل» خطاباً للنبيِّ ﷺ؛ لئلَّا تتخالفَ القراءتان، ولا بدَّ إذ ذاك من إضمارٍ؛ لئلَّا يختلفا خبراً وطلباً، أي: فقلنا له: اطلبهم من فرعونَ وقل له: أرسِل معي بني إسرائيل، أو: اطلب منهم أن يعاضدوك وتكونَ قلوبُهم وأيديهم معك، أو: سَلْهم عن إيمانهم وعن حال دينِهم، واستفهِم منهم هل هم ثابتونَ عليه أو اتَّبعوا فرعون؟

ويتعلَّق بالقول المضمرِ قولُه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ وهو متعلِّق بـ «سَالَ» على قراءته ﷺ، والدليلُ على ذلك المضمرِ في اللفظ قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ﴾ لأنَّه لو كان «فاسأل» خطاباً لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام، لانفكَّ النظم، وأيضاً لا يظهر استعقابُه، ولا تسبُّبه عن إيتاء موسى عليه السلام، نَعَم جعل الذاهبون إلى الأوَّل «فاسأل» اعتراضاً من باب: زيدٌ فاعلمْ فقيه، والفاءُ تكون للاعتراض كالواو، وعلى ذلك قولُه:

واعلم فعِلمُ المرءِ ينفعه ... أنْ سوف يأتي كلُّ ما قُدِرا(٣)

---

(١) هي قراءة ابن كثير والكسائي وخلف كما في النشر ١/ ٤١٤.
(٢) ينظر تفسيرالطبري ١٥/ ١٠٥، والدر المنثور ٤/ ٢٠٥، والكشاف ٢/ ٤٦٨، والبحر ٦/ ٨٥.
(٣) البيت في معاهد التنصيص ١/ ٣٧٧، وسلف ١/ ٤٢٨.

وهذا الوجهُ مستغنٍ عن الإضمار، و«إذ جاءهم» متعلِّق عليه بـ «آتينا» ظرفاً، ولا يصحُّ تعلُّقه بـ : اسأل؛ إذ ليس سؤالُه ﷺ في وقت مجيءِ موسى عليه السلام. قال في «الكشف»: والمعنى: فاسأل يا محمدُ مؤمني أهل الكتابِ عن ذلك، إمَّا لأنَّ تظاهرَ الأدلَّة أقوى، وإمَّا من باب التهييجِ والإلهاب، وإمَّا للدَّلالة على أنه أمرٌ محقَّق عندهم ثابتٌ في كتابهم، وليس المقصودُ حقيقةَ السؤال، بل كونَهم ـ أعني المسؤولين ـ من أهل عِلمِه؛ ولهذا يؤمر مثلُك بسؤالهم. وهذا هو الوجهُ الذي يَجمل به موقعُ الاعتراض.

وجوَّز أن يكونَ منصوباً باذكر مضمَراً على أنَّه مفعولٌ به، وجاز على هذا ألَّا يجعلَ «فاسأل» اعتراضاً، ويُجعلَ اذكر بدلاً عن اسأل؛ لمَا سمعتَ من أنَّ السؤالَ ليس على حقيقته.

وكذا جوِّز أن يكونَ منصوباً كذلك بيُخبروك مضمراً وَقَعَ جوابَ الأمر، أي: سَلْهم يُخبروك إذ جاءهم. ولا يجوز على هذا الاعتراضُ، نعم يجوز الاعتراضُ على هذا بأنَّ أخبر يتعدَّى بالباء أو عن، لا بنفسه، فيجب أن يقدَّر بدلَ الإخبار الذِّكرُ ونحوُه مما يتعدَّى بنفسه. وأمَّا جعلُه ظرفاً له غيرُ صحيح؛ إذ الإخبارُ غير واقعٍ في وقت المجيء.

واعتُرض أيضاً بأنَّ السؤالَ عن الآيات، والجوابُ بالإخبار عن وقت المجيءِ أو ذِكرِه لا يلائمه. ويمكن الجوابُ بأنَّ المرادَ: يُخبروك بذلك الواقعِ وقتَ مجيئه لهم، أو يذكروا ذلك لك. وهو كما ترى.

وبعضُهم جوَّز تعلقَه بيخبروك على أنَّ «إذ» للتعليل، وعلى هذا يجوز تعلُّقُه باذكر.

والمعنى على سائر احتمالاتِ كون الخطابِ لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام: إذ جاء آباءهم؛ إذ بنو إسرائيلَ حينئذٍ هم الموجودون في زمانه ﷺ، وموسى عليه السلام ما جاءهم، فالكلامُ إمَّا على حذفِ مضاف، أو على ارتكاب نوعٍ من الاستخدام(١). والاحتمالاتُ على تقدير جعل الخطابِ لمن يسمع هي الاحتمالاتُ التي سمعتَ على تقدير جَعلِه لسيِّد السامعين عليه الصلاة والسلام.

---

(١) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضمير مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/٩٠١.

والفاءُ في «فقال» على سائر الاحتمالاتِ والأوجُهِ فصيحة، والمعنى: إذ جاءهم فذهب إلى فرعونَ وادَّعى النبوَّة وأَظهر المعجزةَ وكيتَ وكيت، فقال: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ۝١٠١﴾ سُحرتَ فاختلَّ عقلُك؛ ولذلك اختلَّ كلامُك وادَّعيت ما ادَّعيت، وهو كقوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء: ٢٧].

وقال الفرَّاء والطبريّ: مسحوراً بمعنى ساحراً[(١)] على النَّسب، أو حقيقة، وهو يناسب قلبَ العصا ونحوَه على تفسير الآياتِ بالمعجزات.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ردًّا لقوله المذكور: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ يا فرعونُ ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: الآياتِ التِّسع، أو بعضَها. والإشارةُ إلى ذلك بما ذُكر على حدِّ قولِه على إحدى الرِّوايتين:

والـــعـــيـــشَ بـــعـــد أولـــئـــك الأيـــامِ

وقد مرّ[(٢)].

﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: خالقُهما ومدبِّرهما.

وحاصل الردِّ أنَّ علمَك بأنَّ هاتيكَ الآياتِ من الله تعالى - إذ لا يَقدِر عليها سواه تعالى - يقتضي أنِّي لست بمسحورٍ ولا ساحر، وأنَّ كلامي غيرُ مختلّ، لكن حبَّ الرِّياسة حملك على العِناد.

وفي التعرُّض لعُنوان الرُّبوبية إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَها من آثار ذلك، وفي «البحر»[(٣)]: ما أحسنَ إسنادَ إنزالِها إلى ربِّ السماواتِ والأرض؛ إذ هو عليه السلام لمَّا سأله فرعونُ في أوَّل محاورتِه فقال له: وما ربُّ العالمين؟ قال: ربُّ السماواتِ والأرض، تنبيهاً على نقصه وأنَّه لا تصرُّفَ له في الوجود، فدعواه الربوبيةَ دعوَى مستحيل، فبكَّته وأَعلمه أنَّه يعلم آياتِ الله تعالى ومَن أنزلها، ولكنَّه مكابرٌ معاند، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤] وخاطَبَه بذلك على سبيل التوبيخ، أي: أنت بحالِ مَن يعلم هذه، أو هي من

---

(١) تفسير الطبري ١٥/١٠٦، والبحر ٦/٨٦.
(٢) ١٤/٥١٠.
(٣) ٦/٨٦.

الوضوحِ بحيث تعلمها، وليس خطابُه على جهة إخباره عن عِلمه أو العلمِ بعلمه ليكونَ إفادةَ لازمِ الخبر، كقولكَ لمن حفظَ التوراة: حفظتَ التوراة.

وقرأ عليٌّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وزيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما، والكِسائي: «لقد عَلِمتُ» بضمِّ التاء[1]، فيكون موسى عليه السلام قد أَخبر عن نفسه أنَّه ليس بمسحورٍ كما زعم عدوُّ اللهِ تعالى وعدوُّه، بل هو يعلم أنْ ما أنزل تلك الآياتِ إلَّا خالقُ السماواتِ والأرض ومدبِّرُها.

ورُوي عن الأمير كرَّم اللهُ تعالى وجهَه أنه قال: واللهِ ما علم عدوُّ اللهِ تعالى، ولكن موسى عليه السلام هو الذي علم.

وتعقَّبه أبو حيانَ[2] بأنَّه لا يصحّ؛ لأنه رواه كلثومٌ المرادي، وهو مجهول، وكيف يقول ذلك بابُ مدينةِ العلم كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، ووجهُ نسبةِ العلم إليه ظاهر.

وقد ذكر الجلال السيوطيُّ في «الدُّر المنثور»[3] أنَّ سعيدَ بن منصورٍ وابنَ المنذر وابنَ أبي حاتمٍ أَخرجوا عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه أنَّه كان يقرأ بالضمِّ ويقول ذلك، ولم يتعقَّبه بشيء، ولعل هذا المجهولَ الذي ذكره أبو حيَّان في أسانيدهم، واللهُ تعالى أعلم.

وجملةُ «ما أنزل» إلخ معلَّق عنها سادَّة مسدَّ [مفعولي][4] «علمت».

وقولُه تعالى: ﴿بَصَآئِرَ﴾ حالٌ من «هؤلاء»، والعاملُ فيه «أنزل» المذكورُ، عند الحوفيِّ وأبي البقاءِ[5] وابنِ عطية[6]، وما قبلَ «إلَّا» يعمل فيما بعدها إذا كان مستثنًى منه أو تابعاً له، وقد نصَّ الأخفشُ والكسائيُّ على جواز: ما ضَرَبَ هنداً إلَّا زيدٌ ضاحكةً، ومذهب الجمهورِ عدمُ الجواز، فإنْ ورد ما ظاهرُه ذلك أُوِّل عندهم

---

(١) البحر ٦/ ٨٦، وقراءة الكسائي في التيسير ص١٤١، والنشر ٢/ ٣٠٩.
(٢) في البحر ٦/ ٨٦.
(٣) ٤/ ٢٠٥.
(٤) زيادة يقتضيها السياق، وانظر حاشية الشهاب ٦/ ٦٦.
(٥) الإملاء ٣/ ٥٠١.
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٩.

على إضمار فعلٍ يدلُّ عليه ما قبلُ، والتقديرُ هنا: أنزلها بصائر، أي: بيناتٍ مكشوفاتٍ تبصِّرك صدقي، على أنَّه جمعُ بصيرةٍ بمعنى مبصَرة، أي: بيِّنة، وتطلق البصائرُ على الحُجَج بجعلها كأنَّها بصائرُ العقول، أي: ما أنزلها إلَّا حُججاً وأدلَّةً على صدقي، وتكون بمعنى العِبرة كما ذكره الراغب(١).

هذا ولا يخفَى عليك أنَّه إذا كان المرادُ من الآياتِ التسعِ ما اقتضاه خبرُ صفوانَ السابق، يجوز أن تكونَ «هؤلاء» إشارةً إلى ما أظهره عليه السلام من المعجزات، ويُعتبر إظهارُ ذلك فيما يُفصح عنه الفاءُ الفصيحة، وإن أبيتَ إلَّا جعلَها إشارةً إلى الآيات المذكورةِ بذلك المعنى لتحقُّق جميعِها من أوَّل الأمرِ وثبوتِها وقتَ المحاورةِ وشدَّةِ ملاءمة الإنزالِ لها، احتجتَ إلى ارتكاب نوعِ تكلُّفٍ فيما لا يخفَى عليك.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ أي: هالكاً، كما رُوي عن الحسن ومجاهد، على أنَّه من ثَبَرَ اللازم بمعنى هلك، ومفعولٌ فيه(٢) للنَّسب، بناءً على أنه يأتي له من اللازم والمتعدِّي، وفَسَّره بعضُهم بمهلَكاً، وهو ظاهر.

وعن الفرَّاء(٣) أنَّه قال: أي: مصروفاً عن الخير مطبوعاً على الشرّ، من قولهم: ما ثبرك عن هذا، أي: ما منعك، وإليه يرجع ما أخرجه الطَّستيُّ عن ابن عباسٍ من تفسيره بـ: ملعوناً محبوساً عن الخير.

وأَخرج الشيرازيُّ في «الألقاب» وابنُ مردويه من طريق ميمونِ بن مِهرانَ عنه رضي الله عنه تفسيرَه بناقص العقل. وفي معناه تفسيرُ الضحَّاك بمسحور، قال: ردَّ موسى عليه السلام بمثل ما قال له فرعونُ مع اختلاف اللفظ.

وأَخرج ابنُ أبي الدُّنيا في «ذم الغضب» عن أنس بنِ مالكٍ أنَّه سئل عن «مثبوراً» في الآيةِ فقال: مخالفاً، ثم قال: الأنبياءُ عليهم السلام [أكرم](٤) من أن يَلعنوا أو يَسبُّوا.

---

(١) في المفردات (بصر).
(٢) يعني وزن مفعول في «مثبور».
(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٣٢.
(٤) ما بين حاصرتين من الدر المنثور ٤/ ٢٠٥ وعنه نقل المصنف هذه الأخبار.

وأنت تعلم أنَّ هذا معنًى مجازيٌّ له، وكذا ناقصُ العقل، ولا داعيَ إلى ارتكابه، وما ذكره الإمام مالكٌ[١] فيه ما فيه، نعم قيل: إنَّ تفسيرَه بهالكاً ونحوه ممَّا فيه خشونةٌ ينافي قولَه تعالى خطاباً لموسى وهارونَ عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] وأشار أبو حيانَ[٢] إلى جوابه بأنَّ موسى عليه السلام كان أوَّلاً يتوقَّع من فرعونَ المكروه، كما قال: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] فأُمر أن يقولَ له قولاً ليِّناً فلمَّا قال سبحانه له: «لا تخف» وَثِقَ بحماية اللهِ تعالى، فصال عليه صولةَ المحميِّ، وقابله من الكلامِ بما لم يكن ليقابله به قبلَ ذلك. وفيه كلامٌ ستطَّلع عليه إن شاء اللهُ تعالى في محلِّه.

وبالجملة التفسيرُ الأولُ أَظهرُ التفاسير، ولا ضيرَ فيه، لاسيَّما مع تعبيرِ موسى عليه السلام بالظنّ، ثم إنَّه عليه السلام قد قارع ظنَّه بظنِّه، وشتَّانَ ما بين الظنَّين، فإنَّ ظنَّ فرعونَ إفكٌ مبين، وظنَّ موسى عليه السلام يحوم حولَ اليقين.

وقرأ أُبيٌّ: «وإنْ إخالُكَ يا فِرعونُ لمَثبوراً» على «إنْ» المخفَّفةِ واللامِ الفارقة[٣]، وإِخال بمعنى أَظنّ، بكسر الهمزةِ في الفصيح، وقد تُفتَح في لغة، كما في «القاموس»[٤].

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أي: موسى وقومَه، وأصلُ الاستفزازِ الإزعاجُ، وكنى به عن إخراجهم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مصرَ التي هم فيها، أو من جميعِ الأرض، ويلزم إخراجُهم من ذلك قتلَهم واستئصالَهم، وهو المراد.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ أي: فعكسنا عليه مكرَه حيث أراد ذلك لهم دونَه، فكان له دونَهم، فاستُفزَّ بالإغراق هو وقومُه، وهذا التعكيسُ أظهرُ من الشمس على الثاني، وظاهرٌ على الأوَّل؛ لأنَّه أراد إِخراجَهم من مصر، فأُخرج هو أشدَّ الإخراج بالإهلاك، والزيادةُ لا تضرُّ في التعكيس، بل تؤيِّده.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل المصنف رحمه الله أراد ما روي عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) في البحر ٦/ ٨٦.

(٣) البحر ٦/ ٨٦.

(٤) مادة (خيل) وعبارته: وتفتح في لُغَيَّة.

﴿وَقُلْنَا﴾ على لسان موسى عليه السلام ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد فِرعون، على معنى: من بعد إغراقِه، أو الضميرُ للإغراق المفهومِ من الفعل السابق، أي: من بعد إغراقه وإغراقِ مَن معه ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الذين أَرادَ فرعونُ استفزازَهم: ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يستفزَّكم منها، وهي أرض مصر. وهذا ظاهرٌ إنْ ثبت أنَّهم دخلوها بعد أنْ خرجوا منها وأَتْبعهم فرعونُ وجنودُه وأُغرقوا، وإنْ لم يثبت، فالمرادُ من بني إسرائيلَ ذريةُ أولئك الذين أراد فرعونُ استفزازَهم. واختار غيرُ واحدٍ أنَّ المرادَ من «الأرض» الأرضُ المقدَّسة، وهي أرضُ الشام.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: الكرَّة، أو الحياةِ، أو السَّاعة، أو الدارِ الآخرة. والمرادُ على جميع ذلك قيامُ الساعة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ أي: مختلطين أنتم وهم، ثم نحكم بينكم ونميِّز سعداءكم من أشقيائكم.

وأصلُ اللفيفِ الجماعةُ من قبائلَ شتى، فهو اسمُ جمع كالجميع، ولا واحدَ له، أو هو مصدرٌ شاملٌ للقليل والكثير؛ لأنَّه يقال: لفَّ لفّاً ولفيفاً، والمرادُ منه ما أُشير إليه، وفسَّره ابن عباسٍ بجميعاً. وكيفما كان، فهو حالٌ من الضمير المجرورِ في «بكم» ونصَّ بعضُهم على أنَّ في «بكم» تغليبَ المخاطَبين على الغائبين، والمرادُ: بهم وبكم، وما أَلطفَه مع «لفيفاً».

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ عَودٌ إلى شرح حالِ القرآنِ الكريم، فهو مرتبطٌ بقوله تعالى: (لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ) الآية، وهكذا طريقةُ العربِ في كلامها، تأخذ في شيءٍ وتستطرد منه إلى آخَرَ ثم إلى آخَرَ ثم إلى آخر، ثم تعود إلى ما ذكرته أوَّلاً، والحديثُ شجون، فضميرُ الغائبِ للقرآن، وأَبعَدَ مَن ذهب إلى أنَّه لموسى عليه السلام، والآيةُ مرتبطةٌ بما عندها، والإِنزالُ فيها كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] وقد حمله بعضُهم على هذا المعنى فيما قبلُ، أو للآيات التِّسع وذُكِّر على المعنى، أو للوعد المذكورِ آنفاً.

والظاهرُ أن الباءَ في الموضعين للملابسة، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحالِ من ضمير القرآن، واحتمالُ أن يكونَ أوَّلاً حالاً من ضميره تعالى خلافُ الظاهر.

والمرادُ بالحقِّ الأوَّل ـ على ما قيل ـ الحكمةُ الإلهية المقتضيةُ لإنزاله، وبالثاني ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ونحوِها، أي: ما أنزلناه إلَّا ملتبساً بالحقِّ المقتضي لإنزاله، وما نزل إلَّا ملتبساً بالحقِّ الذي اشتمل عليه.

وقيل: الباءُ الأولى للسببية متعلِّقة بالفعل بعدُ، والثانيةُ للملابسة. وقيل: هما للسببيَّة، فيتعلَّقان بالفعل.

وقال أبو سليمانَ الدمشقيّ: الحقُّ الأولُ التوحيد، والثاني الوعدُ والوعيد، والأمرُ والنهي.

وقيل: الحقُّ في الموضعين: الأمرُ المحفوظُ الثابت، والمعنى: ما أَنزلناه من السماءِ إلَّا محفوظاً بالرَّصد من الملائكة، وما نزل على الرَّسول إلَّا محفوظاً بهم من تخليط الشَّياطين. وحاصلُه أنَّه محفوظٌ حالَ الإنزال وحالَ النزولِ وما بعدَه، لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه.

وأَبعَدَ مَن جوَّز كونَ المرادِ بالحقِّ الثاني النبيَّ ﷺ، ومعنى نزولِه به نزولُه عليه وحلولُه عنده، من قولهم: نزل بفلانٍ ضيف.

وعلى سائر الأوجُهِ لا تَخفَى فائدةُ ذكرِ الجملة الثانيةِ بعد الأولى، وما يتوهَّم من التَّكرار مندفع. ونحا الطبريُّ إلى أنَّ الجملةَ الثانية توكيدٌ للأُولى من حيث المعنى؛ لأنَّه يقال: أنزلتُه فنزل، وأَنزلته فلم ينزل، إذا عرض له مانعٌ من النزول، فجاءت الجملةُ الثانيةُ مزيلةً لهذا الاحتمال.

وتحاشَى بعضُهم من إطلاق التوكيد؛ لما بين الإنزال والنزولِ من المغايرة، وادَّعى أنَّه لو كانت الثانيةُ توكيداً للأولى لَما جاز العطف؛ لكمال الاتِّصال.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيع بالثَّواب ﴿وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ للعاصي من العقاب، فلا عليك إلَّا التبشيرُ والإنذار، لا هدايةُ الكفرةِ المقترحين وإكراهُهم على الدِّين. ولعل الجملةَ لتحقيق حقِّية بعثتِه ﷺ إثرَ تحقيقِ حقِّية القرآن، ونصبُ ما بعدَ «إلا» على الحال.

﴿وَقُرْءَانًا﴾ نصب بفعل مضمَرٍ يفسِّره قولُه تعالى: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ فهو من بابِ الاشتغال، ورجَّح النصبَ على الرفع العطفُ على الجملة الفعلية، ولو رُفع على

الابتداءِ في غير القرآنِ جاز، إلَّا أنه لا بدَّ له من ملاحظة مسوِّغ عند مَن لا يكتفي في صحَّة الابتداءِ بالنَّكرة بحصول الفائدة، وعلى هذا أَخرجه الحوفيّ[١]. وقال ابنُ عطية: هو مذهبُ سيبويه[٢].

وقال الفرَّاء[٣]: هو منصوبٌ بـ «أرسلناك»، أي: ما أرسلناك إلَّا مبشراً ونذيراً وقرآناً، كما تقول: رحمةً؛ لأنَّ القرآنَ رحمة. ولا يخفَى أنه إعرابٌ متكلَّف لا يكاد يقوله فاضل.

ومما يُقضَى منه العجب ما جوَّزه ابنُ عطيةَ[٤] من نصبه بالعطف على الكافِ في «أرسلناك»، وقال أبو البقاءِ[٥] ـ وهو دون الأوَّل وفوقَ ما عداه ـ إنه منصوبٌ بفعل مضمرٍ دلَّ عليه «آتينا» السابق، أو «أرسلناك».

وجملةُ «فرقناه» في موضع الصفةِ له، أي: آتيناك قرآناً فرقناه، أي: أنزلناه منجَّماً مفرَّقاً، أو: فرَقنا فيه بين الحقِّ والباطل، فحُذف الجارُّ وانتصب مجرورُه على أنَّه مفعولٌ به على التوسُّع كما في قوله:

ويـومـاً شـهـدنـاه سـلـيـمـاً وعـامـراً[٦]

ورُوي ذلك عن الحسن.

وعن ابن عباس: بيَّنَّا حلالَه وحرامَه.

وقال الفرَّاء[٧]: أَحكمناه وفصَّلناه، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه، وابنُ عباس، وأُبيّ، وعبدُ الله، وأبو رجاء،

(١) أي: على أنه منصوب بإضمار فعل يفسره الظاهر بعده. البحر ٦/ ٨٧.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٠، وقوله: هو مذهب سيبويه، أي: كونه منصوباً بفعل مضمر.
(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٣٢.
(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٠.
(٥) في الإملاء ٣/ ٥٠٢.
(٦) سلف ١/ ٢٨٤.
(٧) في معاني القرآن ٢/ ١٣٣.

وقتادة، والشَّعبي، وحُميد، وعمر بنُ فائد، وزيد بن عليّ، وعمرو بن ذَرّ، وعكرمة، والحسن بخلافٍ عنه: «فرَّقناه» بشدِّ الراء[1]، ومعناه كالمخفَّف، أي: أَنزلناه مفرَّقاً منجَّماً، بيدَ أنَّ التضعيفَ للتكثير في الفعل، وهو التفريق، وقيل: فَرَقَ بالتخفيف يدلُّ على فصلٍ متقارب، وبالتشديد على فصلٍ متباعد. والأولُ أظهر.

ولمَّا كان قولُه تعالى الآتي: «على مكث» يدلُّ على كثرة نجومِه، كانت القراءتان بمعنًى. وقيل: معناه: فرقنا آياتِه بين أمرٍ ونهي، وحِكَمٍ وأحكام، ومواعظَ وأمثال، وقصصٍ وأخبارِ مغيَّباتٍ أتت وتأتي. والجمهورُ على الأوَّل.

وقد أَخرج ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ الأنباريِّ وغيرُهما عن ابن عباسٍ قال: نزل القرآن جملةً واحدةً من عندِ اللهِ تعالى من اللوح المحفوظِ إلى السَّفرة الكرامِ الكاتبين في السماءِ الدنيا، فنجَّمته السفرةُ على جبريلَ عليه السلام عشرين ليلة، ونجَّمه جبريلُ عليه السلام على النبيِّ ﷺ عشرين سنة[2].

وفي روايةٍ أنه أُنزل ليلةَ القدرِ في رمضان، ووُضع جملةً في بيت العزَّة في السماءِ الدنيا، ثم أُنزل نجوماً في عشرين.

وفي رواية: في ثلاثٍ وعشرين سنة. وفي أخرى: في خمسٍ وعشرين.

وهذا الاختلافُ ـ على ما في «البحر»[3] ـ مبنيٌّ على الاختلاف في سِنِّه ﷺ.

وأَخرج ابن الضُّرَيْس[4] من طريق قتادةَ عن الحسن كان يقول: أَنزل اللهُ القرآنَ على نبيِّ اللهِ ﷺ في ثماني عشرةَ سنة: ثمان سنين بمكَّة، وعشرٌ بعد ما هاجر.

وتعقَّبه ابن عطية[5] بأنه قولٌ مختلٌّ لا يصحُّ عن الحسن.

واعتمد جمعٌ أنَّ بين أوَّله وآخرِه ثلاثاً وعشرين سنة، وكان ينزل به جبريلُ عليه السلام ـ على ما قيل ـ خمسَ آياتٍ خمسَ آيات، فقد أَخرج البيهقيُّ في «الشُّعب»

(١) القراءات الشاذة ص٧٧، والمحتسب ٢/ ٢٣، والبحر ٦/ ٨٧.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٠٥.

(٣) ٦/ ٨٧.

(٤) في فضائل القرآن (١٢٦).

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

عن عمرَ رضي الله عنه أنه قال: تعلَّموا القرآنَ خمسَ آياتٍ خمسَ آيات؛ فإنَّ جبريلَ عليه السلام كان ينزل به خمساً خمساً[١].

وأخرج ابنُ عساكر من طريق أبي نضرةَ قال: كان أبو سعيدٍ الخدريُّ يعلِّمنا القرآن خمسَ آياتٍ بالغَداة، وخمسَ آياتٍ بالعَشيّ، ويُخبر أنَّ جبريل عليه السلام نزل به خمسَ آياتٍ خمسَ آيات[٢]. وكأنَّ المرادَ: في الغالب، فإنَّه قد صحَّ أنه نزل بأكثرَ من ذلك وبأقلَّ منه.

وقرأ أُبيٌّ وعبدُ الله: «فرَّقناه عليك»[٣].

﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي: تَؤدة وتأنٍّ؛ فإنه أيسرُ للحفظ وأعونُ على الفهم. ورُوي ذلك عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما. وقيل: أي: تطاولٍ في المدَّة وتقضِّيها شيئاً فشيئاً. والظاهرُ تعلُّق «لِتقرأَه» بـ «فرقناه»، و«على الناسِ» بـ «تقرأه»، و«على مُكثٍ» به أيضاً، إلَّا أنَّ فيه تعلُّقَ حرفَي جرٍّ بمعنًى بمتعلَّق واحد. وأُجيب بأنَّ تعلُّق الثاني بعد اعتبار تعلُّق الأوَّل به، فيختلف المتعلَّق.

وفي «البحر»[٤]: لا يبالَى بتعلُّق هذين الحرفين بما ذُكر؛ لاختلاف معناهما، لأنَّ الأولَ في موضع المفعولِ به، والثانيَ في موضع الحال، أي: متمهِّلاً مترسِّلاً. ولمَا في ذلك من القيل والقال، اختار بعضُهم تعلقَه بـ «فرقناه».

وجوَّز الخفاجيُّ[٥] تعلُّقَه بمحذوف، أي: تفريقاً، أو فرقاً على مكثٍ، أو قراءةً على مكثٍ منك، كمُكثِ تنزيله.

وجَعَله أبو البقاءِ[٦] في موضع الحالِ من الضمير المنصوبِ في «فرقناه»، أي: متمكِّثاً.

---

(١) الشعب (١٩٥٩) من طريق أبي العالية عن عمر، وأخرجه (١٩٥٨) عن أبي العالية قوله، وهو أصح كما ذكر البيهقي.
(٢) تاريخ ابن عساكر ٢٠/ ٣٩١، وفي إسناده: الصلت بن دينار، وهو متروك كما في التقريب.
(٣) البحر ٦/ ٨٧.
(٤) ٦/ ٨٧.
(٥) في حاشيته ٦/ ٦٨.
(٦) في الإملاء ٣/ ٥٠٢.

ومن العجيب قولُ الحوفيِّ: إنه بدلٌ من «على الناس». وقد تعقَّبه أبو حيانَ[١] بأنَّه لا يصح؛ لأنَّ «على مكث» من صفات القارئ، أو من صفاتِ المقروء، وليس من صفات الناسِ ليكونَ بدلاً منهم.

والمكثُ مثلَّث الميم، وقُرئ بالضمِّ والفتح[٢]، ولم يُقرأ بالكسر، وهو لغةٌ قليلة. وزعم ابنُ عطيةَ[٣] إجماعَ القرَّاءِ على الضمّ.

﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ على حسَب الحوادثِ والمصالح، فذِكْرُ هذا بعد قولِه تعالى: «فرقناه..» إلخ مفيد؛ وذلك لأن الأوَّلَ دالٌّ على تدريج نزولِه ليسهلَ حفظُه وفهمُه من غير نظرٍ إلى مقتضٍ لذلك، وهذا أخصُّ منه؛ فإنَّه دالٌّ على تدريجه بحسَب الاقتضاء.

﴿قُلْ﴾ للذين كفروا ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: بالقرآن ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي: به، على معنى أنَّ إيمانَكم به وعدمَ إيمانِكم به سواء؛ لأنَّ إيمانَكم لا يزيده كمالاً، وعدمَ إيمانكم لا يورثه نقصاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: العلماءَ الذين قرؤوا الكتبَ السالفةَ من قبلِ تنزُّلِ القرآن، وعرفوا حقيقةَ الوحي وأماراتِ النبوَّة، وتمكَّنوا من تمييز الحقِّ والباطلِ والمحقِّ والمبطِل، أو: رأوا نعتَك ونعتَ ما أُنزل إليك ﴿إِذَا يُتْلَىٰ﴾ أي: القرآنُ ﴿عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ الخرور: السقوطُ بسرعة، والأَذقان جمع ذَقَن، وهو مجتمع اللَّحيين، ويُطلق على ما ينبت عليه من الشَّعر مجازاً، وكذا يطلق على الوجه تعبيراً بالجزء عن الكلّ، قيل: وهو المراد، ورُوي عن ابن عباس.

فكأنَّه قيل: يسقطون بسرعةٍ على وجوههم ﴿سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ تعظيماً لأمر الله تعالى، أو شكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتبِ من بعثتك.

والظاهرُ أنَّ هنا خروراً وسجوداً على الحقيقة. وقيل: لا شيءَ من ذلك، وإنَّما

---

(١) في البحر ٦/ ٨٨.

(٢) القراءات الشاذة ص ٧٧، والبحر ٦/ ٨٨.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

المقصودُ أنهم ينقادون لِمَا سمعوا، ويخضعون له كمالَ الانقيادِ والخضوع، فأُخرج الكلامُ على سبيل الاستعارةِ التمثيلية.

وفسَّر الخرورَ للأذقان بالسُّقوط على الوجوه الزمخشريُّ[١]، ثم قال: وإنَّما ذكر الذَّقَن؛ لأنَّه أولُ ما يَلقَى الساجدُ به الأرضَ من وجهه.

وقيل: فيه نظر؛ لأنَّ الأولَ هو الجبهةُ والأنف، ثم وجِّه بأنه إذا ابتدأ الخرورُ فأقربُ الأشياءِ من وجهه إلى الأرض هو الذَّقَن، وكأنه أُريد أولُ ما يقرب من اللِّقاء.

وجوِّز أن تبقَى الأذقانُ على حقيقتها، والمرادُ المبالغةُ في الخشوع، وهو تعفيرُ اللِّحَى على التُّراب، أو أنَّه ربما خرُّوا على الذَّقن كالمغشيِّ عليهم لخشية اللهِ تعالى. وقيل: لعل سجودَهم كان هكذا غيرَ ما عرفناه. وهو كما ترى.

وقال صاحبُ «الفرائد»: المرادُ المبالغةُ في التحامل على الجبهةِ والأنف، حتى كأنَّهم يُلصقون الأذقانَ بالأرض. وهو وجهٌ حسن جدّاً.

واللامُ ـ على ما نصَّ عليه الزمخشريُّ[٢] ـ للاختصاص، وذكر أنَّ المعنى: جعلوا أذقانَهم للخُرور واختصُّوها به.

ومعنى هذا الاختصاصِ ـ على ما في «الكشف» ـ أنَّ الخرورَ لا يتعدَّى الأذقانَ إلى غيرها من الأعضاءِ المقابلة، وحقَّق ذلك بما لا مزيدَ عليه.

واعتُرض القولُ بالاختصاص بأنه مخالفٌ لما سبق من قوله: إنَّ الذَّقَن أولُ ما يلقى الساجدُ به الأرض. وأُجيب بما أُجيب.

وتعقَّبه الخفاجيُّ[٣] بأنه مبنيٌّ على أنَّ الاختصاصَ الذي تدلُّ عليه اللامُ بمعنى الحصر، وليس كذلك، وإنَّما هو بمعنى تعلُّقٍ خاصّ، ولو سُلِّم، فمعنى الاختصاصِ بالذَّقن الاختصاصُ بجهته ومحاذيه، وهي جهةُ السفل، ولا شكَّ في

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٧٠.

(٢) في الكشاف ٢/ ٤٧٠.

(٣) في حاشيته ٦/ ٦٩.

اختصاصه به؛ إذ هو لا يكونُ لغيره، فمعنى «يخرون للأذقان»: يقعون على الأَرض، عند التحقيق، والمرادُ تصويرُ تلك الحالة، كما في قوله:

فخرَّ صريعاً لليدين وللفمِ[(١)]

فتأمَّل.

واختار بعضُهم كونَ اللامِ بمعنى «على».

وزعم بعضٌ عودَ ضميرَي «به» و«قبله» على النبيِّ ﷺ، ويأباه السِّباق واللِّحاق. وأَخرج ابنُ المنذرِ وابن جَرير [عن مجاهد] أنَّ ضميرَ «يتلى» لكتابهم[(٢)]. ولا يخفى حالُه.

والظاهر أنَّ الجملةَ الاسميةَ داخلةٌ في حيِّز «قل» وهي تعليلٌ لما يُفهَم من قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ من عدم المبالاة بذلك، أي: إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسنَ إيمانٍ مَن هو خيرٌ منكم. ويجوز أَلَّا تكونَ داخلةً في حيِّز «قل»، بل هي تعليلٌ له على سبيل التسليةِ لرسول اللهِ ﷺ، كأنَّه قيل: تسلَّ بإيمان العلماءِ عن إيمان الجهلة، ولا تكترثْ بإيمانهم وإعراضهم[(٣)].

وقد ذكر كلا الوجهَين «الكشَّاف»[(٤)] قال في «الكشف»: والحاصلُ أن المقصودَ التسلِّي والازدراء، وعدمُ المبالاةِ المفيدُ للتوبيخ والتقريعِ مفرَّع عليه مُدمَج، أو بالعكس. والصيغةُ في الثاني أَظهر، والتعليلُ بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ في الأوَّل.

وقال ابنُ عطية[(٥)]: يتوجَّه في الآية معنًى آخرُ، وهو أنَّ قولَه سبحانه: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ إنمَّا جاء للوعيد، والمعنى: اِفعلوا أيَّ الأمرَين شئتم، فسترون

---

(١) قائله جابر بن حُنَيّ كما في المفضليات ص ٢٠٨، وسلف ١٤/ ٣٩٧.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٠٥-٢٠٦ وما بين حاصرتين منه، وهو في تفسير الطبري ١٥/ ١٢١ عن ابن جريج.

(٣) في الأصل و(م): وأغراضهم، والمثبت من تفسير البيضاوي ٦/ ٦٨، وتفسير أبي السعود ٥/ ٩٩.

(٤) ٢/ ٤٦٩-٤٧٠.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

ما تجاوَزون به، ثم ضرب لهم المثلَ على جهة التقريعِ بمن تقدَّم من أهل الكتاب، أي: إنَّ الناسَ لم يكونوا كما أنتم في الكفر، بل كان الذين أُوتوا التوراةَ والإنجيلَ والزَّبور والكتبَ المنزَّلة إذا يُتلَى عليهم ما أُنزل عليهم خشعوا وآمنوا. اهـ. وهو بعيدٌ جدًّا، ولا يخلو عن ارتكاب مجاز، وربَّما يكون في الكلامِ عليه استخدام.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: في سجودهم، أو مطلقاً: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عن خُلف وعدِه، أو عمَّا يفعل الكفرةُ من التكذيب ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨﴾ إنْ مخفَّفة من المثقَّلة، واسمُها ضميرُ شأن، واللامُ فارقة، أي: إنَّ الشأنَ هذا.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ كرَّر الخرورَ للأذقان لاختلاف السبب، فإنَّ الأوَّل لتعظيم أمرِ الله تعالى، أو الشكرِ لإنجاز الوعد، والثاني لما أثَّر فيهم من مواعظ القرآن.

والجارُّ والمجرورُ إما متعلِّق بما عنده، أو بمحذوفٍ وقع حالاً مما قبلُ أو مما بعد، أي: ساجدين. وجملةُ «يبكون» حالٌ أيضاً، أي: باكين من خشية اللهِ تعالى. ولمَّا كان البكاءُ ناشئاً من الخشية الناشئةِ من التفكُّر الذي يتجدَّد، جيءَ بالجملة الفعليةِ المفيدةِ لِلتجدُّد.

وقد جاءَ في مدح البكاءِ من خشيته تعالى أَخبارٌ كثيرة، فقد أخرج الحكيمُ الترمذيُّ عن النَّضر بن سعيد قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لو أنَّ عبداً بكى في أُمَّة، لأنجَى اللهُ تعالى تلك الأمةَ من النار ببكاءِ ذلك العبد، وما من عمل إلَّا له وزنٌ وثواب، إلَّا الدمعة، فإنَّها تطفئُ بحوراً من النار، وما اغرورقت عينٌ بمائها من خشية اللهِ تعالى إلَّا حرَّم اللهُ تعالى جسدَها على النار، فإنْ فاضت على خدِّه، لم يَرهَق وجهَه قَترٌ ولا ذِلَّة»(١).

وأخرج أيضاً(٢) عن ابن عباسٍ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «عينان لا تمسُّهما النار: عينٌ بكت من خشية اللهِ تعالى، وعينٌ باتت تحرس في سبيل اللهِ تعالى».

---

(١) نوادر الأصول ص١٩٥، والنضر بن سعيد ضعفه ابن قانع، كما أن الحديث معضل، ينظر اللسان ٦/ ١٦٠ وتحرف سعيد في الأصل و(م) إلى: سعد.

(٢) هذا وهم من المصنف رحمه الله تعالى، وإنما أخرجه الترمذي صاحب الجامع (١٦٣٩).

وأخرج هو والنَّسائي ومسلمٌ عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يلج النارَ رجلٌ بكى من خشيةِ اللهِ تعالى حتى يعودَ اللبنُ في الضَّرع، ولا اجتمع على عبدٍ غبارٌ في سبيل اللهِ تعالى ودخانُ جهنَّم»[(١)] زاد النسائيُّ: «في مَنخِريه» ومسلم: «أبداً»[(٢)].

وينبغي أن يكونَ ذلك حالَ العلماء؛ فقد أخرج ابنُ جَريرٍ وابنُ المنذرِ وغيرُهما عن عبد الأعلى التيميِّ أنَّه قال: إنَّ مَن أُوتي من العلم ما لا يُبكيه لَخليقٌ أن قد أُوتي من العلم ما لا ينفعه؛ لأنَّ اللهَ تعالى نعت أهلَ العلمِ فقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾[(٣)].

﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أي: القرآنُ بسماعهم ﴿خُشُوعًا ۩﴾ لِمَا يزيدهم علماً ويقيناً بأمر اللهِ تعالى على ما حصل عندهم من الأدلَّة.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ أخرج ابن جَريرٍ وابنُ مردويه عن ابن عباسٍ قال: صلَّى ﷺ بمكةَ ذاتَ يوم، فدعا اللهَ تعالى فقال في دعائه: «يا الله، يا رحمن» فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ، ينهانا أن ندعوَ إلهين وهو يدعو إلهين، فنزلت[(٤)].

وعن الضحَّاك أنَّه قال: قال أهلُ الكتابِ للرَّسول ﷺ: إنك لَتُقِلُّ ذِكرَ الرحمن، وقد أَكثر اللهُ تعالى في التوراةِ هذا الاسم، فنزلت.

والمرادُ على الأوَّل التسويةُ بين اللفظين بأنَّهما عبارتان عن ذاتٍ واحدٍ وإن اختلف الاعتبار، والتوحيدُ إنَّما هو للذات الذي هو المعبود، وهو يلائم قولَه تعالى فيما بعد: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾.

وعلى الثاني التسويةُ في حُسن الإطلاق والإفضاءِ إلى المقصود، فإنَّ أهل

---

(١) جامع الترمذي (١٦٣٣)، (٢٣١١)، وسنن النسائي ٦/ ١٢، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وليس في صحيح مسلم. وانظر التعليق التالي.

(٢) كذا في الأصل و(م). وهو وهم من المصنف رحمه الله، والصواب: زاد النسائيُّ: «في منخري مسلم أبداً» كما في مشكاة المصابيح (٣٨٢٨).

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٠٦، وهو في تفسير الطبري ١٥/ ١٢٢-١٢٣.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٠٦، وهو في تفسير الطبري ١٥/ ١٢٣.

الكتابِ فهموا أحسنيةَ الرحمنِ لكونه أحبَّ إليه تعالى؛ إذ أَكْثَرَ ذِكرَه في كتابهم، وكأنَّ حكمةَ ذلك أنَّ موسى عليه السلام كان غَضوباً كما دلَّت عليه الآثار، فأكثر له من ذِكر الرحمنِ ليعاملَ أُمَّتَه بمزيد الرَّحمة؛ لأنَّ الأنبياءَ عليهم السلام يتخلَّقون بأخلاق اللهِ تعالى.

قال القاضي البَيضاوي: وهذا أَجوبُ[1]؛ لقوله تبارك اسمُه: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنَّ توصيفَ الأسماءِ بالحسنى يُفهَم منه أنَّ المقولَ لهم ذلك يظنُّون أحسنيةَ اسمٍ من اسمٍ لا التغايرَ.

وقال صاحبُ «الكشف»: الغرضُ على الوجهين التسويةُ بين اللفظين في الحُسن، والاختلافُ إنَّما هو بأن الاستواءَ في الحسن ردٌّ لمن قال: إنك لَتُقِلّ.. إلخ، بأنَّ الإتيانَ بأحد الحسنينِ كاف، أو لمن قال: ينهانا أن ندعوَ إلهينِ وهو يدعو، بأنَّ الاختلافَ بين اللفظين الدالَّين على كماله تعالى لا بين كاملَين، فالأجوبيةُ ممنوعة. انتهى.

وتعقِّب بأنَّ أنسبية التوصيفِ بالحسنى للثاني ظاهرةٌ ممَّا لا تكاد تُنكر.

ووجَّه الطيبيُّ الأجوبيةَ بأن اعتراضَ اليهودِ كان تعييراً للمسلمين على ترجيح أحدِ الاسمين على الآخَر، واعتراضَ المشركين كان تعييراً على الجمع بين اللَّفظين، وقوله تعالى: (أَيًّا مَّا تَدْعُواْ) يطابق الردَّ على اليهود؛ لأنَّ المعنى: أيَّ اسمٍ من الاسمين دعوتموه فهو حسن، وهو لا ينطبقُ على اعتراضِ المشركين.

ثم قال: هذا مسلَّم إذا كان «أو» للتخيير، ويجوز أن تكونَ للإباحة، والانطباقُ حينئذٍ ظاهر؛ فإنَّ المشركين حظروا الجمعَ بين الاسمين، فيكون ردُّهم بإباحة الجمعِ بين الأسماءِ المتكاثرة فضلاً عن الجمع بين الاسمين، على أنَّ الجوابَ بالتخيير في الردِّ على أهل الكتابِ غيرُ مطابق؛ لأنَّهم اعترضوا بالترجيح. وأُجيب بالتسوية؛ لأنَّ «أو» تقتضيها. وكان الجوابُ العتيدُ أن يقال: إنَّما رجَّحنا «الله» على

---

(١) في المطبوع من تفسير البيضاوي: أجود. قال الخفاجي في حاشيته ٦/ ٦٩: أي: أكثر جودة، وفي نسخة أخرى أي: أنسب. وفي النسخ الصحيحة: أجوب. من الجواب بالجيم والباء الموحدة، أي: أشد إجابة، والمعنى: أليق بالجواب لما قالوا.

«الرحمن» في الذِّكر؛ لأنه جامعٌ لجميع صفاتِ الكمال، بخلاف الرحمن. وسيأتي قريباً إن شاءَ اللهُ تعالى تتمَّةُ الكلامِ فيما يتعلَّق بهذا.

ومنع الأَجْوَبية أيضاً الجلبيُّ بأنَّ تقديمَ الخبرِ في قوله تعالى: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يقتضي أجوَبية الأوَّل؛ إذ معناه: هذه الأسماءُ لله تعالى لا لغيرِه كما زعم المشركون، إلَّا أن يقال: «أو» للتخيير، وهو غيرُ مسلَّم، بل يتعيَّن كونُها للإباحة؛ لأنها ـ كما قال الرضيُّ وغيرُه ـ يجوز الجمعُ فيها بين المتعاطفين والاقتصارُ على أحدهما، وفي التخييرِ لا يجوز الجمع، وهو هنا جائز.

ودفع بأن المعنى: لله تعالى أسماءٌ متَّفقة في الحُسن؛ لأنَّها لا تختلف مدلولاتُها بالذات، بخلاف غيرِه سبحانه، فإنَّ أسماءه تختلف، فالقصرُ إذا كان بأن لم يكن التقديمُ لمجرَّد التشويقِ ناظرٌ إلى الوصف لا للأَسماء، وهذا لا يتوقَّف على تسليم التخيير، ثم إنَّه لا مانعَ من إرادته، بل «أيٌّ» تقتضيه؛ لأنَّها لأحد الشيئَين، فإذا قلتَ لأحد: أيَّ الأمرَين تفعل فافعل، لم تأمرْه بفعلهما، بل بفعل أحدِهما، وأما الدَّلالةُ على جواز الجمعِ فمن خارج النظمِ ودلالةِ العقل؛ لأنَّهما إذا لم يتنافيا جاز الجمعُ بينهما، ومن هنا تعلم أنَّه لا حاجةَ إلى حمل التخييرِ في كلام مَن عبَّر به على غير الاصطلاحِ المشهورِ الذي هو اصطلاحُ النُّحاةِ فيه إذا قوبل بالإباحة بأن يقال: مرادُه به التسويةُ بين الاسمين في الدَّلالة على ذاتٍ واحدةٍ، وسواءٌ فيه الإفرادُ والجمع. قال في «التلويح»: وفي التخيير قد يجوز الجمعُ بحكم الإباحة الأَصلية، وهذا يسمَّى التخييرَ على سبيل الإباحة. اهـ.

والظاهرُ أنَّ الحقَّ مع مانعِ الأَجوبية والقائلِ بالإباحة، فتدبَّر.

والدُّعاء ـ على ما اختاره أبو حيَّان(١) وجماعة ـ بمعنى النِّداء، وقال الزمخشريّ: هو بمعنى التسميةِ لا بمعنى النِّداء، وهو يتعدَّى إلى مفعولَين، تقول: دعوتُه زيداً، ثم يُترَك أحدُهما استغناءً عنه، فتقول: دعوت زيداً(٢). والأصلُ ـ على ما قيل ـ أن يتعدَّى إلى الثاني بالباء، لكنه يتَّسع فيحذف الباء، والمفعولُ الآخَر هنا

(١) في البحر ٦/ ٩٠.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٧٠.

محذوف، أي: سمُّوه بهذا الاسمِ أو بهذا الاسم، وكذا يقال في الدُّعاء الثاني، وعلَّل ذلك بأنَّه لو حُمِل على الحقيقةِ المشهورة، يلزم إمَّا الاشتراكُ إنْ تغاير مدلولا الاسمين، أو عطفُ الشيءِ على نفسه بـ «أو» وهو إنَّما يجوز بالواو إن اتَّحدا. وبُحِث فيه بأنَّا نختار الثاني، ولا يلزم ما ذُكر؛ لأنَّه قصدُ اللفظ، كما تقول: نادي النبيَّ ﷺ بمحمد، أو بأحمدَ، مع أنَّ اختلاف مفهومَيهما يكفي لصحَّته. وما رُوي في سبب النزولِ أوَّلاً ينادي ـ على ما قيل ـ على إرادة النِّداء.

وقيل: إنْ كانت الآيةُ ردّاً على المشركين، فهو بمعنى التسمية، وإنْ كانت ردّاً على اليهود، فهو بمعنى النِّداء. وجعل الطِّيبي لذلك تفسيرَ الزمخشريِّ إياه بالتسمية مؤذِناً بميله إلى أنها ردٌّ على المشركين، وفي ذلك تأمُّل.

و«أيًا» اسمُ شرطٍ جازمٌ منصوبٌ بـ «تدعوا» وجازمٌ له، فهو عاملٌ ومعمولٌ من جهتين، والتنوينُ عوضٌ عن المضاف إليه المحذوف، والتقدير: أيَّ هذين الاسمَين، و«ما» حرفٌ مزيدٌ للتأكيد. وقيل: إنها اسمُ شرطٍ مؤكَّدٌ به.

وقرأ طلحةُ بن مصرِّف: «مَن»[1] بدلَ «ما»، وخرِّج على زيادتها على مذهب الكِسائي، أو جعلِها أداةَ شرط. والجمعُ بين أداتي الشرطِ كالجمع بين حرفَي الجرِّ في قوله:

فأصبحنَ لا يسألْنني عن بما به[2]

شاذّ.

وجملةُ «فله الأسماء الحسنى» واقعةٌ موقعَ جوابِ الشرط، وهي في الحقيقة تعليلٌ له، وكأن أصلَ الكلام: أيًا ما تدعوه به فهو حَسَن؛ لأنَّ له سبحانه الأسماءَ الحسنى اللَّاتي منها هذان. وفي العدول عن حقِّ الجوابِ إقامةُ الشيءِ بدليله، وفيه

---

(١) البحر ٦/ ٩٠.

(٢) البحر ٦/ ٩٠ دون نسبة، وعجزه ـ كما في الخزانة ٩/ ٥٢٧ ـ: أَصعَّدَ في عُلْو الهوى أم تصوَّبا. وقال: هذا البيت لم أقف على قائله ولا تتمته، والله أعلم. اهـ. وقال العيني في شرح الشواهد الكبرى ٤/ ١٠٣ (على هامش الخزانة): قاله الأسود بن يعفر من قصيدة أولها .. ثم ذكر أبياتاً.

مبالغةٌ لا تخفَى. وهذا التقديرُ ظاهرٌ على القول الثاني في سبب النزول، ويقدَّر على القول الأوَّل فيه: فمدلولُه واحدٌ، ونحوُه، ولا حاجةَ إلى ذلك، بل يقدَّر على القولَين: فهو حسن، على ما سمعتَ عن صاحب «الكشف».

وقال الطِّيبي - وقد حَمَلَ «أو» على الإباحة وجعل الخطابَ للمشركين -: التقدير: قل سمُّوا ذاتَه المقدَّسة بالله وبالرحمن، فهما سِيَّان في استصواب التسميةِ بهما، فبأيِّهما سمَّيتَه فأنت مصيب، وإن سمَّيتَه بهما جميعاً فأنت أَصوب؛ لأنَّ له الأسماءَ الحسنى، وقد أَمرَنا سبحانه بأن ندعوَه بها في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فجوابُ الشرطِ الأوَّل قولُنا: فأنت مصيب، ودلَّ على الشرط الثاني وجوابِه قولُه تعالى: (فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ) والآيةُ على هذا من فنون الإيجاز الذي هو من حِلية التَّنزيل، وعلى تقدير: فهو حَسَن - حَسَبما سمعتَ أوَّلاً - من باب الإطناب. اهـ. وهو كما ترى.

ونَقَلَ في «البحر»[1] أنَّ منهم مَن وقف على «أيًّا» على معنى: أيَّ اللفظين تدعوه به جاز، ثم استأنفَ فقال: «ما تدعوا فله الأسماءُ الحسنى». وتعقَّبه بأنَّ هذا لا يصحّ؛ لأن «ما» لا يُطلَق على آحادِ ذوي العلم، ولأنَّ الشرطَ يقتضي عموماً ما، وهو لا يصحُّ هنا.

وضميرُ «فله» عائدٌ على المسمَّى، أو المنادَى المفهومِ من الكلام، والقرينةُ عقلية، وهي أن الاسماءَ تكون للمسمَّى وللمنادَى، لا للاسم واللفظِ المنادَى به، وسيأتي إن شاء اللهُ تعالى عن مُحيي الدِّين قدِّس سرُّه غيرُ ذلك في باب الإشارة.

ووصفُ الأسماءِ بالحسنَى لدَلالتها على ما هو جامعٌ لجميع صفاتِ الكمال بحيث لا يشذُّ منها شيءٌ، وما هو من صفات الجلالِ والجمالِ والإكرام.

هذا واعلم أنَّ الظاهرَ مما رُوي عن اليهود أنَّهم لا يُنكرون حُسنَ سائرِ أسمائه تعالى، وإنَّما يزعمون أنَّ الرحمنَ منها أحبُّ أسمائه تعالى إليه وأعظمُها وأشرفُها؛ لكثرة ذِكره تعالى إيَّاه في التوراة.

---

(١) ٦/ ٩٠.

واختلافُ أسمائه عزَّت أسماؤه في الشَّرف والعِظَم ممَّا ذهب إليه المسلمون أيضاً، ويدلُّ عليه تخصيصُه ﷺ بعضَ الأسماءِ بأنه الاسمُ الأعظم، فقد رُوي أن النبيَّ ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول: اللهمَّ إني أسالك بأنِّي أشهد أنَّك أنت اللهُ لا إله إلا أنت، الأحدُ الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُواً أحد، فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لقد سأل اللهَ تعالى باسمه الأعظمِ الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»(١) ورُوي أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «اسمُ اللهِ تعالى الأعظمُ في هاتين الآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وفاتحة آل عِمران ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾»(٢).

ونصَّ حجَّة الإسلام الغزاليُّ في أوائل كتابِه «المقصد الأسنَى»(٣) على أنَّ الله أعظمُ الأسماءِ التسعةِ والتِّسعين؛ لأنَّه دالٌّ على الذات الجامعةِ لصفات الإلهية كلِّها، وسائرُ الأسماءِ لا يدلُّ آحادُها إلَّا على آحاد المعاني، من علمٍ أو قدرةٍ أو فعلٍ أو غيرِه، ولأنه أخصُّ الأسماء؛ إذ لا يطلقه أحدٌ على غيره تعالى، لا حقيقةً ولا مجازاً، وسائرُ الأسماءِ قد يسمَّى به غيرُه عزَّ وجلّ، كالقادر والعليمِ والرحيمِ وغيرها، واسمُه تعالى الرحمنُ لا يسمَّى به غيرُه تعالى أيضاً، فهو من هذا الوجهِ قريبٌ من اسم اللهِ سبحانه وإن كان مشتقّاً من الرَّحمة قطعاً؛ ولذا جمع عزَّ وجلَّ بينهما في قوله سبحانه: (قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ) اهـ.

وقال في أواخره(٤): فإنْ قيل: ما بالُ تسعةٍ وتسعين من أسمائه تعالى اختصَّت بأنَّ مَن أحصاها دخل الجنةَ مع أنَّ الكلَّ أسماءُ اللهِ تعالى؟ فنقول: الأسامي يجوز أن تتفاوتَ فضيلتُها لتفاوت معانيها في الجلالة والشَّرف، فتكون تسعةٌ وتسعون منها تجمع أنواعاً من المعاني المنبئةِ عن الجلال لا يجمع ذلك غيرُها مختصٌّ(٥) بزيادة شرف. انتهى.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٤)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧) من حديث بريدة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥) من حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها.
(٣) ص ٦١.
(٤) ص ١٦٩.
(٥) في المقصد الأسنى: فتختص.

وقال الإمام الرازيُّ في هذه الآية: تخصيصُ هذين الاسمين ـ يعني الله والرحمن ـ بالذِّكر يدلُّ على أنَّهما أشرفُ من سائر الأسماء، وتقديمُ اسمِ الله على اسم الرحمنِ يدلُّ على قولنا: اللهُ أعظمُ الأسماءِ(١). إلى غير ذلك ممَّا ذكره غيرُ واحدٍ من الأَجِلَّة.

والآيةُ إنَّما تصلح بحسَب الظاهرِ ردّاً لما فهمه اليهودُ إذا كان المرادُ منها نفيَ التفاوتِ الذي زعموه، وحينئذٍ يقع التعارضُ بينها وبين ما يدلُّ على التفاوت من الأخبار، وقد يجعل هذا وجهاً لاختيار كونِ سبب النزولِ قولَ المشركين، ولعل أثرَه أَصحّ، وما نقلناه فيما سبق عن العلَّامة الطِّيبي مؤيِّد لمَا قلناه.

واحتجَّ الجبَّائي بالآية على أنَّه تعالى ليس خالقَ الظُّلْم، وإلَّا لصحَّ اشتقاقُ اسم له سبحانه منه، وحينئذٍ يبطل ما دلَّت عليه الآيةُ من كون أسمائه تعالى بأسرها حُسنى.

وأُجيب بمنع الملازمة؛ لأنَّ الظلم ليس صفتَه عزَّ وجلّ، وكونُه خالقاً له لا يصحِّح الاشتقاقَ منه، وإلَّا لصحَّ الاشتقاقُ من الطُّول والقِصَر والسَّواد والبياض؛ لأنَّه تعالى خالقٌ لذلك بالاتِّفاق، نعم لا ينبغي أن يقالَ لله تبارك وتعالى: خالقُ القبيح؛ للزوم الأدبِ معه سبحانه، ويقال: خالقُ كلِّ شيءٍ، وما هو من أسمائه جلَّت أسماؤه الخالق، لا خالقُ كذا، فافهَم، سلك اللهُ تعالى بنا وبك الطريقَ الأقوم.

وهذه الآيةُ ـ على ما قيل ـ من آيات الحفظ، بناءً على ما أَخرج البيهقيُّ في «الدلائل» من طريق نهشلِ بن سعيد، عن الضحَّاك، عن ابن عباس، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَـٰنَۖ﴾ إلى آخر الآية: «هو أمانٌ من السَّرَق» وأنَّ رجلاً من المهاجرين تلاها حين أَخذ مضجعَه، فدخل

---

(١) لم نقف عليه في تفسيره، ولعله في كتابه المسمى: لوامع البينات في تفسير الأسماء والصفات، أشار إليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨].

عليه سارق، فجمعَ ما في البيت وحمله والرجلُ ليس بنائم، حتى انتهى إلى البابِ فوجده مردوداً، فوضع الكارة[١]، وفعل ذلك ثلاثَ مرَّات، فضحك صاحبُ الدارِ ثم قال: إني أَحصنتُ بيتي[٢].

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ أخرج أحمدُ والبخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ والنَّسائي وابن حِبَّان[٣] وغيرُهم عن ابن عباسٍ قال: نزلت ورسولُ اللهِ ﷺ مختفٍ بمكة، فكان إذا صلَّى بأصحابه رفع صوتَه بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون، سبُّوا القرآنَ ومَن أنزله ومَن جاء به، فقال اللهُ تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: «ولا تجهر بصلاتك» أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبُّوا القرآن «ولا تخافت بها» عن أَصحابك، فلا تُسمعهم القرآنَ حتى يأخذوه عنك.

﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ يقول: بين الجهرِ والمخافتة، وظاهرُه أنَّ المرادَ بالصلاة القراءةُ التي هي أحدُ أجزائها مجازاً، ويجوز أن يكونَ الكلامُ على تقديرِ مضاف، أي: بقراءة صلاتِك.

والظاهرُ أنَّ المرادَ بالقراءة ما يعمُّ البسملةَ وغيرَها، وبعضُ الأخبار يفيد ظاهرُه تخصيصَها بالبسملة، فقد أَخرج ابنُ أبي شيبةَ في «المصنَّف» عن سعيدٍ قال: كان النبيُّ ﷺ يرفع صوتَه بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وكان مسيلمةُ قد تسمَّى الرحمن، فكان المشركون إذا سمعوا ذلك من النبيِّ عليه الصلاة والسلام قالوا: قد ذكر مسيلمةَ إلهَ اليمامة، ثم عارضوه بالمُكاءِ والتصديةِ والصفير، فأَنزل اللهُ تعالى هذه الآية[٤]. ولا يخفَى على هذه الروايةِ أشدِّيةُ مناسبةِ الآيةِ لما قبلها.

---

(١) دلائل النبوة ٧/ ١٢١ والضحاك لم يسمع من ابن عباس، ونهشل متروك كما في التقريب.
(٢) هي كلمة فارسية، يراد بها كلُّ ما يحمل على الظهر من الثياب والحطب والكلأ وغير ذلك. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص١٤٠.
(٣) مسند أحمد (١٥٥)، وصحيح البخاري (٤٧٢٢)، وصحيح مسلم (٤٤٦)، وجامع الترمذي (٣١٤٦)، وسنن النسائي ٢/ ١٧٧-١٧٨، وصحيح ابن حبان (٦٥٦٣).
(٤) الخبر بهذا اللفظ فيه نكارة، فإن السورة مكية، وما ذكر عن مسيلمة كان في أواخر حياة النبي ﷺ. وينظر مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٣٤٩ (تحقيق محمد عوامة). وسعيد هو ابن جبير.

وأَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن الرَّبيع قال: كان أبو بكرٍ إذا صلَّى من الليل خفض صوتَه جدّاً، وكان عمرُ إذا صلى من الليل رفع صوتَه جدّاً، فقال عمر: يا أبا بكر، لو رفعتَ من صوتك شيئاً، وقال أبو بكر: يا عمر، لو خفضتَ من صوتك شيئاً، فأتَيا رسولَ اللهِ ﷺ، فأَخبراه بأمرهما، فأنزل اللهُ تعالى الآية، فأرسل عليه الصلاة والسلام إليهما فقال: «يا أبا بكر، اِرفعْ من صوتك شيئاً» وقال لعمر: «اِخفض من صوتك شيئاً».

وفي رواية أنَّه قيل لأبي بكر: لَمَ تصنعُ هذا؟ فقال: أُناجي ربِّي، وقد عرفَ حاجتي، وقيل لعمر: لَمَ تصنع هذا؟ قال: أَطرد الشيطان، وأُوقظ الوَسنان[1].

وأمرُ التجوُّز أو حذفِ المضاف على هذا مِثْلهُ على الأوَّل، وكذا على ما أَخرجه ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباسٍ أنَّ المعنى: لا تجهر بصلاتك كلِّها ولا تخافت بها كلِّها، وابتغِ بين ذلك سبيلاً بالجهر في بعض، كالمغربِ والعشاء، والمخافتةِ في بعض، كما فيما عدا ذلك.

وقيل: الصلاةُ بمعنى الدُّعاء؛ لما أَخرج الشيخان[2] وغيرُهما عن عائشةَ قالت: إنمَّا نزلت هذه الآيةُ ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ في الدُّعاء، وأخرج نحوَه ابنُ أبي شيبةَ[3] عن مجاهد، وروَى ذلك عن ابن عباسٍ أيضاً ابنُ جريرٍ[4] وابنُ المنذر وجماعة، وكانوا يجهرون باللهمَّ ارحمني.

وأَخرَجوا[5] عن عبد اللهِ بن شدَّاد أنَّ أعراباً من بني تميمٍ كانوا إذا سلَّم النبيُّ ﷺ قالوا ـ أي: جهراً ـ: اللهمَّ ارزقنا إبلاً وولداً، فنزلت.

وفي روايةٍ أخرى[6] عن عائشةَ أنَّ الصلاةَ هنا التشهُّد، وكان الأَعراب ـ كما نُقل عن ابن سِيرين ـ يجهرون بتشهُّدهم، فنزلت.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ١٢٣، وهذه الأخبار نقلها المصنف عن الدر المنثور ٤/ ٢٠٦-٢٠٨.
(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٣)، وصحيح مسلم (٤٤٧).
(٣) في المصنف ٢/ ٤٤١.
(٤) في تفسيره ١٥/ ١٢٦، ١٢٨.
(٥) ابن أبي شيبة ٢/ ٤٤١، والطبري ١٥/ ١٣٣.
(٦) عند ابن خزيمة (٧٠٧)، والطبري ١٥/ ١٣٣.

وقيل: الصلاةُ على حقيقتها الشَّرعية، فقد أَخرج ابنُ عساكر عن الحسن أنَّه قال: المعنى: لا تصلِّ الصلاةَ رياءً، ولا تَدَعْها حياء. وروَى نحوَه ابنُ أبي حاتمٍ والطبرانيُّ[1] عن ابن عباسٍ أيضاً. والأكثرون على التفسير المرويِّ عنه أوَّلاً.

والمخافتة: إسرارُ الكلامِ بحيث لا يسمعه المتكلِّم، ومن هنا قال ابنُ مسعود ـ كما أَخرجه عنه ابنُ أبي شيبةَ وابن جَرير[2] ـ: لم يخافتْ مَن أَسمع أذنيه.

وخَفَتَ ـ وهو من بابِ ضرب ـ وخافَتَ بمعنًى، يقال: خَفَتَ يخفِت خَفْتاً وخُفوتاً، وخافَتَ مُخافَتةً، إذا أسرَّ وأخفَى. والتعبيرُ عن الأمر الوسطِ بالسبيل باعتبار أنَّه أمرٌ يتوجَّه إليه المتوجِّهون، ويؤمُّه المقتدون، ويوصِلهم إلى المطلوب، وقد جاء عن عبد اللهِ بن الشِّخِّير وأبي قِلابة: خيرُ الأمورِ أوساطُها.

والآيةُ على ما يقتضيه كلامُ الأكثرين محكَمة. وقيل: منسوخة، بناءً على ما أَخرجه ابنُ مردويه وابنُ أبي حاتم[3] عن ابن عباسٍ من أنَّه ﷺ أُمر بمكةَ بالتوسُّط بألَّا يجهرَ جهراً شديداً ولا يخفِضَ حتى لا يُسمعَ أُذنيه، فلمَّا هاجر إلى المدينة سقط ذلك.

وقيل: هي منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] وهو كما ترى.

ولا يخفَى عليك حكمُ رفعِ الصوتِ بالقراءة فوقَ الحاجة وحكمُ المخافتةِ بالمعنى الذي سمعتَه المسطوران في كتب الفقه، فراجِعْها إنْ لم يكن ذلك على ذُكرٍ منك. وأَخرج ابنُ أبي داودَ في «المصاحف»[4] عن أبي رَزينٍ قال: قرأ عبدُ الله: «ولا تخافِتْ بصوتك ولا تُعالِ به».

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ردٌّ على اليهود والنَّصارى وبني مليح حيث قالوا: عُزيرٌ ابن الله، والمسيحُ ابن اللهِ تعالى، والملائكة بناتُ الله، سبحانه وتعالى

---

(١) في المعجم الكبير (١٣٠٢٩).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٤٤٠، وتفسير الطبري ١٥/ ١٣٧.
(٣) كما في الدر المنثور ٤/ ٢٠٧.
(٤) برقم (١٨٠).

عمَّا يقولون عُلوًّا كبيراً. ونفيُ اتِّخاذ الولدِ ظاهرٌ في نفي التبنِّي، ويُعلَم منه نفيُ أن يكونَ له سبحانه ولدُ الصُّلبِ من باب أَوْلى، وقد نُفي ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ ظاهرُه أنه ردٌّ على الثَّنَوية، وهم المشركون في الرُّبوبية، ويجوز أن يكونَ كنايةً عن نفي الشَّركة في الأُلوهية، فيكون ردّاً على الوثنية.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ناصرٌ ومانعٌ له سبحانه من الذُّل لاعتزازه تعالى بنفسه. ف «مِن» صلةٌ لـ «وليّ»، وضمِّن معنى المنعِ والنصر، أو لم يوالِ تعالى أحداً من أجل مذلَّة، فالولايةُ بمعنى المحبَّةِ على أصلها، و«من» تعليلة. وليس المعنى على الوجهَين نفيَ الذلّ والنصر في الأوَّل والموالاةِ والذلِّ في الثاني، على أسلوب:

لا يـــهـــتـــدى بـــمـــنـــاره[1]

بل المرادُ أنَّه تعالى إذا اتَّخذ عبداً له وليّاً، فذلك محضُ الاصطناعِ في شأن العبد، لا أنَّ هناك حاجة، وكذلك نصرُ اللهِ تعالى كمالٌ للناصر، لا أنَّ ثمةَ حاجةً، أَلا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وإلى هذا ذهب صاحبُ «الكشف» وهو حَسَن، وجعل ذلك على الوجهين الفاضلُ الطِّيبي من ذاك الأسلوب.

وفي الحواشي الشِّهابية[2] في بيان ثاني الوجهَين أنَّ المراد نفيُ أن يكونَ له تعالى مولًى يلتجئُ هو سبحانه إليه، وأما الوليُّ الذي يوصَف به المؤمن، فليس الولايةُ فيه بهذا المعنى، بل بمعنى مَن يتولَّى أمرَه لمحبَّته له، تفضُّلاً منه عزَّ وجلَّ ورحمة، فغايَرَ بين الولايتين، ولعل الحقَّ مع صاحبِ «الكشف».

ومن عجيبِ ما قيل: إنَّ «من الذل» في موضع الصفةِ لـ «وليّ»، و«مِن» فيه للتبعيض، وإنَّ الكلامَ على حذف مضاف، أي: لم يكن له وليٌّ من أهل الذُّل، والمرادُ بهم اليهودُ والنصارى. ولَعمري إنَّه لا ينبغي أن يلتفتَ إليه.

---

(١) قطعة من بيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٦٦، وسلف ١/ ٤٥٧.
(٢) ٦/ ٧٠.

وربَّما يتوهَّم أن المقامَ مقامُ التنزيهِ لا مقامُ الحمد؛ لأنَّه يكون على الفعل الاختياريِّ وبه، وما ذُكر من الصفاتِ العدمية. ويدفع بأنَّه لاقَ وصفُه تعالى بما ذُكر بكلمة التحميد؛ لأنَّه يدلُّ على نفي الإمكانِ المقتضي للاحتياج، وإثباتِ أنَّه تعالى الواجبُ الوجودِ لذاته، الغنيُّ عمَّا سواه، المحتاجُ إليه ما عداه، فهو الجوادُ المعطي لكلِّ قابلٍ ما يستحقّ، فهو تعالى المستحقُّ للحمد دون غيرِه عزَّ وجلّ. وهذا الذي عناه الزمخشريّ(١).

وقال في «الكشف»: لك أن تتخذَ نفيَ هذه الصفاتِ ـ وهي ذرائعُ منعِ المعروف، أما الولدُ فلأنَّه مَبخَلة، وأما الشريكُ فلأنَّه مانعٌ من التصرُّف كيف يشاء، وأما الاحتياجُ إلى مَن يعتزُّ به أو يذبُّ عنه فأظهرُ ـ رديفاً لإثبات أَضدادها على سبيل الكناية، وهو وجهٌ حسن. ولو حُمِل الكلامُ على ظاهره أيضاً لَكان له وجه؛ وذلك لأنَّ قولَ القائل: الحمدُ لله، فيه ما يُنبئ أنَّ الإلهيةَ تقتضي الحمد، فإذا قلت: الحمدُ لله المنزَّهِ عن النقائص، مثلاً، يكون قد قوَّيتَ معنى الإلهيةِ المفهومة من اللفظ، فيكون وصفاً لائقاً مؤيِّداً لاستحقاقه تعالى الحمدَ، من غير نظرٍ إلى مدخلية الوصفِ في الحمدِ بالاستقلال، وهذا بيِّن مكشوف، إلَّا أنَّ الزمخشريَّ حاول أن ينبِّهَ على مكان الفائدةِ الزائدة. اهـ.

وتعقِّب بأنَّ ما ذكره من أنَّ في «الحمدُ لله» ما ينبئُ أنَّ الإلهيةَ تقتضي الحمد، لا يتمُّ على مذهب مانعي الاشتقاقِ في الاسم الكريم. وفيه تأمُّل.

والآيةُ ـ على ما قال العلَّامة الطِّيبي ـ من التقسيمِ الحاصر؛ لأنَّ المانع من إيتاء النِّعم إمَّا فوقَه سبحانه وتعالى، أو دونَه، أو مثلَه عزَّ وجلّ، فبني الكلامُ على الترقِّي، وبُدئ من الأدونِ وخُتم بالأعلى، فنُفي الكلُّ، فمنه وله الكثرةُ والقُلّ، والدِّقُّ والجُلّ، تعالى كبرياؤه، وعظُمت نَعماؤه.

ولدَلالة ما تقدَّم على أنَّه تعالى هو الكاملُ وما عداه ناقصٌ استحقَّ التكبير؛ ولذا عُطف عليه قولُه سبحانه: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ والتكبيرُ أَبلغُ لفظةٍ للعرب في

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٧٠-٤٧١.

معنى التعظيمِ والإجلال، وفي الأمر بذلك بعد ما تقدَّم مؤكَّداً بالمصدر المنكَّر من غير تعيينٍ لما يعظَّم به تعالى إشارةٌ إلى أنه ممَّا لا تَسَعه العبارة، ولا تفي به القوَّة البشرية، وإن بالغ العبدُ في التنزيه والتمجيد، واجتهد في العبادةِ والتحميد، فلم يبقَ إلَّا الوقوفُ بأقدام المذلَّة في حضيض القصور، والاعترافُ بالعجز عن القيام بحقِّه جلَّ وعلا وإنْ طالت القصور.

وروى غيرُ واحدٍ أنَّه ﷺ كان يعلِّم الغلامَ من بني عبد المطَّلب إذا أفصح: «الحمدُ لله» إلى آخر الآيةِ سبعَ مرَّات[١]، وسمَّاها عليه الصلاة والسلام ـ كما أخرج أحمدُ والطبرانيُّ عن معاذ ـ آيةَ العزّ[٢].

وأخرج أبو يعلَى وابنُ السُّني عن أبي هريرةَ قال: خرجتُ أنا ورسولُ اللهِ ﷺ ويدي في يده، فأتَى على رجلٍ رثِّ الهيئة فقال: «أيْ فلان، ما بلغ بك ما أرى» قال: السُّقم والضُّر، قال ﷺ: «ألا أعلِّمك كلماتٍ تُذهب عنك السقمَ والضُّر: توكَّلت على الحيِّ الذي لا يموت، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآيةَ» فأتى عليه رسولُ اللهِ عليه الصلاة والسلام وقد حَسُنت حالتُه فقال: «مَهْيَم» فقال: لم أزل أقول الكلماتِ التي علَّمتني[٣].

وأخرج ابنُ أبي الدُّنيا في كتاب «الفَرَج» والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن إسماعيلَ بنِ أبي فُدَيك[٤] قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما كَرَبني أمرٌ إلَّا مَثَلَ لي جبريلُ عليه السلام فقال: يا محمد، قل: توكَّلت على الحيِّ الذي لا يموت، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إلى آخر الآية».

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١/ ٣٤٨ من طريق عبد الكريم أبي أمية عن عمرو بن شعيب، وأخرجه عبد الرزاق (٧٩٧٦) عن عبد الكريم أبي أمية، وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٢٤) متصلاً من طريق عبد الكريم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

(٢) مسند أحمد (١٥٦٣٤)، والمعجم الكبير ٢٠/ (٤٢٩-٤٣٠) وإسناده ضعيف.

(٣) مسند أبي يعلى (٦٦٧١)، وعمل اليوم والليلة (٥٤٦) قال في مجمع الزوائد ٧/ ٥٢: فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف. اهـ. وقوله: مهيم أي: ما أمركم وشأنكم، وهي كلمة يمانية. النهاية (هيم).

(٤) الفرج بعد الشدة (٦٦)، والأسماء والصفات (٢١٦) قال البيهقي: هكذا جاء منقطعاً. اهـ. وأخرجه الحاكم ١/ ٥٠٩ من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأخرج ابن السُّنِّي والديلميُّ(١) عن فاطمةَ بنتِ رسول اللهِ صلى الله تعالى عليه وعليها وسلم أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال لها: «إذا أخذتِ مضجعَك فقولي: الحمدُ لله الكافي، سبحانَ اللهِ الأعلى، حسْبي اللهُ وكفى، ما شاء اللهُ قضى، سمع اللهُ لمن دعا، ليس من الله ملجأ، ولا وراءَ اللهِ ملتجأ، توكَّلت على ربِّي وربِّكم، ما من دابَّة إلَّا هو آخذٌ بناصيتها، إنَّ ربِّي على صراطٍ مستقيم، (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) إلى: (وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا) ثم قال ﷺ: «ما من مسلمٍ يقرؤها عند منامِه ثم ينام وسْطَ الشياطينِ والهوامِّ فتضرّه».

هذا وما ألطفَ المناسبةَ بين ابتداءِ هذه السورةِ وهذا الختام، وليس ذلك بِدعاً في كلام اللطيفِ العلَّام.

❋ ❋ ❋

ومن باب الإشارةِ في الآيات: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى آخره تنبيهٌ لحبيبه ﷺ عن الوقوع فيما يُخلُّ بحفظ شرائطِ المحبَّة. وفيه إشارةٌ إلى إيصاله إلى مقامِ التمكين.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ الآية، ذُكر أنَّ الصلاةَ على خمسة أقسام: صلاةُ المواصلةِ والمناغاةِ في مقام الخفيّ، وصلاةُ المشاهدةِ في مقام الرُّوح، وصلاةُ المناجاةِ في مقام السِّرّ، وصلاةُ الحضورِ في مقام القلب، وصلاةُ المطاوعةِ والانقيادِ في مقام النفْس. فدلوكُ الشمسِ إشارةٌ إلى زوال شمسِ الوحدةِ عن الاستواء على وجود العبدِ بالفناءِ المحض، فإنَّه لا صلاةَ في حال الاستواء؛ إذ لا وجودَ للعبد حينئذ، ولا شعورَ له بنفْسه، وإنَّما تجب بالزَّوال وحدوثِ ظلِّ وجودِ العبد، سواءٌ عند الاحتجابِ بالخَلق وهو حالةُ الفَرْق قبلَ الجمع، أو عند البقاءِ وهو حالةُ الفرقِ بعد الجمع، وغسقُ الليلِ إشارةٌ إلى غسق ليلِ النفس، وقرآنُ الفجرِ إشارةٌ إلى قرآن فجرِ القلب.

وأدلُّ الصلواتِ وألطفُها صلاةُ المواصلة، وأفضلُها صلاة الشهودِ المشارُ إليها بصلاة العصر، وأخفُّها صلاة السرِّ المشارُ إليها بصلاة المغرب، وأشدُّها تثبيتاً

---

(١) عمل اليوم والليلة (٧٣٥)، والفردوس (٨٦٦٠).

للنفس صلاةُ النفس المشارُ إليها بصلاة العشاء، وأزجرُها للشيطان صلاةُ الحضورِ المشار إليها بالفجر ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: تشهده ملائكةُ الليلِ والنهار. وهذا إشارةٌ إلى نزول صفاتِ القلبِ وأنوارها، وذهابِ صفات النفسِ وزوالِها.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: زيادةً على الفرائض الخمسِ خاصَّةً بك. قيل: لكونه علامةَ مقامِ النفس، فيجب تخصيصُه بزيادةِ الطاعة؛ لزيادة احتياجِ هذا المقامِ إلى الصلاة بالنِّسبة إلى سائر المقامات. وقيل: إنَّما خُصَّ ﷺ بالتهجُّد لأنَّ الليلَ وقتُ خلوةِ المحبِّ بالحبيب، وهو عليه الصلاة والسلام الحبيبُ الأعظم، والخليلُ المكرَّم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وهو مقامُ إلحاق الناقصِ بالكامل، والكاملِ بالأكمل.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ حضرةَ الوحدةِ في عين الجمع ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ إدخالاً مرضيّاً بلا آفةِ زيغِ البصر إلى الالتفاتِ إلى الغير أصلاً ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ إلى فضاء الكثرةِ عند الرجوعِ إلى التفصيل بالوجود الموهوبِ الحقَّاني ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ سالماً من آفة التلوينِ والانحرافِ عن جادَّة الاستقامة ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ حجَّةً ناصرةً بالتثبيت والتمكين.

﴿وَقُلْ﴾ إذا زالت نقطةُ الغَينِ عن العين: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر الوجودُ الثابت، وهو الوجودُ الواجبيّ ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ وهو الوجودُ الإمكاني، ففي الحديث الصحيح[1]: «أصدقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ كلمةُ لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ».

ويقال: الحقُّ العلم، والباطلُ الجهل، والحقُّ ما بدا من الإلهام، والباطلُ هواجسُ النفسِ ووساوسُ الشيطان. وقال فارس: كلُّ ما يحملك على سلوك سبيلِ الحقيقةِ فهو حقّ، وكلُّ ما يَحجبك ويفرِّق عليك وقتَك فهو باطل.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ من أمراض الصفاتِ الذميمة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالغيب، يفيدهم الكمالاتِ والفضائلَ العظيمة. فالأولُ إشارةٌ إلى التخلية، والثاني إلى التحلية.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٤٧)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ويقال: هو شفاءٌ من داء الشكِّ لضعفاء المؤمنين، ومن داء النَّكَرةِ للعارفين، ومن وجع الاشتياقِ للمحبِّين، ومن داء القنوطِ للمريدين والقاصدين، وأنشدوا:

وكُتْبك حولي لا تفارق مضجعي وفيها شفاءٌ للذي أنا كاتمُ

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الباخسين حظوظَهم من الكمال بالميل إلى الشَّهواتِ النفسانية ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ بزيادة ظهور أنفُسهم بصفاتها، من إنكارٍ ونحوه.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ فاحتجب بالنِّعمة عن المنعمِ ولم يشكر ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ لجهله بعظيم قدرةِ اللهِ تعالى ولم يصبر ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ على طريقته التي تشاكل استعدادَه، وكلٌّ إناءٍ بالذي فيه يَرشَح.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من عالَم الإبداع، وهو عالَمُ الذواتِ المقدَّسة عن الشَّكل واللَّون، والجهةِ والأين، فلا يمكن إدراكُ المحجوبين لها ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو علمُ المحسوسات.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بنوره بمقتضى العنايةِ الأزلية ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ دونَ غيره ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ بمنع ذلك النورِ عنه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ يَهدونه أو يحفظونه من قهره عزَّ وجلّ.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ لانجذابهم إلى الجهةِ السُّفلية ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ لأنَّها أحوالٌ تناسب أحوالَهم في الدنيا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ لعلمهم بحقِّيته، ووقوفِهم على ما أُودع فيه من الأسرار ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ لعظمته، أو شوقاً لمنزله وحبّاً للقائه.

قال أبو يعقوبَ السُّوسي: البكاءُ على أنواع: بكاءٌ من الله تعالى، وهو أن يبكيَ خوفاً ممَّا جرى به القلمُ في الفاتحة ويظهرُ في الخاتمة. وبكاءٌ على الله عزَّ وجلّ، وهو أن يبكيَ تحسُّراً على ما يفوته من الحقِّ تعالى. وبكاءٌ لله تبارك وتعالى، وهو أن يبكيَ عند ذِكره سبحانه وذِكرِ وعده ووعيدِه. وبكاءٌ بالله تعالى، وهو أن يبكيَ بلا حظٍّ منه في بكائه.

وقال القاسم: البكاءُ على وجوه: بكاء الجهَّال على ما جهلوا، وبكاءُ العلماء على ما قصَّروا، وبكاءُ الصالحين مخافةَ الفوت، وبكاء الأئمَّة مخافةَ السَّبق، وبكاءُ الفرسان من أرباب القلوبِ للهيبة والخشية، ولا بكاءَ للموحِّدين.

وفي الآية إشارةٌ ما إلى السَّماع، ولا أشرفَ من سماع القرآن، فهو الرَّوح والرَّيحان.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ قيل: دعاءُ اللهِ بالفَناء في الذات، ودعاءُ الرحمنِ بالفناء في الصفة، وصفةُ الرَّحمانية هي أمُّ الصفات، وبها استوى سبحانَه على عرشه، ومن ذلك يُعلم أنَّه ليس المرادُ من الإِيجاد إلَّا رحمةَ الموجودين.

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟﴾ أي: أيًّا ما طلبتَ من هذين المقامَين ﴿فَلَهُ﴾ تعالى في هذين المقامين ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لا لك؛ إذ لستَ هناك بموجود، أمَّا في الفناء في الذاتِ فظاهر، وأمَّا في الفناء في الصفةِ المذكورة، فلأنَّ الرحمنَ لا يصلح اسماً لغير تلك الذَّات، ولا يمكن ثبوتُ تلك الصفةِ لغيرها، ولا يخفَى عليك أنَّ ضميرَ «له» على هذا التأويلِ عائدٌ على ما عاد إليه على التفسير.

وفي «الفتوحات المكِّية»(١) أنَّه تعالى جعل الأسماءَ الحسنى لله كما هي للرَّحمن، غيرَ أنَّ الاسمَ له معنًى وصورة، فيدعَى «الله» بمعنى الاسم، ويُدعَى «الرحمن» بصورته، لأنَّ الرحمن هو المنعوتُ بالنفس، وبالنفس ظهرت الكلماتُ الإلهية في مراتب الخلاءِ الذي ظهر فيه العالَم، فلا ندعوه إلَّا بصورة الاسم، وله صورتان: صورةٌ عندنا من أنفاسنا وتركيبِ حروفنا، وهي التي ندعوه بها، وهي أسماءُ الأسماءِ الإلهية، وهي كالخِلَع عليها، ونحن بصورة هذه الأسماءِ مترجِمون عن الأسماءِ الإلهية، ولها صورٌ من نفس الرحمنِ من كونه قائلاً ومنعوتاً بالكلام، وخلف تلك الصورِ المعاني، التي هي كالأرواح للأسماءِ الإلهية التي يَذكر الحقُّ بها نفسَه وهي من نفس الرَّحمن، فله الأسماءُ الحسنى، وأرواحُ تلك الصورِ هي التي لاسم اللهِ خارجةٌ عن حكم النفسِ لا تُنعَت بالكيفية، وهي لصور الأسماءِ النفسيةِ الرَّحمانية كالمعاني للحروف، ولمَّا علمنا هذا وأُمرنا بأن ندعوَه سبحانه

(١) ٢/ ٣٩٦-٣٩٧.

وخُيِّرنا بين الاسمينِ الجليلين، فإن شئنا دعوناه بصور الأسماءِ النفسيةِ الرحمانية، وهي الهممُ الكونيةُ التي في أرواحنا، وإن شئنا دعوناه بالأسماء التي من أنفاسنا بحكم التَّرجمة، فإذا تلفَّظنا بها أَحضرنا في نفوسنا إمَّا الله، فننظر المعنى، وإما الرَّحمن، فننظر صورةَ الاسمِ الإلهي النفسيِّ الرحماني، كيفما شئنا فعلنا؛ فإنَّ دلالةَ الصورتين منَّا ومن الرَّحمن على المعنى واحد، سواءٌ علمنا ذلك أو لم نعلمه. اهـ.

وهو كلامٌ يعسُر فهمُه إلَّا على مَن شاء اللهُ تعالى، بيدَ أنَّه ليس فيه حملُ الدعاءِ على ما سمعت.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فضلاً عن أن يكونَ له سبحانه ولدٌ بطريق التولُّد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ فلا مدخلَ لغيره تعالى في ملكية شيءٍ على الحقيقة، وما يوجد بسببٍ ليس السببُ إلَّا آلةً له، ولا تملكُ الآلةُ شيئاً، بل لا شيءَ إلَّا وهو صنعُه تعالى على الحقيقة، والسريرُ مثلاً وإنْ أُضيف إلى النجَّار من حيث الصَّنعة، إلَّا أنَّه في الحقيقة آلةٌ كالقَدُوم، ولا يضاف العملُ إلى الآلةِ على الحقيقة. كذا قيل.

وللشيخ قدِّس سرُّه كلامٌ في هذا المقام يُفصح عن بعضِ هذا، ذكره في الباب الثامنِ والتِّسعين بعد المئة[1]، فارجع إليه وتدبَّر. وكذا له كلامٌ في قوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ لكن يُغني عنه ما قدَّمناه.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ قال بعضُهم: تكبيرُه تعالى أن تعلمَ أنَّك لا تُطيق أن تكبِّرَه إلَّا به. وقال ابنُ عطاء: تكبيرُه عزَّ وجل بتعظيم مِنَّته وإحسانِه في القلب بالعلم بالتقصير في الشُّكر، وكيف يُوفي أحدٌ شكرَه تعالى، ونعمُه جلَّ وعلا لا تُحصَى، وآلاؤه لا تُستقصَى.

* * *

هذا وقد تمَّ بفضل اللهِ تعالى تفسيرُ هذه السورةِ الكريمة.

---

(١) من الفتوحات المكية ٢/ ٣٩٠ فما بعد.